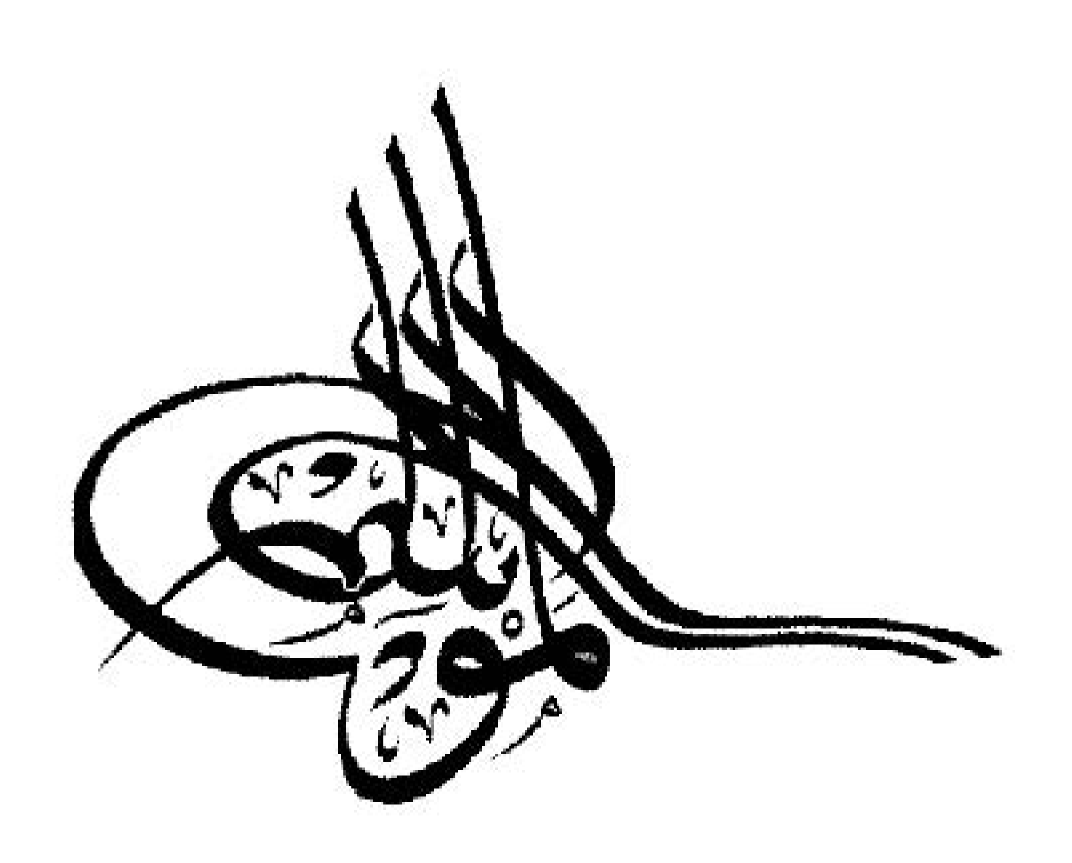

الكتاب التذكاري
الموسم
موسوعة فصلية تعنى بالآثار والتراث تصدر في هولندا
السنة السادسة والعشرون / 2014م - الجزء -105
صاحبها ورئيس تحريرها
محمّد سعيد الطريحي
الشيخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي
الكوفة
Kufa Academy

عبد الجبار الرفاعي

الكتاب التذكاري



المجمع العلمي الفاطمي





مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي





هولندا

المراسلات

KUFAACADEMY P.O.Box: 1113
3260 AC Oud beijerland The Netherlands
e mail: saltouraihi@yahoo.com
www.almawsem.org



الأرض وطني والإنسانية أسرتي (جبران خليل جبران ١٨٨٣ ـ ١٩٣١).

المكتبة الملكية ـ لاهاي ISSN 13842772

الموسم
لصاحبها محمد سعيد الطريحي
خطها
[illegible]

أول الموسم

في تكريم الرفاعي

منذ ما يزيد على ربع قرن بدأت علاقتي مع الأخ الكريم الشيخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي، تعرفنا على بعضنا من خلال (موسوعة الموسم) وكان واسطة العقد ما بيننا أستاذنا المشترك العلامة المحقق الخبير السيد عبد العزيز الطباطبائي الذي كان شخصية استثنائية في توجيه مسيرة جيل من المحققين، كما كان أحد أبرز المشتغلين في إحياء التراث وتتبع المخطوطات النادرة وإعداد المعاجم والفهارس المتخصصة، وهذا الاهتمام هو محور عمل الشيخ الرفاعي آنئذ، وبه برز يومها على الساحة العلمية والأدبية كمعجمي رائد فكتب معجماً عن النبي (ص) وآله (ع) ونشره في اثني عشر مجلداً، كما كتب عشرة مجلدات في مصادر النظام الإسلامي، وهناك موسوعات أخرى أنجزها حول المخطوطات العربية في إيران، وعن الاستشراق، وعن الدولة والسياسة في الإسلام وغيرها من المواضيع.

وكنت ألتقي الرفاعي كلما سنحت لي الفرصة لزيارة إيران، فأزوره في بيته بمدينة قُم حيث مكتبته النفيسة المليئة بنوادر الكتب وفي مختلف العلوم والفنون، ولفت نظري ما احتوته من كتب العرفان والفلسفة لمؤلفين من الشرق والغرب التي تُنبئ عن ولع الرفاعي بهذا اللون من المعرفة التي يبدو أنها قد استبدت به وتمكنت منه آخر الأمر، فترك ما كان قد انشغل به من المحور السالف الذكر، داعياً ومؤسساً لمشروع خطير مؤدّاه فتح باب الاجتهاد في علم الكلام وتحديث التفكير اللاهوتي ليكون وفق متطلبات العصر ورهاناته، رافعاً راية التنوير الديني من خلال اهتماماته في مجال فلسفة الدين ومقاصد الشريعة

والكلام، وهو حريٌّ بالنجاح في مسعاه بعد جمعه المتقن بين أصالة الحوزويين ومنهجية الأكاديميين فوقف على أرضية صلبة من المعرفة التراثية الواسعة التي كانت قوام عمله في المحور الأول، منطلقاً فيما بعد لإنقاذ النزعة الإنسانية في الدين بمؤازرة عقليته الحصيفة وإيمانه العميق المنفتح على العصر فأصدر عشرات الكتب وأسس المجلات ومراكز البحوث التي تهدف إلى بناء مجتمع مدني تعددي يسوده التسامح والمسالمة والتعايش.

وقد تختلف معه أو تتفق في بعض آرائه إلاّ أنك لا تملك إلا احترام توجهاته، فأنت تشعر بصدق نيته وإخلاصه الذي يملي عليه مواقفه وغاية ما رأيناه أنه استطاع بجرأته وصراحته وصدقه أن يبلغ مديات باذخة من النجاح في أعماله الفكرية، كما أراه مصداقاً للشخصية العراقية المناضلة التي تخطت الحدود وكابدت المحن وتجاوزت معاناة المنافي بصبرها وجَلَدها، فقاده الحب الذي تتفجر ينابيعه في مهجته وبين جنبيه للعلم والبشر كافة في أن يكون واحداً ممن يعتز به العراق مثلما نعتز به كأصدقاء لما يحمله للجميع من مشاعر الدفء والوفاء، وهو ما حفّزنا لنشر هذا الكتاب التذكاري ضمن (موسوعة الموسم) ليكون شاهداً على نبوغه واستقامته وتكريماً لتميّزه، إذ تبارى الكتّاب من مختلف الأنحاء والمشارب ليقدموا شهاداتهم عنه في هذا السفر الذي يحمل اسمه الكبير، نقدمه خدمة للعلم والعلماء، ولعل هناك من يدرك أهمية استخلاص التجارب منه، لترفد حياتنا بالحيوية.

وتحية لشيخنا الرفاعي وإلى مزيد من التألق والإبداع.



لاهاي



شذرات مما كتبه الدكتور عبد الجبار الرفاعي عن أصدقائه



عبد الجبار الرفاعي وانبثاق السؤال اللاهوتي الجديد

✍ لجنة إعداد الكتاب التذكاري

هاجر القحطاني، مشتاق الحلو، محمد حسين الرفاعي

يبدأ العقم الثقافي حين تنطفئ الأسئلة في الأذهان وتتنحى عن المجال العام، ويؤسس لانطفاء الأسئلة كثير من العوامل، لعل أبرزها أن تفقد المؤسسات النافذة في أي مجتمع قدرتها على تنظيم الناس دون أدوات القهر والعسف.

وفي ظل العقم الثقافي تنمو أحراش الفساد بكل أنواعه، وتحاصر المجتمعات بالجهل والخوف، وتسحق كرامة الفرد وحريته، ويخسر "الإنسان" قابليته للتحقق الكامل كنوع فذ، لا حدود منظورة لإمكانيات ارتقائه.

لذلك، في بيئة كهذه، فإن من ينتج الأسئلة، ويزرعها، ويحرسها، ويرعاها؛ فرد استثنائي، يقف أمام تيارات عمياء، من الركود والانصياع والتلاشي الحضاري.

بهذه الأسئلة يتخلق فضاء يتنفس فيه أفراد استثنائيون آخرون، يحمون حق الجماعة في أن تبقي على بقية من رئتها، تمتص شيئاً من الهواء الطلق. والجماعة، كأي كائن حي تختنق دون هذا الفضاء.

في بداية التسعينيات من القرن الماضي، في الحوزة العلمية بمدينة قم وسط الصحراء الإيرانية المأهولة، بدأ شاب عراقي في منتصف الثلاثينات من عمره، يدافع عن أسئلته، ويحررها واحدا تلو الآخر، فينسج منها فضاءً جذاباً، سرعان ما انشدّت إليه عقول وأفئدة فتية، زاحمتها أسئلة فتية، وأقلقت سكونها المدجن.

لم يكن راعي الأسئلة فريداً في أسئلته، لكنه كان فريدا في رعايتها ربما، فتلوّن فضاؤه وتعدد وتكاثر. وكأثر طبيعي لأي نمو سليم، تفرعت أغصان لم تكن بالضرورة تكراراً للأصل، بل ربما اختلفت تماماً، وابتعدت نحو الطرف المقابل من ذلك الطيف. وبعد جيل كامل من الشغب على الموات، والاشتباك مع الركود، توزع هؤلاء المتسائلون على أصقاع الأرض من إيران والعراق، مروراً بأوروبا والولايات المتحدة وليس انتهاءً باستراليا.

وفي بيئة كتلك، فإن كل الأسئلة خارج مختبراتها، مدانة عموماً، غير أن بعضها يُطرد وتُلاحق كل تبعاته، تلك هي الأسئلة، التي تشبه أساطير الكيمياء، تحدث تحولات جوهرية

في من تصيبه، فيصير المعدن الرخيص نفيساً ولامعاً. أسئلة الدين والعقيدة والإيمان هي من سنخ تلك الأسئلة.

الأسئلة هنا؛ لاذعة وجذرية، لكنها مراوغة ومتناسلة، تبدأ بالاستفهام وتنتهي به، تأخذك من شيء واحد متوقع إلى أشياء متعددة مدهشة، قد تتناقض ويهدم بعضها بعضاً، وقد تتكامل فيبني بعضها بعضاً، لكنها في كل الأحوال تعيد صياغة نظرتك الكلية، وتتدخل في جزئيات مختبئة تحت معاطف الموروث والثقافي، واحتيال الأذهان على أنفسها.

وحين تدخل هذه الغابة، فأنت بلا شك تغادر صناديق "الأيديولوجي" إلى رحابة "المطلق"، فتبث هذه الصلة الحياة بكلّك. والحياة تحدٍ عظيم لافتراضاتنا الواهية وذعرنا المزمن...

في تلك الغابة، أخذ عبد الجبار الرفاعي بأيدي أصدقائه وتلامذته، معهم تلمّس الطريق إلى تلك الصلة المحررة، خاف تارةً كما خافوا، واطمأن أخرى كما اطمأنوا، سبقهم وسبقوه، لكن عينيه ظلتا دائماً تحرسان تلك المسافة الطويلة بين السؤال والإشراق.

هنا، نصوص عديدة، تروي قصة هذا الراعي في إضاءات ثرية، لأن قصته هي قصة جيل عراقي مختلف، خرجت ظروفه عن السياق التاريخي الساكن، ورُمي في عراء المضطرب والمتحول واللامضمون، تلقفته السرديات الجاهزة؛ كي تفسر له الماضي والحاضر والمستقبل، وتعلبه في قوالب ردود الأفعال القاصرة على تحديات ظروفه، لكن ضيق أفقها سرعان ما انكشف أمام أسئلة صعبة، جاهر برفعها عالياً ذلك الراعي وثلة من رفاقه الشجعان. أسئلة الإنسان المسحوق أمام الخديعة والزيف والطمع وصراع الغلبة.

ولأنها قصة جيل وقصة وعي، فقد سارع شهودها للاستجابة إلى ذكر شهاداتهم عليها، تابعهم بشغف المهجوس بالبحث عن النور، الصديق مشتاق الحلو، الذي أشرف طوال شهور عدة بصبر وجدّ على متابعة إصدار هذا الملف وإعطائه هذه الحلّة الجميلة.

في هذه الشهادات قصص شخصية، وهموم عامة وهواجس معرفية، كتبها رواد فكر، وصحفيون، ومحررون وناشطون وإعلاميون، واكبوا الرحلة في أزمان مختلفة، ومن أماكن متعددة...

ولأن لا مروية بشرية تكتمل بنفسها، فإن هذه الإضاءات على هذه الرحلة الشائقة لا تقدر بثمن، وهي تدور دورة كاملة حول السؤال الأبرز، الذي رعاه الرفاعي طيلة الـ ٢٥ عاماً الماضية في سياقه العربي: سؤال اللاهوت الجديد.

❖ ❖ ❖

دعوة للخلاص من نسيان الإنسان في أدبيـات الجماعـات الإسلامية[1]

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

أن يقدم شخص شهادة عن نفسه فإنها بالضرورة تكون متحيزة، فما من كائن إلاّ وهو عاشق لنفسه، لذلك ينزع كل منا لتنزيه الذات، ويعمل على رسم صورة زاهية مشرقة لها، من أجل أن ترمقه العيون بكثافة، ويُحدث ضجيجاً من حوله يشبع غروره ونرجسيته. أحاول أن أتحدث بشيء من الحياد، ربما المتعذر، وأسعى لأن أكون أشدَّ جرأة في الاعتراف والبوح أمامكم، بالرغم من أني جئتكم من محيط يتغلب فيه التكتم والإضراب عن الاعتراف والكشف عن الحياة والتفكير الشخصي. فقلما كتب شخص في عالمي الذي عشت وتعلمت فيه سيرة ذاتية تبوح باعترافات وأسرار خاصة، أو تتحرر من التبجيل والتمجيد والثناء.

أمضيت أكثر من نصف حياتي في الحوزة العلمية في النجف ثم قم. مكثت فيها منذ ١٩٧٨ حتى اليوم، تلميذاً ثم مدرساً ومؤلفاً. مسيرة حياتي تحركت عبر محطات ثلاث حتى اليوم: القرية، الحركة الإسلامية، الحوزة العلمية. كل واحدة من هذه المحطات أنفقت فيها عدة سنوات، ففي ١٩٥٤/٧/١ ولدت في قرية آل حواس، التي ترتبط إدارياً بقضاء الرفاعي، في محافظة ذي قار من العراق، حسبما يفيد سجل النفوس المدون عام ١٩٥٧، وهو تاريخ لا يمكنني التحقق منه وتوكيده، ذلك إن أهل الريف يومذاك لم يدركوا الكتابة، وكانوا يعيشون المرحلة الشفاهية، وعادة ما يعتمدون على تقويم محلي وعائلي وشخصي، تتحدد السنوات فيه طبقا لما يحدث فيها من فيضانات، أو أمراض وبائية، أو مجاعات، أو نكبات عائلية، أو زراعة وحصاد محاصيل، أو إنتاج حيواني غير طبيعي، أو حوادث شخصية، وفي مثل هذا التقويم يتركز الاهتمام على السنوات ومواسم الزراعة، فيما يتقلص رصد الأشهر فضلاً عن الأيام، إلاّ في حالات استثنائية. والدتي تقول أن سنة ولادتي هي: "موحان الثاني"، وموحان تسمية شائعة لفيضان نهر دجلة، وتبعاً له الغراف المتفرع عن النهر، الذي يسقي سهول الحضارة السومرية. الفيضان الأول وقع عام ١٩٤٨، والثاني ١٩٥٤ كما تشير إلى ذلك تواريخ فيضانات دجلة. أما يوم ولادتي فهو١ يوليو "تموز". اليوم الأول من يوليو "تموز" أشترك

(١) شهادة في حفل تكريم "الحركة الثقافية ـ أنطلياس" بلبنان، ٢٠١٣/٣/٣، للدكتور عبد الجبار الرفاعي. والذي منح فيه درع الحركة الثقافية الذهبي، لمنجزه في فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، وجهوده في تحديث التفكير الديني في الإسلام، وإشاعة ثقافة العيش سوياً في فضاء التنوع والاختلاف.

فيه مع كافة العراقيين من جيلي والأجيال الماضية، ممن يجهل آباؤهم تواريخ ولادتهم، ويبدو إن الجهات المسؤولة عن تنظيم الإحصاء السكاني اقترحت اليوم الأول لمنتصف السنة، كموعد شامل لكافة المواليد المجهولة. وهذا ما حرمني معرفة برجي الخاص، وتفاؤلي أو تشاؤمي، مما يتوقعه قراء الطالع من المنجمين.

منتصف القرن الماضي كان العيش في قريتنا بالغ القسوة، كل شيء في حياتنا بدائي، الإملاق متاعنا، يتكرر طعامنا، الذي يفتقر إلى أي شيء سوى خبز القمح وأحياناً الشعير، تبتكر أمي كزميلاتها من نساء القرية بعض الأكلات في فترات متباعدة، لو توفرت لديها بعض مكوناتها، مثل "الحميض" وهو قليل من الرز الرديء مطبوخ باللبن، المشتقة تسميته من حموضته، يصيبني الغثيان حين أضطر لتناوله، مع عدم توفر أي غذاء سواه، أو "البحت" وهو الرز مطبوخ بالحليب، الذي كنت أترقبه فترات الربيع، حيثما تلد الأغنام والأبقار، فيتوفر الحليب. كذلك في فصل الربيع تضاف إلى طعامنا "التولة" "الخباز" وهي نبات بري مسلوق.

نبدأ يومنا باستيقاظ أمي فجرا، وهي تتلو ترنيمتها اليومية "اللهم صلي على محمد وآل محمد، أصبحنا وأصبح الملك لله، سبحان الله، لا إله إلا الله، الحمد لله رب العالمين..."، كنت منذ طفولتي أغفو بجوارها، وأستفيق على نغم تهليلها وتسبيحها وتمجيدها. استلهمت دروسي الروحية منها، لم تكن كلمات، بل هي ضوء وصور وحقائق، تتحسسها مشاعري، تشع على فؤادي، وتهيمن على وجداني، أحياناً ينتابني شيء من الدهشة، أمام المشهد الذي ترسمه كلماتها. إنها ليست كلمات يابسة متخشبة، وإنما هي شموع تخلع على قلبي انشراحاً وابتسامة.

ظلت التجربة الدينية لأمي منبعاً لا ينضب يستقي منه تديني. هي من غرست المنحى الميتافيزيقي في حياتي، والى نمط تدينها، الفطري العفوي الشفيف، يعود الفضل في رسوخ إيماني وتجذره، ومقاومته لأية مجادلات، أو مناقشات، أو إشكالات، أو قراءات تشكيكية. إيماني مطمئن في فؤادي، في فضاء محصن منيع، بعيد عن شطحات عقلي، ومشاكساته، واستفهاماته اللاهوتية، القلقة والحائرة. فشل عقلي في أن يطيح بإيماني، أو يقوضه، أو يزلزله. مازالت أطياف كلمات أمي حاضرة لحظة استيقاظي، بالرغم من مضي أكثر من خمسين عاماً.

أمضيت طفولتي في القرية، وفي قرية مجاورة أكملت الابتدائية، كنت وأبناء جيلي من الفتيان محظوظين، بتأسيس مدرسة ابتدائية في العام الدراسي ١٩٥٩/١٩٦٠ في قرية تقع على بعد ٥كم، شمال شرق قريتنا، سجّلني أهلي في الصف الأول الابتدائي، مع الدفعة الجديدة، مطلع العام الدراسي الثاني لافتتاح المدرسة. "المتنبي" اسم مدرستي، هذا الاسم

محفور عميق في ذاكرتي، لولا "المتنبي" مكثت راعياً ثم فلاحاً أمياً، وجندياً في حروب صدام المزمنة لاحقاً. "المتنبي" أول اسم للمشاهير أسمع به، بعد أسماء الشخصيات المقدسة للأنبياء والأئمة والأولياء ومراجع الدين، لا سيما السيد أبو الحسن الأصفهاني "المرجع الشيعي الأعلى في النجف، توفي عام ١٩٤٦"، الذي ظل أبي يتحدث عنه حتى آخر يوم من حياته، باعتباره مرجعاً عظيماً "اهتزت الأرض لحظة وفاته"، حسب اعتقاد الناس في قريتنا. ما لبث "المتنبي" يعني لي أكثر من كونه "حكيم الشعراء وشاعر الحكماء". إنه صديق فتوتي، ما زالت لاسمه نكهة وحساسية بالغة في وجداني، فحين يرد اسمه في كتاب، أو يذكره أحد أشعر بقرابة وعلاقة حميمية خاصة تربطني معه، إنها بمثابة علاقتي بأهلي.

"مدرسة المتنبي" نقلتني إلى سياق آخر في الحياة، حين أتاحت لي نافذة صغيرة جداً، لكنها مضيئة، تريني أفقاً أوسع وأشمل وأغنى من أفق مجتمعي الريفي ومفهوماته عن الكون والحياة.

عشت طفولتي وفتوتي في القرية، ثم تنقلت منذ شبابي في مدن وبلدان عديدة، انخرطت في التعليم الحديث، الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعة، وانتقلت إلى الحوزة العلمية في النجف ثم قم. انتميت لحزب الدعوة الإسلامية في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، في ظروف هي الأشرس والأعنف في ملاحقة البعث الصدامي للدعاة، ونهضت بمسؤولية الحزب في مدينة الرفاعي وقتئذ، وابتعدت عن التنظيم في منتصف الثمانينات "١٩٨٥"، بعد أن بدأت أدلجة الدين والتراث تضمحل في وعيي، من دون الدخول في صراع أو انشقاق، وبالتدريج نأيت عن العمل السياسي، وانصرفت للمشاغل الفكرية. أمضيت ٣٥ عاماً في الحوزة العلمية، تلمذت على يد علماء وفقهاء معروفين، وتلمّذ على يدي المئات من طلاب الحوزة العلمية. وبموازاة ذلك واصلت تعليمي الأكاديمي، حتى ناقشت الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية سنة ٢٠٠٥.

امتدت صداقاتي مع مختلف الناس، كان وما زال هاجسي في بناء العلاقة التقارب في المشاعر، واحترام الخصوصية، من دون اشتراط وحدة الرؤية الكونية، أو المعتقد، فالعدالة "بمفهومها الفقهي" ليست شرطاً في صداقاتي، كذلك التدين ليس شرطاً، وربما انجذبت لمن يختلف معي أشد من سواه، ذلك أنه طالما استفز عقلي، وحرضني على التفكير، وإعادة النظر في بداهاتي وجزمياتي ومسلماتي. الكتب التي تغويني وأستمتع بمطالعتها من ذلك النوع الذي يحدث مفرقعات وإنفجارات في ذهني، أشد الكتب إغواء أشد الكتب إثارة. هكذا كنت مع نيتشه الذي قرأته متأخراً، لا سيما كتابه الرؤيوي "هكذا تكلم زرادشت" الذي وصفه ب "إنجيل خامس".

لا يتسع الوقت للتحدث بإسهاب عن تجربتي في الحركة الإسلامية، وهي تجربة بالغة الأهمية أضافت لحياتي الكثير، وأغنتها بنمط آخر من العلاقات الاجتماعية، وتفكير وفهم

مختلف لرسالة الدين ووظيفته في الحياة، لا يتطابق مع مضمون الدين الذي ارتضعته من أمي، وبيئتي الريفية الإيمانية الفطرية البسيطة. انه فهم تعبوي إيديولوجي، يطغى فيه الخطاب النضالي المناهض للظلم والاستبداد السياسي، وصوت العاطفة والمشاعر على الروح. تدربت على العمل السياسي السري، والترويض على الطاعة والانقياد والولاء، والتعاطي مع الأدبيات الحزبية كنصوص جزمية يقينية، لا يمكن التفكير بنقدها فضلاً عن نقضها ورفضها.

الحوزة العلمية هي المحطة الثالثة، أعتز بهذه التجربة التي بدأت عام ١٩٧٨ ومازالت متواصلة، على مدى خمسة وثلاثين عاما. اكتشفت في الحوزة العلمية مسالك التراث ودروبه الوعرة، وتذوقت فيها لذة النصوص الفلسفية والعرفانية وغيرها. نتعلم في الحوزة مفاتيح المعارف التراثية، في مراحل ثلاث هي: المقدمات، السطوح، والبحث الخارج. تستوعب هذه المراحل دراسة النحو والصرف والبلاغة، والفقه والأصول وعلوم الحديث والتفسير، والمنطق، والفلسفة، والعرفان، وعلم الكلام. ندرس كلاسيكيات النصوص، ونتمرن سنوات طويلة على تفسيرها، وتفكيك ألغازها، وضمائرها، ونغور في ما تحيل إليه من مضمرات ومعان حافة يتسع لها فضاؤها الدلالي. وعادة ما نعود إلى الحواشي والتعليقات والشروح، كيما نفهمها.

أغنت الحوزة حياتي بتجارب عميقة مركبة متميزة، في مجتمع لا يشبه عوالمي الأخرى في القرية والعمل الحزبي السري. دراستي في الحوزة أضاءت آفاق رؤيتي للماضي والحاضر والمستقبل. لو لم أمض كل هذه السنوات في سياق تلك التجارب لا يمكن أن أتحرر - إن تحررت بالفعل - من سطوة التراث وسلطته وقيوده، ومقاومته لأي فعل للتغيير.

مشكلة عالمنا إن من يتشبثون بالماضي لم يجوبوا أنفاق التراث ومسالكه الوعرة. رؤيتهم صاغتها أدبيات تبجيلية رومانسية، لا تقول معنى، بقدر ما تنشد شعراً يطرب له الحالمون بعالم متخيل سعيد، و"جيل قرآني فريد".

خلاصي من سطوة التراث ليس بمعنى الخروج على الدين، أو الخروج من الدين، أو التحلل من التدين، والتبجح الزائف بما يجرح الضمير الديني للناس، مثلما يفعل بعض المتنطعين المراهقين. تعلمت من التراث والواقع أن الدين أبدي في الحياة البشرية. الإنسان كائن متدين، وان اختلفت تجليات التدين، وتباينت التعبيرات الدينية في حياته، تبعاً للزمان والمكان والثقافة،وتنوع البشر واختلافهم. الحياة لا تطاق من دون خبرات وتجارب دينية، ذلك إن نزعة التدين كما أعيشها تمثل لدي ظمأً انطولوجياً لا يُروى، إلاّ من خلال التواصل مع المطلق.

الإيمان، الأخلاق، والنزعة الإنسانية ثوابت محورية في شخصيتي. تفكيري بل كل شيء يخضع للتحول والتغيير في حياتي، ذلك أن عقلي لا يكف عن التساؤل والمراجعة، لكن ضميري الديني يتمثل في هذه العناصر الثلاثة المتضامنة، انطفاء أيّ منها يعني انطفاءها بتمامها. في حياتي لا إيمان بلا أخلاق، ولا أخلاق بلا إنسانية. لا أزعم أن لا إنسانية وأخلاق

خارج إطار الإيمان، فقد عشت مع أخلاقيين وإنسانيين مثاليين، خارج إطار الأديان، لكن في شخصيتي: الإيمان، الأخلاق، والإنسانية كل مترابط، الأخلاق والإنسانية في حياتي هما الإيمان، والإيمان كذلك هو الأخلاق والإنسانية.

كلما اتسعت خبرتي بالنصوص أشرق إيماني، وتنامى حسي الأخلاقي، وتعمقت نزعتي الإنسانية. وبالرغم من احترامي لكافة أصحاب التجارب الدينية، غير أني لا أتذوق حلاوة الإيمان، ولا تضيء التجربة الدينية روحي، من دون التمسك بتقليد طقوسي مستمد من الشريعة. الصلاة والطقوس التي أؤديها هي معراج وصالي مع الحق، وهي جسر عبوري إليه في مدارج التسامي والصعود. وحسب تعبير المتصوفة والعرفاء: الشريعة توصلنا إلى الطريقة، والطريقة تقودنا إلى الحقيقة، فحين نتخلى عن الشريعة لا ننال الطريقة، وبالتالي لا نتذوق الحقيقة.

الدين الذي أعتنقه هو الإسلام الرحماني الإنساني، الدين فيه هو الحب والحب هو الدين. "المحبة أصل الموجودات"[(١)] كما يقول ابن عربي. ويكتب أبو العلا عفيفي شارحا مفهوم المحبة لدى صاحب الفصوص: "الحب موجود على الدوام متبادل بين الحق والخلق. والشوق والحنين واللقاء موجود على الدوام أيضاً، لأن الحق دائم الظهور في صور الخلق، يدفعه إلى ذلك الحب الكامن فيه نحو ذلك الظهور. والخلق دائم الفناء، يدفعه إلى ذلك الحب الكامن فيه نحو التحلل من الصور والرجوع إلى الأصل"[(٢)].

عقيدتي أن الشفقة والعطف على الناس تتقدم على الغيرة على الله، يكتب محيي الدين: "أعلم إن الشفقة على عباد الله أحق بالرعاية من الغيرة على الله. أراد داود بنيان بيت المقدس فبناه مراراً، فكلما فرغ منه تهدم، فشكا إلى الله، فأوحى الله إليه: إن بيتي هذا لا يقوم على يدي من سفك الدماء، فقال داود: يا رب، ألم يكن ذلك في سبيلك؟ فقال: بلى، ولكنهم أليسوا عبادي؟ والغرض من هذه الحكاية مراعاة النشأة الإنسانية، وإن إقامتها أولى من هدمها"[(٣)].

يتساءل بعض الزملاء: كيف تسنى لك المحافظة على تدينك، وتنمية إيمانك على الدوام، مع انك تطرح أسئلة لاهوتية مشاكسة، وتمارس نمطا من التفكير الديني الحر، العابر للطوائف والتعصبات المذهبية؟

مسار القلب لديّ لا يتطابق مع مسار العقل، أي إن وجهته بموازاة العقل، إن كان للعقل وجهة أو مسار. قلق عقلي واستفهاماته المتواصلة لم يزعزع إيماني، أو يطيح بتديني، أو يهزم أخلاقي، ويبدد نزعتي الإنسانية. إيماني حقيقة أنطولوجية لا أستطيع الإطاحة بها، حتى

---

(١) فصوص الحكم ١: ٢١٤.

(٢) فصوص الحكم ٢: ٣٢٧.

(٣) فصوص الحكم، الفص ١٨ فص الحكمة النفسية في الكلمات اليونسية. ص١٦٧.

لو قررت التخلي عنها. إنها نحو من الإشراق الروحي الذي لا يمكنني توصيفه بوضوح، لأنه مما يوجد، لا مما يُدرك، وكما نصطلح في المنطق هو نوع من الحضور الوجودي الذي يتوطن القلب، وليس نوعا من العلم والتصور والفهم المرتسم في الذهن. إنه نمط من المحبة أو العشق الذي يغرق فيه قلبي. هل يستطيع العاشق توصيف حالته بدقة لنا؟ وهل بوسعه التخلص من الوجد والهيام، لو قدّم له عقله عشرات الحجج على خطأ عشقه وعيوب معشوقه؟ وحسب كيرك كَورد فأن الإيمان لا يفوق العقل فقط بل يختلف عنه، لأنه "حقيقة أنفسية" وليست آفاقية. لو كان الإيمان أمراً عقلياً يتصدع وينهار بالتساؤلات الحائرة، والأفكار القلقة. الإيمان كما أعيشه جذوة مشتعلة لا تنطفئ، بصيرة باطنية، نور يضيء روحي. هو حقيقة باطنية لا تشع إلاّ في القلوب التي تسكنها. من يفتقدها لا يكتشف إشعاعها.

تتلخص اهتماماتي في هذه المرحلة من حياتي بـ"إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، لكن قد يقال: وهل هناك "إنسانية في الدين" كيما ينبغي أن نبادر إلى "إنقاذها"؟ ولعل من يضيف إلى ذلك فيقول: إن وظيفتنا هي إنقاذ الإنسانية "من" الدين، وليست إنقاذ الإنسانية المزعومة "في" الدين؟

مهمتي تتمحور حول التدليل على: أن الدين ظل على الدوام أحد أهم منابع إلهام قيم المحبة والتراحم والتعاطف والشفقة واحترام كرامة الكائن البشري. مع أني أعترف بما تنوء به مجتمعاتنا من خطابات عاصفة، ومفاهيم مشوهة، تثير التعصبات والكراهيات والدعوة لقتل الآخر والنزاعات المسلحة، وما يستتبعها من انقسامات وحروب مزمنة، تغذّيها على الدوام الجماعات الدينية السلفية. وإن هناك نماذج متنوعة لذلك، مما تبثُّه الفضائيات والمواقع والصحف الإلكترونية والمنابر، وأدبيات السلفية الجهادية وغيرها من تلك الجماعات، وعدوانها الواسع على السلم الأهلي، ودعواتها التحريضية لتفتيت مجتمعاتنا.

لا أريد التغاضي عن ذلك، ولا التقليل من أهميته، ولا الدعوة إلى تجاهله. بل إنني احتج على كل هذا الواقع المأساوي للدين، وانقد كل هذا الزيف المهول الذي يوضع من قبل أطياف من الإسلاميين على اسمه.

لا يمكن تجاهل أثر تلك الخطابات في تلويث المجال الاجتماعي العام، وتهشيم مرتكزات العيش المشترك في مجتمعاتنا، مثلما لا يصح إنكار الحضور الكثيف والفاعل والمؤثر لها، ودورها في تفشي أنماط همجية متوحشة من العنف الديني. وقد تكرس أثر هذه الجماعات، وأتيحت لها فرصة تاريخية هامة في الاستيلاء على المجال العام، بعد هيمنة الإسلام السياسي على السلطة، الذي انتهت إليه ثورات الربيع العربي في بعض البلدان، واحتكارهم لتمثيل المجتمعات، واختزالهم التنوع الإثني والديني والمذهبي بأيديولوجياتهم الخاصة، وتوظيفهم الديمقراطية والانتخابات كسلّم يستخدم لمرة واحدة، حتى إذا تحقق

الغرض منه طرح جانباً! من دون وعي لفلسفة الديمقراطية، ومضمونها الحقيقي من الحريات والحقوق والتداول السلمي للسلطة. مضافاً إلى تفجر الطائفية، وكافة التعصبات الموروثة بصورة لم يسبق لها مثيل في شرق المتوسط، بنحو أضحى الاحتماء بأمراء الطوائف الوسيلة الوحيدة في بعض البلدان لضمان الحياة، في مجتمعات تقوضت فيها واضمحلت معظم بنى الدولة الحديثة.

في مثل هذه المناخات يبدو الحديث عن "النزعة الإنسانية في الدين"، كمن يحكي لنا عن ماض مضى ولن يستعاد، أو من يحلم بعالم رومانسي مثالي، لا صلة له بمجتمعاتنا اليوم.

لا أدافع عن فشل الإسلاميين في إدارة السلطة، كما لا أتجاهل ما يبدو من حقيقة أن السلطة قد تكون مقبرتهم، بسبب عجزهم وقصورهم في إدراك الجذور العميقة للدولة الحديثة، وافتقار الكثير من المسؤولين، إلى أي تكوين أكاديمي أو معرفي أو فكري، يؤهلهم لإعداد نظم وبرامج وخطط اقتصادية وإدارية وتربوية وعلمية وثقافية معاصرة، فضلاً عن عدم توفرهم على تدريبٍ وخبرة عملية في إدارة الدولة وبناء مؤسسات السلطة. إنهم يفكرون في مرحلة ما قبل الدولة، لذلك يحرصون على استدعاء القبيلة وقيمها وتشكيلاتها العتيقة، ويغرقون في كهوف الماضي، ويفرطون في استهلاك التاريخ، وكأنهم لا يعيشون في عالمنا إلا بأبدانهم، في حين تلبث عقولهم وأرواحهم مع الموتى.

دعوتي إلى "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، تعنى بناء فهم آخر للدين، وتأويل مختلف للنصوص الدينية، عبر قراءة شاملة لهذه النصوص، تستلهم نظامها الرمزي، وما تختزنه من معان ومداليل، لا تبوح بها إلاّ من خلال عبور المنظومة المغلقة للفهم التقليدي لها، وتوظيف منهجيات ومفاهيم وأدوات ومعطيات المعرفة البشرية والعلوم الإنسانية الراهنة، لتفسيرها في ضوء متطلبات العصر ورهاناته. انه تفسير لا يختزل الدين في المدونة الفقهية فقط، ولا يقوم بترحيله من حقله المعنوي القيمي الأخلاقي إلى حقل آخر، يتغلب فيه القانون على الروح، ويصبح الدين أيديولوجية سياسية صراعية، إيديولوجيا تهدر طاقاته الرمزية والجمالية والروحية والمعنوية.

يسعى هذا التفسير إلى اكتشاف وظيفة الدين الأصلية في إنتاج معنى لحياة الإنسان. وهي وظيفة عجزت معظم الجماعات الإسلامية اليوم عن إدراكها، وأغرقت أنفسها والمجتمعات في نزاعات ومعارك يتجلى فيها كل شيء، سوى الأخلاق وقيم التراحم والمحبة في الدين.

أعني بـ"الإنسانية في الدين": الخلاص والتحرر من "نسيان الإنسان" في أدبيات الجماعات الإسلامية، والاعتراف ببشريته ومكانته في الأرض، وتصحيح نمط علاقته بربه، وتحويلها من صراع مسكون بالخوف والرعب والقلق، إلى علاقة تتكلم لغة المحبة، وتبتهج بالوصال مع معشوق جميل.

أعني بـ"الإنسانية في الدين": عدم التنكيل بالجسد، والتضحية بمتطلباته الضرورية وحاجاته الغريزية، لحساب الأيديولوجيا، والفهم المبسط للتربية الروحية، الذي يفضي إلى تجاهل طبيعة جسد الإنسان وقمعه وتعذيبه، بمحاربة الغرائز والعمل على اجتثاثها.

أعني بـ"الإنسانية في الدين": الدعوة للسلام واحترام كرامة الكائن البشري، وإشاعة السلام بين المجتمعات البشرية، عبر دراسة الأديان ومقارنتها، والغوص في أعماقها لاكتشاف جوهرها المشترك، ومنابع السلام الكامنة في نصوصها وتراثاتها الدينية. والحوار بين الخبراء والمختصين فيها، خارج إطار المجاملات وعبارات التبجيل والعلاقات العامة. إذ "لا سلام بين الشعوب ما لم يكن هناك سلام بين الأديان. ليس هناك سلام بين الأديان بدون حوار بينها. ولن يكون هناك حوار بينها بدون وجود نظام أخلاقي كوني، ولن يستمر الكون بدون نظام أخلاقي كوني يدعمه المتدينون وغير المتدينين على حد سواء". حسب تعبير اللاهوتي الألماني هانز كونغ.

أعني بـ"الإنسانية في الدين": استلهام الميراث المعنوي العميق، واستدعاء التجارب الروحية التطهيرية التنزيهية السامية في التاريخ، وبناء إلهيات عقلانية مستنيرة، تحررنا من التفسيرات التعسفية القمعية للنصوص. وتحديث الإلهيات يتطلب الخروج من السياقات الكلاسيكية للتفكير الديني، وعدم التوقف عن طرح تساؤلات بديلة، والتوكؤ على منهجيات ومفاهيم، مستوحاة من المكاسب الجديدة لفلسفة الدين وعلوم التأويل وفتوحات المعارف البشرية، تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب، والسعي لترسيخ صورة رحمانية للإله، تستلهم ما يتحلى به من صفاته الجمالية، وأسمائه الحسنى، ورحمته التي وسعت كل شيء. فـ"لن ينقذنا إلاّ إله". حسب تعبير هايدغر.

أعني بـ"الإنسانية في الدين": إنجاز مصالحة بين المتدين ومحيطه والعصر الذي يعيش فيه، والإصغاء لإيقاع الحياة المتسارعة التغيير، ووتيرة العلوم والتكنولوجيا التي لا تكف عن مفاجأتنا كل يوم بجديد، تتبدل معه صورة العالم، وتختلف تبعاً لها أساليب تعاطينا مع الواقع، وتتيح لنا وسائل تكنولوجيا المعلومات والنانو والهندسة الجينية مغامرات وعي، توقظ عقولنا وتخرجها من الحالة السكونية، وتقدم لنا سلسلة معطيات ومعارف وأدوات، تصوغ لنا تصورات وإدراكات وأفكاراً، تتبدل معها رؤيتنا للكون والحياة.

لا تعد دعوتي لـ" إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" بأجوبة، وإنما يهمني طرح الأسئلة، وأحرص على تنمية روح التفكير النقدي، الذي يفضي بدوره، وبنحو متواصل، للتساؤل المستمر، وتدريب التفكير على عدم الكف عن التحري وفحص المسلمات. ولا يتجاوز ذلك إلا بمقترحات وافتراضات وآراء، يعرضها للنقاش والحوار والتفكير. إنه محاولة للتفكير خارج الأسيجة التقليدية، ودعوة لمغادرة القطعيات واليقينيات والجزميات، وتكرار المكررات وشروح الشروح التي شوهت التفكير الديني وكبلته. ❖

مشروع عبد الجبار الرفاعي؛ التفسير الثالث للدين رواية الجيل الثاني

✍ د. مشتاق الحلو[١]

أتهيب الكتابة عن عبد الجبار الرفاعي؛ لأني أؤمن بأن التأريخ له تأريخ لمرحلة وحقبة وتجربة ومسيرة... مرحلة طالما تمنيت أن أكتب عنها بإسهاب، وأبين كل تفاصيلها التي شهدتها وعشتها، فأخشى أن اظلمها، أو أجانب الحقيقة في تقييم مستعجل لها.

والآن، بمناسبة تسجيل شهادتي عن الرفاعي لا أرى مفراً من الانطلاق منها، والتحدث قليلاً عنها، على أمل أن أعود لها ثانية بشكل أكثر تفصيلاً وتحليلاً.

كما أؤمن بأن الاحتفاء بالرفاعي، والاهتمام به، هو اهتمام بمشروع وفكر وتفسير للدين، وعمل على تحرير مجتمعاتنا من "ثقافة هجاء الحياة وتمجيد الموت"، وهو واجب بالنسبة لي يحتّمه الضمير.

قد يلاحظ القارئ أن الحديث في البداية يتمحور حولي /الشاهد، لا حوله/ المشهود له. فللأمر أسباب قد يكون من أهمها: إني حينما أكون عند الرفاعي أحسّ بأني كبير ومحترم، لهذا حينما أتكلم عنه أيضاً ينشط عندي الإحساس نفسه.

محطات في اكتشاف الرفاعي

المحطة الأولى: ١٩٨٤ ـ ١٩٩١

في نهاية العقد الأول من عمري جرت أحداث مؤسفة في الكويت، وعلى أثرها هجّر أو هاجر اغلب العراقيين الذين اتخذوا من الكويت مأوى لهم. وكنا في قم في استقبال حصتنا من الشتات العراقي الذي كان يتقاذفه القدر في البراري.

كان الرفاعي أحد العراقيين الذين هاجروا من الكويت إلى إيران، اثر هذه الأحداث. في الأيام الأولى لدخول الرفاعي مدينة قم تعرفت عليه، بوصفه صديقاً لبعض الأقرباء، ثم صديقاً لوالدي، فكنت أراه في بعض الولائم والاجتماعات العامة.

كنت أسمع والدي يتكلم عنه فيقول: انه أستاذ حوزوي مثقف، لكنهم يضطهدونه، لأنه عراقي، ومن أصول عربية.

(١) دكتوراه شريعة، ماجستير شريعة، وماجستير علوم سياسية. صديق الرفاعي وتلميذه.

كان هذا الكلام غريباً بالنسبة لي؛ إن كان أستاذاً حوزوياً، فلماذا هو حليق اللحية "مقارنة بمن أراهم حولي"، ويرتدي البدلة الغربية، التي لم تكن مرحباً بها في تلك الحقبة بالذات؟!

أما ثقافته فكنت امتلك شاهداً عليها، وهو أني كنت أسمعه يتكلم في الاجتماعات العامة بلهجة مختلفة عن الآخرين، بعربية قريبة من الفصحى، لكن تشوبها لهجة عراقية، لا يمكن تمييز – على الأقل بالنسبة لي آنذاك – المدينة التي ينتسب إليها. غير أن ما هو واضح تماماً انه عراقي بامتياز.

كنت أتساءل حين أراه: ماذا يريد أن يقول بحلق لحيته؟ لماذا يتجاهر بخرق الشريعة؟ ولكن في الوقت نفسه كنت أكبر فيه هذه الشجاعة، وهذا الصدق، كونه لا يتظاهر بمظهر لا يحبه، في بيئة ما كان أي إنسان من وسطنا العراقي آنذاك يجرؤ على حلق لحيته فيها.

هذه الشخصية للرفاعي امتزجت في ذهني بشخصية ثانية؛ وهي أنه من الكوادر المتقدمة في حزب الدعوة. وإن كان لأهلي ووالدي انتماءات سابقة لهذا الحزب، إذ أعدم عمي على يد النظام الصدامي بجريمة انتمائه للدعوة، إلا أني كنت أمتلئ كراهية للمعارضة مع الوقت والنضج... معارضة صدام بكل فصائلها. المعارضة التي كنت أرى رموزها أناساً متكبرين علينا، مستبدين معنا، مستأثرين بخيراتنا، متاجرين بدموعنا ودمائنا، جهلاء بالعلم والمعرفة إلى درجة يصعب تصورها...

وبمرور الأيام حاولت جاهداً أن أفصل نفسي، مهما استطعت، عن كل من ينتمي للمعارضة، حتى أصبحت أتمنى أن لا يعرف أحد منهم أني عراقي؛ لأني لا أحب الانتساب لهم. وكبديل عن هذا الفضاء ارمي بنفسي في الفضاءات الإيرانية، وأبدأ حرباً مستميتة لإثبات ذاتي وفرض نفسي عليهم. كان أكثر ما يستفزني من قبل الإيرانيين سؤالهم عن الجماعة التي أنتمي إليها من المعارضة. فأجيب بانفعال لا يفهم الإيراني سببه: أنا عراقي، لكني لا أنتمي إلى المعارضة.

المحطة الثانية: ١٩٩١ – ٢٠٠٢

انتهت الحرب العراقية الإيرانية، وبالنسبة لي بدأت مرحلة فقدان الأمل بالخلاص من دكتاتور العراق. وإذا به يقتحم الكويت، فبعث أمل فينا بأن أميركا سوف تخلصنا منه. وجاءت الانتفاضة الشعبانية نذر خير بأن الشعب العراقي بنفسه سوف يطهّر العراق من دنس الدكتاتورية. فهرعت للمشاركة في الانتفاضة، وتركت امتحانات الثلث الثاني من العام الدراسي "حسب النظام الدراسي الإيراني"، وما كانت إلا أيام وانجلت الغبرة وبانت الخيبة.

فعدت أدراجي مثقلاً بالحزن، فاقداً للأمل، وبدأت كراهية ـ ما تسمى ـ معارضة صدام تتصاعد عندي، حتى وصلت إلى الحقد والازدراء الذي لا يمكن وصفه. لأني توصلت إلى قناعة بأن سبب فشل الانتفاضة، ودمار البلد، وإبادة الشعب هو أداء المعارضة. وبشكل تدريجي صرت أؤمن بأن جميع فصائل المعارضة لا يريدون سقوط دكتاتور بغداد قبل تصفية فرقائهم، أي يجب أن يبقى هو البديل الوحيد لصدام، ثم ينتقل لمرحلة التفكير بالتخلص منه.

عدت لإكمال الإعدادية، لكنني حزين على بلدي وشعبي وقد يكون حزني في الحقيقة على نفسي ومستقبلي وكرامتي المهدورة في المنفى الاختياري الذي اختارته الأسرة لي. والنفق المظلم الذي أسرنا فيه.

عشت طفولة من دون طفولة، ومراهقة من دون مراهقة، في بلد وبين أناس لا أنتمي لهم ولا ينتمون لي، بلا ذكريات ولا حلم ولا أمل.

ثم قررت أن أدخل الحوزة. ولا أعلم لم اتخذت هذا القرار. قد يكون السبب أن نموذج القائد المنقذ الذي كان يحضر في ذهني آنذاك، تجسد في السيد الخميني والسيد محمد باقر الصدر، وهما رجلا دين.

كنت أدرس ثانوية في الفرع العلمي، وأهتم بدروس الحوزة مساء، مستعيناً بالأشرطة. فسمعت عدداً من الأساتذة، واستقرّ رأيي في نهاية المطاف على اختيار دروس الرفاعي. أشرطة ضبط الصوت التي سجّل بعضها والدي، حين تتلمذ على الرفاعي، فطلب منه وحفّزه على تسجيلها، وما زلت أذكر عبارة الرفاعي الوجلة ـ في حينها ـ: "كيف توضع أشرطتي إلى جانب أشرطة أساتذتي؟" انسجمت مع اللغة والأسلوب، ومستوى الشرح المعتدل، لا المسهب، ولا المطنب.

وإن كان الرفاعي جزءاً من "معارضة صدام"، لكن التربية التي تلقيتها من بيئتي الإيرانية، علمتني أن أتجاوز هذا الحب والكره، واجعل الهدف نصب عيني. فاستمعت لأشرطة كتاب "المنطق" لمحمد رضا المظفر، ثم الحلقة الأولى من "دروس في علم الأصول" لمحمد باقر الصدر، وكتبت كل شاردة وواردة ذكرها الرفاعي، وما زلت احتفظ بها إلى يومي هذا.

في المرحلة التالية، دخلت الحوزة للدراسة المباشرة. لكن رفضي لـ"معارضة صدام" حال دون دخولي الحوزة العراقية، لأن الحوزة العراقية مجموعة مدارس، كل واحدة منها تابعة، أما لشيخ فلان أو سيد فلان، وجميعهم من أقطاب "معارضة صدام".

سألني في حينها أحدهم: كأنك تكره المعارضة أكثر من صدام؟ قلت: نعم! صدام أهانك، لكن معارضته أهانتني.

وإن كنت أزدري رؤوس المعارضة، لكني كنت أتابع جميع خلجاتهم لسببين: كنت أفكر أن أثبّته للتاريخ، وأحاول أن أستفيد من كل ما يصدر عنهم، للتعرف على بلدي، واكتشاف ثقافتي العربية، كي أتسلح بها مقابل الآخر الذي يحتقرني، ولم أر أمامي نافذة مطلّة على العراق سوى هؤلاء؛ لأنه لم يتوفر بديل. لم أكن اسمع يومها بكائن اسمه النت أو الفضائيات، وكنا نعاني شحّة المصادر العربية، والمعاصرة منها خاصة. لهذا كنت أحاول رصد كل ما يصدر عن الجالية العراقية، كي اقوي لغتي العربية بها. أنا الذي أمضيت كل حياتي في البيئة الفارسية.

لكن الرفاعي كان غائباً بالنسبة لي في هذه السنوات، فهو لا يرتاد الحسينيات العراقية، ولا يلقي الخطب الرنانة فيها.

حتى دخلت كلية العلوم السياسية عام ١٩٩٥. وحين بدأت بكتابة البحوث، عثرت على كتاب "مصادر الدراسة عن الدولة والسياسة في الإسلام"، ١٩٨٦. ثم "معجم ما كُتب عن الرسول وأهل البيت"، وهو موسوعة تقع في اثني عشر مجلداً، ١٩٩١ ـ ١٩٩٥. ومجلة "قضايا إسلامية"، التي أصدرها عام ١٩٩٤، وموسوعة "مصادر النظام الإسلامي"، تقع في عشرة مجلدات، ١٩٩٦.

هنا أحسست بأني أمام معجمي عراقي مختلف. موسوعي ببليوغرافي، بينما في الغالب ـ في حدود اطلاعي ـ الإيرانيون هم الببليوغرافيون والموسوعيون.

سرعان ما فوجئت بتوقف مجلة "قضايا إسلامية" سنة ١٩٩٧، وصدور مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" في السنة ذاتها.

أثار استغرابي هذا الأمر، فسألت عنه. عرفت أشياء عن علاقته بحزبه السابق. فاكتشفت أن الرجل قطع ارتباطه التنظيمي بحزب الدعوة قبل أكثر من عقد، أي خرج من "معارضة صدام". في الحقيقة كان هذا الخبر بشرى بالنسبة لي. لكنني في حينها كنت أصنّف الخارجين من حزب الدعوة على أصناف ثلاثة:

صنف لم يحصل على الموقع الذي يطمع فيه، لهذا يكتب ويتخذ مواقف مناقضة لما كتبه بالأمس. والشواهد على ذلك ليست قليلة.

والصنف الثاني من يُصدم من الدكتاتورية والاستبداد والاستحواذ والاستفراد والاستئثار لدى قادة المعارضة، ويقرف من سلوكياتهم فيخرج من الحزب.

والصنف الثالث من تتوالد أسئلة في ذهنه، من يتمكن أن لا يبقى في مثل هذه الحركات الدوغمائية، حسب تقديري آنذاك. وهؤلاء أيضاً لا يستطيعون التحرر من الدوغمائية الفكرية والبنية الصلبة الداخلية والحنين للماضي. ويبقون يقدسون وثن الحزب. فحسبت الرفاعي من الصنف الثالث وهو أشرفها وأوعاها عندي.

ثم كانت اللحظة "الخاتمية" في إيران، وجيلنا خاتمي الفكر والتوجه... مسلماتي انهارت أمام أسئلة أساتذتي في العلوم السياسية، وأهمهم الدكتور حسين سيف زاده. فكنت كالغريق أتشبث بكل قشة، والتفّت نحو كل حدب وصوب، أبحث عن ناصر ومعين يعينني على الوصول إلى إجابة عن الأسئلة الجديدة، ومنجّ يخلّصني من قلق المعرفة. في هذا الوقت، نهاية عام ١٩٩٧ صدرت مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، واكتشفتها منذ عددها الأول، لأنها كانت ضالتي... المجلة عرّفت نفسها بأنها: "مجلة فصلية فكرية تعنى بالهموم الثقافية للمسلم المعاصر".

أحسست بأنها هي التي اطلبها، وإنها صدرت بالضبط في الوقت الذي احتاجها فيه، وفي الموضوع الذي اطلبه. حملة خاتمي كانت تحت عنوان "المجتمع المدني الديني" حفّزتني كطالب حوزة يدرس العلوم السياسية، أن اكتب في الفكر السياسي الإسلامي، ووفّرت لي هذه المجلة المادة العربية الكافية، لأنها خصّصت عددها الأول والثاني للفكر السياسي الإسلامي.

لغة المجلة عربية معاصرة سليمة، التعاطي معها يقوّي عربيتي. كنت أحسّ بأني أقرأ شيئاً مميزا، ما كان أقراني من طلبة الحوزة العراقيين في الغالب يقرؤون مثله.

محور العدد الثالث هو "إشكاليات الفكر العربي المعاصر"، كانت المرة الأولى التي أتعرف فيها على أسماء من قبيل: محمد عابد الجابري، برهان غليون، محمد أركون، هشام شرابي، علي حرب، طه جابر العلواني، حسن حنفي، رضوان السيد، عبد المجيد الشرفي... وغيرهم، من خلال هذه المجلة.

قد يكون القراء العرب اكتشفوا الساحة الثقافية الإيرانية، من خلال النافذة التي فتحتها هذه المجلة، لكنني اكتشفت المشهد الثقافي العربي من خلالها.

كان المصدر الوحيد للمنشورات العربية بالنسبة لنا هو معرض طهران الدولي للكتاب. وعادة ما اكتشف أسماء المفكرين من خلال هذه المجلة، وأقتني الكتب من المعرض.

توالت محاور المجلة: "اتجاهات جديدة في التفسير: التفسير الاجتماعي والتوحيدي والبنائي والسُنني ١٩٩٨" و"إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر: قضايا إسلامية المعرفة والمرأة ١٩٩٩"...وغيرها.

في العام نفسه سجلت رسالة ماجستير في العلوم السياسية عن الحركة النسوية والفمنزم، وشكّل لي ملف المرأة مادة مرجعية غنية للمطالعة حول التوجهات الجديدة للمثقفين الدينيين في خصوص قضية المرأة.

كنت انتظر صدور المجلة بفارغ الصبر، لتفتح علي آفاقاً وعوالم جديدة من المعرفة. وإن كانت أصبحت لا تطبع ولا توزع ولا تباع في قم، لكنني احصل عليها بالوسائط.

كنت أتفاعل مع كل محور يصدر فيها: "منهج التعامل مع القرآن، ١٩٩٩"، "فلسفة الفقه ١٩٩٩"، "مقاصد الشريعة ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠"، و"قراءات في فكر الشهيد الصدر ٢٠٠٠"... كلها تشكّل لي مادة للمطالعة والتدبّر، وبعض الأحيان الكتابة باللغة الفارسية.

في العام نفسه (٢٠٠٠) صدر كتاب الرفاعي: "محاضرات في أصول الفقه"، وهو شرح للحلقة الثانية لأصول الشهيد الصدر في مجلدين، وعلى الرغم من أني أنهيت دراسة الحلقة الثالثة، لكنني اقتنيته وقرأته بدقة، واستفدت منه كثيراً، وعرفت أن صاحبي فقيه كلاسيكي أيضاً. في العام التالي (٢٠٠١) صدر له: "مبادئ الفلسفة الإسلامية"، وهو شرح "بداية الحكمة" للعلاّمة الطباطبائي في مجلدين، وكنت في حينها قد فرغت من دراسة "نهاية الحكمة"، اقتنيته وقرأته بدقة، أما مقدمة الكتاب فصرت أعيد مطالعتها، حتى حاولت حفظ معلوماتها ومعطياتها.

في العام نفسه، فتحت المجلة محوراً جديداً وتوقفت عنده كثيراً، إذ صدرت الأعداد من الرابع عشر إلى الثامن عشر، جميعاً تحت عنوان: "الاتجاهات الجديدة في علم الكلام" ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢.

حتى ذلك الحين كنت مهتمّاً بالفقه والأصول والسياسة والفكر النسوي. ومقتنعاً بأن إصلاح المجتمع يتم من خلال إصلاح وضع المرأة، وهو يتم من خلال الفكر النسوي. لكن أستاذتي حميراء مشير زاده، التي كانت تشرف على أطروحتي في الفمنزم، ومن خلال حوارات طويلة أقنعتني أن وضع المرأة ليس منفكّاً عن وضع الرجل والمجتمع. ولا يصلح وضعها إلا من خلال تنمية المجتمع. وإذا صلح المجتمع يصلح وضعها تلقائياً. فصارت أولويتي الأولى الاهتمام بفكر التنمية ونظرياتها.

كنت مستغرقاً في دراسة الفقه وأصوله والعلوم السياسية، إلا أن معرفتي بأبحاث فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد متواضعة، ولأول مرة ومن خلال هذه المجلة، اكتشفت فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد. وفي مرحلة لاحقة توصلت إلى أنه لا تقوم لمجتمعاتنا قائمة إلا من خلال إصلاح الفكر اللاهوتي. ما دام لاهوتنا باقٍ على ما قرّره لنا الأسلاف، الأشعري بالذات، نبقى ندور في الدوامة نفسها، ولا ينفعنا فكر التنمية، ولا الفكر النسوي.

حتى المفكرين الإيرانيين الذين كنت أحضر في حينها محاضراتهم بشكل مباشر، صرت استرشد آراءهم من خلال مجلة قضايا إسلامية معاصرة.

لم يكن بوسعي قراءة كل ما يكتبون. فكنت أتابع المجلة، وأقرأ الأصل الفارسي لأي من مواضيعهم التي ترجمت إلى العربية، لأني اكتشفت أن انتخاب الرفاعي للموضوعات انتخاب حكيم متفحّص. وأنا حتى هذه اللحظة أتابع المشهد الثقافي الإيراني من خلال مجلة قضايا إسلامية معاصرة. وما زلت إلى الآن اكتشف كتّاباً إيرانيين هامين من خلالها، مثل: "أبو القاسم فنائي".

حين تابعت ملف "الاتجاهات الجديدة في علم الكلام" أحسست بشكل تدريجي بانبثاق فكر جديد، وتفسير جديد للدين، على الأقل في قم وفي ساحتنا العراقية.

قبل ذلك كان هناك تياران ومدرستان يتجاذبان ساحة الفكر الديني آنذاك في قم:

التيار الأول: هو تيار الحوزة العلمية والمرجعية التقليدية، التي تتبنى التفسير الكلاسيكي للدين، ويمكن اعتباره ممثلاً للتوجه "السلفي" في المذهب الشيعي.

التيار الآخر: الأحزاب الإسلامية وأصحاب مشروع الدولة الدينية، وهم أشبه ما يكون بـ"الأصولية الشيعية"، وهو يستلهم أفكاره من تراث سيد قطب، التيار الذي تربع على عرش السلطة منذ ٢٠٠٥ في العراق، وقدّم أتعس نموذج للحكم.

التيار الأول كان يعدّ الثاني مارقاً وابناً عاقاً له. لكن الثاني ما تعلّم درساً من قمع الأول له، بل هو بدوره مارس قمعاً أبشع بحق كل من يفهم الدين بصورة مختلفة عنه.

ومنذ هذا العام بدأت أرصد بزوغ تفسير ثالث وقراءة ثالثة وفهم ثالث للدين ـ في وسطنا العراقي القمّي ـ لا هو كلاسيكي أو تسامحاً "سلفي"، ولا هو "أصولي"، بل "تيار التنوير الديني"، وهي ظاهرة كنت أرصدها عند الإيرانيين فقط. فظاهرة المثقف الديني التي نمت نواتها الأولى عند الإيرانيين منذ عقود من الزمن، ويمكننا عدّ: نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون وعبد المجيد الشرفي... وغيرهم من أعلامها على ساحتنا العربية. لكني لم أكتشف عراقياً في هذا الوادي.

لا أريد أن اظلم الآخرين فكان لأساتذة آخرين دور محترم وجهود مشكورة وكتابات مفيدة في هذا الخصوص، لكن لم أر أحداً يرفع راية التنوير الديني ويتبنى مشروعها غير الرفاعي ومجلته.

تناغم هذا التفسير مع روحي وفطرتي وعقلي أكثر من التفسيرين الآخرين، ذلك أني وجدته أكثر احتراماً للإنسان وإنسانيته، وهو أكثر إجلالاً وإعظاماً وإكباراً لله.

لهذا رفعت الحجاب بيني وبينه وقصدته، وكانت بداية علاقتي المباشرة معه، بعد ما استمرت علاقتي الغير مباشرة به ثمانية عشر حولاً.

المحطة الثالثة: ٢٠٠٢ فما بعد

سجّلت في عام ٢٠٠٢ رسالة ماجستير في أصول الفقه، واخترت الرفاعي مشرفاً عليها، وبدأت علاقتي المباشرة به... كان يتحفني بكل غال وثمين من مكتبته، ويجمعني منزله بنخبة المثقفين الإيرانيين والعراقيين... بيته، مكتبته، صدره... كان مفتوحاً لي، ولكل طالب علم ومعرفة.

بعد أن انتهيت من الرسالة وناقشتها، توقعت أني سأخفّف عن الأستاذ ولا أتجاوز على وقته، لأن السبب الحقيقي للتواصل المستمر قد انتهى. فوجئت باتصاله بي ودعوتي، وظل يحثني على استمرار الصداقة والتواصل. وهذا الأمر لم أعهده من أي أستاذ آخر. لأنه لم يكن بحاجة لي أبداً، بل العكس تماماً، أنا كنت محتاجاً لأخلاقه وروحه وعقله وعلمه وعلاقاته.

وبالفعل نشطت علاقتنا أكثر، وأصبحنا مقربين أكثر، حتى دخل هو الوظيفة ببغداد عام ٢٠٠٥، وتصدى للعمل الوظيفي "مستشاراً ثقافياً في رئاسة الجمهورية". مرة أخرى انسحبت قليلاً إلى الوراء، كي أترك للرجل حريته في اختيار علاقاته الجديدة، كما هو المعهود من أغلب من عرفتهم ودخلوا السلطة. لكن هذه المرة أيضاً فاجأني بأنه هو هو. لم يتغير فيه شيء... فشخصيته التي صاغها عبر عمر من التجربة وكسب المعرفة، وتهذيب النفس، ما كانت تتأثر بهذه المتغيرات العابرة.

ومنذ ذلك الحين غير الأمسيات التي كنا نقضيها في منزله بصحبة ثلّة من أهل العلم والمعرفة، كان كثيراً ما يدعونا لتناول العشاء في أفضل مطاعم قم، وتتحول مآدب العشاء إلى حواريات ثقافية، تستمر أربع أو خمس ساعات. وكانت لنا أنا وإياه جولات رياضية. نخرج في مشي سريع نجوب شوارع قم،كنشاط ضروري لحفظ توازن الصحة، وخلالها نتحاور بما هو مسموح وممنوع، وكانت أفضل حواراتي العلمية وأكثرها حرية، أمضينا مئات الساعات معاً خلال العقد الماضي، نناقش مختلف القضايا الفكرية والحياتية مشياً. ربما شكّلنا معاً نواة المشّائين الجدد من حيث لا نعلم.

مثّل لنا الرفاعي البديل الديني عن الحوزة والإسلام السياسي في قم، وهو ما كان مفقوداً عراقياً، لكن فوجئت حينما سافرت إلى العراق بعد تغيير النظام، أن المهتمين بالفكر الديني الحديث كانوا يعرفونه منذ عهد الحكم السابق، وكانوا يتعاطون المجلة ومؤلفاته، من خلال استنساخها في سوق "المتنبي" للكتب، وتداولها بينهم... رأيت أن مشروعه حمل راية التنوير الديني في العراق، حتى قبل عودته للعراق. الرفاعي لم يبق مثقفاً دينياً وحسب، بل رفع راية للمثقف الديني، نتفيأ ظلها.

في هذه المرحلة لم تكن علاقتي بالرفاعي من خلال المجلة أو الكتب، بل التعايش والتعامل المباشر. أما المجلة التي واكبتها منذ عددها الأول، فواكبتني وساهمت في صناعة

لغتي وثقافتي، حتى تمكنت أن أكون مساهماً فيها من خلال الترجمة منذ مطلع عامها التاسع في العدد الواحد والثلاثين (٢٠٠٧) حتى اليوم.

في الحقيقة كنت أنهل من علمه في العقد الثاني من تعرّفي عليه، ولكن في هذه المرحلة إضافة للعلم والمعرفة صرت أنهل من شخصه، واكتسب نهج الحياة أكثر من اكتساب المعلومات. أحاول هنا أن أسجّل أهم ملامح الرفاعي الذي اكتشفته خلال هذا العقد الأخير من التعامل المباشر معه.

الرفاعي الإنسان والمشروع

كنت أريد التحدث عن الرفاعي كإنسان، ثم عن مشروعه. لكن كلما فكرت وجدت أن كل صفة فيه منعكسة في مشروعه، وكل ميزة لمشروعه فيه، هو مشروعه ومشروعه هو... يبدو أنه حمل هذا المشروع في أحشائه، وغذّاه من روحه، وأنجبه نسخة منه، واستمراراً لوجوده. بحيث يبدو لي كأن الاثنين واحد. لهذا لا أرى التفكيك بينهما سهل، وليس بوسعي إلا أن أتكلم عن الاثنين في آن واحد. فسماتهما واحدة، وخير دليل لفهم مشروعه قراءته هو.

هدف الرفاعي الإنسان والمشروع

هدف الرفاعي ـ الإنسان والمشروع ـ كما يبينه هو في كتاباته:

"فتح باب الاجتهاد في علم الكلام، وتحديث التفكير اللاهوتي، ومحاولة بناء لاهوت عقلاني مستنير. ومن الواضح أن تحديث التفكير اللاهوتي يتطلب تساؤلات واستفهامات جديدة، ومراجعات نقدية للتراث الكلامي، تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب. والسعي لترسيخ صورة للإله، تستوحي صفات الرحمة والمحبة والسلام، ونحوها من صفات الرحمن، وتستلهم ما يتحلى به الله تعالى من صفاته الجمالية، وأسمائه الحسنى، مثل: الرحمن، الرحيم، القدوس، السلام، المؤمن، العزيز، البارئ، المصور، الغفار، الوهاب، الرزاق، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الحليم، الشكور، الحفيظ، الكريم، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، الحق، المحيي، البر، التواب، العفو، الغفور، الرؤوف، مالك الملك، الغني، النور، الهادي، الرشيد، الصبور، ...الخ".

البنية الصلبة

قد يتصور البعض أن الرفاعي الذي يتحمل الآخر، ويتيح الفرصة له لطرح آرائه، تحلّلت البنية الصلبة داخله وتحرر منها. إذا كانت البنية الصلبة هي الإيديولوجية فهذا الكلام صحيح، ولكنه ما زال مسكوناً ببنية صلبة، وهي القيم الأخلاقية والمعايير القيمية...

محبة الآخر، الصدق، الأمانة، الوفاء للصداقة، الكرم، مساعدة الناس، احترام الناس... قيم وأخلاقيات محكوم بها الرفاعي، نتيجة البنية الصلبة التي تسكنه.

كذلك هو مشروعه، يتوافر على بنية صلبة، هي التي ساعدته على أن يسلك خطاً واضحاً وثابتاً منذ العدد الأول والى آخر عدد صدر من مجلته.

فقيه غير معمم

اعتقد بأن دراستي مدة عقدين للعلوم الدينية، العقد الثاني منها (٢٠٠١ ـ ٢٠١١) عند ابرز أساتذة البحث الخارج، وأشهر الفقهاء في حوزة قم، تؤهلني لأن أميز بين المجتهد وغيره. وعليه يحقّ لي أن اشهد لأستاذي بالاجتهاد، حسب التعريف الكلاسيكي للاجتهاد في الحوزة العلمية. فإحدى ميزات الرفاعي التي ساندت مشروعه هو بلوغه درجة الاجتهاد فقهياً، وهذا من النوادر جداً بين الذين ارتادوا هذه الساحة، واهتموا بهذا النهج الفكري. هو فقيه حوزوي، وإن لم يعتمر عمامة، فمما يميزه عن المثقفين المهتمين بالبحث والكتابة في الدين في العراق والبلاد العربية أنه فقيه محترف.

لقد تكوّن، بشكل تدريجي، تيار من تلامذة وأساتذة الحوزة غير معممين في وسطنا العراقي. بحيث أصبح اليوم وجوداً معترفاً به داخل الحوزة. رائد هؤلاء وأبرزهم وأشهرهم هو الرفاعي. يمكنني وصف هذا التيار "تسامحاً" بـ"الرهبنة الجديدة الشيعية"، بمعنى أنه نمط جديد من رجال الدين الشيعة، بزيّ جديد ووظائف مختلفة. إنه غير مستعد للتنازل عن هويته الدينية، ولا التخلي عن بيان فهمه المعاصر للدين. حتى لو اختلف اجتهاده وفهمه مع الفقهاء الكلاسيكيين. هذا التيار، الذي أعدّ نفسي أحد أفراده، غير موجود على الساحة العربية. فالمثقف المهتم بالبحث والكتابة الدينية في بلادنا في الغالب لم يتخرج من الحوزة أو العلوم الدينية الكلاسيكية بشكل محترف، وحتى الحوزويون منهم وهم قلائل، لم يبلغوا في دراستهم درجة الرفاعي.

امتاز مشروع الرفاعي أيضاً بالخبرة التراثية، فلا ترى فيه الشطحات التي غالباً ما تسقط فيها سائر مشاريع الحداثة الدينية، نتيجة قلة خبرتها بالعلوم الدينية الكلاسيكية والتراث.

إحدى وجوه أهمية مشروعه أنه تكلم وهو في قلب الحوزة، وطرح فهمه وتفسيره ومشروعه من داخلها، ولم يخرج منها أو يبتعد عنها أو يصطف مع مناهضيها ودعاة القضاء عليها وتقويضها.

العطاء

لطالما شاهدته وهو ينشد المحتاج، ويطلب الصداقة ممن هو أحوج لصداقته منه... إن أكبر رصيد يملكه الرفاعي هو شبكة علاقاته الفريدة. الشبكة التي بذل في سبيلها الغالي

والنفيس من روحه وعقله وعلمه ووقته وماله... حتى بناها، يقدّمها بكل كرم وسخاء لأصدقائه. يعرّف هذا على ذاك، ويُقرّب ذاك من هذا. يتوسط لأحدهم عند الآخر، ويحصل على دعم من شخص لثانٍ، ويشغّل بعضهم عند البعض الآخر. ينجز هذه المهمة بحنكة وحكمة واتزان... لا يبسط يده كل البسط، فيندم بعدها، ولا يقبضها.

وطبيعي إن من يعطي أعز ما يملك لأصدقائه، لا يبخل على مشروعه الذي هو ابنه الروحي ووليد نفسه، لذلك أعطى كل وجوده وسخّر ما لديه، حتى تضافرت جهود الأسرة بمجموعها، خاصة زوجته الكريمة الأستاذة انتزال الجبوري لانبثاق هذا المشروع واستمراره.

والمشروع بدوره معطاء أيضاً، معطاء للقارئ الذي ينهل منه المعرفة وللمشارك. فكانت تجربة المشاركة فيه معطاءة لكثير ممن شاركوا فيه، إذ ساهم في صناعة اسمهم، وواضح كم هذا الأمر مهم بالنسبة للكاتب غير المعروف.

النظرة الإيجابية والأمل

تمتع الرفاعي بنظرة ايجابية للحياة ولأصدقائه، وما يحيط به. ومديحه السريع لأصدقائه بمجرد أن يأتي ذكر أحدهم، نتيجة هذه النظرة الايجابية. تنعكس هذه النظرة على مشروعه بشكل أمل بالإصلاح. ما كان للمشروع أن يصمد لعقد ونصف من الزمن ضمن هذا الواقع الذي نراه، لولا هذه النظرة الإيجابية والأمل بالمستقبل.

أسّس الرفاعي مركز "دراسات فلسفة الدين" في بغداد سنة ٢٠٠٣، في ظل ظروف يصعب التفكير بمشروع كهذا فيها، وأعلن أن أهداف المركز هي:

١. الدعوة للتسامح، وإرساء قيم الاختلاف وقبول الآخر.
٢. إشاعة ثقافة التعايش والحوار بين الأديان والثقافات.
٣. ترسيخ العقلية النقدية الحوارية، وتجاوز العقلية السكونية المغلقة.
٤. الاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة.
٥. تعميم الاجتهاد ليشمل حقول الموروث كافة، واستبعاد العناصر القاتلة والميتة، واستدعاء العناصر الحية منه ودمجها بالواقع.
٦. تمثل روح العصر، والانفتاح على المكاسب الراهنة للعلوم، انطلاقاً من: الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها.
٧. تدريس وتعليم ودراسة الدين والتراث في ضوء المناهج الحديثة للعلوم الإنسانية.
٨. تطهير التدين من الكراهية والإكراه.
٩. تحرير فهم الدين من المقولات والأفكار والمواقف التعصبية والعدوانية.
١٠. الكشف عن الأثر الايجابي للفهم العقلاني الإنساني للدين في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

١١. تبني الرؤى والمفاهيم التي تهدف إلى مواكبة العصر، وتعزز المصالحة بين المتدين والمحيط الذي يعيش فيه.

١٢. بناء مجتمع مدني تعددي تسود حياته قيم التسامح والعيش المشترك.

١٣. التثقيف على الحريات وحقوق الإنسان، وتجفيف المنابع التي ترسّخ مفاهيم الاستبداد، وتعمل على صياغة نفسية العبيد في المجتمع.

١٤. تجلية الأبعاد العقلانية والأخلاقية والإنسانية والجمالية والمعنوية المضيئة في الدين والتراث.

١٥. تنمية التفكير والتدريس والتعليم والبحث والاجتهاد في فلسفة الدين وعلم الكلام.

وأدى المركز من خلال نشاطاته ومنشوراته دوراً هاماً في هذا الحقل، وما زال يسعى لتأسيس كلية (فلسفة الدين) بعد تأمين المتطلبات والإمكانات المادية والعلمية.

الدعوة للنقد وتقبله

نظرياً يقول الرفاعي: "النقد مصدر التطور الفكري والاجتماعي، والنقد أساس التقدم، وشريان تحديث كل شيء وتجديده، ولا حياة للتفكير الديني في الإسلام إلا بتواصل المراجعة النقدية واستمرارها، للثقافة والتجربة والتاريخ والتراث والاجتماع الإسلامي. ولا سبيل للخلاص والإفلات من نفق الانحطاط والتخلف إلا بتجذير ملكة النقد وتكريسها". وعملياً نراه على صعيد مشروعه سنّ سنة "نقد العدد الماضي" في مجلته والتزم به.

وكذلك حاول من خلال مشروعه وما نشر، "الاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة" في آن واحد.

هذا الرفاعي المشروع، أما الرفاعي الإنسان، فهو أيضاً يتقبل النقد بكل رحابة صدر، وإن كان من أصغر تلامذته.

التدين

يعتقد الرفاعي أن: "الإنسان كائن متدين، والحياة لا تطاق من دون خبرات وتجارب دينية، ذلك أن نزعة التدين تمثل ظمأً انطولوجياً لا يُروى، إلا من خلال التواصل مع المطلق. ويمكن أن تظل تلك الخبرات والتجارب على الدوام منبع الهام للتراحم والمحبة والجمال في العالم، ... وليس بوسعنا بناء بلادنا إلا بإشاعة فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورته الإنسانية".

لا يسمح المقام هنا للدخول في الحديث عن معنى الدين والتدين. ولكن أرى من المناسب أن أقدم شهادتي من خلال مواكبتي للرفاعي، أنّ الرجل يعيش جوهر الدين في باطنه، وله تجاربه الروحية الفريدة. روى إحداها للقارئ فيما كتبه عن زيارته لمولانا جلال

الدين الرومي، أو ما كتبه عن بعض سفراته للحج. وملتزم عملياً بحذافير الشريعة في سلوكه، لا يفارق دينه في مختلف حالاته وسلوكه، وهذه حالة نادرة عند التنويريين.

ومشروعه أيضاً لم نره يوماً يهاجم الفكر الديني الكلاسيكي، أو يقدح به ويجرح أتباعه، ويحتفظ بعلاقات طيّبة مع المؤسسة الدينية التقليدية، بل يحاول أن يطرح ما يراه، من دون هجوم على الآخر وعلى التدين التقليدي.

نبذ التعصب والعدوانية والاستغلال

يعتقد الرفاعي، مثلما ورد في بيانه: "إن السلام هو سبيل الأمن الاجتماعي والعيش سوياً، ولا نجاة للعالم إلا بالتشبث بالوسائل السلمية لحل المنازعات، والتخلص من بواعث العنف والحروب. تشدد رسالة الدين ومقاصده الكلية على إشاعة السلم والتراحم والمحبة بين الناس، والسعي لتجفيف منابع العنف والعدوانية والتعصب".

وفي مشروعه لا يدّعي احتكار تمثيل الفكر الديني. لكن يحاول إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، بالإعلان عن أبعاده المعنوية والعقلانية والجمالية والرمزية.

فلا نرى في مشروعه ما يمسّ الآخرين أو يجرحهم أو يتجاوز عليهم. ولا يمارس سياسة التهكم على مقدس للناس، ويحذّر من "جرح الضمير الديني للغير".

كذلك هو كشخص في حياته، لم يشهد له موقف عدائي من سائر التوجهات الفكرية أو أتباعها. ولهذا يجمع بين أصدقائه بين المتدين التقليدي، والمتنور، وغير المتدين، واللاّديني.

لم يدّع التنزه والفوقية

يقول الرفاعي: "لا يعني التدين الذي ننشده اختزال الإنسان في مجموعة مفاهيم وقيم مثالية، تتعالى على بشريته، وتصيّره كائناً سماوياً مجرداً منسلخاً عن عالمه الأرضي، مثلما تريد بعض الاتجاهات الصوفية والدعوات الرهبانية، بل يعني هذا التدين إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وإيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، وتدريب المشاعر والأحاسيس والعواطف على القيم النبيلة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع الهام الطاقة الحيوية الايجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها."

وعلى الصعيد العملي لم نرَه يوماً ادّعى تنزيه ذاته، وإعلان تفوقه على سواه، أو ادّعى التجرد والمثالية، بل يؤكد دائماً على ضعفه، وعمق احتياجاته البشرية، كذلك مشروعه

الفكري، لم يعدّه سوى محاولة على سبيل الرشاد. ولم يتصور أو يدّعي يوماً أنّ مشروعه سوف يغيّر العالم.

ولم نسمعه يوماً يتكلم بلغة التكليف الشرعي، والمتاجرة بالدين، والمزايدة بالوطنية، وإدّعاء التضحية في سبيل الناس، والتنكّر للطبيعة البشرية.

التسامح

يدعو الرفاعي: "للتعددية والتسامح، وإرساء قيم الاختلاف واحترام الآخر. وإشاعة ثقافة التعايش والحوار بين الأديان والثقافات. تحرير فهم الدين من المقولات والأفكار والمواقف التعصبية والعدوانية. تطهير التدين من الكراهية والإكراهات".

أي شخص يعرف الرفاعي يشهد له أن التسامح من سماته الأخلاقية، وشهدنا مواقف كثيرة من تسامحه وسعة صدره، حتى مع من تجاوز عليه أو حتى خانه، خلال مواكبتنا له، لكنّ المقام لا يسمح بسرد القصص، أو ذكر الأسماء بسوء، فهذا خلاف نهجه التسامحي.

كما إن مشروعه منذ عشرين عاماً تقريباً، لم يصطدم بأي مشروع آخر، بل نأى بنفسه عن الصراع والتنافس الذي لا يليق بالعمل العلمي الرصين.

مثلا في بعض الأحيان، يعدّ ملفاً للنشر، وينفق عليه العمر والمال، لكن قد يسمع بمؤسسة أخرى تعدّ عملا مشابها، أو قريبا منه، فيتخلى عنه على الرغم من أنه بدأ به قبلهم.

يعلن الرفاعي تبرّمه وأسفه وانزعاجه من أن شطحات بعض طلابه يحسبها بعضهم عليه، على الرغم من رفضه لها، لكنه لم يفرض رأيه يوما عليهم، أو يكرههم على تغيير قناعاتهم، أو سلوكياتهم، أو تصريحاتهم، أو كتاباتهم.

المعاصرة

يعبّر الرفاعي كفرد من خلال سلوكه، وحتى ملبسه، وكمشروع، يعبّر عن: "روح العصر، والانفتاح على المكاسب الراهنة للعلوم، انطلاقا من: (الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها). وتبنّي الرؤى والمفاهيم التي تهدف إلى مواكبة العصر، وتعزّز المصالحة بين المتديّن والمحيط الذي يعيش فيه".

الدعوة للمحبة

يدعو دائماً للمحبة، والى العفو والمغفرة، والى التجاوز عن الناس، والتسامح معهم... ومن خلال مشروعه حاول: "التثقيف على نفي الإكراه في الدين، وتعميم مبدأ (لا إكراه في الدين)، والاستناد إليه كمرجعية ومعيار قيمي في التعاطي مع الآخر، وإشاعة العفو،

والسلام، والعدل، والإحسان، والتراحم، والحوار، والحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والمحبة، والصبر، والمداراة، والصفح الجميل، والهجر الجميل، وغير ذلك من مقولات ومعاني اللين، واحترام الآخر، والعيش المشترك... وتجذير المفاهيم والشعارات التي تمجد الحياة، وتعمل على تحرير الناس من المقولات الداعية إلى عدّ (الموت أسمى الأماني)".

يسير مع الجميع لكن لم يتبع أحداً

يعلن على الدوام مقولة: "أسير مع الجميع وخطوتي وحدي". فهو مع الجميع، من دون أن يقلّد، أو يتماهى، أو يحاكي أحدا...خطواته مستقلة، ويحاول باستمرار أن يجترح نموذجه الخاص به.

صادَقَ الرفاعي الجميع، واحتفظ بعلاقات صادقة جادة مع الجميع، وسار مع الجميع، لا لأنه لا لون له، بل لأن له لونه وطعمه وبصمته المتميزة، فالكل يعرفه على أنه الرفاعي ويصادقه. فإذا سار مع أحد لا يصبح تابعاً له، بل تبقى خطواته مستقلة.

كذلك هو مشروعه، لا يخاف أن يحمل أفكار المدارس المختلفة، ويبقى على خطه ونهجه.

المشروع من وحي حاجتنا

قد لا يدرك الكثيرون ـ وأنا منهم ـ أهمية مشروع الرفاعي، وضرورة تأكيده على التسامح والتساهل والتراحم وتحمل الآخر في بادئ الأمر. لأن الاستبداد والدكتاتوريات في بلداننا كانت تمثل قشرة متصلبة غطّت ما تحتها في مجتمعاتنا، لكن اليوم وبعد ما تمزّقت هذه القشرة نتيجة "الفوضى الخلاقة"، وتكشّفت حقيقة ما تحتوي عليه مجتمعاتنا من تناقضات، نرى فائدة التفسير الإنساني للدين الذي دعا له الرفاعي. ففي الزمن الذي كان فيه الذبح على الهوية أمر غير مستقبح من أية جماعة، حينما لا يتطابق مع الآخر، أصدر في هذا الزمن سلسلة كتاب "ثقافة التسامح" ببغداد عام ٢٠٠٤، صدر منها حتى الآن ٢٠ كتاباً، وعرّفها بأنها: "سلسلة كتاب ثقافية شهرية تصدر في بغداد. وتهتم بالتثقيف على: التسامح، ونفي الإكراه والكراهية في الدين، وإشاعة العفو، والسلام، والعدل، والإحسان، والتراحم، والحوار، والحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والمحبة، والصبر، والمداراة، والصفح الجميل، والهجر الجميل، وغير ذلك من مقولات ومعاني اللين، والسماح، والاعتراف بالآخر، واحترام الآخر، والعيش المشترك. ونقد منابع التعصب، ونفي الآخر، والعنف، والتحجر، والقراءة الفاشستية للدين، واكتشاف الأبعاد العقلانية والأخلاقية والإنسانية والمعنوية السامية في الدين".

ولطالما شدّد على أن: "الحاجة ملحة إلى دراسة وتحليل منابع اللاتسامح، وبواعث العنف والكراهية في مجتمعاتنا، والاعتراف بأن الكثير منها يكمن في الفهم الخاطئ للدين، والجهود الحثيثة للأصولية السلفية في تعميم هذا الفهم وتعزيزه".

ولكن من الطبيعي أن لا يسمع صوته، لأن الكلمة أصبحت للمحرّض طائفياً، سواء كان رجل دين، أو سياسة. بينما لو كانت القوى الفاعلة في المجتمع تتبنى هذا الفهم والتفسير للدين لما وصلنا لهذا النفق المظلم الذي سقطنا فيه اليوم ولا يعلم آخره إلا الله.

المجهولية

صحيح أن علاقات الرفاعي النوعية بالنخبة الثقافية في العالم العربي وإيران مميزة جداً، ربما لا يمتلك غيره من أقرانه مثل هذا الرصيد، لكن هذه العلاقات والمكانة مجهولة في بلده، لذلك لم يتبوأ موقعه الفكري الذي يستحقه... ولم يزل يواصل مراكمة جهوده الفكرية ومشروعه التحديثي الرائد وحده.

فضلاً على أن مشروعه والمجلة بشكل خاص لم تنل حقها من الاهتمام في الدراسات الإسلامية، ولا نجد توظيفاً لمحاورها، يتناسب مع عمق وتجديد مضمونها، وكثافة وأهمية موضوعاتها.

لعل ذلك يعود إلى عدم توافر المناخات المطلوبة في بلدنا والعالم العربي لهذا النمط من التفكير الديني. وان كانت هناك آثار غير معلنة، تشي بانطلاقة واعدة في هذا الحقل، وتؤشر إلى تأثير غير منظور لمشروع الرفاعي وكتاباته ومجلته في فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، فمثلاً قررت وزارة التعليم العالي العراقية فرض مادة "فلسفة الدين" كمقرر دراسي في أقسام الفلسفة في الجامعات العراقية كافة، كما سُجلت ونوقشت أطروحات عديدة تناولت هذا الموضوع. بينما لم يعرف من قبل حقل في الدراسات الدينية عنوانه "فلسفة الدين" في العراق. كان الجميع يسأل عندما يطلع على المجلة ويقرأ "يصدرها مركز دراسات فلسفة الدين" ما المقصود بفلسفة الدين؟ وكل منهم كان يحسبها ما يسمى بـ"الفلسفة الإسلامية".

يبدو أن المركز ومطبوعاته ومجلته أدى دوراً هاماً في توجيه الدراسات الدينية في العراق وغيره.

لكن الرفاعي ومشروعه تنبهت له مؤسسات ومنتديات ونخب هامة خارج بلده... فقد وقع الاختيار على مجلة قضايا إسلامية معاصرة دون سواها، بوصفها دورية فكرية جادة ومتميزة ورائدة في تحديث التفكير الديني في الإسلام، في العقدين الأخيرين. حين خصّص "المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية" في روما كتابه السنوي للعام ٢٠١٢ لإصدار

ترجمات ايطالية وانجليزية وفرنسية لنصوص منتخبة مما نشر في المجلة في مختلف محاورها، وعنون الكتاب بـ"الإشكاليات الراهنة للتفكير الديني وفق مجلة قضايا إسلامية معاصرة".

ثم تلته مبادرة "حركة أنطلياس الثقافية" بلبنان في تكريم عبد الجبار الرفاعي، وقد كانت محفزاً لمؤسسات إعلامية عراقية للانضمام إلى المبادرة، فأصدرت صحيفة المدى ملحق "عراقيون" حول الرفاعي، وخصّصت احتفالية في المتنبي للمناسبة نفسها. تلاها ملحق صحيفة العالم، ثم احتفالية في النجف وأماكن أخرى داخل العراق. والذي شجّع بعض أصدقائه وتلامذته على القيام بمشروع الكتاب التذكاري.

كان لهذه الجهود دور هام في التعريف بالمشروع، لكنها ما زالت تحتاج للمواصلة كي ترسّخ دعائم هذا الفكر التحديثي في مجتمعاتنا.

"ماركة" الرفاعي

قال لي صديق مثقف خبير: "لو كانت حكومة من حكوماتنا تريد إخراج مجلة بمستوى قضايا إسلامية معاصرة، لاحتاجوا إلى عمارة من ستة عشر طابقاً... وفي النهاية ربما لا تخرج بهذا المستوى".

بعد عدة عقود من العمل المضني نحت الرفاعي من اسمه "ماركة" دليل على جودة المنتج الفكري. لهذا اختاره العشرات من طلاب الدراسات العليا كي يكون مشرفاً على أطاريحهم.

متصوف لم يكتشف بعد

الكثير من أصدقائه لم يكتشف بعد النزعة الصوفية في شخصيته وجنوحه للفكر العرفاني. صورة ضريح مولانا الرومي، التي وضعها غلافاً للطبعة الأخيرة من كتابه "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، تشير لهذا التوجه.

فهو متصوف، لكنه لا ينكّل الجسد، ولا يحرم نفسه من مباهج الحياة، ولا يتظاهر بالقداسة، ولا يمارس الدروشة، ولا يقدّس شيخ طريقة...انه يغرق في تجربة روحية باطنية، تشي بتصوف فلسفي أخلاقي، لا تصوف طُرُقي.

ما زلت اكتشفه

بعد هذه المسيرة الطويلة لي بمعايشة الرفاعي، والتي شارفت على دخول عقدها الرابع، ما زلت اكتشف الرجل.

صفات تبدو للوهلة الأولى متناقضة، لكنه يضع كلاً منها في موقعها... شغفه واطلاعه بالأحجار الكريمة، اهتمامه باقتناء المحابس والسبح، ضحكته الصاخبة، عفويته، براءته، عراقيته، بكاؤه، اهتمامه بهندامه وملبسه ومظهره، ذوقه الفني، شغفه

بالجمال، هوايته بجمع اللوحات الفنية، زيارته للمتاحف الأثرية والفنية في كل مدينة يزورها، ولعه بالكتب والمكتبات، مشاعره وعواطفه الجيّاشة حيال من يرتبط به بعلاقة، إلحاحه في قضاء الحاجات، الصديق الوفي، فحين يحتاجه احد أصدقائه أو تلامذته يجده بجواره... ربما متحمسا أكثر منه... منضبط بالوقت والمواعيد، مستشار أمين، يذكر أصدقاءه دائماً بخير... على الرغم من خبرته الدقيقة بأمزجة البشر وسجاياهم، ومواطن قوتهم وضعفهم، من خلال خبرة واسعة متراكمة عشرات السنين بعلاقات متنوعة مع الناس، وتكوين علمي جيد في العلوم الإنسانية وعلم النفس.

وإن كان هو يميز بين مراحل مرّت بها مسيرته الفكرية، لكنني في الحقيقة لا أعدها مراحل، بل تدرج وتطور وتكامل، كتلميذ الطب الذي يصبح جرّاحاً حاذقاً... الطريق نفسه لكنه تقدم فيه أكثر وتعمق أكثر.

الرفاعي الذي كان صاحب التفسير الثالث والبديل الديني بالنسبة لي، المختلف (عن تفسير الحوزة، وتفسير الجماعات الإسلامية للدين)، في الحقيقة علّمني نهج الحياة أكثر من ما علمني دروساً في الفلسفة أو اللاهوت.

كلمة الختام: كانت بجواره وليست خلفه

لا أطيل أكثر، وأنهي انطباعاتي ببيان حقيقة وهي: أن الرفاعي لم يكن وحيداً في هذه المسيرة وما حققه... أصبح تقليداً أن يقال عن كل رجل ناجح "وراء كل رجل عظيم امرأة"، ولكن ليس مجاملة كانت السيدة انتزال الجبوري بجواره وإلى جنبه في هذه المسيرة الطويلة وليست وراءه... وذلك:

حينما تنازلت عن دراستها الجامعية، لرفد مسيرته الحياتية، في الحركة الإسلامية، والحوزة، في المرحلة الأولى من حياته... حينما تنازلت عن عيشها الرغيد، لتواكب مسيرة شاب مغامر، متهور، حالم، مشرد...

حينما تركت الأهل، واختارت الغربة والمنفى...

حينما تحملت تقشف العيش وقساوة المنفى، واستضافت وخدمت وطبخت للـ"الشباب العراقيين المشردين في المنفى"...

حينما تحملت أعباء المنزل، وحينما أنجبت وربّت وعلّمت أبناءً تفوّقوا في مسيرتهم الأكاديمية والثقافية... ومنهم مدير تحرير المجلة اليوم، الحبيب "محمد حسين الرفاعي"...

حينما قامت بالتصحيح والطباعة والتنقيح اللغوي والتحرير لمجلة فصلية تصدر بحدود ٤٠٠ صفحة، فضلاً على أكثر من ٢٠٠ كتاب، أصدرها مركز دراسات فلسفة الدين...

كانت حوله وبجواره وعضده طوال الطريق، ولم تكن خلفه. ❖

الرفاعي شمس حُتِّم عليها أن تضئ للجميع

✍ المرجع الديني السيد كمال الحيدري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على مصابيح الحق وهداة الخلق، خاتم الأنبياء والمرسلين محمد، والأئمة الهداة من آله الطاهرين.

إن لعلاقتي بأخي وصديقي العلامة الشيخ عبد الجبار الرفاعي، جذوراً عميقة تمتد إلى ما يزيد على عقدين من الزمن، عرفته فيها محبّاً للعلم، منفتح الذهن، واسع الأفق، يحمل هموم الأمة كإنسان وكعالم دين وكأستاذ أكاديمي، وقد وفّق كثيراً لحفظ الأصالة بلغة الحداثة والتجديد، فلم يكن ذائباً في صور العصر وأشكاله، ولم يكن غائباً في بطون الماضي ومضامينه، وما ذلك إلا لأنه كان مستوعباً لضرورة انعكاس أصالة التراث بلغة العصر، وضرورة انعكاس الدين القيّم في قيم الإنسان، فكان إنساناً عالماً، وكان عالماً إنساناً، حنّكته التجربة والظروف الصعبة، وقد انعكس ذلك ـ بشكل واضح ـ على نتاجه المعرفي، فكان ـ بحق ـ رائداً من روّاد التسامح. وناشراً ـ بكل وجوده ـ لثقافة القبول بالآخر دون الذوبان فيه، وهذا ما يدلّل ـ بقوة ـ على عملانية ما استوعبه واستفاده من فلسفة الدين.

إنّ من أهم ملامح شخصية الشيخ الرفاعي، هو عنايته الفائقة بالوعي لغة وسلوكاً، فحمله وعيه المفرط، على العمل على استيعاب الأجيال الفتية المندهشة بمعطيات العصر، ليصنع فيهم مقوّمات حضارة الدين وحضور الإنسان، وكأن تربية الجيل وإخراجه من غيبوبة التيه ودوّامة الضياع وشبق الانفلات، صارت واحدة من مهامه الأساس، كعالم دين واعٍ، وكإنسان صادق، وكأبٍ راع، ومثقف يدرك حجم مسؤوليته. ولعل من أروع سمات وعيه وإنسانيته وصدقه، أنها أنتجت وفاءً جميلاً لأساتذته، وعلاقات حميمة وصادقة مع زملائه وأبوّة حانية على تلامذته.

ومن ملامحه الأخرى، دأبه وحركيته الفائقة في تقصّي الأروقة العلمية، فهو حركي في فكره وثقافته، وعلاقاته الاجتماعية التي لا تكاد أن تجد فيها خطوطاً حمراً ما دام الماثل أمامه إنساناً. فتجده حاضراً وفاعلاً في أروقة العلم والفكر والثقافة على تنوّعها واختلاف مشاربها، وكأنه شمس حُتّم عليها أن تضئ للجميع، فيحدثك عن أهل اليمين في الفكر والثقافة والسلوك وكأنه منهم، ويحدثك عن أهل اليسار على تنوّعهم وكأنه ما عرف سواهم.

يعقد صداقاته الصادقة مع أطياف مختلفة وألوان متضادّة واتجاهات متعاكسة، تجمعه فيهم ومعهم لغة الإنسان، فيستقطبهم إنساناً، ويتعاطى معهم عالماً ومفكّراً ومثقفاً ومسؤولاً.

ومن ملامحه الأخرى، هو التنوّع المعرفي، فقد جمع إلى جانب دراساته وحضوره في الحوزة العلمية في النجف الأشرف وقم المقدسة، عند أساتذة كبار في المنقول والمعقول والعرفان؛ حتى بلغ مديات واسعة وعميقة فيها. والحضور المتميّز في المجالات المعرفية الأخرى، التي كتبت بلغة واعية، وعرضت بأسلوب جذاب، فصدر عنه: "نظرات في تزكية النفس" و"التبليغ والإعلام الإسلامي" و"تطوّر الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية" و"مناهج التجديد" و"مراجعات تقويمية في الفكر الإسلامي المعاصر" و"مراجعات وقراءات نقدية في الثقافة الإسلامية" وغيرها، ومنها أطروحته في الدكتوراه "تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية".

وغير خافٍ عنايته الفائقة بكتابة المعاجم والموسوعات، فقد أتحف المكتبة الإسلامية بمعجم خاص بما كتب عن الرسول وأهل البيت ـ عليهم السلام ـ وقع ذلك في اثني عشر مجلداً، أردفه بمعجم خاص بالدراسات القرآنية وقع في مجلدين، ثم جاء معجمه في المطبوعات العربية في إيران، وكذلك له موسوعة ذات أهمية كبيرة، وهي موسوعة مصادر النظام الإسلامي، جاءت في عشرة مجلدات، بالإضافة إلى كتابه القيّم حول مصادر الدراسة عن الدولة والسياسة في الإسلام.

ومن إنتاجاته الأخرى عنايته المتميّزة بترجمة الكثير من النتاج الفكري والفلسفي من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، ليتحقّق لروّاد العلم والفلسفة الفرصة الطيّبة للاطلاع على أعلام الفكر والفلسفة والعرفان من مدرسة أهل البيت. فترجم لنا كتاب "شرح المنظومة في الفلسفة الإسلامية" للشهيد مرتضى المطهري، في أربعة أجزاء، كما ترجم كتاب "محاضرات في الفلسفة الإسلامية" للمطهري أيضاً، كما انه كانت له مشاركات في ترجمة كتب أخرى.

ولعل من أهم ما يميّزه، هو اهتمامه الكبير في مجال فلسفة الدين والكلام الجديد ومقاصد الشريعة والاجتهاد، وهي مباحث عميقة ودقيقة، فكتب فيها "فلسفة الدين ومقاصد الشريعة" و"علم الكلام الجديد وفلسفة الدين" و"مقاصد الشريعة" و"الاجتهاد الكلامي؛ مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد" وغيرها.

ولم تخل جعبته من البحث في الفكر السياسي، فكتب "نحن والغرب؛ جدل الصراع والتعايش" و"الإسلام المعاصر والديمقراطية"، كما انه سجّل لنا شخصيته الإنسانية العالية في مجال التسامح والقبول بالآخر في أكثر من نتاج، كان منها "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" و"التسامح ومنابع اللاتسامح" و"التسامح ليس منة أو هبة".

ومن ملامح شخصيته العلمية الجامعة بين الأصالة الحوزوية والحداثة الأكاديمية، هو عمله الدؤوب على التحرّك في المساحات المشتركة وتفعيلها بين الحاضرتين ــ الحوزة

والأكاديمية ـ فيجمع الأطراف على وحدة موضوع، ليتناولوه بأدوات مختلفة، وينتج عن ذلك فكر وثقافة يحفظان الحوزوي من التقهقر والانكفاء، كما يقيان الأكاديمي من التشرذم والانفلات وضياع الهوية.

بل من دأبه ـ كان وما يزال ـ السعي ـ ومن خلال تجربته الطويلة والثرية. ومن خلال بناءه الفكري والثقافي ـ على إيجاد مساحات مشتركة جديدة بين الحوزة والأكاديمية، بل وحرصه على إيجاد لغة مشتركة بين المناهج الموروثة والمناهج المعرفية الوافدة.

لقد نجح الرفاعي الحوزوي والرفاعي الأكاديمي كثيراً في الكشف عن أوراق طالما عمل المتطرّفون على طيّها، وانخدع بطيّها السطحيون، فجاء مشروعه ليردم حصوناً مفتعلة، وحواجز قد بنتها الأوهام، وخلّفتها لنا قلة الاطلاع على الماضي وشدة الخوف منه، وعمّق ذلك التباعد والانفصال انحسار الوعي فحاول جاهداً أن يوجد التوأمة والتكامل، وهذه هي أهم مهامّ الروّاد المبدعين، الذين لم تحكمهم الانفعالات الكاذبة، ولم تُدجّنهم الرؤى الضيّقة.

ثم أن عزيزي الأخ الرفاعي، استطاع بأصالته وحداثته، بلياقته وانفتاحه، بصبره وتواضعه، بإنسانيته، أن يترجم لجيل كامل محنة المنفى الطويلة، إلى نتاج فكري وإثراء ثقافي، قد أوجدا حراكاً في الوسطين الديني والثقافي معاً، ليشكّل بعدها محوراً جامعاً ومستقطباً للعقول الطرية والمواهب الفتية، ولتنطلق بصورة عفوية وعملية حملة بناء جيل قادم ليتواصل مع جيل قائم بالبحث والمدارسة والحوار المستمر، فأنقذ جيلاً من خطر التصدّع أمام هيبة الماضي، وجذب الذائبين في الماضي إلى روعة المستقبل.

وأما من ملامحه على الصعيد الشخصي والتربوي، أنه لا زال محتفظاً بجلباب البراءة والطهارة والنقاء والوضوح والتواضع، وهو الجلباب الذي ألبسه إياه ذلك الريف الهادئ، الذي قدم منه في مطلع السبعينيات، كما أنه أخذ عن المدينة الصاخبة حركتها وتداخلها وتشعّبها وانفتاحها، دون أن يلوّثه صخبها وانشقاقها وانفلاتها، فامتزج ذلك الهدوء والنقاء الريفي بتلك الحركة والانفتاح والتداخل المدني. فهو مدني في كثرة علاقاته، وريفي في استقامته ووضوحه وتواضعه.

وأخيراً فمن كان له مثل هذا النتاج الثري، وهذا التنوّع الفكري والثقافي والتحقيقي، وله مثل هذه الأنشطة الكثيرة، الشاملة لدوائر معرفية متعددة، وله مثل هذا الحس الإنساني العالي والشعور بالمسؤولية تجاه الدين والإنسان والمجتمع، لهو جديرٌ بان يسمّى عالماً ومفكّراً ومحققاً ومربّياً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

١٢ محرم ١٤٣٥ هـ

عبد الجبار الرفاعي المفكر الإنسان
انطباعات عن شخصيته وعلمه

✍ السيد طالب الرفاعي[(١)]

الحديث في شهادتي بحق هذا المفكر الإنسان، بكل ما تعنيه كلمتا مفكر وإنسان، لابد أن تشير إلى هذا المعنى بوضوح، وهذا ما أحاول تقديمه في هذه الشهادة المقتضبة، وقبل شروعي في تقديمها أقول إن هناك مشتركات بين كاتب هذه السطور، وبين من قيلت في حقه:

أولها: اشتهار كل منهما بنسبته إلى الرفاعي،

وثانيها، منّة الله تعالى عليهما، بأن شرح صدريهما، ويسّر أمرهما، وأشرب في قلبيهما حباً للعلم ورغبةً في تحصيله ومدارسته، ولم يكن ذلك مجرد حب عادي، أو رغبة عابرة، لذلك فإنهما عقدا العزم على مواصلة السير للاغتراف من منابعه الكبرى، فكان السبق والابتداء من نصيبي، فهاجرت من موطني إلى مدينة العلم (النجف الأشرف) عام ١٣٧٠هجرية المصادف ١٩٥١ م. أما صاحبي فبعد أن اشتد عوده وعزيمته وقويت الرغبة في نفسه لطلب العلم، سلك الطريق الذي سلكته من قبل، بمقدار ما يسّر الله تعالى له، فشرع حال وصوله مدينة العلم عام ١٩٧٨ م بلا انخراط في حوزتها العلمية، مبتدئاً الدراسة بالطريقة والمنهاج نفسهما المعمول بهما أثناء المشروع الحوزوي لكل محصل جديد في الحوزة الدينية في النجف أو غيرها من بلاد الشيعة، وقد أراد هذا المنحدر من قرى ريف الغراف أن يكون مبدعاً وذا بصمة خاصة، فكان له ما أراد، بعد أن اندفع بولع وحب

---

(١) فقيه وباحث وداعية معروف، من مواليد الرفاعي في جنوب العراق ١٩٣١، أحد مؤسسي حزب الدعوة الإسلامية، عام ١٩٥٩، وهو الوحيد من المؤسسين الباقي على قيد الحياة. أشاد في القاهرة "جمعية آل البيت"، ومكث في مصر عشرين عاماً تقريباً، يدعو إلى الله، ويُعرّف بمعالم مدرسة أهل البيت، وأبعادها المعرفية والإنسانية والقيمية والأخلاقية، وآثار التشيع في نشأة وتطور الحضارة الإسلامية. ارتبط بعلاقات عميقة وواسعة مع علماء الأزهر، والمفكرين والأكاديميين والمثقفين المصريين.كان وما زال شجاعاً في قول الحق، وتبني مواقف جسورة، ظل على الدوام يدفع ضريبتها الفادحة، مطارداً مشرداً غريباً عن وطنه العراق. كتب مجموعة مؤلفات هامة، منها رسالته الماجستير، وأطروحته للدكتوراه. وصدر له أخيراً: "أمالي السيد طالب الرفاعي"، حوار وتحرير: د. رشيد الخيون. وهو شهادة تاريخية وثائقية تفصيلية جريئة، تستوعب ما يناهز نصف قرن، من نشأة ومسار حزب الدعوة، والحوزة العلمية في النجف، والتشيع في العراق وغيره.

لتعزيز تحصيله إلى حوزة النجف العلمية، ليجعلها طريقاً إلى طريق أوسع من المعرفة. وقد اختار فأحسن الاختيار، فخصوبة ذهنه وطموحه إلى جمال العلم وسموّه، جعلاه لا يقف عند حدود دراسته الأكاديمية الأولية، فانطلق في حوزة النجف بمساعدة بعض شيوخه الذين حضر عليهم، وارتبط معهم روحياً، لتحقيق المزيد وعدم الوقوف عند حد.

إن للحوزة العلمية التقليدية شروطاً وقواعد صارمة على صعيد الدرس والمنهج والتفكير، قد لا تبدو متلائمة مع متغيرات العصر، بالقدر الذي يتيح التطور والتفاعل مع العصر بما يؤدي إلى التجديد السريع.

روى المرحوم العلامة الشيخ قاسم محيي الدين، نقلاً عن الأستاذ محمد علي الحوماني، انه تحدث مع المرجع الأعلى للشيعة في عصره المرحوم السيد أبي الحسن الأصفهاني حول تنظيم الدراسة في حوزة النجف الدينية، والأخذ بالمناهج الحديثة المعمول بها، فكان جواب المرجع الأعلى، على حد قول الأستاذ الحوماني: (نظامنا لا نظام).

كما سمعت من الأخ العلامة الشيخ محمد حسن آل ياسين في مقولة أخرى للمرحوم السيد الأصفهاني هي: (ما انتظم تبعثر وما تبعثر انتظم).

وهذا كلام غريب، قد لا يمكن فهمه بخصوص تنظيم الدرس الحوزوي وتحديث المناهج، ومع هذا فللزمن أحكامه ومتطلباته، إذ طوّر بعض منتسبي الحوزة العلمية نوعية الدرس وطرق الأداء، وأخذوا طريقهم إلى التنظيم والتجديد، ابتداءً بمشروع "مؤسسة منتدى النشر"، الذي نهض به شيخنا العَلَم سماحة الحجة الشيخ محمد رضا المظفر ورفاقه، منهم أستاذنا العَلَم الشامخ السيد محمد تقي الحكيم(١).

لقد أملت الظروف على هؤلاء المجددين، بما تمتعوا به من وعي وتفكير أن ينهضوا بمهماتهم الإصلاحية بقدر عال من الكفاءة، ولم تدرك الأغلبية من معاصريهم قيمة أفكارهم وعطائهم الزاخر، إلاّ بعد رحيلهم عن هذه الدنيا. غير أن تأثيرهم وظهور شخصيات أخرى ذات كفاءات عالية، مثل الشهيد السيد محمد باقر الصدر، حفّزت منتسبي الحوزات العلمية، والأكاديميين منهم خاصة، لحمل هموم التجديد والسير في مجاله. ولعل صاحبنا الدكتور عبدالجبار الرفاعي هو أبرز الشخصيات فيما أعلم، على صعيد المقدرة في المزج والموازنة بين التفكير والأداء الحوزوي والأكاديمي، دون أن ينكفئ على التقليدي، أو ينبهر

---

(١) صدر مؤخراً كتاب بعنوان "السيد محمد تقي الحكيم وحركته الإصلاحية في النجف" تأليف نخبة من العلماء والباحثين.

بالجديد، فكتب في الأصالة والمعاصرة، وقدّم رؤية ثرية من شأنها أن تساهم بنهوض الفكر الديني وعصرنته، ليتقدم ويقود.

ولأن عبدالجبار الرفاعي حمل عقلية منفتحة فإن دراسته الأكاديمية الرفيعة لم تمنعه من التعامل مع التراث بواقعية، وإدراك قيمته العلمية، وما بذله المؤسسون الأولون من جهود، وما قدموه من عطاء ثرّ، يعد مفخرة في مجال الفقه والأصول والفلسفة والعقائد وغيرها. ولعل القارئ لكتاباته يدرك بسهولة اعتداده وإعجابه بالتراث الشيعي منذ التأسيس وحتى اليوم، هذا التراث المنفتح على الحياة وواقعها ومتغيراتها.

لقد بذل جهداً واسعاً للنهوض بمستوى طالب الدرس الحوزوي، ليتمكن من الحصول على العلوم والمعارف الدينية، بطريقة توفر له الوقت والجهد، وتنتشله من غمار الكتب الكثيرة، التي لم تعد كافية لتزويده بالمعرفة، ولكن لاستهلاك وقته وجهده.

الشيخ عبدالجبار الرفاعي، هكذا قرأت اسمه في مجلة التوحيد، هو مدرس الفلسفة والأصول في الحوزة العلمية، ورئيس تحرير مجلة قضايا إسلامية معاصرة[١]. مقالته التي قرأتها في (التوحيد) عنوانها (الاتجاهات الجديدة في علم الكلام)، وقد علمت أن عنوان هذا البحث مأخوذ من كتابه الذي اطلعت عليه فيما بعد وهو: (تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية)، وهو عبارة عن: "دراسة في نشأة وتطور دراسة علم الكلام والفلسفة عند الشيعة ودور محمد باقر الصدر في تحديث التفكير الكلامي ومحمد حسين الطباطبائي في تحديث التفكير الفلسفي"، وقد خصّ الفصل الرابع من الكتاب بالحديث عن "المنحى الإصلاحي عند محمد باقر الصدر".

كما تحدّث في الفصل الخامس عن دور الصدر فيتحديث التفكير الكلامي، ص١١٩ ـ ١٤٣.

يقول إنه تناول في كتابه هذا بصورة خاصة ما أنجزه محمد باقر الصدر، من خلال إرساء مرتكزات منهاجية معرفية بديلة فيما اصطلح عليه المذهب الذاتي في المعرفة، ومحاولته وصل العقيدة بالحياة واكتشاف المضمون الاجتماعي لأصول الدين.

ولعل ما حصل من تغيير واستعداد لمواصلة وانتهاج الدروس الحوزوية لم يكن أمراً مفاجئا أو ناتجاً عن قرار دفعي في آن أو لحظة واحدة، بل كانت إرهاصات ومقدمات، ومر بمراحل، غير أن الثوابت لديه هي التي دفعته لذلك، ومنها انتماؤه لحزب الدعوة

---

(١) مجلة التوحيد مجلة إسلامية فكرية تصدرها مؤسسة الإعلام الإسلامي في الجمهورية الإسلامية في إيران، السنة السابعة عشر، العدد ٩٦ "جمادى الأول ١٤١٩ هجرية أيلول ١٩٩٨م".

الإسلامية، وإيمانه بالفكر الإصلاحي التغييري، فهذا الانتماء جعله يتحرك في محور دائرته الاعتقادية بعد نوع من الفكر الحركي، وربما اكتشف من خلاله المعالم الجوهرية في فكر الشهيد الصدر، ذلك المفكر العملاق، الذي التصق به صاحبنا الرفاعي، وارتبط به ارتباط اللازم بالملزوم، وقد أصبح لهذا المفكر موقعاً هاماً في نفسه، وصل به إلى حد العشق والفناء، ولعل ذلك من أعمق الروابط التي شدته علميا وفلسفياً ووجدانياً بهذا المفكر الكبير.

توجهات الدكتور الرفاعي، التي استلهمها من فكر الشهيد الصدر، ودخوله منظومة العمل الحركي، هي تحقيق المجتمع الإسلامي الواعي المفكر. وقد بذل في سبيل ذلك جهوداً كبيرة، ووظّف إمكاناته العلمية والثقافية ووعيه المتقدم، من أجل بناء ذلك المجتمع، الذي يقوم على حركة فكرية طلائعية، ويكون المفكرون النابهون المعتدلون سدنته، ورواده لبناء أمة إسلامية تقوم على قيم العدل والعلم والحرية والانفتاح الفكري على الآخر، مع نوايا حسنة، وقلوب وعقول منفتحة، بعيدة عن التعصب والعنصرية والاستهانة بأقدار المفكرين الآخرين الذين ربما لا يحملون توجهاته نفسها.

هذا ما ترسّخ في وجدان الرفاعي وعقله، فانطلق من ذلك الوعي الذي ترسب في أعماقه، من تراث الماضي ومعارف الحاضر، بمختلف أشكالها ومضامينها وآلياتها العلمية والفكرية والثقافية، فهو قد استوعب تراث الماضي،لامتلاك العدة التي تمكنه من مواجهة الحاضر والمستقبل.

يمكن القول إن الرفاعي قد سبق الكثيرين من أقرانه وزملائه في الدرس الحوزوي، سواء في النجف أو في قم، لأنه جعل العلم والتحصيل هاجسه الأول، فكأنه يمارس هوايته المفضلة، التي آثر هو ممارستها،انطلاقاً من توجهه الإنساني، الذي تدفعه إليه قيم الدين الحنيف. وذلك ما نجده واضحاً في طبيعة موضوعات إنتاجه، فهو يتحرك في فضاء واسع من المعرفة والفكر، والتطلع إلى فضاء أرحب، يريد للجميع أن يتحركوا فيه. إن وعيه واطلاعه على الأفكار ومعطيات العلوم الإنسانية المعاصرة، يجعله في مقدمة رواد الكتابة الحديثة، بعيداً عن الإطار والأسلوب التقليدي المتعارف. كتب في موضوعات متعددة،وكان ناجحاً في كل ما تطرق إليه وبحث فيه. لقد اغترف من معارف وثقافات عديدة، سواء بالدرس أو المطالعة، فكان لذلك تأثيرٌ كبيرٌ في فكره ووجدانه وأصبح في مقدمة المفكرين، صاحب فكر ثاقب مضيء، يحمله وجدان شفاف وبصيرة نقية.

ولو أن الدارسين الآخرين حملوا رؤيته الإسلامية المتوازنة، وربطوها بالاتجاهات الحديثة ومعطياتها المعرفية، ودرسوا الإسلام بالطريقة التي سلكها، لأدركوا صواب المنهج الذي اتبعه، واقتربوا كثيراً من طرحه الجديد للقضايا الإسلامية.

الدكتور عبدالجبار الرفاعي مفكر شجاع، مخلص لمبادئه، منفتح على الآخر، بعيد النظر، حكيم، يتحرى الحقيقة، يقولها ويدعو إليها، ويرى ذلك من صميم واجبه. وهذا ما نهجه في مجلته "قضايا إسلامية معاصرة"، لا يطلب عليه جزاءً أو شكوراً، أو منصباً أو وظيفة مرموقة. وطوال حياته لم يكن أسيراً للتطلعات أو الطموحات الذاتية البحتة.

هذا هو في شرفه ونبله، وكفاءته العلمية، وثورته على التخلف والجمود الفكري. ومن يقرأ ما كتبه ومشاركاته العلمية والثقافية، وما وثّقه في معاجمه المعرفية ستتضح له حقيقة ذلك.

عبدالجبار الرفاعي نموذج الشخصية الإسلامية التي لم تنفصل عن جذورها، لكنه لا يتعامل مع كل المألوف المعروف، من عادات وتقاليد ومفاهيم اجتماعية مغلوطة من الإرث والجذور الطبيعية، بل يعتبرها مجرد إرث جاهلي، لها مظاهر وحشية، كالثأر، والنهوة، والتمايز بين الناس، لذلك فإنه يشجبها ويحاربها، عن طريق نشر الحلول والأفكار الإسلامية. هو لا يتفاعل ولا يستجيب إلاّ للأفكار والقيم البناءة، القائمة على السلام والتسامح والتعايش، بدلاً من التعصب والكراهية والعنف، تحت ستار الانتصار للدين أو المذهب، مما من شأنه أن يفكّك عرى الأخوّة الإسلامية والقيم الإنسانية.

إنك تجد في صراحته وجرأته صراحة القرية وبساطتها، وسيرة أهلها العفوية، وبيئتها البسيطة، التي أدمنت شظف العيش، وقلة المتطلبات الشخصية، وكانت تتفاعل مع ترانيم الدعاء من فم الأم الرؤوم، بعد صلاة الصبح، وهي تبتهل إلى الله تعالى، ليديم نعمة الإيمان، وييسر المصاعب ويزيلها. إن وقع تلك الأدعية والابتهالات لا تزال ترن في أذنيه، بعد أن تركت بصماتها الأولى على شخصيته، ولعل الاستجابة لها من قبل الخالق القدير هي التي فتحت الأبواب أمامه، ويسرت له سلوك سبيل العلم والمعرفة، والحرص والمواظبة على التحصيل والاستزادة منه، فقد ظلت مغروسة بعمق في وجدانه، وحافزاً للتعلق الدائم بالقيم الدينية العليا، وخصوصية العلاقة بالله تعالى، وبالنور الرباني المحمدي.

لقد تعرفت إلى الدكتور عبدالجبار قبل أن ألتقيه، فقد اطلعت على جهوده التوثيقية، التي ناهزت ثلاثين مجلدا، في: "سيرة النبي وآل بيته عليهم الصلاة السلام"، و"مصادر النظام الإسلامي"، و"الدراسات القرآنية"... ولما كان لي شرف المساهمة في هذه الدراسات، في رسالتي للماجستير عن: "أسلوب التوكيد في القرآن الكريم"، فإني لم أعثر على إشارة لذلك في معجمه التوثيقي، وقد وجدت له العذر آنذاك، بسبب عدم اطلاعه على الرسالة التي قدمت في جامعة القاهرة، وبعد ذلك أخبرني في أول لقاء معه: بأنه اطلع على الرسالة، وكتب عنها، وكان هذا لقائي الأول معه في قم عام ٢٠٠٦ م، عندما بادر بالحضور إلى الفندق الذي أقيم فيه، وتوقعت عندما أخبرني عن اسمه؛ أني سأجد أمامي شيخاً معمماً ملتحياً، غير أني وجدته أمامي يرتدي زياً عصرياً. وعندما أبديت استغرابي من ذلك، أجابني: ها أنا ذا أمامك بصورتي الحقيقية، ولك أن تفكر بشأني وبزيي كما تشاء، ثم بعد أن استقر به المجلس زاره اثنان من أصحاب العمائم، فلما استطلعت منه الخبر، قال: هؤلاء تلاميذي في الماجستير، وهذا موعد لقائهم الدوري بي. وقد أخبرت بعضهم بمكان وجودي هنا، فجاءوا لأجل ذلك. وراحوا يلقون بأسئلتهم عليه، وهو يجيبهم. فرحتي كانت عظيمة وأنا أراه أستاذاً مرموقاً... وأسأل الله له السداد والموفقية في هذه المسيرة العامرة الحافلة بالعطاء.

وختاماً أقول سيظل الأستاذ عبدالجبار الرفاعي علماً بين التنويريين الإسلاميين المعاصرين، رغم انه بدأ الدرس في حوزتي النجف وقم التقليديتين، وفي تصوري أن هذا الدرس الحوزوي قد أعطاه عمقاً وأصالةً فكرية، جعلتاه يتمسك تمسكاً شديداً بثوابته الإسلامية. وهذا يكاد أن يكون مفقوداً لدى كثيرين ممن عرفوا واشتهروا بالكتابة التنويرية المعاصرة في المشرق العربي ومغربه وغيرهما في البلاد الإسلامية. وللتوسع والمقارنة مجال لا تتسع له هذه الشهادة.

هذه انطباعاتي التي سجّلتها على عجل عن هذه الشخصية الكريمة، التي تشاركني النسب إلى العلم، وجغرافية المدينة.

❖ ❖ ❖

عبـد الجبـار الرفاعي
حيث الإسـهاب إيجـاز

✍ السيد هاني فحص[1]

" لا تحرك به لسانك لتعجل به ".

إذا اشتغل اللسان وحده، كما في سيرة الحمقى، فإنه يجمح، يثرثر فيؤذي.. ألا يؤذينا هؤلاء الثرثارون في بلاد العرب ولبنان وبلاد المسلمين، في ما يُنزّلونه على السياسة، ولا ينزل.

وإذا اشتغل القلب وحده، فإنها مَشْغَلة، لأنه يفيض، إلى آخر الليل وآخر الحب، وعمق الروح، وثمالة الحبر، وسلاف اللغة.. فلا يبقى هناك.. أو هنا.. أو هنالك، وقت يتسع للإنصات له.

فإذا اشتغل العقل وحده، حفر، نقّب عن الحقيقة، ونحتَها، وزيّنها بالسؤال والاحتمال مع احتمال جفاف ما.. ولعل أحلى وأصعب ما في أمر القول، هو التركيب أو التأليف، الذي لا يتم إلا بتآلف وإلف وألفة.. وإيلاف، أي تأليف الورشة اللازمة والكافية، لتشغيل العقل والقلب واللسان.. أو القلم، معاً، بمساواة بين الجميع، بشرط العدل، تحقيقاً للانسجام، على ما يعرف أفلاطون العدل.

من هنا، أو هنا، يتموضع الفكر والفن والإبداع، كتاباً، مجلة، وتلاميذ، يجمعون في حقائبهم أو سلالهم المعرفية، من صحبتهم لأستاذهم الدكتور عبد الجبار الرفاعي[2]، علماً إلى خلق.

لا يظننَّ أحد أن أصدقاء وزملاء، وحتى أساتذة عبد الجبار الرفاعي، أقل انتفاعاً بعقله وقلبه، وحبره السخي، ولسانه الدافئ على مُضاء.. والقاطع، إذا اقتضى المقام، فصار الكلام كلأماً.. غير انه لا يجرح إلا ليعالج، يستأصل البثور وبذورها.

---

(١) مفكر وأديب وناقد لبناني.

(٢) أحد أعلام العراق، ولد في قرية من قرى قضاء الرفاعي في محافظة ذي العراق، له في المكتبة موسوعة (قضايا إسلامية معاصرة). أشرف عليها عقوداً، وعشرات الكتب في فلسفة الدين والأنسنة وعلم الكلام الجديد وغيره.. وقد كرمته الحركة الثقافية في أنطلياس في ٢٠١٣/٣/٣ والمقال شهادة في حفل التكريم.

ويجتث الخلايا الخبيثة من الذاكرة والرؤية، ليزدهر الحلم، وبدل أن ينزّ الجرح دماً، يفوح علماً ويضوع عطراً.

أنا من الأصدقاء، الذين يلتبسون عامدين، بتلامذة عبد الجبار الرفاعي.. ولكن من اجلي، ربما حصراً، أي من أجل معاريـ‌في التي لا تنمو الا بالتعدد والاختلاف والحوار، لتبلغ ذروة التوحد.

من أين تأتي خصائص عبد الجبار الرفاعي؟ تأتي من تركيبها وتركبها على جدل غني بقلقه، ومن تعدد مصادرها الروحية والمعرفية المفتوحة على كل الجهات، كدحاً نحو هوية تحنطها الكينونة، وتحفظها السيرورة، وكان يمكن أن لا يظهر هذا التركيب أو التعدد، الذي يتغذى من الاختلاف، وينمو مطرداً على محبة وشراكة، لولا أن الرفاعي قد اتخذ مبكراً قراراً نهائياً وفدائياً، بالحرية، وفي الحوزة العلمية الدينية، القائمة على الحرية، والتي كلما حاصرتها السلطة لتستلحقها ازدادت عشقاً للحرية، فقيه حرّر العمامة من أعبائه، عندما تحرر من أعبائها، وأحالها مرموزها العلمي الحضاري والأخلاقي، إلى قلبه وعقله وذمته، حرر وقته وعلائقه وحركته ومكتبته، من زمان الحوزة الراتب، ومكانها المشددة الحراسة فيه وحوله، من دون أن يخطئ في تعيين مسار الإصلاح المجدي، من الداخل..

تحرر من المذهبية فحرر المذهب، عندما استراح في ظل الرسول وفضاء الرسالة، وكنف الأئمة، مرتاداً بيوت الرسالات ومقامات الفلسفة، يبحث عن الإنسان، ليأنس ويؤنس ويؤانس، إذ يتأنسن..

أجدني مضطراً إلى تشغيل العقل أكثر، حتى لا يتفرد القلب بعبد الجبار الرفاعي، وفي القلب له ومنه كثير، قد يعني الإطالة في عجالة.. مع ان الإطالة أو الإسهاب في الأخيار، الكادحين، والمبدعين، يشبه الإيجاز وأحياناً يصبح إيجازاً مُخلاً.

أحيي الحركة الثقافية في أنطلياس، المشغولة، من بداية الحرب وخلالها، وفي هذا السلم المقدمة للحرب، أو الحرب، بما لا ينشغل به إلا كبار الكبار، هماً وهمة، رؤية وذاكرة وأفقاً.

❖ ❖ ❖

عبد الجبار الرفاعي
أو الذات في المرآة

✍ السيد هاني فحص

بلغتني رغبة صديقي الأثير لدي، من جهة العقل وناحية القلب، الدكتور عبد الجبار الرفاعي، بالمشاركة في الشهادة له أو عليه، على أساس ما هو مسلم من سيرته، بأنه لم يقترف إلا علماً وتعليماً.

مشفوعة، رغبة الصديق، برغبة الرابطة الثقافية في أنطلياس (لبنان)، متعهدة تكريم الأكرمين، لبنانيين وعرباً.. وآخرين، من دون تفريق بين المبدعين والعارفين، والتي يصعب على أهل الذوق والإنصاف، أن لا يلبوا رغباتها بفرح وفخر، لأنها رابطتنا، ومقرها الذي لا قرار له، لدوام حراكه، وفيض حيويته، رباطنا المعرفي والوطني، ترابط فيه خيول إبداعنا وكتبنا وأقلامنا وطروسنا، وتروسنا التي تقينا شر الفتن والحروب، حتى عندما تعمّ، لأن الرابطة كانت وتكون بمنزلة الملجأ أو المنجى لطالبي الخلاص من مرض العصبيات والهويات القاتلة.. وشعرت بأن هاتين الرغبتين، تكريم لي ولا مندوحة لي في رد المكرمة.. ومنيت نفسي بفرصة ثمينة، أتنكب العجالة فيها، وأنصرف إلى ركن، يعادل مكتبة في مكتبتي، هو رف كتب عبد الجبار الرفاعي، وما سلم من السرقة والإهداء، من أعداد مجلته الموسوعية الوقور "قضايا إسلامية معاصرة"، التي أُوليت وتوليت شرف تقديمها والتعريف بها إلى من أحترم من القراء والعلماء والباحثين في لبنان، المهمومين بالأسئلة الأولى وتداعياتها وارتداداتها المعرفية، التي لا تتوقف عن التوالد والتعاظم كماً وكيفاً.. غير أني شعرت وكأن عليّ، ومن أجل مقدار كاف من الموضوعية، أن أفصل فصلاً قاسياً بين الذاتي والموضوعي، في علاقتي المركبة بالرفاعي، آثرت أن أنحاز للذاتي، ولكن ليس على حساب الموضوعي، بل لحسابه، لأن الذاتي يضيء الموضوعي، كما أن الموضوعي يفسر الذاتي.. والأليق بي أن أوقد ذُبالة فانوسي الذي يشبه قنديل "ديوجينوس" المعرفي، وأبحث عني في عبد الجبار، وأستدعيه ليبحث عنه فيَّ، وإذا شاء فإني أقبل بالقيام بهذه الوظيفة نيابة عنه، وأعده بأن أجوس خلاله لأعرف أكثر.

وبدا لي، بعد إعمال النظر والفكر، إن هذا الاختيار، أي اختيار الطريق الذاتي، للولوج إلى عالم الشيخ الرفاعي، الذي لو كان معمماً يرتقي إلى مستوى رمزية العمامة، وعندما لم يتقلدها فإنه لم يودعها، بقيت فيه وبقي فيها، بمعناها العلمي والأخلاقي ورمزيتها الحضارية، لن يؤثر - أي الطريق الذاتي - سلباً في حجم ونوعية الاشتغال البحثي الموضوعي عليه، لأن له أنداداً من العلماء كثراً، يهمهم كما يهمنا ويروق لهم ولنا.. وله، أن يبحثوا عبد الجبار وفيه وفي كتبه

وفكره، على جدارة قد لا تتيسر لي. أو أني لن أكون في مكنة من أن أضيف إضافة نوعية، إلى ما يأتي منهم أو على يديهم، من أمثال الدكتور حسن حنفي أو الدكتور طه جابر العلواني وغيرهما، فضلاً عن عديد التلامذة الذين اشتغلوا عليه أو معه، في أطروحاتهم الجامعية، فعرفوا، أو تعرفوا، إلى حركة ذهنه وراء نصوصه المكتوبة، فكان ذلك أدعى إلى أن يبدعوا أكثر مني، خاصة، إذا ما استطاعوا أن يُحلوا العلم بالحب ويسوحوا معه في كتبه الاستقبالية عن فلسفة الفقه، التي من خلال استبيانها يتجدد الفقه ويشارك حقول المعرفة الأخرى، ليصبح علماً أكثر حيوية، وعن علم الكلام الجديد، الذي لم يجدَّد مع أنه الأساس، ولذلك أصاب الخلل كثيراً من الفروع في طوابق العمارة المعرفية.. إلى كثير جداً مما يتصل بالحداثة وتحدياتها، والعنف والتطرف، والدين والسياسة، والحرية والدولة المدنية. وأعدت ما رصفته من كتبه على مكتبي.. وشرعت باستحضاره شخصياً، مستذكراً لقاءاتي الثنائية معه، أو تلك التي شاركنا فيها من يلعبون في ملعبنا، أي في المساحة المحررة والمدوَّرة، من فضاء الثنائيات، حيث تمكننا النسبية التي نعتقدها، من التحرر ومن التحجر المعرفي، فنعرف أكثر، لأننا نلتقي ونتلاقى أكثر.. ولأننا اكتشفنا أن القبليات والمسبقات والعنديات والإطلاقات والتعميمات والتماميات والنهائيات، في عالم المعرفة، هي انكشافات جهلانية، وهي من أهم مصادر الجهل المركب، والذي يشوه، فيما يشوه، إيمان المؤمن لأنه يقيمه على الحرف والسكون، فيتكلس أو يتآكل، أو يتناقص أو يتلاشى، فيضطر فاقده أو ناقصه، إلى العصبية الذميمة، والخرافة أحياناً، وكراهية الاختلاف والتعدد، ليستر حاله أو يتستر من شمس الحقيقة، التي تحرقه حتى لو كانت أقل حرارة من قلب الجاهل المطمئن إلى سعة علمه أو سعة جهله.

وأتملى منه وجهاً حنطياً داكناً، يشرق ببسمة تتشبث بالوقار فتبدو وكأنها محبوسة، إلا إذا تنبه الدكتور الرفاعي إلى مفارقة بين دعوى التدين المبالغ فيها أو فيه، وبين السلوك المباين لها، أو بين الركون الكسول والمغرور إلى العلم أو الأعلمية في أمر أو موضوع أو حقل، وبلوغ غاية الجهل فيه جراء المكابرة والشعور المراوغ بالامتلاء والصوم عن السؤال والإصغاء، إلى آخر المفارقات، فيذهب إلى ضحك طويل وعريض وصاخب وجارح لأنه جريح. ومجروح من السعي المكشوف إلى ستر الفارق النوعي بين العلم والجهل أو بين الدين واللادين.

وجهه الذي أراني فيه، لا يشي إلا بما يشي به وجهي، الذي لا يختلف عنه كثافة في اللون الحنطي، إلا كما يختلف نوع من قمح الناصرية (قمح الرفاعي مثلاً) عن قمح آخر من الناصرية ذاتها (قمع سوق الشيوخ أو أبو هاون مثلاً)[1]، أو كما يختلف لون ورقة بردي جافة وجاهزة للكتابة في (هور العُزيْر)، عن أخرى في (هور الحمّار).

---

(١) "الرفاعي" مدينة المكرم في محافظة "ذي قار" جنوب العراق ومركز مدينة الناصرية وسوق الشيوخ وأبو هاون من مدنها.

ويشي.. وجهه الذي يحيلك إلى قلبه، الذي يأخذك إلى عقله، بما تبقى من آثار الصَّهد في قيظ الرفاعي، على الوجنات، إلى عينين لا يفلح حزنهما الدهري العتيق في التغطية على عمقهما العميق، حتى لتبدوان وكأنهما بصيرتان لا باصرتان، تنظران ريثما تريان، فإن لم تريا غض صاحبنا طرفه وذهب إلى صلاته مستغفراً ربه عن الفراغ وأرخى عينيه في صدره.. ويستفزك أو يحرك الحزن المتدفق في مجرى (الغرَّاف)[1]، ومن عمق الأهوار والأهوال.. يغريك بأن تمد يدك إلى غُلالته لتزيحها، وتتعارف مع هذا العارف، وتتثاقف مع هذا التثقيف.. وتنزاح الغُلالة ولا ينداح ماء الحزن.. تكتشف جداول وترعاً وأنهاراً أو فروعاً وروافد، من الأحزان التي لا يحلو لعشب الفرح ونخيله إلا أن ينبت على حوافيها ويرتوي من سواقيها.

وإياك أن يغريك هدوء السطح بالقطع من شط إلى شط، تغرق إذن، فسكون العارف ظاهرا، لا يعني ان المرجل لا يغلي ولا يفور إذا ما حركت غطاءه بعجلة، ومن دون دربة على الحوار أو الجدل، أي من دون مغالطة، على ما يعرِّف المناطقة طلب العلم بالجهل الشاطر أو المتشاطر.. أما إذا أردت أن تتعرف أكثر إلى ما في المخزن، تحت السطح، فاسأل تلامذته الذين يتعلمون علمه فيتقنون وحبه فيحسنون.. ويحدثونك عما يقرأ ويكتب، فإذا أنت أمام صياد ماهر على (مشحوف)[2]، من جريد نخل وقراطيس، يطرح شباكه مع القمر في بدريته أوائل الليل أو آخره، ويعود ملياً غانماً بين طلوع الفجر وطلوع الشمس فيصلي.. ويقرأ ويكتب وينام "ملء عيونه عن شواردها".

إن الأغلبية الساحقة ممن تتلمذوا عليه، أو سمعوا منه وقرأوا لعبد الجبار الرفاعي، يحرصون على أن يقدموا أنفسهم وكأنهم من ثمار بستانه أو غلال حقله.. وقلة قليلة تأخذ علماً وتضمر كيداً وتبدي نكراناً، فينالها من سلبيات سلوكها أكثر مما ينال عبد الجبار الرفاعي.. بل على العكس من إرادة المتنكرين.. لا تزيده قلة الوفاء له إلا كثافة في الحضور وزيادة في العطاء والوفاء للأوفياء ومن الأوفياء.

يا أبا محمد.. إني أقول هذا الذي عاينته وعانيته فيك، لأؤكد أن إشكاليتك أو إشكالياتك هي إشكاليات العالم، ومن لا إشكالية له من هذا النوع وهذا العيار، يستحق أن تشك في علمه، لأننا تعودنا أن لا نرى اتفاقاً، وأحياناً التفافاً، إلا حول أهل الجهل، مثل الحكام الريعيين والزبائنيين وغيرهم.. أما العالم فإن غرابته وغربته عن قومه أو فيهم، هي من أهم محددات علمه سعة وعمقاً.. وما أحلى وأجدى أن نؤنث الغربة ونوطِّنها بالمعرفة!

على أنك.. وأمثالك، من العلماء الذين نختلف معهم ليلاً ونهاراً، ونعود إليهم ليلاً ونهاراً، ولا نستغني عنهم ليلاً ولا نهاراً، تشكلون فرصة وحافزاً وحلاً وأمثولة لطلاب العلم أو للعلماء الذين لا يكفون عن طلب العلم، لأن الكف عنه ينقصه.. أما منتفخو البطون برياح العلم، فمن الطبيعي أن ينظروا إليكم ولا يرونكم لأن على قلوب أقفالها.

---

(١) "الغراف" من فروع دجلة في "ذي قار".

(٢) الاسم الشعبي لمركب الصيد الصغير.

أتراني أقدم نفسي فيك بهذا الكلام.. أو أني أنفذ إلى ذاتي منك.. وأنت تعرف عن كثب ماذا يعني هذا الكلام المشتق من حالات الصوفية، والمنقبين عن كنوز الحب، لأنك ذهبت بعيداً في قراءة أمير العشق جلال الدين الرومي، وأقرأتني فأعدتني إليه فظلمتني أو أنصفتني؟

أبا محمد.. أنت تعرف واقعيتي التي تظهر وكأنها تواضع.. وليست كذلك، بل هي طبع أو لون من الكبرياء والتعالي لا الاستعلاء، من دونه أضيع وأضيّع أحبتي وتلاميذي وأساتذتي وأسئلتي وقلمي ودفتري وحبري وقلقي.. واني لأعرف أساتذتي وأحبتي كما يعرف الرضيع ثدي أمه، أما تلاميذي فلم أصادف أحداً منهم حتى الآن.. وإن كفايتي من العلم أني فقير يستميح العلماء علماً. فإن اضطر لم يأنف الكدية ميلاً إلى الملامة.. ولكني أريد أن أسرّ لك بما تقوله لي نفسي بعد أن تغادر أنت مجلسي.. قالت لي نفسي مراراً بأن السهرة أو السفرة، بالمعنى المعرفي والشيرازي تحديداً، صحبة هذا الرجل أو إليه.. أو استقباله في سفره إليك. هي مناسبة للتدقيق في عواطفك السالبة والموجبة، وفي ذاكرتك الحوزوية والريفية والطبقية والأدبية الكلاسيكية والحداثية.. وهي مناسبة لإعادة اكتشاف مساحة الإيمان والعقل، وجدلهما في داخلك ومعرفتك، وهي مناسبة لتجديد الحب والكره لمن شاء أن يكره.. حيث تنتهي السهرة أو السفرة، بالاقتصار من الكره على الغضب، لأن الغضب إذا ما بلغ نهايته المنطقية أعادك إلى الحب والى تشغيل الجدل الجميل والخلاق بين العقل والقلب، بين الذات والآخر، كل آخر، خاصة الآخر المختلف، وبصورة أخص، الآخر الأعمق اختلافاً ووعياً للاختلاف وضرورته للإبداع والشراكة في إنتاج الحياة والعلوم.

ونقوم من جلساتنا يا أبا محمد وقد اشتقنا إلى من أشركنا في أذاه لنا.. أي آذانا معاً.

لماذا ؟ لأن العالم ملزم بالتخفيف والتخفف من الصغائر والصَّغار والصِّغار، لأنه يريد أن ينام عميقاً وطويلاً وهنيئاً على سرير المعرفة، ويحلم باكتشاف حقيقة أخرى من خلال الحوار العميق مع الكبار الكبار فكراً ونبلاً.. ومع الأفكار الكبيرة، التي تؤكد يومياً بأن العالِم العالم لا يزجره إلا العلم ويكفيه قطعاً.. بينما الجاهل لا يزجره إلا الحكم وقد يكفيه.

من هنا التقينا يا أخي أكثر من مرة على أن حاجتنا هي إلى الكليات، أما حاجة آخرين فإلى الجزئيات.. هناك آخرون لا يستطيعون الكدح إلى ربهم إلا بالتفاصيل، أما العلماء، الذين يحصر القرآن الخشية فيهم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فلا يتنكرون للجزئي ولا ينكرونه.. ولكن الكلي كليتهم.. ومن هنا كان شغلك على ذاتك بالأنسنة وبالأنس، أي بالهجر والهجران والاستبراء (بالمعنى الفقهي) مما تبقى من آثار أضغاث على إبّالة، وغثاء أحوى من زمن تورطك أو توريطك في سكنى الكهوف التي تحزب، أي تضيق وتضيِّق على العقل والقلب. وكان رسول الله (ص) "إذا أحزبه أمر صلّى"، أي حرر بدنه وروحه من ضيق الجزء أو الجزيء بالسفر إلى الكل أو الكلي. وتنقي ذاكرتك ومزاجك من وَشَب

عالق في عَرَضك لا في جوهرك. ولو كان في جوهرك لزادتك قراءة الكتب، فصالاً مع الناس والحياة والحقائق، أي لكان العلم زادك جهلاً أو جهَّلك.

وعندما لمست بيدك وقلبك، أني مهموم بالإنسان في داخلي وخارجي، في ذاتي ومرآتي، في شروطي الإيمانية والتوحيدية والإسلامية والشيعية واللبنانية والعربية، في شروطي المعرفية بذاتي وبالآخرين، وشروطي الوجودية في الآخر.. وتشارطي مع الآخر، حتى لا أكون أنانياً، بل أكون غيرياً في تأهيل نفسي لمساعدة الآخر على وعي ذاته وآخريته.

عندما لمست ذلك.. آخيتني.. وقلت لي ما أردت قوله لك، من أننا شقيقان.. أنا شقيق روحك وأنت شقيق روحي.. واتفقنا على تأصيل إنسانيتنا فاكتشفنا معاً، أن إرادة التأصيل هي إبراء لإسلامنا من كل ما حمل عليه من كراهية.. وأن الفضاء الصوفي والعرفاني.. من مثنوي الرومي إلى فتوحات ابن عربي، الحافل بالحب، هو فضاء الحقيقة خلف الشريعة، وهو حياة الشريعة لا مماتها، لو أن الفقهاء أعادوا الاعتبار للأسئلة بدل التكرار المطمئن للأجوبة.. وكأن الاجتهاد هو إعادة إنتاج الأحكام ذاتها.

عزيزي أبا محمد.. الكلام فرصة، الكلام كثير عنك وعني.. وعنا، نحن الطالعين من كهوفنا إلى فضاءات جماعاتنا الدينية والمذهبية والإثنية.. حتى لا يبقى أو يصبح الانتماء حصاراً، أو حقلاً مقحلاً، عندما يكون حضور الآخر فيه محدوداً، لا يكفيه ولا يرويه.

أمن فراغ.. أم هي لذعات التجربة ومراراتها وكشوفاتها، تلك التي جعلتنا نتحدث عن كامل شياع الشيوعي الشهيد، وعن فخري كريم الشيوعي الشاهد.. وكأننا نشعر بالخسارة لأننا لم نكن معهم.. أشخاصاً وأوجاعاً وأحلاماً.. لا عقيدة ولا حزباً.. ولأننا كنا مع آخرين يشبهوننا كما يشبه سواد الغربان سواد البلابل.. وكما يشبه (عاقول)[1] نقرة السلمان رازقي الناصرية.. وكما يشبه الشوّان الشّلب[2]، وكما يشبه الإسلام الحزب، وكما تشبه البغضاء الحب، ويشبه الاستبداد الحرية، ويشبه الحاكم العالِم إذا أصغى وصلح ورام صلاحاً، أو العالِم الحاكم إذا كفّ العالم عن علمه. أو الدين الدنيا عندما يتدينون أو الدنيا الدين عندما تتدين.

يا أبا محمد.. كثيرة هي شبهاتنا والتباساتنا.. على قلة ارتكاباتنا، ولكنها كثيرة أيضاً مراجعاتنا وتوباتنا، ما أجمل ما كنا نراجع معاً.. ونرجع معاً إلى حيّن حيّ الوحدة تجلياً للتوحيد، وحيّ الكثرة في الواحد.. حينا العامر الملتئم جميع عامريه الآن في هذه العمارة اللبنانية الباذخة. في حديقتنا الخلفية وحديقتنا الأمامية وحديقة يسارنا، ويميننا وأعماقنا، واعترافنا وعرفاننا، حديقة الرابطة الثقافية في أنطلياس التي يزيدها التكريم كرامة بك. ❖

(١) "عاقول" نبات صحراوي كثير وقوي الأشواك.

(٢) "الشلب" هو الأرز قبل حصاده.

الدكتور عبد الجبار الرفاعي
رائد التلاقي بين المفكّرين والتجديديين المعاصرين
من مختلف المذاهب والطوائف الإسلامية

✍ د. طه جابر العلواني[١]

عرفته والتقيت به منذ سنوات عديدة، لقيته في طهران والقاهرة وأماكن أخرى، وعجبت لهذا العالم الحوزويّ التراثيّ، الذي وإن لم يحمل على رأسه عمامة، لكنك ترى فيه كل شيء يؤكد عليك حين تلقاه بأنك أمام عالِم من علماء التراث والأصالة، وشيخ ذي خبرة في الداخل والخارج من تلك المعارف، مع وعي بالحداثة والتجديد والتنوير وجهود الإصلاح عبر تاريخنا الإسلامي، وفهم عميق لتلك الجهود وطرائق سيرها، وما بلغته من مستويات الإصلاح مَا تراجعت عن بلوغه ووعي بأسباب ذلك.

حين تجلس إليه يصعب عليك أن تحدّد مذهبه أو طائفته التي ينتمي إليها، فالرجل موسوعيّ. وهو في الوقت نفسه يشعر بالانتماء إلى الكيان الاجتماعيّ كله. يقنعك من الدقائق الأولى بأنّه يحمل هموم أمّة، لا هموم فرقة ولا طائفة. وقد اختار ثغرة من الصعب أن يقف عليها أحد غيره، فالرجل اختار عقبة واقتحمها، ألا وهي عقبة إيجاد بيئة ثقافيّة معرفيّة قارة ومتنقلة للتلاقح الفكريّ والثقافيّ والمعرفيّ بين علماء الأمّة ومفكّريها، في أجواء خطيرة، جعلت منها السياسة أجواء استقطاب وتأزم وانحياز وتحيز وتعصب، فإذا بالرفاعي يؤلف الكتب، ويكتب البحوث والمقالات، ويلخّص، ويقدّم وينتقي ويختار، ويؤلف، ويترجم، ويحقق، ليوحي بكل جهد يبذله أنّ هذه الأمّة أمّة واحدة، مستفيداً من دراساته المتنوّعة المتوسعة واطلاعه المتميز على الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام والفقه وأصول الفقه والدراسات الإسلامية بعامّة. وكل مَا أصدره الرفاعي أو شارك في إصداره، وخاصّة منارة الفنار "مجلة قضايا إسلامية معاصرة" ينطق بهذه الحقيقة ويعززها.

كنت أتعجب كيف يجمع رجل مثله كل هذه المزايا في شخصه؟ ومن أين يستمد العزيمة والقدرة على الصبر على كل مشروع من مشروعاته وما أكثرها، ويتعهده بالعناية والرعاية حتى يستوي على سوقه، ويدخل دوائر الإنتاج الفكريّ العالي والمعرفيّ؟ فوجدت الجواب في تلك الخلفيّة المتنوّعة لكاتبنا الشهير، فالرجل حصل فيما حصل عليه من شهادات، على "دبلوم فني زراعيّ"،

---

(١) فقيه ومفكر إسلامي عراقي، الرئيس السابق للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية.

ومن آتاه اللّه تعالى شيئاً من الفهم والفقه في الزراعة، فقد أعطاه صبراً وحكمة وروحاً فياضة، وأملاً لا ينقطع ولا يمكن لليأس أو الإحساس بالثقل أن يوقفه. فهو فلاّح، لكنه يعمل في فلاحة الأفكار واستزراع المعارف بتوكل الفلاح وصبره وأناته وآماله وتطلعاته.

مضافاً إلى انخراطه في دراسة العلوم الإسلامية في الحوزة العلمية في النجف سنة ١٩٧٨، ثم إكماله بقية دراسته في الحوزة العلمية في قم. فقد أمضى أكثر من ثلاثين عاماً تلميذا وأستاذا في الحوزة العلمية. وبموازاة ذلك حرص على مواصلة دراسته الأكاديمية في الجامعة، حتى حصل على الدكتوراه في الفلسفة بتقدير امتياز.

عرفته في مجلته حين دعاني للكتابة فيها، فلم أتردد لحظة في ذلك،وحين جاءني ذات يوم يعلمني أنّه قد اضطر لبيع مكتبته لتغطية نفقات مجلته لكي لا ينقطع ذلك الصوت، وعدته أن أكون معه، وأنّني مَا دمت حيّاً فلن أسمح بتوقف هذه المجلة، أو انقطاع هذا الصوت، وأعانني اللّه جل شأنه ووضعت جهدي إلى جانب جهده، واجتازت المجلة عقبتها تلك.ثم رأى انشغالاتي الكثيرة فأقنعني بأنه يستطيع أن يقوم على جمع وتحرير بعض مقالاتي المهمة ودراساتي، ويعطيها عناوين كتب مناسبة لمحورها، ويكتب مقدمات لها، ويشرف بنفسه على طباعتها. وقد وفّى بعهده، وجمع بجهوده "خمسة كتب"،لولا أنّه أعطاها من عنايته لما ظهر إلى الوجود شيء منها، وقام بطباعتها ونشرها مركز الدراسات الذي أسسه ببغداد "مركز دراسات فلسفة الدين، بالتعاون مع دار الهادي في بيروت"، وهي الآن كتب تتبوء مكانة مناسبة بين كتابات أمثالي.

إن الدكتور الشيخ عبد الجبار الرفاعي عالم مفكّر، ومفكّر فقيه،وذو قلم خدم العلم والفكر في عالمنا هذا كثيراً ولا غرابة في ذلك، فهو أمد اللّه بعمره وزاده اللّه بسطة في العلم والجسم كأنّه ولد ونُشأ ليكون نموذجاً للعالِم الموسوعيّ والمفكّر الفقيه الذي ينتمي إلى الأمّة كلّها،لا يمكن أن يهبط إلى درك طائفيّ، ولا أن يغمز بتعصب مذهبيّ؛ فطائفته إن صحّ التعبير هي الأمّة كلّها، وقلمه في خدمة رسالتها وأهدافها وعوامل نهضتها.

الرفاعي مفكر فقيه تدل كتاباته ومجلته وكافة جهوده على تجديد مناهج الاجتهاد، في علم الكلام، وأصول الفقه، والفقه... والدعوة للتعايش والحوار، والتشديد على اكتشاف مقاصد الدين، وتوظيف رسالته في احتواء وعلاج التعصبات والكراهيات والسلوك العدواني، وبناء فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث القيم الأخلاقية العميقة في جوهره، ويستوحي مقاصده الكلية، التي تهدف إلى تعزيز كرامة الإنسان، وتهتم بإشاعة التراحم والمحبة والسلام بين البشر.

إنّه مجمع في رجل، تتشرف أي جائزة به، ولا أظنها تضيف إلى شرفه. وفقه اللّه تعالى لما يحبه ويرضاه، وجزاه اللّه تعالى عن العلم وأهله والفكر وحملته، والإسلام وأمته خير الجزاء.

القاهرة ٢٠١٣/١/١

الدكتور عبد الجبار الرفاعي
جسرٌ بين الشرق والغرب

الأب الدكتور يوسف توما الدومنيكي[(١)]

يقول فيلسوف الحضارات أرنولد توينبي Toynbee (١٨٨٩ ــ ١٩٧٥): "إن أعظم الحضارات هي تلك التي كانت جسراً بين الحضارات"، وعلى هذا نستطيع أن نقسمها إلى حضارات مفتوحة ومنغلقة على نفسها. وعندما تكون الحضارات منفتحة على الحضارات الأخرى، تصبح غنيةً وتتفاعل معها لتأخذ وتعطي.

منذ ما يقرب من (١٠) أعوام تعرفت على الدكتور عبد الجبار الرفاعي عبر مؤتمر عقد في أربيل، وكان بيننا حدث أعدّه مؤسساً لصداقتنا، وقد سبق لي أن نشرته في جريدة المدى، لكنني أود هنا أن أروي ملحقات هذا الحدث، إذ أعقبته لقاءات أخرى، وترسّخت بيننا صداقة عميقة جعلت من ديرنا في بغداد، دير الآباء الدومنيكان محطةً نستضيفه فيها، فنلتقي إما معه أو مع أصدقاء آخرين يعرّفنا بهم. لكنني لمست في كل مرة التقينا فيها أن هذا الرجل ليس شخصاً مثقفاً وحكيماً فقط، إلا أن لديه موهبة خاصة (كارزما)، إذ يستطيع أن ينقل ما يحصده منجله الفكري متنوّع الاهتمامات من أفكار يجمعها من الشرق والغرب إلى الآخرين، إن لديه القدرة على فهم المقابل مع مختلف توجهاته واهتماماته. ولعلني أشعر بقوّة أكبر من غيري بهذه الميزة لديه، نظراً لكوننا نعمل في مجالات متشابهة، من نشر وإصدار الكتب والمجلات، فهو مؤسس ورئيس تحرير مجلة "قضايا إسلامية معاصرة".

لكن، بعيداً عن الهموم التقنية والفكرية التي يتعرض إليها كل من يعمل مثل عملنا، اكتشفتكم أن هذا الرجل قريب مني إنسانياً، وأنا سعيد حقاً بتعرفي إليه أكثر فأكثر، خاصة في عالم اليوم الذي أصبحنا فيها شبه معزولين، وهذا أمر لا مجال للهرب منه، فقد سادتنا عقليات قديمة تتابعت في العقود السابقة، التي استسهلت الفصل بين الناس، وحرضّت على عدم التقارب بينهم، فأقامت "سواتر" اجتماعية ودينية وطائفية، لقد كانت في السابق غير منظورة ومعنوية، لكنها في الحاضر تحوّلت إلى حواجز وسواتر

(١) رئيس تحرير مجلة الفكر المسيحي، مؤسس أكاديمية بغداد للعلوم الإنسانية.

إسمنتية وكونكريتية، بحيث صرتَ تخاف من امتدادها في كل مكان بل تغلغلها في البيت نفسه بين جيل الآباء والأبناء.

إن تفشي الجهل الذي يشتكي الجميع منه اليوم بسبب الأمية الزاحفة والتراجع الثقافي المنتشر في كل القطاعات، مما دفع الأمم المتحدة عام ٢٠٠٣ إلى إصدار تقرير ملفت للنظر عنه. إن أخطر ما في الجهل هو أن نجهل كل شيء عن أنفسنا ومواطنينا وإخوتنا وجيراننا، فما أكثر الناس الذين لا يعرفون شيئاً عن المسيحيين العراقيين وعن تاريخهم وحضاراتهم المتنوعة والغنية! وعن وجودهم في العراق، منذ بدء البشارة بالإنجيل على يد الحواري توما الرسول ومار أدي وماري تلميذي المسيح. وإني ألاحظ هذا الجهل نفسه لدى المسيحيين، الذين وجهوا نظرهم منذ عدّة قرون نحو الغرب ـ بحكم الحماية التي كانت تشكلها الدول المسيحية الغربية كفرنسا وإيطاليا وغيرها إبان الحكم العثماني ـ حتى نسينا أن طريق الهجرات المسيحية في الألفية الأولى كانت دائماً نحو الشرق: نحو إيران والتبت والهند والصين ومنغوليا، خاصة في زمن الساسانيين الذين شنوا حملات اضطهاد كبيرة، اشتهر منها ما حدث عام (٣٤٠م) حين استشهد البطريرك مار شمعون برصباعي (ابن القصارين) يوم الجمعة العظيمة، ومنذ ذلك الوقت يلبس بطاركتنا اللون الأحمر لأننا كنيسة شهداء!

هذا العبور من عقلية الانغلاق والتجاهل لدى الجماعات التي يمكن أن تعيش في البلد الواحد، لمست آثاره لدى الدكتور عبد الجبار الرفاعي، الذي يمتاز برغبة قوية بالتخلص منها، وعدم "إعطاء الظهر" لمن كانوا دائماً جسوراً بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، فهو يذكرنا دائماً من خلال زياراته إلينا بأسئلته واهتمامه وعفويته، أن على الجميع أن يلتقوا وينظروا ويحللوا ما يحدث فينا وبيننا ومع جيراننا، لكي نتابع ما يجري في كل من إيران وتركيا ودول الشرق الأوسط من حركة فكرية ونهضة وتطلع نحو المستقبل.

كم أتمنى أن يمتدّ هذا التيار ويقوى ويتفاعل، وهذه أيضاً هي الغاية التي دفعت الرهبنة الدومنيكية في العراق إلى تأسيس "أكاديمية بغداد للعلوم الإنسانية" (www.bag-op-univ.org)، منذ عام ٢٠٠٦، والتي نحاول من خلالها العمل على النهوض بواقع الحال كي يعود العراق إلى مكانته القديمة، منذ زمن بيت الحكمة، حين كان منارة بين الحضارات الآسيوية والغربية. إذ لا يمكن حقاً أن نعرف ذواتنا ـ كعراقيين أصلاء ـ إلا إذا فهمناها كجسور وامتداد إلى الحضارات الأخرى، ولا يمكن أن نعرف ذواتنا إلا من خلال الأخذ والعطاء، بتأثيرنا في الآخرين وإصغائنا إليهم.

لك شكري أيها العزيز الدكتور عبد الجبار، لأنك قمت وتقوم بهذا الدور، دور "التجسير" في شرقنا، لإعادة هذا التفاعل بين الثقافات والحضارات، فنسجل ونثبّت عكس ما حاول أن يتنبأ به صموئيل هنتنكتون في كتابه "صراع الحضارات" (١٩٩٦) الذي عدّه بعض الساسة الغربيين بمثابة (كما يقال بالفرنسية كتاب السرير livre de chevet) فشوّه الصورة تماماً، وحجب عن أنظار العالم وجود قوى إيجابية بنّاءة ومتفائلة لا ترى الأمور بهذه الصورة. فالحضارات ليست في صراع إنما في منافسة، والفرق كبير بين هذه وذاك.

أملي أن الزمان سيثبت أن المفكرين من أمثالك يستطيعون تغيير النزول إلى الهوّة، ويخلقون ويمهدون طريق هذا التفاعل الإيجابي. فبناء الجسور بين الجماعات اليوم سيؤثر حتماً على المستقبل الذي لا ينبغي أن ننتظره بسلبية، بل أن نعدّ له وذلك بالتخلص من أوهام لا وجود لها، فنتحسّس أماكن الانكسار القادمة إلينا من تقلبات بيئية، واختفاءٍ للتنوّع الحياتي والمجتمعي، هذا إلى جانب تناقص مصادر الطاقة المادية والمعنوية... كل هذه أسئلة أتركها لتبقى معروضة تنتظر الجيل المقبل من المبدعين.

باركك الله، وأنجح مساعيك، لتحقق نهضة جديدة لإنسان جديد فكرياً وروحياً.

بغداد

١ تشرين الأول ٢٠١٣

الدكتور عبد الجبار الرفاعي كالنسر فوق الغابة...

كنتُ في أحد الأيام أشارك في مؤتمر في جامعة أربيل جمع باقة كبيرة من الباحثين والمتطلعين إلى عراق جديد، كان ذلك عقب سقوط النظام السابق ببضع سنوات، وكانت سيارة باص صغيرة تقلنا كل يوم من القاعة إلى الفندق. فاقترب مني شخص وحيّاني بلطف وجلس بقربي، وسألني مباشرة عن الأم تريزا، فقال: "أبونا، ما هو السبب الذي جعل البابا يوحنا بولس الثاني أن (يرسم) الأم تريزا قديسة قبل مرور الفترة القانونية على وفاتها، وهي بحسب اعتقادي خمس سنوات؟!"، دهشت من سعة معرفته واطلاعه بهذه التفاصيل الدقيقة، فأجبته، محاولا أن أختصر نظرتي عن حياة هذه المرأة العجيبة الأم تريزا، وتأثيرها في زماننا عموماً وفي الهند خصوصاً، وكيف أنهم في الهند، يوم دفنتها نقلوها على عربة المدفع نفسها التي نقلوا عليها غاندي أبي الهند العظيم، إذ عدّوا الأم تريزا أم الهند، فأجبت محدثي وقلت: "لعل السبب أن الكنيسة تعدّ الأم تريزا نبيّة لزماننا". فسألني متعجباً: "نبيّة؟ وكيف ذلك، فالنبي هو الذي يأتي بشيء جديد، ما هو الجديد الذي أتت به الأم تريزا؟". قلتُ: "إن النبوءة

عندنا لم تقفل، وهي مفتوحة لكل زمان ومكان، ولكل عصر أنبياؤه يذكرون معاصريهم بأشياء قد يكونوا أهملوها أو نسوها. أما الجديد الذي جاءت به الأم تريزا فهو أنها ذكرتنا بأن الله موجود وحاضر في كل إنسان فقير!".لم يتمالك صديقي نفسه، فأخذته رعشة ونزلت دمعة من عينه...

كنا قد وصلنا إلى الفندق، فقام وقبّلني من رأسي، وقال لي: "أشكرك لأنك أنرتَ ليلتي".

كان هذا الرجل هو الدكتور عبد الجبار الرفاعي، وكان ذلك اللقاء هو الأول، وعقبته لقاءات أخرى، فلمست فيه هذا الرجل الذي نحتاج إليه في بلدنا العراق. رجل يجمع ولا يفرّق، يعرف كيف يرتفع فوق فروقاتنا البشرية، فيطير كالنسر فوق الغابة فلا يصطدم بأشجارها، يطير في سماء الفكر والروح العالية، ويشير بنظره الثاقب إلى منابع النور والقوة....

هذه بضع كلمات قليلة بحقه، لكنني مذ تعرفت عليه، أصبحت أكثر فرحاً وأملا بأن العراق بخير، وأنه سيبقى منبعا للروح والفكر والحضارة.

ليطل الرب في عمرك أيها العزيز، كي ترفدنا بأجمل ما لديك، ولتكن منهلاً لطلابك وزملائك وأصدقائك، فينتشر عبير فكرك، ليس في العراق فحسب، لكن في كل منطقة الشرق الأوسط، فنحلم معاً، لا بتجنب تقسيم العراق ـ كما ينادي أنبياء الشؤم ـ بل بالعكس بقيام شرق أوسط جديد، يكون بلا حدود، وبلا تجزئة، وبلا تعصب، وبلا عنصرية.

باركك الرب وزاد من أمثالك.

محبك

الأب الدكتور يوسف توما الدومنيكي

رئيس تحرير مجلة الفكر المسيحي

مؤسس أكاديمية بغداد للعلوم الإنسانية

بغداد ٥ شباط ٢٠١٣

ملاحظة: كانت مقالتي في جريدة المدى في شباط ٢٠١٣ تحمل هذا العنوان:

الدكتور عبد الجبار الرفاعي.... كالنسر فوق الغابة.

لكنني اليوم أراه: **كجسر فوق الغابة التي نحن فيها: جسر بين الشرق والغرب. ❖**

من قم المقدسة إلى بغداد الجريحة
شهادة القاهرة الحزينة

تحية إلى عبد الجبار الرفاعي

✍ د. حسن حنفي[1]

أثناء زيارة قم بعد قيام الثورة، وبالمصادفة تعرفت على شاب عراقي في مقتبل العمر، يجتهد ويفكر في مدينة الاجتهاد والتفكير. حوّل بيته إلى مكتبة، وحصير غرفه إلى منتدى فكري وقاعات للاستقبال والدراسة، على طريقة العلماء القدماء. هو وأسرته يستقبلون الطلاب. لا فرق بين منزل وجامعة، بين طعام الجسد وطعام الروح.

هو فقيه وعالم من علماء التراث، منفتح على قضايا العصر، مثل عديد من العلماء في قم الذين يحملون همّ نشر التراث، كما تفعل مؤسسة آل البيت لإحياء التراث للعلامة جواد الشهرستاني، التي أسسها وأنفق عليها، ويعمل فيها المحققون الشبان. ومثل أصحاب مكتبات التراث التي تزخر بها شوارع قم، فالدين والعلم قرينان. كما تزخر قم بعديد من مراكز الأبحاث لتربية العلماء الشبان، إقامة ودراسة،كما كان الحال في تراثنا القديم، حتى أروقة الأزهر القريبة العهد. لا يحتاج العلم إلى دولة ترعاه، أو مؤسسة تسانده، بل يكفى أن يتطوع عالم بمفرده بكل ذلك، على سنة القدماء أو ما يسمى قطّاعا خاصا أو مؤسسات ثقافية للمجتمع المدني. فالعلم هو الدولة، والدولة صرح يشيده العلماء.

بدأت الأعداد الأولى لمجلته "قضايا إسلامية معاصرة" في الصدور، تنبئ بمضمونها واتجاهها، الطريق الثالث الذي يتجاوز السلفيين والعلمانيين. وتفتح صفحاتها إلى عديد من المفكرين الجدد الذين يمثلون هذا التيار، في شكل حوارات معهم أو مقالات منهم، واضحة ومفهومة، وقادرة على إقناع القراء بما تريد. فما كنت أفكر فيه: في إنشاء مجلة فصلية "اليسار الإسلامي" ها هي تصدر في قم، بصرف النظر عن العنوان. والأفكار تتوالى بصرف النظر عن المكان، قم أم القاهرة، مما يدل على مدى الحاجة إليها وواقعيتها. فقد آن الأوان لتطوير الفكر الإصلاحي، من الخطاب الأخلاقي الوعظي إلى الخطاب العلمي التحليلي.

هو عراقي مهاجر إلى قم، مدينة العلم والثورة، بعد أن حُكم عليه بالإعدام في بغداد، أيام حكم الاستبداد السابق، ومطاردة العلماء والقادة الوطنيين. لم تكن الهجرة إلى باريس

---

(١) مفكر مصري.

أو لندن للنضال من بُعد، بل كانت إلى قم المقدسة، مدينة العلم والثورة، والقريبة إلى بغداد. واستمر النضال الثقافي كأساس للنضال السياسي في أيام الثورة الأولى، التي كانت تمثل أملاً للمسلمين جميعاً، خاصة في فلسطين بعد أن تحولت سفارة إسرائيل المفتوحة أيام الشاه إلى سفارة لفلسطين.

وصدرت الأعداد الأولى لمجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، وكأنني أقرأ نفسي، لا فرق بين شيعة وسنة. تحمل نفس الهموم، قضايا "التراث والتجديد"، متجاوزة ما كان يصدر في العالم الإسلامي، في الكويت، أو في ماليزيا. تحمل هموماً ثقافية، وإن لم تشر صراحة إلى العراق أو إيران أو الثورة الإسلامية. وقد تجلى ذلك في المقابلة مع عبد الجبار الرفاعي، بعنوان "قم تسأل، والقاهرة تجيب"، مما أحزن بعض علماء قم، وكأن قم هي الحائرة، والقاهرة هي التي لديها الخبر اليقين، وهو غير صحيح على الإطلاق.كان يمكن أن يكون العنوان بالعكس "القاهرة تسأل، وقم تجيب". فالسؤال أحياناً أهم من الجواب.

وفى القاهرة صدر العدد الأول من "اليسار الإسلامي" عام ١٩٨٠ حاملاً همّ الأمة، في العراق وفلسطين وكشمير والحجاز. فلماذا لا تتعدد البؤر الثقافية للإسلام التنويري على مختلف مداخله، في قم والقاهرة وفى كل مدينة ثقافية إسلامية. فالبحث جار عنه في أندونيسيا وماليزيا وجنوب أفريقيا، يساهم في تحرير الشعوب ونهضتها، وإنشاء جيل جديد يشق طريقه بين السلفيين والعلمانيين، بين القدماء والمحدثين، بين التقليديين والتجديديين، مثل "نهضة العلماء" في أندونيسيا.

وتحويل "قضايا إسلامية معاصرة" من قم إلى بغداد، وعودة مؤسسها إلى موطنه الأصلي، شجاعة كبيرة في جو العراق بعد نهاية الاستبداد، حيث الاحتلال مازال جاثما بطريقة أو بأخرى، وما يهدد العراق من مخاطر التجزئة. فالتحرر الحقيقي لا يأتي فقط عن طريق المقاومة العسكرية للاحتلال، أو مقاومة التجزئة الطائفية والعرقية، بين الشمال الكردي والوسط السني والجنوب الشيعي، بل يأتي عن طريق العمل الثقافي على الأمد الطويل، وإعادة تفسير التوحيد بما يحقق وحدة العراق، والعدل بما يحقق العدالة الاجتماعية، والنبوة والمعاد كبعد للتاريخ بين الماضي والمستقبل، والإيمان والعمل هو الحاضر والتأثير فيه. ولا يكفى فقط إعادة قراءة العقائد، بل أيضاً الأحكام الشرعية، وإعطاء الأولوية للمعاملات على العبادات. وتستطيع المجلة أن تكون منبرا للحوار الوطني بين مثقفي العراق وعلمائه، وليس فقط بين ساسته. فالثقافة السياسية لها الأولوية على العمل السياسي.

شارك عبد الجبار الرفاعي في أعمال الجمعية الفلسفية المصرية في مؤتمرها بجامعة قناة السويس بالإسماعيلية، وهو أحد أعضائها البارزين. كان سيقدم هذا العام سيرته

الذاتية، لولا أن منعته الظروف من الحضور. وهو يمثل تياراً تنويريا في العراق وإيران. كما يمثل "اليسار الإسلامي" هذا التيار في مصر. وقد أصبح شائعا كموضوع دراسة في الماجستير والدكتوراه.

ومازالت هناك صعوبات أمام التيار الذي تمثله "قضايا إسلامية معاصرة"، و"اليسار الإسلامي". كيف يمكن تحويل اجتهادات فردية في بغداد والقاهرة إلى تيار فكرى، له مفكروه وطلابه وأنصاره وتأثيره؟ فمازال الاستقطاب بين التيارين الكبيرين، الإسلامي والعلماني شديداً، لدرجة الخصومة والتناقض، بل والعداوة والعدوان. الإسلاميون يكفّرون المدنيين، والمدنيون يخوّنون الإسلاميين، لدرجة قسمة البلاد إلى فريقين متناحرين متنازعين. ونسى كلاهما العداوة الرئيسية للاستبداد في الداخل، والعدوان في الخارج، التبعية لأمريكا، والاستيطان الإسرائيلي. مازال كل فريق يتسابق نحو السلطة، ظاناً أنه إذا حصل عليها استطاع أن يحقق برنامجه الديني أو المدني "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

لا تتبنى الرفاعي أية مؤسسة، أو أي حزب، أو أي نظام سياسي. فمازال المنطق السائد هو منطق "إما... أو" على النقيضين، وليس منطق "معا" أو "سويا"، تحت تأثير حديث الفرقة الناجية، ووجود الحق من جانب واحد. بل إن الإصلاح الذي حاول التجديد والخروج من مأزق الاستقطاب كبا أكثر من مرة، بسبب اضطهاد الإسلاميين وسجنهم وتعذيبهم، فارتدوا معظمهم سلفيين محافظين.

الكل ينادى بالحل الثالث، وضرورة تجاوز الاستقطاب، لكن الواقع لا أحد يريده أو يفهمه، لأنه لا يطالب بالسلطة مطلب الفريقين المتنازعين. ويعمل على الأمد الطويل، التغيير الثقافي، والانتقال إلى مرحلة تاريخية جديدة. يتهمه العلمانيون بالإسلامية المتخفية، ويتهمه الإسلاميون بالعلمانية المتخفية. ليس له منبر يستطيع التحدث من خلاله. مازال تيارا فكريا يتمثله بعض المثقفين. وهو بعيد عن الوسطية التي تنتهجها التيارات الإسلامية المحافظة، لأنه يتطلب أحياناً الثورة والتطرف في أخذ حقوق الفقراء من أموال الأغنياء، وحقوق المستضعفين من نهب المستكبرين. لا يتعامل مع نظم سياسية، حتى لا يفقد استقلاله، ويظل تياراً فكرياً يخاطب المثقفين، لإعادة بناء الثقافة الشعبية. هذا ما تمثله "قضايا إسلامية معاصرة" بإشراف وتوجيه عبد الجبار الرفاعي.

تحتاج المجلة إلى مزيد من التعريف والانتشار خارج العراق. ومازالت في حاجة إلى تعدد كتّابها، وعدم قصرهم على فئة واحدة. وكل شيء يبدأ صغيرا وينتهي كبيراً. وقضايا إسلامية معاصرة بدأت كبيرة ومازالت تكبر، بفضل صاحبها ومؤسسها وراعيها وحاميها من غوائل الزمان عبدالجبار الرفاعي. ❖

عبد الجبار الرفاعي
وإحياء النزعة الإنسانية في الدين الإسلامي

د. عبد الله إبراهيم[١]

ندرَ أن التقيتُ عراقيا يحمل بين جنباته نبلاً ونقاء وتواضعاً كالتي لمستها عند عبد الجبار الرفاعي. في البدء خلت أننا مختلفان، فقد تلقّى تعليماً دينياً معمّقاً ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، ولديه شيوخ من كبار علماء الدين، درس على أيديهم كلّ ما له صلة بأصول الفقه، وعلم الكلام، والعقائد، حتى "تأهّل علمياً للاستغناء عن التقليد والاستناد إلى نظره في الاستنباط الفقهي". وذلك ما كان يتلقّاه طلاب علوم الدين في القرون الوسطى من شيوخهم، فضلاً عن دروس المنطق والنحو والبلاغة والصرف، باعتبارها من الوسائل الضرورية لمقاربة العلوم الإلهية، فيما تلقّيت أنا تعليماً دنيوياً محضاً، ونلت درجة الدكتوراه في الآداب العربية، ولم أحضر على الإطلاق درسا دينيا بالمعنى المباشر لتلك الدروس، إلا ما له علاقة بتحليل التجربة الدينية، الذي تلقيته قارئاً لمفكّرين دنيويين شغلوا بتأويلها واستنطاقها، إنما مارست، فوق ذلك، نقد الأفكار الشائعة عن الظاهرة الدينية من هذا المنظور، بما في ذلك مفهوم مركزية "دار الإسلام"، والصورة النمطية للعالم خارج تلك الدار طوال القرون الوسطى.

وبحكم العادة بدا أنه من المتعذّر أن نتخطّى الهوة الفاصلة بين الدين والدنيا كما رسمت ملامحها في حياتنا وثقافتنا، لكن الرفاعي ردم الهوّة طوال أكثر من عشر سنوات من الأحاديث والمناقشات واللقاءات والزيارات، وكشف لي قدرة عجيبة على الدأب في السؤال عن أصدقائه المثقفين، والكتابة المجدّدة في الفكر الديني، والعمل الثقافي الذي يشتدّ أوّراه بمرور السنين، ممثلا في مجلته الرائدة "قضايا إسلامية معاصرة" و"مركز دراسات فلسفة الدين"، فضلاً عن مساهماته الثرية في المؤتمرات والندوات المتخصّصة.

وإلى كلّ ذلك فعبد الجبار الرفاعي مبشّر ـ لا يكلّ ولا يملّ ـ بثقافة التسامح ونبذ الكراهيات المذهبية والدينية والعرقية، وكل ضروب التحيزات المغلقة، كما أنه بذل جهدا كبيرا في تحديث الفكر الديني من داخل المنظومة الدينية نفسها بالمشاركة في إحياء النزعة الإنسانية في الدين؛ إذ يرى بأن رسالة الدين تهدف إلى "إشاعة السلم والتراحم والمحبّة بين الناس،والسعي لتجفيف منابع العنف والعدوانية والتعصب"، ولكن بحثه انتهى به إلى أن مضمون تلك الرسالة قد نقض "بنشوء جماعات وفرق، لا تقتصر على إعلان انتمائها للدين، وإنما تصرّ

(١) مفكر وأستاذ جامعي عراقي مقيم في قطر.

على احتكار تمثيله، وتحرص على مخاصمة أية جماعة غيرها تقدم فهما مختلفاً للدين"، وعليه فينبغي "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، بالإعلان عن أبعاده المعنوية والعقلانية والجمالية والرمزية". ولو تحقق هذا الفهم العميق للظاهرة الدينية على أرض الواقع لتغيرت علاقة الناس بربهم وبأنفسهم، فما يهدف إليه الفكر الأصيل ليس نقد إله الناس بذاته إنما نقد تصوراتهم عنه، فذلك هو الدرس الأول في نقد الفكر الديني كما ورثه المفكرون عن أسلافهم العظام.

أعزو لعبد الجبار لرفاعي فضل تعميق صلة الوصل بيننا لأكثر من عقد على المستويين الشخصي والفكري، بل وإدامة تلك الصلة وتغذيتها كلما خلتُ ضعفها بسبب الابتعاد والانشغال بالبحث والعمل والسفر، فقد شرع في مراسلتي قبل وقت طويل من لقائنا، وطلب إليّ النشر في مجلته،فكان أول بحوثي فيها بعنوان "المجتمعات التقليدية في عالم متغيّر"، وما لبث أن أجرى معي لقاء مطولا في شتاء عام٢٠٠٣ في المجلة عن "المركزيات الثقافية"، وتوالت مساهماتي فيها بدراسات مطوّلة، منها البحث الافتتاحي للعدد ٢٣ لعام ٢٠٠٤ الذي جاء بعنوان "حيرة المجتمعات الإسلامية: في القول بأن التسامح ليس منّة أو هبة".

اقترح الرفاعي دعوتي متحدّثا في "مركز حوار الحضارات"بطهران الذي كان يرأسه عطاء الله مهاجراني، فألقيت محاضرة بعنوان"نقد التمركزات الثقافية في العالم المعاصر"، وعلى إثرها اصطحبني إلى منزله في"قُم"، حيث طفت في أرجاء المدينة العتيقة، واجتمعت بأساتذة الفلسفة في إحدى جامعاتها، ثم جاءت زيارتي الثانية لإيران عشية الاحتلال الأميركي للعراق في ربيع عام ٢٠٠٣، وخلال الزيارتين لازمني الرفاعي ملازمة الشقيق، ثم التقينا في مكة عام ٢٠٠٥ حينما اختيرت عاصمة للثقافة الإسلامية، ثم في الدوحة في عام ٢٠٠٧ إذ دعوته للمشاركة في ندوة كبيرة أشرفت عليها عن "الثقافة والتحولات المجتمعية"، فقدم بحثاً معمقاً بعنوان "قيم التسامح وقيم الكراهية"، لكنه فاجأني في صيف ٢٠١٠ بزيارتي - مع سرمد الطائي - إلى بيتي في كركوك حينما كنت أمضي إجازتي في العراق، فقد كان الأمل معقودا أن نلتقي في بلادنا بعد مدة تقارب عشرين عاما من فراقها.

يتلازم في شخصية الرفاعي أمران لافتان للنظر: دفء إنساني خصب، وثقافة موسّعة متفتّحة، فلا غرابة أن يتغلغل حضوره في ثنايا النفس والعقل معاً. وهو بارع في إدارة الحوارات المعمّقة، وقد جعل من مجلته ميدانا لكبار المفكرين العرب والإيرانيين، قالوا قولتهم فيها بشأن الظاهرة الدينية تحليلاً وتفسيراً وتأويلاً. ولعل الرفاعي هو الوحيد الذي فتح نافذة لتلاقح العرفان الفارسي بالثقافة العربية الحديثة حينما ترجم نصوصاً تأسيسية إلى العربية، ولم أعرف غير مجلة" قضايا إسلامية معاصرة" مكاناً لذلك، ومع أن ثمار تلك المثاقفة لم تقطف بعد، فإنني أعوّل كثيراً على نضجها مستقبلاً في ضوء تنامي الدراسات التأويلية للنصوص الدينية والدنيوية. ❖

عبد الجبار الرفاعي الرجل المؤسسة

✍ عادل عبد المهدي[(١)]

عرفت الشيخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي في أواسط الثمانينات، من خلال المؤتمرات الفكرية التي كانت تجمعنا. وتوثقت علاقتي بالرجل في بداية التسعينات، بعدما بدأنا بالمراسلة، هو الذي يسكن قم، وأنا الذي اسكن سانت اتين/ فرنسا. إن لم تخني الذاكرة كان قد أرسل لي مجلة "الشرق الجديد"، ومشروع تجميع أخوة من مشارب مختلفة، للتداول في أمور الفكر والنقد، وإصلاح الحال، ومقاومة الطغيان الفكري أو السياسي.

كانت للأخ الرفاعي مشاريع فكرية، ورغبة عارمة للتوثيق والتواصل مع الآخرين، بمختلف معتقداتهم وأفكارهم واتجاهاتهم. لم ألتق بمؤسسة أو كاتب أو مكتبة تهتم بشؤون الفكر الإسلامي إلا ووجدت للرفاعي بصمات أو علاقات بين ثناياها.

ومع كثرة اللقاءات والمكاتبات بدأت العلاقة تتحول إلى صداقة عميقة راسخة، تشدها أواصر الفكر والبحث والحوار. وبالتدريج بدأت اكتشف الرجل/ الإنسان/ المفكر الرفاعي، بل أدعي إنني ما زلت اكتشفه يومياً. فللرجل صفات نادرة، وقد تبدو متناقضة، لكنه يجمعها ويضع كل منها في موقعها الصحيح، لتتحول المتضادات إلى مكملات تعمل بانسجام ووحدة وتناسق.

هو وديع مسالم هادئ ظاهراً، لكنه يختزن ثورة وألماً واحتجاجاً داخلياً لا يوصف. فهو ناقد من الدرجة الأولى، يخترق المضاد، لا لينسفه بل ليعيد بناءه، وما يهمه ليس التدمير بل الارتقاء. وهذا دور النقد كما يجب أن يكون، وهو ما يميزه عما نراه اليوم من هجومات إعلامية وكتابات مدفوعة أو جاهلة هدفها الحرق والتسقيط. فنقده للتاريخ ليس لتصفير ذاكرة الإنسان وحرمان الناس من تراث ضحى كثيرون ليصل إلينا، بل لإزاحة الصدأ الذي يمنعنا من رؤية تجلياته وحقيقته ووهجه.

وهو شيخ حوزوي، أهديت له في التسعينات جبة وعمامة لم يلبسها أبداً، ولا أدري ماذا عمل بها... هل ما زالت لديه؟ أم أعطاها لأحد طلبته؟ بل لعله باعها، ليمول كتاباً أو مجلة؟ ففي كل الأحوال هي ملكه، يستطيع أن يفعل بها ما يشاء..

يدرس في مادة الفلسفة وأصول الفقه والمعارف الإسلامية منذ عشرات السنوات... وله تلاميذ شيوخ تخرجوا على يديه، لكنه رجل بتفكير وسلوك مدني، وان شاء البعض. يفهم أن مهمة الدين ليس البقاء معلقاً في السماوات بين الملائكة والروايات، بل مهمته أن يكون محجة لأهل الأرض، لينظم شؤونهم وقضاياهم الدنيوية، ليحيوا حياتهم بأفضل ما يمكن، وليتنعموا بنعم الله، وليعيشوا إنسانيتهم وبشريتهم وحريتهم، التي وحدها ما يجعلهم مكلفين ومسؤولين، ليعودوا بين يدي بارئهم يوم الحساب.

---

(١) نائب رئيس جمهورية العراق السابق.

وهو مسلم متدين، لا يمنعه إسلامه أن يحمل صليب المسيح وعذاباته، ودعوته للمحبة والتصالح والإخاء. فالأديان تختلف في تجلياتها وفي اختلاف تعابيرها.. وهو شيعي اثنا عشري، لا يخفي ذلك ولا يواريه، كما لا يخفي أو يواري محاربته لكل الخرافات وروايات الغلو والتطرف، سواء أصدرت من الشيعة أو السنة أو غيرهم. فأصدقاؤه من أهل السنة لا يقلون عن أصدقائه من أهل الشيعة، وأصدقاؤه من المسيحيين والعلمانيين لا يقلون عن أصدقائه من المسلمين من المثقفين أو من رجال الدين.

عبد الجبار الرفاعي الفيلسوف، الذي يمر صباح مساء بابن عربي وابن رشد والغزالي والطوسي والسهروردي والكندي والفارابي وابن الراوندي والرازي وابن سينا وملا صدرا والأفغاني وعبده ورشيد رضا والطهطاوي والكواكبي وطه حسين، ليعرج على المحدثين منهم، لاسيما: الطباطبائي والصدر والمطهري وشريعتي والعلواني وملكيان... ومحمد أركون وعبدالله العروي وحسن حنفي ومحمد عابد الجابري... وقائمة تطول من فلاسفة العرب والعجم واليونان والغرب والشرق، وصولاً للفلاسفة الإيرانيين والصينيين. فترى الرفاعي يقترب من الأشاعرة في التدقيق في النص والحديث والنقل، لكنه معتزلي في عقلانيته بعرفانية وصوفية تدور حول الحلاج وجلال الدين الرومي وحيدر الآملي... "فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل"، ثم ليقف ما بين بين، فالأمر أمر بين أمرين.

عبد الجبار الرفاعي الإنسان الذي يمشي بهدوء، ويتكلم بهدوء، ويفكر بهدوء، ويحكم الأمور بهدوء... موسوعة أن تكلم أو كتب، ومؤسسة عندما يعمل ويتحرك. فما صدر عنه من مجلات وكتب تتجاوز كلها إصدار مؤسسات عريقة. مجلة "قضايا إسلامية"، و"قضايا إسلامية معاصرة"، ومئات المؤلفات والترجمات له ولآخرين من صفوة الصفوة من مفكري الأمة وعلمائها خير دليل على عطاءاته المنظورة، أما غير المنظورة فأعظم من ذلك بكثير. فمداخلاته في المؤتمرات والندوات والنقاشات الجامعية والحلقات الدراسية إضافات فكرية جادة، وهي كمئات الروافد التي منها تتكون الأنهار والبحار. كل ذلك بدون دعم من دولة أو حزب أو مؤسسة، بل هو جهد شخصي يقوم به هو، ورفيقة دربه حرمه المصون، وأبناؤه ليس إلا. رجل عفيف اللسان أبيض اليدين، ذو فكر عميق، وحافظة ممتازة، وأدب جم. يحب فعل الخير، لأنه يحب الناس فأحبه الناس.

يستطيع أن يعيش على قرص خبز وجبن وفي أسوء الأوضاع وأفقرها. ويستطيع أن يجالس الرؤساء والزعماء، يستمع إليهم ويسمعهم صريح الكلام.

هذا فهمي لعبد الجبار الرفاعي بكلمات قليلة لا يمكنها أن تفيه حقه، فهو أكبر من ذلك بكثير. كلمات اجتهدت فيها، وقد أكون أصبت وأخطأت، فأينما أصبت فله، وأينما أخطأت فمني ليس إلا. وستستمر العطاءات والنجاحات إن شاء الله. وأتمنى لأخينا وشيخنا الرفاعي السلامة والصحة والعافية وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٠ شباط ٢٠١٣

عبد الجبار الرفاعي
الطاقة الخلاقة التي عرفت

✍ د. أبو بكر أحمد باقادر[١]

تعرفت على اسم عبدالجبار الرفاعي منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين في باريس، وأنا أقضي سنة أكاديمية فيها كباحث زائر، في "مجلة المنتقى" التي تعنى بتقديم قوائم للمراجع في موضوعات علمية إسلامية. وتكونت عندها لدي فكرة عن موسوعية وأدب هذا الباحث. ثم مضت سنوات، وكانت مجلة الاجتهاد في قمة توهجها، اطلعت ذلك الوقت، وعند د. رضوان السيد، على مجلة تشبهها من حيث الإخراج والإطار والتوجه الفكري والمعرفي بنفس الاهتمامات، مما جذبني إليها وكانت موضوعاتها غاية في المعاصرة وجدية الطبع، لكن بشكل يتمتع بحداثة وجرأة. ومرة أخرى عاد نفس الاسم عبدالجبار الرفاعي، الذي لم أكن التقيته أو تعرفت عليه بعد. تعودت على أن أمثال هذه المجلات العلمية الجادة لا تستمر، لهذا فإنني كنت أتوقع أن أعدادها ستكون أيامها محدودة، إن لم تكن هناك جهة تدعم وتغطي نفقات أمثال هذه المجلات. ذلك أن هذا النمط من الدوريات غير مربحة عادة، وهي لا تستمر إلا بضعة أعداد، ما لم تجد لها سنداً يؤمن برسالتها ويتحمس لاستمراريتها.

لكن مع الأيام استمرت مجلة قضايا إسلامية معاصرة، فقد صدر منها ٥٤ عدداً في سبعة عشر عاما، وأخذت تعمّق من جدية طرحها لموضوعات تهم المسلم المعاصر، وتتحدى الركود الفكري والجمود في نوعية القضايا والموضوعات المطروحة.

وإذا أتذكر جيداً أخذت طرباً وإعجاباً بالإشكاليات الجادة الحديثة والمعاصرة التي كانت ولا تزال ميدان طروحات المجلة، فهي تتناول موضوعات فكرية أساسية في: فلسفة الدين، وعلم الكلام الجديد، والهرمنيوطيقا، والفكر السياسي، وفلسفة الفقه، والدراسات القرآنية، من زوايا ما يطرح اليوم في الدوائر العلمية، بروح "علمية" ونقدية صريحة، توازي بين الأصالة والمعاصرة، بل وتناولت موضوعات تتعلق بالفكر الحديث من منظور التقاليد والتراث بصورة تقنية، لمعالجة مفهوم التعايش بين الأديان والثقافات والتعددية والتسامح، ومعنى الليبرالية وهل هي ممكنة في عالمنا الإسلامي، وفتحت المجلة مسألة الحداثة والإيمان وإمكانية الجمع بين الدين والحداثة الراهنة، وغيرها من قضايا شائكة يعيشها الناس اليوم.

---

(١) أستاذ الأنثربولوجيا في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، مستشار وزير الحج السابق، وكيل وزارة الثقافة السابق في العربية السعودية.

وعندما نظرت إلى قائمة المشاركين وجدت المجلة عبارة عن ساحة لتبادل الرأي، وهي وإن كان يكتب فيها عدد كبير من العلماء والباحثين الشيعة عرباً وإيرانيين، إلا أنها تميزت أيضاً بمساحة جيدة لكتاب وعلماء من السنة، بل وعدد لا بأس به من الغربيين، وليس بالضرورة من المستشرقين، فالطرح هنا حتى وإن كان يتناول الظاهرة الإسلامية إلاّ أن المعالجة تنظر إلى الظاهرة والتجربة الدينية بشكل إنساني جريء، وتطرح بإلحاح مفهوم جديد يقضي بضرورة الإفادة من مشاريع تحديث التفكير الديني المختلفة في التعامل مع قضايا وإشكاليات العصر الاجتماعية والسياسية.

دفعني هذا الانفتاح إلى إعادة النظر فيما تطرحه المجلة، فوجدت أن الطرح شغوف بعدم إقصاء المناهج والنظريات الحديثة، فالقارئ يطالع في المجلة مادة علمية رصينة، تستخدم منظور العلوم الاجتماعية والمقاربات الحديثة جداً في دراسة الظواهر الدينية وآثارها الاجتماعية والسياسية والثقافية والنفسية، بأسلوب حديث معاصر جداً، وبطريقة غير مترددة أو خائفة من هذا الأسلوب "الصادم" في جديته أحياناً.

سعيت أن أوفق في "الهوية" الطائفية للمجلة، فكان من الواضح أنها مسرح لطرح فكري، وأن شارك فيه مفكرون وعلماء شيعة، إلا أنه ليس حكراً عليهم، ولا يعبر بشكل إقصائي عنهم، ربما لم ألاحظ سوى عدد ركز على عالم أو مفكر شيعي هو محمد باقر الصدر، لكن مع ذلك كان الطرح علمياً وليس ذا نكهة طائفية.

كذلك كان المشاركون من السنّة لا يمثلون لوناً أو توجهاً واحداً من التيارات السنية المعاصرة، بل وجدت أن المجلة على صلات وتبادل فكري وعلمي مع بعض المجموعات السنية المعروفة، مثل: مجلة المسلم المعاصر، وإسلامية المعرفة التي يكتب بعض الباحثين فيها في المجلة. وذلك وجدت المجلة تقدم بوابة مهمة نقدية صارمة على ما يجري من جدل ونقاشات على الساحة الإسلامية المعاصرة في إيران، بالإضافة لبعض الكتاب العالميين الذين تناولوا نفس الإشكاليات أو الموضوعات والقضايا التي يدور حولها ملف العدد، مؤكدة على أن المجتمعات الإنسانية تواجه نفس الإشكاليات والقضايا، ومن ثم حان الوقت في ظل ما نشهده من عولمة أن نفيد من التجارب الإنسانية دون خوف، أو تحيز، أو سجن الذات داخل قوالب جامدة بعيداً عن السياقات الموجهة للرؤية العامة للتعامل مع متطلبات العصر واحتياجاته.

مع زيادة اطلاعي على المجلة، كنت قد اطلعت على الأعداد العشرة الأولى، وجدت نفسي مدفوعاً أن أنتقل من المجلة للسعي، للتعرف على مَن يقوم بإدارة هذا المشروع. كنت أشرف وقتئذ على ندوة إسلامية عالمية الطابع تعقد في مكة بمناسبة الحج، لهذا فكرت في دعوة عبدالجبار الرفاعي، وهو الذي لم أكن أعرف عنه سوى القليل جداً. وكنت على يقين أنني أتمثل مقولة اعرف آثار المرء تعرفه وتعرف خصاله، إذ إن صفاته الشخصية يفصح عنا عطاؤه وإنتاجه.

ما كان من السهل الوصول إلى هاتف أو مكان يمكنني من دعوة عبدالجبار الرفاعي، لكن بعد بعض العناء استطعت أثناء القيام بدورة تعريفية عن الحج في إيران أن أحصل على عنوانه، وهو المنفي الذي كان يعيش فيه آنذاك بعيدا عن وطنه، وأن أتواصل معه، وأعرض عليه الدعوة للمشاركة في ندوة الحج بورقة في موضوعها ذلك العام، فوجئت باستجابة سريعة ورغبة أكيدة منه في المشاركة. عندها عرفت أنه "شيخ، وفقيه شيعي المذهب"، وأنه شغوف بمشاركة إخوانه في الندوة، ولمست أريحية وعفوية في شخصيته. فعملت على إكمال دعوته، بعدها عرفت عرضاً أنه ما كان حتى لديه الوثائق الرسمية الضرورية للسفر، لولا بعض التسهيلات الطيبة التي تمكن من الحصول عليها من سفارتنا للقدوم والمشاركة. وكم كانت دهشتي عندما رأيته للمرة الأولى، بعد أن عرفته طويلاً فكراً وعطاءً، شخصية اعتيادية، فهو ليس عصرياً بالمعنى الشكلي، وليس بالشيخ المعمم بالأسلوب التقليدي القديم. وجدته شخصية اجتماعية حيوية فعالة، سريعة القدرة على التعرف على الآخرين، وفتح قنوات الحديث معهم، والقيام بحوارات عميقة حول هموم الأمة والموضوعات التي تتعلق بمصيرها ومستقبلها بشكل محبب، مع الوضوح والصدق في تقديم الذات. فهو من الوهلة الأولى يخبرك عن هويته الحوزوية المتفتحة دون تشنج. أسرني بلطفه وتعاونه وعمله الدؤوب لإنجاح الندوة ومشاركته الفعالة، بل إنه زيادة في فائدة تنظيم الندوة المباركة قام بتنظيم أكثر من حلقة نقاشية تعالج القضايا الإشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر، مع بعض كبار المشاركين في الندوة، والذين كانوا من نخبة مفكري وباحثي العالم الإسلامي، ليقوم بنشرها لاحقاً في مجلته.

المشكلة مع أخي عبدالجبار أنك ما إن تتعرف عليه، بعد أن تكون عرفت جهده وعلمه، تجده غاية في البساطة والعفوية وإنكار الذات، بحيث إنك قد تسيء في تقييم مكانته وجهده، فهو حريص أن يظهر بمظهر المثقف المطلع الموسوعي والباحث المثابر الدؤوب، انه يجيد الصمت، ويجيد احترام طرح مَن يتحدث معه بأريحية إنسانية جذابة. أقول ما إن تتعرف على عبدالجبار حتى تشعر بأنك كنت تعرفه أبد الدهر، فهو مستمر في اهتماماته الفكرية الجادة، لكن بروح مرحة ونكتة حاضرة، وشفافية تلغي المسافة مع من يتحاور معه، وتتيح له القرب والاندماج وبسرعة مع مَن حوله.

لقد لاحظت أن عبدالجبار، من دون معظم ضيوف ندوة الحج، يتمكن بروح يقظة من التعرف على جميع المشاركين، وتوثيق صلاته معهم. وحسبما أعلم سعى لاستثمار هذه الصداقات، لمزيد من العطاء والتواصل المتبادل، سواء كان المشارك عَلَماً مشهوراً أو باحثاً شاباً في بداية الطريق.

وهو رغم وضوح هويته المذهبية إلا أنه لا يقدمها كعائق دون التواصل، لكن وحسبما بدا لي أنه يقدمها لمزيد التأكيد على جمالية التعددية الممكنة للأمر القرائي "ليتعارفوا".

كانت أوضاع العراق آنذاك تحت سلطة صدام غاية في السخونة، وكان شخصياً أحد ضحايا استبداد صدام، إلا أنه كان يعبر عن سخطه على سياسات صدام ومعاونيه بغض النظر عن خلفياتهم وما كان يشير على الإطلاق إلى أي بعد مذهبي في ذلك الصراع، فلقد كان الاستبداد الصدامي غير مذهبي، يقوم به حزب وطغمة قمعية أو مجموعة من الجلادين.

شارك عبدالجبار في الندوة ليضفي عليها من حماسه ووديته، وتجلى اهتمامه وحرصه على وحدة المسلمين، وتشديده على قدرتهم أن يعملوا مع بعضهم ويتضامنوا لدخول العصر والإسهام إنسانياً فيه.

صحيح أنني عند إعداد هذه الورقة رأيت أن الشهادات المقدمة أكثرها من باحثين ودارسين شيعة مرجعياتهم تعود إلى الحوزة، لكن ما لفت نظري أن تعلقهم واهتمامهم بعبدالجبار يدور حول انفتاحه وتطلعه للخروج من قفص التقليد المؤدي إلى الانغلاق والتطلع لعوالم أوسع.

مرت بعدها الأيام وتعرفت على عبدالجبار أكثر وأكثر، فعثرت على العديد من الخصائص فيه، لعل من أهمها العطش الدائم للحصول على كل ما هو جديد ومفيد من كتب وأفكار، مع التأكيد على وجوب سماع كل الآراء البناءة، حتى لو لم تكن مما درج الإنسان عليه، بشرط أن لا تكون مذهبية مؤدلجة أو تحريضية عنيفة، مع التأكيد على حسن التعايش والتسامح وقبول الآخر وإن كان مختلفاً. كذلك تعرفت ــ وتزداد هذه المعرفة يقيناً ــ أن العطاء الإيجابي هو الذي سيؤثر عوضاً عن السعي لنقد جهود وآراء الآخر.

ومضت السنون سريعاً، فإذا بمجلة قضايا إسلامية معاصرة تواصل عطاءها وتزداد تألقاً وحضوراً وانتشاراً. وهذا الإنجاز الكبير يكفي لعبدالجبار، الذي سألته مرات عديدة عن مَن يمول قضايا إسلامية معاصرة، وهي من المجلات التي عادة لا تسترد تكاليفها، أي انها خاسرة ماليا. فأخبرني أنه شخصياً، وبدعم محدود من بعض الأصدقاء القراء المتحمسين لتحديث التفكير الديني في الإسلام يتطوعون بإشتراكات تشجيعية لتغطية شيء من تكاليف إصدار كل عدد كحالة فريدة. وإن اضطر في وقت ما لبيع مكتبته حتى لا تتوقف قضايا إسلامية معاصرة. وأخبرني أن المجلة، حتى مع استمرارها في مواجهة أوضاعها المالية الصعبة، هي ليست محل قبول من الأوساط الفقهية والتقليدية عند السنة والشيعة على حد سواء، وهو يسمع ويقرأ انتقادات واسعة، لكن هذه الانتقادات التي طالبته في مرات أن يوقف المجلة ما فتتت عضده، بل وجعلته أكثر إحساساً بضرورة تواصلها. وأنه يكفيه أن المجلة تلقى اهتماماً ومتابعة من تيار يتزايد من شباب الأمة، وقبولاً صامتاً من بعض الدوائر التقليدية في أرجاء العالم العربي والإسلامي، وأن هذا القبول يشكل أهم دعم رمزي يزيد إيمانه بضرورة الاستمرار، ولقد ألمح لي مرة كيف أن أجواء الحج جعلت بعض أصدقائه من الحجاج يتعاطفون معه في دعم المجلة، ومن ثم يشكر ندوة الحج إتاحتها له هذه الفرصة!

أقول إن إنجاز إصدار واستمرار مجلة قضايا إسلامية معاصرة في حد ذاته كان يمكن أن يكون إنجاز مؤسسة بميزانية وموظفين وجهود لا تقدر عليها سوى دول أو تمويلات كبرى، لكن السؤال المحير: هل اقتصرت وانحصرت جهود وعطاءات عبدالجبار الرفاعي فقط على مجلة قضايا إسلامية معاصرة؟

ما إن استقرت الأوضاع في العراق وعاد إليه من المنفى حتى أسس "مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد" وأصدر منه عشرات الكتب، في إطار موضوع إعادة بناء العراق الحديث في موضوع "ثقافة التسامح"، ولعله لأول مرة في إطار مطبوعات دينية عربية نرى كتباً ودراسات متنوعة تعالج موضوعات من أمثال "فقه العنف المسلح في الإسلام، والديمقراطية، والتعددية، وثقافة الحوار، والتعايش بين الأديان والثقافات، والإيمان والحرية، والإسلام والحداثة..."، وإعادة النظر في موضوعات مماثلة في النص القرآني، فهناك دراسات اهتمت ب"الآخر في القرآن، وعلاقة التدين بالعقل والعصر". وتستمر الأطروحات وبنفس الروح المصرة على إشراك الجميع في قضايا تهم الجميع من أجل الجميع، بمعنى أن فضاء المجلة أصبح أكثر انفتاحاً على مفكرين من مسلمين وغير مسلمين للتفاكر والنقاش وإعادة النظر في تجاوز هموم العصر ومواجهتها.

ويعد إصدار مثل هذه الدراسات والكتب مشروعاً بحد ذاته يكفي في جهود وأعمال عبدالجبار. لكن ذلك لا يصدق على همة وتطلعات الرفاعي. إذ وجدت أن الرفاعي كذلك يشرف ويدير ويتابع قائمة أخرى طويلة من كتب خرجت من رحم مجلة قضايا إسلامية معاصرة، تتناول موضوعات قريبة من قبيل: "أسلمة المعرفة، وفقه التحيز، وعلم الاستغراب، ومقاصد الشريعة، والاجتهاد والتجديد...وغير ذلك كثير". ليفتح آفاقاً جديدة معاصرة ودروباً جديدة متميزة للفكر الإسلامي المعاصر، دون ضجة أو ادعاءات، رغم أن هذا بحد ذاته هو مشروع آخر ربما لا تأتي به قدرات مؤسسات.

ظننت أن الرفاعي سيتوقف فإذا بي أجده أيضاً يعمل على إخراج مشروع آخر متجسد في قائمة طويلة من الكتب والأطروحات بعنوان "فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد" تتناول السلسلة الجديدة: "السؤال اللاهوتي الجديد، والمستنيرون الإيرانيون والغرب، والتسامح ليس منة أو هبة، وأنثروبولوجية الإسلام، والتأويلية، والإبستمولوجيا الحديثة... وغيرها مما يتناول الظواهر والقضايا الدينية الراهنة.

للّه درّك يا عبدالجبار أين تجد الوقت والقدرة على التواصل، وإقامة الروابط والشبكات مع مختلف التيارات الفكرية التي تتفق معها أو تعارضها، لكن تحترم التعاطي معها والاستماع لها. كان الأولى أن تقوم بكل أمثال هذه الجهود مؤسسات حكومية لا فرد.

والأعجب من كل ذلك أن عبدالجبار دائم الفضول والرغبة في توسيع آفاق معارفه وترسانة علمه، فهو لا يشعر بأدنى حرج، وهو الحوزوي التقليدي، في الانفتاح على مدارس

العلوم الاجتماعية والفلسفية الحديثة، حتى لو كان ذلك للمرة الأولى، فهو نَهِم معرفياً يرى آفاقا في كل منجز إنساني، وليس بالمغتر بذاته بشكل متعال متعجرف، على العكس تماماً انه يتطلع إلى اكتساب معرفة جديدة بشكل مستمر. أتذكر في بعض ندوات الحج كيف أنه يفتح آفاقاً وعوالم ربما سمع عنها لأول مرة، رغبة في توسيع دائرة نظره، دون وجل أو تردد بل ويسعى لمتابعة الموضوع.

أتذكر أننا في ندوة عن أدب الحج تمكنّا من خلال مساعدته أن نعمل على نشر بعض عيون أدب الحج في غير العربية، وقام هو بما طُلب منه دون تردد، وبمزيد تواضع ودماثة خلق، وهو الضحوك الاجتماعي الساخر، بالرغم من انه كان يعاني آنذاك من ظروف المنفى القاسية، ومع ظروفه هذه القاسية، لا هو ولا زوجته ينسون شروط اللطف في العلاقات الأخوية، فعبدالجبار لا يمكنه أن يلقاك مرة أخرى إلا وهو يسعى إليك ويحيطك بكرمه وشمائله وهداياه.

ومن أظرف ما وجدته عند عبدالجبار أنك لا تلقاه إلا وهو مشغول بمشروع أو موضوع فكري بكل تواضع، أتذكر أنني التقيته في المغرب قبل أيام على هامش ندوة في مايو ٢٠١٣، فإذا هو يحدثني بحماسة عن تطلعه لإعداد ملف خاص في مجلة قضايا إسلامية معاصرة عن الفيلسوف الدانماركي المؤمن سورين كيرك كَورد، احتفالاً بمرور مئتي سنة على ميلاده، وكيف أنه يرى أن إسهامه الإنساني لعرض التجربة الدينية وصدقها أمراً يستحق عناء إعداد ذلك العدد، مع العلم أن قضايا إسلامية معاصرة تنفرد بذلك، ولم تتنبه أية دورية أو صحيفة أو مركز أبحاث أو جامعة عربية إلى هذه المناسبة الهامة، مع أن موطنه الدانمارك خصص هذا العام بتمامه للاحتفاء به وبمنجزه، مضافاً إلى ندوات ومؤتمرات في بلدان أخرى تنعقد حوله.

في نفس اللقاء وجدته محتضناً ومشجعاً عدداً من الباحثين الشباب المغاربة، ممن استكتبهم في مجلته، ونشر لهم في "سلاسل الكتب" التي أصدرها، وهم ينشرون لأول مرة موضوعات علمية جادة في مجلته الرفيعة المستوى، بمعنى أنه مهّد الطريق وأعطى الفرصة لأجيال شابة جديدة.

تدهشني كل قدرات الرفاعي الفكرية والعلائقية والتواصلية، وهو في الوقت نفسه شخصية تكاد لا تلحظها العين، بسبب تواضعها وبساطتها، فهو إن لم تكن تعرف أعماله وإنجازاته لن تتخيل أنه صاحبها، بل إنه لا يجيد تقديم ذاته في شكل مناقبي بروتوكولي، وإنما عليك ــ لأنه صامت يصغي ويستمع في معظم الوقت ــ أن تكتشف اهتماماته وسعيه الحثيث لإقامة العلاقات الفكرية ورعايتها، لتجد طريقها في المطبوعات التي يشرف عليها.

متى يجد عبدالجبار الوقت والإدارة التنظيمية، وهو دائم السفر والمشاركة في الندوات والمؤتمرات واللقاءات، وحسبما عرفت من الشهادات التي تناولت سيرته، انشغاله المزمن

بالمراسلات والاهتمامات اليومية الحثيثة للقيام بكل ذلك، مع الصرامة في جهوده والانتباه في أن يكون منصفاً محايداً كريم العطاء وكثير الهموم بقضايا الأمة وليس الطائفة أو الجماعة، وأن يبدو صادقاً محبوباً من الجميع.

فالرفاعي وإن كان ينشر هذه الكتب والسلاسل عن دور نشر عرفت بأنها شيعية، لم يتوقف عن النشر معها فقط، إذ تجد دار معروفة بتقليديتها الصرفة هي دار الفكر المعاصر تنشر له سلسلة أخرى من نفس التوجه بعنوان "آفاق التجديد" تتناول قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، ومن زوايا مفكرين مختلفين، ولعله تمكن من إبرام اتفاقية لنشر هذه السلسلة على هامش ندوة الحج! كم هو مقبول ومتفاعل مع الجميع بلا عقد وكراهيات وتعصب، فلقد تمكن من إقناعنا جميعاً بأنه يسعى لمشروع فكري نهضوي يخص الأمة.

يظهر أن الرفاعي، الذي يقول ساخراً: "كان أجدادي سنة قبل انتسابهم للمذهب الشيعي"، ورغم أنه يعتز بحوزويته، إلا أنه لا يرى ضيراً في الانفتاح على كافة ألوان طيف الفكر الإسلامي المعاصر، فهو يصر على الانفتاح على العصر وقضاياه الملحة بهوية إسلامية واسعة متفتحة في تسامحها وقبولها للجميع.

أخي أبا محمد: كم أنت بسيط، متواضع، مقنع، مما يجعلك الأقرب إلى العقل والنفس. أنت من القلائل الذين لا أجد صعوبة في إطلاعهم ــ دون عناء ــ على مَن أتفق وأختلف معهم من فكر ورأي، وكذلك من القدرة على التواصل والعطاء المشترك، فأنا واثق أن ذلك سيخدم مشروعنا الإسلامي المشترك، الذي يرى ضرورة أن نعيش عصرنا، وأن تكون لنا مساهمة إنسانية تجسد ما يمكن أن يقدمه الإسلام من عطاء خصب للإنسانية، كما فعل أجدادنا في التاريخ.

أخي أبا محمد: لقد أرهقت من يأتي خلفك بعطائك، لكن ربما كان عذرك أن الأمة تحتاج إلى قدوة ومثال جاد بأفعاله وليس بمناقب تروى عنه فيما بعد.

أخي أبا محمد: يظهر لي أنك قدوة ــ رغماً عن نفسك ــ بسبب محبتك وإيثارك وحميميتك مع كل من عرفت، سواءً اتفقت معهم أو وربما أكثر من اختلفت. للّه درُّك ودام واستمر هذا العطاء والتسابق مع الزمن، مع شعورك بأنك لم تقم بما كان ينبغي القيام به وعطاءه!

لعلي في الأفق أرى أن هناك أيضاً متسعاً لاقتحام آفاق جديدة ترتبط بحياة الأمة في جمالياتها وفنونها وفلسفتها في الحياة والعيش بشكل متصالح مع العصر، وأني أتخيلك تحسب العدة وتعمل بصمت للانتقال مما يحزن ويفرق لما يشبع تطلعاتنا الإبداعية والجمالية، والإصرار على أن تشارك الأمة في التقدم والعطاء الإنساني في ميدان الإنتاج في تطورك المستمر المتلاحق.

كلما عرفتك أقرب كلما تبينت لي آفاق جميلة أخرى أكتشفها مجدداً، وهذا لعمري ما يمكن أن يسعى أي إنسان للتحلي به. لهذا لا أملك إلا أن أدعو لك بطول العمر واستمرار تحدي الصعاب واختراق الآفاق... والسلام. ❖

الدكتور الرفاعي: دعـوة التجديد ورسـالة الانفتـاح

الشيخ حسن موسى الصفار[1]

كما قسّم اللّه ثروات الكون على مختلف بقاع الأرض، لينال كل البشر نصيبهم من نعم الخالق وفضله، فإنه تعالى منحهم جميعاً قدرات التفكير والإدراك، لينعموا بامتياز العلم والمعرفة الذي خصّ به تعالى بني الإنسان.

إنها ميزة الإنسان كإنسان، مهما كان لونه وعرقه، ومن أية قبيلة انحدر، وفي أية بقعة حلّ، فهو كائن مفكر، يمتلك قابلية المعرفة، وأدوات كسب العلم.

وإذا كان يمكن تقييد حركة جسمه، ومصادرة بعض حقوقه المادية، فإن عقله وفكره منطقة حرة لا يطالها القيد والمنع.

من هنا كانت قسمة العقل على بني البشر من أفضل ما قسمه تعالى على عباده، كما جاء في حديث عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله): (ما قسّم اللّه للعباد شيئاً أفضل من العقل).

ومعنى ذلك أنه لا يحق لفئة من البشر أن تدعي احتكار هذا الامتياز، وأنهم وحدهم المؤهلون للتفكير، وإدراك حقائق المعرفة والعلم، ومن ادعى ذلك خالف الواقع، وحرم نفسه من الاستفادة مما عند الآخرين.

وحيث تختلف البيئات التي يعيش فيها الناس، وتتعدد اهتماماتهم، وتتفاوت زوايا نظراتهم للأمور، تتنوع ثقافاتهم، وتتمايز توجهاتهم الفكرية، ومنتوجاتهم المعرفية.

وفي تنوع الثقافات، وتمايز التوجهات، إثراء كبير للفكر الإنساني، تتقدم من خلاله مسيرة المعرفة، وتتلاقح الآراء والأفكار، وتتجلى الحقائق بشكل أفضل حين ترسم صور أبعادها، من اتجاهات متعددة، وزوايا مختلفة.

وتشكل كل ثقافة إضافة نوعية لرصيد المعرفة، مما يوجب احترام الثقافات، والاهتمام بنتاج مختلف التوجهات الفكرية والمعرفية.

سئل أمير المؤمنين علي (عليه السلام) عن أعلم الناس؟ قال: من جمع علم الناس إلى علمه.

لكن كثيراً من الأوساط المحسوبة على العلم والمعرفة في مجتمعاتنا، وخاصة من الدينيين، لا تزال تتلكأ في مجال الانفتاح على الثقافات والمعارف من خارج دائرتها، إما انطلاقاً من الشعور بالاكتفاء والاعتداد بتراثها الخاص، والذي يمثل في نظرها الحقيقة المطلقة، أو لاشتراطها التوافق الإيديولوجي مع أي مصدر معرفي ثقافي، لمشروعية الانفتاح عليه والأخذ منه.

(١) عالم دين وداعية معروف للإصلاح والحوار والانفتاح من المملكة العربية السعودية.

مع أن النصوص الدينية الواردة تدعو للبحث عن المعرفة والحكمة من أي مصدر كان، فقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (لا تنظر إلى من قال وأنظر إلى ما قال).

وعنه (صلى الله عليه وآله): كلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها.

وورد عن علي (عليه السلام): الحكمة ضالة المؤمن فاطلبوها ولو عند مشرك

وقال في كلمة أخرى: الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق.

هذا الانغلاق والقطيعة التي اختارتها هذه الأوساط لنفسها، دفعها لأضيق زوايا العزلة والانكفاء، حين بدأت بالقطيعة مع المغاير لها في الدين، ثم المخالف لها في المذهب داخل الدين، وصولاً إلى المختلف معها في الرأي ضمن المذهب.

وانعكس هذا الانغلاق تزمتاً تجاه تطورات الحياة، وتشدداً في التعامل مع الآخر، مما كرّس التخلف في واقع الأمة، وعزز توجهات الخصومة والنزاع.

إن من عوامل التوترات والنزاعات التي تعيشها ساحة الأمة، هو القطيعة المعرفية بين أطيافها وأطرافها، وانتشار تيارات التشدد والتطرف تجاه الآخر الحضاري والفكري، مما يوجب بذل أقصى الجهود لنشر ثقافة الانفتاح والتسامح، ومواجهة فكر التشدد والانغلاق.

بيد أن عوائق وعقبات كثيرة تنتصب أمام المخلصين الساعين للقيام بهذا الواجب الخطير، فهناك توظيف سياسي لتيار التطرف والتشدد وسط مختلف الأطراف، لتبقى شعوب الأمة منشغلة بصراعاتها المذهبية والفكرية، بعيدة عن الاهتمام بقضاياها المصيرية، وبانجاز مشاريع التنمية والتقدم في أوطانها.

وهناك سدنة المعبد ومراكز القوى الدينية التي تستمد شرعية نفوذها، وحماية مصالحها، من تأجيج مشاعر جمهورها ضد الآخر العدو المصطنع.

هذه التحالف القذر بين السياسي المصلحي، والديني الانتهازي، يجعل مهمة الواعين المصلحين صعبة شديدة الكلفة، لا يستقيم في التصدي لها وتحمل أعبائها، إلا من امتحن الله قلبه بصدق الإيمان، وقوة الإرادة، ووضوح الرؤية، إذ تُشنّ على دعاة الإصلاح الفكري، حملات التشويه والتشهير، بهدف إسقاط شخصياتهم، ومحاصرة أطروحاتهم، باتهامهم في دينهم، وأنهم ناقصو العقيدة، مصابون بلوثة الضلال والانحراف، متأثرون بالآخر من خارج الدين والمذهب.

وقد يضطر بعض المصلحين تحت وطأة الضغوط الشديدة إلى الانسحاب من ميدان المواجهة، أو تعويم موقفه، وتجميد نشاطه ودوره، في مجال الدعوة إلى الإصلاح، والتسامح والانفتاح.

ومن القامات الشامخة الصامدة في ميدان الإصلاح الفكري، والنضال الثقافي، الأستاذ المفكر العلامة الدكتور الشيخ عبدالجبار الرفاعي حفظه الله تعالى، فقد توافرت شخصيته على عناصر قوة مكنته من مواصلة العطاء الفكري، والنزال العلمي، منذ أكثر

من ثلاثة عقود من الزمن، واجه فيها ألواناً من المشاكل والمصاعب، لكن عزيمته تزداد مضاءً، وفكره يتقد توهجاً، ونتاجه المعرفي يواكب العصر تطوراً.

إن أول عناصر القوة في شخصيته: رسوخ قدمه في العلوم الشرعية، فهو ربيب الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وقم المقدسة، منذ عام ١٩٧٨م، إلى اليوم. ومن رواد دروس الاجتهاد والاستنباط، التي يطلق عليها (البحث الخارج)، وهو مدرس للسطوح العالية في الفقه والأصول. إضافة لدروس الفلسفة والمنطق، وحين يقول رأياً في الدين، يقوله من موقع الباحث الخبير.

أما العنصر الثاني فهو: سعة أفقه المعرفي، بمتابعته لتطورات الفكر والثقافة العالمية، فقد قرأ مختلف مدارس الفكر الغربي الحديث، وتعرّف إلى أهم وأبرز نظريات عمالقته ومفكريه، وهو مواكب جادّ لكل نتاج فكري جديد يدخل في مجال اهتمامه المعرفي.

والعنصر الثالث: معايشته الواعية لتحولات وتجارب الساحة الإسلامية المعاصرة، فقد رافق مسيرة الحركة الإسلامية في العراق، وعاش تجربة الثورة الإسلامية في إيران، وانفتح على مختلف ساحات العالم الإسلامي، إذ تربطه علاقات وثيقة، بعدد كبير من القيادات والقوى المؤثرة في مجتمعات الأمة.

العنصر الرابع: التزامه السلوكي بما يبشّر به من قيم أخلاقية حضارية، فاحترامه للرأي الآخر، وانفتاحه عليه وتواصله معه، وحواره له بأدب وموضوعية، سمة يشهد بها كل متابع لكتابات الدكتور الرفاعي، وكل عارف بشبكة علاقاته.

ولا يحتكر الدكتور الرفاعي انجازاته في مجال العلاقات والتواصل، بل يهتم بتعريف الناس على بعضهم البعض، ويسعى لإقامة جسور التعارف والتواصل بين ذوي الرأي، والمهتمين بالفكر وبالشأن العام.

ومجلته (قضايا إسلامية معاصرة) التي أصدرها منذ حوالي عشرين عاماً، تجسّد هذا التوجه الفكري والسلوكي الذي تميّز به، فهي منتدى فكري رصين، تلتقي فيه آراء المفكرين والمثقفين المهمومين بقضايا النهضة والإصلاح، من مختلف أرجاء الأمة وبقاعها وتوجهاتها.

وإلى جانب هذه المجلة الرائدة، أصدر الدكتور الرفاعي أكثر من سلسلة كتب، صدر فيها حوالي ٢٠٠ كتاباً، يحرر فيها آراء كبار المفكرين المعاصرين، حول أهم قضايا الفكر والأمة، ويحاورهم في خطوط التماسّ ونقاط الاختلاف، لبلورة الآراء وإنضاجها وتكاملها، كالسلسلة القيمة (آفاق التجديد).

ومن الجهود الرائعة المشكورة، التي قام بها الدكتور الرفاعي على هذا الصعيد، تجليته للمشهد الثقافي في إيران، باللغة العربية، ليتابع المفكرون والمثقفون في العالم العربي، ما يحدث من تطورات هامة، في المعرفة والثقافة الدينية، لدى إخوانهم الإيرانيين، الذين يعيشون تجربة متقدمة مثيرة للاهتمام، منذ انتصار الثورة الإسلامية في إيران سنة

١٩٧٩م، وسعيها لإقامة نظام سياسي اجتماعي، ينبثق من قيم الإسلام، ويتوافق مع روح العصر، وتطورات العلم والحياة.

ومع قرب هذه التجربة جغرافياً من العالم العربي، الذي تتعثر فيه محاولات النهوض، ومع وحدة الانتماء الحضاري للإسلام، إلا أن التجربة الإيرانية، في بعدها الفكري الثقافي خاصة، لا تحظى بالمتابعة اللازمة من مفكري ومثقفي العالم العربي، بسبب حاجز اللغة، والخلاف المذهبي، والصراع السياسي، وغياب مؤسسات الدراسات والأبحاث، التي تعنى بدور التواصل والتبادل الثقافي.

هنا تبدو أهمية الجهد المميّز الذي بذله الدكتور الرفاعي، من خلال ما ينشره في مجلته (قضايا إسلامية معاصرة) أو سلاسل كتب: (آفاق التجديد)، و(قضايا إسلامية معاصرة)، و(ثقافة التسامح)، و(فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد)،نشر فيها كتابات لمفكرين وباحثين عرب معروفين، فضلاً على ترجمات لنصوص أبرز المفكرين الإيرانيين، كما نلاحظ في إصداره سلسلة من الكتب التي تعنى برصد المشهد الثقافي والفكري في إيران، والتي تناول من خلالها محاور هامة، مثل: (علم الكلام الجديد وفلسفة الدين) و(فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة). وتكشف هذه الكتب والأبحاث، عن عمق متابعة الدكتور الرفاعي لحراك وتحولات الساحة الفكرية في إيران، بقرائته لمختلف النظريات في الحوزة العلمية الدينية، وفي أوساط المفكرين الأكاديميين، واستيعابه لمعارك الجدل والصراع الفكري بين التوجهات المختلفة.

إنه دور هام جداً، كان يجب أن تقوم به مؤسسات متخصصة في الأبحاث والترجمة، لكن الدكتور الرفاعي ينهض بهذه المهمة بجهده الذاتي، تحفزه لذلك همته العالية، وإخلاصه العميق للفكر والمعرفة.

وهناك بعد آخر تتميز به شخصية الدكتور الرفاعي، ويعزز دوره في مجالات الإصلاح والتطوير، وهو رعايته لكل الجهود والطاقات، التي تصب في خدمة الدعوة والرسالة التي يحملها، وهذا ما لمسته شخصياً من خلال علاقتي وتواصلي معه، فهو يبحث عمن يشاركونه هم التجديد والإصلاح، ويبادر للانفتاح على أي شخص له توجه فكري إصلاحي، من أي مذهب أو طائفة أو اتجاه، ويقدم التشجيع والدعم لأي جهد ثقافي على هذا الصعيد، ويقف متضامناً مسانداً لمن تحاصره المشاكل والضغوط الاجتماعية، جرّاء طرحه لرأي نقدي أو فكرة إصلاحية.

هكذا عرفت شخصية الدكتور الرفاعي وقرأت مشروعه الفكري، الذي نذر له عمره وحياته، إنه دعوة للإصلاح والتجديد ورسالة للتسامح والانفتاح.

حفظه الله ورعاه منارة إشعاع، وداعية خير وإصلاح.

٦ ربيع الأول ١٤٣٥هـ/الموافق ٧ يناير ٢٠١٤م

عبد الجبار الرفاعي..
صفحات من صحبة فلسفية

د. عبد الله السيد ولد اباه[١]

في نهاية السبعينيات؛ وكنت ما زلت طالباً في الثانوية أتلقى دروسي الأولى في الفلسفة، وصل إلى يدي كتاب "فلسفتنا" للمفكر والعلامة العراقي "محمد باقر الصدر"، وقد أغرمت بالكتاب، ووجدت فيه فتحاً مبيناً لطالب مبتدئ يستكشف طريقه في مباحث وعرة، وتنتابه الشكوك وهواجس القلق في مواجهة إشكالات عصية تتجاوز قدراته العقلية والمعرفية.

بعد سنوات قليلة من هذا التاريخ بدأت كتابات المفكر الإيراني "علي شريعتي " الذي توفي قبيل الثورة الإيرانية تصل إلى أيدينا، وقد بدت في أوانها شديدة الأهمية والجاذبية لطالب مثلي تعوّد قراءة نصوص وآداب التيار الوجودي، وأعمال الفيلسوف الفرنسي المتأثر بالماركسية "جان بول سارتر"خاصة، التي وجدت أصداءها حاضرة في نَفَس إسلامي أخاذ في رسائل شريعتي، التي بدأت تفد بوتيرة متسارعة في ترجماتها العربية إلى قريتنا الصغيرة.

لم أكن طيلة تلك المدة أعرف "عبدالجبار الرفاعي"؛ ذلك الشاب العراقي الوديع، المنحدر من جنوب العراق، المتشبع بثقافة النجف وعبقها العلمي والتاريخي، حيث الحوزة العريقة، التي حافظت على الدرس الفلسفي والتجربة العرفانية العميقة. كان الشاب في أوانها قد تعلم على أيدي كبار علماء النجف، وصحب العلامة السيد محمد باقر الصدر، ومسّه ما مسّ الكثير من تلامذته وأحبائه بعد محنته الكربلائية الأليمة، على يد زبانية حاكم العراق المستبد صدام حسين.

هاجر الشاب إلى قم، وانخرط في حوزتها، وبعد مرحلة قصيرة من العمل السياسي، انتشله قلق السؤال الفلسفي من وحل النشاط النضالي، فاتجه يستكشف آفاقاً فكرية رحبة، لم تكن في أوانها معروفة لنا نحن المنشغلين من العرب بالفكر الإسلامي، الذين لم يكن اطلاعنا يتجاوز رسائل شريعتي القصيرة، التي حاول من خلالها بناء أيديولوجيا إسلامية؛ على غرار لاهوت التحرير المسيحي في أمريكا الجنوبية. لم تعد وقتذاك كتابات شريعتي، على جمالية أسلوبها الغنائي ونسيجها الرمزي الغني، تثير إعجابي، وقد قطعت أشواطاً في الدرس الفلسفي على يد أساتذتي التونسيين والغربيين.

---

(١) مفكر موريتاني، أستاذ الفلسفة في جامعة نواكشوط.

كنت اعتقد أن مشروع استئناف النظر الفلسفي في التقليد الإسلامي قد توقف مع محاولة محمد إقبال اليتيمة، رغم اهتمامي بكتابات المفكر المصري حسن حنفي، التي كانت تنم عن ثقافة فلسفية واسعة، وروح نضالية ملتزمة؛ لكن البعد الأيديولوجي التعبوي ظل غالباً عليها، في الوقت الذي تعمق فيه الاعتقاد لدي إن كتابات مفكري الإسلام السياسي هزيلة ضعيفة البناء النظري والعلمي.

في مطلع سنة الألفين، وكنت على عادتي في مكتب صديقي الأعز "رضوان السيد" في مجلة الاجتهاد ببيروت، غير بعيد عن الفندق الصغير الذي تعودت الإقامة فيه، اطلعت على أعداد متراصة من مجلة فكرية لم أكن قد اطلعت عليها من قبل؛ هي مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، التي امتدحها الصديق العزيز، وكان يرى فيها نفساً تجديدياً رصيناً، ومادة معرفية صلبة.

منحني رضوان بعضاً من أعداد المجلة التي تلقفتها بسرعة وبادرت قراءة مواضيعها دون انتظار، ومن خلالها بدا اطلاعي على الفكر النقدي الإيراني الجديد، الذي لم أكن قد عرفت عنه شيئاً من قبل، باستثناء كتيب صغير صدر بالانجليزية عن الفيلسوف الإيراني البارز عبد الكريم سروش.

في مجلة قضايا إسلامية معاصرة تعرفت إلى أبرز الأسماء اللامعة في فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد في إيران، مثل؛ مصطفى ملكيان ومحمد مجتهد سبشتري... وفيها تابعت محاولات جريئة غير مألوفة عربياً في بناء حقل هرمنيوطيقي إسلامي، وتمديد الإشكاليات المتعلقة بالتعددية الدينية والمنظومات القيمية إلى واجهة الاهتمام الفلسفي الإسلامي.

شغلني وقتها الجدل الواسع الذي فجرته نظرية سروش في "القبض والبسط"، التي بلور لها عدة مفهومية، تجمع بين إبستمولوجيا كارل بوبر وعرفانية الإمام الأكبر محي الدين بن عربي، وقد كتبت عن النظرية التي بدت لي طريفة وجريئة.

عرفت من الصديق رضوان السيد أن المشرف على المجلة هو شخصية فكرية عراقية مرموقة؛ تسمى عبد الجبار الرفاعي، تقيم في مدينة قم، وتنتقل ما بينها ودمشق وبيروت، وكم كنت حريصاً أشد الحرص على التعرف على هذه الشخصية، التي اضطلعت بهذا الجهد النادر بوسائل محدودة، ودون عون من أية دولة أو مؤسسة.

وكم كانت فرحتي حين أخبرني الصديق السعودي الفاضل أبو بكر باقادر إن صاحب المجلة سيكون ضيفاً على موسم الحج وندوته، التي يشرف عليها الوزير الألمعي المثقف إياد مدني وزير الحج السعودي، الذي حوّل ندوة الحج إلى إحدى أهم المناسبات الثقافية في العالم العربي، إذ يحضرها أبرز وجوه الفكر والأدب والثقافة دون إقصاء أو تمييز.

حضرت ندوة وزارة الحج مرات متتالية دوما بصحبة الرفاعي؛ الذي تحول منذ اليوم الأول للقائنا في مكة المكرمة إلى أحد أعز وأقرب الأصدقاء. شدّني إلى الرفاعي عقله القلق اليقظ، الذي لا يغطي عليه نفسه الإيماني العرفاني الصادق والعميق، كما شدني إليه خلقه الدمث التلقائي الذي لا تصنّع فيه ولا تزلّف، وجذبتني إليه ثقافته الواسعة وفكره النقدي النيّر الذي لا حدّ لاستقصائه وفصوله.

أذكر أمسيات مكة المكرمة ومنى والمدينة المنورة، ومقاهي جدة مع ضيوف وزارة الحج وأصدقائنا من مساعدي الوزير اللبق، مثل؛ باقادر وحسين بافقيه... واذكر كيف يمتد النقاش إلى ساعات الصباح الأولى، التي نقيضها غالباً في رحاب أول بيت وضع للناس في زاويتنا الاعتيادية، إذ يتشعب الحوار لشتى الموضوعات الفلسفية والفكرية دون ملل أو كلل. وكم كانت مداخلات الرفاعي في ندوة الحج غنية مفيدة، تستثير النقاش الجدي وتترك أثرها الواسع في الحضور.

سمحت لي صحبة عبد الجبار الرفاعي أن اطلع بشكل أوضح وأشمل على الفكر الإيراني الجديد؛ من خلال الكتب القيمة التي ألّفها أو نشرها في فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد وأصول الفقه، ومن خلال المجلة التي اتسعت اهتماماتها لتشمل مناحٍ كثيرة من الفكر الفلسفي والديني المعاصر، بما فيه أحدث إصدارات الفكر الغربي.

تعددت لقاءاتي وانتظمت مع الصديق العزيز عبد الجبار الرفاعي في مدن عدة؛ كتونس الخضراء والرباط وعمان.. وفي كل مرة كنت ابتهج لمقابلة هذا الرجل، الذي لا يمكن إلا أن يسحرك بخصاله المعرفية والإنسانية الرفيعة، ونزعته المتسامحة المرنة والمنفتحة، التي ظهرت بقوة في سنوات الدمار والفتنة الحالية، فكان أحد الأصوات القوية الرافضة لمنطق التعصب المذهبي والطائفي، وعقلية الضغينة والحقد التي أحرقت البلاد والعباد.

تعرفت في صحبة عبد الجبار إلى عائلته الكريمة التي أصبحت أحد أفرادها، جلست إلى عقيلته الفاضلة أم محمد التي كانت ترافقه في موسم الحج؛ وهي من هي كرم نفس وإشراق روح وعرفت أولادهما وبناتهما دون أن أقابلهما، كما تعرفت على أفراد الأسرة الكبيرة، وكلهم من النبع ذاته علماً وخلقاً وفضلاً.

في الأيام الأخيرة من سنة ٢٠١٣ اشتركت مع عبد الجبار في ندوة علمية بعمان، وكانت فرصة ثمينة لتجديد العهد، واستئناف حوار فلسفي وفكري شيق، لم ينقطع منذ ما يزيد على عقد، وتعاهدنا على عاداتنا في مواصلة النقاش في قابل الأيام، دون أن يتملكنا اليأس رغم دواعي الإحباط والقلق. ❖

عبد الجبار الرفاعي
صاحب مشروع تنويري وليس داعية تنوير

✍ غالب حسن الشابندر[1]

ترددت كثيراً أن أكتب عن أخي وصديقي عبد الجبار الرفاعي خوفاً من أن أقع تحت ضاغط الانحياز بسبب هذه الأخوة وهذه الصداقة، لكن فيما أنا أراجع ما قدم هذا الرجل للناس أقحمني الواقع الصارخ، وأرغمني الشاهد الواضح على أن أكون منحازا!

ليس كل انحياز خيانة للموضوعية، بل في كثير من الأحيان تكريس للموضوعية، وإعلاء للحقيقة في مواجهة الزيف والابتذال، خاصة في هذا الزمن السيئ، حيث تلوّثت الحقيقة ببركة المال الحرام، وهوس القوة الغاشمة، فهل أكون قد جانبت الموضوعية وأنا أقول - مثلاً - إن الرفاعي خدم الناس، وأي خدمة؟

الرفاعي شخصية ومشروع

إنما أقول شخصية، لأنه عصامي بالدرجة الأولى، قاوم قسوة الزمن، وغدر القدر، فتحدى وناضل، فكان هو الرفاعي اليوم، صنو مشاريع، وخالق أفكار، وصانع جيل، أستاذ حوزوي من الطراز الرفيع، درَّس الأصول والفقه والمنطق والفلسفة لعشرات من طلبة العلوم الدينية، وليس ذلك هو محدّ المحز فيما أريد قوله، بل لأن تلاميذه تحولوا إلى رواد فكر، وقادة رأي، واتخذوا منه محور عشق وحب، وتجاذب روحي علمي، وبالتالي، إنه يمتلك حضوراً كبيراً في ضمير الكثير، وفي وجدان الكثير، حضور علم وفكر ونهج، وقبل هذا وذاك، حضور إنسان أُغرِم بحب الإنسان، فالرفاعي إنسان قبل كل شيء، وهل هذا الهيام بالمعنى الروحي للدين إلاّ علامة فارقة على ذلك؟

الرفاعي لم يسع لعلاقات بهدف ذات العلاقة، بل بهدف خلق فضاء معرفي واسع، يصب في خدمة العقل، والعاطفة، ومن ثم الإنسان، بدليل أن هذه الشبكة العلائقية التي يمتلكها تحولت إلى نتاج فكري عالمي، فهو إذن كان يسعى إليهم من أجل غيرهم وغيره، إنّه يؤمن بتسخير الطاقات من أجل تنمية طاقات، ومن أجل خلق طاقات أخرى، وعليه، لم تكن علاقته بحسن حنفي، طه العلواني، محمد أركون، علي حرب، رضوان السيد، هاني

---

(١) مفكر إسلامي عراقي.

فحص، محمد حسن الأمين، مصطفى ملكيان، برهان غليون، عبدالله إبراهيم، عبدالله ولد باه، محمد مجتهد شبستري، محمد سبيلا، عبدالمجيد الشرفي، عبدالوهاب المسيري، أبو يعرب المرزوقي، أبو بكر باقادر... وغيرهم من رواد الفكر، إلاّ من أجل صنع فضاء ثقافي عالمي خلاّق، فهي علائق من أجل علائق، وحب من أجل حب، وفكر من أجل فكر.

مجلة قضايا إسلامية معاصرة

الإنجاز النوعي (قضايا إسلامية معاصرة) تخطت الزمن القاسي، وأشرعت أبوابها للأقلام الحرة والأفكار المضطهدة، والطاقات الكامنة، فكانت ثورة فكرية رائعة، عرَّفت شرق العالم الإسلامي بغربه، فهي مائدة جمع، وتفاعل، والمستقبل يتخلّق من خلال هذا الجمع والتفاعل، وبالفعل، لقد تحولت (قضايا إسلامية معاصرة) إلى دائرة معارف، ولا ننسى أنها المجلة التي تكاد تكون الوحيدة التي اخترقت المسموح لتتخطاه إلى الممنوع، وتمزّق التقليدي من أجل أن يتنفس الجديد، فهي علامة فارقة في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر.

الرفاعي شخصية ثقافية متطورة، أو لنقل متجددة، فهو بالوقت الذي يتفنن بعرض المادة الدينية التقليدية يشمخ بأسلوبه العصري، الحداثوي، وهذه نقطة قوة، بل دليل على أن الرجل استعداد متنوع التلقي والخلْق.

الرفاعي طُبِع على التسامح

الرفاعي كما يبدو لي طُبِع على التسامح، والدليل على ذلك أن جوهر مشروعه هو التسامح الديني والإيديولوجي، لم تأت هذه النزعة جزافاً، بدليل أنه كتب بذلك، وعندما يرى في الدين قوة روحية إرشادية بالدرجة الأولى، ومشروع يتصل بالضمير والسلوة والوجد، إنما يدلل على أن التسامحية في فكره وتصوراته وعمله إ نما هي مشروع وليس رغبة عابرة.نقرأ ونكتب ونسمع ونحاضر عن التسامح، لكن كثيراً ما يكون ذلك بلغة الأمنية، ولغة جمالية أثيرية خيالية، أما الرفاعي فإن التسامح عنده عبارة عن مشروع بنيوي، بدليل سلسلته (ثقافة التسامح) التي أصدرت أكثر من منتَج فكري، كان له أكبر الأثر في الوسط الثقافي العربي والإسلامي.

الإخلاص للأصدقاء! سمة! وأي سمة يتحلى بها الرجل...

شخصياً مدين له بأنه ساهم بتعريفي للقارئ العربي، فقد طبع لي أكثر من كتاب، وقد بذل جهوداً جبارة في تصحيحها وإخراجها، وتحمل بسببي كثيراً! لقد طبع لنا نحن

المقموعين، المحاربين، المنبوذين، وتحمل في سبيلنا الكثير من العنت والملامة، لكنه أبى إلا أن يكون معنا نحن الفقراء! سمة أخرى وأي سمة! أصدقاؤه المفكرون والبسطاء، وتلك من علامات الزهد بالرفعة المصطنعة، ومن علامات التمرد على الدنيا إذا أقبلت، تراه محور حلق من الصحفيين المتمرسين، والصحفيين الهواة، والصحفيين المبتدئين، يشجع، ويعرِّف، ويطبع، ويمدح، كل ذلك باتزان العلماء والمفكرين الحريصين على نشر المعرفة، وبالتحليل الأخير، الحريصين على خلق مجتمع معرفي متطور.

لم يكن انتماؤه الأيديولوجي حاجزاً عن التآخي مع كل الاتجاهات الأخرى، صديق الماركسي، والوجودي، والسني، والشيعي، والصوفي. ليس ذلك لأن شعوره إنساني، بل لأن ثقافته أيضاً موسوعية، صاحب الثقافة الموسوعية يكون صديق الجميع، ومحبوب الجميع. قدم لعشرات الكتب، بما فيها كتب صدرت لمفكرين كبار، مثل العلواني والمسيري وحسن الترابي وحسن حنفي وغيرهم، وأشرف على الكثير من الرسائل الجامعية، هو نسيج نفسه... عصامية في الشخصية، عصامية في الفكر... عصاميته هذه علمته درس التواضع... وهذه سمة أخرى...

المعرفة تبدأ دائماً بالسؤال

في إحدى تجليات الرفاعي، وهو يخوض غمار تحديث الفكر الديني وخلق تيار مجتمعي متمسك بالثوابت الدينية في سياق مرونة فهم وسياحة معنى، يقول: (وأود الإشارة إلى أن هاجسي فيما أكتب هو إثارة الأسئلة، وتكرار طرحها بلا وجل، أو خشية من أحد، ذلك أن المعرفة تبدا دائماً بالسؤال، ويقودنا السؤال للتوغل فيما هو مسكوت عنه، أو مجهول، أو ممنوع من التفكير به، وأية محاولة للتحديث والإصلاح لا تنبثق من أسئلة عميقة ومحورية سرعان ما تضمحل وتتلاشى...)، هذه الإطلالة السريعة تكشف بعمق عن ذات ملتهبة بالمعرفة، ولكن أي معرفة ؟ أنها المعرفة الملتهبة هي الأخرى، الملتهبة بالتشوف لا بالاكتشاف وحسب، الملتهبة بالتوغل في الأعماق وليس التطلع الباهت، السؤال ذكي والجواب غبي كما يقول أصحاب المعرفة في السويد. الرفاعي يريد منا أن نكون أذكياء، ولهذا يقول: (والفكر الحي هو الفكر الذي لا يكف عن اجتراح الأسئلة، ويتحرر من الأجوبة المتكررة التي يغيب عنها القلق)، وهو بذلك يذكرنا بمسرح توفيق الحكيم الذي توجّه بعمله الرائع (بنك القلق)، حيث كان يستعرض القلق السلبي ليدينه، فيما الرفاعي يتحدث عن القلق الإيجابي ويتبناه!

الدين في خدمة الإنسان

الدين في خدمة الإنسان، هذا هو جوهر الفكر الديني الحديث، أو الفكر الديني التنويري، وبذلك ينبغي أن يتحرر من الطقوس الرسمية، وإذا ما كانت هناك طقوس منصوص عليها فيجب استخراج كنها، أو معرفة جوهرها كي لا نعيشها عادة متكررة، مجرد آلية ميتة، فالصلاة من الصلة بالله من أجل أن تتشوق الروح إلى عمل الخير وإنتاج الطيب، من هنا لم تكن مراسيم بل هي معان، أما ترى معي كيف يتدرج الموقف العبودي للمسلم في صلاته لله؟ تدرج جسدي لكن بروح متوثبة للعطاء، وفي هذا التنافض يكمن سر الصلاة، عبودية ولكن برسم العطاء الواعي، هكذا يريد منا الرفاعي أن نفكر وأن نصلي!

سيرة الرفاعي تنورية بمعنى الكلمة

هناك متنور، وهناك من يؤمن بالتنوير، وهناك من يدعو إلى التنوير، لكن نريد من يتبنى التنوير نظرية أو طريقة تفكير وحياة. الرفاعي من الطراز الأخير، فهو صاحب مشروع تنويري، وليس داعية تنوير، وبذلك يدخل التاريخ من أوسع الأبواب، وسيرة الرفاعي تنورية بمعنى الكلمة، وهي دليل على أنه صاحب مشروع تنويري.

إن تبني مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) مسيرة فكر، وليست فكراً، وهناك فارق بين فكر مجرد من مسيرة وفكر مقترن بمسيرة، هل من دليل أقوى من أن هذه المجلة تبنت الفكر التنويري الحداثي بشكل جدالي وليس بمثابة تقرير، ومن علامة ذلك ما ضمته المجلة من مقابلات ثرة لكبار المفكرين الإسلاميين، حتى من دعاة الردع عن التنوير والتحديث، لأنه منتَج سجالي كما قلت، وذلك من دلائل روحه السجالية، من دلائل شغبه الفكري، ولا فكر ناضج من دون شغب فكري مثير.

إن تنورية الرفاعي لم تكن عبارة عن قفزة في الهواء، ولا انطلاقاً من فراغ، إنه يشبه ذلك الشاعر الذي يجيد الشعر الحر بمهارة عالية الوتيرة بسبب كونه شاعراً عمودياً صلباً، فالرفاعي تضلع بعلوم الدين التقليدية، فضلاً عن الفلسفة الكلاسيكية، فكانت بمثابة عتبة انطلاق صلبة للولوج إلى عالم التحديث ـ وأنا لا أفرق بين التحديث والتنوير هنا ـ، وكم هو جميل أن يكون هذا الولوج برفق ومن دون التنكر للعقل التقليدي، فكان العقل التقليدي في خدمة عقل التنوير والتحديث، ومن هنا كان دفاعه عن بعض الجوانب اللاعقلية في الدين، بعقل حصيف مغرم بالقياسات والحجج، وهذا اللون من التفكير حداثة وليس تحديثاً.

الواقع واللاهوت معادلة جدلية متبادلة التأثير، فلا تغيير للواقع دون لاهوت ملائم، واللاهوت الملائم هو الذي يحدد مكانة الإنسان في العالم تبعاً لما تفصح عنه علوم الإنسان الطبيعية والاجتماعية وما تفرزه تطورات الحياة، هكذا يقول الرفاعي في كتابه: (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص ٦٣).

إن الرفاعي رجل فكر وعمل، فإن منتجه الفكري التقليدي حاز مساحة تقدير فائقة الدرجة من قِبل أساطينها، وتحولت كتبها وشروحه إلى مصدر تعليمي تقليدي لكنه فاعل، لأنه الأكثر قدرة على تمرين العقل الديني التقليدي على الاستيعاب والفهم، فهو هنا حقق مبدأ اقتصاد الزمن في المعرفة، كما أن فكره التنويري الذي يدعو إلى تحديث آليات الفهم المعرفي لأهم مجال معرفي ديني، أقصد الفقه إنّما يلامس به الزمن بحركته، خاصة وقد وضع مبدأ المقاصد صوب محاولاته هذه، مما يعني أن الرجل مع الإنسان قبل كل شيء، إنه رجل عمل، وهل من دليل على مواكبة مجلته قضايا إسلامية معاصرة الزمن رغم صعوبات التواصل والتكاليف؟ ويكفي أن حوالي ١٥٠ منتجاً يصدر عن سلسلة قضايا إسلامية معاصرة لمختلف الكتاب من مختلف الجنسيات، وهو بذلك يكون قد عمل على (تظهير) طاقات وقابليات، ربما لو لم يعمل على ذلك لقهرها الزمن!

عبدالجبار الرفاعي لأنه يفكر إنسانياً وحداثياً، لم يهمل معالجة انحياز العلم في الغرب، وإن كان عبر حوارية مع مفكرين إيرانيين، لكنه بذلك يكون قد قاربنا من اهتمامات ميشيل فوكو في جهده الرائع عن العلاقة بين المعرفة والسلطة، فالرجل قد هيأ لنا أجواء الغوص في لجج الحداثة من أوسع أبوابها وأعمق ينابيعها، فكان بهذا وذاك من النجوم الساطعة في سماء الفكر والعطاء.

التاريخانية منهج مغرمٌ به الرفاعي، لكن ليس لغاية الاستعراض، بل لغاية الوصول إلى نتيجة مناسبة للحظة المعاشة، فهو عندما يكتب عن فكر الدولة في الفقه النجفي إنما عبر تحولاته القوية الفوارة، لكي يطرح بين أيدينا ما أسميته انا بـ (دولة المعاش)، وهذا يعزز القول بأن الرفاعي لم يكن تنورياً فاضي الوفاق بل تنويري مملوء، ينطلق من ثراء، ويوظف هذا الثراء لإشكاليته التنورية والحداثية.

القلق !

هذا ما يشغل الرفاعي ليس كمشكلة بل كإشكالية يدافع عنها، لكن أي قلق؟ قلق المعرفة، مصدر الديمومة الروحية، وبلا قلق لا ننتج متحركاً، الاستقرار الساذج يخلق معرفة ساكنة، هادئة، تميل بك إلى الخلود الميت، أما القلق فيجعلك أسبق من الزمن، فلا يستغرقك وإنما أنت تستغرقه.

يقول: (اللايقين يقتل المعرفة البسيطة، لكنه يحي المعرفة العميقة والمركبة)، لكن هذا لا يعني أن حداثية الرفاعي ترفض اليقين كليا، على أقل تقدير إنه متيقن من أن اللايقين يخلق الوعي والتحفز والمتابعة.

لا حداثة بلا تحديث!

يبدو هذه قاعدة ثاوية في لاشعور الرفاعي، فهو عندما يدعو إلى الاستفادة من تقنيات العلوم الحديثة وعلى رأسها علوم الحاسوب، إنما لاعتقاده بأن الحداثة تحتاج إلى تحديث، أو لا حداثة بلا تحديث، فليس من المعقول أن تتأسس حكومة الإنسان وما زالت وسائط النقل البدائية هي السائدة؟

يدعو الرفاعي إلى توظيف علم النفس والاجتماع والانثربولوجيا والألسنية والهرمنيوطيقا والتاريخانية لخدمة النص الديني ليكون في خدمة الإنسان، ليس من ريب لا حداثة دون أدواتها، وهذه أدوات معرفية تجسد الحداثة بقسط منها، كما أنها هي بحد ذاتها تقود إلى الحداثة!

لقد ربى عبدالجبار الرفاعي جيلاً رائعاً مستنيراً من الطلاب، الذين يجمعون بين القديم والحديث في مركب متحرك متفاعل، الطالب الحوزوي الحداثي، وهو بهذا المشروع يكون قد ساهم في إنقاذ العلم والدين وطالب الحوزة والمجتمع من القطيعة المصطنعة التي تفرضها عملية الجمود على القديم، كذلك الإيغال بالحداثة دون رصانة المنطلق ودون الاستفادة من التاريخ.

هذا هو عبد الجبار الرفاعي، إنه شعلة متقدة، رغم السكون الهادئ البادئ على مظهره الخارجي، ألا نتذكر البحر؟ هادئ سطحه مائج عمقه... كذلك هو...



عبد الجبار الرفاعي
فكر إسلامي إنساني جديد وثقافة جديدة أكثر إنسانيةً

د. أنطوان سيف[1]

تُبنى السيرة الذاتية لتُروَى، أي لتتدرج في حقيبة التاريخ الذي هو، في دلالاته اللغوية الأصلية، روايةٌ وتعليم. يزدوج المرويُّ والراوي، ويُكرَهان على المواجهة في مرآة لا يني واحدُهما يجلوها ويستوثق من عدم تقعُّر أسطحها. مناسبةُ البوحِ العلنيِّ فيضُ غنىً لا تفترُ الحاجةُ فيه إلى تبليغٍ من يعرفوننا ونشكُّ في مدى معرفتهم بنا، ومن لا يعرفوننا ونراهن على صداقاتٍ معمَّقة معهم.

فالسيرةُ مسيرةٌ ومنعرجات تكتُبنا بقدر ما نكتبُها، وتَثرَى بقدر ثرائنا المستمر. وهي أيضاً نسجُ علاقةِ مشاعرَ مستحدَثةٍ، لها في لغة البشر اسمُ المحبَّةِ والرفقة. فالحدثُ العيانيّ ومنعطفُه، والإيقاعُ الداخليُّ الحميم ولواعجُه، سيّان.

والسيرةُ صيرورةٌ عاصفة تُوهِمُ بخطٍّ لها يكافح لاستقرار استقامته، إلا أنه في الحقيقة سعيٌ مبعثرٌ حول مركزٍ لا تُفهَم الحوافي، ولا تُستكنهُ، إلاَّ في كنفه. إنه قاع الثقافة الشخصية المنتميةِ، في بداية الأزمنة كما في المطاف الأخير، بروح الجماعة، لا بسِيَر أفرادها ومعلِّميها.

لقد استبان لعبد الجبار الرفاعي هذا المركزُ المحرِّكُ نزعةً دينيةً متأصلةً في الكائن البشري، في كل زمان ومكان، هي سِمَتُه Homo religiosus المميِّزةُ له بين الأجناس والأنواع، تتشكَّلُ وتتجلَّى بحسب ثقافات البشر المختلفة. من هذه القاعدة الإناسية، فهِمَ الإسلام في الثقافة التي نشأ فيها، وفيها شهِدَ كيف جمَّدَ الخاصُّ الثقافيُّ العامَّ الإنسانيَّ وقلَّصَ آفاقَه، كما شَهِدَ معاناة الانكسار أمام جبروت هذا الانحرافِ المتحوِّلِ ضيماً على أهل الأديان، والمذاهب، وكل "الآخرين".

سيرتُه، وهي المنتميةُ دوماً إلى طرف حبل الزمن الراهن الذي تُروى بصيغته الأخيرة فيه، تشهَدُ على أنَّ إسلامَه المتوضِّحَ في سريرته الناصعة وعمقِ إيمانه، يكتملُ فيه، من غيرِ توقُّفٍ، بالمعرفة المحرَّرة والمحرِّرة، ويتكامل أيضاً كتجربةٍ إيمانيةٍ ذاتية، بتجارب الآخرين

---

(١) الأمين العام للحركة الثقافية في أَنْطِلْيَاس (لبنان)، شهادة الدكتور أنطوان سيف في تكريم الحركة للدكتور عبدالجبار الرفاعي، في ٣ آذار ٢٠١٣

وإنجازاتهم هذه، التي باتت تراثاً مشتركاً تنطبع فيه "الذوات" الثقافية، الجمعية والفردية على حدٍ سواء.

بهذه الرؤية الواسعة للدين، وهذه الرؤية العميقة للإسلام، وهذا السفَر الميمون المتواصل والذي لا يعتريه إرهاقٌ باتِّجاه الحق، انضمّ إلى رَكب أصدقاءٍ نخبةٍ صدوقين، بعضُهم معروفون منه وكثرةٌ منهم غير معروفين، واستفزَّ أيضاً أفراداً ومرجعياتٍ ومؤسساتٍ راسخةً في حراسة القلاع القديمة للتقليد.

هذا القرويُّ، الحسَنُ الطويَّةِ والطيِّبُ القلب، كما يقول محيَّاه البسَّامُ وسيرتُه، اقتحمَ، مهجَّراً، سرايا المدنِ الواثقةَ من سطوتها والمتدثرةَ بكبريائها، ومن غير الحاجة الضرورية عنده إلى مظهرِ العمامةِ والجبَّة الخارجي. مكوثٌ في عين العاصفة لم يُرهِبْه ولم يُثبط همَّتَه. الجديدُ، الوافدُ من أرجاء العالم من غير استئذان ولا إخطار، أو ذاك المتشظّيُ من احتكاك الثقافات والأفكار والخبرات، لا بدَّ له من أن يَطرق بابَ الموروث فيُفتَحُ له، لاهوتاً مستنيراً تتصالح في حضرته الأضدادُ ونزفُ التاريخ، وتوطِّد لها تاريخاً جديداً للسرد بكثير من القلب والعقل، على ضوء ثقافةٍ جديدة لا شكَّ في جدَّتها: علمُ كلامٍ جديد، وفلسفةُ الدين، واستيعابُ تحدّيات التعدّد والاختلاف والتكامل بين مكوِّناتها المتدابرة، ونشرُ قيم التسامح، والتعمُّقُ في فهم الآخر واحترامه، والانفتاحُ على العلوم والخبرات الحديثة، وتطهيرُ الدين من الإكراه والكراهية، والدعوةُ لبناء مجتمع تعدُّدي مدنيّ في ظل الحريات وقيم العيش المشترك... تلكم، بالحقيقة، عناوينُ حروبٍ أعلنها الرفاعي ألبسَها ثيابَ عناوين كتبٍ ومقالاتٍ ودراسات ومنشورات متضاربة تُثير في جسم الثقافة الإسلامية المعاصرة خليطاً من الغبطة والأمل والشبهة والريبة...

مصلحٌ دينيٌّ نذر نفسه لإرواء "الظمأَ الأنطولوجي" المزمن إلى الدين من الأسمى المطلق، بعد أَن جَفَّت منابعُه التقليدية أقلاماً وتعليماً. فذاك الذي بكى دموعاً حرّى، أكثر من مرَّة، عند اصطدامه برؤيةٍ جديدةٍ للدين، مع قراءَته تباعاً سيّد قطب، وحسن حنفي، ومحمَّد عابد الجابري، وبعدما ذهب أبعدَ، في مغامرته المعرفية لتراث الإسلام، مع شيءٍ من الأنثروبولوجيا على يد أبي بكر باقادر، وسواهم... أستبقى الكثيرَ من بوَّابات هؤلاء، ومن غير حصر، عوناً له للعبور إلى العصر.

ولم يكن استقراره الأخير في التصوُّف، من غير التفرُّغ لمسلك أهل الطريقة، إلاّ إكمالاً وتوغُّلاً في المسار الدؤوب في الزمان، وعبر المدن والأصقاع، حتى بعد أن توفَّر له استقرار الحال! مع التصوّف باتت السيرةُ مقاماتٍ، محطاتٍ ("أَسْكَلاتٍ"، بلغةِ بحَّارتنا،

موانئ لإقامةٍ خاطفة تأبى الاستطالة) لا قرارَ لها. تلك، بظنّي، قراءةٌ شخصيةٌ لموسوعة الشيرازي و"أسفاره الأربعة"، مذكِّرةٌ بقول الشاعر الفرنسي بودلير، في قصيدته: "دعوةٌ إلى السَفَر": "أمَّا المسافرون الحقيقيون فهم أولئك الذين يرتحلون لمجرَّد الرحيل... وفي عزِّ إقاماتهم، عقبَ كلِّ سَفرةٍ، لا يدرون لِمَ يهبُّون فجأةً هاتفين: فلنرحل"! فالسفر، الإراديُّ لا القسري التهجيري، بمختلف دلالاته، وهي كثيرة، هروبٌ من سجنٍ راهن. وهو أيضاً سفرٌ بالأذهان، وباللسان... وأحياناً بالكتمان، لا يَرويه إلاّ سفرٌ جديد إلى "آخر"، أي إيمان "متجدِّد". وإذ المقام الصوفي هو حبٌ جديد، فأفضل الطرق والأمكنة للاحتفاظ بالحب واستبقائه، يقول اللاهوتي فولرو، هو أن نستودعه الآخرين! لهذا الحب ـ ونقيضُه الكراهيةُ والعنفُ والابتعادُ والتدابُر ـ أسماءٌ حديثة فيها الكثيرُ مما يتجاوز "الأنا" المنغلقَ على ذاته، "الأنا الأنائي" الكريه، هو الحوارُ مع الآخر، في فضاء الحرية، واحترامُه، و"فهمه"(بمدلول ماكس فيبر والتأويليين)، والتكامل به. هذا هو الإنسان Ecce homo الحديث الذي لا يَعترف كثيرون بشرعيَّته، ولا بشرعيةِ عَمَلِ قابلتِه القانونية: الحداثة. هذا الإنسان، نحن، كما مفهوم الإنسانية، يسعى دوماً بوعيٍ أعمق إلى المطلق، بأسمائه الحُسنى المتنوِّعة في مختلف لغات ومُهَج بني البشر، بكنهه لأبعاد صيرورته، حيث الإيمان والإرداة والشجاعة والمحبة، بالعقل وبالعاطفة، دأبُ الذين ـ أمثالِك يُحسنون الانغراز في الحاضر، إضاءةً للماضي، ماضينا وتراثِنا خصوصاً، وصوناً للمستقبل المشترك، مزاوجين بفرحِ القلقَ بالأمل.

سيِّدي وصديقي،

يعزُّ علينا، رفاقي وأنا في "الحركة الثقافية ـ أنطلياس"، في هذا الدير المسيحي الذي شهِدَ منذ نيِّفٍ ومئةٍ وسبعين عاماً، لقاءً عاماً، وطنياً وروحياً، من مختلف المذاهب، الإسلامية والمسيحية، يُعرَف عندنا تحت اسم: "عامِّيَّة (سنة) ١٨٤٠"، أن يكون لقاؤنا بكم ومعرفتُنا وتقديرنا بانجازاتكم في رحاب الإسلام ودنيا العرب، في العراق الحبيب كما في لبنان، قد تأخَّرَ كلَّ تلك المدَّة المديدة إلى هذا الزمان. واعلمْ أنَّنا نكرِّمُ معلِّمينا الكبار، تقديراً ووفاءً. وحسبُك أنك من رعيلهم الميامين. ونحن فخورون بك بينَنا في هذه العشيةِ هنا، وثمةَ، وإلى أبد الآبدين.

❖ ❖ ❖

عبد الجبار الرفاعي ظاهرة فكرية ومشروع تنوير

✍ د. وجيه قانصو[1]

أمران يحضُران في ذهنك بدون استدعاء أو جهد، حين تتحدث عن عبد الجبار الرفاعي (مع حفظ الألقاب طبعاً):

أولهما أنك تتكلم عن شيء في داخلك. فعبد الجبار، في عطاءه الفكري وحسه الوجداني ورَهَفِهِ الروحي، في يقينه وقلقه، في اطمئنانه وشكه، في ثباته وتموجاته، هو في كل ذلك، لا يدخل عليك من الخارج، بل تنبثق خواطره وهواجسه وإثاراته من داخلك. يُقطِّعُ أوصال الوهم فيك بقبسات نقده، يُكثِّفُ أسئلته المحرجة ليوقظك من سباتك، يستعرض لك الإمكانات المحتملة ليوسّع مدى وجودك، ويلوِّنَ حظوظَ تحقُّقِك، يفصح عن إشراقات الإنسان فيك، كي تكون الإنسانيةُ عندك غاية لا وسيلة، يكشف زيف الاصطفاء في إيمانك، لا ليخرجك منه، أو ينقلك إلى معسكر إيمان آخر، إذ أينما تولوا فثم وجه الله، بل لتتحرر روحُكَ من عقال الاستحواذ وسطوة التملك، فتجد نفسك محاطاً بالمطلق ومأسوراً بحبه، بعد أن صِرتَ في قلبه، قلبُ الله.

ثانيهما: إن عبد الجبار، رغم مشوارِه الفكريِّ الطويل، مشروعٌ قيدُ الإنشاء بشكل متواصل. فلحظات القطيعة عنده لا تتوقف، ومفاجآت الجديد فيه تتلاحق بغزارة. ومع ذلك فإن هنالك جرياناً متصلاً، وتدفقاً متلاحماً ومتداخلاً، تدلُّ جميعُها على ذاتٍ متوحدة وكينونة مقتحمة، لا يُشبع شغفُها العرفاني أي مستقر، أو يُسكِّنُ توهجَها الذهني أي مُستند، أو يهدئ قلقَها الوجودي أية وِسادة. فالمُستَقَرُّ عنده تهيّؤ واستعداد لرحلة تقصٍّ جديدة، وتوقٌ إلى لا مفكر جديد، وتجهُّزٌ لسيرٍ وعرٍ محفوف بالهاوية من جميع جنباته.

هذا هو عبد الجبار الرفاعي، تجربة حياة، مرت بمحطات عدة، وفي كل محطة، هنالك صدىً لا يخفُت، وأثرٌ مُرورٍ عميقٍ، وعلامةٌ لا تنمحي في كل محطة من محطات حياته، يعطي عبد الجبار كل ما عنده، كي يرغم كل ما يلتحم به أن يظهر كلَّ ما فيه. ثم بعد أن يستعرض لك جميع الصور المحتملة، وتكاد تقترب من جدار اليقين الحديدي، تراهُ يحدث لك كُوَة فيه، يقول لك "ما زال في النفس شيء"، يفعل ذلك، لتعبر من جوف هذا الجدار باتجاه حقل استكشاف جديد.

---

(١) أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

عبد الجبار من الناس القليلين، الذين انجبلت سيرتُهم الفكرية برهانات حياتهم، ووضعتهم قناعتهم وأفكارهم المعلنة في منطقة الخطر الدائم، والتهديد المحتمل. بل إن عبد الجبار من الناس النادرين، الذين آثروا أن تبقى بوصلةَ الحقيقة وواحة التفكير الحر، خيار حياته الأوحد، فلم يقبل أن تنضم السياسة أو السلطة إلى هذا الخيار، رغم أنها قد عُرِضت عليه وما تزال متاحة له في العراق، لعلمه أنها ستشوش عليه هذا الخيار، معلناً أنه "المكان (أي السلطة) الخطأ الذي لا أود أن أمكث فيه، وكان الصوت العاصف في داخلي يمنعني من الرقاد ويقعدني عن مواصلة المسار الذي أُقحمت فيه، فقررت أن أستعيد مصداقيتي أمام نفسي أولا وأنسجم مع قناعاتي، ولذلك وجدت راحتي وهدوئي في التخلي عن الاستمرار في هذا المشوار".

عبد الجبار الرفاعي، رجل من العراق، تفتح عقلُهُ على الوجع الذي يحدثه الاستبداد والظلم والطائفية والجهل والتخلف، أراد خلاصاً لنفسه وعراقه وعالمه المحيط به، وخروجاً به إلى ضوء الهداية والحرية. كانت البداية، اعتقاده بأن الإسلام طريق لذلك، آمن به قدراً إلهياً، نعمة إلهية أرادنا الله أن نستجمع شروطها الموضوعية، كي تفتحُ السماءَ بركاتِها وتُخرج الأرضُ خيراتِها. تلك النظرة المتفائلة، والصورة الطهرية، وضع عبد الجبار في سبيلها كل إمكاناته، وأطلق كامل طاقته الفكرية والروحية، ودخل في حقل اختبارها، وذهب مع الفكرة إلى مدياتها القصوى.

أراد تجربة متبصرة، متفحصة، مُدققة، وناقدة،فانخرط في الحوزة العلمية، تعلم موادها، تبحّر في مسائلها ومطالبها، حتى وصل إلى مرحلة الإكتفاء الذاتي، أو ما يعبر عنها بالاجتهاد، وهي المرحلة التي لا يعود فيها طالب العلوم متلقياً لمعارفه،بل يصبح منتجاً لها، وتُلقى عليه مسؤولية إضفاء المعنى على الأشياء، وصلاحية إثبات أو نفي المشروعية عن أي فعل أو قيمة أو وضع.

زَوَّدَت تلك المرحلة، عبد الجبار، بأمرين أساسيين، كانا بمثابة أرضية صلبة لحراكه الفكري:

أولهما: القدرة العقلية التي زوده بها حسه الاجتهادي في التحليل والفهم والنقد. فالاجتهاد في صلب طبيعته ووظيفته، ممارسة النقد، والقدرة على التجاوز. هو المبالغة في بذل الجهد، أي استنفاذ الوسع، في استعراض جميع المحتملات، وتقليب وجوه المعنى والدلالة.

الثانية هي الاستقلال الفكري. فالاجتهاد قدرة ذاتية، ملكة راسخة في النفس، وليست جملة معارف، أو كما من المعلومات، بل تصبح حالة ذاتية، تنتظم بداخلها القدرات الذهنية والصور العقلية والأفكار، لإنتاج المعنى، تصبح تلك القدرة التركيبية في التجول بين الأدلة والعبور فوقها، القدرة التي تجعلك فوق الدليل ومتحكماً به، لأن أولى مهامك، هي البحث في صلاحية هذا الدليل، والنظر في دليليته.

وقد تسنى لي أن أطالع بعض نتاجات عبد الجبار في تلك المرحلة، والتي أهمها كتابه في أصول الفقه، وكتابه في مبادئ الفلسفة الإسلامية. وهي كتابات كانت حصيلة تدريسه الطويل في الحوزة العلمية في قم، وتترجم ذوقه اللغوي الرفيع، وحسه الذوقي العالي. صحيح أن أصول الفقه لديه كانت مستلهمة من أصول محمد باقر الصدر، وفلسفته كانت تتحرك في فضاء فلسفة محمد حسين الطباطبائي، إلا أن عبد الجبار لم يكن مجرد مدرس، أو شارحا للمتن، بل كانت نفحاته الفلسفية الخاصة به جلية في شروحه، وكانت تجاوزاته لصاحب الحلقات بينة. لكن أدبه وتواضعه لازماه، إلى حد الإحجام عن التصريح بذلك والمجاهرة به، وفاءاً وحباً لمن رأى فيهما ذروة الفكر الشيعي في أواخر القرن العشرين.

انخرط عبد الجبار في المشروع الإسلامي، لا في بعده الفكري، بل في مساره العملي، فكان حزب الدعوة، إحدى محطاته، التي اختبر من خلالها تجربة التغيير، وهضم ثقافتها، وبحث في دينامياتها التاريخية وشروطها الاجتماعية وإجراءاتها التنظيمية. هذا الأمر دفعه إلى قراءة المقترحات والتنظيرات الأيديولوجية الكبرى في العالم، وإلى التبحر في دعوات التجديد والإصلاح في العالم العربي، فكان الأفغاني ومحمده عبده ومحمد إقبال أحد أهم محطاته. إضافة إلى محمد باقر الصدر، الذي جهد في أن ينقل الإسلام، في نصوصه ومعانيه، من حالة التجزئة والتشظي فيه، إلى حالة البناء الأيديولوجي المتماسك، والقادر على ملء الفراغات التي يضخ بها كل عصر.

لكن... لعل أقسى اللحظات وأكثرها خطراً، هي الوصول إلى الذروة، مع غياب ذرى جديدة للصعود نحوها. في لحظة الامتلاء هذه، تستنفذ الأسئلة، تسكن الهواجس، ويغط التفكير في نوم عميق، بحيث لا يبقى إلا أن تكرر الأسئلة والأجوبة نفسها، أن تتأمل ذاتها بإعجاب واندهاش وغرور في تلك اللحظة، يبدأ التكرار المصحوب بالرتابة، ويبدأ الملل والضجر، ويثور الشك، ويتحرك السؤال من جديد، لكن هذه المرة لا لتسكِتَهُ أو تُسكِنَه، بل يدفعك للقفز من تلك الذرى الخاوية، إلى الهاوية من جديد، علك تجد في الفراغ السحيق، والضباب المخيف مسارات لذرى أخرى.

تلك كانت حال عبد الجبار، الذي بدأ في ذروة الإشباع الإيديولوجي، والتخمة العقائدية، تتكشف لديه حالة الانسداد، التي وصلت إليها مزاعم الأيديولوجيات ووعودها، والتي بدلاً من أن تأخذنا إلى جنة الأرض الموعودة، إذا بها تجعل الواقع أكثر تأزيماً، وتضع المجتمعات بأسرها على حافة التشظي.

أخذ يراكم عبد الجبار مساراً نقدياً، لا ليعيد النظر في الأجوبة، بل ليطرح أسئلة جديدة. فالخطأ لم يكن في الجواب، ولا حتى في السؤال، إذ إن كليهما ينتميان إلى مجال فكري واحد. الخطأ كان في المجال أو الفضاء الفكري، الذي تتم في داخله صياغة

الخطاب وإنتاج المعنى. أي إن المطلوب أسئلة جديدة تعبر عن فضاء فكري جديد أو براديم جديد، يحمل معه أسئلته وآلياته وإجراءاته وأدواته ومناهجه.

أخذ هذا البراديم الجديد، يعبر عن نفسه في فكر عبد الجبار، بما يمكن تسميته بفلسفة الفقه، وعلم الكلام الجديد. وتجلت في مؤلفات عبد الجبار بشكل خاص في "نقد الدرس الكلامي"، و"نقد الدرس الفلسفي". وهي مجالات تفكير تتسم بمنطقة تفكير مستقلة خاصة بها، لها وظيفتان أساسيتان: **تفكيكية وتأسيسية.**

فالفكر الجديد، لا ينضج ولا يولد خصوبته إلا عندما يشتبك هذا الفكر مع حوله في سجال ومنازلة. والمنازلة والاشتباك لا يكونا في تفاصيل الفكر وتفريعاته بل في أصوله وبديهياته، في منطلقاته الأولى.كانت أسئلة علم الكلام الجديد وفلسفة الدين وفلسفة الفقه، عناوين ملطفة لتعرية العلوم الإسلامية، وكشف بداهاتها، وإظهار التلاعبات البشرية المتخفية فيها، والفعل التاريخي المُحمّل بمحدوديات الظرف فيه، يقول عبد الجبار في هذا المجال: "وهكذا ظهر عجز الفقه التقليدي عن استيعاب تطلعات الثوار، وانجاز احلامهم، وتحقيق وعودهم وآمالهم، فاستفاق جماعة من النخب ليحاكموا التراث الفقهي ويسائلوا اللاهوت التقليدي، ويغربلوا مفاهيمهم ومقولاتهم، فلم تعد قناعاتهم الماضية يقينيات، وانما تحول شيء منها إلى شكوك، ومانفك بعضهم يرزح في ارتيابه ولايقينه. وضعتنا مردودات قرن كامل من محاولات تحديث التعليم الديني في الحوزة العلمية على اعتاب مرحلة جديدة، نلمح فيها ارهاصات انبثاق سؤال ميتافيزيقي ولاهوتي مختلف، وبذور جنينية لميلاد لاهوت جديد، لايخشى من توظيف معطيات العلوم الراهنة في قراءة النص والتراث، ويعمل على تجاوز يقينيات المنطق الأرسطي، وتفكيك مقولاته وأدواته الجزمية الراسخة. تحديث يطاول بنية المعارف الإسلامية ويمهد لانبثاق السؤال اللاهوتي الجديد"

ويبين عبد الجبار مهمة هذا العلم: (يتولى هذا العلم "أي فلسفة الفقه"تفكيك نسيج الفقه ليرينا كيفية صياغته، ويكشف لنا عن طبيعة المعارف والأدوات الخفية الثاوية في بنيته الداخلية، بنحو نستطيع معه تشخيص ثغوره وتخومه ومساراته، وكافة منابعه ومرتكزاته وسماته وأهدافه. إنه علم يتولى تشخيص ما يطبع المعرفة الفقهية، وما تتلون به هذه المعرفة من رؤية الفقيه الكونية، وثقافته، ومحيطه، ويغامر باجتراح أسئلة غير مألوفة، أو على الأقل لم تكن متداولة فيما مضى، وينقلنا إلى "ما وراء أصول الفقه" و"ما وراء الفقه". يتمحور اهتمامها قبل ذلك على المبادئ التي ينطلق منها الفقيه، ونوع المنهج الذي يستخدمه وأثره في تحديد الموقف الفقهي. فيلسوف الفقه لا يمارس الاستنباط، لكي يحتاج أن يكون في الميدان، وإنما هو يراقب العملية من الخارج، ويحاول اكتشاف وجهتها وما يتحكم فيها من عوامل).

أما الوظيفة التأسيسية، فهي بمعنى اجتراحها مناطق تفكير جديدة لم تكن حاضرة من قبل. تطرح أسئلتها في جوف المنظومة الفكرية القائمة، لا لتنقذها بل لتزحزحها بهدوء، أو حتى لتنسفها من داخلها. وليس الهدف هنا، إقصاء أحد أو تسجيل انتصارات، بل إحداث تحولات تمهد الطريق لمجال فكري آخر.

هذه المرحلة استنفدت جهد عبد الجبار بعض الثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين فيها. ولم يكن جهده منصباً على الاكتفاء بإبراز إسهاماته الفكرية، أو تأسيس مدرسة فكرية خاصة به، بل عمد إلى أن يكون مشروعاً جمعياً، وتياراً فكرياً مفتوحاً للجميع، موحّد الأهداف، متنوع الأفكار والمرجعيات والمقاربات، تتحقق الإنزياحات عبر جهد تراكمي وتواصل بين عدة اجيال. لم يحرص عبد الجبار أن يبرز تمايزه، بقدر حرصه على إيجاد مشروع فكري.

لعل أهم ما أنجزه عبد الجبار هو مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، التي كان لي شرف المشاركة فيها بعدة بحوث وترجمات. حيث أراد عبد الجبار عبر هذه المجلة، أن يوسّع مدى التفكير الجديد، أن يستنفذ الطاقات ويستحثها على أن تعطي أفضل ما عندها. ما جعل هذه المجلة تستحق بجدارة أن تكون أهم مرجعية للفكر الإسلامي الحديث والمعاصر.

هذه المرحلة، وإن لم تصل إلى ذراها بعد، وما تزال قدرتها على زحزحة الصلب في المكون المدرسي الإسلامي صعباً وشاقاً، إلا أن أسئلتها الخصبة، التي تطل على البعد التاريخي والسوسيولوجي والسيكولوجي والألسني للمعنى الديني، فتحت أمام أعين عبد الجبار، أفقاً أوسع، جعلته يرى أن أصل المشكلة، لم تعد في الإسلام والمسلمين، بل في الدين نفسه، والإنسانية عموماً، إنها أزمة المطلق والمتناهي من جديد.

من فلسفة الفقه، وعلم الكلام الجديد، أطل عبد الجبار على فلسفة الدين، بإسئلتها الواسعة الشاملة، التي تسائل الحضارة المعاصرة وتتهمها، بعد أن سلبت عن الدين سحره وفقد الإنسان روحه، ولم تقدم له ما يعوّض له هذا الفقدان وهذا الإستلاب، وتسائل الدين، الذي ما يزال يتكلم بلغة غريبة عن هذا الزمان، ويصر على مطلقاته ونهائياته، ولم يفهم العالم ماذا لديه لخلاصها.

يقول عبد الجبار في هذا المجال: "يهمني المثقف النقدي، الذي ينشغل بتفسير العالم، ويتغلب على سجون الأيديولوجيات، ويتحرر من رؤية العالم بمنظور أحادي، ويجرؤ على الاحتجاج والإدانة والنقد. قد تقول أنه بهذا يساهم بتغيير العالم، نعم سينتهي ذلك إلى تغيير العالم، بيد أن مهمته المحورية هي التنوير... التدين يعني إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وإيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع كافة الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع إلهام الطاقة الحيوية الإيجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها". ❖

الإنسان بين الدين والتديّن

د. نايلة أبي نادر[1]

عندما يصبح اسم الإنسان عنواناً لمسار، وعلامة مفارقة تُرصَد في وسط الضوضاء، يكون العمر قد أثمر فعلاً وأفاض.

عندما يقترن الفكر بالعمل، تتوهّج النفس مشرقة أبهى ألوانها فترسل "إشاراتٍ وتنبيهاتٍ"، توقظ وعي الآخر من سباته العميق.

عندما تلوحُ في أفق المعنى محاولاتٌ جديدةٌ تُنبىء بقراءة مختلفة عما سبق، تُمطر السماء فيضاً من أمل على عقول أضناها العبث.

يبدو فعل الكتابة في وسط الحراك القائم على الساحة العربية الإسلامية أمراً غير ملح، والمستفيدون منه قلائل، لكن الإصرار على هذا الفعل عمل جبار في حدّ ذاته، يقاوم اليأس ويدحض القنوط ليرفع النفس العاقلة إلى مرتبة التأمل والتفكّر والإبداع.

يشكّل كتاب "**إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين**" للدكتور عبد الجبار الرفاعي محطة مشرقة في ظلمة التعصّب والغوغائية والكراهية التي تكبّل العقل وترمي به في متاهات مضنية.لم يكتفِ المؤلّف بالاحتجاج على ما يُرتكب من عنف باسم الدين. كما لم يرُق له التوقف عند الدفاع عن الدين في وجه التيارات المادية والإلحادية المتطرّفة. حطّ رحال قلمه عند الدفاع عن الدين ليحميه من الدين نفسه، من الفهم الخاطئ لمضمونه المشرق. حاول ان يشير إلى مكامن الإشراق الإنساني الراقي في التجربة الدينية، هذا الإشراق الذي يصدّ كل محاولة لإلغاء الآخر، ويحرّم العنف، ولا يستعبد الإنسان. المهمة إنقاذية، والمبادرة جريئة، والخطاب ثوري انقلابي يستحق وقفة تحليل وتأمل.

تتكشّف في طيات الكتاب ملامح الفلتات الصوفية التي جذبت قلم المؤلّف وأخذته بعيداً حيث الأشياء لها وهجٌ آخر، والكلمات لها معانٍ تتجدّد بتجدّد قارئها. يبدو جلياً في الكتاب مدى غرق صاحبه في مياه المعنى الصوفي. انه ومنذ الصفحة الأولى يفتتح البحث بقطرات ترشح من معين ابن عربي: "واعلم أن الشفقة على عباد الله أحقّ بالرعاية من الغيرة في الله". فكتاب الدكتور عبد الجبار لا يُقرأ فقط من عنوانه، إنما أيضاً من العبارة التي صدّر بها الصفحة الأولى. قولٌ لابن عربي ملفتٌ فعلاً في تقديمه الشفقة على الوضع الإنساني، وما يعانيه من اضطهاد باسم الدين، وجعله هذه الشفقة أولوية يجب الانتباه إليها أكثر من "الغيرة في الله". لماذا هذا الانقلاب

---

(١) أستاذة الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

في تظهير فهمٍ للدين مغايرٍ عما هو سائد وسط الحملات التكفيرية؟ لماذا جعل الإنسان في المقام الأول؟ هل ما نشهده اليوم من إنزلاقات نحو العنف المدمّر والقابض على أنفاس الحياة هو فعلاً تديّنٌ يجب نشره واتباعه؟ هل هذا ما يبغيه الدين حقاً في دعوته السماوية؟

أسئلة قادت مسار الكاتب نحو شاطئ الانتروبولوجيا التي تظهّر عمق البعد الإنساني في الدين، وجعلته يبحث عن تجارب صوفية وفلسفية وكلامية من أجل تدعيم خطاب الأنسنة وتهميش الخطاب التكفيري والتدميري. هو الذي بات يرى في التديّن فعلاً مضاداً للدين. هو الذي أتعبته التجربة العراقية، وقطعت بوحشيتها أنفاس البهجة في قلبه. هو المجبول بصراخ المعذّبين، والمتّشح بأنات المتألّمين التي تتردّد أصداؤها في صوته. لقد تحوّل التديّن في نظره "إلى إعصار عاصف يجتاح الحياة، ويحطم كافة المكاسب المدنية والحضارية والمعرفية للبشرية. إنه سادية وجدانية ومعرفية، تتلذّذ بقتل الضحية واستباحتها، ومازوشية فظيعة تحتفل بتدمير النفس وهتكها". (عبد الجبار الرفاعي، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، بيروت، دار التنوير، ط٢، ص١٩٨).

إن من يقرأ بعمق فصول الكتاب كافة يجد أن الرابط الأساس في ما بينها يكمن في هذا القلق الملح من اجل محاربة أصحاب الأيادي السود التي شوّهت ملامح التجربة الدينية الراقية بإنسانيتها، عن طريق الفساد، والتطرّف، والتعصّب، والقتل المتبادل، وهدر الدماء البريئة... إنه القلق على الحضارة والتمدّن والمعرفة وما أنتجته التجربة الإنسانية عبر تطوّر التاريخ. يرى جيداً الكمّ الهائل من الدمار الذي سبّبه التطرّف في التديّن إن في بلده العراق أو في الأماكن المختلفة التي ضربها إعصاره العاصف بالبشر. ينتقد القراءة الحرفية المغلقة للنصوص المقدسة مبرزاً مدى الأذى الذي تسبّبه على أرض الواقع السياسي والاجتماعي. إنه أذى يضرب عمق التجربة الدينية عينها، ويكرّس الانغلاق على الذات، وينفي الآخر في دائرة التكفير. هذا الواقع المتردّي أسهم في نشوء جماعات تحتكر تمثيل الدين، وتهيمن على كيفية فهمه وعيشه في آن. يرى في ذلك عملية "انتهاك لإنسانية الإنسان"، و"تزييف لأهداف الدين"، و"إهدار للقيم الروحية". إن ما قامت به هذه الجماعات الدينية على صعيد فهم النص المقدّس ليس سوى " قراءة حرفية مغلقة"، حصرت نفسها بالمدلول اللغوي "الساذج"، وأشاعت " تفسيراً قمعياً للنصوص، تقبع خلفياته وقبلياته النفسية والثقافية في الصحراء والمحيط البدوي المغلق على العالم، كما وتحارب بلا هوادة القراءات التي تتخطّى المعنى السطحي، وتغور في الأعماق، مستلهمة المضامين الروحية الغنية في النص، ومستوحية رؤيته الرمزية المعنوية الجمالية، مثلما فعل المتصوفة والعرفاء والفلاسفة والإشراقيون، وغيرهم ". (عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٩٩).

إن هذا النهج في التعاطي مع النصوص المقدّسة أدّى إلى حجب الوجه الحقيقي للدين الذي تجلّى لدى العديد من المستنيرين. يشدّد د. الرفاعي على أن رسالة الأديان ومقاصدها الكلية بعيدة كل البعد عن فحوى ما تقوم به الجماعات المتديّنة. فرسالة الأديان تكمن في " إشاعة السلم والتراحم والمحبة بين الناس".

يقدّم المؤلف للطبعتين الأولى والثانية من كتابه بنصين يجدر بالقارئ التوقف عندهما؛ لأنه يوضّح من خلالهما الاستراتيجية التي سيعتمدها في مقاربة موضوعه، كما انه يرسم الأهداف التي وضعها نصب عينيه عندما قرّر جمع نصوصه تحت عنوان: "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين".

يمكننا تلخيص هذه الأسباب التي دفعته إلى وضع هذا الكتاب بما يلي:

أولاً: تسجيل الاحتجاج على الواقع المأساوي للدين في المرحلة الراهنة.

ثانياً: نقد تزييف الدين من قبل الإسلاميين.

ثالثاً: الحرص على ابراز النزعة الإنسانية في الدين والدفاع عنها.

أما الأهداف التي يبغي العمل عليها فهي التالية:

أولاً: الدعوة إلى فهم آخر للدين يخالف إلى حدّ بعيد فهم الجماعات المتدينة التي فرضت تصورها الخاص بالقوة، مبرّرة استخدام العنف الديني.

ثانياً: الحث على القيام بتأويل مختلف للنصوص الدينية، من خلال العبور من المنظومة المغلقة لفهمها التقليدي نحو قراءة شاملة تأخذ بالاعتبار نظامها الرمزي.

ثالثاً: تقديم تفسير لا يختزل الدين في إطار المدونة الفقهية وحدها.

رابعاً: اكتشاف وظيفة الدين الأصلية التي تكمن في إنتاج معنى لحياة الكائن البشري.

خامساً: التشديد على النزعة الإنسانية في الدين، والتوقف عند توضيح تصوره لهذه النزعة.

أما المنهج الذي اتبعه في بلوغ الهدف فيمكن تحديده بخطوات ثلاث :

أولاً: الابتعاد عن القراءة التقليدية للنصوص المقدسة عن طريق توظيف منهجيات ومفاهيم وأدوات ومعطيات المعرفة البشرية والعلوم الإنسانية لتأويل هذه النصوص في ضوء متطلبات العصر. نجده يستفيد بقوة هنا من مكتسبات الانتروبولوجيا الدينية ومنهجها الخاص في مقاربة الدين.

ثانياً: الحرص على عدم ترحيل الدين من حقله المعنوي القيمي الأخلاقي إلى حقل آخر يسيطر فيه القانون على الروح، لكي لا يغدو الدين مجرّد أيديولوجية سياسية صراعية.

ثالثاً: الاهتمام بطرح الأسئلة أكثر من تثبيت الأجوبة النهائية، وفرضها على القارئ، وذلك في سبيل تنمية التفكير النقدي، وطرق باب المسكوت عنه والممنوع التفكير فيه،

وعدم التوقف عن التحرّي وإعادة النظر في المسلّمات، والابتعاد عن تكرار الشروح التي عطّلت برأيه التفكير الديني وسجنته في إطار الترسيمات التقليدية المغلقة. إن الاستفهام العميق في نظره يستوجب القلق المعرفي الذي يؤمّن للتفكير الشرط الضروري للإبداع والديناميكية اللازمة للتطور.

يمكن عد المنهج النقدي بمثابة العصب الرئيس الذي يسيّر خطوات الباحث في كتابه هذا. فالتفكير بالنسبة إليه هو النقد، "ونقد المعرفة الدينية مقدمة لكل نقد، ولا تنطلق عجلة الإصلاح الديني إلا من خلال مراجعة وتقويم وغربلة الموروث، والجرأة في استبعاد كافة المفاهيم والمقولات والعناصر العميقة والمعطلة للتحديث والبناء والتنمية الشاملة". (عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص ١٣ ـ ١٤).

ما الذي يقصده المؤلف بالنزعة الإنسانية للدين؟

إن التحدّث عن النزعة الإنسانية في الدين يحيلنا مباشرة إلى محمد أركون الذي حاول في أكثر من موضع أن يبرز النزعة الأنسية في الإسلام بخاصة في القرن الرابع الهجري، جيل مسكويه والتوحيدي وغيرهما، وذلك منذ أن أعدّ أطروحة الدكتوراه في السوربون، ونشرها في ما بعد تحت عنوان: نزعة الأنسنة في الفكر العربي. كما نذكر أيضاً من مؤلفاته: "معارك من أجل الأنسنة"، و"الإسلام والأنسنة"، وغيرهما كثر إذ نجده يفصّل القول في نماذج أنسية سطعت عبر التاريخ الإسلامي، إن في المناظرات، أو المؤلفات، أو الممارسات اليومية. نراه يركّز على العلاقة الوطيدة التي تربط بين زوايا ما يسمّيه بالمثلّث الانتروبولوجي: العنف، المقدّس، الحقيقة، لكي يفسّر ما يُرتكب من أعمال مدمّرة باسم الحقيقة الدينية عبر التاريخ، مستخدماً مناهج علوم الإنسان والمجتمع، بخاصة الانتروبولوجيا الدينية، ومسلّطاً الضوء على مدى انفتاح بعض المفكرين على العقلانية والتسامح وقبول الاختلاف.

يحدّد الدكتور عبد الجبار الرفاعي مفهوم "الإنسانية بالدين" في خمسة معانٍ، يمكن تلخيصها بما يلي:

المعنى الأول: الخلاص والتحرّر من "نسيان الإنسان"، والاعتراف ببشريته ومكانته في الأرض. من هنا ضرورة تصويب علاقة المؤمن بربه، وتحويلها من حال الرعب إلى الابتهاج بالوصال مع معشوق جميل.

المعنى الثاني: عدم التنكيل بالجسد ومحاربة طبيعة غرائزه وقمعه على حساب الأيديولوجيا والفهم المبسّط للتربية الروحية.

المعنى الثالث: الدعوة إلى السلام واحترام كرامة الكائن البشري، والعمل على دراسة الأديان ومقارنتها للكشف عما هو مشترك وعن منابع السلام فيها.

المعنى الرابع: التحرّر من التفسيرات التعسّفية للنصوص ومن الصور النمطية للإله، وذلك عن طريق ثلاث خطوات منهجية: استلهام الميراث المعنوي العميق، واستدعاء التجارب الروحية التطهيرية التنزيهية عبر التاريخ، ومن ثم بناء إلهيات عقلانية مستنيرة. إن هذا الأمر سيؤدّي برأي المؤلف إلى ترسيخ صورة رحمانية للإله تبرز صفاته الجمالية وأسمائه الحسنى ورحمته الواسعة.

المعنى الخامس: تحقيق المصالحة بين المتديّن ومحيطه والعصر الذي يعيش فيه عن طريق متابعة منتجات العلوم والتكنولوجيا التي تتسارع خطواتها في تبديل العالم والمحيط. إن هذا من شأنه أن يحرّك العقل ويُخرجه من حال السكون والتلقّي، ويبدّل رؤية المتديّن للحياة والكون.

إذا أردنا أن نتوقف عند هذه المعاني الخمسة التي يقترحها المؤلّف لمفهوم "الإنسانية في الدين"، يمكن أن تتكشف أمامنا عمق النزعة الإنسانية التي تطبع عمق شخصه ونظرته للأمور. من البيّن انه غارقٌ في التأمّل الذي يرفع الإنسان إلى قيمة راقية في حدّ ذاتها. لا يقبل بتشويه هذه القيمة أو المسّ بها على حساب ازدهار بعض الأيديولوجيات التي تسخّر الدين لمصالحها الخاصة. انه يعمل من الزاوية الانتروبولوجيا الدينية، والمفكر النقدي المتمرّس بالعلوم الإسلامية، لكي يحرّر صورتين بارزتين في الفكر الديني: تحرير صورة الله وصورة الإنسان في آن معاً من التشويه الذي أصابهما. يشدّد على أهمية العقل في إنتاج خطاب جديد ورؤية حديثة للعلاقة التي تربط بين الإنسان وربه. يسعى من خلال التركيز على النزعة الإنسانية في الدين إلى إظهار صورة مغايرة تماماً لما تشهده الساحات العربية الإسلامية من بثّ على موجة التطرّف والتزمّت الأعمى الذي لا يفيد الدين بشيء، إنما على العكس، فهو يقوم بتشويش رسالته السامية، وتشويه وجه الله فيه. لا ينتقد ما يحدث من زاوية المفكر الملحد، ولا من وجهة المادي المتطرّف، إنما من زاوية المؤمن المتحرّر والمتذوّق لجمالية الدين وتسامي رسالته الراقية.

نجد المؤلّف يفرّغ قسطاً وافراً من النقد في وجه خطاب الإسلاميين متوقفاً عبر فصول الكتاب عند إبراز حجم الأذى الذي ألحقوه بالدين وبالفكر الديني. لقد عمل هذا الخطاب على "تلويث المجال الاجتماعي العام، وتهشيم مرتكزات العيش المشترك في مجتمعاتنا"، وتبرير استخدام "أنماط همجية متوحشة من العنف الديني". ينتقد المؤلّف في السياق عينه السلوك السياسي لهذه الجماعات بعد أن استلمت السلطة في بعض الدول لأنها اختزلت التنوّع الاثني والديني والمذهبي، واستخدمت الديمقراطية بشكل مصطنع لتحقيق أهداف خاصة لا أكثر، مع تجاهل الفلسفة الديمقراطية وما تتضمّنه من حريات وتداول سلمي للسلطة. يعيد النظر في سلوكهم السياسي معتبراً إياه بمثابة إعادة إحياء لقيم القبيلة وتشكيلاتها القديمة، وهم يعودون سنين إلى الوراء مفرطين في استهلاك التاريخ.

يتحدّث المؤلف عن الإلهيات الجديدة التي بإمكانها أن ترسم حدود المقدّس والدنيوي، وتكشف عن الأقنعة التي تستر ما هو دنيوي لكي تجعله مقدساً. وهي تشير أيضاً إلى أن الإنسان يحتاج إلى المقدّس بشكل دائم، حتى أن الحياة "لا تطاق" من دون المقدس، كما أنها لا تطاق أيضاً عندما يبتلع المقدس كل ما هو دنيوي ويخلع عليه الوشاح الديني، حارماً العقل من تجلّي إبداعاته ومكاسبه في مجالات الحياة المتعدّدة.

إن من يقرأ كتاب الرفاعي يلمس عن قرب الهمّ الذي يشغل فكره. انه على مدى فصول الكتاب لا ينفكّ يبرز الوجه المشرق للدين خلافاً لما يظهره الخطاب السلفي والممارسات الضيّقة لمن يتبنّى هذا الخطاب، كما ويبرز الحاجة الملحّة والمتزايدة اليوم أكثر من أي وقت مضى للفكر النقدي المنفتح على المعرفة وتجربة الآخر، في آن معاً. انه في تشديده على الوجوه النيرة التي أضاءت تاريخ الفكر الإسلامي بالفكر النقدي المتجدّد والمتحرّر من القيود الضيقة التي تسجن الفكر في إطار أيديولوجي ضيّق، يريد ان يلفت الانتباه إلى ما يخالف مضمون الخطاب السلفي الطاغي اليوم، والذي يقتحم الشاشات ومختلف وسائل الإعلام بشكل واسع.

أردنا من خلال هذا البحث أن نسلّط الضوء على مفهوم الرفاعي الخاص بالدين والنزعة الإنسانية فيه، اعتقاداً منا بأن في ذلك إضاءة على نموذج من الخطاب الإسلامي المعاصر المناهض للتقوقع والتعصّب وتكفير المختلف، والذي نحتاج إليه اليوم بقوة. من هنا اخترنا أن نتوقف عند فصلين من الكتاب هما: "الدين هو الذي يمنح الكائن البشري معنى لحياته وسلوكه"، و"الأخلاق والنزعة الإنسانية في الدين"، وذلك من باب الإضاءة على المفاصل النقدية الرئيسة في فكر الرفاعي.

الدين بحث في أفق المعنى:

يتناول في الفصل الأول معنى المقدّس ويميّزه عن الدين كخطوة أولى، ثم يتوقف عند مفهوم الدين ودوره في حياة المؤمن كما في المجتمع من خلال حوار مع علي السومري نُشر في صحيفة الصباح العراقية. أما في الفصل الحادي عشر فنجده يبحث في مسألة التأليف في الأخلاق في الفكر العربي طارحاً علاقة الإنسان بالتديّن ومفصلاً القول في ضرورة "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين".

يبدأ الفصل الأول بالبحث في مفهوم المقدّس، فيرى المؤلف انه يتسع لأكثر من معنى، بسبب ارتباطه بشبكة واسعة من العلاقات المفاهيمية، وبنظام من المراجع والأحكام القيمية. ويستعرض من ثم مختلف المعاني التي يشير إليها هذا مفهوم، (مثل المتعالي، وما يرتبط بالدين، ... إلخ)، وما يقابله من مفاهيم (مثل دنيوي، ومدنّس، عادي، ورجس، ... إلخ). ثم يميّز

بين المقدس والديني شارحاً أن مجال المقدس أوسع على صعيد التداول بوصفه مرتبطاً بطبيعة المجتمعات وحدوده فيها. يرى أن كل شيء يُمنح بُعداً قيمياً يتجاوز الوجود البشري، يمكن النظر إليه كمقدس على نحوٍ ما، لأن الإنسان يصنع مقدّساته، وهي ليست وليدة الصدفة. بمعنى آخر، "إن تكوين أية فكرة عن ما هو "مقدس" إنما يخضع لفهم الإنسان ونظرته إلى وجوده ووجود العالم الذي يحيا فيه. من هنا نجد أن أشكال المقدس وتمثلاته قد تتنوّع وتتعدّد لدى الإنسان تبعاً لثقافته حتى أنها تخرج عن المسألة الدينية التي تبدو للوهلة الأولى أنها الميدان الحصري له فقط". (عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص١٧).

إن هذه النظرة للمقدس مشبعة بالانفتاح على عالَم الانتروبولوجيا الرحب، ومتحرّرة من الإطار المرسوم مسبقاً لهذا المفهوم لتغوص به في العمق. فالمقدس ليس محصوراً فقط بما يحدّده الدين، إنما بات مرتبطاً بما يراه الإنسان أيضاً. هنا تبدو جلية النزعة الإنسانية التي توجه التحرّي المعرفي لدى الرفاعي. بيّن كم إن عمل الإنسان وهمومه الفكرية لها الأثر الكبير في تحديد المفاهيم، ومن بينها مفهوم المقدس.

يرى أن فضاء المقدس رحبٌ، مفتوحٌ على اللامتناهي، لا يمكن حصره بمجال ضيّق الأفق، إذ أنه يرتبط بتنوّع الثقافات والمجتمعات والأزمنة." فكل شيء سواء كان إنساناً أو كائناً آخر أو زماناً أو مكاناً، يمكن أن يغدو مقدساً في إطار مشروطية معينة. من خلال انتروبولوجيا الدين، وسوسيولوجيا الدين، وعلم نفس الدين، والهرمنوطيقا، بوسعنا أن نتعرّف على تجلّيات المقدس وتعبيراته وطبقاته ونفوذه وعوالمه ومجالاته". (عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص١٨).

يبدو هنا واضحاً كم أن هذه النظرة للمقدّس منفتحة وواسعة، تفسح المجال أمام المزيد من الغوص في أعماق التجربة البشرية وعدم حصرها ببعد واحد من دون سواه. يتجلّى في هذا النهج المنحى الإنساني في الدين، وتسقط من ثم مبررات استخدام العنف واستبعاد الآخر ورميه في دائرة الكفر والهرطقة، لمجرّد انه خالف الرؤية الأحادية للمقدّس. نلحظ ان المؤلف يتناول موضوع الفصل بين المقدس والمدنس من الناحية الانتروبولوجية، فنجد ان مقاربته موقعة بختم الانتروبولوجيا الدينية، وسوسيولوجيا الدين أكثر مما هي دينية بحتة. نجده يتحدث عن الدين وعن وظيفته في المجتمع من وجهة علوم الإنسان والمجتمع، وفي ذلك دليل واضح على انفتاح فكر الرفاعي وسعة افقه.

يتوقّف المؤلّف عند دراسة معنى الدين انطلاقاً من وظائفه لكي يبحث في الحاجة إليه، إذ يعتبر أن الأشياء يمكن أن تُعرّف بوظائفها. يحدّد الرفاعي وظيفة الدين بعملية "إنتاج المعنى". الإنسان بطبعه قلق يبحث في الماوراء عن معنى لما يحدث من حوله، لما يشاهده من إبداعات وما يعيشه من أحداث. فالدين "يضيء ما هو مظلم في حياتنا، ويكشف عن الجمال

في الأشياء، بل أنه يقتصر على كشف جمال الأشياء...". (عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص١٩).

ملفتٌ هذا التحديد لمهمّة الدين وربطها بالجمال، وكأن المؤلّف يغوص في عمق الإنسان فيراه قلقاً يبحث عن الجمال، فإذا بالدين يقوم بالمهمّة ويؤدّي المطلوب. إن في هذه الوظيفة دعماً لحياة المؤمن لكي يتمكّن من تحمّل الصعاب، والصبر في أزمنة الشدّة. يستطيع المؤمن في نظره أن يرى جمال الأشياء فينظر إليها "متناسقة مع عناصر الكون ونظامه، لترتسم معه لوحة مشرقة". كذلك يعد نمط إنتاج الدين نمطا روحيا، مرتبطا بالمعنى، بتعبير آخر، يخلع الدين " معنى لا يمكن أن تمنحه الوسائل والأدوات الأخرى التي يمتلكها الإنسان، ويتنوّع هذا المعنى بحسب تنوّع الظروف والأحوال، واستعداد الأشخاص الروحي، ومستوى اطلاعهم على الفكر الديني، ووعيهم الحياتي وثقافتهم". (عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص١٩).

يربط هنا بشكل واضح بين وظيفة الدين ومستوى وعي الأفراد وثقافتهم. بتعبير آخر، إن المعنى الذي يمكن للدين أن يضفيه على حياة البشر يتعلّق بشكل مباشر برؤية هؤلاء للوجود البشري، لحدود هذا الوجود وإمكاناته. من هنا يأتي دور الوعي البشري في إنتاج المعنى وخلع القدسية على الأشياء. مرة أخرى تتجلي في هذا السياق النزعة الإنسانية ليس للدين فحسب، إنما النزعة الإنسانية عند المؤلف عينه. انه يحاول أن يبرز بوضوح الدور البشري في عملية البحث عن المعنى، أي بتعبير آخر، انه يسلّط الضوء على المنحى الإنساني في وظيفة الدين. هذا ما تركّز عليه أيضاً الانتوبولرجيا الدينية في سياق بحثها عن الحس الديني وتجلياته في المجتمعات البدائية عبر التاريخ.

لكن يبقى السؤال عن الحاجة إلى المعنى؟ ما أصلها؟ وما هو دورها بالتحديد؟

يلحظ المؤلّف إن العديد من التيارات الفلسفية المعاصرة حصرت مهمّة الفلسفة بالبحث عن معنى الحياة والوجود والعالم. وفي المقابل نجد أن وظيفة الدين تكمن في إنتاج المعنى، لذا نراه يعتبر أن هذه المهمّة من " أخطر المهمّات في الحياة، وفي العالم الذي نعيش فيه". ومن ثم يضيف قائلاً: "يقدّم الدين جهازَي تفسير وتأويل، وهو على ما يبدو النظام العلاماتي الوحيد الذي يولّد المعنى، ويقوم على تفسيره وتأويله. على عكس الأنظمة الأخرى التي تترك "للمستسلم/ المتلقّي/ المستمع/ القارئ" حرية فهم المعنى، وتحليله، وتفسيره وتأويله". كما أن الدين يخترق مجال الخيال، فيشكّله ويصوغه ويعيد تكوينه، ويذهب بعض المفكرين إلى أن معركة المستقبل يحسمها من يستطيع السيطرة على مجال الخيال". (عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص ٢١).

إن في هذا النص معانٍ تستوجب التوقف عندها.يقارن المؤلف هنا بين الدين الذي يولّد المعنى وباقي الأنظمة الأخرى التي تقوم بالوظيفة عينها. فالدين يقوم بتوليد المعنى من دون أن يترك الحرية للمتلقّي بأن يقوم بعملية التفسير والتأويل، إنما يحصرها بنفسه على عكس الأنظمة الأخرى المولّدة للمعنى، ويقوم بكل ذلك مستخدماً الرموز والطقوس كوسيلة فعّالة في هذا المجال. ويضيف أن الدين يتمكّن من اختراق الخيال فيعيد تشكيله وإنتاجه من جديد، أي يسيطر عليه بالكامل، فيصبح المؤمن راضخاً لمقولات الدين، وللمعاني التي يسبغها على الأشياء، من دون أي تساؤل أو مراجعة موضوعية. ويشير المؤلف في هذا السياق إلى غنى الدين بالرموز التي تخترق حياة المؤمن بتفاصيلها اليومية الدقيقة، مما يفيض على المؤمن سيلاً من المعاني لا ينضب. (تابع ص٢٢).

إن هذا الأمر يدفع الكاتب إلى التوقّف عند الأخلاق والنزعة الإنسانية في الدين، باحثاً عما يمكن تسليط الضوء عليه من أجل إبراز مفهوم مختلف للتديّن، يركّز فيه على المحبة والرحمة والتراحم. من هنا يمكن أن ننتقل إلى الفصل الحادي عشر من كتاب المؤلف.

التديّن والأخلاق:

إن من يتتبّع مسار الكتاب يعثر على بعض التكرار الذي يبرّره المؤلّف منذ المقدمة، كون المضمون هو عبارة عن مجموعة مقالات ودراسات ومقابلات سابقة أراد جمعها في صفحات تحمل عنواناً واحداً، لما في هذه النصوص من ترابط، يوحّدها همٌّ معرفيٌّ رابضٌ على قلب الرفاعي وعقله. لذلك لن نقوم بعرض مختلف ما ورد في الفصل الحادي عشر من الكتاب، لأن فيه بعض التكرار لمفهوم الدين ووظيفته والحاجة إليه، والتركيز على أن الإنسان كائن متديّن قلق يبحث بطبيعته عن معنى للأشياء والأحداث والكون...سنعمل في هذه الفقرة على إبراز الخط الذي يربط برأينا بين مختلف فصول الكتاب، محاولين استخراج الأهداف التي من أجلها وضع الرفاعي كتابه هذا.

من هنا يمكن أن نسأل لماذا كل هذا الكلام على الدين، وأهميته، والحاجة اليه، والإصرار على عدم التخلّي عنه؟

لماذا التركيز على إبراز النزعة الإنسانية في الدين؟ ومن بعد التركيز عليها، يتمّ الكلام على إنقاذها. إنقاذها ممن تحديداً؟

إن ما سنقوم به تالياً ينحصر في الإجابة على هذه الأسئلة الثلاث، من خلال قراءتنا للفصل الحادي عشر.

تتضمّن فصول الكتاب بمجملها تركيزاً على أهمية الدين في المجتمع والتاريخ وعلى الحاجة الأنطولوجية إليه من أجل تسكين القلق المعرفي والوجودي الذي يضرب عمق الوعي

البشري منذ أقدم العصور. إذا توقفنا عند الموضوع الذي اختاره عبد الجبار ليبدأ به فقرة: تدين ضدّ الدين، في الفصل الحادي عشر، يمكن أن تتكشّف لنا الحقيقة التالية: كون مفكرنا عراقياً، ينتمي إلى معاناة هزّت ضمير البشرية في نهايات القرن السابق، وما زالت فصولها مشتعلة، تُلقي بحممها ملطِّخةً رقيّ التجربة الدينية وجمالها وطهارتها في هذا البلد العريق كما في بلدان أخرى مجاورة، كونه عراقياً إذاً، قد جعله يعيش اختباراً مريراً ومدمّراً لكثير من الثوابت الراسخة في الذهن كما في القلب.كونه عراقياً مخضرماً، عايش واختبر عمق الألم وقساوة المعاناة، جعله يزجّ بنفسه في متاهات الأسئلة المقلقة، والموجعة التي تضع الإنسان في مواجهة مع ما كان ينظر إليه على انه صواب أو خطأ.كونه عراقياً يشهد كل يوم أحداثاً تهزّ الكيان وتقلبه رأساً على عقب، أجبره على ان يطرح السؤال حول حقيقة التديّن واستثمار الدين في السياسة، وإنزال التجربة الروحية وإقحامها في الصراعات الضيقة المبنية على سياسات لا دخل لها بالماوراء، ولا بذلك العطش الذي ينهش أعماق الكائن البشري ليدفع به نحو ينابيع المطلق.

الحدث الجلل، مشهدٌ شبه يومي، يتكرّر بسيناريوهات مختلفة، انه هذه المرة، تفجير سيارتين مفخختين عند بوابة الجامعة المستنصرية في بغداد عام ٢٠٠٦. وناقل الخبر ليست وسائل الإعلام المتأهبة لتغطية شراسة البشر على الأرض، إنما هو شاهدٌ من أهل البيت، من طلبة المعرفة والعلم الذين انتفضوا في وجه الجهل والتعصّب والغوغائية، انه محمد حسين ابن المؤلف الذي صادف دخوله إلى الجامعة لحظة الانفجار.

إن هذا الحدث، كما غيره مما عاشته عائلة الرفاعي وغيرها من العراقيين، كان له الأثر الواضح في عمل الكاتب على تنقية صورة الدين من التديّن الأعمى والغارق في التقوقع والتعصّب ونفي الآخر والإطاحة به لمجرّد انه تجرأ وركب موجة الاختلاف أو الخروج عن الخطاب السائد. إن "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" صرخة في وجه العنف، وصفعة على خدّ التطرّف، وتفجير لحجج الجماعات السلفية الواهية، ومحاولة إظهارها في المقلب الآخر من التجربة الدينية حيث لا رحمة ولا محبة ولا شفقة ولا أخلاق... لقد شوّه هؤلاء التديّن وحوّلوه إلى بؤرة موبوءة بالعنف والتخلّف تبتلع البشر كما الحجر وتحوّل الإبداع الفكري والحضاري إلى مجرّد ركام. إنه تدمير للذات وتلذّذ مرضي بما يحصل.

يستشهد المؤلّف في هذا السياق بالدكتور محمد طالبي معلناً : "إن العنف هو الذي قتل الحضارة الإسلامية ". ويشدّد على تأكيد هذا الواقع من خلال قراءة تاريخية لما جرى ويجري في يوميات شعوب عديدة. في صدد تحليله لخطاب الجماعات السلفية التي تبرّر العنف وتدعو إليه عن طريق غسل الأدمغة بمساحيق الوهم والتصورات الخيالية، يرى الرفاعي أن هناك علامة فارقة

تميّز هذا الخطاب يمكن تحديدها بما يلي: التشديد على "ضرورة تبنّي آراء السلف ومواقفهم بتمامها، وهروبها دائماً إلى الماضي، وارتيابها من كل ما من شأنه أن يطلّ على المستقبل، أو يتعاطى مع الواقع بعقلانية نقدية مستنيرة، وسعيها المتواصل لتبجيل الذات، وعدم الكفّ عن امتداحها، واصطناع صورة رومنسية مثالية لها... فيما تصنع صورة للآخر ليست بريئة، يصبح فيها كل ما يمتّ إليه من معارف ورؤى ومفاهيم وقيم... وغير ذلك، رجساً مدنساً، تجب مناهضته. وتفنّن هذه الجماعات في تجييش المهمّشين والمحرومين، وتتخذهم مادة لبناء ثقافة خاصة بالانتحار وتمجيد الموت، يكون أحد روافدها صورة الآخر المشوهة، التي تصير منبعاً لكراهيته، والغضب المتّقد عليه". (عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص٢٠٠)

إن هذا النص يبرز بوضوح التناقض الذي يقوم عليه الخطاب السلفي، ومقدرته على التلاعب بوعي المحرومين والمستضعفين وغيرهم ممن زاغ بصرهم عن الحق والمنطق. ينصبّ جهد المؤلف على دحض هذا الخطاب، ورأب الصدع الذي خلّفه في الوعي من خلال العمل على إظهار النزعة الإنسانية في الدين بعامة والإسلام بخاصة. إنه أعلن حرباً شرسة ضدّ التطرّف والانغلاق، مواجهاً العنف بالنظر إلى مواضع الرحمة في الدين عن طريق مناقضة ما يسمّيه بـ"القراءة الفاشية للنصوص"، هذه القراءة التي تولّد جماعات تسير ملتحفة بأكفانها نحو مصيرها المحتوم.

إنه يدعو إلى القيام بنهضة معرفية هامة يمكن تلخيصها في الخطوات الآتية:

- مراجعة نقدية للتاريخ
- قراءة تحليلية للنصوص
- تقويم الموروث من منظور مختلف
- الابتعاد عن الرؤية الأحادية والذهنية المغلقة
- محاولة استيعاب القيم الإنسانية المنفتحة
- الخروج من الإلهيات التقليدية نحو بناء إلهيات عقلية مستنيرة
- طرح تساؤلات جديدة تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله.

إن هذه الخطوات تشكّل بحد ذاتها مشروعاً فكرياً ذا مسار نقدي منفتح على المعرفة. انه يحمل في طياته رؤية تنويرية عقلانية مبنية على الانفتاح، والتحرّر من الأفق الضيق، والخروج من سجون الماضي، والتوجّه نحو ثقافة الرحمة والأخلاق في التعاطي مع الآخر، ومع التعدد والاختلاف.

من هنا نجد مفكرنا يسلّط الضوء على التجربة الصوفية التي عرفها تاريخ الفكر الإسلامي. إنها تجربة تستحق فعلاً التوقف عندها ملياً في هذا الزمن تحديداً لما فيها من رقي في الأخلاق، وانفتاح في النظر إلى الله والوجود والآخر. يستعرض في سياق هذا الفصل أسماء

عدّة سطعت في سماء التصوف ليشير إلى تجلّي النزعة الإنسانية في الدين والتديّن، مطالباً بإنقاذها من الخطاب المدمّر المستفحل في كل مكان. إن ما يقوم به الرفاعي محاولة راقية لإنقاذ الدين من دون استخدام العنف، فينقض بذلك كل الحجج الواهية التي تدعو إلى استباحة دم الآخرين وإراقته في سبيل تحصيل حقوق السماء.

إن توقفه عند ابن عربي، والبسطامي، ورابعة العدوية، وجلال الدين الرومي، وغيرهم هدفه وضع الأصبع ليس على الجرح إنما على النزعة الإنسانية في الدين التي من شأنها أن تلحم الجرح وتداوي آلامه المريرة. إن الإشارة إلى المتصوفة لا تعني الالتزام بكل مبادئهم وسلوكياتهم، إذ أن إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين تتطلب حالة متوازنة تؤسّس على الانسجام بين متطلبات الجسد وتنمية الروح في آن معاً، وعلى نحو متصالح مع العالم. ان التناغم مع إيقاع الكون والغوص في الانتماء إلى الوجود أمران ضروريان للمحافظة على النزعة الإنسانية للدين. فالإنسان في النهاية كائن طبيعي منخرط في العالم ومجبول من عناصره، من دون التغاضي عن بعده الوجودي كما الفكري والروحي.

يبدو انطلاقاً مما سبق مسارُ الرفاعي واضحاً في كتابه هذا: البداية مع الخطوة الأولى في تحديد مفهوم الدين، والنظر في الحاجة إليه من خلال التحدّث عن وظيفته، وإبراز قيمته الإنسانية الراقية، وذلك نقضاً ودحضاً لما خلّفه الخطاب السلفيّ من كوارث على الصعيد الاجتماعي كما السياسي والديني والمعنوي، لتأتي الخطوة التالية التي تكمن في التركيز على نماذج من الخطاب الصوفي والأخلاقي الذي أضاء التاريخ بإنتاجه، لكن تمّ تهميشه واستبعاده. الاستنتاج الأساس الذي يمكن الخروج به بعد قراءة الكتاب هو الدعوة إلى بناء إلهيات جديدة أكثر عقلانية، وإنسانية، إلهيات متحرّرة من قيود "القراءة الفاشية" وما خلفته من ركام حولها.

نختم بهذه الخلاصة التي ينهي بها الكاتب الفصل الحادي عشر لما فيها من جدية وغنى وعمق في كيفية التعاطي مع مسألة التديّن: " إن السبيل للتخلّق بأخلاق الرحمن إنما يتحقق عبر إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وإضاءة أبعاده الأخلاقية والمعنوية والرمزية والجمالية، وتطهير التدين من كافة أشكال الكراهية والإكراهات".(عبد الجبار الرفاعي، المصدر السابق، ص٢١٠)

يبقى لنا أن نعمل مع المؤلف في سبيل تعزيز أخلاقيات المحبة، وتدريب المشاعر على القيم النبيلة، والسعي وراء اكتشاف الطاقة الإيجابية في العالم والتواصل معها. ولتحقيق كل هذا المشروع الفكري الراقي والنبيل علينا، على حدّ تعبير الرفاعي "استيحاء صفات الرحمة والمحبة والسلام ونحوها من الرحمن". ❖

عبد الجبار الرفاعي
ملهماً للتفكير الديني الجديد في المغرب

✍ د. محمد همام[1]

١- تقديم لابد منه

قرأت اسم عبد الجبار الرفاعي أول مرة في مجلة وجدتها عند صاحب كشك صغير بمدينة أكادير جنوب المغرب بعنوان: "قضايا إسلامية" منذ ما يقرب من عشرين سنة؛ تحولت بعد ذلك إلى "قضايا إسلامية معاصرة". أثارتني مواضيعها واستفزني الحس النقدي البارز الذي يسكن مقالاتها. كما أغرتني المقدمات النقدية التي يكتبها مديرها الدكتور عبد الجبار الرفاعي، أو يقدم بها لملفاتها الغنية والخطيرة والمتعلقة بتجديد التفكير الديني. وأصبحت مداوما على اقتنائها والاطلاع على أغلب دراساتها.

وفي سنة ٢٠٠٣م قدر لي أن أذهب إلى الحج، وقدر أن ألتقي بالدكتور عبد الجبار الرفاعي، في رحاب الحرم المكي، وعلى هامش ندوة الحج، التي تنظمها سنوياً وزارة الحج السعودية، فاكتشفت أنه مفكر عراقي عاش بين العراق وإيران ولبنان. ورافقته قرابة شهر، فاكتشفت فيه عالماً متضلعاً ومفكر ناقداً ومثقفاً عضوياً استثنائياً. وجدت الرجل صاحب شبكة علاقات متنوعة وغنية تربطه بكل ألوان الطيف الفكري في العالم العربي والإسلامي. والعجيب في هذا الرجل أنه انفتح علي من دون حواجز، واصطحبني معه إلى جل الملتقيات الفكرية التي يحضرها في الحج، وهي كثيرة بالمناسبة. ورافقته في زيارة استثنائية للعلامة محمد حسين فضل الله، رحمه الله، وقضينا معه لحظات فكرية ممتعة ومتنوعة، رفقة صديقي الدكتور فريد شكري، الأستاذ بجامعة الحسن الثاني بالمحمدية، والدكتور سعيد شبار، الأستاذ بجامعة "مولاي سليمان ببني ملال، المغرب.

وخلال مدة شهر، اكتشفت عبد الجبار الإنسان والعالم؛ رجل هادئ الطباع وغني من حيث الاطلاع الإسلامي، صاحب قدرة فكرية ومنهجية على تركيب أفكار نقدية واجتهادية، وبروح نقدية عميقة، وسعة صدر رحبة ومثيرة. باحث ومفكر مطلع على التراث ومستوعب بشكل متعمق لثقافة العصر، ومدارسه الفلسفية والفكرية والنقدية. رجل متخلق وعميق التدين؛ رأيته يرتعش ويبكي أمام الكعبة، كما رأيته بحسه النقدي الصارم، وشجاعته الفكرية عند النزال المعرفي والمقاربة التحليلية للفكر الديني، فاكتشفت فلسفته

(١) أستاذ بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بأكادير في المغرب.

الفكرية والتي عبر لي عنها، وكتبها أكثر من مرة، وهي أن الدين أبدي في الحياة البشرية، وأن نزعة التدين كما يعيشها تمثل بالنسبة له ظمأ أنطولوجيا لا يروى، وهو الذي كان يقول لي في مكة، ونحن في الفندق، في العزيزية بمكة، في منتصف الليل، هيا بنا إلى الحرم لنرتوي بالنظر إلى الكعبة والصلاة ! فظمؤه الديني يروى بالتواصل مع المطلق، والذي يتجسد عنده في الإيمان والأخلاق والنزعة الإنسانية.

ومن خلال هذه "الصحبة" لهذا العالم المتخلق، ازددت يقينا بقيمة النقد من داخل الفضاء الديني، وبقدرة الفكر النقدي على بناء معمار ديني مملوء بالإنسانية والأخلاقية والإيمان، قادر على إرواء ظمأ الإنسان المعاصر الحائر.

وعند عودتي إلى المغرب تمتنت اتصالاتي بعبد الجبار عبر الإنترنيت، وأخبرت زملائي الباحثين بعلاقاتي به، وعرفت بفكره، وبمجلته وسط أصدقائي في أكادير أولا، ثم في المغرب ثانيا، وعند بعض أصدقائي في بلاد أخرى. وكنا ننتظر، بشوق كبير، صدور عدد جديد من المجلة التي كان لها الأثر الكبير على الشباب الديني في أكادير وفي المغرب، وكنا عندها حديثي عهد بمغادرة التنظيم، والبحث عن آفاق جديدة ورحبة، لا تضيق بالسؤال وبالنقد.

٢- دور مجلة قضايا إسلامية معاصرة في تعزيز مسار التجديد الديني في المغرب:

عرفت من خلال ملازمتي وصحبتي للدكتور عبد الجبار الرفاعي في مكة خبايا هذه المجلة – الظاهرة الفكرية ! فقد تأسست أولا سنة ١٩٩٤ تحت اسم " قضايا إسلامية"،ثم أصبحت "قضايا إسلامية معاصرة"، تحمل رسالة طموحة وعنيدة وأحلاماً عريضة بتجديد الفكر الديني وتحديثه بروح اجتهادية متوثبة وحس نقدي شجاع. فأخرجت بذلك المجلة نقاشات المثقفين الدينيين، ذوي النزوع النقدي، من الحلقات المغلقة والجلسات المحدودة في الحوزة العلمية في قم، لتلتحم بالنقاشات النقدية في الفضاء السني، في مجال التداول العام. وكأني بالمجلة تعيد الدور الذي قام به المفكر القلق أبو حيان التوحيدي، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، لما أخرج مناقشات "إخوان الصفا"، إلى العلن وضمنها كتابه "المقابسات"! ودعمت المجلة خطها الفكري بسلاسل كتب تجاوزت اليوم المائة، وبمركز يسمى: "مركز دراسات فلسفة الدين" في بغداد، في إطار فلسفة فكرية تقوم على النقد والطموح الجامح للتجديد والاجتهاد وإعادة بناء النظام الفكري والديني للأمة.

ومما زادنا ارتباطاً بهذه المجلة الظاهرة الفكرية، أنها تقوم، في جميع مراحلها الفكرية والتحريرية والفنية، على عمل تطوعي شريف وغير مسبوق؛ إذ لا تتوفر لها ميزانية، كما تحرر مواضيعها في أكثر من بلد، ويقود فريق تحريرها عائلة الدكتور عبد الجبار

الرفاعي، بتدبير مقتدر من المناضلة (أم محمد)، الأم والزوجة، ويتولى الابن الإخراج والتنظيم، ويشرف الدكتور الرفاعي على العلاقات العامة، وعلى التواصل مع الكتاب، وعلى اقتراح المحاور، وعلى الإشراف العلمي على التحرير. فبهذا المجهود العائلي الاستثنائي، مازالت هذه المجلة مستمرة، لم تفرط لحظة في جودة المادة الفكرية التي تقدمها لقرائها على طول العالم العربي والإسلامي.

ومن خلال هذه المجلة – الظاهرة الفكرية، انفتحت أمام الشباب المغربي، في أكادير وغيره، آفاق جديدة للتفكير الديني؛ فاقتنعنا بأن التاريخ لم يعد يصنعه الأبطال ولا الأيديولوجيات، في هذا الزمن الإفتراضي الذي سطت فيه على الإنسان تكنولوجيا المعلوميات. كما لم يعد ممكنا التفكير المغلق داخل إطار المفاهيم والآراء الموروثة، بل لابد من تدشين حالة فكرية جديدة، تقوم على السؤال الذي ينسل منه سؤال وأسئلة، والخروج من دائرة الجزمية في المجال اللاهوتي، وصياغة رؤى تقوم على النقد والنقاش، خارج أي منطق تبشيري أو دعائي، ظاهر أو متستر، لمفكر أو لمركز أو لدولة أو لطائفة.

وظلت المجلة وفية لموضوعها الرئيس، أي "المعرفة الدينية"؛ من منطلق أصالة الدين في حياة الإنسان، الدين مجسدا في السلوك والشعائر والطقوس والممارسات، من خلال تمثلات متنوعة تغشى الاجتماع البشري كله. فالدين ليس هامشيا في حياة الإنسان، كما تدعي بعض المقاربات المتحيزة والعدوانية ضد الدين وضد المتدينين، بل هو الحاسم في مراحل ومنعطفات هامة في التاريخ. فعمليات التغيير الاجتماعي والسياسي ترتبط، بشكل جدلي معقد ومتين، مع تحولات المقدس وتمثلاته وتوظيفه. حتى إن هابرماس اعتبر كل ماعدا الدين "ثرثرة ما بعد الحداثة". وسعت المجلة من خلال دراستها والمقدمات التوجيهية لمديرها عبد الجبار الرفاعي إلى التأكيد على أن أبدية الدين لا تعني سكونه وجموده وثباته، بل هو متحرك ومتغير؛ فهو موجود باستمرار، لكن تجلياته متنوعة، كما أنه يتعرض لتوظيف الناس وتلاعباتهم؛ إذ يوظف في المعارك السياسية والصراعات الاجتماعية، كما يخضع لأنماط من التفسير والتأويل تستجيب لمتطلبات الفضاء البشري المتغير.

ورغم الطابع المعاصر والسجالي للقضايا الفكرية التي تطرقها المجلة، وكذا التداعيات السياسية لتلك القضايا، ظلت المجلة ذات منحى تخصصي، مما يعوق تداولها وانتشارها وسط عامة المثقفين والمهتمين. كما ظلت وفية لسقف الحرية المرتفع والواسع، وظلت أقدر من غيرها على استيعاب الأفكار والأفكار المضادة، سواء صدرت عن الحداثيين أو عن المحافظين. كما أخرجت، بأسلوبها الاستيعابي، القارئ من تقاطبات "الطائفية الثقافية والفكرية"، التي ترسخها بعض المنابر والمجلات والمراكز مما يغذي الاستقطاب

الطائفي، ويزكي الصراع المذهبي المدمر على صعيد الأمة، من خلال الترويج لمذهبيات سياسية ميتة أو قاتلة، ومغلقة ومعادية للإنسان، ولحرياته وحقوقه.

وفتحت المجلة آفاق البحث الديني في المغرب، من خلال نشر أبحاث ودراسات معمقة في الفكر الديني لنخبة من الكتاب والباحثين والمفكرين المتخصصين، من خلال استثمار العلوم الاجتماعية والإنسانية في تحليل الظواهر الدينية. كما حملت تلك الأبحاث والدراسات والمقدمات نفسا شجاعا في المراجعات النقدية والحوارات والنقاش لمختلف المقولات والمفاهيم والرؤى المتداولة في المعرفة الدينية.

وتميزت المجلة بموضوعية التعامل مع الباحثين؛ إذ لم تتحيز لفئة دون أخرى، ولم تروج لمقولات مفكر دون غيره، وعادة ما تنشر الرأي والرأي النقيض، في القضية الواحدة، في إطار الاستيعاب النقدي للمعرفة الدينية وللتراث. وكان مساهمة، بذلك، في مساعدة القارئ على بناء عقلية نقدية وتركيبية، تنحاز لمطلب المعرفة على مطلب الأيديولوجيا. فالمجلة تعمق الفهم النقدي التركيبي للموروث الديني، وتدعو إلى التحرر من المواقف التبسيطية الساذجة في التعاطي مع التراث، باعتباره كما من النصوص يلزم حفظها واجترارها خارج عمليات التحليل والتدبر والنقد والتركيب. كما رسخت المجلة أهمية العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة في دراسة المعرفة الدينية، خاصة فلسفة العلم (الإبستمولوجيا)، وعلم النفس (السيكولوجيا)، وعلم الاجتماع (السوسيولوجيا)، وعلم الإناسة (الأنثروبولوجيا)، والقانون، والعلوم السياسية، واللسانيات، والتأويليات (الهيرمينوطيقا)؛ استثمار أدواتها التحليلية والتفسيرية والإجرائية في قراءة النص الديني، ودراسة أنماط التجارب الدينية، والخبرات السلوكية المؤسسة على الإيمان الديني.

٣- أطروحة عبد الجبار الرفاعي الفكرية:

إن المتأمل في المنجز الفكري الواسع للدكتور عبد الجبار الرفاعي، يمكن أن يلخصه في فكرتين أساسيتين ومنطلق منهجي، مما كان له الأثر الواسع على البحث الديني الحديث، ليس في المغرب وحسب، بل في العالم الإسلامي برمته؛ والفكرتان هما: إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وتحديث التفكير الديني، والمنطلق المنهجي هو: المنطلق الذاتي للتحديث.

ويتجلى مطلب إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، عند عبد الجبار الرفاعي، في سعيه إلى تحرير الدين مما يسميه بـ "الفهم المتوحش"؛ فهم يحول الدين إلى منبع للعدوان والتعصب والكراهية. ويكون التحرير والإنقاذ بكشف النزعة الإنسانية العميقة في الدين والمتمثلة في الجوانب التنزيهية السامية، والتي تصطفي الإنسان، وترفع مكانته،

وتلح على تكريمه، حياً وميتاً، وأن حياته هي مناط الاستخلاف والتكليف، وموطن المسؤولية والأمانة التي يحملها.

ويقتضي إبراز النزعة الإنسانية في الدين، بنظر عبد الجبار الرفاعي، تخليصه من التوظيفات البغيضة التي زجت به في حروب دموية "مقدسة"، واستعماله للتحريض على الموت، وتعبئة الأتباع وإلقائهم في معارك تنتهك كافة المحرمات. كما تقتضي هذه الوظيفة الإنقاذية تجاوز الأطروحات التحديثية المقلدة، خصوصاً في العالم العربي، والتي تربط النزعة الإنسانية بسياقات ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية غربية، تشكلت في القرن الثامن عشر في أوربا بعد القطيعة مع اللاهوت الديني الوسيطي؛ أي أن النزعة الإنسانية، وفق هذه المقاربة المحدودة، لا يمكن أن تتمحور حول "الاله"، وإنما حول "الإنسان"، وهو ما لم يحصل في الماضي ويحصل اليوم! لكن القراءة النقدية للتاريخ، والقراءة التحليلية للنصوص الدينية، والتقويم النقدي للموروث الديني الإسلامي، هذا العمل الذي أنجزه عبد الجبار الرفاعي وينجزه، هو الذي يمكننا، بنظره، من النفاذ إلى البؤر المضيئة في النصوص، والتراث المتنوع الذي يحمله؛ من منطلقات أساسية، وأهداف عامة، ومقاصد كلية، بعيداً عن الإسقاطات الأيديولوجية الإقصائية والمعتقدات القمعية. عندها نستطيع، بنظر الرفاعي، التخلص من نزعات الهيمنة بالدين، وإخضاع الناس، ومراقبة الضمائر، وتفتيش العقائد.

إن إحياء النزعة الإنسانية في الدين، من منظور الرفاعي، يقوض الطاغوت، ويفضح المشروعيات الزائفة القائمة على تأويل متوحش للدين. والنزعة الإنسانية لا تنتعش إلا في أجواء الحرية والديمقراطية، وسيادة قيم التعدد والاختلاف المؤسسة للمجتمع المتمدن.

ولا يخفي عبد الجبار الرفاعي أن مجهود إحياء النزعة الإنسانية في الدين سيتعرض لمقاومة اللاهوت الكلاسيكي القائم على التفسيرات المتعسفة والقمعية للنصوص، وعلى الصورة النمطية "للإله" المستلب لحالات ذهنية ومصالح اجتماعية للاهوتيين أو السياسيين. فالنزعة الإنسانية في الدين تستلهم الصفات الجمالية للإله وأسمائه الحسنى: الرحمن، الرحيم، القدوس، السلام، المؤمن، البارئ، المصور، الوهاب، الرزاق، البصير، العدل، اللطيف، الحليم، الشكور، الكريم، المجيب، الواسع، الحكيم... وهذا الاستحضار الإنساني والجمالي للإله، يعاكس المقاربات السلفية التي تتكتم عن المعاني الإنسانية في الدين، لتنحت دينا خاصا بها، وتشكله في إطار وعيها وخلفياتها وتحيزاتها وافتراضاتها الذهنية؛ دين غريب عن الدين المؤسس؛ أو قل بتعبير علي شريعتي: "دين ضد الدين"، أو بتعبير الصادق النيهوم: "إسلام ضد الإسلام"! دين مشبع بالإكراه والقيود والإصر والأغلال؛ أي مجموعة من المقولات والشعارات المغلقة التي تستنزف الطاقة الحيوية والإبداعية

والإنسانية لرسالة الدين، وتحوله إلى ركام من الأعباء ينوء الناس بحملها؛ دين مملوء بقيم بدوية رديئة.

إن إنقاذ النزعة الإنسانية للدين، من منظور الأطروحة الفكرية لعبد الجبار الرفاعي، تعني استيعاب الحياة الروحية الخصبة في الدين، وإحياء التجارب الإيمانية المتنوعة، للعيش في عالم ممتلئ بالمعنى، يتخلق فيه الإنسان بأخلاق الله، وفي مقدمتها حب الآخرين، وتمني الخير لهم. فالحب هو منبع إلهام الحياة الروحية، ومصدر الانجذاب إلى الله تعالى. والحب رحمة، وهو الابتعاد عن مظاهر الكراهية والإكراه.

أما فكرة تحديث التفكير الديني، في المشروع الفكري لعبد الجبار الرفاعي، فيمكن تلمس معالمه في المقدمات التي يضعها الرفاعي بين يدي الملفات المتخصصة للمجلة؛ وكذا في الدراسات التي ينشرها في أكثر من منبر؛ فقد تعرضت مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" بالنقد والدراسة والتحليل للمؤسسات الدينية، باعتبارها نمطا من التمثلات الاجتماعية للدين، وبحكم تأطيرها داخل سوسيولوجيا الجماعة ومطامعها وأغراضها وانتظاراتها ونماذجها المعرفية. فالمؤسسة، سواء كانت دينية أو سياسية، هي تعبير عن المصالح، الظاهرة والخفية، في المجتمع. لذلك تتم دراسة الظاهرة الدينية كظاهرة اجتماعية وليست ظاهرة عابرة للمجتمع والتاريخ، كما تريد أن تقنعنا به التيارات الدوغمائية والمثالية. ولكن، رغم ذلك، فالمؤسسة الدينية، وهي منطلق التحديث الديني بنظر الرفاعي، تتمتع بسلطة معنوية ورمزية رهيبة؛ إذ تخضع، بشكل طوعي، أتباعها، وتوفر لذاتها من خلالهم إمكانيات ضخمة مادية ومعنوية. لذا فإن التحديث الديني لابد أن يمس المؤسسة الدينية لدورها الخطير في المجتمعات التقليدية. وتحديث هذه المؤسسة، بنظر الرفاعي، له ارتباط جدلي وثيق بتحديث المجتمع الذي يحضنها وتنمو فيه وتتحرك وتؤثر. وعليه، لابد من إقناع المؤسسة الدينية بضرورة التحديث، من منطلق أن المعرفة الدينية جزء من المعرفة البشرية المتداخلة والمتشابكة، من منظور فلسفة العلم، مما يقتضي استجابة المعرفة الدينية في بناها التحتية العميقة للتحولات التي تعرفها المعرفة البشرية، وإلا ستبقى خارج التاريخ وخارج التطور وخارج الأجندة الإنسانية المعاصرة.

ويحدد الرفاعي منطلقاً منهجياً أساسياً لإنجاز هذه المهمات التجديدية في المعرفة الدينية، وهو ما يسميه ب "المنطق الذاتي للتحديث"؛ أي المراهنة على التحديث من داخل الفضاء الديني، وتجاوز المنطق الخارجي في التحديث الذي رفع لواءه رفاعة رافع الطهطاوي، والذي وصل إلى الباب المسدود، وعمق التقاطب الجذري بين الإسلاميين والعلمانيين؛ كتجل سياسي اليوم لفشل مشروع التحديث الديني من الخارج.

إن تحديث التفكير الديني من خارج المؤسسة الدينية، ومن خارج الفضاء الديني، بنظر عبد الجبار الرفاعي، عملية محدودة وفاشلة، في غياب الاستيعاب الداخلي للمنطق الديني، واستئناف وتركيب المعارف الإسلامية. ولهذا السبب يكون تجديد الفقهاء وعلماء الدين، على الرغم من محدوديته من حيث السعة العقلية والفكرية، أكثر أثراً ممن يحملون لواء التحديث من خارج الفضاء الديني. ولنا عبرة في حركة الإصلاح الديني في أوروبا التي قادها مارتن لوثر. فتحديث المسجد لا ينبثق إلا من داخل المسجد، عندها يتوفر التحديث على المشروعية، كما يتوفر له حامل اجتماعي، الشيء الذي تفتقده الدعوات التحديثية من خارج الفضاء الديني، فتبقى معزولة بدون أثر، لأنها تقدم نماذج تحديثية هجينة ومغتربة بل وممسوخة، غير قادرة على التأثير على الحركات الاجتماعية والسياسية، عكس عمليات التحديث الذاتي بمنطق داخلي، مدعمة بمشروعية ذات عمق سوسيولوجي وأنثروبولوجي، وليس عمقا ميتافيزيقيا أو فقهيا وحسب. ويعمق من هذه المفارقة ركوب النماذج التحديثية من خارج الفضاء الديني على مقاربات ضحلة للدين والمقدس بعامة، تفتقد إلى التعمق في الدين ودراسة التراث الديني، والمعرفة الدقيقة بمسالكه ودروبه، فتقتصر تلك المقاربات التحديثية من خارج، على الشعارات، وسرعان ما تتحول إلى مدونات في السباب والتهجم على الدين وعلى المتدينين بعناوين هجائية صاخبة وعصابية، ومقولات جارحة للضمير الديني للناس؛ هجاء لمقدساته ورموزه بعبارات قاسية وصادمة، مما يولد ردود فعل عنيفة من الناس، الذين تنتابهم حالة نفسية دفاعية وطبيعية بسبب خشيتهم على مقدساتهم ورموزهم الدينية، وهي عندهم ممتلكات رمزية وروحية ثمينة، مما يزيد يكرس حالة من التدين ذي البعد الواحد، والذي تنادي به الجماعات السلفية فتهدر، بذلك، مضامين الدين الروحانية والمعنوية والإنسانية.

إن عبد الجبار الرفاعي، المفكر العراقي الرحالة، لم يكن مدير مجلة وحسب، كما أن المجلة لم تكن منبراً إعلامياً وحسب، بل أبدع مجلة هي في حد ذاتها ظاهرة ثقافية معاصرة، حاملة لروح التجديد الديني بمنطق ذاتي، وكان بمثابة منسق لخطوط فكرية تبدو متباعدة، لكنه استطاع تقريبها وخلق التكامل بينها بحكم خبرته الفكرية الواسعة، من أجل تجديد ديني ذاتي ينزع نزوعاً إنسانياً خارج المذهب وخارج الطائفة. لذا لن يستغرب قارئ المجلة وجود عبد الكريم سروش ومصطفى ملكيان ومجتهد شبستري إلى جانب محمد أركون ومحمد سبيلا وعبد المجيد الشرفي، إلى جانب طه عبد الرحمن وأبي القاسم حاج محمد وطه جابر العلواني، وكوكبة من المفكرين والباحثين الشباب المسكونين بهم الإبداع والنقد والتجديد، مما كان له الأثر على الحاسة النقدية والتحليلية للشباب الديني في المغرب. فشكرا عبد الجبار الرفاعي وشكراً مجلة "قضايا إسلامية معاصرة". ❖

الإنسان المستعاد في علم الكلام الجديد
قراءة في لاهوت النزعة الإنسانية
للمفكر العراقي عبد الجبار الرفاعي

✍ د. الحاج أوحمنه دواق[1]

الإنسان مستعاداً، علامة مركزية، واتجاه جذري، في أعمال المفكر العراقي المعاصر عبد الجبار الرفاعي، إذ يمكن موضعته ضمن سياق طويل في استئناف الجهد المعرفي الإسلامي والإنساني. عمل الرجل منذ سنيه الأولى على بلورة ملامح مدرسة فكرية، تمتح من معين موارد عدة، من أهمها: المنظور الجديد للقرآن والتأويليات المشادة حوله، إضافة إلى مدرسة اليسار الإسلامي، ممثلة في مشروع من العقيدة إلى الثورة، التي أسس لها الفيلسوف المصري حسن حنفي، وأيضاً المدارس الإسلامية الجديدة، من جهود محمد مجتهد شبستري الهرمنيوطيقي الإيراني الفذ، مرورا بأعمال داريوش شايغان في النقد الروحي للحداثة الغربية، وعقلانية ومعنوية مصطفى ملكيان، فتأويلية عبد الكريم سروش، والإسلاميات التطبيقية عند محمد أركون، فالابستومولوجيا الكونية الإنسانية عند محمد أبو القاسم حاج حمد، وما إليها من مدارس استطاع تجميعها وصهرها في بوتقة رؤية فكرية ومنهجية كلامية ثرية، إضافة إلى مقدرته النوعية على تحويل التنوع المختلف إلى محاورات نوعية وجيدة، ونادرا ما تجتمع في ثنايا مجلة، وقد كان ذلك، في المجلة الأم، أعني "قضايا إسلامية معاصرة"، وسلسلة "كتاب فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد"، وسلسلة "كتاب آفاق التجديد"، وسلسلة "كتاب قضايا إسلامية معاصرة"، وأخيراً سلسلة "كتاب تحديث التفكير الديني"، والحوارات التجديدية التي عقدها؛ في إصدارات تجاوزت المائتي عنواناً.

كل التراث السابق الذي لمله، قد وظّفه في مضمار بناء مشروع فكري، ولاهوت جديد، يندرج في المحاولات الدؤوبة لاستعادة القول المعرفي، والخطاب الفكري الرصين في الإسلام، من وحي المكاسب الجديدة التي أتاحتها التلاقحات المذهبية والعقائدية، وكذا النجاحات الهامة التي حققتها المنهجيات الجديدة، فتمخضت عن ميادين علمية مستحدثة ومطورة، من أهمها فلسفة الدين والكلام الجديد. إذ أجد الدكتور عبد الجبار الرفاعي، من أهم الداعمين له، في صقعنا العربي الإسلامي، ومن الداعين البارزين لتوطين هذا النمط

---

(١) أستاذ علم الكلام وفلسفة الدين، قسم الفلسفة، جامعة باتنة، الجزائر.

من الممارسة المعرفية والعلمية ضمن جهود الاستفاقة الحضارية، بشرط تكملة عدتها الابستمولوجية والفلسفية الضرورية.

ولا يمكننا أن نستبين الأهمية الفكرية لدعواه، وتتماته، ما لم ندرج ذلك في مسار تطور المنظومات العلمية في مؤسساتنا، إذ عرّج على التمييز بين القارّ في هذه الممارسة المعرفية والمنهجية، وبين ما ينبغي تماماً تخطيه وتجاوزه، والسعي نحو مضاهاة الدارج في الفضاء الحداثي، بوصفه من مكاسب الإنسانية النوعية، وبإعمال النقد، أفضى الرجل إلى خلاصة، تمثل هلعا مركزيا في كل أعماله، ألا وهي؛ غياب الإنسان، وضمور النزعة الإنسانية، في الجهد الفكري السابق للأمة.

وللأسف واصل المجددون، الخطأ البنيوي عينه، حالما استبعدوا من فقههم وتأصيلاتهم التنظيرية؛ الاعتبار الإنساني بوصفه لب التوليفة الوجودية، والمعرفية، والقيمية، وأحلوا مكانه مضامين أخرى، أقل ما توصف به؛ أنها غير إنسانية، أو لا أقل أخفته من حسبانها، وشرعت في بناء منظومات حياتية خالية من المسحة المعنوية والأخلاقية والوجدانية، وبالرجوع إلى الدرس الكلامي الإسلامي، وفلسفته الدينية، نجدها مبتلاة ـ حسبه ـ بالإخفاقات نفسها، وبتكرار مرير للفشل المريع في العودة إلى الإنسان، محور الوجود ومداره.

وهنا نسأل: ما أهم الإخفاقات التي سجلها الرفاعي؟ وما موردها؟ وكيف تكرست في صميم بنية الثقافة العامة؛ حتى ظهرت كأنها العادي، الذي يجب؟ أين يكمن أهم قصور للممارسة الكلامية التقليدية، ولماذا استنفدت غرضها؟ وهل يكمن المخرج في ابتعاث رممها؟ أم لا بد من تحول جذري نوعي يفضي إلى تأسيسات جديدة غير مسبوقة؟

قبل مباشرة أهم الانتقادات التي حلل بها إخفاقات الدرس الكلامي الإسلامي، والفوات البارز بينه وبين مثيليه في المسيحية خاصة، واليهودية، نود أن نمنح له دلالة مفهومية، تضعنا في قلب موضعه ضمن منظومة المعارف الإسلامية الشاملة، ونوطئ بخلاصة أساسية، وهي أنه من طبيعة دفاعية تبريرية، مقصدها الأسمى يتجلى في الإبقاء على حياض الدين مصانة، وأحكامه في النفوس مهابة، أما أن يتعدى إلى عمل تنظيري تأسيسي، بغرض إنتاج المعرفة وبنائها، فهذا ليس من شأنه، واختار لذلك تعريفات هامة، من الفلسفة، علم الكلام، تاريخ الأفكار.

يعرّفه الفارابي (٣٣٩ هـ) بقوله: "صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها. وهذا ينقسم إلى جزأين أيضاً: جزء في الآراء، وجزء في الأفعال، وهي غير الفقه، لأن الفقه يأخذ الآراء والأفعال التي صرح بها واضع الملة مسلمة ويجعلها أصولاً، فيستنبط منها الأشياء اللازمة منها، والمتكلم

ينصر الأشياء التي يستعملها الفقيه أصولاً من غير أن يستنبط منها أشياء أخرى"(١). إن قوة تعريف الفارابي، كامنة في جعله علم الكلام صناعة، ومعناه أن المتكلم امتلك ناصية الكلام، حتى أضحى عنده ملكة ووسيلة وآلة، وله وظيفتان، إيجابية/سلبية، تكمن في النصرة والتزييف، لكن دائماً في اتجاه انكفائي يدور في نطاق الصدّ، لا التأسيس والبناء للمعرفة الغنية، على ما لهذه النتيجة من تعجل، لأن المتكلمين وضعوا في تفاصيل آرائهم بعض المعرفة المنتجة، لكن تضخمت أيديولوجيا الكفاح والنضال ضد المخالف، على كل الاعتبارات الابستمولوجية الأخرى.

ونجد ابن خلدون (٨٠٧ هـ) لا يخرج عن اتجاه؛ أن الكلام تبرز قيمته المعرفية فقط في الدفاع، إذ عرّفه بقوله: "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد هو التوحيد"(٢). الأزمة اللاإنسانية التي يلمح إليها الرفاعي دائماً، تبدأ من عمليات المفهمة، كأوليات مؤسسة للرؤية إلى العالم، والحكم على عناصره ومكوناته، ذلك أن ابن خلدون قزّم، لا الوظيفة الكلامية فقط من حيث ما هي، بل اختزل مهمة المنافحة على مدرسة بعينها، ونعت مخالفيها بأوصاف غير لائقة، وتؤسس لمواقف حدية إلغائية، لمّا وسمهم بالمبتدعة المنحرفين، فضيّق واسعا، وأضحى الإنسان في دين بعينه، والمسلم في مذهب مخصوص، وبذا تكرست الروح الإلغائية، إذ ما مصير المعتزلة، الشيعة الإثنا عشرية، الإباضية، الإسماعيلية، الماتريدية.. قبال المعنى الذي يحصر المعرفة الحقيقية في أهل السنة، وكأني بالباقين أهل بدعة وفرقة.

رغم أن "البنية الأولى للفكر الإسلامي ظلت تموّن الفكر الكلامي وتقوده في نسقها المحدد، فتكررت في المؤلفات الكلامية منذ نضوج علم الكلام، الأفكار ذاتها، وأنماط الاستدلال، والموضوعات، ودخل هذا العلم مسارا مسدودا دأب فيه على العودة إلى المشكلات والتحديات نفسها التي بحثها السلف، ومكث يتحرك في مداراتها، يبدأ دائماً من حيث انتهى، وينتهي حيث بدأ، من دون أن يتقدم خطوة إلى الأمام، ومع وفرة ما ألف في هذه الحقبة، غير أنه لم يكن سوى شروح وهوامش على المتون التقليدية"(٣).

نلاحظ أن الثراء الواسع في المدونة الكلامية، وغناها في التوزع بين مدارس عدة، تركت عن جهدها الاعتقادي، عبئاً استدلالياً شديداً، إلا أنها في المحصلة ابتليت بانتكاسات في إنشاء المعنى وبنائه، فعوض أن تتقدم به إلى الأمام، بالانفتاح على مشكلات جديدة، وأزمات يلقيها التطور في وجه الحضارة الوليدة، نجده يرجع القهقرى باستمرار، إما باستدعاء مشكلات ماضية، أو بافتعال إجابات كفّت في زمانها، إلا أن الإصرار على معاودة بعثها،

جعلها متقادمة، مستنفدة الغرض، خاصة لمّا تسلط علم الكلام الأشعري، وهيمن على منظومة القول الكلامي، وأزاح الألق الاعتزالي وبقية المدارس، فتاه في خضم الشرح والتقول والتبريرات، فاستحالت العملية إلى تفنن في التقليد، فانحبس الإبداع، وغابت قوة الاستدلال، فزاحمه التصوف، والفقه، والأدب.. وتحولت منظومة المعرفة، إلى النقول والمحفوظات، والمستظهرات الكثيفة، الخالية من توهج العقل وعنفوانه.

تبرز مشكلة أخرى؛ حاصرت الممارسة الكلامية المتنورة، ودفعت في اتجاه الحرمان من المعارف العقلية، وسلطت المعارف الاستظهارية، وقلبت موازين المعرفة، فجعلت عاليها سافلها، وتشوشت البنية الكلية للثقافة الإسلامية ـ حالما تحولت علوم الفهم عالة، على مستوى المستظهرات، من نصوص، وشروح مشادة حولها، فأضحت الأخيرة نزعة مكينة، غيبت العقل، ومن ورائه الإنسان، كما يشدد دائماً عبد الجبار الرفاعي.

تلك هي مشكلة المواجهة غير المتكافئة بين المتكلمين والفلاسفة من جهة، وبين الكل الآخر من جهة ثانية، أعني غير المتكافئة سوسيولوجيا، وإلا فإن من الوجهة الابستمولوجية لا يمكن لقوة أن تقف في وجه الممارسة العقلانية المنفتحة، "منذ الأيام الأولى لولادة التفكير الكلامي انبرى لمناهضته مجموعة من رجال الحديث، الذين قاوموا أية محاولة لتبرير النصوص المتشابهة وتأويلها، وأسرفوا في إلصاق شتى التهم بمن يحاول ممارسة هذا اللون من التفكير، بقطع النظر عن النتائج التي ينتهي إليها..."[٤]. فشرع القوم في تجييش الجماهير العامية، ضد المتكلمين، ويدفعون بالمخيال العام، إلى فورات غير محسوبة العواقب، وعقابات هستيرية، واندفعوا تلقاء خلق فضاء تهويمي، غرضه الأساس خنق الحرية الفكرية، قبال ذهنيتهم التحديثية، حفاظاً على رأسمالهم الرمزي، ومكانتهم الاجتماعية، وأيضاً بدعوى الإبقاء على كيان الأمة الجديدة، وصون بيضتها، في البداية ضد الممارسة الكلامية ككل، ثم آلت بعد ذلك إلى مواجهة تمييزية، صنفت المدارس إلى سنية ناجية، وأخرى بدعية هالكة..

ولا أدل على ذلك، من إجماع مؤسسي المذاهب الفقهية، كمالك، الشافعي، وابن حنبل، فيما ينقل عنهم، من تفسيق المتكلم وتبديعه، ونعته بأوصاف مشينة، تفضي إلى زعزعة مكانته العلمية، وحضوره الاجتماعي، وتالياً فقدانه لقياد الأمة، وانزواء إجاباته الفكرية، ومساهماته في بناء الفضاء الحضاري الجديد. ولو ما ينسب إلى الإمام أبي حنيفة من تآليف في الفقه الأكبر، وقبله الإمام جعفر الصادق، في أمره لبعض أصحابه بالكلام عن الدين، لأطبقت كلمة الفقهاء في زحزحة الممارسة الكلامية، وعدها صناعة غريبة عن البناء العلمي الإسلامي. "وواصل الحنابلة مناهضة علم الكلام تبعا لنهج

شيخهم، فخاضوا صراعات حادة مع أصحاب الكلام، وتوكأوا على سلاح التكفير في هذا الصراع، وبات تراثهم رافدا تستقي منه فتاوى تكفير فرق المسلمين، تلك الفتاوى التي عملت على تعميق انقسامات الأمة، وظلت إلى الآن تجهض مساعي الحوار الإسلامي"[٥]. وهنا أشير إلى أهمية الالتفات التحليلي الذي مارسه الرفاعي، حالما ربط بين ضعف الممارسة العقلية بشكل عام، والكلامية بشكل خاص، في الثقافة الإسلامية، بسبب مناهضة الفقهاء، ودفعهم للعوام ومؤسسات الدولة، إلى استبعاد هذا اللون من المنهجيات التكفيرية، ومزاحمتها بركام من التراث النصوصي، المشبع بوعي اختزالي، عمّقه الحقد على كل مخالف، وظاهره تكفير كل ملة مباينة، ثم كل مذهب له تخريجاته الخاصة لمسائل الأصول في البداية، ثم انتهت حتى إلى إقصائه لبعض التباينات في الجزئيات، فجرّت على الأمة، التناحر، وصادرت كل إمكانية للثراء العقائدي ضمن برامج التعليم، وسياسات التثقيف، وهكذا"... تغلغلت أفكار التيار المناهض للكلام، في وعي عامة المسلمين، فبدأ الكثير منهم ينظر بارتياب للفكر الكلامي، بل تنامت هذه الحالة، وصارت العلوم العقلية برمتها ينظر إليها الناس بتوجس وريبة، وأشيع مناخ مشبع بالتهمة حول هذه العلوم، حتى اضطر ذلك بعض المهتمين بها إلى التمسك بالتقية، والتكتم على معارفه، خشية إثارة حنق العامة، خاصة وأن بعض خصوم الكلام عمدوا إلى صياغة خطاب تحريضي ضد علم الكلام ومن يتعاطاه..."[٦].

أشرنا فيما سبق؛ إلى الاعتبار الأول الذي خنق الحرية الفكرية الإبداعية، وحرم العقل الإسلامي من امتلاك آليات الاجتهاد النوعي المركب، المفضي إلى تحريك عجلة التاريخ الثقافي والحضاري، فانتهينا إلى حال الركود والانحباس، وكلما تراجعت حركة المعرفة، تبعتها تراجعات وإخفاقات مريرة في شتى المجالات، "...فمن لا يعيش المشاكل الراهنة والهموم اليومية، ويتعرف على جذورها ومسالكها، وما تكتسي به من أقنعة وظواهر تحجب وجهها الحقيقي، لا يكون شاهداً على عصره.."[٧].

وتضيع منه إمكانية الانخراط بوعيه الأصولي في معترك الأزمات الثقافية والحضارية الإنسانية، فما بالك بمنظومة حياتية تقصي من جنباتها الوعي العقلي، وللأسف حتى المتلاقح مع المنزع المستقي من مصدرية النص المتعالية، فتخلص إلى كونها وعاء تتراصف فيه أكوام المعارف المنقولة، والمتناقلة بتقليد شديد، فعوض أن تتوسع دائرة المعارف، نجدها تضيق على نفسها، فتفاجؤنا تصنيفات أهمية العلوم والعلماء، بجعل الأكثر حفظاً وتكراراً، أميراً للمؤمنين، كما هو حال المحدثين لما قلبوا التراتب الابستمولوجي للمعرفة، فجعلوا التالي سابقاً، والسابق تالياً، وضمرت الحاجة إلى العلوم العقلية.

وعند ذاك إذا "... دخلت الأمة في مسار الانحطاط، فسوف يتداعى الإطار الاجتماعي لنمو المعرفة، وتسود حالة من تشتت العقل وتشوه رؤاه، تدخل معها معارف الأمة وعلومها مسار الانحطاط، تبعاً لما عليه أحوال الأمة، فيتراجع دور العقل، ويضمحل التفكير الكلامي، وتغدو المحاولات الجديدة استئنافاً للمحاولات الماضية، لا تتخطى إشكالياتها ومسائلها، بل وبنائها وأساليب تعبيرها"(٨).

إذن؛ هي أزمة، استحالت مع تشابك الظروف، إلى فقدان الممارسة الكلامية لجدواها الحضارية، وكأنها استنفدت غرضها، وأطبقت عليها التصنيفات الشكلانية، فخلصت إلى نمط من المماحكة المغلقة، والجدل العقيم، فأدى الوضع إلى سلبية شاملة، واستسلامية عارمة. فقد إسلام المتكلمين ألقه وعنفوانه، واستبدت به منظومة مسيجة من الاعتقادية الوثوقية، فتوارى النشاط الفكري العقلاني، وأصبحت الحضارة الإسلامية، شعاراً تعيش على ما خلّفه العقلانيون الأصوليون السابقون.

لكن من اللازم الإلماح إلى أن وأد النشاط العقلي في الفضاء الإسلامي، لم يتم دفعة واحدة، بل تناوبت على فرضه قوى متعددة، فظهرت مصادرتها بحسب الداعي التاريخي، فمرة تبرز في سلطة الفقهاء المتوجسين من النشاط النظري الحر، وأخرى بتدخل القوى السلطانية التي تسعى إلى تعميم رؤية معينة، بداعي المحافظة على انسجام المجتمع والأمة، وخوفا من الفقهاء على ملكهم، أو ربما توظيفا لهم لتعميم الأسلوب التبريري في التجاوب مع المخالفين، وتكريس اختياراتهم السياسية، ".. ولولا توفر أرضية مناسبة، وشيوع تقاليد ثقافية ترعى حق الاختلاف، وتؤمن بالتعددية الفكرية، لما وجد ذلك المناخ العلمي، الذي تبلورت فيه أبرز المدارس الكلامية في الإسلام، غير أن هامش الحرية بدأ يذبل ويضمحل، حين طغت روح التكفير على ذهن فقهاء القصر السلطاني، وتعاون المتوكل العباسي (٢٤٧هـ) مع أولئك الفقهاء، وفرض ترسيمة كلامية محددة، منحها المشروعية، فيما حظر أية وجهة خلافية في مقابلها"(٩).

ما يمكن أن نستمده من التحليل السالف، كون الرفاعي، يقسم تطور العقل الكلامي على مرحلتين؛ مثلت إحداهما حيويته وتعدده وثرائه، خاصة لما وجد الأطر الاجتماعية لتنميه وترعاه، فظهرت الفرق، وتجادلت، وأسست لنفسها براديغمات، وطرائق في الفهم، وإنتاج الحكم العقائدي، وما يرتبط به من؛ عدّة مفهومية، واستدلالية، فألفت الكتب، وعقدت المجالس، ونوظر الآخرون المخالفون من غير المسلمين، والمسلمين، لكن الأمر انقلب إلى غير الحال المألوف.

فأعلنت الديباجة الماحية للتنوع، وقعّدت للإنفراد بقياد القول الكلامي، فصودرت الجهود، وأغلقت المدارس، وأحرقت الكتب، ودخلت الأمة عهداً جديداً،

كرس الأحادية، وجمع لها كل مقدراته لتحقيقها، فجاء الانقلاب على المعتزلة، من طرف المتوكل العباسي، وتواطأ مع الموقف التسلطي في فرض الآراء الكلامية، وتصنيف أية محاولة، لا تلتقي مع الآيديولوجيا الرسمية للسلطة ووعاظها، بوصفها ابتداعاً ومروقاً وانشقاقاً على وحدة الأمة، وجرى تقنين هذا الموقف الأيديولوجي بنصّ كتبه القادر بالله (٤٤٢ هـ) واشتهر باسم؛ "..الاعتقاد القادري القائمي، وتبنى هذا الاعتقاد رؤية الحنابلة، وانحاز بإسراف إلى مواقفهم، بينما استهدف بقية المسلمين، واستباح دماءهم، لمجرد تمسكهم بمعتقد يخالف ما جاء فيه"[١٠].

وهذا مظنة التشنيع على المخالفين، ما يحرم المسلمين من معنى الإنسان، ويدفع بهم إلى دين يضيق بالمختلف، رغم أن إمكانياته النظرية، وتقريراته العقائدية، تتيح الفرصة العارمة للتنبيه على الإنسان كمقولة وجودية أساسية، جاء الدين ليؤكد عليها ويدعمها باستمرار.

وينضاف إلى المعنى السالف، ما جعل علم الكلام لاهوتا بعيدا عن العناية بالإنسان، في توسيع صلته النوعية بالعالم، في تحمل تبعات ما يفعل إزاء كل شيء، ومما أفقد اللاهوت الإسلامي بوصلة التوجه الإنساني اشتغاله بالمجردات، وإغراقه في الصوريات، "...وراح يفتش في عوالم ذهنية مجردة، بعيدة عن الواقع وتداعياته ومشكلاته، فتغلبت بالتدريج النزعة التجريدية الذهنية على المنحى الواقعي في التفكير الكلامي، وتحول علم الكلام إلى مشاغل عقلية؛ تتوغل في صناعة آراء ومفاهيم لا علاقة لها بحركة الحياة وشجونها، وأمست مهمة المتكلم التفتيش في عوالم أخرى غير الحياة البشرية وعالمها، والتدقيق في مسائل افتراضية، ترتكز على محاجات منطقية، من دون أن يكون لها ارتباط بالواقع"[١١]. والمعيب ليس في الأوصاف المنطقية السالفة، فتلك من السمات القوية المتينة الملازمة للممارسة الكلامية، لأن إشكاليتها تكمن في ذهولها عن الموضوع الأساس لمجئ الدين وقيام المعرفة به، وهو الإنسان، وكونه جانب الواقع، معناه انخراطه في أزمات نظرية، قد تكون ذات صلة بالإنسان، لكن من زاوية ميتافزيقية، رغم أن هذه الحمولة ربما تستحيل في إطار توظيفات معينة إلى قوة فاعلة، كما هو الشأن مثلاً للمبدأ الخامس من أصول المعتزلة، وأعني به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فله اتصال بأوضاع الناس وشؤونهم الحياتية والاجتماعية.

يضيف الرفاعي: "إن هذا اللون من التفكير ظل أحد القيم السائدة لدينا قرونا طويلة، ولما تزل آثاره تطبع حياتنا الثقافية، فنبجّل رجل التأمل على رجل التجربة والعمل، من دون أن نتدبر عطاء كل واحد منهما، ودوره في خدمة الناس، وتنمية حياة المجتمع،

خلافا لمنظور القرآن الكريم الذي يعلي من شان العمل، ويجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الأعلون"[١٢].

يظهر أن الدافع الذي حثّ عبد الجبار الرفاعي إلى إنكار الصيغة التقليدية من الكلام، هو إفراطه في تشقيقاته الجدلية الشكلية، وانكفاؤه عن الدور التوجيهي المباشر المحدد لتفاصيل التواصل العملي للحياة وشؤونها، فمشكلته تكمن في تغليب النظري على العملي، رغم جدواه، لكنه يخالف المنزع القرآني الميّال بشدة ظاهرة إلى محورة الحياة البشرية على الشأن العملي، بما أنه يضيف ويفيد الناس جميعاً.

وتلك من المقاصد الأساسية للكلام الجديد، أعني تحويل بوصلة الفهم إلى المسائل الحياتية للبشر. لذا فمحور القرآن؛ الإيمان المولد للمعرفة، المولدة للمشاعر والأحوال النفسية الدافعة، إلى السلوك الإيجابي الفعال المنتج للحياة، لكن ذلك كله غولب من توجه الكلام التقليدي، حال انكفأ على الدرس المجرد، المغرق في سماء جزئيات خلافية، حشدت لها كل إمكانيات المسلمين العلمية، فتوارت القيمة التربوية الثقافية للتوحيد، ومن ورائه الدين. "ومع أن المسلم أصر على الإمساك بالإيمان وبوحدانيته، ولم يتخل عن إيمانه، غير أن هذا الإيمان فقد إشعاعه الاجتماعي، وتجرد من فاعليته، فلم يتجسد في نزوع للوحدة والمؤاخاة في حياة المجتمع المسلم، باعتبار أن عقيدة التوحيد توحّد المجتمع، في التصورات والغايات، والشعور، وأنماط السلوك. وإنما تعرض المجتمع إلى انقسامات شتى، وأمسى جماعات وفرقا متعددة، أهدرت الكثير من قدرات الأمة في سجالات أفضت إلى مواقف عدائية، وأقحمت الأمة في حروب عدائية..."[١٣]. لم تقف في حدود مخصوصة، بل امتدت إلى تقديرات جذرية مهلكة، بدأت ضد الكفار كما نعتوا، ثم انعكست على البنية الداخلية، فشرعت تهتك الحقوق الخاصة، بعدما حرمت المخالفين منها، وهكذا انحسر إشعاع التوحيد كقيمة أنطولوجية وتاريخية، توحد الإنسان في أفق الآدمية، أضحى ميزاناً صلباً، ومعياراً متكلساً لقياس إيمان الناس وقربهم وبعدهم عن بعض الفهوم.

وهكذا توارى الدين ملاذ الإنسانية، لصالح طريقة اختزالية جمعت الخير في دين بعينه، ثم في مذهب، ثم في فرقة، وتحولت الجنة التي عرضها السماوات والأرض، إلى ملكية خاصة مقصورة على طريقة بعينها، وفي هذا غفلة شنيعة عن الروح التوحيدية التي تجعل من الناس صنفين: أخاً في الدين، أو نظيراً في الخلق. "... إن المعنى الذي يخلعه الدين على الحياة، حياتنا نحن البشر، يتوقف في تفسيره وأبعاده وشموله ومجالاته على رؤيتنا للوجود البشري ومعناه وحدوده وإمكاناته، فقد يعظم ويبجل هذا الوجود ويحتفى به، حتى يجعل منه غنياً في كل شيء، عن كل شيء ما عداه "[١٤]. فيظهر الاستغناء والإلحاد، وقد يبرز في نطاق

الاستعادة المتوازنة للإنساني في نطاق الوجودي، الممتلئ بالحضور الإلهي الفعال والمفعّل، غير المقابل للإنساني ولا الماحي له.

وبذا يستعيد الدين، وتسترجع فلسفته ولاهوته الإنسان المحوق، الذي سحقته اللاهوتيات الماحية، مرة بعنوان الإلحاد والاستغناء الطغياني، وأخرى بداعي العناية الموفورة والمفرطة بالإله وأسمائه وصفاته، فننتهي إلى إنسان زائل، لا جدوى من وجوده، لذا نجد المفكر الرفاعي يعيد بناء لاهوت النزعة الإنسانية. إذ "يسعى.. إلى اكتشاف وظيفة الدين الأصلية في إنتاج معنى لحياة الإنسان. وهي وظيفة عجزت معظم الجماعات الإسلامية اليوم عن إدراكها، وأغرقت أنفسها والمجتمعات في نزاعات ومعارك يتجلى فيها كل شيء، سوى الأخلاق وقيم التراحم والمحبة في الدين"(١٥).

من هنا تتجلى أهمية إعادة البحث عن المنازع المؤكدة على الإنسان الرباني الرحماني التراحمي، أكثر من ضرورة أنطولوجية وتاريخية، لمضمون علم الكلام الجديد، الذي يعدّ المفكر الرفاعي، واحداً من أهم المؤسسين له، خاصة حالما يؤكد على؛ "... الخلاص والتحرر من نسيان الإنسان... والاعتراف ببشريته ومكانته في الأرض، وتصحيح نمط علاقته بربه، وتحويلها من صراع مسكون بالرعب والخوف والقلق، إلى علاقة تتكلم لغة المحبة، وتبتهج بالوصال مع معشوق جميل"(١٦).

ربما يخلص إلى أن المعنى السابق، يعجّ بمضمون عرفاني لا تطيقه المعرفة العلمية، وهو أدنى إلى اللغة الشاعرية الحالمة، منه إلى التأسيس الابستمولوجي للاهوت جديد، محرر من كل الأزمات التي يولدها الحقد، وتنشرها ثقافة الإكراه والكراهية. لكن الإحالة لجُماع ما كتبه الرفاعي؛ تؤكد على أن استعادة الدفء المعنوي للدين، وعنايته بالإنسان، وتغليبه لقيم التسامح والأخوة، هو من مقاصد مشروعه، ومن مطالب "لاهوت النزعة الإنسانية في الدين"، لذا عنون واحداً من أهم أطروحاته بـ"إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، أي البحث عن القيم التي تؤسس لحياة الكرامة الآدمية، حفاظا على جسده في حاجاته، والنفس في أمانها وسويدائها المعنوي الغني، والمفعم بطاقة الحب الناجعة والفعالة، من غير أن تخشى على خياراتها وقناعاتها من ناعق الموت، المتربص في لاهوت الإلغاء والفرقة الناجية، مستعيداً بذلك لوازع الدين المتسامح الخالق لفضاء السلام، وحيث لا سلام بين الأديان وفيها، لا يمكن أن يكون هناك بين المجتمعات سلام، جرياً مع فلسفة اللاهوتي الكبير هانز كونغ.

وبذلك يسعى الرفاعي، إلى: "... استلهام الميراث المعنوي العميق، واستدعاء التجارب الروحية التطهيرية التنزيهية السامية في التاريخ، وبناء إلهيات عقلانية مستنيرة، تحررنا من

التفسيرات التعسفية القمعية للنصوص، وتحديث الإلهيات يتطلب الخروج من السياقات الكلاسيكية للتفكير الديني، وعدم التوقف عن طرح تساؤلات بديلة، والتوكؤ على منهجيات ومفاهيم مستوحاة من المكاسب الجديدة لفلسفة الدين، وعلوم التأويل، وفتوحات المعرفة البشرية، تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب، والسعي إلى ترسيخ صورة رحمانية للإله، تستلهم ما يتحلى به من صفاته الجمالية، وأسمائه الحسنى، ورحمته التي وسعت كل شيء، فلن ينقذنا إلا إله جديد..."[١٦].

الإحالات:

١. الفارابي، أبو نصر: إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٥ ـ ١٦.

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، بيروت، دار القلم، ط٠٧، ١٩٨٩، ص ٤٥٨.

٣. عبد الجبار الرفاعي: مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد، بيروت، دار الهادي، ط٠١، ٢٠٠٥، ص ١٢.

٤. المرجع نفسه، ص ١٥.

٥. المرجع نفسه، ص ١٦.

٦. المرجع نفسه، ص ١٧.

٧. عبد الجبار الرفاعي: مناهج التجديد، دمشق، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠، ص ٧.

٨. عبد الجبار الرفاعي: مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، مرجع سابق، ص ١٧.

٩. عبد الجبار الرفاعي: الاجتهاد الكلامي، مناهج ورؤى في الكلام الجديد، بيروت، دار الهادي، ط١، ٢٠٠٢، ص ٧.

١٠. عبد الجبار الرفاعي: الاجتهاد الكلامي، مرجع سابق، ص ٧ ـ ٨.

١١. عبد الجبار الرفاعي: علم الكلام الجديد وفلسفة الدين، بيروت، دار الهادي، ط٠٢، ٢٠٠٨، ص ١٦.

١٢. المرجع نفسه، ص ١٧.

١٣. المرجع نفسه، ص ١٨- ١٩.

١٤. عبد الجبار الرفاعي: إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، بغداد، مركز دراسات فلسفة الدين، ط٢، ٢٠١٣، ص ٢٥.

١٥. المرجع نفسه، ص ٩.

١٦. المرجع نفسه، ص ١١.



عبد الجبار الرفاعي
أنسـنة الديـن
ودينة الإنسان

✍ د. حبيب فياض[1]

هـو مـن القلائـل الـذين أخلـصوا للفكـر الـذي يحملونـه، وتعـاملوا بأمانـة وصـدق مـع الأفكار التي تجول في أذهانهم. لقد كان أكبر همّه أنسنة الدين ودينـنة الإنسان. لم يكـن الـدين يومـاً بالنـسبة لـه جهويـاً وفئويـاً لفئـة دون أخـرى. كمـا لم يـرَ في التـدين يومـاً انحيـازاً أو تعصباً، بل فطرياً مغروساً في أعماق الإنسان. والفارق عنده بين الإنسان والدين.. كالفارق بين وجود الشيء وإدراكه، ووجود الشيء والجهل به. فكل إنسان عنده يحمل بذور الدين، وليس المطلوب منه حتى يصبح متديناً سوى العلم بهذه البذور وتنميتها.

أخذ على عاتقه إخراج الأيديولوجيا الدينية من قيودها وإطلاقها على مديات المعرفة الإنسانية، فاستبدل ثقافة الأيديولوجيا بثقافة المعرفة، من دون أن يعيب على المرء اعتقاده بما يعرف ومعرفته خارج إطار الاعتقاد. ولم يجد سبيلاً إلى ذلك أفضل من إعادة التأسيس دينياً لثقافة التسامح والعيش المشترك. هذه الثقافة التي كشفت أزمة التدين عبر التاريخ، وهي أزمة لا تنحصر في إطار الأفكار والتنظيرات، بل في ممارسات وسلوكيات.وكل تدين لا يتجلى على شكل ممارسات أخلاقية، ليس من الدين في شيء. وكل ممارسة أخلاقية، حتى لو لم تكن على خلفية دينية، إنما هي أقرب إلى الدين، باعتبار أن الدين ليس سوى محبة وإنسانية.

هذه هي باختصار رسالة عبد الجبّار الرفاعي في الحياة. هذه الرسالة التي جعلته ينذر نفسه قديساً على مستوى النفس، ومفكراً على مستوى العقل، وبطلاً على مستوى الإرادة.

عبد الجبار الرفاعي، التقيته يوماً في عام ١٩٩٨ على هامش حياتنا المتعبة في بلاد فارس، فصار لي متناً أطاح بكل الهوامش. قرأته فأصابتني منه دهشة الباحث، ونشوة الحبيب، وطمأنينة السالك.

الحديث عنه صعب، صعوبة الحديث عن البديهيات. فهو بديهة يتعذر إثباتها أو الاستلال عليها، في زمن التبست فيه النظريات والإشكاليات.

---

(١) أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

أهل الدين يرون فيه عالماً، وأصحاب الفكر يرون فيه مفكراً، وأرباب الهوى يرون فيه حبيباً. وهو في هذا الخضم، علم، صرح، بل واحة يتفيأ ظلالها المتعبون على طريق الفكر والمعرفة.

لقربه مني أو لقربي منه لم تعد بيننا مسافة. ولوجوده في حياتي صار لحياتي طعم آخر.

معه تذوقت بعض السر الذي بين مولانا جلال الدين الرومي وشمس التبريزي.. هو أنا في صورتي الأجمل التي لم أكنها بعد.

منحني سمة العبور إلى العراق، من دون أن أعبر إليه مرة في حياتي، فصرت عراقياً به.

جعلني قمياً، وأنا الذي لم أزر قم إلا مرات قليلة.

أدخلني حوزة النجف من دون أن انتسب إليها، فصرت نجفياً بواسطته.

هو قافلة مسارها طريق العقل، والقلب محط رحالها.

هو جسر معرفي بين إيران والعالم العربي.

حمل المشهد الثقافي في إيران إلى العرب، حتى بات سفيراً للثقافة الإيرانية في العالم العربي.

ونقل الثقافة العربية المعاصرة إلى الإيرانيين، فأصبح سفير هذه الثقافة في إيران.

وبين هذا وذاك غاب عنه انه البعض الأجمل في هذا المشهد، فآثر على نفسه الغياب حتى يحضر الآخرون.

هو مفكر لا كالآخرين. يقوم الفكر عنده على التفكير في اللامفكر فيه.

تجاوز الحديث عن الفقه، إلى الخوض في فلسفة الفقه.

لم يقف عند المطلب الفلسفي، بل تخطاه إلى فلسفة الفلسفة.

كما خرج من ضيق مباحث العقيدة، إلى رحابة فلسفة الدين والكلام الجديد.

هذا العابر للأديان والمذاهب، نأى عن السياسة بوصفها شعوذة، أو تغييراً من فوق في أحسن أحوالها، آثر عليها الفكر، بوصفه تغييراً في البنية العميقة للعقل والمجتمع.. اختار "ثقافة التسامح" استراتيجية ثابتة ووطناً نهائياً.

إنه أبو محمد المفكر والإنسان.. إنه هدية جميلة وهبني الله إياها خلال إقامتي في إيران.. حفظه الله.

❖ ❖ ❖

الرفاعي لولب الحركة الثقافية الإسلامية تاريخه هو تاريخ الوعي لطيف واسع من المثقفين العراقيين والعرب

✍ ماجد الغرباوي[1]

لا شك إن تكريم المبدعين واجب على الأمة التي أنجبتهم، عرفانا وتقديرا لجهودهم. ونحن في مؤسسة المثقف العربي، سيدني / استراليا لنا أيضاً مشروعنا في تكريم الشخصيات والرموز الإبداعية. وبالفعل تم إنجاز خمسة ملفات كبيرة، نشرت في موقع صحيفة المثقف أولاً: www.almothaqaf.com، ثم نشرت كتبا تؤرخ لمسيرة هؤلاء النخبة، وأصبحت مصادر للدارسين لأعمالهم ومنجزاتهم. وننتظر بشغف تكريم الأخ الأستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي لاحقاً بإذنه تعالى.

إن استقبال القرّاء لفكرة التكريم وتفاعلهم مع ما طرحنا من ملفات يؤكد احترام الأمة لشخصياتها ورموزها، فيصبح من واجب المؤسسات الأهلية، خاصة المستقلة، تبني مشاريع التكريم حينما تتقاعس المؤسسات الرسمية عن مسؤولياتها.

التكريم ـ كما أفهمه ـ ليس تبجيلاً، وإن كان صاحبه جديراً به. وإنما تحرٍ واكتشاف مجدد لأبعاد شخصيته ومشروعه، من خلال نقد موضوعي لمنجزه والتعريف بأعماله، وهذا شأن الدول والمجتمعات المتحضرة مع مبدعيها.

لقد تلقيت بفرح عارم نبأ مبادرتكم تكريم الأخ عبد الجبار الرفاعي، الذي يستحقه بجدارة بفعل منجزه الفكري والثقافي وسعة مشروعه الإصلاحي، ويكفي شاهد على ذلك سيرته وأعماله، التي احتلت مساحة واسعة في المكتبتين العربية والإسلامية. وقلما تجد مركز دراسات أنجز ما أنجزه في تحديث التفكير الديني في العالم العربي مشروعه ومجلة قضايا إسلامية معاصرة وإصدارات مركز دراسات فلسفة الدين.

لا شك إن الحديث عن مشروع الرفاعي مغرٍ لسعته وعمقه وتنوعه، بل كل مفردة في مركز دراسات فلسفة الدين هي مشروع يتطلب دراسة مستقلة، بدءاً بمجلة قضايا إسلامية، ثم قضايا إسلامية معاصرة، وسلاسل كتب: قضايا إسلامية، فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، ثقافة التسامح، فلسفة وتصوف... وغيرها، والتي ناهزت إصداراتها ٢٠٠ كتاباً.

---

(١) كاتب عراقي، رئيس تحرير صحيفة المثقف في سدني / استراليا.

أنا والرفاعي.. البدايات

ما زلت أستعيد لحظة تعارفنا، عام ١٩٦٨ في متوسطة قلعة سكر، عندما أعلن المدرس عن انتهاء الوقت المقرر.. نهضت.. كنت جالساً في المقعد الأول.. التفت شمالاً.. التقت عيناني بشاب وسيم، تتوقد عيناه ذكاء وفطنة، ابتسم لي، فاقتربنا من بعضنا، وانسجمت منذ تلك اللحظة أمزجتنا. وفرقتنا الأيام بعد مرحلة الدراسة المتوسطة، لنلتقي مرة أخرى ونشترك بتاريخ مكتظ بالأحداث والتطورات والمعاناة، كان فيه الرفاعي شاخصاً مميزاً ثقافياً وفكرياً. كنا جميعاً (منذ النصف الثاني من عام ١٩٨٠م) هاربين من جحيم الطاغية السفاح، بعد أن فقدنا الأحبة والأصدقاء. منهم من قتل صبراً، وآخر مات تحت التعذيب، وبقيت طائفة كبيرة في أقبية السجون وظلمات دوائر الأمن والاستخبارات حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. فنحن جيل المحنة، والعذاب، استطعنا أن نبدأ حياتنا من الصفر عدة مرات، واستطاع الرفاعي أن يشق طريقه نحو العلا بجدارة لا مثيل لها.

لا أنسى أيضاً عندما ودّعني في المطار قبل ١٢ عاماً، شعرت أني أفارق الحياة، كان وداعاً تراجيدياً مؤلماً،أجهشنا بالبكاء معاً. استفزت مشاعرنا الحزينة فضول من في القاعة جميعاً. كاد يغمى عليّ وأنا أودع عزيزاً وأخاً وصديقاً ارتبطت به روحياً ووجدانياً، ونشأت بيننا علاقة عائلية عميقة جداً، ورابطنا معاً في خندق واحد عشرين عاماً.

لا أريد أن أكرّس هذه الورقة لمنجزه الفكري والعلمي، فهو مشروع مؤجل، أتمنى أن يوفقني الله تعالى لإنجازه سريعاً. لكن بودي أن أتحدث ــ كشاهد ــ عن عوالم الرفاعي الخاصة. كيف أنجز ما أنجزه د. عبد الجبار من أعمال واسعة ومتعددة؟ وكيف تطور وعيه، من رجل أيديولوجي، إلى شخص متحرر مستنير، يغدو مصدراً للوعي أينما حلّ؟.. ما حجم المعاناة والتحديات التي كان يواجهها سراً وعلانية، ويتخطاها بصبر وأناة وإرادة لا مثيل لها؟

الرفاعي لولب الحركة الثقافية

لا أغالي عندما أقول أن تاريخ الرفاعي هو تاريخ الوعي في تلك الحقبة، بالنسبة لطيف واسع من المثقفين العراقيين والعرب. إذ كان المحرك الفعلي للأجواء الثقافية بشكل مباشر وغير مباشر، حتى غدا مصدراً لتعليل بعض الظواهر بالنسبة للمتزمتين والمتشددين. فحينما ينتقدون رأيا أو شخصا مستنيرا (أي منحرفاً برأيهم) يقولون: (هذا من جماعة الرفاعي) أو (هذا تربية الرفاعي). وهي شهادات قيّمة، وإن كانوا يقصدون بها الذم. وبالفعل كان الرفاعي لولب الحركة الثقافية لما يتمتع به من خصائص وصفات وسلوك، يمكن إيجازها بما يلي:

١. علاقته بالكتب والمصادر (التاريخية والتراثية والحديثة)، فكان مرجعاً ببليوغرافيا وموضوعيا للكتب والأفكار والشخصيات، يحتاجه طالب العلم، والباحث، وتلامذة الدراسات العليا في الجامعات.

٢. علاقته الواسعة بالرموز والشخصيات الفكرية والثقافية على مختلف المستويات، وسرعة انفتاحهم عليه.إضافة إلى قدرته على كسب الأصدقاء وتطوير العلاقة معهم. إنه يتمتع بذكاء اجتماعي فطري، وروح سخاء وإيثار بدوية.

حضرنا معاً عدة مؤتمرات، وكنت أشاهد سرعة تفاعل الآخرين معه.. كان يفاجئهم بغزارة معلوماته وموسوعيته، حتى عن أعمالهم ومنجزاتهم وبيئتهم الثقافية، بما تشتمل من رموز وأعمال وشواخص فكرية وثقافية، فيأنسون به فوراً، وبهذه الطريقة تجسّرت علاقاته مع شريحة واسعة من العرب وغيرهم.

٣. كتاباته التي كان وما يزال يعبّر فيها بأسلوب رشيق عن آرائه وأفكاره المستنيرة والواعية.

٤. متابعاته الثقافية المنقطعة النظير، فما من خبر ثقافي آنذاك إلاّ وتجده لدى الرفاعي قبل غيره، ولا تسمع بخبر الاّ ومصدره عبد الجبار الرفاعي.

٥. تأثّر الشباب بأفكاره وآرائه، وانجذابهم له، وتواصلهما معاً كزملاء، سواء من طلابه أو من خارج دائرة الدرس والتدريس، فصاروا صدى لمشروعه الإصلاحي وتطلعاته المستقبلية.

٦. حرصه على التعريف بالمشهد الثقافي العربي والإيراني لكافة من يعرفهم، فكان أسلوبا ناجحا لتوسعة علاقاته الثقافية والاجتماعية.

٧. حرصه على اقتناء الكتب، خاصة الحداثية، وتشويق أصدقائه وطلابه على قراءتها. وكثيرا ما كان شراء الكتاب في السنين الأولى على حساب قوته وقوت عياله، لكنه لا يتردد في دفع قيمتها مهما بلغت.

٨. تواصله وما زال مع الأصدقاء، رغم مقامه الاجتماعي، سواء على مستوى مشروعه الشخصي (الذي أنجز قائمة طويلة من الأعمال المهمة)، أو الأكاديمي (لإشرافه على ما يزيد على خمسين أطروحة دكتوراه وماجستير)، أو على مستوى العمل الحكومي (باعتباره مستشاراً لرئاسة الجمهورية في العراق). شهد لذلك جميع من يعرفه. بينما تخلى أقرب الأصدقاء، بعد تسنّمه منصباً متقدماً ولو بدرجة مدير (الإسلاميون تحديداً!)، عن أصدقائه، وتمادى بعضهم فقطع كل وسائل الاتصال بهم. بل تنكّر بعضهم لأقرب أصدقائه. بينما الجميع يشهد بوفاء الرفاعي وإخلاصه. المؤلم أن تجد أقرب الأصدقاء

من الإسلاميين بعد السلطة يتحاشى الكلام معك، ويتعالى في طريقة حديثه، هذا إذا تنازل عن نرجسيته وتحدث معك. بينما لم تغير السلطة من أخلاق الأخ أبي محمد، وبقي كما عرفته شخصاً متوازناً، طيباً، ودوداً، مخلصاً، يتعامل مع الآخرين وفق أسس إنسانية.

٩. متابعته لحركة الإصلاح والتجديد في العالمين العربي والإيراني، من خلال علاقاته الشخصية، أو من خلال قراءاته ومتابعاته الثقافية.

١٠. الهمّ الثقافي والإصلاحي الذي لازمه منذ عرفته، جعله حريصاً على نشر الوعي بكل الطرق المتاحة. وبقي يتحمل أعباءه وتداعياته ومسؤولياته.

١١. بيته الذي غدا مجلساً ثقافياً، يؤمّه الشباب والمثقفون للتعرّف على آخر مستجدات الثقافة والحداثة. وكان مجلساً عامراً بأهل العلم والفكر والثقافة والأدب، خاصة مجلسه عصر كل يوم جمعة.

١٢. الحلقات النقاشية مع مجموعة خاصة من الأصدقاء، حيث تطرح فيها أخطر القضايا الفكرية والعقيدية، بحرية كاملة، ساعدت على تطور الوعي وانتشاره، رغم أنها لقاءات عفوية.

١٣. كان مستشاراً لا يستغني عن مقترحاته أي صاحب مشروع ثقافي، أو بحثي، أو دراسي.

١٤. ساهم في نشر أعمال مجموعة كبيرة من المثقفين ضمن مشروعه الفكري ـ الثقافي.

١٥. وقوفه المستمر مع أي مشروع تنويري، ومساندته، وتعضيده، ودعمه. فمثلاً عندما تسلمتُ رئاسة تحرير مجلة التوحيد، كان ينقد ويقوّم ويناقش باعتباره مستشاراً فيها إلى جانب الأخ عبد الأمير المؤمن.. وعندما أصدرتُ "رواد الإصلاح" كان أول كتاب في السلسلة من تأليفه. وساهم معي متحدياً كل المتزمتين في نشر العدد الخاص من مجلة التوحيد المخصص لتهذيب الشعائر الحسينية. وهكذا موقفه مع الأصدقاء الآخرين ومشاريعهم.

لهذه الأسباب وغيرها قلت كما تقدم: **(إن الرفاعي هو لولب الحركة الثقافية، وأن تاريخه هو تاريخ الوعي بالنسبة لطيف واسع من المثقفين العراقيين والعرب)**. بل ربما حتى الإيرانيين لعلاقته الواسعة بالوسط الثقافي الإيراني.

المشروع والتحديات

إن الوعي لدى عبد الجبار الرفاعي كان وليد معاناة طويلة وشاقة، ونتاج تضحيات كبيرة وواسعة، فجاء مشروعه رصينا، متماسكا، متألقا.. يسير وفق خطة واستراتيجية واضحة. ليس في قاموسه تقلبات مفاجئة، بل تنبثق رؤاه التجديدية بعد تفكير ومراجعة ونقد

ذاتي وموضوعي. وهي نتيجة طبيعية، إلاّ أنها في وعي الإسلاميين تعد انحرافاً. وفي رأي المتزمتين تعتبر خروجاً عن مسار (كما أسميه) "الوعي الرسمي"، وأقصد به: **(الوعي الذي يتراكم ويتعزز من خلال خطاب أيديولوجي تحريضي، وفكر كلامي مموه، يستبعد العقل، ويستهدف مشاعر الإنسان.. تتولاه مؤسسات دينية وأخرى اجتماعية أو سياسية)**. وهذا الشخص محكوم عليه ـ لا بالانحراف فقط ـ بل ربما بالكفر، الذي يستبيح ـ كحد أدنى ـ احترام آرائه وجواز هدر كرامته. لذا فإن مشاريع الإصلاح تتطلب دائماً رجلاً شجاعاً، ومغامراً مستعداً لمواجهة تحديات من عيار التكفير، وما يترتب عليه من نفي ومطاردة.ولم يختلف الرفاعي عن غيره من المصلحين في حجم التحديات التي واجهها في حياته، بل ما واجهه أحياناً أشد وأقوى، غير أن حنكة الرجل وحلمه وصبره ساعد على تخطي مصاعب جمة، وساهم في نجاح مشروعه.

الرفاعي.. نشأة الوعي

لا شك أن سلبيات قيم العشيرة تعد محفزاً لمن يتمتع بوعي يقظ. والرفاعي الذي اكتوى بنار الاستبداد القبلي فمن الطبيعي أن ينحاز لصف المعذبين والمحرومين والثوريين. ليس لدي معلومات تفصيلية عن تلك الحقبة وكيف تطور وعيه فيها (رغم كثرة ما حدثني عن تلك المرحلة من حياته) لكن شاهداً واحداً يؤكد لي انه كان يتمتع بوعي ثاقب وروح ثورية عارمة.

كنا مدعوّين في ليلة رمضانية قبل أربعين عاماً تقريباً، لدى أحد الأصدقاء (سيد هادي) في مدينة الحرية في بغداد، الذي أعد وليمة لـ (٢٤) شاباً.. بعد منتصف الليل، جرى نقاش حول موضوع محدد، طرحه أحد الحاضرين فكان بالنسبة لي فرصة لتحديد علاقة الحاضرين بإحدى التنظيمات الإسلامية السرية، من خلال سياق الحديث. الموضوع كان فكرياً تضمنته إحدى النشرات الحزبية الداخلية، وقد اطلعت عليه تفصيلاً. خرجت قليلاً ثم عدت وجدت الرفاعي يعقّب، وكان يستشهد بـ (جيفارا وهوشي منه)، فاعترض عليه مدير الجلسة (عبد الحميد ثامر رحمه الله)، قائلاً: لماذا لا نستشهد برجال وشخصيات من تاريخنا وتراثنا؟ فسكت الأخ الرفاعي، فقلت له لا بأس أن نستشهد برجال من خارج تاريخنا وتراثنا. من تلك الحادثة عرفت أن الرفاعي اطلع على شخصيات وحركات ثورية، ولا شك أنه تأثر بمنحاها الثوري.

غادر الرفاعي قيم العشيرة البائسة، واصطف إلى جانب المحرومين والمعذبين، يدافع عن حقوقهم، ويدعو لتحررهم من ربقة العبودية القبلية.

عندما التقيته ثانية قادماً من الكويت، وجدت شخصاً آخر، بوعي وفهم ومنطق متطور، بقينا معاً طوال الوقت.. كان يذهب لحضور أحد المؤتمرات الحزبية ثم يعود لنا. كل

شي قد تغير، حتى ملبسه. وكأنه من ملازمات الموقع المتقدم في الأحزاب الإسلامية عدم الاعتناء بالملبس كثيراً، واختيار قياسات تخالف نسق الرشاقة، كي يبدو متواضعاً، ترابياً، أمام الدعاة! في هذا اللقاء أعجبتني أفكاره ولباقته. كان رجل أيديولوجيا، لا يفهم سوى طريقاً واحداً، هو الثورة والعمل الثوري، ضمن نسق حزبي متجانس، وهو أمر طبيعي جداً في تلك الفترة ومن عايشها.

ثم التقيته ثالثة عندما هرب من الكويت، فانخرط في أجواء الحوزة العلمية في قم، طالبا وأستاذا من اليوم الأول. كان جريئاً شجاعاً، اقتحم الأجواء العلمية، ودرّس المنطق وأصول الفقه والفقه، مستعيناً بتاريخه الحوزوي في النجف، حيث ترك الرفاعي العمل الوظيفي عندما دخلت الحركة الإسلامية في العراق مرحلة المواجهة مع السلطة، والتحق بالحوزة العلمية في النجف، ثم خرج من العراق هاربا إلى الكويت.

ما يهمني متابعة الوعي تحديداً، ففي تلك الحقبة كانت الحرب الإيرانية العراقية ملتهبة، وكانت الأجواء أجواء تعبئة واستنفار، ومشاعر الثأر ممن ظلمنا تستبد بنا. فليس هناك حديث سوى الحرب وآخر الأخبار عن الانتصارات والانكسارات بين الطرفين، ثم استقبال الشهداء، والمجروحين. في يوم واحد سقط من العراقيين على قلتهم ١٠٥ أشخاص قتلى في حرب ضروس ضد النظام البعثي الجائر. فالوعي محاصر بين فكر تراثي حوزوي مغلق، لا يطيق الاستنارة، ويأبى الانفتاح على الآخر. وأجواء حرب دامية، كل يوم نفقد معها صديقا حميما. لذا أتذكر عندما وافقت إيران على وقف إطلاق النار مع العراق، كاد الناس أن يغمى عليها خاصة العراقيين الهاربين من جحيم النظام الجائر. عصر ذلك اليوم زرت الرفاعي فوجدته شعلة نار مع مجموعة من الأصدقاء، كنت أتحين فرصة ولو دقيقة كي أتسلل إلى وعيه وأناقشه بهدوء، غير أن الأجواء كانت تأبى. في آخر المطاف ناقشته حول الموضوع بهدوء وجدوى الحرب وطولها وحجم الخسائر، ثم تعرض البلدين للفناء بشرياً ومادياً. هدأ الرجل قليلاً، ووافقني على رأيي. من هذه الحادثة يمكن تحديد مستوى الوعي وطبيعته آنذاك، رغم انه وعي مفروض، لا يمكنك التحرر منه إطلاقاً.

الرفاعي الأيديولوجي آنذاك، لم يكن إنساناً متحجراً جامداً، بل كان يصغي للرأي الآخر، ويستجيب لمنطق العقل، ويتفاعل مع الأطروحات التجديدية، بهذا الشكل خرج من ظلمات الأيديولوجيا إلى استنارة العقل والعقلانية.

أما علاقته بحزب الدعوة فاضمحلت تحت وطأة الفكر المستنير. بل إن الحس الأيديولوجي تراجع لديه في جميع الاتجاهات، ليحل محله نسق جديد من أسئلة واستفهامات زعزعت الثوابت، والمقولات المصطنعة. وكنا كلما تهاوت قدسية إحدى المقولات الدينية

كلما انعكس ذلك على سلوكنا ومشاعرنا تجاه الأجواء المتزمتة دينياً وحزبياً. من هنا نفهم مسار الوعي لدى الدكتور الرفاعي ورسوخه ووضوحه، فهو يسير على هدى من أمره، وليس ثمة ارتجال وتهور، وإنما دراسة ونقد ومراجعة.

إن النصف الثاني من الثمانينات، كان منعطفاً حاداً في طريقة تفكيرنا، (ذلك التفكير المراجع والناقد والمفارق لأدبيات الحركة الإسلامية، والعابر لأدلجة الدين والتراث، الذي صاغته أدبيات الإسلاميين في النجف منذ الخمسينيات)، كانت حلقات نقاشية عفوية تطورت في ما بعد، وصاغت رؤيتها الخاصة في العقد اللاحق.. بدأت بنقد أدبيات وتجربة الحركة الإسلامية، ثم نقد النظام التعليمي في الحوزة العلمية، وأخيرا نقد المعرفة الدينية، والانتقال من علم الكلام القديم إلى علم الكلام الجديد وفلسفة الدين.

هذا النمط من الوعي تحول إلى همّ دائم وتفكير جاد. لا بد إذاً من مشروع عملي شجاع، يتحدى الممنوع ويقتحم الأسوار والأسيجة الايديولوجية. وبالفعل صدرت نشرة"الرأي الآخر"، كانت نقلة نوعية، وخطوة شجاعة، وصرخة مدوية.. لقد صدرت في بيئة مغلقة، فكان لها صدى صادم. كانت بسيطة في إخراجها.. محدودة العدد في نسخها، غنية في أفكارها النقدية، ورؤاها المستقبلية، وقد كتب مقدمة العدد الأول الأخ الصديق (إبراهيم العبادي). لا يمكن لأحد أن يتحدى الخطاب الرسمي السائد، لكن "الرأي الآخر" كانت خطوة أولى تلتها خطوات مباركة، فأسس عبد الجبار الرفاعي مع الشيخ مهدي العطار رحمه الله مجلة قضايا إسلامية، فكانت مبهرة في مادتها وحجمها. ثم صدرت قضايا إسلامية معاصرة، وتأسس مركز دراسات فلسفة الدين، ليكون مناراً فكرياً وثقافياً. الحديث عنه يتطلب كثيراً من الوقت والجهد لسعته وعمقه. وبهذا يفترق الرفاعي عن غيره بعصاميته، وجديته، وقناعته الراسخة. فتطور المشروع وتوالدت الأفكار، وتعددت الخطوات. لكن ماذا عن التحديات التي واجهها الرجل؟

تحديات بددتها عصامية الرفاعي

لا شك أن التحديات وراء إخفاق أغلب المشاريع الإصلاحية، لأنها معاناة نفسية، وتسقيط اجتماعي، وحرب شعواء ضد صاحب المشروع وعقائده وأفكاره. والشجاع من يتصدى لتلك التحديات بعقل وأناة. وهذا ما فعله الرفاعي. فرغم أن خطاب مجلة قضايا إسلامية معاصرة خطاب مغاير ومفارق، إلاّ أنه احتفظ بعلاقات مميزة مع التراثيين والتقليديين إلى جانب علاقاته بالطرف الآخر، واستطاع أن يمرر مشروعه خطوة بعد أخرى بسلام.

كان يتلقى نقداً لاذعاً وهجوماً عنيفاً من قبل المتزمتين والأيديولوجيين، مع صدور كل عدد من أعداد المجلة. فعندما ينشر دراسة لحسن حنفي، أو مصطفى ملكيان، أو

محمد أبو القاسم حاج حمد، أو طه جابر العلواني وغيرهم، كانت تهتز مشاعرهم من منطلقات طائفية وأيديولوجية.. ليس في قاموسهم مبادئ إنسانية أو تلاقح فكري وثقافي، وإنما لون واحد، أما معي أو ضدي. بينما مشروع الرفاعي التحديثي قائم على توفير بيئة ثقافية تدعو للانفتاح وقبول الرأي الآخر، وتستجيب لمنطق العقل بعيداً عن مشاعر التطرف الديني والمذهبي. لذا يعتبرون مشروعه انحرافاً، وخروجاً على الخطاب الرسمي. وهذا أشد التحديات برأيي في ظل بيئة أيديولوجية تكفيرية مغلقة. باستطاعتها تسقيط أي شخص باسم الإسلام والدين الحنيف.

كما واجه الرفاعي ظروفاً مادية قاسية، وهو تحد آخر من شأنه إسقاط أي مشروع، فالتمويل ركيزة أساسية لنجاح المشاريع، خاصة الكبيرة، والنخبوية. المجلة لم توفر مردوداً مادياً معتد به، لأنها تصدر في بيئة أدمنت التلقي، والنقد بالنسبة لها كفر وانحراف. فليس لقضايا إسلامية معاصرة سوى الوسط الثقافي المحدود، حتى اضطر إلى بيع مكتبته من أجل تمويل مشروعه والاستمرار في صدور مجلته.

من يقرأ قائمة إصدارات مركز دراسات فلسفة الدين، ويقرأ عن شخصية عبد الجبار الرفاعي، يتصور أن وراء هذا المشروع كادراً كبيراً من المحررين، ومكاتب وبنايات. لكن الحقيقة غير ذلك، إنها جهود شخصية، هو وحرمه المصون الأخت العزيزة إنتزال الجبوري أم محمد، وولده محمد حسين، بعد أن كبر حفظه الله ورعاه. وعندما زاره ممثل مجلة العربي الكويتية كان يسأل أين مكتب المجلة؟ كنا نضحك ونشير له هنا، أي في غرفة المكتبة، فكان يردد (مش معقول أبداً أبداً).

من التحديات الأخرى أن تلاميذه صاروا يكتبون بطريقة مختلفة، ويوجهون سهام النقد مباشرة إلى المؤسسة الدينية. وكان كل ذلك يحسب عليه. وهي مشكلة أخرى أزعجته، وهو الرجل الحريص على إيمانه وتجربته الدينية، وعلاقته بالحوزة العلمية. غير أن رحابة صدر الرفاعي وحلمه تستوعب المتطرفين والطائفيين، فكانت قهقهاته تبدد غضب من يواجهنا في المجالس العامة، إذ كثيراً ما كنا نتعرض لنقد لاذع من قبل المتزمتين، خاصة الأصدقاء منهم. وعندما كنا نواجههم بأسئلة محرجة، أو يقرأون ما ننشر، يشتد الجدل إلى درجة الغضب، إلاّ أن أبا محمد كان يسيطر على الموقف في اللحظة الأخيرة، وطالما انسحبنا من جلسات كانت تعقد لمناسبة ما.

إن قربي من أخي عبد الجبار أهلني للإطلاع على كثير من معاناته المادية والنفسية والصحية، فمثلا، بسبب عمله المتواصل ليلاً ونهاراً، اضطر لإجراء عمليتين جراحيتين

لعينيه، سنة بعد أخرى. وعانى كثيراً من أجل توفير مسكن له ولعياله، في تلك السنوات العجاف. وقد ساومه كثيرون على مشروعه، لكنه لم يلن، ولم يسمح لأحد اختراقه.. حاولت استدراجه جهات عديدة لكنها فشلت أمام وعيه المتوقد.

عندما أصدر الوسط الثقافي العراقي بيانين استنكاريين تضامناً مع حركة السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر كنا أول من وقع عليهما، ونشرا في صحف المعارضة العراقية، ووصلت إلى أعلى المستويات في الدولة الإيرانية، حتى تناهى إلى مسامعنا امتعاض رئيس الجمهورية آنذاك السيد محمد خاتمي، لأنه رجل مثقف، ويعي ماذا يعني استنكار المثقفين.

وعندما أمسى من العسير علي مواصلة العيش في منفاي وأخبرته، خططنا معاً للهجرة من إيران، وكان ينتظر حتى أنهي العدد الأخير من مجلة التوحيد، ونغادر فوراً، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، لأسباب ترتبط بطبيعته الشخصية في الاحتراز والتدبر والتأمل عند اتخاذ القرارات الصعبة في حياته، وولادة المنعطفات الأهم في مسيرته، التي تتطلب وقتاً طويلاً وهدوء وروية في التفكير بها ودراسة مآلاتها، وخضت أنا وعيالي عباب البحر وظلمات المحيط في سفينة متهالكة، حتى وصلت بر الأمان.

ليس أخيراً

في ختام هذه الورقة، أتمنى لأخي العزيز أبي محمد طول العمر بصحة وسلامة، كي يواصل مشروعه الإصلاحي، الذي نحن بأمس الحاجة له.

ان تكريم الرفاعي هو تكريم للوعي الديني المستنير، وتكريم لجيل المحنة الذي عانى طويلا في ظل استبداد فكري وعقائدي.

شكراً لكل من احتفى به، وتصدى لتكريمه. وأشد ما يؤلمني أن يكرم الأستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي من مؤسسات محترمة غير عراقية، بينما تجافيه المؤسسات الإسلامية، وهو رجل تراثي، وداعية إسلامي في حقبة طويلة من عمره الشريف.

فتحية له، ولشريك دربه ومشروعه أم محمد الأستاذة إنتزال الجبوري. ونأمل في تكريمه العام القادم من قبل مؤسسة المثقف بعد بلوغه ٦٠ عاماً.

❖ ❖ ❖

الدكتور عبد الجبار الرفاعي
سـمات مميـزة

د. سعيد شبار[1]

قلة "هم" أولئك الذين ينكرون أنفسهم ويتحررون من آسارها، ليُسدوا المعروف إلى غيرهم، وليخدُموا الرسالة التي يحملونها بما يليق بسامي مكانتها ورفعة مقامها. و"هم" إنما كانوا كذلك، لَمَا كان لهم من آفاق رحبة تسع الخصم قبل الصديق، وتتواصل تدافعاً وتعارفاً مع الجميع. ولما كان لهم من تعلق بالأصول والكليات التي تساوي في الوجود والكائنات بين خلق الله تعالى وأمره، وفي الشعوب والأمم بين معالي القيم ومكارم الأخلاق في اعتبار كرامة وكينونة الإنسان، وفي الإنسان نفسه بين نوازعه النفسية الروحانية والعقلية البرهانية والمادية الجسمانية.

الأصول والكليات التي تعلي من شأن الوحدة ضداً على نزوعات التفرقة والتجزئة، ومن شأن الحرية ضداً على نزعات التعصب والتضييق، ومن شأن العدل ضداً على نزعات الهيمنة والاستبداد...

"هم" قلة، لأنهم في الغالب لا يحرصون على الظهور وإنما تُظهرهم أعمالهم، ولا يُعرفون بأنفسهم وإنما يُعرف بهم طلبتهم والمتعلمون على أيديهم، ولا يُنصبون أنفسهم ولا يَتصدرون وإنما يُنصبهم ويُصدرهم غيرهم، فيما استحقوا واستوجبوا لجليل خدماتهم وكريم عطاءاتهم.

نعم! تلك خصال قد اندثرت وتلاشت، في زمن التهافت والاستشهار من ذوي الأهواء والأطماع، لكنها تبقى أصولاً حاكمة ومحددة، وثوابت راسخة سرعان ما يُرجع إليها عندما تذرو الرياح الهشيم أو يذهب الزبد جفاء.

وإذا كنا تعرفنا على بعض من خصال هؤلاء القلة، جاز لنا لأن نرفع الأقواس عن"هم"، كي لا نسترسل في الحديث عنهم ضميراً منفصلاً نكرة.

والدكتور عبد الجبار الرفاعي أحد هؤلاء القلة الذين في الواقع، ذكرنا على وجه التخصيص من أوصافهم وخصالهم ما يتمتع ويتميز به من بينهم على وجه الإجمال لا التفصيل. وفضلنا أن تكون مساهمتنا في تكريمه تعريفاً بالحاجات الضرورية لفكرنا المعاصر، الذي تتهدده مخاطر عدة من داخله ومن خارجه. والذي تنجم بسبب مشكلاته التاريخية والراهنة آفات تترى، أوقعت الأمة ولا تزال في حالات من الخصومة والاحتراب والتفرقة والتجزئة

---

(١) أستاذ التعليم العالي، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. بني ملال - المغرب.

والنكوص والانحطاط... ضداً على كل قيم الوحدة والبناء والأخوة والتكافل التي تحملها في رسالتنا الخاتمة، والتي يتعين على أجيال الباحثين المقبلين إحياءها والتمكين لها من جديد، تطلعا إلى غد وأفق جديد.

قبل أن أعرف الرفاعي شخصاً، عرفته فكراً منذ ما يناهز العقدين، حيث وجدت بينه وبيني روابطاً ووشائج فكرية، تطرح على فكرنا المعاصر نفس الهموم والمشكلات، وتبحث نفس القضايا والتطلعات.. ليس فقط على مستوى طرحها العالم المشترك، بل على مستوى كثير من المداخل التفصيلية، كآفاق تجديدية في الفكر والمعرفة، أمام إرث تاريخي مثقل لحركية ودينامية الفكر، وأمام واقع حاضر مستفز وسالب، من خلال نماذجه التي يطرحها بدائل أمام فراغنا وعجزنا.

إنه لمن السهل جداً الانتماء إلى دوائر فكرية نمطية مغلقة لا تؤمن إلا بنفسها، تخاطب وتمجد ذاتها، وتستهلك خطابها في حركة دائرية تكرارية متوهمة، من خلال إلقاء اللوم والمسؤولية على من سواها، أنها ناجية أو أنها على حظ كبير من الحقيقة والصواب، إن لم يكن كل الحقيقة والصواب. ومع كثرة وتناسل هذه الكيانات، تضيع في الأمة فرص الوحدة والبناء المشترك، وفرص الأمن والاستقرار، وفرص التعلق بالأصول والكليات الجامعة.

ولهذا كان من الصعب الانتماء إلى فكر، يحرص أولاً على التمكين لتلك الفرص، وفتح تلك الأنساق والدوائر المغلقة، إذ ذلك الأصل في الرسالة نفسها التي جاءت إلى الناس، وجعلت معايير الانتماء إليها قيما مجردة، تنفي التحيز والتمركز في أي نسق أو كيان مغلق: الإيمان والتقوى، والعدل والحرية، والفكر والعلم، والواجب والمسؤولية... وغيرها من القيم التي وقع الانقلاب على معانيها ودلالاتها، الشرعية المستوعبة المطلقة، التي لها خصائص ومحددات الوحي نفسه، لتعطي معاني ودلالات الفرق والطوائف والأحزاب حسب الحاجة والطلب، وفي حدود آفاقها الفكرية التي لا تتعدى إلى غيرها.

لهذا أستسمح أخي الرفاعي في أن أتحدث عنه، في هذه العجالة، في سمات ثلاث، استطاع أن يسجل فيها حضورا وتميزا، وهي ذاتها مطالب أساسية وعاجلة في مسار الإصلاح والتغيير الديني والثقافي المنشود، أمام أجيال الباحثين الناشئين خصوصاً.

١- سمة الارتقاء إلى الأصول والمقاصد الجامعة:

وهي السمة التي تبوئ صاحبها مقاماً استشرافياً ومنظوراً كلياً، يؤهله أكثر من غيره ممن لم يتحقق بهذه المرتبة، من نظم الجزئيات والفروع، وإنزال كل منها منزلتها، دون السماح لها بالتضخم، لدرجة احتلال محل الأصل والكلي نفسه. وتلك آفة خطرة من آفات

المتصدرين للتغيير، عندما ينافحون عن جزئيات وفروع، ويهدرون بين يديها كليات وأصول، لو تمسكوا بها وقدموها على غيرها لوفروا للأمة فرصاً من التوحد والانسجام، ولفوتوا عليها كثيراً من حالات التجزئة والانقسام. وهذه المرتبة لا يمكن تحصيلها بيسر وسهولة، إذ تستلزم من صاحبها مجاهدة نفسية وفكرية على الأقل، نفسية تتجلى في ضرورة الخلو من حظوظ النفس وتمجيد الذات، أو بعبارة مالك ابن نبي رحمه الله: "الانحباس في عالم الأشياء أو الأشخاص". وفكرية، تتجلى في ضرورة اختبار المناهج والأفكار والآراء المطروحة في الساحة لدى مختلف التيارات، مع الحرص على الإفادة والانتفاع من كل إيجابي فيها يمكن انتظامه في النسق الكلي المؤطر.

ذلك ما يمكن لقارئ الرفاعي أن يلحظه بيسر، من خلال كتاباته ومحاوراته، لا في الموضوعات التي يكتب، ولا في الأشخاص الذين يتواصل معهم. فلا نجد في الموضوعات إغراقا في الجزئيات والتفاصيل المثيرة للفرقة والتعصب، إذ غالباً ما تركز على قضايا الإصلاح والتغيير المشترك، ويتوجب ههنا السمو إلى مرتبة الالتقاء والتواصل بين مختلف الأطروحات، وهي مرتبة تمنحها الأصول لا الفروع، والكليات لا الجزئيات. ولا نجد في الأشخاص الذين يحاورهم أو يستكتبهم نمطاً فكرياً واحداً، أو نموذجاً ومنهجاً في التغيير واحدا. إذ تتسع الدائرة ههنا لتشمل وتستوعب كل الأطياف، ولتعكس ممارسة حقيقية نادرة في الإيمان بالتعدد والاختلاف والغنى والتنوع في الساحة الفكرية المعاصرة.

وما يضير رجل الإصلاح والتغيير الإسلامي أن يفيد من نظيره القومي أو العلماني! فذلك أضعف الإيمان، إذ الأصل العكس، أي أن يكون المنظور الإسلامي للإصلاح والتغيير أعم وأشمل، لا يفوت مدخلاً ولا منفذاً إلا وانتظمه، في النفس والمجتمع والأفكار والمعارف والعلوم والمناهج... وغيرهما. لكن للأسف مورس تضييق كبير على مفهوم الإصلاح والتغيير كما على غيرها من المفاهيم التي يتلازم فيها البعدان الديني والدنيوي، أو الإنساني والإسلامي، حتى تحجمت صغراً وتضاؤلاً إلى تيارات منافسة وليست مستوعبة، وخصمة وليست صديقة. ولسنا نرى مخرجا من هذا الإشكال إلا السمو بالنفس والفكر إلى مرتبة الكليات والأصول والمقاصد العليا الناظمة، والتحقق بها أولا ثم النظر من خلالها إلى ما دونها ثانياً.

٢- سمة العلو على الخلاف المجزئ والتعصب المفرق:

لاشك أنه عندما يتسع منظور الإنسان ويرتبط بالأصول والكليات، يكون أكثر قدرة على التحرر من أسر الفروع والجزئيات، وعلى استيعاب وإدارة الخلاف نحو وجهة البناء المثمر والمشترك.

وإذا كان هذا الاختلاف سنة في الخلق، يعكس في مجال الطبيعة جمالاً وانسجاماً، فلم لا يكون كذلك في مجال الفكر والمعرفة...!

ولقد تقدم معنا أن د. الرفاعي تهيمن على كتاباته هذه السمة، من العلو على الخلاف المجزئ والتعصب المفرق، شأنه في ذلك شأن أعلام وأقطاب لا تكاد تميز في مؤلفاتهم أنهم من هذا المذهب أو ذاك، إلا مذهب الإسلام بأصوله وكلياته العامة الجامعة أولاً. كما أن انفتاحه الكبير على مختلف التيارات والمذاهب الفكرية وسع من دائرة الإفادة والاستفادة. لا في اتجاه الخط الإسلامي الإصلاحي والحركي المعتدل، ولا في اتجاه الخط العلماني الليبرالي أو اليساري أو القومي... فالحكمة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق الناس بها. لأن غايته نشدان الحق والصلاح، ولا يمكن لخطاب واحد أن يمتلك كل مقوماته وآلياته.

لقد كانت الآفة التي أنهكت الأمة قديماً خلافها المجزئ، وتعصبها المفرق، ضداً على أصولها الموحدة الجامعة، وعلى رأسها أصل الأصول: التوحيد. التوحيد الذي أثمر في الأمة وحدة عقدية وسياسية وفكرية واجتماعية... لتشيد بعد ذلك صرحها الحضاري الشامخ. لكن نزعات التعصب للمذاهب والجمود على مقرراتها مهما كانت، وكثرة الفرق والطوائف والآراء والأقوال... من غير نواظم تنتظمها في أصول جامعة، حيث غدت كيانات مستقلة وأضحت النصوص بين يديها شواهد تبريرية لا شاهداً بنائياً. حالت ولا تزال تحول دون إمكانات البناء الموحد والمشترك الذي يقر ويرعى الاختلاف تحت سقف الوحدة.

للأسف لا تزال اتجاهات تقليدية تحيي الخلافات الماضية، وتتشبث بأطروحات وآراء أمست من التاريخ، تحكمت فيها ظروف سياسية واجتهادات فقهية أو عقدية معينة. هذا أمام بروز تحديات جديدة بوجه الآمة، تحتاج إلى تجديد في الفكر، فقهياً وعقدياً، ووحدة في الصف، اجتماعياً سياسياً واقتصادياً. بما يؤهلها إلى مقام الحضور في ساحة التدافع الكوني والإدلاء فيه برأيها. وإن حالات الاحتراب والنزاع التي تكاثرت بين مكونات الأمة لن تزيدها إلا إنهاكاً وانسحاباً من المشهد العالمي، بحيث تقرر الكيانات الأخرى ـ كما هو الحال الآن ـ في أخص خصوصياتها.

والذي ينظر بمنظار الفرقة والطائفة، ويسيج فكره أمام إمكانات التجديد والتجاوز والاستئناف في البناء والعطاء، لا يمكنه بحال أن يخدم الأمة والدين، وإن زعم ذلك واعتقده اعتقاداً. فالأصل في هذا الدين الانفتاح لا الانغلاق، والسعة لا الضيق، والإطلاق لا التقييد، ورعاية المصالح ودرأ المفاسد العامة قبل الخاصة، والوحدة والانسجام لا التفرقة والانقسام...

وغير ذلك من الإمكانات التي تسمح بها عالمية وإنسانية الخطاب الإسلامي، مما لو استثمر استثماراً، وفعل تفعيلاً، لقدمنا نموذجاً عالمياً جديداً بقيم وأخلاقيات وعلائق إنسانية جديدة، تكون بديلاً أمام هيمنة واستبداد واستعباد العولمة للأفراد والشعوب.

ولاشك في أن توجيه الفكر الإسلامي المعاصر هذه الوجهة سيعمل على تحريره تدريجيا من الارتهان لسلبياته الماضية في التاريخ، ولسلبيات الحاضر كذلك الذي تقوده نماذج الغرب المتنفذة. وطبعاً نحن لا نقصد بمنطق التجاوز هنا التنكر لإبداعات واجتهادات بعض التيارات والفرق في تاريخنا الإسلامي، فتلك سعة من الحرية في الفهم والتأويل يتيحها الدين نفسه. لكننا ننكر الانقلاب الذي وقع على الأصول تعظيماً للفروع، حيث احتلت هذه الأخيرة محل الأولى، وأضحت كثير من تلك الفرق والطوائف في حالات من الغلو والتشدد، تتوهم امتلاكها للحق والحقيقة، وتمثيلها للدين الحق دون سواها، هذا إذا لم تعلن الجهاد الذي لا مدلول له عندها سوى القتال على كل مخالف لها. فحركة الإسلام أعظم من أن تستوعب في مرحلة أو فترة، أو في فرقة أو مذهب، أو في أفكار ونظريات.. إذ كيف للنسبي المتغير أن يستوعب المطلق اللامتناهي. فذلك يحدث للأسف توهماً لدى البعض، عندما تتضخم عنده أناه وذاته في شيء من الغرور والاستعلاء. والأصل أن يأخذ كل عطاء حيزه في التاريخ، ليفسح المجال لعطاءات جديدة لا تنقطع.

٣- سمة العصامية في استئناف ودعم المسارات التجديدية:

وتلك سمة بارزة في المجهود الذي يبذله د. الرفاعي فرداً، في الإصدارات المختلفة، حتى لكأنه مؤسسة ذات طاقم وتخصصات، فذلك شأن الباحثين الذين نذروا أنفسهم للبحث والخدمة والعطاء.

وإذا تجاوزنا ذلك إلى الوراش العلمية نفسها، فنجد أهمها ورش التجديد واستئناف البحث في مجال العقيدة، سواء تحت مسمى "علم الكلام الجديد" أو "فلسفة الدين". وهي كما لا يخفى ورش هامة، من شأنها إذا أحكم الاشتغال فيها أن تغطي ثغرات واسعة لم يبذل فيها جهد منذ انحسار الفكر الكلامي القديم. فعلم أصول الدين كان المفترض فيه أن يكون العلم المواكب للعقيدة، تنظيراً وتفسيراً وتنزيلاً عبر مراحل التاريخ المختلفة، يقدمها في كل عصر من حيث الصياغة، بما يناسب معطيات وتحديات العصر. ويبني من خلالها أصول وقواعد التفكير، والضوابط الكبرى للمعرفة والعلوم. فهذا أصل التوحيد العظيم منذ تم تحجيمه تاريخياً في بعد إيماني عقائدي خلافي ضيق، لم يحرر بعد ليعطي كل أبعاده الاستيعابية المطلقة المحددة لقبلة ووجهة العلوم والمعارف وغاياتها ومقاصدها، والمسددة لحركيتها وفاعليتها في أي مجال كان. أي كان لعلم أصول الدين

أن يكون هو نفسه فلسفة للدين، تعمل على تفسير قضاياه الإنسانية والوجودية والعلمية والمعرفية أكثر مما تفسر قضاياه الغيبية. ونزعم أن ثمة قدرات تفسيرية هائلة في الدين لم تستثمر، بإمكانها ليس مضارعة الفلسفات الموجودة قديماً أو حديثاً فحسب، بل تجاوزها كذلك من خلال إعمال مصادر المعرفة في نسق تكاملي لا تقابلي "نصاً وعقلاً وواقعاً"، حيث تندمج عوالم الغيب والطبيعة والإنسان، في جدلية بنائية كبرى، تقصر دونها الجدليات والتفسيرات الجزئية والصغرى، التي تهيمن على ساحة الفكر والثقافة الآن، والتي تخترقها المصالح وحركات التمركز السياسي والاستهلاكي الحاد بسهولة، بل وتوجهها الوجهة التي تريد.

وإن من الإيجابيات التي يجدر التنويه بها هنا في هذه الورش الهامة هي كون د. الرفاعي قد وسع دائرة الاقتراحات التجديدية فيها بين مختلف الفاعلين من مختلف المرجعيات. وصاحَبَ هذا الوعي التجديدي، وعي بضرورة التجديد المنهجي كذلك، والاهتمام بمناهج العلوم الإنسانية، حيث عمل على توضيح كثير منها، وتوظيفها بنجاح في كثير من الموضوعات، دون الانجذاب أو الاستلاب لنزعة إسقاطية أو تبريرية، قد تفرضها مرجعيات بعض المناهج أو العلوم، وتلك قدرة على التكييف والتوظيف نادرا ما يتحقق بها الباحثون. هذا فضلاً عن التجديد في المناهج التربوية التعلمية، والإلمام بقضايا وتوجهات الفكر الغربي الحديث، وكثير من فلسفاته وفلاسفته. وخصوصا تيارات الحداثة وما بعدها في نسختها الغربية أو العربية، ومباحث القيم والكينونة الإنسانية الملازمة لها.. في حركة تنويرية واسعة لا تترك قبسا من نور إلا وانتظمته في صفها. وكل تلك ورش وجب أن يستأنف فيها البناء والعطاء، من منظور واقتراح إسلامي، في الأفق والاقتراح الكوني والإنساني.

نعتقد أخيرا أن التغيير، بالإضافة إلى كونه مضمونا علميا ومعرفيا، يخلق حالة من العلم والوعي، هو كذلك عمل منهجي سنني، أي لابد أن تراعى فيه سنن وآليات البناء في النص والآفاق والأنفس. فأي عمل تركيبي للسنن خارج المنهجية السننية "الآياتية" نفسها، سيكون عبثا لا يفضي إلى شيء، ولقد كان هذا مآل كثير من حركات الإصلاح والتغيير، عندما لم تحسن هذا المدخل. ولا يخفى أن سنن الأنفس والآفاق التي يحيل عليها النص هي عينها الدائرة الكونية العالمية والإنسانية المنافية لكثير من أشكال وأضرب التحيز.

وفق الله تعالى أخانا د. الرفاعي إلى مزيد البذل والعطاء والعمل المشترك النافع المصلح للبلاد والعباد. والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

❖ ❖ ❖

عبد الجبار الرفاعي
رائد مشروع تحديث التفكير الديني في العراق

✍ إبراهيم العبادي[1]

في ربيع عام ١٩٨٥ كان لقائي الأول بعبد الجبار الرفاعي مصادفة في طهران، حيث جاءنا زائراً لنلتقي في أحد بيوت المهاجرين العراقيين، ولتكون الجلسة العفوية بداية لعلاقة ما لبثت أن توطّدت على أساس توافق فكري، وانسجام ثقافي، وهموم معرفية مشتركة.

منذ بداية اللقاء يشعرك الرفاعي بحميمية صادقة، وتأسرك إشراقة روحه السمحة، وأخلاقيته الدافئة. كان التفكير المفتوح والقدرة على الاستماع أول ما شدني إلى هذا الزائر المتفحص، يومها كانت الحرب العراقية الإيرانية على أشدها، وكان حريقها يحبس الأنفاس، ويطلق تساؤلات عديدة ظل بعضها مكبوتاً، فيما تستمر هي "الحرب" بحصار الخطاب الديني، وتختبر الكثير من يقينياته وفرضياته، فقد كنا ننظر إلى هذه الحرب على إنها منازلة بين مشروعين في جوهرها، المشروع الغربي في المنطقة، متمثلاً بأنظمتها السياسية التابعة، ومناهجها الفكرية والثقافية، وبين المشروع الإسلامي الوليد الذي مثلته تجربة الثورة الإسلامية في إيران، بوصفه مشروع الأمة المنتمي إلى حضارتها وتراثها، وطريق النهوض الثالث بين الطريق الغربي الأول والطريق الاشتراكي الثاني، اللذين لم يحققا نهوضاً وتنمية، وخلاصاً من التخلف والتبعية، وكان المشروعان التقيا لجهة دعم نظام صدام حسين، والحيلولة دون هزيمته. حيث كانت تراود "إسلاميي العراق" آنذاك أحلام إقامة نظام سياسي إسلامي على أنقاضه وفق نظرية الحكم الإسلامي، التي صاغها الفقيه والمفكر محمد باقر الصدر "١٩٨٠". هذه النظرية التي أشعرت أولئك الإسلاميين بنوع من الانتشاء الفكري، وجهوزية ثقافية، جعلتهم ينشغلون عن تعقيدات الواقع ووعورة الطريق، وغدت تهويمات الأيديولوجيا، وزيف التفوق، أسباباً كافية لظهور عيوب وعطب الثقافة، التي حملتها أجيال إسلاميي العراق فيما بعد، كما كشفت عن ضمور ثقافي، وتخلّف عن مواكبة المعرفة البشرية لأسباب عديدة، لكنها ستكون مدخلاً لتقويم طبيعة الخطاب الإسلامي عموماً، باعتبار أن مصادر تكوينه وإنتاجه واحدة أو متماثلة، كما أن مشكلاته متناظرة. فمصادر ثقافة الإسلاميين الحركيين منهم وغير الحركيين تعتمد على التراث الفقهي والعلوم الدينية، من: فقه، أصول، تفسير، حديث، تأريخ، فلسفة، وعلم كلام، بالإضافة إلى معطيات الثقافة العامة المعاصرة. ظل الفكر الإسلامي التقليدي والحركي يتحرك

---

(١) كاتب وإعلامي عراقي.

في أُفق هذه المصادر، ويحاول الاستفادة من إضافات المجددين، من فقهاء ومنظرين ومثقفين متدينين. لكن هذا التجديد لم يستوعب إشكاليات عديدة، وظلت الثقافة الإسلامية العامة حذرة في استيعاب هذا "التجديد"، والاستجابة بطيئة للعصرنة. فإضافات محمد باقر الصدر ومحمد حسين الطباطبائى ومرتضى المطهري، وفكر المفاصلات الجذرية لأبى الأعلى المودودي وسيد قطب، وتنويعات مالك بن نبى، واجتهادات محمد عبده الإصلاحية، وتجديدات محمد إقبال. بالإضافة إلى فكر الأخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامى، ونظرية مقاصد الشاطبى، التى جدد شبابها محمد الطاهر بن عاشور، ومحاولات المواءمة بين العلم والدين لكثيرين، كان أسبقهم السير أحمد خان، وما تمخض من نتائج فكرية على صراع التيارات الليبرالية واليسارية والقومية، شكّلت بأجمعها قوام الأدبيات الإسلامية، التى دخل بها الإسلاميون القرن الرابع عشر الهجري، الثمانينيات الميلادية.

ربما شعرت الحركة الإسلامية الشيعية العراقية بنوع من "عقدة" التفوق، بسبب الإسهامات الكبيرة، ذات الطابع المعاصر معرفياً وتنظيرياً للمفكر الراحل السيد محمد باقر الصدر. فقد كانت إبداعاته المنهجية، وتجديده في لغة الخطاب، وسعة الإشكاليات، وعديد القضايا التى عالجها، سبباً لذلك الشعور.كانوا محقين حينها، لكن الجمود على عبقرية فقيه ومفكر بعينه، والدوران حول إنتاجه، في عالم يتغير بسرعة، وتتضاءل المسافات بين حضاراته وثقافاته، وتتعولم علاقاته الاقتصادية ومشاكله الإنسانية، وتتعاظم فيه التحديات الثقافية والبيئية، هذا التقوقع والجمود.. لم يكن إلاّ علامة على التوقف والضمور الثقافي والفكري. وإذا أُضيف إلى ذلك الحجم الهائل لمضاعفات الاستبداد، وظروف البلاد التى خضعت لشمولية، وعنف صامت، وانهيارات نفسية واجتماعية، وانتهاك صارخ لآدمية الإنسان، حيث كانت آلة الحرب تطحن المجتمع، وتصيبه بدمار في بنيته النفسية والأخلاقية، وجهازه القيمى، وقدراته الإبداعية. عندما يُحسب كل ذلك، يظهر التقهقر ملحوظاً على جميع الأصعدة، فيما حجم الدمار والمشكلات يتسع بمرور الأيام، بالشكل الذي أفقد "الإسلاميين" القدرة على تقدير خطر المراهنة على منطق "الأيديولوجيا" وحدها في تصور الحلول للمشكلات المتفاقمة. كانت القضايا مثار الاهتمام تتحرك في نطاق مشروع الأسلمة، وعلى المستوى السياسى والثقافي والاقتصادي، وربما المعرفي، وكانت التجربة الإيرانية هى المختبر، والمثال، والشاهد، لما يمكن تسميته قدرة العقل السياسى الإسلامى الشيعى على اختبار صدق مدعياته.

وبموازاة ذلك كانت حركات الإحياء والصحوة الإسلامية في المنطقة، تتحرك هى الأخرى على إيقاع هذه التجربة، تنافساً، واحتكاكاً، وصراعاً خفياً ومعلناً، فكان عقد الثمانينيات مصطبغاً بلون الدم، ومتحركاً بشعارات الحماسة، وبمسلك تطهري، لا على مستوى السلوك السياسي فحسب، بل حتى في مفردات الخطاب ومفاهيمه.

كانت الأنا ـ كما يحب حسن حنفى أن يشدد عليها ـ تخوض صراعاً عنيفاً في مقابل الآخر. وحينما تعيش الذات صراعاً على المستوى الشامل، فإن ثمة عماءً لا مرئياً سيعتور المسيرة، بيد أن أجواء الصراع الأيديولوجي لم تكن تسمح بالفحص والمعاينة. وهكذا وجدنا أنفسنا جميعاً متوغلين في قضايا الأسلمة، وتأكيد الذات، في يقينية مفرطة، اقتضاها الشعور العميق بأهمية "العودة إلى الذات"، كما كان يلح الراحل على شريعتى، كمنهج في اكتشاف قدرة الأنا على توظيف الدين أو الاجتهاد في نصوصه العقائدية ومنحاه الاجتماعى، لإجتراح طريق النهوض والدفاع عن نظريته.

نتيجة ذلك بدأت تتكشف مشكلات من نوع جديد، فقد اختزل الدين في أيديولوجيا الثورة والتحشيد والتعبئة والصراع، وساد نوع من أُحادية الخطاب ونرجسيته، وأضحت العلاقة مع الآخر "المحلى أو الدولى" مطبوعة بطابع التوجس والعداء. كما أن فاعلية العقل النقدي بقيت مؤجلة أو محاصرة، فلا وقت يتسع لغير نداء الدفاع عن الذات وحقوقها، وقد كانت آلية هذا الدفاع تعتمد عقلاً نصوصياً، يُقدّم التراث على الواقع، وعلوم الأقدمين على إبداعات المعاصرين، وبدل البحث في أسس التقدم عند عمالقة الفكر والفلسفة والتنوير في الحضارة الراهنة، اقتضى منهج العودة إلى الذات اكتشاف "أُسس التقدم عند مفكري الإسلام" فحسب، رغم فارق الزمان ومتغيرات وإشكاليات الاجتماع الإسلامى.

سادت موجة أشبه ما تكون بـ "المكارثية الجديدة" في أوساط الإسلاميين في علاقاتهم مع الآخر، وجوداً ،وفكراً، ومعرفة، ومفاهيم، ومصطلحات، ولغة خطاب. ذكر لى أحد الزملاء الإعلاميين انه استخدم لفظة "واعدة" في إحدى مقالاته الصحفية، في جريدة حزبية كانت تصدر في طهران، فحذفها المسؤول الرقيب، لأنها لم تكن تنسجم مع لغة خطاب الإسلاميين، وفيها شعرية راقصة، حسب اعتقاده. كان الاعتراض على سياسة ما أو مصطلح أو مفهوم، كافياً لاتهامك بأنك متأثر بالفكر العلمانى، أو متغرب فاقد للأصالة، كانت الأجواء هى هى في صراع القديم والجديد، وبين دعاة الأصالة وأنصار المعاصرة، أو بين الحداثيين وما قبل الحداثيين، تُذكّر بأجواء صراع مجلة شعر وخصومها في خمسينيات القرن المنصرم.

مرحلة التساؤل

في النصف الثانى من عقد الثمانينيات من القرن الماضى بدأت ملامح المشهد تتغير قليلاً، فثمة مفكرون ومتفلسفون ومثقفون بدأوا ضغطاً، أخذ يلامس عقول الإسلاميين، ويضعهم في دائرة السؤال. كما أن قناعات بدأت تتزحزح، بأثر خطاب ناقد تجاوز منطق خطاب التبجيل والاكتفاء. تدريجياً أخذت عناوين صادمة طريقها إلى عقول الإسلاميين من خارجهم، بعد أن كانت الأصوات الناقدة داخلية، كما كان يظهر في بعض إلتماعات الشيخ

مرتضى المطهري، فصار الإسلاميون يقرؤون أو ينصتون على الأقل لمثل "أوراق في النقد الذاتي" الذي حرّره: عبد الله النفيسي، بعد ندوة تقويمية لفكر الإسلاميين، أو "الصحوة الإسلامية في ميزان العقل" لفؤاد زكريا. كما كان لتوالي كتب الراحلين محمد أركون ومحمد عابد الجابري توفيا (٢٠١٠)، ومساهمات مجلة منبر الحوار للراحل فاضل رسول "اغتيل في فيينا ١٩٨٨"، أو النقد المحسوب لكن الجريء في حينه للشيخ محمد مهدي شمس الدين أثره الكبير. احتشد أكاديميون وباحثون كثر بدواع معرفية وسياسية وأيديولوجية لنقد خطاب الإسلاميين، فتنوّعت الإصدارات والكتب والنشريات، وساهم ملتحقون جدد بالإسلاميين، ممن كانوا على منهج اليسار في توسيع دائرة الاهتمامات، وتنويع المناهج وتحديث لغة الخطاب، وإدخال تقنيات جديدة.

في مقال لافت في مجلة العالم التي صدرت في لندن، كتب التونسي محمد الهاشمي الحامدي عن ما أسماه "قضايا الجيل الثالث" من الإسلاميين، متناولاً حقائق جديدة عن متطلبات جيل جديد لم تكن في وارد جيل التأسيس، أو جيل التأصيل، من أمثال: حسن البنا، وتقي الدين النبهاني، ومحمد باقر الصدر، وأبو الأعلى المودوي. فقد دخل الإسلاميون وخصومهم في صراع حاد، وارتفعت وتيرة العنف السياسي، وتبادل الطرفان نقداً عنيفاً للمتبنيات والشعارات والمواقف، وكان محور النقد يدور حول عدم قدرة الإسلاميين على إجتراح حلول حقيقية لمشاكل الدولة والمجتمع، وإن الاكتفاء بشعار تطبيق الشريعة وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، لا يوفر أجوبة شافية لقضايا الحقوق والحريات، والعلاقة مع الآخر الديني، أو الثقافي، بالإضافة إلى مشاكل التخلف، والأمية، والجهل، والاقتصاد والتنمية، والعلاقات الدولية.. وغيرها.

ثمة نقد بدأ يتصاعد بقوة لخطاب الإسلاميين عموماً، بعضه معرفي، وكثيره أيديولوجي هو الآخر، لكن التركيز على الطبيعة الاحتجاجية لخطاب الإسلاميين، أسهم في تحفيز فقهاء ومفكرين ومثقفين إسلاميين للتعامل مع هذا النقد بجدية، كما ساهمت حالات الانسداد التشريعي والقانوني، وصعوبات الأسلمة في إيران، في إطلاق سلسلة تساؤلات بشأن قدرة العقل الاجتهادي والجهاز المعرفي على مواجهة المشكلات، بدون انفتاح على تجارب الآخرين، والاستفادة من الثورة المعرفية لتجديد المناهج، وإعادة قراءة النصوص، وتحديث العلوم والمعارف.

لم يكن ثمة نقص في عديد الفقهاء الموجودين في إيران، لكن عدم جاهزية العقل الفقهي، وضغط الواقع دفع الإمام الخميني إلى طرح قضية "أثر الزمان والمكان في عملية الاجتهاد"، ليطرح نقاشاً موسعاً وحيوية فكرية، قادت إلى التنقيب والبحث عن أسباب دوران الفقه حول نفسه، وصعوبات ارتياده لقضايا جديدة، فكان الأمر يتجه إلى مساءلة عدّة الفقيه

العلمية، وفي مقدمتها علم أصول الفقه، فما لم يتجدد هذا العلم، وتعاد صياغة أولوياته وموضوعاته، فإن فقهاً جديداً مواكباً لتحديات العصر ومسائله لن يولد، وعلى هامش هذا الحوار والاختلافات الدائرة، تطرق الحديث لمواصفات المجتهد وتكوينه، وما إذا كان المنهج التقليدي قادراً على الوفاء بمتطلبات الزمان،أي قضايا الحداثة بتنوعاتها المختلفة، فالإسلام في معركة الحضارة ـ كما اسماه منير شفيق في عنوان لاحد كتبه ـ كان يواجه عوزاً شديداً في تجديد معارفه، لتحتوي قضايا الإنسان المختلفة، وتوفّر إجابات بمستوى ما تطرحه حضارة الآخر، حتى يكون النظام الإسلامي قادراً بالفعل على تأكيد صدقية إدعاءه، بأنه بديل حضاري ناجح، وهو الهاجس الذي سكن عقول الإسلاميين، وجعلهم يختزلون الإسلام في صورة نظام فقهي، إذا ما طبق حرفياً فإن الأسلمة تكون قد نجحت، وارتاح حينها المسلمون من حالة الإنشطار والتشظى بين ثقافتهم الدينية وأنظمة زمانهم العلمانية.

مع توالي المشكلات ذات الطابع التقني في مسيرة الإسلاميين، ومن أبرزها صعوبات الأسلمة، وظهور صراع يتعالى بين الواقع والمثال، أو بين ما نظر إليه الإسلاميون فكرياً، وأخلاقياً، وسياسياً، وبين تعقيدات الواقع والاضطرار للتنازل، لتحقيق مصالح عبر عنها فقهياً بالعناوين الثانوية. بدأت بوادر النقد الهامس تتحول إلى نقد علني للبنية الفكرية والخطاب الثقافي، واكتشف أن مكامن الخلل البنيوية كانت في نظام التعليم الديني، فهو على متانته ظل سكونياً، يمنح قداسة وهيبة وشخصنة لأفكار ونظريات الماضين، ويسجن الواقع والمستقبل في سجن ماضوي، يحول دون ابتكار أدوات جديدة ورؤية بديلة، لمعالجة معطيات واقع معقد. ومثلما انتقد مرتضى المطهري نظام التعليم الحوزوي، وبدأ بتجديد بعض دروسه محمد باقر الصدر، انطلق النقاش على أشده في جدوى الاستمرار على نمط هذه الدروس، لا لمانع معقول، سوى الخشية من الجديد، وحينما ينطلق النقد فإن مستوى من الجرأة وجرعة من الشجاعة تكون قد دخلت على نظام التفكير الخائف والمكتفى في نفس الوقت.

حلقة قم النقاشية

كانت حصيلة النمو والتطور دخول أفكار جديدة، ورؤى نقدية ذات وزن، من قبيل ما جاء به الشيخ محمد مهدي شمس الدين، لكن ما كان يحول بين الأفكار الجديدة وبين نظام التفكير السائد وقضاياه، هو جدار سميك من الأُحادية الفكرية والامتلاء غير الحقيقي، الأمر الذي تطلب كسر هذا الخوف عبر التعريف "بآراء الآخرين" في قضايا مختلفة، تبدأ بالسياسة والفقه، وتمر بالتاريخ والفلسفة، وتنتهى بالاجتماع والمعرفة بشكل عام.

من وحي النقاشات والحوارات المستمرة كان لعبد الجبار الرفاعي دور كبير في جمع بضعة عقول من الكتاب والمحررين والدارسين ذوي الاهتمام الفكري، والمتابعة الثقافية،

ومن المشتغلين في الكتابة والتأليف، أو على الأقل من ذوي "الحماسة" الثقافية، للانتقال من مرحلة متابعة "الحديث والجديد"، والانطلاق إلى مرحلة "التبشير والتنبيه" كمدخل لنقد التراث، ومنه نقد المفاهيم والأدبيات الإسلامية ذات الطابع الأيديولوجي الصراعي، ونقد المعرفة الدينية بشكل عام، والدعوة إلى التحديث بأدوات داخلية، حتى لا يتهم التحديث بأنه فكر "لقيط" وهجين يلغي الأصالة تدريجياً، وحتى لا يأتي بمعاصرة "تابعة"، خصوصاً وان المناخ الثقافي السائد كان يدور حول محور مواجهة "التغريب"، وسد المنافذ أمام الاختراق الثقافي، الناشئ بدوره من ذهنية سادت لدى الإسلاميين والقوميين طيلة نصف قرن أو أكثر، مرتابة أشد الارتياب من الإستشراق القديم والجديد، وتحاكم الأفكار الفلسفية، والمعارف والنظريات في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة، بمنطلقات "التوجس"، وتُهيمن عليها "نظرية المؤامرة". وبالتالي فان "عقدة كراهية الآخر" وسوء الفهم المتبادل وحضور الأيديولوجي في مقابل تواري المعرفي، أثرت تأثيراً بالغاً على العلاقة الثقافية والمعرفية بالآخر الغربي، رغم الاعتراف بتفوقه، وإبداعه، وحيويته الفكرية والتجديدية.

كانت ولادة نشرية "الرأي الآخر" في مدينة قم هي المؤشر الأول على الشروع في تدشين ثقافة جديدة، فالسكونية تحتاج إلى صدمة أو "رضّة" فكرية، والأخيرة تكون ضرورية لمنح العقل فرصة التساؤل. وقد كتب كاتب هذه السطور "افتتاحية الرأي الآخر"، بتكليف من المُحرّض والمتحمس وصاحب المقترح الأول صديقنا الرفاعي، وزميلنا جواد علي كسار، وتلميذ الحوزة النابه والمتحمس طاهر آل عكلة، وتشجيع من الصديق ماجد الغرباوي. وقد جاء في هذه الافتتاحية ما يفصح عن ما كنا نفكر به، وما هي أولوياتنا واهتماماتنا. لم نكن واهمين أبداً بسهولة الطريق، لكن متغيرات مشجعة كثيرة، ومعطيات تحوّل تدريجي، ضربت المشهد الثقافي الإسلامي في إيران، وأحدثت "زحزحة" باتجاه المسكوت عنه في فكر وثقافة الإسلاميين، وأولها أن الجمود الفكري والوقوف على أعتاب ما كتبه "الكبار"، ونزعة التبجيل والقداسة، وتأجيل النظر في كثير من القضايا، بدعوى حراجة الظرف الزماني وحساسيات المكان، يجب أن توضع تحت الأضواء الكاشفة، فلا تطور فكري بلا نقد، ولا نمو ثقافي بدون استماع وحوار، ولا اجتهاد معرفي بدون متابعة وقراءة وأخذ، وتجاوز لما يبدعه الآخرون.

مع بدء العشرية الأخيرة من سني القرن العشرين أصبح التحول واضحاً، حتى وجدنا زميلاً لنا في الحقل الإعلامي والكتابة السياسية، الأخ سليم الحسني يبادر إلى إصدار مجلة، اختار لها اسم "الفكر الجديد"، رغم اعتراضي على العنوان في حوار موسع معه، واعتراضي بأن الإسلاميين لا يستطيعون المجيء بفكر جديد حالياً، والأولى أن "نتواضع" قليلاً فقد سبقنا الآخرون، لكن الحسني أصر على العنوان، في رغبة تشي بالحاجة إلى الفكر الجديد وإلى

التجديد، مع أن التجديد لا يأتى عن طريق عناوين وألفاظ، وإنما لا بد من فكر يتماهى مع الواقع، يتفاعل معه، ويتواصل مع الفكر الإنسانى، ويستفيد من معطيات المعرفة البشرية ونظريات الآخرين في المجالات كافة، وخصوصاً قضايا الإنسان وعلومه.

بحدوث الزلزال السياسي الثاني، والمتمثل باحتلال صدام حسين الكويت، وما تبعه من متغيرات في المواقف السياسية والفتاوى الدينية، واضطراب في الرؤية والوعى، شبيه ما حصل بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، التى أطلقت فكر نقد الهزيمة "المجهض"، فإن المراجعات النقدية لخلفيات المواقف السياسية، وأثر الثقافة والبنية الفكرية في هذه الهشاشة المفهومية والمعرفية،أصبحت أكثر حدة، ولم تعد النظريات الجاهزة والفكر المعلب، قادرة على تبرير المواقف، فقد كانت الانتقائية والطائفية والانحياز إلى السلطات، والسكوت على سحق الإنسان، واستخدام الدين والفكر الدينى بانحياز تام، كشف هو الآخر أن "التحيز" واللا معرفة، والجمود، والذرائعية، والمثالية المفرطة، كانت تغلف فكر الإسلاميين في عموم المنطقة العربية والإسلامية، وان موجة التطرف والغلو في الفكر والسياسة ستقود إلى كوارث مدمرة، بسبب غياب العقلانية الفكرية، وانحسار المراجعات والنقد.

وبالفعل تكشفت عيوب استخدام الدين بأبشع صورها، واكتشف الكثير من "مثقفى" الإسلاميين بأن لامحيص عن القراءة الواعية للفكر الغربى، فالحداثة التى أنتجها، والتجديد الهائل الذي يكرسه كل يوم في علوم الإنسان، لا يجوز أن تقاس بمقياس المواقف السياسية لهذا الغرب ودوله، وبالتالي هى منجز حضاري ومعرفي لا بد من محاورته على الأقل قبل الأخذ والاغتراف منه.

كان الإيرانيون هم المبادرون بطبيعة الحال، خلاف المواقف السياسية، فمفكروهم ومثقفوهم ظلوا على تواصل مع المنجز المعرفي الغربى، وربما ساعدت مشكلات نظامهم الإسلامى الداخلية وضمور نزعة "أسلمة كل شىء"، في هذا المسعى كانت أفكار عبد الكريم سروش عضو مجلس الثورة الثقافية السابق وأستاذ فلسفة العلم،والشيخ محمد مجتهد شبستري، ثم لاحقاً الحوزوي الأكاديمى مصطفى ملكيان، وفيلسوفهم المقيم في باريس داريوش شايغان، وفيلسوف السياسة جواد طباطبائى، والتراثى سيد حسين نصر المقيم في الولايات المتحدة، ومنظّر مدرسة التفكيك الخراسانية محمد رضا حكيمى. بالإضافة إلى صحافيين وكتاب وأكاديميين ورجال دين، من أمثال: حسين بشيرية، محسن كديور، آرش نراقى، إبراهيم سلطانى، سعيد حجاريان، عباس يزدانى، أحمد قابل، داود فيرحى، عماد الدين باقى، محسن جوادي، مهدي مهريزي، ... هؤلاء جميعاً وغيرهم،أطلقوا موجة هائلة من المراجعات، التي هزت يقينيات كثيرة، وحركت المياه الراكدة،كما كانت "تجديدات"

الشيخ محمد مهدي شمس الدين الهادئة، وفتور الحماسة لشعار "الحكم الإسلامى وتطبيق الشريعة هى الحل لمشكلات الإنسان في منطقتنا"، وأثرها في الاعتراف الضمنى بأن دولة مدنية إنسانية، ونظاماً سياسياً تختاره الأمة، وعقداً اجتماعياً جديداً، يتجاوز الاستقطابات الأيديولوجية، ونزعة التمركز الدينى، أو القومى، أو الاشتراكى، هى الطريق الأسلم لمعالجة مشكلات السياسة والحكم والحقوق والثقافة في منطقتنا.

مشروع ثقافي جديد

على هذه الأرضية اتجهت المساعى الثقافية لصديقنا عبد الجبار الرفاعى في جهوده المتعددة، فمن إصدار مجلة "قضايا إسلامية" بتمويل من الشيخ مهدي العطار "استشهد ٢٠٠٥"، التى توقفت بعد ستة أعداد، إلى تحمل عبء إصدار مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" بمفرده، وهذا التحول أشار هو الآخر إلى إصرار الرفاعى على مواصلة الشوط، كما كشف إلى أي حد يعجز الإسلاميون، بسبب شبكات نفوذ ومصالح، ومجموعات ضغط، في تعطيل فكر تحديثى، من أن يكون محوراً للتعاطى اليومى. لم يحتمل البعض منهج "قضايا إسلامية"، رغم أنه لم يخرج عن الإطار العام لفكر الحوزة العلمية، فكان لابد من موقف جريء، استدعى أن تضاف كلمة "معاصرة" إلى عنوان المجلة الجديد، للدلالة على أن القضايا المطروحة لابد أن تكون ذات حضور، غير تلك التى لم تعد تحظى بالأولوية.

احتشد عديد المفكرين والباحثين الذين نسج الرفاعى معهم علاقات ثقافية وطيدة، لتغدو المجلة نافذة للحوار الثقافي والمعرفي بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه، وبين ما يصدر من عقول ذات انتماءات مذهبية مختلفة، ومن بلدان متعددة، فقد تخطت المجلة: "الحواجز المذهبية والجغرافية والإقليمية، فاشتملت ملفاتها على مساهمات لباحثين ومفكرين من سائر المذاهب والبلدان، بنحو أمست صوت المغرب الثقافي في المشرق، وصوت المشرق الثقافي في المغرب، وصوت إيران الثقافي في البلاد العربية، وبالعكس". كما قال الرفاعى في أحد حواراته المنشورة.فمثلا يساهم فيها ،من مصر:حسن حنفى، عبدالوهاب المسيري، مُنى أبو الفضل، على جمعة، جمال البنا، جمال الدين عطية، محمد عمارة، سيف الدين عبدالفتاح، نصر محمد عارف، محمد كمال إمام. من السودان: حسن الترابى، محمد أبو القاسم حاج حمد.من الجزائر:محمد أركون"الجزائر/فرنسا"، عبدالعزيز ركح،عبدالرزاق بلعقروز، إسماعيل مهنانة، وعبدالغنى باره، ألحاج بن أحمنة دواق.من المغرب: محمد عابد الجابري، طه عبدالرحمن، محمد سبيلا، محمد المصباحى، محمد أمزيان، محمد الشيخ، أحمد الريسونى، مصطفى بوهندي، إدريس هانى،سعيد شبار،مريم آيت أحمد، محمد همام، حسن العمراني،فريد شكري، إبراهيم امهال، عبدالعالي المتقي، عبدالعزيز راجيل، مولاي

محمد الإسماعيلى. من موريتانيا: عبد الله ولد أباه.من تونس: عبدالوهاب بوحديبة، محمد الطالبى، عبدالمجيد الشرفي، احميده النيفر، أبو يعرب المرزوقى، راشد الغنوشى، كمال عمران. من السعودية: عبدالحميد أبو سليمان، عبدالهادي الفضلى، أبو بكر باقادر، تركى الحمد، محمد محفوظ. من البحرين: كامل الهاشمى، نادر كاظم، على الديري. من عراقيى المنفى: الشيخ طه جابر العلوانى، عبد الله إبراهيم، يحيى محمد، محمود البستانى، عادل عبدالمهدي، هشام داود، صائب عبدالحميد، غالب الشابندر، صلاح عبدالرزاق، ماجد الغرباوي، عقيل الطريحى، عبداللطيف الحرز، إبراهيم العبادي، سرمد الطائى، على المدن. من سوريا: جودت سعيد، برهان غليون، لؤي صافي، معتز الخطيب. من لبنان: رضوان السيد، وجيه كوثرانى، على حرب، سعاد الحكيم، سعود المولى، وجيه قانصو، سمير سليمان، على فياض، أسعد قطان، حبيب فياض، السيد محمد حسن الأمين، السيد هانى فحص، مضافاً إلى الراحلين السيد محمد حسين فضل الله، والشيخ محمد مهدي شمس الدين.

فيما كان الحضور الإيراني لافتاً، عبر مجموعة أسماء كانت تقود المشهد الثقافي الجديد والمتحول في إيران. لكن الرفاعي، بالرغم من رؤيته الخاصة وأفكاره التي لا يقلد فيها سواه، عُرفت مواقفه باحتفاظها بمسافة واحدة، سياسياً وعملياً وأخلاقياً، من أصحاب الآراء المختلفة، لذلك ابتكر تقليداً في مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، فمثلاً حين ينشر فيها رأياً خلافياً لفقيه أو مفكر، عادة ما يردفه بالآراء المخالفة له وحججها. حتى أن الرفاعي دشّن مجلته في العددين الأول والثاني "١٩٩٧" بمناقشة فقهية معمقة حول "ولاية الفقيه"، بين الشيخ مهدي حائري يزدي والشيخ عبدالله جوادي آملي. وهكذا تواصل أسلوبه، فعندما ينشر رأيا خلافيا لعبدالكريم سروش أو غيره، في نفس العدد ينشر في باب "أفكار للمناقشة"، أهم المناقشات والمراجعات النقدية لذلك الرأي. فمثلاً خصّص العدد الخامس عشر من المجلة "٢٠٠١"، لمراجعات نقدية لمقولة "القبض والبسط النظري للشريعة"، فأدرج ملخص النظرية كملحق في نهاية العدد، "الذي ضمّه سروش بعد الطبعة الأولى للكتاب، وكتبه زميله آرش نراقي". استوعب العدد أبرز المساهمات النقدية لسروش، لكل من: الشيخ ناصر مكارم شيرازي، والشيخ جعفر سبحاني، والشيخ عبدالله جوادي آملي، والشيخ صادق لاريجاني، ومصطفى ملكيان، وعبد الحسين خسرو بناه، وحسين كاجي.

هكذا واظبت قضايا إسلامية معاصرة على هذا التقليد حتى اليوم، فهي لا تنشر رأياً خلافياً إلا وتشفعه بوجهات النظر الناقدة له، لأن هذه الدورية كما يصرح الرفاعي: "اقتحمت حقلاً يحذر بعض المهتمين بالدراسات الإسلامية من التعاطي معه، فيما ينظر إليه آخرون بارتياب وخشية، وحرصت على المراجعات النقدية والحوارات والنقاشات لمختلف المقولات والمفاهيم والرؤى

المتداولة في المعرفة الدينية، ولم تتحيز لباحث أو مفكر وتدعو لمقولاته، وعادة ما أردفت نشر أية رؤية خلافية بما ينقدها ويدلل على رفضها، ذلك أنها تنشد الاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة، وتحسب أن المصالحة مع التاريخ والجغرافيا يكفلها وعي الماضي والحاضر والمحيط الذي نعيش في فضائه". (افتتاحية الرفاعي للعدد ٤٥/٤٦).

بعد فترة تقويمية وجيزة أمكننا القول أن "قضايا إسلامية معاصرة" ومجموعة سلاسل الكتب التي صدرت إلى جوارها، والتي ناهزت مائتي كتاب، غطت مساحة من القضايا ذات الوزن الثقيل الضاغط على عقول الإسلاميين، فمن اهتمامات قضايا "الأسلمة"، و"مقاصد الشريعة" إلى قضايا "الأنسنة"، ومن "الأيديولوجي" إلى "المعرفي"، حيث "علم الكلام الجديد وفلسفة الدين"، و"السؤال اللاهوتي الجديد"، و"التحيز والتمركز المعرفي"،و"المعرفة الدينية"، و"التعددية الدينية"، و"التسامح ومنابع اللاتسامح"، و"رهانات الدين والحداثة"، و"الهرمنيوطيقا وتأويل النصوص الدينية"...وغير ذلك. اقتربت المجلة من ما يسمى بالمسكوت عنه واللامفكر فيه، بل وحتى الممنوع التفكير فيه، كما تجاوزت الحدود والحواجز المذهبية، واتجهت إلى نقد مسببات العنف الجامح لمن ينسبون أنفسهم إلى الإسلام، سواء كانوا حركيين جدد أو سلفيين اتباعيين.

كان هاجس هذا الفكر هو توليد وعي ثقافي جديد، يقود عملياً إلى تجاوز منطق الصراع والثنائيات، وهيمنة القديم، واحتكار المعرفة الدينية، بل إدخال طالب العلوم الدينية في مشروع المطالبة بتجديد المناهج، وعصرنة القضايا والموضوعات.

كما سعى هذا الفكر إلى إنتاج مثقف ديني، لا يتقاطع مع الآخرين ولا يتقاطعون معه، بسبب نزعة التدين والالتزام، بالتوازي مع مثقف لا ينفي الدين، ولا يلغيه بخطاب متعال إزدرائي. إنها محاولة جادة، ولنقل إنه مشروع ثقافي جديد، يهدف إلى تجاوز مرحلة الاستقطابات الحادة، والعنف الرمزي، والمعارك الأيديولوجية، التي أنتجت أنساناً متطرفاً أو مغالياً في نزعاته ومتبنياته، ظهرت بأبشع صورة في حفل دموي استمر لعقود في بلادنا "العراق"، وما زالت فصوله تتوالى، بسبب هيمنة فكر مسطح وغليظ، لا يقيم للإنسان وزناً ولا قيمة، ويحكم على الآخرين بالكفر والمروق والزندقة، واستحلال الدم، والاستئصال من الوجود. إنها ثقافة الخطاب السلطوي الاستئصالي والعدمي، والتمامية الفكرية العقيمة والجامدة.

كانت الحاجة لفكر وثقافة جديدة تسود فيها لغة التسامح والحوار والاعتراف بالآخر الوجودي والثقافي والمعرفي هى الدافع لتأسيس "مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد"، والبحث في ثنايا المجتمع ومؤسساته العلمية والثقافية، عن نمط من الباحثين والقارئين والدارسين، ساعين إلى تغيير المشهد القديم، من أجل كل ذلك وجدنا عبدالجبار الرفاعي

يبحث عن كل موهبة متميزة، وعقل متسائل وباحث واعد، وأستاذ يرغب بدخول عالم جديد، يتجاوز المنهج المدرسى الكلاسيكى، ويلج في بحر إنسانى من المعارف والأفكار والعلاقات. وبالتأكيد أن مشروعاً بهذا الحجم يحتاج إلى جهود مؤسسات، لكن حسب صديقنا الرفاعى انه كان يسعى عبر الحطام والانهيارات وطبقات الظلام، وبمجهود "فردي/عائلى، بمعية زوجته إنتزال الجبوري وولده محمد حسين" قل نظيره، بل وجدناه يستفيد من شبكة علاقاته المتميزة، حتى في إيجاد فرص عمل ودفع مشاريع إعلامية وثقافية صغيرة إلى الأمام، وحل مشاكل شخصية لأصدقائه ومحبيه من الطبقة التى ينتمى إليها ومن غيرها.

مازال الرفاعى يبتعد عن الأضواء والضوضاء، يعمل بصمت وهدوء، لا يكف عن مواصلة عمله باستمرار، من أجل ترسيخ بنية مشروعه، لا يستجيب لدعوات الصحافة والتلفزيون ووسائل الإعلام إلا نادراً، ومما يؤسف له إنه لم يبذل أي جهد من أجل التعريف به، وربما تلك أحد أسباب جهل الكثيرين بمنجزه.

لدينا اعتقاد بأن أزمات إنساننا وبلداننا منشؤها معرفي ثقافي، وبنية فكرية متكلسة، ورؤى لا تنتمى إلى عالم اليوم، وحتى يحصل انفراج في عوالمنا المغلقة، فإن الحاجة إلى المثقف النقدي والمفكر الإنسانى الناقد المُفكّك للتراث الراسخ الصلد، هى الخطوة الأولى في مشروع التحديث.

بعد التغيير العنيف في العراق عام ٢٠٠٣، لم يكن انهيار الشمولية والدموية كافياً لتصحيح ملامح الصورة، بل إن هجوماً من قلب العالم القديم اكتسح العقول والمشاعر، وأطلق غريزة عنف هوياتى ووجودي، لا مبرر له سوى منطق التفكير اليقينى، الذي حملته أطراف الصراع. وفي حمأة العنف كان الجميع قد ارتد إلى الفضاءات المغلقة، دفاعاً مزعوماً عن الوجود والهوية، ما خلا استثناءات ظلت تراهن على ولادة جديدة، تقدم الهوية المركبة على الهوية البسيطة، وفكر التعدد على فكر الانعزال والانغلاق، ومنطق الحوار على منطق الصراع. ثمة مشاريع ثقافية اجتهد أصحابها عبر المهرجانات والمؤتمرات والكتب والمجلات والصحف، لتدشين ثقافة جديدة لعراق متعدد متنوع صاخب عنيف، لكن مشروع عبد الجبار الرفاعى يبقى هو الأغنى والأكثر عمقاً ومتانة وواقعية، رغم افتقاده الرعاية والدعم والمساندة، وعدم وجود مصادر تمويل.

إن المشروع الثقافي الإسلامى الجديد في العراق سيظل في أعماقه حاملاً لأمانى وجهود ومتبنيات ومنهج الرفاعى، في "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، وإشاعة التفكير النقدي التساؤلى، ليكون الدين والتراث والعلم والمعارف المعاصرة، وفلسفات التنوير، والتفكيك والبناء، والحوزات، والطقوس والشعائر، والاحتفالات، ساعية إلى هدف سام، هو إنقاذ الإنسان من عقد العنف والتعصب والجمود، إلى رحاب التسامح والتعددية والتعايش، وثقافة الحياة الحرة المستنيرة. ❖

عبد الجبار الرفاعي
فيلسوف اللاهوت المستنير

✍ سعد سلوم[١]

في قرية تقع في منطقة وسطى بين قلعة سكر والرفاعي جنوب العراق، ولد "عبد الجبار الرفاعي" في العام ١٩٥٤، ومثل معظم القرى في الريف كانت مبنية من صرائف (أكواخ) من القصب، كما كانت عليه العادة منذ زمن السومريين، وكأنها رابضة بدون انقطاع عن جذور التاريخ ومنفصلة عن الحاضر، وعلى الرغم من أنها لا تبعد عن أي مدينة معروفة مسافة ١٥ كم، إلا أنها كانت على بعد آلاف السنوات عن حياة التحضر في المدينة، لذا فأن سكانها عندما يذهبون إلى المدينة لشراء السكر والشاي، لم يكونوا ينتقلون من مكان إلى آخر، بل بالأحرى ينتقلون من زمن إلى آخر[٢].

عزز نزوعه الروحي تميّز أمه بتجربة روحية فواحة متدفقة جذابة، إلى حد أن استولت هذه التجربة على حياتها، إذ تنهض على عادة نساء الريف فجراً، فتوقظه بترنيمتها: "اللهم صلى على محمد وآل محمد"، وهي الترنيمة التي وضعها على صدر كتابه "معجم ما كتب عن الرسول وآل البيت، في ١٢ مجلداً"، والذي أهداه إلى روحها.

لم يكن سقف الصريفة يقي من حر ولا يحمي من برد أو مطر، فيخترق المطر السقف المبني من حصران القصب المغلفة بالدخان، فقد كانت أمه تطبخ داخل الصريفة، باستخدام وقود يتكون من أقراص مصنوعة من فضلات الأبقار الجافة، المسمى "مطال"، فيبعث دخانا شديدا، يغلف الصريفة من الداخل بالكاربون الفاحم، وما أن يمتزج الدخان مع المطر المتسرب من السقف حتى يتحول إلى ما يشبه النفط الأسود، وكان الغطاء الذي تتدثر به العائلة، والمحاك من الصوف الخشن "اليزار"، يسمح بنفوذ الماء، فيرفع الطفل وجهه وقد تلون بحبات المطر الأسود، يزحف قليلاً من مكانه ليتناول الطعام الذي يعكس مائدة الريف المحدودة، ويتكون عادة من خبز الشعير أو الحنطة، المخبوز في تنور أو "طابك"[٣]، واللبن وقليل من الدهن الحر والزبد، والتمر أحياناً.

---

(١) باحث وأستاذ جامعي عراقي، رئيس تحرير مجلة "مسارات" الفكرية الثقافية التي تصدر في بغداد.

(٢) المعلومات ذات الطابع الشخصي والحميمي في هذا المقال عن حياة الرفاعي وتحولاته مستمدة من حوار طويل معه، لغرض كتابة فصل خاص به في كتابي "بورتريه عراقي".

(٣) "الطابك": قرص دائري مصنوع من الطين المفخور، بقطر بحدود ٧٠سم، وسمك ٤سم. يوضع على موقد، ويرتكز على ثلاث أثافي من الطين.

معطيات الثقافة الأولى

على الرغم من أن الريف يشبه في نقاءه الفطرة الإنسانية، إلا أن شجرة البؤس تزهر فيه، فالماء الذي يستحم به الناس ويغسلون ملابسهم، هو الماء نفسه الذي يشربونه ويغسلون به الموتى. ولأن كل إنسان، كما يقول الانثروبولوجي الفرنسي "ليفي شتراوس" مسجون داخل ثقافته الأولى، فقد ترك المكان وثقافته أثره في شخصية الرفاعي على نحو بالغ الوضوح.

لقد كان زمن القرية قدرياً، فما يحدث هناك مقدر منذ الأزل، لذا يسود التدين بطابعه الشعبي، متسماً ببساطة مفرطة، وبراءة وصدق وإحساس عميق، ولكن على الرغم من أن الناس يفصلون بين الروح والقانون، إذ تسود حياتهم طقوس الصلاة والصوم، إلا أن الشريعة لا تطبق بحذافيرها، فقد كانوا يمارسون تديناً شعبياً، بطاقة طقوسية عفوية عالية. يقول الرفاعي: "الإنسان كائن متدين، وان اختلفت تجليات التدين، وتباينت التعبيرات الدينية في حياته، تبعاً لتنوع البشر واختلافهم. والحياة لا تطاق من دون خبرات وتجارب دينية، ذلك ان نزعة التدين تمثل ظمأً انطولوجياً لا يروى، إلاّ من خلال التواصل مع المطلق[١]". فـ"الإنسان كائن متدين، وان تباينت تعبيراته عن دينه، واختلفت تجليات ومظاهر الدين في حياته... وإن حياة مفرغة من أية مشاعر دينية... ولا تصبو للمتعالي، ولا تتوق للامتناهي، ولا تسعى لقول ما لا يمكن قوله، والتعبير عن ما لا يمكن التعبير عنه.... إن مثل هذه الحياة لا تتسع لها أرضنا[٢]".

كان فتح مدرسة جديدة في العام ١٩٥٩، حملت اسم الشاعر "المتنبي"، حدثاً حول مجرى حياته باتجاه الزمن الحاضر، وكان مع بقية زملائه يذهبون للمدرسة المتكونة من صريفتين، ويجلسون على "البواري" الباردة داخل الصريفة لتلقي الدروس، وفي أيام المطر تغرق المدرسة بالماء والطين، ويصبح الوصول اليها خطراً، إذ يتعين عليه في الشتاء الشديد البرودة عبور جداول المياه السريعة الجريان بسبب الفيضان، ولفقر الناس لم يستطيعوا عمل قناطر لعبورها، لذا يستعين الأطفال عادة بأمهاتهم لعبور الجداول. في ذلك الريف الجنوبي القصي لا توجد رومانسية، فالأشواك لا تتحول إلى ورود حين تلتف حول رقاب الأطفال، حتى أنه بكى مرة، لأنه لم يحز المركز الأول في ترتيب الناجحين، لأن المدرسة كانت تمنح الناجح الأول صندوق من الحلوى "حلقوم"، وكان رجال القرية ينتظرون في مكان اجتماع الرجال لدى الشيخ في "المضيف"، والد الطفل المتفوق ليجلب لهم صندوق الحلوى ويوزعه عليهم.

---

(١) مقابلة خاصة مع الرفاعي.

(٢) الرفاعي، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين/ ط٢ ص ١٥٧.

بين عالمين

كان لأخيه الأكبر، والذي تعلم خارج المدرسة فضل في تنمية فضوله المعرفي، بجلب مستلات من ألف ليلة وليلة، كانت تباع على الأرصفة في المدينة، فكان يقرأها دفعة واحدة، فغرست لديه حب المطالعة، وجعلت منه قارئاً نهماً، يقول: "أصبحت حرفتي في الحياة هي القراءة، أعرّف نفسي بأنني قارئ قبل أي شيء آخر، لأن القراءة تجلب لي متعة لا يضاهيها شيء ".

كان يتعامل مع ما يقرأه وكأنه حقيقة مطلقة، تنطبع الأفكار في عقله وكأنها تُنقش في حجر، ففي قصة الرفاعي لا يصبح الريف هو البطل، ولا المدينة كذلك، بل الكتاب، فقد أصبح ابن الريف مهووسا بالقراءة من يومها، وشتان ما بين الطبيعة في الريف والاهتمام بالكتاب، فالرفاعي لم يكن ابن المدينة صانعة الكتاب، والمهووسة بصراع الطبقات والأيديولوجيات المتنافسة على العقول، بل ابن الريف المتوافق مع الطبيعة بسذاجتها المقدسة، لذا صدمه أول لقاء مع المدينة، فحين ذهب إلى أداء امتحان البكالوريا في السادس الابتدائي، كان كل شي مختلفاً، يقول: "لون أهل الريف يشبه الأرض، بسبب قسوة الحياة، بينما وجوه أهل المدينة نظيفة، وهم ليسوا حفاة مثلنا، ومائدتهم تحتوي الأعاجيب : تمن ومرق وكباب وتكة ولحم، وهي أشياء لم أكن أشبع منها من قبل"، لكن للمدينة وجهها الآخر، فقد كان أبناؤها يزدرون أبناء الريف، وأحياناً كانوا يرشقونهم بالطماطم أو الحجارة، فيتوارون عنهم.

مثل كل ابن ريف سحرته المدينة بأضوائها، وصدمت براءته بتصنعها وتكلفها واستعلائها الماثل في الملبس واللهجة والطعام. لقد كانت المدينة رمزا للسلطة ولعالم آخر معاد وقاس مثل قسوة الطبيعة في الريف، لكنها هذه المرة كانت قسوة البشر المصنوعين من طابوق وإسفلت، لا من طين حري كما في الريف.

لكن مع ذلك كان الريف يتجلى في أوصاف من عدم الرضا والحرمان والفقر الذي ميز طبقات هائلة من السكان، التي ظلت تهاجر من الريف إلى المدينة طوال ما يزيد على نصف القرن الماضي، فأنكمش عدد سكانه، بعد أن كان الفلاحون يشكلون ثلاثة أرباع سكان العراق.

انفصال واصطدام

هناك، في المدينة، انفصل الرفاعي عن ذلك الإنسان الريفي المعلق في زمن خاص، ممتد من جذور قديمة، فعندما سكن القسم الداخلي في ثانوية مدينة الشطرة، اصطدم بكتاب فجّره من الداخل، فحوّل تدينه الشعبي الفطري إلى تدين أصولي، ففي العام ١٩٧١

قرأ كتاب سيد قطب "معالم في الطريق"، ولم يكن ـ على حد وصفه ـ يقرأ كتابا بل يبتلع جمرا، وكان يبكي وهو ينتقل من فصل إلى آخر[١]، انه، وبكلمات الرفاعي: "ديوان شعر تعبوي، يمكن أن يحوّل أي شاب عاش مناخاً دينياً عاطفياً إلى قنبلة، وكان من تأثيره أنني انصرفت بتمامي للحركة الإسلامية (حزب الدعوة الإسلامية)"[٢].

لقد كان الكتاب في المدينة سلاحاً خطراً، يمكن أن يقلب العقل ويحوله أو يمسخه من ملاك الريف إلى شيطان المدينة، بل أن له وقع القنبلة، وقراءته تشبه عبور جدول سريع الجريان في أيام الفيضان. وبعد أن كان يغلب عليه التدين الروحي، أوقعه خطاب "سيد قطب" الشعري في فخ التدين ذي الطابع النضالي، فالتدين الذي كان يشبع لديه الحاجة إلى المعنى، تحول إلى إشباع شيء آخر، فأصبح مساوياً للمقاومة أو مواجهة الظلم والسلطة، وبعبارة أخرى مساوياً لروح الثورة، وكان انخراطه في الحركة الإسلامية إحدى النتائج المباشرة لقراءة هذا الكتاب.

لقد حقنه "الإسلام السياسي الحركي" بفكرة تغيير العالم، وهو إسلام المدينة القصدي، لا إسلام الريف الشعبي الطقوسي العفوي، على الرغم من أنه جعل من الريف والمدينة حقلاً واحداً في الكفاح من أجل إسلام الثورة.

زمن العاصمة وتأثيراتها

تم قبوله في بغداد، وقُبل للدراسة في الجامعة المستنصرية، لكن كان عليه دفع أجور سنوية، ودون أن يتوفر قسم داخلي للمبيت، لذا انتقل إلى "المعهد الزراعي الفني" الذي وفر له السكن ومبلغاً مالياً شهرياً لإكمال الدراسة.

كان للعاصمة سحرها، واختلافها عن المدن الأخرى مثل الشطرة، فهي تنتمي لزمن احدث، وبدا كل شي فيها مشرقاً، كان الطلاب منقسمين أيديولوجيا بين الاتجاه القومي البعثي والاتجاه اليساري، شكل الإسلاميون أقلية لا تتجاوز ٥٪ من الطلاب، كانت الحكومة تتبنى نظام مراقبة أمنياً صارماً للطلاب، وكان من المرعب ملاحظة سيارة الأمن تقف ليلا للمراقبة خارج سكناه في القسم الداخلي. كذلك تم تطبيق سياسة عزل الإسلاميين عن بعضهم، بغية تشتيت جهودهم ومحاولة احتوائهم، لكن لم يكن يبدو على الرفاعي التهيب كثيراً، إذ أعطى مبرراً للأمن لمتابعته، عندما قام بزيارة معتقلي حزب الدعوة في زنزانات الإعدام ١٩٧٤، الذين أعدموا فيما بعد، وتحولوا إلى الشهداء الأوائل للحركة

---

(١) الرفاعي، اختزال الدين في الأيديولوجيا: لاهوت التحرير عند علي شريعتي وحسن حنفي، قضايا إسلامية معاصرة العددان ٤٩ ـ ٥٠ لسنة ٢٠١٢.

(٢) مقابلة خاصة مع الرفاعي.

الإسلامية في العراق والمعروفين بـ " قبضة الهدى". كل ليلة جمعة كان يزور المراقد الشيعية المقدسة في الكاظمية، وكربلاء، والنجف، حين يصل إلى الأخيرة يتردد صباح يوم الجمعة على منزل آية الله "محمد باقر الصدر" في النجف.

مارس الصدر الذي يعرف باسم "الصدر الأول" أو الشهيد الأول (أعدمه صدام في ١٩٨٠) بكاريزميته تأثيره الساحر عليه، فقد جذبه للدراسة في الحوزة العلمية في النجف، وفعلا بعد أداء خدمته العسكرية في العام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، وعلى الرغم من تعيينه معيدا في معهد زراعي في العمارة (كميت)، انساق وراء طموحه لدراسة العلوم الإسلامية، التي تعد حسب الأدبيات الإسلامية (أشرف العلوم)، ناهيك عن تلبيتها رغبته المثالية بالاحتكاك بعالم الفضيلة والطهر، الذي كان إشعاعه ينطلق من مدينة النجف. هناك تكثف اتصاله بالصدر، فضلاً عن تأثره بشخصية محمد محمد صادق الصدر المعروف بـ"الصدر الثاني" أو الشهيد الثاني (اغتاله صدام مع نجليه في ١٩٩٩). كان الصدر الثاني يلقى دروسه في جامع الهندي، ويتصف بشخصية على قدر كبير من الإيحاء، إذ كسر المسافات بينه وبين الطلاب، وتميز بلباس بسيط، وعمامة صغيرة، حائلة اللون بسبب تأثير أشعة الشمس، يصفه الرفاعي بالكلمات التالية: "إن لديه إشعاعاً روحياً عالياً يغمرنا أثناء التدريس، تميز ببساطة وعفوية شفافة، حتى أنه كان يلبس حذاءً بدون جورب، وحين يدخل جامع الهندي يقبّل بابه، لذا كنا نشعر بحالة من التسامي معه، لأنه غير متكلف في التعليم، ولأن تعبيرات وجهه دافئة، وصوته مؤثر، ولغة جسده رقيقة، موحية وجذابة، لقد كان رجلاً ذا زهد واضح"(١).

و فيما كان الرفاعي بمعية آخرين، يعيشون حالة غليان تجاه الواقع، تحقق المستحيل، إذ اندلعت الثورة الإسلامية في إيران، فكأن ملكوت الله حل على الأرض، وتحققت كل الأحلام التي تتحدث عنها مؤلفات سيد قطب، وتعد بها الأدبيات الإسلامية، يقول: "كانت إذاعة (مونت كارلو) تغطي بتقاريرها تفاصيل الثورة فكنت أُسجّلها، وأضعها على الأشرطة في المسجل(٢)". ولأنه كان مسؤول منطقة "الرفاعي" في حزب الدعوة، وبعد تعرض المقربين للاعتقال، هرب وترك مكتبته في النجف، فصادرها رجال الأمن.

لقد كان هذا هو الاغتيال الأول لمجموعة كتبه. ناهيك عن أنه اضطر مع اشتداد قبضة السلطة إلى التخلي عن جزء من ذاكرته من خلال إحراق صوره التي جمعها في دراسته المتوسطة والإعدادية، وحتى صور الزواج، بل الأدهى من ذلك انه قام بتطليق زوجته رسميا عند مأذون شرعي، لكي لا تعتقل بعده. في مارس ١٩٨٠، قبل اندلاع الحرب مع إيران، عاد الرفاعي متخفياً

---

(١) مقابلة خاصة مع الرفاعي.

(٢) المصدر نفسه.

إلى قريته الأولى، تلاحقه أخبار البحث عنه من قبل قوى الأمن، لقد أصبحت المدينة تطارده بجنودها فتنقل من قرية لأخرى، إلى أن قام ابن خالته بتهريبه إلى الكويت.

زمن الهروب الأول

تسلط خوف على من يدخل الكويت بصورة غير شرعية، بأن يُلقى القبض عليه ويُسلم للحكومة العراقية، وكان هذا يعني الإعدام الأكيد، لذا ورغم حرص الرفاعي الشديد على التخفي، لم يكن يستطيع السيطرة على ولعه بالكتاب، فبعد وصوله الكويت بأسبوع أخذ جولة حول المكتبات، ودخل مكتبة "وكالة المطبوعات الكويتية"، المكونة من ثلاثة طوابق، والتي تخصص طابقها التحت أرضي للكتب الحديثة. دخل إلى هذا الطابق وتاه في عوالم الكتب، منفصلا عن الزمن الأرضي الذي يقاس بالساعات، وحين هم بالخروج وجد وكالة المطبوعات قد أقفلت أبوابها. لقد مرت ساعات طويلة دون أن ينتبه أحد لوجوده، عاد إلى مكانه منتظرا افتتاح المكتبة مجدداً، والأفكار المقلقة تتراقص داخل عقله: ماذا يحدث لو اعتقدوا بأنني لص وسلموني للشرطة التي ستسلمني لصدام، هذا معناه الموت الأكيد، لكن المغامرة انتهت على خير. منعت أخلاق الرفاعي أن يتسلل ويخرج من دون إخبار صاحب المكتبة "عبد الله حرمي" من انه مكث في المكتبة ساعات الظهيرة من دون إذنه، فأخبر المرحوم عبد الله حرمي بأنه أقفل عليه باب المكتبة عندما كان يقلّب الكتب في "السرداب"، ولكن صاحب المكتبة اعتذر للرفاعي، فهدأ روعه وشكره على مكوثه ساعات بلا إذن منه، ثم ودعه وخرج بهدوء.

تم ترتيب وضعه في الكويت بوثائق غير عراقية، فتبعته عائلته، وسرعان ما أصبح عضوا في لجنة الكويت لحزب الدعوة الإسلامية، وانفتحت الفرصة أمامه للعمل في الصحافة، فبدأ بتحرير الصفحات الإسلامية في مجلة "صوت الخليج" الأسبوعية، التي كان محمد عبد الجبار الشبوط، سكرتير تحريرها آنذاك. ثم عمل مديرا لدار التوحيد للنشر والتوزيع، وهي مؤسسة ثقافية تبليغية، تنشر مطبوعات إسلامية مبسطة للناشئة، ولم تكن لها هوية أو صفة سياسية، لكنها تمول من قبل تجار من شيعة الكويت، كانت تلك الفترة حاسمة في انفتاحه على القراءة خارج مجال الأدبيات الإسلامية، فبدأ يقرأ الدوريات الصادرة في لبنان، مثل: مجلة المستقبل العربي، ومجلة الفكر العربي، وتابع الصفحات الثقافية في الصحافة الكويتية، كما كرّس عامين لقراءة أدبيات الأيديولوجيا القومية، وكتب ملاحظات لمسودة كتاب عزم على إصداره عن حركة القومية العربية.

في عام ١٩٨٢ حصل له تحول من خلال مطالعته لمقالات حسن حنفي، كما حصل له تحول حينما طالع سيد قطب، إذ كان حنفي ينشر على صفحات جريدة "الوطن" الكويتية،

سلسلة مقالات عن "الأصولية الإسلامية"، بمناسبة محاكمة المتهمين باغتيال الرئيس المصري أنور السادات. يصف الرفاعي تأثير قراءته لحنفي بحالة احتراق، ويقارن بينها وبين حالة الاحتراق التي انتابته لدى قراءته "معالم في الطريق" لقطب قبل ذلك التاريخ بعشر سنوات. يقول: "اضطربت وأجهشت بالبكاء عدة مرات، شوقاً وفرقاً على (جيل قرآني فريد) الذي صاغته مخيلة المرحوم سيد قطب، كنت مع معالم سيد قطب كمن يبتلع جمرا. لكن مع حسن حنفي بدأ يتسرب الخطاب للعقل أيضاً، ولا يقتصر على المشاعر والأحاسيس والعواطف، مثلما تفعل نصوص قطب، التي هي بمثابة أناشيد للفداء والاستشهاد[١]".

ويصف تأثير حنفي فيه كالآتي: "أخرجني.... من حالة اليقين إلى اللايقين، وحرّرني من سجن (معالم في الطريق)،..... فتح لي نافذة على العصر، وشدني بقوة إلى الحاضر، فحرّرني من لوعة الاشتياق للماضي، والمكوث في كهوفه، واستعارة مفاهيم السلف وأحكامهم ومعاييرهم، في كل ما يواجهني في حياتي، ذلك أن نصوص حنفي نسيج ينهل من منابع متنوعة، تحيل إلى الموروث بحقوله الواسعة، والفكر المعاصر بمذاهبه وتياراته واتجاهاته المختلفة. لا تفتقر إلى مراجعة جريئة للماضي والحاضر، مسكونة بالواقع ورهاناته. لا تكف عن مساءلة الماضي، ونقد التراث، والتوغل في مساراته العميقة، وربط الفكر بحياة الناس ومتطلباتهم وشجونهم وهمومهم، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية"[٢].

في أواخر العام ١٩٨٣ حصلت تفجيرات في الكويت، وتم توجيه أصابع الاتهام لحزب الدعوة، فكان هذا سببا للهرب مجدداً، يصف تلك الحادثة بالقول: " كنا ضد ما حصل، وجرت اعترافات ملفقة، وبما أنني كنت معروفاً، فقد كان من السهولة الوصول إلي". وللمرة الثانية تعين على الرفاعي التخلي عن كتبه، لكن مصير كتبه كان هذه المرة الحرق، إذ أشعل مالك المنزل الذي كان الرفاعي استأجره منه النار في مكتبته، بما فيها تفسير القرآن، ومسودة كتابه عن الحركة القومية (الذي أعاد كتابة ملخص له فيما بعد، وترجم إلى الفارسية)، خوفاً من أن يصل إليها رجال الأمن الكويتيون هذه المرة.

بقي الرفاعي في دمشق مدة ثلاثة أشهر، وأصبح عضواً في لجنة حزب الدعوة في دمشق، قبل أن يغادر إلى الحوزة العلمية في "قم" في إيران لإكمال دراسته الدينية. في العام ١٩٨٥ قرر ترك العمل الحركي والتفرغ للدراسة في الحوزة، والتدريس، والعمل الثقافي والفكري.

(١) الرفاعي، اختزال الدين في الأيديولوجيا: لاهوت التحرير مصدر سبق ذكره.

(٢) المصدر نفسه.

زمن التحولات الأخيرة

هناك وللمرة الثانية حصل له زلزال بسبب قراءة كتاب! إذ صدمه محمد عابد الجابري في كتابه "الخطاب العربي المعاصر"، أدهشه أن الجابري يحلل عناصر البنية الداخلية للخطابات التي ظهرت منذ الخمسينيات من القرن الماضي، وبحفرياته الأبستمولوجية يكتشف المشتركات بين خطاب ميشيل عفلق (المفكر العلماني ومؤسس البعث) وسيد قطب (منظر حركة الأخوان المسلمين)، وكان الرفاعي حتى تلك اللحظة يظنهما على طرفي نقيض، فتح الجابري نافذة في تفكيره، جعلته منذ ذلك الوقت يتعامل مع النصوص بطريقة مختلفة.

في الحوزة العلمية في "قم" تشكلت حلقة نقاشية بدون تخطيط، بين زملاء الدراسة، تناقش الكتب المتعارفة في الدراسة والتدريس في الحوزة، وتسجيل ملاحظات على الحركة الإسلامية وشعاراتها، ومنذ النصف الثاني من ١٩٨٤ بدأ مع الحلقة بمراجعة الحركة الإسلامية وأدبياتها، وتطورت المراجعة إلى نقد، يقول الرفاعي: "النقد مصدر التطور الفكري والاجتماعي، والنقد أساس التقدم، وشريان تحديث كل شيء وتجديده، ولا حياة للتفكير الديني في الإسلام إلا بتواصل المراجعة النقدية واستمرارها، للثقافة والتجربة والتاريخ والتراث والاجتماع الإسلامي. ولا سبيل للخلاص والإفلات من نفق الانحطاط والتخلف إلا بتجذير ملكة النقد وتكريسها"[1].

ثم تطور المنحى النقدي إلى نقد النظام التعليمي في الحوزة العلمية منذ ١٩٨٦ حتى ١٩٨٩، ثم انتقل إلى جوانب جديدة من الاستعانة بمعطيات العلوم الإنسانية لعمل حفريات في المعرفة الدينية، وتوجت هذه التجربة بصدور مجلته "قضايا إسلامية معاصرة". ويلخّص الرفاعي هذه التحولات بقوله: "كنا جماعة من طلاب الدراسات العليا والمدرسين في الحوزة العلمية نرتبط بحلقات نقاشية عفوية.... تشكلت في الثمانينيات من القرن الماضي، إثر لقائنا اليومي على هامش حلقات الدراسة والتدريس، نراجع فيها باستمرار أدبيات وتجارب الحركة الإسلامية، وأسباب ونتائج غياب الرؤية النقدية لديها.... وأفضت المراجعة النقدية إلى تخلينا بمرور الزمن عنها، ثم انتقلنا في مرحلة لاحقة إلى مراجعة النظام التعليمي في الحوزة العلمية، وسبل تحديثه، وأخيراً في مطلع التسعينيات انتقلنا إلى مراجعة التراث، وعمل حفريات في المعرفة الدينية، بالاستعانة بفلسفة العلم والعلوم الإنسانية الحديثة والمعاصرة، وهنا اقترحت على ثلاثة من الزملاء أن نصدر مطبوعة باسم (الرأي الآخر) نُكثّرها بإمكاناتنا المحدودة، ناطقة بهمومنا وتطلعاتنا في تحديث التفكير الديني في الإسلام، فصدر العدد الأول موشحاً بـ"ماذا يعني اليسار الإسلامي" لحسن حنفي، ودراسات أخرى[2].

---

(١) مقابلة خاصة مع الرفاعي.

(٢) الرفاعي، اختزال الدين في الأيديولوجيا، مصدر سبق ذكره.

ويتبلور مثل هذا التطور في تفكير الرفاعي نحو نقد الفكر الديني أو المعرفة الدينية، بهدف يلخصه بـ:"ترسيخ العقلية النقدية الحوارية، وتجاوز العقلية السكونية المغلقة". فمنذ العام ١٩٩٠ بدأ بمراجعة الفقه وعلم الكلام، بل ومراجعة منظومة العلوم الإسلامية بشكل عام، واستغرق في دراسة الكتب التي تعالج إشكاليات الإسلام المعاصر، فانطلق في العام ١٩٩١ بفكرة إصدار نشرة تعبر عن هذا المنحى النقدي، فاتفق مع مجموعة الأصدقاء هم: إبراهيم العبادي وماجد الغرباوي وجواد علي كسار، على نشرة (الرأي الأخر) التي تحتوي على أهم المقالات النقدية المنشورة في دوريات جادة.

ثم بدأ يترجم إلى العربية كتباً مثل: "شرح المنظومة الموسع في الفلسفة الإسلامية"، في أربعة مجلدات ١٩٩١. وانهمك يقرأ بالفارسية الصحف الإصلاحية، وكتابات المفكرين الدينيين التحديثيين، متوغلاً في أعماق المشهد الثقافي الإيراني، لاسيما اتجاهات اللاهوت الجديد، فلسفة الدين، والقراءات الجديدة للنص، يقول: إن تحديث التفكير اللاهوتي يتطلب تساؤلات واستفهامات جديدة، ومراجعات نقدية للتراث الكلامي، تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب. والسعي لترسيخ صورة للإله، تستوحي صفات الرحمة والمحبة والسلام[1]".

الرفاعي - الناشر

في العام ١٩٩٤ اختمرت فكرة إصدار مجلة إسلامية باسم (قضايا إسلامية)، صدرت بحدود خمسمائة صفحة، أصدرها بالتعاون مع الشيخ مهدي العطار، وتناولت المجلة بأعدادها الضخمة ملفات مهمة، مثل: مناهج المفسرين، قراءات في فكر محمد باقر الصدر، الاجتهاد والتجديد، أثر المكان والزمان في الاجتهاد، ... الخ. وهي موضوعات لم يكن وضع الشيخ العطار يتحملها لارتباطه بمرجعية حوزوية وحركية، لذا أنسحب الرفاعي في العام ١٩٩٧ من المشروع، واصدر مجلته الشهيرة "قضايا إسلامية معاصرة"، وهنا اضطر هذه المرة للتضحية بكتبه بنفسه، إذ باع مكتبته، التي تحتوي على ستة آلاف كتاب، في سبيل استمرار صدور المجلة، وبعد نجاحها، قام بنقلها إلى بيروت، لتتحول بعد ٢٠٠٣ إلى "مركز دراسات فلسفة الدين" في بغداد.

ومن خلال رصد أعداد هذه المجلة منذ العام ١٩٩٧ وحتى وقتنا الحالي يمكن النظر إلى هذه التجربة بوصفها محاولة للتفاعل بين التفكير الديني ومعطيات العلوم الإنسانية المعاصرة، لغرض الإفادة من الجوانب المعرفية الحديثة في الدراسات الإسلامية،

(١) مقابلة خاصة مع الرفاعي.

بعد أن أصبح مثل هذا التفاعل والإفادة محظوراً في الأوساط الدينية التقليدية، فاقتحمت هذه الدورية حقولاً محظورة ومجالات مهملة في التفكير الديني، متغلبة على الحذر والخوف اللامبرر ونظريات المؤامرة.

إن قاعدة توينبي: "كل حضارة هي نتاج تحد خارجي" يمكن أن تصدق على الفرد، وبذا كانت هذه المشاريع ذات الطابع الفردي تعبيراً عن تحد واجهه الرفاعي وزملاؤه ممن شرّدهم النظام الدكتاتوري البغيض، ولم يجدوا في المنفى ملجأ مطمئناً، متعرضين إلى تمييز آخر، تصدوا له بالإبداع كاستجابة خلّاقة. يشير الرفاعي إلى هذه الاستجابة في معرض جوابه عن سؤال وجه له حول المشاريع الثقافية العراقية في المنفى، إذ يقول: "الإنسان العراقي إنسان يحترق من الداخل، والتشرد والاغتراب كان يمثل تحدياً هائلاً للشخصية العراقية، كان العراقي دائماً بحاجة إلى أن يؤكد ذاته، ويحمي نفسه من الانهيار والانسحاق أمام تحديات المنفى القاسية، واعتقد أن هذه المشاريع... تعبير عن الذات في عالم تعرض فيه العراقي للتهميش والإقصاء والطرد حتى من أقرب المقربين.... العراقي عندما هاجر إلى بعض البلاد التي كان يعتقد أنها ستأويه... تعرض فيها إلى شيء من الحيف والاضطهاد والإهمال.... ومن ثم يغدو إبداعه ترجمة واستجابة للتحديات التي واجهها في تشرده[1]".

شهدت السنوات اللاحقة نشاطاً دؤوباً في مجال النشر، إذ أصدر الرفاعي "سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة"، صدر منها أكثر من مئة كتاب في بيروت، كما أصدر "سلسلة كتاب فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد"، صدر منها ثلاثون كتاباً مرجعياً في بيروت، و"سلسلة كتاب فلسفة وتصوف" التي صدر منها عشرة كتب في بيروت، و"سلسلة كتاب آفاق التجديد" التي صدر منها خمسة كتب في بيروت.

وحال عودته إلى بغداد ٢٠٠٥ وتعيينه مستشاراً في وزارة الثقافة، أصدر "سلسلة كتاب ثقافة التسامح" الدورية في بغداد، التي صدر منها اثنا عشر كتاباً، حتى احتراق وتدمير مكتبة ومكتب مركز دراسات فلسفة الدين، بتفجير شارع المتنبي ببغداد ٢٠٠٧، فلجأ مرة أخرى إلى بيروت ليواصل إصدار مجلته ومنشورات مركز دراسات فلسفة الدين.

تفتيت الثنائيات البغيضة

امتاز الرفاعي بعلاقات وطيدة مع الجيل الجديد من المثقفين الذين انقطع عنهم بسبب حياة المنفى القسري التي عاشها، وحاول أن يمد جسوراً تقضي على الفكرة النمطية عن الصراع بين الأجيال وثنائية عراقيي الداخل والخارج، التي تعمل هي الأخرى مع الثنائيات الأخرى لتفتيت الثقافة العراقية.

---

(١) من حوار مع الرفاعي نشر في صحيفة الأيام الصادرة في البحرين بتاريخ ٢٠٠٣/٩/٢٥.

وأذكر أن الاتصال الأول ـ وربما الوحيد ـ للتهنئة الذي تلقيته بعد إصدار "مجلة مسارات" التي أترأس تحريرها في ٩ نيسان ٢٠٠٥ كان من الرفاعي، الذي لم أكن أعرفه آنذاك، وعندما التقيته بهرني بتواضعه ورغبته في الاستماع إلى ما يفكر به جيلي، ممن عاشوا في العراق تحت حكم صدام، دون أن تشعر بأنه يضع بينك وبينه مسافة أو حكم مسبق. إذ كتب في ما بعد عن لقائه بي واعتزازه بمسارات: "فاجأني بمجلته الرائدة (مسارات) في مضمونها وشكلها، حينها شعرت إن حلمي بعراق مختلف بديل لعراق العنف والموت والتخلف، هو حلم مشروع، مادام فيه شباب يكسرون الصخر بأسنانهم، لينحتوا لنا منه وطناً ينخرط في العصر، ويستوعب معطيات المعارف الراهنة، ومكتسبات البشرية في الحقوق والحريات[(١)]".

ولمست لدى الكثير من الزملاء والأصدقاء احترامهم للتواصل الذي يبديه الرفاعي بهم وبعملهم، فكان هو الذي يبادر للاتصال والتحية ودعوة الأصدقاء بشكل دائم، وتكريسه جزء من وقته للتواصل معهم ومع أعمالهم، فعلى سبيل المثال عندما أصدر الصديق نصير الكعبي أطروحته للدكتوراه "جدلية الدين والدولة في الفكر الشرقي القديم" في كتاب، أهداه للأصدقاء، وكان الرفاعي من القلائل الذين خصصوا وقتاً لقراءة الكتاب بتمعن، وكتب عن عمل الكعبي ما يلي: "إنها من الأعمال القليلة جداً التي تعلمت منها ما كنت أجهله، اطلعت من خلالها على الفضاء الميتافيزيقي والروحي وتنوعه في بلاد مابين النهرين في العصر الساساني، ونمط العلاقة بين الدولة والدين في ذلك العصر، مضافاً إلى منابع بعض النظريات السياسية الراهنة في التفكير الفقهي.. الخ". ويضيف الرفاعي في رسالته إلى الكعبي: "حين أقرأ أثراً يضيف لي معرفة جديدة ويضئ رؤيتي، فإنه يبهجني، وأعيش في أطيافه وظلاله ما عبر عنه رولان بارت (لذة النص). مع كتابك بلغت هذه النشوة، وشعرت كأني بعد فراغي من مطالعته غيري قبل ذلك. إنه نص لامع، صياغاته متسلسلة منطقياً، مشبع بالاجتهادات، وابتكار مسار مميز في التفكيك والنقد والتقويض، ثم البناء والتركيب[(٢)]".

وهو يحاول أن يتشبث بالأمل في مستقبل لبلاده من خلال الإيمان بقدرات الجيل الجديد، إذ يقول: "بعثت أطروحتك فيّ الأمل بميلاد جيل بديل لمؤرخين عراقيين، يجددون الدرس التاريخي الذي دشنه جواد علي وصالح أحمد العلي وعبد العزيز الدوري، وكلي ثقة أن في ديارنا من يوقد الشموع ويراكم المنجزات الأكاديمية، ويمنح بلدنا أفقاً فسيحاً للرقي

---

(١) الرفاعي، لقاء بعد فوات الأوان، ملحق عراقيون "خاص عن الأب بطرس حداد"، جريدة المدى البغدادية.

(٢) من رسالة الكترونية أرسلها الرفاعي إلى الكعبي.

العلمي والتواصل مع أعياد التاريخ والمكاسب الراهنة للعلوم والمعارف البشرية، مادام نموذجاً من أمثالك لما يزل مثابراً جاداً في البحث العلمي في العراق[١]".

وتكرر الأمر عندما نشر الدكتور شاكر شاهين أطروحته للدكتوراه في كتاب حمل عنوان "العقل في المجتمع العراقي"، فقد اتصل بي الرفاعي للسؤال عن المؤلف والسعي للقاء به ومناقشته حول منهجه التأويلي في كتابة التاريخ. وتواصل لاحقاً مع شاهين، فشجعه، وحاوره حول رؤيته والمنهج الذي طبقه في أطروحته.

ومثل هذه الأمثلة دليل على حيوية تفكيره ورغبته بالإحاطة بكل الأفكار التي تدور في المشهد الثقافي بكافة أطيافه واتجاهاته. فمثلاً تجد الرفاعي يحتفظ بعلاقة ممتازة مع ممثلي "نادي الشعر" في بغداد، في الوقت ذاته الذي تجمعه علاقة وطيدة مع أعضاء "بيت الشعر" ومجلتهم الخاصة بالشعر "بيت"، مع أن النادي والبيت يمثلان شكلاً من أشكال الصراع حول هوية المشهد الشعري ما بعد ٢٠٠٣، وما يتضمن ذلك من دلالات أخرى يتداخل فيها السياسي بالثقافي. فعندما صدر العدد الأول من "بيت" احتفل بها مع أسرة تحريرها، إذ أقام وليمة غداء لهيئة التحرير، وبعض زملائهم من المثقفين، وأثنى على المجلة، ودعمها، وشدد على أنها محاولة جادة ومتميزة في انبثاق منجز إبداعي عراقي يعد بتجاوز النصوص السائدة في العراق. وهكذا عمل مع صدور العدد الثاني من هذه الدورية.

الإجماع في حالة استحالة تحققه

يحتفظ الرفاعي بعلاقات محلية وإقليمية ودولية برجال دين ينتمون إلى أديان ومذاهب وثقافات مختلفة، وسعيه لمد يديه لتسع هذه الوجوه من العلاقات أو الهويات المتنوعة، يسير مع شغفه الدائم بالاطلاع على كل ما هو جديد من المعارف والعلوم، فهل الحقيقة تمشي على قدمين أم أن لها أربعين وجها في نظره؟!

على نحو شخصي أستطيع أن أكون شاهداً حيّاً على أن الأوساط والشخصيات المسيحية التي احتفظ بعلاقة معها تحمل له أشد آيات الاحترام والمحبة، إذ يجده الأب "يوسف توما" من الأشخاص القلائل الذي تجمعه به حالة مشاركة ذهنية وسعي للبحث عن المعنى في عالم سريع التحولات[٢]. كما يصفه الأب "أمير ججي"[٣] بالشخصية النادرة في وقت تتزاحم فيه شخصيات دينية على مسرح الأحداث مطلقة أفكاراً وتصورات تلغي الآخر.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأب الدكتور يوسف توما، رئيس تحرير مجلة الفكر المسيحي، ومؤسس أكاديمية بغداد للعلوم الإنسانية.

(٣) الأب الدكتور أمير ججي، النائب الإقليمي عن الدومنيكان في العالم العربي، ومستشار في المجلس البابوي للحوار الإسلامي المسيحي.

ولن أنسى موقفه مع المرحوم الأب الدكتور "بطرس حداد"، الذي رقد بعد جريمة كنيسة سيدة النجاة في مستشفى الراهبات، في حالة حرجة، فما أن هاتفته حتى تدخل لعلاج المؤرخ الراحل ناقلاً رسالة إلى فخري كريم "كبير مستشاري رئيس الجمهورية جلال الطالباني وقتئذ"، وذهب لزيارة الراحل قبل يوم من وفاته، حاملاً باقة أزهار، تحمل بطاقة محبة، كتب عليها: "إلى وريث علامة العراق الأب انستاس ماري الكرملي، الدين هو الحب والحب هو الدين، أتمنى لك الشفاء العاجل، وآمل ألا يقترب منك الحزن، فإن من يستبد به الحزن لا يليق بمائدة الحق".

والجملة الأخيرة التي اقتبسها من جلال الدين الرومي توضح اهتمامه بالعرفان والتصوف وارتيابه في صورة التدين السائد، فالتصوف يحقق له صلة بما يسميه "الكائن الميتافيزيقي في أعماقي"[١].

ويمكن القول إنه حقن الإسلام الثوري ولاهوت التحرير لديه بالشغف الروحي الذي يجعل الدين شاملاً لكل ما في الحياة من إمكانيات تحقق وتحول لمعانقة اللانهائي، فتحرر من سجن الإسلام الحركي الذي اختصر الحياة بتغيير العالم بالقوة، بفعل دراسته التراث الصوفي مثل "فصوص الحكم" لمحيي الدين بن عربي، و"مثنوي معنوي" لجلال الدين الرومي، وأصبح لاهوت التحرير في نظره يختزل الدين في " أيديولوجيا المقاومة والثورة، ويطمس الوظيفة المحورية للدين. الدين أرحب وأشمل وأوسع من الأيديولوجيا. الأيديولوجيا مظهر وتعبير اجتماعي للدين، تحويل الدين إلى أيديولوجيا يعني اختزال الروح في القانون، والعقيدة في الثورة، والله في الإنسان، والإلهي في البشري، والسماء في الأرض، والغيب في الشهادة، والميتافيزيقا في الطبيعة (الفيزيقا)، والآخرة في الدنيا، والروح في الجسد، والرمزي في الحرفي، والرؤيوي في المحسوس، والمعاد في المعاش، والعبادات والطقوس في المداليل الاجتماعية والتنمية والإنتاج، والديني في الدنيوي"[٢].

ومثلما يحتفظ بمثل هذه العلاقات مع الأوساط الدينية الأخرى تجده قد مد جذور علاقة وطيدة مع الأوساط العلمانية في مختلف أرجاء العالم العربي والعراق، إذ ينظر إليه مفيد الجزائري[٣] مثلاً على: "إنه جزء من مثقفي العراق الذين يشكلون رهاناً على عافية

(١) مقابلة خاصة مع الرفاعي.

(٢) الرفاعي، لاهوت التحرير، مصدر سبق ذكره.

(٣) عضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي العراقي، وزير الثقافة الأسبق، ورئيس لجنة الثقافة والإعلام في البرلمان العراقي عن الدورة البرلمانية السابقة.

الثقافة العراقية بعد ٢٠٠٣، وقدرتها على مقاومة المحن لتأسيس ثقافة بديلة للدكتاتورية". أما "هناء أدور"[١] فترى فيه: "عقلية مدنية متنورة، تتمنى أن يُحتذى بها من قبل النخب السياسية التي ناضلت ضد الدكتاتورية قبل ٢٠٠٣، لكنها عادت لتعيد إنتاج أشكال من هذه الدكتاتورية عندما قبضت على السلطة بين يديها".

إن انفتاحه العقلي على الأفكار الأخرى وانفتاحه الإنساني على الآخر تأتي تطبيقاً لإيمانه بقبول الآخر، ومثل هذا الإيمان والسلوك جعله يحظى باحترام وحب الجميع، فهو يحتفظ بعلاقات عميقة مع الوسط الديني التقليدي في الحوزة العلمية، وينال إعجاب الوسط الإصلاحي الديني بوصفه شريكاً أو ملهماً[٢]، وتحتفظ له الأوساط العلمانية والمدنية باحترام منقطع النظير، ومثل هذا الإجماع نادر في بيئة يندر فيها الإجماع على فكرة أو شخص، كما ينظر المثقفون إليه بوصفه صاحب مشروع ثقافي مسؤول.

على مسافة من عالم السلطة

هل يمكن عد الرفاعي سياسياً، أو جزءاً من النخبة السياسية التي حكمت العراق بعد احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة، وهو الذي قضى شطراً من حياته جزء من الإسلام السياسي الحركي، ثم تركه غير نادم؟

قد يرى البعض إن إشغاله منصب مستشار ثقافي لنائب رئيس الجمهورية العراقية عادل عبدالمهدي، يحيله إلى جزء من عالم إدارة عراق ما بعد ٢٠٠٣، لكن من يعرفه عن قرب يدرك أنه وبأخلاقيته السياسية كان يضع دائماً مسافة بينه وبين هذا العالم القائم على تسويات دائمة، قد تضحي بقيم العدالة التي يؤمن بها من أجل ان تستمر "لعبة السلطة".

وحين واجه رغبة جهة من قبل طرف سياسي تجمعه به علاقة تاريخية للترشيح للانتخابات البرلمانية، تردد طويلاً قبل تسجيل اسمه رسميا عن الدائرة الانتخابية في منطقة طفولته، وقام بزيارة ميدانية للمنطقة، بعد أن غاب عنها ثلاثين عاماً، لكنه آثر الانسحاب في النهاية لأنه أحس بخطر منطق السلطة - إذا كان للسلطة من منطق - على المنطق الآخر الذي يؤمن به "منطق الحرية".

وكتب رسالة خاصة يشرح فيها هواجسه وعذاباته بين خوفه من الدخول في دائرة السلطة الجهنمية وإغراءاتها وعالمها القاسي، وعالمه الخاص الذي يسير بانسجام بين الذات

---

(١) هناء ادور، سكرتيرة جمعية الأمل العراقية، والحائزة على جائزة مكبرايد للسلام.

(٢) انظر على سبيل المثال ما كتبه غالب الشابندر عن الرفاعي تحت عنوان (الرفاعي.. رجل ومشروع)

وقناعاتها. ووجه أسئلة تفصح عن إحساسه المتناقض بالمسؤولية الأخلاقية تجاه هؤلاء الناس، الذين يعيشون أحوالاً وأهوالاً حياتية قاسية وشاقة، وشعوره بأنه سيبتزهم ويسرق أصواتهم، إذ ما حاول إغراقهم بآمال ووعود، لن يستطيع تنفيذها. فكتب: "ربما يقال: من الذي يتضامن مع المواطنين لو هربنا جميعاً وغادرنا، لاشك أن في البلد بعض المخلصين من ذوي المواهب والقابليات المميزة، غير أني لا أجد نفسي في هذه المرحلة أصلح إلا لمهمة الإدانة والاحتجاج والنقد، ولا أتمكن من إغراق الناس بوعود كاذبة[١]".

لذا قرر الانسحاب عندما اكتشف نفسه أنه في "المكان الخطأ الذي لا أود أن أمكث فيه، وكان الصوت العاصف في داخلي يمنعني من الرقاد ويقعدني عن مواصلة المسار الذي أقحمت فيه، فقررت أن أستعيد مصداقيتي أمام نفسي أولاً وانسجم مع قناعاتي، ولذلك وجدت راحتي وهدوئي في التخلي عن الاستمرار في هذا المشوار[٢]".

تحديث المؤسسة الدينية

يرى الرفاعي أن الإصلاح الديني مقدمة لكل إصلاح آخر، ولكي ننتقل بمجتمعاتنا إلى بر الأمان والاستقرار والتنمية لابد من تحديث المؤسسة الدينية، فللـ"مؤسسة الدينية مهمات خطيرة، خاصة في المجتمعات التقليدية، ولا يحدث تحوّل في مثل هذه المجتمعات ما لم يحدث تحوّل في المؤسسة الدينية، ولا يمكن تحديث المؤسسة الدينية ما لم يتم تحديث تلك المجتمعات، بمعنى أن هناك تأثيراً متبادلاً بين طرفي المعادلة، لا ينفك أحدهما عن الآخر، إنهما قطبان في معادلة واحدة[٣]".

ولا بد أن مثل هذه الدعوة وهذا المشروع تثير صدمة لمن عرف الرفاعي قبل نفيه القسري من بلاده، وقد رد على استغراب زملائه الإسلاميين داخل العراق، من أن أفكاره لا تطابق ما كان يدعو إليه عندما هرب من العراق في آذار ١٩٨٠. بالقول إن ذلك "علامة تكامل وحيوية، فالمهاجر يهاجر بعقله مثلما يهاجر بجسده، والكائن المتحول هو الكائن الطبيعي، ذلك أن الحركة والصيرورة هي الناموس الأجلي في الحياة، وهي تعبير وجودي عن إصغاء الإنسان لإيقاع التحولات والمتغيرات العظمى في الواقع"[٤].

---

(١) من رسالة اطلع عليها الكاتب في ظروف خاصة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) حوار مع الرفاعي منشور في مجلة الراصد التنويري، عدد (١٠ ـ ١١ لسنة ٢٠١١) ص٢٠.

(٤) عبد الجبار الرفاعي، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط٢ ٢٠٠٨ ص٦.

حاز مشروع تحديث المؤسسة الدينية على جانب كبير من اهتمام الرفاعي، سواء في كتابه "تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية، الصادر في العام ٢٠٠٠، أو في أطروحته للدكتوراه الموسومة " تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية" ٢٠٠٥، والتي ناهزت صفحاتها الألف، وحازت على الجائزة الأولى للشهيدين الصدرين صيف ٢٠٠٩، والتي نظمها مكتب الشهيد الصدر في قم.

وفي كتابه "جدل التراث والعصر" الصادر في بيروت ٢٠٠١، الذي تناول فيه ثغرات التعليم في الحوزة وضرورة إصلاحه، دعا إلى تجاوز هذا النظام التقليدي واعتماد الأسلوب الحديث المتعارف عليه في الجامعات، إلا انه في ما بعد وصل إلى قناعة بعدم جدوى نمط التحديث المتبع، وشعر بأهمية التعليم بنمطه التقليدي، الذي ربما يعد آخر الشواهد الباقية على التعليم بصيغته الكلاسيكية في العالم القديم. وفي ذات الوقت التعاطي مع منجزات العلوم الإنسانية الحديثة، واستيعابها وتطبيق مناهجها وأدواتها ومفاهيمها في دراسة النص والتراث. إذ يقول: "لا بد أن يستمر التعليم بنمطه التقليدي، فالأخير أنتج نماذج محمد حسين النائيني وأبو القاسم الخوئي ومحمد باقر الصدر ومحمد حسين الطباطبائي، نحن بحاجة إلى تعليم بأسلوب كلاسيكي، من داخل التجربة، لكن من خلال استيعاب أدوات ومعطيات ومناهج العلوم الإنسانية الجديدة، ودمجها في إطار الدراسات الدينية. وهذه صيغة للتحديث لا تتطابق مع بعض تجارب التحديث الكاريكاتورية الشكلية في الحوزة، التي تحاكي النموذج الأكاديمي الجامعي، غير أنها تفشل في تمثله واستيعابه، وتضحي برصيدها وميراثها التاريخي، من دون أن تجني مكاسب هامة. وهو يقارن بين الفاتيكان مؤسسة البابا والكاردينالات، وضرورتها بالنسبة للفضاء الثقافي الغربي، بما تمثله وتحافظ عليه من تراث، وبين مؤسسة الحوزة العلمية التي تحافظ على التقاليد الماضوية، فأسلوب الدراسة والحياة داخل الحوزة في نظر الرفاعي تشكل العالم الذي يمتلك مفاتيح التراث وأسراره، وعلى خلفية من هذا التصور يصف الرفاعي نفسه بـ"كائن ميتافيزيقي ماضوي".

ومثل هذا المشروع له أعداء كثيرون، مثلما لكل محاولة إصلاح ديني تحديات وتوقعات، ولا يخرج تصور التحديث وأهدافه لديه عن محاولته "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" وعدم اختصاره أو تضييق آفاقه الروحية، فـ"أعداء التحديث هم أولئك الذين يجرحون الضمير الديني للآخر، فيتهمونه ويهجون مقدساته بعبارات قاسية، بنحو يفضي إلى خشية الناس على معتقداتهم، التي هي ممتلكاتهم الرمزية والروحية الثمينة. كذلك من يختزلون

الدين في بعد واحد، هم أبرز من يقفون ضد التحديث، عبر التشديد على أن الإسلام يساوي المدونة الفقهية فحسب، هؤلاء يقدمون قراءة أحادية للدين، تستبعد نظامه الرمزي والمعنوي والروحي والجمالي والفني والقيمي والأخلاقي، وتشدد على مضمونه الدنيوي، بل تسعى لقلب كل ما هو ديني إلى دنيوي، وما هو دنيوي إلى ديني، فإن الدين ذا البعد الواحد الذي تنادي به الجماعات السلفية، فرغ الدين من محتواه الميتافيزيقي، وأهدر معظم مضامينه الروحية والمعنوية والإنسانية"[١].

وبذلك يتبدى الرفاعي في صورة مثقف ثائر من داخل المؤسسة الدينية، من دون ضجيج إعلامي، أو إطلاق قنابل مفزعة للجماهير، فهو مشغول بتحرير نفسه مثلما يسكنه هاجس تغيير العالم من سلبيات النظرة الأُحادية ذات البعد الواحد التي تجرد الآخر من إنسانيته والدين من روحانيته، لذا يقول: "يهمني المثقف النقدي، الذي ينشغل بتفسير العالم، ويتغلب على سجون الأيديولوجيات، ويتحرر من رؤية العالم بمنظور أحادي، ويجرؤ على الاحتجاج والإدانة والنقد. قد تقول انه بهذا يساهم بتغيير العالم، نعم سينتهي ذلك إلى تغيير العالم، بيد أن مهمته المحورية هي التنوير، مثل هذا المثقف لا أسميه مثقفاً عضوياً، وإنما هو مثقف نقدي، يمارس مهمته الأساسية بالنقد، ويعلن رأيه بوضوح. كلما اتسعت مساحة النقد كلما تحرر العقل من مختلف الوصايات، وإذا حررنا العقل وفتحنا منافذه على الاختلافات والتنوعات، حققنا واحدة من الوعود الكبرى للوعي البشري، واستطعنا حينها من وضع العقل على سكة الإبداع والتطور والاجتهاد، سكة خلق وابتكار رؤى ومفاهيم جديدة. هذا هو المثقف الذي سيكون له دور هام، غير أن حضور هذا النمط من المثقف في مجتمعنا محدود وهامشي"[٢].

ختــام

وضع البعض الرفاعي في مصاف مفكرين مجددين يجري تناسيهم وتجاهلهم وتحييد طروحاتهم في لعبة اختفاء مؤلمة قد يكون فيها جانب قصدي[٣]. وبرغم ذلك كان هناك اعتراف بجهوده وبأهمية مشروعه خارج بلاده على الأقل، إذ منح لجهوده العلمية والثقافية الجائزة الأولى للمؤرخ العلامة السيد حسن الأمين في لبنان ٢٠٠٣، كما حاز على الجائزة

---

(١) المصدر نفسه، ص٢١.

(٢) من حوار أجراه علي السومري مع الرفاعي، في صحيفة الصباح البغدادية، بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ٢٠١٠.

(٣) مصطفى الكاظمي، عراقيون منسيون: عمائم ليبرالية ومصلحون عراقيون، جريدة المدى البغدادية.

الأولى لكتاب الوحدة الإسلامية في طهران ٢٠٠٥، على جهوده في الكتابة والنشر والدعوة للوحدة والعيش سوياً في فضاء التنوع والاختلاف. والجائزة الأولى على أطروحته للدكتوراه في مباراة رسائل الماجستير والدكتوراه في قم. وتكرمه" الحركة الثقافية ـ أنطلياس" هذا العام، على جهوده في تحديث التفكير الديني، ونشر ثقافة الحريات والحقوق واحترام كرامة الكائن البشري. ومن المؤسف انه لم تكرمه أو تتنبه إلى منجزه وجهوده أية مؤسسة أو جهة حكومية أو مدنية في وطنه العراق.

وهو في مؤلفاته " مناهج التجديد، ٢٠٠٠، علم الكلام الجديد وفلسفة الدين٢٠٠٢، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، ٢٠٠٥، التسامح ليس منة أو هبة، ٢٠٠٥، يلخص رسالة تحديث التفكير الديني بإشاعة فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورته الإنسانية، تلك الصورة المغايرة لما تريده الجماعات التي تعمل على تقديم صورة متوحشة زائفة للدين. فالطريق إلى الخلاص يتبدى في نظره في السعي الحثيث للكشف عن النزعة الإنسانية العميقة في الدين، وإضاءة الحقول المنسية في النصوص المقدسة، والتنبيه إلى الجهل أو التجاهل والإصرار على تغييب مساحة واسعة من تلك النصوص تغتني بالجوانب التنزيهية السامية التي تصطفي الإنسان وترفع مكانته"[١].

لا يسعى التدين الذي ينشده الرفاعي إلى اختزال الإنسان في مجموعة مفاهيم وقيم مثالية، تتعالى على بشريته، وتصيره كائناً سماوياً مجرداً منسلخاً عن عالمه الأرضي، مثلما تريد بعض الاتجاهات الصوفية والدعوات الرهبانية، بل يعني هذا التدين إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وإيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع كافة الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع إلهام الطاقة الحيوية الايجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها.

ويلخص كتابه (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين) هذا المسعى الذي أصبح هدف حياته بالقول: "لا سبيل إلى جني معطيات النزعة الإنسانية في الدين، إلا بالخلاص من التفسيرات المتعسفة القمعية للنصوص، وتخطي المفاهيم والمقولات النمطية المغلقة في اللاهوت الكلاسيكي. وإنما يتحقق ذلك بفتح باب الاجتهاد في علم الكلام، وتحديث التفكير اللاهوتي، ومحاولة بناء لاهوت عقلاني مستنير". ❖

---

(١) الرفاعي، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص ١٦٣.

الرفاعي في ذكرى تكريمه
اللاهوت بنكهة العلوم الاجتماعية

✍ د. ضياء نجم الأسدي[(١)]

في يوم الجمعة الأول من شهر آذار عام ٢٠١٣ احتفى عدد من مثقفي وكتاب وإعلاميي العراق بالأستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي؛ المفكر، والباحث، والكاتب الإسلامي الكبير.وقد بادرت مؤسسات عالمية وعربية إلى تكريم الرفاعي ومنجزه الفكري، في الوقت الذي نحن فيه أحق من غيرنا بتولي هذا التكريم، رغم إقرارنا الأكيد بأن الفكر الإنساني لا ينتمي إلى شعب أو ثقافة دون أخرى بل ينتمي إلى الإنسانية بأجمعها.

الرفاعي صاحب طريقة في التفكير وأسلوب في الحياة

في عام ٢٠٠٩ جئت إلى بغداد قادماً من مدينة برمنغهام البريطانية، بعد حصولي على زمالة دراسية في عام ٢٠٠٧ من جامعة برمنغهام لبحث الدكتوراه في "التنمية الدولية، مدرسة الحكومة والمجتمع". وقد اخترت موضوعاً للبحث:"أثر الفكر السياسي والاجتماعي للشهيدين الصدرين في عراق ما بعد صدام حسين". وكان مجيئي إلى العراق لغرض إجراء بحث ميداني، كمتطلب أساسي لأي بحث ينجز في مجال العلوم الاجتماعية. وهذا الموضوع ينتمي إلى حقول معرفية متعددة، أهمها؛ علم الاجتماع الديني والسياسي، والتنمية المحلية والدولية، والتخطيط الاستراتيجي، والنزاع العرق ـ ديني. وكنت مهتماً عند وصولي إلى العراق بلقاء عدد من مراجع الدين وقادة المجتمع السياسيين والاجتماعيين، وبعض الباحثين والمفكرين. وتحديداً من كانت له صلة بمدرسة الشهيدين الصدرين. وبالفعل فقد راسلت عدداً منهم والتقيت آخرين. وأذكر أنني قبل أن آتي إلى بغداد التقيت بعدد من أصدقائي المثقفين في عمان، وكان معظمهم يشير إلى ضرورة اللقاء بالدكتور أبي محمد، "الأستاذ الرفاعي، الشيخ الرفاعي"، وكانت هذه الإشارات تأتي من الإسلاميين والعلمانيين على السواء. وتأتي من المثقفين والباحثين، بالقدر نفسه الذي تأتي فيه من السياسيين. وللغرابة فهي كانت تأتي من جيل الشباب، بالقدر نفسه من التأكيد والأهمية الذي تأتي فيه من جيل الخمسينيات والستينيات في القرن المنصرم.

(١) دكتوراه تنمية دولية، وزير عراقي سابق، رئيس تيار الأحرار الآن.

لم يكن أسم الدكتور الرفاعي ولا منجزه الفكري غائباً عن ذهني، فقد قرأت شطراً منه في مجلته: "قضايا إسلامية معاصرة". وكتابات ومقالات أخرى. وعرفت هذا الاسم منذ التسعينيات في القرن الماضي، عندما كنا في الجامعة نتفاعل مع بواكير حركة السيد الشهيد الثاني محمد محمد صادق الصدر. كنت أعرف أنه من الذين قرروا ودرّسوا وكتبوا في "التأصيل النظري" لدى السيد الشهيد محمد باقر الصدر. ومن الذين اشتغلوا على مراجعة ونقد التراث الفكري الديني. لكني لم يكن لدي أي تصور حينها عن الرفاعي الإنسان؛ لأنني لم ألتقيه قط، ولم أتحدث حينها إلى من التقاه أو عرفه عن كثب.

و أنا أزعم أن من يقرأ الرفاعي دون معرفته لن تكتمل لديه ملامح مشروعه أو منجزه الفكري؛ حتى يرى الرفاعي الرجل مشروعاً يتجسد على أرض الواقع. مشروع فكري يعمل مبدعه يومياً على تطبيقه وممارسته كأسلوب للحياة ورؤية إلى العالم.

راسلت الرفاعي قبل أن ألتقيه في بغداد عبر الإيميل، ولم يستغرقه الوقت طويلاً ليرد على رسالتي بأروع ما يكون من ود وترحيب، وكأنه يعرفني منذ زمن طويل. اعتذر حينها لأنه كان مسافراً خارج العراق بعد تعافيه من وعكة صحية. وحدد لي موعداً رتبناه فيما بعد عبر الإيميل والهاتف، والتقينا في بغداد.

كنت قد قرأت عن الرفاعي وسيرته الذاتية على الانترنت، واطلعت على بعض صوره المنشورة في مواقع عدة. وتعبأت للقائه كما هو خليق بباحث مكرس يريد الوصول إلى حقائق واكتشافات تخدم قضية بحثه. وقد دعاني حينها إلى غداء عمل. قبل لقائه طافت في خاطري صور كثيرة لمراجع ومفكرين وقادة رأي، سبق وأن التقيتهم وتحاورت معهم وقرأت لهم، وكنت أظن أن الشعور الأول الذي سيهيمن علي هو أنني سألتقي أحدهم. لكنني وجدت أول ما وجدت إنساناً تطغى إنسانيته على جميع جوانب شخصيته الأخرى. وعندما تحاورنا أدركت أن جميع الأفكار التي كان الرفاعي يتحدث عنها إنما تخرج مكللة بوهج مشع من سنا الإنسانية واللطف والبساطة والتلقائية، التي لم نعهدها في كثير من المفكرين ومراجع الدين والباحثين.

ببساطة أذهلني الرفاعي، وأدهشتني نزعته الإنسانية، عن التركيز على كثير من الجوانب الفكرية الصارمة الأخرى التي كان حديثه يتناولها؛ بأسلوب هادئ منطقي متسلسل، لا تردد فيه ولا اضطراب. كان الرفاعي طيلة اللقاء حريصاً على تذكيري بأنه ابن الريف، ابن الطبيعة العذراء، ابن الأمهات الطيبات حد الخرافة. وان هذا الانتماء الأصيل لم يغب عنه بتاتاً، وهو يخوض غمار البحث والتدريس والكتابة، في أعقد مواضيع الفكر الديني وأشدها اضطراباً وقلقاً.

بساطة النشأة وإنسانيتها الوادعة ـ كما يعتقد الرفاعي ـ لا تعيق مطلقاً فهم غاية الخلق وسيرورته، مهما بلغ بها التعقيد من مبلغ. فالدين كما يرى الرفاعي نظام بسيط، قيمه فطرية، وتعاليمه سمحاء؛ لن يخطئه من كان ذا فطرة سليمة وروح نقية. والعودة إلى نقاء النفس وسلامة الفطرة هي أولى الخطوات العملية للتشبع بروح الدين وإشعاعها الشفيف. أما مقاربات الدين العلمية والمنطقية المعقدة فالغرض منها تحويل الدين إلى درس فلسفي أو عقلي لجملة من الأغراض، أهمها؛ إظهار الموقف المعرفي المختلف في الفهم والتفسير والتأويل. يقول الرفاعي عن فهمه لتجربة والدته الدينية، ما يأتي: "ظلت التجربة الدينية لأمي منبعا لا ينضب يستقي منه تديني. هي من غرست المنحى الميتافيزيقي في حياتي، وإلى نمط تدينها الفطري العفوي الشفيف، يعود الفضل في رسوخ إيماني وتجذره، ومقاومته لأية مجادلات، أو مناقشات، أو إشكالات، أو قراءات تشكيكية. إيماني مطمئن في فؤادي، في فضاء محصن منيع، بعيد عن شطحات عقلي ومشاكساته، واستفهاماته اللاهوتية؛ القلقة والحائرة. فشل عقلي في أن يطيح بإيماني، أو يقوّضه، أو يزلزله. مازالت أطياف كلمات أمي حاضرة لحظة استيقاظي، بالرغم من مضي أكثر من خمسين عاما"[1].

ما أكتبه هنا ليس بحثاً أو دراسة أو تقديم لأي جانب من جوانب الفكر التأصيلي لدى الدكتور الرفاعي، بل هي شهادة باحث، جمع في شخصيته جوانب متعددة، منها؛ الباحث الأكاديمي، والأدبي، والفني، والسياسي، والحركي، والإداري، والمهني. كنت أرى الرفاعي عبر كل تلك العيون والزوايا. ومن أية زاوية نظرت إليه وبأي عين رأيته فقد كنت اكتشف أن ألقاً من الإنسانية البسيطة كان يجلل جميع جوانبه وأبعاده.

اللاهوت بنكهة العلوم الاجتماعية

لقد اتخذت دراسة اللاهوت والأديان في منظومة الفكر الغربي مناحٍ عدة، كان أهمها؛ التحول الذي حصل في منظور المعرفة الغربية في تقسيم العلوم والمعارف وخضوعها إلى سلطة العلم. فمنذ القرن السادس عشر وحتى اليوم باتت المعارف الغربية خاضعة لهيمنة اشتراطات العلم؛ من ناحيتي التنظير والمنهج. وزحفت الدراسات الإنسانية سريعاً؛ لتقترب من تخوم العلوم الطبيعية ،ولتكوّن لها ميداناً وسيطاً، أصبح فيما بعد ميدان العلوم الاجتماعية. مضافاً له ثورة اللسانيات والتحول في البارادايم العلمي في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حدد فيما بعد العلاقة المتداخلة والمعقدة بين الفلسفة واللاهوت، والعلوم

(١) قضايا إسلامية معاصرة، السنة السابعة عشرة، العدد ٥٣ ـ ٥٤ ٢٠١٣، ص ٦.

الاجتماعية والعلوم الطبيعية. وأسفر عن ذلك ظهور مدارس فكرية ومناهج معرفية، كرست نشاطها لتقديم فهم آخر للعالم، وتفسير آخر لوجود الإنسان، وما يرتبط بذلك الوجود. وقد أفادت دراسات اللاهوت وعلم الأديان المقارن من تلك التطورات المعرفية، في حقول العلوم الاجتماعية خاصة، وركز بعضها على جانب هام، وهو تمحور تلك المعارف حول الإنسان أو إعلاء إنسانية الإنسان، من خلال نشاط تلك المعارف.

إن الفجوة المعرفية التي تفصلنا عن العالم لم تتح لمنظومتنا الفكرية، وما يتعلق منها بفهم الدين خاصة، أن تستفيد من هذا التطور لأسباب كثيرة، بعضها ربما يوصف بالخطير. على أن مبادئ التفكير العلمي اليوم تقوم على أسس مشتركة، نجدها في كافة العلوم، أو في كافة مجالات التفكير التي تخضع لضوابط العلوم. وبما أن الدين أو دراسة الأديان في منظومة الفكر الغربي بات جزءاً من ميدان العلوم الاجتماعية، فإنهم قد أخضعوه لتلك الاشتراطات. مرةً إخضاعاً قسرياً، وتارةً عبر التفاوض والجدل. وهذا المقترب لا يمكن أن يُسلك في مناهج تفكيرنا لهيمنة المقولات الدينية على ما سواها. ولتعالي النص الديني على غيره من النصوص. وهذا مأزق معرفي كبير يحتاج إلى تحليل وتفكيك وحسم، إذا ما أردنا ردم الهوة المعرفية بيننا وبين العالم.

يقدم الدكتور الرفاعي نفسه وتصوراته كمثال تطبيقي على رحلة اكتشاف الدين ومعرفته، وعلاقته بالمطلق، وكيفية الوصول إلى عوالم يستشعر فيها لذة المعرفة، ويتذوق حلاوة الإيمان. فيؤسس لأنموذج يتضمن عناصر ثلاثة متضامنة؛ "الإيمان، الأخلاق، الإنسانية". وهو يزعم أن هذا الثالوث كل مترابط لا ينفصل في شخصيته. وكل واحد من هذه العناصر يدل على الآخر ويقود إليه، إن لم يكن هو ذاته ولكن بتجلياتٍ أُخر. وهذه العناصر الثلاثة، التي هي بطبيعة الحال قيم مجردة، تعمل بوصفها مؤشرات ودوال على تفاعله الشخصي مع العقل والمعرفة وآليات العمل العقلي. فهي "أي هذه العناصر أو القيم" تنمو وتتجلى، وتضئ وتشع كلما أكسبتها النصوص وإجراءات العقل والتفكير خبرات مضافة، أو تجارب محفزة[(١)].

إن هذا الاقتحام الجريء المدجج بأسلحة العلوم الاجتماعية وأدواتها المعرفية لعالم اللاهوت ودراسة الدين، يضعنا أمام أهم مقولات علم الاجتماع المعاصر والأنثروبولوجيا والدراسات الثقافية، وهي عدّ الدين مكوناً من مكونات المجتمعات الإنسانية. بل، أحد

(١) المصدر السابق، ص ٩.

تجليات تلك المجتمعات، وتمظهر من تمظهرات أنماط التفكير والسلوك لديها. ومن المعلوم أن تلك المقولات قد نشأت في مناخ معرفي وثقافة تختلف عن ثقافتنا، وتتعارض على نحو صارخ مع ما يراه علماء الإسلام؛ من أن الدين ليس مكوناً مجتمعياً أو نسقاً سلوكياً ضمن بنية مجتمعية، بل هو إطار مفاهيمي ونظري متكامل، ورؤية شاملة للكون والحياة. وهذا يعيدنا مجدداً إلى جدل العلماني والديني، وجدل المقدس والمدنس. وجدالات أخرى، أفرزت قطيعة طويلة، وصراعاً تاريخياً بين من يحسبون أنفسهم حماة الدين والعقيدة، ومن يحسبون أنفسهم دعاة التنوير والعقلانية.

أن نعود بالدين إلى النزعة الإنسانية ـ كما يشدد عليه الرفاعي ـ يعني؛ أن نحرر الدين من هيمنة نظام تأويلي صارم ومحدد، وأن نمنح الأنظمة الأخرى فرصة التفاوض مع نصوصه ومقولاته، منطلقين في كل ذلك من مشروع تفسيري هدفه الأساس هو: "اكتشاف وظيفة الدين الأصلية في إنتاج معنى لحياة الإنسان"[1].

مع كل ذلك فإن مشروع الرفاعي لا يمثل أجوبة على تساؤلات واستفهامات وإشكالات تتعلق بالدين أو اللاهوت إجمالاً؛ لكنه يصف دعوته بما يأتي: "لا تعد دعوتي لـ(إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين) بأجوبة، وإنما يهمني طرح الأسئلة، وأحرص على تنمية روح التفكير النقدي، الذي يفضي بدوره، وبنحو متواصل للتساؤل المستمر، وتدريب التفكير على عدم الكف عن التحري وفحص المسلمات. ولا يتجاوز ذلك إلا بمقترحات وافتراضات وآراء، يعرضها للنقاش والحوار والتفكير. إنه محاولة للتفكير خارج الأسيجة التقليدية، ودعوة لمغادرة القطعيات واليقينيات والجزميات، وتكرار المكررات وشروح الشروح، التي شوهت التفكير الديني وكبلته"[2].

إن انطلاق الرفاعي صوب مبدأ إنسانية الفكر والمعرفة وجعله مرتكزاً أساساً لأي تأصيل أو تفكير علمي، هو محاولة جريئة، ومناورة تتسم بقدرٍ عالٍ من الذكاء لحسم تلك المعضلة. وهي الباب الذي من خلاله يمكن لدراسة الدين أن تلج إلى ميدان العلوم الاجتماعية، وللعلوم الاجتماعية أن تتناول دراسة الدين. إنها بمثابة منطقة التصالح الوسطى التي ترتضيها تلك المعارف للتلاقي والحوار والاستفادة المتبادلة، دون أن يكون لأي منها مسوغ في إثارة نزعات الهيمنة والإقصاء. إنها بحق محاولة لتذوق دراسة الدين بنكهة العلوم الاجتماعية. ❖

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤.

عبد الجبار الرفاعي:
الإنسان غاية الدين ومحوره

✍ د. علي حاكم صالح(*)

ما السبيل إلى تحرير الدين من الفهم المتوحش الذي تبثه السلفية المعاصرة، والذي يشوّه الدين فيحيله إلى منبع للعدوان والتعصب والكراهية؟ بهذا السؤال يستهلّ الدكتور عبد الجبار الرفاعي موضوعة عنوانها الرئيس: النزعة الإنسانية في الدين. ولأبدأ من طريق آخر وصولاً إليها.

أزعم أن طواف الرفاعي في هذه المنطقة من الفهم للدين بوصفه قبل كل شيء آخر منبعاً للقيمة الإنسانية التي تتعدى في شموليتها دائرة المؤمنين الضيقة، أنه طواف ليس ناجماً فقط عن خبرة قرائية معرفية إن جاز القول، بل هو أيضاً خبرة حياتية شخصية. ولعل هذا التوصيف يصدق على كل خبرة إنسانية، غير أن حيوات الناس ليست متشابهة، فضلاً عن اختلافها في مواقع الحياة التي عاشتها ومرت بها. كان الرفاعي ذا توجهٍ ديني أيديولوجي، كغيره ممن تبنوا الدين أيديولوجية للثورة والتغيير. وكما نعرف فلقد حتمت أوضاع العراق السياسية والاجتماعية على بعض من الشباب العراقي سلوك هذا المسلك، فاتخذ بعضهم الدين واتخذ بعض آخر اللادين، كأيديولوجية. فالناس غالباً تكون خياراتها في مواقع كهذه مما هو سائد من بدائل. ولكن في كلا الحالين، نجد تجارب متشابهة من جهة التخفّف التدريجي من عبء التفكير في الدين، أو اللادين، أيديولوجياً. ومردّ هذا التوجه خبرات حياتية غالباً. وأعني بالخبرات الحياتية هنا التجارب التي يعيشها المرء داخل هذه الجماعة أو تلك، التي انتمى إليها. إن الضمير الحيّ، وليس العقل الناقد فقط، يشخّص تبايناً فاقعاً بين الأخلاقيات الرسمية، المعلن عنها، داخل هذه الجماعة كإطار فكري، وخط أيديولوجي وبين المسلك الفردي، من طرف أفراد الجماعة نفسها، في التعبير عن هذا

(*) علي حاكم صالح أستاذ الفلسفة في جامعة البصرة، كاتب ومترجم، درّس في جامعات عراقية وعربية، من مؤلفاته "الوقوف على حافة العالم: محمود البريكان وسركون بولص" (٢٠١٣)، و"المجتمع اللااجتماعي: دراسة في أدب فؤاد التكرلي" (٢٠١١). ومن ترجماته بالاشتراك مع حسن ناظم: كتب هانز جورج غادامير "التلمذة الفلسفية" السيرة الذاتية لغادامير، (٢٠١٢)، "الحقيقة والمنهج" (٢٠٠٧)، "طرق هيدغر" (٢٠٠٧)، "بداية الفلسفة" (٢٠٠٢).

الأخلاقيات الرسمية، وهذه الأيديولوجية. وفي الحقيقة، إن من يضع نصب عينيه اللاتطابق بين الأخلاق الرسمية ethics والخُلُق morality، أي التعبير السلوكي عن هذه الأخلاق، ويتخذه من ثم معياراً، سوف ينهض في بواطنه السليمة شك وريبة يتآكلانه في أول الأمر، وقد يأخذ منه الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يعلن موقفه الشخصي، الذي توصل إليه عبر معاناة فردية لا تعدم لها صلة وصل بالخبرة الثقافية التي تكوّنت لديه. فيأتي الرفض على نحو إيجابي، أحياناً، وأحياناً أخرى يكون طلاقاً بائناً. زد على هذا شيئاً آخر، البيئة الدينية التي عاش بين جنباتها في أثناء وجوده في إيران، هي الأخرى ساهمت في نهوض السؤال عن العلاقة بين الدين والتديّن أو المتديّن. وأريد أن أضيف إلى ذلك الوضع العراقي المتفجر دينياً خاصة بعد العام ٢٠٠٣، حين صار الدين يافطة عريضة.

في حالة الرفاعي، فإن الرجل، وهذا تفسيري الشخصي، لم يتخفف من أخلاقيات الدين الذي آمن به، بله التنكر لها، إنما هو عمل على إعادة توجيه ذاته داخلياً تجاه مسلكيات أيديولوجية، هي في المحصلة نوع من تشويه وقراءة مبتسرة، لا تهدف للقيمة الإنسانية في الدين بما هي كذلك، بل لتتخذها وسيلة. وعَبر ذلك ترسّخ في دواخله فهمٌ آخر مختلف، يجد له في تراثنا الديني تجارب إنسانية ثرّة تنحو بالدين منحى إنسانياً، وتمنحه في فهمها له بعده الكوني، متخذة من منظومة قيمه وشيجة للتواصل مع قيم إنسانية شبيهة في الجوهر، رغم أنها قد لا تكون ذات منشأ ديني. إن الدين في الأصل دين للقلب الإنساني الواحد.

في مقدمة كتابه "مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد"، يشير الرفاعي إلى ما أشرت إليه في أعلاه. ويكتب عن غاية، أو إحدى غايات، كتابه: "وأودّ أن تكون هذه الصفحات رسالة تعرّفني لدى نخبة من الإخوة الإسلاميين، من الذين مكثوا مرابطين في العراق، والتقيتهم بعد عودتي، وفوجئوا بجوابي عن بعض أسئلتهم، قائلين بأنها لا تتطابق مع ما كنت أدعو له منذ افترقنا سنة ١٩٧٩، فأشرت إلى أن الكثير من الناس الذين يجيئون إليكم، بعد مضي زمان طويل على غيابهم، ربما تفاجئكم رؤاهم وأفكارهم، فينبغي ألاّ تندهشوا، لأن ذلك علامة تكامل وحيوية، فالمهاجر يهاجر بعقله مثلما يهاجر بجسده، والكائن المتحول هو الكائن الطبيعي، ذلك أن الحركة والصيرورة هي الناموس الأجلى في الحياة، وهي تعبير وجودي عن إصغاء الإنسان لإيقاع التحولات والمتغيرات العظمى في الواقع".

ويزيد ملاحظته هذه توضيحاً، وستنفعنا كمفتاح للفهم، بقوله: "وفي هذه الصفحات يرتسم شيء من ملامح نمط التفكير الذي أسعى لإعلانه ومناقشته، قبل أن أطمح للتبشير

به، أو حمل الغير على الاقتناع به. إنه تفكير يتسلح بالنقد والمراجعة، باعتبار الفكر الحديث، الذي حقق المكاسب الهائلة في العالم كلّه، فكر نقدي. كذلك يتسلح هذا التفكير بإثارة السؤال، والبحث عن الاستفهامات الحائرة والقلقة والمثيرة، لأن تطور الفكر البشري يقترن دائماً بالأسئلة الحرجة والاستفهامات الحائرة. وإن السؤال الجديد يوقد عملية التفكير، ويقحم الذهن في مغامرة البحث في الحقول المهملة أو المجهولة أو الممنوع التفكير فيها".

ثمة كلمات مفتاحية هنا: النقد والمراجعة، والتفكير بإثارة السؤال. كما إنه يصف تساؤلاته بالآتي: حرجة، وقلقة، ومثيرة، وحائرة. فضلاً عن أنه يرمي إلى المغامرة في "البحث في الحقول المهملة أو المجهولة أو الممنوع التفكير فيها". إن هذه الكلمات تعبر بوضوح بيّن انتقالة في التفكير، لنقل من الدوغما إلى رحابة السؤال، من الأيديولوجيا إلى الفكر الحر المتسائل، ومن الواحدية في التفكير إلى التعددية. ومع ذلك، فهذا لا يعني انعدام الأساس، أو التوجه، بل يعني أن الأفق لا ينغلق على خيار واحد وحيد، بل هو يستوعب المختلف، ويطيقه. هذه النقلة في التفكير وصفتها بأنها ليست نقلة قرائية فكرية فقط، بل هي نتيجة مخاض تجربة حياتية. وسأضع في الاعتبار هنا نقطتين: التفكير في فلسفة الفقه، والنزعة الإنسانية في الدين.

في ما تعلّق بالأولى، فلسفة الفقه، يدلّنا الرفاعي إلى معناها، وأهميتها، ومقتضيات تثبيتها وإشاعتها. ويمكن لي أن أستخلص أبعادها. يلخّص الرفاعي مفهوم "فلسفة الفقه": "إن النسبة بين الفقه وفلسفته كالنسبة بين القانون وفلسفة القانون، والأخلاق وفلسفة الأخلاق، والتاريخ وفلسفة التاريخ، واللغة وفلسفة اللغة... وهكذا، هي كالنسبة بين كل علم وفلسفته. فالفقه كما هو معروف يتناول الأحكام الشرعية لعمل المكلف، أي أنه علم استنباط الأحكام الشرعية، وتحديد الموقف العملي تجاه الشريعة بنحو مستدل، بالتوكؤ على أدوات وقواعد يجري تنقيحها في أصول الفقه. بينما لا يبحث فلسفة الفقه أسلوب الاستنباط، ولا علاقة له ببيان الموقف العملي تجاه الشريعة، وإنما يتجاوز ذلك إلى ميدان آخر يتناول فيه تشريح ماهية الفقه، واكتشاف طبيعة نسيجه الداخلي ومكوناته، وكيفية نشأته وتطوره، وتفاعله مع المؤثرات الزمانية والمكانية والبيئة الجغرافية، والتأثير المتبادل بينه وبين الأعراف والعادات والتقاليد، والعصر الذي أُنتج في فضائه الثقافي ومحيطه الحضاري، مضافاً إلى دراسة اصطباغ الفقه بقبليات الفقيه ومنظوره الذاتي، ولون ثقافته، وميوله، ومزاجه، وبيئته الخاصة، والمحيط الذي نشأ وترعرع فيه".

ويَزيد على توضيحه توضيحاً آخر: وبعبارة موجزة يترقب دعاة فلسفة الفقه أن يتولى هذا العلم تفكيك نسيج الفقه ليرينا كيفية صياغته، ويكشف لنا عن طبيعة المعارف والأدوات الخفية الثاوية في بنيته الداخلية، بنحو نستطيع معه تشخيص ثغوره وتخومه ومساراته، وكافة منابعه ومرتكزاته وسماته وأهدافه".

والتفحص في معجم هذه السطور، وما تتضمنه من مفاهيم، وتعبيرات، يقودنا حتماً إلى حقيقة أن فلسفة الفقه لابد أن تفضي في نهاية الأمر إلى شيء رئيس: إضفاء النسبية التاريخية على الفقه نفسه. فالبحث عن "ثغوره وتخومه ومساراته"، والكشف "عن عوامل التاريخ والجغرافية والذات"، لا تهب الفقه قدسية متعالية على التاريخ، بل تغمسه في التاريخ كي يكون تاريخياً، أي أنه نصّ نسبي لا قطعية فيه، ولا حديث نهائي. لتصبح أبستمولوجية الفقه إنسانية، حتى وإن كان النصّ المقدس مرجعاً له، بكل ما يمكن أن يدلّ عليه الفضاء الإنساني من محمولات، وفي الصدارة منها النسبية. والرفاعي نفسه يثبت هذه النتيجة ببضعة تساؤلات في مقدمتها: "أليست المعرفة الفقهية معرفة نسبية تاريخية، محكومة بالحقبة الزمنية المنتجة في فضائها؟ فلماذا يتعامل البعض مع هذه المعرفة وكأنها معرفة مطلقة أبدية، من دون أن يدري أن الفقه لن ينفصل عن الحياة البشرية، وما تحفل به من تحولات شتى ووتيرة تغيير متسارعة، ومن دون أن يميز بين الفقه والشريعة، فالشريعة خالدة فيما المعرفة الفقهية لا تنفك عن البيئة والمحيط؟"

يبدو لي أن الباعث على هذه التساؤلات، وتناول مفهوم فلسفة الفقه، هو لتقليص دائرة المقدس، التي شهدت تضخماً حال جميع نواحي الحياة من جهة، وطال كل كتابة في الدين وعن الدين. فلم يعد النصّ الديني المركزي هو وحده المقدس، بل اتسعت الدائرة لتغطي حتى الكتابات التي تتناوله شرحاً وتفسيراً وتأويلاً، وامتد التقديس إلى الأشخاص أنفسهم. وفي الحقيقة أن هذا التوجه النقدي لتقليص دائرة التقديس جهد شرع فيه مثقفون عرب أبرزهم أركون، وطرابيشي، وأبو زيد. هو جهد شرع به أولاً مثقفون علمانيون، وامتد تأثيره إلى داخل الدائرة الدينية نفسها. يكتب الرفاعي: "في الأدبيات المتداولة لدى الإسلاميين يجري خلط بين الإسلام بمعنى نص الكتاب، والإسلام بمعنى التراث المدون للمسلمين عبر التاريخ، والإسلام بمعنى التجربة التاريخية للاجتماع الإسلامي، وما اكتنفها من انتصارات وصراعات وهزائم، وما شاع في حياة المسلمين من تقاليد وممارسات متنوعة".

وفي واقع الحال، إن إشارات كهذه لا تقتصر على النصوص أو الشخصيات التراثية، بل هدفها الأساس، كما افترض، تتناول الحاضر المقدس، أو القدسية التي تضفى "مجاناً"

على أشخاص ونصوص، لا قدسية لهم سوى كونهم يتعاطون الشأن الديني. وهذه من دون ريب إحدى آفات الفكر الإسلامي، والحياة اليومية، في العالم الإسلامي اليوم. لذلك تهدف محاولة تجريد القدسية عمّن سلف، وهي ليست بالأمر الهيّن ولا اليسير، محاولة لتجريد القدسية عمّن خلفهم.

والهدف الذي يرمي إليه الرفاعي هو الكشف عن بواعث ودوافع الكراهية، باسم الدين، التي تسود العالم الإسلامي. لأن جزءاً كبيراً من هذه الكراهية مردّه إلى التقديس اللامسوّغ لفهم خاطئ للنصّ الديني، فجرى نشرها، وإشاعتها، لدوافع ليست خافية على الجميع، بوصفها القول النهائي، ووجدت في الواقع المحبط صدى في نفوس الكثيرين. إن ثقافة الكراهية، وحبّ الموت، وإشاعة التكفير صور متجهمة لدين يُفترض أن يكون أكثر إنسانية، وأكثر تسامحاً. "إن مراجعة عاجلة لنموذج من الأدبيات السلفية سترينا" يكتب الرفاعي، "بوضوح كيف أن هذه الأدبيات بقدر ما تتحدث عن مناهضة الآخر، وانحصار أسلوب التعاطي معه بالقتل والإبادة، فإنها تتكتم على مساحة شاسعة في النص، تتحدث عن الرأفة والرفق والعفو والعدالة والرحمة، حتى يخيّل لمن يستمع إلى منابر هذه الجماعات، أو يقرأ بياناتها، أنها تتحدث عن دين خاص تنحته، وتعيد تشكيله في إطار وعيها، وخلفياتها ومسبقاتها وقبلياتها ومفروضاتها الذهنية، ولا علاقة له بالنص المؤسس".

تفضي بنا هذه الأفكار والمواقف التي يستلهمها، ويبلورها، الدكتور عبد الجبار الرفاعي إلى موضوعة رئيسة في ما يكتب ويجادل من أجله، أعني النزعة الإنسانية في الدين. وفي هذا الصدد نشر كتاباً يحمل عنوان "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" (وهو عنوان إحدى مقالات الكتاب). ولكلمة "إنقاذ" في صدر عنوان الكتاب دلالتها الموحية والمعبرة. ولقد كان الجزء السابق من مقالتي هذه تمهيداً يشرح الدواعي والدوافع التي حرّضت الرفاعي على أن يتصدّى لموضوع يهدف إلى "الإنقاذ". كما لو أن مجرى الأمور قد بلغ حدّاً لابد من التدخل لإسعافه. فلقد وقر في أذهان كثيرين صورة للدين أشاعها التديّن المعاصر، صورة في الغالب تبدو سلبية بقدر ما هي، كما قد يرى الرفاعي، تسيء للدين، وتطمس معالمه الإنسانية، التي هي جوهر الرسالة الدينية. وهذه الصورة لم تكن لتشيع إلاّ بسبب من يتعاطاه كإيديولوجية، ويوظفه لبث الكراهية.

في كتاب "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، يذهب الرفاعي إلى أن هناك "مساحة واسعة" في النصوص الدينية المقدسة، جرى تجاهلها تماماً، "تغتني بالجوانب التنزيهية، تصطفي الإنسان، وترفع مكانته". ونحن نظفر بمعنى تقريبي لمفهوم النزعة الإنسانية في آخر

المقالة: "يعني إنقاذ النزعة الإنسانية إيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده [الإنسان] من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع كافة الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، وتدريب المشاعر والأحاسيس والعواطف على القيم النبيلة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع الهام الطاقة الإيجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها. وهذا يعني استيحاء صفات الرحمة والمحبة والسلام ونحوها من الرحمن".

هذا نوع من برنامج تربوي، وتوجه فلسفي يشرع الدين نفسه أمام توجهات وتصورات تنتمي إلى أديان وفلسفات أخرى، فثمة خيط يصلهم جميعاً، يرتفع على التشويهات التاريخية التي لحقت الأديان كلها، ويركز على رسالتها الإنسانية. بل أن الدين نفسه لن يجد تطبيقاته الأصيلة إلاّ عبر هذه النزوع نحو الإنسان بما هو إنسان، بصرف النظر عن أي تصنيف وانتماء. "إن السبيل للتخلق بأخلاق الرحمن إنما يتم عبر إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين وإضاءة أبعاده الأخلاقية والمعنوية والرمزية والجمالية، وتطهير التدين من كافة أشكال الكراهية والإكراهات".

ومع ذلك، فإن برنامجاً كهذا، ليس قائماً على أسس راسخة ومتينة، فثمة مواطن ريبٌ لا مفرّ من مواجهتها، وأبرزها أن هذه النزعة تستند إلى نصّ ديني ذي لغة رمزية تحتمل النزعة الإنسانية ونقيضها. وتاريخ المسلمين السياسي والفكري شهدهما معاً، وبالتأكيد كانت الغلبة للنزعة اللاإنسانية، في حين توارى الإنساني في تجارب فردية، ولكنها مازالت تغني النصّ، وتبث فيه دلالات إنسانية جديدة. وأظن أن نزعة كهذه لا تتفتح إلاّ في مجتمع يقدم الدين كسياسة للفرد لا للمجتمع.



برزخ المتديّن العقلاني

✍ د. حسن ناظم(*)

دأبتُ على التفتيشِ عن برزخِ الظواهرِ الثقافية والمثقفين. وما فكّرتُ بكاتبٍ أصيلٍ إلاّ ووجدتُه يعيشُ في برزخٍ ما وبطريقة ما، أو لعلّه ينتهي إلى برزخٍ ما. قد يبدو بعضُهم يعيشُ في الطرف، الأقصى أو الأدنى لا فرق، لكن تفكيكَ كتابتِه قطعةً قطعةً، وحياتِه لحظةً لحظةً، ومواقفِه موقفاً موقفاً، قمينٌ دائماً، أقول دائماً، بإيجادِ برزخِه. ولذلك لم تعدْ عندي مفارقاتُ الكاتبِ الأصيلِ مفارقاتٍ، فلابدّ من ملاءمتِها بحياته، ولم تعدْ نزواتُه نزواتٍ، فلابدّ من ملاءمتها بكتابته، وبين كتابة الكاتب وحياته جدلٌ لا ينفصم إلاّ تعمّداً وتكلّفاً.

بهديٍ من هذه القراءة التي تتوخّى البرزخَ، بحثتُ في زمان عبد الجبار الرفاعي ومكانه، إنه الكاتب والمفكر والمترجم، ومؤسس "مركز دراسات فلسفة الدين"، ومجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، وفي البحث عن زمانه ومكانه، لم يعد لديّ من مفارقة أيضاً في القول إن عبد الجبار الرفاعي يجرّبُ السُّكنى بين زمانين، مثلما يجرّب السُّكنى بين مكانين، يتوجّه إلى "برزخ زماني" يقع بين الماضي والحاضر، و"برزخ مكاني" بين العراق وإيران. لم يجعلْه الماضي سلفيّاً متجهّماً، ولم يصيّرْه الحاضرُ علمانياً منفلتاً، ولم يمنحه العراقُ عمامةَ الفقيه ولا إيرانُ جُبّتَه، بل استقرّ فيه من ماضي الدينِ التديّنُ، واكتسبَ من حاضرِ العقلِ ومعارفِهِ الحديثةِ العقلانيةَ، فصار "المتديّن العقلانيّ"، ويا له من برزخٍ مَشوبٍ بالشكّ، شكّ الآخرين، من متديّنين وغير متديّنين، في صلاحيّته؛ لأن "المتديّن العقلاني" يواجهُ هاوية، ويقفُ على حافة سقوط، فلا المتديّنون

(*) حسن ناظم أكاديمي ومترجم، عمل في مجموعة من الجامعات ومراكز البحوث، ويعمل في الإشراف في الكلية الإسلامية للدراسات العليا في المملكة المتحدة المنضوية تحت جامعة مدلسكس، ويدرس مقرّراً دراسياً عن بعد للدراسات العليا منذ العام ٢٠٠٩. يعمل في رئاسة تحرير مجلة الكوفة الأكاديمية بالاشتراك مع الدكتور عباس كاظم. نشر ما يقارب ثمانية عشر كتاباً مؤلّفاً ومترجماً وعشرات المقالات والدراسات في مجلات وصحف عربية وأجنبية. من كتبه المؤلفة "**الشعرية المفقودة**" (٢٠٠٩)، "**النص والحياة**"، (٢٠٠٨)، "**أنسنة الشعر**" (٢٠٠٦)، "**البنى الأسلوبية**" (٢٠٠٢)، "**مفاهيم الشعرية**" (١٩٩٤). ومن ترجماته بالاشتراك مع الأستاذ علي حاكم صالح كتب هانز جورج غادامير "**التلمذة الفلسفية**" السيرة الذاتية لغادامير، (٢٠١٢)، "**الحقيقة والمنهج**" (٢٠٠٧)، "**طرق هيدغر**" (٢٠٠٧)، "**بداية الفلسفة**" (٢٠٠٢)، وقيد الإنجاز كتاب غادامير عن الشاعر بول سيلان "**مَنْ أنا ومَنْ أنت**"..

يكفيهم تديّنه أو يُرضيهم، ولا العقلانيون بمكتفين بعقلانيّته أو راضين عنها. والسبب هو أن في كلا الفريقيْن بعضَ تزمّتٍ، والتديّن العقلاني نفي للتزّمت بعضاً وكلاً.

إن المتديّن العقلاني ينفذُ إلى جوهر الدين نازعاً قشورَه اليابسة، وعبد الجبار الرفاعي يعيش، حين ألخّص إحساسي به وبكتابته وترجمته، في حيرة السؤال المشرقة. فهو قطعاً لا يقبل الدينَ بالتصوّر الآخذ بالشيوع في عصرنا الراهن، عصر التطرّف العقائدي والتعصّب الديني، ولا يأخذ بالتصوّر الشائع عن أداء الطقوس شعبوياً، بل بالتصوّر النابت في التجربة الدينية العميقة وطقوسها المقصورة على صفوة المتديّنين العقلانيين. ونموذج هذا التصوّر مندثر تقريباً ومحتاج للشيوع من جديد، وهكذا أهدانا كتابَه "**إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين**". إنه لا يقبل الدين دون التديّن، أي دون أن تكون له ممارستُه الشخصية للدين، أو زاويته الخاصة، بكلا معنييْ الزاوية، التي يتعبّد فيها وينظر من خلالها إلى العالم، وهكذا حرص على أن يبلور ممارستَه الخاصة التي يجدها القارئ مبثوثةً في مقالاته وحواراته وترجماته.

يكنُّ الرفاعي ولاءً لا شكّ فيه للقيم الدينية، ولكن أيّ قيم دينية يواليها؟ إن كتابته توسّع القيم ولا تصبغها بصبغة خاصة، فهي إنسانية، موجودة في الأديان كلّها، لكن منطلقها الإسلام. لقد بلغ الرفاعي البرزخ الهادئ بين تجهّم جهامة السلفيين واستهجانهم لقيم الحداثة، وجهل بعض العلمانيين واستهجانهم للقيم الدينية. فليس قدراً مقدوراً أن تكون سلفياً ذا جهامة مروّعة، أو علمانياً يأسفُ ليلَ نهارَ لحاجة البشرية إلى الدين.

إن الرفاعي يعمل بوفاء لشيئيْن: تجربته وعقله. ومن هذين تنبني المفاهيم، من حيازة تجربة عن العالم، ومن التركيب الذي يقدّمه العقل لهذه التجربة، تركيب يحاول المفكّر أن يمنحه صياغة ومحتوى جديديْن. لكن الرفاعي لم ينتقل من الطرفين الأقصييْن إلى البرزخ بركوبة مريحة. فالمسألة لا تتعلّق حسبُ بفعل الانتقال، بل بعملية الانتقال، وشتّان بين معنى الفعل ومعنى العملية، الأول عفويّ وبدهيّ، لا يشترط تخطيطاً ولا حساباً، والثانية مدبّرة وذات تخطيط وحساب، إنها تُشبه إجراء عملية في المخ، لا في تلافيفه هذه المرة، بل في آلية عمله واشتغاله، وكيفية تركيب محتوياته من جديد. هكذا أجرى الرفاعي تلك العملية لمخّه حين انتقل من "طرف" العقيدة المتصلّبة، بل الحزبية أيضاً، إلى "طرفٍ"آخرَ تختزلُه سلسلتُه الثقافية "ثقافة التسامح"، ساعياً إلى تجاوز "الإكراه والكراهية" إلى "المحبة والتراحم".

إن هوية الرفاعي غير معزولة أو منطوية على ذاتها، إنها انبساطية، أو غاية في الانفتاح على الآخر، إلى الحدّ الذي يتيهُ في رحابتها معيار الصلة والوصل. لم يبدُ عليه أن لديه مشكلة مع الأفراد الذين مارسوا أو ما زالوا يمارسون الخطأ والخطيئة، بل مع الخطأ والخطيئة نفسيْهما، ولذلك دخل حُجرتَه خطّاؤون. ولم يبدُ عليه أن لديه مشكلة مع اختلاف اتجاهات التيّارات، فقد آمن بأن للتيارات اتجاهاتٍ مختلفةً، ولذلك انطوت حُجرته على الاختلاف. وآمن بأن لا شيء، على وجهِ البسيطة، أقوى من الدين، به ترتبط أجمل الإنجازات في تاريخ البشرية، وبه ترتبط أيضاً أفظعها عملاً، ولذلك اعتكف في حُجرته محاولاً "إنقاذ النزعة الإنسانية" فيه. إن هذه الممارسة هي أيضاً نفي للتزمّت، ولعلّ مردَّ نفي التزمّت هذا عائد في حالة الرفاعي إلى هُيامه بالتصوّف والمتصوّفة، أو لعله التزم بأقطاب التصوّف كابن عربيّ وجلال الدين الرومي فرأى معهما العقائد كلّها عقيدة واحدة.

يمثّل عبد الجبار الرفاعي الخروجَ العسير، لكن الأمثلَ، لأيّ مفكّر من نزعة التقديس والدخول إلى نزع القداسة. غير أن نزع القداسة لم تُلقِ به في مهاوي العماء الذي يزرح تحته علمانيون "نصف" مثقفين، لا يحسنون سوى التشنيع على الدين والمثقّف الديني. فالرفاعي لم يقع في مشكلة "النصف"، بل في برزخ العالمين، عالم الروحانيات وعالم العقلانيات، وجاءهما معاً بعُدّة المستشرف الذي يسعى إلى ملامسة البواطن واستبطان الملموسات، أرسل شعاع عينيه إلى الروح، وحدّق بمجهر العقل إلى المادة. ولكن، هل عبد الجبار الرفاعي مفكّر دينيّ؟ وأيّ نوع من التديّن يحمله معه كتابةً وسلوكاً؟ ربما يمكن اختزال الإجابة إيجازاً بوضع مغزى ترجمته وحيدر نجف كتاب مصطفى ملكيان "**التديّن العقلاني**" (مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ٢٠١٢) نُصب عينيْ القارئ، فالمترجم غير بريء ممّا يترجم، و"الترجمة تأويل" كما يعلّمنا غادامير، وحصّة المترجم ممّا ينقلُه هو الاصطباغ بالفكر الذي يترجمه، وحمله معه علامة على بطانة تفكيره. وكتاب "**التديّن العقلاني**" يعبّر بتمامه عن حالة فكر الرفاعيّ.

لابدّ من القول إن رسمَ صورةٍ لمفكّر كبير مثل عبد الجبار الرفاعي في عُجالة مثل هذه قد تُلحق النقصَ في لوحته المستحقّة، فمن خلال ما تمكّنتُ من قراءته من كتبه ومقالاته وحواراته وترجماته، وهي قراءة جزئية لنتاجه الغزير جداً، بدتْ لي لوحةٌ يقف في صدارتها رجلٌ مشروعه من السّعَةِ والتنوّع، بحيث لا يتّسع لمقالة هدفُها الإكبار والتنبيه على مشروعه الخطير، أقول الخطير لدواعي تكريسه أنشطته لربط الثقافة العربية

بأكثر الوجوه إشراقاً للفكر الإيراني الحديث. وهو أمر غير مألوف البتّة في الثقافة العربية، التي لابدّ من الاعتراف بحسّاسيتها من التثاقف مع الفكر الإيراني، على الرغم من محاولات غير كافية في توسيع أفق ترجمة هذا الفكر وإحضاره في لغتنا العربية، ومن هنا كنتُ وما زلتُ حريصاً على استضافة بصائره عن الفكر الإيراني في "مجلة الكوفة" الأكاديمية، في كلّ عددٍ من أعدادها. إن الرفاعي صلةُ وصلٍ بالوجه المشرق للثقافة الإيرانية الحديثة. وما أحوجنا إلى نظير الرفاعي ليكون صلة وصل لنا مع الفكر التركي الحديث والمفكرين الأتراك المحدثين ومع مشهد الثقافة التركية عموماً.

أودّ أيضاً أن أذهب أبعد من ذلك في توصيف وضعية أنشطة الرفاعي في الثقافة العراقية. فهو ليس فقط حلقةَ وصلٍ بين عالمين منفصلين في العراق، اعتادت الثقافة العراقية على انفصالهما، عالم المثقف الديني والمثقف العلماني، بل هو وحده مثال على إمكانية أن تضمَّ العالمين حلقةٌ واحدة دون حاجتهما لحلقة وصل. ولكن سؤالاً هامّاً يبرز من بين هذه الخلاصة، أو ربما يسمّيها بعضهم هُجنة، وهو كيف تسنّى للرفاعي أن ينطوي على العالميْن؟ أن يكون، في آنٍ واحد، حاضراً في الحوزة العلمية تلميذاً وأستاذاً، وحاضراً في الحلقات الفكرية المتنوعة في إيران، لا سيما تلك التي تتمتّع بصلة بالفكر الفلسفي العالمي والعلوم الإنسانية. إن الجواب السريع والحاسم عن هذا السؤال هو كلمة واحدة: "إيران". فتجربة الرفاعي في إيران طالباً في حوزاتها الدينية وأستاذاً فيها، نفسها أتاحت له أن يتنمذج على وفق نموذج المفكر الإيراني الحديث، الذي له قدم راسخة في الفكر الديني، وقدم راسخة في الفكر الفلسفي والعلوم الإنسانية. فإذا كانت الحوزة الدينية في النجف عاجزة عن إنتاج مثل هذا المفكّر، ذي القدميْن الراسختين في الدين والفلسفة والعلوم الإنسانية، مع التنويه بالاستثناء المدوّي لمحمد باقر الصدر، فإن الحوزة الدينية في قُمْ لا تعجز عن ذلك.

لذلك حين أراد الرفاعي أن يقدّم لنا الحياة الفكرية الحديثة في إيران، في سلسلة مقالاته المستمرة حتى الآن في مجلة الكوفة الأكاديمية، عمد إلى نظرائه ليكتب عنهم، مهما كان موقفُه منهم، ومهما كان اتجاههم: هيدغريين أو ماركسيين أو بوبريين أو غينونيين، وتلك هي اتجاهات الفكر الإيراني الحديث بحسب تصنيفه. وهنا قدّم لنا معرفة لا تهمّها بثّ المعرفة بالفكر الإيراني فقط، بل بحركيّته. بعبارة أوضح، يريد الرفاعي أن يقول لنا إن على الثقافة العراقية أن تعيد التفكير في هيكليتها أصلاً، قبل محتوى هذه الهيكلية. ولعله يقول لنا ضمناً إن ثقافتنا فقيرة أمام ثراء الثقافة الإيرانية،

وإن مثقفيهم لا يبنون جدراناً بينهم وبين المثقفين الآخرين، فالمثقف المتلبّس بـ"شُبهة" ماركس أو هيدغر بطريقة ما، يمكن أن يصعد منبر الحسينية دون أن يكون دَنَساً يهدّد طُهر المنابر، والسبب هو أن الحوزات الدينية لم تكن بمنأى عن التنفّس في الأجواء الفلسفية والعلوم الإنسانية، وأن الندوات الفكرية فيها غير منعزلة، كما هو حال نزعة الانعزال في الأنشطة العلمية لحوزة النجف، التي تقف قبالتها الثقافة التي قادتها الأحزاب السياسية، لاسيما حزب البعث في الحقبة الدكتاتورية، فصار المثقّف العلماني لا يشعر بأي صلة له على الإطلاق بالمثقف الديني، أو بأرباب الحوزة العلمية، وبالمقابل، يمارس المثقف الديني نشاطَه بلا أيّ نوع من أنواع التواصل مع المثقف العلماني، وكلّ طرفٍ يرى نفسَه موجوداً والآخر عَدَماً، ولا يدفع الطرفيْن الفضولُ، مجرد الفضول، إلى معرفة ما يدور هنا أو هناك. لكن وضع الثقافة الإيرانية مختلف كما يبدو، فهناك لقاء وتواصل وحوار وشجار. وهذا التداخل بين الميدانيْن في إيران، الغائب في العراق، طبع الثقافة الإيرانية بطابع خاص، بثراء خاص، أثرى ثقافة الرفاعي وفكره وحتى سلوكه. من هنا، ولهذه الأسباب، حينما حلّ الرفاعي في بلده بعد زوال الدكتاتورية، حلّ طائراً غريباً، لا يُشبهُ، لا شكلاً ولا مضموناً، رجال الدين العراقيين، ولا المثقفين بكلّ أصنافهم، كان فريداً في نشاطه وعلمه، وأخلاقه وسلوكه.

إن نمطَ تفكير عبد الجبار الرفاعي اليوم حاجة مُلحّة للأوضاع العربية الغاطسة في الحروب الأهلية والطائفية والكراهية والقتل والتدمير، الأوضاع الآخذة بانحدار إلى أكثر العصور ظلاماً وتخلّفاً. إنه نوع من الترياق الذي يجدر أن يتجرّعَه كلُّ مَنْ جرّب العيشَ في الطرف الأقصى أو الأدنى، لا فرق.



سيرة عاشق في زمن الكراهية

د. صلاح الجابري[(١)]

طوانا ليل العراق الطويل، ودحرجتنا أقداره العمياء في طريق حالك مليء بالأشواك، لم نشم فيه سوى رائحة الموت التي تخللت المكان، حتى كأنها علقت بالزمان، باللحظات، والساعات، والسنين، فأثقل الذاكرة بحمل يوهن الروح والجسد. وفي غضون السنين الثقال التي مرت كما تمر الجبال، شُغِلْنا في البحث عن سُبُلِ قمع الذاكرة المتفجِّعة، من أن تقذف حممها الملتهبة في ساحة الوعي فتنكأ الجراح. وبعد مرور خمس وعشرين عاماً أدركنا أن ذلك ربما السبب الحقيقي وراء انشغالنا بعالم افتراضي بديل، ويفسر لي، أنا شخصياً، لماذا كنت، في تسعينيات القرن المنصرم، اعتكف، في غرفتي الكوفية الصغيرة، قارئاً ساعات طوال، تلغى فيها فواصل الليل والنهار، فطالما نويت صلاة الصبح بعد ظهر اليوم التالي، ظناً مني بأني ما بلغت الصبح بعد! حقا إن ذلك ليس وراثة من أبي الفلاح الذي قضى شطراً من حياته بين اعتقال البعثيين والأنين على أولاده المدفونين في أهوار الناصرية، وليس مجرد بحث عن الحقيقة فحسب، بل هروب من الواقع، وانشغال يجنب خيالنا استدعاء خطوبه الموجعة، يعلم الله كم كنت أتحاشى اللقاء بأبي، كي لا أقرأ في وجهه تعابير الانكسار، وبأمي لكي لا اسمع حشرجات صدرها التي تفطر الفؤاد، فمن دون الوعي بذلك العمق النفسي والحفر في عوالمه المظلمة لإضاءتها، لا نأمل بإدراك ذواتنا، وعلاج جراحها الغائرة في الوجدان. ثم سلمنا بكل شيء، وخرجنا بخفي حنين من ديار الأحبة، مفارقة منا لسلطة غاشمة رفضت أن تجد فينا مجرد رقم في حساباتها، وإن كانت حياتنا لمدة سنة لا تكلفها، في حسابات الاقتصاد، قيمة بنطال يرتديه أحد أبناء المسؤولين. تلك معاناة تجمعني بالرفاعي[(٢)].

---

(١) أستاذ الفلسفة في كلية الآداب بجامعة بغداد.

(٢) عبد الجبار الرفاعي، ولد في الرفاعي، في محافظة ذي قار، عام ١٩٥٤. تخرج من المعهد الفني الزراعي في بغداد عام ١٩٧٥، وبعد ذلك التحق بالحوزة العلمية في النجف الأشرف، وبعد ازدياد نشاطه السياسي الإسلامي ومضايقة نظام البعث لقيادات وأعضاء حزب الدعوة الإسلامية هاجر إلى الكويت ثم إلى إيران، حيث أكمل هناك دراساته الإسلامية، فحصل على البكالوريوس عام ١٩٨٨، ثم الماجستير في علم الكلام عام ١٩٩٠ عن رسالته الموسومة: منهج الشهيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكر الإسلامي، وناقش الدكتوراه في عام ٢٠٠٥، ولا يعني هذا الفارق الزمني انقطاع الدرس الفلسفي لدى الرجل، بل إن الاستغراق في البحث العلمي يشغل المرء أحياناً عن التفكير في رمزية الشهادة، وإلا فإن الدكتوراه بالنسبة لباحث مشهور في الفلسفة والفقه والأصول مثل الرفاعي لا تعني شيئاً في الحسابات العلمية الحقيقية، فمعظم الفلاسفة ليس لديهم دكتوراه، ومعظم الحاملين للدكتوراه ليس لديهم من العلم شيئاً. فمؤلفات الرجل وإنتاجه العلمي التأليفي والإبداعي والتحقيقي يؤهله لأكثر من شهادة دكتوراه.

واستمرت رحلة النسيان في بلد الغربة المغاربية، رحلة الانشغال في عالمي الافتراضي، وفي خضم رحلة التفتيش عن عوالم قراءة جديدة، وقع في يدي كتاب "تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية" لمؤلفه الدكتور عبد الجبار الرفاعي. أدركت من اسم مؤلفه أنه عراقي، شغلني الكتاب، قرأته بنهم، فكرت في اللقاء بكاتبه، وأشد ما أثار فضولي هو ذلك الإحصاء الذي أدهشني للمسائل الفلسفية الجديدة التي أبدعتها الفلسفية الإسلامية والبالغة ٥٠٠ مسألة فلسفية. فخاطب وعيي عقلي بأنه إذا صح خمس من هذه المسائل لبطلت حجة معظم مفكري الغرب التي تجرد الفلسفة الإسلامية من عنصر الأصالة، وتعدها مجرد صدى للفلسفة اليونانية! لكنني فوجئت حقاً حين علمت، بعد بحث متواضع، بأن معظم هذه الإبداعات النوعية كانت من إضافات مدرسة الحكمة المتعالية المحضور قراءتها في العراق وقتذاك، ضمن الممنوعات الطويلة التي ساهمت في نضوب الثروة الفكرية للعراق.

على كل حال، تمضي مشيئة الله في خلقه وينقشع الدجى وتقمر سماء العراقيين فيعودوا من مهاجرهم الجبرية، فالتقي بالرجل، الذي قرأته فكراً في كتاب، جسداً مهاب، في مكان له رمزيته الثقافية والمعنوية (شارع المتنبي)! ولا أدري إن كان محض صدفة أن أعرف الرجل نظرياً بين سطور فلسفية، وألتقي به فيزيقيا في مكان له دلالته الرمزية، الثقافية والفكرية، أم أن تزامن المعنوي والفيزيقي في اللقاءين له مغزى من نمط المغزى اليونغي (نسبة إلى عالم النفس الفرنسي كارل يونغ) الذي ينسبه للمصادفات التي أطلق عليها اسم التزامن.

هذا هو عبد الجبار الرفاعي، ولا أخفيكم إن شوقي للرجل كان مشبوبا بعاطفة أيديولوجية، لكنها بريئة مفعمة بالشاعرية متصلة بأحلام الخيال، موروثة من زمن النزعة النضالية الزاخرة بالألم والدموع، التي حاولت، من دون جدوى، على مدى عقدين من الزمان، تغيير الوضع السياسي في العراق. بعد التحية، جلسنا في مقهى المثقفين في شارع المتنبي. بدا الرجل خفيف الظل، مليء بالحيوية، هادئ الطبع، ينتقي كلماته بعناية حتى يخيل لمن لا يعرفه بأنه حذر من مزالق الكلمات العشوائية، لكنها في الحقيقة سجية، للبيئة الاجتماعية نصيب منها، وربما نصيب آخر وراثي، بعث هدوؤه إحساساً في داخلي، أثار استفهاما عن إمكانية أن يكون هذا الرجل يوماً ما في مزاج عصبي؟! ذكّرني هدوؤه بهدوء المسئولين في السفارة الإيرانية في ليبيا، حينما كنت أسرق نفسي من زملائي، وأتسلل عبر الأنظار المتقاطعة حولي، لأقطع الطريق نحو العاصمة طرابلس قاصداً سفارة إيران. حالما بكتاب أو مقال يروي تعطشي إلى كشف سر ذلك العالم الغامض، عالم إيران الفكري والسياسي، ملتمساً المصادر عن الحركة الفلسفية في إيران، فكان يدهشني ذلك الاحترام المهيب المحفوف بهدوء وشفافية، شبيهة بشفافية الشاي الذي يقدمون مع فصوص القند العذبة. وفي بعض الأحيان وجبة الطعام المعطرة بالزعفران التي كنت أظنها من غير لحم، قبل أن اكتشف بأن الحياء

كان يدعوني، في كل مرة، للتوقف قبل أن يصل الحفر إلى اللحم الذي كان غاطساً تحت حبات الرز المتراكمة فوقه. لم انس يوما أني سألت الرفاعي إن كان هذا الطبع الهادئ في الشخصية الإيرانية مصطنعاً أم طبعياً؟ فأجابني، بخبرته النابهة، بأن ذلك من طباع الشخصية الإيرانية بالفعل. كان هذا اللقاء منطلق رحلة الصداقة مع الدكتور الرفاعي، الذي كانت له يد المتفضل في الاطلاع على الحركة الثقافية في إيران، ودعوته لي لزيارة إيران، وتعريفي بأجوائها العلمية والثقافية.

شعرت، بعد تعميق المعرفة بالرجل، ربما تشابها في البين بيننا، لا أدري إن كان في نمط التديُّن المعتدل، المنفتح على آفاق الفلسفة والعلم، أم في العصامية والقدرة الذاتية على صناعة الذات، رغم المحن والعوائق الاجتماعية والمادية.

نشأ الرجل من طبقة فقيرة في الرفاعي، لم يتكأ على إرث الآباء، الذين لم يتركوا له من حطام الدنيا سوى عداوة النظام الحاكم، فخرج من بيت أبيه خائفاً كما ولدته أمه، بل أدنى من ذلك، لأنها ولدته حراً، وأخرج مرغماً. ورغم ذلك شق الرفاعي طريقه كدحاً قاسياً، في وسط يُخيّل إليَّ كيف كان يرمقه بعيون الغبطة تارة، والحسد أحياناً أخرى. ولكن ما يميز الرجل شخصيته التي تحسبها من أصول الأسر المنعَّمة، فوسامته، وحلاوة لسانه تأسر المرء حتى ينزلق في حسابات محرجة، حذراً من التعدي على سلطة الرجل الارستقراطي. ولطالما ذكرتني شخصية الرفاعي بما مررت به أنا شخصياً من مواقف، بسبب المفارقة بين شكلي الذي ينسبه بعض الأصدقاء، مازحين، إلى أحد ضباط ألمانيا النازية، وبين واقعي الاجتماعي الفقير الذي يخفى على الكثيرين، حتى سألني أحد أصدقائي حين كنا طلبة في كلية الآداب في جامعة بغداد في سنة ١٩٨٥ إن كنت أعرف التنور الذي يخبز فيه الخبز! إذ خدعته ملامحي فأعجزته عن تخمين واقعي الاجتماعي البسيط، والمادي البائس، وقبل أن أسأله، مازحاً، عن أوصاف هذا الذي يسميه تنور الخبز! أغرقت عينيه بابتسامة عريضة جادت بها حيرتنا، أنا وأمي قبل أسبوع، في تدبير مصرف الدراسة لهذا الشهر، لأن العجل الذي ربته لحولين كاملين لكي تبيعه اليوم مصرفاً لنا مات فجأة!

الرفاعي رجل كأنه أنتدب لمهمة إحياء الموتى. حقا إن الوعي الذي لا تشغله هموم الفكر، ولا يصطنع الأسئلة، هو بحكم الميت وإن تشبّه بالأحياء. أطلق الرجل صرخة إيقاظ الوعي من سباته الطويل، لينفض عنه غبار الزمن المتراكم عبر السنين، الذي أحال الحياة إلى لون رمادي، وكبت تحت أستاره ملكة إدراك التنوع، فلم يعد يتقبلها أصلاً، لأن الذي ليس لديه فكرة عن شيء ما لا يتذوقه ولا يختزن قيمة له، ففاقد الشيء لا يعطيه. فكرس الرجل جهوده العلمية لهذا الغرض، تقوده روح الغيرة على دينه ومجتمعه، دون إدعاء بتكليف أرضي أو سماوي، بل من ضمير داخلي وحس مرهف، دربته الخبرة الطويلة على أن الادعاءات والضجيج المصاحب لأعمال، ربما

كانت تافهة، لم تعد سوى هذيانات عمرها ما لامست واقعاً، ولا ملأت فراغاً. إنما العمل في صمت بلا مِنَّة أو تفضّل، ولا ادعاء أو ضجيج، أعني الكدح المدفوع بنزاهة القصد وصدق السريرة هو الذي يؤتي أكله كل حين، من دون شعور مباشر من صاحبه.

العاشق

يشغلني العشق الإنساني الذي يستبطنه صديقي الرفاعي، عشق يغمر الأرض فيزيدها خصبا، وينفذ في الوجدان فيملأه أملا. في كل حضور وغياب أرى أنه يتحسس بواطن الصديق، فيرسم له أشواقاً يتجشم تحقيقها بلا منَّة، وكثيراً ما يثير هذا عجبي، وإعجابي. والحقيقة ما كان لهذا العشق أن يفيض على فضاء الحياة المعيشة فيغمرها حباً، لولا أنه انعكاس عن مرآة عشقه الإلهي. حينئذ علمت لماذا كان أكثر المؤمنين يكرهون الله، وأكثر المصلين يبغضون الله! لن أقحم نفسي بتفسير ما أشرت، وتكفي آلاف المفخخات والعبوات، والأحزمة العابثة بإنسانية الإنسان، مصداقاً على كراهية أولئك لله والحقد عليه لا لشيء إلا لأنه أبدع إنساناً يختلف عنهم، أعني إنساناً عاشقاً.

كما إن الجود الذي يفيضه ضمير حمل أشواق الإنسانية إلى الحرية، وتحقيق الذات من أجل الآخر، وقلب مفعم بعاطفة ندية، ونفس صقلتها الدربة على فعل الخيرات، فعكست عشق العاشقين، عشق الحلاج، وابن عربي، والسهروردي، وعشق حافظ الشيرازي، ومولانا جلال الدين الرومي، وملا صدرا، دليل على أن صاحبنا عاشق ودليل للعاشقين أيضاً. يقوده عشقه دوماً نحو منابع العشق، يرتحل لتجديد طاقة عشقه، فيجد في ضريح مولانا جلال الدين الرومي مدد يشحن الوجدان بقابليات صناعة جيل العاشقين في ربوع بلادنا، التي عبثت فيها قلوب سوداء. ويجدد العهد بقم ليرتشف من منابع العرفان وعبق عطر العاشقين، قبل أن يصحر، مرة أخرى، في رمضاء العراق، ليحلم من جديد أن يكون العراق، كما كان، قبلة للعاشقين، وتقمر ليالي بغداد لتضيء وجه شهرزاد، الخائفة من بطش ملكها المقبور، وهي تسرد حكاية عشقها للحياة.

التكوين العلمي

يتميز الرفاعي بشخصية جمعت بين نمط الدقة البحثية الحرفية في الأوساط الحوزوية في النجف وقم، في أوقات ازدهارهما، وبين الضبط المنهجي الأكاديمي في الجامعات الحديثة. ولذلك فهو، بالنسبة للعراق، من القلة الذين يعوّل عليهم في بناء وسط ثقافي يقود الحراك الثقافي الإسلامي باتجاه الفكر المستنير، العابر لمراحل المواجهة السجالية مع الآخر، إلى البناء الحضاري والثقافي. ممهداً لذلك برفع الحواجز وإزالة العوائق، من خلال إشاعة فكر نقدي جاد، ملتزم بأطر منهجية علمية تميزه عن نمط الهذيان الأيديولوجي. فمؤهلات الرجل الحوزوية واضحة، فهو خريج المدرستين النجفية والقمية، وتتلمذ على يد ألمع أساطينها العلمية.

أما نشاطه الأكاديمي فيتضح من عدد أطاريح الدكتوراه والماجستير التي ناقشها وأشرف عليها. وهي تربوا على خمسين رسالة دكتوراه وماجستير في الفلسفة وعلم الكلام، وأصول الفقه، والفقه والدراسات الإسلامية. ولذلك فالنص الذي يكتبه الرفاعي يتجاوز المتن التقليدي المعتاد في الحوزات والمدارس التقليدية، متن يجمع الخبرة التراثية إلى الكتابة الحداثية، العبارة الرشيقة للفكرة الواضحة، والنقد المنهجي الكاشف عن العمق الإنساني للخبرة الدينية المتوجهة نحو الله.

الدين والإنسان:

يرى الرفاعي أن "الدين ظاهرة واكبت تاريخ البشرية منذ وجودها على سطح الأرض، والإنسان كائن متدين، وان تباينت تعبيراته عن تدينه، واختلفت تجليات ومظاهر الدين في حياته"[1]. وعلى الرغم من المراهنة على العلم في انحسار الدين وتلاشيه، بوصفه معطى حضارياً، وليس حقيقة أصيلة في حياة الإنسان، إلا أن هذه المراهنة فشلت، كما فشلت مراهنات فيورباخ وماركس ونيتشة، وعاد الدين في حياة الإنسان، يعبر الرفاعي عن ذلك بالقول: "نشاهد عودة للمقدس، وانتقاماً لله لنفسه، وانبعاثا للعامل الديني، في المجتمعات الصناعية التي دخلت عصر العلم منذ فترة طويلة. كذلك لم يتراجع تأثير الدين في مجتمعاتنا، بل انطلق عاصفا ليجتاح كافة مجالات الحياة، التي لبث شيء منها مدة طويلة بمنأى عنه. وحتى أولئك الذين يعلنون رفضهم وإقلاعهم من كل فكرة أو شعور ديني، لا يستطيعون الإفلات التام من ترسبات الدين الغاطسة في بنية لا وعيهم، والموروثة من سلالاتهم العريقة والأجيال المنحدرين منها"[2].

ويشدد الرفاعي على التمييز بين تجدد التصورات عن الله عبر التاريخ، وبين الزعم بموت الإله، أو تلاشي الدين عن مسرح الحياة البشرية[3]. إلغاء الدين، يعني تجريد الحياة من المعنى، لأن "وظيفة الدين هي إنتاج المعنى، الدين يضيء ما هو مظلم في حياتنا، ويكشف عن الجمال في الأشياء، بل إنه لا يقتصر على كشف جمال الأشياء، بل قد يستطيع المتدين رؤيتها شفيفة رقيقة، متناسقة مع عناصر الكون ونظامه، لترتسم معه في لوحة مشرقة. وهكذا يغدو العمل في حياة المتدين أيسر وأقل مشقة، ويمنحه قدرات إضافية على مواصله الكدح والجلد والمثابرة"[4]. إنه هذا اللون من التدين ذو المسحة العرفانية الشفافة يؤسس عليه الرفاعي مبدأ التسامح ونبذ العنف، وتأسيس مبدأ المشاركة الإنسانية.

---

(١) الرفاعي، د.عبد الجبار، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٤) الرفاعي، المصدر نفسه، ص٣٠.

تجاوز الحدود المنهجية

لم يتوانى الرجل عن جمع العقول المستنيرة بأحدث المناهج الفكرية الحديثة، لمحاكمة التراث ونقده وحواره، وانتظار النتيجة العلمية التي ستتمخض عن ذلك، من دون أهداف أيديولوجية مرسومة بأسماء مستعارة، بل جهود هدفها البحث العلمي قد تقطف ثمارها بعد حين، نتائج قابلة للنقد لا يستطيع أي مدع أن يمنحها يقيناً مقدساً كاليقين المنسوب للنصوص الإلهية المقدسة، لذلك ما هو إنساني يبقى إنسانياً وتاريخياً، ولا يوجد أي مسوغ لرفعه إلى مستوى الإلهي والمقدس، بل جل مأساتنا التاريخية وإخفاقاتنا الحضارية جاءت بسبب مد مساحة المقدس إلى ما هو نسبي وأرضي ودنيوي، حتى ضاقت مساحة العقل، بل أعتقل العقل في حصون أثرية متهالكة مبتعثة من تاريخ مفعم بالروح الاستبدادية.

إن اجتراح الأسئلة ذات الطابع الإشكالي، والاجتهاد في تقديم الأجوبة العابرة لحدود المنهج التقليدي يتطلب توظيفاً لمناهج علمية عابرة لجغرافية العلم، وإعادة تقييم الموروث من خلالها، ليس لرفضه، بل فضولاً علمياً لانتظار المفاجئ وغير المتوقع. فالبحث العلمي ليس كسباق الرياضيين يحدد المتسابقون هدفهم مسبقاً ثم يحثون الخطى لبلوغه، بل البحث العلمي الحقيقي يجب أن تنطوي نتائجه على عنصر المفاجأة، وفي بعض الأحيان يصل إلى نتائج مدهشة وغير قابلة للتصديق. وهذا ما حاول الرفاعي إنجازه في "مجلة قضايا إسلامية معاصرة" وما يزال.

إحياء الطبقة الوسطى

انشغل الرفاعي في العراق بمحاولة إحياء الطبقة الثقافية الوسطى، التي ضاعت بين سلطة الدكتاتور، وانطواء رجل الدين على نفسه في تلك الفترة، فكان يرى إن من النواقص البارزة في الثقافة العراقية غياب المثقف الديني، بوصفه حداً وسطاً بين الديني الأصولي التراثي المحض، وبين العلماني الذي يتبنى نهجاً صدامياً مع العاطفة الشعبية المتشبعة بالدين، إنه الوسط الذي يجمع بين روحانية المتدين وتفتح العقل الحداثي، الذي يستطيع تحديث الفكر الديني، ودينئة الفكر العقلاني. إنه قابلية إنسانية على رؤية الذات عبر مسافة كافية لالتقاط عيوبها التاريخية، وأدوات منهجية حديثة على إصلاح تلك العيوب وتحديثها. ومن دون المثقف المتدين يبقى المجتمع ضحية صراع بين تيارات متطرفة علمانية تذهب إلى إلغاء الماضي، وبالتالي تدخل في صراع فاشل مع الوعي الجمعي، وبين تيارات تعيش في الماضي وتمده على حساب الحاضر والمستقبل. ولذلك فالوسط العقلاني لإحداث حالة من التصالح، بين المجتمع من جهة وبين الفكر الحداثي من جهة أخرى، هو المجال الثقافي الذي يصنعه المثقف المتدين. وإذا كانت التنمية تستلزم عملية استقطاب

شاملة لطاقات المجتمع بكل طبقاته، فالذي يمتلك الاستعداد لخلق هذا الاستقطاب هو عقل المثقف المتدين، والمجال الجاذب هو المجال الثقافي ـ الديني.

ولا يرى الرفاعي سبيلا إلى تحديث التفكير الديني إلا بتوظيف المعطيات الراهنة للعلوم البشرية في دراسة التراث الديني[١]... ولاسيما التفكير النقدي فهو "بوابة التحديث والإقلاع الحضاري، والمجتمعات التي لا تراجع تراثها مراجعات تقويمية، وتنظر إليه بتبجيل، ولا يهمها سوى تنزيهه والدفاع عن كل ما يحفل به من خطايا وأخطاء، مثل هذه المجتمعات تصاب مسيرتها بالشلل، وتفتقر إلى أبسط الحوافز والعناصر اللازمة ليقظتها..."[٢]. ويرى الرفاعي إن الحامل لهذه المزايا هو المثقف الديني، الذي جمع بين التراث، وبين العلوم الحديثة وفلسفتها.

ولذلك شدد الرفاعي على كشف ذلك النقص الحاصل في الوسط الفكري النقدي العربي[*]، وليس العراقي فحسب، المتمثل بعدم نشوء طبقة ثقافية نقدية من خارج الوسط الديني التقليدي، وأعني هنا الوسط الأكاديمي والثقافي، تعنى بالموضوع الديني. يقول الرفاعي: "في معظم البلاد العربية والإسلامية تتخصص بالدراسات الدينية الحواضر العلمية التقليدية ومدارس وكليات الدراسات الشرعية، ولا يهتم الأكاديميون وعموم المثقفين من غير الدارسين في تلك الحواضر والمدارس والكليات بهذا النوع من الدراسات، وربما يحسب الكثير منهم أن مهمة التفكير في الدين وما يرتبط به من إشكاليات أمر لا يعنيهم، باعتباره من مهام تلك المؤسسات، ولذلك لا نجد تياراً في وسط النخبة يصنف على المثقف الديني، الذي يتعاطى مع الموروث والتمثلات الاجتماعية للدين بوعي نقدي، وباستطاعته توظيف المفاهيم والأدوات المنهاجية في العلوم الإنسانية الحديثة، حين يتعامل مع تعبيرات وتمثلات الدين في الواقع"[٣].

---

(١) ينظر، الرفاعي، د. عبد الجبار، إحياء النزعة الإنسانية في الدين، ص١٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٩.

(*) أظن أن هذا الوصف ينطبق على الوضع العراقي أكثر من انطباقه على الوضع العربي، فقد ظهر المفكر الديني في العالم العربي مثل مصر وبلاد الشام، والمغرب العربي، ويمكن تصنيف مثل هذا المثقف الديني إلى متدين وغير متدين، وكلاهما استخدم المنهج النقدي، على سبيل المثال، حسن حنفي، ونصر حامد أبو زيد، وعبد الوهاب المسيري، في مصر، ومحمد عابد الجابري، وطه عبد الرحمن في المغرب، وصادق جلال العظم، ورضوان السيد في بلاد الشام، وهناك عدد آخر لم أذكره، ولكن الجميع كان يصب في مجري النقد الديني، إما إصلاحاً أو تفكيكاً وحذفاً. ولكن الأمر في العراق مختلف تماماً، فقد قفل النظام على كل شيء، فهو العلماني القومي في الموضع الذي يتطلب خطاباً علمانياً قومياً، وهو المتدين في الموضع والظرف الذي يستدعي خطاباً دينياً، وفي كلا الدورين قد وضع يده على أبواق تملأ الساحة ضجيجا بلا منافس.

(٣) الرفاعي، الدكتور عبد الجبار، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص٨١.

وعلى الرغم من أن المثقف الديني الذي يعنيه الرفاعي ينظر إليه من زاوية فلسفة الدين، أي أنه يستبطن المتدين وغير المتدين، فكل من يتخذ من الدين موضوعاً للبحث والدرس العقلاني، سواء النقدي الإصلاحي أو النقدي التفكيكي، يقع ضمن المثقف الديني، إلا أن ما يلائم الذهنية العربية الغارقة بالمضمون الديني! هو المثقف المتدين، لأنه الوحيد، إلى حد ما، المتواصل مع الجماهير وجدانياً، وبالتالي القادر على التسلل إلى عقولهم لعمل تحديث لمنظومة التفكير التي تتحكم برؤيتهم للأشياء وتقييمهم للواقع.

ويطلق الرفاعي، أحياناً أخرى، على المثقف الديني، المثقف النقدي، وهو المثقف العابر للأيديولوجيات، والمنشغل بتفسير العالم، والذي يسهم في تغيير العالم، ليس من خلال الثورة، بل من خلال التنوير وممارسة النقد لإيقاظ الذات. ذلك إنه "كلما اتسعت مساحة النقد كلما تحرر العقل من مختلف الوصايات، وإذا حررنا العقل وفتحنا منافذه على الاختلافات والتنوعات، حققنا واحدة من الوعود الكبرى للوعي البشري، واستطعنا حينها وضع العقل على سكة الإبداع والتطور والاجتهاد، سكة خلق وابتكار رؤى ومفاهيم جديدة"(١).

الشخصية العولمية

المفكر الرفاعي شخصية عولمية عابرة للحدود الجغرافية أيضاً، وما كان كذلك إلا لأنه كان عابراً للذات بالذات نحو ذات جديدة، إنه مصداق الذات المتحولة مع مستجدات الواقع، وهذا التحول الذاتي نقله من مستوى مجرد طاقة الفرد إلى طاقة المؤسسة، إنه، بحق، مؤسسة متجسدة في شخص! تجاوز الرجل ذاته للامتزاج بالآخر عابراً حواجز الجغرافية والثقافة والمذهب، لأنه كان يبحث ".. عن هوية تتفاعل مع العالم، وما يحفل به من تغيرات وتحولات عميقة في شتى المجالات. هوية في حالة صيرورة وتشكل أبدي عبر الصيرورة المتداخلة للواقع"، وذلك لأنه يرى إن "الكائن المتحول هو الكائن الطبيعي، ذلك لأن الحركة والصيرورة هي الناموس الأجلى في الحياة، وهي تعبير وجودي عن إصغاء الإنسان لإيقاع التحولات والمتغيرات العظمى في الواقع"(٢).

تذكرني شخصية الرفاعي بشخصية أخرى عابرة للحدود الجغرافية والمذهبية أيضاً، لكنها في زمن ما قبل العولمة، هي شخصية جمال الدين الأفغاني. فالأفغاني المؤسسة لم تعقه الجغرافية ولم تقيده المذهبية، ولم تحرجه القومية، إنه شخصية عولمية، جمع بلاد فارس

(١) الرفاعي، إنقاذ النزعة الإنسانية، ص٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٦.

بالعراق ومصر وبلاد الشام، مفككاً قيود التمذهب، فاتحا أفق الفكر الإسلامي الرحيب على أفق الجغرافية الإسلامية الخصيب، واستحق أن يكون شخصية عولمية[*].

يحمل الرفاعي رسالة عابرة للحدود الجغرافية، متنقلاً بها بين إيران والعراق ومصر وبلاد الشام، والمغرب العربي، مبشراً بالعقلانية الدينية، والدين العقلاني، وبنزعة التسامح والتلاقي والتعارف بين المذاهب الإسلامية المختلفة أولاً، ثم فيما بين الأديان عموماً. والذي ساعده على هذا الامتزاج في الأوساط المذهبية والثقافية المختلفة، هو ما يحمله من رسالة متعالية على الاختلافات التقليدية، رسالة الإسلام المعرفية والقيمية المعولمة.

الرفاعي وسيط رفيع المستوى بين الفكر العربي والفكر الإيراني، بطريقة علمية تتجاوز الكثير من معوقات الرؤية الموضوعية، فله الفضل في تعريف الحركة الفكرية المتواصلة في إيران في الوسط الثقافي العربي عموماً، سواء من خلال ما ينشره من موضوعات في مجلة قضايا إسلامية معاصرة، أو من خلال تواصله الحواري اليومي مع مساحة واسعة من المثقفين العرب، وتعارفه العابر للحدود الجغرافية والثقافية مع المفكرين والمثقفين. وبالمقابل فهو ناقل أمين لطريقة التفكير الفلسفي الجارية في إيران، وما أنتجته مدرسة الحكمة المتعالية في الفترة الأخيرة من نتاج فلسفي ثقيل، كما في ترجمته لمنظومة السبزواري الفلسفية وبحوث الشيخ مرتضى مطهري.

إن الوسط الثقافي ـ الديني الإيراني الذي مارس فيه الرفاعي حياته الفكرية كان مؤثرا في نقل الرفاعي الفرد إلى الرفاعي المؤسسة (الشخصية المؤسساتية)، ذلك لأن الكثير من العقول الإيرانية الحاملة للفكر الديني الفلسفي، كما أوضح لي شخصيا حينما صحبته في سفرة إلى طهران، تحمل تلك العقلية المؤسساتية، المتجاوزة للفردانية ذات الطابع الأناني، والمندمجة وجدانياً في المجال النفسي الاجتماعي، وقد تملكها الهم الاجتماعي إلى حد يتجاوز فيه الإحساس بالمسئولية الاجتماعية في الحياة الراهنة، ليستحوذ على هم الإنسان في لحظة الاحتضار أو الموت، عندما يقرر أن يوقف أملاكه أو مكتبه العلمية الثمينة للصالح العام، بدلا عن أن يختص بها ذويه. ❖

(*) اخترت عبارة شخصية عولمية وليست عالمية، لأنني أقصد بالعولمية تجاوز الرجل لحدود الانتماء القومي، والانتماء المذهبي، حتى اختلف في انتمائه القومي فكتبت فيه كتابات، واختلف في انتمائه المذهبي وكتبت فيه كتابات، والكتابات التي كتبت سواء تلك التي تريد إثبات فارسيته، أو تلك التي تريد إثبات تسننه أو تشيعه، مثل كتاب الدكتور محمد عمارة "جمال الدين الأفغاني" الذي يحاول فيه إثبات انتماء الأفغاني للمذهب السني، كلها محاولات نكساوية، حاولت إلغاء القيمة الإنسانية التي جاهد الرجل من أجل إرسائها في الأمة على حساب التحجر القومي والمذهبي، والعودة بالرجل، بعد مماته، إلى سجن التاريخ وسجن المذهب. ولذلك فالعولمية هي عدم انتماء الفكرة لقومية أو طائفة أو مذهب، وعدم انتماء الإنسان المتعين مثل الأفغاني لحدود اقليمية أو مذهبية، أما العالمية فهي صفة تطلق على رجل قد يكون سجين المذهب والقومية والعرق، لكنه على مستوى الفكر أو الشهرة معروف عالمياً في أكثر بلدان العالم.

سرقة معنى النص الديني
أو سرقة الإنسان في النص

✍ د. عباس أمير[١]

الدين والإنسان، أو لنقل: الله والإنسان، ثنائية لا مناص معرفياً من أن يصرفنا أحد طرفيها إلى الطرف الآخر. ومن هنا، فالحديث في الدين لا يصرفنا عن الحديث في الإنسان بل يصرفنا إلى الحديث فيه، والعكس صحيح تماماً. وعليه فليس ما سوى الله والإنسان إلا (شفرات) أو رموز وعلامات دالة، يتوسل بها الإنسان لامتلاك رؤية وجودية عميقة، تتعلق بفهمه لذاته من حيث هو الطرف الثاني لثنائية (الله/ الدين، والإنسان) مرة، وتتعلق بفهمه للطرف الأول لثنائية الوجود، تلك المتمثلة بالله/ الدين، والإنسان... ولعل فهم هذه الثنائية كما يجب أمر لا يتحقق إلا لأولئك الذين يتجاوزون عتبة الوعي الفطري إلى حيث مثابات الوعي المتروّي[٢].

ما هو أكثر أهمية بالنسبة إلى ذلك الوعي المتروي، هو أن لا ينثني أحد طرفي تلك الثنائية لصالح الطرف الآخر، فننتهي إلى دين بلا إنسان أو إلى إنسان بلا دين...!

وما هو أكثر أهمية من ذلك لدى المعنيين بإنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، هو أن لا تطوى صفحات كتاب الألوهية لصالح صفحة بعينها، كذلك أن لا تستتر ضمائر الإنسانية لصالح ضمير واحد منفصل عنوة...!

والتساؤل الحاضر أبدا في مثل هكذا أحوال: ترى، لماذا يُصْرَف ما لا ينصرف من حاجات الوعي المتروي، ولماذا الإصرار على هدم ما يمكن أن يشيده الوعي المتروّي، وهو

(١) رئيس قسم علوم القرآن، كلية التربية، جامعة القادسية. مراجعة لكتاب: إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، د.عبد الجبار الرفاعي، صادر ضمن سلسلة كتاب تجديد التفكير الديني، التي يتولى الإشراف عليها مؤلف الكتاب. ط٢، مركز دراسات فلسفة الدين ببغداد، ودار التنوير في بيروت، ٢٠١٣.

(٢) يميز لالاند في موسوعته الشهيرة بين نوعين من الوعي: الوعي الفطري والوعي المتروّي، أما الوعي الفطري عنده، فهو ما يكوّنه العقل عن أحواله وأفعاله، فهو المعطى الأساس والأول للفكر، الذي لا يمكن تفكيكه إلى عناصر أبسط، وهو بعد ذلك أصل كل معرفة. ولكن الظاهرة الواعية، بموجب هذه المرتبة من الوعي، لا تتماز من ظاهرة الواعي. أما المرتبة الثانية للوعي، فهي المرتبة التي تتجاوز فيها ظاهرة الوعي حدود الواقع الذاتي والداخلي النفسي إلى فضاءات الواقع الخارجي، حيث يكون الوعي متجلياً للظاهرة الواعية، التي تميز المفارقة بين الذات والموضوع، بين الذي يعرف وما هو معروف، مع قدرة على تحليل موضوع المعرفة... موسوعة لالاند الفلسفية، اندريه لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس، ط٢، ٢٠٠١. مج١، ص٢١٠ ـ ٢١٢.

ينشط في السبق إلى الإبقاء على حقيقة بسيطة جداً وكبيرة جداً في الوقت عينه، تتعلق بتلك الثنائية، مفادها؛ إن صفة الرحمة في الطرف الأول من طرفي الثنائية من السعة بحيث يستطيع الطرف الثاني من الثنائية أن يعتقد أن كل ما عدا الرحمة هو الاستثناء، وأن الرحمة هي الأصل. ولأن الأمر كذلك، فالأولى من أجل الإبقاء على تلازم طرفي تلك الثنائية هو البحث عن أسباب الوصل، والعمل على كوثرة الواصلين، والحرص على وصل الرحمة بالحب...!

"واعلم أن الشفقة على عباد الله أحق بالرعاية من الغيرة في الله"[1]... هكذا يفتتح كتاب "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" مشروعه المعرفي في الإبقاء على تلازم طرفي الله/ الدين، والإنسان...!

إنها، إذاً، أولوية الشفقة على أولوية الغيرة، وهما الأخريان مظهر آخر من مظاهر ثنائية جديدة لا بد من وعيها بتروّ من أجل فهم الثنائية الأولى، ولأجل هذا تصدّرت هذه الخطاطة المفتاحية صفحات الكتاب، واستهلت أفكاره لتنبيء عن إرادة صاحبه وهي تجهد في محاولتها انتشال الدين من تلك المحاولات الإرجاعية، التي يحرص من خلالها وعي السلطة المقدسة أياً كان نوعها؛ دينية أو سياسية أو علمية أو اجتماعية على ثني الإنسان عن ذوق دينه هو، وبالمقابل، تدجينه على ذوق دين الآخرين، وإجباره على جني لذة واهمة.

ولعل الشفقة بعد ذلك هي مدخل شخصي لذوق المعنى، أما الغيرة فهي المخرج المجتمعي لذلك الذوق، والوعي المتروي هو الوعي الذي يبحث عن ذوق المعنى ابتداء. ومن هنا، فذوق المعنى وتجربته الشخصية لا ينضبطان بلحاظ الجنبة التاريخية للمعنى بل بلحاظ الجنبة الوجودية، وذلك لأن تجربة المعنى وسؤال الفهم وإرادة التفسير مما يندرج ضمن عنوان وعي الذات وإدراك الحاجة الغريزية للتدين.

الدين؛ "هو اشتراط الحياة الإنسانية الإحساس بالاتصال بين العقل الإنساني وعقل خفي يتحكم بالكون، وما ينجم عن ذلك من شعور بالغبطة"، هكذا ينظر م. رافيل إلى الدين[2]. ولكن هذه الغبطة مفقودة لا محالة حينما يتحول الدين إلى جملة من التشريعات ليس غير، تنأى بنفسها كثيراً عن النظر إلى الدين في ضمن سياقه الفردي وتجربته الخاصة، التي يترشّح عنها ذلك الشعور بالغبطة. ولعله من نافلة القول بياننا؛ أن عدم شعور الإنسان المتدين بالغبطة يعني عدم قدرته على امتلاك دينه الشخصي، وبالنتيجة عدم قدرة الدين المجتمعي على تحقيق أثره الفاعل إيجاباً في الحياة. وهذا ما يحاول الكتاب ـ موضوع الدراسة ـ التوقف عنده، ورصد حراكه، وتظهير مضامينه...

---

(١) فصوص الحكم، الفص ١٨ (الفص اليونسي)؛ ابن عربي، (نقلاً عن مفتتح: إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين).

(٢) دين الإنسان ـ بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط٤، ٢٠٠٢م. ص٢٤.

الكتاب مقاربة هيرمنيوطيقية لمشكلة المعنى في الدين، يرتكز مجمل فرضياته إلى مجموعة أوراق قُدّمت في ندوات ومؤتمرات وحلقات دراسية، ينتظمها جميعاً الحديث في إشكالات المعرفة الدينية، وممكنات التفكير الديني، وهموم تحديثه وإعادة بنائه في ضوء رهانات العصر واستفهاماته. وهو في ذلك كله يشتغل بين مؤطّرين من مؤطرات الفهم، ألا وهما؛ المؤطّر الصوفي العرفاني، والمؤطر الاجتماعي.

وما بين هذا المؤطر وذاك، يشتغل الكتاب على إعادة فهم الدين في ضمن محدداته الأصيلة، برمزيتها وجماليتها ومعنويتها. وهو في مسعاه لتأسيس فهمه الحر للدين، ينشط في الإجابة عن أكثر من سؤال من أسئلته المعرفية القلقة، بعيداً عن الأسيجة التقليدية للإجابة، متخذا من تاريخانية التجربة الدينية ومناشطها التأويلية ضابطاً معرفياً وأداة تحليلية.

ولكي يتحقق للكاتب إجلاء رؤية الكتاب نراه يتوقف، وقفة المحتج، عند سبي المعرفة الدينية واحتكارها، وما ترتّب على ذلك السبي من تلويث حقول الدين المعنوية والقيمية والأخلاقية، ثم حملها وترحيلها من مواطنها الروحية إلى حيث مواطن الفجاجة الحسية المتمثلة بالسلفية والعنف الديني وسلطة الإسلام السياسي والأيديولوجيا السياسية، والغرق في كهوف الماضي، والإفراط في استهلاك التاريخ، والركون إلى الفهم السطحي والمغلق والأحادي والتعسفي القمعي للدين، واختزاله في المدونة الفقهية، ونسيان الإنسان، والتنكيل به وبنزوعه الفطري نحو تلبية متطلباته الجسدية ومشاعره السامية وذوقه الجميل...

كنت أتمنى أن تكون ورقة "جدل العلاقة بين الاستبداد والعبودية الطوعية" هي الورقة الثانية من أوراق الكتاب، ثم تثنى بورقة تتحدث عن جدل العلاقة بين التعددية وحرية العبودية، ثم تنتظم أوراق الكتاب تباعا، شرط مراعاة تقديم الأوراق التي تشيّد رؤية الكتاب، من خلال استعراض ونقد وتحليل تجارب تاريخية وواقعية، من مثل الأوراق التي تتوقف عند جلال الدين الرومي، أو تلك التي تعرض للاهوت التحرير عند شريعتي وحنفي، أو التي توازن بين رؤيتين في التفكير الديني، يمثل الأولى منهما محمد عبده على حين يمثل إقبال الثانية منهما... وهكذا، ثم يصار إلى الأوراق التي تشتمل على رؤى نظرية ذات جهاز مفاهيمي خالص. ومردّ هذه الأمنية إلى أن الفضاء المعرفي للكتاب أصلاً يعمل بين قطبين متضادين، يحكمهما ما ترتّب ويترتب على الفردية الدينية في واقعنا العربي والإسلامي مرة، وما يمكن أن يترتب على التعددية الدينية مرة أخرى.

بتعبير آخر، الكتاب دعوة جادة لإشاعة هرمنيوطيقا دينية كفوءة تأخذ بنظر الاعتبار الجنبة التاريخية للتجربة الدينية، دونما إغفال للجنبة الشخصية المرتبطة بالبعد المعنوي للإنسان المتدين، وما يتعلق بطموحاته الأصيلة، وما ينتظر نيله معنوياً حينما يعيش

تجربته الدينية تلك. إنه محاولة في إنقاذ المعنى الديني، مما يراد له في ضمن حقبته التاريخية المعاصرة التي نُسبت له حقيقة ليست حقيقته، وشكّلت له معالم لم تكن معالمه أصالة. ولأجل تحقيق ذلك يشرع صاحب الكتاب في خوض مواجهات لا مواجهة واحدة، مع أولئك الذين سرقوا معنى الدين، ووأدوا فيه إنسانيته الشفيفة الجميلة، فمواجهة مع الفهم الساذج والسطحي للدين، وأخرى مع إرادة تسييسه وأدلجته، وثالثة مع تحقيبه الماضوي واستهلاكه بعدّه منجزا غير قابل للتأمل والتفكر والتدبر، ورابعة مع تأطيره فقهيا، وخامسة مع تشظيته مذهبيا... الخ.

وهو، على الطرف الآخر محاولة في التأسيس لتعاط فكري مسؤول يؤمن بالنقد والمراجعة والتحليل البناء، المرتكز إلى إعادة بناء الذاكرة الدينية، عبر تفكيك مكوناتها، وممارسة غربلتها، واصطفاء الصالح منها للإجابة عن أسئلة المرحلة، بكل ما للمرحلة من محددات وأُطر ومعطيات وتحديات فكرية وتقنية. ولهذا كله يتسلح صاحب الكتاب بأدوات عدة، منها وعلى رأسها؛ تجربته الخاصة وكشوفاته التي وفرتها له مسؤولياته الثقافية وفهمه التأويلي، الناتج عن تحصيله الديني والأكاديمي واللغوي والثقافي، وخبرته في العلوم الإنسانية، كل ذلك شكّل بمجمله رؤية أخرى، وإمكاناً مختلفاً في النظر إلى المشكلات التي ينوء بها المعنى الديني الإسلامي، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من سماته الخاصة بالتجربة الدينية وهويتها المائزة والمفارقة لتاريخيتها، حينما يراد لسكونية التاريخ أن تكون هي الهوية المائزة للتجربة الدينية، وحينما يراد للتجربة الدينية أن تختزل ببعدها التاريخي.

ولنحاول الآن أن نتجاوز التوقف عند معالم أزمة المعنى الديني كما يعرض لها الكتاب، إلى السبل الكفيلة بتفكيك تلك الأزمة، على وفق ما يذهب إليه الكتاب... ولنحرص على أن نستخلص ما يمكن استخلاصه من تلك السبل والأدوات؛

- إعادة الاعتبار للجنبة الخيالية من جنبات الإدراك البشري للواقع، بما يعمل على السماح للدين باختراق تلك المنظومة الخيالية، وإعادة تكوينها وتشكيلها وصوغها الصياغة التي تسمح للدين أن يشيد المنظومة الجمالية للواقع.
- إعادة الاعتبار لما تم تهميشه من قبل "البروتستانية الإسلامية"، مما يتعلق الجديد بالأنساق الرمزية والأنظمة السيميائية الدينية.
- تنمية الشجاعة المعرفية القاضية بعود الإنسان إلى عقله هو واستعانته بفهمه الخاص عبر إشاعة ثقافة التفكير بحرية، وفتح آفاق العقل على عوالم التجريد والتأمل، وترسيخ ثقافة العيش مع المختلف.

- إعادة الاعتبار للغة بما يعمل على إنقاذها من مخططات الاستبداد اللغوي الناشئ عن الاستبداد السياسي، إذ لا يمكن الوثوق بأفكار تنفتح على ما يعاندها إلا حين تغتني اللغة بمعجم يرفدها باستمرار بألفاظ ومصطلحات، تنفتح على فضاء عقلي، يتسع باستمرار لاستيعاب وتمثل كل ما هو جديد. ويرتبط بهذه النقطة ضرورة تطهير اللغة من الكلمات والمصطلحات القدحية المشبعة بالتشهير بالآخر، ضمن واقع يضج بالاحتراب والصراع الديني والطائفي.
- تحديث التفكير الديني، بما يعني إحياء واستلهام الميراث المعنوي العميق، واستدعاء التجارب الروحية التطهيرية التنزيهية السامية في التاريخ، وبناء إلهيات عقلانية مستنيرة، تحررنا من التفسيرات التعسفية القمعية للنصوص.
- الخروج من السياقات الكلاسيكية للتفكير الديني، وعدم التوقف عن طرح تساؤلات بديلة، والتوكؤ على منهجيات ومفاهيم مستوحاة من المكاسب الجديدة لفلسفة الدين وعلوم التأويل والمعارف البشرية.
- التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب، والسعي لترسيخ صورة رحمانية للإله، تستلهم ما يتحلى به من صفاته الجمالية، وأسمائه الحسنى، ورحمته التي وسعت كل شيء.
- إنجاز مصالحة بين المتدين ومحيطه الذي يعيش فيه، والإصغاء لإيقاع الحياة المتسارعة التغيير.
- إعادة النظر في نسيج المعارف الموروثة المولدة للفقه، وإجراء غربلة لها، ومعرفة إمكاناتها ومدى قدرتها على عبور زمانها ومكانها الخاصين.
- إطلاق عملية تحديث ديني تنطلق من عند البنى التحتية والهياكل الأساسية والجذور والمنابع ومصادر الإلهام التي ترفد الرؤى الكونية وتتغذى منها المفاهيم الاعتقادية، والأفكار الكلامية، والآراء الأصولية، والأحكام الفقهية.
- لزوم أن يتجاوز الإيمان ما تراكم من شروح وتأويلات عبر التاريخ، فيصير إيمانا نقديا، يتيح لصاحبه مواكبة إيقاع الحياة، والإصغاء إلى الواقع، وما يضج به العالم من استفهامات لا حدود لها، بما يعمل على كسر النرجسية الدينية والمنطق العقائدي الأحادي، وبما يؤدي إلى تجاوز احتكار مفهوم النجاة والمشروعية الحصرية.

وبلحاظ ما سبق كله، نرى إلى الكتاب بعدّهِ إبانة ناهضة عن رؤية معرفية تحاول أن تخلص الدين مما علق به من دنس التدين الدنيوي الفجّ، كذلك هي محاولة واعية في تفكيك منظومة سوء الفهم التي استولت على المعرفة الدينية عبر العصور جاعلة منه مادة أولى وركناً حصيناً لممارسة نوع مقيت من الدكتاتورية المعرفية، أسهم في إشاعة غير قليل من

الوعي الاجتماعي الاستهلاكي العاجز عن إثارة السؤال، والناكص عن تثوير مكامن الشك المعرفي البنّاء، والمتوجس خيفة من كل ما من شأنه صناعة المعرفة وتربية العقل الحضاري، القادر على تجريد المظاهر والعلامات من أجل صياغة القوانين واستنباط القيم، الدالة على إمكان التواصل والبقاء والنمو والتفاعل والانفتاح والتعارف والتلاقح، بما يكشف عن انفتاح الذات على الآخر، واندماج الواقعي والمجرد، والديني والدنيوي، والوحياني والبشري... والنتيجة المترتبة على إشاعة ذلك النوع المتسافل من الوعي، هي عجز المتدين عن تحقيق نوع من التناغم؛ بين ما يريده الدين ضمن محدداته التاريخية والوحيانية الأولى والأصيلة أيام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وبين ما يريده الدين ضمن محددات الأيديولوجيا والتسلّط والنظر القمعي وسوء الفهم...!

نعم لم يُسرق النص الديني، ونعم للإرادة الإلهية القاضية بديمومة حفظ "حافظون" النص الديني أثرها النافذ في المكان والزمان، ولكن معنى النص سُرِق...

والكتاب محاولة في إعادة ذلك المسروق، من خلال ترسيم "روبورتاجات" اللصوص، وتبيان النزعة الذئبية في التعاطي مع النص، وتفكيك الأنساق السلوكية والمفاهيمية التي يتوسل بها سراق المعنى وهم ينزون على منبر النص، أينما كانوا وكيف كانوا، وإن قربت المسافة بين خطوات اللصوص حتى لا تسمع لهم همسا...

ولقد حرص الكتاب على خلخلة ما رصّه اللصوص، وتحريك ما سكن، وتذرية ما ركد، وكنس ما تراكم من غباراً التفخيخ الفكري، حتى لا يبقى الإنسان في النص الديني جسداً خاوياً مهيناً، وروحاً شارداً لا يعقّب، وكياناً مستوحشاً مما له أن يأنس فيه، ومهدّماً مما له أن يُبنى به، وخائفاً مما له أن يأمن في حضرته وفضائه.

والكتاب بعد ذاك وهذا، نزلة أخرى ومنزلة جديدة من منزلات مشروع علمي حثيث، شرع به صاحبه منذ انشغاله واشتغاله على فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد وقضايا إسلامية معاصرة، فهو تجلّ آخر للهمّ المعرفي نفسه، وإن كان الأفق الذي ينتمي إليه الكتاب هذه المرة يعطي الأولوية للقيم المعنوية للدين، وللمرات العديدة التي يستطيع فيها الإنسان أن يلتحم بتلك القيم فينال خلاصه هو، وينيل الدين خلاصه في الوقت نفسه، وبذلك، وبه فقط، يبرأ الدين ويبرأ المتدينون من علل التشظية النصية والنفسية والعقائدية والجمالية التي أصابتهما بعد سرقتهما كليهما.

إنه محاولة في تحرير مساحات شاسعة من وعينا، احتلها ماكرون مُردُوا على سفك البهاء الديني وطمس إجاباته البدئية، واستبدال الذي هو أدنى/ ذواتهم القاصرة، بالذي هو خير/ ذات النص، ومعناه الذي يهدي للتي أقوم. ❖

عبد الجبار الرفاعي
المفكر الحر والصوت المعتدل للدين

✍ أسامة الشحماني[١]

قد لا نبدو مبالغين إذا قلنا إن التعامل مع وجود الإنسان كقيمة عليا، وفهم الدين بوصفه صنواً للإنسانية، بات شحيحا إلى درجة لافتة للنظر في الكثير مما يقدم من كتابات، يفترض أنها وضعت لإعادة بناء الأواصر وردم الهوة الشاسعة بين الإسلام كدين يقرُّ الحوار ويتصدى لصلادة التعصب، والمسلمين في انشدادهم وانصياعهم لعقائد موروثة لم تكن بمأمنٍ من تسرُّب مظاهر التطرّف إليها، فضلاً عن غياب تشخيص معضلات عصرنا وخضوعه لظروف معقدة فرضتها إملاءات مناخ، ما انفك الجهل يعصف به. يشايع هذه الشحة في نشدان البعد الإنساني والعقلاني للدين الأعم الأغلب من دعوات المتشدقين بمظاهر الدين من دون فحص أو تدبر، لاسيما ما تواشج من دعواتهم مع ضرب من المواقف العنيفة أو المتشنجة، التي حملتها صور شوهاء ظهر عليها المسلمون هنا وهناك بعد زلزال الربيع العربي، وما رافقه أو تمخض عنه من تغذية لشتى أشكال العنف والعاهات الاجتماعية، وإذكاء لنيران الفتن الطائفية المقيتة.

ولعل تبنّي روحيِّة العارف وبصيرة الفيلسوف في مناقشة ومعالجة سؤال الدين والتدين هو مما لم يتوار وجوده تحت تأثير العقائد المتشددة وحسب، وإنما جاء كنتيجة طبيعية لتلاشي صورة الفكر القائم على إعادة الاعتبار لثقافة التنوّع والاختلاف، وخيارات التنوير والرؤية المكافحة ضد الأطر الأيدلوجية الضيقة، التي رسَّختها النزعات السياسية في الدين، وتأبدت لدى جلّ من تصدى لصياغة ملامح العلاقة بين الإنسان والدين. لقد شاع اختزال الإنسان داخل أطر وحواضن ضيقة وبات من الظاهر للعيان الآن انزلاق الكثير من النخب الثقافية في هاوية التطرّف، والانسياق وراء خطاب التعسكر تحت لونٍ من مدخرات التاريخ الإسلامي، يتوارى فيه الجانب الإنساني، وتغيب بوارق الفكر المتقد.

ولكن وعلى الرغم من إحكام التيار المتشدد لقبضته على جزء كبير من صور الفكر الإسلامي، وقلّة المواقف الداحضة أو الناقدة للنظرة السوداوية، ولنمط التفكير النابش في التاريخ، بحثاً عن مواقف تجانس مذاهب التفسير التي تُكره النصوص لقبول الفكر المتشدد، ثمَّة خطى ودروب نهضت بها قامات ثقافية ساطعة، ما أن تمرَّ على خاطرك

---

(١) كاتب عراقي مقيم في سويسرا.

حتى تجد نفسك مأخوذاً لدخول آفاق لم تكن تتوقع أنك ستدركها، ومشدوداً لوهجها المعرفي الذي يمضي بك لاتجاهات ومعانٍ تسمو على كل ما يطغى على هذا العالم من شوائب ومحن تهز الإنسان.

المفكر الإسلامي الحر الدكتور عبد الجبار الرفاعي إحدى هذه القامات، التي استوعبت أزمة المشهد الثقافي الإسلامي، وتنبهت لخطورة استئصال البعد الإنساني للدين منذ ما يزيد على ثلاثة عقود. التحديث والحراك وعدم المصادقة على الفكر من دون مساءلة متونه ومطاويه والبحث في ثناياه، كان وما يزال ديدنه وهاجسه في ارتياد صروح البحث والتأمّلات الفلسفية، يقول في مقدمة كتابه (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين): "إنَّ هاجسي فيما أكتب هو إثارة الأسئلة، وتكرار طرحها بلا وجل، أو خشية من أحد، ذلك أن المعرفة تبدأ دائماً بالسؤال، ويقودنا السؤال للتوغل فيما هو مسكوت عنه، أو مجهول، أو ممنوع التفكير فيه، وأية محاولة للتحديث والإصلاح لا تنبثق من أسئلة عميقة ومحورية سرعان ما تضمحل وتتلاشى"[1]. أن تقرأ للرفاعي يعني ذلك أنك تسعى لبلورة فهم فلسفي ثري ومرن، يترك لمخيّلك مسافة للحركة، وينعش مدارات وجودك بمسحة من الصدق والترفّق والاقتراب من إمكانية ترويض ما يختلج في داخلك من تخبطات، وما ينبث في وعيك من تساؤلات.

إنَّه لمن دواعي فخري وسروري أن تتاح لي فرصة الكتابة عن الرفاعي المفكر والإنسان الفذ، الذي تسود مشروعه أهم محاور التنوير، وتتوطد في خطابه وتطلعاته كل مقومات الإصلاح، وما أحوجنا في هذه المرحلة بالذات لإصلاح يبدد عن سماواتنا ما تلبد على شمسها من أرث تاريخي قديم لغيوم ثقيلة الحركة. أقول هذا على الرغم من كوني لست ممن حالفهم الحظ في التعرف على شخص الرفاعي منذ زمن بعيد، إلا إنَّ معرفتي برسالته الفكرية، وكشوفاته في البحث عن الجوهر المشترك للأديان، والأبعاد الإنسانية والحضارية التي اصطبغ بها فكره على وجه الإجمال، تعود إلى مطلع الألفية الثانية، إذ أعارني صهري السيد فلاح حسن الموسوي - أحد طلاب الرفاعي في قم أوائل تسعينيات القرن الماضي - أعداداً من مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" فاتحاً لي نافذة الاطلاع على عددٍ غير قليل من بحوث ومقالات الرفاعي، فوجدته مفكراً بنبرة تزرع الثقة في المتلقي، ينزع لتناول الملتبس، ولم يأنف عن ذكر أشد المناطق الفكرية حراجة في منظومة العقل الإسلامي، كالموقف من الحداثة، والحريات الفردية، وحقوق المرأة، وسوى ذلك مما تمازج مع محاولات إعادة قراءة وتفسير أشد النصوص جفافاً، ولاسيما في إطار معرفة ما يختفي خلف ستائر مفهومات إشكالية، كالسلطة والسيطرة والنفوذ السياسي،

وما عليها من قداسات في التفسيرات التقليدية للشريعة. ولشدَّ ما أعجبتني فيما أتيح لي أن أقرأ من مؤلفاته عينه اللماحة الراصدة وغير الأسيرة للآيدلوجيات، ثمَّ نوع التدين الشفاف الذي ينشده ويصفه قائلاً: "ظلت التجربة الدينية لأمي منبعاً لا ينضب يستقي منه تديني. هي من غرست المنحى الميتافيزيقي في حياتي، وإلى نمط تدينها، الفطري العفوي الشفيف، يعود الفضل في رسوخ إيماني وتجذره، ومقاومته لأية مجادلات، أو مناقشات، أو إشكالات، أو قراءات تشكيكيَّة. إيماني مطمئن في فؤادي، في فضاء محصن منيع، بعيد عن شطحات عقلي، ومشاكساته، واستفهاماته اللاهوتية، القلقة والحائرة. فشل عقلي في أن يطيح بإيماني، أو يقوضه، أو يزلزله. مازالت أطياف كلمات أمي حاضرة لحظة استيقاظي، بالرغم من مضي أكثر من خمسين عاماً"(٢).

إنَّ ما يحمله الرفاعي بين جنباته من خلق رفيع، وتواضع كبير، جعل المسافة، بينه كمفكر وأستاذ قدير، وبيني كطالب ما زال يحبو على التخوم، غير مرئية، حتى إنَّها لم تعد مسافة فاصلة وإنما جواً مشحوناً بالمحبة والفرح الإنساني. كلَّما تلقيت اتصالاً هاتفياً أو بريداً إلكترونياً منه، وهو السباق المبادر على الدوام، ازددت انبهاراً بما له من روح متسامحة، لابد لك أن تتحسَّسها وهي تتجاوز حدود الأديان والطوائف، وتتغاضى عن أوار الخلاف المستعر بينها، لتراهن على خيار الثقافة لتحرير الإنسان مما أختلقه من معوقات تحول دون انفتاحه على الحياة. ما أن أقرأ اسمه على شاشة هاتفي، ثمَّ أسمع تحيته المشرقة ببهاء روحه حتى أشعر بدفء يغمر المكان، يجعلني على مقربة من وعيه، وهو ينافحُ عن الخيارات المثلى لتنظيم الفوضى والعبث المتحكم بصورة المشهد الحياتي والثقافي الإسلامي، تنصهرُ حمولاته المعرفية عقلاً وروحاً في خطابه، فأجدني مسحوراً بما تكتسيه لغته من بلاغة، تستدرج بواطن النصوص والمعاني، لتصل بها لفهم الثقافة والموقف من الدين، بأسلوب لا ينأى بنفسه عن السياق التاريخي المعاش وما له من متطلبات ملموسة.

ومن بين ما أثار اهتمامي لديه أنه حين يسرد متحدثاً عن ملذاته الفكرية وكشوفاته المعرفية في الفلسفة والدين، لا ينفصل موقفه متكلماً عنه كاتباً، ويتضح ذلك على وجه التحديد فيما يدعو إليه في كتابه "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" إذ يتوق لـ "بناء فهم آخر للدين، وتأويل مختلف للنصوص الدينية، عبر قراءة شاملة لهذه النصوص، تستلهم نظامها الرمزي، وما تختزنه من معان ودلالات، لا تبوح بها إلاّ من خلال عبور المنظومة المغلقة للفهم التقليدي لها، وتوظيف منهجيات ومفاهيم وأدوات ومعطيات المعرفة البشرية والعلوم الإنسانية الراهنة، لتفسيرها في ضوء متطلبات العصر ورهاناته. انه تفسير لا يختزل الدين في المدونة

الفقهية فقط، ولا يقوم بترحيله من حقله المعنوي القيمي الأخلاقي إلى حقل آخر، يتغلب فيه القانون على الروح، ويصبح الدين أيديولوجية سياسية صراعية، أيديولوجيا تهدر طاقاته الرمزية والجمالية والروحية والمعنوية"(٢).

يواصل الرفاعي في هذا الكتاب تتبع شفرات النصوص، ورسم الأسس النظرية التي يشيِّدُ عليها دعائم النظر للدين من منظور إنساني متعدد الوجوه، لا يهاب الإقدام على إزالة الصدأ عن الخطاب الديني، فيدشن طريقاً جديدة في تفكيك ما تكلّس من أنساق الثقافة الدينية، يكتب: "وظيفة الدين هي إنتاج المعنى، الدين يضيء ما هو مظلم في حياتنا، ويكشف عن الجمال في الأشياء، بل إنَّه لا يقتصر على كشف جمال الأشياء، بل قد يستطيع المتديِّن من رؤيتها شفيفة رقيقة، متناسقة مع عناصر الكون ونظامه، لترتسم معه في لوحة مشرقة، وهكذا يغدو العمل في حياة المتديِّن أيسر وأقل مشقة، ويمنحه قدرات إضافية على مواصلة الكدح والجلد والمثابرة"(٣).

لم يدر الرفاعي ظهره للأزمات وللمجالات الثقافية الملوثة، كما فعل سواه ممن يدعي الانتماء للأوساط الفكرية، بل ناقش وجادل في المحافل والمؤتمرات الدولية، ساعياً لفك عرى التلازم الكارثي بين الإسلام والإرهاب. ويمكننا أن نعد رأيه في الإسلام السياسي من أشد الآراء قوة ودقة وصلابة، إذ أزال فيه الأقنعة بمنتهى الصراحة والوضوح، وذلك في قوله: "لا أدافع عن فشل الإسلاميين في إدارة السلطة، كما لا أتجاهل ما يبدو من حقيقة أن السلطة قد تكون مقبرتهم، بسبب عجزهم وقصورهم عن إدراك الجذور العميقة للدولة الحديثة، وافتقار الكثير من المسؤولين، إلى أي تكوين أكاديمي أو معرفي أو فكري، يؤهلهم لإعداد نظم وبرامج وخطط اقتصادية وإدارية وتربوية وعلمية وثقافية معاصرة، فضلاً عن عدم توفرهم على تدريبٍ وخبرة عملية في إدارة الدولة وبناء مؤسسات السلطة. إنهم يفكرون في مرحلة ما قبل الدولة، لذلك يحرصون على استدعاء القبيلة وقيمها وتشكيلاتها العتيقة، ويغرقون في كهوف الماضي، ويفرطون في استهلاك التاريخ، وكأنهم لا يعيشون في عالمنا إلا بأبدانهم، في حين تلبث عقولهم وأرواحهم مع الموتى"(٤). في ظني إنَّه ليس من السهل أن نجد لهذا الرأي أسوة في الكثير مما نقرأ ونسمع من آراء، لا يشيّد أصحابها نقداً موضوعياً حقيقياً لسؤال الدين والمشروع السياسي.

انهمك الرفاعي بإعادة بناء المرتكزات في الثقافة العربية الإسلامية التي انهارت تحت تأثير ما لفظته الحروب من خراب وأزمنة سيئة فاقت مشكلاتها حدود التوقع. لم يبدُ في طروحاته ومعالجاته لكل ما هو شائك ومتوارث من نظم قيمية وعقائدية ارتباطاً بخطط ومناهج الأيدلوجيات أو التقلبات الحزبية، وما كانت حواجز الأيديولوجيا وأسوارها لتتسع

لجناحيه أو تستحوذ على أهمية فيما قدَّمه من مسيرة فكرية غنية، ذاق فيها كربلاءات الوطن وإشكالات المنفى المترعة بكل ما للاغتراب من وجوه ومعان... وعن رؤية الرفاعي للآيدلوجيا يكتب عبد اللطيف الحرز: (ترجمة الرفاعي لكتاب "العقلانية المعنوية: مقاربات في فلسفة الدين"، وإصدار محور "الاتجاهات الجديدة في علم الكلام" لسنتين في مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بمثابة حلقة تمهيدية للخروج إلى مرحلة نقد الأيديولوجيا ومفاهيم لاهوت التحرير والمثقف الداعية، والإنتقال من "أدلجة الدين إلى فلسفة الدين"، ومن ثم "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين". إذ لم يعد بالإمكان إبقاء الفكر رهين المحبسين: محبس التراث، ومحبس الهوية. محبس الإنتماء ونقاوة المنهج)[٤].

تتعاضد في رؤى الرفاعي، وفيما شيَّده من مشاريع فكرية رصينة في مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" وفي "مركز دراسات فلسفة الدين"، متبنَّيات البحث عن كيان الإنسان في الرسالة الدينية، ورفض الانكفاء داخل حدود النمطية السائدة في مواجهة سؤال الإنسان والتجربة الدينية. وربما فسَّر لنا ذلك اقترابه من ميراث الصوفية وجلال الدين الرومي، الذي يطلق عليه صفة "مولانا"، متحدثاً عن ذائقته الدينية: "إنَّ مولانا اشتق مذهباً جديداً في تأويل الدين ونصوصه، يمكن تسميته بـ (مذهب العشق)، مذهب تتغلب فيه الروح على القانون، ماهيته التراحم والمحبة، تتسع مدياته الإنسانية، بنحو يحرر البشرية من العدوان والتعصب، ويفتح آفاق التواصل والتفاهم بين مختلف المجتمعات. ميراث مولانا يلهمنا مفاهيم ومقولات ورؤى تنشد احترام كرامة الكائن البشري، ترسخ النزعة الإنسانية في الدين، تشبع حياتنا بالمعنى، تخلع على ديننا صورة أجمل، تهبنا أفقاً بديلاً للتواصل مع مختلف أتباع الأديان والفرق والمذاهب"[٥].

لقد توخى التجديد في كيفية استلال التجارب من التاريخ، وفي إعادة النظر فيما أنتجه العقل العربي، وغاير المنظور الإسلامي السائد لمفهوم العقل في معالجة الأبنية الدينية، ولم يكن نشدانه للفكر صفة مجردة مفرغة من المحتوى الروحي، إذ مازجها روحه وأنساغه الوجدانية، التي نهلت من مشارب التصوف، وامتصت من بواطن العرفان، نقرأ له في هذا السياق: "مسار القلب لديّ غير مسار العقل، أي إن وجهته بموازاة العقل، إن كان للعقل وجهة أو مسار. قلق عقلي واستفهاماته المتواصلة لم يزعزع إيماني، أو يطيح بتديني، أو يهزم أخلاقي، ويبدد نزعتي الإنسانية. إيماني حقيقة أنطولوجية لا أستطيع الإطاحة بها، حتى لو قررت التخلي عنها. إنها نحو من الإشراق الروحي الذي لا يمكنني توصيفه بوضوح، لأنه مما يوجد، لا مما يُدرك، كما نصطلح في المنطق هو نوع من الحضور الوجودي الذي يتوطن

القلب، وليس نوعاً من العلم والتصور والفهم المتوطن الذهن. إنه نمط من المحبة أو العشق الذي يغرق فيه قلبي"(٦).

حري بالثقافة العربية أن تحتفي بالرفاعي، فهو كما يقول أركون: "المثقف الذي يتحلّى بروح مستقلة محبة للاستكشاف والتحرِّي، وذات نزعة نقدية واحتجاجية، تشتغل باسم حقوق الروح والفكر"(٧). ولا شك أن هناك الكثير ممن سبق في الوقوف على ما لهذا المثقف المتحدّث من مواهب وميزات وأبعاد شخصية، استقطبت اهتماماً من نوع خاص داخل الأوساط العلمية.

عبدالجبار الرفاعي مفكرٌ إسلامي، قدَّم فهماً مغايراً للدين، لا يفرغه من محتوياته الرمزية، ولا يزيل عنه مكوناته الجمالية، ليقصره على المدوَّنة الفقهية، ثمَّ إنَّه أعاد للمثقف تمثل الموقف النقدي التفسيري لواقع مأزوم، أمسى الدين فيه أداة لتمرير أيدلوجيات، لا تنسجم مقاصدها ومراميها مع البعد الإنساني للدين.

لقد كرّس حياته خدمة للثقافة الحقيقية المنغرسة في الأصالة اليقظة المنفتحة على روح التجديد، وحظي بمحبة وتبجيل المثقفين، وهو نموذج المفكر المرسِّخ لنواميس الرؤية المضيئة، التي تكتشف أزمة الإنسان حيال واقعه، وتبني أسسها على المراجعة الشاملة لطبيعة العلاقة بين الدين والإنسانية، وعلى الجرأة في رصد ما يتجاهله الآخرون، ثمَّ تفكيك كلَّ ما يُعتقد أنَّه قناعات غير خاضعة للفحص والتدقيق.

تحية مفعمة بروح المحبة الصادقة والاحترام العميق لك أيَّها المعلم الكبير عبد الجبار الرفاعي، أيَّها السامق المضمَّخ بحنّاء الجنوب، وعراقة سهول حضارة سومر.

الهوامش:

(١) إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد ٢٠١٣، ط٢، ص١٦ ـ ١٧.

(٢) دعوة للخلاص من نسيان الإنسان في أدبيات الجماعات الإسلامية. عبد الجبار الرفاعي. قضايا إسلامية معاصرة. ع ٥٣ ـ ٥٤، ص٦.

(٣) إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص ٢٥.

(٤) ملحق العالم، ع ٧، آذار ٢٠١٣.

(٥) إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص ٧١ ـ ٧٤.

(٦) دعوة للخلاص من نسيان الإنسان في أدبيات الجماعات الإسلامية، ص ١٠ ـ ١١.

(٧) الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، محمد آركون، ترجم هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٩٣. ص ٥.

❖ ❖ ❖

الاحتفاء بالدكتور عبد الجبار الرفاعي
احتفاء بالفكر التنويري والتجديدي الجريء في زمننا الراكد

✍ لطفية الدليمي[(١)]

إن مبادرة الاحتفاء بالمفكر والباحث الدكتور عبد الجبار الرفاعي بمناسبة بلوغه الستين من عمره المديد، في هذه البرهة المفصلية من تاريخ العراق، إشارة بليغة لتأكيد قيمة الثقافة والفكر، وارتباطهما بالمواطنة، والتقدم، والحفاظ على قيمة الانتماء الوطني، وسط تفاقم العنف الطائفي، والتشدد الديني في عالمنا، في مرحلة انشغلت فيها المؤسسات الدينية عن موضوعة السلم الاجتماعي بالقضايا الفقهية المحضة، وابتعدت عن أي دور إيجابي في لمّ شمل العراقيين، بعيداً عن المزايدة الطائفية والتفكك المجتمعي، والتناحر السياسي النفعي والذرائعي، على هذا نتمنى ونأمل ان تكون هذه البادرة النبيلة بداية حقيقية وجادة ومستمرة للاحتفاء بجميع المفكرين والمبدعين العراقيين، على اختلاف توجهاتهم، وهم على قيد الحياة، من الذين أقصتهم الصراعات الطائفية، والإهمال المؤسساتي، عن مواقعهم في بلادهم، وأساء إليهم تقسيم المجتمع إلى مكونات طائفية ودينية وعرقية وقومية بعد الاحتلال، وما لحق المجتمع من استقطابات عنيفة، وأحكام شخصانية مبتسرة بحق الكثيرين منهم، وحال بينهم وبين أداء أدوارهم في تقديم الرؤى والأفكار المجددة والجريئة، لإنقاذ المجتمع من تفككه، الذي فرضته الشمولية والديكتاتورية من جانب، والاستقطابات اللاحقة من جانب آخر. وأجد الآن في هذا الاحتفاء المبشر بمفكرنا العزيز إضاءة مبهجة لتقليد افتقدناه في حياتنا الثقافية العراقية، وعلينا ترسيخه كعلامة للاعتزاز بمفكرينا ومنتجي ثقافتنا المعاصرين.

إن الاحتفاء بشخصية تنويرية مجددة مثل شخصية الرفاعي، لهي مناسبة مهمة للاعتراف بفضله في التنوير والتجديد، وإلقاء الضوء الكاشف على جهده البحثي، ونقده المستمر لجمود المؤسسة الدينية، والتأويلات الفقهية السطحية للدين، وتسويق الخطاب الديني المشجع على الصراعات الاجتماعية والسياسية، عبر تسطيح بائس للفكرة، وابتعاد مقصود عن الأخلاقيات الدينية الجوهرية، التي تطمح إلى تفعيل الأبعاد الإنسانية في الدين، وتأكيد حرية الاختيار والمسؤولية البشرية.

(١) روائية وأديبة عراقية معروفة.

كنت أتابع بقدر ما تتيح لي الفرص دراسات وبحوث الرفاعي، سواء في مجلة قضايا إسلامية معاصرة، أو عبر مقالاته وحواراتنا، فاكتشف بنوع من الغبطة اهتمامه الجاد لدمج المعرفة العلمية والكشوفات المتحصلة من التجارب البيولوجية والفيزيائية والاجتماعية لمعاينة الواقع الإنساني من منظورات متساوقة، عبر النقاش والحوار دون مصادرة رأي مغاير بل مساءلته ووضعه على طاولة الاختبار.

يعمل المفكر المجدد الرفاعي وسط بيئة بشرية مضطربة، تنعكس عليها مؤثرات متعددة خارجية وداخلية، ويواجه تحديات شتى، في حين تتضافر تلك المؤثرات على تفكيك بنى المجتمعات، وإحداث انزياحات في منظوماتها القيمية التي ترسخت لعهود طويلة في وعيها الجمعي.

من بين أهم السمات التي تميز اشتغال الرفاعي اختراقه لأطر المفاهيم والأفكار الموروثة المستتبة، وتجاوزه لكثير من المحظورات في طرح تساؤلات خلخلت السكون الفكري الديني، مثلما هو حرصه على فتح حوارات مستفيضة مع مفكرين مختلفي التوجهات الفكرية والمنطلقات، لإخضاع المزيد من الثوابت الصارمة للتفكيك، بعد أن ظل الاقتراب منها محسوبا في باب المحظورات.

التقيت الدكتور الرفاعي للمرة الأولى في عمان لدى حضوره مؤتمراً فكرياً، وكنت على موعد للقاء المفكر اللبناني الدكتور علي حرب في فندق كمبنسكي، وأذكر أن الدكتور علي حرب انشغل باجتماع طارئ ساعتها، التقيت الدكتور الرفاعي بحضور الصديقين الدكتور حيدر سعيد والأستاذ عواد علي، وبدأنا حواراً عن معضلاتنا العراقية، ودور المثقف وسط ضجيج العصف السياسي والتبدلات المتسارعة في المحيط العربي والعالمي، وأهديته حينها اثنين من كتبي الصادرة حديثاً: رواية "سيدات زحل"، وكتابي "يوميات المدن"،وظل حوارنا متصلاً عبر البريد لالكتروني، إذ كان يرسل لي دراساته القيمة والأعداد الجديدة من مجلة قضايا إسلامية معاصرة، والتقينا ثانية في معرض الكتاب الدولي في أربيل ـ ربيع ٢٠١٣، واتصل الحوار الذي انقطع بيننا، وكنت أتابع نزوعه لمعاينة علاقة الإنسان بالدين والمقدس، عبر الفلسفة ومحمولاتها الفكرية، عن طريق قراءة مغايرة للنص الديني، حينها كنت مستغرقة في قراءة تمثلات المقدس في الحضارات القديمة، وملاحقة الرؤى الفكرية حول الدين في موسوعة "ميرسيا إلياد" الهامة "تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية"، للتعرف إلى الجوانب الإبداعية والأصولية الدينية لدى أسلافنا، سكان مابين النهرين وتأسيسهم للوعي الديني الممتزج بالمتخيل الميثولوجي، باعتبارهم سباقين في ابتكار المفردات الثقافية للحضارات الأولى،كما عند الثقافات المبكرة المتزامنة معها أو التي تلتها،

وكشف لي الكتاب حينها عن الوحدة العميقة وغير المنظورة للنفس البشرية، ووحدة التاريخ الروحي للبشرية..

منحتني قراءتي لأعمال الرفاعي أملاً في أن يغادر هذا الفكر المتنور المجدد حدود البحوث والكتب والمجلات والمؤتمرات، ويصبح عنصراً فاعلاً في التحديث والسلم الاجتماعي، باعتماده في الدراسات الأكاديمية والمناهج التعليمية، من أجل بناء الشخصية السوية التي لا تنسحق إزاء جبروت المقدس، بل تتفهمه، وتتغذى على ثرائه، وتعتمد تفصيلاته الأساسية كطريقة حية للعيش، دون إرغام، أو قسر، أو إنذار، أو تبشير، كما أعطتني قراءة فكر الرفاعي أملاً آخر لكشفه تحجر المؤسسة الدينية، التي لا يمكن العمل على تجديدها وتحديثها إلا في إطار التحديث الحقيقي والشامل لمجتمعاتنا التقليدية وأطرها المتعطية، وان تتغلغل الحداثة في المفاصل الدينية والتربوية والتعليمية والثقافية والاقتصادية والسياسية، وحينها سيكون التحديث شاملاً مكتملاً، دون تناقضات صارخة بين الاستخدام اليومي لمنجزات الحداثة وما بعدها، والالتزام المتحجر بالنص، دون استيعاب واع لمؤداه.

أن فكر الدكتور الرفاعي المعني بالحداثة والانفتاح الفكري تصدى بجرأة ونعومة وفطنة لنقد القراءة النصية المغلقة للمقدس، الذي تتبناه المؤسسات الدينية المحافظة للطوائف والأديان كلها، وكشف على هذا الأساس تلك القراءات المبنية على تبادل المنفعة بين الفرد والدين في سردها وتأويلها للمقدس، على آلية الترغيب والترهيب، لا على حوار العقول والوعي والقبول الحر، فتنسخ بذلك الأبعاد الإنسانية في المنظومة الأخلاقياتية للجذر الديني، وتحل محلها مفاهيم مبسطة ومسطحة، تعطل العقل، وتقصي الروح، وتركز على النفعية الخالصة التي تحصر كل سلوك ضمن مفهوم الصفقة.

تتركز جهود المفكر الرفاعي على إخراج المعنى الجوهري الأخلاقياتي للدين من منطقة الصفقة والنفعية الموعودة، التي يبشر بها الخطاب الديني التقليدي إلى صعيد السلوك اليومي الاجتماعي، والالتزام بقيم النزاهة، والأمانة، والصدق، واحترام الاختلاف في الرأي، وقبول أنماط متعددة للحياة، لا الإلزام بنمط واحد تتبناه المؤسسة الدينية وتلزم المجتمع به تحت طائلة العقاب والثواب. إن خطاباً مجدداً ومتحرراً كخطاب الدكتور الرفاعي جدير بأن يتصل بالسلوك اليومي للناس، لضمان ضخ دماء جديدة في الأفق الإسلامي، الذي ابتلي بعنف المتشددين والإرهابيين الأصوليين، وتقديم صورة مناقضة لما تقدمه الجماعات المتشددة عن جوهر الدين الإنساني وأهميته في تقدم المجتمع وتطوره، بعيداً عن تحجيم الوعي البشري، عبر سوط التلويح بالثواب وسوط القصاص.

عبر معرفتي بالرفاعي أدركت أن ثمة نوافذ مشرعة على النور في الجهود الفكرية المتعلقة بمساءلة الدين وتحديثه، فمفكرنا الرفاعي يعمل في مجال وعر وصعب ومحفوف بالمحظورات

والتحديات والرفض من قبل المؤسسات المنغلقة، لكنه لا يكف عن تقديم رؤاه الواضحة المستنبطة من اشتغالات فكرية عقلانية، ففي كتابه القيم "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" هناك التقاء حيوي مع الأفكار والفلسفات الحديثة والجهود العلمية التي تعمل مجتمعة لاستعادة الإنسانية من ضياعها وتبددها وسط الصراعات الدينية والعرقية المفضية إلى التعقيدات السياسية والنزعات الاستهلاكية ومنظومات الاستغلال. ينتقد الرفاعي في كتابه هذا بقوة ووضوح القراءات القمعية الحرفية للنصوص الدينية، ويحملها مسؤولية طغيان العنف والتشدد، لأنها لبثت في تحجرها وجمودها متوقفة عند حدود الماضي، رافضة للصيرورة والتبدلات الكبرى التي تمثل حقيقة الحياة وحيويتها، ففي تمسكها بحدود البدايات الأولى للدين في مراحله السابقة، أخذت تحارب الحياة المعاصرة ومقومات جمالياتها كالفنون والموسيقى، التي تنمي روح الإنسان وتطلق جوهره الإنساني، وتحميه من الانحدار نحو شريعة الوحش وسلوكيات الغاب.

لطالما وجدت في الحوار مع الأخ والصديق المفكر الرفاعي نزوعه العرفاني الجلي، وهو يحلل التجربة الصوفية المشرقة، التي تعد مرتبة سامية لا يرقى إلى بلوغها سوى الخاصة من العرفانيين والروحانيين. وأزعم أنني من المولعين بالنزعات العرفانية والفكر الصوفي، ولطالما قرأت للعرفانيين الكبار، مثل: مولانا جلال الدين الرومي، وابنعربي، والسهروردي، على نحو خاص، فعند زيارتي لضريح جلال الدين الرومي في قونية، استعدت قراءاتي المبكرة لابن عربي والسهروردي والرومي والحلاج، واستلهمت من زيارته قصتي الطويلة "موسيقى صوفية"، التي مزجت فيها بين الشغف بالفلسفة والرياضيات، وموسيقى التصوف لدى بطل الرواية، لقد وجدت في اهتمام الرفاعي بالجانب العرفاني تجديداً مشرقاً للفكر الديني، وإنقاذا للروح من أسر التعاطي النفعي مع الدين، فالإحالة إلى مولانا جلال الدين الرومي تأكيد بليغ لدوره اللامحدود في التجديد الإسلامي، واعترافاً بالأهمية الإبداعية الفنية، بخاصة الشعر والموسيقى والرقص الصوفي، في السمو بالأرواح، وتعميق صلتها بالجوهر النوراني، وإن اهتمام الرفاعي بالفكر الصوفي والعرفاني قاد جهده المعرفي إلى"لاهوت الحرية"، الذي يعد احد المبشرين الكبار به، على خلاف اللاهوت الكهنوتي المتسم بالفقر المعرفي، والاستكانة إلى المواضعات المتواترة..

سلاماً لفكرك النير أخي الصديق الروحي الدكتور عبد الجبار الرفاعي، ولك ما نتمنى من طول العمر والصحة والإبداع، لتمنحنا المزيد من رؤاك الفكرية، ومسعاك التجديدي، واشتغالك في مدى الإشاحة عما هو عرضي وطارئ في الدين، وإضاءة جوهره الإنساني الذي يلائم كل عصر، ولا يخالف المعطيات العلمية القيمة لزمننا، بل يتضافر معها في احترام رفيع للنزعة الإنسانية. ❖

المشروع الفكري للعلاّمة الرفاعي
محاولات لخرق السكون وبناء جيل آخر

✍ الشيخ حيدر حب الله[١]

سوف أحاول في ورقتي المتواضعة هذه أن أتحدّث عن مفردة جزئية بالغة الأهمية عندي، وهي دور الدكتور العلامة عبد الجبار الرفاعي ومشروعه «قضايا إسلامية» و«قضايا إسلامية معاصرة» في خلق وعي ديني جديد في المؤسّسة الدينية العربية، في الفترة ما بين بداية التسعينيات من القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة، وبالضبط إلى تاريخ سقوط النظام العراقي عام ٢٠٠٣. سيكون كلامي مركّزاً على هذه الفترة، انطلاقاً من أنني لا أريد الحديث بالمطلق بقدر ما أريد الحديث عن تجربة عايشتها بنفسي.

على خلاف الحال من حوزة النجف في العراق، والتي عرفت في جانبها العربيّ حراكاً ثقافياً وأدبياً ممتازاً في القرن العشرين، ورأينا فيها ملتقيات الأدب والشعر والنثر والثقافة تزدهر وتنمو، وتنتج شخصيات وأدباء وشعراء، وأصحاب قلم أفذاذ نادرين ما زال الفكر الديني والعربي ينهل من قلمهم ومعرفتهم وتجربتهم الفكرية والأدبية والثقافية الفريدة.. على خلاف ذلك كلّه، لم تكن الحوزة الدينية العربية في مدينة قم في إيران لتشهد ثورة معرفية نهضوية تسعى لتأسيس وعي ديني جديد.

فالحوزة العلمية العربية في قم حديثة الولادة، حيث لا ترقى لأكثر من أربعة عقود، ورغم كلّ الحراك الثقافي الكبير الذي شهدته الساحة الإيرانيّة خلال القرن الماضي، إلا أننا لا نجد تأثيراً موازياً في المؤسّسة الدينية العربية داخل إيران، بل ظلّت هذه المؤسّسة تعيش ـ في الغالب ـ رتابة الدرس الديني في علمي الفقه والأصول، إلى جانب اهتمامات أخَر تتعلّق بمجال الجدل المذهبي العقدي والتاريخي، فضلاً عن مجال الترجمات وأمثال ذلك.

لقد كان من المتوقّع أن تنعكس الأحداث الفكرية والثقافية الناهضة في بلد مليء بالحراك الفكري والثقافي والسياسي كإيران، على المؤسّسة الدينية العربية التي تعيش في هذا البلد، وكان هذا أمراً منطقيّاً، لكنّ ما نشاهده هو أنّ ذلك لم يحدث بالشكل المطلوب.

ولا أريد أن أدرس هنا الأسباب التي أدّت وما تزال إلى ذلك، فلعلّ الحماس السياسي كان له تأثيره في بعض الأحيان لجرّ الجيل الصاعد من رجال الدين نحو الاهتمام بالقضايا السياسية وأمثالها، على حساب القضايا المعرفية والفكرية والأدبيّة والنهضوية العامّة، كما

(١) باحث وأستاذ في الحوزة العلمية، رئيس تحرير مجلة الاجتهاد والتجديد ومجلة نصوص معاصرة.

ولعلّ الفضاء الأدبي الإيراني أثّر أيضاً في تراجع الأدب العربي في الحوزة العلميّة في مدينة قم، فنحن نجد في هذه الحاضرة العلمية الكبيرة حضوراً واضحاً لأدبيات الشعر الفارسي مع سعدي الشيرازي والفردوسي وجلال الدين الرومي وعمر الخيام وغيرهم من عمالقة الأدب الفارسي والعالمي، لكنّ الأدب العربي والشعر والنثر ليس لهما حضور يذكر، فلا تجد للمتنبّي ذكراً، ولا لزهير بن أبي سلمى ولا للمعرّي، ولا لغيرهم من رموز الأدب العربي تأثيراً وحضوراً وفعلاً. المناخ الجغرافي ترك أثراً كبيراً. بل المؤسف أنّ الثقافة العامّة كانت تميل نحو تصنيف الاهتمام بالأدب والشعر والفكر المعاصر بمثابة تسافل معرفي وتهاوي فكري واجتهادي، وهذا ما نزال نرى تأثيراته واضحة في هذا المضمار.

ولعلّه يمكنني القول بأنّ الحركة الفلسفية والعقليّة كانت الأقلّ حظاً في الوعي العربي في حوزة قم، ولهذا الأمر أسبابه المتعدّدة التي لا نخوض فيها الساعة.

وخلاصة القول: إنّ الجيل العربي الصاعد في حاضرةٍ علمية كبيرة مثل قم، كان غائباً بدرجةٍ ما عن محيطه الفكري والثقافي والمعرفي.

في خضم هذا الوضع، جاء مشروع «قضايا إسلامية» ثم «قضايا إسلامية معاصرة» الذي أطلقه الباحث العلامة الأستاذ الدكتور عبدالجبار الرفاعي، يقظةً كبرى في وعي رجل الدين العربي في الحاضرة الشيعية الفاعلة في تلك الفترة وهي مدينة قم، فضلاً عن ارتداداته عند المثقف العراقي عامّة، وكذلك العربي بصورة شاملة.

كان المشروع متميّزاً بخرقه للسكون، الذي كان مسيطراً إلاّ من القليل هنا وهناك. فقد أقحم قضايا العصر في داخل أوساط النخبة الدينية العربية، وقلّص الفاصلة التي كانت بين هذه النخبة ومحيطها الجغرافي الذي كان يعجّ بالجدل، ويقف على مفترق طرق لتحديد مسارات فكرية كبرى، وتقرير مصائره في قضايا حرجة للغاية،فاستيقظ جيلٌ من الشباب في الأوساط الحوزوية الدينية على قضايا ومقولات وجدليات لم يكن يسمع بها أو يتابعها من قبل، رغم أنها كانت تحدث على مقربة منه في إيران الثورة والجدل.

أوّل مزايا مشروع علامتنا الرفاعي هذا، هو الصدق الكبير الذي يلمسه كلّ متابع للظروف التي كانت تصدر فيها هاتان المجلتان آنذاك، فقد كانت ظروفاً ماديةً ومعنوية صعبة، وليس هناك في الوعي الديني السائد آنذاك ما يوفّر دعماً مادياً ومعنوياً لمشاريع من هذا النوع؛ ذلك أنّها كانت تصنّف في دائرة مشاريع الخطر، لهذا أقدم الأستاذ الرفاعي على مثل هذه المشاريع مضحّياً بالكثير من وضعه الشخصي المادّي والمعنوي، ولو لم يكن في مثل هذا المشروع غير هذه السمة لكفته ميزةً وقيمةً واعتباراً.

ولو أردت أن أتخطّى الجانب الذاتي في هذا المشروع، وهو جانبٌ فيه ذاك القدر من التسامي والتضحية والصبر، فإنّ أوّل ما يواجهني فيه من الناحية الموضوعية،هو خرقه

للسكون، وإحداثه لصوت جديد في الأوساط الدينية العربية، وجرّه جيلاً صاعداً من النخبة للتفكير في أمور لم يسبق أن فكّر فيها هذا الجيل من قبل. هذا الخرق للسكون له ضريبته الخاصّة في العادة، فأينما ذهبنا نجد اليمين واليسار حتى في العلوم الطبيعية نحن نجد هذا الأمر، وخطوة من هذا النوع كفيلة بأن تصنّف علامتنا الرفاعي في دائرة اليسار المقلق لأولئك الذين لطالما لم يريدوا سوى استمرار السكون والجمود والفراغ.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، فقد كان مشروع «قضايا إسلامية معاصرة» في انطلاقته متميّزاً بموضوعية وحيادية علمية رائعة، لقد كان الدكتور الرفاعي مصرّاً ــ فيما يبدو لي ــ على عرض المشهد الثقافي الإيراني (وهو المشهد الذي يعبر عن أنموذج خاصّ لكل ثنائيات عالمنا العربي والإسلامي) بأمانة وحيادية عالية، حيث كان يقدّم وجهات النظر المختلفة حول أكثر القضايا الدينية إشكاليةً على مستوى علم اللاهوت الجديد وفلسفة الدين وفهم النص.. هذا الأمر مكّن الجيل الذي تربّى على وعي «قضايا إسلامية معاصرة» من تحصيل رؤية موضوعيّة متنوّعة، بدل رؤية أحادية لا يحظى الآخر فيها بحضور، ولا ينعم فيها بحقّ العيش في دنيا الفكر والعقل والمعرفة.. وهذا البعد التربوي كان هاماً لتربية جيل وعي ديني في الحوزة العربية يتخطّى الانحيازات السلبية البغيضة..

يتعزّز عندي اقتناعٌ من هذا النوع عندما كنت أرى في تلك الفترة قلم الدكتور الرفاعي وحديثه المباشر، متسماً بالهدوء والموضوعيّة والبعد عن الانفعال.. كما كان حاملاً لهمّ الوعي والانفتاح وقضايا الدين والإنسان الكبرى.. اتزان الشخصية العلمية وتوازن القلم يمكنهما في مناخ ديني أن يتركا أثراً، رغم تعرّض علامتنا الرفاعي حينها للنقد الشديد والتجريح الآثم، والتحامل على مشروعه الفكري هذا.. فبدل أن يحظى بالتكريم، لم يكن يجد إلا النقد غير الموضوعي..

لقد كنت في الجيل الذي تعرّف على قضايا الدين الكبرى من خلال روافد من أهمّها مشروع أستاذنا الرفاعي، ولمسنا حينها هذا الهياج المعرفي والشوق الوجودي لبناء فهم آخر للدين يتخطّى جزئياته ليحظى بكلّياته، ليكون الدين أخلاقاً عالمية، وروحاً تتسامى في الكون كلّه، ووجداناً يخلق الاتصال بالله،دون أن يعني ذلك القطيعة مع عباده.

لطالما كنت أتمنّى أن يحظى شخص متميّز مثل أستاذنا العلامة الرفاعي بجهاز عمل محيط به يستطيع أن يبلغ بمشروعه مديات بعيدة، لكنّه قَدَر الكبار في عالمنا العربي والإسلامي، أنّه يجب عليهم التضحية بأنفسهم وأن يعيشوا حياة الغربة في المكان والمحيط الذي أرادوا أن يخدموه ويقدّموا له يد العون. هنيئاً للدكتور الرفاعي مشاريعه الفكرية هذه، وهنيئاً له قلمه وحضوره الفكري، وهنيئاً لعالمنا العربي بنماذج فكرية متميّزة ونابضة بالوعي والبصيرة. ❖

الرفاعي يغادر منطقة التابو نحو لاهوت للانتقال الإنساني

د. عبدالأمير زاهد[(١)]

يسرني أن أقف أمام صديق عزيز ومفكر كبير، يحتشد له ومعه جمع من مثقفي مدينة النجف الاشرف، لنحيي أخانا وعزيزنا وصديقنا الأخ المفكر الدكتور عبد الجبار الرفاعي، ويحتفى به من منتدانا "المنتدى الوطني للفكر والثقافة"، و"فضاء الثقافة في النجف الأشرف"، و"المكتبة القرآنية المتخصصة".

إننا إذ نقف اليوم عند تخوم هذه الشخصية المميزة؛ إنما نقف على معلم مهم من معالم العصر وتحولاته المنهجية والفقهية، لأن الشخصية العلمية هذه كينونة مهمة، عرفها البحث الأكاديمي؛ في الربع الأخير من القرن الماضي، ومطلع القرن الحادي والعشرين.

لقد ولدت وترعرعت هذه الموهبة المكتنزة في أرياف ذي قار، وكان بدء التكوين الأول لها؛ إنها تعلمت مع الأبجديات ثقافة الصابرين، وتعلمت كيف يتحول الفقر إلى سؤال كبير؛ يعصف بالأذهان عن سر افتقاد العالم الراهن للمساواة والعدل. لقد أتم الرفاعي هناك تعليمه الأساس، ثم هاجرت هذه الشخصية عاشقة التهام المعرفة من كنوز النجف؛ الحاضرة فكراً وفقهاً ومنهجاً وأدباً، هذه الحاضنة التي أدخلت العقلانية في الدين، حتى بات الفصل بين العقلانية والدين صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، وألزمت نفسها بالاجتهاد، فتمسكت به طريقاً لإيصال الوحي إلى العصر، وتبنت المنهج النقدي، ومارسته على كل مستويات المعرفة؛ لأنها أدركت أن الفهم الإنساني للنص أو للتراث يبقى في حدود النسبية المعرفية، فعلمت مدينة النجف الناس أولاً أن يجتهدوا في الفروع التفصيلية، لكن طائفة من سدنة المعرفة؛ لم تأذن أن تتحول قضايا الكلام القديم، كمسائل الجبر والاختيار، إلى قضايا في علم الكلام الجديد، فيناقش المفهوم المعاصر للحرية، رغم أن هذا العلم قد تعاظم دوره في صناعة المشروع الحضاري لكل الأمم الناهضة.

وجاءت مبررات الهجرة إلى المنافي، واختارها الرفاعي فيما أظن مضطراً، فذهب إلى حيث تشتبك الآراء، وتتدافع الرؤى، وتتمظهر الحماسة بجدل هادئ أو عنيف، وتتخلله أحياناً

(١) أكاديمي وباحث وأستاذ للدراسات العليا في جامعة الكوفة.

جملة مزايدات وممارسات من التطرف والمغالاة، فكان شغف الرفاعي للمعرفة الجادة عنصر الترجيح؛ بين البقاء بالوطن الممتحن بالقتلة، وبين الهجرة بأعبائها النفسية والتاريخية والوطنية، وظني انه هاجر؛ ليس فقط لأنه كان خائفاً يترقب، إنما أراد أن يلتقي بالعبد الصالح، الذي عنده علم من الكتاب؛ حتى يعلمه شيئاً مما يعرف، وأغلب ظني أنه هاجر إلى بلاد الحراك المعرفي والروحي؛ ليمارس عشقه الجديد في التعرف على علم كلام جديد، فبدأ بتعلم أصول الفقه، كمنهج منتج لمعرفة جديدة، وتطلع إلى شيء غير ما كان يعرفه من منهج الشيخ النائيني، وقوانين القمي، وكفاية الآخوند الخراساني، ورسائل الأنصاري؛ لأنه قد انقدحت في ذهنه باعثية التجديد، وعشق اولا ما عند المؤسس المعاصر للتجديد شيخنا الأستاذ محمد رضا المظفر، ولكنه فيما بعد رأى أن محاولة المظفر لم تكن إلا إعادة صياغة لتلك المضامين بلغة معاصرة، فذهب يبحث عن مضمون جديد لمنهج الاستنباط، كما فعل طه العلواني والمرزوقي والترابي وحسن حنفي.

ولا أدري هل طوى الرفاعي المسافة بين الوحيد البهبهاني ومن تقدمه من أساطين العلم؟ وهل اختزل البعد المعرفي بين الأنصاري وعصر السيد الخوئي والشهيد الصدر؟ وهل رست مشرعته على بر في نظرية أصولية تتجاوز المباحث التي قتلها التكرار، ولم يميزها البحث الخارج، أهي ولودة أم عقيمة، ثم تعلم الفقه على مسلك شرائع المحقق الحلي، والروضة البهية للشهيد الثاني، والبحث الخارج بتقاليده التي ما تغيرت منذ قرن، فوجد نفسه خارج ساحة المنازلة؛ لأنه تواق أن يكتشف جديداً، ولا جديد في هذه الميادين، على الأقل في ظرفة الذي عاشه، فانتقل إلى شرف المحاولة في البحث المعمق عن فلسفة التشريع؛ وانتهى به المطاف إلى فلسفة الفقه، وهو الرابط الأبستيمي بين علم الكلام الجديد والمنهج الأصولي المعاصر للاستنباط. فنجح في هذه المحاولة، وعد من الأفراد المميزين في البحث بذلك المضمون،لكنه لم يكتف بذلك بل كان الدكتور الرفاعي يمارس دور الكشف والاكتشاف؛ فأدى به هذا المسلك إلى التوقف عند التصوف، كمنظومة قيمية دينية؛ ليتعرف من خلالها على عرفان الشرق، من خلال تأملات ابن عربي، وإشراقاته على العلامة المفسر السيد محمد حسين الطبطبائي، والشيخ المطهري، الذي اعتبر معلم عرفانيات العصر الحديث، ذلك العرفان الذي بدأ بابن سينا في تطورات المشيئة الإلهية والإرادة الإنسانية.

من هذه النقلات أجد من المقبول القول؛ إن الرفاعي قد غادر منطقة التابو، لكي يفكر في عرصة مفتوحة الآفاق، أو لكي يفكر وهو يفصل بين الأيديولوجيا والمعرفة، وبين

المعرفة والعلم، وبين العلم والوعي، فوجد في حفرياته؛ إن طبقات من التطورات والرؤى قد علقت بتلك المعرفة التي سميناها تراثا، وأظنه لا يزال يحاول إن يفرز ما هو معرفي عما هو أيديولوجي، ولا يزال يفرز التراث الذي ليس قطعاً من الدين عن الدين، لأن التراث؛ هو المنتج الإنساني في عصر ما. وفي خضم ذلك حاول الرفاعي أن يمهد لوضع قوانين فهم، للوصول إلى وعي النصوص الدينية، ليصح أن نطلق على ذلك الوعي الفكر الديني، أو ما يسميه الدكتور عبدالكريم سروش المعرفة الدينية. فمعنى التراث بالنسبة للرفاعي كان نقطة البداية لمشروع يسلط الضوء على عتمات الزمن، وكان تجديد التراث جهده الوسيط وغاياته السامية، وكان تفكيره عبارة عن ترسيخ للمحاولات التي تسهم بإعادة تفسير التراث وتحليله واستخراج رموزه؛ طبقاً لحاجات العصر، فتعامل مع التراث بوصفه وسيلة، ولكنه تعامل مع الإنسان بوصفه المعيار، ومع العصر باعتباره التموضع.

واتضح عند الرفاعي أن جهده عبارة عن سعي حثيث وجاد ومختلف؛ لإنقاذ الواقع في عالمنا المهزوم حضاريا، والعاجز عن حل مشكلاته، فانطلق يتعامل مع التراث الإحيائي بنظرية عمل؛ مستفيداً من فعل السيد محمد باقر الصدر.

لقد تعامل مع هذا التراث الإحيائي؛ كمخزون معرفي ونفسي مستقر في الضمائر والوجدان، فانكب على تسليط التنوير على تجلياته. وكان يريد إن يكون وعي التراث وعي تجديد؛ لأن كلاهما شرط من شروط النهضة، كما يقول مالك بن نبي.

هنا كما يتراءى لي؛ أن الرفاعي اشتبك مع إشكالية المأزق الحضاري، وعسر الولادة القيصرية لمشروع النهضة في العالم الإسلامي، لأن قرنا من محاولات التنوير لم تحقق وعياً للأجيال، نحو بناء عالم جديد يبعث فيه الإنسان كائنا آمنا، كريما، حراً مصوناً من شرور الاستبداد بكل أشكاله السياسي والديني، فمنذ حركة الأفغاني والنائيني نحو دولة الحرية ودولة الدستور وحكومة التكنوقراط، لم تتحول النظرية وحراكها إلى مشروع للأمة، حتى انتكست النهضة على يد التعصب والأصولية، التي حملت التراث على فهم قاصر، تتوسل إليه بقتل الناس بالمفخخات، وهدم المدنية بالخرافة، ولم يقاوم هذه الموجة الظلامية إلا التنوير، وتنوع المناهج في نقده؛ حيث تتبارى أقلامنا في نقده.

ولأكثر من نصف قرن من محاولات أنسنة الفكر الإسلامي، كان العالم ينتظر مشروع التنوير المعاصر، لكن المشروع ولد جنيناً مشوهاً، سمي ربيعاً، لكنه ربيع متعصب فوضوي دوغماتي، نقل الأمة من عصر الدوغماتية القومية، المشروع العنصري الذي يوظف التراث إلى دوغماتية المشروع الأصولي الظلامي، الذي يقسر الناس على أسوأ ما في التراث.

وفي خضم هذا الواقع كانت "مجلة قضايا إسلامية معاصرة" تؤسس لمنهج أكاديمي علمي؛ يرفض سطوة التراث، ويرفض أدلجة الدين، ويفصل بين الدين؛ بمعنى نصوصه المقدسة المتعالية، وبين التراث بمعنى فهم الإنسان لهذه النصوص.

لقد تعامل الرفاعي من خلال مجلته مع أنماط متعددة من الوعي في أبحاثه الثرية والمكتنزة، ودخل في حوار عميق مع الحالة السكونية، سواء كانت السلفية، ام النزعة التجسيدية المغتربة؛ لأنهما معاً يريان إن حقبة تاريخية محددة هي النموذج، وهي المعيار، وهي الحاكمة على الأزمنة المتلاحقة، ومنها يجب إن تنتزع توصيفات الحاضر، فتحولت تلك الدعوات السلفية والتجسيدية إلى دعوات كبيرة ضد الاجتهاد، وضد العقل وضد العقلانية،وضد النقد، وضد التطوير في المباني والبنى الفوقية، لذلك دخلت قضايا إسلامية معاصرة في حوار جاد؛ لإيجاد توازن معرفي، بين معرفة الله ومعرفة الإنسان، والتعامل مع عبادة الله كأنها غاية لإرادة الإنسان، الذي هو جزء من الناموس الكوني وقوانين الخلق.

لم تغرق قضايا إسلامية معاصرة في تاريخية التراث، بل تخطته إلى جوهره ومقاصده وروحه، فلم تدرس الظواهر على وفق سكونيتها، بل حفزت قراءها على تحدي القرون، التي اثقلت بسايكولوجية الإحباط، تلك القرون التي رفضت ان تمنح الأمة حق الاجتهاد، وحرمت الفلسفة والمنطق، فانطفأ السراج الذي أوقده الكندي، الذي ظل متوهجاً حتى ابن سينا وابن رشد، لقد أطفأه الغزالي في "تهافت الفلاسفة" والشهرزوري في فتواه التي حرم بها استخدام العقل الفلسفي والمنطق، من أجل الكشف عن مفاصل المعرفة. لقد كان ذلك هو سبب التردي الحضاري الذي ظهر في العالم الإسلامي، وجعله عالماً مسحوق الإرادة والوجدان، ومشحوناً بأفكار العداء للإنسانية، وكان جزءاً من الرد في زماننا الحاضر مجلة قضايا إسلامية معاصرة، إذ كان سؤالها الدائم: كيف نعيد مجد حضارتنا؟ كيف نحيي تراثنا؟ كيف نجذره؛ دون إن نخنقه في قراءة تاريخية؟ وما المنهجية العلمية لنقده؟ لقد صار للتراث في عرف مجلتنا أبعاداً سياسية وتاريخية واجتماعية، وصار تجديد التراث يعني تجديد الحراك في أبعاده الحضارية، نحو لاهوت للانتقال الإنساني؛ من غيبوبة الوعي إلى شروط الأحياء، ومن الاستبداد إلى وعي الخيار الحياتي الحر.

أنا أيها الإخوة، حينما أتحدث عن الرفاعي؛ أتحدث عن مدونته قضايا إسلامية معاصرة. المدونة التي حققت قضاياها المعاصرة، وحققت أهدافها، واعتقد أنها من أكثر المدونات الأكاديمية تعاملاً مع علم اجتماع الدين، وعلم أنثربولوجيا الدين،

وعلم نفس الدين، والهرمنيوطيقا والسيمياء والعلوم الألسنية، وتطبيقاتها المنهجية في تفسير النصوص الدينية. ولأن التراث قد تحول فيها إلى إعادة معرفية للنهوض الحضاري، فقد خلصته من المقدس، وتناولت التراث مع متعلقات الزمان والمكان، والمنتج والخطاب والمخاطب.

واهتمت قضايا إسلامية معاصرة بالتعدد. وقد علمتنا تجربتنا على مدى نصف قرن، إن جدوى النظر الفلسفي أن يدخل الإنسان إلى رحاب الإيمان من بوابة العقل، فصار التعدد ضرورة كونية وتكوينية، وقد نجح علم الكلام التعددي كما يقول المطهري؛ إننا كلنا موحدون، ولكن الدفاع عن التوحيد يأتي من خلال ربط التوحيد بالأرض، أو ربط التوحيد بالإنسان، كما يعتقد محمد أركون.

لقد أسست قضايا إسلامية معاصرة مانعية الصدام؛ بين ثقافة الخالق،أي النص، وثقافة المخلوق،أي فهم النص، كما أسست لاستمرار أطروحة ابن رشد في الاتصال بين الحكمة والشريعة، وأعطت قضايا إسلامية معاصرة خلاصات معرفية،أكثر عمقاً من كثير من المدونات الرسمية والجامعية والأكاديمية عربياً وعالمياً. كما وضعت حجر الأساس لمشروعات تجديدية في الفكر الديني، واستطاعت أن تصل أحياناً إلى مكامن النقد في الحقيقة الدينية، ولم يكن وراء كل ذلك الإنجاز المتميز إلا الصديق العزيز الدكتور عبدالجبار الرفاعي، الذي إذا أردتم أن أتكلم عن صفاته، فأقول: انه صبور، أثبت بجدارة في خضم السنوات العجاف بصيرة وعفة، لأنه لم يبع تاريخه في سوق السياسة، وبقي شريفاً منتمياً للوطن والفقراء، ومتديناً؛ لأنه على يقين إن الله مع الإنسان دائماً، وهو صوفي؛ لأن كشوفاته التي ينفرد بها ترى إن الفجر قريب لا محالة، وهو معتزلي لأن عقلانيته تجلت فوق تقديس اللامقدس، وأنه دؤوب في عمله في قضايا إسلامية معاصرة؛ لأنها جهده من الإعداد إلى الإخراج، ولأن "مركز دراسات فلسفة الدين" تكمن مكاسبه في ضميره وعقله.

❖ ❖ ❖

عبد الجبار الرفاعي
ومشروع إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين

✍ جمال جصاني[1]

لا تنحصر أهمية هذا الكتاب في المحاور ونوع الاهتمامات التي تضمنها وحسب، بل في الوقت الذي جاء فيه، حين انكمشت "النزعة الإنسانية" مقابل هذا السيل الكاسح من فضلات الموروثات السامة، التي مسخت ذلك المخلوق الذي كرمته السماء، إلى مجرد دابة ملغمة تتفسخ وسط عيال الله.

في المواضيع والأوراق العلمية والحوارات الهامة التي نثرها الرفاعي في كتابه هذا، نشعر به مقتفياً ذلك الوجع الجميل الذي كثّفته عبارة التوحيدي المعروفة: "الإنسان أشكل عليه الإنسان". انه يدعونا إلى ذلك الإرث المنسي من الضدّ النوعي لكل ما نشاهده مهيمناً في حال هذه المجتمعات الرازحة تحت وطأة الجهل والكراهية والأحقاد والخوف منذ أكثر من ألف عام، يدعونا إلى تلك المحطات المشرقة والمترعة بالجمال والمحبة والإبداع، حيث لا أثر للكراهية والقبح والدروب التي تنتهك كرامة البشر، إلى ذلك الطريق الذي يوجزه محمد مجتهد شبستري بعنوانه المكثف: "الله يريد منا حقوق الإنسان".

هذا الكتاب الذي صدرت طبعته الثانية المنقحة هذا العام (٢٠١٣)، وصدر عن مركز دراسات فلسفة الدين ببغداد بالتعاون مع دار التنوير للطباعة والنشر في بيروت، يتضمن ٢٥٦ صفحة، ويأتي هذا الكتاب في سياق إصدارات سلسلة "تحديث التفكير الديني"، التي يشرف عليها الدكتور عبد الجبار الرفاعي. وقد صدر منها أربعة كتب، الأول هو كتاب "قوة الدين في المجال العام"، ويتضمن ندوة هامة شارك فيها: الفيلسوفان الألماني يورغن هابرماس، والكندي تشارلس تيلر... وغيرهما. وعرّبها المترجم العراقي المعروف: فلاح رحيم.

أهدى الرفاعي هذه الطبعة الجديدة من كتابه بعبارات اكتنزت بمغزى بعيد الغور، كتب فيه:

---

(١) كاتب وإعلامي عراقي. عرض وتقديم لكتاب: د. عبدالجبار الرفاعي "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين". بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين – بيروت: دار التنوير، ط ٢، ٢٠١٣. سلسلة: "تحديث التفكير الديني".

إلى صديقي: المتصوف خارج إطار الأديان المرحوم كامل شياع..

وكل من يعرف شيئاً عن تعقيدات الحالة العراقية وحجم اللبس والغموض التي يحيط بها؛ نتيجة عقود من التزييف والمسخ لروح الإنسان وبوصلته، يدرك نوع الشحنات التي حملتها مثل هذه العبارة العابرة للبرك الآسنة السائدة في هذه المضارب المنكوبة بالأحقاد والثارات.

يتضمن هذا الكتاب ١٣ موضوعاً، تتضمن أوراقاً علمية شارك بها الدكتور عبد الجبار الرفاعي في عدد من اللقاءات والمؤتمرات العلمية وحوارات، منها: الدين هو الذي يمنح الكائن البشري معنى لحياته وسلوكه/ في حضرة مولانا: سياحة في عالم المعنى/ اختزال الدين في الأيديولوجيا/ فلسفة الدين ولاهوت الحرية/ من أين تشتق الكراهية مفاهيمها؟ وغير ذلك من المحاور الهامة.

في كتابه هذا يطرح الرفاعي حزمة من التساؤلات التي تساعد القارئ الجاد على التحرر من الكثير من الأثقال والأباطيل التي عفا عليها الزمن، وتثير فيه الهمّة لسبر دروب البحث الجريئة، من أجل الوصول إلى ضفاف المعارف التي تساعد الإنسان على الارتقاء بوجوده ومستقبله.

من تلك التساؤلات على سبيل المثال لا الحصر: التساؤل عن سبب عدم الاهتمام بالاتجاهات الجديدة في قراءة النص، وعدم التعاطي مع الهرمنيوطيقا الحديثة وأدواتها في تفسير النص. وعن موقع التجربة الدينية.. وغير ذلك من الأسئلة التي تثير الفضول المعرفي والهمّة للتواصل مع متطلبات عصرنا المتسارعة والمتعاظمة. ومن خلال هذا الفيض من التساؤلات يجد القارئ نفسه أمام برنامج جاد لإنقاذ "النزعة الإنسانية في الدين" من خلال الدفع صوب مشروع "بناء (علم كلام جديد)، يصوغ لنا صورة رحيمة للإله، تخلّصنا من العلاقة الصراعية المأزومة بين الله والإنسان، وتنقلنا إلى نمط علاقة شفيف دافئ، يقوم على المودة والشفقة، ويستقي من روح العشق والمحبة، كما في آثار تجارب المتصوفة والعرفاء".

ومن خلال قراءة عميقة لمجريات الأحداث المريرة التي يمرّ بها وطنه وباقي بلدان المنطقة، يأتي ذلك المشروع بوصفه استجابة لحاجات عميقة وضرورية لا محيص عنها، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الكوارث المحدقة بهذه الأوطان القديمة. يقول الرفاعي عن ذلك: (إن البنية الاجتماعية القمعية تنتج تصوراً للإله قمعياً، فيما تنتج البنية الاجتماعية الإنسانية تصوراً شفيفاً، شفافاً، رحيماً، وتتحول إلى حاضنة مثالية لنشأة وتطور "لاهوت الشفقة".

وما أحوج مجتمعاتنا لـ "لاهوت الشفقة" في عصر تضج فيه بلادنا بدعوات الكراهية وإبادة شركائنا في الوطن، ويجند فيه فتيانها وشبانها من أجل الموت لا الحياة، لأن "الموت أسمى أمانينا" فيغدو القتل والقتال مهنة وفروسية في أوطاننا). وبالضد من دعوات الكراهية وفضلات الموروث السامة ينقلنا الرفاعي إلى حيث منبع المحبة والعشق ذلك الإرث المنسي عند مولانا جلال الدين الرومي، والذي فتح له العشق طرقاً لا نهائية إلى اللّه، حيث ينشد في المثنوي:

بالمحبة تصير الأشياء المرة حلوة

بالمحبة تصير الأشياء العكرة صافية

بالمحبة تصير الآلام شفاء

بالمحبة يحيا الميت.

قد تبدو مثل هذه الدعوات طوباوية للبعض، خاصة في مثل هذه الشروط والمناخات التي تحكم قبضتها على المشهد الراهن المتخم بالهمجية والقبح والانحطاط. لكن عندما ننتزع أنفسنا من براثن مثل هذه التوازنات الشاذة والنزاعات المنحدرة إلينا من ثارات القرون السالفة، سنجد أن مثل هذه المشاريع السلمية والدعوات الميالة للتعايش والحلول البعيدة عن أساليب البطش والقوة المفرطة، هي التي تشكل ملامح العصر والحياة ومتطلبات الحياة على هذا الكوكب الذي يزداد تراصاً واندماجاً. وما تجربة الديمقراطية الأكبر على هذا الكوكب في بلاد المهاتما غاندي، والتطور والاستقرار الذي أهدته منظومة "اللاعنف" لهذا البلد الواسع والكبير، إلا مثالاً على واقعية وحتمية مثل هذه الخيارات الإنسانية المجربة.

في إحدى المحاور الأساسية للكتاب "من أين تستمد الكراهية مفاهيمها؟"، يدعو الكاتب إلى البحث عن السبل (لتحرير الدين من الفهم المتوحش والذي يشوه الدين فيحيله إلى منبع للعدوان والتعصب والكراهية)، ومثل هذه المهمة تدعونا مرة أخرى إلى اقتفاء أثر الموضوع الأساس الذي وضعه المؤلف عنواناً لكتابه القيّم هذا، أي "النزعة الإنسانية في الدين"، ومن ثم إضاءة الحقول المنسية في النصوص المقدسة وغايتها النهائية؛ (كرّمنا بني آدم) المتنافرة وتلك المنظومة التي تفتك وتنتهك حقوق عيال اللّه وكرامتهم.

أما في الفصل الخاص عن "مفهوم الدولة في مدرسة النجف" فنجد فيها الكثير من الإشارات العملية الضرورية، والتي تعكس فهماً عميقاً للكثير من الالتباسات والحلول التلفيقية، التي لم توفق في تحديث الفكر الديني. وفي إحدى تلك الإضاءات يقول: (وعادة

ما ينتهي الخلط بين مفاهيم مشتقة من سياقات مختلفة إلى ولادة هجينة، أو "تهجين المفاهيم". وهذه واحدة من أهم إشكالات الفكر الإسلامي الحديث، إذ أن الكثير من محاولاته التجديدية تعاني من أزمة تجاهل السياقات الفكرية والسياسية والاقتصادية التي ولدت فيها المفاهيم الغربية، التي يتم استعارتها ودمجها في المنظومة الفكرية الإسلامية، وهو ما يولّد بدوره مجموعة من المفاهيم الملتبسة التي يصعب إن لم يكن يستحيل، أن تسهم بنحو مثمر في تطوير الفكر الإسلامي..).

وفي زاوية أخرى من الكتاب يسلط الضوء على ذلك الكم الهائل من الترهل الذي يعيشه الفقه التقليدي السائد، إذ يقول: (.. وكان الفقه يترهل وتستبد به مشكلات مزمنة يعيد تكوينها على الدوام، وتتكرس أدواته وأساليبه المتوارثة في الاستنباط، ويكرر ذاته باستمرار، من دون أن ينفتح على فضاءات رحبة، تمنحه القدرة على مواكبة الحياة، والإصغاء لإيقاع المتغيرات الشديدة التعقيد والتنوع).

مثل هذه الدعوة للانفتاح على الحياة وعلومها ومتطلباتها المتغيرة على الدوام نجدها تصدح في الكثير من زوايا ومحاور هذا الكتاب الهام، إذ يدعو إلى فتح الأبواب والنوافذ أمام العلوم الجديدة، وان المعرفة الدينية لا يمكن أن تبقى بعيدة عن كل هذه الفتوحات العلمية والقيمية. عن ذلك يقول: (المعرفة الدينية كأي معرفة أخرى، هي حصيلة جهد البشر وتأملاتهم، وهي دائماً مزيجاً من الآراء الظنية واليقينية، والصواب والخطأ، ولا شك فان الوعي البشري كلما تنامى واعتمد على مقدمات وأدوات علمية صحيحة، اتسعت لديه مساحة الصواب وتقلص الخطأ. وهذا لا يعني أن الوحي الذي أتى به الأنبياء يكمله البشر، وإنما يعني إن فهم البشر لمضامين الوحي وكلماته يتكامل تبعاً لتطور العلوم والمعارف البشرية، أي إن المقدس والكامل هو الوحي، أما الفهم البشري له فانه ليس كاملاً ولا مقدساً).

أما في الفصل الخاص عن "محمد عبده ومحمد إقبال: رؤيتان في تحديث التفكير الديني"، فلن نحتاج إلى جهد كبير لنعثر على حلقة أخرى من الإضاءات والمقارنات العلمية الدقيقة بين عالمين وبيئتين مختلفتين واجهت قضايا مشتركة غير أنهما قدمتا لنا إجابات وحلولا مختلفة، ذلك ما بحثه الدكتور الرفاعي بمهنية وموضوعية عالية، وهما تجربتي الشيخ الإمام محمد عبده في مصر والمفكر الإسلامي محمد إقبال من شبه القارة الهندية، ذلك العالم الذي يكتنز كماً هائلاً من الثقافات المتنوعة. وفي هذه الدراسة يعود بنا الكاتب كحصيلة لتلك التجارب إلى المهمة الحيوية، ألا وهي المعرفة الدينية وعلاقتها

باللاهوت الجديد. إذ يقول: (إن تشكيل معرفة دينية مواءمة للعصر يتوقف على إعادة بناء لاهوت جديد، أو فلسفة دينية تحدد لنا مكانة الإنسان في العالم، ونمط العلاقة بينه وبين الله، وحقيقة الدين، وحدوده، ومجالات التدين، وطبيعة الظاهرة الدينية... وهذا النوع من الأبحاث يتطلب التحرر من الابستومولوجيا الكلاسيكية، وتوظيف معطيات الابستومولوجيا والعلوم الإنسانية الحديثة في الدراسات اللاهوتية). وعبر سطور هذه الدراسة نكتشف جوانب من تلك الشبكة من المعوقات الذاتية والموضوعية التي أعاقت تلك المحاولات الإصلاحية الرائدة، وكيف تحولت دعوات الإصلاح والتجديد بيد رشيد رضا وحسن البنا ومن ثم سيد قطب إلى مشروع لإعادة إنتاج السلفية والتقليد في مصر. وعن ذلك الخطر المميت والإمكانية السلبية التي تحولت إلى واقع يكتب الرفاعي: (إن أدلجة الدين والتشديد على دنيويته يفضي إلى تفريغه من مضمونه الروحي، ويستغرقه في مجالات بعيدة عن العوالم الجوانية الباطنية للإنسان، وبدلاً من أن يعمل على تطهير الباطن، وترسيخ النزعة الإنسانية والمعنوية، وتربية الذوق الفني، ومنح العواطف رقة وشفافية، بدلاً من ذلك كله يتحول الدين إلى وسيلة للكراهية، وأداة للاحتراب والصراع). وعن الدور لذي لعبه الجيل الذي تصدى للمسؤوليات الدينية بعد رحيل الإمام المجدد محمد عبده يقول الرفاعي: (لقد كان استبعاد رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب لتراث الفلاسفة والعرفاء والمتصوفة، ونعته بأنه تراث باطني ضال ومنحرف، ونفي التجربة الروحية عن الإسلام، أحد أهم العوامل لتنامي التيار السلفي النصوصي الحرفي، وهيمنته على الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية في دنيا الإسلام اليوم. وعجز التفكير الديني لدى الإسلام الأصولي، وقصوره في الانفتاح على ما يعانده من الأفكار). وفي هذه الحصيلة يدعو الكاتب إلى ضرورة العودة إلى ذلك التراث الذي تركه محمد عبده، والى ضرورة غربلته وترشيقه من أوزار الأحكام التبجيلية ومنطق الثناء والمديح الزائف... ومن ثم إلى التمييز بين المعرفة البسيطة في آثار محمد عبده، عن تلك المركبة والعميقة في آثار محمد إقبال. وهنا يحذّرنا الدكتور الرفاعي من عاهة شائعة في الوسط الثقافي، إذ يقول: (إن الأحكام العاجلة والمواقف التبجيلية لا تكف عن الارتقاء بطائفة من الكتاب والصحافيين الإحيائيين، والمبشرين بالنهضة، ودعاة الإصلاح، فتجعلهم فلاسفة كباراً ومفكرين عمالقة. وهي عاهة ثقافية شائعة في آرائنا وكتاباتنا المتأخرة، كتعويض عن مأزقنا الحضاري، وتخلفنا وعجزنا عن **المساهمة أعياد التاريخ**، وانجاز المعطيات العلمية والمعرفية والمدنية للعصر).

إسلامية المعرفة:

كما يضم الكتاب ورقة علمية قيّمة قدّمها الدكتور الرفاعي في ندوة المعهد العالمي للفكر الإسلامي المنعقدة بمدينة اسطنبول، بمناسبة مرور ربع قرن على تأسيس المعهد، سنة ٢٠٠٦، عالج فيها قضية هامة وساخنة وكانت تحت عنوان "إسلامية المعرفة.. قضية أيديولوجية من دون مضمون معرفي"، وفيها يجد القارئ نفسه برفقة بواكير النشاطات والانبثاقات وتشكل المدارس الفلسفية إلى حيث عصر النهضة، والدور الحيوي الذي شغلته المعرفة في اهتمامات فلاسفة الغرب الكبار، وصولاً إلى عصر التنوير وارتقاء المعرفة إلى حيث الذرى في الأهمية. وعن مكانة المعرفة في التراث الإسلامي يأخذنا الرفاعي إلى حيث البوابة الأولى ومفردة "اقرأ"، والتي تنبثق عنها باقي محطات الاهتمام بذلك المحور الأساس؛ المعرفة،والتي اغتنت ملامحها بجهود علماء الكلام والمتصوفة والفلاسفة والعرفاء، كل بحسب مسلماته وأدواته وآلياته. كما يتوقف عند تجلياتها لدى الإسلاميين في العصر الحديث منذ الشيخ محمد عبده ومحمد إقبال إلى السيد محمد حسين الطباطبائي والسيد محمد باقر الصدر، إلى الجماعات الإسلامية التي ظهرت في غير القليل من البلدان الإسلامية، ووضعت مسألة المعرفة على رأس أولوياتها واهتماماتها، ومن الشخصيات الفكرية التي تميزت بنشاطها في هذا المجال الدكتور عبد الكريم سروش، والذي أثارت أطروحاته في "القبض والبسط في نظرية الشريعة"، و"التعددية الدينية"، و"البسط في التجربة النبوية" الكثير من السجال.

كما نجد في هذه المساهمة النقدية القيمة التأكيد على الاستيعاب النقدي للمعارف، بوصفه شرطاً للإبداع الذاتي ومن ثم الإسهام في إنتاج المعرفة، في الوقت الذي يحذر فيه من منهج تحويل المقولات التراثية النسبية إلى مقولات مطلقة، حين يشير إلى: (إن التعاطي النقدي مع المعرفة الحديثة، والذي طالما أضحى موقفاً هجائياً، يتوارى خلفه موقف تبجيلي يغيب فيه النقد إزاء التراث، فلا نعثر على دراسات نقدية جادة للتراث لدى الإسلاميين، بينما تتراكم الكتابات في نقد الغرب وهجاء حضارته وقيمه وعلومه، بلا تمييز بين وجوه الغرب "الحضاري، والمعرفي، والتقني، والثقافي، والتاريخي، والسياسي، والاستعماري"..). إن مثل هذه العيوب البنيوية في التعاطي مع كل ما يمت بصلة لـ "الآخر" المختلف سيفضي بنا إلى متاهات لا تحمد عقباها، وكل من يتابع المشهد الراهن في البلدان الإسلامية وما يعرف اليوم بدول الربيع العربي خاصة، يلمس مخاطر مثل هذه التوجهات المتنافرة وحاجات هذا العالم الذي يزداد تعددية وتراصاً. وعن ذلك يقول الرفاعي: (إن الاحتماء بالتراث، واتخاذه ملاذاً أبدياً، واللجوء إليه في كل واقعة من وقائع الحياة، كفيل بأن يحوّل التراث من ملاذ إلى

سجن، ومن كهف إلى نفق،أو بئر، يحجب من يحتمي به عن الحياة، ويغيّبه عن العالم، ويمنعه عن المشاركة في صناعة التاريخ).

كما يسلّط الضوء على إحدى الاهتمامات التي تستنزف جهوداً وإمكانات لا حدود لها من دون أية جدوى سوى الهدر والغوص عميقاً في دروب المتاهة والضياع، ألا وهي محاولات "تديين المعرفة" وأدلجتها هذا الهدف الذي تورّم بشكل لا يتخيله العقل بفعل حماسة دول الرزق الريعي. وعن ذلك يؤكد استحالة بناء منظور علمي للطبيعة والكون والإنسان عبر الاستعانة بالرؤية الكونية التراثية التقليدية، وخير دليل على ذلك هو مرور أكثر من ربع قرن على مثل تلك الدعوات من دون ظهور أية محاولة جادة لصياغة وبناء أي علم إسلامي من العلوم الاجتماعية..!

العقلانية سبيل النجاة:

منذ أكثر من ألف عام وعام تعرضت مسيرة العقلنة في هذه المضارب إلى ضربات موجعة وقاصمة، وبعد قرون من السبات والركود انكمشت عقلنة أمور الحياة والكون إلى مستويات لا مثيل لها، حيث تقبع شعوب وقبائل هذه الأوطان القديمة اليوم في قعر ترتيب أمم ومجتمعات هذا العالم الذي تحوّل إلى قرية في العقود الأخيرة. وعن ذلك الانحطاط والتقهقر يصرّح الرفاعي: (تشتد سطوة التراث عبر حضور فكر الأموات ومقولاتهم، بل يغدو الأموات هم مصدر الإلهام للكثير من المعاني في حياتنا، وتعلي مجتمعاتنا من مقاماتهم عندما تنصبهم حكاماً على الأحياء، وتعود إليهم في ما تواجهه من تحديات، وتستعير آراءهم في أكثر القضايا والمستجدات). وفي الموضوع نفسه يتوقف عند دور اللغة في تشكيل ملامح الأحداث والمعطيات بما تكتنزه من شحنات ورموز، إذ هي كما أشار هايدغر (اللغة مسكن الكينونة) أو كما قال نيتشه (كل كلمة هي عبارة عن حكم مسبق)، وبهذا يدعو الرفاعي إلى التوقف كثيراً عند اللغة ودورها المتعاظم في حياتنا الراهنة (إن تطهير اللغة من الكلمات والمصطلحات القدحية المشبعة بالتشهير بالآخر ضرورة يفرضها الواقع، الذي يضج بالاحتراب والصراع الديني والطائفي، وينبغي أن تتسع عملية تطهير اللغة من العنف لتشمل المقررات الدراسية في سائر مراحل التعليم، ويجري تأهيل لغوي للمربين والمعلمين والمدرسين، مضافاً إلى الصحفيين والإعلاميين، ويعمد إلى تثقيفهم وتنبيههم إلى خطورة تداول الكلمات والأساليب التعبيرية ذات الحمولة السلبية، وما يمكن أن ينجم عنها من تشويه لصورة الشركاء معنا في الإنسانية، فضلاً على شركائنا في المواطنة).

مثل هذه الملاحظات النقدية نجدها موزعة بشكل متكامل على فصول الكتاب لتلتقي حول الغاية الأساس، ألا وهي الوقوف إلى جانب عيال الله في مواجهة ذلك الاغتراب الكوني الذي يترصدهم في غير القليل من محطات حياتهم السريعة على تضاريس هذا الكوكب. وهناك دعوة صريحة وواضحة إلى شريحة الشباب خاصة للاحتفال بكل ما يتعلق بالفن والحياة والإبداع، وهذا يتطلب كما يؤكد: (إشاعة فهم عقلاني جريء للدين، يخترق الأدبيات الجنائزية في تراثنا التي تكثّف حضورها في الخطاب السلفي اليوم... لقد باتت الحاجة ملحة إلى دراسة وتحليل منابع اللاتسامح، وبواعث العنف والكراهية في مجتمعاتنا، والاعتراف بان الكثير منها يكمن في الفهم الخاطئ للدين). وهذه تدعونا إلى الانخراط ضمن برنامج واسع وشامل لتجفيف منابع ذلك الخطاب المتخم بكراهة الآخر، والذي لا يرى فيمن يحيطون به من مجتمعات وأمم لا تشاركه معتقداته وطقوسه سوى أعداء يجب إخضاعهم أو التخلص منهم، كما نشاهد اليوم من فصول همجية ووحشية ضد من سعت السماء لتكريمه والارتقاء بشأنه، بالضد من ناموس الطبيعة والحياة المفعم بالتعددية والتنوع والثراء المادي والمعنوي. وهنا يضع الرفاعي تساؤلاته أمام من تنطع للدفاع عن حقوق السماء، وفوضوا أنفسهم بمسؤوليات لإكراه عيال الله على اعتناق آرائهم بالقول: (إذا كان النبي وهو صاحب الرسالة، لم يفوض في إجبار الناس وإكراههم، فكيف يفوض غيره بذلك؟! وان كان ذلك ليس من وظائف النبي، فكيف يسوغ لمن يدعون أنهم من أتباعه سلب حرية الناس، ومصادرة حقهم في اختيار المعتقد؟!).

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن جولتنا هذه حول هذا الكتاب الهام للمفكر التنويري الدكتور عبد الجبار الرفاعي هي سريعة، ولم تتوقف عند الكثير من المحاور الهامة التي تضمنها هذا الكتاب المترع بالتجارب والقيم المناصرة للإنسان والمحبة والسلام. وهذا ما نجده مكثفاً في هذه السطور:

(إنقاذ النزعة الإنسانية يعني؛ إيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع كافة الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، وتدريب المشاعر والأحاسيس والعواطف على القيم النبيلة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع الهام الطاقة الحيوية الايجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها. وهذا يعني استيحاء صفات الرحمة والمحبة والسلام..).

❖ ❖ ❖

عبد الجبار الرفاعي
جسارة النقد وأنسنة الدين

✍ علي الحسيني[(١)]

في منتصف التسعينيات من القرن المنصرم في مدينة "قم"، عند انكبابنا آنذاك على دراسة العلوم الدينية في حوزاتها. هناك تعرفت أول مرة على عبد الجبار الرفاعي، أنا وبعض من الأصدقاء، وكان أكبُرنا وقتذاك لم يتجاوز عمره واحداً وعشرين عاماً.

تعرفت عليه بعد أن سمعت قبل هذا كلاماً يدور عن وجود شيخ "مثقف" يحمل هما تجديدياً ورؤى إصلاحية تجاه الفكر الديني، عبرها يخضع المسلمات "الكبرى" إلى المساءلة، ولا يتردد في الطعن بمرويات جرى اعتبارها من الثوابت التي أجمع عليها المسلمون، وبخاصة الشيعة منهم.

وجدت نفسي، وأنا طالب مغامر، مُولَع بمعرفة الأفكار التي تتجاوز النصوص الدينية التقليدية، وكان حينذاك نوع من التعتيم والحظر، تمارسه المؤسسات الرسمية على الكتب والمؤلفات المشتغلة بنقديات الدين وخطابه.

أتذكر جيداً، إني في أثناء تجوالي في إحدى مكتبات قم، عثرت على كتاب للرفاعي تحت اسم: "متابعات ثقافية: مراجعات وقراءات نقدية في الثقافة الإسلامية"، اشتريته في الحال، دونما أدنى تردد، وكان غرضي من وراء شرائه التعرف على أفكار الرجل ورؤاه النقدية. وبالرغم من أني لمحت في الكتاب تحرشا معرفيا بالمنظومة الدينية، لكنه لم يكن كافيا ليستفزني، غير أني بحثت عن عذر للرجل في أن الكتاب ليس سوى مجموعة مقالات (على ما أتذكر) تناقش مسائل ثقافية عامة، وليست موضوعات فكرية خاصة.

على العموم، مضيت، في تلك التصورات الأولى عن الرفاعي، وأنا أتوق إلى معرفة أعمق بأفكاره قبل شخصه، وتطلب ذلك مني متابعة لمعظم ما يكتب في مضمار القراءة المغايرة للدين.

فيما بعد، توثقت علاقتي به وصرنا نخوض نقاشاً متواصلاً، بدءاً؛ بمسائل تجديد مناهج التعليم الحوزوي وفتاوى الفقه، والرؤى الإصلاحية التي طرحها مفكرون وفقهاء شيعة متوفون وأحياء، مروراً؛ بجدل الهرمنيوطيقا الدينية وفلسفة التأويل ومفهوم النص وإشكاليات القراءة، وعلاقة النص بالتاريخ والثقافة، وبالسلطة بمفهومها الشامل، مع محاولات لتفكيك

---

(١) كاتب وإعلامي عراقي.

بعض طروحات فلسفة الفقه وعلم الكلام الجديد، وانتهاء بمناقدة الأصول الرئيسة للمذهب الشيعي والمدونات الكبرى، مع مساءلة تاريخ الإسلام وتكوين الثوابت وصيرورتها، حتى انفتح السؤال ليطول أصل الوجود والميتافيزيقيا.

لأكتشف أن الرجل يضمر عمقا أكثر مما يظهر، وهو بذلك، كجبل الثلج الغاطس لا يظهر منه على السطح، إلا جزءاً بسيطاً، فيما يخفي حجمه الحقيقي تحت الجليد، وما زال الرفاعي هكذا، لم يعلن بعد عن أفكاره كلها.

وجدت نفسي مع كل تلك الأفكار، خصوصاً تلك التي لم يبح بها الرفاعي حتى الآن، أمام مفكر جريء، لا يهاب البحث في المقدس، ولا يتوانى عن إخضاعه لمنهجيات السوسيولوجيا الحديثة، وانثروبولوجيا الدين، وفلسفات التأويل، ومدارس التفسير الجديدة. لمست لديه تحديا واضحا لمحيطه، وللرواسب العالقة في شخصيته، عندما يصر على المضي في مناقشة الموروث بمعايير المنهجية المعاصرة، والدعوة إلى التحرر من سلطة النصوص، بل هو يذهب إلى ما يؤمن به الراحل نصر حامد أبو زيد حول ضرورة "الانتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص وحدها، بل من كل سلطة تعيق مسيرة الإنسان في عالمنا، علينا أن نقوم بهذا الآن وفورا قبل أن يجرفنا الطوفان"[1].

كنت حين أستمع لتلك الأفكار، يتفاقم قلقي، ويزدحم رأسي بالأسئلة، غير أن الذي خفف من حيرتي هو أني إزاء شخص يرد الحجة بالحجة والبينة بالبينة، مفكر خبر مكامن الأزمة التي يعيشها العالم الإسلامي والعربي في "عصر ما بعد الموحدين" بلغة مالك بن نبي.

وللرفاعي فضل علينا، بدعمه واحتضانه وتشجيعه وإيمانه بقدراتنا وأدواتنا المعرفية. لقاءاتنا به، نحن الشباب المتعضين من الجو الحوزوي الخانق، مهدت الطريق أمامنا للتحليق عاليا إلى سماوات الفكر الحر، فعشنا معه أوقاتاً ممتعة، تعلمنا من مشروعه أبجديات المنهجيات الجديدة في مجال تفسير وتأويل النصوص الدينية.

أدركنا وقتها، لماذا تضيق الحرية وتوصد الأبواب أمام مثل تلك الأفكار، بينما هي تتسع وتندلق أمام منابر الفكر التقليدي وهي تمارس انتشارها المفزع.

جغرافيا الوعي

من الصعوبة بمكان، الكتابة عن جميع المصادر والمرجعيات التي استقى منها الرفاعي أفكاره طوال مسيرته الفكرية والمعرفية، غير أن من الممكن التطرق إلى مصادر عامة، لكنها رئيسة تندرج تحتها معظم المصادر الثانوية، وهي كما أرى تتجسد بمستويين، مصادر ذاتية، وأخرى خارجية.

---

(١) أبو زيد، نصر حامد، (النص، السلطة، الحقيقة)، المركز الثقافي العربي، ص١٦.

المستوى الأول: المصادر الذاتية:

وهي تتمثل بمنبعين:

الأولى: البيئة الاجتماعية:

وأعني بها جغرافية النشأة، ومكان الصبا والطفولة، والعائلة الأولى التي نما فيها الرفاعي، ومن خلالها تشكل وعيه الأول عن الدين بوصفه طاقة روحية هائلة، وهو ما آمنت به عائلته بعيدا عن الفهم السياسي للدين، فهي لم تكن معنية بذلك.

من هنا، تشكلت التصورات الأولى لدى الرفاعي عن الإسلام باعتباره رافداً روحياً ووجدانياً، ولم يكن يتعرف بعد على الحدود القاسية بين الأديان والمذاهب التي عرفها حين هاجر من قريته المستلقية على نهر الغراف المتفرع من دجلة في جنوب العراق، لكن ظل الفهم الوجداني للدين الذي تعلمه من القرية مترسبا داخل شخصية الرفاعي، وبقيت رواسبه الأولى ترفده بنقائها حتى اليوم.

الثانية: شخصيته الناقد:

وهي أهم مصدر ذاتي من مصادر مشروع الرفاعي، فقد ظهر أن شخصيته وقبل أن يبلغ العشرين عاماً، كانت تستبطن تمردا وعدم رضا عن واقعه وعن مسائل دينية مختلفة، عدت حينها ركائز أساسية للجماعات والمجتمعات الدينية، غير أن التخارج المعرفي الذي يضمره الرفاعي، لم يتجسد بعد، إلا انه انفجر مع تعرفه على كتابات الراحل علي الوردي في السبعينيات، ثم نضجت شخصيته أكثر مع كتابات حسن حنفي ومحمد عابد الجابري في الثمانينيات، ليتحول الرفاعي في منتصف التسعينيات إلى العمل على مشروع نقدي هدفه الإصلاح الديني، بعدئذ ينتقل إلى المستوى الأعمق وهو النقد الديني وتبيئة ما هو إنساني.

المستوى الثاني: المصادر الخارجية.

وتتمثل بالآتي؛

أولاً: الدراسة الدينية:

انخرط الرفاعي في الحوزة العلمية في النجف لدراسة العلوم الدينية منذ العام ١٩٧٨، وتلقى من خلالها الإلهيات الدينية والفلسفة والفقه وأصوله، ليصبح فيما بعد أستاذاً ومدرساً للمراحل المتقدمة في الحوزة العلمية، وشارحاً مهما لبعض مناهجها العقلية؛ كالمنطق والفلسفة وأصول الفقه.

وتعد دراسته لكلاسيكيات التعليم الديني، الأداة الأولى التي مكنته لاحقاً من الدعوة إلى تجديد المناهج التعليمية وتحديث الدرس الحوزوي. وقد ترك مؤلفات مهمة في هذا المجال، أعمقها، رسالته في الدكتوراه التي بحثت الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية.

ثانياً: التراث الديني:

تعرف الرفاعي على المدونات الرئيسة للتراث الديني والعربي فيما بعد، عندما استوطن النجف بغرض الدراسة في حوزاتها، ومنذ ذلك الحين، وهو يتعامل مع التراث قارئاً ومؤلفاً وناقداً. وقد تمكن من جمع معرفة عميقة بأهم مدوناته الكبرى التي تعد أصول التراث الشيعي والإسلامي والعربي بصورة عامة. ويتضح ذلك بالموسوعات الكبيرة التي ألّفها الرفاعي في هذا السياق، نظير؛ (معجم ما كُتب عن الرسول وأهل البيت في ١٢ مجلدا، وموسوعة مصادر النظام الإسلامي في ١٠ مجلدات).

وبالرغم من انه بذل جهدا كبيرا في تأليفها، وقضى سنوات طويلة معها، لكنها لم تتمكن من تأطير تفكيره، فهو إلى جنبها ترك مؤلفات نقدية جريئة.

من المؤكد، أن خبرة الرفاعي وتضلعه في معرفة التراث، هي التي صبغت أفكاره بالموضوعية والعمق والرصانة المعرفية، ونأت به عن النقد السطحي أو المتحامل أو غير المستند على دراية واعية، كما هو الحال لدى تيار واسع من المشتغلين في مجال نقد الفكر الديني.

ثالثا: العلوم الحديثة:

بالرغم من ثقافته الدينية الحوزوية وعلاقته مع التراث الإسلامي، إلا أن ذلك لم يمنعه من التواصل مع العلوم البشرية بجغرافيتها الرحبة، والتعاطي مع مكاسبها ومنجزاتها الحديثة في ميادين العلوم الإنسانية وآدابها، والمنهجيات النقدية ومدارسها، والإفادة منها عبر توظيفها في مشروعه النقدي لتبيان المجال الإنساني في الدين.

وأتذكر، أن الرفاعي كان قارئاً نهماً لكل ما هو جديد، فقد حرص على معرفة الإصدارات الحديثة كافة في مجال العلوم الإنسانية، خصوصاً مؤلفات المفكرين الغربيين، مع قراءة المنجز الثقافي العربي الحديث، والمؤلفات النقدية التي يصدرها مفكرون من المشرق العربي أو من مغربه.

التحولات الفكرية

مرّ الرفاعي، ومعه أفكاره بطبيعة الحال، بتحولات فكرية تطورت فيها رؤيته إلى حد بعيد، لكنها مكنته من الانتقال إلى فضاء نقدي رحب، ورؤية حرة تنأى عن التأطير بأي جهة فكرية أو عقائدية.

وبالرغم من أنها اتسمت بمنعطفات خطيرة، لكن على ما يبدو كانت ضرورة حتمية لأي مشروع نقدي جاد، لأنها ستمده بالمشروعية، وأعني بها الخبرة العميقة بدهاليز الموروث، واكتشاف منعرجاته عن قرب.

أعتقد أن الرفاعي مر بأربعة تحولات كبرى، ساهمت في صوغ مشروعه الداعي إلى تمكين العقل وتطهير الوجدان.

المرحلة الأولى: (التكوين) وتمتد بين العام ١٩٧١ و١٩٧٨:

في بداية تلك السنوات كان طالبا في "ثانوية أكد" في مدينة الشطرة جنوب العراق، وفي تلك الأثناء مر بمنعطفين حادّين؛ الأول كان مع قراءته كتاب "معالم في الطريق" لسيد قطب، الذي أدخله مفازات لم يكن يعرفها، وكادت أن تطيح بتدينه الفطري المستقى من بيئته وعائلته، لصالح تدين أصولي متطرف، فقد كان الرفاعي يبكي وهو ينتقل من فصل إلى آخر في الكتاب[١]. وقد تركت قراءته هذه تأثيراً بالغاً في تفكيره آنذاك، ودفعته فيما بعد للانضمام إلى حزب الدعوة الإسلامية "المحظور".

المرحلة ذاتها، شهدت منعطفاً آخر - وإن تأخر تأثيره عليه لسنوات عندما عثر في مكتبة مدينة الشطرة جنوبي العراق على كتاب "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث" للراحل علي الوردي.الكتاب الذي انتقل ذهن الرفاعي معه إلى نمط جديد من التفكير، والنظر العقلي للظواهر الاجتماعية، وظل يدفع به إلى سجال يومي محتدم مع زملائه في مهاجع القسم الداخلي لثانوية أكد في الشطرة[٢].

بقي الرفاعي يعيش حالة صراع داخلي مع نمطين مختلفين من التفكير "سيد قطب/علي الوردي" انتصر فيه النمط الأول لسنوات، حتى انخراطه في الحوزة العلمية في مدينة النجف سنة ١٩٧٨.

المرحلة الثانية: (المراجعة) وتمتد بين العام ١٩٧٨ وبداية التسعينيات:

وفيها عاش الرفاعي مخاضاً فكرياً آخر في حياته، بعد أن انتظم رسمياً في دراسة العلوم الدينية بالنجف، دارساً مدوناتها الفقهية، ومن خلالها تعرف على الظاهرة الدينية عن قرب، وتبلورت لديه القناعة بأهمية البدء بتقويم مناهج التعليم الديني في الحوزة العلمية، ونقدها واكتشاف ثغراتها وعيوبها، ورصد محاولات تحديثها[٣].

---

(١) الرفاعي، عبد الجبار، اختزال الدين في الأيديولوجيا: لاهوت التحرير عند علي شريعتي وحسن حنفي، قضايا إسلامية معاصرة، ع ٤٩- ٥٠، ٢٠١٢، وانظر أيضاً، الرفاعي، عبد الجبار، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص١٠١ وما بعدها.

(٢) الرفاعي، عبد الجبار، الأقدام الحافية لا يرهقها تراب الأزقة، الموقع الالكتروني:
www.rifae.com/page.php?cat=v&id=76

(٣) يوجز كتاب الرفاعي (جدل التراث والعصر) مجموعة من هذه الرؤى والأفكار والاستفهامات المتداولة في الحلقات النقاشية مع زملائه وتلامذته.

وعن رؤيته في هذا المجال، يذكر الرفاعي؛ "وجدت من خلال دراستي للمعارف والعلوم الإسلامية التراثية في الحوزة أن بعض هذه العلوم بحاجة إلى إعادة بناء وتحديث، وبحاجة إلى أن تخرج بأسلوب جديد ولغة جديدة، تنسجم مع التحولات الهائلة التي تجري في عصرنا. فبدأت أفكر بضرورة التحديث؛ أي إعادة بناء النظام التعليمي في الحوزة، وضرورة الانفتاح على العصر"[١].

وفي هذه المرحلة كان الرفاعي انتمى إلى حركة إسلامية شيعية، هي حزب الدعوة الإسلامية، وانتماؤه إليها قرَّبه من مؤسسها الراحل السيد محمد باقر الصدر، متأثراً بأفكاره التجديدية والإصلاحية، التي استهدفت مناهج التعليم الديني وتحديث الحوزة العلمية، إلى جانب محاولته في إعادة تشكيل المرجعية الدينية وفق معايير مغايرة للسائد آنذاك.

وتأثره بفكر الصدر بقي ملازماً له حتى سنوات متأخرة، وقد ساهمت أفكار الصدر بدفع الرفاعي إلى محاولة الإجابة عن أسئلة هائلة لم يكن أستاذه قد فكر بها، أو أجاب عنها في حينه. وظل الرفاعي مع هذا المخاض الفكري حتى العام ١٩٨٠، الذي انتقل فيه إلى الكويت اثر مضايقات تعرض لها بسبب انتمائه الحزبي. شهدت سنة ١٩٨١، بداية تحول في توجهات الرفاعي الفكرية، إثر متابعته سلسلة مقالات كان قد نشرها آنذاك حسن حنفي في صحيفة الوطن الكويتية، وتناول من خلالها "الأصولية الإسلامية" وأدبيات الإسلام السياسي.

يقول الرفاعي، انه مر باضطراب مع حسن حنفي، كالذي مر به حينما تعرف على فكر سيد قطب، وهو لأول مرة يتعرف على مراجعة "جريئة" للتراث الديني باستعمال مفاهيم ومنهجيات معاصرة، "كنت مع معالم سيد قطب كمن يبتلع جمراً"، غير أن أفكار حنفي حرضته على الانتقال من مرحلة اليقين إلى الشك، فمعه، بحسب ما يقول: "بدأ يتسرب الخطاب للعقل، وحرّرني من سجن (معالم في الطريق) وشدني بقوة إلى الحاضر، فحرّرني من لوعة الاشتياق للماضي، والمكوث في كهوفه، واستعارة مفاهيم السلف وأحكامهم ومعاييرهم، في كل ما يواجهني في حياتي"[٢].

ويتعمق تحول الرفاعي، ويتسع فضاء الشك لديه في الكثير من اليقينيات التي كان ينافح عنها في المرحلة الأولى، بعد أن قرأ كتاب "الخطاب العربي المعاصر" للمفكر المغربي

(١) انظر: حوار مع الرفاعي نشر في صحيفة الأيام البحرينية أجراه معه وسام السبع في المنامة بتاريخ ٢٠٠٣/٩/٢٥.

(٢) الرفاعي، اختزال الدين في الأيديولوجيا : لاهوت التحرير مصدر سابق.

الراحل محمد عابد الجابري، الذي صاغ مع حنفي توجهاً مغايراً عند الرفاعي في النظر إلى النصوص التراثية التي كان يضفي عليها طابعاً قدسوياً.

ونتج، عن هذا التحول الفكري عند الرفاعي، تحول سياسي في العام ١٩٨٥ عندما قرر مغادرة العمل الإسلامي الحركي، والتفرغ للدراسة الدينية والاشتغال الثقافي والمعرفي.

وفي هذه السنة تحديداً، أصدر الرفاعي كتابه الأول، "نظرات في تزكية النفس"، الكتاب الذي أكد على أن صاحبه غادر القناعات المغلقة التي زرعها فيه سيد قطب، عائداً للمفاهيم الروحية للدين التي استقتها فطرته الأولى من بيئته الاجتماعية والأسرية.

وفي السنة نفسها أيضاً راجع الرفاعي تجربة وأدبيات الإسلام السياسي، وأسباب ونتائج غياب الرؤية النقدية فيها، لينتهي به المشوار إلى تخليه عن العمل الحزبي، وإصداره مؤلفا في العام ١٩٨٦ عن الدولة والسياسة في الإسلام.

وقد أثمرت رؤيته إزاء نظام التعليم الديني وأهمية إعادة هيكلة مناهجه، مجموعة من المؤلفات شرحاً وتحقيقاً وترجمة لأهم المناهج العقلية في الحوزة. بدءاً؛ بترجمة كتابين للشيخ مرتضى المطهري، (شرح المنظومة في الفلسفة الإسلامية، في أربعة أجزاء ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣، ومحاضرات في الفلسفة الإسلامية، ١٩٩٤)، مروراً بمحاضراته في (أصول الفقه ـ مجلدان ـ ٢٠٠٠، ومبادئ الفلسفة الإسلامية ـ مجلدان ـ ٢٠٠١)، وحتى تحقيقه لكتاب محمد باقر الصدر (موجز في أصول الدين، ٢٠٠١).

كما ضمَّن الرفاعي تفصيلاً معمقاً لرؤيته حول تحديث الدرس الحوزوي، في رسالة الدكتوراه التي حملت عنوان، (تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية) وهي بحدود ١٠٠٠ صفحة، وصدر فيما بعد مختصراً منها عن دار المدى.

إلى جانب مؤلفات وبحوث أخرى نشرها الرفاعي كمقدمات ومداخل لكتب صدر معظمها عن مجلة قضايا إسلامية معاصرة.

المرحلة الثالثة: (النقد) وتبدأ من مطلع التسعينيات وهو مستمر فيها إلى الآن:

في مفتتح التسعينيات، انتقل تفكير واشتغال الرفاعي من الدعوة إلى إصلاح وتجديد مناهج التعليم الحوزوي وضرورة مواكبتها لمتطلبات الحياة المعاصرة، إلى الإيمان بإعادة قراءة التراث الإسلامي برمته، وعبر العلوم غير الكلاسيكية، بل من خلال الإفادة من أهم المنهجيات في العلوم الإنسانية الحديثة.

وفي بداية التوجه الجديد هذا، أصدر الرفاعي بمعية ثلاثة من أصدقائه الذين يشاطرونه التوجه، مطبوعة باسم "الرأي الآخر". وكانت بتعبير الرفاعي (ناطقة بهمومنا

وتطلعاتنا في تحديث التفكير الديني في الإسلام، فصدر العدد الأول موشحا بـ"ماذا يعني اليسار الإسلامي" لحسن حنفي، ودراسات أخرى)[1].

ويأتي كتابه، (متابعات ثقافية: مراجعات نقدية في الثقافة الإسلامية) الصادر العام ١٩٩٣، معبراً عن تطلعاته في تلك المرحلة، وكاشفا عن نوع الأسئلة التي شغلته آنذاك، فقد حاول في كتابه هذا الاقتراب من تلك الأسئلة والإجابة عنها من غير حمولات أيديولوجية.

وبعد كتابه هذا، اتجه الرفاعي إلى البحث في اللامفكر فيه والمسكوت عنه في التراث، لتتوالد لديه تساؤلات جديدة، أفضت به إلى إصدار "مجلة قضايا إسلامية معاصرة" سنة ١٩٩٧ لتحكي تطلعات وهموم ذلك الاتجاه في التفكير الديني ورهاناته[2].

وفي تلك السنة نشر كتاب، "منهج السيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكر الإسلامي". ثم بعد سنوات أصدر مجموعة من المؤلفات المعبرة عن هذا الشغل الإصلاحي الذي عاشه الرفاعي في بداية تحوله الفكري الثالث، ومن أهم مؤلفات تلك المرحلة، هي؛ (تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية، ٢٠٠٠، الفكر الإسلامي المعاصر: مراجعات تقويمية، ٢٠٠٠، مناهج التجديد، ٢٠٠٠، جدل التراث والعصر، ٢٠٠١، مقاصد الشريعة، ٢٠٠٢، نحن والغرب: جدل الصراع والتعايش، ٢٠٠٢).

إلى جانب تقديمه لعشرات الكتب التي صدر بعضها عن مجلة قضايا إسلامية معاصرة وعن دور نشر أخرى.

وهي بالحقيقة، لم تكن مقدمات كتب، بل حرص الرفاعي تضمينها رؤيته الكاملة عن مختلف القضايا التي تخص تجديد التراث وإصلاحه، ومن أبرز الكتب التي قدم لها، هي؛ (إشكالية الإسلام والحداثة، لعادل عبد المهدي، ماذا يعني علم الاستغراب لحسن حنفي، قضايا التجديد لحسن الترابي، مقاصد الشريعة لطه جابر العلواني، إشكاليات التجديد لماجد الغرباوي، المدرسة التفكيكية لمحمد رضا حكيمي، مدخل إلى فلسفة الفقه لمهدي مهريزي، الحوار والانفتاح على الآخر لحسن الصفار، الاجتهاد والتجديد لإبراهيم العبادي، إسلامية المعرفة لإسماعيل الفاروقي، مخاضات الحداثة لمحمد سبيلا، تجديد التفكير الديني في الإسلام لمحمد إقبال).

وبذلك، ينتقل الرفاعي من محاولة فهم الحقائق المطلقة بطريقة معاصرة ـ كما كان دأبه في المرحلة الثانية ـ إلى الإيمان بتعددها، عبر منح الحرية المطلقة للسؤال النقدي، حتى لو

---

(١) الرفاعي، عبد الجبار، اختزال الدين في الأيديولوجيا، مصدر سابق.

(٢) انظر: كتاب الرفاعي، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، الذي تطرق إلى تلك المرحلة. وانظر أيضاً، الأقدام الحافية، مصدر سابق.

طال اليقينيات والثوابت، ومن غير خشية من أحد، لأن أية محاولة تحديث للتراث سيكون مصيرها الفشل دون ذلك، ولأن الفكر الحي لا ينمو ويتطور من غير تلك الاستفهامات ومن غير اجتراح الأسئلة، والسؤال الحر الذي يقتحم المجالات الممنوعة والمهملة من شأنه أن يقود إلى نمط مغاير من التفكير. ذلك أن تاريخ الفكر البشري هو تاريخ الأسئلة الكبرى بتعبير الرفاعي[١]. وهو كما يؤكد "لا توجد خطورة أو مشكلة من إثارة الأسئلة"، لأن التفكير لا يمكن أن يكون محايداً، فإما أن يكون تفكيراً تساؤلياً يحطم الأغلال كافة أو يكون مشلولا يقود إلى العبودية، "التساؤل والتشكيك يسمحان لنا باستئناف النظر في طائفة من الجزميات، والقطعيات، والمسلمات، والبداهات، وقيمة الفكر الحديث والمعاصر انه يستأنف النظر بالمسلمات"[٢].

وهو بدعوته هذا يتماهى مع قول للفيلسوف الفرنسي ادغار موران، من أن اللايقين وأن قتل المعرفة البسيطة، لكنه يحيي المعرفة العميقة، "القلق المعرفي يمنح عملية التفكير الشرط الضروري للإبداع والديمومة والديناميكية"[٣].

وتأسيسا على حرية السؤال التي يدعو لها الرفاعي، فهو يرى أن "العقل هو النقد" حسب تعبير الفيلسوف الألماني إمانوئيل كانت، وان النقد أهم أداة يمتلكها العقل البشري، "فإما أن نفكر بحرية أو لا نفكر أبداً، هذا هو التفكير الذي يضعنا في عصر جديد، وينقلنا إلى عوالم مختلفة"[٤]. وان لا حياة للتفكير الديني في الإسلام، إلا بالمراجعة النقدية للثقافة والتجربة والتاريخ والتراث والاجتماع الإسلامي، ولا سبيل للخلاص والإفلات من نفق الانحطاط والتخلف إلا بتجذير ملكة النقد وتكريسها، ومن يريد الحضور في هذا العصر ليس أمامه إلا الإيمان بالنقد[٥].

وبخلاف ذلك، فان الأمم التي تكتفي بتبجيل موروثها وتراثها، والدفاع عن كل ما تضمنه، فإن يقظتها ستكبو، بخاصة إذا كانت تلك الأمم تحوز على تراث هائل كالذي نملكه، تراث "غرق فيه أسلافنا، واستنزف طاقاتهم وحياتهم، باستظهاره ونقله وحفظه وشرحه والتعليق عليه، وبالتالي غابوا عن حاضرهم وجهلوا عالمهم ونسوا الملابسات والتحديات

---

(١) الرفاعي، عبد الجبار، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص٣٦

(٢) انظر: الحوار الذي أجراه علي السومري مع الرفاعي في صحيفة الصباح، بغداد، ٢٧كانون الثاني، ٢٠١٠.

(٣) الرفاعي، عبد الجبار، الرؤية والتطلعات:

http://www.rifae.com/page.php?cat=7&id=77

(٤) صحيفة الصباح، مصدر سابق.

(٥) الرفاعي، عبد الجبار، المصدر نفسه.

المحيطة بهم. وأخشى أن يغيبنا ذلك الموروث عن زماننا، إذا ما لبثنا في محبسه، ولم نتجرأ على الإفلات من مشاغله والانخراط في العصر"[١].

ويرى الرفاعي عن كل المراجعات الإصلاحية للتراث خلال العقدين الأخيرين هي مجرد هجاء وشعارات تعبوية مشبعة بالكراهية، أفضت إلى عزلتنا وطمسنا في كهوف التاريخ[٢].

ومع النكوص الذي أصاب التيار النقدي، وعدم نجاحه حتى الآن في تحطيم الأسيجة المانعة للتفكير الحر، فالرفاعي لن يعتبر ذلك مدعاة للقلق المثبط، لجهة أن الأفكار والمفاهيم الجديدة عادة ما تبدو مثيرة وربما منفرة ومقلقة، لكن بعد ذلك ستثير نقاشاً وجدلاً وحراكاً عقلياً إثباتاً ونفياً، ويؤول ذلك إلى فتح نوافذ جديدة للتساؤلات، وإلى ابتكار مفاهيم حديثة، وبلوغ وجوه جديدة للحقيقة لم تتجلّ من قبل[٣].

ومن المؤلفات التي تُلفت النظر إلى رؤية الرفاعي النقدية في هذه المرحلة، وتدفع باتجاه تجاوز مراجعة التراث إلى تفكيكه وسبر كل المحظورات المسكون عنها في داخله، والدعوة إلى استحداث مناهج لاستنبات هذا النمط الجديد من التفكير، هي؛ (علم الكلام الجديد وفلسفة الدين ٢٠٠٢، الاجتهاد الكلامي مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد، ٢٠٠٢، ترجمة كتاب: العقلانية والمعنوية لمصطفى ملكيان ٢٠٠٥، ترجمة كتاب: التدين العقلاني، للمؤلف نفسه، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، ٢٠٠٥، الإسلام المعاصر والديمقراطية، ٢٠٠٥).

المرحلة الرابعة: (أنسنة الدين) وتبدأ من مطلع الألفية الثالثة إلى الآن:

بدعوته إلى أنسنة الدين، ينتقل الرفاعي إلى الدفاع عن كل ما هو إنساني خصب ومحاولة إنقاذه وانتزاعه من بطون المدونات التراثية والنصوص الدينية، والتركيز على أنسنة الدين وكشف مدلولاته البشرية، والذود عنها. وهو بذلك يسعى إلى إظهار الأبعاد المعنوية والإنسانية العقلانية في الدين.

ورغم إشكالية مصطلح (أنسنة الدين) وجدليته خصوصاً في الفكر الأوروبي المعاصر، الذي ينتمي إلى بيئته، والذي يميل دعاته هناك إلى أن الإنسان في الحياة هو معيار كل شيء، والإنسان مقياس للأشياء، بتعبير بروتوجاروس، حيث لا تعترف الإنسانوية بأي وجود أو سلطة تضاهي سلطة الإنسان، وان خلاصه يتحقق بالجهد الإنساني وحده. وهو ما يدعو له المفكر الفرنسي دي روجمون.

---

(١) انظر: الحوار الذي أجراه ميرزا الخويلدي، مع الرفاعي في الشرق الأوسط، لندن، ع٩٦٧٦، ٢٦ أيار، ٢٠٠٥.

(٢) المصدر نفسه. وانظر أيضاً: الرفاعي، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص٢٠٠.

(٣) صحيفة الصباح، مصدر سابق.

ما أعنيه هنا، بأنسنة الدين عند الرفاعي؛ هو جعل الدين من أجل الإنسان، انطلاقاً من مبدأ بشرية المعرفة الدينية، التي تقوم على أساس تغيير الفهم الإنساني للدين والمعرفة المرتبطة به، "فالمعرفة الدينية ليست إلهية من منطلق الموضوع الديني الذي تعالجه ولا يسوغ أن نخلطها والدين في حد ذاته". كما يقول المفكر الإيراني عبد الكريم سروش.

ويعترف الرفاعي بأن التراث الكلامي الإسلامي تضمن نصوصا تمنع انبعاث القيم الإنسانية المنفتحة في الدين، لأنها صادرة عن فهم أحادي ورؤية ذهنية مغلقة، ولتجاوز ذلك يتطلب؛

أولاً: إحياء التجارب الروحانية المتنوعة التي تجعل من العالم ممتلئاً بالمعنى وإضاءة الحقوق المنسية في الدين التي ترفع من مكانة الإنسان.

ثانياً: رفض التعسف في تفسير النص المقدس.

ثالثاً: تخطي المفاهيم المغلقة في اللاهوت الكلاسيكي والتحرر من الصورة النمطية للإله.

رابعا: بناء لاهوت مستنير بعد الإفادة من الاستفهامات الجديدة ومراجعات نقدية للتراث الكلامي[1].

وبدعوته هذه، يكون الرفاعي قد (تجاوز /انتقل) على نحو من المرحلة الثالثة في تحولاته الفكرية التي دعا فيها إلى تمكين العقل، وتقديمه على كل ما يعارضه، إلى مرحلة "إحياء النزعة الإنسانية في الدين" حتى لو جاءت (متعارضة) مع الفهم العقلي له، باعتبار أن المحورية هنا انتقلت إلى الإنسان، وصار هو محور عملية تأويل الدين.

وضمّن الرفاعي رؤيته هذه في ثلاثة مؤلفات، هي؛ (التسامح ومنابع اللاتسامح، ٢٠٠٥)، و(التسامح ليس منة أو هبة، ٢٠٠٦)، و(إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين،٢٠١٢). ويُعتبر الكتاب الأخير الأكثر جرأة ووضوحاً في الدعوة لاستزراع القراءة البشرية للنص الديني عبر استظهار مكامنه الوجدانية الخصبة.

المجلة والتجديف ضد التيار

قبل أن يصدر الرفاعي مجلته قضايا إسلامية معاصرة، ذائعة الصيت، كان قد أصدر "مجلة قضايا إسلامية" بالتعاون مع صديقه الراحل الشيخ مهدي العطار، ودامت المجلة أربع سنوات، بدءا من العام ١٩٩٤ حتى أواخر العام ١٩٩٧.

وتناولت قضايا إسلامية ملفات مهمة لم تكن مألوفة آنذاك في الوسط الحوزوي العربي في قم، منها؛ ملف خاص عن "الفكر التجديدي عند محمد باقر الصدر"، وآخر عن

---

(١) الرؤية والتطلعات، مصدر سابق.

"الاجتهاد والتجديد"، وملفات أخرى، غير أنها لم تلج المسارات العميقة في تحديث التراث، كما أنها اقتصرت على تسليط الضوء على التراث الفكري الشيعي دون أن تتصدى للتراثات الإسلامية الأخرى، فضلاً عن الرؤى النقدية الأكثر جرأة تجاه النصوص الدينية ومتونها الأساسية.

لكن، يسجل ل"قضايا إسلامية" ريادتها في رفض استعمال مصطلحات، نظير؛ (الغزو، الاختراق، التلوث، العمالة، الدفاع عن الأصالة، الإسلام هو الحل...) وغيرها من مفاهيم إيديولوجية درجت على تبنيها مجلات الدراسات الإسلامية، سواء في إيران أو في دول عربية مختلفة.

ومع ذلك، أدرك الرفاعي أن هذا لا يكفي، بل يجب العمل نحو فضاءات أرحب، ومثابات تتجاوز الهويات النقية المغلقة، والاتجاه نحو هوية تتفاعل مع العالم وما يحفل به من تغيرات وتحولات عميقة في شتى المجالات، هوية في حالة تشكل أبدي عبر الصيرورة المتواصلة للواقع[١].

لهذا، قرر ترك قضايا إسلامية، وإصدار ثانية بإضافة (معاصرة) لاسمها الأول، لتحكي تطلعات وهموم الرفاعي في التفكير الديني ورهاناته، حيث كان هناك على الدوام حاجة ملحة إلى التواصل مع المشهد الثقافي المحيط بنا (والكلام للرفاعي)، سواء المشهد الثقافي العربي أو الثقافي الإيراني. "فبدأت أفكر بضرورة التحديث، والانفتاح على العصر، وقد ولدت مجلة قضايا إسلامية معاصرة في فضاء هذا الهم"[٢].

وليست المجلة عند الرفاعي مجرد إصدار جاد معني باستنطاق المناطق المسكوت عنها في التراث الإسلامي، أو الدعوة إلى تجسير العلاقة بين هذا التراث والمنجز البشري المتنوع، بل بالنسبة له الناطق باسم مشروعه وحلمه في خلق مجتمعات متحررة من كل القيود الدينية المفروضة عليها تحت الإيمان بالمقدس، مجتمعات خالية من الكراهية تجاه الآخر، محبة للحياة، مقبلة على مباهجها وملذاتها، مع الاستمتاع بالمجال الروحاني والوجداني المطمور في التراث.

من هنا، نتفهم إصرار الرفاعي على استمرار إصدارها من غير مؤسسة أو تمويل من أحد، "كنت أكافح وأجاهد بإصرار لإصدار المجلة؛ لاعتقادي بأهمية وضرورة استمرار صدورها، حتى اضطررت قبل عدة سنوات إلى بيع مكتبتي الشخصية، وهي مكتبة تمثل حصيلة عمري، واستطعت أن أجمع فيها أكثر من ٥٠٠٠ كتاب، ولكني شعرت أن المكتبة

(١) صحيفة الشرق الأوسط، مصدر سابق.

(٢) حوار مع صحيفة الأيام البحرينية، مصدر سابق.

يمكن أن تعود، لكن استمرار قضايا إسلامية معاصرة في هذه الفترة كان أهم من اقتناء المكتبة"[١].

وعن فريق تحريرها، يكشف الرفاعي أنه كان "يتألف من (عائلة)، تتولى فيها الأم سكرتارية التحرير منذ العدد الأول، فيما يتولى الابن الإخراج والتنظيم، ويشرف الأب على التواصل مع الكتاب، واقتراح محاور وموضوعات كل عدد، وإدارة عملية التحرير، وإجراء الندوات والحوارات، غير أن ذلك لم يمنعها من الاستمرار لمدة خمسة عشر عاما، بالنهج الذي اختطه، وبكفاءة فكرية عرفها بها المتابعون لها"[٢].

وقد ساهمت ملفاتها بفتح باب النقاش على مصراعيه، خصوصاً بين العديد من طلبة الحوزة العلمية في مدينة قم (وأنا منهم) الذين وجدوا فيها هروباً ومتنفساً من كتب الفقه واللاهوت القديم.

وقد تمكن الرفاعي خلال أكثر من ١٥ عاماً من صدور مجلته؛ من إطلاق التفكير الحر واقتحام المناطق المهملة والمحظورة في الفكر الديني، وعدم حصر المجلة على الدعوة لتحديث مناهج الاجتهاد، وتوظيف مقاصد الشريعة في الاستنباط، ـ وقد بدأت الأعداد الأولى من المجلة بذلك ـ، وإنما باستعارة مفاهيم اللاهوت الغربي الحديث ومنهجيات العلوم الإنسانية الجديدة ونظريات الحداثة، من أجل تعميق الطابع المعرفي لها.

فتناولت المجلة ملفات "الاتجاهات الجديدة في علم الكلام"، و"فلسفة الفقه"، ثم انتقلت في مطلع الألفية الثالثة إلى محاور أكثر استفزازاً للعقل الديني من قبيل؛ التعددية الدينية، رهانات الحداثة والدين، التجربة الدينية، وفلسفة الدين.

وبذلك تعاطت مع التراث بجرأة وجدية، وسعت للتحرر من سطوة آراء ومواقف الآباء، فبينما تحرص معظم المطبوعات الإسلامية على إطراء التراث وتكرار مفهومات السلف، والتعليق عليها وشرحها، تحررت قضايا إسلامية معاصرة من ذلك[٣].

بالإضافة إلى مغامراتها في الجدل الديني، اتسمت قضايا إسلامية معاصرة، بحضور طيف واسع من المفكرين العرب، من مناطق جغرافية مختلفة وميول معرفية متباينة، فإلى جانب مفكري المشرق العربي هناك حضور مهم لباحثي المغرب العربي، وبجنب إسلاميين معتدلين وحتى متشددين، تجد مفكرين علمانيين يوصَفون بالمروق والتجديف، مع مشاركة مفكرين غربيين غير مسلمين (آن ماري شيمل، موريس غودوليه، روجي كايوا).

---

(١) الشرق الأوسط، مصدر سابق.

(٢) انظر افتتاحية مجلة قضايا إسلامية معاصرة للعدد المزدوج (٤٥ ـ ٤٦)، ٢٠١١.

(٣) حوار الشرق الأوسط، مصدر سابق.

وبذلك تخطت قضايا إسلامية معاصرة الحواجز المذهبية والجغرافية والإقليمية، والترسيمات المعيارية الصارمة لدى الجماعات الإسلامية، بيد أني اعتقد أن أهم ما كان يميز مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بالإضافة إلى تطرقها لملفات جريئة وضمها لمفكرين عرب وأجانب، استيعابها، لمفكرين نقديين مهمين في إيران، وفي هذا السياق قامت المجلة بالتعريف بجهود باحثين بارزين بالدراسات الدينية في إيران، سواء من داخل الحوزة العلمية أو من المؤسسات الأكاديمية، أمثال؛ (داريوش شايغان، عبد الكريم سروش، مصطفى ملكيان، محمد مجتهد شبستري، صادق لاريجاني، مصطفى محقق داماد، مهدي مهريزي، محسن جوادي... وغيرهم)، ممن حاولوا تقديم قراءات مختلفة لمفهوم الدين وتجلياته في الحياة.

وقد أدرك الرفاعي مبكراً عمق المساهمة النقدية للنخبة الإيرانية في الظاهرة الدينية، فالمثقف في إيران يظل مسكوناً بهاجس اللاهوت وقضاياه، مهما كان تخصصه أو مجال اهتمامه ونمط همومه المعرفية، ذلك أن الفضاء الثقافي الذي يتموضع فيه ينبض على الدوام بجدل الدين والتدين واللاهوت والواقع[1].

وبانفتاحها على المشهد النقدي في إيران مدت هذه الدورية جسراً فكرياً جاداً بين المشهدين الإيراني والعربي، وساهمت بإثراء حقل نقد الدين في المشغل المعرفي العربي.

ويؤكد الرفاعي قائلاً "أستطيع أن أزعم أن القارئ في بلادنا يطلع على هذه القضايا الإشكالية للمرة الأولى في قضايا إسلامية معاصرة"[2].

الحاجة إلى المقدس

يرفض الرفاعي أن يكون المقدس مفهوماً عابراً لحدود ما هو وجداني وروحي، مبتلعاً لكل ما هو دنيوي، لأن مكانه الطبيعي هو في المجال الرمزي والمعنوي الروحي، وهو ما أهدرته الأيديولوجيات بعد أن نقلته إلى مجال آخر وقامت باستعماله سياسياً وكمادة للتعبئة ضد الآخر.

غير أن الرفاعي في الوقت نفسه، يرى أن العلاقة بين المقدس والدنيوي مرنة وديناميكية، وان فضاء المقدس مفتوح، ومداراته غير متناهية الأبعاد، فهي تتنوع بتنوع الثقافات والأزمنة، وتتعدد بتعدد الجغرافيا البشرية، فكل شيء إنساناً كان أم كائناً آخر، زماناً، أم مكاناً، يمكن أن يغدو مقدساً في إطار مشروطية معينة.

---

(١) الرفاعي، عبد الجبار، راهن التفكير الديني في إيران: السياقات التاريخية والمرجعيات، مجلة التسامح، ع١٣، ص١٨٧، ٢٠٠٦، سلطنة عمان.

(٢) صحيفة الأيام البحرينية، مصدر سابق.

فمن خلال انثروبولوجيا الدين، وسيوسولوجيا الدين، وعلم نفس الدين، والهرمنيوطيقا؛ بوسعنا أن نتعرف على تجليات المقدس وتعبيراته وطبقاته ونفوذه وعوالمه ومجالاته[١].

من هنا، ووفق هذا البناء المفاهيمي للمقدس، نفهم إصرار الرفاعي - وفي هذا ربما يختلف عن بقية المشتغلين في حقل النقد الديني - على أن الحياة لا تطاق من دون مقدس وأن الإنسان كائن متدين[٢]. فهو يريد جانبه الجمالي والروحي الرحب، لا نزوعه الذي يتجاوز على العقل البشري ومكتسباته في الحياة،واختزال الإنسان في مجموعة مفاهيم وقيم مثالية، تتعالى على بشريته، بل إيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده وروحه[٣].

إصلاح المؤسسة الدينية

يعتقد الرفاعي بأن كل الدعوات والدراسات التي اشتغلت على تحديث المؤسسة الدينية، عبر توظيفها للمعرفة الجديدة أو تغيير مناهجها التعليمية أو حتى المطالبة باستبدال طرائق فهمها للدين والحياة، هي دعوات محدودة التأثير. بخاصة تلك التي صدرت من خارج المؤسسة، بالرغم من أنها جاءت من مفكرين وناقدين يحوزون على منجز معرفي عميق وخبرة واسعة بالتراث، لكن مشكلتهم كانت بافتقارهم إلى ما يسميه الرفاعي (بالمشروعية)، تلك التي لا تكتسب، إلا عبر "المكوث سنوات طويلة في المؤسسة للدراسة والتدريس والبحث والتبليغ والإرشاد والدعوة، ويستخدم الإمكانات التي يتيحها له انتماؤه للمؤسسة الدينية، كالمنابر والشعائر والمواكب ودور العبادة في التثقيف على المفاهيم والرؤى والأفكار التي يدعو إليها"[٤].

من هنا، كان يرى أن تحديث المؤسسة الدينية "يعتمد على اكتشاف المنطق الذاتي للموروث والسياقات التاريخية الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية لهذه المؤسسة، وإدراك متطلبات العصر ورهاناته"[٥].

لكن التحديث، لا يعني ممارسة ظاهرة استنساخ التجارب وإقحامها في بيئة جديدة عليها، كما هو ديدن طيف ليس بقليل من دعاة التحديث، بل بفهم المسارات الجوانية

---

(١) حوار الصباح، مصدر سابق، وإنقاذ النزعة ص ٢٥.

(٢) الرفاعي، عبد الجبار، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ص١٥٧.

(٣) الرفاعي،الرؤية والتطلعات، مصدر سابق.

(٤) انظر افتتاحية مجلة قضايا إسلامية معاصرة للعدد المزدوج ٤٥ - ٤٦، وانظر أيضاً إلى حوار معه في صحيفة المثقف الالكترونية نشر بتاريخ ٣كانون الثاني (يناير) ٢٠١١.

(٥) انظر افتتاحية العدد ٤٥ - ٤٦ لمجلة قضايا إسلامية معاصرة، مصدر سابق.

للمؤسسة، واستدعاء ما يساعد على إعادة تقويمها دون أي تناحر مع سياقاتها الثقافية والمجتمعية معاً.

ويعترف الرفاعي، بأن التحول المنشود للمؤسسة الدينية يصطدم بمقاومة صلبة من داخل المؤسسة لن تسمح بنفوذ دعوات التحديث إليها، لذا فإن تأثير دعوات الإصلاح ستكون بطيئة، وستستغرق وقتاً طويلاً لتجد مكانة لها داخل المؤسسة الدينية.

ولتسريع عملية تحديثها، يدعو الرفاعي إلى تحديث مواز للمجتمعات التي تحتضنها وتتواجد فيها، لتغدو حاملاً للدعوة بعد اعتناقها والإيمان بضرورتها[١].

تحديث الفكر الديني

من المفترض أن أي مشروع تحديثي للمؤسسة الدينية يتطلب المرور على الفكر الديني وإعادة تفكيكه، تمهيداً لتجديده لتكتمل الرؤية التحديثية وتتضح لتتولى بعدئذ دورها الأساس في المجتمعات البشرية.

وتتلخص رؤية الرفاعي حول تحديث الفكر الديني، في ثلاثة محاور أساسية تشكل الأضلاع الرئيسة لمجمل مشروعه النقدي للتراث الديني.

المحور الأول: استيعاب الموروث الديني واستكشاف مداراته وآفاقه المتنوعة. وذلك يتم من خلال، إيلاء أهمية للميراث العقلي، إلى جانب الاهتمام بالتراث الوجداني والرمزي المتمثل في مدونات التصوف والعرفان.

والاهتمام بهذين الجانبين سيفضيان إلى التخلص من المواقف التبسيطية في التعاطي مع التراث التي تخلو من التدبر العميق والمعرفة الواسعة به.

المحور الثاني: يتمثل في الانفتاح على العلوم الحديثة الإنسانية بصفة خاصة، من قبيل: فلسفة العلم، وعلوم النفس، والاجتماع والأنثروبولوجيا والقانون والحقوق والعلوم السياسية والألسنيات والهرمينوطيقا، واعتمادها كمفاهيم إجرائية في قراءة النص الديني، وتفسير الظواهر الدينية في المجتمع، واكتشاف ومعرفة أنماط التجارب والخبرات الدينية الشخصية لدى الشعوب.

المحور الثالث: معرفة ودراسة المسارات الزمكانية للدين عبر التاريخ والجغرافيا والاجتماع البشري، واكتشاف طبائع التدين وأشكاله في مختلف المجتمعات، والاهتمام بمقارنة الأديان ونصوصها المقدسة، وأنماط مؤسساتها الدينية[٢].

---

(١) انظر الحوار مع الرفاعي المنشور في مجلة الراصد التنويري، ع١٠ ـ ١١، ٢٠١١، وانظر أيضاً: صحيفة المثقف، مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه.

ومع هذه الركائز الثلاث التي يدعو الرفاعي إلى تبنيها في مشروع تحديث الفكر الديني، غير انه يلفت إلى أن عملية التحديث ستصطدم بمجموعتين متناقضتين، لكنهما تشتركان في أحادية التفكير وتبشيع الصور الفكرية الأخرى بوصفها خطاباً معرفياً تتطلب مواجهته.

وتلك المجموعتان هما:

المجموعة الأولى: (العلمانيون السطحيون)؛ وهم الذين يخلون من أي معرفة عميقة في الدين والتراث ودورهما الكبير في التاريخ وحياة الشعوب. وسطحية هؤلاء بتعبير الرفاعي تكبح التحديث، ذلك إنهم يحسبون أن الهتافات والشعارات والعناوين الصاخبة، هي السبيل لانخراط المجتمع في تفكير مغاير، ولم يدركوا أن عملية التغيير الاجتماعي والتحولات في التفكير هي عملية بالغة الصعوبة، ترتد إلى شبكة معقدة من العوامل والمؤثرات المتشابكة.

كما أن إصرار هذه الفئة على استمرارها في جرح الضمير الديني وهجاء مقدسات الآخر أفضى إلى خشية الناس على معتقداتهم[١].

ويؤمن الرفاعي بأن من لا يرى أثراً استثنائياً للدين في الحياة البشرية ويجهل معارفه، حينئذ ستأتي دعوته للتحديث بنتائج معاكسة، وسيتسع التوجس من أي دعوة تحديث للفكر.

المجموعة الثانية: (المتدينون الأرثوذكسيون)؛ وهي المجموعة التي تقتصر نظرتها على ان الإسلام هو الشريعة والأحكام الفقهية واجتهادات الفقهاء. ويسعى أصحابها إلى إضفاء الديني على كل ما هو دنيوي، وتفريغ الإسلام من محتواه الرمزي والروحي والأخلاقي، وهدر مضامينه الوجدانية والإنسانية، وهم بذلك اختزلوا الدين ببعد واحد، ممانعين أي مشروع تحديثي جديد[٢].

المثقف النقدي والسلطة

يدعو الرفاعي إلى بناء مفهوم "جديد" للمثقف، بعد استبدال وظائفه التي اكتست بطابع أيديولوجي، وسم الانتلجنسيا العربية صنيعة الأيدلوجيات، وبخاصة اليسارية منها، التي اختزلت معنى المثقف في التبشير لأفكارها والنضال من أجلها.

فالمثقف من وجهة نظره ليس داعية، ووظيفته ليست تغيير العالم كما هو مبتغى المثقف عند غرامشي، لأن تأطيره بهذا يعني تحجيما وتدميراً لروحه وعقله.

---

(١) انظر افتتاحية العدد ٤٥ ـ ٤٦ لمجلة قضايا إسلامية معاصرة، مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه.

لذا يدعو الرفاعي إلى إعادة تشكيل مفهوم المثقف باتجاه مضاد للمفهوم الأيديولوجي، وهو ما يسميه بـ(المثقف النقدي) الذي ينشغل بتفسير العالم وليس بتغييره، ويمارس دوره النقدي والحجاجي تجاه الحياة والواقع، ويعلن رأيه بوضوح عن الموروث، والكشف عن كافة التمثلات، والتعبيرات، والتجليات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للدين، والسياسة، والفن، والأدب، وكل ما تعيشه مجتمعاتنا، وفضح جميع الأقنعة والحجب والممنوعات التي تطمس الحقيقة وتسترها وتخفيها[1].

فالاشتغالات النقدية التي يتطلب من المثقف الانخراط بها، وفق المفهوم المتعدد الأبعاد وهو ما دعا إليه الفكر الغربي الليبرالي وطورها فيما بعد، هذا المفهوم الجديد يصر الرفاعي على انه معطل عند النخبة العربية والإسلامية.

وتأسيساً على مفهوم المثقف النقدي الذي دعا إليه الرفاعي، ستكون رؤيته حينئذ في نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بين السلطة والمثقف قائمة على أساس الندية، باعتبار أن المثقف سلطة قائمة بذاتها ويفترض بها التحرك في فضاء بلا قيود أو محددات فكرية أو عقائدية أو حتى قيمية[2]. "فمقولات الأحكام السلطانية توغلت في لا وعينا وصاغت لا شعورنا السياسي، وباتت غاية مطامح المثقف العربي هي إدراك رضا السلطة وتعزيز العلاقة بالحاكم". من هذا المنطلق مازال المثقف متحالفا مع السلطة، مخفياً وجهها القامع ليتنعم بعطاياها أو مدافعاً عنها تحت زعم وجود تآمر تاريخي ضدها، وهو بذلك يمارس "دعارة ثقافية" على حد تعبيره.

وما دامت النخبة الثقافية تسير في ركب السلطة أو على الأقل عدم انتقادها والاحتجاج على سلوكياتها وأفعالها في تزوير الحقائق، حينئذ كما يعتقد الرفاعي ستبقى مجتمعاتنا على مسافة قصية من الديمقراطية، لأن توطينها يتطلب وجود نخبة ثقافية لن تخشى ممارسة دورها النقدي في تعرية السلطة وغرس ثقافة التعددية في بنية الدولة السياسية[3].

رؤية ناضجة

مما تقدم، يتبين أن الرفاعي مشغول بهم نقدي، ويتضح هذا، من خلال إلحاحه المستمر على طرح أفكار لم تتطرق إليها الأدبيات الدينية، حتى أولئك الذين نقدوا الموروث، بقوا رهن الأفكار الأيديولوجية، التي سار عليها الفكر الديني بحقبه الزمنية المختلفة.

---

(١) حوار صحيفة الصباح، مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) إنقاذ النزعة، ص٢٠٠، مصدر سابق.

كما أنه يطمح إلى إعادة صوغ جُلّ المفاهيم التي تربت ونشأت عليها الغالبية الساحقة من المسلمين، وتأسس عليها التراث الديني الفقهي والعقائدي، المفاهيم التي كرست الانحطاط والتخلف بذريعة حراسة الهوية وتحصين الذات وحماية طهرانية التراث من الغزو الثقافي، وإعادة إنتاج الكراهية للمجتمعات الغربية، مما عزز القطيعة مع العالم وحرم الإفادة من مكاسب الفكر الإنساني الحديث.

يرفض الرفاعي "تحويل الإسلام من ثقافة إلى أيديولوجيا" كما هو مشروع الراحل علي شريعتي، معتبراً أن "هيمنة الأيديولوجيا على وعي الباحث ولا وعيه تحول بينه وبين الوصول إلى نتائج علمية، ذلك أن الأيديولوجيا تقود أية عملية تفكير وتوجهها الوجهة التي تنشدها، وتضاعف التحيزات والمفروضات القبلية في ذهن الباحث، وتسوقه دائماً إلى مواقف ونتائج محددة سلفا"[1].

فرؤيته في نقد المعرفة الدينية تتأسس على النظر إلى سياقاتها الزمكانية والاجتماعية والثقافية للاجتماع البشري، فهو ليس داعية ينشد الإصلاح بالرغم من كونه رجل دين، بل هو كما يصف نفسه، "باحث حر ومثقف نقدي".

من هنا، خلت كتاباته في الخمسة عشر عاماً الأخيرة من أي هجاء للغرب، وحتى إلى التعرض لرجال الدين الأصوليين، ولم تتضمن كتاباته وأفكاره تفسيقاً لأكثر الأطراف أرثوذكسية وتشدداً، بالرغم من كونه مفكراً سجالياً.

اتسمت أفكاره بالعمق المعرفي، والإفادة من مدارس فكرية ونقدية متعددة، إلى جانب خبرته العميقة في التراث الإسلامي والعربي. وهو بذلك يعزز موضوعيته بعدة نقدية تجادل الفكرة بالفكرة.

والرفاعي مفكر عابر لمذهبيته الشيعية، بالرغم من انتمائه إلى المؤسسة الدينية الشيعية حيث عمل فيها أستاذا لسنوات، فآراؤه لم تذكرنا فقط بشخصيات شيعية من داخل الحوزة أو من خارجها كانت قد تركت أثرها خلال القرن العشرين، نظير؛ هبة الدين الشهرساتني، ومحسن الأمين، ومحمد حسين كاشف الغطاء، ومحمد باقر الصدر، وآخرين، بل وضعتنا قبالة، طه حسين، ومن قبله الكواكبي والأفغاني ومحمد عبده، وأعلام آخرين عرفوا بدور متفاوت في تبني منهجيات تفسير حديثة في قراءتها للتراث الديني على وجه التخصيص.

وكما لم يؤطره الانتماء المذهبي، فقد عبرت أفكاره المجال الديني لينفتح على فضاء بلا حدود يبدأ بالإنسان وينتهي به.

---

(١) إنقاذ النزعة، ١٠٨، مصدر سابق.

رجل أنتج ما لم تنتجه مؤسسات ثقافية كبيرة، غزارة في الإنتاج الموسوعي، مع دماثة خلق رفيعة وسجية عفوية، جعلت منه مصداقاً لقول جون لوك "طالما اعتقدت أن أفعال الرجال أفضل ما يعبر عن أفكارهم".

ولا بأس هنا، من أن نشير إلى أهم الملامح الرئيسة لمشروعه ـ بالإضافة إلى التفصيل المتقدم ـ، خصوصاً تلك التي تدافع عن الإنسان بوصفه المحور المركزي في الحياة البشرية والكون برمته.

ويمكن إبراز ملامحه تلك، بالنقاط التالية:

١- تطهير الدين من الكراهية والتثقيف على نفي الإكراه فيه، عبر تعميم مبدأ (لا إكراه في الدين) والاستناد إليه كمرجعية في الحياة.

٢- تجذير المفاهيم والشعارات التي تمجد الحياة، والخلاص من دعوات تبجيل الموت وهجاء الحياة ـ الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها "حديث نبوي"ـ، ولعن المباهج، والتشهير بوسائل الفرح ومصادر المسرة.

٣- تبني الرؤى والمفاهيم التي تهدف إلى مواكبة العصر، وتعزز المصالحة بين المتدين والمحيط الذي يعيش فيه.

٤- الدعوة للتعددية والتسامح، وإرساء قيم الاختلاف واحترام الآخر، وإشاعة فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورته الإنسانية، بدلاً من الصورة المتوحشة التي تقدمها جماعات أصولية.

٥- إشاعة ثقافة التعايش والحوار بين الأديان والثقافات.

٦- الدعوة لبناء مجتمع مدني تعددي، وتكريس حق الاختلاف، والتثقيف على أن الوطن يتسع للجميع، والمواطنة هي النصاب، بغض النظر عن أعراقهم ومعتقداتهم.

٧- تخليص العقل الجمعي من عقدة الاستعمار التي تمنع الاستفادة من مكاسب الغرب ومنجزاته الحديثة في شتى المجالات، وحتى لا تتحول أيضاً إلى ثابت يستغل من قبل الجماعات المتطرفة[1].

أخيرا، يبدو أننا نحن أمام فكر مغموس بالحب الإنساني، رجل أعطى لمشروعه التحديثي نبضاً خاصاً ودفقاً سحرياً مميزاً، وهو بذلك صانع ماهر للأفكار غير المألوفة، التي نجحت في هز جدران سميكة، وقد وضع قماشة كبيرة من المفاهيم لينسج عليها اللاحقون، من بعده، ما يرغبون في نسجه.



(١) الرؤية والتطلعات، مصدر سابق.

مشروع
أنسنة الدين

✍ د. علي المعموري[1]

بتصوري أن أفضل عنوان أستطيع أن أصف به مشروع الدكتور عبدالجبار الرفاعي هو أنسنة الدين. ولذا فسأنطلق منه لأقدم صورة عن المشروع الذي عمل عليه هذا الباحث والمفكر العراقي لمدى ثلاثة عقود، وهو من رواد هذا المشروع العظيم والذي نشاهد الحاجة إليه اليوم أكثر من الماضي.

هناك مقاربتان مختلفتان للدين، تنطلق من اختلاف في الرؤية اللاهوتية تجاه هذا النتاج المتنوع التكوين تاريخياً. الرؤية الأولى، التي يمكن أن توصف بالتقليدية لشهرتها عند المدارس اللاهوتية القديمة، تعتبر الدين كياناً ميتافيزيقياً مأخوذاً من السماء، دون تدخل البشر فيه سوى بدور المنفعل وليس الفاعل. فالدين هو مجرد ارتباط وعلاقة من جهة واحدة حاول إيصال رسالته للبشر، وليس للبشر سوى تلقيها والعمل وفقها. وأما الرؤية الثانية، فتنظر إلى الدين ضمن علاقة جدلية من نوع التفاعل المتقابل وليس الفعل والانفعال، وعليه الرب والإنسان يتشاركان معاً في صناعة هذا المنتوج الديناميكي عبر الزمن، ضمن تجارب دينية واسعة النطاق تشمل مختلف مجالات الحياة.

تعتبر الرؤية الأولى أن الدين بضاعة مغلفة نزلت من فضاء غير إنساني على البشر، لهدايتهم نحو غاية محددة تؤدي بالإنسان إلى السعادة. ولكن الرؤية الثانية تعتبر الدين نتاجاً بشرياً لعب فيه الإنسان دوراً فاعلاً في تعامله مع الأمر الماورائي، وأن عملية إنتاج الدين ما زالت مستمرة عبر التجارب الدينية للمتدينين، الذين يقومون بإثراء المنظومة الدينية بذلك، وأيضاً بتفاسيرهم المختلفة للقضايا الدينية، والتي تتحول وتتكامل عبر التاريخ متأثرة بمقتضيات العصور والمجتمعات المختلفة.

قد أنتجت الرؤية الأولى، منهجاً ديموغاجياً يجبر البشر على الالتزام بفهم مرتبط بفترة تاريخية محددة، يمنع الإنسان من تطوير فهمه الديني ليكون أكثر إنسانية وتفاعلاً مع تطورات الحياة البشرية. وقد أنتجت الرؤية الثانية فهماً متسامحاً يوفر الإمكانية لتطوير

---

(١) باحث وأكاديمي عراقي، صديق عبدالجبار الرفاعي وتلميذه.

المنظومة الدينية حسب متطلبات العصر، وبالنتيجة يجعله أكثر إنسانية وقابلاً للتهذيب، وإبعاد الجوانب غير الإنسانية منه بشكل مستمر.

وعليه فقد ساهمت الرؤية الأولى في حدوث كوارث بشرية عديدة عبر التاريخ، من حروب ومجازر كثيرة، نشاهد اليوم نماذج منها في أكثر من بلد في منطقتنا الشرق الأوسط؛ بينما حجمت الرؤية الثانية البعد غير الإنساني في المنظومة الدينية، عبر المسك بزمام الثابت المطلق وتحويله إلى نسبي متسامح يمنع المتدينين من إصدار الأحكام المطلقة تجاه الآخر المتدين بديانة أخرى أو غير المتدين أساساً.

هذا ما حدث عبر قرون من تطور اللاهوت وفلسفة الدين في الغرب، ما أدى في النهاية بالديانة المسيحية أن تتحول إلى مؤسسة إنسانية متسامحة تجاه الآخر، ومنعها عن الدور السلبي الذي كانت تقوم به في القرون الوسطى، من قمع وقتل واضطهاد للآخر. وهذا التحول المنهجي الجوهري هو الذي بالضبط جعل البابا فرنسيس أن يجيب بهذه العبارة: "من أنا لأحكم على البشر؟!" حين سُئل عن رأيه في زواج المثليين. بينما كان البابوات في القرون السالفة تساهم في قتل الآلاف، لمجرد أحكام ورؤى كانوا يعتبرونها من الثوابت الدينية غير القابلة للنقض.

سأحاول تبيين هذه الرؤية خلال استعراضي لأعداد مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ومؤلفات الدكتور الرفاعي، التي أراها تصب جميعاً في هذا المشروع، وسأحاول تبيينه أكثر، ومناقشة بعض أهم الاعتراضات والانتقادات الواردة عليه.

ينطلق هذا المشروع من لحظة الانتقال من التعبد المحض إلى النقد البناء تجاه القضايا والمسائل الدينية؛ والتي خصصت لها أكثر من عدد في مجموعة قضايا إسلامية معاصرة. هذه اللحظة المعرفية تشكل المفتاح الرئيسي للبدء بالتعامل مع الدين من منظور تفاعلي جدلي وليس انفعالي. وعليه ستتاح الفرصة لاستخدام الأدوات العقلية وكل المنظومات المعرفية المنتجة من قبل العقل، في سبيل غربلة وتفكيك الأمر الديني، للوصول إلى أسسه وأدلته ومبانيه وظروف تشكيله التاريخية والنفسية والاجتماعية. وقد ساعدنا تطور المعارف الإنسانية وخاصة ما يتعلق منها بالميثودولوجيا ونقد النص، من قبيل: اللسانيات وعلم العلامات والميثولوجيا والسرديات والأنثروبولوجيا... في تطوير هذه المقاربة، وقد وفرت لنا أدوات ومناهج علمية متعددة،لعلها توصلنا لفهم مختلف تماماً للدين عما كان سائداً في الماضي. وربما تطرح إشكالية أساسية هاهنا بأن التعامل النقدي للدين يعني نفيه وإنكاره، وهذا يساوي الإلحاد والخروج من الدين تماماً، وليس التعامل المعرفي معه. ولتلك الإشكالية تاريخ قديم في التراث

الإسلامي، حيث كانت تشكل أحد الخلافات الرئيسية بين أصحاب العقل وأصحاب النقل في القرون الأولى من ازدهار الثقافة الإسلامية؛ فكان الفريق الأول يعتبر العقل أولى وأقدم وحاكم على الدين بهذا المعنى: أن الدين يخاطب العقل أولاً، وليس له طريق للوصول إلى البشر سوى طريق تخاطب العقل، وأن العقل هو الذي يهدينا إلى الدين، حسب الأدلة العقلية التي يوفرها لنا، وهو المرجع لفهمنا عن القضايا الدينية وتفسيرنا للدين، فعليه أن العقل حاكم على الدين، ومفسر لقضاياه، ومرجع لفهمه تماماً. وبالتبع أن التطورات المعرفية في الأدوات العقلية ستؤدي بنا إلى فهم مختلف عن الدين، ضمن عملية جدلية مستمرة عبر التاريخ.

هذا وحيث أن أصحاب النقل يقدمونه على العقل، في مفارقة منطقية بأن كيف للنقل أن يحصل على تماس بشري من غير التعامل مع العقل؟! فظهرت بين هذا وذاك مناهج متوسطة أخرى، منها ما جعلت العقل مجرد واسطة يوصلنا للدين، ليستقيل آنذاك ويعطي الزمام للدين تماماً، ومنها ما حاولت البحث عن مصادر أخرى للوصول إلى الإيمان، بحيث تغنينا عن العقل المشاكس الشرس الذي لا ينقاد للدين تعبداً، بل يطغى عليه يوماً ما إذا ما أعطته القيادة في مسيرة الإيمان.

والغرض من هذا التطويل، أن التعامل النقدي مع الدين لا يعني الخروج منه منطقياً، بل هناك نماذج متعددة من التعامل النقدي حسب التبنيات المعرفية والأسس الفلسفية لكل منهج.

واستمراراً لبحث المقاربة النقدية للدين، خصصت مجلة قضايا إسلامية معاصرة عدداً كاملاً وموداً متفرقة أخرى في أعداد أخر للبحث عن الهرمنيوطيقا وتحليل ظاهرة الفهم الديني.

لقد ساعدتنا المقاربة النقدية أن نحصل على مستوى جوّاني للمعارف البشرية، مما تعرف بعلوم الدرجة الثانية، والتي منها الهرمنوطيقيا. ولتوضيح ذلك أستعين بمبحث الوجود الذهني في الفلسفة الإسلامية، حيث يقدم لنا هذا البحث نمطين مختلفين من الوجود: الأول ما هو نشاهده في الواقع الخارجي، والثاني هو الانطباع الذهني عن الأمر الخارجي. وعليه حين نبحث عن الأول سننتج معرفة درجة أولى، وحين نحاول تحليل فهمنا السابق، وحينئذ تصبح المعرفة الأولى هي موضوعاً للفهم، فنحن هنا بصدد إنتاج معرفة درجة ثانية، تهتم بالمستوى التحتاني للمعرفة، لتعرف كيفية إنتاج تلك المعرفة الأولى، وتقييم تلك العملية، والحصول على الثغرات التي رافقتها، وما إلى ذلك من محاولات فهم

الفهم ونقد الفهم. وقد ساعدتنا الهرمنيوطيقا أن نعرف الأسباب والخلفيات المعرفية وغير المعرفية من العوامل النفسية والاجتماعية وغيرها للأنماط المختلفة لفهم الأمر الديني الواحد؛ كما أنها أثبتت لنا أنه ليس هناك دين واحد، بل تدينات مختلفة حسب اختلاف الأفهام، ما عبر عنه الدكتور عبدالمجيد الشرفي بأن "الإسلام واحد ومتعدد". وأيضاً فتحت الهرمنيوطيقا أمامنا باب الحفر المعرفي في تراثنا الماضي، لنتعرف على فسيفساء متنوع جداً من الأفهام المتناقضة أحياناً، والتطورات التي حدثت لفهم الأمر الديني، مما أدى إلى انقراض بعض تلك الأفهام في حالات، أو تحولها جذرياً في حين آخر؛ كما فُنّد الإدعاء الواهي بأن هناك ثابتا مطلقا قد وصل لنا من السلف، من دون تغيير وتحول في المضمون والشكل والمنهج.

وأوصلتنا المحطتان السابقتان إلى الاعتراف بالتعددية (Pluralist) وتفنيد إدعاء الحصرية (Exclusivism) بأن ليس لأحد من الأفهام البشرية الإدعاء بأنه يملك الحقيقة كلها وأن كل ما سواه ليس إلا باطلاً.

حاول الرفاعي في أكثر من عدد من قضاياه الإسلامية المعاصرة، وأيضاً في عدد من مؤلفاته القيّمة، أن يبرهن على تعدد الحق وانتشاره بين الجميع، وكذا أيضاً بشأن الباطل. ولهذه المقاربة خلفية ثرية بالمفاهيم والتجارب الروحية لدى الاتجاهات العرفانية لدى مختلف الديانات. فهناك الكثير من النصوص العرفانية التي تؤكد بأن اختلاف المصاديق لدى أصحاب الملل والمذاهب لا تعنى بأن من الضروري أن تكون واحدة منها بالتحديد على حق والأخريات كلها باطلة؛ لأن الاختلاف لا يأتي دائماً من سوء الفهم، بل أحياناً من التعابير المختلفة الناتجة من اختلاف اللغات، أو المفاهيم المعرفية، وفي أحيان أخرى من المقاربة في النظر للواقع من زوايا مختلفة، فالأمر الواحد حين تنظر له من جهات مختلفة ستتكون صور مختلفة منه في عالم ذهنك. وندين لهذا الكشف المعرفي الهام لفيلسوف التنوير عمانوئل كانط، حيث كشف لنا المقولات الذهنية التي تحدد فهمنا للواقع في كتابه "نقد العقل المحض".

وكان لمفهوم التعددية انعكاسات واسعة في دلالاتها المعرفية والاجتماعية، حيث نشأت منها عدة مفاهيم أخرى تناولتها قضايا إسلامية معاصرة في أعداد مختلفة، أهمها: التسامح، والعقلانية، والتي سأبينها في ما يأتي. بما أن التعددية تصنف في ثلاثة أصناف رئيسية:

١- التعددية في المعرفة.

٢- التعددية في النجاة.

٣- التعددية في التعايش.

الكل تساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في نشر مفهوم التسامح ونبذ العنف.

الاعتراف بالتعددية في التعايش تؤدي بنا إلى الاعتراف بالآخر، بوصفه شريكاً متساوياً معنا في الحياة على الكرة الأرضية، وبالتبع ستمنعنا من اضطهاده ونبذه ونشر الكراهية تجاهه.

والتعددية في النجاة ستحجم الكراهية الدينية تجاه الآخر، في صورته المتمثلة بالخطأ والضلال اللذين سيؤديان به إلى الشقاوة في الحياة الأخرى، ولا يخفى أن لهذه الصورة الذهنية آثاراً واضحة في كيفية التعامل مع الآخر، من حيث اعتباره ضالاً يجب علينا هدايته أو البراءة منه، حفاظاً على نقاوة إيماننا الضامن الحصري للسعادة الأخروية.

والتعددية في المعرفة تسهل لنا عملية فهم الآخر، وتأسيس مقاربة الحوار معه بدل الإلغاء والنفي. ولا يخفى أيضاً على المتابع لتاريخ الأفكار الفلسفية في الفترة المعاصرة ما كان لفكرة التسامح من دور رئيس في تأسيس مقاربة حقوق الإنسان، وتجفيف منابع العنف، وتحرير الدين من الكراهيات والعصبيات المختلفة.

وقد دفع بنا اتجاه التعددية إلى تأسيس مقاربات للفهم المقارن للأمور الدينية؛ فحين تتواضع المعرفة البشرية، وتنفي عن نفسها الحق الحصري بالمعرفة، ستكون مستعداً لفهم الآخر والتفاعل الإيجابي معه من منظور عقلي حسب الأدلة، وليس بالتعبد الوراثي للماضي. وهذا يفتح المجال لشراكة معرفية عامة بين كل الأديان والثقافات البشرية، حيث تقدم كل منها نتاجها وبضاعتها للآخر، ليقتبس ما يراه صالحاً منها، وينقد ما يعتبره قابلاً للنقد منها.

أدت هذه الدراسات المقارنة الواسعة النطاق إلى إيجاد ظاهرة سماها الفيلسوف الإيراني مصطفى ملكيان "العقلانية والمعنوية"، حيث يأخذ الشخص بالنزعة المعنوية المشتركة بين مختلف الأديان، ويسير على نهج العقلانية في الاقتباس منها جميعاً، لينتج أي منا ديانته الخاصة به، في عملية عقلية ــــ روحية ممتعة، ومليئة بالاكتشافات الجديدة والتولدات المستمرة.

وقد اهتم الرفاعي بهذه المدرسة الفكرية في أكثر من عدد من مجلته، وفي مؤلفاته الأخرى، كما ترجم للعربية بمعية حيدر نجف كتاب "العقلانية والمعنوية" لمصطفى ملكيان.

وقد غير اتجاه العقلانية والمعنوية مفهوم "الإيمان" مما كان عليه القدماء، الذين كانوا يعتبرونه مجموعة من القناعات الذهنية المنتجة للاطمئنان النفسي بصحة ديانة معينة

والالتزام بها. هذا وحيث أن الإيمان من منظور العقلانية والمعنوية هو مسيرة وجودية، يتفاعل معه العقل والعواطف البشرية، ضمن تجارب روحية عديدة، تنتج أنماطاً مختلفة من التدين بشكل مستمر، كزهرة تنبت من جديد في كل صباح وإشراق. فالإيمان لم يصبح مجرد تعبد لأقوال والالتزام بأعمال محددة، بل هو اجتهاد فكري وروحي مستمر، يؤدي بالمؤمن إلى كشف فضاءات جديدة، تثري شعوره الروحي، وتجعله قابلاً للتكيف مع ساحات الحياة الأخرى.

وقد أدّت التطورات الفكرية التي سردتها آنفاً إلى ظاهرة مهمة غيرت مسار صراع العلم والدين إلى تحاورهما وتكيفهما معاً، حيث أصبح الدين والعلم كلاهما متواضعين لا يدعيان امتلاكهما للحقيقة كلها، وكذلك في مستوى الصراع بين التراث والحداثة، حيث أصبح المتدين مستعداً لمناقشة متبنياته الفكرية، كذلك أصبح الشك أمراً مقدساً، يجعل من المؤمن متحاوراً عقلانياً مع الرؤى التي تخالفه في العقيدة بالإجمال أو التفصيل. وهذا أيضاً ما خصصت لها قضايا إسلامية معاصرة أكثر من عدد.

وأخيراً بودّي أن أؤكّد على أهمية هذا المشروع المتكامل، الذي من شأنه أن ينتهي إلى منظومة جديدة للتدين، قابلة لتكون بديلة عن النماذج المتورطة في الصراعات الدينية والحماقات البشرية، التي ما زالت منتشرة في عالمنا وفي الشرق الأوسط بشكل أخص. وأتمنى لصاحب هذا المشروع العظيم، التقدم نحو مجالات أكثر خطورة وحساسية في اللاهوت، ليعرضه في مجال النقد البناء ضمن السياق العام للنزعة الإنسانية للدين، ودفع لكل مصادر العنف والكراهية والإلغاء في الأنماط المختلفة للتدين البشري.



الرفاعي وسؤال التنوير

✍ د. فوزي حامد الهيتي[1]

هل يمكن لرجل حوزوي أن يعالج سؤال التنوير؟

سؤال راودني عند أول لقاء كان بيني وبين الشيخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي في قسم الفلسفة - كلية الآداب الجامعة المستنصرية عام ٢٠٠٤. كان يرتدي آنذاك الزي الرسمي، والذي يعرف باللهجة العراقية (زي الأفندية)، ولكن علمت من صديقي الدكتور علي المرهج الذي قدمه معرّفاً به، إن الدكتور يعمل في الحوزة العلمية في النجف ثم في قم منذ أكثر من ربع قرن، دارساً ومدرساً وصاحب مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" البيروتية التي تتبنى مشروع حداثوي إسلامي، ولديه تاريخ طويل في العمل السياسي.

لا شك أن للتساؤل مسوغاته، ولاسيما بعد انتشار الأصوليات الإسلامية في أغلب حركات؟ الإسلام السياسي في الربع الأخير من القرن العشرين، وانتشار روح التطرف على المشهد السياسي العربي. وسط هذا الفضاء أو الأجواء هل يمكن أن ينتج فكر تنويري قادر على قبول الآخر المختلف والانفتاح عليه والتفاعل معه، أو حتى القبول به والاعتراف بوجوده؟

نعلم أن المؤسسة الدينية سبق وان أنتجت لنا مصلحين كبار أمثال رفاعة رافع الطهطاوي ومحمد عبده وعلي عبد الرازق، ولكن الأجواء التي ظهر فيها هؤلاء المفكرين هي أجواء انفتاح ثقافي، وعلاقتنا بالآخر الغرب مازالت في مرحلة الحوار والتفاعل لم تصل حد الصدام بعد، ولم ندخل عصر النكوص والانغلاق والتشنج الفكري. كما أن التنوير مشروع يتجاوز محاولات الإصلاح في دعوته لاستقلال العقل وتحرره من أية سلطة خارجة عنه. الإصلاح يعني إعادة رسم العلاقة بين العقل والوحي، بما يمنح للعقل مساحة من الحرية يمكنه أن يعمل بها، وفي الغالب لا تتعدى حدود عالمنا الحسي، فللعقل مجاله مثلما للوحي مجاله وحدوده، وهما على حد تعبير بن رشد متممان لبعضهما، لا العقل يستغني عن الوحي ولا الوحي يستغني عن العقل، أما التنوير فيعطي سلطة معرفية مطلقة

(١) أستاذ الفلسفة بكلية الآداب في الجامعة المستنصرية.

للعقل ونشاطه والعالم مسرح لتمظهراته وتجلياته ونشاطه، وكل ما لا يجد معناه وتفسيره داخل نظامه يعد لا معقولاً ويجب رميه إلى النار، وفي أحسن الحالات يتم حصره في مجال الأخلاق والفن (الجمال)، وحتى هذين المجالين تم إخضاعهما لمبدأ الواجب ليتسقا مع معايير الحق والخير.

إذاً للسؤال مسوغاته وللرجل نتاجه وحضوره في ساحتنا الثقافية، ولسنا هنا في مهمة تصنيف أفكار وإصدار أحكام، وإنما نحن بصدد فهم تجربة تستحق الوقوف عندها.

بدءاً لا بد من الاعتراف أنني لست مطلعاً بما يكفي على كل نتاج شيخنا الرفاعي، وهو نتاج كبير يمتد لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن، وعشرات من العناوين في مجالات معرفية عديدة، ولكن أستطيع أن أدعي المعرفة به لاتصالي المباشر معه لسنوات، وللحوارات الطويلة التي كنا نجريها معاً في هموم الثقافة ومشاغل الفكر، والأهم من ذلك كنت أنطلق من موقع مختلف وأدوات منهجية مختلفة عن تلك التي كان الشيخ ينطلق منها والأدوات التي كان يعالج بها هذه الهموم والمشاغل، مما يسمح لي باكتشافه ومعرفته بشكل أفضل مما لو كنا نسير على خط فكري واحد.

وأود هنا أن أثبت خلاصة عامة لمجمل أطروحات الرفاعي الفكرية، التي تعد بالفعل محاولة تنويرية هاجسها الأول الانفتاح على كل منتجات العقل الإنساني والتفاعل معها، بغية إغناء تجربة العقل العربي وإخراجه من حالة الانغلاق والتشنج التي يعيشها منذ قرون طويلة، ليعيده إلى مسرح الفعل الحضاري المنتج القادر على الإبداع الخلاق.

الإنسان كائن متدين:

يرى الرفاعي أن التدين ظاهرة إنسانية قد تختلف في تجلياتها عبر الأزمان وبين الشعوب، ولكن وظيفته واحدة عند الجميع هي ربط الموجود بالوجود ومن خلال هذا الاتصال يحقق الموجود معناه ودلالته، والإنسان بوصفه موجودا لا يحقق ماهيته إلا بهذا التواصل، والذي من خلاله يعيد بناء علاقته مع الموجودات الأخرى بصورة فيها من الاتزان والانسجام والتكامل، ويضفي عليها من الحب والجمال ما يجعله متصالحاً مع محيطه وبالذات مع الذوات الأخرى، والذي يعني غياب كل أشكال القبح من حياتنا. وهذا لا يعني النظر إلى الإنسان بوصفه كائناً سماوياً ملائكياً بل على العكس هو موجود ولكن اتصاله بالوجود أو بمعنى أدق شعوره بهذا الاتصال يضفي عليه حالة الانسجام مع محيطه والانفتاح عليه ليس بدافع السيطرة والاستغلال والإخضاع، بل بدافع الانتماء إلى

هذا المحيط والتفاعل معه بوصفه جزءاً منه. والآخر بالنسبة لي لن يكون جحيماً كما يصفه سارتر، بل هو من يعطي لوجودي معنى لأنه مكمل لوجودي، لأني ذات مدركة تحتاج إلى ذوات أخرى تتفاعل معها وتتشارك في خلق كل ما هو جميل في الحياة. إن اتصالي بالمطلق بوصفي ذاتاً لا يمنحني سلطة على الآخر ولا حتى على الطبيعة، بل أن هذا الاتصال أو بمعنى أدق أن شعور اتصال الموجود بالوجود (المطلق) يشعره بأنه مجرد جزء فرد مع آخرين يشاركونه في هذا العالم، ومسؤوليته التواصل والتفاعل معهم. والأصل في العالم عند الرفاعي هو التنوع والتعدد والاختلاف، وهذا التنوع هو ما يضفي على حياتنا كبشر جمالية وجودنا، واتصالنا بالمطلق يمنحنا الطاقة على التفاعل والانفتاح على بعضنا بوصفنا ذواتاً متكاملين.

إن المنطق الذي يحكم الوجود الإنساني وعالمنا بشكل عام هو التفاعل وليس منطق الصراع ونفي الآخر وإلغائه أو تشييئه (أي النظر إلى الآخرين بوصفهم أشياء). وهذا التفاعل لا يمكن أن يتحقق إلاّ من خلال الانفتاح على الآخر ومحاولة تمثّل تجربته، وبكلمة أخرى أن إغناء تجربتي تكون من خلال الانفتاح على تجارب الآخرين ليس تقليداً وتبعية وإنما التفاعل معها بالنقد العقلاني.

إن هذا الفهم للدين أو التدين عند الرفاعي هو محاولة لإبراز البعد الإنساني من خلال حصره أولا بالبعد الفردي، فالتدين هو علاقة مباشرة بين الإنسان الفرد والله، أو هو علاقة شخصية بين الإنسان وربه، وهو غير معني بإشراك الآخرين بهذه العلاقة، ولا حتى إلزامهم بتبني التجربة ذاتها، بل لا يمكن تكرارها، فلكل منا تجربته الدينية الخاصة، والتي تحددها ثقافة الشخص وبيئته وتجربته في الحياة وهكذا. وهذا ما يعنيه بالتنوع والتعدد والاختلاف في الفهم، وبهذا المعنى يصبح الدين حقاً شخصياً وتجربة ذاتية، لا يمكن إرغام الآخرين على تبني تجاربنا أو تقليدنا، وإن حاولنا ذلك فلن نفعل سوى إرغام الآخرين على ممارسة حركات وترديد كلمات لن تجد تأثيرها الفعلي على سلوكهم اليومي، ويتحول الدين إلى مظاهر شكلية تفقد فعلها الإيجابي في حياة الجماعة.

وعلى أساس هذا الفهم لفعل التدين في حياة الجماعة يفسّر الرفاعي حضور ظاهرة الكره والصراع الدموي بين أصحاب الملل والديانات، بل وبين أبناء الدين الواحد وانقسامهم إلى مذاهب وطوائف متحاربة متصارعة، تحوّل الدين عندهم من رحمة للعالمين، غايته إعلاء مكانة الإنسان وإسعاده في هذه الأرض بوصفه خليفة الله فيها، إلى وسيلة لأشقائهم

واستعبادهم وتحويلهم إلى كائنات مسلوبة الإرادة والخيار... كائنات مسخ طيعة تابعة لا إرادة لها خارج القطيع غير قادرة على الفعل والابتكار.

إن محاولات الاستلاب التي حصلت في التاريخ البشري كانت بسبب إدعاء بعض رجال الدين الوصاية على الآخرين بحجة احتكارهم للمعنى بعد تحديد دلالته وفرضها على الآخرين. وهذا السلوك هو في حقيقته نزوع سلطوي وظّف الدين أو استعان به للتسلط على الآخرين وإخضاعهم لأغراض تحقق مصلحة فئة محددة على عموم الناس. ولا سبيل إلى إعادة تحرير الناس من سلطويات هذه الفئة إلاّ في تحطيم هذا الفهم السلبي للدين، وإعادة النظر بالمفاهيم والمقولات المغلقة للاهوت الكلاسيكي، والصورة النمطية للإله التي رسختها أدبيات هذا اللاهوت ووعاظه عبر قرون طويلة، وبالتحالف مع السلاطين والحكام ليحوّلوا خلق الله إلى قطيع خاضع وخادم للسلطان ووعاظه.

بعد هذا العرض الذي يكشف بوضوح حضور البعد التنويري في خطاب الرفاعي صار لازما علينا إعادة صياغة سؤالنا الذي بدأنا به هذا المقال، ليصبح كيف استطاع شيخنا الدكتور معالجة السؤال التنويري: هل نحن إزاء حالة جديدة من محاولات التلفيق أو التوفيق بين العقل والوحي؟

لا نريد أن نستعجل أفراح التنظير والحكم على تجربة لم تأخذ حقها من الدرس والتحليل، كما لا أود أن أعتمد على الأحكام الجاهزة في تفسير ظاهرة قد تكون لها من الطرافة والفرادة ما لا تستوفيها تلك الأحكام حقها لذا سأكتفي هنا بمحاولة الفهم أو التسويغ بما متوفر لي من معرفة بصاحب التجربة، كي لا اظلم نفسي أولا ولا صاحب التجربة بالعجلة غير المحمودة في كل الحالات ثانيا.

اللهم امتنا على دين العجائز

هناك قول مشهور عن السلف مفاده (اللهم أمتنا على دين العجائز) قول حضر إلى الذاكرة وأنا استمع مع زملاء آخرين إلى الرفاعي وهو يروي لنا تجربة زيارته إلى مولانا جلال الدين بن الرومي في جنوب تركيا. كنت ألاحظه وهو يتلذذ بالحديث عن هذه التجربة، وكنت أدرك حالة الوجد الصوفي التي يعيشها الشيخ وهو يشرح بإسهاب قد تصيب من لم يطلع على الإرث الصوفي في ثقافتنا الإسلامية بالملل من هذا الحديث، الذي لم يترك شاردة ولا واردة في هذه الزيارة إلاّ ويوظفها لصالح هذا المشهد العرفاني. لا شك أن العرفان تجربة ذاتية لها من العمق ما يصعب عندها الحديث، وهي كما يصفها أستاذنا مدني صالح دين الخاصة وبالتالي من غير المنطقي أن تكون مشروعاً تنويرياً، ولكن في ضوء ما تقدم من رؤية

لفهم التدين عند الرفاعي، لا يمكن أن نصنف فكره ضمن الخط الصوفي التقليدي، ولا حتى العرفاني الذي يشترط تحصيل المعرفة العقلية، الأمر الذي يصعب تحقيقه لأغلب الناس، وبالتالي يصعب أن يحقق التدين شروط التحرر الإنساني التي حدثنا عنها الرفاعي في أغلب مؤلفاته، ومنها: (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين)، و(مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد)، و(مناهج التجديد).

لا شك أن التعليم ونشر الوعي والمعرفة العلمية بين الناس شرط للتحرر من التبعية الفكرية والتقليد لأصنام معرفية ساهم وعاظ السلاطين في تكبيرها وترسيخها، ولكن ليس المعرفة بالمفهوم العرفاني التقليدي وإنما المعرفة العلمية التي تبدأ بالشك وتعتمد النقد العقلاني ولا تطمئن لليقين المطلق مهما كان عدد البينات المؤيدة. وفي ضوء ذلك يمكن تفسير مفهوم التدين الذي يدعو له الرفاعي بـ(تدين العجائز)، وهو تدين بسيط حد الغموض، هو إيمان قلبي لا يطرح أسئلة وجودية (انطولوجية) ولا يبحث عن أجوبة لها، فالأسئلة والأجوبة وظيفة عقلية مجالها العلم وأداتها التجربة، أما التدين فهو إيمان مقذوف في القلب نشعر به... نستعين به على تحقيق الانسجام الداخلي، وبناء علاقة تكاملية مع الخارج.

إن هذا النوع من الفهم للدين أو التدين استقاه الرفاعي ليس من التدريس الحوزوي وإنما من محيطه الريفي أو بيئته الريفية التي نشا فيها وترعرع. يروي الرفاعي عن حياته أنها كانت محاولات متكررة لتحطيم القيود والتحرر من أسوار الكهف الأفلاطوني، وبكلمة أخرى هي محاولات للتحرر من التبعيات والعودة إلى الصفاء والنقاء الذي لا يمكن أن تجده متحققا بالفعل الاّ في الريف البسيط والطبيعة غير المعقدة التي تمنح من يعيش فيها رؤية واضحة غير معقدة لكل الأسئلة الانطولوجية التي عقدتها أنامل تابعي الأصنام.



عبدالجبار الرفاعي
التركيبية في الحياة وفي الكتابة

✍ عبداللطيف الحرز[١]

مقدمة

تتخذ الكتابة عن أصحاب مشاريع الكتابة والنشر، فرصة لإبداء الحميمية الشخصية واقتناص فرصة التقرب لنيل مكاسب تسهيل النشر لصاحب التعريف والقراءة، الأمر الذي يجعل من الكتابة تحصيل حاصل، وسقوط في نفاقية مكشوفة، حيث يحضر التبجيل بدل النقد، والإطراء عوض التفسير. ومن الواضح أن شخصاً له مئات الإصدارات من الكتب المتنوعة الاختصاص، وعشرات الشهادات التكريمية، لن يضيف إليه الإطراء سوى تشويش على منجز طويل عريض كهذا، إلا اللهم على سبيل الدعاية المُملة. في حين نحن بحاجة إلى معرفة ذلك الخيط الذي تتوحد فيه حلقات السلسلة وقلادة الأفكار والإصدارات. حيث يتطور المثقف في بناء كيانه الفكري بتوسطات من تأثير الواقع ومن إسنادات في الطاقة الذاتية التي تبقيه مندفعاً صوب تكوين تراثه الخاص. من هنا يغدو السؤال مُلتبساً عن مدى ترابط مستوى الأفكار مع متسويات تنوع التجربة الحياتية.

وقد وجدتُ، وقد أكون على خطأ، أن أصعب الأمور هي تلمس محطات الشخص كسيرة فكرية وليست شخصية، وقراءة التجربة اليومية بتطور الفكر العلمي نفسه، فهذا النوع من المقاربة له صعوبة مزدوجة في شرح الأفكار ذاتها وفي تفسير حياة المفكر نفسه، لكن لذة الصعب هو الذي يخلق مفارقة الكتابة وقدرة المراجعة على اكتشاف ما لم يُلاحظ من قبل وفي توضيح الصورة الكبيرة، حيث متغيرات المجتمع، من خلال نموذج الصورة الصغيرة حيث المثقف. في نهاية المطاف تبقى هذه الورقة بمثابة محاولة في التعريف المطلوب وليس الدراسة المرجوة، التي تتطلب جهداً أوسع وأعمق بكثير من هذه السطور.

أولاً: شهادة حول حلقة قم النقدية

هوامات هيبة الغموض:

نتيجة لانعزالية الحوزة والانسحاب من الحياة العامة بعد قرار الميرزا النائيني إحراق كتابه "تنبيه الأمة وتنزيه الملة"، ونتيجة لمحاربة الأحزاب القومية للحوزة، تمتعت الحوزة بهالة من القداسة غير المحدودة، قداسة الأسرار وإغراءات الحياة السرية. زادتها هالة من القداسة

(١) كاتب وأديب عراقي مقيم في سدني.

المفرطة بعد صعود حزب البعث الاشتراكي إلى سدة الحكم معلناً المؤسسة الدينية كعدو أول للحزب ومشروعه في البلاد، الأمر الذي ولّد ردة فعل نفسية بجعل كل رجل دين، مهما كان صغر عمامته وعلمه، مشروع بطل وطني وشهيد ديني، وقد تحقق ذلك بمحمد باقر الصدر كنموذج أعلى لهاتين الصفتين، حتى تمت المطابقة بين العلم والدين في الذهنية الشعبية. على الرغم أن "العلم" بقي مجرد لافتة حيث لم يوجد حلقة وسطى بين المفكر الشهيد وبين الجمهور المؤيد، فلم تكن ثمة مجلات تُبسط الأفكار وتشرحها. نعم وجد بعض الإصدارات التي لم تكن ذات رؤية فنية لمعنى المجلة كجسر بين النخبة والقاعدة، ولعل هذه الحادثة ستبقى حاضرة في ذهن الشيخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي الذي نشأ في تلك المرحلة الحمراء من تاريخ العراق والفكر الإسلامي.

بعد استشهاد الشهيد المعلّم محمد باقر الصدر، ثم دخول البلاد في إعصار الحرب المربوطة الوثاق بحرب أخرى ثم ثورة شعبية تعرضت لضربة موجعة من قبل القوى الدولية وخواء القوى المعارضة التي كانت قارب نجاة أصغر بكثير من إنقاذ المنتمين إليه فضلاً عن إنقاذ شعب بأكمله، تحولت أسماء الشهداء حاضرة أكثر من أفكارهم، والعاطفة تتفاعل أوسع من النظرية. عندها دخل جيل من الأيتام والمشردين إلى مدينة "قم" الإيرانية، ليجدوا أن التعويض الوحيد لهالة الآباء المقتولين في انتفاضة شعبان ١٩٩١، والمعزولين في السجون أو مخيمات رفحا السعودية هي هالة الكتب التراثية القديمة. كتب كان حزب البعث قد حولها إلى وثيقة اعتراض سياسي يستحق العقاب كل بيت يحتوي على أحدها. هكذا باتت الكتب في كفة تساوي ثقل الموت في الكفة الأخرى، فتمتعت الكتب القديمة بهيبة الغموض الذي كان حكِراً على الموت.

فجأة باتت هذه الكتب معروضة على أرصفة الشوارع بعدما تحول الإنسان إلى وثيقة معارضة نتيجة وجوده في بلدٍ مثل إيران.. إيران المحروسة بأدخنة حرب الحاضر وأعجمية الماضي. ذكرى تمرد مصدق في استرجاع النفط، وذكرى علي شريعتي في العودة إلى الذات، والخميني في استرجاع هيبة الفقهاء.

حجر اليقين المقدس

أكثر ما حرصت عليه كتب الحوزة، ككل كتب التراث الديني، هو منح اليقين، وهو ليس أي يقين وإنما ذلك اليقين الحديدي الأرسطي الذي لا يكتفي بوصف المحمول للموضوع وثبوته له، وإنما استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر. انه يقين يتجاوز أية معادلة رياضية. انه يقين لا يعترف بكل ملابسات النفس الإنسانية للمجتمع العادي، فكيف بإنسان يتيم ومعزول وجائع ومشرد على أرصفة الشوارع وحدائق الأضرحة المقدسة.

كيف كنا نحتضن تلك الكتب بسعادة؟! يتساءل جملة من مجايلي تلك التجربة. وأعتقد أن سبب السعادة رغم الملابس الرثة والأحذية الممزقة والبطون الخاوية، إن هذا الجيل وجد نفسه كبيراً على حين غرة. لقد امتلك ما حُرم منه آباؤه وأخوته الشهداء أو السجناء. صبيان يتصفحون ويتدارسون كتب: المحقق الحلي، العلامة الحلي، نصير الدين الطوسي، مرتضى الأنصاري، الآخوند الخراساني، محمد باقر الصدر، الإمام الخميني، محمد حسين الطباطبائي، مرتضى مطهري... بلا خوفٍ من أحد. ثمة شعور إنهم يتصفحون وثائق ملطخة بدماء المُعذّبين والشهداء. صبيان يلجون مخدع السّر وهالة القداسة. الحوزة التي حوّلها حزب البعث بطريقته الغبية إلى عنوان من عناوين الهوية، بل لا معنى للهوية العراقية بدونها، وتلك مشكلة غذاها البعث سوف تطوقه وتخنقه بعد ذلك، وستكون مشكلة معقدة بعد سقوطه أيضاً. ارتبطت الكتب القديمة بأسماء المؤلفين أكثر مما حوته من نظريات وأفكار ومفاهيم. الأسماء رموز جماعة وذاكرة ثأر، فكيف يمكن للنقد النفاذ؟ على الرغم من أن محمد باقر الصدر ومحمد حسين الطباطبائي ومرتضى مطهري، كانوا يحرصون على طرح فكرة تأثير عنصري الزمان والمكان في الفكر الديني، وهذا يعني أن أفكارهم هم أيضاً خاضعة لعنصري الزمان والمكان، والآن نحن في زمان مختلف، وظرف اجتماعي ومكاني مختلف، فلماذا لا يختلف موقفنا من أفكار الصدر والطباطبائي ومطهري؟!

كان لابد من خطوة تمهيدية يكون التصور والفهم فيها سابقاً للتصديق والحكم. هكذا راح جملة من الأساتذة يجاهدون المؤسسة الدينية لإدخال كتب محمد باقر الصدر في مناهج التعليم الجديد، فكنا أول جيل أخضع كتب حراس الهوية والعودة إلى الذات، إلى الدرس والمناقشة.كان ثمة هم مشترك في الوصول إلى الفكرة، بعيداً عن أغطية التقعير اللغوي الذي كابده الطلاب الأكاديميون، بسبب ترجمة كتابات البنيوية والتفكيكية، وكابده طلبة العلوم الدينية، بسبب الأصل الأعجمي لبعض مؤلفي الكتب الحوزوية، فأخذت بعض أسماء الأساتذة بالبروز لتلبيتهم هذا الهم المشترك، فبرزت أسماء: محمد باقر الأيرواني، حسن الجواهري، عبدالجبار الرفاعي، حيدر حب الله، كمال الحيدري. وكانت هذه خطوة شفهية في تبسيط وشرح أفكار جيل الآباء ومشاهير الفكر الديني الحديث ما بعد مرحلة الشيخ محمد حسين النائيني. لتبدأ الخطوة الثانية الكتابية، حيث أخذت تظهر المنشورات والصحف والمجلات. وكان أغلبها مطبوعاً بطابع الحزبية، فالمشكلة لا زالت مستمرة بوجه النقد، فالمفكرين هم الآن عناوين لمؤسسات سياسية وارتزاقية، ونقدها يعني نزع السلاح والشهرة واللقمة السهلة من قبل هذا الطرف أو ذاك. من الطبيعي أن تكون تلكم المطبوعات ضيقة بأهلها فضلاً عن

غيرها، الأمر الذي يعني استمرار الركود، الذي بلغ حدّ العطن في تقاتل الأحزاب وتكرار الأفكار، التي فقدت الآن نظارة الجديد وبريق المستور.

وهذا عنصر جديد تنبه إليه عبد الجبار الرفاعي، الذي هو رائد إدخال الدم الجديد لفكرنا الوطني والعربي والإسلامي، حيث ولأول مرة تتم ترجمة أفكار كبار المثقفين الإيرانيين من جهة، واستحضار كتابات مشاهير الفكر العربي من جهة أخرى، فتم جمع القديم بالحديث وعلوم الألسنيات بجنب علم أصول الفقه الموروث، وتجاور الإيراني والعربي، السني والشيعي، العلماني والإسلامي في مطبوع واحد. هنا بدأت عملية مراجعة الهوية ومصداقية الذات، بل حقيقة اليقين المحفوظ في صندق عائلة الشهداء والمعتقلين.

كنا إذن شباناً نحمل اليقين الأرسطي غير المتسامح، يقين يثقل ألوف الصفحات التي وجدنا بعضها مطبوعاً بطريقة عجيبة، تسمى "طبعة حجرية"، حيث الحروف موزعة على شكل دوائر ومثلثات، بحيث انك تدير الكتاب أو تدور معه أكثر من تدوير مقود السيارة، لكن بدون إشارات ضوئية وشوارع مُعبّدة.

خارج الكتب كان كل شيء يهتز، التشكيك يعم حتى الهواء. الحوزة كانت منكمشة نتيجة انتقادات عبدالكريم سروش التي لم تجد لها جواباً حتى اليوم، كما أن الحوزة باتت فاقدة الصواب نتيجة انتقادات محمد عابد الجابري ومحمد اركون، وصدمتها بانتقادات أحد رجالها المعاصرين "أحمد الكاتب"، الذي تورط بجملة أخطاء فكرية، بسبب غياب المنهج التاريخي في المؤسسة الدينية وفي نقدها معاً[1]. وتراث محمد باقر الصدر ومحمد حسين الطباطبائي ومرتضى مطهري، لم يعد ميزة يحصل بها المعممون على التبجيل المطلق، فهناك مجلات وصحف عراقية قائمة على المثقفين وليس على المعممين. لقد وعى هؤلاء الشبان أن مقولة مثل "فلسفتنا" مقولة تحمل صخباً سياسياً لمعمم كان يريد الشهادة، فهي إذن جزء من تاريخ مرحلة، جزء من صراع بين أطراف، كلاهما بات غائباً. وهي بالتالي ليست مقولة معرفية صالحة لأن تكون مبتدأً أو خبراً يمكن توظيفها في مشاركة ثقافية راهنة. لم يوافق هؤلاء على تقييم حسن حنفي لها بكونها جزءاً من علم الاستغراب، فهذه "النحن" أكثر من فلسفة وأكثر من فكر. إن ضمير "نا" في عبارة محمد باقر الصدر لم تكن جزءاً من حل بالنسبة لهذا الجيل الجديد، وإنما هي جزء من مشكلة، مشكلة الهوية العراقية بين تيارات إسلامية تأسست خارج العراق وبأيدٍ ليست عراقية.

هذا الجيل عكس مقولة محمد باقر الصدر تماماً، فالصدر كان يتمنى أن يكون واعظاً صغيراً في قرية إيرانية نائية. بينما هؤلاء لم يقبلوا مقولة الوعظ واستبدلوها بالنقد. هل

حرمان هذا الجيل من الآباء سبب في حدتهم النقدية وعدم انصياعهم لأي أبوة فكرية، وبالتالي صعوبة التزامهم بأي منهج. لم يكونوا بحاجة إلى أخذ إذن من الفقيه، أو أي أحد لنقد فكرة ما.كما يفعل رشيد الخيون مثلاً؟! في خضمّ عذابات المنفى وخسارات الوطن، لم تغرهم أن يكونوا علماء يتلمذ لديهم طلاب أعاجم، ومفكرين تشهد كبرى الإصدارات الفارسية بمقولاتهم.

باقر الصدر كان يرى الخلود في منهج الاستشهاد لقضية إسلامية عامة، وهم يرون أن الخلاص في إعادة قراءة القضية الوطنية،بكونها جزءاً من خارطة العالم، لا بكونها جزءاً من قرية منسية في الريف الإيراني.

شدة الألم والجرح خلقت نوعاً من الصرامة في مرجعيات المفاهيم القديمة اتخذت طرقاً متعددة، سواء على صعيد نقد الواقع السياسي اليومي لدى غالب الشابندر، وسرمد الطائي، وعادل رؤوف، ومختار الأسدي، أو الانتقاد الوجودي لدى عبدالرزاق الجبران، أو تحليلية لأبواب الفلسفة والفقه والتصوف لدى يحيى محمد، وكمال الحيدري، وعمار أبو رغيف، أو تفحص انعطافات الفكر في مسيرة التاريخ لدى صائب عبد الحميد، وحيدر حب الله، وماجد الغرباوي، وعبدالجبار الرفاعي، وعلي المدن، فضلاً عن منجز تدوين سرديات المهجر[٢]. وهي بوادر نقل التجربة الدينية من مرجعيات الآباء، حيث تركة الشهداء المختلط فيها النقد بالأيديولوجيا، بتجربة دينية قائمة على تنوع المناهج وتعددية مصادر الخبرة، وهي بوادر سوف يستثمرها الشيخ الدكتور الرفاعي في مراجعة الانتماءات الفكرية حول محمد باقر الصدر وعلي شريعتي وجلال آل أحمد، إلى أفق المشاركة العلمية كعنصر أساسي في أنسنة الفكر الديني كمصدر معرفي على صعيد الكتابة، أو ثقافة التسامح على صعيد العلاقات الشخصية والسلوك اليومي العام. باتت عملية مراجعة المقدس رهينة بقوة تحمله لمتغيرات الراهن الدنيوي، لم يعد الكلي محفوظاً في عالم لا مرئي يهبط من دنيا الأسرار لا علاقة له بجزئيات الواقع، كما كان يقول الطباطبائي ومطهري. بل الجزئي هو من يحاكم الكلي ويمتحن حقيقته الوجودية. هكذا تبددت (نهاية الحكمة) عن كونها أول الطريق وليس منتهاه. هنا سيكرر "الرفاعي وحلقة قم النقدية"، بأن مقولات من قبيل: نهاية الأفكار، منتهى الدراية، نهاية الحكمة.. الخ، ليست سوى مقولات فارغة، إذ كيف لفهم بشري إدعاء الخاتمية في الفكر والاجتهاد، بل أن مثل هذه المقولات ذات حمولة أيديولوجية في أقفال الفكر واحتكاره على فئة من الناس دون سواهم، وهي في نهاية المطاف إسقاط من إسقاطات ذهنية العنف، التي ترهب الآخرين بعدم تجاوز الحدود الفكرية والنقدية المرسومة لهم من قبل هذه النهايات.

جيل من الأيتام كان قد تعب من فكر المناهضة وتحويل المقولات الثقافية إلى شعارات احترابية، لذا كان من الطبيعي جداً أننا لم نستقبل كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" بذات الحماس الذي تم استقباله من لدن بقية الشباب العربي، فكتاب الاستشراق كان يغص بحمولة الصدام والممانعة والصراع مع الغرب. وهو ما أُتخمنا به منذ عصر الآباء. كان هذا هو أساس الاختلاف العنيف بين إداورد سعيد والمثقفين الدينيين العراقيين في ٢٠٠٢. وهذا طبيعي فسعيد كان يحاول تعويض عقدة الذات المستفيدة من العدو بطرح شحنة من الحماس في قضية الرفض، بينما الرفض والممانعة والمعارضة، تشكل فائضاً معيقاً لدى جيلنا. فكتاب "الاستشراق" ليس في نهاية المطاف، إلا لغة تبجيلية لتضميد جروح قديمة لجسد التراث المُسجى في تابوت الزمن، بينما الجيل الجديد مسكون بتحطيم الأصنام وقلب القيم، فعند تهشيم الصنم يتبين حجم وحقيقة الفكرة.

تصدع جليد الوراثة

في هذه المرحلة لم نعد نهتم كثيراً بمأزق الفكر الإيراني على يد عبدالكريم سروش ومحمد مجتهد شبستري وداريوش شايغان ومصطفى ملكيان، فقد اتضح بعد مراجعة إن هذه الأفكار انما هي محاولات لتوظيف وتطبيق أفكار بوبر وهايدغر وغادامير وغيرهم على الموروث، وإن السجال العربي على يد محمد عابد الجابري، وعبدالله العروي، وحسن حنفي، وبرهان غليون، وجورج طرابيشي، وعلي حرب، ومحمد أركون، قد يتجاوز ذلك، من خلال التعاطي مع مرجعيات أخرى في الفكر الغربي الحديث والمعاصر.

ظهرت أولى بوادر تجاوز فكر الآباء بإصدار عبدالجبار الرفاعي وزملاؤه نشرة "الرأي الآخر"، ثم سلسلة "رواد الإصلاح"، ثم "قضايا إسلامية"،وبعدها"قضايا إسلامية معاصرة". وكان للأستاذ ماجد الغرباوي دور في الإشراف على سلسلة "رواد الإصلاح"، فكانت تلك مرحلة التصور، لينتهي الغرباوي بإصدار بعض المؤلفات لنقد وتشريح جذور الإستبداد، وخصوصاً وإنه ذاته من ترجم كتابات محمد خاتمي في تشريح ونقد الاستبداد. كانت لغة المقالات والترجمة أخذت تنشد استخدام مفردات جديدة، بعيدة عن المفردات اللغوية في كتب تدريس الحوزة. لقد بدأ جليد الفكر القديم بالذوبان، فهذا تأثير الفكر الحديث أخذ يُفصح عن نفسه، والتبديل اللغوي أولى الطلائع. لقد بات الفارق شاسعا بين الأدبيات الموروثة عن تكوين الحركات الإسلامية في الخمسينات، التي كانت تقوم على ذكرى الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وأبو الأعلى المودودي، ومالك بن نبي، وسيد قطب، ومحمد قطب، حيث تم صياغات كتابات محمد مهدي الآصفي، وعبدالهادي الفضلي، ومحمد حسين فضل الله، وعلي الكوراني. كان ثمة نقلة نوعية بين نقد مناهج التعليم، وإدخال

كتاب "دروس في علم الأصول" لمحمد باقر الصدر، و"بداية الحكمة" للطباطبائي، و"مقدمة في الرؤية الكونية الإسلامية" لمطهري.لقد بلغ النقد الآن ليس بيان المنطلقات والأسس العقلية المستترة في علم أصول الفقه، بل نقد هذه الأصول والأسس ذاتها التي تجاوزتها العلوم الجديدة في الألسنيات، وعلم النفس، والاجتماع، والفلسفة المعاصرة. باتت هذه الأسس مجموعة من المصادرات المُسترابة. وهي نقطة التحول صوب "علم كلام جديد"، لا تكون فيها مدرسة الحكمة المتعالية سوى جزء من تاريخ العلم، وليس محوراً مرجعياً. وهذا شكل صدمة لجيل يحترم مرتضى مطهري حد القداسة، فهو الذي كان يقول أن الآراء الموجودة في "تفسير الميزان" للطباطبائي ستبقى أكثر من مئتي عام، وهاهي تتعرض للتقويض بعد أقل من عشرين سنة، وهي بالفعل صدمة لكبار الأساتذة أصحاب السيادة في الحوزة العلمية، أمثال: حسن زاده آملي، ومحمد تقي مصباح يزدي، وعبدالله جوادي آملي الذي كنت أنصت له في بعض الخطب، وهو يقول بحماس لا يحسد عليه: إن فلسفة ملا صدرا الشيرازي ستبقى حتى ظهور الأمام المهدي!

ستحضر هذه الأسماء وآرائها في أولى أعداد مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مع نقاشات طويلة في منزل عبدالجبار الرفاعي من قبل شيوخ بلا عمامة، كبداية لظهور كبار أصحاب الفكر الجديد في أعداد المجلة بعد عودة الرفاعي إلى وطنه، متحرراً بعض الشيء من القيود اللامرئية من قبل القوى المهيمنة في ذلك الوقت، سواء من رموز المعارضة السياسية، أو رموز المؤسسة الدينية. كان التاريخ يصرح بانعطافة نوعية في تطور وسائل الاتصال وفي وسائل الحرب، وفي مناهج التفكير. لم يعد التقوقع على أسماء بعينها بكونها هي وحدها الفكر الأصيل والصحيح، والعقيدة القويمة ممكناً. بات التلاقح المعرفي واقعاً يومياً. هكذا أخذت تظهر أسماء جديدة تطرح رأياً مغايراً لغة ومنهجاً ومفهوماً، إلى جنب الأسماء القديمة وطروحاتها المعروفة.

كانت البداية إعادة طبع كتب علي الوردي، ثم استنساخ كتاب إداورد سعيد، بعدها تمت متابعة معرض طهران الدولي للكتاب، حيث متابعة مشروع "نقد العقل العربي"، و"نقد النقد"، فظهرت أقلام مراجعة مثل: كامل الهاشمي، يحيى محمد. كنا في مفارقة غريبة، فالمؤسسة الدينية كانت منشغلة بذهنية ماضوية مأساوية، حيث الخلاف على أشده حول: هل أن الخليفة الثاني ضرب بنت النبي أم لا؟ فظهرت "المأساة" و"مأساة المأساة"، و"هوامش نقدية على المأساة".. الخ. بينما في خارج الدار كانت تجري حوارات معمقة حول الترجمات الجديدة لكتب ميشيل فوكو وهابرماس، ومسألة العقل المستقيل لدى ابن سينا، وأثر الغزالي وغيره المتواصل في تعطيل العقل وتفكيرنا إلى اليوم. وحقيقة "العقل المكوِّن والمكوَّن"، وظهور

الانترنت، وخطر العولمة، وتزايد القوات الأجنبية في الخليج "العربي/ الفارسي"، وقطع تركيا المياه عن العراق وسوريا. كان معسكر الذهن المأساوي هو بذور الحرب الأهلية بين الأحزاب (٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٩)، وكان جيل المتابعة لنظرية العقل هو أساس مشروع رسائل الماجستير والدكتوراه في الحوزة العلمية. لكن هل يمكن جعل الأوراق دروعاً ضد الرصاص؟! سؤال نواجهه ونحن نرى إصرار عبدالجبار الرفاعي على إصدار سلسلة جديدة هي سلسلة "ثقافة التسامح" في بغداد.

في ثاني اجتماع للبرلمان العراقي في العام ٢٠٠٥، كنتُ استمع لصراخ أحد السياسيين بوجه الآخر: أنت لا تفهم شيئاً (أنت لم تقرأ فلسفتنا للشهيد الصدر والميزان للعلامة الطباطبائي).. بالطبع لم يُجب أي أحد هذا المُستصرِخ. فقط واحد منهم تطلع إلى مقبرة معروفة في النجف، همس مع نفسه بوجل: حتى الآن لم نُصفِّ حسابنا مع الموتى!

ثانياً: سيرة فكرية لمؤسس مجلة قضايا إسلامية معاصرة

مسائل الحضور ومسالك الخطاب

يبرز الخطاب الإسلامي اليوم كخطاب معالجة أزمة مفهومية، هي من العمق في مأزقيتها إعادة السؤال في تعريف علمي جاد لمعنى الدين كمعنى ذات تواصلية وجودية، تكابد ضريبة الحضور في عالم يدعي نزع ثياب الماضي من عادات ونظريات وفلكلور وأخلاق، حتى بات كأن تكرار قراءة الدين أشبه بقذف دلو الماء في بئر قديمة باتت من المهملات في عالم متطور الوسائل. خصوصاً وأن الفكر الإسلامي دافع كثيراً في رد نظرية الإشارة في نظرية المعرفة، وتبنى نظرية المطابقة في الوجود الذهني[٣]، فيما كل وسائل العصر قائمة على الشفرة التي تنقل الصوت والصورة ونقل الصواريخ، فكأن الدين يستفيق على قطيعة موحشة في نظرية العلم التي عليها مدار الواقع المعاش، ولم تعد استدلالات الإلهيات القديمة بقادرة على كبح المحرمات ولا دعم الواجبات، في فضاء إعلامي لا فاصل فيه بين الخيالي الافتراضي والواقعي الملموس. هنا اتخذت قراءات الدين مسالك مختلفة، تُعبر كل منها عن اختلافات تفاعل الفكر بين الكائن والمحيط التاريخي. فهناك من يقول إن أزمة الدين هي أزمة عدم الوفاء لمقولاته الأصلية، باعتبار أن مقولة (استحالة التأصيل) الأركونية ليست سوى تعبئة أيديولوجية ضد الدين، وليست مقولة أبستمولوجية حقيقية، لكون مقولة كمقولة محمد أركون يمكن أن نطبقها على كل فكر وليس على الفكر الديني فقط، كما تعرفنا على ذلك في كتاباتنا[٤]. هذه القراءة لا ترى أي مشكلة في تثبيت الصورة القديمة ومقولاتها في الفكر الديني الموروث، إنما المشكلة الحقيقة هي في نمط الارتباط بالدين. الأمر الذي يجعل من الحركات السلفية الحديدية حركات متضخمة

الحماس في دفاعياتها عن هذا (الأصل) المقدس، فتحولت إلى حركات ثأرية ضد الراهن، باعتباره المريض والجاهل والمنافق، الأمر الذي يفسّر لنا ظاهرة توسع تبني الطرح السلفي للدين بين الشباب، الذي أخذ يتجاوز المحيط الإسلامي إلى المحيط المسيحي أيضاً، كما دلت على ذلك الأحداث السياسية في مصر ٢٠١٢.

بينما المسلك الآخر يرى العكس تماماً من المسلك السابق، الذي تبناه الشيوخ والسلفيون، فيذهب إلى أن الدين هو تراث، والتراث وسيلة، والغاية هي تحسين خراب الواقع ومواكبة متطلبات العصر. هذا ما فعله جلّ المثقفون العرب، الذين قالوا أن التجديد (هو إعادة تفسير التراث طبقاً لحاجات العصر)[٥]. وهو طرح برغماتي للدين، يؤدي إلى تقديم الدين أضحية وقربان لحل مأزق الإنسان في الواقع. فتحول الدين إلى أيديولوجيا اجتماعية شعبية تعارض مشروع أيديولوجيا السلطة، حيث المشروع القومي في مصر الناصرية يحيي التراث الفرعوني، والبعثي في سوريا والعراق يحيي رموز سومر وأكد وآشور، وإشاعة أسماء جلجامش ونبوخذ نصر. والقومي في إيران الشاه، حيث إحياء الأخمينيين والفهلويين والساسانيين. وهكذا شهدت الأربعينات والخمسينات والستينات من القرن العشرين مشاريع تعبوية على يد حسنالبنا، وأبو الأعلى المودودي، وسيد قطب، وتقي الدين النبهاني، وعلي شريعتي، ومحمد باقر الصدر، وحسن حنفي، كردة فعل على محاولة السلطة طمس هوية الأمة الإسلامية والتعويض عنها بمطمورات الآثار[٦].

بذلك أمسى الدين وسيلة إنقاذ الواقع المعاش من براثن مطامع نخبة السلطة وطيش الجهلة من العامة، ضداً مع السلفية والأصولية التي طرحت ولا زالت تطرح الإنسان قربان وأضحية تحت معبد الدين. تحت عنوان "هجاء الحياة وتمجيد الموت"، كما يصف عبدالجبار الرفاعي تحويل الدين إلى خطاب في مديح الكراهية، حيث يكتب: "وهب الله الحياة للإنسان، فصارت مناط الاستخلاف والأمانة، وبالتالي المسؤولية، وارتكزت عليها وانبثقت منها كل مكاسب البشرية وإبداعاتها وتعبيراتها. وتحرص الأديان عادة على احترام الحياة، وربما تقديسها، وتتطلع الرسالات السماوية إلى تطهير الحياة من القلق، وبث الطمأنينة والسكينة في روع الإنسان، عبر ترسيخ النزعة الروحية والأخلاقية، وتكريس المضمون الرمزي للعالم، والكشف عن مظاهر الانسجام والاتساق بين الإنسان وما حوله، وتحريره من الاغتراب الكوني، ومن كل ما من شأنه أن يسلخه وينفيه من هذا الوجود. غير أن الحياة تغدو لعنة، وأية محاولة للتشبث بها، والسعي لعمارتها، والتنعم بطيباتها، تصبح منافية للفهم السلفي للدين، ذلك الفهم الذي يتمحور خطابه على هجاء الحياة، وتمجيد الموت، ولعن المباهج، وأسباب الفرح والغبطة والمسرة، بل مسخ الذوق

الفني، وتجاهل الأبعاد الجمالية في الكون. ان التعامل مع الحياة بهذا المنطق، هو مصدر الشعور بالإحباط والفشل، وهو الذي يقود إلى العنف، والرغبة في تدمير الحياة، وتحطيم كل شيء ينتمي إليها. حين تهيمن ثقافة الموت على وجدان الإنسان، تنطفئ جذوة الحياة في نفسه، ويفتقد القدرة على المساهمة في البناء، ولا يتقن أية حرفة سوى تقديس الحزن، وصناعة الموت، فتتدثر طاقاته، وتتعطل قابلياته، وتتبدد إمكاناته ومواهبه بأسرها. وليس هناك درب يقودنا إلى الحياة، ويعيد قطاعات واسعة من الشباب إلى العالم الذي افتقدهم، سوى إشاعة فهم عقلاني جريء للدين، يخترق الأدبيات الجنائزية في تراثنا، التي تكثف حضورها في الخطاب السلفي اليوم،كما يخترق ما راكمته تجربة الاجتماع الإسلامي من إكراهات ومظالم وصراعات مختلفة، عملت على تبلور مفهومات وفتاوى مشبعة بتلوينات تلك التجربة. لقد باتت الحاجة ملحة إلى دراسة وتحليل منابع اللاتسامح، وبواعث العنف والكراهية في مجتمعاتنا، والاعتراف بأن الكثير منها يكمن في الفهم الخطأ للدين، والجهود الحثيثة للأصولية السلفية في تعميم هذا الفهم وتعزيزه. ومن الضروري عدم التوقف عند دراسة مضمون الخطاب، وإنما يجب تحليل خطاب الجماعات الأصولية، ودراسة الآليات الخطابية، التي تنتج العنف، وتمتدح الكراهية، ذلك أن اللغة ليست أداة محايدة في بيان المعاني، بل اللغة في حراكها التواصلي والاجتماعي، كما تجسدها النصوص، هي فضاء من الفضاءات الاجتماعية يخضع لحركية خاصة، ينبغي أن تحلل من داخلها. وعلى حد تعبير نيتشه، فإن "كل كلمة هي هي حكم مسبق".إن مراجعة عاجلة لنموذج من الأدبيات السلفية، سترينا بوضوح كيف أن هذه الأدبيات بقدر ما تتحدث عن مناهضة الآخر، وانحصار أسلوب التعاطي معه بالقتل والإبادة، فإنها تتكتم على مساحة شاسعة في النص، تتحدث عن الرأفة والرفق والعفو والعدالة والرحمة، حتى يخيل لمن يستمع إلى منابر هذه الجماعات،أو يقرأ بياناتها، إنها تتحدث عن دين خاص تنحته، وتعيد تشكيله في إطار وعيها، وخلفياتها ومسبقاتها وقبلياتها ومفروضاتها الذهنية، ولا علاقة له بالنص المؤسس. انه دين مشبع بالإكراهات، ينفي الروح التطهرية للدين، ويمسخ ما يختزنه من معان سامية، ويفرغه من محتواه العقلاني، ويحيله إلى مجموعة من المقولات والشعارات المغلقة، تستنزف الطاقة الحيوية الإبداعية لرسالة الدين، وتفقره، وتمسخه، وتستبدله بمفهومات وأفكار مقطوعة الجذور عن روح الدين وجوهره، وتصيره عبئاً ينوء الناس بحمله، ويعطل دينامية التطور في الاجتماع البشري، ويستدعي القيم الرديئة للبداوة، فيبعثها من جديد، ويتبناها، ويدافع عنها، ويسقط عليها قناعاً إسلامياً، بوصفها تمثل الهوية والأصالة، فيما هي في الحقيقة ليست

إلا تمثلات وتعبيرات وتقاليد، لبيئة محلية صحراوية قاسية غليظة، رفضها القرآن، ونعتها بتسميات قدحية، وجعلها النقيض لروح الدين، ومقاصده الأخلاقية، وأهدافه الإنسانية)[٧].

وجدانية المعنى ووجودية التجديد

برزت بعض الأسماء النادرة التي حاولت الجمع بين القراءتين، تركيب بين إجابات الطرفين، والتخلص من سلبياتهما. وأحد هذه الأسماء النادرة اسم الدكتور الشيخ عبدالجبار الرفاعي. الذي جمع بين "الدكتور" صاحب الأطروحات الأكاديمية، و"الشيخ" صاحب الدروس العديدة في الحوزة العلمية. بين منشأه في ريف مدينة الرفاعي بمحافظة ذي قار، وبين اشتغالاته وسياحاته في عواصم الثقافة، صاحب "مجلة قضايا إسلامية معاصرة"، حيث هموم التفكير بالتاريخ والواقع وبناء جسر للتواصل من الحوزة العلمية إلى الفقيه والمفكر المسلم خارجها[٨]. مؤسس "مركز دراسات فلسفة الدين"، حيث هموم التفكير بالمناهج القديمة والجديدة في قراءة النص الديني. وهو ذاته مؤلف كتاب "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، كرد على الذهنية السلفية في التعاطي مع مشكلات الإنسان المعاصر، بينما كتابه الأهم "تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية" بين العلامة الطباطبائي والشهيد الصدر، خروج عن إنشائيات المثقفين في قفزهم على أسئلة المؤسسة الدينية الرئيسية.فعبد الجبار الرفاعي شخصية تركيبية في الكتابة وفي الحياة، وهذا واضح في تنوع كتبه ومؤلفاته، وفي مسيرة حياته، وتنوع صداقاته. هنا يكون الإنسان جزءاً من مقولة الدين، فحيث لا إنسان لا حامل لرسالة السماء، والانتهاء إلى دكتاتورية دينية تتخذ من الدين لافتات ارتزاق طبقية لرجال الدين وحواشيهم. الدين عنصر مقوم لماهية الإنسان، فحيث لا دين لا معنوية للإنسان وقتل لبعده الروحي والذوقي واللامتناهي، والانتهاء إلى دكتاتورية علمانية تعطي بيد وفرة اقتصادية استهلاكية للإنسان في جزء من الأرض، وفي اليد الثانية تقضي على ثمرة الوفرة الاقتصادية وتشغله عن حقيقة فراغه ولا أدريته بتسليات الرياضة والغناء والجنس، كي تبقى حقيقة العيش بيد الكبار فقط. فالدين جزء من وجدانية الإنسان بكون الوجود أكبر من المادة، والحياة غير مقصورة على الألم أو المتعة، لذلك فشلت كافة محاولات الوصول إلى "مصل" يوقف نبض الشعور الديني في الإنسان، وحسب قول الرفاعي:"لا تكف العلوم الإنسانية الراهنة عن اجتراح قنوات ومسالك جديدة لدراسة تمثلات المقدس في الوعي والسلوك، وما يفيض به ويضمره اللاوعي الجمعي والفردي من الإلهام والانكشاف والإشراق والشهود والإتحاد والوحدة والجذبة والرعشة والسكرة والنشوة والصحوة، وغيرها من الحالات

والتجارب الروحية. أما بحث وتحليل أثر الدين كعامل فعال في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فهو أحد أهم مشاغل ورش البحث ومختبرات العلوم الاجتماعية "[٩].

هكذا يلتقي مشروع "علم الكلام الجديد" مع مقولة "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، الذي هو مشروع كبار المصلحين في الجمع بين الثقافة والدين، وطرح "تجديد التراث" كمشروع قائم على منهج الاستفادة من علوم العصر، كما طرح ذلك كلاً من: علي شريعتي، وحسن حنفي... لذا كان من الطبيعي أن يكون للدكتور الشيخ الرفاعي جملة من الكتابات حول شريعتي وحسن حنفي وغيرهما. خصوصاً وإن الرفاعي صاحب اهتمام أرشيفي وتوثيقي بمسارات الفكر الإصلاحي الإسلامي، ومتابعة حركاته وتياراته، والتعريف بشخصيات رواد الإصلاح والتجديد فيه[١٠]. فكتب عن الأفغاني، محمد عبده، الخميني، محمد باقر الصدر، علي شريعتي، جلال أحمد، محمد إقبال، محمد حسين الطباطبائي، مرتضى مطهري، داريوش شايغان، حسين نصر، أحمد فرديد، وإطلالة تعريفية على فضاءات السجال في الدول المجارة مثل كتابه (المشهد الثقافي في إيران) وبهذه الأرشفة التي طبعت كل كتاباته كتاباً ودراسة ومقالة، تلمس مكامن النقلة النوعية للتجديد الفكري، عن مزالق الإصلاح الشكلي والدعوة المُزّيفة التي تُعيد ذات العوائق القديمة بأردية جديدة. فكان له فضل في جمع المثقفين العرب مع شيوخ الحوزة العلمية والأزهر، وجمع المفكرين العرب مع أقرانهم من مثقفي فارس. فكان هم جمع أصحاب الفكر التنويري الجاد والاتصال بهم والتعريف بكتاباتهم، هم دائم من هموم عبدالجبار الرفاعي الذي نجح في ذلك نجاحاً لم تحققه مؤسسات مالية ضخمة، فالرفاعي بقي يكابد شواغل التفرقة بين الجماعات الإسلامية والعقائدية، يشخص الرفاعي ذلك بقوله: (تفاقمت عوامل التفرقة والتباعد بين الجماعات الإسلامية، حتى أمست كل جماعه تحسب فهمها ورأيها هو الحق فحسب. ولم تجد أية حاجة للتعرف على رأي الجماعات الأخرى، واتخذت كل واحدة مفكراً تنغلق على مفاهيمه، وتمنحها صفة الإطلاق والشمول. وكأن وظيفتها تقتصر على ترديد تلك المفاهيم وشرحها واجترارها، بلا مراكمة إيجابية وتطوير. فاستطالت شخصيات مثل هؤلاء المفكرين، وتضخمت مكانة كتاباتهم بالتدريج، فصارت تحتل مرجعية نهائية لحاضر الجماعة ومستقبلها، ولم يجد الأتباع حاجة إلى تدبر هذه الكتابات والاهتمام بمراجعتها وتقويمها، فأفضى ذلك إلى تعطيل العقل وإلغاء وظيفته في التفكير والتدبر)[١١].

فالانغلاق على هذا المفكر أو ذاك يمثل سلفية ثقافية مقابل السلفية الفقهية والعقائدية، ويتحول المصلح إلى تكتل حزبي ومؤسسات سياسية منغلقة، ذات أيديولوجية طاردة لكل نقد، مما يمثل انقلاباً على المفكر الراحل نفسه، كما سبق شرحنا لذلك في أوراقنا الأخرى[١٢]. مثل كتاب "كفاح الجماهير"، و"بحوث في مدرسة الصدر"، و"الفقه الأخلاقي". وكأنما القصور الثقافي لدى الجمهور والمتلقين سرعان ما يقوم بطمر حقيقة الإصلاح للمفكرين ويغرقهم في رمال التخلف الذي يحول الولاء من الأفكار إلى الأشخاص. لذا من الضروري مواصلة التعريف برواد الإصلاح وتجديد الأسماء وتنويع طرح المناهج، فكتابات الرفاعي مثل: (مناهج التجديد)، و(الفكر الإسلامي المعاصر: مراجعات تقويمية)، كي لا يؤدي الاقتصار على بعضهم دون بعض الوقوع في الاحتكار الإعلامي والولاء الشعبي، وتحويل المفكرين المجددين والمصلحين إلى مشاريع مغلقة، تقتل مشروع الإصلاح من الداخل كما هو حاصل فعلاً، كعائق مستمر في إبطال مشروع النهضة والتجديد.

تركيبية الرفاعي

يستعير عبدالجبار الرفاعي مقولة صديقه المفكر السوداني المرحوم محمد أبو القاسم حاج حمد "الجمع بين القراءتين"، الذي همه تجاوز القراءة الأحادية السلفية والعلمانية، التي تعبر أحدهما عن شقاء الوعي، والثانية عن تهميش الواقع، يكتب الرفاعي: "إن الجمع بين القراءتين هو السبيل الوحيد لتحرير العلوم من أزماتها، لأن قراءة كتاب الكون من دون كتاب الوحي تفضي بالتدريج إلى الفكر الوضعي الذي يسجن الوعي البشري في ظلمات المادة، ويقطع صلته بخالقه. أما قراءة الوحي "القرآن" وإهمال قراءة الكون، فيقود بالتدريج إلى نفي النواميس والسنن التاريخية والاجتماعية والنفسية، وبروز عقلية قدرية تلغي عوامل الزمان والمكان والمحيط الخاص، ولا تدرك الصيرورة التاريخية والتحولات المتجددة في الواقع، وما تحفل به الحياة من تبدل وتغيير. فيغدو الفكر فكراً سكونياً يرى الحاضر بمرآة الماضي، فيغيب عن الحاضر في عوالم الماضي، وينقطع عن عصره، وإن كان يبدو موجوداً فيه، لكنه غائب عنه، لأن الحضور يعني إدراك العصر ومشاغله وإستفهاماته ومكاسبه.

ولكي نتخلص من الآثار الناجمة من الاقتصار على نوع واحد من القراءة فقط، لابد من ضم كلا القراءتين إلى بعضهما، والاستناد إليهما في الوصول إلى الحقيقة وتجلية سائر أبعادها، لأن كل واحدة من القراءتين تعضد الأخرى وتكملها، فقراءة القرآن تهدي إلى الكون، كما أن قراءة الكون تدل وترشد إلى القرآن، بمعنى أن القرآن والكون كليهما

يوصل إلى الآخر ويدل عليه.إن دمج القراءتين يتيح لمعرفتنا التوغل في آفاق العالم، والنفاذ إلى مديات قصية تظل مجهولة لدى من يستعين بقراءة أحادية. قراءة الكتاب ترشدنا إلى قراءة الكون وفهم سننه، وقراءة الكون تهدينا إلى فهم آيات الكتاب ومتشابهاته، وغاية قراءة القرآن هي التنزل من الكلي إلى الجزئي، والربط بين المطلق والنسبي، بقدر ما تتيحه قدرات البشر العقلية النسبية في فهم تنزلات الكلي وربطه بالواقع المتغير الجزئي. وقراءة الكون تمثل عروجاً من الجزئي النسبي باتجاه الكلي المطلق، وفق القدرات النسبية الجزئية أيضاً في فهم الظواهر. وبذلك ينعدم الفصام المزعوم بين الوحي والمعرفة الموضوعية للكون والوجود"[١٣].

وكأن الرفاعي يصل هنا ذروة التركيبية في الكتابة، حيث الجمع بين المثقف والعمامة، بين علم الأصول وعلوم الألسنيات، بين شرح المنظومة لمرتضى مطهري وبين مخاضات الحداثة لمحمد سبيلا. في سلوكه وحياته وعلاقاته تتجلى تركيبيته أيضاً، حيث التوسطية بين أندية المثقفين وأروقة الحوزة والمرجعية ومجالس الفقهاء.

كان نصيب القرآن في الانتقال من الاكتفاء بالتفسير الموروث إلى الانفتاح ومحاورة المثقفين الذين لهم مشاريع تفسيريه جديدة،توظف الألسنيات والاجتماعيات والفلسفات المعاصرة. وإن كان الدكتور الرفاعي على الرغم من منجزه المهم في الترجمة والشرح في مجال الفلسفة، حيث قدم ترجمة في أربعة أجزاء لشرح مرتضى مطهري لكتاب المنظومة لملا هادي السبزواري (شرح المنظومة)، وشرح وتدريس "بداية الحكمة"، و"نهاية الحكة" لمحمد حسين الطباطبائي. وكتاب (مبادئ الفلسفة الإسلامية). مع بعض المتابعة التاريخية والتعريفية في كتابيه: (تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية)، و(تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية)، فإن الدكتور الشيخ عبدالجبار لم يبلغ إلى مرحلة الثمرة، بطرح صيغة فلسفية متخصصة حول الموضوع، حيث يفترض تطور الفكرة المنطقي في تتابع السيرة الفكرية للرجل. وإن كان يحرص على توجيه كتاباته وما تنشره مجلته اليوم في دراسة وشرح: "فلسفة الدين، ومفاهيمها، ومجالاتها، وأهميتها، ووعودها في الانتقال بالدراسات الإسلامية إلى أفق يواكب العصر، ويكرس المصالحة بين المسلم المعاصر ومحيطه". ولعل بيئة النجف التي لا زالت معادية للدرس الفلسفي التقليدي، فضلاً عن الفلسفة الحديثة والمعاصرة،تمثل عائقاً كبيراً بوجه مثقف مستنير مثل عبدالجبار الرفاعي، الذي يعلم كل من جالسه، مدى اهتمامه البالغ بهذا الحقل المعرفي خصوصاً، وإنه زاول التدريس فيه سنوات عديدة، وله متابعات عميقة ومتواصلة مع أحدث الدراسات والبحوث الصادرة في الفلسفة والعلوم الإنسانية. ويكفي إنه أصدر عدة سلسل كتب

هامة، تحت عنوان: (آفاق التجديد)، وأتبعها بسلسلة أصدر فيها أكثر من ثلاثين كتاباً مرجعياً لمفكرين وباحثين معروفين تتناول: (فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد)، ثم (فلسفة وتصوف)، لتكون رافداً من روافد دعم الفكر النقدي الفلسفي، في بيئة تراثية مشبعة بذهنية النقل والنصوص.

على أية حال، يمكن أن نبرر هذا الاختزال بكثرة مشاغل ومشاريع الشيخ الدكتور الرفاعي، وإنه على الرغم من ذلك منح الفرصة ولا زال لإسهامات المثقفين الآخرين المهتمين بالمناهج الجديدة في نظرية التفسير، وقد خصص لها الرفاعي مساحة واسعة في مجلته وسلاسل الكتب المُلحقة بها، التي صدر منها حوالي ٢٠٠ كتابا.وهي تستنزف جهودا مضاعفة يرفدها الرفاعي على الدوام بالدعم المادي والمعنوي والمتابعة التعريفية، من دون ميزانية خاصة أو فريق تحرير متفرغ أو دعم حكومي أو حزبي.[١٤] ربما تصل متابعاته في بعض الأحيان إلى الهيام العاطفي، فيقول عن بعض المفكرين العرب: (طفقت أفتش.. وألاحق كتاباته في الدوريات وما صدر له من مؤلفات وترجمات وتحقيقات.كنت أقرأ باستمتاع بالغ ما يقع تحت يدي من آثاره، وأعرف به بين زملائي في الحوزة العلمية. أتفاعل معه وجدانياً، أتوهج عاطفياً، وربما أسكر عقلياً)[١٥].

كل هذه الإصدارات واستمرارية طباعة ونشر الكتب والمجلة تغرق الرفاعي في مشاغل أبدية. وتظهر أهمية هذه الجهود في أنها بالإضافة إلى أثرها في تزويد المشهد الثقافي بكتابات رصينة جادة، تكسر روتين الكتابة الاجترارية والإنشائية التي تغص بها المكتبات، تتنوع فيها انتماءات أقلام الكتاب والباحثين الذين انخرطوا في مشروع الرفاعي.

تجسير العلاقة بين الحوزة والجامعة

أضحى مشروع قضايا إسلامية معاصرة وسلسلة كتبها، في فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، جسراً متعدد الطبقات في التواصل والترابط بين المثقفين العرب أنفسهم والمثقفين الإيرانيين ودور النشر العربية في أكثر من دولة. كل ذلك بمجهودات فردية وعائلية، لم تمل أو تتعب أو تتراجع عن محاولة كسب الأصدقاء من المفكرين والمثقفين في الحوزة العلمية وخارجها. لم تفلح الأعمال الجماعية بمجهود حقيقي إلا ما ندر.الشيخ الرفاعي يعمل بمفرده وبمعية عائلته، ويبرر ذلك بأن المزاج الشرقي فردي، في العمل والإنجاز وبناء المشاريع، يكتب الرفاعي: (الإنسان العراقي إنسان يحترق من الداخل، والتشرد والاغتراب يمثل تحدياً هائلاً للشخصية العراقية. كان العراقي دائماً بحاجة إلى أن يؤكد ذاته ويحمي نفسه من الانهيار والانسحاق أمام تحديات المنفى القاسية. أعتقد إن

هـذه المـشاريع والمكاسـب الثقافيـة هـي تعـبير عـن تأكيـد الـذات، في عـالم تعـرّض فيـه العراقي للتهميش والإقصاء والطرد حتى من أقرب المقربين.العراقي عندما هـاجر إلى بعض البلاد الـتي كـان يعتقد أنهـا سـتأويه وتنصره وتحتضنه تعرض فيهـا إلى شـيء مـن الحيف والاضطهاد والإهمال،فقد جرد العراقي مـن بعض حقوقه الإنسانية. مـن هنـا يغدو إبداعه ترجمة واستجابة للتحديات التي واجهها في تشرده. أما لماذا هي مشاريع فردية؟ فأعتقد أن الهجرة كانت كشظايا تشتت في الآفاق، وبالتالي توزع العراقيون في مختلف البلاد ولم يكن بوسعهم أن يأتلفوا ويشكلوا لهم مؤسسات. لا سيما وأن المؤسسات تحتاج إلى رأسمال، وكل مستلزمات العمل التحريري المطبوع. هذه حالة تمثل استحقاقاً طبيعياً للمنفى كما يبدو. قد يكون المزاج الشرقي والفردي أحد البواعث الخفية لنجاح المشاريع والجهود الفردية، وإخفاق غير واحدة من التجارب الجماعية المشتركة)[١٦].

محنـة الكتابـة كـرد علـى محنـة المنفـى هـي الـتي جعلـت للمـشهد الثقـافي الـذي كـان الرفاعي أحد أهم مستقطبيه لجمع الطروحات التجديدية من المغرب العربي حتى الحوزة العلمية في قم وجامعة طهران،فقد كان منزل الرفاعي في الحياة اليومية مثل مجلته في عالم الحروف ندوة تشاورية وحلقة نقاشية لأطياف مختلفة من طلبة العلوم الدينية والباحثين العرب وأساتذة الجامعة. الأمر الذي كرر صيغة الجمع بين الدائرة الدينية والدائرة الأكاديمية التي ولدت جيل جديد من مدوني رسائل الماجستير والدكتوراه في الدراسات الإسلامية، وكان للرفاعي دور مميز في توجيهها واقتراح عناوينها وتأمين مراجعها والإشراف عليها ومناقشتها. رسائل تتجاور فيها العمائم بربطات العنق، فكان فهم التراث معبراً عن الاستفادة من العلوم الحديثة، والمناهج الحديثة يتم تطبيقها في حقول الموروث، بآليات اجتهادية مأخوذة من قبل الدرس الحوزوي العريق.

من هذه المنطلقات نجد بذرة أطروحة "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" مثلها مقالة الرفاعي القديمة حول "من أجل مقاصد تواكب الحياة"[١٧]، التي كان أساسها تلك المقدمة الرائعة التي كتبها الدكتور الرفاعي لكتاب الشهيد محمد باقر الصدر (موجز في أصول الدين)، التي تحولت إلى كتاب مستقل بعد ذلك بعنوان (منهج الشهيد الصدر في تجديد الفكر الإسلامي)، الذي تمت طباعته ثلاث مرات حتى الآن. حيث الإصلاح وجوهر الدين لا يكون مفصولاً عن قيم الحياة، وإلا تحول التدين إلى وباء لا يتم الاقتراب منه إلا بوضع القفازات. الأمر الذي حدا بالرفاعي أن يطرح سلسلة من الكتيبات حول مفهوم التسامح في بلد كالعراق، أفرط في الإرهاب ترويعاً بالسكان وتشويهاً بالإسلام. وليس من رد ناجع عل ذلك من قبل اختصاص المثقف المسؤول سوى الاشتغال على تنمية فضاء المعرفي يُشيع رؤى

نقدية، تفضح التلاعب بالدين من قبل حركات الإسلام السياسي في السلطة، ويزيل سحب الجهل بالدين من قبل العامة. من هنا ضرورة البحث عن تدين قائم في أصوله على علم الكلام الجديد، وفي فروعه على مقاصد الشريعة.

في نظر الرفاعي أدى ظهور مشروع تطبيقي للدولة الإسلامية، وتطور العلوم الإنسانية، وقصور النظام التعليمي القديم للدراسات الدينية، إلى بروز نوع جديد من الاهتمامات العلمية التي من أبرزها حقل فلسفة الفقه. وهذه إحدى التأثيرات الملموسة لعنصر الزمان والمكان في تطوير التفكير الديني، وطريقة تعاطي فهمه وتعريفه. في مسيرة حياة عبدالجبار الرفاعي نتلمس حبل التواصل بين حقله القديم كأستاذ يقوم بتدريس كتابي"الحلقة الثانية والثالثة في علم أصول الفقه"، وكتابي "بداية الحكمة ونهاية الحكمة" في الفلسفة، إلى كاتب مهتم بالاجتهاد والتجديد لدى محمد حسين فضل الله، وجمال الدين عطيه، ومحمد مهدي شمس الدين، ومحمد رضا حكيمي. يشير الرفاعي إلى: (أن قيام الدولة الإسلامية وسعيها لأسلمة المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية طرح عدداً وفيراً من الاستفهامات الفقهية الجديدة، مما لم يألفها العقل الفقهي من قبل، وتجاوزت الاستفهامات التعرف على الأحكام الشرعية الخاصة بالاجتماع الإسلامي، إلى السؤال عن مجال الفقه وحدوده، وقيمة الفقه الموروث، وأثر الزمان والمكان في الاجتهاد، وعلاقة الاستنباط الفقهي بالعلوم البشرية ومكاسبها، وأثر خلفية الفقيه ورؤيته الكونية في اقتناص مدلول النص،وضمانات موضوعية عملية الاستنباط، وعدم تعرضها لتحيزات ومواقف قبلية، وغير ذلك. ولم يكن بوسع الفقه أو علم الأصول المتداول الإجابة عن الكثير من هذه الاستفهامات، مما حفّز بعض الدارسين لتحليل تلك الاستفهامات واقتراح مجموعة رؤى ومفاهيم وافتراضات، تصلح أن تشكل بنية تحتية أولية لتدشين علم جديد خارج مجال الفقه وأصوله)[١٨].

عبدالجبار الرفاعي شاهد تاريخي على أطروحة التجسير بين المؤسسة الدينية ومناهجها الموروثة والمؤسسة الأكاديمية ومناهجها الوافدة. فهو قد عاصر كلاً من الشهيدين محمد باقر الصدر ومحمد الصدر في النجف، فكان تلميذاً للثاني، فيما كانت تربطه علاقة جدية بمحمد باقر الصدر وكتاباته، التي قام بتدريسها سنوات طويلة لعشرت التلامذة في الحوزة العلمية وخارجها. كذلك ارتبط الرفاعي بعلاقة مع مجموعة من الفقهاء والمفكرين في إيران. كما أنه التقى وزامل الكثير من المفكرين العرب، ذوي الاهتمام المزدوج في الثقافة والدين، مثل: طه جابر العلواني، يحيى محمد، عبدالله ابراهيم،هشام داود، فالح عبدالجبار، سعيد الغانمي، صلاح الجابري، صائب عبدالحميد، علي حاكم، حسن ناظم،

حيدر سعيد، علي عبدالهادي مرهج، فوزي الهيتي، فيصل غازي... وغيرهم من العراق. حسن حنفي، نصر حامد أبو زيد من مصر. محمد أبو القاسم حاج حمد من السودان، محمد أركون من الجزائر. عبدالحميد أبو سليمان من السعودية. عبدالوهاب بوحديبة، أبو يعرب المرزوقي، عبدالمجيد الشرفي، أحميده النيفر من تونس. محمد سبيلا، محمد المصباحي، أحمد الريسوني، ادريس هاني من المغرب. علي حرب، وجيه كوثراني، رضوان السيد، هاني فحص، سعود المولى، محمد حسن الأمين من لبنان.

كل هؤلاء وغيرهم، كان لهم إسهام بارز في إثراء مجلة الرفاعي، وسلسلة الكتب التي أصدرها مركزه "مركز دراسات فلسفة الدين". منطلق الرفاعي ورؤيته تتمثل في أن الثقافة المعاصرة ضرورة من ضروريات فهم الدين، لأنه (ليس بوسع العلوم الشرعية الموروثة استيعاب جملة من الرؤى المستحدثة والإجابة عن الاستفهامات المتنوعة في إطارها التقليدي. مما حفّز بعض الباحثين والدارسين في حقل هذه العلوم لاقتراح تحديث وتنمية العلوم الموروثة وبناء علوم موازية لها، تتسع لاستيعاب نمط جديد من هذه المقترحات)[١٩].

موجز السياسي والإنجاز الثقافي

السياسة لها حضورها في تطور الفكر الإسلامي، سواء في مشاريع التنظيم السياسي وفقه الدولة، أو في مشروع تطوير مناهج الدراسة والتدريس في الحوزة، أو في إعادة مساءلة الدين حول القضايا الراهنة، مثل: حقوق الإنسان، حقوق الأقليات، قضية الديمقراطية، بل حتى في أكثر المواضيع اختصاصاً كالعرفان والتصوف[٢٠]. لكن يبدو أن تجربة الرفاعي العملية وما لمسه من مخاطر أدت به إلى الاقتصار على مقالات قليلة وبعض الرؤى في تقديم بعض الكتب حول الإسلام والديمقراطية، حذراً من غلامة البطش لدى الأحزاب والمؤسسات الدينية، في تهديم مشروعه الكبير. بالإضافة إلى قناعته بكون الإصلاح السياسي نتيجة من نتائج إصلاح الفكر والثقافة.

الرفاعي من أدلجة الدين إلى فلسفة الدين

مسيرة الشيخ الدكتور الشيخ عبدالجبار الرفاعي تطورت عبر ثلاث مراحل رئيسية:

١ - مرحلة الرؤية الحركية السياسية الإسلامية، وأدلجة الدين والتراث.

٢ - مرحلة الرؤية النقدية للمعرفة الدينية.

٣ - مرحلة تكريس جهوده في دراسة "فلسفة الدين"، ومقارنة الأديان. والعمل على "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين". وتفجر النزعة الروحية المعنوية للرفاعي، في أفق محيي الدين ابن عربي، مولانا جلال الدين الرومي، كيركيغارد، ...الخ.

ثلاث مراحل تُعبر عن مشاريع سياسية وفكرية دخلتها البلدان العربية والإسلامية كان لها حرائقها وتضحياتها وحصادها ومفارقاتها. رحلة تاريخية كان المثقف فيها داعية والشيوخ فيها دعاة والتنظيمات تتسمّ بسمات الدعوة أيضاً. الجميع كان صاحب دعوة ما، لكن ما من متلقي!.. ثلاث مراحل اختلفت فيها الأنظمة السياسية الحاكمة والأخرى المعارضة، وهي ثلاث صور مختلفة لمثقف مسلم: حزبي ومناضل أيديولوجي، وناقد مستقل للمعرفة الدينية والموروث، ومفكر إبستمولوجيذي منحى روحي، يدرس الدين وتعبيراته في ضوء معطيات العلوم الإنسانية الراهنة.. من هنا فنحن نرى حتى (تحديث الدرس الكلامي والفلسفي لدى محمد باقر الصدر ومحمد حسين الطباطبائي)، هو تحديث في نسق الأيديولوجيا وليس نقداً مستقلاً، لكونه نقد مهموم بمواجهة الماركسية والاتجاهات الفلسفية الغربية المادية، فهو ردة فعل لحفظ الهوية أكثر منه انفتاح الهوية على آفاق المعرفة والحقيقة لذاتها.

لكن ترجمة الرفاعي لكتاب"العقلانية المعنوية: مقاربات في فلسفة الدين"، وإصدار محور "الاتجاهات الجديدة في علم الكلام" لسنتين في مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بمثابة حلقة تمهيدية للخروج إلى مرحلة نقد الأيديولوجيا ومفاهيم لاهوت التحرير والمثقف الداعية، والانتقال من "أدلجة الدين إلى فلسفة الدين"، وبالتالي "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين". حيث لم يعد بالإمكان إبقاء الفكر رهين المحبسين: محبس التراث، ومحبس الهوية. محبس الانتماء ونقاوة المنهج.

يبقى السؤال إذا كان فهم الدين، باعتباره جزءاً من تمجيد الحياة، هو الذي أفضى الطرح الآيديولوجي للدين على يد محمد باقر الصدر وشريعتي، بينما طرح الدين كرمز ومعنى وحالة ذوق شهودي وفني، يضاد الاستغلال السياسي، فكيف يمكن الجمع بين مقولة الدين كحياة وبين رفض الأيديولوجيا، حيث أن الاكتفاء بكون الدين حالة رمزية روحية ينتهي إلى مقولة إعتكافية تناقض مقولة الدين كحياة (وما السياسة سوى التنظيم الأكبر للحياة)، كما لا حظنا ذلك في تناقض رؤية محمد أركون (أوراق متخالفة)؟! إذن ما هي الحلقة الرابطة بين توافقية الإسلام مع الديمقراطية، وبين "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" برفض الأيديولوجيا؟!

الجواب لم يكتمل بعد ولا زال هاجس المرحلة الراهنة من انعطافات تجديد فهم الدين وتفكيك الأيديولوجيات. حيث تعد اشتغالات الأستاذ الرفاعي بطرح بعض المعالجات المستقبلية له، وهذا هو محور "فلسفة الدين" الذي هو محطته الأخيرة، ولا يزال الشيخ الدكتور الرفاعي يعمل على تقديم سلسلة من الإصدارات المرجعية المهمة حوله.

لعل السبب أعلاه هو الذي يفسّر كون مجلة قضايا إسلامية بدأت بإصدار عددين حول الفكر السياسي الإسلامي، قبل ستة عشر عاما، لكنها لم تعد إلى هذا الموضوع، على الرغم من أهميته الكبرى في مرحلة ما بعد ٢٠٠٣، إذ انتقلت الأحزاب السياسية من مرحلة الجمر والرماد إلى مرحلة الحصاد والاستحواذ. بينما بقي الأستاذ الرفاعي مشتغلاً على منطقة الفراغ بين السياسة والدين، بين الحوزة والجامعة، فالإصلاح السياسي مسبوق بالإصلاح الفكري، وتحديث السياسة مرتبط بتحديث الذهنيات والثقافة ومناهج التفكير. بالطبع فإن مثل هذه الترضيات وإن كان لها إيجابيات في حفظ مشروع الكتابة والطبع والنشر على الصعيد الفكري والفلسفي، لكن لها سلبياتها في بتر الوعي الفكري التجديدي عن الوعي السياسي. الأمر الذي أدى ولا يزال يؤدي إلى هيمنة القوى الأخرى على تيارات الإصلاح، فكأن النهضة والإصلاح والتجديد (وجود كتبي) أو وجود شفهي لا غير. وهو ما يناقض مقولة تطابق الدين مع الحياة الذي فرضنا أنه المبدأ الأول في مشروع الإصلاح والتجديد. لذا نجد نوعاً من البتر لا التواصل بين كتابات الدكتور عبدالجبار الرفاعي في العدد الأول من مجلة قضايا إسلامية معاصرة عام ١٩٩٧ وما قبلها(٢١)، وبين كتاباته المتأخرة. الذي نرجوه أن لا تكون كتابات الدكتور الشيخ الرفاعي عن جلال الدين الرومي(٢٢)، نوعاً من الفرار صوب التصوف، بعد طول إجهاد وإنهاك وإرهاق من العمل السياسي. لم يكن بحث الرفاعي عن مفهوم الدولة في حاضرة النجف، بحثاً نقدياً بمستوى ما تعانيه البلاد من حيف الأحزاب السياسية وتخبطاتها الميكافيلية بين شعارات تستفز عواطف الجماهير في التذكير بكبار الشهداء من الفقهاء، وبين سلوكيات عملية غارقة في الدنيوية البحتة. خصوصاً وأن الشيخ الدكتور عبدالجبار شاهد مهم على تطور الفكر الاستبدادي لدى الحاكم العلماني الفرد، ثم قادة المعارضة في المهجر، وأخيراً زعماء الطوائف في مرحلة ما بعد الطاغية. فغياب الثقافة الجادة والانقطاع عن المراجعات النقدية، يخلق مجتمعا هشّا، يسهل حرقه ببعض الدعوات المذهبية والقبلية، بل حتى نجاح حركات بعض المصلحين سرعان ما تتقهقر وتتحول بدورها إلى جزء من أزمة وليست حلاّ، ذلك أنها كثيراً ما تتحول من عشق الإصلاح إلى التورط في حالة المرض بالطاغية، الذي رصدنا بعض نماذجه في بعض البحوث الموجزة(٢٣). وهذا بالفعل ليس بغائب عن متابع حصيف مثل شيخنا الدكتور الرفاعي، الذي حدد بعضه منذ فترة طويلة، بقوله: (إن الاستبداد ظلّ على الدوام أشد العوامل تأثيراً في تفكير المسلمين السياسي. فما أنجزه هذا التفكير من أحكام وأفكار، كانت تصاغ في آفاق رؤية المستبد، وتتخذ من آراء المستبد وقناعاته مرجعية لها)(٢٤)، وهذا المستبد بفعل تعاقب الزمان وتكرار المقولات، بات ذهنية سائدة في المجتمع،

متجاوزة الفرد إلى حالة من القيود والأغلال المُثقلة للشعب والأمة. بما يمُثل عبودية طوعية تتوارثها الأجيال كعادة وعبادة، تتبادل الذئاب فيها دور الخراف وبالعكس[٢٥]. ينسج الرفاعي هنا مفهوم العبودية الطوعية على نهج إيتيان دو لا بويسي، فيكتب: (يتغلغل الاستبداد في المجتمع وفي العائلة والجماعات والأحزاب والمجتمعات والدول، وإن الخلاص من الاستبداد لا يتحقق إلا عبر تفكيك نسيجه الكامن في بنية العائلة، وكافة التنظيمات السياسية والنقابية والمهنية... وتعود الظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تتفشى في الاجتماع الاستبدادي إلى بنى نفسية واجتماعية كامنة وعميقة في حياة الناس. وهي تشكل مرتكزات وأسس هذه النمط من الحكم، وحسب تعبير الكواكبي "المستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم حرّ، وهذا صريح معنى: كما تكونوا يولَ عليكم". يرتبط الاستبداد ارتباطاً عضوياً بالعبودية الطوعية واستعداد الناس للانصياع للطاغية وتمجيده وتبجيله، ورغبتهم في الخضوع له، واستعارة أسماء اللّه وصفاته وخلعها على المستبد. يرى الخبراء في الأسس السيكولوجية للسلطة أن الجماهير هي التي ترضخ للاضطهاد وتطلب منه السيطرة عليها، وان الذي يقودها إلى ذلك هو متعة الخضوع ولذة الانقياد الراسخة في النفس البشرية، أي أن الناس هم الذين ينذرون أنفسهم للخدمة والعبودية الطوعية)[٢٦]. إن بيان الدين كمعنى جوهري وأبدي في حياة الإنسان لا يحميه من استغلالات الأنمساخ السلطوي، حسبما يعتقد الرفاعي: (فعندما يتحول الدين إلى مؤسسة، أي يتمأسس، يتحول إلى واحدة من المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فإن هذه المؤسسات ترتبط عضوياً بكل ما يعيشه المجتمع من مصالح وملابسات وتناقضات. الأيديولوجيات والمؤسسات في المجتمع مشتقة منه، ومعبرة عن كل ما يضج فيه من اختلافات وصدامات ومصالح، و...الخ. الجمعيات والأحزاب والمؤسسات محكومة بذلك، وهكذا القبائل والتجمعات والنقابات المهنية. الدين عندما يتمأسس ويصير إحدى المؤسسات الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، فإنه ينخرط في هذه التناقضات والملابسات... ما حصل في المرحلة الحديثة من تاريخنا إنما هو ترحيل لوظيفة الدين، فأصبحت وظيفته سياسية نضالية كفاحية، وبذلك جرى نقله من مجاله الرمزي المعنوي الروحي الجمالي، الذي هو مجاله الطبيعي إلى مجال آخر. وهنا تغلب فيه القانون على الروح، وأصبح الدين أيديولوجية سياسية صراعية، أيديولوجيا أهدرت أبعاده الرمزية والجمالية والروحية والمعنوية)[٢٧].

المؤسسة باحثة أبداً عن الطاعة والامتثال والعبودية، بينما الحرية هي أساس الإبداع، والاستبداد أساس الأتباع، لذا استطاعت الحضارة الإسلامية بناء فرق ومذاهب عقدية

وفقهية متعددة، من أشاعرة ومعتزلة وشيعة وخوارج، وفلاسفة وأدباء ومؤرخين. وذلك بتعبير الرفاعي (كان لتوفر هامش حرية التفكير أثر بالغ في نمو وازدهار عدة تيارات فكرية، من أبرزها الشيعة والمعتزلة والأشاعرة، ويضم كل تيار أجيالاً متتالية من المجتهدين في علم الكلام الذين اشتغلوا بترسيخ وتطوير مدارسهم الكلامية. وغالباً ما تجاوزوا الرؤى وربما بعض الأسس التي صاغها أسلافهم. حتى اشتهر لديهم ظهور أكثر من اتجاه في إطار المدرسة الواحدة. كما عرفت ظاهرة استقلال التلميذ عن أستاذه وعدم انصياعه وتقليده. وربما مناقشته والرد على آرائه وتبني مواقف كلامية لا تتطابق مع ما كان يتبناه الأستاذ. ومراجعة سريعة للتراث الكلامي ترينا عدداً وفيراً من المؤلفات ممن نقض فيها التلميذ آراء أستاذه. ولولا توفر أرضية مناسبة وشيوع تقاليد ثقافية ترعى حق الاختلاف، وتؤمن بالتعددية الفكرية، لما وجد ذلك المناخ العلمي الذي تبلورت فيه أبرز المدارس الكلامية في التاريخ الإسلامي)[٢٨].

وهذا يعني أن توقف الإبداع وضمور الاختلاف ومعاداة التعددية، ما هي إلا ظواهر وآثار غياب وضمور الحرية في حياتنا وراهننا المعاش، حيث يتحول الاستبداد إلى ركن ركين لذريعة الحفاظ على الجهل المقدس، على خشبة العلو الطبقي للأسر الإقطاعية المنتفعة. من هذا المنطلق اهتم عبدالجبار الرفاعي بمشروع تواصلي بين مشرق العرب ومغربهم وبين مفكري إيران، في إنشاء مركز متخصص لفلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، تتميماً لمشروع قضايا إسلامية معاصرة، فهو يشير إلى أن (أهمية علم الكلام تكمن في إطلاق حرية الاجتهاد العقائدي، واختلاف المقولات ووفرتها تجسد وجهات نظر متنوعة أفضى لها التفكير الكلامي. مضافاً إلى إنها علامة فارقة على منح كل مسلم الحق في اختيار عقيدته، بل وحرمة تقليد الغير. إن حظر التفكير الكلامي والاقتصار على ظاهر النصوص، ومنع أية محاولة لعقلنة الفهم العقيدي، يفضي إلى تعطيل العقل وشيوع نزعة نصوصية إخبارية)[٢٩].

لم يكتفِ الرفاعي هنا بدعم نشر بحوث جديدة لمفكرين حول علم الكلام الجديد، بل قام برحلة العودة إلى الذات في كتابة تاريخ تطور الفكرة في بلاده، فكتب عن "تحديث الدرس الكلامي والفلسفي" في النجف وقم، حيث تتداخل المنعطفات السياسية والاجتماعية مع تبلور طروحات منهجية مغايرة[٣٠]. عاصر الرفاعي بعض هذه المنعطفات السياسية والاجتماعية منذ حركة الشهيد محمد باقر الصدر وحتى حركة الشهيد محمد محمد صادق الصدر. وهي فترة زمنية حرجة كان لها تنوعات في الطرح الفكري والمعالجة السياسية. مرةً أخرى نجد تجديدات الكتابة مرآة لمفارقات الحياة في

مشروع الرفاعي في دعم مثقفي التنوير العربي والإسلامي، وهي مكونات منهج الجمع بين القراءتين، والجمع بين التجربتين وبين الإنتمائين.

من هنا تتخذ الكتابة عن مشروع عبدالجبار الرفاعي أهمية بالغة، باعتبارها إعادة للتعريف برواد النهضة والإصلاح. إنها مشروع كتابة عن انعطافة في تجديد مناهج التعليم في الحوزة العلمية وانتقالها إلى كتابة رسائل الماجستير والدكتوراه، والانفتاح على حقول المعرفة الجديدة. كما تتخذ الكتابة عن مشروع عبدالجبار الرفاعي أهمية لأنها كتابة عن جيل من الشباب الديني الواعي المتواصل مع علوم العصر، جيل لديه مراجعات نقدية صارمة تجاه الذهنية السلفية والأصولية. انطلق من الحوزة العلمية في قم جيل معارض بعد انتفاضة عام ١٩٩١في العراق، وتفكك مقولات جيل الإسلام السياسي الوارث لفكر سيد قطب وحسن البنا والمودودي ومحمد باقر الصدر، وبروز تيار شبابي سوف يكون له دوره المؤثر في جرأة التغيير السياسي، وقوة الطرح الجديد للفكر الديني الناقد للمؤسسة الدينية، وبنيتها التحتية القائمة على شهرة الطبقيات الأسرية والعائلية، وجمود المناهج الموروثة. كما إنه جيل له تواصله الواثق في تعامله مع النخبة المثقفة بلا تكفير ولا تبعية، وله إبداعات ونتاجات تعبر عن إستنباتات جديدة في مجالي الفكر والأدب[٣١]. انه جيل لعبدالجبار الرفاعي قسط وافر في تهيئته وتبنيه وتوجيهه والإشراف عليه. فهو بمستوى دالة وحلقة وصل بين جيل الثورة وجيل الثورة المضادة، بين جيل نضال الدولة الإسلامية والمجتمع الديني، وجيل كفاح الديمقراطية ودولة الانتخاب والمجتمع المدني. بين أحياء الدرس الفلسفي التقليدي وبين مشروع علم الكلام الجديد. إنها تركيبية بين جيلين، ومشروعين، وبين منهجي الثقافة والدين، وإشكالية العقل والقلب. الأمر الذي اقتضى تركيبية جدلية بين الكتابة والحياة، بين ذاكرة مسيرة العُمر الشخصية وبين هموم بناء مشروع إصلاحي وتجديدي في مستقبل الثقافة. بين إنتمائية القلب وعقل التجربة. فما تركه صاحب "قضايا إسلامية معاصرة" و"فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد"، هو بلا مواربة جزء من سجال الراهن وعنصر من عناصر ثقافة الغد.

الهوامش:

(١) عبد اللطيف الحرز: "الشيعة محنة الاختلاف في العقل العربي" ص٢٧. دار المحجة البيضاء ـ بيروت، ٢٠١٠.

(٢) صدر منها حتى الآن أربعة كتب لعبداللطيف الحرز: "محطة قطار براماتا"، "من سرق الطماطة أيها الوطن"، "ما لم تشهد عليه النوارس" وهي صادرة عن دار الفارابي ـ بيروت. و"حسناء الهور" الصادرة عن الدار العربية للعلوم ناشرون.

(٣) الرفاعي، عبدالجبار: "مبادئ الفلسفة الإسلامية" ج١، ص٢٨٠.

(٤) عبداللطيف الحرز: "أوراق متخالفة في النقد المختلف"، دار المحجة البيضاء ـ بيروت.

(٥) حسن حنفي: "التراث والتجديد" ص١٣.

(٦) الرفاعي، عبدالجبار: إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين: ص١٠١.

(٧) الرفاعي، عبدالجبار: مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد: ص٩٨.

(٨) قضايا إسلامية معاصرة: العدد١٩، ص٤.

(٩) إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين: ص٨.

(١٠) مجلة قضايا إسلامية معاصرة: العدد الخامس: ص٥.

(١١) قضايا إسلامية معاصرة: العدد ٦، ص٥.

(١٢) عبداللطيف الحرز: "محمد الصدر كفاح الجماهير" ص٦٦. دار الفارابي ـ لبنان، ٢٠٠٩. و"بحوف في مدرسة الصدر" ص١٣٣. دار الفارابي ـ بيروت٢٠١٠. "الفقه الأخلاقي" ص٤١. دار الجواهري ـ بغداد، ٢٠١٢.

(١٣) عبدالجبار الرفاعي: "مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد" ص١١٣. دار الهادي ـ لبنان. ٢٠٠٥.

(١٤) المصدر: ص١٥٨.

(١٥) إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين: ص١١٣.

(١٦) مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد: ص٢٢٢.

(١٧) قضايا إسلامية معاصرة: العدد ١٩، ص٤.

(١٨) قضايا إسلامية معاصرة: العدد١٣، ص٥.

(١٩) قضايا إسلامية معاصرة: العدد٧، ص٤.

(٢٠) عبداللطيف الحرز: "من العرفان إلى الدولة، التصوف في فكر الإمام الخميني والشهيد الصدر".

(٢١) مجلة قضايا إسلامية معاصرة العدد الأول ص٤.

(٢٢) إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين: ص١١.

(٢٣) عبداللطيف الحرز: "الإثم والكتابة: صراعات الثقافة العربية من النقد الاستعماري إلى مدح الدكتاتور" ص٤٦٩. دار الجواهري ـ بغداد، ٢٠١١.

(٢٤) قضايا إسلامية معاصرة، العدد: ٢، ص٥.

(٢٥) عبداللطيف الحرز: "الفقه الأخلاقي" ص٢٣.

(٢٦) إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين: ص٧٦.

(٢٧) إنقاذ النزعة الإنسانية: ص٣٣.

(٢٨) عبدالجبار الرفاعي: "الاجتهاد الكلامي" ص٦.

(٢٩) عبدالجبار الرفاعي: الاجتهاد الكلامي" ص١٠.

(٣٠) عبدالجبار الرفاعي: "تحديث الدرس الكلامي والفلسفي" ص٥.

(٣١) عبداللطيف الحرز: "المستحيل في الأدب العراقي: إستنباتات النص الجديد وراهن المشهد الثقافي في زمن الاحتلال". دار الفارابي ـ بيروت، ٢٠٠٨.



عبد الجبار الرفاعي
من لاهوت التحرير إلى لاهوت الحرية

✍ د. مجيد مرادي[١]

في آخر لقاء لي مع المرحوم السيد حسن الأمين صاحب دائرة المعارف الشيعية، قُبيل أشهر قليلة من وفاته، سألته هل تساعدك لجنة في هذا العمل؟ فأجاب بـ "لا". فقلت له: تذكرني بالشيخ عبد الجبار الرفاعي، الذي يصدر مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ويدير مركز دراسات فلسفة الدين من سرداب بيته في قم. فقال لي: "الشيخ عبد الجبار أنا رأيته، والقضية ليست في أن تكتب كتابا وتنشره، الشيخ عبد الجبار يعرف كيف يكتب! الآن إذا وجدنا واحداً مثل الشيخ عبد الجبار فهذا شيء نادر. لو كان " المشايخ" يريدون أن يعملوا، لجاؤوا بالشيخ عبد الجبار ووضعوه في "قصر" ووفروا له كل ما يحتاجه، وقالوا له انصرف إلى الكتابة والفكر. الدولة الفاطمية هكذا عملوا.. أنا عندي أشياء أخذتها مباشرة من مجلة الشيخ عبد الجبار، ولو لم يكتبها الشيخ عبد الجبار لا ندري من كان يستطيع أن يكتبها.. هذا شخص ممن يندر ان يأتينا الزمان بمثله، وللأسف غير مستفاد منه.. أنا زرته في بيته. مشاغل الحياة وهمومها تستهلك الكثير من الإنسان. أنت تبحث عن طعامك واحتياجات عائلتك، وهي تأخذ وقتك منك. أنا أرى أن الشيخ عبد الجبار طاقة ضخمة وفكر نيّر. والمواضيع التي يطرقها هي مواضيع يجب أن تطرق ولا أحد يكتبها". (انتهى كلام السيد حسن الأمين).

رغم معرفتي به من خلال آثاره، عرفت عبد الجبار الرفاعي شخصياً في تسعينات القرن الماضي لسبب بسيط؛ عند ما حاول الحصول على رخصة كتاب يتضمن فصلاً حول جمال الدين الأفغاني، الذي يصر الإيرانيون وبحق أن يعتبروه أسدآباديا، ولهذا السبب لا يقبلون عادة تسميته بالأفغاني، لكني تدخلت وأقنعت أصدقائي في وزارة الإرشاد في قم، بأن هذا الكتاب سينشر بالعربية والعرب لا يعرفون جمال الدين الأسد آبادي، وإنما يعرفون جمال الدين الأفغاني.

و لهذا السبب أعتبر أنني كنت في معرفتي بالدكتور عبد الجبار الرفاعي مدينا لجمال الدين "الأفغاني الاسدآبادي". وجدت جماليات الدين لدى عبد الجبار أكثر مما كانت عند جمال الدين الأفغاني.

---

(١) كاتب وشاعر إيراني.

قبل التعرف على الشيخ عبد الجبار، كنت أتصور مثل الكثيرين، بأنه مدعوم من المؤسسات الثقافية الإيرانية، لكنني فوجئت عندما وجدت أن كل ما يقوم به من أعمال ثقافية هو من ماله الشخصي، ولا تساعده أية جهة إيرانية، وبالطبع ولا خارجية. وأسفت كثيراً عند ما اطلعت على أنه أصبح مضطراً لأن يبيع آلافا من كتبه، ليسدد تكاليف مجلته القيّمة "قضايا إسلامية معاصرة".

وفيما بعد انتبهت إلى أنه لو كان يقدر لمجلة عبد الجبار أن تحظى بدعم حكومي، لما كانت تستطيع أن تجتاز الحدود الإيرانية وتصل إلى أقاصي العالم الإسلامي، من لبنان إلى مصر حتى المغرب، وتجتذب آلافاً من الدارسين والباحثين والمثقفين، وتتحول إلى مدرسة من مدارس الفكر الإسلامي المستنير المعاصر. شاهدي على ذلك هو العشرات من الصحف والمجلات التي تطبع بدعم حكومي إيراني، ولم تجتذب انتباه القارئ، بما يتناسب وحجم الميزانية التي تنفق عليها.

المسار الفكري للدكتور الرفاعي:

المسار الفكري لعبد الجبار الرفاعي تطغي عليه النظرة النسبية لمنتوجات الفكر البشري، وعدم اعتبار أي معلومة نهائية حتى إشعار آخر، لهذا أجد أن صاحبنا اجتاز مراحل وتحولات فكرية وتصورية عديدة. يمكنني أن ألاحظ أربع مراحل في مساره الفكري، ولا بأس بتسميتها "الأسفار الأربعة" كما سمى صدر المتألهين الشيرازي أثره الخالد باسمها متأثراً بالفكر العرفاني الإسلامي.

الأسفار الأربعة للرفاعي:

السفر الأول: الالتحاق بالإسلام الحركي:

عند ما خرج الرفاعي من القرية إلى العاصمة، كان ينوي التأهيل الأكاديمي، لكنه انحرف من الدراسة إلى العمل السياسي الإسلامي. عند ما التحق بحزب الدعوة الإسلامية في العراق، وهو شاب في مطلع العشرينيات من عمره، كان يتصور أن مهمته تغيير العالم بأكمله، وصنع عالم مثالي على الأرض. في هذه المرحلة كان متاثراً بسيد قطب، خاصة كتابه "معالم في الطريق"، ولما ينس الرفاعي بأنه عندما قرأ فصل "جيل قرآني فريد" من هذا الكتاب أجهش بالبكاء، شوقا إلى عودة هذا الجيل الذي صنعته مخيلة سيد قطب. وكان من تأثيره أنه انصرف بكل طاقته إلى حزب الدعوة.

كان التعرف والتتلمذ على السيد محمد باقر الصدر قد كرّس في ذهن الرفاعي ما تعلمه من سيد قطب. والصدر أيضاً كان بدوره متأثراً بالخطاب القطبي؛ وقد جعل مهمة أسلمة العالم مشروعه الأساسي، وشق طريقاً لإيجاد جسر بين الإسلام والعلوم والفلسفة،

فيما الوسط الشيعي التقليدي المتمثل في الحوزة العلمية بالنجف، كان يذهب في اتجاه آخر، وأقصى طموحاته كانت بيان الأحكام وتبليغ الدين وإقامة الشعائر، وليس تطبيق الشريعة وتأسيس الدولة.

استراتيجية التيار التقليدي في النجف كانت حصيلة خبرته في ثورة العشرين، ويأسه من الحصول على المأمول. أما في الستينيات والسبعينيات، فقد حصلت تحولات عميقة في العالم، منها ظهور لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، وحركات اليسار في شتى مناطق العالم، وظهور الشيوعية كأيديولوجيا للنضال مع الامبريالية، وأصبح المشروع التغييري والتحريري كإطار مرجعي لكثير من الحركات والتيارات والشخصيات في العالم الثالث.

اكتشاف الرفاعي لمدرسة الصدر كان تحولاً في مساره الطبيعي، كوّن عنده رؤية تحريرية للعالم، جعلته يميل إلى النضال من أجل تحقيق عالم مثالي على ارض الواقع.

السفر الثاني: من الإسلام الحركي إلى الإسلام اليساري:

لكن الرفاعي لم يتجمد في المرحلة السابقة، وانتبه فيما بعد إلى أن تحقق العالم المثالي في عالم الناسوت مستحيل، ويجب أن يقتصر على أهداف متوسطة المدى، وأكثر قابلية للتحقق.

منذ عام ١٩٨٢ بدأ الرفاعي بمطالعة الدكتور حسن حنفي ونقده للأصولية الإسلامية، هكذا ابتعد من سيد قطب، الذي كان خطابه يقتصر على المشاعر والأحاسيس والعواطف، ونصوصه حسب تعبير الرفاعي "بمثابة أناشيد للفداء والاستشهاد". إذ أخرجه حنفي من حالة اليقين إلى التساؤل، وحرره من سجن "معالم في الطريق"؛ هذا الكتاب الذي كان منتوجاً داخل زنزانات نظام جمال عبد الناصر القمعي.

سحر الإسلام اليساري شغل روح الرفاعي، فوجد صديقنا نفسه يتفاعل معه وجدانياً، ويتوهج معه عقليا، وربما يسكر عقلياً، مثلما سكر من قبل مع نصوص سيد قطب.

وسرعان ما وجد الرفاعي، نفسه في فكر حسن حنفي في سجن آخر. من سجن إلى سجن. لكن تفكيره المتواصل وتساؤلاته المزمنة أخرجته من هذا السجن.

لعل معرفته بالفكر الإصلاحي الديني داخل إيران مكّنته من الخروج من هذا السجن. عندما تعرف على هذا الفكر من خلال مجلات فكرية من أمثال "كيان، نقد ونظر". بطبيعة الحال المفكرون الإيرانيون أيضاً كانوا بدورهم متأثرين بالاتجاهات والرؤى المنهجية في الفكر الغربي. سروش كان متأثرا بمدرسة كارل بوبر، لذلك تابع منذ بدايات الثورة فكرته في الإشادة بالمجتمع الحر المفتوح. وشبستري كان مهتما بالمنهج الهرمنيوطيقي، وملكيان كان يدعو للعقلانية والمعنوية، والذي ترجم عمله الأساسي الرفاعي من الفارسية

إلى العربية، وأصدره في كتاب ضخم يتجاوز ٥٠٠ صفحة، بعنوان: " العقلانية والمعنوية: مقاربات في فلسفة الدين". وقد أثر هذا الاتجاه في التفكير الديني على الرفاعي، ومعظم المثقفين، بل على الحالة الفكرية داخل إيران. وواصل الرفاعي مطالعاته وتفكيره الديني مع الفيلسوف الإيراني داريوش شايغان، الذي صاغ منظوراً عميقاً للهوية، في كتابه"هوية بأربعين قطعة"، الذي ترجمت معظم فصوله مجلة قضايا إسلامية معاصرة.

هنا انفصل الرفاعي عن "لاهوت التحرير"، واقترب من "لاهوت الحرية"، الذي أصبح شيئاً فشيئاً إطاراً مرجعياً للمثقفين الإيرانيين. تنبه الرفاعي إلى أن لاهوت التحرير اليساري "يختزل الدين في أيديولوجيا المقاومة والثورة ويطمس الوظيفة المحورية للدين". ويكتب الرفاعي: "الدين أرحب واشمل وأوسع من الأيديولوجيا. الأيديولوجيا مظهر وتعبير اجتماعي للدين، تحويل الدين إلى أيديولوجيا يعني اختزال الروح في القانون، والعقيدة في الثورة، والله في الإنسان، والإلهي في البشري، والسماء في الأرض، والغيب في الشهادة، والميتافيريقا في الطبيعة، والآخرة في الدنيا، والروح في الجسد، والرمزي في الحرفي، والرؤيوي في المحسوس، والمعاد في المعاش، والعبادات والطقوس في المداليل الاجتماعية والتنمية والإنتاج، والديني في الدنيوي. وحين يتحول الديني إلى دنيوي في لاهوت التحرير تختلط الحدود بينهما، فيتم تديين الدنيوي، وتعميم الفهم الديني لكافة حقول المعارف البشرية، وتديين المعرفة في خاتمة المطاف يفضي إلى التضحية بالعقل والخبرة البشرية المستقلة عما هو ديني".

هذا قمة انقلاب الرفاعي على منهج لاهوت تحرير حسن حنفي الثوري. اختصر الرفاعي في الفقرة التي ذكرتها معظم مدعيات حسن حنفي وثغراتها التي تثير مخاوف الرفاعي. ذلك أنها ستفضي إلى إنتاج ظاهرة "الانتحاري، الذي يقاوم بقتل نفسه، ويتلذذ ويبتهج بالدم المسفوح حينما يفجر نفسه بمصلين في مسجد أو حسينية أو كنيسة، أو أبرياء في الأسواق والشوارع والمباني".

السفر الثالث: من لاهوت التحرير إلى الأصالة الفكرية والتعمق في التراث:

مكوث الرفاعي في قم ثلاثون عاماً، واستمرار دراسته وتدريسه الفقه والأصول والمنطق والفلسفة وعلم الكلام في الحوزة العلمية، سنحت له فرصة الخروج من أعباء الأصولية والحزبية. التحاق الرفاعي إلى الحوزة كان من شأنه أن يوصله إلى الحقيقة القائلة: "بان ما أنتجته الجماعات والشخصيات الأصولية الإسلامية ليس إلا قراءات مستعجلة وإنتاجات غير منضبطة، وإنما هي في معظمها شعارات وأشعار، أنشدها مثقفون متدينون درسوا خارج المعاهد الإسلامية التقليدية، ويفتقرون إلى الثقافة الدينية، وإنما يقدمون قراءات أيديولوجية تحت تأثير التيارات اليسارية".

وللمناسبة يطيب لي القول بأن الحركات الأصولية الإسلامية نشأت خارج المعاقل التقليدية للإسلام السني والشيعي. على سبيل المثال حسن البنا وسيد قطب، والنسخة الشيعية لهما، وهو نواب صفوي لم يترعرعا داخل المراكز الرسمية للعلوم الدينية. الحركة الأصولية داخل إيران أيضاً نشأت خارج قلب الحوزات والمعاهد الدينية. أبرز وجوه الإسلام الأصولي في إيران سيد مجتبي نواب صفوي كان صديق قادة الإخوان المسلمين، حمله الأخوان على أكتافهم أثناء مظاهراتهم في القاهرة، لكنه لم يُعترف به في الحوزة العلمية في قم وعند مراجع الدين. عندما قام باغتيالات للسياسيين، ورغم أنه كان يلبس زي رجال الدين، لم تكن لديه ثقافة علمية عميقة بالتراث الديني. وبسبب المشاغبات التي أطلقتها جماعته بمدينة قم أخرجهم المرجع الشيعي الكبير آية الله البروجردي من هذه المدينة. ويقال أن الأخير التزم الصمت بعد إصدار حكم بعقوبة الإعدام بحقه ورفاقه، ولم يتوسط عند شاه لتخفيف الحكم.

بطبيعة الحال الطبيعة المحافظة للحوزة دفعت صديقنا أن يبتعد شيئاً فشيئاً عن الإسلام الحركي، الذي يتلخص مشروعه في الوصول إلى السلطة.

وبالرغم من استمراره في الدراسات الفقهية والأصولية، اهتم الرفاعي أيضاً بالفلسفة الإسلامية، وألف كتبا قيمة في مجالي أصول الفقه والفلسفة الإسلامية.

السفر الرابع: لاهوت الحرية:

السفر الرابع هو سفر الأسفار، أرحبها وأوسعها وأخصبها، إذ يتسع ويحتضن كل جديد في مجال الفكر. في هذه المرحلة يعيد الرفاعي النظر في فهم الدين، يتوغل في استكشاف آفاقه الروحية والمعنوية والجمالية، ويهتم بتأويل النصوص، لكن بعد أن يخلع نقاب الأيديولوجيا عنها، ويمكن أن نسمي هذه المرحلة "السفر الدائم". أصبح الرفاعي دائم السفر بتبنيه الفكر النقدي التحديثي. بطبيعة الحال هذا المنحى الأخير يتسع لكل التحولات والتبدلات الفكرية.

في هذه المرحلة اتجه الرفاعي إلى تمجيد وتبجيل التراث الصوفي، والاستغراق في مدياته العميقة، وما يمكن أن يضفيه على الحياة المعاصرة المتخشبة الجافة الباردة من معنى ودفء وطاقة حيوية ايجابية وتراحم، وأثر ذلك في تحقيق الأحلام الإنسانية وتخفيف الآلام والصراعات في العالم الإسلامي، وما ينجم عن التطرف والكراهية والعنف والإقصاء ونفي الآخر.

كذلك عمل الرفاعي في حقل إصلاح التعليم الديني، فنبه إلى ضرورة استخدام المناهج الجديدة لفهم النص. ثقافته العميقة في الدراسات الدينية تؤهله للتقدم في هذا المجال،

خلافاً لبعض الانتهازيين الذين يلوثون مجال النقد والإصلاح بالأساليب الإستفزازية ويدّعون الإصلاح، فيما يفتقرون إلى تكوين معمق في التراث والعلوم الإنسانية الجديدة، وهو ما يتميز به الرفاعي.

رغم إطلاق كثير من المحاولات التحديثية للمعرفة الدينية، من خارج المؤسسة الدينية، إلا أن المشكلة الأساسية لمعظم هذه المحاولات إنها تطبق بطريقة عشوائية غير مدروسة، نظراً لعدم معرفة القائمين عليها بلغة التراث الدينية التخصصية. إن إعمار المناطق الأثرية ليس شأن الذين درسوا الهندسة الجديدة ولا يعرفون شيئاً من القواعد الناظمة لهذه الأماكن الأثرية. لهذا أرى أن أهمية مفكرين من أمثال الدكتور عبد الجبار الرفاعي تأتي من أنه عالم بتفاصيل العلوم الدينية التقليدية، والعقلية السائدة فيها، ومنطق المناهج المتبناة لدى أعلام التراث، مضافاً إلى انه عالم بالمناهج الحديثة للعلوم والمعرفة الإنسانية.

إنه يدرك تماماً بأن التغيير يجب أن يأتي من الداخل، والمؤسسة الدينية التي أنتجت علماء مستنيرين، من أمثال الشيخ محمد حسين النائيني والعلامة محمد حسين الطباطبائي تستطيع أن تُجدّد وتُحدّث نفسها. يقول الرفاعي: "نحن بحاجة إلى تعليم ديني بأسلوب كلاسيكي، من داخل التجربة، لكن من خلال إستيعاب أدوات ومعطيات ومناهج العلوم الإنسانية الجديدة، ودمجها في إطار الدراسات الدينية".

يبدو أن الرفاعي وجد ضالته في الإسلام الصوفي العرفاني، لكنها ليست بالضرورة ممارسة الطقوس والمراسيم والمواجيد والتراتبية المتعارفة في خانقاهات وتكايا المتصوفة، وإنما هي استدعاء ما يكتنزه التصوف والعرفان من منابع لإلهام الروح وخلع معنى وجمال على ما لا معنى له، ووراء وفوق ذلك التسامح والشفقة والرفق واللين، والنظر إلى الخلق كعيال الله، حسبما ورد في حديث عن الرسول (ص): "الناس كلهم عيال الله، وأقربكم إلى الله أنفعكم لعياله". خلافا لمنهج العنف والتسلط والكراهية، الذي تتبناه جماعات متطرفة، يتوهمون أن الله بحاجة إلى جرائمهم البشعة، ليفرض سلطته على خليقته، ويسجلون تصرفاتهم الغبية باسم التضحية من أجل الله، وعلى حساب الله، ويرجون من الله الجزاء الحسن مقابل قتلهم الناس، أي قتلهم عيال الله.

ورغم النقد الذي يوجهه إلى المنهج الدراسي وفوق ذلك إلى أساليب الاجتهاد والاستنباط الفقهي، لكنه عندما يصل إلى التصوف يخلع حذاء النقد، كما فعل موسى النبي، الذي أُمر من قبل الله بخلع حذائه، عندما رأى نارا من جانب الطور الأيمن.

استطاع الدكتور الرفاعي بفضل تعلمه اللغة الفارسية أن يتجول في آفاق التراث العرفاني والصوفي الإيراني، وقراءة قصائد مولانا جلال الدين محمد الرومي، الشاعر الفارسي الكبير، أثرت عليه التراث العرفاني الصوفي إلى الفكر العقلاني النقدي.

ونظراً لانحياز صديقنا العزيز الدكتور عبد الجبار الرفاعي إلى التراث الصوفي، وخصوصا بالشاعر مولانا جلال الدين الرومي، أذكر بالمناسبة أبياتا من كتابه المثنوي، الذي كانت ترجماته المتعددة في الغرب من أكثر الكتب مبيعاً. يصف الشاعر الكبير الإيراني، الشيخ الجامي هذا العبقري في قصيدة بالفارسية:

من نمي كويم كه آن عالي جناب
هست بيغمبر ولي دارد كتاب
لا أقول أن ذلك الرجل العظيم كان نبيا،
لكنه صاحب كتاب

يقول مولانا:

از جمادي مردم ونامي شدم
وز نما مردم به حيوان سر زدم
مُردم از حيواني وآدم شدم
بس جه ترسم؟ كي زمردن كم شدم؟
ور ملك هم بايدم جستن ز جو
كُلُّ شَيءٍ هالِك إلا وَجهُهُ..
أماتني الجماد فصرت ناميا
وأماتني النما فصرت حيوانا
وأماتني الحيوان فصرت إنسانا
فلم الخوف؟ متى أنقص الموت مني شيئاً ؟
أما إن رمت المُلك من النبع فليكن
كل شيء هالك إلا وجهه

❖ ❖ ❖

الدكتور عبد الجبار الرفاعي
من الإسلام السياسي إلى الإيمان النقدي

✍ علي المدن[١]

من أين يكتسب المثقف في مجتمعاتنا أهميته؟ وبأي معنى؟ وتبعاً لأي معيار؟ كيف نتخطى ثقافة التبخيس لذواتنا، دون السقوط في المحاباة والانتهازية؟ لماذا يُقدح في شهادات المثقفين في بعضهم البعض فتحمل أغلبها على المجاملة، ويقلل من أهمية تجريح ونقد بعضهم لبعض فتوصم بالحسد والغيرة؟ هل للحديث عن الموضوعية من معنى في هذا السياق المأزوم؟ تلك هي الأسئلة التي وردت في ذهني لأول وهلة حين عزمت على كتابة هذه السطور. ولأنني كنت أمنِّي النفس بكتابة عدة مقالات هذا العام، عن الدكتور عبد الجبار الرفاعي وغيره من الشخصيات العلمية التي أعرفها، احتفاءً بدورهم العلمي والثقافي، واحتفالاً ببلوغهم الستين عاماً، ظناً مني أنهم يشتركون جميعاً في هذه الميزة، فقد بدا لي طلب الحديث عن الرفاعي مفاجأة! وحتى هذا الوقت كنت مصمما على عدم إخبار الرفاعي بالموضوع قبل نشره؛ خشية أن تتحول كلمتي إلى ما يشبه الوعد، ثم يستعصي عليَّ بعد ذلك الوفاء به لطارئ ما.

لقد عيب على الثقافة العربية المعاصرة، لا سيما لدينا نحن العراقيين، أنها لا تقدِّر مثقفيها إلا بعد رحيلهم، وأن كثيراً من أهل الفكر والثقافة والأدب يعيشون مهمشين بيننا، حتى إذا ما فارقونا، ندبناهم باكين! نراوح بين التهميش والغمز من جهة، وبين المبالغة والغلو من جهة أخرى. بين الحط من الذات وتهشيمها، وبين العسف في تبجيلها والاسراف في توقيرها... تنعدم الوسطية فيختفي الاعتدال. كتبنا في "ألفيَّات ومئويات" القدماء كابن سينا والفارابي وابن رشد وابن عربي وابن تيمية والملا صدرا والشيخ المفيد وغيرهم، إلاّ أننا أهملنا مثقفينا المحدثين، حتى بات من النادر أن نعثر على "احتفاء" بمثقف معاصر، يعيش بين ظهرانينا. وإذا ما حدث ما يشبه ذلك، فمن المؤكد أن يكون بعد رحيله.

واليوم إذ بدأت تنتشر ظاهرة تكريم الباحثين "الأحياء" كإحدى إفرازات عصر العولمة، فإن أهم المخاطر التي تواجهها أن تتحول إلى ما يشبه تصريحات السياسيين! أعني أن تفقد قيمتها في عكس واقع المشهد الثقافي، فتُمنح الأدوار، لا على أساس أهمية مشاركة الشخص المعني في النهوض بمستوى وعي مجتمعاتنا، أو تحديثه في أحد حقول العلم والفكر والأدب، أو مساهمته الإبداعية في إنضاج تجربتنا في الحياة، بل على أساس موافقته لهوىً عند

(١) كاتب وباحث عراقي، تلميذ الرفاعي وصديقه.

البعض أو بدافع من "التخادم" النفعي بينهما. حينها إذا صح ما قيل قديما من أن كلام الأقران في نقد بعضهم البعض (يطوى ولا يروى)، أو (لا يعبأ به)، فإنه يكون من الصحيح أيضاً أن يقال العكس بأن كلام الخلاّن يتعاطى (بحذر وتمهل).

بالنسبة لي سيكون شعاري وأنا أكتب عن الرفاعي قول الشاعر:

ألا إنمـــا الخـــلاّن عنـــد الحقـــائق ولا خـــير في ود الخـــؤون المـــازق

يقودني في ذلك إيمان بأن أفضل أسلوب لتكريم مثقفينا يتمثل، ليس بإشاعة ثقافة الإطراء وبوس اللحى، وإنما بتحليل الفضاء الثقافي الذي أسهم داخله هذا المثقف أو ذاك، ووصف سياقات الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي كان سائداً إبان تلك المساهمة؛ حينها نتمكن من فهم، بل وتقدير حجم، الدور الذي لعبه المثقف وطبيعته ودلالاته في وعي معاصريه، وإفرازاته وتأثيراته على لاحقيه.

من المؤكد أن للحديث عن عبدالجبار الرفاعي عدة جوانب، تبعا للمراحل التي مر بها، فهو ابن قضاء الرفاعي (قضاء معدم يقع شمال شرق ذي قار في أعماق جنوب العراق)، وهو الطالب الجامعي في مطلع السبعينات، حيث ذروة صعود تيارات الإسلام السياسي، وهو الطالب الحوزوي العاكف على متون التراث قبل نهاية العقد المشار إليه، ثم السياسي اللاجئ في المنافي منذ الثمانينيات، وهو الأستاذ في الحوزات العلمية، والكاتب في شؤونها حتى أواسط التسعينات، وهو الباحث وصاحب المجلات التنويرية حتى سقوط النظام البعثي في العراق عام (٢٠٠٣). ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن وهو الراغب في "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، الحاض على إعادة قراءة الأخير في ضوء مكتسبات العلوم الإنسانية الحديثة.

مراحل عديدة ومتنوعة، من المنتظر جدا أنها كفلت له وعياً عميقاً، وخبرة رصينة، في الحياة والسياسة وفهم التراث.

بأيِّها نبدأ؟ وعند أيِّاها نقف؟ من هي صاحبة الدور الأكبر في تكوينه والملهمة له؟ من التي عاشها بحق وانتمى لها بعمق؟ والأهم من ذلك بالنسبة لموضوعنا: أي الوجوه المشار إليها قد عاصرته وكنت شاهدا عليه؟ وكيف بدا لي الرفاعي فيه؟ لن أسمح لنفسي أن تتحدث عن الرفاعي ابن القرية، أو الرفاعي الجامعي، أو الطالب الحوزوي، أو السياسي الحزبي؛ ليس فقط لأنه الأعرف بها، ولأني لم أشهدها، بل ولأنها لم تكن جزءاً من صورته في اللحظة التي تعرفت فيها عليه. وبصراحة أقول: إن ذلك كان من حسن حظي وحظ الجيل الذي أنتمي إليه! وأشعر أن الرفاعي يتفق معي تماماً في هذه النقطة، وسوف أوضح في الأسطر القادمة ما أعنيه بذلك.

إن الصورة التي عرفت الرفاعي بها لا تكاد تختلف كثيراً عن صورته التي هو عليها الآن، لقد ظهر فيها شيخاً "أفندياً" وقورا وذا طلعة بهية، أستاذاً متميزاً في حلقات درسه، في

فنون المنطق والفلسفة وعلمي الكلام وأصول الفقه، وفوق ذلك كله (هكذا شئنا أن نراه) مثقفا تنويريا بمجلتيه "قضايا إسلامية" و"قضايا إسلامية معاصرة"، فتح بيته وقلبه للجميع في صورة فريدة من صور الكرم العربي الأصيل.. وهبنا أجمل الأوقات وأثراها وأشدها تحفيزاً.

ولكن كيف بدأت قصة هذه الصورة في أذهاننا؟ كيف تشكلت؟ وما السياق الذي ولدت فيه؟ لا تتضح الحكاية ما لم يتم رسم أهم معالم المشهد السياسي والاقتصادي والثقافي للعقد الأخير من القرن المنصرم، حيث ولدنا على ضفاف المنفى والبؤس والاغتراب الفكري العميق.

شاءت الأقدار أن نبصر النور في زمن أعتى الدكتاتوريات وأشدها همجية وتخلفا وانحطاطا، في زمن صعود الأيديولوجيات الطوباوية، في زمن احتكار السلطة والاستئثار بالأموال، في زمن لا هم للقوى العالمية فيه إلا النفوذ في منطقتنا وتفتيتها والهيمنة عليها. وجدنا أنفسنا في منفى لم نختاره، لم نشارك في صنع مشروعه، ولم نكن حتى في فسحة التفكير فيه، فضلاً أن نكون من الدعاة إليه. أخذنا على حين غرة، فبتنا في جوقة لا تكاد تستوعب اللحن. قذفنا خارج زماننا فكراً وتعليماً ونمطاً للعيش، تحولنا لمجرد أعداد للمفاوضة والضغط والابتزاز. وبالمقدار الذي نمت طموحات السياسي في نيل مبتغاه في تكريس إيديولوجيته المستمدة من الدين، نمت لدينا رغبة إعمال العقل وبناء الذات علميا.. بما هو متاح. لم يستطع هذا السياسي والأيديولوجي والمنافح عن "مصالح" الإله أن يسلب منا ولعنا بالنور والحرية والتعليم. بل إن لمفارقاته في الفكر واستيعاب الحياة، وتناقضاته في السلوك مع المبادئ التي يبشر بها، الفضل الأكبر - ربما دون اكتراث منه - في إيقاد جذوة السؤال النقدي والمراجعة الجذرية الحاسمة.

كانت البداية الممكنة بالانتماء للحوزة الدينية في قم. لم يحل دون تحصيل المعرفة، أية معرفة تتوفر لنا، العمر، ولا الغربة المضاعفة بالهجرة خارج أسوار المخيمات لمدينة لا نعرف شيئاً عنها، ولا المجهول، ولا الإفلاس، ولا أي شيء آخر. نمنا في العراء، على الأرصفة، وتحت الجسور، وفي الحدائق العامة. طوينا الأيام والليالي دون طعام، ما خلا بعض لُقيمات من "نان سنكك"، وحبات العنب أو الرقي. لم يفتَّ من عزيمتنا إن وجد الرأي في بعض ما نلبسه شبها بملابس المشردين. كانت الدراسة والمباحثة شغلنا الشاغل، والقراءة والنقاش دأبنا المتقد.

طيب! وما علاقة ذلك كله بعبد الجبار الرفاعي؟

الجواب: إنه بالصميم منه.

إذا صح في مناهج الفكر أن مداخل السؤال تفضي إلى تحديد طبيعة الأجوبة، فإنه من الصحيح أيضاً أن اللحظة التي شهدنا فيها التعرف على شخصية الرفاعي، وما وجدناه عليه، وعنده، لم تحدد فقط طبيعة علاقتنا به، بل وطبيعة الدور الذي اضطلع به في تجربتنا، أو على

الأقل شكّل الصورة التي صاغتها أذهاننا عنه، والتي وصفتها في كلامي السالف. شخصياً أول مرة أتعرف فيها على الرفاعي كانت من خلال الاستماع لمحاضراته في "المنطق والفلسفة" المسجلة على أشرطة الصوت. لم أسمعها جميعاً بنحو رتيب، بل كنت أعود إليها كلما أغلق عليَّ من أمرهما مسألة، لأرى ما قاله فيها وشرحه لها. ثم اقتربت منه أكثر حين قرأت كتابه "متابعات ثقافية: مراجعات وقراءات نقدية في الثقافة الإسلامية" (مكتب الإعلام الإسلامي ـ ١٩٩٣).

إلا أن اللحظة الحاسمة في دخول عالم الرفاعي كانت عام ١٩٩٧، بعد أربع سنوات من صدور مجلته الأولى "قضايا إسلامية"، التي مثلت أعظم منعطف في المشهد الثقافي العراقي الإسلامي، لا سيما في قم، وداخل أروقة الحوزة العلمية العربية، والعراقية بنحو أخص. بشأن المجلة يمكن القول إنها كانت مختلفة في كل شيء، من تصميم الغلاف، مرورا بالأسئلة والمحاور التي ناقشتها، وانتهاء بالكتّاب المساهمين فيها، الذين لم يجتمعوا، وبهذا العدد، على أمر ما، في يوم من الأيام. وكم كانت خيبة الأمل عظيمة حين سمعنا في ذلك العام خبر توقف المجلة عن الصدور. قيل: إن ممولي المجلة ضاقوا ذرعا بسياسة الانفتاح على صفحاتها، التي أصر عليها الرفاعي، واعتبروها تجاوزا للحدود "الحزبية". لم أتأكد من صحة هذا القيل وغيره، وحتى بعد أن توثقت علاقتي بالرفاعي لم أحاول أن استفسر منه عن الأسباب.

إن أول اتصال لمجموعتنا (حينها كانت مقتصرة عليَّ وعلى الصديق سرمد الطائي، ثم انضم لنا لاحقاً نبيل الحلفي، وعبد اللطيف الحرز، و...) بالرفاعي كان إثر صدور العدد الأول من "قضايا إسلامية معاصرة"، ضمن مسعى للتعرف على أبرز الشخصيات العلمية والثقافية العربية ـ والعراقية بنحو خاص ـ التي وجدناها قريبة من اهتماماتنا وأسئلتنا واتجاهنا الفكري الذي اخترناه عن سابق وعي وإصرار. اتصلنا به من هاتف عمومي من الشارع، بالقرب من مكتبة المرعشي النجفي، طلبت منه موعداً للقاء، وعرَّفت بأنفسنا بالقول: إننا مجموعة من الشباب العراقي المهتم بشؤون الثقافة والفكر. وفعلا زرناه في بيته، فوجدناه مرحِّباً دمثاً، ومضيافاً أصيلاً. ولكن أكثر ما أعجبني فيه هو تواضعه الجم، وإفساحه المجال لنا للحديث بحرية بدون تعال أو أستاذية، أو غطرسة أو استخفاف، بل كأنداد!! يسألنا ويستمع لنا، ويتعامل بمنتهى الجدية مع ما نبديه من آراء ووجهات نظر. هذا بالرغم من الفاصل بيننا في كل شيء؛ سنّاً، وتجربة، وعلماً، ومقاماً اجتماعياً. هكذا كان الرفاعي منذ أول يوم عرفته، ولا زال، لم يتغير ولم يتبدل إطلاقاً.

لو طلب مني التعريف بأبرز خصال "شخص" أبي محمد في بضع كلمات محددة، لقلت إنه:

- رجل عربي مضياف بكل معنى الكلمة.

- عفيف اللسان، وقور الهيئة، ندي الروح.
- لا سبيل للعصبيات إلى قوله وفعله، سواء أكانت قومية أو طائفية أو سياسية أو ثقافية.
- محب للخير وساع بإخلاص في أعمال البر والتعاون والإحسان.
- مدمن للقراءة والتساؤل ونشر المعرفة (لا أعرف شخصاً على علاقة بالرفاعي ليس مدينا له بنحو أو آخر في شؤون الكتاب.. فهو يُعير الكتاب، ويعرّف به، ويتحدث عن أفكاره، وينوِّه بصاحبه...).
- أبوي في تعاطيه مع الشباب فكرا وسلوكا، وعلى مدى أجيال.. ولا يزال.

أما الرفاعي الباحث والأستاذ، فإن خير مدخل له معرفة حضوره كتدريسي محترف في عوالم المنطق والفلسفة والكلام وأصول الفقه داخل قاعات الدراسة في المعاهد الدينية، وهو الأمر الذي تشهد عليه أجيال من الطلاب الذي حضروا دوراته تلك وتلمذوا عليه. وإذا كان "الشيخ" أبو محمد الرفاعي من طليعة أساتذة الدرس الفلسفي في "قم"، فإنه أول من كتب تاريخ هذا الدرس في حوزة النجف، هذا التاريخ الذي لا زال مغمورا بالرغم من غناه وعمقه وثرائه الكبير.

يضاف إلى صفات "الرفاعي الباحث" هذه، صفة أخرى أجد من الضروري الإشارة إليها والتنويه بها، وهي صفة الباحث "الببليوغرافي" المتمرس. ولا يأتي تأكيدي على تلك الصفة نتيجة لخفائها وجهل متابعي الرفاعي بها، بل لشدة ما بذله من جهود جبارة في سبيلها، ولما تعرض له - في المقابل - من إجحاف وإنكار وغمط لقيمتها وجدواها.. وقد أوضح الرفاعي نفسه ذلك بمرارة في حوار أجرته معه مجلة "مرآة الكتب" (وهي نشرة ببليوغرافية تعنى بالكتاب العربي المنشور في إيران، كان يصدرها في قم الصديق محمود الغريفي) عام ١٩٩٧. وقتها أعلن الرفاعي تركه الببليوغرافيا إلى غير عودة، احتجاجا على تلك الآراء الجائرة. إني أرى أن خير مناسبة للرد على تلك الآراء هو لحظة تكريم الرفاعي اليوم. لقد فات هؤلاء أهمية تلك الأعمال الموسوعية الضخمة (معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت (١٢ جزءاً)، موسوعة مصادر النظام الإسلامي (١٠ أجزاء)، معجم الدراسات القرآنية (٢ جزء)، معجم المطبوعات العربية في إيران... وغيرها).

لا يمكنني في هذه العجالة بيان أهمية هذه المعاجم على نحو مفصل، أكتفي بالتذكير أن أي عمل فكري يعتزم دراسة (صورة النبي أو أهل البيت في المخيال الشيعي - أو الإسلامي عامة - عبر العصور) أو بحث (مصادر ومناهج التأليف..) في هذا الحقل من تاريخ العقل الإسلامي، أو غير ذلك، الكثير من الدراسات المنتظرة والتي نحن بأمس الحاجة إليها، فإنه لا غنى له من الاطلاع على (معجم ما كتب..) والوقوف على المعلومات الغزيرة التي

احتواها. وكذا الحال بشأن (موسوعة مصادر..) فإنها منبع هام جدا لمن أراد الوقوف على تطورات العقل الإسلامي المعاصر، وأساليب دراسته لإشكاليات الحياة الجديدة التي أفرزتها الحضارة الغربية، ومصادر استيعابه لهذه الحضارة، وطبيعة فهمه لها ولمبادئها ومفاهيمها، ومناهجه في الرد عليها... وذلك كله من خلال مراجعة ما كتبه الإسلاميون أنفسهم. أما (معجم المطبوعات...) فإن من أهم ميزاته أنه كشف وجهاً آخر لإيران يختلف عن الصورة النمطية (المذهبية والسياسية) التي رسخت في أذهان بعضنا، ويمد جسوراً للتقارب بين عقول مثقفي الشعوب الإسلامية عبر الكتاب ونشره وتحقيقه، وليس السياسة وأجندتها المريبة. لقد كان للرفاعي جهد جليل في تشييد هذه الجسور عبر هذا المعجم، بمصاف العديد من الترجمات التي قدمها (منفرداً، وبالاشتراك) لعناوين غاية في الأهمية في تشكيل الثقافة الإيرانية المعاصرة.

ليس في نيتي أن أحوِّل هذه "الشهادة" إلى دراسة عن حياة الرفاعي وفكره وأعماله، ولو فعلت ذلك لخرجت عن الخطة التي رسمتها لها، لكنّي أرغب أن لا تكون مجردة "دعوى"، لا يدعمها شاهد، ولا يبررها دليل. أردتها أن تكون "شهادة" على سيرة فكرية لباحث وليس مجرد شهادة على شخصه، لا سيما وأن علاقتي بالرفاعي بدأت ونمت وترسخت بالتواصل مع تلك السيرة وليس مع شخصه، بالرغم من توقيري الشديد واحترامي الفائق لشخصه، إلا إنني أرى أن المهم في حياة الباحثين ليست شخوصهم وإنما شخصياتهم، هذا إذا فهمنا من الكلمة الأخيرة خصوص ما يميزهم عن الآخرين فكراً وعلماً وثقافة.

أحسب أنني لا أجانب الصواب إذا ما قلت إن خير من يمثل الانطلاقة الحقيقية لمشروع الرفاعي الفكري هو مجلتيه "قضايا إسلامية" و"قضايا إسلامية معاصرة"، فعلى مستوى شخصي بوسعي القول إنهما كانا جزءا لا يتجزأ من الهوية العربية والعراقية لشباب الجالية العراقية في المهجر، ليس في إيران فقط وإنما في أوربا وأستراليا وغيرهما أيضاً. لقد رأى فيهما (لا سيَّما الثانية) الكثيرون عودة حقيقية للمنابع الأصيلة للهوية، وارتباطا بالبيئة الثقافية للعالم العربي وإشكالياتها وأعلامها.

وعلى مستوى آخر، مستوى الرفاعي نفسه، فإنها كانت مستودعه لجميع الأسئلة التي أراد إثارتها، والحض على التفكير بها، ومناقشتها، معتمداً سياسة ذكية تجنبه المواجهة والصدام، وهي سياسة ذات شقين: الأولى الحوار وطرح الأسئلة، والثانية فتحه لمحور "وجهان وقضية". وقد نجح في ذلك أيّما نجاح!

أعود لأختم هذه السطور بإلفات عناية محبي الرفاعي ومتابعيه، والمهتمين بتطور مواقفه الفكرية من الاشكاليات المعاصرة التي يحفل بها واقعنا، إلى أهمية قراءة كتابه

الأخير "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، ففي هذا الكتاب (وهو مجموعة من حوارات أجريت معه، وأوراق قدَّمها في مناسبات عدة في السنوات اللاحقة على عام ٢٠٠٣م) يتضح بنحو لا لبس فيه انحيازه للتحديث والقراءة النقدية للتراث، كما ويدعو فيه بشكل صريح لـ (الاستعانة بمعطيات العلوم والمعارف الحديثة، والتفكير بواسطة كل ما هو متاح في عصرنا، للتحدث عن الإله) والتراث. مع نقد مباشر لمشاريع ومفاهيم لها رواج كبير - ومنذ عقود - في الأوساط الإسلامية، لا سيما السياسية منها، كمفهوم الهوية وأسلمة المعرفة ولاهوت التحرير والدولة الدينية.. وغيرها. قد تبدو هذه المواقف والآراء جديدة، لا بل ومثيرة، على من لا يعرف عن الرفاعي أكثر من صورته كـ"إسلامي سياسي" سابق، أو كـ "أستاذ خبير بمتون التراث"، ولكنها ستبدو متوقعة من كاتب كرّس شطراً واسعاً من حياته لمتابعة إشكاليات الفكر المعاصر، ورأس مجلة من أثرى المجلات الناطقة بالعربية. أما بالنسبة لي، فإن الأمر أبسط من ذلك بمراتب؛ إذ لا يعدو أكثر من مجرد مسألة "توقيت" فحسب.

سأجعل نهاية هذه الشهادة المتواضعة اقتباساً أجده يمثل صلب الرؤية التي يتبناها كتاب "الإنقاذ"، وهي تفصح عن روح كبيرة نحن أحوج ما نكون لها في زمننا هذا، زمن الفوضى والعصبيات والسياسات الانتهازية... يقول الرفاعي فيه:

"إن البشرية اليوم بأمس الحاجة إلى تعزيز النزعة الإنسانية، عبر استيعاب الحياة الروحية الخصبة في الدين، وإحياء التجارب الإيمانية المتنوعة، تلك التجارب التي تمنح أصحابها رؤيا، يصبح فيها العالم ساطعاً، شفيفاً، ممتلئاً بالمعنى. يتخلّق فيها الإنسان بأخلاق الله، وتغدو صفات الله مؤشرات وغايات عظمى لمخلوقاته، يجب أن يكدح الجميع للتماهي معها، والانخراط في مدياتها الرحبة". "إن أدلجة الدين والتشديد على دنيويته يفضي إلى تفريغه من مضمونه الروحي، ويستغرقه في مجالات بعيدة عن العوالم الجوانية الباطنية للإنسان، وبدلاً من أن يعمل على تطهير الباطن، وترسيخ النزعة الإنسانية والمعنوية، وتربية الذوق الفني، ومنح العواطف رقة وشفافية، بدلاً من ذلك يتحول الدين إلى وسيلة للكراهية، وأداة للاحتراب والصراع". "ولكي تبقى جذوة الإيمان متقدة في الأرواح ينبغي أن يتجاوز الإيمان ما تراكم من شروح وتأويلات عبر التاريخ، ويكون إيماناً نقدياً، فالإيمان النقدي هو الذي يتيح لصاحبه مواكبة إيقاع الحياة، والإصغاء إلى الواقع، وما يضج به العالم من استفهامات لا حدود لها. وهو الذي يكسر النرجسية الدينية، والمنطق العقائدي الأحادي".

حفظ الله أبا محمد، وأطال في عمره، وزاده تألّقاً وإبداعاً وإيماناً نقدياً. ❖

الإلهيات الأخلاقية الإسلامية

د. محسن جوادي[١]

لا أتذكر اليوم ولا الشهر ولا حتى السنة التي تعرفت فيها إلى الأستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي، ولكنني أتذكر جيداً تلك الكلمات التي صدع بها في ذلك اللقاء الأول، وقد كان يبدي أسفه بسبب غياب التواصل البناء والمثمر بين المفكرين المعاصرين على ضفتي العالم العربي والإيراني، وكان يبدي رغبته في توفير الأجواء المناسبة للحوار المتبادل بين كلتا الضفتين. كما كان يتحدث بلوعة عن جهل العلماء في العالم الإسلامي بعمق المتغيرات الفكرية في العالم الغربي.

لقد دأب الأستاذ الرفاعي ولسنوات متوالية على بذل الجهود المضنية، من أجل تعريف الباحثين من العرب بالمعطيات الفكرية للباحثين الغربيين والإيرانيين، وقد حقق الكثير من النجاح في هذا السياق. وتكفي نظرة عابرة نلقيها على قائمة الكتب التي أشرف على نشرها، والتي تجاوزت ٢٠٠ كتاباً، في سلاسل متعددة، تهتم بفلسفة الدين والإلهيات الجديدة، وما نشره في مجلته القيمة "قضايا إسلامية معاصرة"، والتي بلغت خمساً وخمسين عددا على مدى سبع عشرة سنة، يكفي ذلك كي ندرك حجم النجاح الذي حققه في الوصول إلى هدفه، المتمثل بتعريف العرب على الفكر المعاصر في العالمين الغربي والإيراني. ومن ناحية أخرى كان للدكتور الرفاعي دور كبير في تعريف المفكرين الإيرانيين المعاصرين بالمفكرين في العالم العربي. إنني والكثير من الطلاب والباحثين الإيرانيين نرى أنفسنا مدينين لجهوده في التعرف إلى المفكرين العرب من أمثال: الدكتور محمد عابد الجابري، وحسن حنفي، وطه عبد الرحمن، ومحمد أركون...وغيرهم.

غير أن توسيع إطار التعاون بين المفكرين في مختلف البلدان يمثل بالنسبة للدكتور الرفاعي هدفا وسيطا، يرمي من ورائه إلى غاية أبعد؛ فقد ذكر في شهادته عند تكريم "الحركة الثقافية بأنطلياس ـ لبنان" له، قائلاً: "تتلخص اهتماماتي في هذه المرحلة من حياتي بـ(إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين).... مهمتي تتمحور حول التدليل على؛ أن الدين ظلّ على الدوام أحد أهم منابع إلهام قيم المحبة والتراحم والتعاطف والشفقة، واحترام كرامة الكائن البشري، مع أني أعترف بما تنوء به مجتمعاتنا من خطابات عاصفة، ومفاهيم مشوهة، تثير التعصبات والكراهيات، والدعوة لقتل الآخر، والنزاعات المسلحة، وما يستتبعها من انقسامات وحروب مزمنة؛ تغذيها على الدوام الجماعات الدينية السلفية"[٢].

(١) أستاذ فلسفة الأخلاق في جامعة قم. تعريب: حسن الهاشمي.

(٢) الرفاعي، عبد الجبار، دعوة الخلاص من نسيان الإنسان، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة السابعة عشرة، العدد: ٥٣ ـ ٥٤، ٢٠١٣، ص ١١.

إن الإنسانية في الدين ـ ويتبعها الإنسان نفسه ـ تعتبر مفهوماً شاملاً وجامعاً يستوعب وجوها مختلفة. يرى الرفاعي أن "الإنسانية في الدين" تعني الرؤية الشاملة للحياة الإنسانية، والاهتمام بمختلف حاجات الإنسان، الأعم من المادية والاجتماعية والمعنوية، وبكلمة واحدة؛ "الاهتمام بكرامة الإنسان في صلب الحياة الدينية".

إن تناسي الإنسان حتى في جوانبه المادية، وما يُعرف في التعاليم الإسلامية بالناحية الطبيعية أو الناسوتية، يؤدي به إلى عدم فهم الدين أو إساءة فهمه، حيث يُفضي إلى تكوين التيارات ذات النزعة القشرية في فهم العرفان، أو ما يصطلح عليه بالرهبانية في الإسلام، الأمر الذي يحول دون الازدهار الشامل والكامل للإنسانية. وإذا استشرى تجاهل الاحتياجات المادية، وانتقل من المستويات الفردية ليغدو ظاهرة اجتماعية، فإن آفات هذا التجاهل ستكون أشد وأكثر وبالا. إذ تتم الإشادة بالفقر والكسل والتخلف غالباً في هذه المجتمعات، بوصفها من الفضائل والمكارم الأخلاقية، وإذا شوهد من يسعى في هذه المجتمعات من أجل رفع المستوى المادي لأنفسهم ولأبناء جلدتهم، فإنه لن ينظر إليهم باحترام وتقدير، بل سيتعرض إلى أصناف الشجب والتقريع! هذا في حين أننا نجد التعاليم الإسلامية تسير على الضد من ذلك التوجه تماماً، إذ نجد الإسلام يشيد بأهمية العمل وبذل الجهد، من أجل تحسين الواقع المعاشي للفرد وغيره من نظرائه في الخلق.

بيد أن الذي يعرض الدين للانحراف وسوء الفهم أكثر من أي شيء آخر ـ دون شك ـ هو تجاهل الأبعاد الروحية والمعنوية للإنسان. فحتى في الناسوت وعالم الطبيعة يكمن هناك شيء من جوهر اللاهوت في وجود الإنسان، يؤدي نسيانه وتجاهله إلى تضييق حياته ويجعلها محدودة الأفق، لذلك يغرق الإنسان في بحر الحروب والنزاعات التي لا تنتهي من أجل الحصول على حطام الدنيا.

من هنا لم يكن ما قام به صدر المتألهين الشيرازي، من اعتباره نسيان الإنسان لذاته اللاهوتية، هو الأصل وأس البؤس والشقاء للإنسان اعتباطيا، ولذلك فإنه يكثر من الشكوى بسبب هذا التجاهل والنسيان، ويرى أن الكثير من المعروفين بالعلم قد ابتلوا بهذه الآفة، ويعزو ضيق آفاقهم ومجافاتهم للعلماء الحقيقيين والعرفاء الربانيين، إلى كونه ثمرة من ثمار نسيانهم وتجاهلهم لأنفسهم[(١)].

وقد روي عن الإمام علي أنه قال:

ـ "من كرمت عليه نفسه، هانت عليه شهواته"[(٢)].

---

(١) صدر الدين محمد الشيرازي، رسالة سه أصل، تصحيح: سيد حسين نصر، انتشارات بنياد حكمت إسلامي صدرا، ص ١٥ ـ ٢٧، ٢٠٠١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٤٤٩.

ـ "من هانت عليه نفسه، لا يرجا خيره"[١].

ـ "من هانت عليه نفسه، فلا تأمن مكره".

ـ "من عرف نفسه، فقد عرف ربه".

إن مثل هذا الشخص سيجد السكينة في نفسه، ويتذوق حلاوة الطمأنينة في وجدانه وروحه وكيانه.

وكما يقول مولانا جلال الدين الرومي؛ إن الكثير من الناس لا يقدرون قيمة الثروة المتمثلة في نفخ الله من روحه في وجودهم؛ وذلك لأن الله قد حباهم بهذه الروح دون أن يقاضيهم ثمنها، ومن حصل على شيء برخص باعه برخص، ولا يأبى الطفل أن يبيع جوهرة بكسرة خبز[٢].

لقد عبر غياث الدين منصور ـ في معرض تأكيده على أهمية العلم والمعرفة من جهة، وعلى العشق والمحبة من جهة أخرى ـ عن قلقه من أن يكون ذلك على حساب ترك الدنيا، وعدم الاهتمام بالاحتياجات المادية. ومن الواضح ـ بطبيعة الحال ـ أن الاهتمام بالماديات يجب أن لا يتجاوز حدود الاعتدال، أو أن يشكل عقبة في طريق بلوغ الكمال العلمي والمعنوي. وإليك نص عبارته: "ثبت بشهادة العقل والشرع أن الإنسان، وإن لم يكن أزلياً، ولكنه أبدي. وعلى الرغم من حمله لوشم الحدوث على جبينه، بيد أن بقاءه سرمدي؛ وعليه إنما يمكن إطلاق الكمال الحقيقي على فضيلة تلازم صاحبها إلى أبد الآباد، وأن لا تعرضها النوازل إلى الفناء والزوال. بل يجب أن تؤدي إلى رفعته وعلوه وسموه وارتقائه وعودته إلى فطرته الأولى، وتستتبع بقاءه الأبدي وسعادته السرمدية. وتختلف أقوال أصحاب النظر والاستدلال، وأصحاب الكشف والحال في ماهية هذا الكمال؛ فمن العقلاء من يرى هذا الكمال متمثلاً بالعقل، ومنهم من يراه متمثلاً بالعشق، ومنهم من يراه متمثلاً في المعرفة، وهناك من يراه متمثلاً بالزهد وترك الدنيا. وأما مذهب منصور فهو القول بجميع ذلك، ولكن بشرط عدم الخروج عن حد الاعتدال"[٣].

يسرنا أن نتقدم بهذا المقال ـ الذي يتحدث عن التناغم والانسجام بين العقل والأخلاق من الزاوية الإيجابية إلى النفس الإنسانية ـ إلى الصديق الأستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي، تعبيراً عن تقديرنا لجهوده القيمة المشكورة.

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول.

(٢) مولانا جلال الدين الرومي، المثنوي، دفتر أول، البيت رقم: ١٧٦٠.

(٣) غياث الدين منصور الدشتكي الشيرازي، أخلاق منصوري (الرسالة الأولى من الوجه الثالث لجام جهان نما)، تصحيح: عبد الرزاق نوراني، معارف، الدورة الثالثة عشرة، العدد الثاني، ١٩٩٧.

الإلهيات الأخلاقية الإسلامية

للأخلاق بوصفها علماً عقلياً، متفرعاً عن الفلسفة والحكمة العملية تاريخاً طويلاً، يمتد إلى العصور الإغريقية. فقد كان سقراط وأفلاطون وأرسطو من الرواد الأوائل الذين نظروا للأخلاق الفلسفية، حيث كانوا يستنبطون الموضوعات الأخلاقية عن طريق التأملات الفلسفية، خاصة المعرفة الفلسفية للنفس. وكانت هذه السُنة الأخلاقية محط اهتمام الباحثين في حقل الأخلاق على الدوام، ولا تزال حتى الآن تعتبر من الموضوعات الأخلاقية، تحت عنوان؛ أخلاق الفضيلة، في حقل فلسفة الأخلاق المعاصرة(١).

وعلى الرغم من وجود من يعارض إقامة الأخلاق على الميتافيزيقا وعلم النفس الفلسفي، بيد أنه ومنذ ظهور الفلسفة الحديثة ـ خاصة منذ عصر ديفيد هيوم ـ نجد هذه المعارضة قد اشتدت، فكانت هناك جهود مكثفة تصب في قطع الارتباط بين الأخلاق وميتافيزيقا علم النفس الفلسفي، ولا زالت هذه الجهود قائمة حتى هذه اللحظة(٢).

تحدث ديفيد هيوم متهكماً على الأنظمة الأخلاقية السابقة عليه، قائلاً: "لم أقرأ نظاماً أخلاقياً حتى هذه اللحظة، إلا وجدت مؤسسه يذهب إلى الاستنتاجات، معتمداً على

---

(١) إن ما يعرف بفلسفة الأخلاق يقابله في الإنجليزية لفظ (Ethics). إن للأخلاق الفلسفية نوعين من المسائل؛ إحداهما: المسائل الملائمة التي هي في حقيقتها دفاع فلسفي عن معيار أو العديد من المعايير للقيم الأخلاقية بمختلف الأسماء والعناوين، ومن بينها: النظرية الأخلاقية أو المدارس الأخلاقية مورد البحث. والثانية: هي التي تخوض في تحليل المفاهيم والأوصاف الأخلاقية، وكيفية وإمكانية المعرفة الأخلاقية وطرق تحصيلها، مما يعرف بمصطلح ما وراء الأخلاق. وإن أغلب الكتب المؤلفة تحت عنوان فلسفة الأخلاق، تبحث غالباً في كلا هذين النوعين من المسائل.

(٢) لا شك في أن ديفيد هيوم يعتبر واحداً من أبرز المعارضين لإمكانية استنتاج وأخذ الأخلاق من بحوث المعرفة الوجودية. ثم واستناداً إلى عبارة معروفة له تطرح دعوى أكثر عمومية، عرفت باسم الفجوة بين الوجوب والوجود. طبقاً لهذه الدعوى لا يمكن لأي مسألة تشتمل على ارتباط أن تشكل مقدمة لاستدلال على جملة مشتملة على محمول جيد أو ملزم. والذين يذهبون إلى هذا الاعتقاد يعرفون حالياً بأصحاب النزعة اللامعرفية، والذين يحيلون الأمر الأخلاقي إلى رغبة الفرد وشعوره، ولا يقبلون بأي ارتباط استنتاجي بين العلم بالأمر الواقع والحكم الأخلاقي أبداً. ولمزيد من البحث العميق بشأن النزعة اللامعرفية، انظر:

- Schroeder, Mark, Non - cognitivism in Ethics, Routledge, 2010.

بالإضافة إلى تشكيك فلاسفة الأخلاق في صحة أصل هذه المسألة، فإنهم يشككون أيضاً في صحة فهم ديفد هيوم وتفسيره أيضاً. لمزيد من الاطلاع، انظر: (جوادي، محسن، مسألة بايد وهست، انتشارات دفتر تبليغات إسلامي، قم، ٢٠٠٠.

الأساليب السائدة ردحاً من الزمن، فيقوم أولا بإثبات وجود الله، ثم ينتقل إلى إظهار النظريات التي تتحدث عن خصائص الإنسان، ولكننا نتفاجئ بعد ذلك بأنه يتحدث عن روابط الوجوب وعدم الوجوب، بدلا من روابط الوجود والعدم"(١).

من الصعب إدراج أخلاق الفضيلة في واحد من فرعي النظريات الأخلاقية المعروفة، أي الاستنتاجية(٢) والوظيفية(٣). إن هذه النظرية إنما ترمي في الأصل إلى إظهار نموذج من الحياة تسمى بـ "eudemonism"(٤) أو فلسفة السعادة، والتي تجعل من الحياة الأخلاقية غاية لتحقيق السعادة، أو ازدهار الطاقات الذاتية للإنسان، ومن هنا تم تصنيفها ضمن النظريات الاستنتاجية. ولكن حيث تشتمل هذه النظرية على فضائل، من قبيل: العفاف والعدالة والحكمة، بوصفها من العناصر الرئيسة في هذا الازدهار، بالإضافة إلى ضرورتها للوصول إلى السعادة، تشتمل على مطلوبية ذاتية، يمكن إدراجها ضمن النظريات الوظيفية أيضاً(٥).

إن الأخلاق الفاضلة الإغريقية، التي ترى ارتباطاً وثيقاً بين الحكمة النظرية، خاصة فيما يتعلق بمعرفة الإنسان، والحكمة العملية، خاصة فيما يتعلق بمعرفة القيم، تعمل على تعريف سعادة الإنسان، التي هي الغاية النهائية لنوع الإنسان، بالالتفات إلى فصله المميز والمتمثل بالقوة الناطقة أو العاقلة على النحو الآتي: "إن السعادة عبارة عن الحياة العقلية التي تحتوي على وجهين؛ أحدهما: الوجه العملي الذي يقوم على أساس العقل، والآخر: الوجه النظري القائم على التأمل والتفكير"(٦).

من هنا فإن الخطوة الأولى التي يتعين على الأخلاق الإغريقية أن تتخذها هي التعريف بالسعادة عن طريق تحديد الفصل المميز للإنسان. إن هذا النهج الذي يعرف في فلسفة الأخلاق الحديثة ببرهان الفعل الخاص، كان له انعكاس كبير على الآثار الأخلاقية للمفكرين المسيحيين والمسلمين طوال القرون المتمادية. ويكفي أن نلقي نظرة على نماذج من الكتب الأخلاقية المعروفة لدى المسلمين، من قبيل: تهذيب الأخلاق وطهارة الأعراق لابن مسكويه، أو الأخلاق الناصرية لنصير الدين الطوسي؛ لندرك تأثير هذا الأسلوب في تعريف السعادة. يقول الطوسي: "وحيث أن هذا النوع ـ الذي سنبدأ به ـ علم، عليك أن تعلم ما هو الخلق الذي

---

(١) انظر: جوادي، محسن، مسأله بايد وهست، ص ٣٠.

(2) Consequentialism.

(3) Deontological Ethics.

(٤) نظرية تجعل من التماس السعادة أساساً للسلوك الأخلاقي. المعرب.

(٥) لقد صرح أرسطو في بداية كتابه المعروف "أخلاق نيقوماخوس" بالمطلوبية الذاتية للفضائل الأخلاقية مراراً، بيد أنه من وجهة نظر الكثير من الشراح، فإنه في الفصل الأخير من الكتاب يدافع بوضوح عن النزعة الغائية، التي تختزل جميع القيم بالتأملات الروحانية (Contemplation).

(6) Aristotle, Nicomacheam ethics, Tr. Terence lrwin, Second edition, 1999, p. 9, 1098a.

تكتسبه النفس الإنسانية، حتى تكون جميع الأفعال التي تصدر عنها بإرادتها جميلة ومحمودة. وبذلك يكون موضوع هذا العلم هو النفس الإنسانية. وحيث أن الأفعال الجميلة والمحمودة أو القبيحة والمذمومة إنما تصدر عنها بحسب إرادتها، وجب أولا التعرف على ماهية النفس الإنسانية، وأين مكمن غايتها وكمالها؟ وما هي قواها التي إن تم توظيفها على الوجه الذي يجب، يتحقق الكمال ويتم الوصول إلى السعادة المنشودة؟ وما هو ذلك الشيء الذي يحول دون الوصول إلى ذلك الكمال، ويؤثر على مجمل التزكية والدس الذي يؤدي إلى الفلاح والخيبة، كما قال عز اسمه ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ❖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ❖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ❖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[١].

إن أكثر مبادئ هذا العلم يرتبط بعلم الطبيعة، ويعود موضع بيانه إلى برهان مسائل ذلك العلم. ولكن حيث أن فائدة هذا العلم أعم من ذلك العلم نفسه، فإن إحالة هذه المقدمات بمجملها إلى ذلك الموضع يؤدي إلى حرمان جمهور الطالبين من هذه الفائدة"[٢].

أما الخطوة التالية في الأخلاق الفاضلة، فتتلخص في العثور على طريق توصل إلى السعادة، أو تفعيل الطاقات الوجودية الخاصة بالإنسان.

وحيث أن الفصل المميز للإنسان وهو القوة الناطقة تشتمل على نشاط مزدوج، فإن سعادة الإنسان تشتمل بدورها على جهتين مختلفتين، وهما: التأمل[٣]، والتدبير[٤].

ومن الواضح أن القوة الناطقة تحتاج في نشاطها إلى سائر القوى الإنسانية الأخرى، من قبيل: القوة الشهوية أو الغضبية أيضاً.

إن التأمل أو النظر يعتبر في الفكر الأرسطي ركناً أساسياً من أركان سعادة الإنسان. وكلما كان هذا الاستغراق في شهود المبادئ الأولية أكبر وأكثر نقاء، كان الفعل الإنساني أكثر شبها بالفعل الإلهي، وكان أجدر بتسمية السعادة. وقد أبدى أرسطو في نهاية كتاب أخلاق نيقوماخوس اهتماماً بالتأمل، حتى يخيل إلى المرء أنه العنصر الوحيد في ضمان السعادة للإنسان، في حين أنه في بداية هذا الكتاب يعطي الدور الأكبر لما أسماه الفضائل الأخلاقية.

تحدث أرسطو عن ازدهار الجانب العملي للقوة الناطقة، تحت عنوان: الفضائل الأخلاقية. وقال بأن القوة الناطقة لو نشطت في الحقل العملي بشكل صحيح، فإن الفضائل

---

(١) الشمس: ٧ ـ ١٠.

(٢) نصير الدين الطوسي، أخلاق ناصري، ص ٤٨.

(3) Contemplation.

(4) Deliberation.

الأخلاقية من قبيل: العفة والشجاعة والحكمة والعدالة في روحه. وإن السعادة إنما هي حصيلة التلاقح بين التأمل (الفضيلة النظرية) والفضائل الأخلاقية.

إن هذا الأسلوب من التعاطي مع الأخلاق يختزن من الجاذبية، بحيث دفع حتى الناقدين المعروفين للفلسفة من أمثال الغزالي، إلى تحسينه والإشادة به. فهو على خلاف منهجه في رد وإنكار اللاهوت اليوناني، لا يعمل على نقد الأفكار الأخلاقية لفلاسفة مثل أرسطو، بل يعمل على الإفادة منها في مؤلفاته الأخلاقية، بالإضافة إلى ذلك فقد صرح في كتابه الشهير: (المنقذ من الضلال) قائلاً: "وأما الخلقية: فجميع كلامهم (فيها) يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها. وإنما أخذوها من كلام الصوفية، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى، وعلى مخالفة الهوى، وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا. وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا بها؛ فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم، توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم. ولقد كان في عصرهم ـ بل في كل عصر ـ جماعة من المتألهين، لا يخلي الله العالم عنهم، فإنهم أوتاد الأرض، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الأرض"[(١)].

وعلى الرغم من احتفاء الفلاسفة والمفكرين المسيحيين بالأخلاق الإغريقية، التي يعود الفضل الأكبر فيها إلى منهج الاستدلال الأخلاقي لأرسطو وأسس ما بعد الطبيعة، من قبيل: وجود الغاية، وتوفر الطاقات الملائمة الكامنة في جبلة الإنسان، للوصول إلى تلك الغاية، إلا أنه ومع حلول العصر الحديث، وانتشار الأفكار المناهضة للتفكير الديني في الغرب، كان أرسطو من بين الذين وجهت إليهم سهام النقد والإنكار، وكان لرؤيته الغائية الحظ الأوفر من هذه السهام[(٢)].

وبعد التخلي عن الميتافيزيقا الغائية لأرسطو، أفل نجم فضائل الأخلاق الإغريقية، التي كانت تقوم على أساسها، وحل محلها مختلف الاتجاهات الأخلاقية في الغرب، وكانت العلامة الفارقة فيها فصل الأخلاق عن ما بعد الطبيعة وخاصة الفلسفة الأرسطية. وعمد بعض المفكرين من أمثال ديفيد هيوم إلى الدفاع عن الأخلاق من خلال التوجه التجريبي، وقام بتبرير القيمة الأخلاقية لأمور من قبيل: العدالة، والجود، على أساس الرغبات والمشاعر والعواطف الخاصة، كالشعور بالتعاطف الموجود لدى الناس.

---

(١) أبي حامد الغزالي، المنقذ من الضلال.

(٢) ولمزيد من الاطلاع على تحديات الحداثة، وخاصة العلم الحديث، لغائية أرسطو، انظر: باربر، إيان، العلم والدين، نقله إلى الفارسية: بهاء الدين خرمشاهي، مركز نشر دانشكاهي.

لو أننا ذهبنا مذهب ماك إنتاير في القول؛ بأن الأركان الثلاثة الرئيسة للأخلاق، والتي كانت تمثل الموروث الفكري للإغريق، عبارة عن: "الماهية الإنسانية غير المتعلمة، والإنسان كما كان يمكنه أن يكون عند إدراكه لغايته، والأحكام الأخلاقية التي تمكنه من الانتقال من حالة إلى حالة"[1]، فعندها سندرك أن هيوم وجميع الفلاسفة المتنورين يسعون إلى رد عنصر أو عدة عناصر من الأخلاق المذكورة.

وأما عمانوئيل كانت، الذي كان يذهب من جهة إلى عدم صوابية مذهب هيوم في قيام الأخلاق على المشاعر والعواطف، وانتقاده الشديد لنظرية الفضائل الإغريقية، لاستنادها إلى ما وراء الطبيعة التقليدية من جهة أخرى، فقد سعى إلى فتح أفق جديد أمام التفكير الأخلاقي.

ذهب كانت إلى القول بأن العقل البشري هو مصدر التشريع الأخلاقي، وقدم معياراً لصياغة الأمر الأخلاقي، يستند فيه إلى الأصول الصورية، من قبيل؛ القابلية على التعميم، وقد كان لهذا القول بعد ذلك تأثيراً كبيراً في عالم الفكر تحت مختلف المسميات، من قبيل: اعتبار أصل الفهم لدى كل فرد من أفراد الإنسانية بوصفه غاية أخلاقية.

ولكن علينا أن لا نغفل عن هذه الحقيقة، وهي أسبقية ظهور التيار الديني على احتدام النزاع بين الفكر الحديث والأخلاق الأرسطية بفترة طويلة جدا. وقد ذهب هذا الاتجاه الديني إلى القول بقيام الأخلاق، لا على الغايات الإنسانية كما ينكشف لعقل الإنسان، وإنما على التعاليم الدينية كما جاءت في الكتب المقدسة (الإنجيل والقرآن).

إن هذا الاتجاه ـ الذي عرف في العالم الغربي بنظرية الأمر الإلهي، وفي العالم الإسلامي بنظرية الأشاعرة ـ يذهب إلى الاعتقاد بأن القوانين الأخلاقية تشبه القوانين الوضعية في كل بلد، من هنا تكون ماهيتها ماهية وضعية[2].

إن القوانين الأخلاقية لما تتمتع به من الشمولية والقداسة لا يمكن تشريعها وجعلها إلا من قبل الله وحده. وقد تم إبلاغ هذه القوانين بواسطة الأنبياء إلى الناس في إطار التعاليم الشرعية. وبالطبع يمكن لبعض تفسيرات نظرية الأمر الإلهي أن تدافع عن الماهية غير الاعتبارية للقوانين الأخلاقية، معتبرة إياها أمراً واقعياً، كتب له الوجود إثر الأوامر والنواهي الإلهية، وتعود هويتها للأمر الإلهي. فهؤلاء لا يرون سعادة الإنسان غاية يدركها العقل،

---

(١) ماك إنتاير، السدير، در بي فضيلت، ص ١٠٧، نقله إلى الفارسية: د. حميد شهرياري ود. محمد علي شمالي، انتشارات سمت، طهران، ٢٠١٢.

(٢) يعرف هذا التفسير للقوانين الحقوقية بالوضعية الحقوقية.

باعتباره طريقا يوصل إليها، وإنما إذا كانت هناك من غاية لسلوك الإنسان يعتبرها الكثير من المؤمنين لأسباب دينية وليست عقلية، فهي تكمن في العبودية والطاعة المحضة للأوامر الإلهية. وقد أخطأ الكثير من الأشاعرة في فهم إمكان المعرفة العقلية للسعادة والفضيلة التي تنتهي إليها، عندما قالوا؛ بأنها تعني عدم ضرورة النبوة[1].

إن مثل هذا الاتجاه في تأصيل الإرادة في الأخلاق يبلغ أحياناً حدودا من التطرف، بحيث لا يبقى أي دور للأفكار العقلية في كشف طرق الخلاص والوصول إلى تحقيق سعادة الإنسان. إن الجمود المفرط على النص، الذي هو معروف في مختلف الأديان، لم ينج منه حتى المسلمون أيضاً، فقد ذهب البعض منهم إلى القول؛ بأن العقل لا يعجز عن إمكان فهم الحد الأدنى من القيم الضرورية للحياة الطيبة فحسب، بل إنه يشكل عقبة كأداء في طريق الفهم الأخلاقي الصحيح أيضاً. ومن هنا اعتبر الوقوف بوجه العقل شعاراً لاستقامة المذهب وصوابية الدين.

بيد أنه، وكما ذهب الكثير من المتكلمين والفلاسفة، فإن القول بإمكان معرفة السعادة والطرق المؤدية لها من قبل العقل البشري لا ينافي حاجة الإنسان إلى الدين والشريعة، وإن القول بالحسن والقبح الذاتي والعقلي، لا يعني إنكار الحسن والقبح الشرعي.

إن الكثير من العلماء المسلمين قاموا منذ باكورة ظهور الأبحاث الكلامية باعتبار العقل رديفا وظهيرا للوحي في حجيته ومرجعيته. بل نجد القرآن الكريم يؤكد على مكانة العقل وقيمة التعقل، علاوة على ذلك نجد الموسوعات الروائية تستهل الكلام بمسائل العقل والعلم وأهميتهما. ففي أصول الكافي وهو من المراجع الروائية المشهورة، حديث قيم يرى التدين وحتى الحياة الأخلاقية رهن بالتعقل، ويراه تابعاً له بنحو من الأنحاء. وربما كان التدبر في هذا الحديث المذكور في بداية كتاب الكافي للشيخ الكليني كافياً في إثبات أهمية العقل في تدين الإنسان وحياته الأخلاقية، وإليك نص هذا الحديث: "علي بن محمد بن سهل بن زياد، عن عمرو بن عثمان، عن مفضل بن صالح، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، عن علي قال: هبط جبرئيل على آدم، فقال: يا آدم إني أمرت أن أخيرك واحدة من ثلاث، فاخترها ودع اثنتين، فقال له آدم: يا جبرئيل،

---

(١) فيما يتعلق بتاريخ نظرية الأمر الإلهي بين اليهود والمسيحيين، انظر:

- Harris، Michael, Divine Command Ethics: Jewish and Christian Perspectives, Routledge (July 23, 2003).

وفيما يتعلق بتاريخ هذه النظرية في العالم الإسلامي، انظر:

Al – Attar, Marian, Islamic Ethics: Divine Command Theory in Arabo – Islamic Thought (Culture and Civilization in the Middle East), Routledge; 1 edition (April 13, 2010).

وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين. فقال آدم: إني قد اخترت العقل. فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه؛ فقالا: يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان. فقال: فشأنكما، وعرج"(١).

كما جاء في صريح هذه الرواية؛ فإن الحياء والدين مقترنان بالعقل. وإن الحياء في النصوص الدينية يمثل الأخلاق. ومن هنا يمكن القول بأن مضمون هذه الرواية يحكي عن التلازم التام بين التدين والحياة الأخلاقية والتعقل. ومفهوم هذا الكلام هو أن العقل إذا انحسر، سينحسر الدين والأخلاق عن دائرة حياة الإنسان أيضاً.

إذا كانت الأخلاق ملازمة للعقل، وجب أن تكون القيم الأخلاقية واقعية. فهي جزء من خصائص هذا العالم، ويمكن للعقل الطبيعي لدى الإنسان أن يتعرف إليها في إطار القوانين الأخلاقية. وإن من التعاليم الرئيسة في أصول الفقه الشيعي هو القول؛ بأن الأحكام الشرعية التي يبدو أن لها ماهية وضعية واعتبارية، من قبيل؛ العبادات والمناسك، بدورها تقوم أيضاً على أساس الملاكات الواقعية والذاتية، دون الاعتبارية والوضعية، ولا يقتصر الأمر في ذلك عندهم على مجرد الأحكام الأخلاقية في الدين.

من هنا فإن الأمر والنهي الإلهي ـ الذي تدعي الأشاعرة قيام القيم الأخلاقية عليه ـ إنما يصدر في واقع الأمر على أساس الملاكات الحقيقية الموجودة في صلب التكوين. وعلى الرغم من أن أكثر الأحكام الشرعية بلحاظ صياغتها اللغوية إنشائية، إلا أن بنيتها تقوم على أمور حقيقية، لذلك تكون لها جهة معرفية. إن تبعية الأحكام الشرعية للملاكات الذاتية تعد واحدة من خصائص منطق استنباط الأحكام الشرعية، أو ما يسمى بأصول الفقه العقلي، والذي يؤدي الالتزام به إلى انعكاسات هامة في الاستنباط الفقهي على المستوى العملي، بل يمكن له أن يلعب دوراً أكبر في حيوية الفقه. ويعرف هذا التوجه في علم الكلام الإسلامي بالحسن والقبح الذاتي، خلافاً لنظرية الحسن والقبح الإلهي ـ الذي تحيل الصفات الأخلاقية من قبيل الحسن والقبيح والصحيح والخطأ إلى الأوامر والنواهي الشرعية ـ الذي يرى أن الخصائص الأخلاقية هي أوصاف وجودية للفعل أو الخلق الإنساني. وإن إحدى الانعكاسات الهامة التي تترتب على مثل هذا التفكير هو أن السلوك الأخلاقي، سواء في الناحية الإلهية، أو في العالم الإنساني يكتسب قطعيته من النظام الأخلاقي القائم في العالم.

بطبيعة الحال فإن ذات هذا النظم الأخلاقي الكامن في صلب الوجود يعد جزءاً من المخطط الشامل الذي أراده الله في عالم الخلق. ترى الأشاعرة عدم إمكان الجمع بين تعيين

(١) الكليني الرازي، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج ١، ص ٢٧، دار الأسوة للطباعة والنشر، إيران، ١٤١٨.

الفعل الإلهي على أساس الأمر الواقع، والتكهن به على أساس إدراك الواقع، وبين بسط يده وإطلاق القدرة عليه، كما هو وارد في الكثير من آيات القرآن، بالإضافة إلى قيام الأدلة العقلية على ذلك، لذلك فإنهم ينكرون ذاتية الصفات الأخلاقية.

في المقابل قام علماء المعتزلة والشيعة بتقديم إجابات شافية لهذا الإشكال، وأثبتوا الحسن والقبح الذاتيين بشكل قاطع. إن التفكيك بين مسألتين ـ يتم الخلط بينهما أحياناً ـ يمكنه أن يساعد على حل عقدة هذا البحث. المسألة الأولى: وجود الصفات الأخلاقية وماهيتها، والتي تعتبر من أبحاث المعرفة الوجودية. والمسألة الأخرى: كيفية علمنا بها أو تبريرها، والتي تعتبر من الأبحاث المعرفية. وإن بحث ذاتية أو إلهية الحسن والقبح يرتبط بكيفية وجود الصفات الأخلاقية. وأما عقلية أو شرعية الحسن والقبح فيرتبط بكيفية معرفة الصفات الأخلاقية. وعلى الرغم من وجود الشك في آراء بعض الفلاسفة، مثل ابن سينا، وما إذا كانوا يدافعون عن ذاتية الحسن والقبح، إلا أنه يبدو أنهم يرون الأمر الأخلاقي بالالتفات إلى الناحية الواقعية موجباً للسعادة أيضاً[1]. وربما كان الأصح أن يقال إن ابن سينا يذهب أيضاً إلى القول بتبعية الأمر الأخلاقي إلى الملاكات الواقعية، إلا أنه ينكر قابلية العقل المحض على معرفتها، وعلى هذا فإنه يؤكد على دور الوحي في فهمها، فيقول: قد يدرك العقل سر الحسن والقبح في الشيء بعد الكشف عنهما من قبل الشارع.

منذ النشأة الأولى لعلم الكلام في المجتمع الإسلامي دأب العلماء المسلمون على إقامة الأدلة الكثيرة في الدفاع عن إمكان الإدراك العقلي للحسن والقبح، وحتى ضرورة إدراك بعضها قبل الالتزام بالنصوص الدينية. وقد صرح علماء، مثل نصير الدين الطوسي بالقول: إن المرء إذا لم يستطع إدراك قبح الكذب بعقله، فكيف يمكنه الاطمئنان إلى صوابية الوحي. إن هؤلاء العلماء يذهبون إلى عدم إمكان الإيمان بالوحي والتعويل على النصوص المقدسة، دون فهم العقل لأسس الحسن والقبح بالنسبة إلى بعض الأمور.

وتحدث العلامة الطباطبائي عن نوع من الهداية العقلية الأخلاقية، التي قد تشكل ـ من خلال النور الطبيعي العقلي لدى الإنسان ـ مقدمة للاستفادة من الهداية القرآنية[2].

كما يشير العلماء المسلمون إلى صفات الله، من قبيل العدل والإحسان أو نفي الظلم ـ الذي يشكل القسم الأعظم من معرفة الله في القرآن ـ ويقولون بأن التفسير الصحيح لمثل

(١) انظر: مقالتنا بشأن ابن سينا، الذي يعد واحدا من الذين أنكروا ـ على ما يبدو ـ الحسن والقبح الذاتي، واعتبروا القضايا المشتملة عليها من القضايا المشهورة. (جوادي، محسن، وابستكي وجودي أخلاق به دين از ديدگاه ابن سينا، در حكمت عملي ابن سينا، تحقيق: محسن جوادي، انتشارات بنياد بو علي سينا، ٢٠١٣.

(٢) العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ١، ص ٤٣ ـ ٤٥، إسماعيليان، ١٣٩٣.

هذه الآيات، بل وإن إمكان التوصيف الأخلاقي لله، إنما هو رهن بقبول الحسن والقبح العقليين. لكنهم يدركون من جهة أخرى أن الاكتفاء بالعقل في فهم الحسن والقبح، والتعويل على معطياته في جميع الأمور لا ينسجم مع حاجة الإنسان إلى الوحي في معرفة الحياة الطيبة. فهل هناك من علماء المسلمين من لم يؤكد على الدور الفريد للوحي في التعريف بسعادة الإنسان وهدايته إلى الطريق المؤدية إلى السعادة القصوى؟ وهل هناك مفكر مسلم لم يؤكد على استحالة هداية الناس دون الاعتماد على التشريع السماوي؟ إن هذا هو البرهان الذي يقيمونه على ضرورة النبوة، ويرون أن لزوم الاستفادة منه لا يأتي من قبل المقتضيات الدينية فحسب، بل وتؤكد عليه حتى مقتضيات العقل الإنساني أيضاً.

وعلى الرغم من أن البعض لاحظ في هذا الكلام رؤية إلى الأمور بعينين مختلفتين، الأمر الذي قد يؤدي أحياناً بالرائي إلى الإصابة بالحول. بيد أن الحقيقة هي أن هذا التشبيه غير موفق؛ فالذي يفهم من التعاليم الإسلامية هو أن الوحي والعقل لا يمثلان عينين مختلفتين يؤديان إلى اختلاف الرؤية، بل إن العقل سراج يزيده الوحي نوراً، ويوسع من دائرة إشعاعه إلى ما لا نهاية. فالوحي لم يأت من أجل إخماد وهج العقل، لكي يتم تعريف التدين في إطار إلغاء وتجاوز العقل والاستدلال، وإنما جاء لتسجير شعلته، فكان لا بد للتدين من أن ينشط في بيئة وحاضنة يمثل العقل قاعدة لها.

لست هنا بصدد دراسة تاريخ الفكر الإسلامي، كي أقيم مدى إصراره على أن فهم الدين يجب أن يكون من خلال التوفيق بين العقل والوحي، وإنما لدي مقترح للمستقبل يمكن تسميته بـ "تأسيس الإلهيات الأخلاقية الإسلامية".

يمكن بيان العناصر الرئيسة للإلهيات الأخلاقية الإسلامية[١]، على النحو الآتي:

١ - إن علم الكلام من العلوم الإسلامية ذات التاريخ العريق، وإن من أهم وظائف هذا العلم هو بيان العقيدة الإلهية، بمعنى الرؤية الشمولية التي يعكسها القرآن عن عالم الوجود ومن ضمنه الإنسان، ويدافع عن صوابية وأصالة هذه الرؤية. ولو أردنا توظيف المصطلحات الفلسفية السائدة، لوجدنا أن علم الكلام يكثر من الخوض في مسائل الحكمة النظرية، ولا يخوض في مسائل الحكمة العملية إلا لماماً. بطبيعة الحال قد نجد في آثار متكلمينا بعض البحوث التي تتجاوز الأمور الأخلاقية، من قبيل: ذاتية أو عقلية الحسن والقبح، أو ماهية التكليف والإلزام الأخلاقي والشرعي، إلا أننا لا نرى فيها بحثاً تفصيلياً ومنسجماً عن تركيبة وبنية القيم الأخلاقية. لذلك تعتبر دائرة القيم الأخلاقية كما رسمت في النص الديني خارجة عن المباحث التقليدية لعلم الكلام.

---

(١) إن عبارة "الكلام الأخلاقي" هي الأنسب لبيان مرادنا، لكننا آثرنا استعمال "الإلهيات الأخلاقية" لكونها أكثر شيوعاً.

لم يتعرض علم الكلام إلى بحث ماهية العدالة أو كيفية السعادة التي يطمح لها الإنسان. ولا يخفى أن المتكلمين المسلمين كانوا على علم بأهمية بحوث القيم الدينية، بل هناك من تعرض إلى هذا النوع من المسائل في كتاباته الأخلاقية أو الفقهية أيضاً.

٢ ـ إن علم الفقه الذي هو من العلوم الأصيلة والعريقة في الإسلام، يتعلق ـ خلافاً لعلم الكلام ـ بمجال القيم الدينية، ويعمل في الحقيقة على تقديم صور عن القيم الدينية في إطار الواجب والحرام أو المكروه والمستحب.

جرى التعبير في التراث الإسلامي عن علم الكلام بالفقه الأكبر، بمعنى أنه يرسم دائرة سماوية لعالم الوجود، تشمل كل شيء بما في ذلك الإنسان نفسه. في حين أن الفقه يقتصر على رسم دائرة الأفق الديني فيما يتعلق بقدرة الإنسان فقط، وذلك فيما يتعلق بحدود الصلاح والطلاح، ومن هنا يسمى بالفقه الأصغر.

وفي الحقيقة إن الذي دعا إلى تسمية علم الكلام بـ "الفقه الأكبر" هو ماهيته التفسيرية التي تسلط ضوءها لتشرح الآفاق القرآنية المطلة على الوجود، وتتولى مهمة الدفاع عنها. ومن خلال هذا البيان ربما أمكن أن نتوقع من الفقه أن تكون له ماهية كلامية، وأن يعمل ـ إلى جانب مهمته الرئيسة في توجيه المؤمنين إلى العمل الصالح ـ على التأسي بعلم الكلام في بيان النظام الأخلاقي لعالم الوجود وبنية القيم التي تسوده، وأن تبادر إلى الدفاع عنه بشكل معقول.

إذا كان الفقه الإسلامي يمثل نموذجاً خاصاً في بيان طبيعة العلاقة التي يجب أن تقوم بين الرجل والمرأة، أو يعمل على بيان مختلف أنواع العقوبات، حيث يصدر الفقيه فتواه من خلال الرجوع إلى الأدلة المقنعة، من قبيل: الآيات والروايات أو العقل، أفلا يمكن بالاستناد إلى ذات الأدلة صياغة مثل هذه الفتوى في شرح وبيان هذه القيم؟! وهذا لا يعني بحال من الأحوال إلغاء وإقصاء للفقه، أو تقليلاً لمكانته وأهميته، وإنما هو نشاط آخر يمكن تسميته مكملاً للفقه. وهذا ما يمكن تسميته بالإلهيات الأخلاقية أو الكلام الأخلاقي.

إن الإلهيات الأخلاقية تعني؛ تنظيم وتنسيق الأخلاق والقيم الكامنة وراء فتاوى الفقهاء. إن الكلام الأخلاقي؛ عبارة عن توظيف الطاقات العقلية والنقلية، من أجل تقديم شرح مستدل للقيم الأخلاقية الدينية، وينظر إليه الكثير من علماء المسلمين بوصفها ملاكات ذاتية وراء الأحكام الشرعية التي يستنبطها الفقيه.

إن الإلهيات الأخلاقية شأنها شأن علم الكلام يمكن أن يكون لها وجه عقلي أو نقلي، بيد أن المهم هو بيان صورة عن عالم القيم الذي نشاهده مقابل فتاوى الفقهاء، لكنه كامن فيما ورائها.

وبطبيعة الحال يمكن لهذه الإلهيات الأخلاقية أحياناً أن تتحول إلى عنصر مؤثر في مسار استنباط الحكم الشرعي من قبل الفقهاء. ويمكن للاهتمام بالملاكات الذاتية والاستفادة منها في مسار الاستنباط أن يعرف في هامش دور العقل في الاجتهاد. ولكن قد يكون لرؤية مصداق من مصاديق القيم في العالم من زاوية القرآن الكريم والروايات (من زاوية الدليل النقلي) تأثير على المسار الفقهي أيضاً.

٣ ـ إن الكلام الأخلاقي الإسلامي علاوة على وجوب استناده إلى نوع من الخلفيات المنبثقة عن فتاوى الفقهاء الكبار، يجب أن يستند قبل كل شيء إلى آيات القرآن والاستفادة من التفاسير. فهل هناك من مصدر للعثور على تفسير أخلاقي لعالم الوجود خير من القرآن. ومن جهة أخرى ينبغي أن يرتبط الكلام الأخلاقي بعلم الكلام الأخلاقي التقليدي ارتباطاً وثيقاً؛ لأن الوجوب ـ خلافاً لما يقوله ديفيد هيوم وأتباعه ـ إنما ينبثق عن الوجود ويرتبط به.

يجب استنباط العناصر الرئيسة في الكلام الأخلاقي من الكلام الإسلامي وتفاسير القرآن الكريم وروايات أئمة أهل البيت. وللأسف الشديد هناك أسباب، منها شيوع التسامح في أدلة السنن، حالت دون أن نشهد علاجاً سندياً شافياً فيما يتعلق بالروايات الأخلاقية، وهذا ما يجب القيام به بوصفه مقدمة للكلام الأخلاقي الإسلامي. ولكن ربما كان أهم أمر يجب أن يتم الاهتمام به فيما يتعلق بالأخلاق هو الأعمال الأخلاقية التي قام بها العلماء المسلمون، والتي تضم دائرة واسعة، تشمل الاتجاهات الفلسفية على نحو ما نراه في مؤلفات الفارابي وابن مسكويه، وحتى الاتجاهات النقلية البحتة من قبيل الكتب المؤلفة تحت عنوان "الأربعون حديثاً"، وكذلك الاتجاهات التلفيقية، كما هو الحال بالنسبة إلى مثل "جامع السعادات"، وهو تراث قيّم يمكن وضعه تحت تصرف المتكلمين في حقل الأخلاق.

٤ ـ يمكن للإلهيات الأخلاقية الإسلامية أن تشكل حتى أرضية للتأسيس إلى منظومة سياسية إسلامية تقوم على أساس من الأخلاق، وأن تعكس الجانب السياسي في التفكير الإسلامي، وأن يكون لها ـ بطبيعة الحال ـ إلى جوار هذا الدور التوجيهي دور تعييني أيضاً، وأن يعمل على إسقاط تلك المؤسسات الاجتماعية والسياسية التي لا تنسجم مع منظومة القيم الأخلاقية الإسلامية.

٥ ـ إن فائدة التأسيس لمثل هذا العلم ـ بالإضافة إلى إظهار الثراء الموجود في الأخلاق الدينية ـ تكمن في إظهار المباني الفقهية والسياسة الإسلامية أيضاً.

ولكن ربما كانت الناحية الأهم لهذا العلم هو أنه يمكن المسلمين في حوارهم مع الآخرين من التعريف بالقيم الأخلاقية في الإسلام والدفاع عنها، استناداً إلى العقل والنقل الصريح، دون حاجة إلى الرجوع إلى فتاوى المجتهدين مباشرة. ❖

الدكتور عبد الجبار الرفاعي وسؤال الإسلام والإنسان

✍ الشيخ محمد محفوظ[١]

في خضم الصراعات والنزاعات الكبرى التي تعاني منها البشرية اليوم. وفي ظل الحروب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تنتاب العديد من مناطق العالم البشري. من الضروري أن نتساءل: كيف لنا في هذا الجو المحموم، أن نبدع ثقافة حوارية، تساهم في تطورنا الروحي والإنساني والحضاري. كيف لنا أن نطور ثقافة البناء والإصلاح في عالم يمور بالنزاعات والحروب.

ونحن حينما نتساءل هذه الأسئلة المحورية، لا نجنح إلى الخيال والتمني، ولا نتجاوز المعطيات الواقعية، وإنما نرى أن الخروج من نفق الحروب والنزاعات ومتوالياتهما النفسية والاجتماعية، لا يتم إلا بتوطيد أركان ثقافة الإصلاح والحوار والتوازن. ولا بد من إدراك أن هذه الثقافة، ليست حلاً سحرياً للمشكلات والأزمات،وإنما هي الخطوة الأولى لعلاج المشكلات بشكل صحيح وسليم.

فالعنف المستشري في حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية، لا يمكن مقابلته بالعنف، لأن هذا يدخل الجميع في أتون العنف ومتوالياته الخطيرة. ولكن نقابله بالمزيد من الحوار والإصلاح في أوضاعنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي تساهم بشكل أو بآخر في تغذية قوافل العنف والقتل والتطرف بالمزيد من الأفكار والتبريرات والمسوغات.

فالاختناقات المجتمعية، تؤدي لا شك إلى بروز حالات من العنف ومظاهر الانحراف والجريمة. وعلاج هذه المظاهر، لا يتم إلا بعلاج البيئة التي أخصبت هذه المظاهر، وهي بيئة مغلقة، تصادمية، تشاؤمية، ذات نسق تعصبي.

فالتعصب يؤدي إلى العنف، والتزمت يفضي إلى الانغلاق والانطواء والانحباس. ولا علاج للعنف إلا بتفكيك نظام وثقافة التعصب، ولا علاج للتزمت إلا بالمزيد من الحوار، ونبذ الأحكام المطلقة، وتأسيس قواعد موضوعية للتعارف الفكري والمعرفي.

وثمة مفكرون، حاولوا أن يقدموا إجاباتهم ومشروعاتهم الفكرية والثقافية حول هذه الأزمات والإشكاليات. ومن هؤلاء الصديق الدكتور عبد الجبار الرفاعي، الذي عمل عبر

---

(١) كاتب من المملكة العربية السعودية. مدير مركز آفاق للدراسات والبحوث في السعودية، ومدير تحرير مجلة الكلمة.

عطاءاته الفكرية المتعددة، وجهوده الإصلاحية المتنوعة، على تقديم رؤيته لمعالجة هذا الواقع المريض بأمراض الاستبداد والتعصب والعنف.

الإسلام والإنسان

وحين التأمل والتعمق في مؤلفات الأستاذ الرفاعي وأبحاثه المتعددة، نجد أن الرفاعي مهموم بهمين أساسيين، وهما: هم الإسلام، وهم الإنسان، بحيث يرى أن الإسلام بالمعنى المعياري هو عبارة عن طاقة روحية وفكرية هائلة، لكن هذه الطاقة لم تمارس فعلها الحضاري في بيئتنا العربية والإسلامية، من جراء مناهج النظر والتفكير ومتواليات ظاهرة الاستبداد، التي سادت المنطقة العربية والإسلامية خلال عقود مديدة، مما أفضى إلى تشوهات فكرية وثقافية ومجتمعية، أدت إلى جمود مجتمعاتنا وغيابها عن المبادرة والفعالية الحضارية. لذلك يعمل الشيخ عبد الجبار الرفاعي في أبحاثه ودراساته على تأهيل فكرة التجديد والتنوير، ويلح على تجاوز المتواليات النفسية والاجتماعية والفكرية لظاهرة التخلف الحضاري، حتى يتسنى لمجتمعاتنا العربية والإسلامية الانطلاق في مشروع النهضة والتقدم. وحتى تستند هذه المجتمعات في مشوارها الحضاري على طاقة الإسلام التحررية والتنويرية. ويوضح الدكتور الرفاعي هذه المسألة بقوله:" أراد القرآن للتوحيد أن يكون صبغة لسائر مرافق حياة الإنسان (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة)، بمعنى أن تفكير الإنسان وفعالياته وسلوكه اليومي يجب أن يصطبغ ويتلون بالتوحيد، حتى تصير كل قضية علمية أو عملية، هي التوحيد قد تلبس بلباسه، وتظهر في زيها، وتنزل في منزلها، فبالتحليل ترجع كل مسألة وقضية إلى التوحيد، وبالتركيب يصيران شيئاً واحداً، لا مجال للتجزئة، ولا للتفريق بينهما. لقد كانت العقيدة التي يستوحيها المسلم من القرآن طاقة تنتج الإيمان، وتوجه السلوك، لأنها تجعل الإيمان معطى عملياً فاعلاً، مفعماً بالحيوية، عبر دمج النظر بالعمل، وعدم الفصل بين الإيمان كحالة وجدانية والسلوك الإنساني، الذي يتجلى من خلاله المحتوى الاجتماعي للتوحيد. غير أن علم الكلام الذي تمت صياغته لاحقاً بالاستناد إلى أدوات المنطق الأرسطي، لم يقتصر على تعميق البعد النظري في العقيدة، بل تجاوزه إلى تفريغ التوحيد من مضمونه العملي، والتعامل مع المعتقدات كمفاهيم ذهنية مجردة لا صلة لها بالواقع"[1]. وفي موضع آخر يقول الدكتور الرفاعي: "ومع أن المسلم أصر على التمسك بالإيمان بالله وبوحدانيته، ولم يتخل عن إيمانه، غير إن هذا الإيمان فقد إشعاعه الاجتماعي، وتجرد من فاعليته، فلم يتجسد في نزوع للوحدة والمؤاخاة في حياة المجتمع المسلم، باعتبار أن عقيدة التوحيد توحد المجتمع، في التصورات، والغايات، والشعور، وأنماط السلوك. وإنما تعرض المجتمع إلى انقسامات شتى، وأمسى جماعات وفرقاً متعددة، أهدرت الكثير من قدرات الأمة

في سجالات أفضت إلى مواقف عدائية، وأقحمت الأمة في حروب أهلية في بعض الفترات. وهكذا يضمحل دور العقيدة، فلا تحول دون اقتتال الأمة الواحدة، ولا تكون منبعاً للوحدة، حين تفرغ من محتواها الاجتماعي"[٢].

وفي هذا السياق يدعو الرفاعي إلى إحياء علم الكلام وتجديده، وتطوير الدرس الحوزوي، وتطوير الفهم الاجتماعي للإسلام، والاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة، وإعطاء أولوية للاجتهاد والإصلاح.

الهم الآخر الذي يبرز في كتابات ومؤلفات عبدالجبار الرفاعي هو: هم الإنسان في وجوده ومصيره وحقوقه ومآلاته. من هنا أعطى أولوية فكرية على هذا الصعيد لتفكيك ظاهرة التعصب والكراهية، لأسباب دينية أو مذهبية أو قومية، ووقف بجرأة ضد كل عمليات القتل والتدمير التي تجري باسم الإسلام وهو بريء منها كامل البراءة.

الإسلام لا يشرع لأي أحد انتهاك حقوق الآخرين أو التعدي على حقوقهم المعنوية والمادية. الإسلام يدعو إلى صيانة حقوق الإنسان المختلف، ويحرم التعدي عليها مهما كانت المبررات والمسوغات. فحياة الإنسان وكرامته مقدسة، ولا يجوز بأي شكل من الأشكال انتهاك هذه الحقوق أو امتهان الكرامة المعنوية والمادية.

لهذا نجد لدى الدكتور الرفاعي اهتماماً بمعالجة ظاهرة التعصب والإرهاب وتفكيك موجباتها الذاتية والموضوعية. فالإنسان يجب أن يحترم ويحمى في وجوده وحقوقه وآراءه وأفكاره. لهذا فإننا نعتبر مشروع الرفاعي الفكري يتجه إلى تطوير مناهج النظر والتفكير في الإسلام، للإفادة من طاقة الإسلام الروحية والحضارية، ومحاربة كل الظواهر الثقافية والتفسيرات الدينية التي تدعو إلى التعصب والإرهاب، وتغطي فعل العنف تجاه المختلف والمغاير. نشر الرفاعي السلسلة المعنونة بـ (ثقافة التسامح)، الصادرة عن مركز دراسات فلسفة الدين، وعرّفها بأنها "تهتم بالتثقيف على التسامح، ونفي الإكراه والكراهية في الدين، وإشاعة العفو، والسلام، والإحسان، والتراحم، والحوار، والحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والمحبة، والصبر، والمداراة، والصفح الجميل، والهجر الجميل، وغير ذلك من مقولات ومعاني اللين، والسماح، واحترام الآخر، والعيش المشترك. والدعوة للحريات وحقوق الإنسان، وتجفيف المنابع التي ترسخ مفاهيم الاستبداد، وتعمل على صياغة نفسية العبيد في المجتمع. ونقد منابع التعصب، ونفي الآخر، والعنف، والتحجر، والقراءة الفاشستية للدين. واكتشاف الأبعاد العقلانية والأخلاقية والإنسانية والجمالية والمعنوية السامية في الدين والتراث".

نشاطات متعددة

الدكتور الرفاعي باحث نشط، يشتغل بفعالية على أكثر من محور ومستوى، فإضافة إلى مجلته الرائدة (قضايا إسلامية معاصرة)، هو أستاذ متميز في الحوزة العلمية للفلسفة وأصول الفقه والفقه، وله دورات تدريسية عديدة في هذه العلوم الحوزوية، إضافة إلى نشاطه الدؤوب في التأليف والبحث والترجمة، فهو من الأوائل الذي أدرك أهمية تجسير العلاقة بين الحياة الثقافية الإيرانية والحياة الثقافية العربية، وله الفضل والسبق في تعريف قراء لغة الضاد بأبحاث ودراسات أهم المفكرين الإيرانيين المعاصرين في علم الكلام والفلسفة والتأويل وفلسفة الدين وفلسفة الفقه والتجديد الديني.

انه بحق وبدون مبالغة مؤسسة ثقافية متكاملة، خدمت المعرفة والثقافة بإمكانات محدودة، وبجهد مستديم ونوعي. يشير الرفاعي في أحد الحوارات الفكرية التي أجريت معه عن نشاطه الثقافي والفكري بقوله: "وقبل صدور مجلة قضايا إسلامية معاصرة كانت هناك مجلة (قضايا إسلامية) قد صدرت لمدة أربع سنوات (١٩٩٤ – ١٩٩٨)، وكانت قضايا إسلامية حولية، ثم تحولت إلى نصف سنوية، أصدرتها بتمويل من الصديق الشيخ مهدي العطار، ثم باشرت بإصدار قضايا إسلامية معاصرة، وقد أكملت المجلة عامها الثامن، وأصدرت بجوار هذه المجلة سلسلة كتاب بعنوان: (سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة) صدر منها حتى الآن ثمانون كتاباً، تعالج نفس الإشكاليات التي تشتغل عليها المجلة. كما أصدرت سلسلة كتب بعنوان (آفاق التجديد) صدر منها خمسة كتب، طبعتها دار الفكر المعاصر في بيروت، كما أصدرت سلسلة كتب مرجعية باسم (المشهد الثقافي في إيران) صدر منها كتابان مرجعيان، الكتاب الأول بعنوان (فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة)، والكتاب الثاني (علم الكلام الجديد وفلسفة الدين)، والآن أصدرت سلسلة بعنوان (فلسفة الدين والكلام الجديد) صدر منها عشرة كتب مرجعية متخصصة، وأسعى لاستيعاب مجموعة من الإسهامات والكتابات في هذه الموضوعات باللغة الفارسية مترجمة إلى العربية أو مدونة باللغة العربية. وكل هذه الأعمال الآن تصدر في إطار مركز قمت بتأسيسه في بغداد وأطلقت عليه اسم (مركز دراسات فلسفة الدين)، وسنعمل على الانتقال بكل الأعمال إلى بغداد إن شاء الله، وسيعتبر المركز بمثابة مظلة تستوعب هذه الجهود"[٣].

وتأتي هذه الاحتفالية بالعطاءات الفكرية والجهود الإصلاحية للأستاذ الرفاعي خلال الأربعة عقود الماضية في زمن عربي عصيب، حيث تتعدد التحديات وتتكالب المشكلات في ظل تحولات كبرى تشهدها المنطقة العربية، وتتصارع فيها جميع القوى من أجل ضمان مصالحها في سياق هذه التحولات والتطورات. تأتي هذه الاحتفالية لكي تقول لنا جميعاً، ومن

مختلف مواقعنا الأيدلوجية والفكرية: أن جميع هذه الأيدلوجيات جاءت من أجل الإنسان وجودا وحقوقا، ولا يصح باسم الدفاع عن الأيديولوجيا أو المشروع الأيديولوجي قتل الإنسان وسحق كرامته. فالاحتفاء بالعطاء الفكري للشيخ الرفاعي، هو بعيداً عن نزعات الانكفاء أو شوائب النرجسية. الرفاعي لم يقدس التراث أو يتجاهله، وإنما حوله إلى مادة وموضوع للمعرفة والتحليل والنقد والمساءلة، كما أنه لم يتعامل مع مكاسب العصر بوصفها خارج سياق اهتمامه واستيعابه، وإنما عمل على التفاعل الخلّاق مع هذه المكاسب، وعمل على إيجاد بيئة ثقافية حاضنة ومتفاعلة مع هذه المنجزات والمكاسب.

الدكتور الرفاعي في هذا السياق جمع بين فضيلتين: فضيلة الفكر وصناعته، إذ أنه أحد أعلام صناعة الفكر والمعرفة الدينية المستنيرة، فهو لم يتوقف خلال العقود الأربعة عن الدرس والتأليف وصناعة الفكر.

والفضيلة الأخرى هو أنه أحد الناشطين الثقافيين المتميزين في الساحة العربية والإسلامية. فإمكاناته الفكرية وموقعه الثقافي الرفيع، لم يحول دون ممارسة النشاط وتأسيس مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) التي تعد أرقى مجلة فكرية راهنة، تعنى بقضايا التجديد الديني والإصلاح الثقافي. ولم يتوقف عند هذا الحد، وإنما توّج هذه الفعالية الفكرية والثقافية بتأسيس مركز فلسفة الدين في بغداد الذي أصدر الكثير من المؤلفات الفكرية الجادة. وعودة سريعة إلى أعداد المجلة وملفاتها وإصدارات المركز المتعددة، يجعلنا نكتشف أن الدكتور الرفاعي من الطاقات الفكرية المتميزة والمستديمة الحيوية والعطاء والفعالية. فهو نموذج للمفكر الذي يعمل على احتضان نخبة، وتوفير إمكانية العطاء والنشر والحضور الثقافي لها.

والرائع على المستوى الشخصي في الدكتور الرفاعي أن إخلاصه للمعرفة والفكر والثقافة، لم يغيب حسه الإنساني الرائع. فلا يغفل عن أصدقاءه يتواصل معهم باستمرار، ويحفهم برعايته، ويبدي عاطفة جياشة تجاههم في غيابهم ومحضرهم.

وبكلمة واحدة فإن الدكتور الرفاعي حمل الإسلام بكل مضامينه الحضارية والتنويرية في عقله، كما يحمل في قلبه كل الحب للإنسان وجوداً ومصيراً. فهو لا يعرف الغل والكره، ولا ينشغل بسفاسف الأمور والقيل والقال، فهو دائم العطاء في البعدين الفكري والإنساني.

المشروع الفكري:

معالم المشروع الفكري للدكتور الرفاعي هي:

١- إثارة الأسئلة الجوهرية والمنهجية عن الفكر الإسلامي المعاصر، والبحث عن إجابات عميقة لهذه الأسئلة.. وذلك من أجل تطوير نظام التفكير لدى المسلمين، كمقدمة

ضرورية لتطوير وتحديث أنظمتهم وقدرتهم على التدبير في حقول السياسة والإدارة والاقتصاد ومجالات الحياة المختلفة.

٢- تطوير إجابات ومنهجيات الاستجابة للتحديات الفكرية والحضارية التي تواجه الإسلام في العصر الحديث. فهو لا يكتفي بطرح أسئلة جوهرية، وإنما يساهم من خلال عطاءاته الفكرية وأبحاثه المتواصلة وجهده الثقافي المستديم في تطوير إجابات المسلمين عن أسئلة عصرهم المتعددة.

٣- العمل على اكتشاف البعد الإنساني العميق الجوهري في الإسلام، وتجليته والتثقيف عليه. لأن عمليات التعصب والعنف والقتل على الهوية التي سادت بعض مناطق العرب والمسلمين خلال الفترة الراهنة، كادت تطمس إنسانية الإسلام، وعملت المجاميع الإرهابية والعنفية والتكفيرية على تصوير الإسلام من خلال أعمالهم وكأنه ضد الإنسان وجوداً ورأياً وحقوقا. لذلك عمل الأستاذ الرفاعي على تفكيك ونقد ظواهر العنف والتعصب وبث الكراهية، وأبرز حقائق التسامح والعدل والمحبة. وصاغ مجموعة من المقولات الإسلامية التي تعزز نزعات التواصل والحوار وحق الاختلاف وضمان حقوق الإنسان.فالاختلاف الأيديولوجي والفكري والسياسي، لا يشرع لأي طرف انتهاك حرمة وكرامة المختلف. وإن استمرار حالة التعصب والعنف ينذر بدخول بلدان العرب والمسلمين في أتون الحروب الداخلية ـ العبثية، التي تدمر جميع المكاسب، وتقضي على كل آمال وممكنات الانعتاق من ربقة الاستبداد والعنف والتعصب.

٤- ربط وخلق التفاعل الحقيقي والجوهري بين الإسلام وقضايا العصر الحقيقية. ولو تأملنا في المنبر الفكري الرائد الذي أسسه ورعاه ولا زال (مجلة قضايا إسلامية معاصرة) لاتّضحت بشكل جلي طبيعة الجهود الفكرية والمنهجية التي يبذلها الدكتور الرفاعي في سبيل تجسير العلاقة بين الإسلام والعصر، وذلك من أجل أن يتمكن الإنسان المسلم من ممارسة دوره الحضاري في إغناء وإثراء الحياة المعاصرة على أكثر من صعيد.

أحسب أن هذه الخطوط الفكرية الأربعة، هي معالم مشروع الدكتور عبد الجبار الرفاعي التي عمل عليها، وصاغ جهده الفكري والمنهجي في سبيلها، وقدم في هذا السياق العديد من العطاءات الفكرية المتميزة، في سبيل الإعلاء من قيمة الإنسان بصرف النظر عن دينه أو قومه أو منبته الأيديولوجي والثقافي.

حق الاختلاف

يبدو من الكثير من المعطيات والوقائع، أن أحد المشكلات المستعصية التي تواجه واقعنا، هي مشكلة النزوع لعدم التمييز بين الإلهي والبشري، مما يفضي إلى نفي حق

الاختلاف.. لهذا يركز الأستاذ الرفاعي على ضرورة "الاجتهاد الكلامي" لضمان حق الاختلاف، وبيان العلاقة المتصورة بين المقدس والحرية. يقول في هذا السياق: "وتتجلى قيمة الاجتهاد الكلامي في إصراره على التمييز بين الإلهي والبشري، بين المقدس وغير المقدس، بين الدين ومعرفة البشر للدين، بين العقيدة وإدراك الإنسان لها، بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني، بين الكتاب الكريم وتفسيره، بين الفقه وفتاوى الفقهاء والشريعة الإلهية. إن الاجتهاد الكلامي يطمح لإحياء نزعة التفكير الحر الذي شدد على الدعوة إليه القرآن في آيات عديدة، ويعمل على اختراق بل تحطيم الأسوار التي وضعها حول العقل أتباع التيار الظاهري وجماعاتهم من السلفيين، حتى باتت دراسة ومناقشة بعض القضايا الكلامية واللاهوتية في الإسلام من المحرمات اليوم، بينما كان يتداولها المتكلمون بالأمس من دون أية قيود أو ممنوعات عقلية، باعتبار التفكير فريضة مكلف بها عامة المسلمين، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة "(٤).

وثمة تصور ورؤية أيدلوجية وفكرية وسياسية، قائمة على ضرورة أن تتحد قناعات الناس وأفكارهم وآراؤهم، حتى يتسنى لهم صناعة التقدم أو الانخراط في مشروع التطور في مجالات الحياة المختلفة. فهي تصورات وآراء، لا تحبذ التنوع والتعدد والاختلاف، وإذا امتلكت القدرة المادية أو السلطة، فإنها تستخدم وسائل قسرية لانجاز مفهوم الوحدة بدحر وإفناء كل حقائق التعدد والتنوع من الفضاء الاجتماعي.

لهذا فإن هذه الأيديولوجيات تعمل بآليات متعددة ومتداخلة، لإنهاء كل مظاهر التعدد والتنوع وذلك لأن فهمها للوحدة قائم وكأنها المعادل الموضوعي للرأي الواحد والموقف الواحد. وهذا بطبيعة الحال مما تأباه نواميس الحياة وحقائق مجتمعاتنا التاريخية والثقافية والواقعية.

فالوحدة لا تساوي بالضرورة، أن تكون كل قناعاتنا ومواقفنا واحدة ومتطابقة في كل شيء. ومن يبحث عن الوحدة بهذا المعنى، فهو أحد حالتين: إما أنه سيصطدم بحقائق التنوع الراسخة في الوجود الاجتماعي والإنساني، مما يجعله يتراجع عن رؤيته الشوفينية والعدمية للوحدة، أو إنه سيمارس القهر والعنف من أجل إنجاز مفهومه للوحدة. ولا ريب أن استخدام وسائل القهر وآليات العنف، في كل التجارب الإنسانية، لا تفضي على الصعيد الواقعي إلى الوحدة الصلبة في الفضاء الاجتماعي والسياسي. بل هي (أي آليات العنف ووسائل القهر) تؤسس لتشظيات وانقسامات عميقة عمودية وأفقية في المجتمع الواحد. ولعل الذي يؤكد هذه الحقيقة هو أن الإنسان أو الجهة التي تستخدم العنف لبناء الوحدة الاجتماعية والسياسية، انها تعيش مفارقة كبرى على هذا الصعيد. فباسم الوحدة يتم تجزئة المجتمع، وباسم الوفاق والأخوة، يتم غرس أخدود عميق بين تعبيرات المجتمع الواحد، وباسم الإتحاد والائتلاف تتعمق أسباب الفرقة والتشرذم في الفضاء الاجتماعي.

فالوحدة بكل مستوياتها، لا تنجز بوسائل عنفية وقهرية، كما أنها لا تتحقق بدحر حقائق التنوع والتعدد، وإنما باحترام هذه الحقائق وضمان حق الاختلاف.

ولعل الخطوة الأولى في هذا السياق، هو عدم ترذيل الاختلاف، وضمان حق الجميع في أن تكون لديهم قناعات وأفكار مختلفة عن قناعاتي وأفكاري.

إننا نعتقد إن ضمان حق الاختلاف بكل مستوياته، هو الخطوة الأولى في بناء مشروع الوحدة الاجتماعية والسياسية على أسس صلبة ومستقرة. ودون ذلك ستبقى الوحدة، من الشعارات المجردة، التي لا تسند بحقائق مجتمعية، تحول الشعار إلى حقيقة راسخة في الوجود الإنساني والاجتماعي. والسؤال المركزي الذي يمكن أن يوضح حقيقة حق الاختلاف من جميع أبعاده هو: كيف نحمي ونضمن حق الاختلاف في مجتمع متعدد ومتنوع على المستويين الأفقي والعمودي.

١- الإيمان العميق بقيمة الحرية وإن من لوازمها الأساسية صيانة حق الاختلاف. فلا يمكن أن يدعي أي إنسان، بأنه يؤمن بالحرية ويعمل على قمع حق الاختلاف. لأن حماية حق الاختلاف هو إحدى الثمار الأساسية لقيمة الحرية.

ويبدو إننا لا يمكن أن نصون قيمة الاختلاف، بدون تعميق قيمة الحرية في الفضاء الاجتماعي والثقافي. فجذر حق الاختلاف، هو أن البشر بنسبيتهم وقصورهم لا يمكنهم أن يدركوا كل الحقائق والمقاصد، وإنما هم يجتهدون ويعملون العقل ويستفرغون جهدهم في سبيل الإدراك والفهم، وعلى قاعدة الاجتهاد وتعدد نتائجه، يتأسس الاختلاف في الفهم والإدراك والقناعات والمواقف، ويبقى هذا الحق مكفولاً للجميع. فالاختلاف مظهر طبيعي في الاجتماع الإنساني، وهو الوجه الآخر لحقيقة التعدد والتنوع. أعني أن التنوع لا بد أن يستدعي الاختلاف ويقتضيه، وهو وجود متحقق سواء من حيث الوجود المادي للإنسان، أو من حيث الفكر والسلوك وأنماط الاستجابة.

ووفق هذا المنظور لا يشكل الاختلاف نقصاً أو عيباً بشرياً يحول دون إنجاز التطلعات الكبرى للإنسان عبر التاريخ، وإنما هو حق أصيل من حقوق الإنسان، ويجد منبعه الرئيسي من قيمة الحرية والقدرة على الاختيار. وإجماع الأمة تاريخياً حول قضايا فكرية أو سياسية وما شابه ذلك، ليس وليد الرأي الواحد، وإنما تحقق الإجماع عن طريق الاختلاف الذي أثرى الواقع، وجعل الآراء المتعددة تتفاعل مع بعضها وتتراكم حتى وصلت الأمة إلى مستوى الإجماع.

والإسلام بكل نظمه وتشريعاته، كفل حق الاختلاف، واعتبره من النواميس الطبيعية، وجعل التسامح والعفو سبيل التعامل بين المختلفين. فحق الاختلاف لا يعني التشريع

للفوضى أو الفردية الضيقة والأنانية، وإنما يعني أن تمارس حريتك على صعيد الفكر والرأي والتعبير، وتتعامل مع الآخرين وفق نهج التسامح والعفو.

فالاختلاف لا يساوي الرذيلة والإثم والخلل، وإنما هو ناموس كوني وجبلة إنسانية. النزاع والخلاف والتشرذم والتفرقة، هي التي تساوي الإثم والخلل. وعلى هذا من الضروري أن نجدد رؤيتنا للاختلاف ونتعامل معه وفق عقلية جديدة، لا ترى فيه إثما ومعصية، وإنما قدرة مفتوحة ومتواصلة لإثراء الحقيقة والواقع.

٢- ما دام من حق الجميع أن يختلف عن غيره، ويعبر عن هذا الاختلاف ضمن وسائل سلمية وحضارية، من الضروري أن نوضح أن الذي ينظم هذه المسألة هو وجود منظومة قانونية متكاملة، توضح الحدود، وتحول دون الافتئات على أحد، أو خلق حالة من الفوضى في المجتمع والوطن الواحد. فسيادة القانون هي ضمانة الجميع للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، دون أن يقود هذا الحق إلى خلق الفوضى في المجتمع.

وعليه فإن حق الاختلاف لا يمكن صيانته وإدارته في إطار اجتماعي، إلا بسيادة القانون الذي يتعامل مع الجميع على قدم المساواة، بدون تحيز لأحد أو تغطية لتصرفات طرف دون بقية الأطراف. فالعلاقة بين حق الاختلاف وسيادة القانون، علاقة عميقة، لأنه لا يمكن ضمان حق الاختلاف على المستويين الاجتماعي والوطني بدون سيادة القانون. والقانون بدون ضمان حق الاختلاف، سيتحول إلى غطاء لتمرير ممارسات وتصرفات لا تنسجم وروح القانون وطبيعة التنوع الذي يحتضنها أي وجود إنساني. والقانون هو الذي يضمن عدم إنتاج العصبيات الدينية والمذهبية والقومية دون أن يفتئت على خصوصياتها.

وجماع القول: إن دولنا ومجتمعاتنا العربية مطالبة بحماية حق الاختلاف وضبطه بمنظومة قانونية وذلك من أجل ضمان الاستقرار السياسي وفق أسس سليمة وعميقة.

أحسب إن ما قيل أعلاه، هو جزء يسير من معالم التجربة الثقافية والفكرية للدكتور الرفاعي، لأن تجربته مليئة بالمضامين المعرفية والعملية التي تستحق التأمل فيها والاستفادة منها. الرفاعي في كل إنتاجه الفكري وجهده الثقافي، يتوخى الدفاع عن الإنسان مطلق الإنسان، ويحلم بمجتمعات عربية وإسلامية متقدمة ومتطورة على قاعدة التسامح والعدالة وحماية الإنسان وجوداً وحقوقاً ورأياً.

الهوامش

١- الدكتور عبد الجبار الرفاعي. مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، ص ٢٣، مركز دراسات فلسفة الدين، دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٥م.
٢- المصدر السابق، ص ٢٣.
٣- المصدر السابق، ص ٢٠٩ – ٢١٠.
٤- المصدر السابق، ص ٥١ – ٥٢. ❖

درس الرفاعي

✍ أحمد عبد الحسين[1]

ليس يسيراً إيجاز الدرس الذي ألقاه علينا أستاذنا د. عبد الجبار الرفاعي وتلخيصه في ورقة واحدة، فهو درس انتشر في مطاوي كتب وأبحاث استغرقتْ عمراً بأكمله، لكني سأعمد إلى إيراد ما تحصل لي شخصياً من فوائد استقيتها من مجمل كتبه، كانت بمثابة "إشارات وتنبيهات" حدثتْ بي إما إلى إعادة ما قرأت لأتعلم، أو إعادة النظر في ما تعلمتُ لأفهم.

منذ أول انشغالي بالتعرف إلى الدين أدركتُ إننا ما أن نتلفظ بكلمة "الإسلام" حتى يكون لدينا من المعاني بقدر ما في حياتنا من قوى مهيمنة سياسياً واجتماعياً، لأن قيمة مفهوم ما إنما تحدده أخيراً القوى التي تستخدمه، والسلطات التي تستثمره، وإذا كان الإسلام عند شريحة واسعة من المؤمنين يتمثل في قيم أخلاقية فهو عند آخرين مدونة فقهية وعند سواهم آلة حكم وسياسة، بينما تراه ثلة منهم نافذة وجدان مطلة على الغيب.

وإذا كان معنى ما من هذه المعاني قد هيمن وأصبح سائداً في فترة ما من الزمن فليس لأن أمراً في صميم الدين وجوهره هو ما رجح هذا المعنى أو جعل له الغلبة، بل لأن معارف الإنسان في هذا الوقت أو ذاك انتهتْ إلى استخلاص هذا الفهم، ثم كيفت كل ما في الدين من نصوص للبرهنة على صدقها و"يقينها".

في كلّ الاتجاهات التي استثمرت الدين كانت المعرفة الإنسانية "المتغيرة أبداً والتي هي في طور الافتراض والإمكان" هي الأساس، هي ما يأتي أولاً، ثم تأتي النصوص المقدسة بوصفها إعدادات أساسية لإخراج المعرفة الإنسانية من تغيّرها بغية جعلها ثابتة، ومن إمكانيتها لجعلها واجبة، ومن اعتباطيتها لجعلها يقينية.

كأنما لم يقدس الإنسان الدينَ إلا لتتقدس معارفه، ولم يعل من شأن الدين إلا لإعلاء شأن فكرته، وهذا عين حاجة الإنسان إلى هوية، لأن الإنسان يريد أن يحيا، لكنه لا يريد أن يحيا كيفما اتفق، بل يريد لحياته وذاته وسائر شؤونه أن يكون لها معنى، وليس أقدر من الدين بشموله ومصدره الغيبيّ وسموّ قيمه على أن يكون ينبوع معانٍ للإنسان الظامئ أبداً إلى معنى.

في عصرنا الحاضر تكاد تكون النسخة الفقهية هي الوحيدة المتاحة من بين نُسخ معاني الدين، وتكريس هذه النسخة وشيوعها وهيمنتها دلائل على أن خللاً ما يسم فهمنا

---

(١) شاعر وناقد عراقي.

للدين. يتأكد إذا ما عرفنا أن هوة كبيرة باتت تفصل الفقه نفسه عن منبته الذي هو علم الكلام. وقد أفرد الدكتور الرفاعي فصلاً في أحد كتبه عن "المرجعيات الكلامية للفقه". كان وافياً لتبيان ان تحت كل مبتنى فقهيّ جذراً معرفياً لاهوتياً، هو الذي يتحكم في توجيه الاستنباط الوجهة التي يتخذها.

لهذا فان تجديد الدين اليوم يعني في المحصلة الأخيرة تجديدَ علم الكلام، بل إنشاء علم كلام جديد، وهي المهمة التي انتدب أستاذنا الرفاعي نفسه لجعلها أفقاً له ولمن يقرأه.

في كل ما كتبه الرفاعي تنبيه على أن شيوع فهم فقهي للدين أمر ينذر بانسداد أفق المعارف فيه، وهو في سبيل التذكير بسعة الفضاء الدينيّ آثر أن لا يكتفي بنقد الدين (مع انه يصرح بان النقد بوابة التحديث)، بل أن يورد ما يمكن أن يشتمل عليه الدين من معان، وما يختزنه من اقتراحات وجودية، فإذا كان قد بدأ كتابه "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" بفصل قلبيّ أراد منه أن يكون طوافاً في حضرة مولانا، فلأنه كان يريد أن يبرهن بذكاء على قدرة المسلم على اغتراف ماء صافٍ من ذات الينبوع الذي يغترف منه آخرون أجاجاً، على ما نرى اليوم من تحوّل التفكير الدينيّ إلى آلة كراهية.

اقتراح الدرس العرفانيّ وقبوله كان ملمحاً لتجديد الرفاعي، كما كان أيضاً ملمحاً من ملامح التجديد لدى كلّ من سروش وشبستري وملكيان وسواهم، لكنّ الرفاعي في كتبه ينثر حزمة اقتراحات، ليؤكد أن النسخة الفقهية للدين مثلها مثل نسخة "لاهوت التحرير"، التي تُكرّس اليوم بفضل ظروف سياسية معروفة، ليست خياراً وحيداً أو قدراً محتوماً، فبالإضافة إلى تأكيده على أهمية الدرس العرفاني، هناك أيضاً درس أخلاقي كبير بدلالة عنوان كتابه "إنقاذ النزعة الإنسانية"، ثم في محاولته كشف الطارئ والاعتباطي الذي قد يكون مؤسساً لمدونات الفقهاء، كما كشفه عن السياقات التأريخية لمسيرة المؤسسات الدينية في الحواضر الإسلامية.

كل ذلك كان كفيلاً بإيضاح ان ما هو دينيّ لا يمكن أن يفهم إلا كمعرفة، أي كمعطى إنسانيّ، وان المعارف المكونة لما يمكن أن نسميه دينياً ليست دينية بالضرورة، فالمنطق والفلسفة وسائر العلوم الإنسانية الأخرى كانت التربة التي نبتت فيها منظومة "العلوم الإسلامية" من فقه وأصول فقه وتفسير وعلوم حديث.

هل يمكن أن نرى في كل ذلك إزالة للحواجز بين حدي (ديني - إنساني)؟

أزعم أن ذلك المعطى حاضر في كل ما كتب الرفاعي، بل هو حاضر بصورة ملموسة وأكيدة في شخصه أيضاً، في إتقانه فنّ الإصغاء بأعمق معانيه، وفي تقبله للآخر، وهو ذات تقبله الصور الواردة على قلبه عملاً بوصية الشيخ الأكبر ابن عربي.

لم أطمح أن أوجز درس الرفاعي، لكني أردت إيضاح حقيقة إن درسه علمني الكثير. ❖

الرفاعـي والجمـع بين العرفانين النظري والعملي

✍ حسن العمري[١]

لا أستطيع أن أقدم شهادة باردة حول عبد الجبار الرفاعي، وأنا مَن ذاق طعم أبويته وأخوته وأستاذيته، ومَن ذاق عرف ومَن عرف غرف. فللرفاعي أيادٍ بيضاء عليّ. وقد غرفتُ من أخلاقه ومعرفته الكثير، وقد أترك الشهادات الفكرية المحضة عن الرفاعي لغيري، فقد خبرتُ عرفانه العملي قبل عرفانه النظري، وذلفت شخصيته الفكرية من هذا الباب الواسع.

نشأتُ في فضاء يلفه رهبة السؤال، خاصة السؤال المعرفي. وحينما دخلت الجامعة في نهاية الثمانينات كانت الحالة السائدة بين المثقفين والأساتذة: إضفاء الهالة على أنفسهم، وإشعار الطرف المقابل أنه لاشيء؛ فكانت ظاهرة المثقف تعني لي حالة ازدراء للمجتمع وللأقران. وعندما التقيت بأستاذي عبدالجبار الرفاعي في قم تجلت لي شخصية إنسانية استطاعت تجشم عناء السير التكاملي في تشييد مداميك روحها، شخصية مفارِقة للخلفية التي جئت منها، فكانت شرارة العلاقة التي لم تنقطع منذ ١٩٩٩ إلى الآن. كان أول ما لفتني أن الرفاعي لا يحيط نفسه بهالة قداسة، ولا هيبة مزعومة، ولا استبداد معرفي. وكانت أخلاقه الشخصية مدخلاً للإطلال على مشروعه القائم على التعايش والتسامح، فالرفاعي بلغة أهل العرفان كان يجمع بين العرفان العملي والعرفان النظري، وكان عرفانه العملي مدخلاً لعرفانه النظري بالنسبة لي. كنت بحاجة إلى معرفة الرفاعي "ابن العرب" في بلاد فيها الفتى العربي غريب الوجه واليد واللسان، فإن تبددت غربة اللسان عني، بقيت تيْنك الغربتيْن حاضرتين، فلم يبددهما لي كالرفاعي. فقد غاص الرفاعي في أعماق الثقافة الإيرانية، لكنه ظل بأخلاقه ذاك "القحطاني"، وما أجملها من أخلاق!

في دار الرفاعي وضعت أول لبنة في معمار زواجي، فكان عقد قراني هناك، وكانت أول هدية أتلقاها أنا وزوجتي بهذه المناسبة منه، ومن زوجته الفاضلة انتزال الجبوري، ولا تزال إلى اليوم أغلى هدية، لأنها عكست روحاً أبوية رعائية عز نظيرها في غربتنا. ومازلنا أنا وزوجتي نتفيأ ظلال محبته إلى اليوم، فكلما عققناه بقلة التواصل بادرنا باتصال كأب حنون وأخ مُتَحرّق.

الرفاعي عارف ـ فيلسوف في دولة الفقيه

يتسم الرفاعي بذكاء اجتماعي حاد، وفهم عميق لكُنْه الحياة وقواعدها. ولعل تجربته في الحوزة دليل جلي على ذلك. فأن يجمع الشخص بين شخصية العارف – الفيلسوف

(١) كاتب أردني، ماجستير فلسفة إسلامية.

في حوزة الفقيه ودولته، فمثله كمثل مَن يمشي في حقل ألغام بلا خريطة، لكن الرفاعي استطاع رسم تلك الخريطة بذكاء وحنكة وشجاعة، ووطئ ألغامها وأبطل مفاعيلها. وظل كيّسا فطنا؛ فلم يفقد روحه وعقله، ولم يُمكّن الفقيه منه.

رسم الرفاعي للقارئ العربي صورة لإيران، غير تلك الصورة الصاخبة التي نشاهدها في الإعلام المكتظة بشعارات الموت للآخر، فعرّف القارئ العربي بأسئلة المشهد الفكري هناك، المُنكبّة على الحفر في صخور التجربة الدينية المسيّسة، فصار المثقف العربي يعي أن ثمة إيران أخرى تعج بأسئلة الحياة بتنوعاتها، وهو ما يتماهى مع روح الرفاعي.

الرفاعي بين الحج الظاهر والحج الباطن

يُعرَف بين أصدقائه بـ"الحاج الرفاعي"، وإن كان سبب هذه التسمية حجه إلى البيت العتيق، إلا أنه اكتسب هذا اللقب من حجه الدائم الذي لا ينقطع إلى أمهات المعاني وقمم الأسئلة الكبرى. فيدهشك الرفاعي لكثرة ما يسأل، فمشروعه مشروع إنتاج الأسئلة، التي تُعمِل معولها لتُحدِث تصدعا في تكلس الواقع، وتُوجد شقوقاً في جُدُره.

بين الحين والآخر كنت أسمع من الحاج الرفاعي تذمره من عدم جدوى الإنتاج المعرفي في مجتمعاتنا، ولكنني كنت على يقين دائماً أن روح وعقل الرفاعي لا يمكن لهما مغادرة عالم السؤال المعرفي، فحجه إلى هذا العالَم كان حج العاشق وليس حج الفقيه! وما هي أشهر معدودات إلا وتراه عاد حاجّاً وفاض عليك بكتاب، أو مقالة، أو عدد جديد من مجلته، مملوء بالأسئلة التي تنير مساحات اللا مفكر فيه والمسكوت عنه.

براعة الرفاعي في حياكة تجربته

يبدو الرفاعي لمن التقاه مرور الكرام نزقاً لكنه صبور، له جَلَد على نوائب الدهر، وتحمل أعباء الأسئلة الكبرى، ومداراة بيئته التي ترهن المثقف لطقوس وعادات لا تتسق وتحليق روحه وعقله. وكل مَن اقترب منه خبر مدى دقته وظرافة عمله، فكأنه حاك تجربته كحائك السجاد العجمي الذي يقضي السنين الطوال ليدهشنا بمنتَج يُعمّر دهراً.

أخيراً...

أعلم أن شهادتي بأستاذي وصديقي وأخي "أبو محمد" ستبقى عاجزة عن إيفائه حقه علي، لكن هي الكلمات التي تخذلني عن التعبير، فحالي كحال الصوفي الذي قال "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة". ❖

الاحتفاء بالرفاعي هو احتفاء بالعقلانية واحتفاء بالتدين الملهم للتراحم والمحبة والجمال في العالم

✍ هاجر القحطاني[1]

بالنسبة لي فان الكتابة عن الدكتور عبدالجبار الرفاعي هي كتابة عن جزء أساس من تشكل وعيي

بالحياة. إذ على يديه تحسست لأول مرة طريقي إلى دهاليز غير مطروقة في التفكير والشعور تجاه الإنسان، الدين، الفكر، الثقافة والمجتمع.

فلعشر سنوات ثرية منذ منتصف الثمانينات وحتى منتصف التسعينات من القرن الماضي، واكبته في رحلة صيرورة معرفية مستمرة، طبعته دائماً وشكلت علامة فارقة في حضوره الثقافي والفكري.

بدا لي الرفاعي وأنا طفلة عطشى، مثل نهر فكر متدفق حي يزداد عمقه يوماً بعد يوم وشهرا بعد شهر وسنة بعد سنة.

في بيئة مؤدلجة حتى النخاع مثل مدينة قم بعيد الثورة الإسلامية، حيث يرسم لك الشارع والمدرسة والمرئي والمسموع والمكتوب من وسائل الإعلام، صورة ذات لون واحد عن العالم، وعن نفسك وعن الحياة، لوّن الرفاعي مخيلتي "وآخرين غيري من تلامذته المقربين" بألوان من الأفق كثيرة. كان يجلب لي كل ما تقع عليه عيناه من كتب أدب عالمي وعربي، وكان يقول لي اقرأي كل شيء وأي شيء، فهذه العين الحرة وحدها الكفيلة بتمكينك من التفكير المتين.

عن قصد، كان يستفز ذهني بكتب محرمة على المراهقات، وكان يدافع عن ذلك، حين يعترض أحد من رجال العائلة، إنني أخطط لاحتراف الكتابة، ولابد لي من قراءة أمهات الكتب.

على ذلك كانت القراءة بالنسبة له عملاً محترفاً، فيه من العلم وفيه من الفن الكثير، ولم تكن مجرد تيه في الكلمات والكتب، ينتج هذيانا إنشائيا بعد إشباع.

---

(١) المدير التنفيذي للمنبر الدولي للحوار الإسلامي في لندن، ابنة شقيق الرفاعي وتلميذته.

يصف الرفاعي نفسه بالقارئ، وهو بذلك ينحت صفة غير متداولة في المشهد الثقافي العربي، إذ يتم في الغالب تجاوز فعل القراءة إلى ما ينتجه من كتابة "كاتب"، تفكير "مفكر"، وإبداع "مبدع" وغيرها.

لكن الرفاعي، المتسائل دوماً، ليس متيقناً من أي من النتائج، لذلك يتوقف عند القراءة، فهي الفعل الأكيد الذي يمكن أن يكون مرتاح البال بادعائه.

هل هذا تواضع؟ لا يمكن الجزم بذلك. لكن يمكن الجزم انه يعكس خصلة مهمة فيه، قد تكون أرهقته كثيراً، وهي ارتفاع سقف توقعاته من نفسه "ربما من الإنسان عموماً"، وارتفاع سقف معاييره للانجاز، فمن المألوف لي أن أراه منزعجاً، وإن بشكل خفي ومتوار، من إغداق الألقاب جزافاً، ربما لأن تلك الألقاب تفرض حدودا على سقف توقعاته الذي لا يتوقف عن الارتفاع... ربما!

سهرت معه ليالي الشتاء والصيف وهو يبحر بين الكتب في مكتبته، ذائعة الصيت لمن يعرفه، التي توسعت باستمرار، مثل صياد ماهر وعاشق يعود بالثمين من الصيد ويفرزه بشغف عال، ويحدثني عنه باحتفاء نادر. تأكدت لاحقاً حين انطوت سنوات بعد ذلك إن الرفاعي لم ولا تلمع عيناه لشيء كما تلمع لجواهر الفكر. مؤخراً صار يشتكي من فقر البحار التي يغوص فيها رغم مهارته، فأقول له : تلك بحار العرب وما يكتبون أو يترجمون.

بشكل طبيعي ضاق المشهد الفكري والثقافي العربي على تطلعاته ونهمه، ولولا انفتاحه على لغة أخرى هي لغة الفرس لاختنق ربما...

حين كان منهمكاً في الاشتغال على عمله الموسوعي الكبير "معجم ما كُتب عن الرسول وأهل البيت/١٩٩١ ـ ١٩٩٥" الذي صدر في "١٢" اثني عشر مجلداً، كنت أرافقه وهو يبحث ويدقق ويجمع ويصنف، بطريقة تبدو أمام "تقنيات اليوم" بدائية ومضنية للغاية، لكنه كان يشع سعادة وانطلاقاً ومرحاً.

تعلمت منه، من تلك الفترة بالذات، ودون جهد أو تكلف، إن المتعة كل المتعة في التعلم والانجاز، وان كل ما يأتي نتيجة ذلك من مكانة أو مال أو جاه هو خير زائد. وقد حصنتني هذه الخبرة خاصة من تضييع عمري في أعمال لا تضيف لي ما يستحق العناء وساعدتني، وله كل الفضل، في اتخاذ قرارات مصيرية في حياتي، بما يخص توجهاتي الوظيفية.

لكن الحديث عن الرفاعي، وعن تلك المرحلة يظل ناقصاً وغير وفي، إذا تجاوز رفيقة حياته ومعينته الأولى، زوجته الكريمة والسيدة الدافئة "إنتزال الجبوري".

رسمت انتزال الجبوري لنفسها، بشكل يقل نظيره، دوراً بطولياً أحبته وتبنته وتمسكت به، كامرأة متزوجة من رجل باحث، وكأم محبة وحنون.

أمام عيني، كنت أرى سعادة من نوع مختلف، تتحصلها امرأة لنفسها ببذل الجهود ونكران الذات والتضحيات الكبيرة. كان النموذج يستفز نرجسيتي قليلاً، وربما احتجت زمنا قبل التخلص من عبئه على ضميري، وأنا أرشد وأجرب الحياة الزوجية.

نموذجها المشرق ساعد الرفاعي في استقرار عاطفي، كان أشد ما يحتاجه ليبقى قادرا على المواصلة في طريق شاق، وفي ظروف قاسية.

لطالما تصورت إن ذلك كان لحسن حظ الرفاعي في زواجه، غير أنني وعيت بعد ذلك خصلة فيه كانسان ميزته كرجل، فكان إن أغدقت عليه امرأة ذكية وحنون كل ذلك الحب، فإن الرفاعي للقريبين منه، وفيّ جداً، يتابع أصدقاءه وأقرباءه، ويهتم بهم وبشؤونهم، ويعينهم إذا احتاجوا بحرص ورعاية. تمتاز رعايته بحس مرهف، وذكاء حاد، ودفء عال، فهو يدرك جيداً ذلك الخيط الرفيع الفاصل بين التدخل في الشؤون وبين تفقد الأحبة.

يحمي علاقاته بالآخرين بمساحة مقدسة من الخصوصية، له ولهم. وبذلك فرض دائماً إيقاعا ميّزه ووسم إدارته لشبكة متنوعة ومتباينة وواسعة من العلاقات الخاصة والعامة على حد سواء، وجاء هذا الإيقاع متقدماً على فوضى العلاقات في محيطه العراقي بالذات، دون أي يخسر حميميتها. وكثيراً ما لفتت هذه القدرة انتباهي، غير أني أدرك الآن أنها لم تكن تحصيل حاصل، إذ بشكل طبيعي يعكس سلوك الرفاعي غالباً فلسفته عن: الحياة، الإنسان، والدين.

ويبدو لي انه يسعى أن تنسجم أفعاله واختياراته مع هذه الفلسفة المتفلتة دوما من آسار الراكد والمسلّم به والنهائي، الوفية، لكن للتطلع إلى الجمال، والحب، والإبداع.

لذلك ولغيره،

فإن **الاحتفاء بالرفاعي** هو احتفاء بالقراءة، في أمة تتخلف عن الأمم الأخرى بعيداً في مزاولتها كفعل حضاري هام لا غنى عنه.

و**الاحتفاء بالرفاعي** هو احتفاء بالعقلانية، في وسط يطلق العنان لعواطف مشوهة ومرتبكة، بنتها قرون من التجهيل والظلم والفقر والحروب، فترسم حاضراً مضطرباً ومستقبلاً مخيفاً.

والاحتفاء بالرفاعي هو احتفاء بالتدين، باعتباره: "ظمأ انطولوجيا لا يروى، إلا من خلال التواصل مع المطلق"، الذي يجب أن يقود إلى: "إلهام التراحم والمحبة والجمال في العالم"، بدل الدين الذين يتلاعب به "فيعاد تكوينه ويشوه فهمه بتفسير همجي، ينقلب إلى الضد، ويتحول إلى إعصار يبدد كل مسعى إنساني بناء، ويحطم الكثير من معطيات الحياة البشرية ومكاسبها الرائعة عبر التاريخ". نقلاً عنه.

والاحتفاء بالرفاعي هو احتفاء بثقافة التسامح، لا كمنّة من الغالب على المغلوب، بل كقانون أخلاقي لابد منه لازدهار الأمم ونجاح تجربة الإنسان على الأرض.

الاحتفاء بالرفاعي هو احتفاء بالعراقي، الذي جسّر الهوة بين مذاهب المسلمين، دون تكلّف أو دوغما، بل بإيمان عميق بحتمية الالتقاء والحوار، وتجاوز الشكلي من الانتماءات إلى الجوهري منها.

الاحتفاء بالرفاعي هو احتفاء بالعربي، الذي قادته ظروفه إلى الاغتراب في بيئة غير عربية، لكنه لم ينطو على نفسه ولا استلب منها، بل انفتح بها على المختلف والجديد، وعاد بغلة ثمينة فتحت نافذة لقومه على هواء طلق مجاور من الحرية والجرأة في الفكر تم تجاهله، وخسارة إضافاته طويلاً، دون أن يرهن عقله أو إرادته لأي أيديولوجي أو سياسي.

الاحتفاء بالرفاعي هو احتفاء برجل ظل يقرع الأجراس طويلاً دون كلل وملل، بوجه احتقار الإنسان، الاستهانة بالحياة، ونبذ العقل، في وسط انحنت فيه الظهور من تركة الموروث والماضي، والغفلة عن العصر والمستقبل، وهام فيه الفرد في حيرة وضياع، وغرقت فيه المجتمعات في ظلمات القهر والجهل.

والاحتفاء بالرفاعي هو احتفاء بالأمل في الإنسان على هذه البقعة الممتحنة من الأرض، الذي له ولغيره، تظل الشمس تشرق كل يوم.

حررت الشهادة في لندن بتاريخ ٢٠١٣/١/٨



عبد الجبار الرفاعي..
التواطؤ مع العصر

✍ مجاهد أبو الهيل[(١)]

في حوزة قم المقدسة، التي يحكم الدين الكلاسيكي قبضته عليها، وفي منتصف تسعينات القرن الماضي، تعرفت إلى الشيخ عبد الجبار الرفاعي ليس وجها لوجه، وإنما مستمعاً لدروسه، حين كانت " كاسيتات " الدرس الحوزوي لمناهج العلوم الدينية تفتح أذهاننا لالتقاط اكبر قدر ممكن من المعرفة الدينية، إذ تتلمذ على صوته الدافئ اغلب طلبة الحوزة العلمية، لكن المعرفة عن طريق الاستماع لم تكن كافية لرسم ملامح الشيخ الرفاعي الحقيقية؛ التي خلت من اشتراطات رجل الدين التقليدي، فالرفاعي متواطئ مع العصر بشكل لم تعتده المؤسسة الدينية على الإطلاق، رغم انه يمسك بتلابيب التراث، وينهل منه كل عناصره وأدواته، حتى انك تتهمه بهدر الوقت العام حين يعود بك إلى خانات التاريخ الغابر، يحكي أحياناً قصصاً وحكايا غابرة، بطريقة سردية مملة، ليتوصل إلى شاهد أو عبرة يمكن ان يستخلصها من كل هذا السرد، وهذا سر من أسرار عظمة الرفاعي التي لا تتوقف عند زمن دون آخر.

لذلك يجب ان تبحث عن الرفاعي الآخر والحقيقي، وهذا لن تعثر عليه بشكل واضح إلا حينما تكون من أصدقائه، الذين يختارهم هو وبمحض إرادته، غير آبه بكل الفوارق العمرية والطبقية والأيديولوجية.

إن من يحظى بصداقة الدكتور الرفاعي عليه أن يكون جديراً بها، كما عليه أن يكون انتهازياً لالتقاط المعرفة من الرجل، الذي يتميز بالسخاء المعرفي حيال من يصلح أن يكون متلقياً صالحاً، لذا اعد نفسي في غاية الحظوة حينما تعرفت إليه عن قرب، ولا أنسى المفاجأة التي شكلتها لي هذه المعرفة بالرفاعي، الذي كنت قد رسمت له صورة الشيخ المتكرر أمامي في مشاهد يومية في شوارع قم ومدارسها الدينية، والذي ظل قابعاً في ذاكرتي من أزقة النجف وحاراتها يوم كنا نسكن هناك في نهاية الثمانينات، تعرفت إلى عبد الجبار الرفاعي، الذي يعتمر العلم عمامةً، والمعرفة جلباباً، والإنسانية عباءةً بيضاء.

كان حاسر الرأس، إلا من المعرفة، وحليق الذقن لا يشبه رجال الدين، الذين لا يختلف اثنان منهم على أهميته العلمية ومكانته المعرفية، وورعه وتقواه.

وبعد أن رفع الرفاعي كل الحواجز التي كانت تفصلني عنه، وألغى المسافة الزمنية والعلمية والفكرية التي بيننا، أصبحت أتردد على مجلسه كلما سمح لي، وطالما كان يسمح

---

(١) شاعر وناقد، ماجستير علم اجتماع.

لـي ولأمثـالي أن ننهـل مـن ورده، كـان مجلسه يعـج بأجيـال كـثيرة، ومختلفـة الطبقـات والاتجاهات العلمية والسياسية، وكان من بين هؤلاء طبقة الشباب التي يوليها الرفاعي أهمية ملحوظة؛ لأنه يعول عليها كثيراً، وكنت وزملائي نسير بزهو وغرور لأننا كنا على قرب مفرط منه. كان يوجه قراءتنا، ويرتب خطواتنا نحو التكوين والصيرورة، بعد أن كنا نعاني ارتباك تلك الخطوات، التي كانت موزعة بين التراث وغد الحداثة، التي فتح نافذتها هو في الجدران الكونكريتية للحوزة العلمية.

في ليلة من ليالي قم، قادني الحظ إلى أن أكون شاهداً على أسوأ ليلة في حياة الدكتور عبد الجبار الرفاعي، حينما دخلت عليه، وجدت في مكتبته رجلاً يدون أسماء الكتب، ليقوم بتقييم ثمنها، ومن ثم نقلها إلى سوق الكتب ليبيعها، وكانت روح الرفاعي تخرج من بدنه كتاباً كتاباً، وآهة آهة، إذ كانت حسراته بعدد الكتب الكثيرة الموزعة فوق الرفوف المصنفة موضوعياً.. لقد باع الدكتور الرفاعي اصدق مكتبة مع قارئها على مر العصور، لكي يواصل مشروعه المعرفي "قضايا إسلامية معاصرة"، إذ كان وما يزال يشكل أكبر وأهم مشروع لتحديث التفكير الديني في العالمين العربي والإسلامي.

كانت مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" في بداية صدورها، ولم تبلغ أعدادها عدد أصابع اليد الواحدة، لكنها اجتازت مرحلة الاختبار بامتياز، وهذا ما جعل الرفاعي ينتصر لها على مكتبته الأم التي باعها بطريقة حزينة، لا تشبه بيع المكتبات التي تشبهها في شارع المتنبي ببغداد.

لم يهتم رجل دين أو سياسة في المنافي التي عاشها العراقيون بالشباب مثلما فعله الدكتور الرفاعي، ولا أبالغ لو قلت أن بصمته واضحة على كل الجيل الذي يحمل هموم الفكر والثقافة في العراق، وبعض الدول العربية والإسلامية.

لا أنسى يوم استكتبنا أنا ومجموعة من الشباب، مثل سرمد الطائي وعلي المدن وعبد اللطيف الحرز وآخرين في مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، ووضع أسماءنا مع أسماء كبيرة مثل؛ حسن حنفي وحسن الترابي ومجتهد شبستري وكثيرين، ولم تكن المجلة بحاجة إلى أسمائنا، وهي مليئة بهذه الأسماء الكبيرة، لكنه أراد لنا أن نكون كباراً في وقت مبكر من حياتنا الفكرية، من خلال منحنا هذه الفرصة التي لا تتاح لنا لولاه.

عبد الجبار الرفاعي الشيخ والأكاديمي، المفكر الإنسان فتح أذهاننا للمعرفة، مع المحافظة على جذور التراث في أعماقنا، وأوقد لنا درب الحداثة والمعاصرة، حينما أشعل لنا كل زوايا النفق المعتم الذي كدنا أن نضيع فيه.

تحية خالدة للدكتور الرفاعي الذي كلما ابتعد عن الأضواء زاد إشراقاً وحضوراً. ❖

التواصل والتجديد المعرفـي فــي مشروع عبد الجبار الرفاعي

✍ د. لقاء موسى فنجان[1]

ارتبطت سنوات الدراسة الجامعية أعوام التسعينات من القرن الماضي بالبحث عن يقين والتنقيب عن قناعة، تتوافق مع الروح والعقل، لتجعل منهما وحدة متماسكة. كنا أنا وزملائي نتلمس دروب المعرفة الدينية، ونواضب على الجديد منها، مفندين آراء العلماء القدماء والمحدثين، كنا نرى في عملنا هذا نوعاً من الجهاد ضد الدكتاتورية والقمع، الذي سحق شبابنا وحياتنا، حتى ما كنا نرى لأيامنا طعماً يذكر.

فكانت كتابات الدكتور عبد الجبار الرفاعي، وبعض النسخ المصورة من مجلة قضايا إسلامية معاصرة تصلنا، كنا نقلبها ونقرأها بشغف من أرهقته الدراسات الدينية التقليدية المعتمدة على الهدف والمضمون، بينما وجدنا في كتابات الرفاعي ومجلة قضايا إسلامية معاصرة أضواء كاشفة، ذات طابع نقدي، تهدف إلى إنتاج معرفة أو معارف أكثر دقة. كنا نبحث عن كتابات تفرق بين التجربة الإسلامية القديمة والتجارب الحديثة. فالإسلام لا يزال حياً بل شديد الحياة، لكن ينبغي التفرقة القاطعة بين التجربة القديمة لأمتنا مع الإسلام، والتجارب الحديثة والحية للمسلمين.

مرت على مغادرتي التلمذة سنوات طويلة، وإذا بي أمام الدكتور عبد الجبار الرفاعي، بصحبة بعض الأصدقاء، بهرني حضوره المفاجئ، فمن الرائع أن تضعنا الصدف الطيبة على مقربة من أناس كنا نعرفهم كتباً وأفكاراً وحسب. ثم تكرر اللقاء، وشرّفني بزيارته منزلي بصحبة عائلته الكريمة. فكان لهدوئه وتسلسل أفكاره تناغماً وأثراً بعيداً في نفسي، فقد تعرفت على جانب آخر من جوانب هذه الشخصية، ففي جلسات العراقيين، التي لا تكاد تخلو من تراشق الأفكار، كان يكتفي بابتسامته، لم يكن يصوب رأياً على آخر، ولم يكن يبدي رأيه، ويكتفي بالاستماع، بعض الأصدقاء كانوا يرون أن هذه طريقة دبلوماسية للحفاظ على علاقاته مع الآخرين، بينما وجدتها

---

(١) كلية التربية للبنات/جامعة بغداد.

طريقة حضارية وتفاعلية، نابعة من ميله الصوفي إلى جوهر الأشياء، فلا خطأ ولا صواب في الأفكار، إنها الروح تميل حيث تجد قناعاتها. وللحقيقة وجوه متعددة، لا يمكن أن نحكم عليها من خلال أنفسنا فقط.

ولو أردت إجمال السبب الذي جعل مشروع الرفاعي أقرب لي وللكثير من زملائي، أمكنني تلخيص ذلك في محورين:

المحور الأول: يتمثل هذا المحور في مقارنة الرفاعي بغيره من رواد الحداثة والاجتهاد والتجديد، والعاملين في حقل الدراسات الدينية. فقد طغى الطابع الأيديولوجي التبليغي والدعوي والإرشادي على أعمال عدد من الدارسين العرب والمسلمين، ممن كنت وزملائي نتتبع أعمالهم ونقرأ لهم، ابتداءً بمحمد خلف الله، والعروي، واركون، والجابري، وحسين مروة، وحسن حنفي، إذ يمكن أن نعد كل هؤلاء تقدميين، لكنهم يملكون أفكاراً شبه ثابتة عن الموروث العربي والإسلامي. فبينما كانت كتاباتهم رائجة في أوساط الشباب آنذاك، كنت أجد بعض القلق من قراءاتهم التأويلية المتحررة، فبقدر ما جعلوا الإسلام وموروثاته في الواجهة، فإنهم كانت لهم تأثيرات اختزالية انتقائية أو نافية.لم تكن فكرة القطيعة المعرفية التي سادت في أجواء التفكير الأكاديمي، تماشيا مع شعار رفعه الحداثيون، وتماشياً مع تدمير البنية المرجعية، وقد أدى تطبيق هذا الشعار بطريقة غير جدلية وغير تاريخانية على التراث، بنحو اختلط الحابل بالنابل، وصار من الصعب جدا التمييز بين النماذج التراثية، التي يمكن مقاطعتها، والنماذج الايجابية التي تساعدنا على بناء حاضرنا ومستقبلنا، وصار من الصعب جداً إزاء نزعة القفز والقطيعة المحمومة التي سادت دراسات الكثير من الباحثين وطلابهم، ومن تأثر بهم من زملائي الأكاديميين، الثقة بالنموذج العقلي الحداثوي التنويري كما يزعمون.

وليس الأمر كذلك في دراسات الدكتور الرفاعي فكتاباته لا تحتوي على نظرة سلبية للموروث الثقافي والفكري الإسلامي بشكل عام. فهو لا يعني في دراساته بالتقييم الأيديولوجي، بل استكشاف وإعادة كتابة التاريخ بشمولية لكن بدقة. وهذا المنحى له آثاره في الخروج من سلبيات الاستشراق الجديدة، والمناحي التفكيكية المخربة، التي كانت تثير ريبتي في دراسات العديد من الباحثين والكتاب.

المحور الثاني: تمثل في شخصه، انه الباحث الذي تتصاعد فيه النزعة الإنسانية، لتتغلب على كل نواحي شخصيته، فلا هو الحوزوي الكلاسيكي، الذي يخلط الأزمنة التاريخية، كباقي النماذج الدعوية الإسلامية الخالصة، التي اعتدنا عليها في رجال الدين،

ولا هو المستشرق البارد المصطنع للمسافات بين الذات والموضوع، بل هو ينتمي إلى الجيل الذي يطمح إلى تجاوز التركيز على جانب واحد من التاريخ العربي الإسلامي، أي الجانب السياسي أو الجانب الاقتصادي أو جانب الأيديولوجيا.

وتكمن أهمية مشروع الرفاعي في التنبيه لدينامية الترابط المنطقي بين العصر الحديث الذي حول الإسلام السائد إلى إسلام تقليدي، والتوظيف السياسي للإسلام الذي يمكن تقسيمه إلى إسلام حركي وإسلام محافظ، والفشل السياسي لحركات الإسلام الإحيائي الذي دفع لظهور الإرهاب. فالعنف الديني نتج من خارج الإطار الديني التقليدي، فالإحيائية الإسلامية الحديثة، وربيبتها الأصولية المعاصرة، نتجت من أمراض الحداثة نفسها، فقضية المجتمعات العربية الإسلامية لا تختزل في صورة مجتمعات متجهة نحو الحداثة، ومؤسسات دينية تشدها إلى الوراء، لان الإصلاح الديني يتطلب جهد مؤسسات قوية وعاملة. ومأزق الإسلام الحديث أن ثمة أشخاص يتحدثون به ويتصارعون لتمثيله، وآخرون يتحدثون عنه، لكن قليلين هم الذين يتحدثون إليه، ويعملون من الداخل بمقتضى مقولاته ومفاهيمه، كي يستجيب لمقتضيات العصر الحديث، كما استجاب في قرونه الأولى لمقتضيات الثقافة الهلنستية السائدة آنذاك. وهنا يكمن مشروع الرفاعي الرائد، مما كان له أثراً كبيراً في الوسط الجامعي وفي جيل من الأكاديميين الذين تأثروا بمشروع الرفاعي، وامتلكوا الحماس للدعوة له، وحفلت موضوعاتهم بالجديد الألصق بالحياة الحاضرة ومشكلاتها وهمومها وطرائق العيش والنجاح فيها.

أهمية الكتابة عن الرفاعي هي ليست إنصاف أحد أبرز المفكرين والمثقفين العراقيين وحسب، بل هي في الإضاءة على إشكاليات الأمة والدولة والتاريخ، وإعادة التفكير فيها من جديد، ومن منظور تاريخي، تميز بالعمق والجدية والرصانة.

❖ ❖ ❖

الدكتور عبد الجبار الرّفاعي
الوفاء المُزدوجْ لروحانية الدّين ومكاسب المعرفة الحداثية

✍ د. عبد الرزاق بلعقروز[١]

في البدء؛ لم أكن أعرف الدّكتور عبد الجبار الرّفاعي إلا من خلال "مجلة قضايا إسلامية معاصرة"، بوصفه رئيساً للتَّحرير وصاحب الامتياز للمجلّة، وكانت الأسئلة التي تملأ قلبي بخصوص هذه المجلّة آنذاك حول المستوى التّحليلي والمنهجي المتميّز الذي تختص به، من حيث طبيعة المشكلات المطروحة، ومن حيث الأسماء العلمية الراقية التي تتبدّى في الغلاف الخارجي للمجلّة، وفي الآن نفسه تملأ ـ أي هذه الأسماء ـ سماء وأرض المعرفة العربية والإسلامية المعاصرة، حيث أن الذّهنية الكامنة خلف هذه المجلة تفكيراً وتحريراً ونشراً، لا يمكن أن تكون ذهنية كتلك التي عهدناها تمارس الحظر المعرفي على مستجدات المعرفة الإنسانية المعاصرة، وتعتبرها أعراضاً أو علامات على فقدان الوجهة السليمة في الدين والحياة، إنّما هي ذهنية تسكنها هواجس التجديد والإصلاح، والعيش في فضاء الاختلاف والاعتراف والتنوُّع، بمعنى غير معهود في فضاء التّنظيرات المعرفية المعاصرة، وهو المعنى الذي تلخّصه عبارة : الوفاء لروحانية الدين ومناهضة المناحي العدمية النّاهمة باجتثاث رموزه وإلغاء قداسته، والوفاء لمستجدات المعرفة الحداثية في فضاء العلوم الإنسانية. وهذه في الحقيقة **إن هي إلا تجلّ لشخصية الدكتور عبد الجبار الرّفاعي المعرفية.**

وفيما بعد تطوّرت الصّلات بيننا، إلى العلاقة المعرفية والأخوية المباشرة، حيث هم الفكر وإرادة المعرفة والتفكير؛ همٌّ مشترك، وقد أعجب الدكتور عبد الجبار الرّفاعي بالعقل الجزائري إعجاباً خاصاً، وشجّع على أهمية تواجد القلم الجزائري في المجلّة، بدءاً بمحمد أركون، وأخيراً بالطلائع الشابة التي أخذت تشقُّ الطّريق نحو فضاء الكونية وفضاء الإنتاجية الفكرية المتميّزة.

إن الدّكتور عبد الجبار الرّفاعي شخصية معرفية فارقة، تقدّر الإبداع مهما كان مأتاه، وتحب الجرأة على استخدام الفكر والرّشد في المعرفة، وفضلاً عن هذا، فهي ـ أي شخصية الدكتور الرّفاعي المعرفية ـ التي أدخلت إلى العالم العربي الإنتاجية المعرفية الإيرانية بهمومها ونزوعها نحو أفق الشوق والإيمان والتجديد الكلامي والتطوير المنهجي، من خلال حواراته وترجماته، فتكوَّن بهذا اشتغال فكري طريف أضاف إلى فضاء التنوُّع في الفكر العربي الإسلامي لوحة جديدة، فاكتملت الصورة بفسيفساء فكرية أخرى تُشعُّ جمالاً وجلالاً.

---

(١) أستاذ الفلسفة في جامعة سطيف في الجزائر.

وفضلاً عن هذا، فقد أدخل " عبد الجبار الرّفاعي" إلى فضاء الكتابة في المجلات طريقة بيداغوجية طريفة، تجلّت في الإكثار من الحوارات في المجلّة "مجلة قضايا إسلامية معاصرة"، وهي حوارت شبيهة بمحاورات أفلاطون، لا تهدف إلى تقرير الحقائق، بقدر ما تهدف إلى استشكالها، وإكساب المتلقي مسلكية بيداغوجية في الفهم لم يَعهدْهاَ في أكثر المجلاّت الأخرى، إنّها طريقة تجمع بين الجمالية: جمالية المحاورة وبين الوظيفة البيداغوجية، حيث يَشْعُر القارئ وكأنه يحاور هذا أو ذاك مباشرة ومن غير وسائط.

إنه نموذج للمثقف الذي يوقضُ فيك قوة النّقد، ومدى الحاجة إلى اختبار الأفكار والمشاريع العربية مهما كان مأتاها، على محكّ النَّقد والتّقليب وعدم التّسليم، وإنّه وفيٌّ لقيم ومناهج البحث العلمي في كتاباته وكتابات "قضايا إسلامية معاصرة"، من جهة أن المقالات العلمية بخاصة التي ترسل للنّشر لا تكتسب قيمتها من مرجعيتها المعرفية، أو من وجاهة شخصيتها، إنما تستمدّها من قدرتها على التفكير والنّقد والإبداع والمساءلة والفحص والإتيان بالجديد.

لقد أدرك الرّفاعي بنظرة ثاقبة مدى أهمية الدّين، وأُعْجبَ بهذا النّمط الإدراكي للعالم، الذي يمنح المعنى للوجود، ويبعث الحياة في نَسْغِ الإنسان الباحث عن معنى لوجوده ومسوغات لحياته، لكن ساءته الأشكال المُتَمظهرة في الواقع، التي اختزلت الدّين ومقاصده العليا الإيمانية إلى نمطية نضالية ضيّقة، تُغلّب لغة الدّعوة والتّبشير على حساب لغة الفهم والمعرفة، فأدرك "الرّفاعي" أن التحدّي الأكبر هو البحث الجينيالوجي، الذي يحفر في أصول هذا التأويل الجزئي للدّين، فوجده في صراع الإرادات السياسية، وهيمنة البُنى القبلية، والأطر الانتمائية الضيّقة، فتحدّدت تبعا لهذا التّشخيص وتبلورت شخصية جديدة للمثقف الدّيني، إنها مهمة النّقد للاستعمالات المشروعة وغير المشروعة للمُمَارسات الدّينية، من زاوية إغنائها للبعد الروحي أم إفقارها له.

وفضلاً عن هذه الجهود، ومن أجل هذه المهمة التي تسعى إلى بلورة فهم آخر للدين، جدّد عبد الجبار الرفاعي المباحث الكلامية، وأدخل مفردة "علم الكلام الجديد" إلى دوائر الاشتغالات الفلسفية الإسلامية المعاصرة، وأرّخ لهذه الحقبة ابتداء من جهود الذين تكونوا تكوينا مزدوجا، أي فهم الحضارة الغربية وفهم الحضارة الإسلامية أيضاً، أمثال : مالك بن نبي ومحمد باقر الصدر وإسماعيل الفاروقي وعلي شريعتي وغيرهم ممن حمل هم التجديد الكلامي، وإسهامات الرفاعي ضمن هذه الدّائرة لا يكابر فيها إلا جاحد أو منكر.

لنقل إذن، ومن دون مواربة، أن الدّكتور عبد الجبار الرفاعي يستأهل مقام التّكريم بكل معانيه ودلالاته وأن يحظى به هذا التكريم، وإنَّ هذه المؤسسة ستحظى أيضاً بتحفة فنية نادرة ضمن رصيدها التَّكريمي.

نشكر للدكتور عبد الجبار الرّفاعي كل إسهاماته، وجعلها الله في ميزان حسناته، ونفع الله بعلمه الأمة الإسلامية والإنسانية برمتها، ودام بكل معاني الجد والاجتهاد والإنجاز.

الجزائر يوم ٢٠١٣/١/٧

ورشة عبد الجبار الرفاعي

✍ د. علي الديري(*)

في النصف الثاني من التسعينيات، وقع بين يدي كتاب (متابعات ثقافية: مراجعات وقراءات نقدية في الثقافة الإسلامية) في طبعته الإيرانية المتواضعة فنياً. لفتتني اللغة الجديدة التي يتكلم بها المؤلف، كنت لحظتها أعيد موضعة ثقافتي الإسلامية الأيديولوجية، كنت مثاراً بالنفس الجديد الذي يحمله الكاتب القادم من وسط ديني، ومثاراً بمحاولة تفسير صدور هذا النفس الجديد من الجمهورية الإسلامية الإيرانية، التي عرفتها بكتبها الإسلامية المحافظة. كتبت مقالة أشيد فيها بالكتاب، ولم أكن حينها أعرف مؤلفه، وظللت أتساءل عنه، حتى زرت إيران في صيف ٢٠٠١. سهّل الصديق السيد كامل الهاشمي مهمة إيصالي بالمؤلف (عبدالجبار الرفاعي) هناك في مدينة قم، المدينة العلمية المحافظة في أطروحاتها الفكرية والدينية، في قلبها كان يسكن الرفاعي. ستكون هذه المفارقة الثانية التي لن يكف الرفاعي عن وضعي في غيرها. سأعتاد لاحقاً هذا التركيب المفارق في سيرته التي تجمع متناقضات لا حد لها، ولعل هذه السمة تكون هي السمة المتفرد بها في شخصيته.

هناك في قم المدينة العلمية الدينية الضاربة في تراثها المحافظ، تعرفت على عبدالجبار الرفاعي، كنت أحمل في داخلي وعيين مركبين، وعي اللحظة التي كنت أحلم فيها بالدراسة الدينية في هذه المدينة/ الحوزة، ووعي لحظة الخروج عليها، والنظر إلى تراثها كشيء من الماضي غير القابل للتجديد، وكشيء معيق لانبثاق أي جديد. أعدت تركيب هذا الوعي لحظة التقائي بالرفاعي. كان العدد ١٥ من مجلته الرائدة (قضايا إسلامية معاصرة) للتو قد صدر، وفيه ترجمة للمرة الأولى لأطروحة عبدالكريم سروش (نظرية القبض والبسط للشريعة)، مع عدة مقالات في نقدها.

شخصية الرفاعي المركبة والأصيلة، ومجلته التي تحمل شخصيته المركبة والأصيلة، أتاحتا لي أن أراجع أفقي المركب حول هذه المدينة وتراثها وإنتاجها.

على مستوى شخصية الرفاعي، ذهلت من أفق وعيه المعاصر، لم يكن ملفقاً ولا مؤلفاً، كان جريئاً في تبني خياراته المنفتحة، من دون الاضطرار لإسباغ قشرة حداثية على متبنيات مغلقة. أقول مغلقة وهي ليست بمعنى قديمة، فهناك في القديم ما هو أكثر حداثة من الحديث.

هذا الطراز نادر الوجود في الأوساط الفكرية الإسلامية، لأن الغالبية تميل إلى التوفيق أو التلفيق أو الملائمة، التي تفقد الجديد فاعليته على التغيير.

(*) كاتب بحريني.

وجدت في الرفاعي فرادة مغايرة، لم أضطر لممارسة التصفية في كلامي، ولا أن أجعل من خطابي على مقاس متبنياته، بسرعة تكتشف أن مساحة الكلام لا حد لها، وبسرعة تكتشف أن الرفاعي عبر كل المسافات.

قبل لقائي بالرفاعي، كنت أشبه باليائس من إمكانية أن يصدر عن الخطاب الإسلامي ما يستحق القراءة، وكنت قد قررت مقاطعة المكتبات التي تتعاطى مع الكتب الإسلامية، فقد وصلت إلى حد التشبع منها، ومن تكرارها وانغلاقها، بل كدت أقتنع من انسداد باب الإبداع داخل هذه الدائرة. صارت صفة (إسلامي) و(إسلامية) تعني لي الجدب والملل والمكرر. بهذا الأفق نظرت في البداية لمجلة الرفاعي (قضايا إسلامية معاصرة)، بل وجدت في استخدام صفة معاصرة تناقضاً فجاً، ولم أخرج من حدّية أفق التوقع هذا إلا بعد أن أوغلت في قراءات القضايا التي تقاربها المجلة بنفس جديد ومعاصر فعلاً.

تعرفت عبر الرفاعي، على علم الكلام الجديد، وتعرفت علي نظرية القبض والبسط، وتعرفت على ساحة الفكر الإيراني وما يعتمل فيها من نقاشات في الفضاء العام.

وهنا لابد أن أقول إن هذه المعرفة مثلت بالنسبة لي تحولاً جديداً في فهم كثير من الجوانب الهامة. فعلى مستوى علم الكلام الجديد، لأول مرة أعثر على معنى حقيقي لهذه الصفة (الجديد) في الخطاب المنبثق من أرضية إسلامية. وذلك لأن علم الكلام الجديد قد أحدث قطيعة بالفعل مع علم الكلام القديم، على عدة مستويات، منها: أنه لم يعد معنياً بإثبات صحة مذهب عقائدي قبال بطلان بقية المذاهب بالمطلق، وهذا المعنى هو الذي أشار له تعريف ابن خلدون: "هو علمٌ يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة، بالأدلّة العقليّة، والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنّة"، ولم يعد معنياً لذلك بإقناع الخصم بصحة المعتقد المذهبي، بقدر ما هو معني بالتبيين والتوضيح لطبيعة المعرفة الدينية وموضوعاتها. كما أنه قطع مع طريقة المحاججات الجدلية التي كان يخوضها المتكلمون، دفاعا عن تصورات مذاهبهم عن صفات الله وأسمائه. الأهم من كل ذلك، أن مرجعية علم الكلام الجديد لم تعد الفلسفة القديمة، ولا المنطق الأرسطي، ولا آليات الجدل القائمة على "قياس الغائب على الشاهد"، لقد استبدل علم الكلام الجديد كل ذلك، بالعلوم الإنسانية الحديثة، صار منفتحا على الانثروبولوجيا والسوسولوجيا، وعلوم تحليل الخطاب... وغيرها. وهذا ما جعله يغادر اليقين المطلق لصالح المعرفة النسبية والظنية والتعددية.

رحت أقرأ علم الكلام القديم، بوعي مغاير، وبفهم أكثر عمقاً لطبيعة إشكالاته، وبتفهم أوسع للخلافات بين المذاهب الكلامية. وجدت المقاربة الجديدة لعلم الكلام، مخرجاً لمآزق الفكر الديني في المجتمعات المعاصرة.

بفضل مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) تعرفت على علم الكلام الجديد، وتعرفت على الحوار الخصب الذي يدور في الثقافة الإيرانية الذي لا يصلنا منه شيء، حتى بدت الثقافة الإيرانية ليس لديها ما تصدره للعالم غير الكتب الدينية المؤدلجة. أتاح لنا الرفاعي عبر نضاله الدؤوب في إصدار هذه المجلة الجادة، فرصة التعرف على عبدالكريم سروش، ومصطفى ملكيان، ومحمد مجتهد شبستري، وداريوش شايغان، وغيرهم من مفكري الثقافة الإيرانية المعاصرة. أتاحت خارطة مفاهيم جديدة للتفكير في الدين من نحو: الأقلي والأكثري، القبض والبسط، المعرفة من الدرجة الأولى والثانية، أفق توقع الفقيه، العقلانية والمعنوية... وغيرها.

شخصياً، مدين للرفاعي، باللغة الواضحة التي تمكنت من خلالها مجلته من تقديم، ليس الساحة الفكرية الإيرانية التي لا نعرفها، بل تقديم الفكر النقدي الحديث مطبقاً في الحقل الديني. المفاهيم التي كنت أقرأها في الخطاب النقدي العربي الحديث من نحو: الهرمنيوطيقا، أفق الانتظار، المسبقات الذهنية، القبليات، الابستمولوجيا... وغيرها. بدت لي ناصعة الوضوح وسهلة الهضم، وبعيدة عن العجمة والتعقيد، بدت خلاف ما كانت عليه في الخطاب النقدي.

الأمر الأهم بالنسبة لي، هو أني وجدت في تجربة (قضايا إسلامية معاصرة) إمكانية فتح حقل جديد في المعرفة، من خلال تطبيق مفاهيم النقد الحديث على الحقل الديني، تطبيقا يحفظ للتجربة الدينية ومعرفتها مكانتها الروحية، من غير أن تحولها إلى مجرد موضوع.

بدا لي الرفاعي وكأنه يقود ورشة عمل تطبيقية في الحقل الديني الذي نعيشه في مجتمعاتنا معايشة يومية. وهذا ما تجده منعكساً في شخصية الرفاعي حين تتعرف عليه، مشغول بصورة دائمة وحية وحيوية وحميمية بهموم ورشته التطبيقية.

إلى أي حد يمكن لهذه الورشة أن تواصل عملها في واقعنا الذي يزداد بؤساً سياسياً يوماً بعد يوم؟ لا أملك جواباً على ذلك، لكني أعرف أن ورشات العمل التنويري في الغرب، لم تشتغل إلا في بيئات مأزومة ومطحونة بالانقسامات الدينية، والاستبدادات السياسية، والبؤس الاجتماعي، وأنها أتت ثمارها لاحقاً، لذلك أجد في ورشة الرفاعي مستقبلاً بحاجة إلى أن نظل نعمل من أجلها. أقول ذلك من منطلق إيماني العميق بأهمية أن نعمل بقلبنا كما يعمل الرفاعي، وأن نعمل على عقلنا كما يعمل الرفاعي.

أحييه أستاذاً ورفيقاً وصديقاً وملهماً وزميلاً...

٢٧ فبراير ٢٠١٣

عبد الجبار الرفاعي:
الإلهيات البيضاء/الدين أنسنة وتمْعين

✍ د. علي الربيعي[١]

الكتابة عن عبد الجبار الرفاعي كشخصية فكرية يعني النظر في قراءة حداثية للدين، وتأويل منفتح على تمعينية إنسانية، روحية، وجدانية، أخلاقية، معيارية، رمزية، نوارنية، ذاتية له. فالإشكالية الأساس التي يدور حولها تفكيره هي تحديث تأويل الدين، تأويل الدين بوجه إنساني، بقصد إجتراح أفق تأويلي جديد لفهم الدين، وهو يواجه عالماً معاصراً معقداً، لا يعيش به الإنسان في بحر من السعادة. ينظر الرفاعي إلى الدين في صلته بالإنساني في سياق العصر، فهو - أيّ الدين يحوي لؤلؤاً في بطن الصدفة، ران عليها طبقات من الزبد.

ليس المقام بحثاً أكاديمياً، ولا تدقيقاً معرفياً، ولا تحقيقا علميا، ولا توثيقاً تاريخياً عن المدارات الكثيرة في مقالة الرفاعي، وهو صاحب مقالة فعلاً، لكننا في مورد الإشارة وبالأمارة إلى محور القضية، قضيته: الدين والتمعين.

أينما ولّيت وجهك قارئاً نصوصاً رفاعية فثمة سؤال كبير تجده في تفكير الرفاعي يدور حوله السؤال المحوري: ماذا يعني أن نفكر في الإسلام راهنا؟ أنه السؤال الذي يوجه رؤيته، والإستراتيجية التي تحدد مسار تطبيق منهجيته. التفكير في الإسلام راهنا عنده يعني العودة إلى البدء بالمعنى الهيدجري، العودة إلى البدايات العظيمة، والذي يعرفها مفكرنا هي أن" يغور في الأعماق، مستلهمة المضامين الروحية الغنية في النص، ومستوحية رؤيته الرمزية، مثلما فعل المتصوفة والعرفاء والفلاسفة الإشراقيون...". العودة للبدايات الخارقة للعصور، والخالقة للأصول.

التفكير في الإسلام اليوم يعني في دلالته - يجده كل متأمل في نصوص الرفاعي - أن ينبجس من أعماق الإسلام نزعة إنسانية تطابق روح العصر، ويتسع نطاقها ليشمل البشر كل البشر بما هم بشر، عابرة لكل محدداتهم ومشروطياتهم الاجتماعية التاريخية. إنها نزعة تتجلى بها القيم الروحية والأخلاقية. من هنا نجده يكتب نصاً تمعينياً بامتياز، عن تجربة ذات تطوف في فضاء مذهب العشق عند مولانا جلال الدين الرومي، الذي يعده - الرفاعي، يفتح الروح على تمعين الوجود بالوصال مع المطلق. واللافت هو أن تمتزج روح الرفاعي بفيض مولانا، فتصير روحه موّارة بدين أهل العشق.

---

(١) أكاديمي وباحث عراقي في جامعة أبيردين البريطانية، مقيم في لندن.

السؤال ماذا يعني الإسلام اليوم؟ يعني عند الرفاعي أن الإسلام يُفهم أولاً، بوصفه يمر بأوضاع تمعينية دائماً في مسار التجربة التاريخية، ولأثر المتلقين باختلاف ظرفياتهم، مما يدفع إلى أهمية الاعتراف بتاريخية ونسبية النتاج الفكري للعقل الإسلامي. من هنا الاختلاف عنده مع كل قراءة استنساخية، قارة على تفسير واحد، ونمط تاريخي ثابت. فالإسلام اليوم، كما تفصح عنه نصوص الرفاعي، زحزحة للمعنى في ثبوت المبنى، لا تتعين حدوده بالتمسك بمقولات الكلام القديم ولا مدارسه المعروفة، ولا حتى مناهج الفقه، عندما يكشف عن ما يسميه: "البنية العميقة والمضمرات والقبليات والمسبقات والمسلمات والمرجعيات الإعتقادية، الثاوية والمستترة في الذهنية الفقهية عند الاستنباط". وأصوله القائمة على آليات النظام المعرفي وعموم المقولات الأخرى الناشئة والمحكومة بحدودها التاريخية.

التفكير في الإسلام عند الرفاعي يأتي أيضاً من موقع رؤية أنسية مغايرة للقائم، مفارقة للحاصل، لا متساوقة مع السائد، وللماضي عائد، تتجاوز طبقات الموروث واستعادته صراطياً، إذ يرى في هذا حسب تعبيره: "استحالة التدين إلى إعصار عاصف يجتاح الحياة، ويحطم كافة المكاسب التمدينية والحضارية والمعرفية للبشرية"، فيبحث عن معرفة مطابقة لروح العصر ومتطلبات الإنسان المعاصر، يقول الرفاعي: "أن تشكيل معرفة دينية موائمة للعصر يتوقف على إعادة بناء لاهوت جديد، أو فلسفة دينية تحدد لنا مكانة الإنسان في العالم، ونمط العلاقة بينه وبين الله، أو حقيقة الدين، وحدوده، ومجالات التدين، وطبيعة الظاهرة الدينية".

إنَ من يتفحص نص الرفاعي يجده مهتما بنقد العقل الدوغمائي/الأرثوذكسي/ اليقيني/ الوثوقي/ الواحدي، من أجل إعلاء أهمية التعددية، واختلاف التأويلات، وحق "صراع التفسيرات " ـ على رأي ريكور ـ، لتعدد فهوم حقيقة الدين. إنَ تَفَكره في/ وبحثه عن تأسيس أرضية فكرية التعددية هو الذي جعله يهتم بفلسفة التأويل. ذلك أن العملية التأويلية تسهم في تقويض واحدية المعنى واحتكار الحقيقة، إنها تخليص للفكر من سلطة التفسير الواحدي والمطابقة التامة بين اللفظ والمعنى، إنها سبيل لانفتاح العقل وتوسيع حدود الفهم، وتجبرنا على الاعتراف بالنسبية وإننا محكومون بالصيرورة التاريخية.

بوصف التأويل، في طيّات أقواله وتصريحات مقالاته، عمليّة معرفية، منهجية، تسهم في تقويض امبريالية المعنى، واحتكار الحقيقة، إنها تخليص للفكر من سلطة التفسير الواحدي والمطابقة، من أجل فسح المجال للزحزحة، واتساع تخوم المعنى وانتشار ظلاله. إنه يعده سبيلا لانفتاح العقل وتوسيع حدود الفهم وتجدده.

إن أحد أبعاد غاية قوله، لا كل الأبعاد، في نصه متعدد الأبعاد، هو أنه لا يوجد من بين البشر مهما علا شأنهم في مسالك التدين من له القدرة أو يدعيها معرفية بُرهانية صارت، أو بيانية كانت، أو عرفانية دارت، أن يؤكد بما لا يدع للشك والريب مجالا أن تصوره عن الدين هو جوهر ذلك الدين المطابق لحقيقته الربانية المطلقة.

ما يشغل وعي الرفاعي هو تحديث فهم الدين في زمن الحداثة، وفي مجريات قراءات نصوصه عن هذا، وتأولها تبرز في ذهن قارئه عديد السؤال لتعدد المقال. الرفاعي كثير المقال وكثيفه في ما يفكر فيه، والتفكير معه - أي سهمياً - كما ينصحنا الطالبي بوصف السهمية منهجاً - أي الانطلاق من نصه كأساس للتفكير، وقاعدة تضبط البنية المعرفية للتفكير، واتجاه مسار سهم التفكير معه، تستثير أسئلة متجددة، تنبثق من نصوصه. هي مثلاً: ماذا تعني الحداثة في سياق فهم الدين تحديداً في فكر الرفاعي؟ ماذا تعني العقلانية الدينية، بوصف العقلانية مقوماً أساسياً للحداثة؟ ما هو نمط العلاقة بين مذهب العشق الموّار في قلب الرفاعي والعقلانية الحداثية في صلتها بالدين معاصرا؟

يرى الرفاعي في التعددية نقدا للذهنية السلفية، التي تزعم العودة لإسلام "أصيل، نقي"، عابر للعصور لكنها - السلفية - في حقيقتها تسجنه، تسيجه، تحبس داله بمدلول عصر بعينه، مما يفقد الإسلام "إسلامها" قدرة أن يفيض بمعنى يتعدد بتعدد الاجتماع وتاريخه، واختلاف حاجات الوجدان في كل عصر. يكتب الرفاعي: "إن التفسير الفظ الساذج يفترض وجود فهم واحد للنص، هو الفهم الذي قالت به الجماعة الأولى من السلف، ولا يحتمل النص أي تأويل أو تفسير يخرج عن ذلك الفهم، ويعلن رؤية مغايرة له، ذلك أن مواقف وفهم السلف تمثل المشروعية المقدسة".

أن من يقرأ نص الرفاعي يجده يعطي للدين وظيفة إنتاج المعنى، الدين يفيض على الذات معنى، فيتحد الذاتي/ الرمزي، ودور تنوير المنير، إضاءة المظلم من حياة الإنسان، وكشف الجمال في الوجود؛ فالدين يملأ روح الإنسان بالمبادئ الرفيعة التي تدفعه إلى مواصلة الحياة بكل علاقاتها أبعادها، أي أنه يقدم له معنى لحياته ووجوده؛ كذلك يقدم جهازي تفسير وتأويل؛ يخترق مجال الخيال، فيشكله ويصيغه ويعيد تكوينه، بوصف حياة الإنسان كلها رمزاً وعلامة، والدين يمنح هذا، فيستقي منه المتدين سيلا لا ينضب من المعاني لوجوده ووجود العالم، ويجد عن سؤال الانطولوجيا جواباً لمَ كان الوجود أصلاً.

يؤيد الرفاعي الرأي، أن التدين حالة أنثروبولوجية، تشبع عند الإنسان توقاً روحياً، بوصف الإنسان متديناً بالفطرة، وهذا ما تؤكده دراسات علم النفس والاجتماع والتاريخ البشري؛ فالدين يضفي المعنى على ما لا معنى له، المهمة المحورية للدين تمعين الحياة.

وعلى الرغم من أن الدين يحمل بين طياته هذه الأبعاد المعنوية والجمالية التي تحفز على مواصلة الحياة بالأمل، إلاّ أن من يوظفه أيديولوجيا يحوّله إلى مجرد عربة في قطار السياسي، فقُلبت الجوارح على الجوانح، وأصبح سياسة، ومناسبة لبعث الكراهيات وإعادة إنتاجها بين الناس.

لتفادي مخاطر الوقوع في براثن تسنين العقيدة على الطريقة القادرية، وللإفلات من هذا المصير، دعى الرفاعي إلى النقد والتفكير، للانتقال إلى عصر جديد، بإثارة أسئلة حائرة، جريئة، كبرى؛ فالتفكير ينبغي أن يكون تساؤلياً، للوصول إلى ما هو ممنوع

التفكير فيه. من هنا فإن دعوته إلى النقد، تعني الحاجة إلى مثقف نقدي منهمك بتفسير العالم، يتغلب على سجون الأيديولوجيات، بالتحرر من الأحادية، والجرأة على الاحتجاج على الواقع،ونقد الموروث، وتقديم مفاهيم ورؤى جديدة على كل الأصعدة.

يتحدث الرفاعي بلغة التنوير الكانطي فيقول: إن الحرية ليست رخصة بل هي مسؤولية، إذا كنت لا تستطيع الإمساك بزمام تلك المسؤولية فسيأخذها أحد ما بالنيابة عنك... عندها تبدأ عبوديتك، المهمة التنويرية التي نلمسها عنده لا تتطابق ضرورة مع مفهوم التنوير الغربي وتجلياته في تجربته التاريخية، ولا في طريقة تناوله الظاهرة الدينية، ولكن بالتأكيد تجده يستلهم النسغ الحي من منجز التنوير في بعده الإنساني، ومن هذا تأتي دلالة نقده للذهنية التي تتقبل الطاعة بدون تمحيص عقلي، فيرى من المهام المطروحة على "التنوير الإسلامي" اليوم هي تغيير هذه العقلية، وتهذيب هذه النفوس التي تعودت الطاعة، وأيضاً نقده الصارم والقوي للنفس الجمعية المرضية، التي تسعى إلى استعباد الآخر، وجعل الدين أداة لجرائمها الكبرى. من هنا يشدد على إنقاذ العالم الغارق في فوضى التقاتل باسم الدين. ويدعو الرفاعي إلى إحياء النزعة الإنسانية التي هي أساس الدين، عن طريق إحياء التجارب الإيمانية الشفافة، التي يمثلها رمزياً المتصوفة أحسن تمثيل.

أنَ ما يلفت النظر في فكر الرفاعي، من جملة اللافت، هو اهتمامه بقضية غياب مبحث الأخلاق في الفكر الإسلامي، الأخلاق هنا لا من منظور العادات والتقاليد التي تُتبنى في المجتمعات التقليدية على النواهي والأوامر، ولكن ـ طبقاً لرؤيته ـ الأخلاق بالمعنى الذي يبحث في الشأن الإنساني، انطلاقاً مما يميزه أصلاً وفطرةً كإنسان، فيرى أن الأخلاق كعلم مستقل تأخر ظهوره عند المسلمين كثيراً، ولم يبدأ إلاّ في القرن الرابع للهجرة مع مسكويه، لكن لم يشهد تأسيساً حقيقياً وجهوداً متواصلة، حتى في هذا العصر، لقد ظل هذا العلم مهملاً، على الرغم من حاجة المجتمعات المعاصرة الغارقة في فوضى المعتقدات، إلى جهود واجتهادات تمد الإنسان بالمعنوية للتخفيف من حدة آلامه.

ينظر الرفاعي إلى النقد بوصفه عملية تفكير،تعتمد بشكل أساس على المراجعة والتقويم، وهو علامة التفكير بحرية، وان الفكر الحديث والمعاصر هو النقد. إن من أعمق الآراء التي يطرحها الرفاعي هي اعتباره أن ليس هناك فكر يرافقه النقد، لكن الفكر هو النقد، فالعملية النقدية غير منفصلة عن الفكر. بالإضافة إلى موقفه أو تصوره لمهمة المثقف أو دوره ووظيفته. أنه يحدده بـ"المثقف النقدي، الذي ينشغل بتفسير العالم، ... ويتحرر من رؤية العالم بمنظور أحادي، ... مهمته المحورية هي التنوير".

ها هو الدكتور/ المفكر الرفاعي يقوم بممارسة ما يضعه نظراً. والحقيقة أن هذه القوة الخلاقة لمفاهيم النزعة الإنسانية والتسامح، والتفسير والتنوير والنقد في فكره، فتحت الباب أمامه ووضعته في أعلى مراتب المثال الفكري والأخلاقي. ❖

عناوين في سيرة المعلم عبد الجبار الرفاعي

✍ توفيق التميمي[١]

قد لا يكون لاسم المعلم الدكتور عبد الجبار الرفاعي ذلك البريق واللمعان لنجوم ومشاهير أيامنا هذه، الذين استمدوا مبررات نجوميتهم وشهرتهم من هشاشة الأوضاع، وتسيّد ظروف شاذة من التجهيل والاستغباء الشعبي. نماذج هؤلاء تظهر في صور بعض رجال الدين، أو زعماء القبائل، أو نجوم الفضائيات الأنيقين، الآخذين بالتكاثر مع تفاقم فساد الأجواء وتعفنها. يبرز هؤلاء عند تغييب دور ووظيفة الرموز المعرفية الحقيقية، التي تجلي غبار الحقيقة، وتفض اشتباك الأوهام المتلبسة بأفكار الناس وعقائدهم، المهيمنة على وعي الناس، والموجهة لسلوكيات قد تبلغ حدود العنف والعدوانية، وتفضي إلى إبادات وحروب أهلية، كما حصل في عراقنا المعاصر، والعالم بأوقات مختلفة.

المحنة العراقية

الرفاعي رغم أهمية وخطورة مشروعه، الذي يلخصه في: "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، وهو عنوان كتابه الأخير "الصادر عن مركز دراسات فلسفة الدين ببغداد، ودار التنوير ببيروت"، وتأثير الرفاعي في تحديث التفكير الديني في الحوزة، وتحرير الخطاب الديني من الأوهام الأيديولوجية وسلطتها الزائفة وتضليلها السياسي. وهي عناوين كبيرة ومانشيتات عريضة قد تكون باهتة ومكررة، عندما يتم تداولها لدى مفكر مماثل له يشتغل في هذا الحيز الصعب، وباجتراح مسافات الشغب والقلق في سكون الخطاب المدعوم من قبل سلطات حاكمة، أو قوى الجماهير وحراس العقائد المتواجدين في كل زمان ومكان. قد يكون ذلك، ولكن تكمن استثنائية الرفاعي ومشروعه وربما شجاعته في خصوصية الواقع العراقي، وحجم المتراكم من بقايا الاستبداد والتجهيل، وما تركته من جراح وندوب في الشخصية العراقية، للدرجة التي شرعنت فيها جماهيريا حربها القذرة ضد رموز الفكر الحر، وتغييب تربية النزعة الانتقادية المنتجة في التربية والتعليم والإعلام، فمحنته العراقية تشكل الحلقة الأبرز في سيرة "المنقذ للنزعة الإنسانية في الدين"، وما يقدمه من تضحيات على هذا الطريق المليء بالأشواك، هذه هي ذروة الخصوصية التي يتفرد بها الرفاعي عراقياً، كما إن دراسة سيرته تشكّل فرصة للتوغل

(١) صحفي وإعلامي عراقي.

بعيداً في تفاصيل محنة الكاتب والمفكر من طرازه، وسط واقع يتآكل ويتهشم، لدرجة انسداد نوافذ الأمل، وسيادة قوى ظلامية على أصغر البقع والزوايا فيه. فدراسة هذه المحنة هي دراسة صراع قوى الأمل والرجاء والحلم والإرادة، وباجتماعها ومزجها يعلن المفكر عن وجوده بقوة، ويزاحم أدعياء الثقافة ومنتحلي أدوارها، ليمارس دوره في إزالة الالتباس عن أوهام العقائد والعادات الموروثة، وفضح سلطة الزائف من النص المقدس، والتي تم الانقلاب عليها في الدول المتقدمة منذ عقود طويلة.

متصوف مجهول

هذه الهوة الزمنية بين التراث والحداثة، والريف والمدنية، والماضي والحاضر، هي جوهر المحنة التي يعيشها الرفاعي في تحولاته من حال لحال، عبر محطات ثلاث هامة، يشخّصها هو في كتابته عن نفسه وسيرته: "القرية، الحوزة، والحركة الإسلامية"، كم حجم المكابدات التي عاشها الرفاعي، ليتحول من جولة اكتشاف لأخرى وسط هذه المحطات، وعندما يتمازج فيها أو يتمرّد على أنساقها، وهو يتعطش للحقيقة التي تروي ظمأه الفطري للمعرفة، أو توافق قرويته البريئة، أو توائم أحلامه بالثورة على السكون وتبصير الناس بإرادتهم المكبلة، والانتصار لأحلامهم المعطلة، بسبب إرادات وسلطات جائرة، سواء كانت هذه السلطات رمزية متمثلة بالبالي من القيم والموروثات، أم مادية متجسدة بشكل سلطة جائرة.

المفكر هنا يختار طريقاً مغايراً للقائد الأيديولوجي أو المبشر الحزبي، بوصفه درويشا متصوفا مجهولاً، يتلقى الضربات ويدفع الضرائب، دون أن يطمح إلى مكاسب تعوضه عن هذه التضحيات أو الخسائر، وإلا خسر صفة المفكر وضمير المستنير اليقظ، وهذا ما حرص عليه الرفاعي طيلة مشاوير هذه المحطات الثلاث من سيرته.

بقراءة بسيطة لحياة الرفاعي عبر محطاته الثلاث تجده نموذجاً حياً لملامح هذه المحنة، التي يندر أن يفلت منها مفكر بقامته، وبمكابداته المشابهة في التحولات، دون أن يقدّم هذه التضحيات، التي لا تساوي شيئاً مهمّا في سبيل الحصول على راحة ضمير المفكر وربحه لذاته، وتمكنه من إرادته، وهذا ما لمسته ويلمسه الأصدقاء في مواقف الرفاعي وآرائه وسلوكه ومواقفه، وجميع مشاريعه في التأليف والكتابة والنشر، في مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، و"مركز دراسات فلسفة الدين"، وسلسلة متدفقة من المؤلفات والترجمات المتمحورة حول: تحديث التفكير الديني، وإنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، والتسامح واحترام الاختلاف والتعددية والعيش سوياً في فضاء التنوع والاختلاف.

الرفاعي يخترق الحصار

لكي لا تكون شهادتي عائمة فوق بحر من التوصيفات البلاغية، أو مكررة، أو أصداء لأفكار وطروحات قيلت في مناسبات الاحتفاء الشحيحة بالرفاعي، والتي ظهرت بملاحق صحفية خاصة، سواء ما أصدرته جريدتي "العالم" أو "المدى"، أو نشر هنا وهناك، من شهادات لأصدقائه وتلامذته، اقتصر هنا على تاريخ طبيعة علاقتي بالرفاعي الصديق، والرفاعي المعلم، والرفاعي المفكر، والرفاعي المنقذ للنزعة الإنسانية في الدين.

فخلال سنوات التسعينات من القرن السابق، وهي سنوات المحنة والحصار والجوع والترويع، كان شارع المتنبي يئن من حصار مؤلم، لا يقل وجعا وإيلاماً عن حصار الطعام والملبس والدواء، وهو حصار الكتاب الجاد المعرفي الرصين، الذي أضاء العالم واغتنت به مكتباته. في الوقت الذي كان فيه شارع المتنبي حلبة تتصارع عليها ثقافات طائفية مقيتة، تستعرض سمومها وتطرفها المقيت، على بسطات علنية وأخرى سرية، بضبط إيقاعي ماكر من قبل رقباء السلطة في الشارع وخارجه، كانت ثمة شرر يتطاير وسط حروف حاقدة في هذه المعركة الرخيصة، هنا مثلاً سطع نجم لكاتب شيعي "مستبصر" قادم من شمال أفريقيا العربية، وآخر لسلفي مرتد على سلفيته المسالمة، نحو تطرف يشرعن القتل، وتفصيل التاريخ وفق غواية طائفية قادم من لاهور، وكتبهما التي تعجّ بالعفن الطائفي، كانتا تتباريان في حصد أرقام قياسية من قرّاء ذلك الزمن المدجّج بالمخبرين.

كان مخبرو النظام يتفرجون جذلين بأقصى متعة على هذه اللعبة الاستقطابية القذرة، دون أن يتدخلوا إلا في حالات المساس بأمن جلاّدهم صدام أو مشاكسة تسلطه واستبداده أو رموزه الثقافية والأدبية والفنية.

طائر غريب

وسط هذه الأجواء غرّد طائر غريب، بهيئة مجلة لافتة اسمها "قضايا إسلامية معاصرة" عرفتُ لاحقاً أن هذه المجلة المثيرة كانت حصيلة لمشروع وحلم الرفاعي، الذي بذل ما في وسعه كي ترى النور، من أمواله الشخصية، وعدم دعم أصدقاء ورفاق الأمس، سمعنا مع وصول أعداد المجلة المحدودة عن قصص لـ "ناسك صوفي مستنير" يتحول من حال إلى حال، دون أن تسعفه نجدة مالية من حزب أو دولة أو جماعة، مما اضطره لبيع مكتبته الخاصة، كي يحقق حلمه، الذي يترجم هذه التحولات، ويعمل على "تحديث التفكير الديني، وإنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، ويساهم في ترميم الخراب الثقافي الذي ينهش الوطن من الداخل والخارج. "قضايا إسلامية معاصرة" فتحت أُفقاً وسط ظلمة

حالكة أنتجها المشروع الاستبدادي الصدامي، الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط آلاف المقابر، التي تركها، وحكايات الرعب، التي كتبها بحروف من دم على صفحات زمنه الأسود.

نافذة ضوء تخترق تابوتنا

مجلة الرفاعي نافذة ضوء اخترقت تابوتنا العراقي، بمحمولاتها ومفهوماتها ومقولاتها التي تغتني بها من رموز الحداثة العربية والإنسانية، ممن جمعهم الرفاعي تحت خيمته، وهم كما هو طردتهم أرثوذكسية تعصبات دينية، وجنرالات عصابات، وقادة ميليشيات، وقادة أحزاب، يزعمون أنهم يحاربون نيابة عن الله، فيما هم يطاردون رحمته على الأرض، وشفقته على عياله "الخلق عيال الله". لقد نجح الرفاعي ودعاة إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين بالتحليق في سموات الحقيقة ومسالكها ونشوتها، والتحرر من أردية الزيف والأوهام، وكل ما يُثقل أرواحهم الهائمة بوصال الحق، وكل ما من شأنه أن يقترب من الإنسان ووجدانه، وينتصر لقضاياه في أي زمان أو مكان. لم تكن موضوعات "قضايا إسلامية معاصرة" الصادمة، ولا عناوينها المشاكسة للموروث في الخطاب الديني السائد، هي ما تمنحه المجلة لقرائها المجازفين بحياتهم لحيازتها فقط، بل كان هناك خطر لا يقل عن موضوعاتها الناشزة لثقافة السلطة القائمة والوعي الشعبي السائد، فرئيس تحريرها وصاحب امتيازها عضو سابق في حزب الدعوة "العميل" في عرف قانون صدام، وما يكتبه مشاكس، ليس للسلطة الحاكمة وحدها، بل حتى للمرجعيات الدينية التقليدية التي تحظى بشعبية هائلة في تلك الأيام.

من هنا شاركنا طائعين محنة الرفاعي بمنفاه، ونحن نرابط في وطن أذلّه تسلط صدام وجوره، وما فعله الحصار بأجسادنا وعقليتنا وسلوكياتنا من انحدارات وتشوهات. شاركنا الرفاعي باستنساخ مجلته وتوزيعها سراً، للمتعطشين لخطاب الحداثة الثائر على الأنساق البالية في العقيدة والسلوك الاجتماعي والدرس الديني، والإجابة عن أسئلة كانت محرّمة إلى زمن قريب، تحت ظروف بالغة الخطورة والتعقيد والمغامرة.

أنصار تحديث التفكير الديني

كانت "قضايا إسلامية معاصرة" تكرّس في كل عدد منها المزيد من أنصار هذا الخطاب، الذي بزغت ملامحه وسط معالم الخراب والتجويع والترويع في تلك اللحظة العراقية من عقوبات النظام العالمي على نظام صدام، لكن الشعب كان بطبقاته كلها هو من يسدد فاتورة هذه العقوبات الدولية، عرّفتنا المجلة بأصدقاء جدد من مفكري الحداثة الدينية ومشروعها الصعب، من رجال دين وأفندية، مثل: محمد مهدي شمس الدين، محمد حسين

فضل الله، محمد حسن الأمين، هاني فحص، غالب الشابندر، يحيى محمد، حسن حنفي، طه العلواني، علي حرب، إبراهيم العبادي، محمد أركون، مصطفى ملكيان، محمد مجتهد شبستري، عبد المجيد الشرفي... وغيرهم، ممن وجد في هذه المجلة منبره المفقود في وطنه وأرضه.

"قضايا إسلامية معاصرة" وطبيعة المواد المنشورة فيها ورؤاها التجديدية، أثارت دهشة وأسئلة خطيرة، بحجم التحولات النوعية التي قطعها الرفاعي، ذلك الهارب من جحيم بلاده، محكوما بالإعدام، كونه مسؤولاً في حزب الدعوة.

هنا ثمة سؤال داعبني حول حجم ونوعية التحول لإنسان خرج هارباً من بلاده بتهمة الانتماء لحزب ديني محظور، وانتهى إلى ذلك المجدّد التنويري، وكرّس حياته من أجل: "تحديث التفكير الديني، وإنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، ما الذي فعلته الأيام والمنفى والتحرر من رقابة السلطات في القراءة وحرية التجوال في عقل الرفاعي، وبزوغ مشروعه التحديثي الجريء؟ سواء على صعيد علم الكلام، أو تحديث نظام التعليم الحوزوي، أو إيجاد بقعة مشتركة آمنة للتعايش بين البشر ملحدين ومؤمنين؟.. أية سلسلة من المكابدات قطعها الرفاعي لبلوغ هذه المرحلة، التي جمع فيها كل أسماء رواد "تحديث التفكير الديني"، العرب والإيرانيين وغيرهم في أفياء مشروع أحلامه؟!

أدركت أن ما أنجزه الرفاعي من أجل تحقيق أحلامه يهوّن عنده حجم كل الخسائر والتي كنت أسمع عنها، من غطاء حزبي كانت يحميه، ووطن مقهور كان يأويه، وثروات مغرية كانت يمكن أن توصله إلى أجمل البلدان وتوفر له العيش الرغيد، لكنه صمم على المضي في مشواره إلى النهاية.

صائغ ماهر

كان واضحاً من الأعداد الأولى للمجلة أن جهد الرفاعي في تحرير قضايا إسلامية معاصرة لم يكن جهداً تجميعياً، أو تحريرياً، أو استكتابياً فقط، بل هو جهد صاحب رؤية مضيئة عميقة، كان بنفسه الفرّان الحقيقي والصائغ الماهر لسبيكة وحدة الفكر والغاية في هذا المشروع، الذي يتجمع في نقاط مشتركة، أولى مهماتها ردع المزايدين باسم سلطة الله وتعميمها على البشر دون وجه حق، وثانيها تحفيز قدرة التأويل والتحليل في قراءة نصوص الدين والتراث دون أحكام تقديسية مسبقة، وكان ذلك في تلك المرحلة مهمة خطيرة غير مأمونة العواقب والنتائج، والأهم من كل ذلك "انتشال النزعة الإنسانية للدين"، حين يغرق في تفسير متوحش للنصوص، وما يصنعه الطغاة والغلاة والجهلة، وينتهي إلى صراعات لا تبقي ولا تذر.

وهنا تقترب مهمة المفكر والمثقف الحقيقي من مهمة طبيب يعالج جسداً من مرض خبيث يداهمه ويهدد حياته بالفناء، ربما لم يكن الرفاعي وحده من يقوم بمهمة هذا الطبيب في تلك اللحظة الحرجة، ولكنه كان الأبرز في هذا الفريق المتناثر في بقاع الدنيا وعينه ترنو إلى أوطان تمزقها حراب الدكتاتورية وغبار الحروب، وسحب الاستبداد والتخلف الداكنة.

حرية منقوصة

لم يظهر الرفاعي مع جوقة محللي الفضائيات وزعماء الأحزاب الجدد، أو مزوري الشهادات، ومنتحلي أيام الجهاد، عند ولادة حرية العراق الجديدة المنقوصة والمشوهة والملتبسة، كان الرفاعي رائياً مختبئاً وراء الكواليس، يرقب بألم وحسرة ما يجري من انتهاكات وخروق واعتداءات لأحلامه الثورية والفكرية البيضاء البريئة، لكنه لم ييأس، ولم ينثن، ولم يستسلم، لم يقترب من السلطة الجديدة، رغم استحقاقه النضالي، ومكانته الفكرية المعروفة، التي بناها بتكوين حوزوي أكاديمي مزدوج، وتحولات روحية وفكرية كبيرة، إلا بحدود توظيف الدور والمهمة الحكومية لتنشيط دم الثقافة الجديدة، ودعم براعمها المتفتحة، التي يعوّل عليها في صناعة ثقافة جديدة، على أنقاض ثقافة الاستبداد والتهريج والتزوير، وما طغى على الحياة الثقافية العراقية طيلة أربعة عقود.

عقبات تتكرر

واجه الرفاعي عقبات ومثبطات، بعضها من تلك الأيام العصيبة للمهجر والمنفى، وبعضها الآخر من مستجدات ما بعد الدكتاتورية، من فوضى والتباسات وجرائم إرهابية، منها ما طاله من تفجير المتنبي في آذار ٢٠٠٧، بتهديم مقر "مركز دراسات فلسفة الدين" وحرق آلاف النسخ من مجلته ومطبوعات المركز، لم تثبط الخسائر المادية الجسيمة التي تكبّدها، كما تكبّدها سابقاً، عزيمته على مواصلة مشروعه الثقافي والمعرفي، من أجل ترسيخ المبادئ والمثل التي ناضل من أجلها خلال سنواته الستينية، دون كلل أو ملل، ودون مبالاة بالخسائر والتضحيات، وهي قيم: التعايش والحوار والتسامح... ونقلها من عناوين عريضة إنشائية إلى ثقافة مجتمعية، تؤمن بها شرائح المجتمع المختلفة، دون تفاوت، أو تمايز، ثقافة تنتشل الواقع من فيروسات التطرف، وأمراض التزمت بكل أشكالها وتمظهراتها.

المعركة بالنسبة للرفاعي لم تنته بنهاية المشروع الدكتاتوري في العراق، بل ابتدأت بضراوة وشراسة، ولكن هذه المرة على أرض بلاده التي هاجر منها مكرها قبل ثلاثة عقود ونصف من الزمن. ❖

عبـد الجبّـار الرفاعـي: المفكّـر الإنسـان

✍ إدريس هاني[(١)]

هل تكون حقاً شهادة الصديق مجروحة؟ وما العمل؟ يبدو أن حديثي عن د. عبد الجبار الرفاعي هي شهادة جرح وانجراح، وليست شهادة مجروحة. وقد تكون مجروحة؛ من حيث أنّني حقاً لا أستطيع أن أفي بكل شروط كمالها. سيبقى شيء من النقصان وبعض المجروحية.

لا نستطيع أن نستوعب بمقالة واحدة بحراً من دماثة شخص لا تملك إلاّ أن تحبّه.عبد الجبّار مفكر كادح، أعطى للفكر والعلم زهرة عمره. وهذا بالتأكيد لا يمنع من الحديث عن شخص يجري في ديوان الثقافة العراقية المهاجرة مجرى الحنين. كانت الهجرة يوماً خارج عراق ضاق بأبنائه فحملوه جرحاً، ونقلوه لنا جرحاً في كلمات تقطر حنيناً إلى وطن أسكنه العراقيون في قلوبهم، فتعددت ألوانه وأنحاؤه وآراؤه. لكنه ظلّ وفيّاً لوطن غائب/حاضر. جسد في المنفى، وقلب في العراق. أجل، كانت تلك الهجرة واحدة من أسباب تشكّل الشخصيّة الجبّارية. وهي كذلك جبّارة في صمودها؛ أمام أقوى شروط الاضمحلال. وهو كذلك لما رأيناه في عزّ الاضمحلال العراقي في المنفى كان يحتفظ بابتسامته نفسها، وبضحكته العفوية التي تجعلك تكتشف طفلاً لم يمت في أبي محمد. طفل هو ما ورثه من عراق غادره في عزّ شبابه، وأعطى للمنفى ما لم يعطه أهل تلك الأوطان. فكان العلم مأوى وجوده الجديد، لشاب خرج مغاضباً من فرط الاستبداد، مشبعاً بفكر الشهيد محمد باقر الصّدر، ودار حوله باحترافية المدرّس؛ في كل مناحي الصّدر الفلسفية والأصولية. فكان معلّم الحلقات ضمن دورات متعدّدة، أكسبته احترافية عالية في الدّرس الأصولي والفلسفي. من منطلق أنّ الأصول هي نفسها مجال لممارسة العقل والاستنباط، وبناء المفاهيم. فهي من هذه النّاحية أخت الفلسفة، لأنّ السيد الصّدر استطاع أن يجعل الأصول وسيلة أخرى في حلّ معضلة المنطق في حكاية (الاستقراء)، بل جعل منه وسيلة لحلّ معضلة الفلسفة في حكاية (فلسفتنا). وعبد الجبّار وريث لهذه المدرسة، التي حملها معه في صندوق أمتعة الهجرة، حين كان يرى متأبّطاً الحلقات ردحا من الزمان. وبالموازاة مع ذلك أيضاً ثمة شخصية أخرى؛ هي ما منحها المنفى لعبد الجبّار. هذه المرّة شخصية فريدة من بلاد فارس: العلامة محمد حسين الطباطبائي. فقيه الحكماء وحكيم الفقهاء في بداية الحكمة ونهايتها، وسائر أعماله التي عانقها عبد الجبار، ووضع فيها شرحاً، كما وضع في الحلقات شرحاً. وهما من الروائع التي تظهر البعد البيداغوجي لعبد الجبّار، الذي يضعك أمام أفكار بلغة لا تشغل مزاجك. اطلعت على شروح أخرى للحلقات، كما اطلعت على شروح أخرى لبعض المصنفات الحكمية، لكن وجدت أنّ

---

(١) كاتب وباحث مغربي.

شروح عبد الجبّار تتوفّر على هذا الجانب التربوي، الذي يحرص على أن لا يجعل للمتلقي مشكلتين: مشكلة هضم الفكرة، ومشكلة استيعاب لغة الفكرة.

وخرج عبد الجبّار وبالمؤازاة مع ذلك أيضاً إلى مجال المطارحة والتأويل، وقدم آراء وأفكاراً، وناقش موضوعات ضاربة في القدم، وأخرى طاعنة في المعاصرة، وأشغل مجلّته الفصلية المكافحة، التي اصطحبها هذه المرة في رحلة معكوسة من المهجر إلى الموطن. كانت مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" أيقونة المشاريع التي عنيت بالفكر الإسلامي المعاصر وقضاياها. مجلة الاختلاف السعيد، والإبداع والتنوع. الكلّ يعتبرها مجلّته الأثيرة. شريطة أن يكون الباحث منتمياً إلى دورة الفكر الإصلاحي وثقافة الإنسان. ثم سرعان ما تحوّلت إلى مدرسة قائمة بذاتها. تعرّف من خلالها المتلقّي العربي أوّل مرّة على روائع النشاط العقلي الإيراني مترجما إلى العربية. كانت جسراً مهماً، رفد الثقافة العربية بنصوص منتقاة من الفكر الإيراني في مجال؛ إصلاح الفكر الديني، الهرمنيوطيقا، التعدّدية، الاجتهاد، العقل، الإنسان، التسامح... وما شابه. وموازاة معها أصدر كتباً جامعة لهذا النشاط، ومخلّدة لهذا النّشاط. كان عبد الجبّار وحده أمة ثقافية قائمة. كما رأيته أيام اليأس العراقي. اليأس الذي أوجدته ديكتاتورية عارية في صمت إقليمي ودولي على قتل الإنسان العراقي.

ينتمي عبد الجبار إلى نخبة الإصلاح والتجديد. وقد ضحى بالسياسة من فرط وفائه للعلم وولائه للفكر. وأحسبه أحسن صنعاً. فأحياناً تستهلكك السياسة عبثاً. وأحياناً تشوّش على موضوعيتك. وأحياناً تخرجك من الفكر بلا فكر. كما تدخلك للسياسة بلا سياسية. فما أكثر السياسيين وما أقل المفكّرين.

لقاءاتي بالدكتور عبد الجبّار كثيرة. بعضها في سوريا، وبعضها في إيران، وبعضها الآخر في بيروت، وبعضها في العراق، وبعضها في المغرب.التقينا في سوريا وتعارفنا وتبادلنا أجمل الحديث.كان عبد الجبار مختلفا تماماً، وصاحب ميزات خلقية رائعة.كان يومها عابراً إلى الحج عن طريق دمشق. فالتقينا وهو ذاهب، والتقينا وهو راجع. وفي قم، كانت اللّقاءات الأخرى. في أولى تلك اللّقاءات كان عبد الجبّار قد قرأ ما يدور في خلدي. مرّ عليّ يوماً وأخذني بسيارته الـ"بيكان". سيارة الشعب. صناعة إيرانية محلّية، لي معها حكاية عجيبة. فأنا كنت أصوّرها مثلما ورد في الحديث الغريب؛ عن حكاية الدّساسة التي قيل عنها لا تعرف قبلها من دبرها. البيكان الإيرانية كذلك. لذا ما كنت أعرف هل هي ذاهبة أم قادمة. حملني عبد الجبّار، وأسرع بي باتجاه ضواحي قم. دخلنا إلى إحدى القرى، فألمح أوّل ما ألمح: بيت ملاّ صدرا "صدر المتألهين". تعجّبت من هذا الأمر، هل ملاصدرا معروف هنا لدى بائعي الخضر والدكاكين أكثر مما هو معروف لدى فلاسفتنا في المنطقة العربية؟ قال لي عبد الجبّار: هنا في هذه القرية ألّف ملاصدرا كتاب الأسفار. يا اللّه، إنها "كهك"، وكنت قد أنهيت قبلها بقليل كتابي عن صدر المتألهين (ما بعد الرّشدية). وعبد الجبّار يدرك مسبقاً

كم أنّا عاشق لهذا الحكيم ولا زلت.كان الجو ليس شاعريّاً فقط، بل كان أيضاً طافحاً بالحكمة. كنت أتمنّى لو أعرف بالدّقة أين كان ملاصدرا يجلس بالضبط لكي أجلس مكانه. وهي أيضاً حتى اليوم منطقة توحي للمتأمّل براحة الفكر. وكانت جلسة رائعة تبادلنا فيها حديثاً حول قضايا كثيرة. وفي ليلة أخرى كانت سهرة أخرى رائعة. هذه المرّة سينضمّ إلينا مثقّف رائع هو الدكتور صائب عبد الحميد. وكلاهما في عصر المنفى. والهموم هي نفسها. قلق الهجرة وقلق الفكر وقلق الإنسان. تكررت تلك اللقاءات مع عبد الجبّار في قم مرات أخرى في "أكاديمية العلوم والثقافة الإسلامية" كان لي لقاء هناك في حضرة صديقنا دكتور محمد تقي سبحاني ولفيف من الباحثين والعلماء. وواصلنا اللقاء خارج الأكاديمية في إحدى المنتجعات ليستمر الحديث ونتبادل الأفكار. وفي كلّ زيارة كانت لي إلى قم أزوره. فطورا نجلس في البيت، وطورا نسهر في منتجع قمّي. وفي بيروت حصلت لقاءات كثيرة، وأتممنا تلك السهرات الفكرية في جوّ مختلف ومزاج بيروتي مميّز. في مرّات كثيرة التقينا مع اللّفيف الرّائع دائماً: محمود حيدر، حبيب فياض، طلال عتريسي، حسين رحال... وغيرهم في بيروت للفكر نكهة أخرى. وفي العراق حيث المجال لا زال غير مفتوح. وحيث الحركة مقيّدة بشروط في التنقل صعبة في المنطقة الخضراء. لكن عبد الجبار كان يأتينا إلى فندق الرشيد وبدماثته المعهودة، وإن كان الوضع الصحّي له أصبح مقلقاً بعض الشيء.

كان عبد الجبار قد عاد إلى العراق. وتسنّم منصب وكيل وزارة الثقافة. وأصبح مستشاراً ثقافيا في رئاسة الجمهورية. ولكنه لم ينس قضايا إسلامية معاصرة، كما لم ينس مهمة الاضطلاع بفلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، فأسّس في بغداد مركزاً لها. وفي المغرب التقينا وجلسنا إلى بعض المثقفين المغاربة مثل؛ الدكتور محمد سبيلا. لم تكن قضايا إسلامية معاصرة مجلّة للمشرق العربي، بل كانت أيضاً مجلة للمغرب العربي، استكتب فيها عبد الجبار باحثين في هذا المجال. كما حرص أن يطبع كتبا لمغاربة، كنت واحداً منهم: كتاب الإسلام والحداثة المطبوع في مطابع دار الهادي، وكتاب حوار الثقافات، الذي طبع في مطابع أخرى، ولم أحصل منه على نسخة؛ لأنّ الدار التي طبعته أصيبت في القصف في حرب تموز ٢٠٠٦م.

يؤمن عبد الجبار بحرية الفكر وبالعقلانية. وهو يمتلك شجاعة في ذلك لا توجد عند غيره. لم تكن لديه مشكلة مع محمد أركون، ولا مع نصر حامد أبو زيد ولا مع أبو يعرب المرزوقي الغارق في تيميته، بقدر ما كانت لديه مشكلة مع طه عبد الرحمن. وكان الوحيد من بين الكثير من أهل الفكر من تفهّم نقدي لطه عبد الرحمن في زحمة المنبهرين. ووحده من أدرك عمق الخطورة التي ينطوي عليها مشروع يغري في المظهر بينما ينطوي على مضمون استئصالي مقوّض للتسامح وحرّية الفكر.

وسم عبد الجبار مسيرة الفكر الإسلامي المعاصر بميسمه الخاص. وحتماً سيحتفظ التّاريخ بهذا الإرث الثقافي، الذي ساهم فيه عبد الجبّار وقدمه للمكتبة العربية والإسلامية. ❖

الدكتور عبد الجبار الرفاعي كما عرفتـه

✍ زكي الميلاد[(١)]

معرفتي بالأخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي ترجع إلى تسعينيات القرن العشرين، وتحديدا إلى ما بعد صدور مجلة الكلمة في بيروت خريف ١٩٩٣م، وصدور مجلة قضايا إسلامية سنة ١٩٩٤، في وقتها كنت في دمشق، وهو في مدينة قم الإيرانية، وقبل أن نلتقي وجها لوجه كنا نتبادل وجهات النظر عبر الرسائل المكتوبة بخط اليد، الذاهبة والواصلة عبر المسافرين، إلى جانب تبادل الإصدارات والدوريات.

في رسائله كان يبدي ملاحظاته وانطباعاته ووجهات نظره حول مجلة الكلمة، وبعض المقالات والدراسات المنشورة فيها، ويتساءل عن الطباعة في بيروت، والتوزيع في العالم العربي، قبل أن يقدم على هذه الخطوة لاحقاً مع مجلة قضايا إسلامية معاصرة، كما كنت من جهتي أيضاً أبدي له في رسائلي ملاحظاتي وانطباعاتي ووجهات نظري حول مجلة قضايا إسلامية.

كان يعتني جيداً بكتابه رسائله، فلم تكن مجرد رسائل سريعة وعابرة وخاطفة، بل كانت موسعة في أغلب الأحيان، وأظن أن هذا حاله حتى مع الآخرين أيضاً، فقد كان يجد في هذه الرسائل آنذاك فرصته في التواصل الفكري والثقافي، وحتى الأخوي مع الآخرين، خاصة بالنسبة إليه الذي يرى دوره وأثره ومكانه في المجال العربي، مع انه يسكن ويعيش في مكان خارج هذا المجال العربي.

هذه كانت بدايات المعرفة عن بعد، ثم اجتمعت به في لقاءات ونشطات فكرية وثقافية، حصلت في مدن وعواصم عربية وإسلامية عدة، في بيروت ودمشق والإسكندرية وطهران وقم واسطنبول، في هذه اللقاءات كنا نجدد التواصل، ونتبادل وجهات النظر في الشأن الفكري والثقافي العام.

الدكتور الرفاعي صاحب تجربة فكرية تعددت فيها الأمكنة اضطراراً واختياراً، من العراق بلده الأم كانت محطته الأولى، إلى الكويت محطته الثانية، إلى إيران محطته

(١) كاتب وباحث من السعودية. رئيس تحرير مجلة الكلمة.

الثالثة، ثم العودة إلى العراق مجدداً، لكن إيران وتحديداً مدينة قم كانت محطته الأبرز والأطول زمنا، والأكثر استقرارا له، فيها تبلورت ونضجت تجربته الفكرية كسباً وعطاء، بناء وتكويناً وعملاً وإنجازاً، وما زالت هي المحطة التي يمضي فيها أطول أيام السنة.

عرف الدكتور الرفاعي عن نفسه في البداية، عن طريق الكتابات التي كان ينشرها في المجلات والدوريات الفكرية والثقافية العربية الصادرة في إيران، وتحديداً في طهران وقم مثل مجلة التوحيد وغيرها، بالإضافة إلى المجلات الفكرية التي صدرت عن العراقيين في الخارج مثل مجلة الفكر الجديد الصادرة في لندن وغيرها.

في سنة ١٩٩٤م، أخذ يعرّف نفسه عن طريق مجلة قضايا إسلامية التي ترأس تحريرها، وصدرت في مدينة قم، وعرفت عن نفسها بوصفها مجلة فكرية إسلامية نصف سنوية تصدرها مؤسسة الرسول الأعظم، لكنه لم يستمر فيها طويلاً، فمع صدر العدد الخامس سنة ١٩٩٧م، توقف عن متابعة الإشراف على تحريرها.

وخطى خطوة متقدمة في التعريف عن نفسه، مع صدور مجلة قضايا إسلامية معاصرة سنة ١٩٩٧م، التي بلور فيها من جديد تجربته الفكرية، ووجد فيها ذاته فكراً ومعرفة ووجوداً، كما عكس فيها همومه وهواجسه وشواغله الفكرية والثقافية، حتى أنه عرّف المجلة بوصفها مجلة متخصصة تعنى بالهموم الفكرية للمسلم المعاصر.

من الممكن القول إن قضايا إسلامية معاصرة، مثّلث للدكتور الرفاعي الجانب الأهم في أطوار تطور وتقادم تجربته الفكرية، فمن جهة وجد في هذه التجربة راحة كاملة في التعبير عن كامل قناعاته التي يؤمن ويعتقد بها، من دون قيود وسقوف ومحاذير مرسومة له، ومن دون ضغوط وتدخلات من أحد عليه، فهو الأول والأخير وصاحب القرار النهائي في هذه التجربة.

ومن جهة ثانية، لكون أن هذه التجربة تحديدا قد أعطاها من نفسه الشيء الكثير، جهداً ووقتاً وتعباً وسفراً وسهراً ومتابعة، وهو أعلم من غيره بهذا الجهد الذي بذله في سبيل إصدار هذه المجلة وبقائها واستمراريتها إلى هذا الوقت.

ومن جهة ثالثة، لكون أن هذه التجربة جاءت في وقت، بات من الممكن أن يقدم فيه أفضل وأنضج ما لديه، بعد هذا التراكم والتقادم الزمني والفكري.

ومن جهة رابعة، أن هذه التجربة فتحت أمامه أوسع فرصة للتواصل مع النخب الفكرية في مشرق العالم العربي ومغربه، وهذا ما كان يتمناه، ويسعى إليه، وبذل جهداً

واضحاً في سبيله، وظهر وتجلى هذا التواصل الواسع مع هذه النخب، في عشرات المؤلفات التي صدرت ضمن سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة.

وبهذه الأطوار، يكون الدكتور الرفاعي قد أكمل مراحل مهمة في التعريف عن نفسه، وعن تجربته الفكرية، وهو اليوم من الأسماء المعروفة على المستوى العربي في مجال التأليف والنشر والبحث الفكري.

أما القضية الفكرية التي شغلته، ومثّلت هاجساً له، فهي قضية تجديد التفكير الديني، وربط التفكير الديني بالإشكاليات الراهنة. في إطار هذه القضية، وللتعبير عنها، جاءت مجلة قضايا إسلامية معاصرة.

ولعل من أكثر النصوص وضوحاً في الإشارة إلى هذه القضية، المقالة الافتتاحية التي نشرها في قضايا إسلامية معاصرة، شتاء وربيع ٢٠١١م، بعنوان: (مجلة قضايا إسلامية معاصرة والإشكاليات الراهنة للتفكير الديني).

في هذه الافتتاحية، حدد الدكتور الرفاعي المهمة الفكرية لمجلته بقوله: (صدرت قضايا إسلامية معاصرة مطلع سنة ١٩٩٧م خارج العراق، تعبيراً عن أحلام وتطلعات بتجديد واجتهاد وإعادة بناء وتحديث للتفكير الديني، بما يواكب متطلبات العصر، ووتيرة التغيير المتسارعة في عالمنا).

وبهذا يكون الدكتور الرفاعي قد وضع نفسه، إلى جانب أولئك الذين اتخذوا من قضية التجديد الديني مسارا ووجهة لهم في العمل الفكري.



الـرفـاعــي العـالـم

✍ **فراس سعدون**[١]

يسر "العالم" أن تخصص أول ملحق لها منذ صدورها قبل أكثر من ثلاث سنوات؛ للاحتفاء بالدكتور عبدالجبار الرفاعي العالم والعالم، بكسر اللام وفتحها.

وقد انبرت "العالم" لإصدار هذا الملحق، تزامنا مع تكريم الدكتور الرفاعي اليوم في لبنان من طرف الحركة الثقافية في أنطلياس، لجهوده الكبيرة التي بذلها في مشاريعه الفكرية المختلفة، وأبرزها مجلة قضايا إسلامية معاصرة.

علاقتي بالدكتور الرفاعي تعود لتسعينيات القرن الماضي، حين بادر وهو الكبير، للاهتمام بي وبمجموعة من الشباب العراقي في المهجر، بينهم زملاء في "العالم". كان يخصص لنا أوقاتاً مهمة لمتابعة نشاطاتنا الثقافية ومناقشتنا فيها، وكان يهتم بتزويدنا بالكتب الثقافية والفكرية والتنويرية، التي أسهمت في فتح آفاق المعرفة أمامنا، ونحن نتطلع لاكتساب المزيد منها في ظل هيمنة الفكر الديني المنغلق والأيديولوجيا.

وعلى الرغم من مرور السنوات التي انطوت على الإطاحة بنظام صدام في ٢٠٠٣ وحتى بعد ١٠ سنوات على ذلك التاريخ ما زال الرفاعي، وهو المفكر الفذ، يتواصل معنا ويشعرنا باهتمام قل نظيره من انسان بمرتبته العلمية.

لطالما أسعدني هذا الرجل بسؤاله عني واهتمامه بي؛ ذلك الاهتمام الذي دفعه لأن يحضر قبل نحو سنة ونصف مناقشتي لرسالة الماجستير في كلية الإعلام ببغداد، وقد حرص على أن يقرأها من الغلاف إلى الغلاف ويبدي إعجابه بها.

كان يحرص باستمرار على إشعارنا، كما كنا نشعر أيضاً، بأنه صديق حميم لا أستاذ سبقنا بسنوات وآفاق في المعرفة والتجارب الإنسانية المختلفة.

حتى أمس كان الرفاعي يتردد على "العالم" بشكل شبه يومي، ويعلن بأنها الصحيفة الأقرب إلى قلبه، بل يسعى جاهداً لأن يعكس صورة طيبة عن الصحيفة في مختلف الأوساط التي يتواجد فيها.

---

(١) رئيس تحرير صحيفة العالم سابقاً، والعالم الجديد حالياً. افتتاحية الملف الخاص بالدكتور الرفاعي، الذي أصدرته صحيفة العالم ببغداد في ٢٠١٣/٣/٣.

سيرة الرفاعي غنية بالإنسانية والرقي، ومثار اعتزاز له ولنا.. قبل يومين لا أكثر كان يتحدث شخصياً في مؤسسة المدى، التي احتفت به أيضاً، عن الرفاعي الطفل الذي لم يجد دفترا للرسم في ضواحي الناصرية، وعن الرفاعي التلميذ الذي تنقل بين مراحل الدراسة متغلباً على مصاعب الحياة، عن الرفاعي الحركي الذي انضم إلى حزب الدعوة، وقاد مجاميع تنظيمية، وكيف أنه كان يُهرّب المنشورات الممنوعة آنذاك، بـ"قماط" ابنته، كما حدثنا عن الرفاعي المعارض في الداخل والخارج، عن الرفاعي الذي تمرد على الفكر الديني التقليدي، وانتصر على الأيديولوجيا، عن الرفاعي الحوزوي، والرفاعي المفكر، عن الرفاعي الذي أصدر مجلة قضايا إسلامية، وأسس لاحقاً مجلة قضايا إسلامية معاصرة، هذه المجلة المشروع، التي تحولت إلى مصدر للباحثين في الفكر الديني المعاصر، وواصلت صدورها منذ تسعينيات القرن الماضي لكبار المفكرين والمثقفين من العرب وغيرهم، إلى جانب سلاسل من الكتب، تكللت لاحقاً بتأسيس مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد، عن الرفاعي الذي خصص المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية في روما كتابه السنوي للعام ٢٠١٢ لإصدار ترجمات ايطالية وانجليزية وفرنسية لنصوص منتخبة مما نشر في مجلته قضايا إسلامية معاصرة في ١٥ عاماً، وعنوان الكتاب بـ"الإشكاليات الراهنة للتفكير الديني وفق مجلة قضايا إسلامية معاصرة"، عن الرفاعي الذي عبر الأديان والطوائف بمشروعه وعلاقاته في الشرق والغرب، وليس أخيراً عن الرفاعي المستشار الثقافي في رئاسة الجمهورية.

مرة أخرى أبدي سروري بأن تحتفي "العالم" بالرفاعي عبر هذا الملحق، الذي ضم شهادات هامة وجميلة بحقه.. فيما ترجو له عمراً مديداً ومليئاً بالسمو والرفعة.

❖ ❖ ❖

دور مجلة قضايا إسلامية معاصرة في تحديث التفكير الديني

✍ د. محمد همام وآخرون

ندوة عقدت في أغادير بالمغرب، صيف ٢٠٠٤، لدراسة وتحليل أثر مجلة قضايا إسلامية معاصرة في تحديث التفكير الديني، وجرأتها في زحزحة مجموعة من المفهومات، وانتهاك شيء من الجزميات والقناعات، والتمهيد لإطلاق سؤال لاهوتي جديد، والتفكير في اللامفكر فيه.

أدار الندوة ونسق موادها:

محمد همام - أكادير، المغرب.

عبد العالي المتقي - أكادير، المغرب.

المشاركون في الندوة:

١- **إبراهيم أمهال،** أستاذ الفلسفة وعلم الاجتماع، المدرسة العليا للأساتذة، مراكش.

٢- **عبد الله الهداري،** باحث في الشريعة والقانون، جامعة القرويين، كلية الشريعة، أيت ملول، أكادير.

٣- **مولاي محمد الإسماعيلي،** باحث في الدراسات الإسلامية، جامعة ابن زهر، أكادير.

٤- **مصطفى بوهندي،** أستاذ علم الأديان المقارن، ورئيس وحدة البحث والتكوين، في مستقبل الأديان والمذاهب الدينية بحوض البحر الأبيض المتوسط، بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء.

٥- **فريد شكري،** أستاذ علم أصول الفقه ومقاصد الشريعة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية.

٦- **عبد العزيز راجيل،** أستاذ باحث في الإسلاميات، ثانوية العلويين أيت ملول.

٧- **عبد العالي المتقي،** خريج دار الحديث الحسنية، الرباط.

٨- **أحمد اكنتيف،** أستاذ باحث في الجغرافيا، ثانوية ابن خلدون، أكادير.

٩- **محمد همام،** باحث في الفكر الإسلامي، أكادير.

نرحب بالإخوة الأساتذة والباحثين الذين يشاركون في هذه الندوة حول مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" والتي يديرها المفكر الناقد عبد الجبار الرفاعي.

وتأتي هذه الندوة لمراجعة تجربة قضايا إسلامية معاصرة وتقويمها، من طرف المثقفين المغاربة؛ إذ أصبحت للمجلة مكانة راسخة في الوسط الفكري المغربي، وهي اليوم من أهم

الدوريات الفكرية التي يقصدها المهتمون بالشأن الديني في بعده المعرفي والنقدي. وهذا ما استنتجناه من عملية تفريغ الاستمارات التي وزعناها على مجموعة من الباحثين والأساتذة ورجال الفكر حول المجلة.

المحور الأول: المجلات الفكرية والتكوين الذاتي

❍ كيف تنظرون إلى واقع المجلات الفكرية بالمغرب، وهل مازالت هناك حاجة إلى هذا النوع من المجلات، وما هي خصوصيتها؟

محمد همام

اسمحوا لي أيها الأساتذة الأفاضل أن أبدأ الكلام لكسر جدار الصمت الطبيعي في بداية هذه الندوة؛ فإنا نميز أولا المجلات الفكرية عن المجلات المتخصصة؛ كالمجلات الأدبية، أو العلمية التي تهتم بقطاع علمي محدد، كالبيولوجيا، أو الفيزياء أو الرياضيات، أو بمجال خاص، كالصحة، أو البيئة، وغيرها.. كما نميز المجلات الفكرية عن المجلات الثقافية العامة، والتي هي في الحقيقة مجلات حائطية فيها أبواب ومحاور كثيرة، تحتوي على قضايا متداخلة ومكررة، لا تخضع في الغالب لأي تنظيم أو خطة أو تصور.

أما المجلات الفكرية فهي بنظري، فوق التي ذكرت وأجود منها، وأغزر من حيث المضامين، وهي دون الكتاب بقليل؛ بمعنى أن المجلات الفكرية نطالع فيها دراسات تحليلية لقضايا ومحاور محددة جداً؛ ففي مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مثلاً، وهي مجلة فكرية نموذجية، نطالع مادة وافية حول: فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة، والتعددية والاختلاف، وقضايا التأويل، والتحيز والتمركز في المعرفة، وغيرها.. فالمقال في المجلة الفكرية هو في أصله دراسة تحليلية موثقة ومستفيضة، ولهذا أقول: إن المجلات الفكرية النموذجية لا تقل أهمية عن الكتاب. فلا بد للمثقف الذي يسعى دائماً إلى تطوير إمكاناته الفكرية، وخبراته المعرفية والنقدية، أن يكون متابعا لهذه المجلات الفكرية. أما عندنا في المغرب، فللأسف، لا تكاد توجد مجلة فكرية في مستوى "قضايا إسلامية معاصرة"؛ بل هناك، فقط، مجلات تصدر بحسب نشاط الوزارة أو الهيئة الرسمية التي تحتضنها، وكثيرا ما تكون الأمور موسمية، وتتأثر بمعطيات خارج الهم الفكري، والخدمة المعرفية؛ فإذا استثنينا مجلة "المنعطف" التي تصدر بمدينة وجدة في ظروف صعبة، ويشرف عليها المفكر الشاب د. مصطفى المرابط، ومجلة «فكر ونقد» التي يشرف على تحريرها الدكتور محمد عابد الجابري، ومجلة «المناظرة» المتوقفة للأسف، وكان يشرف على تحريرها الدكتور طه عبد الرحمن، فإن الوسط الفكري الإعلامي المغربي مازال يفتقد لمجلات فكرية محكمة؛ فأغلب المجلات الفكرية التي تنتشر اليوم في السوق المغربية تأتي من الخارج؛ من أمريكا، أو

أوروبا، أو الشرق العربي، ومن ماليزيا. هذا في الوقت الذي يحتل فيه الفكر المغربي مكانة متقدمة، ويتوفر على مفكرين مبدعين، للأسف ذاع صيتهم خارج المغرب أكثر، وهذه مفارقة لابد من تداركها.

إبراهيم أمهال

لابد من معالجة مشكلة الفكر في حد ذاته قبل الحديث عن دور المجلات الفكرية؛ فلقد كانت هناك مجموعة من المجلات سابقاً، ارتبطت بموجات فكرية تاريخية، واستطاعت أن تخوض نقاشاً عميقاً، وأن تضيف الجديد، مع تقدير الفارق التاريخي بالطبع، بل وثقت تلك المجلات الهموم الفكرية لجيل بأكمله، وأرخت نقاشاته، وهنا نستحضر تجربة مجلة "المنار" في مصر، والتي يمكن العودة إليها اليوم كأرشيف لحركة النهضة العربية.

وهناك مجلات فكرية أخرى ارتبطت بالقبائل الإيديولوجية التي كانت سائدة في العالم العربي، والمغرب كان واحدا منها؛ مثل مجلة "الوحدة" التي كانت تصدر في الرباط، وكانت تعبر عن الفكر العربي القومي عموماً، ومجلات أخرى ارتبطت بالمد الإسلامي، وغيرها.. ولكن انحسار المد الإيديولوجي، وضمور دور المفكر الذي كان مرتبطاً بمشروع الدولة القطرية، جعل وضعية الفكر في حد ذاته في مأزق. فإذا كان الفكر الماركسي العربي، مثلاً، وهو من إنتاج نخبة من المثقفين العرب، قد استطاع أن يوجد له أرضية شعبية من خلال تحويل الفكر إلى إيديولوجيا تقدم للجمهور، فإنه لم يستطع أن يخلق تقاليد تفكير لدى هذا الجمهور، وانحصر الأمر في التعبئة من خلال صدى تلك الأفكار، ومدى ارتباطها بمجموعة من المطالب اليومية للناس مما يحسون به، ولا يفهمون من الفكر الماركسي الكلي إلا حاجتهم؛ من معاش وشغل ومساواة... والشيء نفسه بالنسبة للتيار الإسلامي الذي لم يكن جمهوره يهمه النقاش والتجديد الفكري بقدر ما يطلب ما يوفر له العودة إلى هوية تحتضنه ويعوض بها غربته الحارقة. ووقع الأمر نفسه بالنسبة للمد القومي، ولو أنه لم يكن جماهيريا بما يكفي، ولكنه ارتبط في لحظة ما بمشاريع دول مثل الناصرية، وأحزاب البعث. والآن انكسرت هذه الأصنام الإيديولوجية، وأصبح مأزق المثقف العربي أنه فقد أرضيته الإيديولوجية، ثم فقد ارتباطه بالجمهور؛ لأنه لم يستطع أن يجدد فكره، ولا أن يحول هذا الفكر بالطريقة السابقة إلى خطاب جماهيري. إنها لحظة تحول عميق عند المثقف الذي يعيش التيه. هذا التيه تجسده حالة الانكفاء على الذات، أو حالة الارتهان لمشاريع العولمة المتوحشة، والتطبيل للانفتاح والتنكر لكل الماضي النضالي. والحالة نفسها أصبح يعيشها الجمهور، وتجسدها السلبية والاستهلاك اليومي. في هذه النقطة بالضبط بدأ تحول آخر في اتجاه معاكس، وهو تحول الفكر إلى قضايا ومشاريع مجتمعية،

ولكن ليس عبر قناة الإيديولوجيا ولكن عبر ما يمكن أن نسميه، مع تجوز في التعبير، حالة التنوير بالمفهوم الكانطي؛ فكانط يتحدث عن التنوير، أي تحويل فكر العالم إلى فكر جماهيري، ولكن ليس بالطريقة التعبوية، أو عبر ترويج الشعارات والآفاق الواعدة الوهمية، بل عبر رفع سقف النقاش وتأهيل الجماهير، والرفع من إيقاع عمليات الإدراك والوعي الجماهيري؛ عندها تصبح الجماهير طرفاً فاعلاً في النقاش، وليست قطيعا يتلقف جمل وعبارات الزعماء، ويوظفها في حركات احتجاجية تخدم المثقف ومشروعه بالدرجة الأولى. فالوعي بهذه اللحظة، أي التحول من الإيديولوجيا إلى التنوير هو المسؤولية الحقيقية للمجلات الفكرية النموذجية، مثل قضايا إسلامية معاصرة، أي تكريس الخطاب التنويري، مع تقدير السياق التاريخي المحدد جداً لمصطلح التنوير، ومن ثمة إشراك أكبر قاعدة في نقاشات المفكر وهمومه وقلقه.

فريد شكري

إذا أردنا أن نصنف الإنتاج الفكري عامة، كتباً أو مجلات أو مقالات، من حيث الجودة، فإنه لا يخرج عن أحد الأصناف الثلاثة التالية:

١- الإنتاج الجيد وهو الذي تبتدئ في قراءته عندما تنتهي من قراءته.

٢- الإنتاج المتوسط وهو الذي تنتهي من قراءته عندما تنتهي من قراءته.

٣- الإنتاج الرديء وهو الذي تنتهي من قراءته عندما تبتدئ في قراءته.

وأغلب الإنتاج الفكري الذي يغمر الساحة الثقافية في أحسن الأحوال، من النوع الثاني وبعضه من النوع الثالث، ولكن القليل النادر هو الذي يكون من النوع الأول.

ومجلة قضايا إسلامية معاصرة، من وجهة نظري، ومن دون مبالغة، وبحكم متابعتي المستمرة لما يصدر في العالم العربي والإسلامي مما يتعلق بالفكر الإسلامي، هي من النوع الأول الرفيع، والذي تعاود قراءته كلما انتهيت منه نظرا لطبيعة القضايا الإسلامية المعاصرة التي تعرضها للنقاش والبحث والسؤال. ومجلة قضايا إسلامية معاصرة وفية لعنوانها إلى أقصى الحدود؛ فهي تطرح قضايا إسلامية معاصرة، وتعالجها بآليات معاصرة، وتطرح قضايا قديمة من منظور معاصر، وهذا ما يضفي عليها المعاصرة بجدارة واستحقاق، بالإضافة إلى ذلك فهي تثير الهموم الثقافية التي تشغل العقل الإسلامي المعاصر، بدءا من النص القرآني وكيفية التعامل معه، ومروراً بتجديد الفقه الإسلامي واكتناه فلسفته ومقاصده، وانتهاء إلى تجديد الكلام في علم الكلام.

وفي بعض محاور المجلة، قد يبدو لأول وهلة أنها مكرورة ومستهلكة، ولكن الحقيقة أن المجلة أحيت البحث في هذه القضايا الإسلامية بشكل مبدع وناقد، يتجاوز المعالجات

التغريبية بالمناهج الغربية والمنبتة على المجال التداولي للمعرفة الإسلامية، والمسكونة بالتحامل والتعسف، كما تجاوزت المعالجات التراثية السطحية، بخلفياتها التمجيدية والدفاعية والاجترارية.

وإن الإضافة النوعية، أو القيمة المضافة لمجلة قضايا إسلامية معاصرة، انفتاحها انفتاحا كليا غير مشروط على المدارس الفكرية أو الطائفية المختلفة، وعلى كل إنتاجاتها المتسمة بالعلمية والمنهجية والجدية الفكرية.

عبد الله الهداري

بالنسبة للسؤال الأول، أعتقد أن مجلة قضايا إسلامية معاصرة تشكل نموذجا ناجحا للمجلة الفكرية ذات البعد التعددي؛ فالمجلة تخرج القارئ من حالة الأحادية والتنميط؛ من خلال المزج التلقائي والمنهجي بين المعرفة الدينية والعلوم الإنسانية. وهذا المزج يلغي حالات التضاد التي اصطنعت بين العلوم الدينية والعلوم الإنسانية، مما كرسته المجلات التبشيرية والطوائف المتعددة. إننا نكاد نلمس في مجلة قضايا إسلامية معاصرة وعيا نظريا ومنهجيا بضرورة التكوين التداخلي للمثقف الديني المعاصر، وكذلك التكوين النقدي التساؤلي؛ فالمجلة تستشكل قضايا دقيقة، وتطرح أسئلة متعمقة من خلال الدراسات التي تنشرها. كما أنها تطرح أرضية أولية لمجموعة من المشاريع الفكرية الناقدة، وتعمق طرح السؤال، أما الجواب فيبقى دائماً مؤجلا، بل لا تكاد تلقي له بالا ! فالزمن زمن السؤال والنقد قبل أي شيء آخر.

محمد الإسماعيلي

بالنسبة لي، فمجلة قضايا إسلامية معاصرة تفتح آفاقا جديدة للمثقفين الدينيين، وكل أعدادها هي أوراش فكرية ونقدية في مواضيع مازالت بكرا؛ كفلسفة الفقه، والهرمينوطيقا، أو أبحاث المفكر المبدع عبد الكريم سروش؛ أبحاث تنمي في القارئ ملكة السؤال وموهبة النقد، والجرأة على تجاوز الخطوط الحمراء التي رسمتها ثقافة النسق المخاصمة للتفكير والسؤال. وللأسف فالمثقف المغربي، بنظري، مازال لم يتعرف بما يلزم، على هذه المجلة المحكمة، وذلك لهيمنة المجلات الإيديولوجية، ولما يبثه بعض المتعصبين المذهبيين من نعوت في حق المنابر المخالفة. وأعتقد أن رواد وقراء هذه المجلة المحكمة تقع عليهم مسؤولية التعريف بها وبكتابها وقضاياها الفكرية الجريئة وسط المثقفين الباحثين والطلبة المغاربة.

المحور الثاني

○ ما هي الخصائص المميزة لمجلة قضايا إسلامية معاصرة، وماهي إضافتها وسط الإعلام الفكري الإسلامي؟

مصطفى بوهندي

إن مجلة قضايا إسلامية معاصرة بنظري، قد اكتسبت، من خلال مواضيعها، الكثير من الاسم الذي أطلقته على نفسها، أي إسلامية معاصرة، ومن ثمة فعنوان المجلة يتناسب مع المضمون ومع القضايا. فالمجلة ناجحة بقضاياها المعاصرة من منظور إسلامي نقدي ومنفتح. طبعا هناك مجلات كثيرة تحمل صفة "إسلامية" وقد تدعي المعاصرة، ولكنها لا تتجاوز إعادة إنتاج الفكر القديم وتلقينه، أو الإسلام التاريخي، بلغة معاصرة أو في قالب معاصر؛ فهناك فرق بين الديباجة المعاصرة والشكل المعاصر والقالب المعاصر، وبين أن تكون القضايا المعاصرة، والمنظور إليها برؤية إسلامية تتجاوز الرؤية التاريخية التي استلبت الإسلام لذاتها وأصبحت هي رؤية الإسلام. فنجاح مجلتنا قضايا إسلامية معاصرة مرتبط بقدرتها على تجديد الفكر الديني، وتجديد ذاتها، وتجديد إسلامها.

عبد العالي المتقي

في الحقيقة، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، خط فكري جديد كل الجدة؛ فإشكالاتها بل وأطروحاتها من خلال محاورها، وكذا كتابها، كل ذلك لم يكن أمراً معهودا في الوسط الثقافي الإسلامي؛ فأغلب كتابها هم ممن كانوا مهمشين في الثقافة الدينية السائدة والطاغية. يضاف إلى هذا هامش الحرية الواسع جداً في هذه المجلة؛ فهي تستوعب الرأي ونقيضه، وهذا من أخص خصوصياتها، أي حرية التعبير!

إبراهيم أمهال

إن ما اعتبره إضافة نوعية لمجلة قضايا إسلامية معاصرة، هو جرأتها؛ فبالنسبة لبعض المجلات التي سبقتها مثل "المسلم المعاصر" و"منبر الحوار" و"إسلامية المعرفة"، كانت هناك محاولات لتجاوز الخطاب الفكري الإسلامي التقليدي، سواء على مستوى المضامين، أو على مستوى التساؤلات، إلا أن عوائق كثيرة حالت دون ذلك، وارتبطت أساسا بالسياق الذي كان يشتغل فيه أولئك المثقفون، وارتباطهم بمؤسسات وهيئات ومصالح لم تكن تسمح بأكثر مما كانوا يتحدثون عنه. وعليه ما لبثت شعارات أسلمة المعرفة، والتجديد الديني، وتجديد أصول الفقه، وغيرها.. أن تراوح مكانها بسبب عدم القدرة بل وعدم الجرأة على خرق الحدود والحواجز، والتي بعضها، كما ذكرت، فكري، وبعضها مرتبط بسياقات أخرى اجتماعية ومصلحية ومؤسساتية.

أما بالنسبة للضفة الأخرى من الفكر الإسلامي، أي ما ينتجه المفكرون الإيرانيون، واللبنانيون، والعراقيون المحسوبون على الشيعة، فكانت تصلنا بالطريقة نفسها، المجلات المذهبية، التي لم تستطع التخلص من النزعات التبشيرية المذهبية والارتباطات المؤسساتية. ولكن

خصوصية مجلة قضايا إسلامية معاصرة، أنها استطاعت أن تخرق السقف المذهبي القصير، سواء لهؤلاء أو أولئك. وطرحت قضايا هي أقرب ما تكون إلى المشترك الإسلامي، بل المشترك الإنساني أيضاً؛ قضايا فيها عمق، وجدة، وجرأة، وتجاوز على مستوى الشكل أو المضمون. ولكن لا يجب أن نفصل خصوصيات هذه المجلة الجادة عن سياق ظهورها، والظرفية التي تتحرك فيها؛ فالمجلة، في النهاية، يكتب فيها مثقفون إيرانيون بالدرجة الأولى، وهم من المهتمين بالخطاب الإسلامي الجديد داخل إيران، كما يرصدون بعض المآزق والإنسدادات التي يعيشها الفكر الإسلامي هناك، بارتباطه مع أزمة الدولة، وأزمة المشروع الإسلامي عموماً. وفيها من خصوصية المثقف الديني الإيراني، الذي انفتح على الفلسفة، وعلى العلوم الإنسانية في وقت مبكر، قبل المثقفين الآخرين داخل الدائرة السنية، مع تقديرنا النسبي لهذه التصنيفات. وإنا نلاحظ مثلاً أن مواضيع مثل التعددية الدينية، والتأويل، وفلسفة الدين... طرحت في مجلات أخرى غير قضايا إسلامية معاصرة، ولكن مستوى التناول في هذه الأخيرة كان أكثر تجاوزا، وأكثر قدرة على خرق السقف الذي انحبس فيه الفكر الإسلامي المعاصر.

كما تفردت مجلة قضايا إسلامية معاصرة بالجرأة على نشر مقالات لم تكن لتنشر في مجلات أخرى، مثل مقالات عبد الكريم سروش، ومحمد مجتهد شبستري، ومصطفى ملكيان، وداريوش شايغان ...

عبد العزيز راجيل

تعتبر مجلة قضايا إسلامية معاصرة، من وجهة نظري، تجربة فكرية وإعلامية رائدة في الوسط الثقافي العربي، وهي إضافة نوعية تستحق التنويه، كما تستحق التوقف لرصد أدائها، وتقويم مادتها، انطلاقاً، بالطبع، وكما ذكر الإخوة قبلي، من الأعداد التي وصلتنا في المغرب. وهذه التجربة كأي عمل بشري، لابد أن يعتريها القصور.

ويمكن أن نرصد بعض الملاحظات الأولية حول هذه المجلة قبل أن ندلي ببعض المقترحات لتحسين الأداء نحو الأفضل.

١- **المغامرة والمخاطرة**: وهي أول سمة يمكن أن تسجل للمجلة، نظراً لطبيعة الأسئلة التي طرحتها، والمواضيع التي تناولتها، مما له علاقة بالمعرفة والفكر الدينيين، عرضا وتحليلا ونقدا؛ فالمغامرة تظهر في كون الأفكار المعروضة في المجلة محظورة في بعض الأوساط الدينية، والخوض فيها يلصق بصاحبها اتهامات تصل إلى حدود إخراجه من الملة. كما أن طبيعة مضمون المجلة تخلخل البنية السائدة للتفكير، وتدمر النسق السلفي الطاغي في أوساط المشتغلين بالدراسات الإسلامية. هذه الجرأة قلما توفرت في دوريات ومجلات "إسلامية" والتي تمشي في حدود الخط الأيديولوجي المرسوم سلفاً. وعليه

فدخول مجلة قضايا إسلامية معاصرة إلى المغرب، سحب البساط من كثير من المجلات، ذات الأفق التقليدي في تناول المواضيع الدينية والفكرية، والمملوءة بالتكرار والاجترار وغياب الجدة والعمق والإبداع والتجديد.

٢- **الإبداع**: اعتاد المثقف الديني أو القارئ العادي على مطبوعات حزبية، تصيبه بالملل، وتسد أفق التفكير، وتشل ملكة التساؤل والنقد؛ فكانت مجلة قضايا إسلامية معاصرة مجلة مبدعة وناقدة، خرجت عن مألوف القارئ، وكثير ما تخرق أفق انتظاره، بل تسبب له مشاكل فكرية إضافية لم تكن تخطر على باله، وتعيد طرح أسئلة عليه كان يظن أن يقينه حسمها ! فاستطاعت هذه المجلة الرائدة أن تمارس التجديد عوض مجرد الحديث عنه، كما نجد عند مجموعة من المبشرين، الذين ظل التجديد عندهم شعاراً بلا مضمون؛ فقضايا إسلامية معاصرة، بنظري، تكتب في التجديد، وليس عن التجديد. وهي، بمعنى آخر، دعوة علنية مفتوحة إلى التفكير بصوت حر ومرتفع، بعيدا عن الوصايات والآبائيات على العقل الإنساني.

٣- **اللامذهبية**: على عكس بعض الدوريات التي تصلنا في المغرب من بعض البلاد العربية، وهي في الحقيقة منشورات طائفية ومذهبية، تعكس نمطاً من التفكير المحافظ، والذي لا يحترم ذكاء القارئ المغربي، فإن قضايا إسلامية معاصرة لا تعبر بنظرنا عن أي توجه طائفي ومذهبي؛ فهي منفتحة على أقلام مختلفة، وربما متضادة، سواء من داخل الدائرة الدينية أو من خارجها، وتعبر عن آراء وتصورات طوائف وجماعات متعددة، وهذه نقطة قوة تسجل لهذه المجلة، وتجعلها تحظى بمصداقية كبيرة في أوساط المفكرين والمثقفين والباحثين الأحرار. فالمجلة، بذلك، هي مائدة نقاش مفتوحة لتبادل الآراء، وصالون فكري يطرح تساؤلات، ويعرض إشكالات في قضايا الفكر الديني المعاصر خصوصا عند المسلمين.

عبد الله الهداري

يرجع الفضل لقضايا إسلامية معاصرة أيضاً، في التعريف بمجموعة من الصيحات الفكرية الدينية الحديثة، أو بمجموعة من المشاريع الفكرية؛ مثل مشروع عبد الكريم سروش وما أثاره من نقاش ساخن، أو مشروع أبي القاسم حاج حمد من خلال بعض مقالاته التأسيسية والمنهجية. وكما ذكر الأستاذ راجيل، فهذه المجلة استطاعت الدخول في صلب العملية التجديدية الدينية ولم تقف عند حدود التبشير بها.

المحور الأول: تقييم محاور المجلة

○ تشتغل مجلة قضايا إسلامية معاصرة بتقنية المحاور. فهل، بنظركم هذه المحاور أساسية، وتلامس مواضيع أولوية بالنسبة للمهتمين بالفكر الإسلامي المعاصر؛ أم هي مجرد محاور

مشوقة، بالفعل، وتلبي بعض مكبوتات القارئ المحروم من السؤال والشغب الفكري. وإلى أي حد تساهم هذه المحاور في انبثاق «السؤال اللاهوتي الإسلامي الجديد» بتعبير مدير المجلة المفكر عبد الجبار الرفاعي؟

إبراهيم أمهال

سأحاول مقاربة الجانب المضموني للمجلة، ليس من زاوية تقييمية وحسب، ولكن من زاوية مدى استجابته لما يطرح داخل الدوائر الثقافية العربية التي تستقبل المجلة، وأقصد هنا بالضبط المغرب. فإذا كان المثقفون الإيرانيون يعيشون فعلا هذه القضايا على مستوى الوضع المجتمعي ككل، عندها فهم يبحثون عن إجابات كل من وجهة نظره، ولكن الطريف أن هناك أرضية مشتركة بين ما يمكن أن نعتبره المثقف الإصلاحي والمثقف المحافظ، من حيث المرجعية المفاهيمية والمرجعية الفلسفية؛ أقصد المرجعية هنا بمفهومها العام، بمعنى أن المحافظ مطلع على المدارس الفلسفية المعاصرة كالمثقف الإصلاحي؛ ولكن المشكل في بلدنا المغرب، بل وعلى امتداد الوطن العربي، هو تلك القطيعة بين مثقف ديني مازال يعيد الإنتاج اللفظي للمنظومة التراثية، ومثقف علماني فقد الكثير من أسلحته الإيديولوجية، فبدأ يتحدث بلغة أخرى تتقصد البنيات الاجتماعية والأوضاع العامة لبلده أكثر مما ينشغل بالبناء الفكري، فنتجت لدينا ثنائيات متضادة ومتهادمة، بين مثقف مغرق في تقليده، ومثقف مغرق في تبعيته. ولا تفتح الجسور بين الطرفين إلا للسجال أو الانتقاء؛ فمثلاً هناك من يستدعي أفكار سروش ليبرر خطابه النقدي والعدمي في بعض الأحيان ضد الفكر الإسلامي، وضد الهوية الإسلامية عموماً، أو يبرر به دعوته للعلمانية؛ أي يصبح استدعاء الفكر المتنور لعبد الكريم سروش مجرد مطرقة لضرب الخصم، أكثر مما هو موضوع حقيقي للنقاش المتعمق.إن الإشكال ليس في المضامين التي تطرحها مجلة قضايا إسلامية معاصرة، لأنها كلها من الناحية النظرية البحتة من أهم القضايا وأخطرها في الفكر الإسلامي، إن الإشكال يكون معقدا، في غياب مثقف شجاع ومتسائل وقادر على مد الجسور بين الأطراف وتكسير هذا الصمم بين الفاعلين الفكريين على اختلاف وجهات نظرهم، من خلال لقاءات وندوات تحضر فيها العقول والأبدان وليس فقط المجلات والأوراق، عندها تتوسع إمكانيات التواصل والحوار، وتكون المرجعية أقرب إلى المشترك الذي يناقش فيه الجميع؛ ومجلة قضايا إسلامية معاصرة، بنظرنا، هي ندوة مفتوحة ومشتركة بين كل الفعاليات الفكرية في إطار الأمة، ومازلنا في حاجة إلى مبادرات نموذجية أخرى من هذا الحجم.

أحمد أكنتيف

اسمحوا لي أن أبدأ مداخلتي في هذه الندوة المباركة عن مجلة قضايا إسلامية معاصرة، وهي مجلة محكمة بامتياز، بهذه المؤاخذات الأخوية؛ فما يؤسفني في بعض أعداد

المجلة، وهي متخصصة وصارمة من الوجهة العلمية، أن تجد بعض الكتابات لا تتوفر فيها ضوابط المنهج العلمي، وبعض الأحيان في حدوده الدنيا؛ فمثلا بعض ما نشرته المجلة في ندوة "التباس المفاهيم"، في العدد ٢٤ -٢٥ حيث جمع بعض "الدكاترة" حول موضوع، يبدو من قراءة مداخلاتهم عدم الأعداد له؛ فتقرأ للدكتور الريسوني "لو تحدثنا بصفة عامة... ص ١١٩ وللدكتور ولد باه: "ليست عندي إضافات كثيرة لما تفضل به الإخوان..." ص ١١٦! وللدكتور هشام داود: "قد أكون أقل الناس بضاعة في هذا الموضوع بحكم اختصاصي... ص ١٢١". فلماذا تنشر مجلة متخصصة كلام غير المتخصصين، والذين لن يضيفوا شيئا..؟ فليست كل مائدة مستديرة مائدة علمية، وليس كل دكتور باحثا. ويمكن تسجيل الملاحظات نفسها على ندوة العدد ٢٦ من المجلة. فالمرجو أن تنشر المجلة البحث والكلام لقيمته، وليس لقيمة صاحبه. كما نلحظ تقصير المجلة في الانفتاح على مسلمين معاصرين ولا يفكرون وفق مناهج تراثية، مثل علماء الاجتماع والاقتصاد، وباحثين غير مسلمين يكتبون عن قضايا المسلمين ومشاكلهم الثقافية، إضافة إلى غياب الصوت الفكري النسائي كليا.

عبد العزيز راجيل

أريد أن أضيف بعض الملاحظات إلى ما ذكره الأستاذ أكنتيف، وهي عبارة عن مقترحات للأخ عبد الجبار الرفاعي، حفظه الله، المشرف العام على هذه المجلة المتميزة، وهي أن يكون مصاحبا للمجلة إصدار رقمي على الانترنيت، ولو أن تكون فيه ملخصات لأعداد المجلة وبحوثها؛ فنحن في المغرب نعاني من توزيع المجلة ونزولها إلى السوق المغربية. كما اقترح دراسة إمكانية تغيير عنوان المجلة بما يستوعب عالمية الإسلام، ووجهات النظر المختلفة، واقترح "قضايا إنسانية معاصرة". أو "قضايا فكرية معاصرة"؛ لأن صفة "الإسلامية" أصبحت توحي بدلالات سلبية نتيجة استغلال هذه الصفة من لدن تجار الإيديولوجيات الدينية. فنريد من المجلة أن تخاطب في رموزها وعلاماتها الإنسان بشكل عام، والإنسان العربي والمسلم، مهما كان توجهه المذهبي والسياسي.

عبد العالي المتقي

أنا أريد أن ألفت النظر إلى الأقلام التي تكتب في قضايا إسلامية معاصرة، فحقيقة، عرفتنا المجلة على كتاب إيرانيين وعراقيين لم نكن نعرفهم، ولم يكن لنا اتصال بكتاباتهم، مثل عبد الكريم سروش، ومصطفى ملكيان، ومحمد مجتهد شبستري، وسرمد الطائي، وهي كتابات مثيرة وناقدة؛ فقد قربتنا المجلة من الإشكالات الفكرية التي يطرحونها. كما نقرأ في المجلة لبعض الأقلام المعروفة عندنا في المغرب، مثل طه جابر العلواني، وحسن الترابي، وجمال الدين عطية، ولكن الدراسات التي نشرت لهم في المجلة كانت أكثر إحكاما ودقة ومنهجية.

ويؤاخذ على المجلة غياب الأقلام المختلفة مع ما يسمى بالطرح الإسلامي المعاصر، خصوصاً الاختلافات الجذرية تصورياً ومنهجياً، أما الاختلافات الجزئية فأصبحنا، والحمد لله، نقرأ في المجلة لمحمد أركون، وعبد المجيد الشرفي، ومحمد عابد الجابري، فنرجو أن تتشجع المجلة أكثر في فتح النقاش الخارجي بين التيارات الفكرية العربية والإسلامية، ونبارك جرأتها في نشر مقالات لاذعة مما يتعلق ببنية الفكر الإسلامي داخلياً، وكذا نثمن الاهتمام بالفكر الفلسفي المغربي، وخاصة ما يبدعه المفكر طه عبد الرحمن.

محمد الإسماعيلي

على غرار ما ذكره الأستاذ المتقي، فأريد بدوري أن أنبه إلى أن المجلة مازالت تعاني من مركزية الكتابة فيها؛ فالأمر يقتصر دائماً على أقلام معينة، وفي الحقيقة هي أقلام نوعية وجادة ومبدعة، ولكن لابد من توسيع دائرة المستكتبين، والانفتاح على أقلام أخرى، كما اقترح إدراج مواد نوعية من الوجهة الفكرية والنقدية مترجمة عن الفكر الغربي المعاصر.

مصطفى بوهندي

أنا أعتقد أنه برغم حيوية المحاور التي اعتنت بها المجلة، والمقاربات الإبداعية الناقدة التي تميزت بها بعض الدراسات والأبحاث، فإن المجلة مازالت في حاجة إلى شجاعة أكبر، لإحداث زلزلات فكرية في واقعنا الإسلامي، لأن قروناً من التخلف، وهيمنة فكر المسلمات، والفكر الثابت، جعلت المنظومة الفكرية التاريخية فكرا مقدسا، وجعلت الإنتاج الإسلامي في عصور معينة هو المعيار الأعلى. والمعالجات المحتشمة، وربما الخائفة، والتي تراعي مشاعر التراثيين وعواطفهم لن تستطيع أن تكون ناجحة، ولن تمس جوهر القضايا التي نحتاج إلى معالجتها.

إن التغيير الذي حصل في العالم اليوم تغيير كبير جداً ومعقد جداً؛ فالتفكير ينبغي أن يكون اليوم على درجة كبيرة من العمق والقوة في الإبداع والنقد؛ فالفرق شاسع بين أنماط التفكير القديم، يوم كان الناس يرحلون ويضربون أكباد الإبل كما يقولون، لجمع رواية أو كلمة، ونمط التفكير الجديد، حيث أصبحت المعلومة تنتقل بكميات كبيرة ومذهلة؛ فما أنتجه الفكر في قرون يمكن نقله اليوم في لحظة قصيرة جداً، وما أنتجه البشر في قرون متتالية يمكن جمعه في أسطوانة صغيرة جداً، ومشاكل الإنسانية اليوم أعقد بكثير مما كان قديماً؛ فنحن، إذن، أمام عالم مختلف، ولا يمكن أن نعالج مشاكله وأسئلته بفكر قديم، وطرق وآليات عفا عنها الزمن.

وللأسف العقل المسلم، في مراحله الأخيرة، قد انسحب من الحياة، ومن ثمة فالفكر الإسلامي هو أيضاً انسحب من الحياة؛ فالهوة كبيرة وبعيدة بين الفكر الإسلامي لما كان

يعالج قضايا الحياة في عصر مضى، والفكر الحديث الذي لا يوجد فيه الإسلام، على الأقل إسماً. وعليه لابد من التركيز على المحاور التي تؤهل التفكير الإسلامي، وكذا التعقيل الإسلامي؛ فالعقل والفكر لا ينقلان كما تنقل البضائع والسلع، ولكن تخلق شروط التأهيل الفكري والعقلي في بيئة المسلمين، وهذه الشروط تنطلق من الإحساس بأزمة ذواتنا وعلومنا ومناهجنا التقليدية.

إن المجال الديني عند المسلمين يعاني من انحباس رهيب؛ فمحاور تعميق الوعي بأزمة الفكر الديني التقليدي أمر مهم عبر دراسات وأبحاث منصفة ومتعمقة وجريئة، وخلق شروط الحوار الديني العلمي بين الباحثين والمهتمين على صفحات هذه المجلة المباركة، بعيدا عن كل الوصايات والتراتبيات القهرية، وبأسلوب استدلالي ومتخلق بالأخلاق الفاضلة التي تأبى غيرها فطرة البشر.

المحور الثاني

- **هل مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مجلة مستقلة، بنظركم، أم هي محسوبة على تيار بعينه، أو مذهب، أو طائفة، ثم ما هي حدود الاستقلال في الإعلام الفكري، بل في الفكر ككل؟**

إبراهيم أمهال

إذا كان المقصود بالاستقلالية التجرد الكامل من المرجعيات والأفكار والمسبقات فهذا وهم، لأن كل واحد يتحدث في نهاية الأمر من موقع معين؛ أي إما اختيارات فكرية، أو مسبقات تصورية، من خلال انتمائه في التاريخ والجغرافيا، والمرجعية الثقافية الواعية أو المضمرة. وعليه فالاستقلالية، بنظري، وعلى هذا المستوى ليست مطروحة أبدا. أما إذا كان المقصود بهذا التحرر من الارتهان لمؤسسات سياسية، تريد أن تحور الفكر أو المجلة في اتجاه خدمة شعارات معينة، أو أنها ترتهن لخطاب مذهبي مغلق، يريد أن يروج عقائد خاصة تحت غطاء الفكر، فهذا ما أجزم أن قضايا إسلامية معاصرة بعيدة عنه؛ فالطريقة التي تطرح بها القضايا الفكرية، وانفتاحها على كتاب يختلفون جذريا في مداخلهم الفكرية والمنهجية، يؤكد ابتعاد المجلة عن كل ما هو تبشيري ودوغمائي، وإن كانت مرتهنة فلهم الأمة وهم الإنسانية، والبحث عن أفق أوسع للفكر الإنساني.

عبد العالي المتقي

أنا أعتقد أن استقلالية مجلة قضايا إسلامية معاصرة، أمر ظاهر، ولا يكاد يحتاج إلى برهان؛ فالمجلة تحتضن خطاباً نقدياً، هو في ذاته لا يمكن أن ينضبط لمؤسسة مغلقة، أو

لطائفة تبليغية، لاعتبار أن النقد وثقافة السؤال هما دائماً ضد المؤسسات المستبدة، وضد الإطارات الطائفية، وضد الأنظمة المعرفية والأنساق الثقافية التي تختفي وراء الشعارات الدينية. أما ما يتعلق بالتهمة المذهبية في حق المجلة، فهي تهمة باطلة بنظري، وغير علمية، ولا تمتلك الأدلة الدنيا بل العليا لتأكيد ذاتها.

إبراهيم أمهال

اسمحوا لي أن أبدي ملاحظة بسيطة ومختصرة، وأرجو ألا أكون قد سطوت على حق الآخرين في الكلام. إن الاستقلالية المطلوبة في مجال الفكر، هي، بنظري، الحد الأدنى من الشروط التي تتيح للفكر فرص النمو الطبيعي؛ وليست هي عدم الانتماء أو الحياد المطلق، فهذا أمر غير موجود أصلا؛ فقد تكون المجلة تابعة لمؤسسة أو مذهب أو فصيل... ولكن منطق الفكر الحر يتطلب حدودا معقولة من التفكير الصحيح، ولعل أهمها الاقتناع الراسخ بنسبيه التفكير ذاته، وطرح القضايا مع الاقتناع والقبول بمناقشتها أوردها من لدن الآخرين المختلفين؛ أي الاعتراف بالآخر الفكري، ثم الاستدلال الكافي على الدعاوى، وعدم الاقتصار على الكليشهات الوعظية العامة، ثم الاستعداد الكافي للمراجعة كلما ظهرت مبررات ذلك، هذا هو الحد الأدنى بنظري، لتأسيس فكر مستقل ومنتج وإيجابي.

محمد همام

اسمحوا لي أن أقدم بعض التوضيحات؛ فقضية الاستقلالية في مجلة قضايا إسلامية معاصرة، قد تطرح للنيل من مصداقيتها، والتقليل من قيمتها الفكرية والنقدية، هذا إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية سلبية، أو بسوء ظن، والأمر وارد، بنظري. فالمجلة، كما ذكرتم، تتميز بنفس نقدي ربما شرس في مقاربة بعض القضايا الفكرية، كما أنها نشرت مواضيع لا أعتقد أن واحدة من المجلات الإسلامية المرتبطة بالتيارات الحركية والسياسية الإسلامية، قادرة على نشرها، أو حتى الاقتراب منها؛ مثل مقالات الذاتي والعرضي في الأديان، والصراطات المستقيمة، والخلاص من اليقين يقين بالخلاص، والأقلي والأكثري في الدين والفقه، وكلها لعبد الكريم سروش، أو مقالات مصطفى ملكيان حول التدين العقلاني، أو محمد مجتهد شبستري حول قبليات الفقيه وفلسفة الدين، أو تعقيبات الناقد سرمد الطائي... فهذه المقالات الهادرة والعميقة تمس بنى الأنساق الفكرية للإسلاميين، وعموم حملة الثقافة الدينية التقليدية. سواء كانوا شيعة أو سنة، فطبيعي أن تتهم المجلة، وأن تتعرض للتبخيس من لدن الإيديولوجيين، الذين لم يكونوا يوما ما منصفين، لان الإيديولوجيا بما هي وعي زائف، فهي دائماً نقيض الفضيلة والعدل.

وعليه فليعلم القراء المغاربة أن هذه المجلة النموذجية يشرف عليها مفكر عراقي، إسمه عبد الجبار الرفاعي، تعرض للمطاردة والاضطهاد، ثم النفي في عهد الديكتاتور المهزوم صدام، ثم التجأ إلى إيران، وواصل نشاطه الفكري في الحوزة العلمية في قم. وإلى اليوم لا تتلقى هذه المجلة العربية الرصينة أي دعم رسمي من إيران، بل لا توزع في إيران، ولا تشتري منها الهيئات الثقافية الرسمية الإيرانية، ولو نسخة واحدة. بل اضطر عبد الجبار الرفاعي إلى بيع حوالي خمسة آلاف كتاب (٥ آلاف كتاب) من خزانته الخاصة، لتغطية تكاليف التصفيف والطبع والنشر. ويقوم هو شخصيا بأعمال التحرير والتصحيح، بمساعدة أبنائه وزوجته، وقد حكت الزوجة المصونة والمناضلة أم محمد معاناة ذلك للأستاذة الدكتورة خديجة الفلالي، وفي الأمر تفاصيل عن معاناة الأخ عبد الجبار لتخرج هذه المجلة إلى القراء في هذا الشكل الأخاذ. وكتاب المجلة لا يحصلون على أية تعويضات، بل مقالاتهم مساهمة فكرية خالصة لوجه الله. وبمجرد ما سقط ديكتاتور بغداد سارع الرفاعي إلى تأسيس «مركز دراسات فلسفة الدين» في بغداد الذي أصبحت المجلة تصدر عنه، بما يبرز أن المجلة ومديرها يملكان قراراتهما، ويتصرفان بحرية واستقلالية.

أحمد اكنتيف

لقد أصدرت مجلة قضايا إسلامية معاصرة إلى اليوم ستة وعشرين عدداً (٢٦)، وحوالي إثنا عشرة ملفا (١٢)، كل هذا جعل مجموعة من المثقفين المغاربة ينسجون علاقات تفاعل وطيدة مع هذه الدورية، بتتبع جديدها، وقراءة ملفاتها، ومناقشة مضامينها ونقدها. ومما يجعلني، شخصيا، معتزا بالعلاقة مع هذه المجلة ـ وقد سبقني المتدخلون إلى ذلك ـ هو مساحة الحرية فيها؛ فقد تعودنا، سابقاً، أن نجد المجلات التي تهتم بالقضايا الثقافية الإسلامية تصدر عن جهات تتوهم أن مشاريعها "جاهزة" والمجلة عندها ليست إلا أداة تبليغ للجاهز وتبشير به. أما مجلة قضايا إسلامية معاصرة فقد تخففت نوعاً ما من هذه الخصوصيات الضيقة، وكذا من الرقابات الذاتية؛ فغالباً ما نجد أبحاثاً ودراسات تعبر عن آراء مختلفة ومتناقضة، ينتقد بعضها البعض، بل يشتمه، كما وجدنا في بعض الحالات المحدودة جداً! فالأقلام التي تظهر في المجلة لا تجمعها صحبة فكرية، أو رفقة تنظيمية، أو حتى رقعة جغرافية. بل يترك الأستاذ الرفاعي المجلة لكل صاحب رأي أو فكر ليعبر عنه ويدافع عنه؛ فنجد سلفية عمارة والعلواني إلى جانب منهجية الحاج حمد وإبداعية سروش... إن الحرية الفكرية والأكاديمية التي تشعرك بها مجلة قضايا إسلامية معاصرة هي نقطة قوة هذا المشروع الإعلامي وقيمته المضافة، أما

المضامين فتقديرها نسبي، ويختلف فيه الناس. فقد لامست المجلة، بالفعل، مجموعة من الهموم الفكرية التي تقلق المثقف المسلم المعاصر، وخاصة فئة الشباب الناقد والثائر على التقليد والسلفية. لامست المجلة ذلك بغير وعظ ديني، ولا معرفة جاهزة، أو مقولات سطحية، بل نشرت دراسات متوترة تزيد القارئ حيرة، وتجعل همه الفكري وقلقه المعرفي يكبران، وهذا شرط أساسي لاستمرار البحث. بل إن بعض الأبحاث بعثرت أوراق التقليديين، وقلبت الطاولة عليهم، وأمثل، بدون حصر، بمقال عبد الكريم سروش "الدين أرحب من الأيديولوجيا" العدد ٢٦؛ فقد خلخل ما أسسه شريعتي مثلاً.

كما لا يفوتني أن أشيد بشكل الإخراج للمجلة الذي تطور كثيرا، فأصبح ذا جمالية وجاذبية؛ إذ المواد مكتوبة بخطوط جيدة وترتيبها ملائم، مع تنوع في المادة بين الدراسة والبحث والحوار والندوة، وكذا المساحة المخصصة لمراجعة الأعداد السابقة، ويجب الانتباه فقط إلى التصحيح اللغوي، حتى لا تصبح الأخطاء اللغوية والمطبعية ظاهرة شائعة ومضايقة لفعل القراءة.

فريد شكري

إذا أردنا أن نجمع السمات المنهجية التي تتسم بها مجلتنا قضايا إسلامية معاصرة، من خلال ما ذكر، فإنه بنظري، يمكن الوقوف على ست سمات.

السمة الأولى: التدليل، أي الانشغال والاشتغال على الدليل الشرعي، ماهية واستدلالا واستشكالا (تفسير القرآن، التعامل مع القرآن، التأويل...).

السمة الثانية: التحليل: أي تفكيك المفاهيم والمقولات، ودراستها ونقدها، وإعادة النظر فيها، من خلال الإطار التاريخي الذي أفرزها، والخلفية الفكرية والتصورية التي أطرتها (الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، الفكر العربي المعاصر، الفكر الإسلامي المعاصر، المفاهيم الملتبسة...).

السمة الثالثة: التعليل: أي الوقوف على الحكم والمقاصد والعلل، باعتبار العقل الإسلامي عقلاً غائياً مقاصدياً (مقاصد الشريعة، فلسفة الفقه...).

السمة الرابعة: التكميل: أي سد الثغرات الفكرية والمنهجية في تراثنا الفكري، وتكميله بالمعطيات الجديدة، والأسئلة الجديدة، والأدوات الجديدة. (علم الكلام الجديد...).

السمة الخامسة: التفعيل: أي البحث الجاد والمضني عن كيفية تحريك هذا التراث الفكري لواقع الأمة، والمساهمة في عملية النهوض الحضاري.

السمة السادسة: التنزيل: أي مواءمة القضايا الفكرية المثارة مع واقع الأمة الإسلامية، تحقيقاً لإجرائيتها وصلاحيتها ونجاعتها، وتقديم الحلول لمشكلات واقعية حقيقية، بعيداً عن

التأملات النخبوية والتعالي أو الإغراق في مناقشة موضوعات هي أقرب إلى الترف الفكري والتعويض النفسي منها إلى هموم الأمة وآلامها وتطلعاتها.

إن هذه السمات الستة، أيها الإخوة، والتي تطبع مجلتنا بشكل بارز ورائع هو ما نفتقده في غيرها من المجلات الإسلامية الفكرية. إلا أن هذا التنويه بالمجلة وبأقلامها وموضوعاتها، لا يمكن فصله تماماً عن طبيعة المشرف عليها وعن عقليته؛ فالدكتور الرفاعي، في الأول والأخير، هو مهندس موضوعاتها وملفاتها، والتي تتأثر بما يتسم به هذا المفكر الشجاع من انفتاح فكري، وتمكن مزدوج من العلوم الشرعية التراثية، وإطلاع واسع على العلوم الإنسانية والمناهج الحديثة، وكذا تميزه بالمتابعة الدقيقة للانتاجات الفكرية في العالم الإسلامي عمودياً وأفقياً، بالإضافة إلى شبكة العلاقات الفكرية الواسعة التي تربطه مع أغلب رواد الإنتاج الفكري الإسلامي والإنساني، يضاف إلى ذلك خلقه الجم، وسعة صدره، وحيويته التي لا تنقطع.

مصطفى بوهندي:

اسمحوا لي، أن أشير إلى قضية، هي بنظري مهمة، ذلك أن بعض المعترضين على المنهج النقدي الجديد في العلوم الإسلامية، ومجلة قضايا إسلامية معاصرة علامة بارزة على هذا التوجه النقدي، يرون أن البحث المعرفي في الشأن الديني له خصوصيات وخطوط حمراء لا ينبغي تجاوزها، باعتبار أن البحث الديني متعلق بالدين، والدين يمس شعور الناس، ومنهم المسلمون؛ فهم مثلاً يقولون، إن مجلة قضايا إسلامية معاصرة تتجاوز الحدود المرسومة في نقد المعرفة الدينية، مثل ما ينشره سروش وغيره من المفكرين النقاد. فبنظري، عندما نبحث في مجال الدين، فنحن نبحث في مجال الإنسان، لأن الدين هو اقتراح حلول لمشاكل الإنسان؛ والأنبياء إنما جاؤوا للإجابة عن أسئلة إنسانية كبيرة؛ والقرآن الكريم لا يمنع السؤال الكبير، سؤال الوجود، وسؤال الله، وسؤال البعث والجزاء والعقاب، وسؤال السلوك في الحياة وغيرها.. فالدين، إذن، لا مشاكل له مع ثقافة السؤال، وكذلك الأنبياء والرسل، بل المشكل عند الناس لأنهم يريدون الحفاظ على مصالحهم بقمع السؤال ومحاربته؛ أما الدين فيقترح أجوبته ويصحبها ببراهين واستدلالات، ويعطي وقتاً كافياً للاقتناع، إنه الحياة والعمر. فإذا كان هذا هو القرآن، وهو ينزل على محمد عليه السلام، وكان هذا منهج الوحي الذي تنزل على كل الأنبياء، من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والآخرين، ممن قصت علينا قصصهم، وممن لم تقص علينا قصصهم؛ فإذا كان السؤال ضرورياً في عهد الأنبياء والرسل، فهو أهم في واقعنا الإسلامي المعاصر، والذي انسحب منه السؤال، وأصبح الاعتقاد أمر تسليمياً وسلبياً، من

خلال معلبات تقدم للناس في غفلة من عقولهم وعواطفهم، على أساس أنها العقيدة الصحيحة التي ينبغي الإيمان بها، دون بحث ودون سؤال. وأصبح السؤال في حد ذاته مرفوضاً. إنها مفارقة عجيبة بين منهج قرآني اقتراحي، يعطي الحرية بشكل واسع، أي حرية السؤال الديني في أعمق مستوياته، وبين واقع إسلامي متخلف يغلب العقيدة، ويكره الناس على الإيمان. إن المجلة الإسلامية الناجحة هي القادرة اليوم على تصحيح هذا الوضع الديني الخطير جداً، ثم القادرة على التأثير الإيجابي في الواقع الإسلامي المؤلم جداً. إن الإيمان يحتاج إلى عملية تفكير وتعقل؛ والمجلة الإسلامية المؤثرة ينبغي أن تثير مسألة التفكير والتعقل في قضايا الإيمان. إن الدين لم يأت ليجيب عن أسئلة الإيمان والكفر فقط؛ بل ليجيب عن أسئلة الحياة؛ فالدين، في معنى آخر، هو فن الحياة، وهذا الفن للحياة يقترحه الناس بطرق جديدة ومتنوعة، وبما يتناسب في كل مرة مع الحياة الجديدة. ولذلك، فالفن القديم للحياة لا يمكن أن يكون صالحا للحياة الجديدة التي نحياها اليوم. فلابد من تجديد الفن، واستيعاب مقتضيات الحياة والمناهج المعاصرة ومتطلبات الناس وتطلعاتهم، من آمال وأماني وأحلام وطموح وجمال وفنون وكل شيء.. فهل يستطيع الإسلام الذي يقدم للناس اليوم أن يكون في مستوى هذه الوظيفة الفنية والجمالية، وأن ينافس الاقتراحات الأخرى من دون إكراه ولا ضغط، وبما لا يضنك حياة الإنسان ويمنعه من ممارسة إنسانيته كما أرادها الله تعالى، أم لابد أن يلعب الدين دور الشرطي الذي يحرم الإنسان من رغباته وأمانيه. إن نجاح المجلة الإسلامية هو في إثارة هذا الشغب الفكري، هو هذه القضايا وغيرها، وإحداث زلزلات من زوايا مختلفة وفي قضايا معينة. ثم يأتي دورها الآخر في الانفتاح على أهل الأديان والمذاهب والعقائد الأخرى، ليسمعوا آراءنا واقتراحنا، ثم نقل آرائهم واقتراحاتهم إلى القارئ المسلم؛ فكثير من القضايا المعاصرة هي قضايا إنسانية تهم أهل المذاهب والعقائد الأخرى كما تهمنا، ثم إنها مدخل للتعارف والتواصل بين الناس، مصداقاً لقوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا".

محمد همام

أيها الأساتذة الأفاضل، باسم الأخ عبد الجبار الرفاعي، المدير المسؤول عن مجلة قضايا إسلامية معاصرة، أشكركم على مشاركتكم في هذه الندوة، وأرجو أن نكون جميعا، قراء ومهتمين بالشأن الديني والفكري، سفراء هذه المجلة المتميزة في مدننا ومؤسساتنا.

والسلام عليكم.

الرفاعي واسع الأفق إنساني الرؤية

يتوق إلى الفكر المتحرر من الإكراهات الأيديولوجية والعرقية والفئوية

✍ طاهر آل عكلة[1]

في البدء

لعله من حسن حظي أن أكون آخر من يكتب عن شخصية المفكر والكاتب والمثقف الدكتور عبد الجبار الرفاعي، حيث غطى الكُتَّاب والعلماء والأكاديميون المساحة الأكبر من حياته العلمية والثقافية، وحتى الشخصية، المكللة بالنجاح والمتوجة بهذه المكانة المرموقة، والمثمرة بهذا العطاء الغزير، والتجربة الرائدة، ولذلك لا أرغب في التكرار، بعد أن رسم الإخوة الأعزاء صورة مشرقةً لهذه الشخصية الفذة، ومع كل ما ذكر أستطيع القول أن التعرف عن قرب على شخصية الرفاعي يكشف عن أبعاد قد تكون غابت عن كل من كتب، فهذه الموسوعية المدهشة، وشبكة العلاقات المذهلة، والعطاء الثر المتواصل لا يمكن أن يتأتى إلا للنوادر من بني البشر.

في بدايات العقد الثامن من القرن المنصرم جمعتني الأقدار بشابٍّ وديع يبدو رزيناً للمشاهد منذ النظرة الأولى وجذاباً في كلامه منذ الجملة الأولى، كان اللقاء دون اتفاق في بيت المرحوم الشيخ (أبو باقر خالد الركابي) في الحوزة العلمية في قم.

وما لفت انتباهي في هذا الشاب، الذي يكبرني بسنوات قليلة، هو الطريقة التي يتحدث بها، والثقة التي يتمتع بها، ومن دون تردد أقول لقد وجدت فيه نموذجاً يختلف تماماً عن كل المحيطين بي، منذ أن شملتني حالة التدين بمفهومها العام، وما إن غادر المكان حتى أمطرتُ أخي وصديقي الشيخ الركابي بالعديد من الأسئلة، فيما يخص هذه الشخصية التي ظلت بعض كلماتها ترن في مسامعي وتستفز عقلي.

وكان جواب صاحبي أنه الأخ "أبو محمد الرفاعي"، شاب متدين مثقف حوزوي، له اهتمامات علمية وثقافية، وهو خريج المعهد الزراعي في بغداد. وتكرر اللقاء مع الرفاعي دونما موعد، كما هو متعارف في مدينة قم فيما يخص التواجد العراقي في المهجر، ولكن انتسابي إلى الحوزة العلمية وفر لي فرصة أكبر من التواصل المقصود وغير المقصود معه، وكلما ازدادت معرفتي بخصاله الشخصية ومواهبه ومستواه العلمي والثقافي ازداد انشدادي إليه والتقرب منه.

---

(١) كاتب عراقي.

وبمرور الزمن تجذرت علاقاتي بالشيخ الرفاعي، حتى صرت أتلهف للقائه، لأنني أجد فيه المتعة والفائدة.

ولست مجاملاً ولا مبالغاً حين أقول أن للشيخ عبد الجبار الرفاعي فضلاً كبيراً وأثراً لا ينكر في توجيهي ورعايتي، سواءً على صعيد الاستفادة المباشرة، أو عن طريق الإقتداء بسيرته العلمية والثقافية وتجربته التي لا أتردد في القول أنها فريدة من نوعها ورائدة بكل المقاييس.

ولم تزل بعض عباراته وجمله راسخةً في ذاكرتي ترفدني بالعزم إذا وهنت، وتبعث بي النشاط إذا تثاقلت، وعدني ذات يوم بإعارتي كتاباً من كتبه التي يعتبرها من (المظنون به على غير أهله) فسألته، وفي أي وقت يكون فراغك حتى آتيك به، فكان جوابه صاعقاً بالنسبة لي حيث قال: ليس لدي فراغ، فما زلت مستيقظاً فأنا أعمل! سمعت هذا الكلام ومن حولي قوم حيارى في تبديد أوقاتهم، يتفننون في خلق ما يتلف الوقت ويبدد أيام العمر، فكان جواب الرفاعي هذا درساً أتلقاه كل يوم عن طريق استذكاره، وكم من مرة ومرة يبسط معي الحديث في ضرورة الجهد العلمي والثقافي المتواصل، ويؤكد على المطالعة المتنوعة المستمرة، لأنها تشكل القاعدة الرصينة والمنطلق القوى في طريق العلم والمعرفة.

الهم الثقافي:

منذ أن عرفت الرفاعي وإلى هذه اللحظة لم أرَهُ إلاّ وهو مهموم يتطلع إلى مشروع ثقافي من شأنه أن ينهض بأمته عموماً وشعبه إلى آفاق النور، ويرسم لها طريقاً تسلكه إلى رقيها وتطورها، ولذلك بدأت محاولاته بخطوات قصيرة بحكم الظروف الضاغطة وطبيعة المرحلة، ولكنه لم يركن إلى اليأس ولم يعرف الاستسلام، فكانت مبادرته الأولى مع عصبة قليلة من إخوانه الذين اجتذبتهم شخصيته واستهوتهم طريقته، هي إصدار مجلة محدودة الانتشار وبطرق بدائية وتكاليف لا تكاد تذكر، لعلها تساهم في بث الوعي في محيط استولى عليه الركود والجمود، وهكذا صدرت (الرأي الآخر).

وما زلت أتذكر استلال موضوعاتها من المجلات العربية المتوفرة، ثم نقوم بترتيبها وتكثيرها عن طريق الاستنساخ، وبأعداد لم تتجاوز في بعض الأحيان الخمسين نسخة. ومع ذلك كان لها أثر ملموس وصدى مسموع، حيث فتحت نافذة أطلت من خلالها مجموعة على فكر آخر ولغة مختلفة، ومنهجية في التفكير لم تكن مألوفة في أوساطنا الحوزوية والسياسية آنذاك.

ملكاته وأدواته:

من غير الممكن لأي إنسان يلتقي الدكتور الرفاعي دون أن تراوده العديد من الأسئلة عن الملكات والمؤهلات التي يتمتع بها هذا الرجل الأسطورة، والآليات والأساليب التي ينتهجها لتسخير هذه الملكات واستغلال المواهب الذاتية.

ولا أدعي في هذا الموجز أنني أحطت بخصوصيات الرجل وإمكاناته، وإنما أقدم على ما أعتقد أو أظن أنني اكتشفته ولمسته من خلال رفقة درب طويل تمتد لعشرات السنين.

الرفاعي إنسان هادف، رسم لحياته مسارها منذ البداية، ولم تجد العشوائية واللاهدفية إلى حياته سبيلاً، والحياة الهادفة لابد وأن تكون مثمرةً وذات عطاء ثر.

الرفاعي عصامي لم يكن يستجدي عوناً من الآخرين، وإنما كان واثقاً بقدراته وإمكاناته الذاتية، فاستثمرها إلى أقصى حد ممكن لبلوغ هدفه ونيل غاياته.

الرفاعي واسع الأفق، إنساني الرؤية، يتوق إلى الفكر المتحرر من الإكراهات الأيديولوجية والعرقية والفئوية، وهو مثابر جاد إلى حد مذهل، حتى أنه لا يفرط باللحظات والدقائق من وقته، غير آبه بالظروف التي تحيط به، والأزمات التي يواجهها.

والميزة التي تطغى على سيرته ودأبه حتى صارت سمةً ظاهرةً يعلمها الجميع في حياته هي تلك الشبكة الواسعة من العلاقات، والتواصل مع الأوساط الاجتماعية على اختلاف طبقاتها وانتماءاتها، بل وفئاتها العمرية، إنه يتواصل مع المفكر الكبير والعالم البارز في ذروة الهرم الاجتماعي نزولاً إلى الشباب والناشئين.

الرفاعي دمث الأخلاق، وديع الطبع، حلو المعشر، يحافظ على الأصدقاء بشكل مفرط، ويهتم بشؤونهم، حتى تظنه يشارك الجميع همومهم، ويصغي لسماع مشاكلهم، ويبدي مواساته لهم، بحسب ما تسمح له ظروفه وطبيعة علاقته.

الدين في حياته عامل وحدة لا اختلاف، وانفتاح لا انغلاف، ووعي لا تخلف، وفكر حر لا طقوس جامدة، وسلم رقي لا درك انحطاط.

ومع كل هذه الميزات والملكات فالرفاعي يحب الحياة، وآماله متفتحة فيها، وجده حثيث لنيلها، ولكن وسائله نظيفة لبلوغ رغباته وأمنياته، لم يتوسل بما لا يرتضيه ضميره، ولم يسود صحيفة أحد ليبيض صحيفته، ولم ينافس بأداة غير مشروعة في مضمار التسابق، بارع في استغلال الفرص، حاذق في الإفادة منها. وأخيراً لو كان الرجل في بلد غير العراق، وأجواء توفر له من الإمكانات ما هو أفضل لكان إنتاجه أوسع، وعطاؤه أشمل، ومع ذلك فجهوده العلمية وأطروحاته المعرفية وسيرته الذاتية جديرة بكل الاحترام والتقدير، وأن يكون مثالاً يحتذى، وقدوة لمن يريد رؤية النجاح متجسدا في شخص كافح بمفرده واعتمد على نفسه، واستثمر أيام شبابه، دون أن يغفل متطلبات أسرته واستحقاقات محيطه ومجتمعه.❖

المفكر عبد الجبار الرفاعي
مشـــروع إنســـان

✍ د. مريم آيت أحمد[١]

من الصعب جداً الحديث عن شخصية فكرية، بقدر رفعة العلاقات الإنسانية، زمن طغيان المجاملات اللفظية بين أهل الفن والرياضة والإعلام... تعرفت على المفكر عبد الجبار الرفاعي، من خلال ما كنت أقرأ له من مواضيع في مجلة قضايا إسلامية معاصرة، وهي مجلة كانت تلبي نهم رغبة الباحثين في قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، كغيرها من المجلات التي كنا نبحث عنها في الأكشاك والمكتبات شهريا، مجلة تميزت بتنوع كتّابها من كبار مفكري العالم الإسلامي، سنة وشيعة، عربا وعجما، وكبار مفكري الغرب المسيحي، كما تميزت بجرأة عالية في طرح قضايا علم الكلام الجديد وفلسفة الدين، الذي يقود حركية القارئ، نحو عوالم البحث عن أسباب الركود الفكري في ميادين تهم: فلسفة الدين، وعلم الكلام الجديد، والهرمنيوطيقا، والألسنيات الجديدة وتطبيقاتها في مجال النصوص الدينية، والمناهج والنظريات الحديثة في علم الاجتماع الديني، والانثربولوجيا الدينية، وعلم النفس الديني، ودراسة الظواهر الدينية، والتجربة الدينية، والتعددية، ورهانات الفلسفة والدين والحداثة، ومقاصد الشريعة، والأولويات الفقهية، وفلسفة الفقه، والدراسات القرآنية، والفكر السياسي الإسلامي، والعلاقة بين العلوم الاجتماعية والدراسات الإسلامية...

كنت في التسعينيات طالبة باحثة في موضوع الأديان، والحوار والتعايش الإنساني، والأمن الروحي والفكري، في مواجهة الصراعات الطائفية والدينية، فوجدت في تميز طرحها، وتنوع آراء كتابها بكافة ألوانهم الدينية والمذهبية، بستاناً ممتداً عابراً للحدود، يعبق عطره المنفتح، بعدم تحيز آراء كتابه، مما يدفع الباحث إلى التنقيب عن سر نكهة هذا العطار المتميز في خلطته الفكرية، بقوة الطرح، والسؤال، والجرأة في القراءة، والنقد، والاستشراف.

(١) أستاذة التعليم العالي في حوار الأديان والثقافات والفكر الإسلامي، رئيسة مركز إنماء للأبحاث والدراسات المستقبلية، جامعة بن طفيل، المملكة المغربية.

شخصية الرفاعي الريفية النبع والأصل، دفعته إلى الانفتاح على رحاب الصلة بنسيم طين الأرض، الذي انبعث منه الإنسان، فأحبّ الطين والأرض والإنسان، وتعلم من حب الأرض صبر الإنسان على حرثها وسقيها، وتقبل سنوات قحطها، إلى حين فرحة قطف ثمارها، وهكذا انطلق في مساره المعرفي، على قلة موارده التي منعها عن نفسه، خدمة لطائفة أو اتجاه معين. فانطلق بثمار فكره الناضج، وثقل معايير صلة الأرحام المعرفية، إلى رحاب جسر العبور نحو الآخر، بمنطق "التدين العقلاني"، منهجا وفكرا، وآدابا ولغة، ومعرفة.

نعم لقد اجتاز الرفاعي الرجل الإنسان، كل الحدود الضيقة الفكر، والمنغلقة الاتجاه،واستطاع بإمكاناته المتواضعة،أن يسافر بمشروعه الحواري الإنساني الراقي،عبر الحدود، غير آبه بمتطلبات بنود الحصول على تأشيرة العبور، نحو إحياء مشروع البحث في إنسانية الإنسان، وغير مستسلم لمنطق الجيتو الفكري والمذهبي الضيق.

ففكره القيمي الإنساني، أنار برساليته كل دروب الباحثين عن منطق الفكر الحر، المتسع لكل الآراء والأفكار والاتجاهات، الفكر المؤمن بالتعددية نظرياً وتطبيقياً، فأثمر ثمرة سلام طيبة، جالت بنكهة عطر أفكارها المتلونة بقاع العالم الإسلامي. لقد تمكن مؤسس مجلة قضايا إسلامية معاصرة من جعلها، عملة من معدن خالص خال من الشوائب الضيقة،فكان نموذجا للمتدين الحداثي العقلاني الراقي في البذل والعطاء ونكران الذات.

التقيت بهذا المفكر المبدع في رحاب مكة الشريفة، في موسم الحج عام ٢٠٠٥، في ندوة الحج الكبرى، والاحتفاء بمكة عاصمة للثقافة الإسلامية، فرأيت في حسن رقي آدابه العالية، الرجل الإنسان، الذي تربّى بين أحضان أسرة محافظة غرست في همّته، طموحاً نحو تحقيق الكمال الروحي وليس المادي، مما انعكس عليه في سلوكياته اليومية. فكان مدرسة خلقية في قيم التعامل الإنساني، كنت ألحظه عن بعد،وهو الرجل العالم، لم يأخذه غرور موائد الحوارات الفكرية مع كبار علماء الأمة، عن الاهتمام بوالدي المسنّ، الذي كان يجلس بجنبه على طاولة العشاء، يقطع له التفاح قطعاً صغيرة، ويناولها له، كأنه والده المسن،أو ابنه الصغير، إنها مدرسة التربية والتواضع والعناية بالإنسان.

التقيت به مرة أخرى سنة ٢٠٠٩ بمكتبة الإسكندرية، على هامش مؤتمر قضايا ومشاريع الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، وهناك أتيحت لي فرصة

التعرف به عن قرب، فوجدت فيهرجل الدين والفلسفة، رجل الفكر المهموم بقضايا عصره، المفكر الباحث عن سبل إنقاذ إنسانية الإنسان، الضائعة في تيه عوالم التكفير والتطهير والإقصاء والإبادة. باحث أرّقته حرقة الفرقة والنزاع والصراع باسم الدين والتحزب والتعصب، وفي جناح أروقة فضاء باحة مكتبة الإسكندرية، وبرواق قسم المخطوطات في مكتب الروائي المعروف يوسف زيدان، أخذتنا حيرة السؤال، وبشهادة هيبة المكان، وأسراره، وثقل مخزونه، اندفع الفكر إلى تجاذب أطراف حديث مثقل، بهموم واقع الإنسان المتردي داخل المنظومة الدينية، وعن بعد المتديّن عن جوهر الدين، والتشبث بمظاهر التدين، وبين استراحة وأخرى عقب جلسات المؤتمر، كنت أجد المفكر عبد الجبار الرفاعي، يترجم كتاباته ومقالاته عن التعايش السلمي بين الأفكار والمناهج والأديان والطوائف، إلى حقيقة ملموسة، فهو صديق الكل، يتنقل في جلساته الودية بابتسامة هادئة، ويستمع بصدر رحب، لآراء أطياف من رواد المعرفة، بشتى ألوانهم المذهبية وانتماءاتهم الفكرية والدينية، فيلخص بسلوكه المنفتح جوهر إيمانه، بتجربته الدينية العميقة، في الإيمان بالتنوع الثقافي والتعددية، إيماناً يبعده عن شبهة الخطابات الشعبوية، المنادية بقبول الآخر ظاهرياً، والرافضة له باطنياً.

هذا السلوك وتلك الرحلة الشاقة الطويلة في دروب متاهات البحث عن آليات الإصلاح والتجديد، اللامتحيز للعرق أو المذهب أو الطائفة، جعلته يحتل مرتبة وسطية المتدينين العقلانيين، إذ استطاع من خلال مشروعه الإنقاذي لإنسانية الإنسان، أن يجمع العقلاء من الأطياف المذهبية والدينية والحزبية والفكرية كافة، على مائدة حوار معرفي، حول مستقبل النزعة الإنسانية في الدين، حوار رشّح لتدبير مناهجه، عقلاء يمتلكون اللسان المعرفي، والقلب الرحيم بالإنسان، والعقل المستشرف لقضايا استخلافه وعمارته وتمكينه في الأرض.

عبد الجبار الرفاعي الإنسان، مؤسس "مركز دراسات بيت الدين"، ومجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، حكا لي في مؤتمر الإسكندرية آخر عهدي بلقائه، عن مشقة رحلة سفره في الإنسان قبل الزمان والمكان.وختم قصة رحلته، بقوله يا دكتورة مريم: لا الحوزة بإيران حوّلتني بما نهلت فيها من علوم دينية صرفة، إلى فقيه متحيز في محراب تعبده للتاريخ الحوزوي في إطاره الضيق، ولا الحداثة في العراق صيرتني لائكاً للمذهب، متحيزاً إلى علمانية شاملة متطرفة، تطهّر المحيط الاجتماعي من مظاهر التدين....

لقد استطاع الرفاعي بعقلانية المتدين، المتشربة لمعارف الحداثة، أن يوازن بين التدين والعقلانية الحداثية، توازناً أكسبه خبرة التمكن، من آليات إنجاح البعد الإنساني لمستقبل قضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر. وحين دعاني المفكر عبد الجبار الرفاعي إلى الكتابة في مجلة قضايا إسلامية معاصرة بموضوع الردة في الأديان السماوية عام ٢٠٠٩، تيقنت من أنه كان يدفعني لإنزال البحث النظري حول الحوار الديني في القرآن الكريم وحكمه وأبعاده الإنسانية والكونية، إلى المجال العملي التطبيقي والواقعي، وكأنه يسائلني عن تمثلي للقيم الدينية الإنسانية، الموجودة في الأديان. فشتّان بين الإيمان بالحرية الدينية، ومجالات تطبيقها في قالب رسالة الإسلام السمحة للعالمين. فجاء بحثي بجواب جرئ، نقلني من فكر حزبية التدين المتصلب، إلى فكر اختزله الدين في عدم الإكراه وثقافة التسامح والعفو والمحبة والتراحم ...

وكم سعدت بمدى إصرار المفكر عبد الجبار الرفاعي شخصياً على مشاركتي ضمن فعاليات هذا العطاء المعرفي الحافل، الذي ساهم فيه كل من يعرف مساره العلمي المتميز، من علماء ومفكرين وأصدقاء، وهي إشارة إن دلت على شيء، فإنما تدل على إيمان الرجل، بضرورة حضور المرأة المعرفي، ومشاركتها الفاعلة في استشراف قضايا أمتها، بعيدا عن لغة الإقصاء والاستبعاد، فالأستاذ الرفاعي لا يخفي أبداً تعامله الراقي القيمي مع المرأة زوجته ورفيقة عمره، وذلك ما عاينت في ندوة الحج بمكة، كما لم يحاول أبدا إخفاء الهويات الأخرى والتحيز لمذهبه، وبذلك حقق ذاته، في فضاء تجربة دينية وروحية وإنسانية عميقة، ورأى حكمة وجوده في هذه التجربة الإنسانية الرائدة، التي لا تتماشى مع أعراف جيولوجية متكلسة الطبقات، تعزل هوية الإنسان، وتجربته الدينية والروحية عن كيانه الاجتماعي، فامتلك بسعة أفقه وانفتاحه على الآخر، نظرة استشرافية راقية عن مستقبل أبعاد إنسانية الإنسان في منظومة التدين... ورؤية حضارية نتمنى لها الاستمرار بالروح نفسها والأبعاد القيمية المشتركة في سوق المنافسات الحضارية العالمية.

❖ ❖ ❖

إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين
كتاب في التساؤل[1]

✍ إسماعيل شاكر الرفاعي[2]

يثير هذا الكتاب تساؤلات أكثر مما يمنح قارئه مهدئات ومسكنات ويقينيات. هذا كتاب في التساؤل. فإذا ما حاول الكاتب أن يصل إلى يقين ما، يثير تساؤل القارئ حول هذا اليقين، لكأن المؤلف لا يريد للقارئ أن ينهي رحلته بإجابات حاسمة ويقينيات. هذا على الأقل الإحساس الذي راودني وأنا أقرأ الكتاب.

يأخذك الكاتب معه في رحلة حفريات فكرية لمنطقة جغرافية تمتد من الهند إلى مصر إلى إيران إلى النجف العراقية، للدرجة التي تقنعك بخطل الرأي السائد لدى البعض من مؤرخي الفلسفة ومنهم عرب، بأن التفكير الفلسفي غربي الوجه واليد واللسان. فهذه المنطقة التي كان اليونانيون قد شملوها بتوصيف البرابرة، قد منحت للكون وللحياة ولدور الإنسان في الحياة "معنى"، في ما اجترحته من منجزات حضارية مبكرة على يد السومريين والفراعنة والهنود والصينيين، سابقة على التفكير اليوناني بآلاف السنين. ذلك أن بناء الحضارات يقو م على هدف، ولا تولد الأهداف الحضارية الا جواباً على تساؤلات، كان السؤال الديني في القلب منها.لم يشهق بناء الزقورات في بلاد سومر، ولا الإهرامات في بلاد الفراعنة، ولا قصور الملوك - الكهنة، ولا مشاريع الري إلا انطلاقاً من أداء واجب ديني. إذ كان الدين هو المرجعية لدويلات المدن التي قامت في هذه المناطق الجغرافية، وهو الهادي والمرشد في أحكامه ورؤاه الكونية لتلك التنظيمات التي سُميت"دويلات / مدن".ولذا فأن تعريف الكاتب للإنسان بأنه "كائن ديني" يتضمن التعريفات السابقة له في الفلسفة اليونانية:" كحيوان ناطق، أو سياسي، مع التنبه إلى ان هذا التعريف يأخذ معناه من ثنائية: الأحرار - العبيد، كرؤية مركزية في تنظيم الشأن العام في دويلات المدن اليونانية. أو كما جاء تعريفه لاحقاً كصانع أدوات، أو هو الكائن المسكون بالبحث عن معنى الوجود..الخ، ويتجاوزها إلى معنى المعنى التي تشف عنها داخل كل ديانة معادلة العلاقة بين السماء "الإله أو القوة المنظمة للكون" والأرض "المتلقية لما تلقي به القوة السماوية من أوامر"، التي يحولها الإنسان إلى علاقة عشق وهيام فيحاول التماهي بتلك القوة السماوية،

---

(١) مراجعة نقدية لكتاب: د. عبدالجبار الرفاعي. إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين. بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين، ط٢، ٢٠١٣، ٤١٥ص.

(٢) روائي وكاتب عراقي.

وفي هذه المحاولة يتفجر لديه وأمامه المعنى، حسب تعبير الدكتور الرفاعي: [الذي يتداخل فيه الجمال بالجلال] فالتواصل مع السماء، مع عالم الغيب عبر طقوس محددة يؤدي إلى التسامي والتجرد [من دنيا المحسوس إلى الشهود والكشف الملكوتي، وارتواء ظمأهم الانطولوجي للمعنى، في عالم تفتقر فيه حياتنا لما يخلع عليها معنى .. ص ٦٢]. تمر هذه الطقوس بأسفار أربعة [يرحل السالك فيها من العالم السفلي إلى العالم العلوي، فيسافر في قوس الصعود من عالم المادة، لتنتهي رحلته إلى الحق تعالى ... وهكذا حتى يصل إلى غايته التي هي منتهى كل غاية، وهو الحق سبحانه، ص ٦٤]، وآنئذ تتم [عودة الإنسان إلى وظيفته الكامنة في خلقه باستسلامه وعبوديته للحق، ص ٦٣].

مع الدين تكوّن للإنسان ضمير أخلاقي، وبدأً يقيس الأمور بمقياس العدالة، من مقولاتها الأولى التي تمحورت حول المعاملة بالمثل، إلى مقولاتها العريضة التي تجاوزت بها منظور جماعة ثقافية أو عرقية واحدة في بقعة جغرافية محددة. الدين هنا، أو بالأحرى هذه الطريقة من ممارسته التي يعود الإنسان من خلالها، كما يقول: إلى [وظيفته الكامنة في خلقه]، والمتمثلة [باستسلامه وعبادته للخالق]، تمنح للإنسان الطمأنينة التي هو بحاجة إليها، في عالم شاسع لا متناهي يمور بمختلف الظواهر، التي تسبب لنا هزات روحية ونفسية. فالحلول أو الإتحاد بالحق، يمنحنا القوة التي تحيل تلك الظواهر البعيدة، التي يخيفنا غيابها عن حواسنا، ويقلقنا التفكير بعدم قدرتنا على تصور كينونتها أو تصور قوانين حركتها، تحيلها قوتنا الجديدة الناتجة عن إتحادنا بالقوة السماوية العظمى إلى حضور دائم في حواسنا، لكأنما تتلبسنا قوة السيطرة عليها، فيصبح وجودها ضرورياً لوجودنا، فنطمئن إلى ان كل شيء في الوجود: من التشريعات الأرضية، التي ألزمتنا قوة السماء بالتقيد بها، إلى النواميس التي وضعها الحق لكونه، هي تشريعاتنا ونواميسنا، وهي حالة خاصة يصل إليها المريد حين يصل [حالة السكر]، بعد أن [تتوهج أرواحهم وتشتعل أحاسيسهم، ص٦٥]، وهكذا ترتفع الحجب عن عين الرائي الذي هو الإنسان المتشوف إلى الأعالي ..... [ذلك أن حياة مفرغة من أية مشاعر دينية أو مستغنية بشكل تام عن المتطلبات المعنوية للإنسان ولا تصبو للمتعالي، ولا تتوق للمتناهي، ولا تسعى لقول ما لا يمكن قوله، أو التعبير عن ما لا يمكن التعبير عنه، أو تصور ما لا يمكن تصوره، إن مثل هذه الحياة لا تتسع لها أرضنا ... ص ٢٧٤].

من أجل إزاحة ما تراكم - عبر القرون - على جوهر الدين من ركام، يحاول الكاتب أن يعاين ويدرس ويفكك الطرق التي قام بها فقهاء وعلماء كلام وفلاسفة إسلاميين سبقوه في هذا المسعى، عبر القرنين التاسع عشر والعشرين. عليّ أن أشير هنا إلى ان ذلك المسعى الذي يدخل في باب "الإصلاح" لم يكن مدفوعاً بعوامل ذاتية داخلية أوجبت إصلاح المنظومة الفكرية السائدة، أي زاوية نظر تفكير الإنسان المسلم في مواجهة التحديات، وإنما كانت

نوعاً من الاستجابة للتحدي الذي بدأ الغرب يشكله، بحيث أيقن البعض من المفكرين الإسلاميين بأن " الإصلاح "أصبح ضرورة حياتية، من دونه لا مجال لرد التحدي الذي بدأ الغرب يفرضه على الدول الإسلامية: احتلالاً وإعادة تنظيم بالقوة لمؤسساتها، ونهباً لثرواتها، مصحوباً بزاوية نظر جديدة إلى الكون والحياة، والى دور الإنسان في الحياة. كان تحدياً شرساً وشاملاً لكل جوانب الحياة: الاقتصادية والتنظيمية والثقافية.فكل هذه المحاولات التي يعالجها الكاتب جاءت رداً على تحدي الخارج، ولم تكن نتيجة لتطور داخلي ذاتي. وقد لا أغالي إذا قلت بأن تفاوت آراء المصلحين الإسلاميين كان وما يزال نتيجة من نتائج تفاوت اطلاعهم على المناهج الغربية وتأثرهم بها. المحاولة مستمرة ما استمرت الحضارة الصناعية الرأسمالية تنتج من داخلها مناهج جديدة في دراسة الظواهر الاجتماعية ومنها الظاهرة الدينية، بحيث استمر المنهج الأوروبي انطلاقاً من معطيات العلوم الإنسانية الحديثة يراكم إنجازاته، في عملية نقد متواصلة للذات، حتى وهي ترتقي سلم الحداثة، فيما أنتج المنهج النقدي لدينا انبعاثاً أصولياً جارفاً .

يقدم أحد محاوري الدكتور عبد الجبار الرفاعي بطاقة تعريف له مشيراً فيها إلى أنه: [الباحث والمفكر والعلامة، الذي تبنى تحديث اللاهوت ــ علم الكلام ــ في كتاباته التنويرية، ص ٢٢]. في رؤيته التحديثية هذه لا ينطلق الشيخ / الدكتور من إسقاط معان ودلالات مفاهيم ومصطلحات حديثة على المفاهيم الإسلامية الموروثة،كما فعل البعض من "المصلحين" بوعي أو بدونه، لمصادرة منجزات وإبداعات الأمم الأخرى بإرجاعها إلى " الأصول" التي وضعها السلف. نجد مثالاً صارخاً على هذه المصادرة في القول الشهير الذي أطلقه محمد عبده في زيارته لأوروبا: "وجدتُ إسلاماً"ـ أي وجد أصول الإسلام، التي قررها علم الكلام والفقه للحياة منذ تاريخ صياغتها إلى يوم القيامة ـ" ولم أجد مسلمين. لكأن أوروبا وهي تدرج حثيثاً نحو استكمال ملامح حداثتها بنقد نفسها " تاريخها وموروثها " بحرية، تستوحي أصولنا التي تفتقد للجانب الأهم من أسباب انطلاقتها وهي "الحرية". وكأناوروبا وهي تبني دولة جديدة في التاريخ، تنطلق من محاكاة مؤسسات الدولة الإسلامية في التاريخ " الاموية، العباسية، الفاطمية ..الخ "، التي كان يجلس على قمة هرمها خليفة لا يُسأل عما يقرر، كونه ظل الله في الأرض، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا، وهي تغادر القرن التاسع عشر" وقت زيارة الشيخ محمد عبده لها " تغادر ذلك الاهاب القديم من الدول، في انعطافة تاريخية انتقلت فيها سيادة الدولة من: العاهل إلى الشعب. وانتقل فيه المجتمع من: الرعية إلى المواطنة.

ينتقد الشيخ الدكتور هذه الرؤية الإسقاطية في الفصل المعنون " اختزال الدين في الأيديولوجيا، ص٧٧ "، مثلما ينتقد الانطلاق من موروث طائفة واحدة في إعادة قراءة التراث

الإسلامي، وإهمال تراث الطوائف الإسلامية الأخرى، كما فعل محمد عبده ورشيد رضا في قراءتهم للموروث وللتاريخ الإسلامي، انطلاقاً من الغزالي والأشعرية وابن تيمية "راجع: فصل٩ من الكتاب، ص٢٠١". إنما توجه إلى نقد المشترك العام الذي استقت منه كل الفرق الإسلامية أصولها، وهو علم الكلام " راجع فصل٨ من الكتاب: المرجعيات الكلامية للفقيه، ص ١٨١ ". ذلك لأنّ [المقولات الكلامية واصلت حضورها في التفكير الفقهي، وترسخت بالتدريج كمرجعيات يصدر عنها هذا التفكير، من خلال استعارة وتشكيل قواعد استنباط الأحكام الشرعية في ضوئها، ص ١٨٥]. الفقه هو التشريع، والمؤسسة التشريعية في الدولة الحديثة مستقلة بذاتها عن أي سلطة خارجية: "سلطة أصول،أو سلطة فقيه، أو تسلط حزب أو زعيم، أو فكرة قومية"، وهذا هو بحد ذاته المأزق التاريخي الذي يواجه الفقه الإسلامي، في عالم أصبحت فيه الحرية، المتفلتة على الأصول، مرجعية للدولة الحديثة، فأدى ذلك إلى لترهل الفقه، وأن تستبد به مشكلات مزمنة .. وتتكدس أدواته وأساليبه المتوارثة في الاستنباط]. وحتى محاولة الشاطبي في إحياء مقاصد الشريعة توقفت، مثلما توقفت محاولة تلميذه النابه في عصرنا الحديث الشيخ محمد الطاهر بن عاشور[عند حدود التغيير الشكلي في أسلوب الممارسة التشريعية، ص١٨٩]. يرصد الشيخ الدكتور هذا المأزق حين يقول: [إشكالية الفقه مندرجة في إشكالية التراث بأسره، من هنا ينبغي أن يعاد النظر في نسيج المعارف الموروثة المولدة للفقه، وذلك بغربلتها لمعرفة مدى الاستجابة للوفاء بالمتطلبات التشريعية لكل زمان ومكان، ص١٩٠].

يمثل الفقه والأصول، التي ينطلق منها في اللحظة التاريخية التي نعيش، إشكاليتنا الكبرى في عالم صنعت منه حضارة التصنيع القائمة عالماً متشابكاً، لم تعد فيه قوة التمسك بالأصول دلالة على قوة الهوية، بل دلالة على تهرب واضح من ضرورة المشاركة في إنتاجها المادي والفكري، إذ ان قوة هوية أمة ما تندرج تحت التمسك " بأصول" هذه الحضارة، التي يدخل الإبداع والابتكار في ميادين التشريع والمؤسسات، والإنتاجين المادي والفكري ـ الروحي، ومن ثم منافسة الأمم الأخرى بها، بنداً أساسياً من بنود أصولها. إن البلدان التي نعترف في أدبياتنا بأنها متطورة " أي التي أنتجت خبرتها الحياتية معايير عالمية في ميادين الإنتاج وإدارة الشأن العام"، حلت هذا المأزق بمبادرة تاريخية من مجتمعاتها، حققت فيها النسبة الضرورية المطلوبة من الانقطاع عن "أصولها"، وإبداع أصول جديدة، في عملية تكيف ومزج خلاّقة بين القديم والجديد، وكلما كيفت هذه الأمم أصولها القديمة لتتلاءم مع أصول ومعايير الحضارة الحديثة، كلما كان الانسجام بينها وبين باقي الأمم عالياً، وتقلصت مساحات العداء والأزمات والحروب.

كل أزمات حياتنا في مختلف جوانبها نتيجة من نتائج عدم قدرة طلائعنا الفكرية على حل هذه المعادلة التاريخية. وحتى لو توصل البعض من هذه الطلائع إلى حلول صحيحة، فأن تخلف الأحزاب السياسية المعبر عنه في عجزها القاتل عن تحويل هذه الحلول إلى مقولات سياسية تتسيد الأفق السياسي العام وتتحول إلى قوة مادية مؤثرة وموجهة للسياسات والقرارات، نتيجة غياب المبدأ الديمقراطي الناظم لعلاقاتها الداخلية، يحول هذه الحلول الناجعة إلى مقولات ميتة خالية من الروح والإشعاع فيطويها النسيان.

يرى الشيخ الدكتور الرفاعي بأن الحل يتوقف على مدى تسلحنا بنظرة تاريخية تنظر إلى القواعد الأصولية على انها معرفة [أنتجتها سياقات تاريخية وثقافية ودينية محددة، وانها لا تتوافر على إمكانات استثنائية تتعالى بها على الواقع المنتجة في داخله، ص١٩٠]. هذه النظرة التاريخية تتطلب تغييراً في زاوية النظر يصبح فيها الدين [ظاهرة تخضع لما تخضع له أية ظاهرة من حيث إمكان فهمها وتحليلها ومعرفة آليات اشتغالها، ص١٩٠]، وحين يصبح الدين ظاهرة خاضعة للتحليل والمعاينة، يتحول في الوعي الإنساني من كونه زاوية نظر، يتم في ضوئها التفسير الشامل للأشياء والكون والعالم إلى ظاهرة خاضعة للتفسير. يفرض هذا التغير في زاوية النظر إلى الدين: "تطور العلوم الطبيعية والإنسانية، ذلك لأن فهم الشريعة ليس مستقلاً عن فهم الطبيعة، فالعلوم الجديدة لا تترك معارفنا السابقة على حالها وإنما تتصرف في مضمونها. ويفرضه منطق المعرفة الدينية التي هي مزيج من الآراء الظنية واليقينية، والصواب والخطأ، ص١٩١ ". ويفرضه ضرورة التفرقة بين الدين وبين الخطاب الديني، إذ ان فهم البشر للدين لا يمكن تجريده عن بصمة العصر الذي انبثق فيه، وهو منخرط في تاريخ أصحابه، وليس حقائق أو جواهر مثالية متسامية على الواقع. يفسر الشيخ الدكتور أبدية الأحكام وعمومها لكافة الأزمان والأحوال، التي تشير اليها مفردة الأصول إلى: "أن بنية الفقيه الذهنية مشبعة بمجموعة مسلمات تتضمن مقولات كلامية تؤطر فهمه للإنسان وطبيعة علاقته باللّه والوحي والنبوة وختم النبوة والأحكام الشرعية، تشكل خلفيات تتحكم بالفقيه حينما يمارس عملية الاستنباط أكثر مما تتحكم به النصوص المتاحة وإن حضرت ألفاظها". ولهذا يتفق الدكتور مع محمد إقبال الذي يرى استحالة [بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه، وإن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو . ص ١٩٥].

المنهج والإستراتيجية في الإنقاذ:

عنوان الكتاب يفيض بمحتواه: ثمة أصل من أصول الدين "ولنقل هنا الإسلام"، أسقطته عن باقي الأصول القراءات والتأويلات المتعددة للدين إلى أن تم نسيانه.

واستراتيجية شيخنا الدكتور الرفاعي تتمثل بإنقاذ هذا الأصل المغيب عن عمد، وذلك بإعادة قراءة لهذه القراءات المتعددة للدين: انطلاقاً من مبدأ المطابقة بين الدين وبين نزوعه الإنساني. فكما حتمت العصور والحقب التي مر بها المسلمون هذه القراءات المتعددة، يفرض واقع عصرنا إعادة الحياة لثابت المطابقة بين الدين وبين جوهره المتمثل بنزعته الإنسانية. هذا هو جديد الكتاب، وهذه هي إضافته المنهجية. وبما أن المناهج خطوات ملزِمة، فأن شرط المطابقة هو الشرط الأول الذي يسبق أي شرط في منهجية شيخنا المفكر لقراءة الدين. ستشكل هذه الإضافة كما أرى، عقبة كأداء أمام كل محاولة تريد ـ في قراءتها ـ توظيف الدين لهذه الغاية أو تلك. تفرض هذه المطابقة النظر إلى الدين: كينونة غير مادية، عصية على التشكل، وغير خاضعة لعوامل الكون والفساد. الدين في رؤية الشيخ أكبر من حدوده التي يتخيلها معتنقوه، وقد لا أغالي إذا قلت بأن الدين في هذه الرؤية أوسع من الحياة نفسها، وأعمق في ذاته من تساؤلات البشر فيها. ومفكرنا لا يقصد هنا ديانة بعينها بل الدين بإطلاق.

صحيح أن فصول الكتاب، تحدثنا عن محاولات سابقة لفقهاء وعلماء كلام ومفكرين إسلاميين، إلا أننا نستطيع أن نستشف هذا الهم، هم تحرير الدين لا ديانة بعينها: من مأسسته، من قوننته، من تحويله إلى شعار سياسي، وبالأحرى من تثبيته في زمان ومكان وربطه بوعي بشر ذلك الزمكان. يقول الشيخ المفكر عن الكتاب: [إن من يطالع صفحاته يجد أن صميم رسالته الاحتجاج على كل هذا الواقع المأساوي للدين، ونقد كل هذا الزيف المهول الذي يوضع على اسمه ص٧]، فهذا الزيف أدى إلى [تلويث المجال الاجتماعي العام .. وتفشي أنماط همجية متوحشة من العنف الديني ص٨]. لا يعبأ الشيخ المفكر بما يقال عن هذا المنهج الذي أخذ نفسه به، والذي قد يراه البعض في محاولته هذه أشبه بالحالم [يحلم بعالم رومانسي مثالي لا صلة له بمجتمعات اليوم ص٨]. هل حقاً إن هذا المنهج الجديد في قراءة الدين لا يمكن أن يكون أكثر من حلم رومانسي؟ إذا في أي باب نضع هذه الرؤيا: [هذا الكتاب لا يدافع عن فشل الإسلاميين في إدارة السلطة ص ٨]؟ أنضعها في باب الرومانسية أم في باب المعاينة الدقيقة للواقع المعيوش، واستشراف ميوله واتجاهاته التي يمكن التنبؤ بها نتيجة التشابه في تكرر الأحداث ذاتها في أكثر من بلد عربي، خاصة بعد نجاح الإسلاميين في الوصول إلى السلطة بعد أحداث الربيع العربي؟

يربط الشيخ فشل الإسلاميين في إدارة السلطة انطلاقاً من منظومتهم الفكرية التي تتسبب بعجزهم وقصورهم: [في إدراك الجذور العميقة للدولة الحديثة.. ص ٨]. وهنا أرى انه من الضروري توضيح هذه الرؤية التاريخية، انطلاقاً من سياق منهج الشيخ نفسه في الكتاب

بالقول: لم يكن قرار إعادة قراءة الموروث التي تبناها فقهاء وعلماء كلام ومفكرين إسلاميين التي أشبعتها فصول الكتاب تفكيكاً، قد جاء نتيجة لتطور وعي ذاتي أملى عليهم اتخاذ قرار إعادة قراءة الموروث لإصلاح الحال. لم يشكل ركود الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولا استمرار الاستبداد السياسي دافعاً إلى التساؤل وإعادة النظر في المؤسسات السياسية والاجتماعية والتعليمية، أو في ما تتعكز عليه هذه المؤسسات من مفاهيم. كان كل شيء بالنسبة إليهم مريح، كانوا على قناعة عميقة من أن منظومتهم الفكرية متطابقة تطابقاً تاماً مع سنن الكون والحياة، وهي منظومة ذات أصول مقدسة مكّنتهم ـ دون غيرهم من الطوائف الأخرى ـ من حيازة التأويل الصحيح للمقدس، وهذه الحيازة لوحدها ستسورهم بسور سحري يدفع عنهم شرور الداخل والخارج معا. وهذه قناعة يشاركهم فيها أفراد مجتمعاتهم، الذين قرّ في وعيهم بأن النظام الاجتماعي كله نظام خالد وأبدي، مثله مثل نظام الطبيعة، وانه ليس من مسؤوليتهم التساؤل حوله، ولذا كانت نظرتهم إليه نظرتهم إلى شيء منفصل لا ينتمي إليهم، وبالتالي ليست من مهمتهم في الحياة تغييره.

يصح أن نقول إننا أمام مشهد ثقافي لم يستطع التخلص من قبضته كل من تسلل إلى السلطة، عبر الانقلابات، وهو يرطن بجملة من المصلحات الجديدة، أو ادعى أنه سليل هذا الأفق الثقافي وجاء للدفاع عن أصوله وهويته، كما يدّعي الإسلاميون، الذين وصلوا السلطة عبر آلية سياسية لا يؤمنون بها. هؤلاء جميعاً في تفكير شيخنا [يفكرون في مرحلة ما قبل الدولة، لذلك يحرصون على استدعاء القبيلة وقيمها وتشكيلاتها الحديثة ص ٩]. هذا الربط الصحيح بين المنظومات الفكرية، وبين نوع الحضارات التي أنتجتها، هو الذي دفع شيخنا المفكر إلى القول الذي استشهدنا به أعلاه: من أن الفشل سيواجه الإسلاميين في إدارة السلطة، بسبب عدم معرفتهم بالجذور التاريخية والبنى العميقة للدولة الحديثة. إذ ليس من المعقول إدارة دولة حديثة تقوم على أساس مفهوم المواطنة، الذي لا يفرق بين المواطنين على أساس الدين والطائفة، بمنظومة فكرية تقوم على أساس الولاء، وما يقود إليه من البراءة من كل مواطن لا يوالي منهج الحكم الديني أو الطائفي. ردة فعل "رجال الدين" في كل مرة يتعرضون فيها لغزو الخارج تنحو منحى العودة إلى التشدد في التمسك بالأصول. من الحروب الصليبية إلى وقتنا الحاضر، لم يشكل ركود الحياة الاجتماعية والثقافية، ولا استبدادية المؤسسات والنظم السياسية المستمرة عبر قرون دافعاً للصفوة القيام بمغامرة إعادة النظر بما هم عليه من قناعات أو من مؤسسات. ولا تشذ عن ذلك ما يناقشه الشيخ من قراءات تزامنت مع مرحلة الاستعمار، إذ جاءت هذه القراءات على خلفية احتلال جيوش غير إسلامية لأراضي المسلمين، وقيامها بإعادة ترتيب شأنهم العام، وفق زاوية نظر واضحة في توجهها الدنيوي، من

غير أن يقووا على منعها. فدفعهم ذلك إلى إعادة قراءة الموروث، ولأنهم قرأوه بغياب كامل، وبإهمال متعمد لشرط المطابقة بين الدين وبين نزعته الإنسانية، قادتهم قراءاتهم إلى التشدد مجدداً، والى تأجيج حماسة التشبث بالموروث، كما لو ان سبب هزيمتنا التاريخية مرده إلى تخلينا عن أصول ديانتنا. وأصبحت فكرة ابتعادنا عن أصول ديننا ـ التي لا سند تاريخي لها ـ هي الفكرة المضمرة في كل محاولات إعادة القراءة للموروث الإسلامي، وقد ساعد الإلحاح عليها على تعميمها شعبياً، وأصبحت واحدة من الأفكار الأساسية التي تتحكم برؤية الفرد المسلم وبطريقة فلسفته لوجوده. إذ إن هذه الفكرة تلقي ضمناً بمسؤولية ما نحن عليه من ضعف وتخلف على الخارج. وهي وان برأت الذات وأراحتها من عقدة تأنيب الضمير، إلاّ أنها لا تكتفي بذلك، بل تحث الفرد المسلم على الأخذ بالثأر وانتهاز فرصة الإجهاز عليه. هذه هي الإشكالية الكبرى التي نعيشها في القرن الواحد والعشرين، والتي تسببت لنا بعلاقة ملتبسة مع مجتمعاتنا، وبأزمة دائمة لنا مع الخارج. فاتهمنا مجتمعاتنا رغم تدينها الشديد بالجاهلية، وأدخلنا كل ما هو عصري وحديث في دائرة الريبة والشك.

هذه هي الخلفية التي دفعت بمفكرنا الشيخ الرفاعي إلى أن يكرس جهده في محاولة الوقوف فكرياً ضد هذا النوع من التأويل السلفي والأصولي، الذي لا يدخل أفق العصر الذي يعيش فيه في أفقه الفكري، وهو يقوم بعملية القياس والاستنباط. فينتج عن هذا المنهج في استخراج الأحكام تناقضاً مع عصرنا الذي لم تعد فيه عزلة الديانات بأصول وهويات عن بعضها بالممكنة عملياً. بهذا المعنى يشترط شيخنا إيجاد الحل لهذه الإشكالية [عبور المنظومة المغلقة للفهم التقليدي]، وأن يتم التكيف خلال هذا العبور [لتفسير لا يختزل الدين في المدونة الفقهية فقط، ولا يقوم بترحيله من حقله المعنوي القيمي الأخلاقي إلى حقل آخر يتغلب فيه القانون على الروح، ويصبح الدين أيديولوجية سياسية صراعية، أيديولوجيا تهدر طاقاته الرمزية والجمالية والروحية والمعنوية.

هذه هي اشتراطات العصر الذي نعيشه، فأما أن يقدم كل دين، وكل ثقافة جوانبه الإنسانية التي تنسجم مع مقولة العصر الأساسية، أي مفهوم المواطنة: الذي لا يفرق بين الناس على أساس العرق أو الدين أو اللون أو الجنس، أو نظل نلح على حيازتنا للمقدس وللتأويل الصحيح للدين. وهو ما يقود إلى الفكرة الأقوامية ـ فكرة أننا شعب اللّه المختار، فنسقط في الشوفينية ـ.

يمكن النظر إلى أن مقولة "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين" على أنه الإستراتيجية بعيدة الهدف التي يروم من خلالها الشيخ إلى: الاعتراف ببشرية الإنسان وكرامته في الأرض، وتصحيح نمط علاقته بربه، وتحويلها من صراع، مسكون بالخوف والرعب والقلق، إلى

علاقة تتكلم لغة المحبة، وتبتهج بالوصال مع معشوق جميل ـ ولا يتحقق ذلك كما يرى من دون التوكؤ على ما يلي:

١ ـ عدم التنكيل بالجسد، والتضحية بمتطلباته الضرورية وحاجاته الغريزية، لحساب الأيديولوجيا.

٢ ـ إشاعة السلام بين المجتمعات البشرية.(٢)

٣ ـ التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب، والسعي لترسيخ صورة رحمانية للإله.

٤ ـ انجاز مصالحة بين المتدين ومحيطه والعصر الذي يعيش فيه، من خلال جعل الفرد المسلم يشعر بضرورة أن تكون له رؤية جديدة للكون والحياة، والى دوره في الحياة.

حول الكتابة عن الدين:

ولدت علوم الكلام والفقه والتفسير ورواية الحديث وعلوم اللغة والتاريخ من داخل الديانة الإسلامية، لتلبية حاجات الناس الطامحة ـ نحو إيمان ـ إلى تمثل أوامر دينهم ونواهيه في سلوكهم اليومي، والى أن تكون مواقفهم من قضايا السياسة والحكم والجهاد مطابقة لحقيقة دينهم، لإبعاد الزلل والنجاة من الإثم في الحياة الدنيا، وللفوز بالجنة في الآخرة. نجحت هذه العلوم أيما نجاح في تثبيت الديانة كمنهج مرشد لحياة الناس في أدق تفاصيلها، فهي حاجة داخلية قبل أن تكون حاجة خارجية، للرد على ممثلي الديانات الأخرى الذين تعرضوا لمصداقيتها ومصداقية رسولها ونبيها.

أصول الدين هي منظومته الفكرية، التي مثل أي منظومة فكرية أخرى لا يمكن تجزئتها واختيار ما يناسب الحال منها، فهي أما أن تؤخذ بكليتها أو ترفض بكليتها. ولذا فأنّ القراءة الصحيحة للدين تقوم على منهجية الدين نفسها، وليس على مناهج العلوم الحديثة. لا تنفع لا الانثروبولوجيا ولا السوسيولوجيا ولا البنيوية ومشتقاتها في قراءة الدين. لا تنفع في قراءة الدين الاّ المناهج التي ولدت من داخل الدين. الأديان عصية على القراءة بمناهج من خارجها، وتجربة الدين الإسلامي مع الفلسفة اليونانية لم تنفع الفلسفة ولا الدين. ظل الفلاسفة العرب والمسلمون بمقابل التصور القرآني عن اللّه الذي "ليس كمثله شيء"، والذي يقول للشيء "كن فيكون" يدورون في أُفق المعلم الأول، من حيث تصوره للحركة المنبثقة عن محرك أول، في لغة ومصطلحات لم تتمثلها الثقافة الإسلامية، فظلموا الفلسفة اليونانية ـ في محاولتهم التوفيق بين العقل والنقل ـ التي اجترحها عقل الفيلسوف اليوناني، الذي لم يتقيد تقيد الفيلسوف العربي الإسلامي بما قننه الفقهاء وعلماء الكلام خوفاً أو رياءً، ولم يطلب تدخل سلطة الخلافة في فرض نظرية خلق القرآن.

يؤخذ الدين بكليته، أو يرفض بكليته، ولا معنى للمفاضلة بين جوانبه العقلانية وغير العقلانية. ليس الدين بالتكنولوجيا المطلوب تطويرها، لتطوير ما تنتجه من سلع وبضائع، لمواجهة المنافسة في سوق عالمي من حيث الجودة والمتانة والرخص. ولد الدين قبل انفتاح الأسواق على بعضها، وولدت معه آلياته الخاصة في الدفاع عن نفسه، وهي بالضبط الآليات التي نجحت في صد رياح تبشير الديانات الأخرى. وهذا ما ينطبق على الطوائف الإسلامية.

ولذا فأن مقولة تحديث الدين عندي تحمل من الغموض أكثر مما تحمل بعض الجوانب الإعتقادية من غموض من الدين نفسه. ماذا يعني التحديث في عصر العقلانية غير نزع جوانبه اللاعقلانية، وعند هذه النقطة وهذا الحد يفقد الدين معناه، ويكف عن كونه ديانة، ويمكن تسميته بأي اسم آخر إلا الدين. حرارة الدين في هذه المعتقدات والطقوس والشعائر، التي إذا تخلى عنها الدين أصبح بالضبط لا دين، إذ قوام الديانات في رموزها وشعائرها وطقوسها التي تمنح للمؤمنين ذلك الوهج السماوي الذي يستشعرونه لحظة ممارستها..يتكامل الاعتقاد في الدين الإسلامي بالإيمان المطلق بيوم البعث والحساب وبالملائكة وبالأنبياء السابقين لخاتم النبوة، أي بالجوانب الغيبية من الديانة، والتي تتطلب التسليم بها من غير مساءلة. في القلب من الدين يكمن تحريم السؤال في ما يتعلق بالجانب الإعتقادي منه، والأولى لنزع الشك اللجوء إلى اليقين والتسليم المطلق به من غير تساؤل. التساؤل يتعلق بجوانبه الدنيوية: جوانب ممارسة الطقوس والعبادات والمعاملات، وجوانبها السياسية فيما يخص الحكم، وخاصة الخلافة والإمارة والإمامة.

تكمن في الجوانب الغيبية واحدة من أخطر المسائل الاجتماعية وهي مسألة العدالة، وهي ما زالت مسألة المسائل في الكيفية التي يتم بها تنظيم الشأن العام في كل أمة من أمم زماننا، وما زالت تؤرق الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والأخلاق والقانون .. يلوّح القرآن بنظرية العقاب في الآخرة في مقابل العقوبات الجزائية في الدنيا التي تؤديها مؤسسة القضاء، ولتلافي اللاعدالة في تطبيق الأحكام، والشعور بالحيف والقسوة من قبل البعض، أي لتلافي هذا المأزق الدنيوي في تطبيق الأحكام، نبه القرآن إلى وجود حساب في الآخرة لا يفلت من عدالته أحد. حساب شامل لكل أفعال المسلم توزن فيه أفعاله بميزان عادل، ثم ينال العقوبة فيه مَن رجحت كفة سيئاته على حسناته في الميزان. فالجانب الغيبي من الدين الإسلامي يشكل روحه وجوهره. والحال ان التحديث مصطلح عصري غير مناسب بالمرة لقراءة الدين في ضوئه. في دلالة المصطلح على العقلانية، وفي دلالته الاشد فتكاً بالجوانب اللاعقلانية: أقصد التاريخية. الحداثة تتمثل بالتلازم الوثيق بين العقلانية

والتاريخية. يكمل هذا الجانب الغيبي في الديانة الإسلامية إيحاءها الكبير بتلازم الماضي والحاضر فيها. في الحاضر نحن أسياد اللحظة، إذ ان وعينا مطابق لما يجري في الكون من سنن، أما الماضي المروية حوادثه في القرآن، كأفعال كان الأنبياء أبطالها فأنه ماضي آبائنا وأجدادنا، لا فرق في ذلك بين دين ودين، لكل دين آباء وسلف صالح تطابقت أفعالهم مع سنن الكون، وقد يدعي أكثر من دين التحدر من أب واحد، كما في حالة "إبراهيم" في الديانتين اليهودية والإسلامية. ليتم غلق دائرة السيطرة على الماضي من خلال روح الجد الكبير، الذي تشكل الماضي بدراية منه، بل لأجله ولأجل سلالته." هذه النزعة الأقوامية متجذرة في الديانات السامية الثلاث، وهي أصل فكرة شعب اللّه المختار".

ربما لا نجد لهذا السلف البشري من وجود في الديانات السومرية والبابلية، ذلك لأن انفصال البشري عن السماوي، المتمثل بمجموعة آلهة لم يحصل بعد.كان سلف تلك الديانات هم مجموعة الآلهة، التي تمنح الحماية للمدينة أو للإمبراطورية، عبر مجموعة من التشريعات والقوانين، التي تأخذ شرعيتها وقوة أخلاقها من كونها تشريع كبير الآلهة الذي يسلمها لنائبه في الأرض: حمورابي. كانت الديانة اليهودية هي الديانة الأولى التي حققت هذا الانفصال بين البشر والآلهة. وصرنا نتعرف على أنبياء هم صوت الإله في الأرض، وضميره الديني والأخلاقي. وكما كان حمورابي ينظم من خلال شريعة كبير الآلهة قوانين دولته،كان موسى يريد للمجموعة البشرية، التي هي الأسباط، أن تلتزم بوصاياه العشر، وان لا تحيد عنها، ففي تطبيقها تطبيقاً لوعد الإله "يهوة": في منحهم أرض العسل واللبن. مع تحقيق انفصال الإلهي عن البشري في الديانة اليهودية، تعالى الإله، وإن ظل يحمل الكثير من البشري في حواراته مع شعبه المختار، وفي هبوطه للقتال معهم، لكنه لم يصل إلى حالة الانفصال القصوى، كما صار إليه التصور الإسلامي اللاحق عن اللّه، الذي وصفته الآية الكريمة:"ليس كمثله شيء" . مع اليهودية كان الانفصال ناجزاً بين اللّه وبين أتباعه، الذين عليهم أن يسلموا قيادهم إلى مَن ينتخبه من بين ظهرانيهم، كواسطة بين الإثنين. وما يجب التنبه له هنا أن هؤلاء الرسل لا يحق لهم التشريع من غير إذن اللّه، إن دورهم محدود بحدود تبليغ أحكام اللّه إلى مخلوقاته من البشر، لكن من حق هؤلاء، أو من صار يسمى بسدنة وحفظة شرع اللّه:" اللاويون في التراث اليهودي، والفقهاء الراسخون في العلم في التراث الإسلامي" تأويله. حدث ذلك في الإسلام بعد "ختم النبوة"، التي اختلف فيها في تأويل المقدس من أحكام اللّه، ومن طبيعة البشر الاختلاف، فكان ذلك الاختلاف الأساس الذي قامت عليه الفرق الدينية. وفي الفترة اللاحقة لوفاة الرسول تم ربط شرعية الحكم بقبيلة أو بأشخاص من المهاجرين. وهذا ما كان واضحاً من نقاش السقيفة، أو من فترة الحرب الأهلية

في الإسلام، التي أطلقوا عليها: الفتنة الكبرى، والتي ما زالت تستأثر بحصة الأسد في النقاش الطائفي، الذي يبدو أن لا نهاية له بين السنة والشيعة.

وشرعية الحكم التي ترتبط بأشخاص هي سمة وعلامة لدولة محددة في التاريخ، لا أجد توصيفاً لها أفضل من توصيف الشهيد محمد باقر الصدر لها بانها " دولة نبوة "، أي دولة تأخذ قوانينها وتشريعاتها من السماء. وان كنت ميالاً إلى توصيفها بدولة الرسل لا الأنبياء، ذلك لأن الرسل في القرآن هم من اصطفاهم اللّه لتبليغ رسالته، ولا يحق لهم كما تشير إلى ذلك الكثير من الآيات القرآنية إصدار التشريعات والأحكام التي يختص بها اللّه وحده. فالسلطة في الإسلام كما جسّدتها الأصول لا شرعية لها، إن لم ترتبط بقبيلة هي قريش من دون سائر القبائل بالنسبة إلى السنة، وعلي وبنوه بالنسبة إلى الشيعة. وكل من أدلى بالشهادتين واتبع تأويلهم بالنسبة إلى الخوارج. في هذا الإطار القريشي / الهاشمي، تأخذ سلطة الدين شرعيتها، ولا شرعية لها خارج هذين المكونين الاجتماعيين. أي مناقشة لأصول الدين تستوجب استحضاراً للدين في التاريخ بفترتيه: المكية والمدينية، لنعي أسباب الانقلاب الكبير في إستراتيجية الموقف من الآخر، والتي قلبت العلاقة مع الآخرين من غير جماعة المؤمنين: من حالة تبشير وحوار إلى حالة فرض وإلزام بالتقيد بالأحكام والتشريعات المقدسة. وهو ما يجعل السلطة والقيادة والسيطرة أصل أصول الديانة الإسلامية، لا يمكن التهرب من هذا الأصل بالعودة إلى الوراء، إلى التبشير المكي، أو بالاتكاء على قول الرسول: "أنتم أعرف بشؤون دنياكم ".

لا ندري مدى صحة من يحاولون: التفرقة في الإسلام بين الديني والدنيوي، شاطبين على أكثر من عقد من السنوات كان فيها الرسول مع صحابته، يجاهد بالحجة مرة وبالسيف أخرى، من أجل تثبيت كلمة اللّه عبر مؤسسة عسكرية، اصبح هدفها واضحاً: إلزام جميع القبائل البادية منها أو الساكنة في المدن بالتقيد بها. لا يمكن عزل الديني عن الدنيوي في تجربة الإسلام، خاصة بعد هجرة الرسول من مكة إلى المدينة، إذ لم يعد الإسلام تبشيراً بإله واحد هو اللّه،أو بيوم القيامة، وهما الثيمتان الأساسيتان للإسلام المكي. مع ما نتج عنهما من علاقة سادها مبدأ " لكم دينكم ولي دين". ما إن هاجر الرسول إلى المدينة حتى أن فسح المجال أمام الرسول لتطبيق أحكام اللّه التي نظمت علاقة الجماعة الإسلامية الداخلية من جانب وعلاقتها الخارجية " بالجماعات غير الإسلامية " من جانب آخر، عبر وثيقة تاريخية هي " دستور المدينة ".

تتميز أحكام الإسلام بطبيعتها الشمولية، التي تسور مَن يطيعها ويطيع الرسول بدائرة القداسة، وتشوّه خَلقياً "اليهود"، وأخلاقياً مَن قاومها وظل متمسكاً بشعائره الدينية

السابقة على الإسلام. وكما في كل الأحكام الشاملة يكون أداء الواجب، " وهو واجب قتالي " سابقاً على الحقوق. لقد انتقدت الكثير من الآيات المتخلفين عن أداء الواجب بعد معركة أُحد مثلاً، وأطلقت عليهم لقب "منافقين". والى هذه الفترة المدينية تحديداً يعود المنظرون الطائفيون ليتسلوا بنبشها، إمعاناً في تشويه البعض من الصحابة، أو إخراجاً للبعض منهم من طبيعته الإنسانية، بجعله يعلم الغيب، أو بمنحه القدرة على إتيان معجزات خارقة لنواميس الكون الطبيعية والبيولوجية.

لقد رسمت شمولية الإحكام الإسلامية حدوداً واضحة بين الجماعة المؤمنة وبين الآخرين، وهي حدود تشير إلى ما وراءها من مقدس ومدنس. عبرت عنها حروب الرسول في "سراياه وغزواته" لحمل المدنس على الانصياع لإرادة "أحكام" المقدس. وعبرت عنها ـ من بعده ـ الإمبراطورية الإسلامية بمفهومي: دار الإسلام ودار الحرب، اللتين تفصل بينهما معسكرات المجاهدين المرابطين على هذه الحدود. دار الحرب اسم ذو دلالة واضحة على المحور الحضاري للدولة الإسلامية، إذ يوضح هذا المفهوم جغرافياً وسياسياً نوع العلاقة "الدولية" بالدول الأخرى، ونوع العلاقة بساكنيها الذين هم مشروع تحرير وهداية، بعد أن تتم الإطاحة بأسوار دولهم من قبل المرابطين في الثغور على حدود العالم الإسلامي. منذ البدء كان الآخر حاضراً بقوة في الخطاب القرآني. الآخر كديانة، تم تحريف مقاصدها كالديانتين اليهودية والمسيحية، والآخر ساكن المدينة من المنافقين، خاصة في الفترة الحرجة الفاصلة ما بين هزيمة المسلمين في معركة أحد ومعركة الخندق، والآخر الذي يمثل القوة القديمة في مكة، والذي ما زال يشكل منافساً قوياً بما تتمتع به ديانته من تعددية إلهية، تجد لها صدى لدى القبائل العربية. والآخر المتمثل بالشيطان.

لقد تحول الإسلام إلى حركة، أعضاؤها ملزمون دينياً بنشرها عبر القتال، والا سقط عنهم تعريف المسلم المؤمن. وبهذه الحركة الواسعة من إلزام الآخرين بشرع اللّه كواجب مقدس، تحدد للمؤمنين دورهم في الحياة، وتحددت زاوية نظرهم إلى الكيفية التي يعالجون بها التحديات. فالجهاد من أجل إلزام الآخرين بالتقيد بشرع اللّه هو الذي تحكم باستنباط الفقيه لاحقاً، في موازنة دقيقة بين واجب الإلزام والجهاد، وبين واجب آخر يتضمنه الإلزام، يتمثل بالإقصاء الشديد لأي حضور للآخر يتضمن تسوية أو تنازلات، فعلى ضوء طريقة الفتح يتحدد نوع العلاقة بالآخر وبما يملكه، وبنوع الضرائب التي يجب فرضها عليه، كما فصل ذلك كتب الخراج والأموال.

توحدت شبه الجزيرة تقريباً بعد معركة حنين، وكل ذلك يعني أن القوة الجديدة المنطلقة من المدينة سائرة إلى فرض كلمة اللّه التي هي أحكامه، والمتمثلة بتطبيق شعائره

وطقوسه من قبل ساكني الفضاء السياسي الموحّد، فيما يخص التعبير اليومي عن الإيمان بوحدانية اللّه، كالصلاة اليومية المصحوبة بتكبيرة الآذان، التي تتضمن الإعلان الواضح عن الشهادتين: شهادة لا اله إلا اللّه، وشهادة محمد رسول اللّه، وفي ما يخص الالتزام بتنفيذ بنود الضرائب الجديدة، كالعشور على الأرض، والخمس والزكاة على الثروات وطرق تصريفها.

إذن لا يمكن فصل السماوي عن الأرضي في تاريخ تشكل دولة النبوة، ولا يمكن فصل جانب العبادات عن المؤسسات الكفيلة بحمل الناس على ممارستها: "كالحسبة، أو جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديثاً" داخلياً.

كم وددتُ لو أن الكاتب تحدث في فصل خاص عن العدالة، كما تمثلت في ممارسة دولة الخلفاء الراشدين لها، وما مدى شرعيتها من وجهة نظر الأقوام المغزوة في العراق والشام وفي بلاد فارس ومصر، فالأصول الإسلامية التي قررها علماء الكلام والمطلوب تحديثها هي أصول تقننت في أُفق الفتوحات، التي تعني في التطبيق العملي سيادة العنصر الغازي وتقعيده لأصول الغزو، التي عبرت عنها بوضوح رسالة "الخراج" التي وضعها تلميذ "أبو حنيفة " للخليفة هارون الرشيد. لم تكن تلك الوثيقة التاريخية الموسومة بالخراج، والوثيقة الأخرى التي أطلق عليها صاحبها اسم "الأموال" سوى وثيقتين في العدالة من وجهة نظر الغازي والمحتل لأراضي الغير.

هل يمكن تحديث أصول الفقه وأصول علم الكلام من غير الإطاحة بهذا الحق، الذي يبيح للآخر احتلال الغير وإجباره على تقبل تنظيماته وأوامره في العدالة: أكان هذا المحتل قد وضع أصوله قبل ألف سنة، أو في عصرنا الحديث. لتعميم شرع اللّه كما كانت الحجة قديماً، أو كضربة استباقية يفرضها الأمن القومي، والقضاء على الإرهاب، في الحجة الحديثة للاحتلال. وهذا ما يتطلب موقفاً واضحاً من الجهاد كأصل من الأصول المتساندة، التي إن تم تغيير زاوية نظر إحداها تعمم تغيير زاوية النظر على سواها.

ولهذا أرى بأن فكرة الحرية الشخصية في ممارسة الدين فكرة لا مكان لها في تاريخ الديانة الإسلامية. ففي المدونة الفقهية الإسلامية، وأمام القضاء في الدولة الإسلامية، يوجد حد إسمه حد الردة، يبيح للقاضي إيقاع عقوبة القتل بالمرتد عن الإسلام. فكيف يمكن دعم حرية الاختيار، وكيف نطمئن إلى سلامة فكرة ان الدين هو علاقة فردية بين الإنسان وخالقه؟ انطلاقاً من ذلك قلتُ بأن الدين منظومة فكرية متساندة، إما أن تؤخذ بكليتها أو ترفض بكليتها، ولا مجال فيها للانتقاء والمفاضلة بين فقهائها أو طوائفها، أو تفضيل مكان على آخر من أمكنة الدعوة. ❖

مجلة قضايا إسلامية معاصرة...
نحو التحرّر من سلطة السلف

✍ د. ريتا فرج[1]

تُعد مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" من بين أهم الدوريات الفصلية في تحديث الفكر الديني. منذ صدور عددها الأول "إشكاليات الفكر السياسي الإسلامي" قدمت المجلة التي يرأسها المفكر العراقي عبد الجبار الرفاعي، المشغول في تكريس النزعة الإنسانية في الدين، مواد سجالية.

في عام ٢٠١٢ أصدر المعهد البابوي في روما كتابه السنوي (يصدر سنوياً نهاية كل عام منذ ٦٠ سنة) مختصاً بالمجلة. انتخب مجموعة من نصوصها في مختلف أعدادها، وترجمها إلى الايطالية والانكليزية والفرنسية، وعدّها أهم دورية عربية في تحديث التفكير الديني في العقدين الأخيرين، بعدما رصد موضوعاتها وقارنها مع مختلف المجلات الفكرية والثقافية العربية.

على مدار عقد ونيف تناولت المجلة مسائل شائكة نذكر منها: "منهج التعامل مع القرآن"، "فلسفة الفقه" "إشكاليات التأويل"، "التعددية والاختلاف: تجليات التعايش بين الأديان والثقافات"، "الإرهاب والعنف: من أين تستمد ثقافة تمجيد الموت مفاهيمها"، "رهانات الدين والحداثة". تضع المجلة أولويات عدة وتقول على لسان مؤسسها: إنها تعمل على التحرر من سلطة السلف، وبناء مجتمع مدني تعددي، وتبني رؤى تهدف إلى مواكبة العصر، وتعميم الاجتهاد ليشمل حقول الموروث، ودراسة الدين والتراث في ضوء المناهج الحديثة للعلوم الإنسانية، والتثقيف على الحريات وحقوق الإنسان...

تطرقت المجلة في عددها المزدوج (٥٣ ـ ٥٤ شتاء/ ربيع ٢٠١٣ ـ مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد) إلى موضوع "الهرمنيوطيقا والمناهج الحديثة في تفسير النصوص الدينية" (جزء أول). شارك فيها مجموعة من الباحثين في العالمين العربي والإسلامي. قسِمت إلى أربعة محاور أساسية: حوارات ـ دراسات ـ أفكار للمناقشة ـ نقد كتب.

يذكر أن "الهيرمينوطيقا" عبارة عن نظرية في التأويل، بمعنى تأمّل فلسفي وتفكير فينومينولوجي حول نشاط عملي يتخذ طابعاً لتفسير أو التأويل.

---

(١) إعلامية لبنانية.

والتأويل معناه:

إيضاح مقاطع غامضة وغير مستوعبة من النصوص، لأن المعنى الجليّ والواضح لا يحتاج إلى تفسير أو تأويل، وقد يحتاج إلى تأويل ليكون معقولاً.

نظرية التأويل تدور أساساً حول إيضاح وتفسير الأشياء لتصبح مفهوم هو معقولة.

وهدف نظرية التأويل هو تعميم مشكل الهيرمينوطيقا على جملة الممارسات الفردية والاجتماعية والتصورات والأفعال والمقاصد، بمعنى تهدف إلى فهم صحيح للتجربة الإنسانية برُمّتها" (نحيل على: محمد شوقي الزين: مدخل إلى تاريخ التأويل "الهيرمينوطيقا" مجلة التفاهم).

بعد كلمة رئيس التحرير عبد الجبار الرفاعي المعنونة "دعوة للخلاص من نسيان الإنسان" جاء الحوار مع الفيلسوف الإيراني محمد مجتهد شبستري. تركز بشكل أساسي على قضية "الهرمنيوطيقا والتفسير الديني للعالم". أدلى صاحب "مدخل إلى علم الكلام الجديد" في حواره بأفكار نقدية وإنّهم بإشكاليات تفسير النصوص التراثية وفهمها. يشار إلى أن شبستري اهتم في دراسة اللاهوت المسيحي خصوصاً البروتستانتي منه، ركز دراسته على علماء لاهوت أمثال الألماني باولتيليش (١٨٨٦ - ١٩٦٥) والسويسري كارلبارت (١٨٨٦ - ١٩٦٨) وكذلك على الفكر الفلسفي لكل من إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) وهانسغادامير (١٩٠٠ - ٢٠٠٢).

تنوعت محاور المجلة لجهة النماذج المدروسة. أضاءت على مفكرين كرسوا حياتهم المعرفية لهموم الحداثة وآليات تأويل النص الديني ومساءلة التراث.

أولى الدراسات جاءت بقلم الباحثة التونسية إيمان المخينيني. تناولت نظرية القبض والبسط في الشريعة الإسلامية لدى المفكر الإيراني عبد الكريم سروش (١٩٤٥). تتأسس النظرية على مبدأ مركزي قوامه أن المعرفة الدينية كغيرها من المعارف، خاضعة لحركة من التمدد والتقلص دائمة، وتتأثر في جملة من العوامل الخارجية الحافّة بها، وتالياً من المغالطة التحدث عن حقيقة ثابتة للشريعة، ما يعني وفق صاحب "بسط التجربة النبوية" أن الدين ثابت لكن المعرفة الدينية متغيرة. لم تكتفِ المخينيني في تبيان مفاصل نظرية سروش بل سجالته وقدمت ملاحظات تقويميّة.

عالج محمد حسين الرفاعي أنموذج التأويل في فهم الوجود المجتمعي، كما أرساها السوسيولوجي الألماني ماكس فيبر.

حظي العلاّمة الجزائري محمد أركون (١٩٢٨ - ٢٠١٠) بمادتين: الأولى كتبتها أستاذة الفلسفة في الجامعة اللبنانية نايلة أبي نادر، عنونت "القرآن بين اللفظ والمعنى في نص محمد

أركون". الثانية خطتها نورة بوحناش الأستاذة في جامعة منتوري قسنطينة (الجزائر) فقاربت الإشكاليات التي عمل عليها صاحب "نقد العقل الإسلامي" لعل أبرزها إنجاز اللحظتين اللوثرية والكالفينية.

كرس العدد دراسة عن "منهج قراءة النص الديني لدى نصر حامد أبو زيد". درس الباحث الجزائري محمد بن سباع مواقف صاحب "مفهوم النص دراسة في علوم القرآن" تجاه الخطاب الديني المعاصر ومنهجه في قراءة النصوص الدينية وتحديداً نظرياته حول النص القرآني الداعي إلى قراءته طبق آلية هرمنيوطيقية.

الى جانب الهم التأويلي للدين والتراث الذي من شأنها إخراج الإسلام والمسلمين من الانسداد التاريخي، استعانت المجلة بعدّة الهرمنيوطيقا للإضاءة على الخطاب الصوفي، وتأويلات وتأملات المتصوفة للجسد للباحث البحريني علي الديري... كما عرّبت نصاً للفيلسوف الألماني فريدري كشلايرماخر (١٧٦٨ ــ ١٨٣٤) الذي اعتبر: التأويل علم يهتم بطريقة الاشتغال على النصوص لكشف بنيتها الداخلية والمعرفية، والبحث عن الحقائق المضمرة فيها، لأسباب تاريخية وإيديولوجية، ما يؤدي إلى تأسيس تقنية في الفهم.

في دراسة موسومة "النظريات المعاصرة حول تكوُّن مجموعة أسفار التوراة" قارب أستاذ العلوم الدينية في جامعة القديس يوسف القس عيسى دياب الفرضيات التي يُثيرها موضوع كتابة موسى للتوراة. استخدم منهجاً نقدياً تأويلياً مقارناً، قرأ فيه أهم النظريات التي عالجت هذا الموضوع الإشكالي، التقليدية منها والمعاصرة. يخلص إلى أن "النص نفسه يفصح عن تقاليد دينية مختلفة، وأجناس أدبية متنوعة مدموجة معاً بتوجيه محدد لأغراض لاهوتية".

الجزء الأخير أفردته المجلة فيباب"أفكار للمناقشة".نشرت مادتين: الأولى، حول كتاب "قوة الدين في المجال العام "يحتوي على محاضرات ونقاشات طُرحت في حدث أكاديمي بارز عام ٢٠٠٩ في مدينة نيويورك، شارك فيها الفيلسوف وعالِم الاجتماع الألماني يورغنها برماس، والفيلسوف الكندي تشارل ستيلر ومدير مجلس بحوث العلوم الاجتماعية في جامعة نيويورك كريغ كالهون. أما المادة الثانية فهي الفصل الأول من "نظرية القراءة النبوية للعالم"، لمحمد مجتهد شبستري، ونشرت المجلة هذا الفصل من سلسلة دروس "نظرية القراءة النبوية للعالم" وأعقبتها بمناقشتين نقديتين لآراء شبستر يوضعها كل من أستاذ الفلسفة الإيراني في ولاية بنسلفانيا آرشنراقي، والأستاذ في جامعة باقر العلوم في قم أحمد واعظي.

تميزت "قضايا إسلامية معاصرة" بأفكارها المتخصصة والدقيقة والعميقة والجسورة في أزمنة الانغلاق اللاهوتي. تطرقت إلى المسكوت عنه في الدين والتراث والثقافة...تستحق عن جدارة لقب أهم دورية في تحديث الفكر الديني. ❖

مكاسب مجلة قضايا إسلامية معاصرة للفكر الإسلامي المعاصر

✍ إبراهيم العبادي وآخرون

ندوة عقدت في كوبنهاغن بالدانمارك، في ٢٠٠٢/٩/١، لتقويم أداء مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ومراجعة تجربتها، والتعرف على خطها الفكري ورسالتها، وطبيعة الدور الثقافي والإعلامي الذي اضطلعت به، وابرز المكاسب التي حققتها للفكر الإسلامي المعاصر، وأهم الثغرات التي اكتنفت مسارها.

شارك فيها:

١. إبراهيم العبادي - باحث عراقي في الفكر الإسلامي، مقيم في السويد (مدير الندوة).

٢. غالب حسن الشابندر، باحث عراقي في الفكر الإسلامي، مقيم في السويد.

٣. الشيخ كمال الساعدي، باحث عراقي في الفكر الإسلامي، مقيم في الدانمارك.

❍ إبراهيم العبادي

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه المنتجبين، نقيم هذه الندوة بمناسبة دخول مجلة قضايا إسلامية معاصرة في سنتها السابعة، وفيها نستضيف الأستاذ الباحث غالب الشابندر، وسماحة الشيخ كمال الساعدي.

مجلة قضايا إسلامية معاصرة تجربة رائدة في الدوريات الفكرية الإسلامية، مجلة غامرت بطرح أسئلة ممنوعة إلى فترة قريبة، وحاولت ان تشيع تقاليد إعلامية تجاوزت فيها الحظر الذي فرضته طائفة من الدوريات على مفكرين وباحثين من ذوي اتجاهات إسلامية متنوعة، ذلك انها استوعبت مساهمات مختلفة لا تنتمي إلى خط محدد ومرسوم سلفا، فهي لم تقتصر على مساهمات الباحثين من الحوزة العلمية، باعتبار صاحبها ينتمي إلى الحوزة، كما انها انفتحت على كافة ألوان وتضاريس الإنتاج الفكري في الحوزة العلمية وخارجها، كذلك لم تبرز فيها الهوية المذهبية الخاصة لصاحبها، فاستكتبت علماء وباحثين من الشيعة والسنة، وهكذا امتدت خارج إطار الهوية القطرية والإقليمية، فظهرت على صفحاتها أسماء مفكرين من مغرب العالم الإسلامي إلى مشرقه، ورفدتها أقلام إيرانية وعربية، فأمست رسالة الحوزة العلمية إلى معاهد وكليات الدراسات الإسلامية، ورسالة المشرق إلى المغرب، ورسالة الشيعة إلى السنة، وبالعكس.

وهذه واحدة من متاعبها، لأن الكل ألفوا الصوت الواحد، والنغم المنفرد، واللون الثابت، والفكرة الساكنة التي لا حراك فيها.

ونحن كإسلاميين عراقيين مدعوون قبل غيرنا لتقويم تجربة هذه الدورية الإسلامية العراقية، التي تصدر في المنفى، في ظروف التشريد التي تعيشها أعداد غفيرة من العراقيين، وكيف أن بعضهم سجّل حضورا ثقافيا متميزا، بالرغم من أوجاع التشريد وعذاباته.

❍ إبراهيم العبادي:

أين تصنف مجلة قضايا إسلامية معاصرة في خارطة الدوريات العربية، وأين هو موقعها بالنسبة للاصدارات المعنية بالفكر الإسلامي المعاصر؟

❑ غالب الشابندر

بسم الله الرحمن الرحيم، أنا أحد المساهمين في هذه المجلة، قراءة وكتابة، ولذلك استطيع أن أحدد معالم ومشخصات هذه التجربة بالمقارنة مع الدوريات الأخرى بما يلي:

١ - أستطيع أن اسمي هذه المجلة (مشروع إشكاليات) أي أن موضوعها الجوهري هو طرح الإشكاليات، ونستطيع ان نستشعر ذلك من خلال العناوين العامة لملفاتها: (إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، منهج التعامل مع القرآن، فلسفة الفقه، مقاصد الشريعة، إشكاليات التأويل وتعدد قراءات النص، الاتجاهات الجديدة في علم الكلام، التعددية والاختلاف) طرح اتجاهات جديدة في علم الكلام يعني طرح إشكاليات، لان الاتجاهات هي تعبير عن إشكاليات، وليس تعبيرا عن نظر منسجم، ومصفوفة أفكار لا حراك فيها، وإنما يبدو من مصطلح (اتجاهات) أن هناك صراعاً، ووجهات نظر متعددة ومختلفة، وعندما يقول (إشكاليات التأويل) إنما يشير إلى وجهات نظر متعددة، ويشير إلى مناهج وطرق متنوعة، وبالفعل عندما يجد الإنسان مادة هذا العدد فسيجد أكثر من رؤية في قراءة النص، وأسلوب التعاطي مع القرآن الكريم، علماً أن الكثير من هذه الطرق لم تعرف سابقاً. وهكذا (فلسفة الفقه) فان نفس هذا العنوان هو عنوان إشكالي، لماذا؟ لأنه يشير إلى أن هناك فلسفة للفقه بجوار فلسفات العلوم الأخرى الراهنة في (فلسفة العلم).

وعلى هذا يمكنني تصنيف هذه المجلة على إنها مجلة (أسئلة) قبل أن تكون مجلة (أجوبة) وربما يمكن القول إنها مجلة (مشاغبات فكرية) لأنها مجلة تثير إشكاليات وأسئلة غير مطروقة، وتهتم بالسؤال أكثر مما تهتم بالجواب، فهي مجلة السؤال.

٢ - من خلال اطلاعي على الدوريات السائدة - مع كل احترامي لهذه الدوريات - فإنها تعطي فكراً وكأنه معطى نهائي جزمي، أما مجلة قضايا إسلامية معاصرة فإنها تعطي فكراً للحوار والنقاش، وفرق بين الطريقتين، فالطريقة الأولى وثوقية، إمضائية، قطعية، أما طريقة هذه المجلة فكأنما تطرح القضية للحوار والنقاش، لا تطرح

أفكارها كمعطى نهائي، ولذلك أؤكد مرة أخرى إنها مجلة سؤال قبل أن تكون مجلة جواب.

وحبذا لو تخصص قضايا إسلامية معاصرة ملفاً للسؤال، وإشكالية السؤال، كيما تكون وفية لمنهجها ومضمونها، لأن السؤال العميق هو الذي فجر طاقات الإنسان العقلية، وهو الذي بنى مجد الحضارات في تاريخ البشرية.

❍ إبراهيم العبادي:

كنا نعاني لفترة طويلة، طغت فيها النزعة الجزمية في الأدبيات والاصدارات الإسلامية عموماً، وكأن الكلمة التي تقولها هي الكلمة النهائية، ويسودها الخطاب الايديولوجي التبليغي، بمعنى ان هذه الاصدارات لا تتناول القضايا المطروحة بمعالجات معرفية تفسيرية معمقة، تستطيع ان توفر اجوبة معرفية على ما هو مطروح. هذه المجلة حاولت ان تتحرر من سطوة المواقف القبلية وتمنح الباحثين هامشاً واسعاً للتعبير عن رؤاهم، وبيان مقولاتهم بوضوح وصراحة.

❑ كمال الساعدي

استطيع أن ابدأ من الإجابة التقليدية، وهي أن المجلات الأخرى بشكل عام، أو اغلبها، هي مجلات تعيد إنتاج التراث، وتعيد إنتاج الفكر الإسلامي التقليدي، ومقولات عصر النهضة، وكأنها تعطي للقارئ ما ينتظره وما يتبناه وما قرأه من قبل، وبهذا لا يمكن القول بأن هناك عنصراً إبداعياً في هذه المجلات.

أما الإجابة عن دور قضايا إسلامية معاصرة، فينبغي أن نمهد لها بسؤال أساسي ومهم، وهو: هل نحن بحاجة إلى مقاربات وإشكاليات وأسئلة جديدة في الفكر الإسلامي، على كافة الأصعدة، وعلى سائر المستويات، في (علم الكلام، أصول الفقه، الفقه، التفسير، الحديث، ... وغير ذلك)؟

والجواب هو أن المتابع للمشهد الفكري الإسلامي يشعر أن الفكر الإسلامي بحاجة إلى تجديد، وبحاجة إلى مقاربات جديدة تتناسب مع التحولات الهائلة في الحياة البشرية، والتطور الواسع والمتسارع في العالم بمختلف ألوانه، الفكري والمدني والحضاري والتكنولوجي، وأحسب أن هناك ثلاث مقاربات للفكر الإسلامي راهنا وهي:

١ - **المقاربة التقليدية**: التي سارت عليها الحوزات والحواضر العلمية الإسلامية، كما في دراسة الفقه والأصول والتفسير وغيرها، وبالتالي الخروج بإجابات محدودة في الحياة. ويمكن أن نسمي هذا الاتجاه بـ (الاتجاه التقليدي).

٢ - **المقاربة السياسية**: بعد بروز الإسلام السياسي، تجلى اتجاه جديد يتناول قضايا الحكومة الإسلامية، ونظم الدولة الإسلامية، ومناهضة الظلم، وتثوير التراث. وهذا

الاتجاه عمل على تثوير المجتمع، واهتم بالمضمون الاجتماعي للإسلام، لكنه وقع في خطأ الاتجاه الأول، ذلك انه بقى خطابا سياسيا، وتحول إلى فكر تقليدي، لأنه لم يقدم إجابات لمسائل فكرية عميقة، ووقع في نزعة التقليد بشكل أو آخر.

٣ - **المقاربة التجديدية:** ومجلة قضايا إسلامية معاصرة تمثل ومضة في هذا الاتجاه، إذ أن هذا الاتجاه يعمل على إعادة إنتاج الإشكاليات والاستفهامات، وبعبارة أخرى إن الاتجاه التجديدي لا يخشى من التصريح بالأزمات، ويسعى للتوغل في أعماقها، لاكتشاف جذورها، وبالتالي إثارة الأسئلة الحائرة.

❍ إبراهيم العبادي

في الحديث عن الموقع الذي تحتله قضايا إسلامية معاصرة في المشهد الفكري الإسلامي الراهن، اعتقد أن هذه المجلة أغنت الساحة الإسلامية، والشيعية منها بالخصوص، والناطقين بالعربية، وملأت فراغا فكريا ظل يترقب مطبوعة عميقة جريئة لفترة طويلة، وذلك لما يلي:

١ - لأنها صدرت بهوية إسلامية شاملة، وهي في الوقت ذاته لم تحبس نفسها في دائرة ضيقة، ولم تحجم نفسها في مذهب فقهي أو كلامي معين، وان كانت طائفة من الأقلام التي تساهم فيها من العلماء والباحثين الشيعة.

٢ - عرّفت الآخرين بالفكر الإسلامي الشيعي الصادر عن الحوزات العلمية، وفي الوقت ذاته استوعبت كتاباً وباحثين من خارج الحوزات، بل من المذاهب الإسلامية الأخرى، ومن مختلف الفصائل والاجتهادات الفكرية وجعلت الجميع يتناغم في طرح القضايا الإشكالية للفكر الإسلامي المعاصر، والحوار على أرضية هذه القضايا للوصول إلى رؤى معرفية ناضجة، تحاول إضاءة الموقف الفكري حيال الاستفهامات الكبرى.
لو قارنا قضايا إسلامية معاصرة بالدوريات السائدة في العالم العربي، فسنجد ابرز الدوريات العربية ذات صبغة فكرية أحادية، بينما هذه الدورية تجاوزت هذه الصبغة، وانفتحت بجرأة على مفكرين ينتمون إلى مذاهب واتجاهات متنوعة.

٣ - إن قضايا إسلامية معاصرة استطاعت أن تُعرّف بمكاسب الاجتهاد والتجديد في الحوزات العلمية، للعلماء في الحوزة، والمفكرين الشيعة، خارج الحوزة، وهذه المسألة في غاية الأهمية، لأن الفكر الإسلامي الشيعي تعرض لفترة طويلة للجهل أو التجاهل وإغماض حقه في تطور الفكر الإسلامي الحديث.

فعندما قدمت المجلة الإنتاج الفكري لهؤلاء العلماء والمفكرين عملت على تجسير العلاقة الفكرية بين المدارات العديدة للفكر الإسلامي في مشرق العالم الإسلامي

ومغربه، لأنها فتحت أبوابها لمفكرين وباحثين من المغرب، بجوار إخوانهم في المشرق، فهي أشركت الجميع ليمارسوا التفكير المشترك في القضايا الخلافية الإشكالية المطروحة في هذا اليوم، فالإشكاليات الفكرية في إيران والعراق وبلاد الشام ومصر والمغرب قريبة من بعضها.

من هنا أرى أن مجلة قضايا إسلامية معاصرة شكلت انجازا ثقافيا هاما في هذا المضمار، ونتمنى عليها أن تواصل رسالتها في اجتذاب مختلف الأقلام، ولا تضع حواجز بين المفكرين على أسس قطرية، أو قومية، أو مذهبية، أو طائفية، مثلما تفعل الكثير من المطبوعات. وبذلك تكون قد تجاوزت عقدة الخصوصية، صحيح أن هناك دوريات حاولت أن تكون على مستوى متميز من المعاصرة والجدية الفكرية، غير أنها ظلت حبيسة الانتماء الخاص والهوية المحلية الخاصة.

○ إبراهيم العبادي

سؤال إلى الأستاذ غالب الشابندر. قلت: ان المجلة هي مجلة إشكاليات، وبذلك تحملت مسؤولية الريادة، وتحملت مسؤولية الشجاعة، وغامرت بجرأة في اقتحام أسئلة ممنوعة، لكن إلى أي حد ساهمت معالجات المجلة في تكوين تيار فكري يتبنى رؤية بديلة لا تتطابق مع الرؤية السلفية السكونية السائدة، رؤية تتعامل مع القضايا الاشكالية من منظور معرفي وليس من منظور ايديولوجي؟

❐ غالب الشابندر

قلت: إن هذه المجلة هي مجلة (إشكاليات) ومن ثم فهي مجلة (سؤال) ومن ثم فهي مجلة (سجال) ولذلك فإن من السمات الرائعة في هذه المجلة إنها تحمل (الرأي والرأي الآخر). حيث نجد في بابها المعروف (وجهان وقضية) تقاطعا بين رؤيتين لقضية واحدة.

وهذا الطرح من شأنه أن يبني عقلية ناقدة، ويبني عقلية تتعامل مع النص باعتباره كائنا مفتوحا، وليس باعتباره كائناً مغلقاً، فإن القارئ حين يتعامل مع رؤيتين، وعندما يواكب سجالين، وعندما يقف على سؤالين وجوابين مختلفين، في ملف واحد، لموضوع واحد، فإنه من الطبيعي أن تتبلور لديه رؤية نقدية.

إن مجلة تترسم هذا الأسلوب تبني عقلية ناقدة، لذلك سواء قمنا بعملية إحصاء أم لم نقم بعملية إحصاء، سواء رجعنا إلى الواقع وحاولنا أن نتفحص هذا الواقع أو لم نرجع، فإن طرح مجلة من هذا النوع بطبيعة الحال تترك أثرها المعرفي، الذي يتناسب مع مضمونها، ومع جرأتها وجديتها في إثارة القضايا الإشكالية.

ولو سألنا: كيف يتحقق الفكر؟ وكيف يجد الفكر صداه في المجتمع؟

الجواب: يجد الفكر صداه الاجتماعي عبر طرح هذا الفكر، لاسيما إذا كان فكرا يتسم بما هو جديد ومختلف.

إن مجلة قضايا إسلامية استمرت كل هذه السنوات، بالرغم من انها مشروع غير مدعوم من مؤسسة، أو حزب، أو دولة، أو مرجعية، وبالرغم من إمكاناتها المادية المتواضعة، ، كما نعلم جميعاً ظروف صدورها وتحريرها، وصعوبة الاتصال بالكتاب المنتشرين في أصقاع متباعدة، مع كل ذلك فإن هذه المجلة استمرت بعزم وثقة، وأصبح لها روادها وقراؤها والمهتمون بملفاتها، فقد اخترقت أسواق الخليج، وبلاد الشام، ومصر، واليمن، والمغرب، وإيران، والمغتربين في المهاجر المختلفة. وكتب فيها مسلمون ومسيحيون، وسنة وشيعة، ومحافظون وإصلاحيون، وعرب وإيرانيون، هذا التنوع سيفضي إلى أن تغدو قضايا إسلامية معاصرة علامة ثقافية في مشهدنا الثقافي المعاصر، لان الكلمة صوت ينبت، ويتحرك، ويستقر في العقل والوجدان، ومن ثم يتمثل، فيتجلى من خلال إشعاع وعطاء وموقف.

إن طبيعة الملفات التي عالجتها المجلة بما أنها موضوعات ملحاحة، وبما أنها تمس المستوى المعرفي الذي يعيشه الإنسان المسلم اليوم، وبما أنها تتناول إشكاليات تهتم بفلسفة الدين ودوره في الحياة، وبالرؤية الكونية، فإن هذا الطرح من شأنه أن يؤثر في الناس، ليست لدي إحصاءات، ولكن من خلال تعاملي مع المضمون المتداول في هذه المطبوعة، ومعرفتي بالحاجات الفكرية الراهنة، ومن خلال اطلاعي على إشكاليات العقل المعاصر، أجد هناك انسجاما بين ما يطرح كفكر، وكأسئلة، وكإشكاليات، وبين الحاجة الملحة، وبين معطيات الواقع الفكري العالمي، وعندما ألاحظ هذا التناغم بين هذه العناصر، أخرج بنتيجة، لا أقول قطعية، لأني أكره القطعيات، ولكن أخرج بنتيجة ظنية، وعلى مستوى الظن المتاخم للاطمئنان، بأنه لابد وان تكون هذه المقولات والرؤى التي عالجتها قضايا إسلامية معاصرة قد رفدت وعي النخبة، وغذت العقل المسلم بنور معرفي جديد، لدى من يهتمون بمثل هذه الأمور، بمعنى ان هذه المجلة خلقت فضاء ثقافيا لم نألفه في السابق، وهو فضاء ينسجم مع العقل العالمي الجديد، ومع التحولات المتسارعة في عالمنا وما تفرزه من استفهامات.

تجدر الإشارة إلى أني انطلق في حديثي مما تطرحه المجلة، ودراسة الحاجة الواقعية التي يفرزها الواقع، ودراسة الإشكاليات التي أفرزتها قضية العقل الديني والعقل الحضاري، فحين لاحظت انسجاما بين هذه الأمور الثلاثة، اخرج بنتيجة ظنية - كما قلت - تفيد أن قضايا إسلامية معاصرة خلقت وعياً نقدياً، وطليعة معينة ذات مستوى معرفي إشكالي سجالي.

❑ كمال الساعدي

تارة نسأل عن دور المجلة ماذا قدمت؟ وتارة نقول: هل حققت هذه المجلة انتشاراً، بنحو انتقلت من دائرة النخبة إلى الجماهير؟ الإجابة عن كل سؤال مضمونها مغاير للآخر. وأبدأ بالإجابة عن السؤال الثاني، فان قضايا إسلامية معاصرة لا اعتقد أنها خاطبت وعي الجماهير، لأنها ذات طابع نخبوي، وينبغي أن يكون قارئ هذه المجلة ذا خلفية فكرية بالإشكاليات المطروحة على صفحاتها، لكي يستوعب معالجاتها. كما انه لا تتوفر لدي معطيات تشير إلى حركة انتشار هذه المجلة، لكنها بالتأكيد على مستوى النخبة هي مجلة ممتازة ومحترمة، وذات مكانة فكرية متميزة.

أما الجواب عن سؤال: ماذا قدمت المجلة؟ فيمكن القول أنها حققت المكاسب التالية:

١ ـ إن هذه المجلة قامت بالتفرقة ما بين الأيديولوجيا والاجتهاد، فان الأخذ بالأيديولوجيا يعني توظيف النص أو الرؤيا لأهداف خاصة، أو لطبقة، أو لقومية، أو لجماعة أو لهدف معين، فالتوظيف الخاص للنصوص هو ما نعنيه بالأيديولوجيا.

بينما الاجتهاد ليس توظيفا خاصا للنصوص، وإنما هو رؤية حرة، وتفسير منفتح للنصوص.

وهذا هو المكسب المعرفي الهام الذي أنجزته قضايا إسلامية معاصرة، حين استبعدت المواقف الأيديولوجية التبشيرية، وانطلقت إلى المعالجات المعرفية والاجتهاد، صحيح أن الاجتهاد لا يخلو من التحيز والذاتية، لكنها نسبة بشرية طبيعية، بخلاف الأيديولوجيا، التي هي إسقاط لمواقف مسبقة على النص، بل توظيف سيء للنص.

٢ ـ حاولت المجلة محاصرة الدوغمائية والقطعية، فان سيادة الجزميات في الفكر يعني تحنيط الفكر وسكونه، وبالتالي موته واندثاره، الفكر لا يمكن سلخه عن الحراك والصيرورة، وهذا هو المعنى الصحيح للاجتهاد. ان القطعية في الفكر تنتج الإجابات الجاهزة، والقدسية للمقولات والأفكار، ومن ثم نفي واجتثاث الرأي الآخر.

إن كل فكر تطغى فيه القطعيات يسوده الاستئصال، ومحاربة الرأي الآخر، وتحويل الفكر البشري إلى مقدس، وبالتالي تقديس الأشخاص الذين يحملون هذا الفكر. وكلما قلت القطعيات كلما انفتح الفكر باتجاه الآخر، وباتجاه الاستيعاب، والمراجعة، والتجاوز، والنقد، والحرية، وأخيراً تحرير العقل من كهوف المعرفة.

٣ ـ كسرت قضايا إسلامية معاصرة احتكار المعرفية الدينية، فلم تعد هذه المعرفة حكراً على رجال الدين أو الذين يدرسون في الحوزات العلمية خاصة. فإن البعض ظلوا يحسبون إنهم وحدهم القادرون على فهم النص ومعرفة الدين، بينما برهنت المجلة من خلال

أطروحات علمية عميقة بأنه يمكن لمفكرين وباحثين خارج هذا الإطار أن يقاربوا قضايا المعرفة الدينية. وبالتالي فان هذا المنحى يمثل محاولة جادة لتجاوز عقدة احتكار البعض للمعرفة الدينية.

٤ - إن هذه المجلة حاولت أن تنتقل بالفكر الإسلامي من الطابع السياسي إلى الطابع الابستمولوجي، ذلك إنها منحت الفكر الإسلامي طابعاً معرفياً، وحررته من التفسير السياسي الأحادي البُعد، فإن هذا التفسير من شأنه أن يفقر الفكر حينما يهيمن عليه.

❍ إبراهيم العبادي

فيما يلي بعض الإيضاحات:

١ - إن قضايا إسلامية معاصرة حاولت أن تتجاوز عقدة الأيديولوجيا إلى رحاب الفكر المفتوح، الذي يعالج القضايا، شرحاً وتفسيراً، وتحليلاً، وتعميقاً على أساس معرفي.

هذه المنهجية كنا نفتقدها فيما سبق، وكان هناك همس وأماني تحلم أن تتحقق في الواقع، غير أن هذه المجلة قدمت لنا ما يمكن أن أعبر عنه بـ (التمرين النقدي) و(التمرين الحواري) و(التمرين على التفاهم مع الآخر) والاستماع للآخر، والإنصات له، أملا في الوصول إلى نتائج عملية، مغنية غير مفقرة، فإن اشد الكوابيس الفكرية في مجتمعاتنا الإسلامية في الماضي والحاضر هي نزعة (الاستئصال) و(الرفض) و(الإلغاء) و(نفي الآخر)، وهيمنة الجزمية على وعي الناس، في الوقت الذي يتمنى الكثير من الناس أن يبوح رجال الفكر بما يتكتمون في طرحه وإثارته.

ولذلك عندما تقتحم قضايا إسلامية معاصرة تلك العقبات، وتتناولها بجرأة فائقة، وبلا محذور، وبلا تردد، وتطلق المجال للعقل المسلم أن يتعاطى مع الموضوعات والأسئلة بلا خوف، فإنها تحرر هذا العقل من سطوة ركام هائل يحول بينه وبين استبصار الواقع، وتتيح للعقل أن ينفتح على أفق ممتد يضج بالأسئلة الحائرة، ويضج بالمتغيرات، ويضج بالرؤى المختلفة، التي تحتاج إلى حوار، ومناقشات، ولا تحتاج إلى إجابات جاهزة، نكررها كل مرة، عبر استدعائها من التراث، من دون أن نعي ملابسات الواقع.

ومن الواضح أننا بهذه الطريقة لا نقدم جوابا معرفيا، وإنما نقدم أجوبة أيديولوجية تستند إلى (إلجام العوام عن الكلام) كما يقول السلف، وبكلمة أخرى هي أجوبة إسكاتية تمنع الحوار والمناظرة.

٢ - إن قضايا إسلامية معاصرة اهتمت بنقل مقولات وأفكار وإشكاليات النخبة إلى الجمهور، صحيح أن معظم الجمهور لا يمتلك الخلفيات التي تؤهله للتعاطي مع ملفات المجلة، لكن حسنة هذه المجلة إنها قدمت أشد القضايا الفكرية التباساً، من قبيل:

(قضية التأويل، وعلم الكلام الجديد، والتعددية الدينية، وفلسفة الفقه... وغيرها) بأسلوب معرفي نظري، يعمق فهم النخبة، ويضيء هذه المفاهيم في عقولهم، وبالتالي تتسرب هذه الإضاءات من النخبة إلى الجمهور، فيصغي هؤلاء لاستفهامات ظلت حبيسة في وجدانهم، غير أنهم لم يتمكنوا من صياغتها وتداولها.

من هنا أضحت المجلة جسراً بين النخبة وعامة المتعلمين والدارسين، الذين لا يستطيعون بلورة الإشكاليات في أذهانهم، ولذلك نجد طائفة من الناس بدأت تنصت، وتتأمل، وتفكر، وتتحدث، وتسأل، وتتحاور.

❑ كمال الساعدي

من خلال الموضوعات التي طرحتها المجلة عرفنا أن السلفية كظاهرة فكرية ليست من خصوصيات هذا المذهب أو ذاك، وان المشكلة مع السلفية لا تكمن في اعتقادها إن كل قضية في الماضي صحيحة، وإنما تكمن في أنها تتمسك بالماضي بفعل عوامل سيكولوجية، تبعث على الارتياب والقلق من كل ما هو جديد، ليس لأن هذا الجديد خطأ، بل الخوف من الجديد بأي شكل كان، والاعتقاد بان كل ما هو جديد زيغ وضلال، وان النقد يمثل حالة انشقاق وتمرد في الأمة، لابد من مناهضتها ومحاصرتها.

إذن الرفض السلفي في جذوره رفض نفسي، وليس رفضاً علمياً، وليس رفضاً قائماً على التسليم بصحة الماضي.

وعلى هذا اعتقد أن قضايا إسلامية معاصرة ساهمت في تفكيك هذه القضية، وعملت على كشفها للمثقفين، وهذه قضية هامة وخطيرة، لأننا إذا استطعنا التمييز بين الموقف القائم على أساس معرفي، والموقف القائم على أساس الذاكرة والحالة السيكولوجية، نكون قد قطعنا شوطاً كبيراً في تقويم ونقد التراث.

❑ غالب الشابندر

إن المجلة تعاملت مع القضايا الإشكالية بأفق معرفي، وفلتت من الفخ الأيديولوجي، ولتوضيح ذلك أشير إلى ما يلي:

١ ـ إن موضوعات المجلة تناولت قضايا معرفية، مثل: فلسفة الفقه، التأويل، التعددية، وغيرها، فبنية هذه الموضوعات بنية معرفية، تتعلق بكيفية التفسير والتحليل، وقضايا الفكر والمنهجية، ولا تتعلق بأمور أنطولوجية وجودية، يجب أن نرجع بها إلى الخارج.

٢ ـ كل عدد يشتمل على سجالات متنوعة، ومن النادر أن نجد عدداً فيها يضم موضوعات منسجمة فيما بينها، وهذا يعني أنها لو كانت تتعامل بنزعة أيديولوجية لكان هناك وفاق وانسجام تام في مادتها، لأن الأيديولوجيا تنفي الموقف المخالف، والمفهوم الآخر،

بينما في الاتجاه المعرفي في البحث يطغى السجال، وتتنوع الرؤيا، بمعنى تكون السمة العامة للبحث السجالات وليس الانسجامات.

٣ ـ إن الفكر المطروح فيها بعيد عن القطعيات، كما تفضل الأخوان، فيما الأيديولوجيا بطبيعتها قطعية، حادة، لا تتساهل، بينما الطابع المعرفي للبحث هو طابع مفتوح، وقابل للنقد، والاختلاف، أصلاً هو رؤيا اختلاف لا مطابقة.

٤ ـ المجلة استطاعت أن تبني عقلية ناقدة، وهذا يتصل بالأفق المعرفي، أكثر مما يتصل بالأفق الأيديولوجي، فإنه حتى لو كان في الأيديولوجيا نقد فهو نقد الغائي وليس نقدا بمعنى الاستثارة والتقويم، أما النقد المعرفي فهو نقد بمعنى الاستثارة، أي انه يضيء النص، ويقدم النص وهو مضاء، منير، موضّح إلى القارئ، لكي يستلهم القارئ النص ويتمثله.

٥ ـ مجلة قضايا إسلامية معاصرة ساهمت بتشكيل نخبة بمستواها ـ كما سبقت الإشارة لذلك ـ لأنها تطرح فكراً سائداً، ومفروزاً عالمياً، ومفروضاً عالمياً، له رواده، ومتعلموه، وتياره، وحاملوه.

❍ إبراهيم العبادي:

إن النخبة تفكر بقضايا هي أجوبة وحلول لمشكلات الواقع، والجمهور يعاني من هذه المشكلات، لكنه لا يفكر بالطريقة التي تفكر فيها النخبة. الجمهور العام يفكر بالقضايا من زاوية صلتها بالمعاش اليومي، وبالتالي لن يجد الفرصة الكافية للتفكير العميق.

إن هناك بوناً شاسعاً بين تفكير النخب ووعي الجماهير، بحيث تبدو احيانا هموم المثقف الديني وكأنها هموم خاصة بعيدة عن هموم الإنسان العادي.

كذلك يبدو هذا المثقف باحثاً عن أعماق نظرية، يبحث عن حلول معرفية لمشكلات الواقع، الشديدة التعقيد والتنوع، أما الإنسان العادي فهو في الغالب أقرب إلى الحلول الايديولوجية والحلول المبسطة.

من هنا نجد هوة شاسعة بين ما يفكر به المثقف الديني وهموم عامة الناس، وهو ما يتجسد في الواقع في نوع من التباعد، وربما نوع من التناشز، والرفض المتبادل، حين يشعر المثقف بأن الجمهور منصرف عنه، بينما يسعى المثقف للوصول إلى الجمهور عبر مقاربة المشكلات، والتفكير بالحلول لهذه المشكلات.

السؤال هو: إلى أي مدى عملت المجلات النوعية المتخصصة، ومنها قضايا إسلامية معاصرة، في نقل خطاب النخبة وفكرها إلى الجمهور، على الاقل إلى الجمهور المتعلم، الذي يمكن أن يشكل المادة والهدف الذي تسعى إليه النخبة في نقل الفكر والثقافة واشاعتها وتعميمها، وأخيراً إيقاظ الناس؟

❑ غالب الشابندر

صحيح أن محور هموم عامة الناس هو المعيوش اليومي، والمشكلات الراهنة، والوقائع الجزئية، لكن هذا لا يعني أن المثقف الديني لا يعيش هذه المشكلات، المثقف الديني يقارب المشكلات بعمق، وتحليل، وبعد نظر.

غير أن الإشكالية تكمن في أن الإنسان العادي يلامس المشكلات على مستوى الحس، ويفتش عن حلول آنية عاجلة، بينما المثقف يبحث عن علاج جذري لها، نعم هو يعيها على مستوى الحس، لكنه يسعى لاكتشاف أسبابها، وملابساتها، وآثارها. فمثلاً يستطيع المثقف الديني أن يربط بين مشكلة التناقض الطبقي والقراءة الأحادية للنص الديني؛ لأن تعدد قراءات النص يقدم تفسيرات متعددة تفضي إلى تقديم حل للتناقض الطبقي، بينما القراءة الواحدة قد تكرس هذه المشكلة ولا تقدم حلاً لها.

وبذلك يتجلى الفارق بين الإنسان العادي والمثقف، الإنسان العادي يبحث عن حل سريع وعاجل، أما الحلول التي يقدمها المثقف فهي تسعى لدراسة جذور المشكلات، والتعرف على نسيجها المعقد، واكتشاف أمثل العلاجات لتفاديها والتغلب عليها.

من هنا نجد المثقف حاملا للهم اليومي، وهكذا المفكر، والفيلسوف، فإن الفلاسفة انطلق الكثير منهم من الهم اليومي لبناء فلسفتهم العميقة، غير أن الفارق يتمثل في أن المثقف ينطلق من حلول جذرية، فيما الإنسان العادي ينطلق من حلول سطحية ساذجة.

نعم، يمكن القول أن مجلة قضايا إسلامية معاصرة لم تتغلب على إشكالية تجسير العلاقة بين النظرية والواقع، فإنها لم تتحول من نظرية معرفية إلى فكر يحرك الجماهير، وإنما بقيت رؤى معرفية لصياغة الوعي النخبوي، فما زالت هناك مسافة بين خطاب النخبة وفهم الجمهور، والمجلة لم تستطع الالتصاق بثقافة الجمهور، لعدة أسباب، هي:

١ ـ طبيعة خطاب النخبة، ولا يستطيع أن يستوعبه الجمهور مباشرة، بل يتطلب وسائط وزمناً طويلاً نسبياً، كيما يتحول إلى ثقافة للجمهور.

٢ ـ ربما كان هناك خطاب نخبوي دقيق، غير أن وسيلة إيصاله إلى الجمهور ما تزال معدومة، الخطاب يحتاج إلى أدوات، يحتاج إلى حامل يوصله إلى مقصده، بمعنى أننا من دون أدوات لا نستطيع أن نلامس هموم الناس، وهذه الأدوات من قبيل الحوار والمناظرة، والصحافة الشعبية، والراديو، والتلفزيون، والسينما، والمسرح، وغير ذلك.

لذلك اقترح أن تعقد المجلة ندوة لدراسة الوسائل الكفيلة بنشر وتعميم الخطاب النخبوي بين الجمهور، بحيث يتفاعل الجمهور مع هذا الخطاب قراءة، وفهماً، وتجسيداً، وتمثلاً.

أكرر أن هذه الإشكالية لا تعود إلى المجلة نفسها، وإنما هي تعود إلى طبيعة خطاب النخبة، ذلك أن هذا الخطاب لا يخلو من عمق ودقة، وهو يتطلب أدوات ووسائل خاصة لتمريره إلى الجمهور. فضلاً عن أن عامة الناس بحاجة إلى جهود كبيرة لتنمية وعيهم وتأهيلهم لاستيعاب خطاب النخبة.

❑ كمال الساعدي

لدينا نوعان من المثقف:

١ ـ المثقف النخبوي.

٢ ـ المثقف الجماهيري.

لذلك ينبغي أن نحدد نوع المثقف الذي نتحدث عنه، فهل نتحدث عن المثقف النخبوي، الذي هو مثقف منتمي إلى طبقة معينة، أو قومية مهيمنة في بلد ما، أو طبقة دينية، أو نتحدث عن المثقف الجماهيري الذي ينتمي إلى المجتمع، ويتخلى عن جذوره؟

وعلى هذا يمكننا تصنيف النخبة إلى:

١ ـ نخبة فكرها نخبوي، غير أنها مندمجة بالحياة ورهاناتها وهمومها، أي أن اتصالها بالجماهير اتصال عضوي.

٢ ـ نخبة فكرها نخبوي، لكن موقعها منفصل عن الجماهير، نخبة تتفرج على الحياة، نخبة لا تقترب من الواقع، أي أن فكرها وموقعها منفصل عن حياة الناس وما تحفل به.

والمثقف الديني هو المثقف الشعبي المنتمي إلى الناس، المتصل بقضاياهم بشكل عضوي، يحمل همومهم، ويلامس تصوراتهم.

بعد هذه الإيضاحات نستطيع القول: إن الإشكالية تنتقل إلى مجال آخر، فان الإشكالية لا تعود إلى كون الفرد مثقفاً، بقدر ما إن الأمر يتعلق بعناصر أخرى خارجة عن إرادته، ومن هذه العناصر:

١ ـ الاتجاه السياسي الذي ينتمي إليه المثقف ربما يكون أحد الأسباب التي تؤدي إلى عزلة هذا المثقف، ونحن نعيش في واقع يضج بالاحتراب السياسي.

٢ ـ كما أن المؤسسة الدينية تتوجس من المثقف الديني، وتحذره، وتشكك في مقولاته وأفكاره، وهذه المؤسسة تمتلك سلطة على الجمهور، وبالتالي ستكون قادرة على إقصاء المثقف الديني وعزله، خاصة وان المثقف يفتقر إلى وسائل التواصل مع الجمهور، فليس لديه منابر، ولا صحف، ولا دور نشر، ... الخ.

٣ ـ كذلك جهل طائفة من الجمهور يساهم في محاصرة المثقف وإقصائه، وهنا أود التأكيد على أن بعض الناس قد يكون من الحاصلين على مؤهل أكاديمي، لكنه جاهل في

القضايا الاجتماعية، والقضايا الدينية، فهو يصنف في خانة الذين يفتقرون إلى الوعي الاجتماعي المطلوب لتشخيص الواقع، وتمييز الأفكار، وتصنيف المشكلات.

٤ - إن الهموم اليومية العاجلة في حياة الناس تمنعهم من التواصل مع الفكر الجديد، فالمشكلات السياسية وشيوع الاستبداد بكافة أنماطه، والفقر، والمرض، والأمية، كلها مشكلات مزمنة يضج بها الواقع، ولا تبقي فرصة للتأمل والتفكير والاستجابة لثقافة بديلة.

٥ - إن معالجات المجلة، وأية معالجات معرفية من هذا النوع، هي بمثابة البنية الأساسية، فإن تحديث المجتمع يتطلب تحديث المرافق التربوية والتعليمية، والإعلامية، والثقافية، والصحية، والتكنولوجية، والزراعية، وهكذا سائر البنى الأساسية. وهذه البنى تعطي نتائج بطيئة عادة، لكنها نتائج هامة وعميقة على المدى البعيد، ذلك أنها تؤدي إلى إعادة بناء المجتمع وتحديثه.

وهكذا تبدو لنا مقاربات المجلة للإشكاليات الأساسية في الفكر الإسلامي، فإنها لا تعطي نتائج يومية سريعة، وهذا ناجم من طبيعة الإشكاليات، وليس من قصور المثقف، ولا قصور الجمهور، لأن الأفكار والمقولات الأساسية تحتاج إلى مراحل، وتستغرق فترة زمنية ليست قصيرة لكي تغدو ثقافة يومية.

○ **إبراهيم العبادي:**

أصوغ السؤال هكذا: إلى أي حد يهتم عامة الناس بموضوعات من قبيل: فلسفة الفقه، ومقاصد الشريعة، وعلم الكلام الجديد، والتأويل، وغير ذلك؟ فإذا كنا نتحدث عن اشكاليات واقع إسلامي يتبلور بصيغة فكر، ويراد لهذا الفكر أن يتجاوز التقليد، والموروث السابق، الذي يختزن مشكلات جمة، وينفتح هذا الفكر على واقع معاصر يضج بالجديد والمختلف، فإنه هل يعود الحذر لدى الجمهور العام أو لدى الرافضين للتجديد من الاشكاليات المطروحة، باعتبار انها تمت بصلة إلى ما يفهم من أنه أصداء لهجوم ثقافي، أو هي أصداء لشغب العولمة، أو هي استجابة وتماهي مع بعض مقولات الفكر الغربي، في وقت نحن نعيش اشكاليات الهوية، وضرورة تحصين الذات باللجوء إلى الهوية، وإلى الدين، والتراث. هل هذه المشكلات ذات صلة بهذا الموضوع؟

❑ **غالب الشابندر**

لا يوجد أي طرح لقضية فكرية كبيرة ليست لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بهموم المجتمع اليومية، فإن طبيعة الحياة هكذا، الحياة متشابكة، كما أن طبيعة الإشكاليات الفكرية أنها غير منفصلة عن الإشكاليات الاجتماعية، كذلك طبيعة السؤال غير منفصلة

عن جوابه، مهما كان هذا السؤال، فالسؤال لا ينفصل عن تجليات الحياة الاجتماعية. المعرفية لا تتجزأ، المعرفة نسيج عضوي متداخل، فمثلا قضية تعدد القراءات للنص الواحد، فبمقدار ما أن هذه قضية معرفية صرفة، ومتخصصة، وبموازاة ما إنها تحاكي قضية معرفية متداولة في الفكر الغربي، لكنها في نفس الوقت ذات جذر اجتماعي يتعلق في بُعد من أبعاده مثلاً بتوزيع الثروة، وتطبيق الشريعة.

وهكذا هي الأفكار بطبيعتها تتجاوب مع بعضها وتتفاعل، وهي في صيرورة وتوالد مستمر، فقضية حقوق الإنسان عندما طرحت في الفكر الغربي الحديث وتعرف عليها المسلمون، كانت لها استجابات وأصداء واضحة في الفقه الإسلامي، إذ اتسعت مباحث الحقوق في الفقه وأصبحت هناك حقوق إضافية، ومعالجات لحقوق وافدة، صار يفكر بها المسلم.

ولذلك فإن أي نظام معرفي أو أية قضية معرفية تطرح، سواء في مجال التأويل، أو علم الكلام الجديد، أو مقاصد الشريعة، وغير ذلك، فإنه لا يمكن فصلها عن المشاكل الاجتماعية. وما يدرينا لعل دراسة علمية للمدارس الكلامية التي نشأت في العصر العباسي، لها علاقة مباشرة بقضية التخلف والتنمية، وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مجتمعاتنا، ذلك أن نمط الرؤية الكونية وصورة الإله في الذهن تؤثر بشكل عضوي في بنية المجتمع وعلاقته وثقافته.

كما أود أن أشير إلى أننا في كلامنا اعلينا كثيراً من المثقف، وحاولنا أن نبرر مواقفه وتقصيره، فإن المثقف يتحمل مسؤولية عندما لا يجد فكره طريقه إلى الواقع الاجتماعي، والى الجماهير المسحوقة. فمثلا لو كان المثقف يطرح فكراً انقلابيا ثوريا، بينما نجده لا ينتمي في سلوكه وأخلاقه إلى القيم الثورية، حيث نجده مرفها، وغنياً، ومتعالياً على الناس، فإن هذا السلوك سيحول دون تسرب فكره وما ينادي به من قيم إلى الجماهير، لأن الإنسان العادي يربط بين السلوك والفكر، وهذا هو السر في شيوع بعض الأفكار المتهرئة والبائسة بين الناس، لأن حملتها يجسدونها في سلوكهم، ويضحون من أجلها. فالسلوك الذي يحقق الأفكار في الواقع هو مدخل نفوذ تلك الأفكار وانتشارها.

ولكي يكون المثقف الديني مؤثراً في المجتمع ينبغي أن يحقق القيم والأفكار التي يدعو لها في ذاته وحياته أولا، وإلا فعندما نجد طائفة ممن يحملون الفقه والمعارف الإسلامية لا يعيشون عيشة الناس ويحرصون على الرفاه والترف في حياتهم الخاصة، فإنه وبالتالي سينفصل فكرهم عن سلوكهم، وسيكون سلوكهم المترف المتعالي محرضا لعامة الناس ضد أفكارهم وخطابهم.

❍ إبراهيم العبادي:

إن هذا الصنف الذي يتحدث عنه الاستاذ الشابندر ليس هو المقصود بالمثقف الديني، ولا ينتمي إلى الموضوع الذي نبحثه، لأن المثقف الديني هو الباحث عن التغيير، المسكون بهموم الناس.

❑ كمال الساعدي

الأخ الأستاذ الشابندر يتحدث عن موضوع آخر، خارج عن موضوع المجلة، وهو قضية الأخلاق والسلوك، ودعوة المثقف أو رجل الدين للناس، أن يسلكوا سلوكاً معيناً، فعندما يعيش هو في سلوكه بشكل مناقض لدعوته فإنه يبعد الناس عن أفكاره. وهذا الكلام صحيح، لكننا هنا نتحدث عن إشكاليات الفكر الإسلامي، ولذلك أعود لبحث الموضوع، فإنه عندما نطرح قضايا فلسفة الفقه، ورؤية جديدة لعلم الكلام، وتعدد القراءات، وغير ذلك، فإنها قضايا معرفية بحتة، لا علاقة لها مباشرة بالسلوك. وكما أشرت فان هذه المعالجات هي بمثابة البنية الأساسية ونحن لا نمتلك الآليات في تحقيق هذه المعالجات وتحويلها إلى ثقافة جماهيرية. في الغرب مثل هذه الأفكار يجري تحقيقها عبر مراكز بحوث وأكاديميات وملتقيات وحلقات نقاشية، وسلطة سياسية تتناسب تماماً مع هذه البنية، وتتناغم السلطة مع مثل هذه المعالجات ولا تقف ضدها.

أما في بلداننا فإن السلطة السياسية تقمع هذه المعالجات، والمؤسسة الدينية في قطاع واسع منها تكبح هذه الأفكار، وترتاب من هكذا طروحات.

كما أن المثقف الديني يفتقر إلى ابسط الوسائل لإيصال خطابه للجماهير، مضافا إلى انه محاصر، وبالتالي ستظل هذه الطروحات في دائرة النخبة.

يتلخص مما سبق أن هذه المعالجات من مركبات البنية الأساسية، هذا أولاً، وثانياً إن آليات تحويلها إلى ثقافة جماهيرية هي آليات شبه مفقودة.

❍ إبراهيم العبادي:

ان الارضية أحياناً غير متوفرة لعامة الناس في التواصل مع النخبة في التفكير في القضايا المطروحة من زاوية مشتركة، فمثلاً عندما طرح مفكرون في ايران فكراً نقدياً، حصلت استجابة سريعة، وتحرك المناخ الثقافي، وتشكل فضاء نقدي عام يتعامل مع المعطيات المطروحة، من حيث علاقتها بالدين، ومن حيث علاقتها بالواقع، وبجاهزية النظرية الإسلامية في التعامل مع مشكلات الواقع. بينما في واقعنا العربي، نحن نواجه مشكلة غياب الفضاء الثقافي الخاص الذي يتوالد في محيطه الفكر النقدي، ويمثل الحاضنة لهذه الأسئلة، وهو الذي يمنع من تواصل النخبة مع الجمهور. ما هو تعليقكم على ذلك؟

❑ **غالب الشابندر**

في إيران هناك ظاهرة أخرى، وهي أن إيران تحمل لواء تطبيق الشريعة، وتعمل على تحقيق الفقه الإسلامي في الحياة، وتحاول تجسيد الإسلام اجتماعياً، وهذا في الواقع يخلق الكثير من الحراك الفكري في المجتمع، ويخلق جسوراً مشتركة بين الجمهور والمفكرين.

أما في المجتمع العربي فليس هناك نظام سياسي يعمل على تجسيد هذه القضية، وهذا يساهم في تقليص جسور المشاركة بين النخبة والجمهور.

كما أن حركة الاجتهاد في إيران أصبحت حركة مفتوحة وعملية، تستجيب للواقع، ذلك أن الواقع يستفز المثقف الديني عبر استفهاماته المختلفة، والكثير من القضايا أضحت تمس الجمهور، وهي قضايا ساخنة، وهذا ما نفتقده في العالم العربي.

❑ **كمال الساعدي**

التواصل بين النخبة والجمهور في إيران سابق لقيام الثورة الإسلامية بسبب انتشار الحوزات وطلابها في مختلف المناطق في إيران، وتعاطي طلاب الحوزة للسياسة في المجتمع الإيراني منذ عصر المشروطة بداية القرن العشرين، وبسبب صدور مجموعة من الصحف والدوريات، وسعة الإنتاج الفكري الإسلامي، كل ذلك وغيره، جعل المثقف الديني في إيران أشد تواصلا مع الجمهور من المثقف في البنية الشيعية العربية. وأنا أزعم في البيئة الشيعية العربية ظهرت إرهاصات ولادة مثقف ديني في العقدين الأخيرين. بينما في إيران ولد المثقف الديني منذ أكثر من نصف قرن، متمثلا في نماذج ذات صدى فكري عالمي، مثل المهندس مهدي بازركان، والدكتور علي شريعتي، وجلال آل أحمد، وغيرهم.

ويعود ذلك إلى أن العلاقة بين الإنسان العربي والحوزة العلمية لا تتجاوز التقليد وإعطاء الحقوق والأموال للحوزة، بينا يمتلك الإيراني جذوراً أعمق تمتد للحوزة، فهناك تواصل يومي يطاول كل مرافق الحياة بين الحوزة والمجتمع. بينما في المجتمع العربي الحوزة العلمية تكاد تكون منفصلة تاريخيا عن المجتمع إلى حد كبير، وهذا ما خلق بيئة إفقار للمثقف الديني، والذي ولد متأخراً ولادة مجهضة في مجتمعنا.

❍ **إبراهيم العبادي:**

إن هناك حالة احتراب فكري وسياسي بين الاسلاميين، وإن هناك نزعة سلفية عارمة، يخطط لها، ويجري الترويج لها في نطاق عام، في مجتمعاتنا. هل هذه النزعة السلفية تمثل استجابة لدواعي الهوية والدفاع عن الذات الجماعية، تجاه العولمة وتحدياتها الثقافية، أم ان ذلك استجابة لصراع داخلي في مجتمعاتنا بين المثقف الديني الداعي إلى التحديث ومواكبة

العصر، وبين تيار تقليدي سائد يحسب انه لابد من الحفاظ على الحالة القائمة، واستدعاء التراث كما هو، بسائر ملابساته؟

❑ غالب الشابندر

من البديهي أن بعض دوافع هذه الحالة هي دوافع تعبر عن مصالح طبقية خاصة، ومصالح سياسية معينة، وربما تعبر عن مصالح حزبية ضيقة، وهذه ظاهرة نراها في كل عملية تحوّل اجتماعي، فعندما تبرز معالم تحول اجتماعي كبير، على صعيد الفكر، وعلى صعيد الواقع السياسي، ينبثق تيار رافض مناهض لهذا التحول، وهذا التيار له بواعث متنوعة، فهناك من يرفض بدافع الخشية على الموروث، ويعتبر الموروث مقدسا ينبغي الحفاظ عليه، والتفريط به يعني التفريط بالجذور، وبالتالي التفريط بالقاعدة الأساسية للأمة. وهذا ناجم عن قصور في التفكير، لأنه لا يحترم التغير، ولا يحترم التطور، ويهرب دائماً إلى الماضي ليحتمي به، ويريد أن يشد الناس إلى مثل جامد متحجر، وهو لا يعي أن الحياة لا يمكن أن تظل ساكنة، الحياة صيرورة مستديمة ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ و﴿**يزيد في الخلق ما يشاء**﴾. وهناك من يرفض لمصالح اقتصادية وسياسية، لان مصالحهم ارتبطت بالقديم. وهناك من يرفض ليس إيماناً منه بالقديم، وإنما هو نفسه لا يتحمل التغيير، يرى الجديد غريباً فلا يستوعبه، لا يراه خطراً ومهدداً، بل بطبيعته لا يتعامل مع الجديد، لأنه سكن إلى مثل يألفه، اعتاد على شيء، وأصبح ذلك الشيء جزءا من مكوناته الذهنية، ووجد راحته النفسية في ذلك. إذن هناك ثلاثة مستويات للموقف المناهض للتحديث، تتنوع دوافعها، لكن مضمونها واحد.

❑ كمال الساعدي

إن توظيف وتشجيع الظواهر السلفية، وبعض الشعائر والممارسات التي ولدت في عصور متأخرة، هذا التوظيف فشل في خوض الصراع حتى مع الدولة القطرية والنظام السياسي المحلي، بل أن تجربتنا تفصح عن أن الأنظمة السياسية تعمل على توظيف تلك الممارسات لامتصاص الزخم الثوري، فإذا لم تكن هذه الممارسات قادرة على الوقوف بوجه تغوّل الدولة، ولم تستطع أن تكون آلية من آليات الصراع مع الدولة القطرية، فكيف تكون مؤهلة لخوض الصراع مع تحديات العولمة، التي هي في طريقها لاكتساح كل شيء، لاسيما وان آليات العولمة هي أحدث تقنياً وأدق من آليات الدولة القطرية الراهنة، فإن آليات الدولة في مجتمعاتنا هي العنف والتسلط، وإسكات كل صوت بالقمع.

أنا أظن أن توظيف هذه الممارسات إنما تم لتصفية حسابات ولصراع قوى داخلية، وليس بغية الحفاظ على الهوية وتحصين الذات.

ان هناك حالة من الريبة والخوف مزدوجة، فهناك خوف من الآخر الغربي، مثلما هناك خوف من المثقف الديني، والتأويل المعاصر للنصوص، والرؤى الجديدة في علم الكلام، ومناقشة التاريخ، والفقه الجديد. فهذا الخوف هو رد فعل على محاولات التجديد، وكلما اشتد هذا الخوف تكرست الحالة السلفية وتخشبت بنحو أشد، وعملت على تقديس كل شيء يرمز إلى الماضي، وهربت من كل شيء يرمز إلى العصر.

وبعبارة موجزة أن هذه الممارسات موجهة لمناهضة تيار التجديد أكثر مما هي موجهة للآخر.

❍ **إبراهيم العبادي:**

هل يمكن القول: ان أرباب السلطة المعرفية الدينية يلجأون إلى اسلوب الرفض والمواجهة مع الفكر النقدي، والفكر المغير، والاجتهاد الشمولي، على أساس ان سد باب الذرائع أهم من جلب المصالح؟

❑ **غالب الشابندر**

أنا ليس مع الأجوبة الحادة والقاطعة، صحيح يوجد طيف مصدر خوفه هو ما تفضلتم به، لكن مع ذلك يوجد بجواره من يخافون على مصالحهم، أو لأنهم يألفون القديم، تماماً كما هي دعوات الأنبياء عليهم السلام، فان الذين عارضوهم هم عدة أطياف، منهم من يخاف على مصلحته، لأنها تهدد مصالحه، ومنهم من يحسب أنها تهدد استقرار المجتمع.

❍ **إبراهيم العبادي:**

اليست بعض هذه المواقف ناجمة من النظرة اللاتاريخية للمعرفة الدينية، بمعنى أنهم يعتقدون بأن هذه المعرفة مطلقة، لا زمنية، متعالية على الزمان والمكان، والتاريخ، ولذلك لا يجوز اعادة النظر فيما خلفه لنا السلف؛ لان اعادة النظر فيها يساوق الشك في حقيقة نهائية مطلقة؟

❑ **غالب الشابندر**

من المؤسف أن البعض يقرر قاعدة على أساس النص المأثور (قرني خير القرون، ثم الذي يليه...) وهكذا، وهذه القاعدة تشطب على كل تطور، وأية مكاسب يحققها الإنسان في المستقبل. ولذلك لا نجد البعض يقاوم أية عملية تجديد انطلاقاً من هذه القاعدة.

مضافا إلى تفشي النزعة الاستصحابية، وتقديس كل ما هو ماض، وكأن الماضي هو الحاكم على الحاضر والمستقبل.

❍ **إبراهيم العبادي:**

أصل التجديد يبتني على أساس أن من لا يتجدد يموت، وان كل من لم يجدد نفسه لا يستطيع ان يدافع عن نفسه، لأنك بمثابة من يحارب أسلحة متطورة بأسلحة بدائية.

❑ **كمال الساعدي**

١ ـ إن كون الاجتهاد عملية بشرية، يمارسها الإنسان بحدود طاقاته البشرية، ألا يتنافى ذلك مع القول بإطلاق وأبدية المعرفة الدينية التي ينتجها الاجتهاد بأدواته المعروفة، مضافا إلى انه يلزم من ذلك نفي مبدأ الاجتهاد وتعطيله؟

٢ ـ إن هذا الفهم يوحي بانتقاص للعقل، لأنه يعني أن السلف وتلك الأجيال الماضية قد قالت الحقيقة المطلقة، ووظيفة الأجيال المتأخرة عنهم هي التلقي فقط.

❍ **إبراهيم العبادي:**

قد يقال: إذا كان هذا الكلام ينطبق على المشتغلين بالدراسات الشرعية في الحوزات العلمية، فكيف نواجه الاتهامات التي تطاول المثقف الديني، وتزعم ان هذا المثقف يفكر ويتحدث ويكتب في حقل ليس من اختصاصه، ويجترح معرفة خارج فضاء الحقل المعرفي الخاص به، باعتبار ان ثقافته ووعيه الديني لا ينتمي إلى المرجعية المعرفية التراثية؟

❑ **غالب الشابندر**

إن تخصص الفقيه هو استنباط الأحكام الشرعية من مداركها المعروفة لدى الفقهاء، أما المثقف الديني فهو لا يستنبط أحكاماً، نعم علم أصول الدين مشترك بين الفقيه وغيره، فإنه لا يجوز التقليد في أصول الدين، وربما تتوفر لدى المثقف أدلة على موقفه العقائدي أعمق من أدلة الفقيه التي تتحرك في سياق المنطق الأرسطي، فقد يستند المثقف إلى علوم طبيعية ورياضية للاستدلال على التوحيد لا يعرف الفقيه عنها شيئاً.

كذلك من حق المثقف الديني الخبير بالعلوم الإنسانية الراهنة أن يتكلم عن ثقافة الحكم الشرعي، وعن فضائه، وعن أثره في المجتمع.

❑ **كمال الساعدي**

أود أن أضيف أن الفقيه يحدد سهام الإرث في أحكام الميراث مثلاً، أما الاقتصادي فبوسعه أن يدرس التطبيقات العملية لنظام الإرث في الإسلام، ليكتشف أن تطبيق هذا النظام سينجم عنه تفتيت الثروة، وعدم تمركز الثروة في المستقبل بيد واحدة.

وهكذا بوسع عالم التربية وعالم النفس والاجتماع أن يدرس الأبعاد العلمية لتطبيق تشريع الزواج في الإسلام، وما يتصل به من حقوق وواجبات للزوجة والزوج والأبناء في داخل الأسرة الواحدة.

وهنا أود أن أشير إلى أن مصطلح الاجتهاد والمجتهد أضحت تتصرف في العصر الحاضر إلى الفقيه خاصة، وهذا ربما يتضمن إيحاء باقتصار الاجتهاد على الفقه، بينما مفهوم الاجتهاد من اشمل المفاهيم فهو يتعدد ويتنوع بتعدد وتنوع العلوم الإسلامية، لماذا لا يتحقق الاجتهاد في علم أصول الدين وعلم الكلام؟ ولماذا لا يتحقق في سائر المعارف الإسلامية الأخرى كما يتحقق في الفقه؟ مع ملاحظة إن الاجتهاد في الفقه يقتصر اليوم على الحقل المتعارف وقلما يتخطاه.

❑ غالب الشابندر

إن مصطلح الاجتهاد بمعناه المتداول اليوم يُساء استخدامه، عندما يتحول إلى سلطة معرفية أوسع من حدود الاجتهاد في الفقه، فيتجاوز ذلك إلى شق حقول المعارف الإسلامية، بل منح تعميم مصطلح الاجتهاد الفقيه مسؤولية تشخيص موضوعات الأحكام، بالرغم من أن هذه الموضوعات ترتبط ارتباطاً عضوياً بالخبرة البشرية والتخصصات العلمية.

لقد أدى التباس مفهوم مصطلح الاجتهاد إلى منح الفقيه سلطة معرفية لا تقتصر على تخصصه في استنباط الأحكام من مداركها، وإنما تتخطاها إلى التدخل في مختلف مجالات العلوم الإنسانية وغيرها، فأضحى هو الأعلم في التاريخ، والتربية، والاقتصاد، والاجتماع، والتحليل السياسي... وغير ذلك.

❑ كمال الساعدي

نحن بحاجة ماسة إلى تحديد دقيق لمفاهيم المصطلحات المستخدمة، ومعرفة مجالها التداولي، وتبلورها، ومراحل استخدامها، فمثلاً عندما نقول: فلأن مجتهد مطلق، لا يعني ذلك انه مجتهد في المجالات المعرفية الأخرى خارج مجال الفقه، فربما هو في التاريخ أو غيره لا تتجاوز معرفته ثقافة متواضعة في ذلك المجال. غير انه من المؤسف نجد أحياناً بعض الفقهاء عندما يتناول مسألة تاريخية يستند إلى سلطته المعرفية، ويبدي وجهة نظر في مسألة خارج إطار تخصصه تماماً.

فلماذا يجري الاحتجاج على المثقف الديني دائماً بأنه يتعاطى موضوعات خارج مجال تخصصه، ويشنع عليه بقسوة، فيما يتمتع الفقيه بسلطة معرفية واسعة جداً تشمل عدة حقول معرفية خارج تخصصه.

وعلى هذا لابد أن ندقق في التسميات والمصطلحات، وعلى حد تعبير المفكر اريك فروم: إن اللفظ يعبر عن محتوى الإنسان، ويمكن توظيفه، فإن اللغة سلطة، واللغة قوة.

في الفكر الغربي الحديث الثقافة قوة، والبنية قوة، والمعرفة قوة، وحسب ميشيل فوكو، إن المعرفة بذاتها سلطة وقوة.

❍ **إبراهيم العبادي:**

هناك خشية تخامر بعض الاسلاميين من ان الانخراط في منهج التفكيك، ربما يقودنا إلى نسق الثوابت، مثلما يفعل مفكرو ما بعد الحداثة في الغرب، الذين باتوا يفككون العقلانية والتنوير والحداثة نفسها. ألا ترون ان الاستناد إلى منهج التفكيك يقودنا إلى فوضى فكرية؟

❏ **غالب الشابندر**

أحسب أن اللجوء إلى منهج التفكيك لا تنجم عنه فوضى فكرية، فقد مورس منهج التفكيك في تراثنا الماضي والحديث بحدود معينة، وبصراحة التفكيك عملية مفروضة إن لم تتحقق اليوم فإنها تتحقق غدا، باعتبار أن التطورات الجديدة في العلوم عملت على زعزعة الأسس الأولى للتفكير البشري، فمثلاً مفهوم اليقين تعرض إلى خلخلة، وهكذا غيره من المفاهيم.

إننا بحاجة إلى ممارسة التفكيك من أجل الإثبات لا من أجل النفي، لأننا أمام واقع مفروض علينا، أن لم نواكبه تطحننا عجلة الزمن.

أنا أمارس التفكيك من أجل الدفاع، كوظيفة علماء الكلام في الدفاع عن العقيدة، بينما مارس مفكرو الغرب التفكيك من أجل النفي، وتحول لديه إلى غاية لا وسيلة.

كما ينبغي أن تكون ممارسة التفكيك من خلال المتخصصين، وليس مجرد عملية ضوضاء ومشاغبات فكرية.

❏ **كمال الساعدي**

لدي تحفظ على ما ذكرتموه، لما يلي:

١ - إن منهج التفكيك برز في سياق الثقافة الغربية، فهو كمنهج لا يمكن استخدامه في الثقافة الإسلامية، التي هي ثقافة نص.

٢ - إن الفكر الإسلامي لا يتوفر على ملامح هذا المنهج، لكي نقول نحن مع هذا المنهج.

هذه قضية والقضية الأخرى إن منهج التفكيك يمكن أن يقارب النص البشري، لكن مع النصوص المقدسة فإننا لا يمكن أن نستخدم منهج التفكيك مع النص القرآني، يمكن أن نفسر هذا النص، يمكن أن نحلله، يمكن أن نؤوله، لكن لا يمكن ان نفككه، والنص القرآني متعالي على الزمان والمكان، هو نص لا تاريخي.

كذلك ليس بوسعنا اللجوء للتأويل اللامحدود للنص، على أساس أن النص القرآني فيه فضاءات لا محدودة للتأويل، لأن ذلك يفضي إلى نفي قصدية القرآن، وقصدية النص

الموحى به من اللّه تعالى للبشر، فإن للنص أهدافاً محددة، نعم يصح أن يكون لكل زمن تأويل، وكل جيل يستلهم من النص قصديته المواكبة لعصره.

❑ **غالب الشابندر**

ينبغي أن نضيء معنى التفكيك، فان التفكيك يعني النفاذ إلى ما يحجبه ويخفيه النص، ذلك أن كل نص فيه شيء مستتر، وأنا اعتقد بإمكان التأويل اللامتناهي للنص، لأن القرآن الكريم كالليل والنهار، كما ورد عن الإمام عليه السلام، بمعنى أن في كل لحظة هو جديد، فالنص القرآني منفتح على الواقع دائماً وباستمرار، ولو لم تكن في هذا النص هذه الخاصية، وانه منفتح انفتاحا لانهائيا لما استطاع النص القرآني أن يستوعب كل هذه الثقافات المتنوعة للشعوب الإسلامية على مر التاريخ.

❍ **إبراهيم العبادي**

ماذا يعني التأويل اللانهائي؟ ألا ينتهي هذا القول إلى الاضطراب والفوضى، واهدار قصدية النص، كما أشار سماحة الشيخ كمال الساعدي؟

❑ **غالب الشابندر**

معنى اللانهائي ليس الفوضى، والكثير من الذين يشجبون التأويل إنما يشجبون هذا المعنى للتأويل.

إن معنى اللانهائي هو أن النص القرآني يفرز معنى جديداً دائماً، هذا المعنى يجري مجرى الليل والنهار، ومجرى متغيرات الحياة، وان هناك نواة مشتركة وأساسية ما بين كل هذه المعاني التي يفرزها النص. ليس هناك تفكيك لا نهائي، ليس هناك تأويل لا نهائي، بمعنى اللا نهائي الحسابي الرياضي، وليس بمعنى الفوضوي.

النص القرآني تأويله وتفسيره في عصر النزول غيره في القرن الرابع الهجري، وهو غيره في القرن الحاضر، فالنص في كل عصر يولد تأويلا معينا لا يبتعد عن روح النص وجوهره. وحين نقول: ليس هناك حدّ نهائيّ للتأويل لا نقصد الفوضى، فإن الفوضى تعني التخبط، وإلقاء الكلام بصورة عشوائية، أما لو وضعنا أسساً، وحددنا أدوات، وأوضحنا معالم، فيمكننا ممارسة التأويل.

❑ **كمال الساعدي**

إذن عدنا إلى القيود، والمحددات المنهجية، وهذا يعني أننا نتفق فيما نريده من معنى لتأويل النص في كل عصر.

❑ غالب الشابندر

لا يوجد تأويل بلا محددات وثوابت، فمثلاً أنا أنطلق في تأويل النص القرآني من المحددات التالية:

١ - إن النص القرآني جاء لأجل الإنسان.

٢ - إن هذا النص لا يتسرب إليه النقص أو الخلل أو الخطأ.

٣ - إن هذا النص موحى من الله تعالى إلى النبي الكريم بالمعنى واللفظ.

وهنا ينبغي أن نوضح الفرق بين التأويل والتفسير الذي يقول بتاريخية النص القرآني، فإن هذا النوع من التفسير يعمل على ربط النص بعصر البعثة، ويعتبره مجسداً لواقع تلك اللحظة خاصة، أما التأويل فإنه يؤكد على حضور النص القرآني في كل وقت، هناك نص ثابت، لكن قراءاته متعددة، تتنوع مع تنوع العصور.

القراءة التاريخية قراءة واحدة وليست متعددة، بينما التأويل يعني تعدد القراءات بتعدد اللحظات المستقبلية.

وقد تحدثت عن مسألة التأويل مفصلاً في الفصل التاسع من كتابي (مداخل جديدة للتفسير) الذي هو الآن في بيروت تحت الطبع في سلسلة قضايا إسلامية معاصرة.

❍ إبراهيم العبادي

باسمي وباسم مجلة قضايا إسلامية معاصرة والأخ الأستاذ عبدالجبار الرفاعي أشكر الأخوين الكريمين الأستاذ غالب حسن الشابندر، والذي هو من أكثر الكتاب الإسلاميين حضوراً على صفحات هذه المجلة منذ أعدادها الأولى، وسماحة الأخ الشيخ كمال الساعدي. وأتمنى أن نلتقي في ندوات فكرية أخرى على صفحات هذه المجلة.



الإنسانية
أفقاً لإسلام الرفاعي

✍ عبد العزيز راجل[١]

يحار المرء في كتابة كلمات عن الدكتور عبد الجبار الرفاعي، ويأخذك هلع السطر الأول، إذ تتوقف مخافة ألا تدلي بشيء في حق علم من أعلام الثقافة والفكر في وطننا العربي والإسلامي، وبذلك، ينهدم كل ما سيأتي بعده من حديث. لكن أعماله وأنشطته، فضلاً عن قيمه وأخلاقه، تجعله يستحق امتناننا.

إن جملة القضايا التي طرحها وما يزال في دوريته المشهورة: "قضايا إسلامية معاصرة"، أسهمت في تقديم مواد معرفية متنوعة، لفائدة كل مهتم وباحث في قضايا الفكر الديني وإشكالياته، واتسم تناولها للمواضيع بموضوعية وتجرد، تعرض الفكرة ونقيضها، بعيداً عن أي نزوع طائفي أو إيديولوجي، لقد ساهم الرفاعي بمجهوده واجتهاده الخاص، في نقل أشواق وهموم مشتركة بين باحثين ومهتمين بالشأن الديني من كلا الفضائين الشيعي والسني، لقد فتح ثقوبا ومسارب للإطلالة على قضايا دينية مرتبطة بالسياق السوسيوتاريخي للفضاء "الفارسي"، يجهلها الإنسان العربي، لأسباب مختلفة ومتشابكة، ومعلوم أن الإنسان عدو لما يجهله، وهذا القول يصدق على عالمنا العربي، الذي لم يستطع الانفتاح على الثقافات الأخرى، ناهيك عن استيعابها. وتلك مشكلة المجتمعات التي ترزح تحت التخلف، وتهاب التجديد والخروج عن النسق، وكذا الخروج عن الطائفة والمذهب.لاشك أن الخط الذي رسمه الرفاعي لمجلته، قد ساهم في توسيع شبكة قرائها، مما جعلها أقرب مطبوعة قادمة من الشرق إلى المغرب؛ ليس لجودة شكلها أو إخراجها الفني، فثمة مطبوعات أفضل بكثير على هذا المستوى، وإنما لكون صاحبها رفع لواء الفحص والتمحيص النقديين، والسؤال، والشك العلمي، والكشف، والاجتهاد، والتجديد الحقيقي لا الزائف، وتطوير الفكر، وإصلاح مناهج التفكير الديني ... وغيرها من عناوين النهوض والتقدم، لما نقول إن صاحبها خرج عن المألوف والمعهود، فلأنه لم يسوّق من خلال قضاياه لليقين البارد، وتمجيد الأصنام البشرية.

---

(١) كاتب مغربي.

عرفنا المطبوعة قبل معرفة صاحبها بصفة شخصية، لأن هذه المجلة تعد عملاً استثنائياً وجهدا جبارا قام به الرفاعي، بوضعه الموروث الديني على مبضع النقد، فمضامين المجلة إن تحيزت، فإنها تتحيز للإنسان كمبتدأ ومنتهى، وكذا النقد المزدوج؛ نقد التراث ونقد الحداثة، أما بقية المطبوعات في الساحة العربية بصفة عامة والساحة المغربية بصفة خاصة، فإما أنها متحيزة لاتجاه التحرر من التراث، أو اتجاه التحرر عن التراث.

قضايا الرفاعي تجاوزت هذه الثنائية، وتخطت التحيزات الطائفية، والمذهبية الجغرافية، فثمة رأي ورأي آخر، وكذا نقد ونقد مضاد، وكدليل على ممارسة هذا النقد على الذات أولا، خصصت المجلة زاوية خاصة لنقد ما كتب في عددها السابق، تحت عنوان: "نقد العدد الماضي"، وفتحت ورشاً لقرائها في ربوع الوطن العربي، لتقييم وتقويم محتويات أعدادها شكلاً ومضموناً. الرفاعي حينما يتحدث عن النقد أو التجديد فهو لا يكتب عنه فقط، وإنما يمارسه ويجسده في واقعه. لذلك نتمنى منه أن يبقى وفياً لهذا الخط الإنساني الذي يؤسس لبناء فكري متين يجمع ولا يفرق، يحب ولا يكره، يسامح ولا يتعصب.

ومن ثم، فالمجلة ما كانت لترضى حراس متاحف المفاهيم والمقولات المحنطة، وما كانت لترضى أيضاً بعض من حمل لواء الحداثة والتحديث؛ فالفريق الأول لم يرضه ذلك النزوع نحو نقد الموروث الديني، والفريق الثاني لم يرضه ذلك النزوع نحو أنسنة الدين، أو قراءته قراءة إنسانية.

كما نتمنى أن تظل صفحات المجلة مفتوحة لجميع الكتّاب، مهما كان عرقهم أو دينهم أو لغاتهم، وأن تظل عينها على فتوحات المعرفة الحديثة، رصداً واستيعاباً وتقويماً... في مقابل العمل على بعث بعض الإشراقات الإنسانية من التراث الديني، كتابيا كان أو غيره.

تجدر الإشارة إلى أن مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" تعد ـ بنظري ـ أول مطبوعة في منطقتنا العربية تناولت بتفصيل وتحليل لموضوعات علم الكلام الجديد وفلسفة الدين، وهرمنيوطيقيا الكتاب والسنة، والتعددية الدينية، والمعنوية، والتجربة الدينية، ورهانات الدين والحداثة... وقد تجسدت في سلاسل كتب أصدرها مركز دراسات فلسفة الدين ببغداد بالتعاون مع دار الهادي في بيروت. ويبقى المطلوب/التحدي المزيد من الجرأة في اجتراح مواضيع أخرى، لنفض غبار الكسل والجمود الذي تشهده كثير من الدوائر العلمية والجامعية، وإعمال العقل في كثير من المسلمات التي لم تعد صالحة، ونقد بعض

المشروعات الزائفة والوهمية التي عمرت ردحا من الزمن، وشكلت عقليات لا تؤمن بالحوار والتعايش.

الحديث عن شخصية عبد الجبار الرفاعي يقتضي تذكر اللقاء الأول والمكان الأول، لقد كان اللقاء الأول في مدينة الدار البيضاء في داخل أروقة مكتبة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، بمناسبة انعقاد ندوة بعنوان كيف يدرس الدين اليوم؟ عام ٢٠٠٣م، كنت أتصفح برنامج الندوة، وإذا باسم صاحب قضايا إسلامية معاصرة مشاركا فيها، وكان كل المشاركين يتواجدون بالقاعة، لكن صورة هذا الرجل لا أعرفها، وقد شارك بمداخلة تتحدث عن تجربة الحوزة في تعليم الدين وتطور نظام التعليم الديني وانبثاق السؤال اللاهوتي الجديد فيها.

لما انتهت فعاليات الندوة، كان الموعد مع الرفاعي الذي سعد بلقائنا، وتفاجأ من متابعتنا لمحاور المجلة وأعدادها، وكنت أسأله شخصيا عن الأسماء التي كانت تكتب في المجلة، على سبيل المثال: داريوش شايغان، عبد الكريم سروش، محمد مجتهد شبشتري، مصطفى ملكيان، سرمد الطائي، غالب الشابندر، إبراهيم عبادي، ماجد الغرباوي، وغيرهم، فبدأ يحدثنا دون أن تشعر بأنه يمارس وصاية أو أستاذية في حديثه، تتخلله ابتسامة، تشعرك كأنك التقيته أكثر من مناسبة.

إن قضايا النقد والفكر والثقافة والانفتاح والحوار وإصلاح مناهج التفكير الديني، والانتقال من الأيديولوجيا الدينية إلى المعرفة الدينية ... شكلت أهم نقط الالتقاء والاشتراك مع أستاذنا الرفاعي، فضلاً عن الأشواق الإنسانية التواقة للحرية والحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان.

يمكن القول أن "خط الرفاعي" من خلال قضاياه يتمحور حول الإنسان، فهو أولى الأوليات، وأن الدائرة الطائفية دائرة ضيقة الأفق، أما الدائرة الإنسانية أفقها مفتوح...

خلاصة القول:

إن"إسلام" الرفاعي ذو أفق إنساني.

وبكلمة واحدة، خط الرفاعي خط عرفاني عالمي إنساني.

وختاما أقول لأستاذنا: "**ارفع كلماتك، ولا ترفع صوتك. فما يُنبت الأزهار هو المطر، وليس الرعد**"، مولانا جلال الدين الرومي.

❖ ❖ ❖

الدكتور الرفاعي وجرأة مشروعه التنويري في تجديد الفكر الديني

د. سعاد بديع مطير[1]

بزغ في عالمنا الإسلامي كوكب من الكواكب المنيرة بعلمه ومعرفته، ليهدي العقول ويهتم بتوعيتها، وينشر روح التنوير والتجديد في الفكر الإسلامي، باذلاً في سبيل ذلك الغالي والنفيس، بصبر وجلد، وقوة إرادة، إلا وهو صاحب القلم الحر والكلمة الجريئة، العالم والمفكر والناقد عبد الجبار الرفاعي. بدأ حياته بنضاله السياسي الثقافي الوطني في ظل القمعي الدكتاتوري، وواصل مهمته بتمحور جهوده في التنوير الديني، التي مازالت تشع بضيائها إلى هذه اللحظة، بالرغم من الصعوبات والأوضاع القاسية التي مر بها، إلا أنها لم تقف بوجهه بل زادته إصراراً في البحث عما هو جديد في العالم من إضافات معرفية وفكرية هامة، ليتواصل معها، ويقيم جسراً بينها وبين ما هو عليه مجتمعنا.

ولتحقيق ما تصبو إليه نفسه اغترف من المعارف والعلوم الكثير الكثير، فبعد حصوله على شهادة الدبلوم الفني الزراعي سنة ١٩٧٥، التحق بالحوزة العلمية في النجف لدراسة العلوم الإسلامية سنة ١٩٧٨، وأكمل دراسته الحوزوية في قم، وكذا الأكاديمية، فحصل على شهادة البكالوريوس سنة ١٩٨٨، وهكذا أكمل دراسته العليا، وحصل على شهادة الماجستير في علم الكلام سنة ١٩٩٠، أما الدكتوراه فقد كانت في الفلسفة الإسلامية وحصل عليها بتقدير امتياز سنة ٢٠٠٥.

درس على يد أشهر الفقهاء والأساتذة في النجف وقم، ومن أساتذته الذين تلمذ على يدهم: السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر، والسيد مسلم الحلي، والشيخ أحمد البهادلي، والشيخ هادي آل راضي، في حوزة النجف. أما في حوزة قم فقد درس عند السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، والشيخ محمد حسين الوحيد الخراساني، والشيخ عبد الله الجوادي الآملي؛ والسيد كمال الحيدري، والسيد احمد المددي، والشيخ باقر الايرواني، والشيخ محمد هادي آل راضي، والشيخ غلام رضا الفياضي؛ كذلك حضر دروس البحث

(١) جامعة واسط، العراق.

الخارج في الفقه وأصول الفقه لمدة ثمان سنوات في الحوزة العلمية في قم، حتى تأهل علميا للاجتهاد والعمل بنظره الفقهي. اقتبست أسماء أساتذته من السيرة الذاتية للرفاعي، التي أرسلها لي، بعد أن طلبت منه في لقائي الأولان يمدني بها، لأتعرف عن كثب على مراحل تطور شخصية الرفاعي العلمية.

كانت الغاية الأساس من ذكر أسماء شيوخه وأساتذته، ليكون القارئ على اطلاع بان علميته لم تأت من فراغ، فقد هضم التراث الإسلامي، وحاول برجاحة عقله، وفطنته، وقراءاته المتنوعة المتواصلة، ومواكبته مع معطيات الفكر الراهنة، إن تتفتح روحه للتجديد من اجل الإصلاح والبناء في الفكر الديني، فكان مشروعه الثقافي الرائد بعيداً عن التعصب، أو تكفير أي فرقة أو ديانة، أو حزب، بل على العكس فهو يرى إن الفكر لا يواجه إلا بالفكر، وهو يؤمن بفلسفة الحوار والجدال والنقاش الحر مع الجميع، ولا يؤمن بالقسر، والإكراه، والعنف، ومحاربة الأفكار الأخرى، فضلاً عن ذلك فهو يؤمن بالتغيير، لأن ذلك سُنة الحياة البشرية.

تمحورت جهوده حول الإصلاح الديني، وتحديث التفكير الديني في الإسلام، من أجل غرس فكر ديني جديد في عقول الناس. إلا أن ما يثير الانتباه إنه لم يؤسس مشروعه على نظريات واستنتاجات نابعة من فكره النير وخبرته العميقة الواسعة في التراث فقط، بل لجأ إلى معطيات العلوم والمعارف الجديدة والتوكؤ عليها في فهم النصوص الدينية.

الرفاعي مسكون بإثارة الأسئلة، لتنير مساحات المسكوت عنه أو المجهول، فهو يقول: (وأود الإشارة إلى أن هاجسي فيما اكتب هو إثارة الأسئلة، وتكرار طرحها، بلا وجل أو خشية من أحد ذلك إن المعرفة تبدأ دائماً بالسؤال، ويقودنا السؤال إلى التوغل فيما هو مسكوت عنه، أو مجهول، أو ممنوع من التفكير به، وأية محاولة للتحديث والإصلاح، لا تنبثق من أسئلة عميقة، ومحورية سرعان ما تضمحل وتتلاشى ...).

يمنح الرفاعي القارئ مساحة ليتأمل أسئلته، ليعيش فضاء فكرياً جديداً من خلال غوره في أعماق النصوص، فيخرج منها بلؤلؤة دفينة إلى السطح. وبهذا يجعل من الحوار مع الآخر محطة لقاء بين العالم والمتعلم، ليتوصلوا إلى الحقيقة المبهمة لسد الثغرات وملء الفجوات في النص، وتقديم بنية تأويلية جديدة. الرفاعي يريد من قراءه أن يكونوا منتجين لا مستهلكين، وتكاد تكون مهمة تكسير هاجس الخوف لدى القراء هي المهمة الأصعب التي حاول تحقيقها في كتاباته، يكتب: (والفكر الحي هو الذي لا يكف عن اجتراح الأسئلة، ويتحرر من الأجوبة المتكررة التي يغيب عنها القلق). هو يدعونا إلى تجاوز التقريرية في أفكارنا، وان تكون إجاباتنا نابعة من البنية العميقة للنصوص، ولا نكتفي بالبنية السطحية.

إن كتابات الرفاعي منحت قراءه علاجاً عبر الصدمات، شعروا معه بالتحرر، وإعادة الثقة، فقد علمهم أصول الاستقراء والاستدلال ببساطة شديدة وقوة كبيرة. بالإضافة إلى أن آراءه وأفكاره شكلت محوراً مهماً في الخطاب الديني المعاصر، ودعت العديد من القراء إلى تغيير أفكارهم في فهم الدين وممارسته. لما حوت من دقة وإمعان نظر، وتحقيقات عميقة، وجريئة، فاخذ طلبته ينهلون من نميرها، ويسقون أفكارهم من رحيقها،فتغذت منها عقولهم وجعلتهم طلائع فكر يشار لهم بالبنان.

الرسالة التنويرية لمجلة قضايا إسلامية معاصرة:

يدرك الرفاعي أهمية الإعلام والصحافة في نشر الوعي، والتثقيف على التنوير الديني؛ لهذا اصدر مجلته (قضايا إسلامية) سنة ١٩٩٤، بدعم مالي من الشيخ مهدي العطار (استشهد ٢٠٠٥)، توقفت هذه المجلة بعد ستة أعداد من إصدارها، ثم أصدر الرفاعي مجلته (قضايا إسلامية معاصرة) سنة ١٩٩٧ بمفرده، بعد إن باع مكتبته الشخصية المؤلفة من ستة آلاف كتاب، ليستمر مشروعه التنويري، لإيمانه العميق بالتجديد والإصلاح في الفكر الديني.

لم تكن المجلة إلا بداية لطريق طويل عرف عبد الجبار أنه سائر فيه، ما دام يريد الخوض في مهمة شاقة هي التجديد، وكان جريئاً مثابراً، وهو يحث خطاه في هذا الطريق الوعر، ولما كانت روحه تتوجع لمشاهد وصور تمارسها الجماعات المتعصبة، تثير الفزع، وتستنهض كل مثقف غيور، من ذوي الحس الإنساني، خاصة إن ما يجري ليس بعيداً عنه، بل هو داخل مجتمعه، فكانت خطواته جريئة، وهو يعيش وسط آراء ومواقف متنوعة بين الرفض والقبول.

وقد استمر في إصدارها لتكون لسان حال المتنورين في انطلاقتهم نحو التجديد، لهذا كانت مجلته مفتاحاً لأصحاب العقول النيرة، ليفصحوا عما يجول بأذهانهم من ثورة على كل ما هو تقليدي متحجر، إلى كل ما هو جديد ومعاصر. كتب فيها العديد من المفكرين والباحثين من مذاهب وبلدان مختلفة.

رسالته تسعى إلى التلاقح الفكري والثقافي بين الأمم والثقافات والأديان، من أجل نشر ثقافة النهوض والإبداع والحرية، وتكريس الوعي والجمال ونبذ العنف. وهو يرى إن ذلك لا يتحقق إلا بالابتعاد عن اجترار ما هو مكرر، وتجاوز العقليات المغلقة والمفاهيم المتكلسة التي تقف عائقا بوجه التجديد والنهوض. مع أن بلداننا تنتشر فيها المدارس والجامعات والمتعلمين، لكن تقدمها بطيء جداً،لأنها تستخدم ثقافة مكررة وجامدة تنتمي إلى الماضي.

ضمت المجلة مجموعة من الحوارات، والدراسات والأبحاث، ولم تقتصر على المفكرين والمثقفين المنادين بالتجديد، بل طرحت آراء ومواقف معارضة لهم من علماء وباحثين

معروفين بمناهضتهم للتجديد، من أجل: (ترسيخ العقلية النقدية الحوارية، وتجاوز العقلية السكونية المغلقة). يشدد الرفاعي على أن (تحديث التفكير اللاهوتي، يتطلب تساؤلات واستفهامات جديدة، ومراجعات نقدية للتراث الكلامي، تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن، والحروب العديدة بين الفرق، والمذاهب، والسعي لترسيخ صورة للإله تستوحي صفات الرحمة، والمحبة، والسلام).

إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين:

القضية الأساسية والملحة في مشروع عبد الجبار الرفاعي التنويري، هي تفسير النص الديني، لذلك يثير طائفة من الأسئلة الحائرة والمعقدة والجريئة، من أجل الوصول إلى معنى للنص يواكب الحياة.

إنه يحرص على القضاء على الأمية الثقافية، والتفسير الحرفي المغلق المبسط للنصوص الدينية، وعدم الفهم العميق لمضمون النصوص من قبل بعض الفرق والجماعات الإسلامية التي تدعي احتكارها لفهم الدين، وترفض كل تفسير جديد. ويشدد الرفاعي على الأثر السلبي لنشوء الجماعات والفرق التي لا تقتصر على احتكار تمثيل الدين، بل تحرص على مخاصمة أية جماعة غيرها تقدم فهما مختلفاً للدين.

يرى الرفاعي أن الدين يحمل في ثناياه أجمل المبادئ والقيم الإنسانية من: المحبة، والسلام، والتراحم، ونبذ العنف، والكراهية، والتعصب... الخ.التي للأسف لم تترجم على ارض الواقع بشكلها الصحيح، فجاءت جهوده التنويرية التجديدية، بعد إن أصاب العالم الإسلامي الجمود والتقهقر، فكانت رسالة علاج للكراهية، والسلوك العدواني، وبناء فهم عقلاني متسامح للدين،يسعى لإشاعة السلام والمحبة والجمال، فهو مؤمن بالتسامح الديني لإنقاذ النزعة الإنسانية.

المقصود بالنزعة الإنسانية في مصطلح الرفاعي هي: (الخلاص والتحرر من نسيان الإنسان في أدبيات الجماعات الإسلامية، والاعتراف ببشريته ومكانته في الأرض، وتصحيح نمط علاقته بربه وتحويلها من صراع مسكون بالخوف والرعب والقلق إلى علاقة تتكلم لغة المحبة، وتبتهج بالوصال مع معشوق جميل....).

في الحقيقة أدهشني د. عبد الجبار بقوله: (أن تكون علاقة العابد بمعبوده علاقة عاشق بمعشوقه)، إذ أن هذه الحالة تزرع السكينة في النفس وتبعث الطمأنينة، والراحة ،في الوقت نفسه تثير الإحساس والشعور بحرقة وألم الاشتياق لرؤية الحبيب، والأنسب ألم الفراق على أمل اللقاء. بالإضافة إلى ذلك إن العاشق يسعى لرضا محبوبه، ويحب كل ما يحبه. ويبدو أن هذا هو المغزى الدلالي الذي حاول الرفاعي أن يصلنا

إليـه، بان نحـب العـالم بكـل طوائفـه وأديانـه ومذاهبـه، لان الإلـه قـد خلقـه، وان نطبـق الإنسانية بكل معالمها على الإنسان لان الدين جاء من أجله. هـذه هـي العلاقـة الـتي يبحـث عنها الرفاعي بين العاشق والمعشوق أو بين العابد والمعبود هي جوهر الحب ولبه، واصل العشق ومعدنه، ومنبت الوله ومركزه.

من يتعرف على الرفاعي لا يكاد يميز هوية انتمائه، فهو صديق للإنسان من حيث هـو إنسان، بغض النظر عن مذهبه الديني أو الطائفي أو الحزبي، هو يتعامل معه ببساطة ابن الريف الذي ولد فيه، ويناقشه بعقلية العالم والمفكر الموسوعي الذي اجتهد بامتلاكها، ويحاوره بلغته الشفافة الهادئة، التي تخفي وراءها ثورة صاخبة وألم عميق يحمله على كاهله ويغور في أعماقه، إنه ألم امة بكاملها.

كان مؤمنا بأن لا سبيل لتحقيق رسالته (إلا بالخلاص من التفسيرات المتعسفة القمعية للنصوص، وتخطي المفاهيم والمقولات النمطية المغلقة في اللاهوت الكلاسيكي، وإنما يتحقق ذلك بفتح باب الاجتهاد في علم الكلام وتحديث التفكير اللاهوتي ومحاولة بناء لاهوت عقلاني مستنير).

فهو يرى إن التأويل وتفسير النصوص وفقا للمناهج الحديثة هو النافذة التي نطل منها على حل شفرة المعنى الباطن للنص وصولا إلى دلالته ومغزاه، بعيداً عن المعنى التقليدي الحرفي للنصوص، ليتم تفسيرها وفق المتطلبات العصر.

لهذا ألف العديد من المؤلفات القيمة في الفقه والأصول والفلسفة وفلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، لينشر مشروعه التنويري في مجتمعنا، الذي حظي بإعجاب العديد من المفكرين والمثقفين والباحثين والمتلقين، بخاصة انه كتبها بلغة أدبية حساسة مضيئة موحية محببة للنفس، لا لغة المتعصبين المتخشبة، وكان موفقا في ترتيب أفكاره بأسلوب عصري، على غير ما عهدناه عند بعض الكتاب الذين يدخلون في متاهات ألفاظ ملتبسة، بعضها بعيدة عن فهم المتلقي.

وأخيراً أود القول إن ما ذكرته عن د. عبد الجبار الرفاعي ليس إلا القليل، فمن يتحدث عنه يغيب الكلام، مثلما هو صامت لا يتحدث إلا قليلاً، غير انه يعمل باستمرار، تتحدث عنه انتاجاته الفكرية الجادة الغنية الملهمة المتواصلة.الكتابة عن مشروعه التنويري تتطلب وقتاً وجهداً مكثفاً بغية استيعاب المساحة الواسعة لأفكاره، وشخصه الجميل. إنه من المصلحين، والمفكرين، والمجددين الهامين في العالم الإسلامي، هو موسوعة بعلمه ومعرفته، ومنطقه السليم، وقدرته النقاشية الفذة، هو إنسان شفاف في نظرته للناس وتعامله معهم، بحب واحترام، حديثه معهم هبات نسيم دافئة تدخل أفئدتهم دون استئذان. ❖

عبد الجبار الرفاعي
من أيديولوجيا الدين إلى فلسفة الدين

✍ د. علي المرهج[1]

بدأ الرفاعي حياته الفكرية تلميذاً للفيلسوف الشهيد محمد باقر الصدر، كان يحمل في داخله الكثير من رغبات التغيير لاسيما التغيير السياسي في بلده العراق والخلاص من الدكتاتورية.

هذه المعاناة من الدكتاتورية جعلته يرفض الغرب صانع الدكتاتوريات الحديثة في الشرق والمدافع عنها، فاعتقد بأن لا خلاص للعرب والمسلمين إلا بالتقاطع مع مقولات الفكر الغربي ومحاولة إقامة الدولة الإسلامية.

خرج من العراق وهو يعاني كابوس الفردية والرأي الواحد، حاول التغيير مع جماعته من الدعاة الإسلاميين، إلا أنهم لم يفلحوا واقتيد أستاذهم إلى عالم الشهادة، فأدرك الرفاعي أن لا خلاص للعراق إلا بالديمقراطية حتى وإن كانت الأخيرة معطاً غربياً، وهنا بدأت نقطة التحول الفكري في حياة هذا المفكر منذ أخذت رؤاه الفكرية تنفتح على المختلف بكل أشكاله وصنوفه، وآمن بضرورة الفصل بين نتاج العقل الغربي الإنساني العلمي والفلسفي وبين السياسة الغربية بوصفها سياسة نفعية قائمة على الكسب المادي واستغلال الشعوب.

نتيجة لهذا التحول يمكن القول إن الرفاعي انتقل من الدفاع عن الحقيقة المطلقة والواحدة إلى الدفاع عن تعددية هذه الحقيقة... بعبارة أخرى تحول من الدفاع عن الإلهي إلى الدفاع عن الإنساني، لا بحساب التخلي عن الأول لصالح الثاني، بل بحساب حاجة الأول وعدم حاجة الثاني واكتفائه فهو المكتف بذاته. وما الدفاع عن عالم الحقيقة المطلقة وادعاء الوصول إليها إلا نوع من أنواع القدرة الإنسانية للدفاع عن (انويتها) بعبارة الوردي.

من هنا أدرك الرفاعي إن عصرنا لا بد له من تبني الحوار لغة للوجود والنقد منهجاً، لذلك نجده يتبنى مشروعاً قائماً على ضرورات عدة منها:

- التعددية والتسامح، وإرساء قيم الاختلاف وقبول الآخر.
- إشاعة ثقافة التعايش والحوار بين الأديان والثقافات.
- ترسيخ العقلية النقدية والحوارية وتجاوز العقلية السكونية.
- الاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة.

---

(١) رئيس قسم الفلسفة في الجامعة المستنصرية.

- تمثل روح العصر، والانفتاح على المكاسب الراهنة للعلوم انطلاقاً من الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها.
- تنمية الفكر والبحث والاجتهاد في فلسفة الدين وعلم الكلام.

هذه الضرورات أو المقولات الضرورية ثبتها الرفاعي على ظهر عنوان مجلته (قضايا إسلامية معاصرة) ساعياً إلى تحقيقها عبر الباحثين المشاركين في المجلة أو عبر جهوده البحثية في المجلة وخارجها على مدى أعوام.

هذا التطور في بنية التفكير عند الرفاعي برأينا جاء كردة فعل على ما تربت عليه العقلية العراقية منذ عقود. أي سيادة الرأي الواحد الذي جاء من علاقة المحكوم بالحاكم، ورهن الإرادة الشعبية بإرادة السلطة. لذلك نعتقد أن الرفاعي حاول الدفاع عن الإرادة الشعبية والتثقيف على ضرورة الإيمان باستقلالية المجتمع عن السلطة، فتحول الرفاعي بهذا من الثورة والدعوة لها في مجال السياسة إلى الثورة في مجال الثقافة لاسيما الثقافة الدينية التي تشكل بنية المجتمع العربي والإسلامي. فبتحقيق الثورة الثقافية برأينا نكون قد استغنينا عن الثورة السياسية لأننا بتحقيق الثورة الثقافية نحصن المجتمع من الوقوع في شبك الدكتاتورية أو ربط الإرادة الشعبية بإرادة السلطة السياسية.

لم تحدث هذه التحولات العقلية فجأة في حياة الرفاعي الفكرية، وان كنا قد ذكرنا جزءا من دواعي هذه التحولات ولكن كما يبدو لي أننا ركزنا في ما ذكرنا سابقاً على الرفاعي بوصفه مثقفاً عراقياً عانى ما عاناه وانعكاس هذه المعاناة في كتاباته.

مثلما أوضحنا في السطور السابقة إن الرفاعي بدأ حياته متدنياً تقليدياً، لا يؤمن إلا بحقيقة ما يعتقده هو لكنه بدأ تدريجيا بالتخلي عن التبني الإيديولوجي للدين باحثا عن فلسفة الدين، منقبا فيه ومظهراً الجانب الرحب والروح السمحة (الدين العقلاني) بعبارة مصطفى ملكيان.

بدأ هذا الحفر والتنقيب في أعماق المعرفة الدينية عندما بدأ يدرس العرفان النظري سيما نصوص ابن عربي التي تفيض بالنزعة الإنسانية والمواقف التصالحية مع الأديان والثقافات. الأمر نفسه جعله كثير الإعجاب بالعلامة محمد حسين الطباطبائي، فالأخير كان يقرأ الفكر باختلافه، بتنوعه وتراثه يبحث عن الحق أينما وجد سائر في طريق فلاسفة الإسلام السابقين.

إن الذي جعل الرفاعي يهتم بالتصوف الفلسفي هو إيمانه بإمكانية العقل البشري على التأويل وإثراء النص بدلالات متعددة (ويعمل على خلق مناخ رحب للتأويل متعدد القراءات وتنوع الفهم).

كانت الثقافة الإيرانية رافداً خصباً من روافد تشكيل عقل الرفاعي لاسيما جهود المعاصرين مثل محمد مجتهد شبستري وعبد الكريم سروش ومصطفى ملكيان وداريوش شايغان والى حد ما علي شريعتي.

حاول هؤلاء المفكرون التخلص من الفهم الحوزوي التقليدي للدين والتأسيس لمنظومة فكرية جديدة تقبل المختلف تنفتح على جميع الثقافات، معتبرين الإسلام دينا للحرية الإنسانية ودعوى الاقتراب من الحقيقة الإيمانية لذلك (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (كل امرئ بما كسب رهين) والقرآن خاطب الناس بالقول(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) وهذا التعارف يقضي معرفة الآخر بسلبياته وايجابياته مدركين في الوقت نفسه حق هذا الآخر في الوجود والاختلاف، وهذا الوجود والاختلاف حق طبيعي للإنسان لأنه وجد هكذا يمتلك عقلاً لا يتصف بالكمال ولكنه يتصف بإمكانية الفهم والتأويل حسب الثقافة والظروف المحيطة وهذا من دواعي الاختلاف لا من دواعي المطابقة والمماثلة.

هذه المراجعة النقدية للذات والآخر، للتراث والمعاصرة، اقتضت بالضرورة البدء بعملية نقد وغربلة للفكر الديني لكن ليس على الطريقة الماركسية مثلما فعل ماركس في كتابه(حول الدين) أو فيورباخ في كتابه (جوهر المسيحية) ولا على طريقة العظم في كتابه (نقد العقل الديني) لان هذا النقد كما يعتقد شبستري (جاء من الخارج، أي من خارج الدين ومن موقع معادي له ...لاسيما حينما حسبوا الدين أيديولوجيا مزيفة).

إن النقد الذي بحث عنه الرفاعي ومن تأثر بهم هو نقد الدين من الداخل ومن موقع الإيمان، وهذا النقد وان كان يحمل في طياته الإيمان والقناعة المسبقة بمجموعة من المقولات التي تقتضيها طبيعة التفكير الديني، إلا أنه محاولة جريئة في إعادة بناء المعرفة الدينية وبيان أهميتها ومكانتها في المعرفة الإنسانية، لذلك يمكن القول إن النقد كان محاولة لتجديد الفكر الديني بدأها محمد إقبال وذلك لإدامة موقع الدين في المعرفة الإنسانية لما فيه من نزعة خيرية وأخلاقية يبقى الإنسان بحاجة إليها من دون التمسك ــ طبعاً ــ بالثقافة الاقصائية التي تبناها دعاة التطرف الديني.

هذا النقد من داخل المنظومة الدينية ومن واقع الانتماء لها، لم يستبعد بطبيعة الحال النقودات الخارجية بل حاول الإفادة منها لتنقية الفكر الديني وإثرائه.

الأمر الذي جعل الكثيرين يشككون في نوايا هؤلاء المتدينين الجدد ويحسبونهم على التيار المعادي وذلك فقط لان جهودهم انصبت على ضرورة التخلص من الفهم الأيديولوجي للدين والدعوة إلى فهم ليبرالي يتجاوز النظر إلى الدين بأنه فقط تعبد وتسليم وتقليد لان هذه النظرة ما هي إلا تعطيل للحركة العقلانية التي يقتضيها التفكير الديني إذا أراد الاستمرار واللحاق

بالمعطيات الحضارية للعصور لاسيما عصر الحداثة وما بعد الحداثة، لذلك نجد الرفاعي يدعو وبشكل مستمر إلى ضرورة التجديد في الفكر الديني سواء الكلامي أو الفقهي.

عانى علم الكلام من هيمنة المنطق الأرسطي ومن هيمنة النزعة التجريدية فضلا عن تفريغه من مضمونه الاجتماعي ومحاولة تضييق مباحثه على مبحث التوحيد الإلهي على الرغم من أهمية التوحيد على المستوى الإنساني.

كما هو معروف وجد علم الكلام للدفاع عن العقائد الإيمانية بالطرق العقلية، وانتهى إلى الدفاع عن العقائد باتباع التقليد لإعلام المتكلمين في كل مذهب وتقديس أقوالهم، الأمر الذي وسع من مساحة النقل على حساب العقل وانحسار دوره أمام كثرة المقدسات والمسلمات، لذلك جاءت جهود الرفاعي في هذا المجال منصبة على ضرورة التجديد والتخلص من المهمة التقليدية لعلم الكلام والتحول من الدفاع عن العقائد الإيمانية إلى (تحليل حقيقة الإيمان ومجمل التجربة الدينية) فضلا عن ضرورة استبعاد المنهج الأحادي والانفتاح على مناهج متعددة في البحث الكلامي، تشمل مناهج الهرمنيوطيقا والسيمياء والألسنية والمناهج المعاصرة الأخرى التي توسع فضاء الرؤية وتثري المعنى بما يجعل الإنسان مصدر الاهتمام وهو الهدف والغاية محاولاً الرفاعي قلب مهمة الكلام التقليدي جاعلا الإنسان محور الكلام الجديد والثيولوجيا وسيلة لتحقيق السعادة الإنسانية على الأرض ممهدا لانبثاق سؤال لاهوتي جديد مستعد بوقد شعلة التفكير ويفتح العقل الإنساني على مباحث رحبة تغور في عمق الدين مستخلصة لبابه التي تبغي لم شمل الإنسانية تحت خيمة التسامح. انه سؤال إنساني عن اللاهوت يلتقي فيه العقل الإنساني (الفلسفي) مع العقل الإلهي. هذه هي غايات ومقاصد علم الكلام الجديد الذي يبحث عن عقلنة الفهم العقيدي للدين محاولا التخلص من النزعة النصوصية الإخبارية لان قيمة علم الكلام بوصفه نشاطاً عقلانياً داخل الدين تكمن في ضرورة الاجتهاد الذي هو في الأصل ليس الدين بقدر ما هو معرفة الإنسان للدين.

لم يكتف الرفاعي في الدعوة إلى تجديد علم الكلام وفلسفة الدين، بل سعى إلى التأكيد على وجود فلسفة للفقه مثل بقية الفلسفات اللاحقة بالعلوم التي تطل على موضوعها من الخارج، وتتولى تحليله وتفسيره، واستكناه أبعاده وحدوده والتعرف على ماهية ذلك العلم، بوصفه ظاهرة قابلة للبحث والتحليل. انه بحث في عمق المعرفة الفقهية، يجري علمية حفر وتنقيب (اركيولوجيا) في طبقات المعرفة الفقهية، ويقودنا إلى منابع هذه المعرفة وجذورها ومن تستقي به من روافد. إنها ممارسة حفريات معرفية من التراث الفقهي.

ختاماً يمكن القول إن الرفاعي حاول الإفادة من نزعة التفكير الحر التي شدد عليها القرآن في آيات عديدة محاولاً كسر الأطر الأيديولوجية التي وضعها اتباع الفهم الأحادي للدين حول العقل. إنها محاولة للخروج من أيديولوجيا الدين إلى فلسفة الدين. ❖

(شطح) عراقي
في دير مسيحي

✍ سرمد الطائي[١]

بينما يشحذ السنة والشيعة سكاكينهم على رقاب بعض، داخل ذروة اصطدام كريه يلهو به الساسة ويدفع ثمنه جمهور خاضع للتنويم، أجد نفسي مع أصدقاء لبنانيين من كل الطوائف وبحارنة وعراقيين وإيرانيين في دير مسيحي بأنطلياس شمال بيروت، يقوم بتكريم عبد الجبار الرفاعي ومشروعه "قضايا إسلامية معاصرة"، الذي تكفل بنقل فكر التجديد الإسلامي خلال ربع القرن الأخير من قم حتى كازابلانكا.

وهذا المشروع العراقي كان محظوظا هذه السنة، فالمعهد البابوي في روما خصّص كتابه السنوي لترجمة أبحاث كثيرة نشرها الرفاعي، خلال مشواره المليء بالحذر والمغامرة ومواجهة التشدد الفكري، و"الحركة الثقافية في أنطلياس" في لبنان، اختارته مع المفكر الفلسطيني أنطوان زحلان، لتكريمه في جلسة دافئة، ضمن مهرجان الكتاب اللبناني السنوي.

وفي مدخل الدير المسيحي حيث نظمت المناسبة، كانت صحيفة "المدى" حاضرة وسباقة، وملحقها الخاص عن الرفاعي توزعه الآنسات على الحاضرين، فحين سمع فخري كريم بالحكاية أبى إلا أن يكون هناك احتفاء عراقي داخل النشاط اللبناني. يسار ديمقراطي عراقي يتشارك مع دير مسيحي لبناني للاحتفاء بمشروع ديني، ولد داخل الحوزة العلمية، وانتشرت دعواته وأسئلته داخل لحظة صدام هويات رهيبة، افتتح بها أسامة بن لادن الألفية الثالثة بانتحار سماوي في سماء نيويورك، تبعته انتحارات لا تنتهي في قلب بغداد، ولاحقا في قلب كل مدن المنطقة الكبرى.

الرفاعي تميز بصراحة كبيرة، وهو يسرد سيرته الفكرية أمام الجمهور المتنوع، الذي أنصت لشهادة بليغة عن جيل أحلام، ويأس، وحروب بلا نهاية. كيف بدأ الرفاعي يقرأ سيد قطب في شبابه، وكيف تحول إلى "قنبلة موقوتة" يحلم بتغيير العالم، لولا يقظة عقلية وروحية جعلته يعثر على أسئلة اللاهوت الجديد ويتبناها باحثاً عن "إسلام مختلف".

الرجل اختصر الحكاية بالآتي: الإنسان لم يكن له اثر في معظم أدبيات الإسلام السياسي، الذي كان يريد أن يحول الشباب إلى جيش يدافع عن الله. لكن نكتشف لاحقاً

(١) كاتب وإعلامي عراقي.

أن اللّه أقوى من أن يحتاج دفاعاً، وعلى اللاهوت والفكر الدينى أن يعثرا على طريق للدفاع عن الإنسان، واكتشاف عناصر الرحمة وقيم الأخلاق داخل الدين لتحويلها إلى قواعد تنشر السلام وتخفّف من آلام الحياة.

السيد هانى فحص، ببلاغته الفريدة، عبّر عن الحكاية بطرافة عميقة، مخاطباً الرفاعى: أحمد اللّه الذي حرّرك من العمامة، وحرّرها منك. أما مجيد مرادي، الكاتب الإيرانى الإصلاحى، فشكر باسم مثقفى إيران الرفاعى، الذي كان أول من ترجم بأمانة إلى العربية أطاريح محمد مجتهد شبستري، وعبد الكريم سروش، ومصطفى ملكيان، وجيل النقد العميق الذي ظهر في إيران ومرادي حمد اللّه أيضاً. إن الرفاعى لم يتحول إلى زعيم متطرف، وان أسئلة التجديد عثرت عليه، لتهدي لإيران والعرب حلم تسامح دينى، قد يرسم ضوءاً للمستقبل. ولم يغفل الكاتب الإصلاحى أن ينبهنا إلى أن هذه القاعة احتضنت رئيس إيران السابق محمد خاتمى، يوم كان يجول البلدان للتبشير بحوار الحضارات، وبعهد من نزع التوتر، من دون أن يدري أن كل وحوش التشدد تستعد لنهش الإصلاح وأحلامه في بلادنا.

المناسبة تضمنت كذلك تكريم الفيزياوي الفلسطينى أنطوان زحلان، الذي انشغل في نصف القرن الأخير بمحاولة استكشاف مستقبل العرب، ولا يزال يسأل اليوم: أين هو مستقبلكم؟ وهو ينشد بعد أن بلغ الثمانين بيتا لزهير ابن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعشْ ثمانين حولاً لا أبا لك يسأمُ

يقول: تخرجت من الجامعة في الأربعينات، يوم لم يكن للعرب سوى ٨ جامعات، وقد بات لديهم اليوم ٤٠٠ جامعة، و٢٠٠ ألف عربى حامل لشهادة الدكتوراه، لكن المستقبل لا يزال غامضا صعبا برهانات صعبة.

الأسلوب اللبنانى في الاحتفاء بالكتاب والمفكرين يذهلنى، أنا القادم من قيصرية شارع المتنبى المثقلة بالشعر، والجدران الآيلة للسقوط، وتاريخ الوراقين العباسيين الذين لا تزال أشباحهم حزينة تحوم على خرائب العراقيين. أما في لبنان فلم يعبأوا بألف سنة ضاعت، بل حافظوا على تقاليد ثقافية مستمرة في الدير المسيحى منذ ١٨٠ عاماً، وكتبوا على الجدار بخط اليد أسماء ٢٠ مفكراً وشاعراً لبنانياً رحلوا العام الماضى. وراح أب مسيحى يتلو صلاة في ختام المناسبة، يدعو فيها للعراق بلد الرفاعى، ولفلسطين وطن زحلان، أن يشفيا من وجع التاريخ لتعود بغداد قطباً معافى كما كانت. وأنا اسأل: متى كانت بلا وجع؟ كما يسأل جيلى الذي قال الرفاعى بأنه متهم بجعله يخرج عن قواعد الإسلام السياسى، وينخرط في "شطح" أعمق مما أرادته مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، التى ساعدتنى وساعدت الكثيرين على تصحيح أسئلتنا مبكراً، رغم أننا لم نعثر على إجابات شافية بعد، وصرنا نتحدث عن تصالح وسلام ضروريين، يسخر منهما عرب الألفية الثالثة الخاضعين لتنويم ثقيل ثقيل، في "مستقبل أنطوان زحلان". ❖

عبد الجبار الرفاعي
الأستاذ الملهم

✍ د. بتول فاروق الحسون[1]

في عام ٢٠٠٥، كان علي أن أكتب رسالة لدرجة الماجستير في الفقه أو الفكر الإسلامي، ولأني لا أفضل الموضوعات التقليدية، فقد بحثت عن موضوعات جديدة يمكنها أن تثير فضولي على مدار سنة كاملة، ولكوني لا استطيع الاستمرار في الكتابة ما لم يوجد دافع قوي يجعلني أتحمل أعباء البحث والدراسة، فلم يكن الحصول على شهادة الماجستير لوحده كافيا ليجعلني انهمر في كتابة مضنية في ظرف العراق القاهر، حيث الطرق مقطعة الأوصال وهاجس الموت والقتل اليومي هو السائد.

بحثت في سوق الحويش في النجف عما تتحفنا به بيروت وقم ودمشق من كتب جديدة، فعثرت على كتاب يتحدث عن المشهد الثقافي في إيران، عن فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة تحديدا، ووجدت أن معده هو الدكتور عبدالجبار الرفاعي، وكنت أسمع به، وربما كنت قد قرأت له بعض المقالات لكن كتابه شدني إلى موضوع فلسفة الفقه الذي كان حقلاً معرفيا لم أكن أعرفه، كان بمثابة الفتح بالنسبة لي، فهرعت إلى أستاذي المشرف لتسجيل عنوان لرسالتي: فلسفة الفقه. لم أوفق في الحصول على قبول لهذا الموضوع، وأعطاني عنواناً آخر هو: الأقليات وأحكامها في الشريعة الإسلامية، فأنجزته، ولكني لم اترك علم فلسفة الفقه، الذي عرفني إياه الدكتور الرفاعي، وكنت أتابع كل ما ينشر عن الموضوع، وقرأت للرفاعي بانتظام، وحين شرعت في الدراسة لنيل شهادة الدكتوراه عام ٢٠٠٨، كان هدفي منذ اليوم الأول أن اكتب في هذا الموضوع، ففاتحت أستاذي المشرف بذلك، ولكنه أشفق علي، وقال لي: من أين نأتي لك بمناقشين لهذه الأطروحة؟! ليس في الجامعة أستاذ مختص به، وأعطاني رقم هاتف الرفاعي وطلب مني الاتصال به، لأنه كان في بغداد وقت إذ، لم أكن أجرؤ على الاتصال بعملاق مثله، قلت في نفسي كيف يطلب أستاذي المشرف مني ذلك!هو يعرف أنني خجولة، واتصل به وقال له ستتصل بك طالبتي في الدكتوراه . أصررت على العنوان فاقتنع به أستاذي، واقر من قبل اللجنة العلمية في كلية الفقه على مضض، لم يكن العنوان واضحا

---

(١) عضوة في البرلمان العراقي.

لهم، عرفت ذلك من خلال مناقشاتهم معي بشأنه،وحين طلبت الكلية مني إقامة محاضرة (seminar)، لأجل شرح عنوان البحث وموضوعه، بادرتني تحذيرات من الخوض في هذا الموضوع الخطير والصعب، وكان الاتهام جاهزاً بالردة والكفر والخروج على المذهب لمن يكتب فيه، وذهبت إلى أستاذي بعد شهور فسألني هل اتصلت بالرفاعي؟ فضللت أستاذي وأجبته: سأتصل، لم تسنح لي الفرصة، وأنا أقول مع نفسي أية فرصة لم تسنح لي؟ أنا لا أجرؤ على أن أكلمه... قلت في سري: ماذا يقول الدكتور، أنا اتصل بالرفاعي! من أكون لأتصل بشخص مثله ! سينعقد لساني، بالتأكيد ،وقد لا استطيع الكلام معه، وبدأت اقرأ له وصرت ألاحق نتاجاته وترجماته فكان لي الأستاذ الحقيقي، وأخذت منه الكثير في أطروحتي، وكنت أعيش معها حالة من الاندماج والإعجاب، وعلى الرغم من حبي الجارف لعنوان موضوعي، إلا أني اعترف أني لم أف العنوان حقه، وذلك لقصوري ولخوفي من مناقشات الأساتذة في جلسة النقاش العلنية وهذا منعني من الانطلاق في هكذا موضوع يبدو مثيراً للجدل، فكنت اختفي خلف الاقتباسات الكثيرة كي يقع اللوم على أصحابها الذين لا يعيرون اهتماماً لآراء المكفرين أو المستحسنين . وحين جاء موعد المناقشة، كان أستاذي يشفق علي مما سيحصل لي في قاعة المناقشة من اتهامات، فاقترح ـ ونحن نتداول في لجنة المناقشة ـ أن يأتي الدكتور الرفاعي لمناقشتي، بعد أن يتقدم الدكتور المشرف بطلب إلى رئاسة الجامعة بذلك، كما حصل معي في مناقشة الماجستير حين كان رئيس لجنة المناقشة السيد محمد بحر العلوم وهو من خارج الجامعة . وبدلا من أن افرح بهذا الاقتراح صرت أخشى جهلي أمام أستاذ كبير ...، وكنت أتساءل: لماذا يتصور أستاذي المشرف أن رسالتي تستحق أن تناقش من قبل أستاذ مثل الرفاعي؟ أنا مجرد تلميذة مبتدئة مازالت تدرس الحروف الأولى مما درسه الرفاعي، وحمدت الله على أن قضية مناقشة الرفاعي لي لم تتم، كنت أخشى على نفسي منه، ونوقشت الأطروحة، وحصل ما كان أستاذي المشرف يتوقعه من اتهام بالكفر والخروج من المذهب، وحصلت على اقل درجة أعطيت لطلبة الدكتوراه من دفعتي، مع أني كنت الأولى في الامتحان التنافسي في دخول الدكتوراه، والأولى في الفصل الأول والثاني من السنة التحضيرية، وانتشرت الإشاعات في الوسط الجامعي عن رفض المرجعية لموضوعات كهذه، لكني كنت متأكدة أن المرجعية في النجف لا تعرف بأطروحتي ولم تقرأها وهي لا تتدخل جزافا قبل الإحاطة بالموضوع بكل جوانبه .

وبعد عام من مناقشة الأطروحة، التقيت بالرفاعي في النجف، في ندوة تكريمية أقيمت في الجمعية العامة لتنمية المرأة، وصدمني تواضعه ووداعته وأخلاقه العالية

وأحسست باني صديقة قديمة له، واني اعرفه منذ زمن بعيد، فلماذا كنت أخشاه وأهابه، لماذا كان كل ذلك الوجل الذي أشعر به كلما كلمني الأستاذ المشرف عنه، لماذا لم يقل لي احد انه يملك من الوداعة ما يمنع الآخرين من الشعور بالغربة معه، وشعرت بالندم على عدم استفادتي منه أيام كتابتي للأطروحة، فكيف فوتّ هذه الفرصة الثمينة؟ لماذا لم أراسله على البريد الالكتروني؟على الأقل لأعرف إن كان سيستجيب لي أم لا؟ من غرس فينا هذا الخوف من حملة العلم؟ من فرق بين طلبة العلم والعلماء؟ وخلق هالة لهم صادّة عن الأخذ منهم؟ أليس هدفهم هو نشر العلم وإيجاد قراء لكتبهم؟ لا ألوم أحدا إلا ذاتي الخائفة من هواجس الرفض والإقصاء، لأن هذا ما حصل معي في مسيرتي العلمية في كليتي. يبدو أنهم نجحوا في تحجيم حركتي والاتصال بالعالم الحرّ الذي يمثله الرفاعي وغيره من المفكرين المسلمين.

هذا الاكتشاف جعلني استعيد الرفاعي، واستعيد نفسي، واقتحم عالم البوح هذا!

٣٠ / ٨ / ٢٠١٣م

❖ ❖ ❖

من هو رب الرفاعي؟

✍ عبد الله محمد الجنابي[١]

مذ كنا أطفالاً، شربنا الخوف، كما حليب أمهاتنا، في البيت والمدرسة والمحاضرات الوعظية. يجتهد المربون والمعلمون والوعاظ في تصوير الله الذي يجب أن نخافه لعظمته، ولشدة حسابه، واستعار النار التي أعدها لنا. كان توصيفهم يتطابق مع شخصياتهم وعلى منوالها، فالشدّة والغلظة والحساب العسير وما شابهها حفرت أخاديد عميقة في نفوسنا. توصيفات الشرطي الذي كان يمثل أي نظام متسلط، كانت تثير فينا الخوف نفسه. الأهل والمعلمون ورجال الوعظ ينقلون لنا بأمانة شعورهم بالخوف من الله ومن الشرطي ممثِلاً للنظام. وكنا تحت وطأة ذلك، نلتزم الحذر مخلوطاً بالرغبة في الإفلات من الرقباء. إن الإفلات من رقابة الشرطي ممكنة، ومن سلطة الأب والمعلم والواعظ، لكنها غير ممكنة من رقابة الله، ولذلك حافظنا على الصلوات والصيام وزيارة المراقد وغيرها من الطقوس، وأداء تحية الإسلام على بعضنا...

لقد فاتهم أن الخوف والحب لا يجتمعان، بل إن الخوف يأكل الحب كما يفعل الجراد في خضراء الأرض. تشكلت نفوسنا لوحات بلون واحد فما أبصرنا ألوان الطيف الشمسي السماوية ...

وحين زحف الوعي على أديم عقولنا، حاولنا فك أغلال الخوف، متجهين صوب قراءات أخر مختلفة لله وللدين والعالم الدنيوي والأخروي، فعكفنا على قراءة كتب آركون ونصر حامد أبو زيد وعبد الكريم سروش وحسن حنفي وشبستري وغيرهم، إلا إن تلك القراءات كانت تخاطب فينا العقل فحسب. بينما كانت أرواحنا المتيبسة تصلي صلاة الاستسقاء ... وكنا نسمع قرقعتها حين تتكسر...

كنا بأمس الحاجة إلى كتاب ينطق، روح لروح، وقلب لقلب، فكان ذلك عبد الجبار الرفاعي (مع حفظ الألقاب)، في ندوة تكريمية أقمناها له في (فضاء الثقافة/جمعية تنمية المرأة) في النجف ..."فكان الخطاب على قدر حاجة السامع". ومع أن الرفاعي قلب فينا موازين القوى لصالح الروح والحب، على حساب الطقوسية الشكلية والأداء الفيزياوي للعبادة إلا انه " لم يجرح الضمير الديني فينا، ولم يهجُ مقدساتنا فلم يثر فينا الخوف على معتقداتنا التي هي ممتلكاتنا الرمزية والروحية الثمينة". لقد أسهب في وصف ربه الذي دعانا جميعا إلى الاطمئنان إليه ومحبته "والذي صفاته: الرحمة والمحبة والسلام، ونحوها من صفات الرحمن، واستلهم ما يتحلى به تعالى من صفات الجمالية، وأسمائه الحسنى، مثل: "الرحمن، الرحيم،

---

(١) أديب وقاص عراقي.

القدوس، السلام، المؤمن، العزيز، البارىء، المصور، الغفار، الوهاب، الرزاق، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الحليم، الشكور، الحفيظ، الكريم، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، الحق، المحيي، البرّ، التوّاب، العفوّ، الغفور، الرؤوف، مالك الملك، الغني، النور، الهادي، الرشيد، الصبور، ... الخ" .

لم اخرج من محاضرته بمثل ما دخلت، فقد تلبسني شعور بالذنب، مخلوطا بالخجل من نفسي، إذ كنت مصدّقاً على مر السنين صورة رسمها الطغاة للإله على شاكلتهم، بدأ عهد جديد وشعور كنت اقرأه فحسب، لكنني الآن أبصرته بل تسلل إلى بدني وروحي وأحسست بنشوة ما أحسست بها من قبل .

لم يأتِ الرفاعي بشيء جديد، فقد قرأت ذلك في كتب عدة، لكن الحروف التي قرأتها كانت صماء لا روح فيها، ليست كالحروف التي رسمها الرفاعي لنا في محاضرته. كان الرفاعي، الداعية إلى العشق، يقودني إلى عشق الله بحروف ضمنها طاقة من روحه إذ "الناس لا تقاد إلى الجنة بالسلاسل". ماذا لو كان الرفاعي في محاضرته داعية إلى التدين! لكنه لم يكن... " فمهمته دعوة الناس إلى أن يكونوا إنسانيين قبل إن يكونوا متدينين" فهو يعتقد "أن الإنسان كائن متدين أصلاً، وان اختلفت تجليات التدين، تبعا للزمان والمكان والثقافة وتنوع البشر واختلافهم، فالحياة لا تطاق من دون خبرات وتجارب دينية" ولا يحتاج الإنسان من ثم لداعية إلى التدين قدر حاجته إلى الأنسنة. نعم كان مسلما لكن توصيفات إسلامه انه"رحماني إنساني، والدين عنده هو الحب، والحب هو الدين، والمحبة أصل الموجودات، كما يقول ابن عربي، وان وظيفة الدين الأصلية عنده هي إنتاج معنى لحياة الإنسان، وهي وظيفة عجزت معظم الجماعات الإسلامية اليوم عن إدراكها...

لم يكن الله، ربه، جلاداً، ولا يبطش، غير مخيف ولا مرعب، والعلاقة به صادقة، ذلك أن ما ينبثق عن الخوف هو الكراهية والقلق، ولا يمكن تأسيس علاقة صادقة لذيذة دافئة جذابة بالله إلا عبر الحب...

فجأة كأني وجدت شيئاً، كأن أرخميدس صرخ من قبلي: وجدتها، وجدتها، وجدتها... انه صوفي لا شك ... هذه توصيفات إنسان صوفي ... لكن صوته كان يعزف في أذني: "أدعو إلى عدم التنكيل بالجسد والتضحية بمتطلباته الضرورية"...)، فهل ذكر انه زاهد في الدنيا!... إذن ما وجدتها... بل على العكس، فقد فهمت منه ما معناه إن الفكر لا يتحقق دون جسد، وان إشكالية ثنائية الفكر والجسد مفهومة لديه... كما كان نيتشه قد فهمها من قبل... ولأن البحث عن التوصيف قد أتعبني، كان لابد أن احسم الأمور بطريقة ما، أقرب إلى تحقيق مقصدي فأقول: كان الرفاعي عاشقاً، يدعو إلى العشق، وأنا صدقته، فمن شاء أن يعشق الله فليستمع إليه ... ❖

المفكر العراقيّ عبد الجبّار الرفاعيّ
حركيّة القراءة وأسئلة التحديث

✍ د. عدنان الهلاليّ(*)

ـ ١ ـ

في البدء كان الحرف

لا أحبذ التوغل في الدرس كثيراً، والحديث عن شخصية عراقيّة خاصة، لها حضورها ومنجزها الثقافي والمعرفي بين القرّاء والطلبة، لا لكوني لست من طلاب الدرس ومتعاطيه، لكن أطمح أن تكون شهادتي للمفكر عبد الجبار الرفاعي، مساحة ثقافية وواقعية، تغادر العقل الأكاديمي، وتحاول الاقتراب من الرجل ومشروعه كما عرفته، للمرة الأولى بعد عام ٢٠٠٣، إذ بدأت إصداراته الفكرية، تتوافد إلى العراق، ففي "الفكر / الشعر" شيء لا يحيطه الدرس كما قيل قديماً.

أصبح من العرف الثقافي الذهاب إلى شارع المتنبي في العاصمة بغداد، لنبتاع بعض الكتب. وقد اخبرني صديق ذات يوم، أنه وجد دورية جادة دسمة، تشتمل بين صفحاتها على تنوع فكري عميق ومتجدد، يرتكز بين ضفتي الإبداع: التراث والحداثة، ويؤسس لقراءة مغايرة، لطالما بحثت عنها محاولاً التعرف إلى الآخر المختلف، لتكوين رؤية حقيقة، تتجاوز السياق التقليدي، أو عقلية البوليس الثقافي السائد، باعتبارنا قادمين من ماضٍ حزبي شمولي، طارد لحرية الكتاب والفضائيات والصحف، والتعدد الثقافي.

اقتنيت نسخة من المجلة آنذاك، لا أتذكر العنوان الرئيس الذي استوعبه العدد. أعني، هنا مجلة: (قضايا إسلامية معاصرة)، كُتبَ في وسط الصفحة الأولى، رئيس التحرير: د. عبد الجبار الرفاعي، ربّما زادَ اللقب من فضوليّ المعرفي أكثر، لكونه يتقاسم معي نسباً مكانياً، فكلانا من مدينة واحدة، تنام هادئة على كتف نهر الغراف في الجنوب العراقيّ، والكلام هنا عن قضاء الرفاعي، أحد أقضية محافظة ذي قار.هكذا، بدأت علاقتي "الثقافية/ المكانية/ الورقية"، بالرجل ومشروعه الفكري،تنمو وتزداد ثقةً، بما تقدمه المجلة في كلّ عدد من بحوث لكُتّاب عرب وغربيين وإيرانيين. فصرتُ أتابع كلّ الأعداد التي جاءت بثوب جديد، ومائدة فكرية غنية، تُغري القارئ بأسلوبها، ودقة اختيارها لأسماء المفكرين والباحثين الذين حُرمنا من قراءتهم، والانتهال من مجالهم الثقافي، لأسباب ليست بالخفية حالت دون ذلك.

(*) كاتب وأكاديمي عراقيّ.

ـ ٢ ـ

خارج المكان

تمثّل الشخصية الإنسانية نواتج من العادات والتقاليد والأعراف والثقافة والمكان، الذي تتشكّل في فضائه الهُوية النهائية للمبدع ومشروعه، فيترك المكان انعكاساته على تكوين الوعي. تأسيساً على هذا الفهم يمكن القول إنّه كان لجذور عبد الجبار الرفاعي الجنوبيّة، وما يحمله من حاضنة لها حضورها العميق في الثقافة العراقية، ودخوله فضاء البحث الجاد، ودراسة العلوم الإسلامية، والتكوين الأكاديمي، كلّ هذه العوامل أثرت في توجهه العقلي الواضح، عبر مشروعه الفكري الطويل.

لم يكن خروج الرفاعي من العراق، بسبب ما تعرضت له الحياة بعامة، والثقافة خاصة، أثناء حكومة البعث آنذاك، خروجاً كلاسيكياً، وانفصالاً معرفياً، وقطيعةً بين ثنائيات صارت رائجة بعد ٢٠٠٣... وعي الخارج والداخل، مثقفو الداخل ومثقفو الخارج، أحزاب الخارج وأحزاب الداخل... بل عملَ على استثمار خروجه بمثابرته وقدرته وإصراره على توظيف تجارب فكرية: عربية وغير عربية متنوعة، ساهمت بوضوح في توسيع أفقه التنويري، الذي سعى إليه منذ تكوينه الأوّل، حين كان طالباً آنذاك، الأمر ظهر واضحاً عبر مؤلفاته التي تجاوزت أربعين كتاباً.

ما يميز علاقة المفكر الرفاعي بالمكان الأمّ، تواصله الإبداعي بدرجة أساس، والتحليق فوق التفاصيل، وهذا ما ساعده على الانفصال عن الأشياء، ومن ثم إعادة إنتاجها بطريقة مختلفة، والكتابة عنها بعين ناقدة متجردة وبرؤية ثاقبة. فكانت قراءة خارج السياق في المؤسسة التعليمية "الدينية والرسمية"، لفتح آفاق جديدة، وأسئلة تُصنف في بنك المحظورات في بلداننا العربية والإسلامية، مثل: سؤال الهُوية، سؤال الوطن والمواطنة، السؤال اللاهوتي الجديد، فلسفة الدين، علم الكلام الجديد، تحديث التفكير الديني، الآخر المختلف وقراءته، التواصل والتنوير، التراث والحداثة، الأصالة والمعاصرة، والنهضة وشروطها... وغيرها.

ـ ٣ ـ

كاريزما الحضور

للدكتور عبد الجبار الرفاعي مجموعة من المؤلفات المطبوعة، أذكر منها: نظرات في تزكية النفس ١٩٨٥، حركة القومية العربية: دراسة نقدية في بواعثها الأيديولوجية ١٩٨٥، متابعات ثقافية: مراجعات وقراءات نقدية في الثقافة الإسلامية ١٩٩٣، موسوعة مصادر النظام الإسلامي/ في عشرة مجلدات ١٩٩٦، مناهج التجديد ٢٠٠٠، علم الكلام الجديد وفلسفة الدين ٢٠٠٢، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد ٢٠٠٥، تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية ٢٠١٠، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين ٢٠١٢... وغيرها. إضافةً إلى تأسيس "مركز فلسفة الدين ببغداد، ٢٠٠٣"، بعد عودته إلى وطنه. تصدر عنه سلسلة كُتب "ثقافة التسامح" التي وصلت الآن إلى ٢٠ كتاباً، لمؤلفين من بلدان مختلفة.

إن المسح الثقافي لهذه العناوين التي سردتها، تبيّن أنّ بنية مشروع الرفاعي الفكري، يعتمد على جانبين:

١- مدّ جسور القراءة بين الحديث والقديم، لتقليص الفجوة الثقافية بينهما.

٢- العمل على استدعاء القديم لتوظيفه في فضاء إنتاج معنى الحاضر.

وهو بهذا، يفيد من التراث العربي والغربي ومناهجه في التحليل، والاستنتاج والمقاربة، للوصول إلى رؤية تحمل بصمته الشخصية، تُنسب إليه في التوليف بين عناصر الخطابات التي يشتغل عليها. ومن جهة ثانية، إصراره المعرفي على الذهاب بلا تأويلات مسبقة إلى الآخر المختلف: دينياً وثقافياً واجتماعياً، متجرداً من الرواسب التي تعيق القارئ في الوصول إلى هدفه العلمي والأكاديمي. ليقدم الآخر بين يدي التأويل، فعلاً ثقافياً، بعيداً عن منطق الفعل ورد الفعل.

- ٤ -

ثنائيات/ أضداد

ثمة فضاءان يتداخلان في تشكي لبنية العقل العربي، فأصبحنا نشهد حالة من صراع الثنائيات الضدّية: الشرق الغرب، القديم والجديد، الداخل والخارج، الثقافي والسياسي، التواصل والقطيعة، الـ (هم) والـ (نحن)، التسامح والرفض، والديني والدنيوي... لقد حاول مشروع الرفاعي الفكري، إقامة منطقة توازن: بين الديني والدنيوي، بين الإلهي والبشري، بين المدنس والمقدس... من خلال إثارة الأسئلة، عبر استغلاله وتركيزه على ثيمة التسامح، بصورة واعية واستراتيجية فكرية مدروسة، ومن ثم العمل على ترحيل هذه الثيمة إلى فضاءات أكاديمية وعمليّة، باعتباره مفكراً حركيّاً، لا سكونيّاً، مثقفاً عضويّاً فاعلاً في محيطه الثقافي، الأكاديمي والاجتماعي. فهو أستاذ دراسات عليا للفلسفة وعلم الكلام وأصول الفقه والفقه. وهو في الوقت نفسه يرأس تحرير مجلة: قضايا إسلامية معاصرة، منذ عام ١٩٩٧. ومستشار تحرير لكثير من الدوريات في بغداد وبيروت. بدا ذلك واضحاً عبر الدراسات والأبحاث والمؤلفات والترجمات، التي قدّمها وحررها،وأشرف على طباعتها، ونشرها "مركز دراسات فلسفة الدين" لمفكرين وباحثين عرب وغربيين وإيرانيين، والتي تجاوزت ٢٠٠ كتاب، مضافا إلى مشاركته المستمرة في الندوات الفكرية في دول عربية وغير عربية عديدة. وكتاباته المستمرة في الصحف والمجلات العراقيّة والعربيّة.

إن المفكر الرفاعي أحد المفكرين العرب، الذين عملوا في مشروعهم الفكري والأكاديمي الغني بإشكالاته، على التأسيس بشكل فعّال وجدي، لعقلية التسامح بين الأديان والمذاهب، من أجل الذهاب بالمجتمع العربي إلى فضاء الدولة،حيث يكون نصابها المواطنة، التي تحترم قناعات الجميع،وهو بهذا يقدم رؤية لتنوير الفكر الديني، ومن ثم السياسي، للخروج من أزمته، التي باتت واضحة في بلدان عربية كثيرة، مثل: مصر والعراق وتونس وليبيا... ولم يحاول

التماهي مع ما تطرحه المؤسسة الرسمية، أو الذوبان فيه، بل اجتهد بتقديم الحلول التي وصل إليها عبر مسيرته الفكرية الطويلة، على اعتبار أنّ السياسي جزء من الثقافي.

لقد نجح عبد الجبار الرفاعي في إعادة صياغة صورة المثقف الحرّ، بعد أن فقدنا الكثير من ملامح هذه الصورة عراقياً وعربياً.

ـ ٥ ـ

التحديث

لمسألة التحديث في مشروع عبد الجبار الرفاعي الفكري مساحة كبيرة، انعكست على مؤلفاته وسلوكه، مثقفاً تنويراً له رؤيته الخاصة خارج المؤسسة الرسمية. وسعياً منه لممارسة تحديث التفكير الديني في محيطه، فقد عمل على إصدار سلسلة كتب جديدة تحمل عنوان: "تحديث الفكر الديني" أصدرها مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد، بالتعاون مع دار التنوير ببيروت، ويشرف الرفاعي عليها بنفسه، صَدَرَ عنها مؤخراً ٥كتب، منها: كتاب "قوة الدين في المجال العام"، والكتاب عبارة عن محاضرات ونقاشات أكاديمية لأربعة مفكرين عالميين: يورغن هابرماس، الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني المعروف، وجوديث بتلر: أستاذ البلاغة والأدب المقارن في جامعة كاليفورنيا. وكورنيلويست: أستاذ في جامعة برنستون. وتشارلستيلر: فيلسوف وأستاذ كندي في العلوم السياسية. وترجمه: فلاحرحيم. وقدم له: إدواردو منديتا، وجوناثا نفانانتويربن. والسلسة متواصلة تخطط لإصدار كتب متميزة قادمة، كجزء من تزويد المكتبة العربية بمباحث هامة لأسماء كبيرة...

الرفاعي قارئ عابر لمحددات ضيقة، متحرر: "من سطوة التراث، لكن هذا التحرر ليس بمعنى الخروج على الدين، أو الخروج من الدين، أو التحلل من التدين، والتبجح الزائف بما يجرح الضمير الديني للناس، مثلما يفعل بعض المتنطعين المراهقين، تعلمت من التراث والواقع أن الدين أبدي في الحياة البشري، الإنسان كائن متدين وان نزعة التدين، كما أعيشها، تمثل لدي ظمأ أنطولوجياً لا يروى، إلا من خلال التواصل مع المطلق"، والكلام الأخير له.

ـ ٦ ـ

إضاءة

تأتي قيمة أي مفكر في العالم، من خلال ما يتركه من أسئلة معرفية وثقافية، تحرك المياه الراكدة، وتفتح الأبواب للباحثين من بعده، فالأسئلة وإنّ كانت بسيطة تبقى أهم من الأجوبة الجاهزة، وهذا ما نحتاجه في العراق والبلدان العربية في ظروف استثنائية تعيشها منطقتنا في أكثر من اتجاه فكري.

أحتفي بالمفكر الدكتور عبد الجبار الرفاعي اليوم: أستاذاً، وأخاً كريماً، ومشروعاً فكرياً أصيلاً، وقارئاً عميقاً للتراث بعقلية تنويرية، استوعبت الثنائيات وتجاوزتها، وفكراً حقيقياً، حاول ويحاول جاداً في تجربته الغنية إنقاذ ما تبقى من نزعة إنسانية في ذواتنا، ونصاً مفتوحاً على فضاءات كثيرة، هكذا أقرأه، وللنصوص تأويلات بعدد القارئين. ❖

إلى صديقي النابغة
الدكتور عبد الجبار الرفاعي
حرسه الله ورعاه

✍ د. جودت القزويني

أيُّهـــا الـــشهمُ الـــذي يُنمـــى إلى آل الرفـــاعي

وصـــلتني كلمـــاتُ النـــور مـــن حـــرٍّ شـــجاع

فتمثّلـــتَ، كمـــا شـــفَّ الـــسنا ضـــوءُ الـــشعاع

ولـــكَ العلـــمُ ســـلاحٌ قـــاطعٌ حـــدَّ النـــزاع

أنـــتَ يـــا (جبّـــارُ) عطـــرٌ غـــامرٌ كـــلَّ البقـــاع

وأنـــا مـــن فـــيض أنـــواركَ أشـــدو بيراعـــي

لـــيسَ في كفّـــيَ إلاَّ سُـــفنٌ دون شـــراع

وأنـــاسٌ ينفثـــونَ الـــسُمَّ في جـــوف الأفـــاعي

فـــسلامُ الله يُهـــدى لـــكَ يـــا فـــذَّ الطبـــاع

وإليـــك الـــشكرُ يـــترى مـــا دعـــا للحـــقِّ داعـــي

٢٠١٠/٩/١

شهادة في الصديق الرفاعي
كل مرة أخرج من مجلسه إنسانة جديدة

✍ رحيل دندش[١]

قليلون هم أولئك الذين يتركون بصمتهم الإيجابية في سجل حياتنا، ويكون اللقاء بهم مساحة من الأمل في هذا العالم المليء بالضجيج والعنف وأخبار الموت اليومي...

قليلون هم الذين تجد عندهم الملاذ الذي تفزع إليه وسط هذا الظلام الفكري، وهذا الجنوح الغريب إلى الأخذ بأسلوب العنف والتشويه القيمي والمفاهيمي...

قليلون هم الذين ينتجون المعنى الإيجابي فيولدون به، ويبثون الحياة فيمن حولهم من خلاله...

تشرفت بمعرفة الدكتور عبد الجبار الرفاعي في إطار عملي في مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر، ولفتتني بدايةً كتاباته وأفكاره الجديدة الطابع، التي لم تكن مألوفة على الإطلاق، لا سيما عند رجل دين لا يزال يُدرِّس في الحوزة حتى اللحظة... سعيت للتواصل معه، وانتظرت مجيئه بشوق المتعطش إلى لقاء الطبيب الذي يُنتظر منه الدواء...

التقيت به وكنت مسكونة بالهواجس ومشبَّعة بالأسئلة.كان اللقاء الأول سريعاً بسبب مشاغله، وقد أهداني بعضاً من كتبه، ووعدني بلقاء آخر في زيارة أخرى إلى لبنان...

أوَّل ما لفت انتباهي في الرفاعي هو تواضعه وحنوه، اللذان لا نجدهما عند أصحاب الألقاب والمناصب. يشعرك بإيمانه بك بأنك أمام مسؤولية كبيرة، بأن تحافظ على هذا الإيمان...

مع اللقاءات المتكررة، اكتشفت فيه صديقاً حقيقياً بكل ما لمعنى الصداقة من سمو واحترام وإنسانية، نفتقدها كثيراً في إطار تعاملاتنا اليومية.

في كل مرة يأتي إلى لبنان أحضر مجلسه، وأشعر بأنني، ومن دون مبالغة، أمام موسوعة عميقة ووافرة، أحتاج إلى أن أنهل منها، وأمام تجربة زاخرة أحتاج إلى معرفة تفاصيلها... ولعل كل من يعرف الرفاعي يشاركني ما أقول.

أخرج من مجلسه إنسانة جديدة، كلّي أمل وطاقة إيجابية وإصرار وجرأة على إعادة النظر في المنظومة الفقهية والعقائدية الأرثوذكسية، التي لطالما ضيَّقت رحابة الدين، وزادت

---

(١) إعلامية لبنانية.

من معاناتنا، بدل أن تواكب مسيرة الحياة فتخفّف من ضغوطاتها وغلوائها كما هو هدف وجود الأديان...

أحيا في داخلي القيم الروحية، وألهمني الكثير من المعاني، بعدما ورثت مغالطات كثيرة حول الدين والتراث، الذي كنت قد بدأت أنفر منه، بسبب كل الذي يحصل باسمه، وبسبب توظيفه بما يخدم مصالح حفنة من البشر. وهكذا، بتّ أعتقد بأسبقية القيم على الدين، وبأن الدين جاء ليذكر الإنسان بفطرته، التي بدأ ينساها بفعل الصراع الحياتي على جميع المستويات...

ألهمني تفكيراً وفهماً مختلفاً لرسالة الدين ووظيفته في الحياة، بعيداً عن الفهم التعبوي الإيديولوجي، وأن الدين قابل للعديد من القراءات، ولكن أحداً لا يملك أن يحتكره أو يدعي الحقيقة في فهمه واستيعابه وتطبيقه، وتحررت، بتحريض منه، من القراءات الجزمية اليقينية للدين، وسطوتها التي تقاوم أي فعل تغييري جديد يمكن أن يضيف إلى الإنسان أفقاً فسيحاً، ولا يأخذ منه أنفاسه، أو يستهلك أعصابه، التي هي أحوج ما يكون إليها في مثل هذا الزمن العصيب.

الجميل أنّني مع وعيي بكل هذه الأمور، تعلمت منه أن لا أجرح الضمير الديني عند الناس، وخصوصاً عندما يكونون على نمط من التديّن الفطري، وهي نزعة، عادة، ولا شعورياً، يمارسها الذين استفاقوا من غيبوبة كانوا يعيشونها باسم العقيدة، فكرية كانت هذه العقيدة أو دينية...

ما لفت انتباهي وأعجبني في الوقت عينه، أنه شخص ذو علاقات كثيرة، ومن كل الميول والاتجاهات اللاهوتية والعقائدية والفكرية، لأن ما يجمعه بالأشخاص هو الإنسان، الذي يجب أن لا تبعدنا عنه خياراته، إلا إذا كانت ذات نزعة إقصائية استعلائية وتكفيرية عنفية... وهذا جعلني أنسف مبدأً كنت قد استقرَّيت عليه، وهو أنَّ السعادة هي في الانسجام مع الناس الَّذين يشاركونك الأفكار ذاتها.

وهكذا، بات الفضاء أرحب وأوسع، وبت أشعر بأنَّ للاختلاف جمالاً لا يضاهيه جمال اللون الواحد، فمهما كان ذاك اللون جميلاً سوف نملّه، فالألوان تتآلف مع بعضها البعض، وتعطي رونقها بعضها لبعض، لتقدم لوحة غاية في الروعة...

ألم يخلق الله لنا الصحراء لنرى جمال النخيل...

أبا محمد، محظوظة بأني عرفتك...

❖ ❖ ❖

الشيخ عبد الجبار الرفاعي وصحبة أغادير

✍ مولاي محمد اسماعيلي[1]

كانت البدايات الأولى لتعرفي على الشيخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي ومشروعه الفكري، في مدينة أكادير، جنوب المغرب، حيث كنت أدرس في الجامعة آنذاك، وكان ذلك عبر المجلة الرصينة المحكمة "قضايا إسلامية معاصرة"، التي أرشدني إلى اقتنائها، الصديق العزيز وأستاذي الدكتور محمد همام. كان حينها راجعاً من رحلة حج، تعرف فيها عن قرب على الدكتور عبد الجبار الرفاعي، والذي كان حديثه عنه مشوقاً وذا دلالات مهمة، على أن الرجل موضوع الحديث رجل استثنائي، ومن طينة مختلفة وقليل نوعها، وهو الأمر الذي دفعني إلى اقتناء العدد الموجود في السوق من مجلة "قضايا إسلامية معاصرة".

ما أثارني في المجلة، وأنا أتصفحها العدد الكبير من المفكرين والباحثين المهمين الذين نشروا مساهمات في العدد، ما جعله غنيا بمادة علمية متنوعة تتراوح ما بين دراسات متميزة، وحوارات خاصة لافتة... إلى مواكبة لدراسات وقراءات في أعمال ندوات فكرية أو إصدارات جديدة، في العالم العربي والإسلامي. لفتني في ذلك العدد وما لحقه من أعداد اقتنيتها، ثراءها بمساهمات كتاب ذوي اثر مهم، من قبيل: د. محمد عابد الجابري، ود. طه عبد الرحمان، محمد باقر الصدر، علي حرب، حسن حنفي، ومحمد سبيلا، وغيرهم. كما عرفتني المجلة، على عدد كبير من المفكرين المسلمين المتميزين، وزادت معرفتي بآخرين كنت أسمع عنهم فقط، فوقفت في المجلة على كتابات: محمد مجتهد شبستري، عبد الكريم سروش، داريوش شايكان، مصطفى ملكيان، ومحمد أبو القاسم حاج حمد، وعدد كبير آخر من الباحثين الذين كانوا يضعون بين دفتي كل عدد على حدة، دراسات وبحوثا رصينة، بل ونظريات جديدة في الفكر والمعرفة الدينية، ترى النور لأول مرة، عبر صفحات هذه المجلة المتميزة.

ولكل الغنى الذي أجده في كل عدد، وحجم المعرفة الدينية الذي تتضح به هذه المجلة، أقوم بين الفينة والأخرى بالعودة إلى الصفحة الأولى من المجلة لأقرأ عبارة جميلة كانت تعجبني "صاحب الامتياز ورئيس التحرير"، فأحيي صاحب هذا الامتياز، المميز دائماً عبد الجبار الرفاعي، وفي كل مرة أتخيل لهذا الرجل صورة معينة، وأستحضر أسئلة كبيرة

(١) كاتب من أغادير في المغرب.

عن عمقه الفكري، كيف هو؟ وعن انتمائه العقائدي الذي لا يقف حائلاً دون إشراك أصحاب الانتماءات المذهبية والفكرية الأخرى من المشاركة في كل أعداد مجلته؟ إنما ما كنت أتساءل حوله، أي رجل هذا وأي عقل هذا الذي يغوص في كل هذه "الممنوعات"؟ ويفتح ملفاتها بكل جرأة وعلمية ومصداقية؟

كان صدور أي عدد جديد من مجلة قضايا إسلامية معاصرة، يخلق حالة ثقافية متميزة، بين شباب أغادير حينها، فيخبر الشاهد منهم الغائب، معلماً إياه أن العدد الجديد من المجلة قد صدر، فيتم التهافت عليه في مكتبات أكادير، وفي النفس رغبة في عدم نفاد العدد حتى يحصل الجميع على نسخته، لأن رغبة المشاركة في النقاشات والحوارات والجلسات السمرية التي تتبع كل عدد كبيرة، ولا يريد أحد أن يكون غائباً عنها أو مجرد مستمع دون أن يدلي بدوله في الموضوع.

كان عدد كبير من شباب أكادير، يخصصون جزءا من ميزانياتهم الضئيلة، من أجل الظفر باقتناء عدد جديد يصدر من هذه المجلة المتميزة، وكما هي مكتبتي، فقضايا إسلامية معاصرة تشكل جزءاً مهماً من مكتبات شباب أكادير، فمنهم من يتوفر على الأعداد كلها، ومنهم من يتوفر على عدد كبير منها، ومنهم يتوفر على عدد أو عددين على أقل تقدير، فالكل يعتبرها مفخرة أن تتوفر مكتبته على أعداد من المجلة التي كان لها أثر لافت في تغيير عدد من القناعات في أوساط هؤلاء الشباب، عبر قوة وجرأة ورصانة القضايا التي تكون ملفات لأعدادها، فقد أثرت المجلة في قناعات، وشككت في أخرى، وغيرت بالكامل عدداً آخر من قناعات، كنا نعتبرها من المقدسات التي لا يجب ولا يمكن المساس بها.

وقد استفدت أنا شخصياً من كثير من طروحات المجلة، ومن أبرز الملفات التي أحدثت أطيب الأثر عندي ملف العدد ٢٣ الصادر في ربيع ٢٠٠٣، حول: "إشكالية أسلمة العلوم، التمركز والتحيز في المعرفة"، وقد ضم مساهمات قيمة لعدد من المفكرين الكبار، من قبيل المرحوم أبو القاسم حاج حمد والمرحوم المسيري والشيخ طه جابر العلواني وغيرهم، وهو العدد الذي افتتحه الرفاعي بافتتاحية كان لها الأثر الكبير على أفكاري. وكذلك العدد ٢٦ من المجلة حول: "التباسات المفاهيم في الفكر الإسلامي المعاصر"، الذي كان متميزاً هو الآخر وغنياً، وقفت فيه على عدد من الدراسات التي أثرت عميقاً على تفكيري بشأن مفاهيم عدة، أما العدد المزدوج ٣٢/٣١ فقد تناول موضوعا غاية في الأهمية، هو: "العيش سويا في فضاء التنوع والاختلاف"، وهو في نظري عدد مؤسس في هذا الموضوع، خاصة وأنه قدم عدة مقاربات قيمة متميزة في التعدد الديني والثقافي، هذه الأعداد وغيرها من المجلة ميزتها غنى المادة العلمية، والرصانة في الطرح، والقوة في الفكرة.

كانت سعادتي غامرة وأنا أتلقى دعوة من أستاذي محمد همام للمشاركة في ندوة تقام في المغرب، حول "قضايا إسلامية معاصرة"، المجلة المنارة، التي أصبحت مدمنا على متابعتها واقتناء أي عدد جديد يصلنا، فكانت فرحة لا توصف، وفي نفس الآن إحساساً كبيراً بالمسؤولية، حيث قلت مع نفسي، كيف أتحدث عن مجلة يكتب فيها أكبر وأكثر الأقلام العربية والإسلامية حضوراً ورصانة وعلمية؟ ماذا عساي أقول والمجلة عنوان لأساتذة كبار تعلمنا منهم الكثير، لكنني عقدت العزم على ألا أضيع هذه الفرصة، التي أتيحت لي، وقد لا تتاح لكثيرين، وأدليت بدلوي فيما رأيته إضافة لهذه المجلة في الحقل المعرفي في الفضاء العربي والإسلامي، وهو ما أثبتته الأيام، وقد حصل لي شرف كبير حينها وأنا أشارك كطالب مع نخبة من الأساتذة والباحثين المتميزين المغاربة في هذه الندوة، فكانت بحق نقطة مضيئة في تاريخي. وفي كل مرة أقوم فيها بجولة بين كتبي أقف ملياً مع العدد الذي نُشرت فيه الندوة، فأقلبه بين يدي وأقرأ أجزاء من الندوة، مستحضراً السياق الذي عقدت فيه، وعدداً من لحظاتها المتميزة. وهي الندوة التي كان لها أثر في قاعات تحرير مجلات فكرية أخرى، حيث تلقينا طلباً من أجل القيام بندوة مماثلة لصالح مجلة فكرية تصدر من لبنان لم يكتب لها أن تتم.

كان حديث الدكتور محمد همام عن الشيخ عبد الجبار الرفاعي مشوقاً، ففي كل مرة يكشف لنا جانبا من الجوانب المميزة لعبد الجبار. ومن الأشياء التي رسخت في ذهني، أن الرجل يصدر مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، بإمكانات ذاتية، في حين كنت أظن أن المجلة تحظى بتمويل جيد من جهة ما، وهو ما نفاه لي الدكتور محمد همام، بل إنه كشف لي أن الرفاعي، باع جزءاً كبيراً من مكتبته الشخصية من أجل أن يحافظ على استمرارية المشروع، وأن تبقى في موعدها الذي تخرج فيه كل مرة، وقد هالني ما سمعت من جهد هذا الرجل الاستثنائي من أجل الحفاظ على هذا المشروع الفكري المتميز. وكم تمنيت حينها أن ألتقي به وأجالسه وأبادله أطراف الحديث، علني أجد مسلكا لفهم هذه الشخصية الفذة التي وقفت ضد كم هائل من العوائق، وتغلبت عليها، وفي مطلع كل فصل تهدي لمجموع الباحثين في العالم العربي والإسلامي، زبدة دراسات وأبحاث متميزة يتضمنها العدد الجديد من المجلة.

ثم اكتشفت في غمرة نشوتي المتكررة مع صدور أي عدد جديد من المجلة، أن الرفاعي لديه مركز في بغداد تحت اسم "مركز دراسات فلسفة الدين"، فما لبثت أن وجدت أن المركز يصدر عدداً كبيراً من سلاسل كتب ودراسات متميزة. إن هذا المركز كان الوجه الآخر للعطاء الذي لا ينضب للرفاعي. لقد وجدناه، وهو المنتمي إلى الفضاء المذهبي الشيعي، ينشر كتباً ودراسات فريدة، لباحثين ومفكرين من كل المشارب، سنة وشيعة،

ومسيحيين حتى، وهو ما كان مثار إشادة من قبل أغلب الكتاب والمفكرين المسلمين، وقد كان نصيب الباحثين المغاربة في النشر في سلاسل مركز دراسات فلسفة الدين كبيراً، كما أن المركز أعاد نشر عدد من الكتب المتميزة للمفكر السوداني الراحل محمد أبو القاسم حاج حمد، كانت بمثابة إعادة تعريف وتقديم جديد لهذا المفكر الفريد والكبير، صاحب "منهجية القرآن المعرفية"، و"جدلية الإنسان والغيب والطبيعة"... وغيرها.

لقد قرأت في تأسيس هذا المركز اللبنة الأساسية في بناء مشروع أكبر، يراود عبد الجبار، مشروع همه الأساس بعد التجديد الديني والفكري والمعرفي وفق أسس فلسفية وكلامية، تجعل لهذا التجديد القوة في التغلغل إلى دواخل وبواطن الأنساق التقليدية، وزعزعتها بشكل يسمح للمسلمين أن يعيشوا نهضة حقيقية، بمعرفة ومرجعيات سليمة.

في سنة ٢٠١١ كتب الله جل وعلا أن أتعرف على الأستاذة الكريمة هاجر القحطاني المدير التنفيذي للمنبر الدولي للحوار الإسلامي بلندن، حيث انضممت إلى برنامج "مهارات النجاح في عالم متغير" التدريبي، الذي يسهر عليه المنبر، والأستاذة هاجر على وجه الخصوص، سيدة فاضلة فيها الكثير من خصال الدكتور الرفاعي الكثير. كانت دهشة جميلة عندما أخبرتني ذات مساء في مدينة اسطنبول التركية، أن الدكتور عبد الجبار الرفاعي هو عمها وأبوها الروحي، حينها تشاركنا الحديث عن صفات الرجل ومناقبه، فزدت معرفة بالشيخ الذي لم أكن قد رأيته لحد تلك اللحظة. تسترسل الأستاذة هاجر، مؤكدة عددا من المعلومات التي كان يقولها لنا الدكتور همام عن الشيخ الرفاعي، كما أماطت اللثام عن أن الرجل قارئ نهم وشره، ومتابع دقيق لعالم الإصدارات والكتب، فهو يقرأ بأكثر من لغة، ويترجم وهو أستاذ جامعي. كما تأخذه لحظات عرفانية خاصة تمتزج فيها أسئلة الوجود والدين والوحي والإنسانية، لينتج بعدها كتابات ترفع قارئها إلى درجات عالية من التواصل مع عوالم متنوعة تنوع أسئلة البداية ومبتدئات الأسئلة، عوالم لا يمكن أن تخلو من وقفات نورانية مع العارف بالله الكبير مولانا جلال الدين الرومي، وأفلاك عشقه الممتدة بلا انتهاء.

وفي ربيع سنة ٢٠١٣ شاءت الأقدار أخيراً أن ألتقي بشكل مباشر مع الشيخ عبد الجبار الرفاعي في مؤتمر علمي في مدينة المحمدية المغربية، كان سروري كبيراً وأنا أعنق هذا الرجل العظيم، خاصة وأنه تعرف علي بشكل مباشر ونادى علي باسمي قبل أن ألتفت إلى وجوده، وجدت في الدكتور عبد الجبار رجلاً شهماً ومفكراً عميقاً وهادئاً، هدوؤه ودفئه الصوفي يجعل الإنسان ينجذب إليه، وعندما يتكلم تحس به وكأنه ينتقي كلماته من حديقة غناء، ولن تكل أو تمل وأنت تستمع إليه، لأنه يأخذك في رحلة معرفية فكرية غنية، فيها

من الفلسفة والعرفان وعلم الكلام الكثير، وفيها من التاريخ والتنوير والتجديد نزر غير قليل، رجل خبر دروب علم الأديان، بل غاص إلى أعماق فلسفة الدين، لذلك لا يفتأ يدافع عن النزعة الإنسانية للدين ويعمل على إنقاذها، وقد أتحفنا أخير بكتاب يحمل عنوان "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"، فبدون تلك النزعة الإنسانية يتحول الدين، أي دين، إلى آلة من التدمير والفتك بالإنسان، وقتل كل ما هو جميل في هذا الكيان الذي اجتباه الله خليفة له في هذه الأرض.

اكتشفت إن الرفاعي، ومن خلال جلساتي القليلة معه، ملم بالمشهد الفكري العربي والإسلامي إلماما واسعا، يتضح ذلك جليا منه وهو يعرج في أحاديثه مثلاً على مشاريع فكرية ضخمة بأدق التفاصيل، وحول إصدارات وكتابات وكأنه حفظها عن ظهر قلب، كما أنه يجيد تحليل تلك الإصدارات وتقديمها للمستمع إليه في قالب بسيط وواضح، يشوق بها كل من يسمعه للسعي إلى الاطلاع على تلك الإصدارات أو المشاريع الفكرية.

للوهلة الأولى يبدو الرفاعي رجلاً حازماً وجاد الملامح، لكن سرعان ما تكتشف فيه حسا جميلا من الدعابة والمرح، تجعل مجالسيه يجمعون بين الاستفادة والمرح والمتعة.

خلاصة الكلام عبد الجبار الرفاعي، رجل قل نظيره، ومفكر مهم، ومجدد لا يعرف حدودا للأسئلة التي يستنطق بها النصوص والأحداث والتاريخ والأفكار، تنويري يعانق بتنويره عنان السماء، مؤمن بمشروعه غاية الإيمان، ولا يبالي بكل ما يقف أمامه من عقبات وعراقيل، رجل وصل بعمله وصدقه إلى قلوب الكثيرين ممن أصبحوا تلامذته وطلابه على مدار هذا العالم، وأنا أحدهم.

لا أملك إلا أن أعرب في نهاية هذه الشهادة، عن خالص امتناني وعميق شكري وبالغ مودتي للشيخ عبد الجبار الرفاعي، على محبته وتواصله وإصغائه وثقته الكبيرة في شخصي المتواضع، ولكم أستاذي الكريم أهدي هذه الكلمات وبها أختم:

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

أنت المطلب، أنت المنتهى والمبتدأ
نشأت في الصدور أنت، فازدانت بك الفكر
أردت بنفسك الحاجة، فيسرت لفعلها السبل
أنت واهب الروح بلا بدل
أنت لذة العلم والعمل
وما بقى عبث ودغل
هو داء وسقم، وأنت دواء كل العلل ❖

عبد الجبار الرفاعي مفكراً إسلامياً
ماذا يعني أن نسمي كاتباً بعينه مفكراً؟

✍ إسماعيل شاكر الرفاعي[1]

ـ ١ ـ

ماذا يعني أن نسمي شخصاً أو كاتباً بعينه مفكراً؟

أنهى التفكير البشري تماس الإنسان المباشر مع المصادر الأولى لحفظ النوع الإنساني، وأدى إلى انفصاله عن الحالة الأولى: حالة التماس مع الطبيعة، والارتفاع فوقها، حالة الطعام الذي لم يعد التهاماً مباشراً من الطبيعة، بل تحول إلى فن تشترك في إعداده أكثر من حاسة وأكثر من جهة، ولم يعد المكان الصغير الذي يتم قطعه وقياسه بالأقدام متحكماً بكميته ونوعيته. ومنذ الثورة الزراعية أضاف الإنسان إلى غرائزه غريزة جديدة؛ هي غريزة الانتظار، التي مكنته من توظيف خبراته وتجاربه واستثمارها، وانتظار نتائجها التي تطول لأشهر، إذ إن من طبيعة الاستثمار: الانتظار، انتظار الفلاح حتى يحين موسم الحصاد، وانتظار الحائك أو الاسكافي أو الحداد حتى يفرغ من إنتاجه. فالانتظار سمة اكتسبها الإنسان نتيجة التفكير، ولكنها تحولت إلى غريزة لا بد من تلبيتها، تشبه إلى حد بعيد غريزة التسوق والاستهلاك، التي فرضها نمط الإنتاج الرأسمالي، وهي التي جعلت من الإنتاج الذي يتأخر لزمن أطول من زمان التناول المباشر من الطبيعة ذا خاصية جمالية. فالتفكير البشري يقترن بخاصيتي الانتظار والجمال.

ـ ٢ ـ

على المستوى الأمني يمكن القول بأنّ التاريخ البشري هو تاريخ من التفكير المتواصل بكيفية حماية الذات من الآخر، والتفكير بوضع الخطط لحرمان الآخر من أسبقية الحصول على الغذاء الضروري للحياة، فتفكير الإنسان بالآخر رافق التفكير بالذات. وبهذا يمكن إضافة عامل الخوف من الآخر، المنافس على ما تدرّه الطبيعة من كميات محدودة من الغذاء، إلى العوامل الأخرى التي حفزت الدماغ البشري على التفكير. وهذه الندرة التي ولّدت التنافس، هي التي مكّنت الإنسان من مغادرة حالة التركيز في تفكيره على المحسوس والعياني والمباشر، والصعود به إلى منطقة التفكير في المجرد والبعيد والمتخيل، فكان

---

(١) روائي وكاتب سياسي عراقي.

الابتكار والاختراع، أي من تركيز التفكير على ما تنتجه الأطراف والحواس، إلى التفكير في زيادة قدراتها على الإنتاج؛ زيادة قدرتها على إصابة البعيد بالنسبة إلى عضلات الساعدين، وزيادة قدرتها على طيّ المسافات بالنسبة إلى الساقين، وزيادة حدة الرؤية بالنسبة للعينين. حصل ذلك بالترافق مع التفكير بالكيفية المثلى، لدفع الآخر عن الهيمنة على المكان، واحتكار الحصول على كل خيراته.

هكذا عبر الإنسان منطقة التفكير في المحسوس والملموس والعياني، إلى ناصية التفكير في المتخيل، وفي هذه المرحلة غامر باستيلاد مفاهيم، برر بها إزاحة الآخر وهزيمته، والاستيلاء على أرضه. وهذا العبور الذي حصل لتفكير الإنسان ترافق بالحاجة إلى إضفاء صفة الشرعية الأخلاقية على ما قام به من استعباد.

ـ ٣ ـ

لا قيمة إذن لأي تفكير إنساني إذا لم يأت بإضافة نوعية؛ تعدّل، أو تغير، أو تطيح بالأسس الفكرية لنمط التفكير السائد، الذي يحدد لوعي الناس الطريقة التي بها يمارسون حياتهم الاجتماعية والدينية، وكذلك الاقتصادية، من حيث إنتاج وتلبية حاجاتهم الأساسية. قادت الإضافات النوعية التي حققها التفكير الإنساني إلى زيادة انفصاله عن الطبيعة، أخذ فيه هذا الانفصال عبر تاريخ البشرية شكل الاختراع والابتكار، فابتكار القوس مكّن الإنسان من الرماية لمسافة ابعد من قدرة سواعده، وبابتكار العجلة زاد من سرعة تنقله، وبتطويع الحصان تمكن من هزيمة المجموعات التي لم تتدرب على تدجين هذا الحيوان، وبابتكار الثورة الزراعية صار بإمكان الإنسان عبور الخط الفاصل بين ما قبل تاريخه إلى التأريخ لأفعاله في الحياة.

من هذه الزاوية انظر إلى كلمة مفكر، من زاوية قدرته على الإضافة الفكرية، وما فيها من إبداع؛ فالإضافة في باب المعرفة شرط ارتقاء الكاتب من مستوى الجمع والتأليف إلى مستوى التفكير. وبما إن المفكر به من قبل الكاتب، لا بد وان يدور وينطلق من معارف زمانه، ومن معطياتها العلمية، كان لا بد له من أن يدخل في حوار معها، فيقوده هذا الحوار؛ إما إلى تأكيد صحتها، أو يراوده الشك حول مسلماتها، فيتناولها بالنقد، الذي عادة ما ينتهي به إلى إضافة الجديد إليها. هكذا حطم كوبرنيكوس وغاليلو ونيوتن النظرة المتوارثة عن مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون، وهكذا فتح ديكارت بوابة الحرية أمام الفرد: "أنا أفكر إذن أنا موجود"، الذي ستفتحه على مصراعيه قائمة طويلة من المفكرين، الذين تميز كل منهم بالتأسيس لعلوم جديدة، في مجالات الاقتصاد والنفس واللغات والتاريخ، وحتى

قوانين الثورات. أما انفصال ابن خلدون بمنهج في الرؤية والتحليل عن المنهج السائد في عصره، فقد قاده إلى نظرة جديدة إلى الدولة والعمران، وكانت مفاهيمه إلى تأكيد رؤيته هذه: العصبيات، القبلية، والطائفية التي منحها الدور الحاسم في تقرير نتائج الصراع، ضداً على نظرة عصره التي كانت تسند إلى العامل الخارجي الدور الحاسم في تقرير سقوط الدول وقيامها.

المفكر هو الكاتب الذي ارتفع في تفكيره إلى مستوى القدرة على زحزحة المفاهيم والرؤى والنظريات السائدة في أيامه، هكذا رأينا الكثير من المفردات اللغوية التي كانت ذات دلالة محددة في التداول اللغوي اليومي،كالعصبية والطائفة والعمران والدولة، قد أصبحت من المصطلحات التي تشير إلى مفاهيم تحمل زاوية نظر إلى الكون والحياة، وموقفاً من وظيفة الإنسان في الحياة، وعى ذلك ابن خلدون أم لم يعِه.

ـ ٤ ـ

أطروحة الدكتور عبد الجبار الرفاعي الأساسية تتمثل في: إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وهو من وجهة نظرنا أعلاه قد جاء بالإضافة الضرورية. ضرورة هذه الإضافة تتأتى من كونها حاجة ملحة ومطلوبة من قبل المجتمعات الإسلامية في عصر لم يعد فيه الانغلاق على الذات هو الطريقة المثلى في العيش..المجتمعات الإسلامية في عمومها مجتمعات متخلفة بحاجة إلى غيرها من المجتمعات المتقدمة لكي تستطيع العيش، بمعنى أنها لا تستطيع الاستمرار بالطرق القديمة الموروثة للعيش، إذا لم تتدرب على استعمال الطرق الحديثة التي جاءت بها المجتمعات الحديثة؛ مجتمعات الحضارة الصناعية. لقد فرضت هذه الحضارة على المستوى العالمي معاييرها الخاصة في تقييم المجتمعات، ومن هذه المعايير: مفهوما التقدم والتخلف. وفق هذه المعايير الجديدة التي عممتها الطريقة الجديدة في إنتاج حاجات الإنسان، وفي طريقة تلبيتها، ما زالت مجتمعاتنا الإسلامية تحبو، كما لو كانت تمر بمرحلة الطفولة الاجتماعية ولم تبلغ سن الرشد بعد، ولهذا فهي بحاجة إلى ما تنتجه المجتمعات المتقدمة من الأدوات والسلع، وبحاجة إلى طرق إنتاجها وتوزيعها، وفق مفاهيم تفتقدها المجتمعات الإسلامية، والى الوقت الذي ستبلغ فيه المجتمعات الإسلامية هذا الأسلوب الجديد من العيش ستسمى مجتمعات راقية، والرقي بحد ذاته مصطلح حديث أيضاً، تطمح المجتمعات المتخلفة إلى بلوغه بالمعايير التي وضعتها المجتمعات المتقدمة لا بسواها من المعايير. وكل ذلك بتطلب أسلوباً في التعايش بين المجتمعات العالمية يقوم على التسامح والاحترام المتبادل. وهذا ما يجعلنا ننظر إلى أطروحة عبد الجبار بنوع من الإكبار، كونها عبّرت بدقة عن حاجة المجتمعات الإسلامية إليها.

ـ ٥ ـ

المفهوم السائد عن الإسلام في الحقبة التي نعيشها تلوّن بلون علاقة مجتمعاته المختلة بالمجتمعات المتقدمة، التي فرضت في هذه العلاقة معايير جديدة (معيار التقدم والتخلف)، في النظر إلى هيبة المجتمعات. انعكست هذه العلاقة المختلّة في وعي بنيه، فكانت الأطروحة الأكثر رواجاً هي أطروحة الدفاع عن الإسلام، ضد التآمر المخطط له من قبل المجتمعات المتقدمة. وما بين الدفاع كاستراتيجية، وبين تخليص النزعة الإنسانية كاستراتيجية مقابلة بون شاسع. الدفاع بحد ذاته يشير من حيث آلياته إلى التمترس خلف الأصول، وإعادة بعثها كما هي، والتلويح بها كبديل عن الوافد الفكري، فهو من هذه الناحية ينطوي على بعد الانغلاق على الذات، واعتبار ما نحن عليه من طرق في العيش، ومن زاوية نظر في فلسفتنا لوظيفة الإنسان في الحياة؛ حقيقة مطلقة لا يجوز التفاوض عليها، بل يجب القتال دونها، وهذا هو الخط الثابت للحركات الإسلامية، ومن ورائهم من حاز على صفة (مفكر إسلامي)، فعامتهم كتب أو ناضل من منطلق الدفاع. هذا هو السائد في الوسط الفكري الإسلامي؛ تسابق على وعي المسلمين من أجل احتلاله بمقولات وبمفاهيم سياثقافية، تشدد على ضرورة انطوائهم عليها، ورفض حضور الآخر. أما المنطق الذي يقود مفهوم (التخليص)، فيقوم على أن الخطر الذي يهدد الإسلام لم يأت من المجتمعات المتقدمة، المتآمرة كما هي في وعي غالبية المسلمين، بل من التصور البائس القار في وعي بنيه له، والذي صاغته نظرتهم إلى المجتمعات المتقدمة في علاقتها بالمجتمعات الإسلامية. في هذه النظرة التي كونتها عملية الانسحاق أمام المجتمعات المتقدمة، وهي نوع من الوعي الزائف، يتم تجريد الدين من كل أنواع التلاقح الثقافي، وهي أرقى أنواع الدفاع والمقاومة، واختزاله في حوار أوحد وحيد، هو حوار التمترس للدفاع عنه.

كادت ثورة المشروطة، التي أنجبت كتاب "تنبيه الأمة وتنزيه الملة"، لمؤلفه الشيخ محمد حسين النائيني، أن تشكّل قاعدة الانطلاق لتأصيل مفاهيم جديدة، بمنح مفهوم الأمة دلالة ذات فحوى، تتجاوب مع المفاهيم السياسية السائدة في عصرنا.

لقد تحول مفهوم الأمة في هذا الكتاب من دلالته المذهبية إلى دلالة وطنية مشحونة بثقافة العصر السياسية. فلأول مرة يتم الاعتراف في الفكر الإسلامي بالأمة مقترنة بوطن. لم يعد مفهوم الأمة في هذا الكتاب يحمل مضمونه الموروث منذ قرون في دلالته الدينية على الأمة الإسلامية، وهي الدلالة نفسها التي حملتها كتابات الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا، وما تسلل منها من لكتاب وحركات سياسية، كحركة

الإخوان في مصر وفروعها المعروفة في بلدان العرب والمسلمين، وهذا المعنى الديني القديم؛ سيتكرر لاحقاً لدى كتاب شيعة، وما شكلوه من تنظيمات سياسية إسلامية.انسلخ معنى الأمة في كتاب النائيني عن ذلك المعنى القديم، وأصبحت دلالته تشير إلى الأمة المقترنة بدولة من دول المسلمين، وهذا الانسلاخ في معنى الأمة من دلالته الدينية القديمة "الأمة الإسلامية، الأمة المسيحية، الأمة البوذية.. الخ"، إلى دلالة تشير إلى محتوى سياسي دنيوي، يشكل تميزاً في تفكير مؤلفه النائيني، إذ أصبحت الدلالة الحديثة تشير إلى اقتران الأمة بوطن واحد من الأوطان الكثيرة للأمة بمعناها الديني القديم، التي كان يضمها أهاب دولتي خاص؛ هو الاهاب الإمبراطوري. تتكون أمة هذا الوطن الواحد من أديان ومذاهب وقوميات متعددة، لا يصلح قاعدة لمساواتهم أمام القانون، مفهوم الولاء الديني أو الطائفي، بل مفهوم المواطنة الحديث. ولقد منح النائيني تعريف الأمة الحديث جانبه الآخر، الذي لا يتكامل معنى الأمة الحديث من دونه، والمتمثل بالمصدر الذي يمنح الأمة هويتها. لقد تحول المصدر في تعبير النائيني من خارجي "أمة مكلفة من السماء بتطبيق شرع اللّه"، إلى مصدر داخلي، تستقي فيه الأمة مهامها ووظيفتها في الحياة من التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها عبر الزمان، فتكون هي نفسها مصدر التشريعات لما يناسب الحال والمقام.

كذلك تحول مفهوم الأمة في هذا الكتاب من دلالته المذهبية، إلى دلالة مشحونة بثقافة العصر السياسية، عبر منح الأمة المشروعية في انتخاب ممثليها في التشريع، وأصبح مشحوناً بالولاء لوطن، تتكون أمته من أديان ومذاهب وقوميات متعددة، لا يصلح مفهوم الولاء الطائفي لأن يكون قاعدة لمساواتهم أمام القانون، بل مفهوم المواطنة الحديث.

هكذا كاد الكتاب أن يكون "مفكراً جماعياً" لزعماء ثورة المشروطة، وجلهم من رجال الدين الشيعة، الذين انقسموا على أنفسهم، بين مؤيد لوضع القيود على الحكومة، عبر ما أنتجته الحضارة القائمة من قيود على الاستبداد، مثل؛ الدستور، والانتخابات، وفصل السلطات، وبين رافض لهذا التوجه كافر به.

صحيح أن هناك الكثير من العرب، الذين كتبوا بوضوح عن الحل العلماني لمسألة الأقليات الطائفية والدينية، وعن الحل الديمقراطي لمسألة الأقليات القومية قبل ثورة المشروطة، خاصة من المسيحيين العرب، الذين اطلعوا على الأحداث التي ضمّها التاريخ الأوربي منذ عصور النهضة والأنوار والحداثة، ولكنهم لم يكونوا مفكرين؛ إذ لم تكن العلمانية ولا الديمقراطية اكتشافاً محلياً يقدّم كحل لتحدّ خطير كانت تواجهه المجتمعات

العربية، كما هو الحال الآن. كان النائيني يمثل هذه الحاجة، ويتجاوب في ذلك مع الحد المطلوب من الإصلاح الداخلي للمنظومة الفكرية الموروثة (الأصول)، التي يجب بالضرورة البدء بها، لتصبح مشروعية التغيير أعلى مستوى في النظام السياسي وبنية الدولة مشروعة جماهيرياً.

ـ ٦ ـ

لنذكّر بكلمات قليلة بأن الرجل المحتفى به في هذا المقال، قد تربى فكراً وسلوكاً، داخل الوسط الديني، في قراءاته الأولى، وفي انتمائه المبكر لحزب الدعوة، وفي إيمانه القاطع بأن وظيفته في الحياة التعمق في معرفة الدين الإسلامي، فاختار التخصص فيه، وانخرط في دراسته في الحوزات العلمية في النجف وإيران، لأكثر من خمسة وثلاثين عاما. مضافا إلى انه كاتب مشغول بالتأليف في حقول المعارف الدينية، التي نشأت حول القرآن كنص مؤسس، تيسيراً لفهم أحكامه من قبل عامة المسلمين، التي تباعدت الشقة بينهم وبين اللغة العربية المتداولة في زمان الوحي. أي أنه ارتقى إلى ناصية الكتابة عن الدين من داخل المناخ الديني وليس من خارجه. فهو في هذه الحالة لا يشبه الكتاب الذين ينتمون إلى مدارس العلوم الإنسانية الحديثة المختلفة، والذين يشتركون جميعاً على اختلاف مناهجهم بمسلمة؛ النظر إلى الدين كظاهرة اجتماعية قابلة للدرس والتمحيص، واستخراج قوانينها كما لو كانت ظاهرة طبيعية كالخسوف أو الكسوف، أو ظاهرة سقوط المطر. وهم إضافة إلى ذلك يتكئون على التأويل، أي إعادة قراءة النص الديني وفق الخطوات المنهجية لدى كل مدرسة، ووفقاً للمعطيات العلمية التي بين يدي الكاتب، وهم في ذلك لا يختلفون اختلافاً جذرياً عن مؤسسي الطوائف والمذاهب الإسلامية من الفقهاء. باعتماد التأويل منهجية رئيسة في إعادة قراءة النص، وإعادة قراءة الأحداث، التي رافقت نزول النص، وانتقاء ما يؤيد وجهة النظر من آيات وردت في سور قرآنية أخرى.

ـ ٧ ـ

الرؤية المركزية لدى عبد الجبار الرفاعي تتمحور حول تخليص النزعة الإنسانية في الدين، وفي هذا يتفرد عن الكتّاب الآخرين بكونه يطرح إشكالية الإسلام المعاصرة، من حيث علاقته بالآخر. انه يطرح الدين عموماً كإشكالية، ولكنه في الوقت نفسه يقدمه كحل لما يعانيه إنسان عصرنا من أزمات. وهو في هذا الطرح يركّز على ضرورة الاستعادة لما تم سلبه من الدين؛ وهو نزعته الإنسانية. نحن هنا أمام محاولة للارتقاء من الكتابة

كتأليف وجمع، إلى محاولة في التفكير، أو بتعبير أكثر إفصاحاً، الارتقاء في مستوى الكتابة، كتأويل جديد يقود إلى طائفة أو ملة جديدة، أو الارتقاء من الكتابة كهامش تفسيري على المصنفات الأولى التي تبلورت فيها أصول الدين، إلى محاولة في إعادة ترتيب أصول الدين، تأخذ فيها النزعة الإنسانية أولوية أولى، من هنا قلنا بأن الرفاعي يعيد مناقشة الإسلام كمعطى فكري، من حيث علاقته بالآخر المختلف دينياً وطائفياً. لم يرد في كل المصنفات التي تناولت الأصول باباً، عن "النزعة الإنسانية"، لا في المصنفات الدينية الأولى، ولا في الشروح والهوامش على متونها. النزعة الإنسانية في هذه المصنفات تأخذ تعريفها من الولاء للديانة أو للطائفة، وهو ولاء ذو مضمون سياسي أولاً وآخراً، تبلور تاريخياً على شكل ولاء لنظام سياسي بعينه، أو بالأحرى الولاء لشخص بعينه،كان يقف على رأس السلطة أو كان من الواجب والحق جلوسه على عرشها. النزعة الإنسانية لدى عبد الجبار شيء آخر؛ يتجاوز الولاء بمعناه الطائفي، (أنا أفضل استخدام الطائفة كتعبير عن واقع حال انساقت إليه الديانات جميعاً، وليس الدين الإسلامي وحده)، إلى أفق أرحب من الولاء، وفي هذه الرحابة يقف الإنسان الأبيض إلى جانب الأسود والأصفر، والرجل إلى جانب المرأة، في اصطفاف مساواتي في الحقوق (كأسنان المشط)، حسب التعبير المنسوب إلى الإمام علي. إعادة ترتيب أولويات الدين بإضافة مرتكز جديد إليها؛ متمثلاً بإنسانية الدين، هي الإضافة التي جاء بها المفكر عبد الجبار الرفاعي.

قد نجد جذوراً لمثل هذا النزوع الإنساني في العرفان والتصوف الإسلامي، أو لدى المدارس الوجودية من كيركغورد إلى سارتر، إلا أن المسألة متعلقة اليوم بحريتنا المحاصرة من إرهاب القاعدة، ومن الإرهاب الآخر لدى متشددي الطوائف المختلفة، وهي مسألة يتوقف حلها، لا على ما في جعبة البعض من أفكار جاهزة، بل على قتال حقيقي يخوضه متنورون من داخل الفكر الإسلامي لا من خارجه، لإنقاذ ما تبقى، قبل أن يتم تحويل الدين، في أذهان الأجيال الناشئة إلى مجرد أوامر ونواه وطقوس لا أكثر، وذلك بفعل العنف الغالب على حوار كل الجماعات الإسلامية، التي يدعي كل منها امتلاكه للديانة الإسلامية والقيمومة عليها.

من هذا المنحى تأتي أهمية الإضافة الفكرية للدكتور عبد الجبار الرفاعي؛ في إعادة ترتيب المنظومة الفكرية الإسلامية، بما يؤمن حلاً عاجلاً لمسألة العنف، حين جعل من النزعة الإنسانية أصلاً من أصول الديانة تم تغييبه، فيما يحتم الواجب علينا إنقاذه.

ـ ٨ ـ

يعرّف عبد الجبار الرفاعي الإنسان بأنه (كائن ديني)، وهذا التعريف الذي يمنح من خلاله دوراً ووظيفة للإنسان في الحياة يعد ثابتاً من ثوابته الفكرية. في هذا الثابت الفكري لا يجد الإنسان لنفسه وحياته من معنى خارج الدين، لكن الدين هنا شيء آخر، غير مؤسسات الدين التي تبلورت في التاريخ. وغير الشروح والهوامش التي حولت الدين إلى ملكية خاصة لشارح أو مفسر أو مؤوّل، يوجز الدين كله بفتوى تنزع إنسانية من لا يتقيد بها. من هذا المنطلق يرفض مفكرنا الشيخ الرفاعي "مأسسة الدين". ذلك أن الفتوى الدينية تمر في التطبيق من خلال هيكلة مؤسسات عرفتها دولة الدين في التاريخ؛ أجهزة الشرطة والقضاء والحسبة. يتحول الدين عبر هذه الأجهزة إلى أوامر ووصايا تفقد الكثير من روحانيتها، فيتحول الدين في العنف اليومي للحسبة، وفي غلظة وقسوة الشرطي، وفي اجتهاد القاضي، إلى ممارسة سلطوية تتحكم بها أهواء ومصالح هذه المؤسسات، التي أخذت في التجربة التاريخية للدولة في الإسلام شكل ملك لرئيسها، وصلت إلى درجة بيعها بمبلغ محدد من المال، وان تزيت بزي السلطات الدينية، وادعت تطبيق (شرع اللّه)، وتقليم أهواء وغرائز البشر الخطائين. إن هذه الدوامة من العنف المستمر حول تطبيق الشريعة، فقد فيها الإنسان آدميته واستقلاله ككائن ديني باحث عن المعنى. لا يمكن للإنسان أن يجد المعنى في هذا التطبيق الأرضي للدين، الذي ينزع إنسانية الإنسان المختلف. يفقد الدين قابليته على توليد المعنى، إذا ما تحول إلى أوامر ونواهٍ يومية، عبر أجهزة نصبها البشر في التاريخ، لحمل الآخرين بالقوة على الالتزام والتقيد بما تصدح به من معنى.

من هنا ينشب التضارب بين معنى ومعنى، وبين توجه وتوجه، وبين تفسير وتفسير. فالكائن الديني يفتقد المعنى في مؤسسات البشر التي تحمله بالقوة على أن يجد معنى لحياته فيها. والمعنى الذي تصرّ هذه الأجهزة على توليده؛ لا يخرج عن الطاعة وما تحمله من إذلال لكرامة وآدمية الإنسان، الذي يرى المعنى في سواها؛ في مؤسسته الذاتية الحرة، التي تكفل له حرية البحث عن المعنى في سواها. فالكائن الديني الباحث عن المعنى اشمل في رؤيته الذاتية من المؤسسات وأعلى رتبة من هياكلها. الدين لدى الكائن الديني عصي على التشكل في هيكل، أو إطار ذو بعد زمكاني. ما إن تتم هيكلة ومأسسة الدين، حتى تتم في الآن ذاته تجريده من توهجه الروحي؛ هاجس الإنسان الباحث عن المعنى الأوفى والأشمل، الذي يشعر من خلاله باتحاده بالقوة الكبرى التي تمسك بوحدة الكون، ويدفعه إلى استنزالها إلى جرمه الطيني الصغير، شرط التخلي عنه ونسيانه، فمع هذا النسيان يتم له ما حلم به، وهو في سفره إليها والتحام بها، ستأذن له، إن سها السهو كله عن جرمه الطيني، أن يكون: عينها التي يرى بها، ولسانها الذي ينطق به، ويدها التي يبطش بها...

بغداد ٢٠١٣/١١/١٢

الدكتور عبد الجبار الرفاعي
الفيلسوف المتصوف
الذي حمل أسفاره داعياً لثقافة التسامح

✍ محمد صالح صدقيان[1]

تجمعني مع الأستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي صداقة وتلمذة، ترجع إلى أكثر من ثلاثة عقود. التقيته في كتابه «حركة القومية العربية»، الذي يعتبر من أوائل الكتب التي نشرها في ثمانينات القرن الماضي "١٩٨٤"، ولازمته في هذه الفترة كاتباً، وأستاذاً، ومفكراً، وإنساناً يهتم ليس بمجالات المعرفة فحسب، وإنما في مجالات الفكر والمنهج والسياسة والفلسفة وعلم الكلام والتجديد. لم يكن باحثاً يبحث عن الترف الفكري، وإنما يبحث عن سعادة الإنسان من خلال العلوم التي درّسها وبشّربها، حاول نشرها من أجل خلق وعي إسلامي إنساني متجدد يضفي صورة أخرى للإنسان الذي يبحث عن الحقيقة.لم يبخل على أحد أن يعطيه ما يملك، ولم يكن مهتماً بعلوم الفلسفة والمعرفة، وإنما كان مهموماً بها، يريد أن يخلق وعياً تربوياً مبدعاً، يحلم بالحكمة المتعالية، وانحاز لـ «التدين العقلاني»، والتسامح، لأنه لم يجد له خياراً آخر، ولأنه لا يرى طريقاً آخر سوى «إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين». نظرة على المفكرين والمجددين الذين اهتم بهم من أمثال: محمد باقر الصدر، مرتضى مطهري، محمد حسين الطباطبائي، حسين نصر، داريوش شايغان، علي شريعتي، محمد مهدي شمس الدين، توحي بماذا يفكر عبد الجبار الرفاعي، وما هي المقاصد التي يريد الوصول لها. لا يعترف بالحدود، ولا يهمه التاريخ والجغرافيا بقدر ما تهمه المعرفة والتجديد والحكمة التي كانت ضالته، والتي لازمته طوال حياته الفكرية والسياسية.

عبد الجبار الرفاعي الذي ولد في قرية في أرياف مدينة الرفاعي، المسترخية على ضفاف الغراف، المتفرع من نهر دجلة جنوب العراق، شرب من ماءها، واستوحى هدوء أبنائها، وصفاء فكرها، ونقاوة وبساطة شعبها، وعبق تاريخها، هذه المنطقة التي أنجبت قطب الصوفية الكبير السيد أحمد الرفاعي. حمل هذا التراث وكأنه همٌّ يجول به البلدان،

---

(١) مدير المركز العربي للدراسات الإيرانية، طهران.

بعد أن ضاق به العراق لاستبداد الطاغية الذي حكمه، ليدرس الفلسفة طالباً وأستاذاً ومناظراً ومنظّراً، تختلط عنده الصوفية الرفاعية بـ «فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة»، التي أنتجت عنده «ثقافة التسامح» و«مناهج التجديد» دون أن ينسى «جدل التراث والعصر» الذي كان من أحد همومه في مسيرته العلمية الثقافية.

قليلون أولئك الذين لا يخافون في هذا الزمن المالح، قليلون هم الشجعان في طرح أفكارهم، وقليلون هم المتمردون على واقعهم، ومن يعرف أجواء الحوزات العلمية في مدينة النجف العراقية، ومدينة قم الإيرانية، يدرك مدى خطورة البوح بأفكار تجديدية على صعيد الفقه والفلسفة وعلم الكلام، لكن عبد الجبار الرفاعي خاض هذه الأفكار بشجاعة قلما نجدها في هذه الحوزات، وحمل همومها بعيداً عن الطائفية، وإن كان أبناً باراً لمجتمعه، وبعيداً عن قوميته، وإن كان ملتزماً بعروبته، فأحبه العربي والفارسي والتركي والكردي، لأنه أحبّهم. لم ينظر إلى من قال، وإنما كان ولا يزال ينظر إلى ما قال، ولذلك شكّل حلقة من الأصدقاء المثقفين والمفكرين، اتسعت لكل هذه القوميات والأعراق، فانتهج ثقافة التسامح في حياته وعلاقاته الخاصة، قبل أن ينتهجها فكراً ومنهجاً وطريقاً ومادةً دراسية. كان مهموماً ذات يوم عندما أُغلقت مجلة «قضايا إسلامية» التي أصدرها بالتعاون مع الشهيد مهدي العطار، كانت مشروعه الفكري، والوعاء الذي كان يعتقد بأنه يعكس أفكاره وثقافته، لازلت أتذكر آهاته التي كان يطلقها بسبب إيقاف المجلة، فتمرّد على واقعه وأصدر مجلة «قضايا إسلامية معاصرة» على الرغم من قلة ما في اليد، وجفاء البعض من المقربين، لكنه أيقن أن هذا المشروع يجب أن يستمر لأنه يريد أن ينشر "ثقافة التسامح"، وثقافة "الرأي الآخر"، لم أجده مهتماً بالأفكار والعلوم مثلما اهتم بالتسامح، والرأي الآخر، لأنه كان ولا يزال ملتزماً بهذه الثقافة... ثقافة التمرد، والتجديد والمعاصرة.

متدينٌ تصح الصلاة خلفه، ومجتهدٌ يجوز تقليده، وفيلسوف استخدم الفلسفة لإسعاد الناس، متحررٌ من الكثير من القيود التي تحد من حرية الإنسان الفكرية، ومتسامح في العديد من الحالات الحياتية، حتى في إطار حياته الشخصية والعائلية، مادامت في إطار الشريعة ومرضاة الله.

اللافت في أفكاره إنها تريد بناء الإنسان، لم يبحث من أجل البحث والدراسة، وإنما يبحث من أجل حياة جديدة يحياها الإنسان المسلم، همه بناء البلاد من خلال "فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورته الإنسانية، تلك

الصورة المغايرة لما تريده الجماعات التي تعمل على تقديم صورة متوحشة زائفة للدين ". عارض العنف بكل أشكاله لأنه " يهددنا ويلاحقنا حيثما كنا في بلادنا". ودعا للسلام الذي "هو سبيل الأمن الاجتماعي والعيش سوياً"، من خلال "التشبث بالوسائل السلمية لحل المنازعات، والتخلص من بواعث العنف والحروب، التي أمست تفتك بالإنسان، وتبدد الكثير من مكاسبه ومنجزاته على الأرض".

استوعب الدين على انه "إشاعة السلم والتراحم والمحبة بين الناس، والسعي لتجفيف منابع العنف والعدوانية والتعصب"، ورأى في المتدين "حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده، من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع كافة الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، وتدريب المشاعر والأحاسيس والعواطف على القيم النبيلة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع إلهام الطاقة الحيوية الإيجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها".

جاهد على أن يعزز النزعة الإنسانية في الدين، والتي لا تكون "إلاّ بالخلاص من التفسيرات المتعسفة القمعية للنصوص، وتخطي المفاهيم والمقولات النمطية المغلقة في اللاهوت الكلاسيكي". ودعا لإعادة ترسيخ صورة الإله في النفس الإنسانية التي " تستوحي صفات الرحمة والمحبة والسلام"، خلافاً "للصورة النمطية للإله التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب".

نحن أمام إنسان آمن بفكره من أجل الحياة، وآمن بالإنسان باعتباره مادة هذه الحياة، وآمن بالحياة المتطورة والمتجددة والنقية المتسامحة، لأنها الطريق التي توصل إلى مرضاة الله...نحن أمام عبد الجبار الرفاعي.

طهران في: ٢٠١٣/١/٣



إنقاذ النزعة الإنسانية في الديـن

✍ محمد عبد الجبار الشبوط[1]

يلخص الصديق المفكر الكبير الدكتور عبد الجبار الرفاعي اهتماماته في المرحلة الحالية من حياته بالعمل على "إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين."

العبارة مركزة وقد تكون صادمة، ومثيرة للكثير من الأسئلة، ربما أكثر مما تُقدم إجابات. فهل "النزعة الإنسانية في الدين" في خطر؟ وهل توجد أصلاً نزعة إنسانية في الدين؟ وهل يمكن إنقاذها من الخطر الذي يتهددها، إنْ وجد أصلاً؟

الدعوة جديدة. فالإسلاميون التقليديون يتحدثون عادة عن تطبيق الشريعة الإسلامية أو إقامة الدولة الإسلامية أو حتى تعبيد الإنسان لله، كما كان يقول سيد قطب. وفي سياق هذه الدعوة كان الإنسان هو الغائب الأكبر. الإنسان هو العنصر "المنسي" في أدبيات الجماعات الإسلامية، بل هو الضحية في ممارسات الجماعات الإسلامية المسلحة. انظروا كيف يقتلون الإنسان؟ قتل الإنسان أسهل لديهم من قتل بعوضة. يقتلون الإنسان على عدم معرفته بعدد ركعات صلاة الصبح!! الإنسان عند هؤلاء في خدمة الدين، والدين عندهم رؤية مغلقة للعالم مصبوغة بلون الدم.

الرفاعي يدعو إلى تحرير النزعة الإنسانية في الدين من تعسّف هؤلاء الذين قدموا للدين فهماً أحادياً قمعياً تنكيلياً، وتقديم رؤية إنسانية للدين تدعو إلى السلام واحترام كرامة الكائن البشري وإشاعة السلام في المجتمعات البشرية والحوار بين الأديان المفضي إلى سلام بين الشعوب.

النزعة الإنسانية تعني الانفتاح على الآخر، وعلى التجارب البشرية المتنوعة، واستلهام القيم المشتركة في الأديان والحضارات والمجتمعات، وإنجاز المصالحة بين المتدين وعصره ومحيطه والإصغاء إلى إيقاع البشرية المتسارعة التغيير، وتوظيف الثروة والعلوم والطبيعة لتحقيق مصلحة الإنسان وتقدمه الروحي ورقيه التكنولوجي، في إطار من العدل الشامل والتوزيع العادل للثروة والمنافع التي وضعها الله للإنسان في الكون والطبيعة.

---

(١) كاتب وإعلامي عراقي.

النزعة الإنسانية تعني احترام حرمة الإنسان واحترام حقوقه وصيانتها وعدم انتهاكها ومصادرتها وسحقها وتجسيد قوله تعالى: "ولقد كرّمْنا بني آدم" تجسيداً واقعياً سليماً ملموساً".

يجزم الرفاعي أن الحركات الإسلامية عجزت عن إدراك وظيفة الدين الأساسية الأصلية المتمثلة في إنتاج معنى لحياة الإنسان، وأغرقت نفسها والمجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية في نزاعات ومعارك يتجلّى فيها كلّ شيء سوى الأخلاق وقيم التراحم والمحبة في الدين.

ودليل ذلك ما يجري في العراق وسوريا، على سبيل المثال، حيث تحول الإسلاميون الجهاديون المسلحون إلى آكلي الأكباد والقلوب، وأعادوا إنتاج آكلي اللحوم البشرية، وآية ذلك فشل الإسلاميين الحاكمين في تونس ومصر في كسب قلوب وعقول الناس إليهم فضلاً عن الإسلام.

النزعة الإنسانية في الدين في خطر ماحق. يتمثل هذا الخطر في التخلّف وفي "أسلمة التخلف" وفي إعادة إنتاج التفسيرات المتخلفة للدين، وفي النظرة الدوغمائية للدين، والدونية للإنسان وخاصة المرأة، وفي توهم الإسلاميين الجهاديين أنّهم وحدهم يمتلكون الحقيقة المطلقة ومفاتيح الخلاص في الدنيا والآخرة وأنّهم وكلاء الله في الأرض. ليست النزعة الإنسانية هي وحدها في خطر، بل الدين نفسه في خطر بسبب هذه الجماعات التي تعاني من نسيان الإنسان. لعل هذه الجماعات قد تكون السبب الذي قد يدفع الإنسان إلى الثورة على الدين الذي تتكلم وتحكم باسمه.

من هنا تأتي أهمية جهد الرفاعي في إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين قبل أن يتمرّد الإنسان على الدين نفسه دفاعاً عن نفسه. سوف يؤدي النجاح في تحقيق ذلك إلى جعل الدين طريقاً للسلام كما يعد القرآن الكريم: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا". والعكس يصح.

❖ ❖ ❖

تَعَلُّم أبجدية التفكير مع عبد الجبّار الرفاعي

✍ **محمّد حسين الرفاعي**[1]

إلى المُعَلِّم ـ المفكِّر؛ احتراماً ووفاءً

[I] في التعرف إلى المفكِّر:

الحديث عن عبد الجبار الرفاعي، بوصفه مفكراً، ليس حديثاً وقولاً عن سيرة ذاتية، ولا عن كتاب بعينه له، أو عن أحداث ووقائع في تاريخه الخاص؛ الحديث، هو حديث عن أبحاثه العلميّة وعن نتاجه المعرفي – الفكري، في كليته. يتضمن الحديث عنه، معنى الحوار معه، والتفكير معه (لا تأييداً لما يقول، إنما فهم ما يقول، بالفهم).. الحديث هو، أولاً، مع **مفكِّرٍ مُفَكَّراً به من قبلنا**.

← ينجز التفكير والتَفَكُّر، بوصفهما **زحزحة مستمرة للمراتب والمستويات المتعلقة بالوعي** الذي في الأشياء المعرفية، وعينا بما يحيطنا من تفصيلات واقعية محسوسة.. هذا الواقعيّ الذي يجسد المعرفيّ عندنا (في البلدان العربية).. يأخذ المعرفيُّ الواقعيَّ، من أجل إنتاج معرفية علمية به، ولا يمكن لعملية الإنتاج هذه أن **تصير** إلا مع حضور الأشياء الواقعية فيها.

← منذ نشأة المعرفة العلمية الحديثة، **والتعدد فيها**، فيما يتعلق بدراسة الموضوعات العلمية، بوصفها مفاهيم.. وكذلك، **التعدد** حاضر في دراسة الدين منظوراً إليه على أنه **المتضمَّن** في الأفعال المجتمعية العائدة إلى الفاعلين المجتمعيين، أو الجماعات الفاعلة المجتمعية أو «**المجتمعيّ ـ في ـ مستوياته المختلفة**».

كيف يأخذ التعدد معانيه وأشكاله عند الرفاعي في دراسة الدين؟

← لا يقدم الرفاعي الدين كحقل فهم، بحاجة إلى ذوات مَخصيَّة، تَفَكُّريّاً، تتعلم في مختبراته سبل ممارسته الجاهزة والموجودة قبل وجود الفاعل (الذات).. أي **كَفَهمٍ يغلق باب الفهم**.. إنما يقدمه على أنه حقل تفكير ينفتح على الفهم المختلف، والمتعدد، والمتنوع، من أجل تقديم **فهم ديناميكي** (الحركة فيه حاضرة)، جديد؛ يتضمن معنى احتضان الأنماط الأخرى من الفهم.. حقل تفكير يمارس الفهم، وينتج فهماً جديداً بالفهم.. هذا الذي ينقذ الدين من الدين.. فلا يعود دين ضد دين، أو دين مع دين، إنما، تصبح المعادلة كالآتي: الدين في كليته منفتحاً على أنماط الدين المختلفة في ذاتيتها.. وهكذا، **تصير** الحياة في الدين، **وهي تصير بوساطة وضع التفكير داخله**.

---

(١) مدير تحرير مجلة قضايا إسلامية معاصرة.

← مع هذه القفزة التَفَكُّرية، في التعامل مع التفكير بالدين(شرط ألا يعتبر تفكيراً داخل إطار يزركشه الدين ذاته)، يبني الرفاعي حقل التفكير بالدين، **فايْلاً صوفيّاً** (لا فلسفيّاً بالمعنى الذي أتى إلينا وترجمناه، وقَوَّلْنا ما قيل فيه) **وسوسيولوجيّاً**؛ يختلف في تحديد حدوده النظرية، ويختلف في كيفية حضور الموضوعات الخاضعة فيه، إلى الدراسة.

فما هو هذا الحقل المختلف والجديد وغير الشائع؟

← يغيب ويغيب الواقعي في الغالبية الساحقة من الأبحاث في اللغة العربية؛ ففريق يقول، **صلاحية استعارة المفاهيم** والأفكار والنظريات والمناهج العلمية من الغرب، وفريق يقول، **عدم صلاحيتها** في التعامل مع مجتمعاتنا..

← كيف يغيب؟ إنه يغيب، عند الفريق الثاني، عن طريق البحث، بوصفه بحثاً (مصاباً بالغريزة الميثولوجية) عن الأفكار والمفاهيم والنظريات والمناهج في التراث لقراءة الواقعي في بلداننا، **قراءة الحاضر ماضويّاً**؛ ويغيب، عند الفريق الأول، في صورة البحث(المصاب بعمى العقل) عن الأفكار والنظريات والمفاهيم والمناهج في النتاج المعرفي الآتي إلينا من الغرب، لقراءة الواقعي عندنا، أي **قراءة الحاضر حاضريّاً**.

ولكن، كيف يقدم الرفاعي حبكة الفهم الخاصة به، والحاضرة في أبحاثه العلمية؟

يبرز اختلاف الرؤية عند المفكِّر: عبد الجبار الرفاعي، عن طريق تقديم حبكة فهم، بوصفها منظوراً نظرياً يوجِّه ممارساته العلمية.. كيف؟ ومن أجل ماذا؟

حضور العقل في التراث، وفي النتاج المعرفي الآتي إلينا من الغرب، و**ضرورة انفتاح العقل على الآتي إلينا من الغرب**، من أجل صياغة ماهية بنية الدين، بالاستناد إلى ماهية الإنسان بوصفه الموجود اللامتناهي الوجود، في عمقه اللانهائي.. وليس العكس: أي صياغة ماهية الإنسان بالاستناد إلى ماهية الدين.. هذه هي حبكة الفهم عند المفكِّر.

ويعني ذلك، أن الموجود هذا، في **«وجوده - هنا - والآن»**، إنما يوجد تواجداً داخليّاً قبل أن يوجد تواجداً خارجياً، هنا - والآن. ماذا يعني ذلك؟

← في الحقيقة، إن التركيز والاهتمام على العالَم الجوّاني للفاعل المجتمعي، **منظوراً إليه على أنَّه إنسان، وليس شيئاً**، و**"إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين"**، هما، هما وحدهما، **الدعوةُ إلى يقظةِ الإنسان في الإنسان،من جهة، وبعث القلق** دائم الحركة، في تلك **الإطارات المعرفية التي للدين وللتفكير فيه**، الخاصة والمحدَّدة والمحدِّدة، بواسطة التساؤل المستمر،**من جهة أخرى**.

← ومع هذه الدعوة، ومن شأن تلك اليقظة: أن تمارس الذات الفاعلة، مجتمعيّاً، وتَفَكُّريّاً (منظوراً إليه على أنه مخاطرة بالذات ذاتها)، **الانفتاح على التعدُّد** والتنوع والاختلاف في الدين، وفي النظر إليه.

← هكذا، لا يصح عند الرفاعي، القطع مع الدين، وإحلال أيديولوجيا أخرى محله، ولا يصح، أيضاً وأيضاً، إحاطة الدين بأغلال الغريزة الميثولوجية؛ فطالما لا يختزل الدين بالأيديولوجيا، وطالما ينفتح **«الدين ـ الفطرة»**، على **«الدين ـ الفكرة»**، على **«الدين ـ الزمان والمكان»**، يأخذ الدينيُّ ـ اللاعقليّ مكانَتَه لا في العقل، إنما في **انفتاح الدين على موجوديّة الكائن ـ الإنسان**، في ترك الإنسان يتجلّى في أحضان الدينيّ.. وفي هذا **«الانفتاح على...» يكون الإنسان يقظاً في الإنسان.**

[II] في التفلت من أسر الأيديولوجيا:

يدس اللادينيّ في الدينيّ، والدينيّ في اللادينيّ كذلك، **ثباتَ الرؤية والتفكُّر**، وبالتالي ينتجان جمود الفهم. كيف؟

← يظن ويتوهم الديني غير الواعي لذاته (الوعي الذي لا يعي ذاته)، أن الدينيّ يستمد معناه، ومبرره في الوجود من خارج الزمان: عودةً إلى الماضي (:الحاضر يعود إلى الماضي)؛ ويصبح بذلك **الدينيُّ الأيديولوجيَّ المنغلق على ذاته**.

← يظن ويتوهم اللادينيّ غير الواعي لذاته أن اللادينيّ هو الحل، وهو الخلاص، الذي يستمد معناه، ومبرره في الوجود، من خارج المكان، أي إن المكان، هنا، (بلداننا)، يعود إلى المكان هناك (الغرب)، ويدعو، على الدوام، إلى أن الحاضر يعود إلى الحاضر.. ولأنَّه لا يعي: أن كون الحاضرُ الواقعيِّ واقعاً، إنما يوجد في **انفتاح ماضي الواقعي على حاضره**، وليس العكس؛ يصبح **اللادينيّ الأيديولوجيَّ المنغلق على ذاته..** المتضمَّنَ، قبليّاً، في أيديولوجيا مؤسسة العلم العامة والعالمية.

ولكن، ما هي السبل المنهجية التي يقدمها الرفاعي في سبيل التفلت من الوجهين الأيديولوجيَّيْن هذين؟

← يحمل الرفاعي المفاهيم التي تم البناء عليها خارج الزمان (من التراث)، وخارج المكان (من الغرب)، على كاهله، وينزل بها إلى الواقعيِّ في المجتمعات العربية.. وما يقدمه هو الآتي:

الشرقي في الغربي، التراثي في الحداثي، الديني في اللاديني؛ ومع هذه، يقدم **ضرورة إعادة بناء المفاهيم** (من الخارج: زمانياً ومكانيّاً)، و**إعادة بناء المضامين النظرية داخل المفاهيم**، من أجل نحت تقاسيم **أدوات الفهم**. أي فهم؟ فهم **«الفاعل المجتمعي ـ في ـ ذاتيته»** في بلداننا، وفهم **«المجتمعيّ ـ في ـ الفاعل المجتمعي»**، وفهم **«الإنساني ـ في ـ الدينيّ ـ في ـ الفاعل المجتمعي»**.

وبناءاً عليه، ينتج العقل، بوصفه ملكة الفهم والإدراك، وعياً بما يحيطنا سوسيولوجيّاً.. مع وعيه، حسب العالَم المعرفي ـ الفكري الخاص بعبد الجبار الرفاعي، بأنَّ وجهاً من أوجه التعرف إلى الدين، والتعريف به، ومعرفته، يتفلت من وعيه، **من جهة**، ويتفلت من العقلنة، **من جهة أخرى**.

[III] الفكرة المصاغة قبلياً بوصفها أيديولوجيا:

← ماذا يتضمن الواقعيّ، من معانٍ، في الحقيقة؟ إنه يتضمن معنى **التاريخي الذي هو الآن**.

ماذا يعني تحديد الواقعي على أنه هكذا أو هكذا؟ يعني **قراءة معينة للتاريخيّ والاستناد إليه في تحديد الواقعي**.. مع جدارة الواقعيّ **الآن ـ هناك**.

وإذا ذهبنا أبعد من ذلك، وتساءلنا: مَن يقول أن التاريخي هو هكذا أو هكذا؟ نجيب أن **القول هو الذي يقول**؛ وأن **العقل** هو، من جهة أخرى، **يقولُ قولَ القولِ**.

إن تناول العقل على أنَّه **«قولٌ في...»** أو **«قولٌ يُستند إليه في قولٍ في...»** يضع ماهية الدين في موقع المساءلة والتساؤل.

ولأن التساؤل، في ماهيته، هو المسؤول الأساسي في بعث الحركة داخل ماهية بنية **«الموضوع ـ الآن ـ هنا»**، فلا تنفكُّ التساؤلات، بوصفها مُخاطَرات، من الحضور، في أبحاث الرفاعي.

← ومع هذه التساؤلات، **الـ«لَيْسَت» قائمة على إجابات مُبَستَرة**، يقدم الرفاعي معنىً لحضور التاريخيِّ في الواقعيِّ على الوجه الآتي:

← إنَّ الدينَ مُتضمَّنٌ في التفصيلات الواقعية المحسوسة في بلداننا.. وإنكار ذلك هو شكل آخر من تأييده.. وفلسفة الدين، والبحث والدراسة في **«الدين ـ الموضوع»**، تقدم معنى الحركة إلى **جمود الفهم الذي أصاب الدين**، عندنا، بفضل الغالبية الساحقة من الأبحاث في الدين.

← ولمجرَّد أن يكون **«الدين ـ في ـ الواقعيّ»**، ولمجرَّد أن يكون الواقعيّ هو **«التاريخي ـ الذي ـ هو ـ الآن»**، ولمجرَّد أن يكون التاريخيُّ هو القوْل، فلابُدَّ لحضور العقل في **«الدين ـ كموضوع»** أن يقول فهمَهُ بالقولِ بالاستناد إلى العَقْلَنة التي **تنتج ذاتها بذاتها**.

في الحقيقة، إن التعامل مع الدين، **من حيث هو هذا الذي هو**، أي الدين منظوراً إليه على أنه **لوحةٌ فكريَّةٌ تنتج الوعي**، وقد اكتمل العمل عليها، هو الذي، حسب العالَم المعرفي- الفكري للرفاعي، ينتج جمود الفهم، وبالتالي **موت الدين بالدين لدين آخر**.

[IV] عن أن نكون في الدين:

... وكما الأمر، بالنسبة للشمس، وكما يعلم الجميع، مع كوبرنيكوس: أنها لا تشرق ولا تغرب إطلاقاً، **إنما نحن (الأرضيون) الذين نوجد في بزوغها، ونوجد في غروبها**؛ كذلك يضعنا الرفاعي بمنطقه ومنحاه في رؤية الدينيّ أمام حقل تفكير جديد، أمام:

كيف **نوجد** نحن في الدين؟ وكيف **نكون** نحن فيه لنعيه؟ وكيف **نكون** نحن فيه لنمارس التفكير فيه؟

وليس يعني ذلك: كيف يوجد الدين فينا؟ وكيف يمارس القهرَ والإرغام والإكراه والجَبْر علينا. ❖

هاجس الرفاعي الأول
إشاعة العلم والمعرفة

✍ عبد الأمير المؤمن[1]

خلق الله - تعالى - العلم مع الإنسان في كل مكان ليستطيع البقاء في الحياة، ولتكون حياته ممكنة. وتطوّر (من العلم بالشيء) إلى (العلم المنظم). وزاد من قدرته (أي الإنسان) على صنع الحياة والحضارة والتقدم.

فكانت هناك حضارات ومدنيّات. عرفنا منها حضارات شهيرة. ومهمة ساهمت في صنع التاريخ البشري.

لكن هذه الحضارات أو بعضها على الأقل ضيّق على العلم والمعرفة فاحتكره الكهنة والمهتمون بالشؤون الدينية والعبادية في معابدهم المنتشرة في كل مكان، وحجبوه عن عامة الناس باعتباره من مختصات طبقة أعلى من طبقة عامة الناس.

وغير ما جاءت به الحضارات القديمة أو بعضها كان الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية، كان العلم في الإسلام ظاهرة حياتية إنسانية عامة. ظاهرة مباحة لكل من يطلبه، بل ومن لم يطلبه فهو فريضة على كل مسلم ومسلمة، وزكاة العلم نشره، وبذلك انتشر العلم والمعرفة في طول العالم وعرضه، انتشر من خلال تعاليم الدين وروح القرآن الكريم، وهي ميزة متقدمة من ميّزات الإسلام الكثيرة، أقرَّتها الحضارة المعاصرة.

لكن ليس من امتلك علماً ومعرفة - مسلماً أو غير مسلم - أشاع علمه ونشره أو روج له في المجتمع. فهناك من أهل العلم والمعرفة من ظنَّ أن العلم للخاصة فقط دون سائر الناس، فضنَّ به وأخفاه في صدره، وهناك من امتلك علماً ومعرفة وقطّره على غيره تقطيراً، وفي المقابل هناك من أدرك قيمة العلم وهدفه في الحياة والمجتمع ودوره الكبير في نمو المجتمع وتطور الحضارة، فأشاعه وسعى إلى نشره بين فئات المجتمع المختلفة، مدركاً أثره في نضوج المجتمعات وتطورها إلى الأفضل.

وما أحوجنا اليوم إلى هذا الصنف الأخير من أهل العلم والمشتغلين به. ما أحوجنا اليوم إلى تطبيق الفكرة الإسلامية القائلة: زكاة العلم نشره، لنكون مجتمعاً إسلامياً

(١) باحث عراقي في التراث العلمي.

علمياً ثقافياً حقيقياً كما أراده القرآن الكريم والرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة والسلام، مجتمعاً يعي ما يقول ويعي ما يفعل ويدرك ما يحيط به من ملابسات الحياة والكون والوجود.

ومن يعرف أخي العزيز الأستاذ الدكتور عبدالجبار الرفاعي عن قرب يدرك على الفور إيمانه الراسخ بفكرة زكاة العلم نشره، نظرياً وعملياً.

ففكرة نشر العلم والمعرفة وإشاعة الثقافة في المجتمع هي في الحقيقة مزاج أصيل في حياة الأستاذ الرفاعي وواقعه اليومي والحياتي عموماً، كما هو واضح لمن يطلع على حياة الدكتور وسلوكه ونهجه في الحياة.

لقد أدركت هذه الظاهرة أو الحالة أو هذه القيمة العلمية والثقافية (الرفاعية) من خلال علاقتي العلمية والثقافية والعامة على امتداد سنين عديدة (منذ هجرتنا إلى خارج الوطن). وللتاريخ أقول: وجدته علماً وثقافة وجدّاً، كل لحظاته مادة علمية وفكرية وثقافية يفيضها فيضاً لا صناعة، ويسعى إلى إيصالها إلى أي شخص ممكن وبشكل انسيابي دون أي تكلف أو صناعة.

وللحقيقة أقول: الأستاذ الرفاعي رجل متخصص بالفلسفة والفكر والدين لكنه في الوقت نفسه كاتب وباحث موسوعي بكل ما تحمل هذه المعاني من دقة، وبشكل لافت للنظر.

ويزيد على هذا التخصص والموسوعية ـ التي يشترك معه آخرون ـ القدرة على إيصال تخصصه أو بعض تخصصه ومعلوماته الموسوعية إلى مستمعيه (طبعاً من معلوماته التي يمكن إيصالها إلى الآخرين) بشكل واضح وسلس ورشيق.

وبذلك تتوافر للسامع أو المتلقي مادة علمية وفكرية وموسوعية دسمة واضحة سهلة متاحة، يرتاح لها السامع ويتشوق لأمثالها من الأفكار والمعلومات...

وبذلك أيضاً يزرع في نفوس مستمعيه ومتلقيه حب العلم والمعرفة، بل جمال العلم والمعرفة، لا مجرد العلم والمعرفة.

لم أتحدث عن هذه الظاهرة (الرفاعية) انسياقاً مع الذين اثنوا عليه وأشادوا به، وإنما أدركت ذلك من خلال تجربة علمية ثقافية عشتها معه منذ سنين طويلة، فقد تشاركنا أو التقينا في العلم والثقافة في عدد من المشاريع العلمية والثقافية والفكرية.

وقد وجدته مهتماً شديد الاهتمام بالثقافة العلمية الموسوعية، متواضعاً فيها يأخذها من أي مرجع كان من عالم أو غير عالم، ما دامت المعلومة صحيحة ونافعة.

ولذلك كانت حصيلته العلمية والثقافية كبيرة وظاهرة واضحة في حياته العلمية والفكرية العامة.

وإذا اشترك آخرون في هذه العلمية الإنسانية - أي الموسوعية الثقافية وحب العلم - فميّزه الرفاعي المتفردة هي أن ما في داخله من مادة علمية وفكرية وثقافية تفيض منه فيضاً تلقائياً دون جهد أو أي اصطناع، ودون انطلاق من أعلى إلى أسفل، ودون طلب مكاسب اجتماعية (جاهية).

فعندما يتحدث عن مادة فكرية أو فلسفية - وهي تخصصه الرئيسي - كثيراً ما أتلقاها مادة ثقافية تزيدني علماً وثقافة وحباً لتلك المادة، وعندما يتحدث عن مادة علمية معرفية يكون حذراً في تعامله معها. وكان مستمعاً جيداً، ومتواضعاً لأخذ المزيد منها.

وعندما أهديت له كتابي الفلكي التخصصي (قاموس دار العلم الفلكي) الذي نشرته دار العلم للملايين) قال بالحرف الواحد: سهرت على قراءة كتابك بشوق شديد، وأخذ يسألني ويناقش بعض مواده وأفكاره نقاش القارئ الموسوعي المثقف، وكنت كثيراً ما أسمع منه مادة فلكيه تخصصية دقيقة.

وفي حديث دار بيننا في يوم ما تطرقنا فيه إلى فكرة (النانو) الحديثة والنانو كما يقول د. محمد شريف الاسكندراني المتخصص بالنانو: هو: "تغيير خواص أي مادة وتعظيم سماتها وذلك عن طريق إعادة تركيب ذراتها بالشكل الذي تتأتى معه الحصول على تلك الخواص المتميزة والمختلفة تماماً عن سماتها الأصلية قبل إعادة تشكيلها". مجلة العربي/ عدد ٦٠٧/ سنة ٢٠٠٩.

وفكرة النانو حديثة جداً وقمة في التطور، وإذا بالأستاذ الرفاعي على اطلاع بثقافة النانو، حيث راح يتحدث عن هذا الحدث العلمي المثير بشوق كبير، قارئاً ما يتعلق به وما يدور حوله، وما يمكن أن يلعب دوراً في المستقبل، موضحاً ما يمكن توضيحه، مما يدل على أن الرجل متابعاً لتطورات العصر الحديث، وهكذا في الموضوعات الممكنة الأخرى.

إن ما ذكرته آنفاً هي ملاحظات لاحظتها من خلال صحبتي الطويلة مع الأستاذ الدكتور الرفاعي، أو هي تجربة عشتها معه، وهي في الحقيقة ظاهرة غنية لابد أن تنتشر وتسود لنعيش الحياة الثقافية والعلمية، ونمارسها في حياتنا ممارسة فعلية لتكون نموذجاً تجري معنا، تثري الحياة وتطورها وتجعلها ممكنة في ظل التقدم العلمي والتكنولوجي المتطور في العصر الحديث. ❖

أول موسوعة ببليوغرافية شاملة لمراجع البحث في السيرة الشريفة

معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت

✍ د. عبد الجبار شرارة[١]

صدر على مدى السنتين الأخيرتين عن وزارة الإرشاد للجمهورية الإسلامية الإيرانية الكتاب الموسوم بـ "معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت - عليهم السلام - " لمؤلفه الدكتور عبد الجبار الرفاعي. والكتاب يقع في اثني عشر مجلداً، وكل مجلد تتجاوز صفحاته الأربعمائة صفحة، وهو - كما في عنوانه وواقعه - يتضمن بيانات كافية عن كلّ ما كتب عن سيرة الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرة أهل بيته الطاهرين - عليهم السلام -، سواء صدر مستقلاً في كتاب أو كراس، أو نشر كبحث أو مقال في إحدى الدوريات المختلفة، وسواء كان باللغة العربية أم بغيرها من اللغات الأخرى.

ويحسن بنا أن نعرض مقدمة نسلط الضوء فيها على أهمية طرح مثل هذا الموضوع الحيوي "السيرة النبوية المطهرة"، وواقع الدراسات المنشورة، وثمرة جدوى هذا العمل المبارك الذي قام به المؤلف.

فنقول: إنّ سيرة نبينا الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرة أهل بيته - عليهم السلام - منابع ثرة للفكر الإسلامي الأصيل، وهي تنطوي على مناهج راقية، ومبادئ سامية، ودروس بليغة، فيستطيع المسلم أن يجد عندها البلسم الشافي لكل داء، ويتلمس فيها معاني الخير والصلاح والإصلاح، فسيرة نبينا العظيم وأهل بيته الكرام مصابيح هدى، وسفن نجاة.

لقد استوعبت تلك السيرة المطهرة الحياة بكل أبعادها، والآفاق الإنسانية بكل مراميها، وما استطاعت الأمة المسلمة أن تبني مجدها الزاهر، ولا أن تشيد بنيانها الشامخ إلاّ عندما استهدت بتلك الأنوار، وترسمت خطاهم، ونهجت سبلهم فكان ذلك العطاء المتدفق، وكانت تلك الحضارة الفذة.

إنّ تلك السيرة العطرة ما تزال أمامنا مشروعاً حضارياً ينتظر محاولة الاستكشاف، وما تزال تنبض بالحيوية، ويمكن الإفادة منها إفادة جدية في أية عملية استئناف حضاري أو مشروع نهضوي.

---

(١) أستاذ في كلية القانون في جامعة البصرة سابقاً، توفي سنة ٢٠٠٥ في سدني بأستراليا. مراجعة كتاب: معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت - عليهم السلام. تأليف: د. عبد الجبار الرفاعي. طهران: وزارة الإرشاد الإسلامي، ١٩٩٢ - ١٩٩٤، ١٢ مجلد.

إنّ مما يؤسف له حقاً أننا وقفنا أمام هذه الثروة الزاخرة والمقالع الغنية موقف الإهمال، إذ لم تحظَ تلك السيرة المطهرة من قبل جميع المسلمين بالعناية والاهتمام البالغين، فلم ننزلها المنزل المبارك الذي تستحقه، ولم نجعلها محوراً لدراساتنا وأبحاثنا، ولم تظفر ندوة عالمية، أو موسم ثقافي مرموق بمعطيات هذا الفكر الثر بخزائن المعرفة المختلفة، ولم نعثر في الأطروحات الجامعية والدراسات الحوزوية من أعطاها الاهتمام المطلوب.

ولعل من المفيد هنا أن نتساءل عن أسباب مثل هذا الإهمال والعزوف، وعن انصراف أكثر الباحثين عن ارتياد آفاقها؟ اللهم إلاّ ما اقتصر على هوامشها أو بعض الجوانب التي لا تمس بحياتنا الفكرية، وإشكاليات الحياة الاجتماعية ذات الصلة بواقعنا، وبطبيعة الصراع الذي نخوضه. ولو عدنا نتساءل عن أسباب ذلك لوجدنا في جملتها. عدم توفر كشف موضوعي، وفهرست حديث يضع بين يدي الباحثين مظان الدراسة ومصادرها!

ومن هنا كان إدراك الأستاذ المصنف لهذه الحقيقة دافعاً قوياً في تصديه لهذه المهمة الجليلة، وما تتطلبه من جهود مضنية وإنفاق كثير من الوقت والمال، فشمر عن ساعد الجد، وواصل الليل بالنهار، وركب الأسفار حتّى أتحف المكتبة الإسلامية بهذا السفر النادر والأثر النفيس، وكان الفضل في نشره إلى وزارة الإرشاد في الجمهورية الإسلامية.

إنّ تأليف معجم ما كتب عن الرسول وأهل بيته ـ صلوات اللّه عليهم أجمعين ـ عمل رائع يستحق الإجلال والتقدير. وإذا كانت الإشادة بذكره وبفضله أمراً يقتضيه العرفان والإكبار لمثل هذه الأعمال المهمة والجليلة، فإن من لوازم ذلك عرضه وبيان أهميته بالكشف عما احتواه وانطوى عليه من قيمة علمية، وتعريف الباحثين والدارسين به؛ ليكون داعياً لهم للكتابة والبحث، بعد أن وفر المؤلف مصادر ومراجع لمثل هذه الدراسات، فقطع العذر على المعتذرين.

ولعل من المناسب هنا الإشارة إلى أن الاهتمام بالسيرة النبوية المطهرة قد بدأ منذ وقت مبكر في عصر الرسول الأعظم ـ صلى اللّه عليه وآله وسلم ـ، وبعد وفاته، وكان ذلك على أيدي بعض الصحابة وأوائل التابعين رضي اللّه عنهم[1]. ثم استمر تدوين السيرة وكتابة التواريخ، إلاّ أن ما يمكن تسجيله: أن الكتابة والبحث في السيرة لم تسلم من النواقص، ولمن تنج من النظرات الضيقة، والأهواء المضمرة، فأخفيت حقائق، وأضيفت أباطيل، فضلاً عن النواقص الفنية الناتجة عن عدم الوصول إلى المصادر الكافية[2].

---

(١) راجع كشف الظنون ٢: ١٠١٢.

(٢) مقدمة الناشر ١: ١٢.

لقد نبه المؤلف في مقدمة مؤلفه إلى جملة أمور مهمة وخطيرة:

منها: صورة الإهمال المفجع لسيرة الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم -، وسيرة أهل البيت - عليهم السلام -، وعدم تسليط الأضواء على حياتهم الحافلة بالعطاء.

ثم في التفاتة بارعة يضعنا المؤلف أمام حقيقة أخرى، وهي: أن هناك سيلاً متدفقاً من الكتابات والأطروحات والرسائل الجامعية في مختلف صنوف المعرفة، وجوانب التاريخ الإسلامي، وبالأخص تاريخ الفرق والمذاهب الضالة والمنحرفة، وتاريخ أهل الأهواء والنحل، ومع ذلك فإننا لا نجد أطروحة واحدة تكتب عن أهل البيت - عليهم السلام - لتبيين مساهماتهم الجادة في حفظ بيضة الإسلام، وكرامة المسلمين، وحماية وحدتهم.

وتنشيط حياتهم الثقافية والفكرية بما أسهم في الوقوف بصلابة في وجه التيارات الهدامة والإلحادية.

ومما نبه عليه المؤلف أيضاً: دور كبار المستشرقين في توجيه اهتمامات طلابهم من المسلمين العرب وغيرهم إلى ما هو هامشي أو غير نافع، وتسليط الأضواء عليه.

وإذن، إزاء ذلك كله تتعاظم الحاجة إلى ضرورة العودة إلى التراث الزاخر من سيرة الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله - وسيرة أهل بيته الكرام وصحابته النجباء؛ لتلمس أسس وشروط النهضة الجيدة، على أن ذلك لا يتأتى بدون البحث العلمي الجاد، والدراسات العلمية الرصينة.

وهنا يقول الأستاذ الرفاعي: (ومن البديهي أن البحث العلمي يتوقف على مصادره ووثائقه ومعلوماته الأساسية لذا تتقدم البحث - عادة في أي حقل - عملية أعداد مراجعة ومصادره، وما أكثر ما تخلى باحثون عن أعمال هامة؛ لعدم تعرفهم على المصادر والمظان)[1].

إنّ علماء المسلمين قد استوعبوا هذه الحقيقة إبان الازدهار الحضاري، فولدت في أوساطهم الفهرستات، بدءاً من فهرست ابن النديم إلى فهرست الشيخ الطوسي، إلى غيرهما، ثم تواصل آخرون من العلماء مع تلك النهضة فصنف كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة، وموسوعة كتاب الذريعة للشيخ "أغا بزرك" الطهراني وإذا كان الحاجة اليوم أصبحت متعاظمة أكثر فأكثر إلى بنوك المعلومات، وظهرت عشرات "البيليوغرافيات" في مختلف الموضوعات إلاّ أن مصادر الدراسة عن الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - وأهل بيته الأطهار - عليهم السلام - لم تلق عناية التوثيق والإخراج.

---

(١) مقدمة الناشر ١: ١٢.

إنّ الأستاذ المؤلف إذ يقدم عمله الكبير لسد هذا النقص في المكتبة الإسلامية والعربية فانه لا ينسى ذكر من سبقه إلى مثله، ولكنه يؤشر في عين الوقت ـ وهو أمر نلاحظه ـ إلى اقتصار مثل تلك الأعمال على جانب من الجوانب فيذكر في هذا الصدد أعمال بعض المستشرقين مثل: "فيكتور شوفان" أستاذ الدراسات الشرقية، إذ خص المجلد الحادي عشر من كتابه "بيليو غرافيا" الكتب العربية ـ المطبوع: في أوروبا والصادر في سنة (١٩٠٩ م) ـ بالسيرة.

ثم نوه الأستاذ الرفاعي إلى ما نشره يحيى محمود الساعاتي وجعفر إبراهيم في مجلة عالم الكتب[١].

وأشاد بما قدمه الدكتور صلاح الدين المنجد في هذا المجال[٢]. إلاّ أنّه لاحظ عليه: كون العناوين التي جمعها لم تتجاوز (٢٥٠٠) عنوان.

ثم نوه أيضاً إلى ما نشره العلامة السيد عبد العزيز الطباطبائي في مجلة "تراثنا" التي تصدرها مؤسسة آل البيت. وقد اقتصر العلامة هنا على ما كتب عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ.

إنّ "معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت" عليهم السلام يمتاز عن غيره ليس في سعة حجمه وكثرة عناوينه التي قاربت الثلاثين ألف عنوان فحسب، وإنما له امتيازات أخرى مهمة، فهو لم يقتصر على الكتب والدراسات المستقلة التي كتبت عن الرسول الأعظم ـ صلى الله عليه وآله ـ أو أهل البيت ـ عليهم السلام ـ، بل اعتنى أيضاً بتوثيق ما نشر في المؤتمرات والندوات العلمية، وما نشر في الدوريات كذلك من كلّ ما كتب عن سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ وعصره، ومعجزاته وقد أفرد كتب السنة الشريفة بعمل مستقل جعله ملحقاً في خاتمة المعجم، وخص المجلد الأخير منه بكشاف للعناوين والمؤلفين.

لقد اعترف الباحث الأستاذ الرفاعي بأنه ربما فاتته بعض المصادر، وذلك طبيعي إذا عرفنا أنّه جهد لملاحقة ما كتب ليس باللغة العربية فحسب، بل باللغة الفارسية، والتركية، والكردية، والإنجليزية، والألمانية، والفرنسية. كما اعتذر عن اقتصاره على تقديم البيانات الأساسية عن كلّ مصدر ـ وهو واف بالغرض ـ بسبب اضطراره إلى الاعتماد على المراجع التي ذكرت تلك المصادر بحكم عدم القدرة على الاطلاع على كلّ ما كتب بصورة مباشرة، إذ هو متعذر بالضرورة.

---

(١) وهي مجلة تصدر في الرياض، وما نوه عنه مؤلفنا هو المنشور في العدد الثالث من المجلد الأول للمجلة الصادر في سنة (١٤٠١ هـ).

(٢) وهو كتاب "معجم ما ألف عن الرسول (ص)" الصادر في سنة (١٤٠٢ هـ).

منهج المؤلف في تأليفه المعجم:

اتبع المؤلف منهجاً حديثاً في إعداد معجمه الكبير وإخراجه بهذا الشكل الذي يسر فيه على الباحثين، واختزل عليهم المعاناة، ويتخلص منهجه كالآتي:

أولاً: قسم المعجم إلى ستة عشر قسماً، تناول في القسم الأول منه السيرة النبوية الشريفة، وعرض في القسم الثاني لما كتب عن فاطمة الزهراء عليها السلام، ثم تناول في القسم الثالث ما كتب عن الإمام علي (ع) وفي القسم الرابع ما كتب عن الإمام الحسن (ع)، وفي القسم الخامس ما كتب عن الإمام الحسين (ع) ثم عرض في بقية الأقسام إلى ما كتب عن الأئمة من أبناء الحسين ـ عليهم السلام ـ فخص القسم السادس بما كتب عن الإمام علي بن الحسين (ع)، وتناول في القسم السابع ما كتب عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليهما السلام، ثم عرض في القسم الثامن ما كتب عن الإمام جعفر الصادق (ع) وتناول في القسم التاسع ما كتب عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، وعرض في القسم العاشر ما كتب عن الإمام علي بن موسى الرضا (ع)، وتناول في القسم الحادي عشر ما كتب عن الإمام محمّد بن علي الجواد عليهما السلام، وعرض في القسم الثاني عشر ما كتب عن الإمام علي بن محمّد الهادي عليهما السلام، وتناول في القسم الثالث عشر ما كتب عن الإمام الحسن بن علي العسكري عليهما السلام، وأخيراً تناول في القسم الرابع عشر ما كتب عن الإمام محمّد بن الحسن المهدي عليهما السلام، أما القسم الخامس عشر فقد خصه في ما كتب عن أهل البيت، أي عن أكثر من واحد، وعن جميعهم وفي القسم السادس عشر والأخير عرض ما كتب عن السنة الشريفة.

ثانياً: اعتمد في المداخل على عناوين الكتب والبحوث والمقالات، ورتبها المصنف في كلّ أقسام المعجم تبعاً للترتيب الهجائي المتداول، واعتبر الوحدة في الترتيب هي الكلمة، أي: على أساس كلمة كلمة، ثم حرف حرف، مع ملاحظة حذف "آل" التعريف. وقد اعتمد في ترتيب العناوين على نوع الحرف المكتوب به عنوان الكتاب أو البحث، فما كتب من بيانات وعناوين بالحروف العربية: كاللغة العربية، والفارسية، والكردية، والأوردية، والتركية قبل استعمال الحرف اللاتيني، والكجراتية، وهذه كلها رتبها وفقاً للأبجدية العربية مستقلة، فيما رتب ما كتب من عناوين بالحروف اللاتينية ـ كالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية ـ وغيرها في قسم آخر تبعاً للنظام الأبجدية.

ثالثاً: ترتيب وكتابة البيانات:

أ ـ الكتب: ذكر كلّ كتاب إذا ما توفرت كافة البيانات المتعلقة به، فذكر الرقم المتسلسل، ثم عنوان الكتاب، ثم لغة الكتاب إنّ لم يكن باللغة العربية ثم اسم المؤلف، ثم

ذكر المخطوطات إنّ وجدت، مع ذكر اسم المكتبة الموجودة فيها، ورقم المخطوطة، وعدد الأوراق ثم أورد الطبعات، وذكر مكان الطبع والناشر، والطبعة، والتاريخ، وعدد الصفحات، وعدد الأجزاء والمجلدات، والسلسلة التي صدر ضمنها كما أورد أيضاً المراجعات التي تمت في الدوريات حول الكتاب المنشور، وأورد أيضاً المراجع التي ورد فيها ذكر الكتاب.

وهنا ثبت الأستاذ الرفاعي ملاحظة في هذا الصدد، وهي أنّه استخدم العنوان المتداول الغالب عند تعدد العناوين.

ب ـ الأطروحات: وقد رتبها هجائياً ضمن الكتب، مع إيضاح المعلومات الخاصة بها فذكر الرقم المتسلسل، والعنوان، واسم المؤلف "الباحث "، والمكان، والجامعة أو الكلية التي نوقشت فيها الأطروحة، وتاريخ المناقشة، وعدد الصفحات، والدرجة العلمية الممنوحة، هذا في حالة عدم كون الأطروحة منشورة، أي: مطبوعة على الآلة الكاتبة مثلاً، أما إذا كانت منشورة فإنها تكون مدرجة تحت الكتاب.

ج ـ المقالات: لقد عمل استقراءً للأبحاث والمقالات المنشورة في الدوريات الشهرية والفصلية، والنصف سنوية، والحولية، فيما استثنيت المقالات المنشورة في الصحف والمجلات الأسبوعية؛ لأنها ـ كما يرى الباحث ـ لم تكتسب سمة البحث العلمي، ومع ذلك فقد استثنى الباحث بعض المجلات: كمجلة الرسالة الصادرة في القاهرة؛ لأنها كانت منبراً لكتاب وعلماء فضلاء ومعروفين هذا وقد أدرج المقالات هجائياً ضمن التسلسل العام، مع ذكر البيانات الكاملة الضرورية عنها.

بهذا المنهج الرصين استوفى الأستاذ المؤلف مادة بحثه، وعلى مدى، وسعة اثني عشر مجلداً، خص المجلد الثاني عشر منها بعمل كشافين: أحدهما: بأسماء المؤلفين، والآخر: بالعناوين، تسهيلاً على الباحثين وتيسيراً لهم.

د ـ منابع المعلومات: تحدث الباحث أخيراً عن المصادر والمراجع والمظان التي استقى منها مادة معجمه، وهي على ما ذكره نوعان:

أحدهما: ما اطلع عليه بصورة مباشرة في المكتبات الخاصة والعامة.

وثانيهما: ما اطلع عليه بصورة غير مباشرة؛ وذلك من خلال قوائم الناشرين، وفهارس المخطوطات، وفهارس الدوريات، ثم القوائم التي أصدرتها المكتبات، وما كان يضاف إليها كما في إضافات مكتبة الكونغرس الأمريكي هذا بالإضافة إلى معاجم المطبوعات، وكتب الطبقات والتراجم، والمعاجم الببليوغرافية التي وثقت المخطوطات والتراث الإسلامي قديماً وحديثاً، وقد أدرجها المؤلف جميعها في لائحة المراجع التي صدر بها المجلد الأول من معجمه الكبير. ❖

مساري مع الرفاعي

✍ إسراء الفاس(١)

يتخذ الإنسان من المسار مجازاً للتعبير عن الطرق التي يسلكها عبر عقله أو قلبه أو حتى حواسه.. والمعرفة في مجملها هي محصلة هذه المسارات.

وفي اختلاف هذه المسارات يكمن تفرد الإنسان وإبداعه، لا يسير الإنسان برجليه فقط ولا بعقله فقط ولا بقلبه فقط.. يسير أحياناً برجله إلى المكان الذي يختلف فيه عقله ويسير أحياناً بقلبه إلى المكان الذي لا يقتنع به عقله. فكثير من الأرجل ذهبت إلى الحوزات، ليختلف فيما بعد عقلها مع مسارات أقدامها. وكثيرون مضت بهم العقول إلى معاقل قالت بـ"موت الله" ليرجعوا في مسارات تقودهم فيها قلوبهم إلى حيث الله.

في سيرة الرفاعي وجدت هذا الاختلاف الجميل في المسارات، حيث مسار عقله لم يتطابق مع مسار القلب، مسار الشيخ الذي لم يتطابق مع مسار الدكتور. ومسار أستاذ الحوزة الذي لم يتطابق مع مسار أستاذ علم الكلام الجديد. الرفاعي وهو يسترجع مساراته غير المتطابقة، يقدم شهادة غنية في العدد ٥٣ ـ ٥٤ من مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" خلاصتها " مسار القلب لدي لا يتطابق مع مسار العقل" إن استفهامات عقله المتواصلة لم تزعزع إيمانه الذي توطن في قلبه، والذي وصفه بأنه لا يُدرك! هناك مسارات عايشتها إلا أنني لم أفلح كما الرفاعي في تصوير تعايشها. والتعبير عنها بهذا الوضوح.

في اللقاء الأول الذي جمعني بالرفاعي ـ عبر صديقتي رحيل أوائل هذا العام ـ تعلمت منه أولى دروس "النزعة الإنسانية في الدين"، التي تتلخص فيه بؤرة اهتماماته حالياً. أذكر أن (الرفاعي) أصغى إلينا باهتمام بالغ، يكاد لا نتلمسه في مجالس قد تجمعنا بأساتذة حوزات مبتدئين. كان ينصت إلى انتقاداتنا لبعض الظواهر الدينية، التي تقدسها مجتمعاتنا الدينية لتسقط عنها النقد وتحيطها بهالة من القداسة، ثم أدلى برأي رسم لي مساراً جديداً في حياتي، ولا أبالغ إن قلت إن كلامه شكل منعطفاً (مساراً) في منهجية تقديري للأمور.

حدثنا الدكتور عبدالجبار الرفاعي عن طقوس كانت تقدسها والدته كما البيئة المحيطة، ويحيلها إلى النقد الذي أسقط كل هالة القداسة عند الرفاعي، وهو نفسه لم يكن ليقتنع بها. يقول الرفاعي إنه لم ينتقدها يوماً أمام والدته، لا خشية من رد الفعل بل حرصاً على عدم خدش ضميرها الديني أو جرحه. استوقفني كلامه مطولاً. هل فكرت يوماً في أسلوب نقدي للموروث الديني؟

ما دار في هذه الجلسة لم يفارقني بعدها، فبت أستحضره في كل نقدٍ أبادر له لأي فكرة أو ممارسة.. أدركت أن المشكلة لا تكمن في النقد بل في أسلوبه ومدى فعاليته، مسار جديد رسمته إلي كلمات الرفاعي.. لأن ما هو أهم من النقد والفكرة، النزعة الإنسانية الكامنة في ممارساتنا وكلامنا.❖

---

(١) إعلامية لبنانية.

لـقــاء متـأخـــر بـالـرفاعـي

✍ محمد غازي الأخرس[(١)]

غالباً ما ينتابني شعورٌ مريرٌ من إنني سيءُ الحظّ، لاسيما حين يتعلق الأمر بالتعرّف إلى شخصياتٍ غيرِ عابرة، وذاتَ أثرٍ في عالمنا الثقافي. اليوم، وأنا أفكّر بكتابة شيء متواضع عن الدكتور عبد الجبار الرفاعي، عاودني الشعور نفسه وقلت لنفسي: يا له من لقاء متأخر إذن!

فما عساي أقولُ وأنا ما زلت في طور اكتشافه المتواصل، دائم القراءة لآثاره، ومستمرٌ في تلقي إشعاعاته والتماعاته.

هكذا جرى الأمر؛ أسمعُ به بعدَ سقوطِ النظام السابق، وأطلع على بعض آثاره بشكل عابر، فتثيرني طروحاته وتشوّقني لمعرفته عن قرب أكثر مما تفعله الكتابة بمتلقيها. ثمّ يحدث أن تجمعني المقادير بالكاتب سرمد الطائي، صديقي ورفيقي في أكثر من مكان عمل، فيحدثني عنه طويلا، لأستشف أنّ الرجل أشبه ما يكون بعرّابٍ لجيلٍ من المثقفين نشأ في إيران أعوام التسعينيات، وأنه من نمط الشخصيات المهجوسة بالتغيير رغم انحداره الديني وتخصصه في الفكر الإسلامي.

وهنا قلت لنفسي ـ لعله شيخٌ بلباس مدنيٍّ عرفنا أنموذجه بعد عام ٢٠٠٣، بل ربما كان من أولئك الذين نسمع بهم ونعجب بطروحاتهم، ثم ما أن نلتقيهم حتى نحبط من بقائهم في سجون العقائد، ولكن ببناطيل أنيقة وربطات عنق مخالفة لنمط الزي الذي اعتدناه في جيراننا المحيّرين.

وفي الأخير، قبل أكثر من سنتين، يحدث أن ألتقي به مصادفةً في مقرِّ جريدة (العالم) وأشرب معه القهوة مع أحاديث أسرع من هبوب ريح الصيف، فإذا بي أمام شخصية مختلفة تماماً عما توقعته؛ هادئ كأنه يجلس في بطن العاصفة فلا يتأثّر بها، ولا ينفعل برياحها، ومنسجمٌ مع ذاتِهِ وأفكارِهِ، حتى ليخيّل للمرء أنهُ قادمٌ من تخومٍ بعيدة البعد كلّه عن أجواء النجف التي درس فيها أثناء شبابه، أو (قم) حيث نضج واكتملت أفكاره.

---

(١) كاتب وناقد عراقي.

كان لقاءٌ مثير أصغيت خلاله لشخصية ميّالة لبثّ الأفكار بمحبة وتسامح، وليس لإطلاقها كالرصاص في وجوه مخالفيها. وهذا ما حتّم عليّ العودة لما كنت قد قرأته له واطلعت عليه من دراساته وكتبه بشكلٍ متعجل، ثم توقفت ملياً أمام مشروعه الرائد في (قضايا إسلامية معاصرة)، المجلة الإشكالية ذات الطابع الحداثوي الذي يذكّرك فورا بما جرى ويجري في إيران على أيدي مفكريها العظام من أمثال داريوش شايغان ومحمد مجتهد شبستري ومصطفى ملكيان وعلي شريعتي.

وأنا أعود لآثار عبد الجبار الرفاعي، كنت أهمس لنفسي ـ هذا شخص ليس عابرا وقراءة آثارِهِ العلمية والعملية يجب ألا تكون عابرة أيضاً. فكان ما كان إذ توصلت لنتيجة مفادها أن الباحث الذي رعى مشروع (قضايا إسلامية معاصرة) وانفتح على الحداثة في الفكر الغربي بكلٍّ تلك السعة والعمق، إنما هو عرّاب بالفعل وبالمجاز، ولا أدلَّ على ذلك من خروج جيل من الشبّان، صخب منذ سنوات في عالمنا العراقي، وبدأ يطرح نتاجه هنا وهناك، من تحت يديه. إذ كلّهم تنفسوا شهقات الحداثة الأولى في قلب مدينة (قم) في صالونه، وتعرفوا إلى الحداثة بمساعدة طيّبة منه، وأبرزهم صديقنا سرمد الطائي ورفاقه عبد اللطيف الحرز وعلي مدان وعبد الرزاق الجبران ومنتظر ناصر وفراس سعدون وعلي الحسيني وغيرهم.

لقد كان الرفاعي أشبهَ بأبيهم الروحي. عنده وجدوا الملاذ الأرحب بعد هربهم من العراق في التسعينيات، ومن يديه الكريمتين تلقفوا فوكو ودريدا وغيرهما من المفكرين الذين كانوا يفعلون فعلهم فينا، نحن جيل التسعينيات في كلّ مكان.

غير إن هذا الانطباع في كفّة، وما تولّد عندي، بعد توثّق علاقتي به، في كفة أخرى، إذ بعيداً عن دراساته وكتبه والملفات التي لم يتوقف عن فتحها في مجلته. ظهر لي أنَّ لدى الرجل نزعة قلما تجدها في أمثاله، وهي محاولة تأسيس تقاليد فكرية رصينة مهمتها ردم الفجوة بين الخطاب الديني، من جهة، والحداثة، من جهة أخرى، أو لنقل إنه مهجوس بطرح الفكر الديني كنمط متعايش ومنسجم مع الخطابات الأخرى، وإليكم هذا المثال الذي جرى معي شخصياً؛ حين اطلع الرفاعي على كتابي (خريف المثقف) أعجب به، لكنه أبدى تحفظاً شديداً على ما اعتبره نقصا فيه، وهو عدم مروري بالجيل الثقافي الذي نشأ في إيران خلال سني الثمانينيات والتسعينيات. وهو يعتقد، بهذا الصدد، أن ثمة جيلاً من المفكرين والشعراء العراقيين كان نشأ هناك، لا يقلُّ أهمية عن رموزه الناشئة في العراق والمنافي الأخرى كبيروت ودمشق وبعض حواضر أوربا. ويضيف أنّ ثمة

فصلاً غائباً في الكتاب، هو الفصل العراقي الإيراني، كان لا بد من وجوده ليكتمل المشهد.

إن هذا يكشف برأيي نزعته المتأصلة لتأسيس تقاليد جديدة غير معهودة في الثقافة الدينية. هو يبدو منشغلاً بهذا الانشغال كله، وخلاصة الأمر أن لا تقاطع بين الخطابين الديني والدنيوي، وأنَّ من الضروري ردم الهوّة السحيقة التي تفصل الجانبين.

ولكي يستكمل مهمته التي يؤمن بها، عرض الرجل أن يزوّدني بالوثائق التي احتاجها فيما لو فكرت في توثيق تلك اللحظة الغائبة عن تاريخنا، أقصد نشوء جيلٍ من المفكرين والأدباء والكتبة في المنفى الإيراني خلال الثمانينيات والتسعينيات.

ترى، هل ينفصل هذا العرض مثلاً عن مجمل سيرته التي تضجُّ بالمشاريع كتابة وتأسيسا؟ لا أظن ذلك. ولمن يريد التأكد من الأمر ليطالع بعض محطات سيرته ابتداءً من صالونه (القمّي) الذي خرج منه عدد من المفكرين الشبان والكتاب المتميزين، مروراً بمجلته الرصينة، التي باتت أعدادها التي تجاوزت الخمسين تشكل مكتبة في الحداثة الدينية لا غنى عنها، وليس انتهاءً بسلسلة الكتب التي رعى إصدارها وتبلغ حاليا ما يناهز مائتي كتاباً.

نعم، هو شخصية غير عابرة في عالمنا الثقافي، والكتابة عنه تظلّ ناقصة فصولاً وليس فصلاً واحداً، كما نبّهني بالنسبة لجيل إيران الثقافي. ولعلي سأعثر، ذات يوم، على بعضها وأدوّنها باسترخاءٍ يشبهُ استرخاءه. حينها فقط يمكن أن أعوّض عن بعض سوء حظّي كوني التقيته متأخراً.



عبد الجبار الرفاعي
كما عرفتـه

✍ الشيخ زعيم الخير الله[1]

ليس سهلاً الكتابة أو الحديث عن مفكر مسكون بهاجس المعرفة وقلقها، وبقامة كقامة عبدالجبار الرفاعي؛ لأن الدكتور الشيخ عبدالجبار الرفاعي، متعدد المواهب، مزج بين الأصالة والمعاصرة، والقديم والجديد.

أو لم يشدك فيه أريحيته وطيبته وعفويته؛ لأنه ابن قرية، فهو لا يحمل تعقيدات المدينة وازدواجيتها.

قيمة عبدالجبار الرفاعي إنسانيته قبل تفكيره فلا قيمة للمفكر المجرد عن إنسانيته.

عرفت الأخ المبجل الشيخ الدكتور عبدالجبار الرفاعي حينما كنت طالباً في ثانوية الرفاعي، أنا ومجموعة من إخواني وزملائي، لم يكن فارق السن بيننا وبين الرفاعي كبيراً، كان الفارق في السن قليلاً، كنا جميعاً ننتمي إلى جيل واحد، تعرفت إلى عبدالجبار الرفاعي في تلك الفترة، كان شعلةً متوقدةً من الوعي والفكر المستنير، دخل إلى قلوبنا من خلال بساطته وأريحيته وطيبته وثقافته العالية، كان أسلوبه شائقاً وساحراً، يمتلك قدرةً هائلةً على الإقناع، كان يحترم آرائنا رغم أننا كنا في بداية تشكل وعينا المعرفي.

الدكتور عبدالجبار الرفاعي ترك بصمات لا تمحى في وعينا، كان له الفضل في هدايتنا إلى درب الوعي.

في تلك الفترة الصعبة، والتي يصعب فيها الحصول على كتاب يحمل مضامين واعيةً، كان الرفاعي وإخوانه يزودوننا بتلك الكتب التي أنارت وعينا، فكنا في تلك الفترة نقرأ للشهيد السيد محمد باقر الصدر، وللشيخ محمد مهدي شمس الدين، وللسيد محمد حسين فضل الله. كان الشيخ الرفاعي منذ البدايات مسكوناً بهاجس المعرفة، شغوفاً بالعلم، ففي عام ١٩٧٨م يمم وجهه شطر مدينة العلم، النجف الأشرف، المعروفة بأصالة حوزتها الممتدة

---

(١) كاتب من مدينة الرفاعي في جنوب العراق.

لأكثر من ألف عام، توجه إلى النجف ودرس على أيدي كبار علمائها، فدرس المنطق والأصول وعلوم اللغة العربية، وواصل مسيرته العلمية الحافلة بالعطاء في حوزة قم المقدسة، المعروفة بعلوم المنقول والمعقول، وأصبح فيها مدرساً لامعاً يشار إليه بالبنان، ودرّس هناك الأصول والفقه والفلسفة والمنطق، وساهم في ترجمة بعض الكتب الفلسفية من الفارسية إلى العربية.

ولشغفه بالعلم، وكما عبّر عنه السيد طالب الرفاعي عنه: "بأنه يمارس هوايته المفضلة". لم يكتف بالدرس الحوزوي بل انفتح على الأفكار الحديثة، وساهم في التأليف والإشراف على بعض المجلات الثقافية التي تصدر في مدينة قم، حتى عُدّ مرجعية ثقافية، ومن أهم انجازاته المعرفية إصداره لمجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، التي بدأت في قم ومازالت. وهي تصدر اليوم في بغداد.

له مؤلفات عدة منها رسالة الدكتوراه، التي عالج فيها تطور الدرس الكلامي عند السيد محمد باقر الصدر والدرس الفلسفي عند العلامة الطباطبائي، ونشأة علم الكلام، وظروف النشأة والتكوين. ومؤلفات أخرى، فضلاً على حضوره مؤتمرات عديدة وتقديم أبحاثٍ متميزة.

أتمنى لأخينا الدكتور عبدالجبار الرفاعي مواصلة دربه العلمي والمعرفي، وأن تكلل جهوده العلمية بالنجاح.



العلامة الدكتور عبد الجبار الرفاعي موسوعي تفتخر به (الغراف)

✍ علي الحيدري[1]

علم من أعلام الفكر والثقافة، وموسوعي إسلامي نادر الوجود، فكره بعيد الغور، ونتاجه غزير الحصاد، وولاؤه أشمل وإيمانه أعم، وتواضعه قدوة، فليس بمستغرب لو سدّت منافذ الوصف بوجوه من كتبوا عنه وعجزوا أمام سحر بيانه وشمولية آرائه.أدرك منذ نعومة أظفاره، أن لا شرف يضاهي شرف العلم، ولا عزة تبلغ عزة القلم، وإن المرءَ بأصغريه.آمن منذ الصغر بالتمسك بحبل ربه، وأنه هو الذي يأخذ بيده إلى الطريق السوي دون سواه، وأن التفكير بذاته هو الحالة المثلى التي يؤول إليها سمو الذات، وأن الولاء لأهل البيت (ع) هو ربيع القلوب، إن من جد وجد.

إنهُ العلامة "أ. د. عبد الجبار القحطاني الرفاعي"، الذي ينحدر من قبيلة بدوية شهيرة، هي "قحطان"، وقد توطن بعض فخذ "جروان" منها غرب الغراف مع "بني ركاب"، مطلع القرن العشرين. ولد الدكتور عبد الجبار بمضارب ـ البوحمزة ـ ثلث عشائر البوغوينم/ مُح بيضة عشائر بني ركاب الشيبانيين الربيعيين، التابعة لقضاء الرفاعي ونواحيه/ بمحافظة ذي قار، عام ١٩٥٤م، بأراضي الصفاوة الشمالية العائدة ملكيتها لآل السعدون، التي هي من أكثر مقاطعات الغراف خصوبة وأوفرها ماءً. إن عشائرها وإن لم تقع تحت تسلط الإقطاع بمفهومه البغيض، إلاّ أنها بحاجة إلى وعي فكري يسبقه الإيمان بمبادئ الشريعة التي تأخذ بأبنائها إلى مستقبل مشرق، مما يجعلها بأمس الحاجة لرجال يولونهم العناية الفكرية ونشر الوعي بين الديني والوطني، وهذا لا يتم إلاّ بوجود وجهود مثقفين عصاميين بتلك الربوع أمثال علاّمتنا الرفاعي.

اندفع أ. عبد الجبار نحو تحقيق تلكم الأهداف فشمر عن ساعدين لا يعرفان الكلل ويراع لا عهد له بالملل وبنكران ذات ابتدأ بالدرس المتزن المتواصل، معتمداً على أرضيةٍ إيمانيةٍ ورغبةٍ نادرةٍ تُذهب بقشور عاداتٍ باليةٍ إلى وراء ظهور حامليها، فلا غرو لو أنه نجده يصرف جل جهوده للدرس، وكأنه لم يخلق لسواه، وأنه رسالة مقدسة لا سبيل للتهاون عن أدائها.

---

(١) مؤرخ وشاعر من مدينة الرفاعي.

حصل على شهادة الدراسة الإعدادية عام ١٩٧٣م، بعدها نال شهادة دبلوم فني بالزراعة عام ١٩٧٥م، وفي عام ١٩٨٨م حصل على شهادة البكالوريوس بالدراسات الإسلامية، وفي عام ١٩٩٠م نال شهادة الماجستير بعلم الكلام، فشهادة الدكتوراه بالفلسفة الإسلامية عام ٢٠٠٥م. غير مهتم بما يعتور طريقه من صعابٍ مادية واجتماعية، خاصةً وأن هدفه الدرس لا الامتحان، كل هذا وعلاّمتنا لم يترك فرصة إلاّ وأهتبلها لتوسيع مداركه، غير محصور بالدراسة الأكاديمية وحدها بل جعل من فكره وقلبه وقلمه وعاءً للعلم حيثما حل وأينما رحل، تشوقاً لإدراك غاياته المُثلى، وكلّ ما بلغ شبراً من تحقيق آماله ازداد شوقاً لبلوغ ميل يمهد له طريقه الذي يعتبره بداية الوصول لطريق علمي لاحِب ولا زال يومه كأمسه جداً ومثابرة، أمد الله بعمره.

انخرط في الحوزة العلمية في النجف الأشرف عام ١٩٧٨، فدرس فيها المقدمات وبعض السطوح. وكان يقود تنظيم حزب الدعوة الإسلامية في مدينة الرفاعي وقتئذ. وإثر اعتقال مسؤوله في الدعوة الشهيد العلامة حسين معن، وملاحقته في العراق اضطر للهجرة من بلده، والتحق بالحوزة العلمية في قم المقدسة، وواصل دراسته الحوزوية، فحضر دروس الفقه والأصول والدراية والرجال في السطوح على آيات اللهال السيد أحمد المددي، والشيخ باقر الإيرواني، والشيخ هادي آل راضي، في الحوزة العلمية في قم. وكان في الحوزة العلمية في النجف قد تتلمذ في المنطق والنحو والصرف والبلاغة والفقه وأصول الفقه من المقدمات والسطوح على الشهيد الشيخ حسين جودة، والشهيد الشيخ عبد الأمير الساعدي. كذلك درس بعض "تجريد الاعتقاد في علم الكلام" على الشهيد السيد محمد صادق الصدر، وقسما من منظومة السبزواري على السيد مسلم الحلي، والعقائد على الشيخ أحمد البهادلي في الحوزة العلمية في النجف. وبداية الحكمة على الشيخ باقر الإيرواني، ونهاية الحكمة على الشيخ غلام رضا الفياضي، والأسفار الأربعة على الشيخ عبدالله الجوادي الآملي في الحوزة العلمية في قم، وتمهيد القواعد وفصوص الحكم على السيد كمال الحيدري. وحضر دروس البحث الخارج في الفقه وأصول الفقه لمدة ثماني سنوات، عند السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، والشيخ محمد حسين الوحيد الخراساني، والسيد أحمد المددي، والشيخ باقر الإيرواني، والشيخ محمد هادي آل راضي. حتى استغنى عن التقليد مستنداً على ما وعى، مستنبطاً الأحكام الشرعية من مداركها المقررة، معتمداً على نظرياته العلمية الخاصة، في مجال الاستنباط الفقهي.

إنَّ ما ألّفه الرفاعي وآمن به في ميادين شتى تدل على فطنة وذكاء وإيمان واعتزاز بالنفس مع علمٍ مميز يغبطه عليه الباحثون ممن سبقوه عمراً ودرساً وألقاباً، كل هذا وهو

يعتبر نفسه طالباً في حوزة ومؤمناً بقضيةٍ عادلة. لم يلهه درسه عن تفقد أساتذته وطلابه وأبناء جلدته، بما يوحي بتواضعٍ جمٍّ ونكران ذاتٍ يكلُّ عن وصفها يراع اللبيب.

ناهزت مؤلفات علاّمتنا الأربعين مؤلفاً، في الفقه، أصول الفقه، الفلسفة، المنطق، التصوف، والأخلاق، وتنشئة الجيل، والاجتماع، والتعايش، والمواطنة الصالحة، ومحاربة التخلف، ضمن أُطرٍ إسلامية ووطنية وتراث مجيد وبوعي رصين.

من مؤلفاته: إحياء التراث، مدرسة أهل البيت في المدينة المنورة والكوفة، نحن والغرب. كتاب فلسفة الدين، علم الكلام الجديد، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت (ع) في (١٢) اثني عشر جزءاً، وموسوعة مصادر النظام الإسلامي (١٠) عشرة أجزاء. هذه هي الموسوعية التي تميز بها "الرفاعي" متجلية ببعض ما ذكرناه، ونحن مؤمنون من أنَّ تواضعه قد لا يسمح لنا بالتنويه بما ألف ومارس وشغل، وهذه هي سمات العالم الجليل، تواضع، تعطش للدرس، انهماك بالتأليف مع توارٍ عن الأنظار، وهروب من الظهور الإعلامي. لا يرغبُ بمدحِ مادحٍ، وغيرُ رادٍّ على قدح قادح، وأنه لم يخلق إلاّ للفضيلة ومحاربة الرذيلة مقتدياً بالصالحين.

إضافة إلى هذا الزخم الثقافي المتدفق نراه يساهم بإصدار العديد من المجلات الفكرية والثقافية، وتوليه لمناصب مهمة رئاسة تحرير ومستشار تحرير العديد من المجلات في العراق وخارجه، يضاف إلى ذلك إشرافه ومناقشته لما يزيد على الخمسين رسالة دكتوراه وماجستير في الفلسفة وعلم الكلام والفقه وأصول الفقه والدراسات الإسلامية.

من المناصب الثقافية التي تولاها:

مدير مركز دراسات فلسفة الدين/بغداد، رئاسة تحرير مجلة قضايا إسلامية معاصرة/بغداد، مستشار تحرير مجلة الوعي المعاصر/بيروت، مجلة الحياة الطيبة/بيروت، مجلة نصوص معاصرة/بيروت، مجلة التوحيد/بيروت، مجلة الفكر الإسلامي/لندن، مجلة مقابسات/بغداد، مجلة مدارك/بغداد، مجلة دراسات إسلامية/دار الحكمة/ بغداد، مستشاراً لشؤون الثقافات العراقية - بدرجة وكيل وزارة الثقافة العراقية (٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦). المستشار الثقافي في رئاسة جمهورية العراق منذ ٢٠٠٦/٩/١ وحتى الآن.

يلخص الدكتور الرفاعي رؤيته في تحديث التفكير الديني وتنمية وتطوير مجتمعنا فيما يلي:

١- الإنسان كائن متدين، وإن اختلفت تجليات التدين، وتباينت التعبيرات الدينية في حياته، تبعاً لتنوع البشر واختلافهم. والحياة لا تطاق من دون خبراتٍ وتجارب دينيةٍ،

ذلك أن نزعة التدين تمثل ظمأ انطولوجيا لا يروى، إلا من خلال التواصل مع المطلق. ويمكن أن تظل تلك الخبرات والتجارب على الدوام منبع الهام التراحم والمحبة والجمال في العالم، ولكن حين يجري التلاعب بالدين، فيعاد تكوينه، ويشوه فهمه بتفسير همجي متوحش، ينقلب إلى الضد، ويتحول هذا التفسير للدين إلى إعصار يبدد كل مسعى إنساني بنّاء، ويحطم الكثير من معطيات الحياة البشرية ومكاسبها الرائعة عبر التاريخ. وليس بوسعنا بناء بلادنا إلا بإشاعة فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورتها الإنسانية، تلك الصورة المغايرة لما تريده الجماعات التي تعمل على تقديم صورة متوحشة زائفة للدين.

٢- إن التعصب والعدوانية والاستغلال ظواهر متفشية في الاجتماع البشري عبر التاريخ، كما أن عنف الإنسان ضد أخيه الإنسان ليس طارئاً في الحياة، بل هو سلوك بيولوجي، وسياسي، واجتماعي، وثقافي، وديني مترسخ في دنيا الإنسان. العنف أحد الظواهر المزمنة في الاجتماع البشري، وهو يهددنا ويلاحقنا حيثما كنا في بلادنا، والسلام هو سبيل الأمن الاجتماعي والعيش سويا، ولا نجاة للعالم إلا بالتشبث بالوسائل السلمية لحل المنازعات، والتخلص من بواعث العنف والحروب، التي أمست تفتك بالإنسان، وتبدد الكثير من مكاسبه ومنجزاته على الأرض.

٣- تشدد رسالة الدين ومقاصده الكلية على إشاعة السلم والتراحم والمحبة بين الناس، والسعي لتجفيف منابع العنف والعدوانية والتعصب، ولكن طالما تم طمس هذه الرسالة ونقض تلك المقاصد، بنشوء جماعات وفرق، لا تقتصر على إعلان انتمائها للدين، وإنما تصر على احتكار تمثيله، وتحرص على مخاصمة أية جماعة غيرها تقدم فهماً مختلفاً للدين. من هنا ينبغي إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، بالإعلان عن أبعاده المعنوية والعقلانية والجمالية والرمزية.

٤- لا يعني التدين الذي ننشده اختزال الإنسان في مجموعة مفاهيم وقيم مثالية، تتعالى على بشريته، وتصيره كائناً سماوياً مجرداً منسلخاً عن عالمه الأرضي، مثلما تريد بعض الاتجاهات الصوفية والدعوات الرهبانية، بل يعني هذا التدين إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وإيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع كافة الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، وتدريب المشاعر والأحاسيس والعواطف على القيم النبيلة،

والسعي لاكتشاف روافد ومنابع الهام الطاقة الحيوية الايجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها.

٥- النقد مصدر التطور الفكري والاجتماعي، والنقد أساس التقدم، وشريان تحديث كل شيء وتجديده، ولا حياة للتفكير الديني في الإسلام إلا بتواصل المراجعة النقدية واستمرارها، للثقافة والتجربة والتاريخ والتراث والاجتماع الإسلامي. ولا سبيل للخلاص والإفلات من نفق الانحطاط والتخلف إلا بتجذير ملكة النقد وتكريسها.

٦- لا سبيل لجني معطيات النزعة الإنسانية في الدين، إلا بالخلاص من التفسيرات المتعسفة القمعية للنصوص، وتخطي المفاهيم والمقولات النمطية المغلقة في اللاهوت الكلاسيكي. وإنما يتحقق ذلك بفتح باب الاجتهاد في علم الكلام، وتحديث التفكير اللاهوتي، ومحاولة بناء لاهوت عقلاني مستنير. وتحديث التفكير اللاهوتي يتطلب تساؤلات واستفهامات جديدة، ومراجعات نقدية للتراث الكلامي، تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب.والسعي لترسيخ صورة للإله، تستوحي صفات الرحمة والمحبة والسلام، ونحوها من صفات الرحمن، وتستلهم ما يتحلى به الله تعالى من صفاته الجمالية، وأسمائه الحسنى، مثل: (الرحمن، الرحيم، القدوس، السلام، المؤمن، العزيز، البارىء، المصور، الغفار، الوهاب، الرزاق، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الحليم، الشكور، الحفيظ، الكريم، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، الحق، المحيي، البر، التواب، العفو، الغفور، الرؤوف، مالك الملك، الغني، النور، الهادي، الرشيد، الصبور، ...الخ.

٧- احترام الأفكار التي تؤمن بأهمية انفتاحها على ما يعاندها، وتعزيز روح الانفتاح والعمل مع من نختلف معه.

٨- الدعوة للتعددية والتسامح،وإرساء قيم الاختلاف واحترام الآخر.

٩- إشاعة ثقافة التعايش والحوار بين الأديان والثقافات.

١٠- ترسيخ العقلية النقدية الحوارية، وتجاوز العقلية السكونية المغلقة.

١١- الاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة.

١٢- تمثل روح العصر، والانفتاح على المكاسب الراهنة للعلوم، انطلاقاً من: الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها.

١٣- تطهير التدين من الكراهية والإكراهات.

١٤- تحرير فهم الدين من المقولات والأفكار والمواقف التعصبية والعدوانية.

١٥- اكتشاف الأثر الإيجابي للفهم العقلاني الإنساني الحيوي للدين في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

١٦- تبني الرؤى والمفاهيم التي تهدف إلى مواكبة العصر، وتعزز المصالحة بين المتدين والمحيط الذي يعيش فيه.

١٧- تجلية الأبعاد العقلانية والأخلاقية والإنسانية و الجمالية والرمزية والمعنوية السامية والمضيئة في الدين والتراث.

١٨- الدعوة لبناء مجتمع مدني تعددي، تسود حياته قيم العيش المشترك، والعمل على تكريس حق الاختلاف،والتثقيف على أن الوطن يتسع للجميع، وللجميع الحق في الحياة والعيش الكريم. وما داموا متساوين في انتمائهم للوطن فأنهم متساوون في حقوقهم، ذلك أن المواطنة هي النصاب، بغض النظر عن أعراقهم ومعتقداتهم.

١٩- تعزيز ثقافة الحريات وحقوق الإنسان، وكل ما يدعم كرامة الكائن البشري.

٢٠- تحرير المرأة من الأعراف والتقاليد الجاهلية، وحماية كرامتها من الانتهاك والعنف البدني أو العنف الرمزي تحت أية ذريعة، ومنحها الفرص المناسبة للإسهام في بناء المجتمع والانخراط في التنمية الشاملة.

٢١- إعادة بناء المناهج الدراسية ومقررات التربية والتعليم في كافة المراحل، والتركيز على التعليم الأساسي، والاهتمام الفائق بالطفولة في الحضانة والمرحلة الابتدائية، والاتجاه بالتربية على أساس أن الطفل ليس وعاء نملؤه بالتلقين، وإنما هو طاقة خلاقة ينبغي أن نكتشف أحدث أساليب التربية في إيقادها وتوهجها.

٢٢- السعي إلى تجفيف المنابع التي ترسخ مفاهيم الاستبداد، وتعمل على تشويه وتدمير نفسية المواطن.

٢٣- التثقيف على نفي الإكراه في الدين، وتعميم مبدأ (لا إكراه في الدين) والاستناد إليه كمرجعية ومعيار قيمي في التعاطي مع الآخر، وإشاعة العفو، والسلام، والعدل، والإحسان، والتراحم، والحوار، والحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والمحبة، والصبر، والمداراة، والصفح الجميل، والهجر الجميل، وغير ذلك من مقولات ومعاني اللين، واحترام الآخر، والعيش المشترك.

٢٤- تنوير وعي المواطن وتحذيره من الدعوات والمقولات التي ترسخ مفاهيم التعصب، والتحجر، والأحادية، والانغلاق، والعنف، ونفي الآخر.

٢٥- تجذير المفاهيم والشعارات التي تمجد الحياة، وتعمل على تحرير الناس من المقولات الداعية إلى الموت. والخلاص من دعوات تبجيل الموت وهجاء الحياة، ولعن المباهج، والتشهير بوسائل الفرح والمسرة، والابتعاد عن أي محاولة لمناهضة الجمال ومسخ الذوق الفني، فإنه لا خلاص إلا بتكريس النزعات الروحية والمعنوية والفنية والجمالية. والسعي الحثيث لإغلاق الملفات والأحاديث والذكريات المريرة، وتكريس استراتيجية النسيان لكل ما يبعث الكآبة والوجع والحزن مما مضى، والإصرار على استدعاء المرح والغبطة والأمل والتفاؤل.

٢٦- الحرص على حماية البيئة الطبيعية، والكشف عن عناصر التناسق والجمال في الكون، وتنمية وتكريس التصالح والانسجام بين الإنسان ومحيطه.

٢٧- الحذر من الخلط بين الضروري وغيره، ومحاولة تصنيف كافة الحقوق والمتطلبات والرغبات والحاجات إلى ما هو بمثابة الفريضة وما هو بمثابة النافلة، ومن البديهي أن الفريضة تتقدم على سواها. والمعيار الأبدي في ذلك هو ما يمكن أن توفره تلك الأمور من خير للإنسانية، أي أن ترتيب الأولويات يجري تبعاً لأهميتها ومدى استجابتها لبناء الإنسان وتكامله، واستبعاد وحذف كل شيء لا يستجيب لذلك.

٢٨- الوقت هو الحياة، وتقدم أية جماعة بشرية أو شخص يتوقف على مهارتها في توظيف الوقت وتنظيم "ميزانية للزمن". وميزانية الزمن تعني برمجة المهام والمشاغل الشخصية بوضوح، فهناك مهام يومية وأخرى أسبوعية وثالثة شهرية ورابعة سنوية، ومنها ما هو مؤقت أو دائم أو كمالي أو ضروري.... الخ، وما لم نضع ميزانية دقيقة للزمن نغرق في الفوضى وتغيب الجدية عن حياتنا.

٢٩- اللايقين يقتل المعرفة البسيطة، لكنه يحيي المعرفة العميقة والمركبة، لذلك ينبغي أن نحذر من القطعيات والجزميات والنهائيات، فإنه ليس الشك وإنما اليقين هو الذي يقودنا إلى الجزمية والدوغمائية ونفي تنوع الاختلافات، وعدم إدراك أن العالم يتسع لمختلف المفاهيم والأفكار والمعتقدات.

٣٠- القلق المعرفي يمنح عملية التفكير الشرط الضروري للإبداع والديمومة والديناميكية، والفكر لا ينمو ويتطور من دون الأسئلة الحائرة، والفكر الحي هو الذي لا يكف عن اجتراح الأسئلة، ويتحرر من الأجوبة المتكررة التي يغيب القلق عنها.

المتمعن بهذه الفقرات الذهبية والتي تصلح أن تكون دستوراً للأمم يدرك النفس القويمة المفعمة بالقيم الإيمانية والإنسانية والتي ملأت نفس صاحبها حتى العمق بالسعي لخير

البشر دون فارق، وأثبتت بأن محررها والداعي للسعي لتطبيقها، إنسان عبقري، عالم، مؤمن لا يشق له غبار.

كيف تعرفت على العلامة الرفاعي؟

منذ شروعي بتأليف موسوعة - الغراف تاريخاً وحضارة - شرعت بالبحث عن رجالاته من علماء وأدباء وقواد.... اهتديت إلى البارزين منهم كل في اختصاصه وفي طليعة هؤلاء الرجال العلامة الدكتور عبد الجبار الرفاعي فإذا بي أجد فيه كل مقومات الإنسان الموسوعي الذي تفتخر به "الغراف" ولما كان العلاّمة من غير الراغبين بالظهور على وسائل الإعلام - وإلى الآن - لم يكن من السهل الكتابة عنه مع تلهفي لذلك حتى اهتديت لمعرفة بعض عرفانه ولكني كنت قد حصلت على بغيتي عن طريق أرحامي وأصدقائي حتى ملأ بعضنا سمع صاحبه وتشوق للقائه.

حدث اللقاء على غير موعد - ورب صدفة خير من ميعاد - وذلك بيوم بهي وبفندق الرشيد بمطلع ٢٠١٠م لتناول طعام الغداء على مائدة ابن خالنا آية الله العلامة ـ د. السيد طالب الرفاعي ـ فكان مسروراً ما بعده سرور، يقول أنت أ. علي الحيدري صاحب موسوعة "الغراف"؟ أنا أقول له: أأنت الموسوعي د. عبد الجبار الرفاعي، وقد استغرب آية الله "السيد طالب الرفاعي" من عدم لقائنا حتى الآنف أجبته تعارفنا روحياً وقلبياً و ـ الأذن تعشق قبل العين أحياناً ـ .

إن أستاذنا الرفاعي لم يفتر منذ اللقاء وإلى هذا عن تفقدنا تفقد الوالد لولده، خاصة بالمناسبات والأعياد إذ أن هاتفه يصلنا قبل غيره ليحرز قصب الفضل بخلق يحكي رقة نسيم السحر.

إن كلمتي العجلى هذه هي غيض من فيض لطفه العميم وإبداعه الذي لا عهد له بالنضوب سائله تعالى أن يوفقني لخوض عباب بحره المتلاطم لأستخرج منه ما أطمح إليه من مظانٍ هي خير ألف مرة من الذهب والفضة وهو الموفق.



ندوة احتفائية بالمفكر العراقي الدكتور عبد الجبار الرفاعي

التجمع الثقافي الحر يقيم ندوة احتفائية بالمفكر العراقي عبد الجبار الرفاعي

✍ زعيم نصار

أقام التجمع الثقافي الحر ندوته الفكرية (احتفاء بالمفكر العراقي الدكتور عبد الجبار الرفاعي، وإصدارات مركز دراسات فلسفة الدين). قدم الندوة وأدارها رئيس التجمع زعيم نصار.

بعد الترحيب أوجز للحضور الغاية والهدف من إقامة هذه الندوات التي تصب في خدمة الثقافة الديمقراطية والواقع العراقي، وبناء ثقافة فكرية حرة يؤسسها مناخ الحرية ورفض الوصاية بعد اندحار الديكتاتورية. وعرف بالباحثين المشاركين في الندوة، ومنهم: أستاذ الفلسفة في جامعة المستنصرية الدكتور علي المر هج، شمخي جبر مدير تحرير مجلة مدارك الفكرية الجديدة، وثائر القيسي، وعلي خصاف، وحسين علاوي، و أحمد عبد الحسين، وجبار حسين صبري، وعقيل الربيعي، وجاسم الصغير، وقاسم حسين، ومحمد يونس، وسعد مطر، ومنتظر ناصر. بعدها عرّف مدير الندوة بالمحتفى به من خلال قراءته لرسالة بعثها الدكتور عبد الجبار الرفاعي من بيروت يشكر حضور الندوة والباحثين المشاركين فيها، حيث لم يتسن له الحضور من هناك: ورد في الرسالة التي كان عنوانها:

الأقدام الحافية لا يرهقها تراب الأزقة:

خالص الامتنان والتقدير للصديق الشاعر زعيم النصار وكافة الأصدقاء المبدعين الذين قرروا التعريف بمركز دراسات فلسفة الدين في بغداد، وتكريم مؤسسه عبدالجبار الرفاعي.

وردتني رسالة من الأخ زعيم تتساءل عن: "من هو عبد الجبار الرفاعي؟"

هو عراقي جنوبي قادم من قرية صغيرة نائية في أعماق أرياف الرفاعي وقلعة سكر، تقع على حواف صحراء دولة المدينة السومرية (أوما) أو جوخة كما يسميها البدو الرحل الذين يتكرر لقائهم بها كل عام في رحلتهم الأبدية بحثاً عن الماء والكلأ في البادية الجنوبية. وكان ناصر القحطاني جد عبد الجبار أحد أولئك الهائمين في الصحراء، ولم يتوطن في القرية إلا في مطلع القرن العشرين.

وترسم عبد الجبار الرفاعي خطى جده البدوي في الرحلة والتشرد، فأمضى ثلاث سنوات ليدرس المتوسطة في قلعة سكر، التي كان لا يصل إليها إلا بعد مشقة بالغة، وهو صبي لم يتجاوز الاثني عشر عاماً، إذ يقطع ما يزيد على ثلاثين كيلومتراً في رواحه ومجيئه، ماشياً أو ممتطياً فرساً أو راكباً دراجةً هوائية. وطالما تعرض للسخرية من أبناء المدينة حين يقطع شوارعها من وإلى ثانوية قلعة سكر، الذين كان يثيرهم مشهد فتى قادم من الريف ببنطلون مرقع، وقميص بالي، وقوام نحيف، ووجه كالح يبوح بالحرمان وسوء التغذية. غير أن زملاء عبد الجبار من أبناء المدينة في المدرسة كانوا يحترمونه لتفوقه، فضلاً عن مثابرته وجديته التي عززت مكانته لدى مدرسيه، ومدير الثانوية (فلان القرغولي) الذي أشفق على تلميذه الصغير لما وجده يرتجف من البرد القارس، وهو ينتعل حذاءً مهترئاً، فأهداه حذاءً بلاستيكياً جديداً، ارتداه الرفاعي لسنتين، وما لبث هذا الموقف الإنساني راسخاً في وجدانه ومحفوراً في ذاكرته منذ عشرات السنين.

وفوجئ عبدالجبار بنبأ وجود أقسام داخلية للطلاب القادمين من القرى بعد فراغه من الدراسة المتوسطة، في مدينة الشطرة فانتقل إليها ليدرس الثانوية هناك.

وفي الشطرة حدث المنعطف الأول في حياته، فالقسم الداخلي القريب من نهر (البدعة) شمال مدينة الشطرة، استوعب البؤساء المهمشين من أبناء الأرياف في الجبايش وسوق الشيوخ والشطرة والدواية والرفاعي وقلعة سكر والغراف والنصر، ممن أصروا على تحدي التهميش الاجتماعي وقساوة الحياة، وحاولوا صياغة مسارات حياتهم بالحفر بأظافرهم، وتحطيم الصخور بأسنانهم.

للمرة الأولى في الشطرة شاهد الرفاعي التلفزيون ودخل السينما وقرأ صحيفة يومية، وأدمن على مطالعة مجلة العربي، ودوريات شهرية وفصلية متعددة تصل بانتظام إلى المكتبة العامة. وبالرغم من مطالعاته المبكرة وهو في الصف الخامس الابتدائي في القرية لمستلات من قصص ألف ليلة وليلة، وتواصله مع مطالعة (قصة بير ذات العلم) وغيرها من كتب الرصيف في النجف وكربلاء التي كان يجلبها شقيقه الحاج أبو عادل بعد عودته من زيارة العتبات المقدسة، لكنه فوجئ في مكتبة مدينة الشطرة بكتاب (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) للدكتور علي الوردي، الذي انتقل ذهنه معه إلى نمط جديد من التفكير والنظر العقلي للظواهر الاجتماعية. وظل يرفد مطالعاته الجديدة سجل يومي محتدم مع زملائه في مهاجع القسم الداخلي الليلية، واللقاءات المستمرة على المائدة في المطعم المجاني الملحق بالقسم، الذي تعرف فيه على طعم الموز والتفاح والبرتقال، وشبع من الرز واللحوم وأنواع المرق، وكل ما يفتقر له طعام القرية، الذي يقتصر على الخبز

واللبن والبصل وأحيانا التمر والتولة (وهي نبات الخباز البري مسلوقاً بالماء)، وبكميات لا تشبع من المتطلبات الغذائية.

وتعرض لمراقبة وملاحقة الاتحاد الوطني لطلبة العراق في الثانوية، واشتدت الضغوط عليه بعد أن انخرط في صفوف الحركة الإسلامية وتصاعد نشاطه وفعالياته بين المسجد والمدرسة، والمعهد في فترة لاحقة في بغداد.

وتمحورت مطالعاته في تلك الفترة على مؤلفات السيد الشهيد محمد باقر الصدر واستأثرت كتابات الشهيد الصدر باهتمامه، واجتذبته تقاليد كرستها الحلقات المدرسية للحركة الإسلامية، تهدف إلى ترويج تدريس هذه الكتابات وفهمها واستيعابها. فانصرف الرفاعي لتدريس آثار الشهيد الصدر بتكتم وسرية لما كان طالباً في بغداد، وبعد تخرجه، حتى أضحت هذه المهمة حرفته الثقافية، ومن ثم قادته إلى الالتحاق بالحوزة العلمية في النجف مطلع ١٩٧٨ ليستقي مباشرة من الشهيد الصدر ويتفرغ لدراسة المعارف الإسلامية.

وإثر مطاردته من مخابرات نظام صدام الفاشي وتشرده من مدينة إلى أخرى، اضطر لمغادرة العراق في نهاية آذار ١٩٨٠، وتنقل بين أكثر من بلد، وفي خاتمة المطاف استقر في قم مطلع عام ١٩٨٤ وعكف على مواصلة تعليمه في الحوزة العلمية، مضافاً إلى حصوله على بكلوريوس وماجستير في المعارف الإسلامية ١٩٨٨ و١٩٩٠، ودكتوراه فلسفة إسلامية ٢٠٠٥.

وبدأت رحلة الرفاعي الفكرية النقدية بمعية جماعة من زملائه الدارسين في الحوزة العلمية منذ ١٩٨٥ بمراجعة وتقويم تجربة وأدبيات الإسلام السياسي، في حلقات نقاشية عفوية، يشترك فيها ماجد الغرباوي (وهو ناقد وكاتب جريء مغترب في سدني) وطاهر الموسوي (وهو ناقد شفاهي قلما يكتب، لكن ذهنه متوهج) وإبراهيم العبادي (وهو كاتب جاد مغترب في السويد) وغيرهم. وبعد سنتين من ذلك التاريخ، أي في عام ١٩٨٧ انتقلوا إلى نقد النظام التعليمي في الحوزة العلمية، واكتشاف ثغرات وعيوب الكتب المتعارفة للدراسة في الحوزة، ورصد محاولات تحديث النظام التعليمي ومؤسسات الإصلاح في القرن العشرين. ويوجز كتاب الرفاعي (جدل التراث والعصر) مجموعة من هذه الرؤى والأفكار والاستفهامات المتداولة في الحلقات النقاشية مع زملائه وتلامذته.

وتنامى الموقف النقدي لدى هذه الجماعة وقادهم تقويم النظام التعليمي ومراجعة الكتب الدراسية في الحوزة العلمية إلى غربلة التراث والتوغل في مسالكه الوعرة، ففكروا في اللامفكر فيه، أو المحظور التفكير فيه، وانبثقت طائفة من التساؤلات الميتافيزيقية الجديدة لديهم، فصدرت مجلة قضايا إسلامية معاصرة سنة ١٩٩٧ لتحكي تطلعات وهموم

ذلك الاتجاه في التفكير الديني ورهاناته، وتحكي فصول كتاب (مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد) شيئاً من تلك الرهانات.

احتفاء بالعقل وحريته:

ثم ابتدأ الباحث شمخي جبر بإلقاء محاضرته التي كانت بعنوان: (احتفاء بالعقل وحريته) جاء فيها: الاحتفاء بالمفكر عبد الجبار الرفاعي ومركز دراسات فلسفة الدين هو احتفاء بالعقل وحريته، وهي دعوة لاحتضان المجددين والتبشير بفكرهم الذي نحن أحوج ما نكون له في هذه المرحلة وهي خطوة جريئة يقوم بها التجمع الثقافي الحر الذي يسعى لتوجيه الضوء نحو المضيء في الفكر والفلسفة. إن عبد الجبار الرفاعي مؤسس لبارقة مختلفة داخل أهم نسق ثقافي ألا وهو الدين، وكلنا يعرف إن كل مواقفنا ومجمل سلوكنا يقع تحت تأثير أنساقنا الثقافية والدين يقع في المقام الأول منها شئنا أم أبينا، ولابد أن نقول إذا صلح الدين صلحت الثقافة وإذا صلحت الثقافة صلح المجتمع، لأننا نعتقد أن أي عملية تغيير لا يمكن أن تحدث بدون تغيير ثقافي.

فإذا كان الأفغاني ومحمد عبدة والطهطاوي والنائيني قد واجها العصر وتحدياته في حينه، فإننا لا نغمط حقهما في التأسيس لمواجهة تحديات عصرهم، وان أردنا أن نحاكم منتجهم الثقافي فعلينا أن لا تغيب عن بالنا النسبية الثقافية التي تدعونا لمحاكمة أي نتاج ثقافي بمنطق عصره (زمانه ومكانه) من هنا نقول إن ما قدمه ويقدمه مركز دراسات فلسفة الدين يمثل إصلاحاً لحالة التردي التي وصلها الخطاب الإسلامي على يد يمارس الإقصاء والتكفير ورفض المختلف. وأي مطلع على ما نشر من خلال هذا المشروع يستطيع أن يتبين الاتجاه وأي أسس يعتمد وعلى وفق أي منهج يسير، ينطلق مشروع مركز دراسات فلسفة الدين من مقولة أن الموقف الذي نعرفه الآن يضعنا أمام خيارين لا ثالث لهما إما الاندراج في الحضارة العالمية، أو الانغلاق والتقوقع الذي يعني الموت، ومعنا أبناء لثقافتنا ولديننا يمارسون القتل والذبح المجاني متخذين من الدين مرجعية لهم، من هنا تقع على عاتق المثقفين والإسلاميين منهم على وجه الخصوص مسؤولية استرجاع الدين من أيدي خاطفيه، من خلال التأسيس أو إعادة إنتاج إسلام خالي من الكراهية والإقصاء ويقبل ويحترم الرأي المختلف.

التحول من الدفاع عن الإلهي إلى الدفاع عن الإنساني:

ألقى بعده الدكتور علي المرهج بحثه: (عبد الجبار الرفاعي من أيديولوجيا الدين إلى فلسفته) الذي منها: بدأ الرفاعي حياته الفكرية تلميذاً للفيلسوف الشهيد محمد باقر الصدر، كان يحمل في داخله الكثير من رغبات التغيير لاسيما التغيير السياسي في بلده العراق والخلاص من الدكتاتورية.

هـذه المعانـاة مـن الدكتاتوريـة جعلتـه يـرفض الغـرب صـانع الـدكتاتوريات الحديثـة في الشرق والمدافع عنها، فاعتقد بأن لا خلاص للعرب والمسلمين إلا بالتقاطع مع مقولات الفكر الغربي ومحاولة إقامة الدولة الإسلامية. خرج من العراق وهو يعاني كابوس الفردية والرأي الواحد، حاول التغيير مع جماعته من الدعاة الإسلاميين، إلا أنهم لم يفلحوا واقتيد أستاذهم إلى عالم الشهادة، وأدرك الرفاعي أن لا خلاص للعراق إلا بالديمقراطية حتى وإن كانت الأخيرة معطىً غربياً وهنا بدأت نقطة التحول الفكري في حياة هذا المفكر منذ أخذت رؤاه الفكرية تنفتح على المختلف بكل أشكاله وصنوفه، وآمن بضرورة الفصل بين نتاج العقل الغربي الإنساني العلمي والفلسفي وبين السياسة الغربية بوصفها سياسة نفعية قائمة على الكسب المادي واستغلال الشعوب. نتيجة لهذا التحول يمكن القول أن الرفاعي انتقل من الدفاع عن الحقيقة المطلقة والواحدة إلى الدفاع عن تعددية هذه الحقيقة وبعبارة أخرى تحول من الدفاع عن الإلهي إلى الدفاع عن الإنساني لا بحساب التخلي عن الأول لصالح الثاني بل بحساب حاجة الأول وعدم حاجة الثاني واكتفائه فهو المكتفي بذاته.

قراءة في مجلة قضايا إسلامية معاصرة العدد السابع:

الباحث ثائر القيسي قدم قراءته للمجلة بعد أن عرض أفكار مؤسسها حيث ورد فيها: مثال ذلك عندما نقرأ العدد السابع من مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) الصادر عام ١٩٩٩ نرى أنها استطاعت من خلال رئيس تحريرها ومؤسسها الأستاذ الرفاعي أن تصوغ دورها الفعال في انتقالتها الواعية إلى الخطاب المتحضر في محاورة الأديان الأخرى،وقد حدد المفكر الرفاعي في افتتاحية العدد إشكالية الصيرورة الأولى لعلم الفقه من خلال تقويم هذا العلم بقوله: (ينبغي أن لا نسرف في التوقعات فنحسب أن فلسفة الفقه علم كفيل بإحداث منعطف في التفكير الفقهي. ذلك أن هذا العلم لما يزل في طور الولادة فلم تتضح حتى الآن تمام مرتكزاته وتثبيت سائر قواعده وتصاغ جميع أدواته، وتتبين كافة معالمه وحدوده وليس ممكناً أن نقطف ثمرة علم في هذه المرحلة مضافاً إلى إن عملية الاستنباط الفقهي ترتهنها مجموعة مشكلات وتجابهها عدة عوائق، ليست ناجمة بأسرها عن غياب فلسفة الفقه، وإنما تستبطن عوائق غيرها، يعود قسم منها إلى قصور علم الأصول المتوارث)... وقد اشتملت المجلة في عدد من صفحاتها على مجموعة من الدراسات والبحوث وحوارات مع مفكرين ودارسين لأصول الفقه وعلوم التشريع ومناهج الاستدلال ومقارنات منهجية أكدت جميعها على علاقة الفقه بسعادة الإنسان أو شقائه، فيما احتوت الصفحات الأخرى على تدوين أصداء أعداد المجلة السابقة من خلال دعوة عددٍ من المفكرين والباحثين لكتابة قراءاتهم للمجلة والمشهد الثقافي الإسلامي، فكانت مجمل الآراء التي أبداها الباحثون تنم عن وعي رفيع لدور مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) في طروحاتها وإثارتها الجدل

الفكري التنويري في مرحلة تكاد تغلب عليها الفرقة والتجزئة وبالتالي إحداث نكوص في نص الخطاب الإسلامي إزاء خطابات الأديان في العالم فكانت أولى هذه الآراء ما جاء في مقال الدكتور عادل عبد المهدي رئيس المركز الإسلامي للدراسات والتوثيق ورئيس تحرير مجلة (ينابيع الحكمة) التي تصدر في باريس قال عن مجلة: جعلت (قضايا إسلامية معاصرة) من أولى مهماتها محاربة كل أشكال الغزو والاستبداد والسقوط في الطائفية وكان لابد للمجلة وهي تقتحم أسوار الصمت والسكون أن تتأهب بكل ما لديها من إمكانات فكرية لكي تقتحم أولاً الذات المكبلة بمزيج من التفسير والفلسفات المتناقضة وأن تتجول في الدهاليز الحالكة بحثاً عما تعد أصفاداً تسور معاصم الفكر المتبصر.

التسامح ومنابعه:

بينما حاول الباحث حسين علاوي أن يخوض في فكرة التسامح ومنابعها التي تشتغل على إشاعتها مجلة قضايا إسلامية معاصرة حيث ابتدأ قائلاً: ضمن محاورها الهادفة إلى إعادة الوعي الإسلامي التزمت به مجلة إسلامية التي يترأسها الأستاذ عبد الجبار الرفاعي منذ تأسيسها جاء العدد٢٧ ليرد على الكثير من العقول المتزمة التي اتخذت من الإسلام السمح أداة لتحقيق مآربها ومنافعها الذاتية على حساب قتل الأبرياء وتعطيل حركة الحياة في البناء والإعمار والتكامل من جهة وظهور من جهة أخرى وعي إسلامي جديد يأخذ على عاتقه مهمة إظهار الإسلام الناصع والبريء مما ينسب له من قتل واغتيال وتصفيات ودمار وحول الصورة الممكنة لاستشراف مستقبل الإسلام كما رآه عدد من الكتاب والباحثين ورجال دين تركز جهودهم حول إظهار صورة الإسلام الحقيقي والناصع المطابق للعقل والمنطق والمعرفة الموضوعية للأشياء وهو جهد لم يتح له أن يتجذر في الوعي الشعبي بل وحتى النخبوي وبما أن قضية التسامح لم نجد لها في بعض الجماعات التكفيرية والمتطرقة أثراً رغم أن ديننا الإسلامي دين محبة وتسامح وخاصة في ظروفنا الراهن بعد أن طغت ثقافة السلاح والموت وإصرار بعض الجماعات على السبيل الوحيد لمعالجة كافة مشكلات عالمنا لا تتم إلا بالقتل وعدم تورعهم عن إشاعة الرعب في كل مكان مضافاً إلى انبعاث ما تراكم من ذاكرتنا من نزعات عنصرية وطائفية تنذر بالانزلاق إلى حروب أهلية في العراق وقد عالجت البحوث المنشورة في هذا العدد الفهم الخاطئ للدين وحدود التسامح والقيم والمفاهيم المرتبطة به مثل: التعددية الدينية والثقافية والسياسية والحقوق والحريات وغيرها.

فاعتبر الدكتور إبراهيم عبد الله أن المرويات الكبرى لأفكار السلف هي التي توجه أفكار المؤرخين والجغرافيين والرحالة والمفكرين والفقهاء دون تأمل وتمحيص لهذه الأفكار فتنتج سلسلة متواصلة من الأحكام غير المنصة بحق الآخر المختلف فالمرويات الكبرى

تكشف الطريقة البارعة للسرود التي تنظيم حول حبكة دينية أو ثقافية أو عرقية مخصوصة فتخضع كل عناصر السرد لخدمة تلك الحبكة التي تظل يقظة في إثراء تمجيدي للذات وإثراء تبخيسي للآخر (انظر الصفحات: ١٣ - ١٤) وفي حوار مع السيد محمد حسين فضل الله عن شكل التسامح الذي تفصح عنه آيات القران الكريم يستشهد السيد فضل الله في البدء بعدة آيات من القرآن الكريم عن العفو الذي يعني التسامح وأنه أقرب للتقوى وأن الحرية الدينية التي يمثلها المنهج القرآني تختزن معنى الاعتراف بالآخر باعتبار واقعية وجوده وقبول فكره على قاعدة التنوع الإنساني في التفكير والتسامح.

إشكالية الإسلام والحداثة:

بعدها قرأ جبار حسين صبري عرضه لأحد أعداد المجلة حيث قال: صدر في بيروت العدد الثلاثون شتاء ٢٠٠٥ من مجلة قضايا إسلامية معاصرة،وهي فصلية فكرية متخصصة يصدرها مركز دراسات فلسفة الدين ـ بغداد وتناول ملف العدد (إشكالية الإسلام والحداثة)، وتمحورت المساهمات المنشورة فيه حول (الدين والتراث في عصر الحداثة). فقد تصدرت العدد كلمة التحرير للكاتب الإيراني مصطفى ملكيان حول (رهانات الحداثة) تساءل فيها عما إذا كانت هناك مفارقة وتناقض في الجمع بين الإيمان والحداثة في المجتمع الإنساني، وهل يكون سلوكنا غير متجانس حينما نكون مؤمنين وحداثيين في آن واحد؟ ويقول مصطفى مليكان (نحن شئنا أم أبينا أناس معاصرون، نحن إذن حداثيون من جهة ومؤمنون من جهة أخرى) إنسان الحداثة لا يمكن أن يقبل أو يتعايش مع الميتافيزيقيا الثقيلة التي تتصف بها الأديان، ويقول (ليس الإنسان المعاصر أن يتلقى الدين على غرار ما كان يتلقاه الإنسان القديم المحافظ) ويدعو مليكان إلى فهم جديد للدين يسميه (المعنوية) لأنه يعتقد إن الدين بمفهومه التقليدي ألتأريخي الأصولي لا ينسجم مع عناصر الحداثة، ويؤكد على إن المعنوية هي الدين المعقلن، والمعنوية نزعة تجريبية في الدين، ومؤداها ضرورة تجربة الدين في هذه الدنيا، وتميز هذا العدد بتنوع الحوارات المنشورة فيه.

لقد جاء الحوار الأول مع رئيس الجمعية الفلسفية المغربية الدكتور محمد سبيلا ليتناول (معوقات الحداثة الإسلامية وأزمة النخب).

وكان الحوار الثاني مع المفكر الفرنسي ريجيه دوبريه الذي صدر أخيراً كتابه (النار المقدسة) وشدد فيه على فاعلية الشأن الديني، وخلص إلى إن (المقدس هو أفضل طريق لفهم الدنيوي) وتحدث عن العامل الديني وأثره في تبلور وبعث الروح الاقتحامية.أما الحوار الثالث فجاء تحت عنوان (التراث والحداثة) مع مصطفى مليكان، وتحدث فيه عن أسلوب التفكير والحياة التقليدي.

وفي العدد مقابلة أخرى بعنوان (الإطار المنهجي للفكر الإسلامي المعاصر) مع الدكتور سعيد شبار الذي عالج مجموعة من الرؤى والمقولات والأدوات المنهجية في التفكير الإسلامي الحديث والمعاصر. وفي العدد كتب إدريس هاني عن (تصالح الإمكان الإسلامي مع الإمكان الحداثوي) موضحاً إن الاعتراف بوجود تراث لكل امة لا يعني القول إن كل امة تصنع حداثتها كما وكأنها كانت مخيرة في ذلك. وفي باب (دراسات) نشرت المجلة بحثا موسعا للدكتور عبد الكريم سروش يعالج إشكالية (الدين والتراث في العالم المعاصر).

كما تناول الشيخ محمد مجتهد شبستري (أبرز القراءات للتراث الديني المسيحي في عصر الحداثة) متوقفاً عند منهجية كارل بارث ورودولف بولتمان وشلاير ماخر.

وخلص إلى إننا لا نستطيع الحكم على مجتمعنا وتراثنا في ضوء الدراسات التي أجريت على التراث الغربي، فالمعروف إن ثيولوجيا المسيحية لا تزال حاضرة في كل أنسجة العلم والفلسفة والأبحاث الغربية، فالمفاهيم المطروحة، خصوصاً في العلوم الإنسانية والدراسات الاجتماعية والسيكولوجية والتاريخية وغيرها، والمعطيات التي توفرها لنا هذه العلوم، مضافة إلى أبحاث علماء الاجتماع والنفس والتاريخ والثقافة والانثروبولوجيا الغربية، زاخرة بالمفاهيم المسيحية، ولكن بصورة معلمنة، لهذا نراهم حينما يحاولون الإجابة عن: ما هو التراث، وما هي الثقافة؟ وحينما يقدمون نظريات اجتماعية حول الدين تكتسي جميع طروحاتهم ألواناً ثيولوجية مسيحية واضحة. ونقرأ دراسة للدكتور داريوش شايغان حلل فيها (كيف أمسى العالم شبحاً وما (تضخم النفس) المهيمنة والمكتفية ذاتياً. واستعرض الدكتور محمد الشيخ في دراسته (من الحداثة إلى ما بعد الحداثة) مغامرات الفكر الغربي في القرون الأربعة الأخيرة، ومبادئ الحداثة التي انتهى إليها هذا الفكر المتمثلة بـ (العاقلية والذاتية والحرية)، وفي العدد دراسة للدكتور محمد المصباحي عن تراث المتصوف ابن عربي في عالم ما بعد الحداثة، فدرس صورة العقل وصورة الوجود في مرآة ما بعد الحداثة، ساعياً لمقارنة ذلك مع أفكار مارتن هايدجر وبمناسبة دخول مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) عامها التاسع، عقدت المجلة ندوة لتقويم تجربتها والتعرف على دورها، ودراسة أثرها في تحديث التفكير الديني وجرأتها في زحزحة مجموعة من المفهومات، وذلك في مدينة أغادير في المغرب.وبعد أن ألقى نصف الباحثين قراءاتهم وأفكارهم، أشار مدير الندوة إلى تأجيل بعضهم إلى الجزء الثاني منها الذي سوف يقام على قاعة المركز السويسري ـ غاليري بغداد في شهر آذار القادم، لضيق الوقت ولكن الحضور تفاعل في مناقشة الباحثين والتعقيب عليهم، وتخلل ذلك الكثير من المساجلات الحوارية ضمن الأطر الحضارية للغة الحوار ولتأسيس علائق وأنماط جديدة في تفهم الآخر واحترام إبداء الرأي. ❖

الرفاعي من علم الكلام القديم إلى علم الكلام الجديد

قراءة في السؤال اللاهوتي

✍ د. عقيل مهدي يوسف[1]

يفخر العقل النقدي في العراق أن يؤسس لنفسه منهجاً مغايراً لما تم تداوله من موضوعات مختلفة في حقل الفكر الديني، وما يتصل بالأسئلة الفقهية واللاهوتية، التي تواكب متغيرات مجتمعنا، للخروج من مأزق الواحدية المركزية التي تخنق الإنسان في قوقعة مقفلة تتصادى فيها مصادرات معرفية منبتّة الصلة بهموم إنساننا المعاصر، ومنحشرة في زوايا التاريخ.

يتصدى د. عبد الجبار الرفاعي لمثل هذه المهمة الثقافية الجليلة، بما يمتلكه من مؤهلات تخصصية رفيعة المستوى، ووعي موضوعي، متفاعل مع المقاربات المعرفية الحديثة في هذا المجال الحيوي.

الأمر الذي يفتح آفاقاً جديدة أمام المثقف العراقي والعربي، ويشعره بالثقة في النفس، ويعزز قدراته على اقتحام فضاءات شبه محّرمة، بفعل قوة العادة، وهيمنة سلطة الوهم، وشيوع المغالطات.

وما كان لنا أن نتصور إن ما يقلقنا من أسئلة جمالية، وثقافية، هي نفسها التي تقلق الجمهرة الفقهية، ممثلة بطليعتها، ومنهم الباحث والمفكر الرفاعي، الذي قارب بمنهجيته المحدثة تمفصلات الخارطة الروحية وما يعتمل فيها من أحداث ووقائع وأفعال، يدخل في نسيجها هذان البعدان، الخارجي والداخلي، بعد التراكم التاريخي وبعد الذات المفكرة الحرّة.

الباحث الرفاعي في كتابه الموسوم: (مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد) يجمع جهوده الفكرية، لينحاز إلى حرية الفكر، وحب الإنسان، وتوقير الحياة الاجتماعية المنفتحة على غبطة الجمال، والعيش النبيل.

ترى هذا في مطارحاته، ومقابلاته، ومقالاته الصحفية، وتراجمه، مما شكل لوحة زاهية غنية بمنظوراتها العلمية والأدبية المرهفة تارة بمقارعة الحجة بالحجة، وتارة أخرى بالتلميح والإشارة، أو سحب البساط من الذرائع غير المنطقية المتوارثة عن جهالة لاعن فطنة، من سالف ألازمان.

---

(١) عميد كلية الفنون الجميلة سابقاً، جامعة بغداد.

ومنذ عقود ندرس الجماليات في الجامعة، ونحرص فيها تمام الحرص على تفكيك الخطاب الفلسفي بمفهومه العربي، الإسلامي، وتحفيز الطلبة على التأمل الحقيقي في الجدوى المتحصلة من الفلسفة لتحليل الفنون، بوصفها تمظهرات للذات المبدعة، ولم نكن نتوقف كثيراً عند علماء الكلام إلا لماماً، لأسباب منها انغلاق مباحثه بلغة اصطلاحية قديمة، وهي من المظنون به على غير أهله!

وكذلك عدم توفرنا على جهد فكري يغرينا بالوقوف عنده على مستوى منهجيته، ولغته، وتأطيره لمباحثه بتتبع تاريخي سليم، وتمييز الأساسي منها من الفرعي، كالذي نجده في مقدمة الأستاذ الرفاعي، وتكثيفه الأكاديمي لموضوعاته.

يؤمن هذا المفكر بان الكائن المتحول هو الأمر الطبيعي في ناموس الحياة، وبالتالي يبحث عن أسئلة جوهرية تثير الرغبة في المعرفة والاكتشاف ومن داخل النص القرآني، بعد كل ذلك الذي طرح عن الذات والصفات والقضاء والقدر والإمامة.

انه يستنبط الأسئلة من داخل البيئة المجتمعية، ويتابع الموقف العقائدي من حكم مرتكب الكبائر، والعدل والتوحيد، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، واختيار المكلف وسواها.

يقترح القرن الهجري الأول بداية لتشكل علم الكلام لتتضح مباحثه في القرن الرابع، وتتنوع مواقفه السياسية، وتتباين عقائده، فيما بعد يتابع الباحث تسمية علم الكلام عند الجويني في كتابه (الشامل من أصول الدين) والذي ظهر باسم الفقه الأكبر عند أبي حنيفة، لأن النظر في أحكام الدين وعقائده يسمى فقهاً أكبر، أما السلوك الفردي والاجتماعي فسمي بالفقه الأصغر. أو أطلقت عليه تسمية علم التوحيد، وهي تسمية الشيء بأشرف أجزائه، كما جاء لدى محمد عبده في كتابه (رسالة التوحيد)، وكذلك الماتريدي في كتابه (علم التوحيد) وبحثه في علم الذات وهل الصفات زائدة على الذات أم هي عينها؟

واتفق بعضهم على أن الصحابة والتابعين سكتوا عن المسائل الاعتقادية، لا يخوضون فيها.

الكلام صنّف في إطار نظري لفظي لا يتعلق به فعل، بخلاف الفقهاء الباحثين في الأحكام الشرعية العملية لذا اكتسب هذا العلم ـ كما يرى الشيخ علي عبد الرازق ـ طابعاً تجريدياً، منفصلاً عن الواقع الحياتي للمسلم. وفي قصة ابن أبي العوجاء الذي تردد في مناظرة الصادق (ع) فقال له الإمام لماذا لا تتكلم؟

فأجاب بقوله: إني شاهدت العلماء، وناظرت (المتكلمين) فما تداخلني هيبة قط مثلما تداخلني من هيبتك.

ومنهم من يجد صلة بعلم الكلام تربطه بفلسفة اليونان أيام المأمون، أو يحرّم الخوض فيه باعتباره ضرباً من الزندقة!!

ينقل عن الإمام مالك حظره للسؤال في بعض المسائل لأنه بدعة.

وقوله: من طلب الدين بالكلام، فقد تزندق.

ونظر الإمام الشافعي إليه وكأنه بلوى تعادل كل ما نهى الله عنه سوى الشرك.

وقال الإمام ابن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبداً.

في القرن الثالث الهجري، تأسست مدارس كلامية عند المعتزلة، والشيعة، والشاعرة.

بعد أن خاض الناس في السياسة واشتعلت الأفكار والفتن في قصور السلاطين، والمساجد، ليقضي على الاعتزال. وظهرت مدونات كلامية حتى القرن السابع الهجري مثل المغني للهمذاني والتجريد للطوسي.

ومما يثبته الأستاذ الباحث هو عجز علم الكلام التقليدي عن الوفاء بمتطلبات عقيدة المسلم اليوم، منها استعمالهم الحقائق (البرهانية) في القضايا (الاعتبارية) وما هي إلا قياسات شعرية، لا تهتم بالواقع، قدر اهتمامها بانسجام مكوناتها المفهومية الذهنية المجردة، أو الافتراضية في حين كان القرآن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الأعلون.

وسبب هذا الانفصام بين العلم الكلامي، والواقع العملي، هو إفراغه من مضمونه الاجتماعي، لتغدو العقيدة أشبه بتصديقات ذهنية غايتها في ذاتها، لا في سلوكها الاجتماعي الواقعي.

وكأنها تناست واقعها الحضاري، الذي ازدهر فيه التشريع والأدب والفن والعمارة.

وبخلاف هذا النمط الكلامي، لا يعتقد الفيلسوف بحقائق جامدة، ومسلمات قبلية خارج إطار البحث والبرهان، بينما يؤمن المتكلم بمسلمات قبلية، بقياس جدلي يدور في نقطة ثابتة بلا دليل، وكأنه رياضة ذهنية – كما يؤكد الكاتب – تفترض ثبات المدلول أولاً، ثم تبحث عن الدليل!!

وهنا تسقط حجة العقل، ولم تقدم له قدرة على الفعل والحركة، وهذا ما يتعارض – أيضاً – مع ما حققته الاكتشافات العلمية الحديثة فيما يخص قوانين الطبيعة والفرضيات الحقيقية المغايرة للأوهام والتخريفات ومما يشكل أصالة نوعية – للكاتب هو تغطية للفترة الواقعة بين غزو نابليون لمصر (١٧٩٨) وصولاً إلى علي شريعتي وهنا يظهر رفاعة الطهطاوي وكتابه (تخليص الابريز في تلخيص باريز) وهذه من البواكير الأولى للاتصال بالغرب وأوربا.

يحرص ـ الرفاعي ـ على عدم الاكتفاء بدمج المسائل الجديدة واستيعابها في المنظومة المتوارثة، عند البحث عن تطوير أو تجديد علم الكلام.

لان التجديد يشمل القضايا أو الأسئلة والهدف والمنهج والموضوع واللغة والبنية المعرفية، ومنها – الانتقال– من (الدفاع عن المعتقد) إلى (تحليل التجربة الدينية) بمنهجيات متعددة مثل: الهرمينوطيقا، والسيمياء، والظاهراتية، والتاريخية، والتجريبية، والبرهانية، وتوسيع وجهات النظر إلى حقول مختلفة مثل: الواقع، والأخلاق ومنظومة القيم.

لاختراق مستغلقات اللغة القديمة، ومباني المنطق الصوري الأرسطي، بلغة بديلة تستند إلى علوم العصر ومعارفه.

يكتشف الباحث الرفاعي هذه ألجدّة عند المفكر المعروف (محمد إقبال).

وبات اليوم أمراً طبيعياً، أن يقترن علم الكلام الحديث بعلوم أخرى مجاورة مثل: الأخلاق والتاريخ وعلم الاجتماع، وحقوق الإنسان، وعلاقتها بالمنظومة الفكرية الدينية. وإعادة إنتاج أفكارها، حسب الطباطبائي.

ويدحض – المطهري – الشبهات في تحديد لوظيفة علم الكلام، ويبين الأدلة على أصول الدين وفروعه، الباحث يلفت أنظارنا إلى شبهات مستجدة في عصرنا، ويطالب بتحديث المسائل والمباني الفقهية، وتميزها من الخرافات، كما سبق للأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي، ومالك بن بني، إن فعلوا من قبل. أو التأسيس لأرضية فلسفية كما نجد لدى محمد إقبال، ومحمد باقر الصدر، وسواهم.

وانتقل علم الكلام من طور الأحياء إلى طور التجديد وتكييفه لمتطلبات الحياة المتغيرة

يدعونا – الباحث – إلى اعتماد منهج الاستقراء القائم على حساب الاحتمالات في نمو المعرفة وتفسيرها، والارتحال إلى مواطن لم يفكر فيها من قبل ذلك لان تطور الفكر الإنساني يقترن دائما بالأسئلة الحائرة.

ولا تقتحم الحقول المعرفية البديلة إلا بمناهج وأدوات ومقولات ومرجعيات معرفية جديدة.

يدعونا – الباحث – إلى تفكيك نسيج الفقه، بفلسفة قادرة على أن تكشف لنا كيفية صياغته، ومعرفة معارفه، وأدواته الخفية الثاوية في بنيته الداخلية، لنشخص أصوله وفروعه ونحدد مركزه وتوابعه.

هذه الحفريات المعرفية في القراءة الجديدة للفقه توصلنا لاستنباط غير المرئي من الأنساق الداخلية لتجترح أسئلة غير مألوفة، وغير متداولة.

فالفقيه في خطابه يتناص مع المحدث والفيلسوف والمفكر العارف، لأنه ليس بمعزل عن التحولات الهائلة في العلوم الألسنية، والقانونية، والنفسية، والتربوية، والاجتماعية، والانتروبولوجية.

يدعونا – الباحث – أيضاً إلى التحرر من النزعة الاستصحابية التي سادت خطابنا التقليدي، ويحذرنا من التمسك الحرفي بنصوص مضى أدائها، وماتت حذلقتها الكلامية، وينبغي تحرير الإيمان وتطهيره من التشوهات التاريخية. وتمييز الدين من معرفة البشر للدين.

وإعادة الاعتبار إلى الرحمة والرأفة الإلهية والعفو والجمال والجلال، الذي يتجلى مشرقاً في النص القرآني. وإن الدين هو الحب، والحب هو الدين، حسب تعبير الأمام محمد بن علي الباقر.

إن فوبيا التحريم المطلق، هي الوسيلة الخطرة لتعطيل فعالية العقل وانقطاع المعرفة!

يتوقف في ختام مباحثه عند علي شريعتي، ويؤكد في سياق كتاباته على اشتراك التجارب الروحية في قوائم عامة، لكنها لا تتطابق، ومنها إن الدين يخلع معنى على ما لا معنى له، ويؤكد على أن آثار علي شريعتي تحكي لنا عن ذائقة فنان، وعقلية ناقد متنور، ونزعة مناضل متمرد، لذلك ظل موقفه ملتبساً حين أراد توظيف الأيدلوجية في الثقافة، وجعلها تقنية فائقة تفرض إرادة الإنسان على قوانين الطبيعة لتصطنع ما ليس فيها، وهذا يبرر مسعاه لتحويل الإسلام من ثقافة إلى أيديولوجيا.

وهنا، يحذرنا – المؤلف – من أحادية علي شريعتي بوصف الأيديولوجية، نمطاً قهرياً للفكر وحريته.

شريعتي كان يفضل الأسطورة على التاريخ، لأنها حكاية سردية كبرى، وجدت في فكر الإنسان وتقص تاريخاً ينبغي أن يكون، أما التاريخ فانه مجرد حقائق أوجدها الإنسان.

شريعتي يجر خلفه أفكار هيجل وماركس وسارتر، وتضج مدونته بالصراع الطبقي والبناء الفوقي والتحتي، والاغتراب وسجن الذات (الهيدجري)، والطبيعة، والمجتمع والتاريخ، وظواهرية هوسرل، وتمرد كامو.

بمثل هذه الأدوات التحليلية وسواها خاض المؤلف الرفاعي موضوعه، ليبين مثلما فعل عبد الرازق بناء المعرفة يخضع لأثر الزمان والمكان الأرضيين – أيضاً – وأن الدولة تقع في إطار خبرة الإنسان، ولا علاقة لها بالسماء.

كما يفعل بعض من طلاب السلطة، الذين يبحثون عن مطبلين، ووعاظ زائفين، لا يعرفون طريقاً للرحمة، بل يفتون بالقتل والتدمير، وانتهاك شرائع الأرض والسماء وتخريب الحياة.

يضاف اسم الدكتور عبد الجبار الرفاعي في سؤاله اللاهوتي الجديد، إلى الأسماء الأكاديمية المرموقة في هذا المجال.

❖ ينظر في كتاب: مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، تأليف د. عبد الجبار الرفاعي، مركز دراسات فلسفة الدين ودار الهادي، بيروت: ٢٠٠٥.

الرفاعي مثالاً للحوار الهادف والبناء للمسلم المعاصر

✍ د. مهران إسماعيلي[١]

أواخر ربيع سنة ٢٠٠١، حينما أردت الشروع بكتابة أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي، عرّفني أحد الأصدقاء الأعزاء على الدكتور الرفاعي. ألتقيته لأول مرة في منزله. استقبلنا بحفاوة وحرارة، وصلينا الصلاة أول وقتها. ومتى نكون في منزله نصلي عادة أول الوقت. كان لقاء فكرياً ودياً حميمياً، وبعد الخروج أحسست أن طاقة جديدة دخلت حياتي العلمية.

وقتئذ كنت تلميذ ماجستير في تاريخ الإسلام، واستمرارا مع البحوث التي انجزتها عن صدر الإسلام، كنت راغبا في دراسة الإسلام المعاصر، والتوغل في إشكالية التراث والحداثة.

في ذلك اللقاء اقترح الرفاعي عليّ ثلاثة عناوين عن الإسلام المعاصر، وافقت الجامعة على الأول منها. على الرغم من مقام الأستاذ الرفاعي العلمي، واستيعابه وخبرته بالموضوع الذي اقترحه، لكنه لم يكن يحمل شهادة دكتوراه حينها، فقررت الجامعة ان يكون مشرفا ثانيا.

الدكتور الرفاعي إضافة إلى قدراته العلمية المتنوعة، موسوعي وببليوغرافي متميز أيضاً. عرّفني بالكثير من المراجع العربية والمعربة، كما فتح مكتبته لي.

اليوم وقد أصبحت أستاذاً جامعياً؛ أدرك جيداً كم من الصعب أن ترشد تلميذاً لكتابة موضوع لا فكرة لديه عنه، ولم يتلق تعليماً في خصوصه.

بمرور الزمن أصبحت علاقتنا بالدكتور الرفاعي وثيقة. كنا مجموعة من الأصدقاء، كل منا يعمل في اختصاص محدد، لكن محور الأحاديث حينما كنا نجتمع في بيته في لقاءات شبه منتظمة هو الفكر الديني، واتجاهاته واشكالياته ومقولاته الراهنة. كنا قرابة خمسة أو ستة أشخاص نجتمع في داره كل أسبوعين أو ثلاثة، أو يدعونا لأحد مطاعم قم، وربما يدعونا نذهب أحياناً إلى مطاعم في قرى مجاورة لقم، وتبدأ حوارات ممتعة ومطولة.

---

(١) أستاذ في جامعة الشهيد بهشتي في طهران.

التواصل المستمر معه جعلني أتعاطى مع مواضيع هامة، مثل: التراث والحداثة، التحديث الديني في العالم العربي وإيران، إحياء الفكر الديني، الهرمنيوطيقا وتعدد القراءات، التنمية والحداثة، ومباحث كثيرة أخرى. في تلك اللقاءات تعرفت على المفكرين العرب في العصر الحديث، وفتحت لي نافذة على الفكر العربي المعاصر.

كنا نذهب معا لشراء الكتب من معرض طهران الدولي للكتاب، الذي يقام في فصل الربيع من كل عام. عادة ما كان يقتني كتبا متنوعة كثيرة. في تلك الأيام أيضاً تعددت أسفاره إلى معارض الكتب في الدول العربية، فتحوّل لنا بيته إلى معرض لآخر المطبوعات العربية والمعربة. لم يكن لقاء واحد يكفي كي نلقي نظرة على ما كان يقتنيه في كل سفرة، بل نتابع ذلك خلال لقاءات متعددة. اطلاعنا على آخر الإصدارت العربية كان يوسع أفقنا، ويمنحنا متعة.

عطفه وحنانه علينا كان إلى درجة كنت أحب أن أخاطبه يا عم. وبالفعل عدة مرات ناديته: عمي. بعدها تذكرت إن العرب ينادون والد الزوجة بالعم، فما ناديته بعدها. لكني بقيت أحبه واحترمه بكل صدق وإخلاص.

ناقشت أطروحتي في يونيو ٢٠٠٣، وفي ذلك العام الدراسي انتخبت كإحدى الاطاريح المتميزة في البلد. وهذا الفخر يعود لجهود الدكتور الرفاعي.

بعدها دخلت الدكتوراه وتنوعت انشغالاتي، وكنت أتمنى أن أتفرغ كي انهل منه أكثر. هو أيضاً كثرت مشاغله وأسفاره، خاصة سفراته الطويلة إلى العراق، وانخراط أبنائه في الجامعة، وازدياد مشاغله، مضافاً إلى وعكة صحية ألمت به، والمسؤوليات الجديدة التي أخذها على عاتقه، نجم عنها ضعف التواصل بيننا في السنين التالية. في هذه المرحلة كنا نزوره لحظة قدومه إلى إيران، فكان يرصد آخر ما طُبع في إيران، ونحن نتلقى منه آخر تطورات المشهد الثقافي العربي.

مشروعه في إيران كان هاما متميزا ومؤثرا. ومن الصعوبة بمكان أن يتمكن أحد من إكمال هذا المشروع. الساحة العلمية والثقافية الإيرانية استفادت منه كثيراً. ويعود له الفضل في التعريف بمفاهيم ومقولات وأفكار دينية جديدة ونشرها، سواء عبر كتاباته، أو تلامذته، أو ما تبناه ونشره وترجمه من كتب، أو عبر مجلته الرائدة: "قضايا إسلامية معاصرة".

قام بمشروع كبير لتعريف الإيرانيين بما صدر ويصدر من كتب في العالم العربي، من خلال الموسوعات والمعاجم التي نشرها. وتعريف العرب بعلم الكلام الجديد وفلسفة الدين والمفاهيم الجديدة في التفكير الديني في إيران... الرفاعي مثالا للحوار الهادف والبناء للمسلم المعاصر.

٢٠١٣/١١/٢٩

كيف أسهم الرفاعي في وضع الإنسان العربي على درب الحرية؟

✍ رشيد أوراز[1]

عقد من التحولات الفكرية:

درست الاقتصاد لمدة ثلاث سنوات قبل أن ألتحق، خلال مرحلتي الجامعية، بـ "مدرسة أكادير"، كما اتفق بيننا نحن مجموعة من الشباب المغربي أن نسميها. ولم يمنعني تخصصي من الانخراط في موجة نقد الفكر الديني، التي بدأت صغيرة في بداية تسعينيات القرن العشرين بقراءة بعض الكتابات المحدودة بين أبناء التيار الإسلامي المغربي، لتتحول فيما بعد إلى موج هادر، حطم كل البنى التنظيمية التقليدية، وأحدث رجة قوية داخل هذا التيار.

في تلك الظروف المشحونة بالصراع بين الشباب الناقد والتنظيم الإسلامي الصلب والعنيد، وغير القابل للتغيير والتجديد، اكتشفت في أرشيف أصدقاء الدراسة أعداداً من مجلة "قضايا إسلامية معاصرة"، اكتشفت الجسر الفكري الذي يربط بين غرب العالم الإسلامي وشرقه، وبين طائفتيه الكبيرتين. وقد كان لهذا أثر كبير فيّ.

إذ بينما جعلنا التنظيم الإسلامي نعيش على اجترار القضايا الهامشية، فإن "قضايا إسلامية معاصرة" فتحت أعيننا على القضايا الفكرية الكبرى التي تهم المسلم المعاصر. وإذ يغلق التنظيم الإسلامي على وعينا في متاهة طائفية، فإن مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" تكسر هذه المتاهة، وتفتح أمامنا الطريق نحو التحرر من الطائفية والمذهبيات التي ورثناها من تاريخنا الإسلامي الطويل. وفي مستوى ثالث تحولت القراءة الواحدة المجمع عليها للنص الديني في نظرنا إلى أحد العوامل التي ساهمت في ركود العقل الإسلامي وتيهه، بعيداً عن اتجاه التاريخ، وإضافات المعرفة، منذ نفي ابن رشد.هذه التحولات الثلاثة حدثت كلها بفضل مساهمة "قضايا إسلامية معاصرة" في تغذية نقاشاتنا الفكرية خلال تلك الفترة.

لم يكن لمشروع هذه المجلة أن ينجح من دون أن يقف وراءه رجل مستنير، يستطيع أن يجعل الاستنارة الفكرية شعاعاً يقوده في دروب الفكر الإسلامي الوعرة والملتوية. ولم يكن لهذا المشروع الكبير أن يلقى كل ذلك الزخم الثقافي في أوساطنا لو لم يكن صادقاً في مسعاه التنويري والتحديثي للتفكير الديني في الإسلام المعاصر.

(١) باحث مغربي متخصص في العلوم الاقتصادية.

في الواقع، لم تكن "قضايا إسلامية معاصرة" إلا واحدة من عدة مجلات فكرية إسلامية تصل إلينا في ذلك الوقت، إلا أن الأفضلية كانت لها، لأسباب عدة؛ منها:

أولاً: اختيارها الفكري الواضح، والبعيد عن الانشغال بالقضايا الفقهية المملة بالنسبة لنا كشباب آنذاك.

ثانياً: قطعها الواضح مع ثقافة التبشير المذهبي، التي كانت تحول دون استغراقنا في قراءة وتتبع بعض المجلات الفكرية التي تأتينا من شرق العالم العربي.

ثالثاً: لتنوع كُتَّابها بين المشارقة والمغاربة، والإيرانيين، ومن داخل التيار الإسلامي وخارجه أيضاً. لقد أعطت المجلة فرصة لكبار المفكرين للوصول إلى قراء متنوعين على مستوى العالم العربي.

ما زلت أتذكر بعض التفاصيل الصغيرة. فوصول مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" إلى الأسواق المغربية يكون فرصة لمهاتفة أصدقائنا الباحثين وإخبارهم. وهو فرصة أيضاً لتبادل أعداد المجلة بيننا والتناوب على قراءتها، لأن التوزيع يكون أحياناً محدوداً ولا يستطيع الجميع اقتناء نسخته. إننا أصبنا بعدوى ثقافية موسمية، وكنا نعد الزمن الثقافي بين بيروت وأكادير بالشهور، ونلعن عالماً لا تصل فيه الكتب التي تطبع في شرقه إلى غربه، إلا بعد ستة أشهر كاملة! لقد كنا أسرع من زمن عالمنا العربي، وكانت "قضايا إسلامية معاصرة" تجعلنا نسرع الخطى، لأنها تدفع الخطوط الفكرية الحمراء في كل مرة بعيداً، وتوسع أنساقنا الثقافية بهدوء، حتى تكسّر أغلبها فيما بعد.

كل مشروع تنويري وراءه رجل مستنير:

المشاريع التنويرية في البلدان الشمولية يحملها الرجال التنويريون الحقيقيون، أو لا تقوم لها قائمة. أولئك المؤمنون الحقيقيون بحتمية التغيير والتجديد. إنهم رجال من طينة عظماء الإنسانية. رجل يواجه أمة بمشروع ورسالة! ولن أبالغ إذا ما قلت الآن أن عبد الجبار الرفاعي إنما هو واحد منهم. فبفضل مجهوداته المتواصلة منذ أكثر من عقدين من الزمن، تمكن مشروعه الثقافي من تحقيق ما لم تستطع مؤسسات ثقافية كثيرة تحقيقه في العالم العربي. التنوير الفكري يحتاج أولا وقبل كل شيء لرجال متنورين يؤمنون بالإنسان.

لكن أفضل ما في الاستنارة الفكرية أنها لا تحدد لك مسبقاً الوجهة التي يمكن أن تصل إليها. إنك سائر نحو عالم الإنسان وحريته وحقوقه. وهذه المغامرة الإنسانية لا تكون على صورة واحدة راكدة مستقرة، وإنما متجددة ومتغيرة. وهنا يكمن مأزق الشخص الماضوي الأصولي المتشدد، الذي يضع للمستقبل صورة جامدة، ويحاول أن يدخل العالم والإنسان في علبته السوداء المغلقة النتنة. أما رجل الفكر المستنير فهو من يكتفي بتتبع

المغامرة الإنسانية المفتوحة، مثل كل الأفراد الآخرين، ولعب دور الضمير الأخلاقي، لا دور الوصي القسري. فالدين وضع لرفع الإكراه عن الإنسان، قبل أن يحوله رجاله لإكراه واستلاب إرادة الأفراد.

ما يزال بحثي مستمراً عن فكر يوافق بين الإسلام ومبادئ الإنسانية، بعيدا عن القراءات الأصولية المغلقة. وأستطيع أن أقول الآن إن أطروحة الرفاعي الذي يؤمن بأنسنة الدين تستطيع أن تنقذ الإسلام من مأزقه الحالي، الذي لا يود كثيرون الاعتراف به.

أنا أؤمن بشدة بتوافق كبير بين مبادئ الإسلام ومبادئ الإنسانية عامة. بل بإمكاني أن أفترض أن إنسانيتنا اليوم مدينة في تقدمها وازدهارها لقيم دينية. ألم يؤكد المفكر الليبرالي الأمريكي رالف رايكو Ralph Raico أن ثلاثة من كبار المؤسسين للفكر الليبرالي الكلاسيكي إنما استمدوا أفكارهم عن الحرية من الدين تحديدا وليس من مصدر غيره. يؤكد رايكو أن بنجامان كونستانت Benjamin Constant وألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville واللورد آكتون Lord Acton ألهمتهم أفكارهم الدينية أفكارهم الليبرالية التحررية.

لم تشأ الأقدار أن ألتقي بالدكتور الرفاعي إلا خلال هذا العام (ماي ٢٠١٣). لقد جمعنا مؤتمر علمي بمدينة المحمدية المغربية. وكان ذلك الموعد فرصة للحديث عن تلقينا لمشروعه الفكري المتمثل بالنسبة لنا في "مجلة قضايا إسلامية معاصرة"، وفي كل الكتب التي أصدرها "مركز دراسات فلسفة الدين" لمجموعة من المفكرين العرب وغير العرب.

وجمعتنا لاحقاً جلسة فكرية في مقر "المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الإنسانية" بالرباط، حيث أشتغل باحثاً اقتصادياً. ولم تكن جلستنا لتخلو من سرد الهموم التي تشغل مثقفاً عربياً من قامة وتجربة الرفاعي. ولا يمكنني إلا أن أقر الآن أني تفاجأت بأن الرفاعي لا يرى أزمتنا المستعصية من منظور واحد فقط، كما يمكن أن يظن من يرى مشروعه ويطلع عليه بعيدا عن محاورته.

لقد أبدا الرفاعي، لما تحدث لنا عن تطور الاستبداد والتسلط في العراق، وكأنه يعيد كتابة أفكار الاقتصادي الليبرالي النمساوي فريدريك هايك F. Hayek في كتابه "الطريق إلى العبودية".يكتب هايك: إن الحاكم الذي يدعي أنه سيحل المشكلات الاجتماعية، الحاكم الذي يرفع نفسه فوق بقية الأفراد، الحاكم الذي يرى في نفسه أب الأمة ومنقذها، ينتهي به المطاف كأي حاكم مستبد وطاغية. كان فريدريك هايك يرى في التخطيط للمجتمع الذي تمارسه الدولة خطراً على حرية الأفراد. وكان يرى في سلطة الدولة تهديداً كبيرا للحرية. أما عبد الجبار الرفاعي فقد قال لنا: أن الحاكم الذي يدعي خدمة الشعب،

ويتدخل في كل شيء، ويسعى لامتلاك كل شيء، ويهيمن على كل شيء في المجالين العام والخاص، ينتهي به المطاف ليكون كأي حاكم مستبد. والحكومة التي تتدخل أكثر تستبد أكثر، لأنها تريد أن تضمن أن يكون كل مواطن محتاجاً لها، وراكعاً لفروضها. إن مدخل الاستبداد والتسلط هو ادعاء خدمة الشعب... إنها الأفكار ذاتها.

هل ينتهي كل إصلاح ديني بمعانقة الليبرالية الإنسانية الكلاسيكية المؤسسة على مبادئ الحرية؟ ربما ما يزال الوقت مبكرا جداً للإجابة عن هذا السؤال في عالمنا الشرقاني. لأني لا أتوفر الآن سوى على تجربة شخصية متواضعة، حيث أصبحت مؤمنا أكثر من أي وقت مضى بأن الليبرالية/التحررية الإنسانية بإمكانها تحرير الفرد العربي من وحشية الاستبداد.وهو ما يمكن أن نتعلمه أيضاً من تجربة رجل عاش في ظل نظام ديكتاتوري وهرب منه، واختار أن يساهم في تحديث التفكير الديني في الإسلام المعاصر، الذي تقتات هذه الدكتاتوريات على أدبياته. أليس استيعابا لقوانين تطور التاريخ البشري أن تلتقي الأفكار ذاتها في السياقات ذاتها، مهما كان زمنها ومن يحملها من الناس؟

ألا يجتمع التسامح الديني، الذي يبتغي مشروع عبد الجبار الرفاعي تعزيزه، بالحكومة المدنية المحدودة في فكر جون لوك، وهو الذي بادر لنشر نصه الشهير "رسالة في التسامح" كأول كتاب ينشره ببغداد في سلسلة كتاب "ثقافة التسامح"، التي أصدرها في ٢٠٠٥ بعد انفجار موجة الإرهاب والاقتتال الطائفي؟

إن جون لوك John Locke الذي كتب "رسالة في التسامح" هو نفسه من يعد أب الفكر الليبرالي الكلاسيكي، وفكرته عن الملكية والحكومة المدنية هي التي أسست للثورة الليبرالية في الحقل السياسي الغربي. فمن لا يعرف جون لوك لا يعرف حقيقة العصر الذي نعيشه، كما يقول دافيد باوز David Boaz في كتابه "تاريخ الحرية" Histoire de la liberté. ويكاد كل الليبراليين الكلاسيكيين في الغرب يؤمنون اليوم أن الليبرالية إنما تحققت بالتقاء ثلاثة عناصر رئيسية: التسامح الديني، ودولة الحق والقانون، والحكومة ذات السلطة المحدودة.

إذا ما سمحت التغيرات السياسية الكبرى التي تعيشها بلداننا العربية بانتشار هذا المشروع التنويري، فإن بإمكاني القول: إننا على أعتاب عصر تنوير عربي جديد.

لا بد أن تعانق أفكار التنوير النزوع نحو الحرية لدى الشباب في هذا الجزء المنسي من العالم. وإذا ما حدث ذلك خلال العقدين القادمين فإن التاريخ قد اختار لأمتنا وجهتها الصحيحة مرة أخرى. وسيكون المشروع التنويري الذي أسسه الدكتور عبد الجبار الرفاعي قد ساهم في زرع بذور الحرية والتسامح والتنوير والسلام في بيئتنا الثقافية. وهذه مهمة لا يقوى عليها سوى التنويريون الكبار. ❖

الـرفـاعـي
والسـؤال اللاهوتي الجديد

✍ هاجر القحطاني(*)

يهدي عبد الجبار الرفاعي كتابه الأخير (مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد) الصادر عن مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد إلى زوجته (انتزال الجبوري...) وإلى صديقه (ماجد الغرباوي...) وهو يفعل ذلك اعترافاً منه بالدعم العاطفي والمعنوي والفني المتدفق الذي أحاطته به زوجته الكريمة، موفرة بود كبير مناخاً مثالياً للكاتب في التفرغ لانشغالاته الفكرية واهتماماته الثقافية.

واعترافا أيضاً بفضل الثاني في انبثاق الأسئلة، التي أدت إلى قدح شرارة الأفكار الجديدة في لقاءاتهما الودية الطويلة والكثيرة، التي كانت تأخذ شكل وهوية الحوارات الثقافية العفوية الحرة في الحوزة العلمية في مدينة قم الإيرانية، حيث كان يقيم الاثنان منخرطين في مشهد ثقافي عراقي فريد من نوعه، يزاوج بين الهم الثقافي المنتمي إلى الثقافة العربية خارج الحدود، والهم الثقافي الإيراني ابن السؤال السياسي والمعرفي المهجوس بالتواصل مع الآخر، في بيئة ثقافية وسياسية تميل إلى الاختلاف وربما الانقطاع.

يؤكد الرفاعي أن تاريخ البشرية هو تاريخ الأسئلة الكبرى، وبالتالي فانه لا ينشغل بالإجابات النهائية، أو أنها ليست همه الأول في سعيه لتقديم قراءة جديدة للدين، قراءة متخففة من الإرث التاريخي الكبير الذي يثقل ظهر الدين والمتدينين في هذا العصر، وقراءة ملتحقة بالركب المعرفي والعلمي الحديث، تتبنى أساليبه في البحث والتقصي والاستفهام والاستدلال والاستنتاج، في حرص واضح على عدم التفريط بالدين والحفاظ على الإيمان، الأمر الذي يميز عبد الجبار الرفاعي والتيار الذي ينتمي إليه، أو بالأحرى يمثله، باعتباره رائداً فعلياً له، تبنى إبرازه ولفت النظر إليه في مجلته المتميزة (قضايا إسلامية معاصرة) وسلاسل الكتب المتعددة الرديفة لها.

إن كتاب الرفاعي يترجم هموم وتطلعات ومواقف وأفكار هذا التيار الديني، الذي بدأ يتبلور بشكل تدريجي في الحوزة العلمية في قم وسط طلاب الدراسات الإسلامية من العراقيين، ولديه تطلعات تنويرية وتحديثية، انبثق مع بداية التسعينات من القرن المنصرم،

(*) قاصة وناقدة عراقية.

واتضحت ملامحه في منتصف ذلك العقد، متأثراً بمحاولات تحديث التفكر الديني في إيران على يد مجموعة من المفكرين المعاصرين.

ويمكن اعتبار هذا التيار وريثاً معاصراً لتيار ظهر في النجف قبل أربعين سنة وتجلى بجهود تنويرية لمحمد رضا المظفر ومحمد باقر الصدر في العراق، ولاحقاً السيد محمد حسن الأمين، والسيد هاني فحص، والسيد محمد حسين فضل الله، والمرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين في لبنان. غير أنه بالتأكيد يشكل نقلة نوعية كبيرة، لأن التيار السابق كان مهموما بتجديد النمط التقليدي للتعليم الديني في الحوزة العلمية بالدرجة الأولى، أما التباين الأساسي بين الاثنين فيكمن في الموقف من تسييس الدين، إذ بينما كان البعض من الأوائل يتبنى الإسلام السياسي، فان التيار الجديد يقول انه حرر نفسه منه، وهو يدعو إلى تطهير التدين من منطق الوصاية، ومن وثوقية الأيديولوجيا وإكراهاتها.

يطرح هذا التيار أسئلته حول القضية اللاهوتية التي يراها تمثل الجذر لكل البنيات الفوقية في الفكر الديني، وبذلك فهو يهتم ببناء لاهوت يدعو إلى تحرير صورة الإله مما طمسها من تفاسير وشروح تراكمت عليها عبر العصور، وتشكلت في سياق صراعات ومناخات ثقافية سادت القصور السلطانية، والتي عملت على صياغة صورة زائفة عن الإله، ولذلك يبحث هذا التيار عن صورة لإله رحيم يشيع السلام، إله رفيق بالعالم الذي خلقه، يمنح الإنسان حريته في إعمار الأرض، بما يشبه استئنافاً للنزعات التنويرية في التراث التي تمنح العقل مرجعية واسعة، والإنسان حرية كبيرة، داعية إلى علاقة حرة بين الإنسان والإله. وتبدو أهمية هذه القراءة في أنها تحرر الدين من الظلامية وتقدم نمطاً متسامحاً للتدين، ينفتح على كل الناس بشفافية دون حساسية عرقية أو طائفية.

لكن هذا لا ينفي أهمية مشروعات رائدة في العصر الحديث عملت على الانتقال بالتفكير الديني إلى مديات أرحب وأبعد مدى، وان كانت بعض هذه المديات مشغولة بفكرة الدولة الدينية، إلا أنها بكل حال أسست للانتقال إلى فضاء فسيح، مما سمح للقادمين بتخطي هذه المديات نفسها والعوم في فضاءات أوسع، مكنتهم من مراجعة نفس هذه المديات، ومن ثم تقديم قراءة جديدة لها، في محاولات جادة لتجاوز المشاغل السابقة والانتقال إلى هموم معرفية مختلفة، وهي هموم تتوكأ على النقد والمراجعة، وتعمل على نحت الأسئلة وتوليدها باستمرار، كما يصرح عبدالجبار الرفاعي في مقدمة كتابه قائلاً: في هذه الصفحات يرتسم شيء من ملامح نمط التفكير الذي أسعى لإعلانه ومناقشته، قبل أن أطمح للتبشير به، أو حمل الغير على الاقتناع به. إنه تفكير يتسلح بالنقد والمراجعة، باعتبار الفكر الحديث، الذي حقق المكاسب الهائلة في العالم، كله فكر نقدي.

كذلك يتسلح هذا التفكير بإثارة السؤال، والبحث عن الاستفهامات الحائرة والقلقة والمثيرة، لأن تطور الفكر البشري يقترن دائماً بالأسئلة الحرجة والاستفهامات الحائرة. وان السؤال الجديد يوقد عملية التفكير، ويقحم الذهن في مغامرة البحث في الحقول المهملة أو المجهولة أو الممنوع التفكير فيها.

ولا مطامح لما ورد في هذا الكتاب سوى الدعوة لإعمال العقل، والتنبيه إلى ضرورة التدبر والنظر فيما ورثناه من معارف، وإشاعة تقاليد جديدة تهبنا الجرأة وروح الاقتحام، لمراجعة ما لدينا من مفاهيم، وغربلة واختبار التراث، وما تركه لنا السلف، وبالتالي التحرر من سطوة مقولات أولئك الذين كانوا يكبحون العقل، ويحرّمون على المسلمين الخوض في أية استفهامات لاهوتية، بذريعة (إلجام العوام عن علم الكلام)، خلافاً لمنطق الوحي الذي يحث كافة الناس، من دون تمييز بين طبقاتهم ومراتبهم، على: التفكر، والتأمل، والنظر، والتدبر.... الخ.

وكل ما تحتوي عليه هذه الصفحات هو مقدمات وتمهيدات تسعى لاجتراح أسئلة، والخلاص من أية سلطة معرفية تعمل على كبح العقل ومحاصرته، بغية الكف عن إثارة الاستفهامات وتعطيل التفكير تحت أية ذريعة، فقد خلق الله الناس أحراراً، ومنحهم قابلية التفكير، ولم يحظر عليهم أي سؤال، مهما كان مشاغباً أو مستفزاً، كما يحكي لنا كتابه الكريم.

وبالرغم من تنوع المساهمات المنشورة في الكتاب غير أنها بمجموعها تلتقي في قضية تجديد مناهج الاجتهاد في المعارف الإسلامية، وتنمية مجالاته ليمتد إلى علم الكلام أو ما يعبر عنه الكاتب باللاهوت. ففي الفصل الأول يتناول ما يسميه بعلم الكلام الجديد، ويتحدث عن مبررات تحديث التفكير الكلامي وبناء علم كلام بديل لعلم الكلام الكلاسيكي، ويلخصها في:

١- هيمنة المنطق الأرسطي
٢- النزعة التجريدية أو الفصام بين النظر والعمل
٣- تفريغ علم الكلام من مضمونه الاجتماعي
٤- تراجع دور العقل وشيوع التقليد في علم الكلام.

ويضيف الرفاعي إلى تلك المبررات مبررات أخرى تتمثل في اعتماد الكلام القديم على الطبيعيات الكلاسيكية، والاستناد إلى معطياتها كحقائق نهائية، بينما نسخت العلوم الطبيعية الحديثة معظم الأفكار والفرضيات التي قامت عليها الطبيعيات بالأمس، وبرهنت

الاكتشافات الحديثة لقوانين الطبيعة على أن الكثير من فرضيات تلك الطبيعيات وأفكارها أوهام محضة.

كما أن الكلام التقليدي اقتصرت أبحاثه على مجموعة مسائل، ولبث الخلف يكرّر هذه المسائل ذاتها، ويفكر في داخلها، حتى تكونت لها حدود صارمة، لم يجرؤ أحد على تخطّيها، وصار مدلول العقيدة هو تلك المسائل خاصة، واتخذ المتكلمون نسقاً محدداً في ترتيبها، وظل هذا النسق هو هو في المدونات الكلامية.

وقد أدّى ذلك إلى حجب مباحث هامة في علم الكلام، لعلّ من أبرزها مبحث الإنسان، فلم يدرج في مؤلفات المتكلمين مبحث خاص بالإنسان، يتناول تأصيل موقف نظري يحدّد موقع الإنسان في سلم المخلوقات، أي منزلة الإنسان وقيمته بالنسبة إلى غيره من المخلوقات، كالملائكة والجنّ وغير ذلك، والهدف من وجوده، وطبيعة وظيفته، وأنماط حياته، وثقافته، وعيشه، وعلاقتها بما يتشكل لديه من رؤية كونية، وما يرتبط بذلك من مسائل، بينما نجد قضية الإنسان تتصدّر القضايا التي يعالجها القرآن. على أن أهمية هذه القضية تتنامى مع تطوّر الحياة الاجتماعية، وشيوع ألوان القهر والاستبداد، وامتهان الإنسان، وإهدار كرامته، وتدجينه على المفاهيم والقيم الرديئة، فما لم نتوفر على صياغة رؤية كونية تفصح لنا عن مكانة الإنسان، وتحدّد نوع علاقته بالدين، وتؤكد أن الدين جاء لتكريم الإنسان وهدايته وخدمته،تغدو دعواتنا لتحرير الإنسان مجرّد شعارات لا مضمون لها.

أما الفصل الثاني فيبحث ضرورة الاجتهاد في علم الكلام، ويشدد على أن المعرفة الكلامية معرفة تاريخية هي مرآة للعصر الذي ولدت فيه، لأن علم الكلام يعبر عن فهم المتكلمين للعقيدة، وفهمهم كأي معرفة بشرية يصطبغ بطبيعة الزمان والمكان، والنمط الحضاري للحياة، ومستوى تطور العلوم والمعارف الأخرى، وإن انتماء علم الكلام للإسلام إنما هو كانتماء المعارف الأخرى، أي بمعنى انه معرفة أنتجها المسلمون، مثلما أنتجوا الفلسفة، والتصوف والعرفان، والفنون، والآداب، ... وغيرها، ولا يبرر إنتاج المسلمين لتلك المعارف تعاليها على النقد والمراجعة؛ لأن انتسابها إلى الإسلام ليس سوى كونها ولدت في فضاء التجربة الإسلامية، وفي سياق مسار حضارة المسلمين. ولعل علم الكلام من أوضح ما أنجزه عقل المسلمين في تشبعه بالمؤثرات السياسية والثقافية المختلفة للمحيط الذي ولد فيه، وهذا ما يحكيه الاختلاف والتباين الفاحش في المقولات الكلامية.

لكن أهمية علم الكلام تكمن في إطلاق حرية الاجتهاد العقائدي، واختلاف المقولات ووفرتها تجسد وجهات نظر متنوعة أفضى لها التفكير الكلامي، مضافاً إلى أنها علامة فارقة على منح كل مسلم الحق في اختيار عقيدته، بل وحرمة تقليد الغير إن حظر التفكير الكلامي، والاقتصار على ظاهر النصوص، ومنع أية محاولة لعقلنة الفهم العقيدي، يفضي إلى تعطيل العقل، وشيوع نزعة نصوصية إخبارية تبناها المحدثون، وروّج لها ودعمها بعض الخلفاء الأمويين في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، وبالتالي سيادة التقليد في أصول الدين، بالرغم من أن هذا النوع من التقليد لم يقل بجوازه أحد سوى هؤلاء، فقد أجمع المتكلمون على منع التقليد في الأصول، واستدلوا بالعقل تارة وبالكتاب الكريم تارة أخرى.

وتعالج فصول الكتاب الخمسة عشر قضية تحديث التفكير الديني، وتتناول موضوعات متنوعة تلتقي بمجموعها في صياغة استهامات لاهوتية لم تكن معروفة من قبل. ولعل الميزة الأهم في هذا الكتاب هي محاولته التحرر من النزعة الجزمية والأحكام المطلقة الشمولية التي تطبع أدبيات وكتابات الإسلاميين، مثلما تفصح عنها عناوين كتاباتهم حين يسمونها بـ(كفاية... أو نهاية... أو منتهى....) بينما يسمى عبدالجبار الرفاعي كتابه بأنه (مقدمة) ويصفه بأنه يطرح سؤالا لاهوتيا (في السؤال اللاهوتي...) ولا يعد بإجابات جاهزة ونهائية. وان كان المؤلف لم يتحرر بشكل تام من التفكير اللاهوتي، ويفتقر إلى روح المجازفة والمغامرة المعرفية اللازمة لأية محاولة للتحديث، ربما بسبب انخراطه حتى اليوم في الحوزة العلمية، ومواظبته الحرفية على أداء الطقوس والشعائر والمراسم الدينية...



عبد الجبار الرفاعي:
مشروع حضاري – إنساني تنويري

✍ كرار الرفاعي[1]

كنت متشوقاً للقائه، لما لمست في أفكاره من تجديد وإصلاح، يمكن وصفه بـ(الثورة الإصلاحية) آخذة على عاتقها إعادة بينة التفكير الديني وصياغة مفاهيمه، لإرواء ظمأ تساؤلات المسلم المعاصر.

تلك التساؤلات التي ظلت حبيسة الصدور، خوفاً من سلاح الفتوى المقدسة من تفسيق وتكفير، ساعية ـ الثورة ـ إلى تقويم القراءات الصحراوية السائدة للشريعة السمحاء، بعد أن خلصت التفكير النقدي من الأسر وأطلقت له العنان من أجل ترسيخ العقلانية في الدين.

فكان الحوار الأول الذي دار بيننا ـ مجموعة من الشباب ـ وبين الدكتور عبد الجبار الرفاعي إزاء القضية العراقية والدين والأحزاب والمؤسسات الدينية آنذاك ذا أهمية في تبادل وجهات النظر مع مفكر إسلامي متصد لطرح مشروع فكري جديد من رحم النظرية الإسلامية. فقال كلمة ـ كانت بمثابة نبوءة للسلوك الديني في العراق: (هذا النمط من التعامل مع الفكر الديني سيصاب بشيء من الفتور في المستقبل، وسيظهر شباب من خارج المؤسسة الدينية هم الذين يحملون القضية الإسلامية على عاتقهم). فظننت انه أشار إلى مفهوم المثقف الديني وأهمية وجوده في الشارع العراقي، فتناول كتاب (التشيع العلوي والتشيع الصفوي) للمرحوم شريعتي فقدم الكتاب للحاضرين قائلاً: (أنا انصح الشباب بالاطلاع على مؤلفات المرحوم الدكتور شريعتي). عندها تحول ظني إلى يقين: من أن عبد الجبار الرفاعي قصد من كلامه (أهمية دور المثقف الديني في العراق). والمثقف الديني كما يعرفه الباحث العراقي عادل رؤوف في كتابه (عراق بلا قيادة): هو الشخص الذي يحمل فكراً وثقافة ذات هوية إسلامية له قراءاته الخاصة للدين لا القراءات الوراثية أو القراءات المؤسساتية والقادر على إنتاج إبداع فكري يمكن أن يتحول هذا الإبداع إلى تيار أو ظاهرة فكرية تأخذ طريقها في الجدل السياسي والاجتماعي.

لمحت إشارات في حديثه ومؤلفاته التي طالعتها بعد لقائي الأول به ولم تتبين لي ـ هذه الإشارات ـ إلا بعد لقائي الثاني في ٢٠٠٤/٧/١٦م هي بأن الشيخ عبد الجبار الرفاعي ينحى

---

(١) كاتب من مدينة الرفاعي.

منحى المفكر السوري (جودت سعيد) إن لم أقل شريكه في التأسيس لمنهج جديد في القراءة الدينية تتجاوز القراءات الأحادية ـ التعسفية للنصوص التي (حولت هذا الدين إلى إعصار يبدد كل مسعى إنساني بنّاء، ويحطم الكثير من معطيات الحياة البشرية ومكاسبها الرائعة عبر التاريخ، منهج يرى أن: (الإنسان كائن متدين، وإن اختلفت تجليات التدين، وتباينت التعبيرات الدينية في حياته، تبعاً لتنوع البشر واختلافهم).

إن المتبني لرؤية مفادها (التدين هو إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وإيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع كافة الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، وتدريب المشاعر والأحاسيس والعواطف على القيم النبيلة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع الهام الطاقة الحيوية الايجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها) والداعي إلى تطبيق تلك الرؤية نجده حقاً مطبقاً لها في نفسه وسلوكه، وليس كالمتحذلق لفظياً في حب الإنسان وهو ينجس قوما ويكفر آخرين مستبيحاً دماءهم ومستخفاً بوجودهم الإنساني. فعبد الجبار الرفاعي ـ الإسلامي المستنير ـ نجده يصف المرحوم كامل شياع ـ الماركسي ـ قائلاً: (كنت أحسب أن نموذج الإنسان الذي ينشده ابن عربي في (فصوص الحِكَم) وجلال الدين الرومي في (المثنوي) هو نموذج مثالي متعال على الزمان والمكان، غير بشري، حتى عاشرت كاملاً – يقصد كامل شياع ـ فعثرت على الكثير من خصائص الإنسان لديه. انظر: كامل شياع متصوف خارج الأديان. وعند تشرفي بلقائه يوم ٢٠١٠/١/٧. سألته عن الاختلاف بين رؤاه السابقة وبين رؤاه الحالية. فحدثني عن الفيلسوف (فتجينشتاين) الذي صار يعرف بين دارسيه بفتجينشتاين الأول وفتجينشتاين الثاني، وهو في الحقيقة فتجينشتاين واحد! لكن اختلاف الرؤية الأولى عن الثانية لفتجينشتاين هو سبب التمييز بين الرؤيتين. وقد كتب في مقدمة كتابه (مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد): (إن الحركة أو الصيرورة هي الناموس الأجلي في الحياة وهي تعبير وجودي عن إصغاء الإنسان لإيقاع التحولات والمتغيرات العظمى في الواقع). لذا أشير إلى من يريد الاطلاع على رؤية المفكر الإسلامي الدكتور عبد الجبار الرفاعي فليراجع كتابه (مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد) فهذا الكتاب يمثل ملامح نمط التفكير الذي يسعى لإعلانه أو على شبكة الانترنيت موقع مركز دراسات فلسفة الدين (الرؤية والتطلعات).

يشير عالم الاجتماع يوسف باسيل شلحت في مقدمة كتابه (مدخل إلى علم اجتماع الإسلام من الأرواحية إلى الشمولية) إلى أن المصلح لا يمكنه إنشاء شيء من لا شيء فالإصلاح يتكون ويترصن عادة من عناصر قديمة وفقا للطرائق الكلاسيكية في التمثل أو

التضفية في التوليف والتضاد. توافقياً مع شلحت في تحليله – دون الإشارة إلى أي مدى يمكن الاتفاق معه – نجد إن المصلح يجب أن يكون عارفا بجوهر المنظومة القيمية الفكرية من جهة والى إسقاطات وتراكمات التاريخ والبيئة والنفس واللغة على هذه المنظومة من جهة أخرى قبل إصلاحها.

كما لا يمكن تجاهل قبليات المصلح أو لاوعيه (اللاشعور) المؤثر ضروريا بعملية الإصلاح الذي ينشدها فالحركة الوهابية والسلفية وغيرها من التيارات قصدت الإصلاح لكنها جاءت بفكر تعسفي يؤمن بإقصاء الآخر وحتى إبادته فصادرت الحاضر للماضي وأسقطت مشاكل الماضي على الحاضر فحولت النفسية الإسلامية إلى فوبيا داخل المحيط الاجتماعي.

لذا فما نتطلع إليه هو مشروع إنساني ينشد الخير للشعوب يطهر الدين من الكراهية ويجتثها.

مشروع يدعو إلى الحرية وحقوق الإنسان وإرساء قيم الاختلاف وقبول الآخر والتعددية والتسامح.

مشروع يشيع ثقافة التعايش بدل التكاره، يتبنى رؤى ومفاهيم تواكب العصر.

مشروع ينفتح على المكاسب الراهنة للعلوم، ويعطي للعقل مكانته وإطلاق فاعليته.

باختصار مشروع بناء مجتمع مدني تعددي تسود حياته قيم التسامح والعيش المشترك.

لكن المدرسة التشاؤمية ترى إن مشروعا مثل الذي ننشده هو يوتوبيا كجمهورية أفلاطون ومدينة الفارابي. وهذا التشاؤم ناتج كما أتصور عن الحياة المأساوية التي عاشها المسلم نتيجة الحروب التي أخذت أكثرها صيغة الدفاع عن المقدس والذود عن شعب الله المختار والفرقة الناجية وغيرها من المفاهيم التي يجب أن تعاد قراءتها ابستملوجيا. كذلك حصول أزمة ثقة لديه في العديد من القيادات السياسية ومدى قابلية النخبة الفكرية على تأسيس هكذا مشروع.

لذا يرى الباحثون في مجال التغيير إلى إن ضخامة أي مشروع ــ ديني، سياسي، اقتصادي، فكري ـ تتناسب طردياً مع القابلية الاستثنائية التي يتمتع بها صاحب المشروع أو عظمته على حد تعبير المفكر المصري سلامه موسى.

فما القابلية التي يتمتع بها عبد الجبار الرفاعي لتأسيس المشروع الحضاري ـ الإنساني؟

يشير المفكر العراقي غالب حسن الشابندر في مقالته (الرفاعي رجل ومشروع) إلى تلك القابلية الاستثنائية فهو يرى: إن الرفاعي عصامي بالدرجة الأولى، مناضل ومتحد، خالق أفكار وصانع جيل من رواد الفكر وقادة الرأي، سخر طاقات المفكرين والسياسيين أمثال

الدكتور عادل عبد المهدي والدكتور عبد الوهاب المسيري وطه جابر العلواني وغيرهم من أجل صنع فضاء ثقافي عالمي خلاق.

شخصية ثقافية متطورة ومتجددة، موسوعي، عرف شرق العالم الإسلامي بغربه، اخرج المحرومين والمنبوذين والمحاربين إلى النور كي يساهموا في بناء ثورته الفكرية الرائعة، وأخيرا وليس آخرا مغرم بحب الإنسان.

صفة التمييز بين جوهر المنظومة القيمية الفكرية (الدين) وبين ما أسميناه التراكم الكمي على تلك المنظومة (التراكم الكمي على الدين) أهم ما يميز الرفاعي عن العديد من أصحاب المشاريع الإصلاحية كونه أعاد صياغة بنية العلوم الفكرية التي اشتغل درسا وتدريسا بها لأكثر من ثلاث عقود خلت.

فهو لا ينفي التعصب والعدوانية والاستغلال من الاجتماع البشري بل يراها مترسخة عبر التاريخ، كما يؤمن بأن عنف الإنسان ضد أخيه الإنسان هو سلوك بيولوجي، وسياسي، واجتماعي، وثقافي، وديني مزمن في الاجتماع البشري. وهذا العنف يهددنا ويلاحقنا حيثما كنا في بلادنا. لكن حصول ذلك باسم المقدس مأساة كبرى حلت بالبشرية وشوهت رسالة الأديان ومقاصدها الكلية على إشاعة السلم والتراحم والمحبة بين الناس، وتجفيف منابع العنف والعدوانية والتعصب. ولكن طالما تم طمس هذه الرسالة ونقض تلك المقاصد، بنشوء جماعات وفرق، لا تقتصر على إعلان انتمائها للدين فحسب، وإنما تصر على احتكار تمثيله، وتحرص على مخاصمة أية جماعة غيرها تقدم فهما مختلفا للدين. فقد رحلت وظيفة الدين المتمثلة في إعطاء الحياة أبعادا رمزية ومعنوية تجعلها أكثر إشراقا وجمالا إلى وظيفة أيديولوجية ساهمت في فتيل الحروب والنزاعات والصدامات التي دفع فاتورتها الأبرياء. نتيجة (تمأسس الدين) أي تحويله إلى مؤسسة، كالمؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، فهذه المؤسسات ترتبط عضويا بكل ما يعيشه المجتمع من مصالح وملابسات وتناقضات في الأيديولوجية، ومعبرة عن هذا التناقض، فيوظف نتيجة تمأسسه في تلك النزاعات والصدامات بين هذه المؤسسات.

بعد التنقيب والتحليل في المعارف الإسلامية ومصادرها لأكثر من ثلاثين عاماً يصل - الرفاعي - إلى أن القراءات الفاشية والصحراوية التي تعاملت مع النص بصورة تعسفية هي التي مثلت الدين تمثيلاً سلبياً في الاجتماع البشري فأنزلت إلى المجتمع ديناً مشبع بالإكراهات، مفرغ من كل محتوى عقلاني، اختزلته في مقولات وشعارات مغلقة حولت الدين إلى إعصار يبدد كل مسعى إنساني بناء، ويحطم الكثير من معطيات الحياة البشرية ومكاسبها الرائعة عبر التاريخ، ويعطل ديناميكية التطور في المجتمع.

من هنا يسعى المشروع لإنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، بالإعلان عن أبعاده المعنوية والعقلانية والجمالية والرمزية، والإيمان بأن الإنسان كائن متدين، وإن اختلفت تجليات التدين، وتباينت التعبيرات الدينية في حياته، تبعاً لتنوع البشر واختلافهم. والتأكيد على أن الحياة لا تطاق من دون خبرات وتجارب دينية، ذلك أن نزعة التدين تمثل ظمأ انطولوجيا لا يروى، إلا من خلال التواصل مع المطلق. ويمكن أن تظل تلك الخبرات والتجارب على الدوام منبع الهام التراحم والمحبة والجمال في العالم. وليس بوسعنا بناء بلادنا إلا بإشاعة فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورته الإنسانية، تلك الصورة المغايرة لما تريده الجماعات التي تعمل على تقديم صورة متوحشة زائفة للدين.

إن التحرر من كل ذلك يحتاج إلى تفكير حر، ففي مجتمعاتنا وللأسف الشديد قلما تجد إنسان يعمل على فهمه الخاص فالعقل عندنا في إجازة. ولذا فيرى الرفاعي إن النقد بوابة كل إبداع واهم أداة يعتمدها العقل البشري في التطور في مختلف المجالات، ومصدر التطور الفكري والاجتماعي، وأساس كل تقدم، وشريان تحديث كل شيء وتجديده، فلا حياة دون تفكير نقدي، ومن أجل أن ندخل مجتمعاتنا إلى عصر جديد يجب أن نفكر بحرية، ولا سبيل للخلاص والإفلات من نفق الانحطاط والتخلف إلا بتجذير ملكة النقد وتكريسها.

كما أنه بالرغم من أن الرفاعي مناهضاً للاستعمار ولكل شكل من أشكال الامبريالية إلا انه لا يريد أن يتحول ذلك إلى عقدة، تكمن في عدم القدرة على التعاطي مع العلم والمعرفة والمكاسب والمنجزات الحديثة بشكل حر، فمشروعه يسعى لتخليص اللاوعي الجمعي لمجتمعنا من تلك العقدة كي لا تكون رصيدا تعبث به وتستغله الجماعات السلفية والأصولية والقومية وكافة الاتجاهات والتيارات الأيدلوجية التي كرست حالة الانحطاط والتخلف من خلال خديعة الناس بهوامات وغوايات مصطنعة، عطلتهم عن بناء بلادهم والمساهمة في تنميتها وتطويرها. وما شعارات صدام وخطبه إلا نموذج بارز لهذه الحالة. فهناك العديد من البلدان حاربت الاستعمار لكنها استفادت من كل علم ومنجز تكنولوجي ولم تشتغل بإعادة إنتاج الكراهية للمجتمعات الغربية.

مشروع كهذا يتخطى لاهوت القرون الوسطى الذي أعطى صورة نمطية للإله، تشكلت في سباق الصراعات الدموية والفتن والحروب بين العديد من المذاهب والفرق، لاهوت استدعى القيم الرديئة للبداوة ـ التي رفضها القرآن ونعتها بتسميات قدحيه ـ ووظفها ذلك الفهم المنغلق بحجة الدفاع عن الهوية والأصالة. ❖

كيف طرح الرفاعي السؤال اللاهوتي الجديد؟

✍ علي عطوان الكعبي[1]

من خصائص المعرفة العديدة قابليتها على السعة والامتداد في طواعية لا تقف عند حدود معينة. وهي بهذا تمنح العقل مثابات عديدة للتزود والاستقراء والاستكشاف يتوقف فيها متدبراً ومراجعاً ومتفكراً فلا سلطة إلا سلطته ولا قول إلا قوله، يثير أسئلته وينطلق في أقاصي المعرفة باحثاً عن إجاباتها، ولعل أكثر تلك الأسئلة إثارة للعقل وتحفيزاً له هو عالم اللاهوت ذلك العلم الذي ظلت الدراسات النقدية زمناً طويلاً بعيدة عن الخوض في أسراره لخصوصيته الضيقة أحياناً، ولما يكتنفه من محاذير إشكالية أحياناً أخرى واللاهوت مفهوم يوناني يتكون من كلمتين تعنيان اللّه والكلمة وعند مزجهما تكون كلمة لاهوت فهو علم دراسة إلا إلهيات دراسة منطقية وعلم مثل هذا لم يتعرض له الكثيرون بالدراسة والتحليل في الدراسات الإسلامية.

وفي كتابه مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد الصادر عن مركز دراسات فلسفة الدين، المطبوع في دار الهادي ببيروت، يحاول الدكتور عبد الجبار الرفاعي، إيجاد مقدمات وتمهيدات تسعى بأسئلتها إلى الخلاص من أية سلطة معرفية تعمل على كبح العقل ومحاصرته وكفه عن إثارة الاستفهامات وتعطيل التفكير تحت أية ذريعة أخرى من خلال الاقتراب من هذا المفهوم في دراسات عديدة تؤدي في حيثياتها إلى إعطاء القارئ صورة قريبة عن ذلك.

الكتاب يضم مجموعة من دراسات كتبها الكاتب، في مجلة قضايا إسلامية معاصرة التي كان يرأس تحريرها، كمقدمات أو تصدير لبعض المؤلفات المنشورة في سلاسل الكتب الرديفة لقضايا إسلامية معاصرة أو أوراق مقدمة في ندوات ومؤتمرات، جاء الكتاب في خمسة عشر فصلاً تناول فيها موضوعات عدة، ففي الفصل الأول من الكتاب يستعرض في تمهيد تاريخي لعلم الكلام الجديد الذي تبلورت نواته الأولى في فضاء الاستفهامات، وما أحاط بها من جدل وتأمل في مدلولات بعض الآيات القرآنية المتشابهة التي تتحدث عن الذات والصفات والقضاء والقدر إذ يرى الباحث أن الحروب الداخلية في المجتمع الإسلامي كان لها أثر هام في تطوير النقاش في الموضوعات العقائدية وتوالد أسئلة جديدة تمحورت حول حكم مرتكب الكبيرة وخلق أفعال العباد وحرية اختيار المكلف وكذلك

---

(١) كاتب عراقي.

الفتوحات التي عملت على إدخال شعوب عديدة في الإسلام، أثرها الواضح في ذلك ويرى الباحث في النزعة التجريدية أو الفصام بين النظر والعمل ان موضوعات الكلام الأولى التي تبلورت تأثرت كثيراً بإسراف المتكلمين في استعارة منهج المنطق الأرسطي وتوظيف مفاهيمه في صياغة علم الكلام، فنجم عن ذلك تشرب التفكير الكلامي بمنهج هذا المنطق فانحرفت وجهته. ويتناول الباحث في الفصل الثاني الاجتهاد الكلامي الذي يرمي إلى دراسة التراث بموضوعية وأمانة والتحرر من التحيزات الطائفية والقبليات المذهبية في البحث، فالدراسة العلمية الموضوعية للتراث تتطلب التوفر على خبرة ودراية في التعاطي معه، واستلهام روحه وعناصره الحية والقدرة على توظيفها في منظومة الأفكار الكلامية الراهنة، ويتعرض في الفصل الثالث إلى فلسفة الفقه الذي يرى انه كأي علم آخر تنوعت الاجتهادات في تحديد معالمه وبيان حدوده وتشخيص موضوعه واكتشاف منهجه ولكن هذا العلم حين عجز عن الإجابة عن الكثير من الاستفهامات، حفز بعض الدارسين لتحليل تلك الاستفهامات واقتراح مجموعة رؤى ومفاهيم تصلح أن تشكل بنية تحتية أولية لتدشين علم جديد خارج مجال الفقه وأصوله. وفي الفصل الرابع يتناول الباحث تحديث التعليم الديني في الحوزة العلمية والتمهيد لانبثاق السؤال اللاهوتي الجديد حيث يحدد أن تاريخ الحوزة العلمية في النجف يمتد إلى ما يقارب ألف سنة حين بدأ الدراسة فيها الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى ٤٦٠هـ، ومنذ لك التاريخ أضحت النجف حاضرة علمية، فالحوزة العلمية لم تتردد في السعي لإصلاح التعليم الديني على عدة مستويات كالتحديث الشكلي والمحاكاة الحديثة لصيغة التعليم الجامعي وتحديث يطاول بنية المعارف الإسلامية والتمهيد لانبثاق السؤال اللاهوتي الجديد. وفي الفصل الخامس يبين الباحث تحرير الدين من الكراهية حيث يجري في الأدبيات المتداولة لدى الإسلاميين خلط بين الإسلام بمعنى نص الكتاب والإسلام بمعنى التراث المدون للمسلمين عبر التاريخ والإسلام بمعنى التجربة التاريخية للاجتماع الإسلامي في حين أن مراجعة عاجلة لنموذج الأدبيات السلفية توضح ان هذه الأدبيات بقدر ما تتحدث عن مناهضة الآخر فإنها تتكتم على مساحة شاسعة في النص تتحدث عن الرأفة والرفق والعفو. وتناول في الفصل السادس إسلامية المعرفة مفهومها ومسارها، إذ ظهرت الدعوة إلى تبني اتجاه على كتابة العلوم من وجهة إسلامية وأسس إسلامية للعلم وصياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية أيضاً. في حين تناول الفصل السابع الاستيعاب النقدي للتراث والمعرفة الحديثة، فالباحث بين أن التعاطي النقدي مع المعرفة الحديثة يتوارى خلفه موقف تبجيلي يغيب فيه النقد إزاء التراث إلى درجة عدم العثور على دراسات نقدية جادة للتراث الإسلامي بينما تتراكم الكتابات في نقد الغرب وهجاء

حضارته وقيمه وعلومه وفي الفصل الثامن يتعرف الباحث إلى راهن التفكير الكلامي الذي هو على الرغم من الأهمية القصوى له إلا أن الدارس لا يعثر على مؤلفات متميزة، وما ظهر من مؤلفات في السنة الأخيرة لا يوجد فيه كتابات اجتهادية إلا في مساحات ضيقة جداً، فباب الاجتهاد ما زال موصداً في الفقه لدى معظم طلاب العلوم الشرعية. فكيف بفتح باب الكلام الاجتهادي، وبين الباحث في الفصل التاسع الاتجاهات الحديثة في التفسير مقاربة تاريخية، إن المصلحين من علماء الأمة اتفقوا في العصر الحديث على أن إيقاظ الأمة واستنهاضها لن يتحقق من دون العودة إلى القرآن الكريم والتمسك به من خلال الاتجاهات الحديثة في التفسير، كالتفسير العلمي والتفسير الأدبي والتفسير الموضوعي والتفسير الاجتماعي. وتناول في الفصل العاشر النظام الثقافي العربي الراهن، إذ يشير إلى أن بداية ذلك النظام كانت في نهاية القرن الثامن عشر، عندما غزا نابليون مصر ولكنه يؤكد أن هذا الاعتقاد يعبر عن تفسير تبسيطي للتحولات الفكرية والاجتماعية. لأن مثل هذه التحولات لا ينفرد بها عامل واحد إنما يساهم في إنتاجها نسيج معقد من العوامل الظاهرة والمستترة. وتعرض الفصل الحادي عشر إلى المشهد الثقافي في إيران، حيث بيّن أن رصد الاتجاهات والتحولات الكلامية والفقهية والفكرية في إيران لا يمكن رصدها بسهولة لان وتيرة التغير الاجتماعي والثقافي تسارعت بشكل كبير وبين الباحث في الفصل الثاني عشر إن تاريخ الفكر الإنساني هو تاريخ الأسئلة الكبرى، من خلال حوار مطول أُجري معه، تحدث فيه عن رحلته العلمية وعن دراسته في الحوزة العلمية ومجلة قضايا إسلامية معاصرة. وعن إقامته في المهجر والترجمة وفي الفصل الثالث عشر يتعرض الباحث إلى قراءة المشروع الإحيائي للأفغاني، إذ يرى أن الكثير من مفاهيم الفكر الإسلامي الحديث يرجع إلى أفكار الأفغاني وينبثق في فهمه الجديد للدين ووظيفته في حياة الإنسان. وفي الفصل الرابع عشر يتناول الباحث حياة ورحلة الأنثروبولوجي الحاج جلال آل أحمد في مكة مستعرضاً فلسفة الحج لديه من خلال رحلته إلى مكة ومراحل تكوينه المعرفي وأهمية الرحلة في أدب الرحلات وفي الفصل الخامس عشر يتناول الحج كمرآة للتاريخ البشري في رؤيا المفكر علي شريعتي الذي حاول صياغة فلسفة تاريخ محورها حركة الأنبياء، وخاصة إبراهيم وتجربته الإيمانية العميقة وطبيعة المنعطفات الهامة في حياته.

والكتاب على الرغم من انه لم يتعرض إلى اللاهوت بشكل مباشر كمفهوم وعلم إلا إن الباحث حاول مجتهداً التوصل في مقاربة قرائية من وجهة نظر إسلامية قامت على شرح وتفسير واستعراض مفاهيم غاية في الأهمية. لصياغة مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد. ❖

محاولة الرفاعي
في إحياء علم كلام ولاهوت جديدين

✍ عماد الهلالي[1]

يستخدم اصطلاح الكلام – الذي يعني حرفيا؛ الحديث أو اللفظ المنطوق – في الترجمات العربية للأعمال الفلسفية اليونانية، للتعبير عن الاصطلاح اليوناني لوجوس (Logos) بكل معانيه المتنوعة الدالة على: الكلمة (Word)، والعقل (Reason)، والحجة (argument). ويستخدم اصطلاح الكلام في تلك الترجمات العربية كذلك للدلالة على أي فرع من فروع التعليم، واسم الفاعل (متكلمون) في صيغة الجمع، والمفرد منه: متكلم؛ يستخدم للدلالة على الشيوخ الممثلين لأي فرع مخصوص من فروع التعليم.

وهكذا يترجم التعبير اليوناني (metaphysics) بالكلام الطبيعي[2]. ويترجم الاصطلاحان اليونانيان (metaph) و(lbid) أحيانا بأصحاب الكلام الطبيعي. أو المتكلمين في الطبيعيات[3]. وبالمثل يترجم الاصطلاح اليوناني (metaph) بأصحاب الكلام الإلهي[4]، أو المتكلمين في الإلهيات[5].

بهذا المعنى أصبح اصطلاح الكلام يستخدم أيضاً عند من يكتبون بالعربية أصلاً ـ ربما بتأثير من هذه الترجمات العربية عن اليونانية – وعلى هذا النحو يتحدث الفيلسوف والمنطقي المسيحي أبو زكريا بن حامد يحيى بن عدي (ت ٩٧٤م) عن المتكلمين المسيحيين، ويتحدث المتكلم الشهير أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) صاحب الملل والنحل عن كلام إمبادقليس أو إمباذقلس (Empedocles of Adeagas)(ت ٤٨٣ق.م)[6]، وكلام الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطوطاليس Aristotle (ت ٣٨٤ ق.م)[7]، وكلام

---

(١) بكالوريوس في الشريعة الإسلامية، وماجستير في الأديان الإبراهيمية (Abrahamic Religions).

(٢) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد،تفسير ما بعد الطبيعة أو (تفسير ما بعد الطبيعة لأرسطو)، تحقيق: موريس بويج (M. Bouyges)، بيروت، ج١، ص ١٠٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٢٨.

(٥) المصدر السابق، ص ١٥٦٣.

(٦) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٦٢.

إمبدوقليس (Empedocles) (ت ٤٣٣ ق.م) فيلسوف يوناني كان مدافعا غيورا عن الديمقراطية.

(٧) المصدر السابق ٢٨٧.

المسيحيين في كيفية التجسد والاتحاد[١]. ويتحدث الشاعر والفيلسوف اليهودي أبو الحسن يهودا بن صموئيل اللاوي (ت ١١٤١م)[٢]، عن قوم ينتمون إلى مدرسة المتكلمين نفسها... أمثال أصحاب مدرسة فيثاغورس(Pythagoros) (ت٥٨٠ق.م) ومدرسة إمبادقليس (Empedocles of Adeagas)(ت ٤٨٣ق.م) ومدرسة أرسطو ومدرسة أفلاطونPlato) (ت٣٤٧ق.م) أو عن الرواقيين Stoicism) وعن فلاسفة آخرين، وعن المشائين الذين ينتمون إلى مدرسة أرسطو[٣]. ويتحدث ابن رشد عن المتكلمين من أهل ملتنا، ومن أهل ملة النصارى[٤]، أو على حد تعبيره المتكلمون من أهل الملل الثلاث الموجودة اليوم[٥]. ويتحدث المتكلم والفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون (ت ١٢٠٤م) عن المتكلمين الأول من اليونانيين المتنصرين ومن الإسلام[٦]، ويتحدث ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) عن كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات، والحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية[٧].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٢) يهودا اللاوي الذي يعرف في الغرب بـ يهودا هالفي (Judah Halevi) شاعر وفيلسوف يهودي. عمل طبيبا في قرطبة وغيرها من مدن اسبانيا، قرر أواخر عمره الإقامة في فلسطين، ولكن في طريقه إلى الأرض المقدسة توفي في مصر. من أهم وأشهر كتبه: كتاب الخزري الذي يعرف في الغرب بـ خوزاري (cuzari) أو (kuzari) الذي عبر عن آرائه الكلامية والدينية، وسمي بهذا الاسم لانه كتبه بشكل حوار بحضور ملك الخزر (khazar) بين ربي ومسيحي ومسلم وفيلسوف أرسطي، وفي النهاية يقبل الملك الديانة اليهودية، الكتاب مكتوب باللغة العربية ولكن بحرف عبري ترجم وطبع الكتاب منذ ظهوره بعدة لغات وبطبعات عديدة وطبع أخيراً في العالم العربي طبعة محققة وأكاديمية جيدة من قبل منشورات الجمل في بغداد وبيروت تحت هذا العنوان:

اللاوي، أبو الحسن يهودا بن صموئيل، الكتاب الخزري (كتاب الرد والدليل في الدين الذليل)، نقله إلى الحرف العربي وعارضه وهذبه وعلق عليه وحرره، نبيه بشير، ونظر فيه، عبد السلام موسى، منشورات الجمل، بغداد – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٢،

(٣) اللاوي، أبو الحسن يهودا بن صموئيل، الكتاب الخزري (كتاب الرد والدليل في الدين الذليل)، نقله إلى الحرف العربي وعارضه وهذبه وعلق عليه وحرره، نبيه بشير، ونظر فيه، عبد السلام موسى، منشورات الجمل، بغداد – بيروت، ٢٠١٢، ص ٥٣٩.

(٤) ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، ص ١٤٩٨.

(٥) المصدر السابق، ص١٥٠٣.

(٦) ابن ميمون، موسى، دلالة الحائرين، عارضه بأصوله العربية والعبرية وترجم النصوص التي أوردها المؤلف بنصها العبري إلى العربية وقدم له: حسين أتاي، منشورات جامعة أنقرة، ص ١٨١.

(٧) انظر في ذلك: ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ، تحقيق: كاترمير (E.M.Quatremere)، باريس، ١٨٥٨م، ج ٣، ص ٤١. وكذلك انظر: العوا، عادل، التجربة الفلسفية (الحدوس الفلسفية)، مطبعة جامعة دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٦٤، ج١،ص١١٠.

إضافة إلى هذا كله طُبّق اصطلاح الكلام دونما تقييد على نسق معين من التفكير في الإسلام، ظهر قبل ظهور الفلسفة، سمّي أعلامه بالمتكلمين، كان على النقيض من أولئك المفكرين الذين أطلق عليهم ببساطة منذ زمان الكندي (ت ٨٧٦م) اسم الفلاسفة[١].

إذن فعلم الكلام هو الذي صار يُسمَّى لدى العرب والمسلمين اليومَ علم أصول الدين أو علم التوحيد أو علم العقيدة. ويُسمّيه المسيحيون (اللاهوت) كما هو معروف، واليهود يسمّونه (تِئولُوكَيا) أيضاً. وإنما سُمّي لدى المسلمين قديماً علم الكلام لأحد ثلاثة أسباب: أهمية مبحث (كلام الله؛ القرآن) في ذلك العلم إذ أُطلق الجزءُ على الكُلّ. أو لأنّ الكلام والجَدَل والأخذ والردّ هو الأُسلوب أو المنهجُ المتَّبَعُ فيه. أو تأثُّراً بالنصارى في القرن الثامن الميلادي، والذين كان جوهر مباحثهم اللاهوتية: تَجَسُّد المسيح وفداؤه للبشرية. والمصطَلَحُ الذي يطلقونه على هذه العملية: الـ (Logos) أي الكلمة، وهي المفردُ الذي يبدأ به إنجيل يوحنّا: (في البدء كان الكلمة، والكلمةُ كان عند الله، وكان الكلمة الله)، فعلم اللاهوتُ عندهم هو علمُ اللوغوس أو الكلمة، وقد يكون المسلمون قلّدوهم، وترجموا الكلمة إلى الكلام، وسمَّوا به علم العقائد هذا، رغم اختلاف مضامين هذا العلم بين المسيحيين والمسلمين.

تطور علم الكلام:

للدين ـ حسب رأي البعض ـ جذور في أعماق النفس البشرية، لذلك نشاهد الدين ظهر لدى أغلب القوميات وفي القارات الخمس من العالم، وفي رأي البعض لا يمكن دراسة علم الكلام لدى المسلمين إلا إذا درسنا بجانبه الفلسفة اليونانية، لأنه لا يمكن دراسة هذا العلم دراسة صحيحة إلا إذا عرفت الفلسفة اليونانية معرفة تامة، وذلك أن هذا العلم قد اختلط أو تأثر تأثرا كبيرا بالأبحاث الفلسفية، حتى إن المتأخرين من المتكلمين؛ كالقاضي عبد الرحمن بن احمد الشهير بالعضد (ت ٧٥٦هـ) صاحب كتاب المواقف، وسعد الدين مسعود التفتازاني (ت ٧٩١هـ) صاحب كتاب المقاصد، وقبلهم عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) صاحب كتاب طوالع الأنوار، ونصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) صاحب كتاب تجريد الاعتقاد، والعلامة ابن المطهّر الحلي (ت ٧٢٦هـ) صاحب كتاب كشف الحق ونهج الصدق، قد قسموا علم الكلام على نسق ما قسم أرسطو Aristotle (ت ٣٨٤ ق.م) الفلسفة، فجعلوا أولاً بحثاً خاصاً بالعلم والنظر كمقدمة لهذا العلم، كما أن المنطق عند أرسطو

(١) انظر في ذلك: ولفسون، هاري، فلسفة المتكلمين، ترجمة وتعليق: مصطفى لبيب عبد الغني، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ٣٧ ـ ٤٠.

مقدمة لدراسة الفلسفة، ثم جعلوا قسماً للأبحاث الطبيعية، ثم قسماً خاصاً بالأبحاث الإلهية، ورتبوا كتبهم على هذا كترتيب أرسطو أبحاثه الفلسفية(١).

لا نريد في هذا المقال الخوض في تطور علم الكلام وامتزاجه مع العلوم والأفكار والمفاهيم الأخرى، وعلى الخصوص التراث اليوناني(٢)، ولكن لكل عصر كانت هناك أسئلة ومشاكل تواجه الفكر البشري، والعلماء بدورهم حاولوا الإجابة عن هذه الشبهات أو بعضها، ومع ردود الفعل كلها؛ من موافقين ومعارضين لعلم الكلام أو تحديد مفهومه، لكن العالم بقي يتحرك ويتطور باستمرار، وطرحت أسئلة من نوع آخر. المشاكل التي واجهت الفكر البشري من خلال مواقف عملية بدأت تطرح بكل جدية، سواء من خلال حروب إبادة لجماعات بشرية، أو من خلال أفكار كانت تمت إلى الواقع الخارجي الذي يعيشه البشر.

وضعت إذن النصوص الدينية أمام محك الواقعية، من هنا انقسم العلماء على أقسام عديدة: منهم من بقي على القديم واكتفى به، وحاول أن يقنع نفسه بأن القدماء أجابوا على كل الشبهات التي اختلجتها النفس الإنسانية، مع إن الزمان اختلف عن الماضي، والشبهات كذلك كانت من نوع آخر، ومنهم من حاول أن يواكب العصر والإجابة عن هذه الشبهات، إذ بإمكانه إقناع الآخرين، أو بالأحرى أن يقربهم إلى الواقع أكثر مما كانوا في الماضي.

تطوّر اللاهوت (Theology) المسيحي:

كانت في العالم المسيحي ثلة من المتدينين المسيحيين حاولوا أن يواكبوا العصر في الإجابة عن هذه الشبهات المطروحة بقوة في العالم المسيحي، بل العالم كله، لذلك انبرى مجموعة من هؤلاء ليحدّثوا اللاهوت المسيحي، وينقذوا الشباب الذين يبحثون عن حلول، ولكن لم يجدوها. وهؤلاء عرفوا فيما بعد باللاهوتيين الجدد، ومن أبرز هؤلاء:

---

(١) انظر في ذلك: الغرابي، علي مصطفى، أبو الهذيل العلاّف أول متكلم إسلامي تأثر بالفلسفة، مطبعة حجازي، القاهرة، ص ٣و٤.

(٢) للمزيد حول هذا الموضوع انظر إلى أطروحة الدكتوراه في جامعة دمشق والمطبوعة تحت عنوان: نفيسة، محمود محمد عيد، أثر الفلسفة اليونانية في علم الكلام الإسلامي، دراسة تحليلية نقدية، دار النوادر، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

يقول الدكتور عادل العوا: بين (علم الكلام) في الإسلام وبين (الفلسفة) بالمعنى الدقيق جامع وثيق يمثله الاتجاه العقلي واعتماد المنطق والحجة والبرهان سبيلا لنوال القصد، وبلوغ الهدف، وتحقيق المرام.
(التجربة الفلسفية (الحدوس الفلسفية)، مطبعة جامعة دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٦٤، ج١، ص١١٠).

١- فردريك شلايرماخر (Fredric Schleirmacher، ت ١٨٣٤).

يعد شلاير ماخر الممثل للروح الدينية في الفلسفة الألمانية، وقد أثرت آراؤه الفلسفية والدينية تأثيراً بالغاً في المذهب البروتستانتي (Protestantism).

٢- رودولف أُتّو (Rudolf Otto، ت ١٩٣٧).

رفض اتو كل تفسير عقلاني للدين، معتبراً أن البعد المقدس في الأديان هو الذي يبرز ويطغى على عقول الناس وتصرفاتهم. ورأى في الجانب الإلهي من الله، أي الجانب (المفارق)، حاجزاً يمنع البشرية من الاقتراب منه، لأنه يمثل لها (الآخر)، هذا (الآخر) الذي تكتنفه الرهبة والعظمة. مع إحساس دائم بالنقص من قبل الإنسان[١].

٣- بول تيليتش أو تيليخ (بالالمانية) (Paul Tillich) (ت ١٩٦٥).

صاحب نظرية اللاهوت الثقافي، إذ حاول أن يقيم لاهوتاً جديداً انطلاقاً من الثقافة.

٤- كارل بارث (Karl Barth) (ت ١٩٦٨).

انطلقت فكرة بارث من الفصل بين الله والإنسان، حيث الله في السماء (اللامتناهي)، والإنسان الذي يعيش على الأرض.

٥- رودولف بولتمان (Rudolf Bultmann) (ت ١٩٧٦).

شدد بولتمان على ضرورة استبعاد الأساطير، مع الإبقاء على الرسالة المبلغة (Kerygma) بلغة الأساطير. وهذا أمر أصبح ضرورياً وملحاً، نظراً إلى التقدم العلمي الذي لا تتفق منجزاته أبداً مع المعجزات أو الخوارق، التي يتحدث عنها العهد الجديد[٢].

هؤلاء حاولوا أن يعطوا حلولاً مقنعة للجيل الجديد، الذي تاه إيمانه بين الماضي وعصر الحداثة. وهؤلاء (اللاهوتيون الجدد) شقوا طريقهم بين علماء اللاهوت في العالم المسيحي، وصار لهم كنائس وقساوسة (رجال دين) وما شابه ذلك، ويمارس هؤلاء الآن، في وسط العالم المسيحي، أفكارهم بكلّ حرية، مع معارضة رجال الدين التقليديين لهم ولمنهجهم.

تطور الكلام (اللاهوت) اليهودي:

مرّ الفكر اليهودي أيضاً بعدة مراحل إصلاحية، بدأت بالفيلسوف اليهودي المعروف باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza، ت ١٦٧٧)، الذي درس التوراة دراسة موضوعية علمية، وفي الحقيقة كانت أفكاره منارةً للذين جاؤوا بعده، وصولاً إلى الفيلسوف اليهودي الألماني

(١) انظر في ذلك: الحاج، كميل، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، عربي ـ انجليزي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ص ٧٦.

(٢) للمزيد حول تطور علم اللاهوت المسيحي انظر:
Ford, F. David, The Modern Theologians (An introduction to Christian theology in the twentieth century), Blackwell Publishers, USA, SECOND EDITION, 1998, pp 102-21.

موسى مندلسون (Moses Mendelssohn، ت ١٧٨٦) حين استطاع أن يخرج اليهود من الحصار الخارجي الذي عملوه على أنفسهم وكان يعرف في الغرب بـ (الجيتو) (GHETTO)، وكذلك الحصار الفكري الذي صنعوه لأنفسهم. استطاع موسى مندلسون الذي يعد رائداً ليس للإسهام اليهودي في الفلسفة الأوربية فحسب وإنما أيضاً للتنوير الأوروبي نفسه[١]. وقد ارتبط ذلك الدور الريادي مع كونه قوة فاعلة في تحقيق ما عرف بالاندماج اليهودي في المجتمعات الأوروبية في نهاية القرن الثامن عشر، وبالتنوير اليهودي Haskalah (الهاسكالاه)[٢]، تلك الحركة التي جمعت التنوير الأوروبي بمفهومه الواسع، ببعض السمات الثقافية لليهود في أوروبا. استطاع مندلسون أن يلعب دوراً هاماً على مختلف المستويات الفكرية والدينية والإصلاحية جامعا بين الموروث الأوروبي واليهودي، حين ادخل اليهود الذين كانوا منغلقين على المجتمع بل حتى على أنفسهم إلى الحضارة العالمية من أوسع أبوابها. ومع كل المصاعب التي واجهها مندلسون من قبل الحاخامات والجماعات اليهودية التقليدية والضاغطة في الوقت نفسه، ولكن شق طريقه نحو الحداثة في الديانة اليهودية[٣].

واليوم يعد من أعظم رموز الثقافة والديانة اليهودية في العصر الحاضر، إذ هناك جملة معروفة على ألسنة الكثير من اليهود؛ وهي: هناك ثلاث شخصيات كبيرة في تاريخ الجماعات اليهودية، تتماثل في اسمها الأول: النبي موسى، وموسى بن ميمون، وأخيراً موسى مندلسون[٤].

وبعد المحرقة اليهودية (١٩٣٨) من قبل النازية التي أبيد فيها كم هائل من اليهود، والتي تعرف بـ الهولوكوست (Holocaust) تطور اللاهوت اليهودي تطوراً هائلاً، حين كانت

---

(١) يعرف مندلسون في أوروبا بـ (سقراط اليهودي في الفلسفة الألمانية).

(٢) الهاسكالاه، من كلمة (سخل) العبرية التي تعني (العقل) أو (التنوير اليهودي)، في سياق تلك الامتدادات، وكان مدار تلك الحركة عقلنة الثقافة اليهودية من نختلف النواحي الدينية والاجتماعية والفكرية. (البازعي، سعد، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، ص٢٢٢).

(٣) انظر في ذلك: البازعي، سعد، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٤) في كتابه (أورشليم أو في القوة الدينية واليهودية) قال: إن اليهودية التي يفهمها ويدعوا إليها تقوم على مبادئ ثلاثة:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ العناية الإلهية.

٣ ـ وخلود الروح.

وهي المبادئ التي تقوم عليها أية ديانة كتابيّة، ومن ثم فاليهودية لا تختلف عن غيرها من الأديان الأخرى.

الأسئلة التي أثيرت من قبل اليهود أنفسهم تحاكي الواقع، وتصب في عمق اللاهوت اليهودي، وعلى العلماء أن يجيبوا عن هذه الأسئلة الحساسة والمحرجة، من قبيل: إذا كنا نحن شعب الله المختار؛ لماذا جرت علينا كل هذه المصائب؟

وإذا كان الله ناظراً إلينا وجرت بعلمه كل هذه الأحداث؛ إذا أين الدور الإلهي لعنايتنا؟

وإذا كان الله قادراً على كل شيء؛ لماذا لم يفعل شيئاً؟

لأن الحدث كان عظيماً فالأسئلة أيضاً كانت محرجة بالنسبة لرجال الدين اليهود، أو عليهم أن يجدوا مخرجاً وجواباً يشفي الغليل لهذه الأسئلة. من هذا المنطلق ولأسباب أخرى، دخل الفكر اليهودي في غربلة إصلاحية أخرى، ومرحلة جديدة للإصلاح الداخلي، سواء على مستوى الشريعة، أو الفكر اليهودي عامة.

لذلك انبرت مجموعة من علماء اللاهوت للإجابة عن هذه الأسئلة الحرجة، وهؤلاء العلماء اليهود أيضاً استطاعوا أن يشقوا طريقهم وسط العالم اليهودي المعروف بميله إلى الماضي وتعصبه على الشريعة.

اللاهوت الجديد؛ علم الكلام الجديد (Modern Theology)

أما في عالمنا الإسلامي بعد كل هذه المصائب التي مررنا بها، وكل هذه الأسئلة المطروحة على مائدة الدين الإسلامي، ماذا فعل علماؤنا؟ هل استطاعوا أن يشقوا طريقهم بين علماء الدين، كما شق اليهود والنصارى؟ وأين موقعهم من هذه الأسئلة في عصرنا الحاضر؟ وهل استطاعوا أن يجددوا علم الكلام؛ ليواكب العصر ولو تحت مسمى (علم الكلام الجديد) في العالم الإسلامي الحاضر؟

يقال: إن أول من بدأ بحركة التجديد في الدين (أصول الدين) أو العقيدة في العالم الإسلامي في العصر الحديث هو الشيخ محمد عبده (١٩٠٥) الذي يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي، إذ جعل اسم كتابه في العقيدة (رسالة التوحيد)، أراد من التوحيد أن يكون محوراً ومنه تنبثق سائر المعتقدات، وهو تسمية للشيء بأشرف أجزائه[1].

أسهم بعد لقائه بأستاذه جمال الدين الأفغاني (ت ١٨٩٧) في إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين؛ تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري والحضاري، وإعادة إحياء الأمة الإسلامية لتواكب متطلبات العصر.

(١) انظر في ذلك: الرفاعي، عبد الجبار، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، مركز دراسات فلسفة الدين - بغداد ودار الهادي - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص ١٣و١٢.

لقد كان جمال الدين معجباً بحركة الإصلاح البروتستانتي التي قام بها مارتن لوثر في الغرب، والتي مثّلت بالدرجة الأولى ثورة على السلطة البابوية (Papal States) والإكليركية. ولم يكن حاله في هذا إلا شبيها بحال معظم المفكرين المسلمين في مصر والشام – كما سنوضح ذلك – في القرن التاسع عشر، الذين أبدوا بإزاء البروتستانتية حماسة لم يبدوها بإزاء الكاثوليكية. فقد رأوا أن حركة الإصلاح البروتستانتي تحقق في النهاية، في المسيحية، بعض ما طالب به المسلمون دوماً. هذا فضلاً عن أنهم اعتقدوا أن البروتستانتية تقترب من الإسلام قرباً رأوا معه أن تحول البروتستانتي إلى الإسلام هو أمر ممكن تماماً، إذا ما عرض عليه الإسلام بشكل سليم[1].

وهذا ما يؤكده الشيخ محمد مجتهد شبستري إذ يقول: إنّ الحديث عن علم كلام جديد إنما يكون له معنى فيما إذا لو قبل الإنسان ما حدث في الغرب من فلسفات وأفكار جديدة في القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة، فلو إن هذه الأفكار أضحت مقبولة واعتبرت حقيقة واقعة وتمّ منحها الاعتبار والصدق، فإنّ الحديث عن الكلام الجديد سيكون مثمراً، وإلا فإن كل حديث عن الكلام الجديد لا معنى له.

إنّ التغييرات الأساسية التي وقعت في القرون الأخيرة في العالم الغربي، وامتدت قليلاً أو كثيراً إلى المجتمعات الأخرى، تمثل في جوهرها تحولاً فلسفياً وثقافياً وسياسياً، وتحولاً صناعياً واقتصادياً، أما التحول الفلسفي فإنّه بدأ مع فلاسفة مثل جون لوك Jhon Locke (ت ١٨٠٤م)، وديفيد هيوم David Hume (ت ١٧٧٦م)، وإيمانويل كنط Immanuel Kant (ت ١٨٠٤م) الذين بحثوا مسألة الذهن البشري ومعطيات المعرفة البشرية وتحركوا على مستوى نقدها وغربلتها[2].

لذلك يُعدّ "محمد عبده" واحداً من أبرز المجددين في الفقه الإسلامي في العصر الحديث، وأحد دعاة الإصلاح وأعلام النهضة العربية – الإسلامية الحديثة؛ فقد أسهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي والإسلامي من الجمود الذي أصابه لقرون عدة، كما شارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر، وبعث الوطنية، وإحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة في العلم، ومسايرة حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية. وقد تأثر به العديد من رواد النهضة؛ مثل عبد الحميد بن باديس

---

(١) انظر في ذلك: جدعان، فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠١٠م، ص ٢٠١.

(٢) شبستري، محمد مجتهد، هرمنوتيك كتاب وسنُت (هرمنوشطيقا ـ تأويل ـ الكتاب والسنة)، طرح نو، تهران، ٢٠١٠، الطبعة السابعة، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٧.

(ت١٩٤٠) ومحمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥) وعبد الرحمن الكواكبي. وقاسم أمين (ت١٩٠٨) وطه حسين (ت١٩٧٣) ومصطفى عبد الرازق (ت ١٩٤٧)... وغيرهم.

بدأت الشرارة إذن في مصر وعلى يد رجل دين أزهري في القاهرة، واستمرت حركة الإصلاح الديني بعد ركود طفيف، ولكن بقوة أكثر من السابق؛ إذ تغيرت الأسئلة لذلك برزت إلى الساحة الإسلامية مجموعة من رجال الدين ومن المثقفين، ففي مصر حيث مهد التنوير والحرية برز أمثال: رفاعة الطهطاوي (ت ١٨٧٣)، ونصر حامد أبو زيد (ت٢٠١٠)، وحسن حنفي، ونوال السعداوي، وسيد القمني، وعبد الرحمن بدوي (ت ٢٠٠٢)، وعائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت ١٩٩٨)، وجمال البنا، واحمد لطفي السيد (ت١٩٦٣)، وطارق سعيد رمضان، ... وغيرهم.

وفي المغرب أمثال: عبد الله العروي، وعبدالسلام بن عبد العالي، ومحمد عابد الجابري (ت٢٠١٠)، وفاطمة المرنيسي، ومحمد سيبلا، وسعيد بنكَراد... وغيرهم.

وفي تونس: عبد المجيد الشرفي، ومحمد الشرفي، وهشام جعيط، وألفة يوسف، ورجاء بن سلامة، وفتحي بن سلامة، ويوسف الصديق، ومحمد الطالبي، وبسّام الجمل، ومحمد الحداد، وحمادي المسعودي، وحمادي ذويب، ... وغيرهم.

وفي السعودية: عبد الله القصيمي (ت ١٩٩٦)، وتوفيق السيف، وابن قرناس[1]، ... وغيرهم.

وفي الجزائر: مالك بن نبي (ت ١٩٧٣)، ومحمد أركون (ت٢٠١٠)، ... وغيرهم.

وفي السودان: محمود محمد طه (قتل ١٩٨٥)، وأبو القاسم حاج حمد (ت ٢٠٠٤)، وحسن الترابي.

وفي فلسطين: ادوارد سعيد (ت ٢٠٠٣).

وفي الأردن: فهمي جدعان، وشاكر النابلسي...

وفي سوريا: عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢)، وصادق جلال العظم، وأدونيس، وهاشم صالح، وعبد الرزاق عيد، وجورج طرابيشي[2]، وطيب تيزيني، وزكريا أوزن... وغيرهم.

---

(١) هو من مفكري التنوير الإسلامي، من المملكة العربية السعودية ولكن يكتب باسم مستعار، اغلب مؤلفاته تنشر من قبل منشورات الجمل (بغداد – بيروت)، منها: سنة الأولين: تحليل مواقف الناس من الدين وتعليلها، أحسن القصص: تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر مع ترتيب الصور حسب النزول، الحديث والقرآن، رسالة حول الخلافة وحكم الله، مسيحية بولس وقسطنطين.

(٢) ربما يقول البعض يشكل بان هؤلاء الأشخاص مسيحيون، ولكن هؤلاء كتبوا في ضمن الحضارة العربية ـ الإسلامية، بل البعض منهم حمل هموم العالم الإسلامي أكثر من المسلمين أنفسهم.

وفي شبه القارة الهندية؛ إذ تعدّ الرائدة في بلورة علم الكلام الجديد، ظهر أمثال: السيد احمد خان (ت ١٨٩٨)، وشبلي النعماني (ت ١٩١٤)، وأمير علي، (ت ١٩٢٨)، ومحمد إقبال (ت ١٩٣٨)، وفضل الرحمن (ت ١٩٨٨)، وغلام أحمد برويز (ت ١٩٨٥)، ووحيد الدين خان، ... وغيرهم.

والسيدة الأمريكية من أصول افريقية: آمنة ودود[1].

وفي الكويت: احمد البغدادي (ت ٢٠١٠). وفي البحرين: محمد جابر الأنصاري.

وفي إيران: حسن تقي زادة (ت ١٩٦٩)، واحمد كسروي (قتل١٩٤٦)، وعلي شريعتي (ت ١٩٧٧) وعبد الكريم سروش، ومحمد مجتهد شبستري، ومصطفى ملكيان، وداريوش شايغان، وسعيد حجاريان، ومحسن كديور، ... وغيرهم.

وفي تركيا: نجيب فاضل قيصاكورك(ت ١٩٨٣)، وخيري كرباش أغلو، ... وغيرهم.

وفي لبنان: بطرس البستاني (ت ١٨٨٣)، وفرح أنطوان (ت ١٩٢٢)، وشكيب أرسلان (ت ١٩٤٦)، وحسين مروّة (قتل١٩٨٧)، وعادل ظاهر، وعلي حرب، وحيدر حب الله، وحسن الأمين، و...

أما في العراق: علي الوردي (ت ١٩٩٥)، وجواد علي (ت١٩٨٧)، وجميل صدقي الزهاوي (ت ١٩٣٦)، محمد مهدي الجواهري (ت ١٩٩٧)، وفالح عبد الجبار، وسامي زبيدة، وإبراهيم الحيدري، ورشيد الخيّون، واحمد القبانجي، وسعد سلّوم، وحيدر سعيد، ويحيى محمد، وحسام الدين الألوسي (ت ٢٠١٣)[2].

---

(١) آمنة ودود: أستاذة في مجال الدراسات الإسلامية في جامعة فرجينيا كومنولث في الولايات المتحدة الأمريكية، أقامت قيل أكثر من عقد من الزمن صلاة جماعة ــ بإمامتها ــ في إحدى الكنائس الأمريكية، وكانت الصلاة خليطا بين النساء والرجال، حيث احدث هذا الحدث ضجة كبيرة في العالم الإسلامي . ولكنها أصرت على موقفها – رغم مخالفة الفقهاء لها – واستمرت بإقامة الصلاة مختلطاً بين الجنسين وبإمامتها، تهتم بالتفسير النسوي للتراث الإسلامي حيث تقول التفسير الذكوري مهيمن على النصوص في حين أهم نص إسلامي (القرآن) لا يدل على ذلك. من أهم كتبها التي ترجمت إلى اللغة العربية تحت عنوان: القران والمرأة، إعادة قراءة النص القرآني من منظور نسائي. تقول بعد أربعة عشر قرنا من القراءات الرجالية للتراث القرآني أريد أن أقدم قراءة نسوية للنص القرآني وهي تثبت في النهاية بان النص القرآني خال من أي أساس للتحيز ضد الجنس الأنثوي، أو أي تعصب.

(للمزيد عن أفكارها وآرائها راجع كتابها: القران والمرأة، إعادة قراءة النص القرآني من منظور نسائي، ترجمة: سامية عدنان، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م).

(٢) مع احترامي لكل الأشخاص الذين لم اذكر أسمائهم، وسعوا نحو التنوير الإسلامي وتقدم وإصلاح الفكر والعقل الإسلاميين.

وعبد الجبار الرفاعي الذي نحن بصدد كتابة مقال عنه؛ تخليداً للجهود التي بذلها لإصلاح الفكر الإسلامي، والترويج لنهضة (إسلامية) لعلم كلام ـ أو للاهوت ـ جديد[1]، سواء بشكل: كتاب أو ترجمة أو نشره من خلال مجلته الفصلية (قضايا إسلامية معاصرة) التي شرع بها من مدينة قم ومن ثم إلى بيروت وبغداد.

بدأ الرفاعي من خلال مسيرته العلمية وتجربته الثقافية يدرك المأزق الذي يمر به العالم الإسلامي والظروف العصيبة التي تمر بها الأمة[2] الإسلامية، فلم يحدث أن واجهت الأمة تحديات في عمق وخطورة ما تواجهه في الوقت الحاضر. صحيح أنه مرت على الأمة أوقات صعبة كانت تعيش فيها نكسات وهزائم، ولكن ما يجري الآن اشد خطورة وحساسية، فالغرض اذن ليس تقديم أجوبة نهائية.

سؤال النهضة الإسلامية:

في ظني ان جواب سؤال النهضة ليس من نوع الأجوبة التي نقرأها عادة في الكتب. نهضة الأمم تبدأ بولادة روحية النهضة، روحية النهضة هي في المقام الأول استيعاب شعوري للواقع الذي يعيشه الإنسان وتعيشه الجماعة، يتلوه تأمل في المخارج، أي تساؤلات متواصلة عن موضوع النهضة وبحث عن كيفياتها وسبلها ومراحلها وحاجاتها. هذه الأسئلة هي التمهيد الذهني لولادة مشروع النهضة، فهو اقرب إلى حراك مجتمعي يساهم فيه كل فرد أو نسبة معتبرة من الأفراد كلاً بحسب خلفيته وطبيعة همومه واهتماماته.

لسنا بحاجة إلى تكرار ما نعرفه عن حالة التخلف التي نعيشها فمظاهرها وانعكاساتها ومشكلاتها أبلغ تعبيرا من أي كلام. إن تخلفنا واضح في إنتاج العلوم، فنحن لا ننتج العلم ولا نطور ما نتعلمه من علوم الآخرين. وتخلفنا ظاهر في مجال المعيشة،

---

(١) تداول الكتاب العراقيون مفردة (نهضة)، وعلى نحو متواتر، في الأدبيات التي ظهرت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وفي معرض تحديد المعنى المتبدل لـ (النهضة) ظهرت مفردات أخرى، مثل: تنوير، ويقظة، وتحديث، وعصرنة، وأخيراً لم كلام جديد، أو علم اللاهوت الجديد. ومازال هذين المصطلحين الأخيرين يتداولان لدى الكتاب والمفكرين العراقيين إلى هذه اللحظة الراهنة التي نعيشها.
(انظر في ذلك: المحسن، فاطمة، تمثّلات النهضة في ثقافة العراق الحديث، منشورات الجمل، بيروت ــ بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ١٣).

(٢) نشر الرفاعي في مجلته قضايا إسلامية معاصرة ثلاث مجلدات ضخمة تتضمن محور: الاتجاهات الجديدة في علم الكلام (العدد الرابع عشر ٢٠٠١ ــ العدد الخامس عشر ٢٠٠١ ــ العددان السادس عشر والسابع عشر ٢٠٠١). عالج الدكتور الرفاعي في هذه الأعداد من مجلته القيمة محور حساس وبالغ الأهمية وهو: علم الكلام الجديد في العالم الإسلامي، أدرك الرفاعي بان العالم الإسلامي بحاجة إلى ضخ دم جديد لانبعاث روح التجديد في علم الكلام الإسلامي حيث بقى راكدا لعدّة قرون، في حين الأديان الأخرى مستمرة في تجديد علم كلامها أو لاهوتها.

فاقتصاديات العالم الإسلامي كلها لا تعني بالحاجات الحدية لأهله، رغم ضخامة ما تنطوي عليه بلاد المسلمين من الموارد الطبيعية، وما يمكن ابتكاره من إمكانات للثراء. والأمر ظاهر أيضاً في الثقافة الاجتماعية وما يقوم عليها من قيم سلوكية وعلاقات، فهي لازالت محكومة بتقاليد أكل الدهر عليها وشرب، ولا زال دينها مختلطاً بالخرافة والأسطورة، وديدنها البكاء على الأطلال، والفخر بالذين بادوا بعدما سادوا. أما في مجال السياسة؛ فالعالم الإسلامي هو الوحيد بين مختلف مناطق العالم الذي لازال أهله محرومين من حرياتهم الأولية، مهدورة حقوقهم التي يتمتع بها سائر البشر دونهم.

يكفي أن نطلع على التقرير الذي أصدره صندوق برنامج الأمم المتحدة الإنمائي عن التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢م، وفي هذا التقرير حقائق مذهلة عن الوضع الذي تعيشه الأمة العربية، حيث يصل عدد العرب إلى ٢٨٠ مليون نسمة موزعين على ٢٢ دولة، وهو يفوق تعداد الشعب الأمريكي الذي لا يتجاوز الـ ٢٦٥ مليون.

يتحدث التقرير عن الناتج القومي لكل الدول العربية، والذي يبلغ في العام الواحد ٥٣١ مليار دولار، بينما نجد أن دولة أوروبية متوسطة، كأسبانيا يبلغ الناتج القومي لها ٥٩٥ مليار دولار. ناهيك إذا أردنا أن نقارن الدول العربية مجتمعة مع الولايات المتحدة فان الرقم سيصبح مخيفاً للغاية.

ومعدل نمو دخل الفرد العربي في العام ٥٪، ومن أجل أن يتضاعف دخل الفرد العربي فإنه يحتاج إلى ١٤٠ سنة، بينما في البلدان المتقدمة يحتاج الفرد إلى ١٠ سنوات حتى يتضاعف دخله.

وهناك ٦٥ مليون إنسان عربي بالغ راشد أمي لا يعرف القراءة والكتابة، وثلثا هذا الرقم من النساء، كما أن هناك ١٠ ملايين طفل عربي في سن الدراسة ولكنهم خارج النظام التعليمي. ويصل عدد العاطلين عن العمل إلى ١٢ مليون، ونسبة الذين يلتحقون بالتعليم العالي لإكمال دراستهم هو فقط ١٣٪ بينما تصل هذه النسبة في الدول الصناعية إلى ٦٠٪.

وفي تقرير آخر لليونسكو، إن نسبة البحوث العلمية المطبوعة والمنشورة للدول العربية والإسلامية لعام ١٩٩٣م، شكلت فقط ١٪ من جملة البحوث المنشورة في جميع مجالات المعرفة. ويشير التقرير إلى أن عدد الباحثين في الوطن العربي هو ٨ آلاف باحث، بينما نجد إن في إسرائيل ٤٠ ألف باحث علمي مع العلم أن تعداد سكانها لا يتجاوز ٥ ملايين نسمة[1].

---

(١) انظر في ذلك: الصفار، حسن، رؤية حول السجال المذهبي، الواحة للخدمات الثقافية — العارف للمطبوعات، بيروت، ص ٧ ـ ١٢.

لذلك سعى الرفاعي لتطوير مشروعه الثقافي المتواضع، الذي بدأه في الحوزة العلمية في مدينة قم الإيرانية، ومن يواكب التطور المعرفي الذي سار عليه الرفاعي منذ عمله في مجلة التوحيد (١٩٨٢) وإلقاء الدروس في الحوزة العلمية، والكتب والمقالات التي نشرها في ذلك الوقت، إلى أن أصدر مجلة (قضايا إسلامية) بالاشتراك مع الشيخ مهدي العطار (قتل ٢٠٠٥)، حيث نراه يترك مجلة قضايا إسلامية ـ بعد مضي أربع سنوات (١٩٩٧) ـ[1] ليصدر مجلته الشهيرة (قضايا إسلامية معاصرة) لوحده، وما زال يواصل إصدارها.

ومن خلال رصد أعداد المجلة والتطور الذي طرأ عليها، يمكن النظر إلى هذه التجربة بوصفها محاولة للتفاعل بين التفكير الديني ومعطيات العلوم الإنسانية المعاصرة، لغرض الإفادة من الجوانب المعرفية الحديثة في الدراسات الإسلامية، بعد أن أصبح مثل هذا التفاعل محظوراً وفي بعض الأحيان محرماً في الأوساط الدينية التقليدية، فاقتحمت هذه المجلة حقولاً محظورة ومجالات مهملة أو على حد تعبير محمد أركون (المسكوت عنه في التراث الإسلامي) في التفكير الديني.

أشرف في تلك الفترة على سلسلة من الإصدارات المعرفية التي ترتبط بالدين والإصلاح الديني، ونرى الرفاعي يتطور بتطور الزمان، على الخصوص بعد رجوعه إلى الوطن الذي فارقه مجبرا أكثر من ربع قرن. والحرية التي اتسم بها العراق الجديد كانت نقطة عطف لكثير من المفكرين والمثقفين العراقيين، حيث انكشف المستور عن الكثير من القضايا التي كانت محل ريب وشك لدى المثقفين، ولا أريد الخوض في هذه التجربة العراقية الجديدة، لأنها تجربة واسعة جداً، وفي رأيي أنها نقطة تحول مفصلية في التاريخ الثقافي والمعرفي للعراق. لذلك بقي الرفاعي يواكب التطورات الثقافية والمعرفية على المستوى العالمي، لكي يطبخ جيداً في مطبخ المعرفة.

يرى الدكتور عبد الجبار الرفاعي أن الإصلاح الديني مقدمة لكل إصلاح آخر، ولكي ننتقل بمجتمعاتنا إلى بر الأمان والاستقرار والتنمية لابد من تحديث المؤسسة الدينية، وعليه، لابد من إقناع المؤسسة الدينية بضرورة التحديث، من منطلق أن المعرفة الدينية جزء من المعرفة البشرية المتداخلة والمتشابكة، من منظور فلسفة العلم، مما يقتضي استجابة المعرفة الدينية في بناها التحتية العميقة للتحولات التي تعرفها المعرفة البشرية، وإلا ستبقى خارج التاريخ، وخارج التطور، وخارج المكاسب الإنسانية المعاصرة. فللمؤسسة الدينية مهمات خطيرة، خاصة في المجتمعات التقليدية، ولا يحدث تحوّل في مثل

---

(١) تناولت المجلة (قضايا إسلامية) بإعدادها الضخمة ملفات شائكة ومهمة مثل: مناهج المفسرين، الاجتهاد والتجديد، قراءات في فكر محمد باقر الصدر، أثر الزمان والمكان في الاجتهاد.

هذه المجتمعات ما لم يحدث تحوّل في المؤسسة الدينية، ولا يمكن تحديث المؤسسة الدينية ما لم يتم تحديث تلك المجتمعات، بمعنى أن هناك تأثيراً متبادلاً بين طرفي المعادلة، لا ينفك أحدهما عن الآخر.

ويلخص الرفاعي رسالته في إصلاح الفكر الديني بإشاعة فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورته الإنسانية، تلك الصورة المغايرة لما تريده الجماعات التي تعمل على تقديم صورة متوحشة زائفة للدين.

الأنسنة والدين:

نرى الرفاعي يقوم بمعية المترجم الأستاذ حيدر نجف على ترجمة كتاب للمفكر الإيراني مصطفى ملكيان تحت عنوان: العقلانية والمعنوية، مقاربات في فلسفة الدين (٢٠٠٥)[1]، وينشر كتباً مهمة، وفيها يلمس القارئ تطوره المعرفي؛ من أهمها: مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد (٢٠٠٥)، التسامح ليس منة أو هبة (٢٠٠٦)، وأخيراً وليس آخراً، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين (٢٠١٢).

يتجلى بوضوح رؤية الكاتب في سعيه إلى تحرير الدين مما يسميه بـ "الفهم المتوحش"؛ فهم يحوّل الدين إلى منبع للعدوان والتعصب والكراهية. ويكون التحرير والإنقاذ بكشف النزعة الإنسانية العميقة في الدين والمتمثلة في الجوانب التنزيهية السامية، والتي تصطفي الإنسان، وترفع مكانته،وتلح على تكريمه، حيّاً وميتاً، وأن حياته هي مناط الاستخلاف والتكليف، وموطن المسؤولية والأمانة التي يحملها.

ويقتضي إبراز النزعة الإنسانية في الدين، بنظر عبد الجبار الرفاعي، تخليصه من التوظيفات البغيضة التي زجت به في حروب دموية "مقدسة"، واستعماله للتحريض على الموت، وتعبئة الأتباع وإلقائهم في معارك تنتهك كافة المحرمات. كما تقتضي هذه الوظيفة الإنقاذية تجاوز الأطروحات التحديثية المقلدة، خصوصاً في العالم العربي، والتي تربط النزعة الإنسانية بسياقات ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية غربية، تشكلت في القرن الثامن عشر في أوربا بعد القطيعة مع اللاهوت الديني الوسيطي؛ أي أن النزعة الإنسانية، وفق هذه المقاربة، لا يمكن أن تتمحور حول "الإله"، وإنما حول "الإنسان"، وهو ما لم يحصل في الماضي ويحصل اليوم! لكن القراءة النقدية للتاريخ، والقراءة التحليلية للنصوص الدينية، والتقويم النقدي للموروث الديني الإسلامي، هذا العمل الذي أنجزه عبد الجبار الرفاعي وينجزه، هو الذي يمكننا، بنظره، من النفاذ إلى البؤر المضيئة في النصوص، والتراث المتنوع الذي يحمله؛ من

(١) العنوان بالفارسي للكتاب هو: راهي به رهائي، جستاري در عقلانيت ومعنويت. أي: درب الخلاص، بحث في العقلانية والمعنوية. وأضافا المترجمان إلى الكتاب فصولا أخرى لملكيان نشرت في دوريات أخرى.

منطلقات أساسية، وأهداف عامة، ومقاصد كلية، بعيداً عن الإسقاطات الأيديولوجية الإقصائية والمعتقدات القمعية. عندها نستطيع، بنظر الرفاعي، التخلص من نزعات الهيمنة بالدين، وإخضاع الناس، ومراقبة الضمائر، وتفتيش العقائد.

إن إحياء النزعة الإنسانية في الدين، من منظور الرفاعي، يقوض الطاغوت، ويفضح المشروعيات الزائفة القائمة على تأويل متوحش للدين. والنزعة الإنسانية لا تنتعش إلا في أجواء الحرية والديمقراطية، وسيادة قيم التعدد والاختلاف المؤسسة للمجتمع المتمدن.

ولا يخفي عبد الجبار الرفاعي أن مجهود إحياء النزعة الإنسانية في الدين سيتعرض لمقاومة اللاهوت الكلاسيكي القائم على التفسيرات المتعسفة والقمعية للنصوص، وعلى الصورة النمطية "للإله" المستلب لحالات ذهنية ومصالح اجتماعية للاهوتيين أو السياسيين. فالنزعة الإنسانية في الدين تستلهم الصفات الجمالية للإله وأسمائه الحسنى: الرحمن، الرحيم، القدوس، السلام، المؤمن، البارئ، المصور، الوهاب، الرزاق، البصير، العدل، اللطيف، الحليم، الشكور، الكريم، المجيب، الواسع، الحكيم... وهذا الاستحضار الإنساني والجمالي للإله، يعاكس المقاربات السلفية التي تتكتم عن المعاني الإنسانية في الدين، لتنحت ديناً خاصاً بها، وتشكله في إطار وعيها وخلفياتها وتحيزاتها وافتراضاتها الذهنية؛ دين غريب عن الدين المؤسس؛ أو قل بتعبير علي شريعتي: "دين ضد الدين"، أو بتعبير الصادق النيهوم: "إسلام ضد الإسلام"! دين مشبع بالإكراه والقيود والإصر والأغلال؛ أي مجموعة من المقولات والشعارات المغلقة، التي تستنزف الطاقة الحيوية والإبداعية والإنسانية لرسالة الدين، وتحوله إلى ركام من الأعباء ينوء الناس بحملها؛ دين مملوء بقيم بدوية رديئة.

إن إنقاذ النزعة الإنسانية للدين، من منظور الأطروحة الفكرية لعبد الجبار الرفاعي، تعني استيعاب الحياة الروحية الخصبة في الدين، وإحياء التجارب الإيمانية المتنوعة، للعيش في عالم ممتلئ بالمعنى، يتخلق فيه الإنسان بأخلاق الله، وفي مقدمتها حب الآخرين، وتمني الخير لهم. فالحب هو منبع إلهام الحياة الروحية، ومصدر الانجذاب إلى الله تعالى. والحب رحمة، وهو الابتعاد عن مظاهر الكراهية والإكراه.

ويلخص فكرته عن النزعة الإنسانية في الدين، في ما يلي: أن لا سبيل إلى جني معطيات النزعة الإنسانية في الدين إلاّ بالخلاص من التفسيرات المتعسفة القمعية للنصوص، وتخطي المفاهيم والمقولات النمطية والكلاسيكية المغلقة في اللاّهوت الكلاسيكي. وإنما يتحقق ذلك بفتح باب الاجتهاد في علم الكلام (العقائد)، وتحديث الفكر اللاّهوتي، ومحاولة بناء لاهوت عقلاني مستنير.

بعض المسائل المطروحة في علم الكلام الجديد:

عبر الحراك الفكري في الغرب والأسئلة النقدية التي طرحت في العالم الإسلامي دخلت سلسلة من المسائل الجديدة إلى عالم الفكر، وأثيرت علامات استفهام حول المنهج الأرسطي والمقالات والمفاهيم الأرسطية التي كانت المنهج المقبول للفكر عدة قرون متمادية وأضحت مبنى للاستدلالات الفلسفية والدينية أيضاً، ثم جاء الفلاسفة التجريبيون وكذلك الفلاسفة المثاليون ونقدوا الفلسفة الأرسطية من زاوية أخرى. وهنا برز هذا السؤال للمتدينين: لقد كانت إلى الآن مقولات (الله والنبوة والآخرة) وسائر المسائل الدينية الأخرى تطرح على أساس تلك المقولات والمفاهيم المذكورة في الفلسفة الأرسطية، والآن بعد ظهور خلل وارتباك في ذلك المنهج الفكري وتلك المقولات والمفاهيم فيما يتصل بالمسائل الدينية باللحاظ المعرفي، فكيف وبأي مقولات ومفاهيم جديدة يمكن الحديث عن الله والنبوة والآخرة وسائر المسائل الدينية الأخرى؟

وفي خضم المتغيرات الثقافية والسياسية لبلدان الغرب فإنّ الأفراد في تلك المجتمعات أعادوا النظر في جميع العناصر الثقافية والعادات والتقاليد الماضية لهم، وطبعا فان إعادة النظر فيها لا يعني رفض ونفي الماضي، بل المراد أنهم أوجدوا فاصلة تاريخية مع ماضيهم وتحركوا بشكل دقيق على مستوى غربلته ونظروا إليه بمنظار النقد، أي إنهم نظروا إليه بمنظار النقد، أي إنهم نظروا إلى تقاليدهم وأفكارهم من خارجها.

إنّ حدوث هذه الفاصلة التاريخية يعد أهم حادثة ثقافية في القرون الأخيرة، ورغم أنها كانت في البداية تحوّلاً ثقافياً محضاً ولكنها اقترنت بتحول سياسي يهدف إلى إسقاط النظم المستبدة.

وفي هذه المرحلة ظهرت مفاهيم (الحرية والمشاركة والسياسة) ومفاهيم (المساواة بين الجنس البشري وحقوق الإنسان) وما شابه ذلك.

إذن من أهم الأسئلة التي طرحت في ضمن علم الكلام الجديد هي:

١- **مجال الدين:**

هل الدين محدود في دائرة الفرديات والأخلاقيات، أم انه يمتد ليشمل النواحي الأخرى مثل السياسة والاقتصاد... وغيرها؛ بل حتى الأمور الطبيعية وما شابه ذلك؟ وما هي تأثيرات الجواب هنا على الفهم الديني ككل؟

وهنا في الحقيقة يقع ملتقى مجموعة من النظريات أبرزها نظرية: (انتظار وتوقعات البشر من الدين)، وهل الدين يشمل جميع أمور الحياة؟ من هنا جاءت نظرية (الدين بالحد الأعلى والدين بالحد الأدنى)، أي ما مدى الاستفادة من الدين في شؤون الحياة. من هنا أيضاً

انبثقت النظرية الأكثر جرأة وهي (تكامل التجربة النبوية)، ومن أبرز من تبنى هذه النظرية الدكتور عبد الكريم سروش في إيران حيث طرحها بقوة تحت عنوان: بسط التجربة النبوية، وترجم الكتاب إلى اللغة العربية وطبع من قبل الانتشار العربي في بيروت، وإلى اللغة الإنكليزية ونشر من قبل منشورات بريل (BRILL) في هولنده.

٢- اللغة الدينية:

هل هي لغة رمزية، أم أسطورية، أم قصصية، أم بيانية، أو هي لغة واقعية، تحاكي الأمور المعاشية للناس. هل ترجع القضايا الدينية إلى مضمون، أو أنها بلا معنى كما يقول الوضعيون؟ هل اللغة الدينية إنشائية، أو إخبارية (حقيقية أم مجازية)؟ هل للدين لغةٌ خاصةٌ به؟

٣- النزعة الدينية:

ما هي أسباب ظهور التدين؟ الخوف أو الجهل أو الطبقية أو...؟ علينا تحليل نظريات كارل ماركس، وسبنسر، ودوركهايم، وفرويد، وهل البشر بحاجة إلى دين؟ وهل الدين فطري؟ وما معنى حقيقة الفطرة؟ هل الفطرة أمر آخر غير البديهيات القبلية التي قّررها علم المنطق، أم أنها ليست سوى هذه القبليات الواضحة عقلياً؟ وبالتالي هل يمكن الاعتماد بصورة مستقلة على الفطرة في قبال الأدلة والمعايير العلمية الأخرى أم لا؟

٤- التجربة الدينية:

ما هي حقيقة المشاعر والأحاسيس الدينية، وما هي عناصرها وميزاتها، وهل هناك فرق بين التجربة الدينية والأخلاقية، أو بين التجربة الدينية والتجربة الروحية أو التجربة الصوفية (العرفانية)؟

٥- العقلانية والدين:

هل القضايا الدينية عقلانية أم شهودية؟ من هنا تطرح نظريات الكانطيين فيما يرتبط بالعقل العملي، والإثبات الأخلاقي للدين. كما وتقرأ المدارس الروحية والصوفية (العرفانية) لدى الأديان كافة، إذن ما هي العلاقة بين التعقل والتعبد، وهل هناك من مساحة بينهما؟

٦- الجوهر والعرض في الدين:

ما هو ذلك الذي يمثل العنصر الذاتي في الدين، وما هو الذي يمثل العنصر العرضي؟ كيف نرتب سلسلة الدينيّات من حيث الأهمية والرتبة؟ الأخلاق، القانون، العقيدة، أم ماذا؟

٧- دور الدين:

ما هو الأثر الذي يتركه الدين في حياة الفرد والجماعة؟ ما هي المعطيات حول هذا الموضوع؟ هل هو اثر نفسي، سياسي، اجتماعي، أو ملفق أو مجموع؟ ما هو دور الدين في صنع

القرارات السياسية؟ هنا تدرس مسائل علم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني وغيرهما من العلوم.

٨- المجتمع المدني:

ما هي خصائص ومقومات المجتمع المدني؟ هل المجتمع المدني يعارض المجتمع الديني؟ ما هي العلاقة بين المجمع المدني والديني؟ أين طبقة رجال الدين في المجتمع المدني؟ (الفاتيكان نموذجاً).

٩- المعرفة الدينية:

هل المعرفة الدينية إلهية أم بشرية؟ ما هي حدود التفاعل بين المقدس والمدنس(الدنيوي)؟ أين تقع الذاتية والموضوعية في القراءة الدينية؟ هل المعرفة الدينية رهينة القارئ أو أنه رهين النص؟ العلاقة بين النص وقارئه على ضوء النظريات الحديثة في اللغة والهرمنيوطيقا والسيميائيات وما شابه ذلك؟[1] وعلى أساس ذلك ما هو المقدس وما هو المدنس (الدنيوي)؟

١٠- الثابت والمتحول في الدين:

ما هي مساحات الثابت والمتحول في الدين؟ هل يطرأ التحول والتغيير على كل شيء أو لا وكيف؟ هل المتحول هو المعرفة البشرية للدين أو الدين نفسه؟ ما هي النظرة التاريخية للدين والتجربة النبوية، هل هي ظاهرة تاريخية ـ بشرية، أم وحيانية ـ إلهية؟ هنا علينا أن ندرس نظريات الدكتور نصر حامد أبو زيد، والدكتور محمد أركون، والدكتور عبد الكريم سروش، وغيرهم.

١١- الدين والعلم:

وهذه من أهم المسائل والمسائلات في علم الكلام الجديد وفق رؤية الشيخ محمد مجتهد شبستري، إذ يتساءل هنا: هل يجب وضع المفاهيم الدينية كخط أحمر ونتائج نهائية أمام العلم لا يسمح له بتجاوزها، أم نمنح العلم حق الاستقلال؟ هل نحن ملزمون بالتوفيق بين النتائج العلمية والمفاهيم الدينية؟ وعلى تقديره فما هو طريق التوفيق المنطقي والموضوعي؟ هل يقدم أحدهما على الآخر وما هو ولماذا؟ هل الفارق هو في اللغة الدينية والعلمية أو في الجوهر؟ ما هي حدود وأساليب وقوانين تطويع النص الديني للعلم؟ هل نحن من حيث المبدأ عقلانيون أم نصيّون؟ هذه الإشكالية أكثر ما تبرز صعوبتها بين العلوم الإنسانية والدين، إذ تتدخل العلوم الإنسانية كثيراً في الحقل الذي يدلي فيه الدين بدلوه كالنفس البشرية، والفرد، والمجتمع، والتربية، والاقتصاد، والأخلاق، وغيرها.

---

(١) انظر مقدمة كتاب: حجاريان، سعيد، از شاهد قدسي تا شاهد بازارى ـ عرفي شدن دين در سبهر سياست ـ (من المقدس إلى المدنس، علمانية الدين في عالم السياسة)، طرح نو، تهران، ٢٠١١م، ص ١٢.

١٢- الدين والأخلاق:

هل هناك نظرية أخلاقية للدين؟ أين تقف مبادئ الحق، والواجب، والتكليف، والفرد، والجماعة، والثواب، والعقاب، وغيرها من هذه النظرية؟ هل الدين يدعم الأخلاق أو يتصادم معها؟ هل من الممكن أن يكون عالم أخلاقي بلا دين، بحيث يكون التلازم بين مساوي الدين والأخلاق وتاريخياً لا واقعياً حتمياً أم لا؟ ما هي الضمانات التي يؤمنها الدين للأخلاق؟ الجمال والجماليّات (مثل الأدب والفن بكل أشكاله وأصنافه)، ما هو الموقف الديني من ذلك؟

١٣- إنسانية الدين:

هل الدين إنساني أو غير إنساني؟ أين تقف موضوعة حقوق الإنسان من الدين؟ هل في الدين حرية وعدالة؟ ما هو مفهوم المساواة في الدين؟ قضية الأقليات في المجتمع الإسلامي، موضوع المرأة ومساواتها مع الرجل؟ موقف الدين من الارتداد والعقوبات الأخرى؟

١٤- المسائل الكلامية القديمة:

ما هو موقف الدين ـ من منظار علم الكلام الجديد ـ من المسائل الكلامية القديمة مثل: الروح، الجن، الملائكة، الله، الوحي، المعجزة، الإمامة، الحسن والقبح، وما شابه ذلك؟ هو يهتم بها ويضعها على طاولة الحوار والمجادلة أم يؤطرها بإطار آخر؟

١٥- التقليدية والحداثة في الدين:

ما هي قابلية الدين لتحديث نفسه؟ ما هي أطر هذا التطوير؟ كيف يتم تحديث الدين وتنميته وفق متطلبات العصر؟ وهل بإمكان الدين أن يطوّر ويحدث نفسه طبق مستلزمات العصر كما يقول كلاً من: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد رشيد رضا، ومحمد إقبال، والكثير من الأسماء التي ذكرناها في بحثنا هذا؟

المراجع:

١- ولفسون، هاري، فلسفة المتكلمين، ترجمة وتعليق، مصطفى لبيب عبد الغني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩.

٢- العوا، عادل، التجربة الفلسفية (الحدوس الفلسفية)، مطبعة جامعة دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.

٣- اللاّوي، أبو الحسن يهودا بن صموئيل، الكتاب الخزري (كتاب الردّ والدليل في الدين الذليل)، نقله إلى الحرف العربي وعارضه وهذبه وعلق عليه وحرره: نبيه بشير، ونظر فيه: عبد السلام موسى، منشورات الجمل، بغداد –بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

٤- نفيسة، محمود محمد عيد، أثر الفلسفة اليونانية في علم الكلام الإسلامي، دراسة تحليلية نقدية، دار النوادر، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

٦- جدعان، فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠١٠.

٧- ودود، آمنة، القران والمرأة، أعادة قراءة النص القرآني من منظور نسائي، ترجمة: سامية عدنان، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

٨- السيف، توفيق، الحداثة كحاجة دينية،مركز آفاق للدراسات والأبحاث – المملكة العربية السعودية والدار العربية للعلوم – ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

٩- الحاج، كميل، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، عربي- انجليزي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

١٠- البازعي، سعد، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.

١١- حجاريان، سعيد، از شاهد قدسي تا شاهد بازارى ـ عرفي شدن دين در سبهر سياست ـ (من المقدس إلى المدنس، علمانية الدين في عالم السياسة)، طرح نو، تهران، جاب سوم، ٢٠١١.

(علماً بأن: (شاهد) في الأدب الفارسي ـ الصوفي ـ القديم تدل على المعشوق المذكر، والان تدل على المعشوق المطلق من كلا الجنسين، لذلك الترجمة الحرفية للكتاب تكون: من المعشوق المقدس إلى المعشوق السوقي، ولكن آثرنا أن ندرج الترجمة الحرة للكتاب. والترجمة الإنكليزية للكتاب هي:

From The Sacred Witness to the Profane Witness, The Secularization of Religion in the Sphere of Politics.

١٢- الصفار، حسن، رؤية حول السجال المذهبي، الواحة للخدمات الثقافية – العارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥.

١٣- المحسن، فاطمة، تمثّلات النهضة في ثقافة العراق الحديث، منشورات الجمل، بيروت – بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

١٤- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن احمد، تفسيرما بعد الطبيعة أو (تفسير ما بعد الطبيعة لأرسطو)، تحقيق: موريس بويج (M. Bouyges)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٨ ـ ١٩٥٢. ٤ مجلدات.

١٥- الرفاعي، عبد الجبار، فصلية (قضايا إسلامية معاصرة)، بيروت،الأعداد: الرابع عشر(٢٠٠١)، والخامس عشر(٢٠٠١)، والعددان السادس عشر والسابع عشر (٢٠٠١). محور هذه الأعداد الثلاث هو:الاتجاهات الجديدة في علم الكلام.

١٦- شبستري، محمد مجتهد، هرمنوتيك كتاب وسنُت (هرمنوطيقا ـ تأويل ـ الكتاب والسنة)، طرح نو، تهران، الطبعة السابعة، ٢٠١٠م.

١٧- الرفاعي، عبد الجبار، مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، مركز دراسات فلسفة الدين –بغداد ودار الهادي – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

18- Ford, F. David, The Modern Theologians (An introduction to Christian theology in the twentieth century), Blackwell Publishers, USA, SECOND EDITION, 1998.



الشيخ الرفاعي
الإنسان والمشروع

✍ محمد حسين الحلو[(١)]

ستلازمني ما حييت صورة الرجل الهادئ، صاحب الابتسامة الأزلية، الذي جلس على احد كراسي الإدارة في معهد الإمام الرضا للدراسات الإسلامية في مدينة قم، في الربع الثالث من عقد التسعينات من القرن الماضي، حيث كنت ككثير من الشباب العراقي اللذين ساقتهم ظروف البلد العصيبة آنذاك إلى الاستقرار في المدينة التراثية، وممن اضطروا، ولا افشي سرا هنا، إلى دراسة التراث ومحاولة تفكيك رموزه وأحجياته الملتبسة، كخيار لا يوازيه خيار حينها، سوى أن تكون بائعا مثلاً للخضار في احد أسواق المدينة.

بادرني الرجل بالسؤال؛ عما لو استطعت الجلوس جنبه لبضع دقائق، ريثما يتمكن من طرح بعض الأسئلة حول الجدارية أو النشرة، التي كنت قد أنجزتها بمفردي للتو.. حينها راودني شعور ولأول مرة، بأن هناك من كان يُقيّم ما قمت به، ويبدي إعجابه، "المصطنع حتى" به.لم أكن اعرفه عن قرب من قبل، سوى انه كان أستاذا ذائع الصيت، يُدرّس الفلسفة وأصول الفقه، اللتان كانتا، رغم ثقلهما وجمودهما، من حيث ازدحامهما بمصطلحات وألفاظ اختصاصية غير مألوفة، إلا أن حصته بالتحديد كانت تحظى بشعبية كبيرة بين الطلبة، لما يتميز به الشيخ الرفاعي؛ من أسلوب رشيق في إيصال المعلومة إلى ذهن متلقيه، على طريقة السهل الممتنع، ولما لشخصيته الدافئة من حضور طاغ، جعلته يتجاوز، وبشكل عفوي تقاليد، كونه الأستاذ والتلامذة عبارة عن تماثيل خلقت لتستمع له، إذ كان يصر وبإلحاح،كنتيجة حتمية لملكة الاستماع والإصغاء التي يمتاز بها، على ضرورة المشاركة في النقاش والمناظرة.

أعجب على ما يبدو بمشاغباتي النقدية، واعتراضاتي المتكررة على مضمون بعض المحاضرات، لتشكل له حينها حافزا، كي يستفز بداخلي كمّا هائلا من النقد والسخط وعدم الرضا، عن كثير مما كنا "ملزمين" بدراسته ومتابعته في دراستنا للتراث الإسلامي على الطريقة الحوزوية آنذاك.

إعجابه، أو قل استفزازه ذاك، تبلور عن طريق إهدائه إياي كتابه الصادر حديثا حينها: "جدل التراث والعصر"، الذي يلخص رؤيته النقدية للنظام التعليمي في الحوزة، ومقترحاته لإعادة

---

(١) كاتب عراقي مقيم في السويد. بكلوريوس علوم تطبيقية/جامعة لوند، السويد. بكلوريوس شريعة/ جامعة المصطفى، قم.

صياغته في سياق متطلبات العصر ورهاناته، مما خلق بداخلي إحساساً غريباً لم أجربه من قبل، وأكاد اجزم انه لازم الكثير من أصدقاء الشيخ الرفاعي في المراحل الأولى خاصة

لتشكل علاقتهم به، وهو أن يهديك كاتباً وأستاذاً معروفاً، يمتلك شبكة من العلاقات الاجتماعية والعملية المتشعبة جداً، يهديك كتاباً، وأنت مغموراً، وخياراتك محدودة، لتعطيك هذه البادرة منه، ولو للحظات، شعوراً رومانسياً بأنك أصبحت هاماً، ويحسب لك الكثير، لكنها وبالنسبة لي شكلت أيضاً باكورة لقاءاتي به، مع جملة من الزملاء الذين كان لهم نفس الهم في إصلاح مسارات الدراسة الدينية، وتروادهم الأحلام نفسها في كسر هيمنة المناهج التقليدية في الحوزات العلمية.. تلك اللقاءات كان لها أكبر الأثر في ترسيخ معرفتي بالشيخ الرفاعي، الذي كان يستقبلنا بدفئه المعهود عصر كل يوم جمعة في مكتبة بيته، لتتاح لنا عندها فرصة الاطلاع على كل ما هو جديد ومبتكر في عالم الفكر والمعرفة.

لا يخفى أن كل ذلك الطحن المعرفي الذي كان يحصل، في دارة الشيخ الرفاعي، بينه وبين ضيوفه من أعلام المعرفة، والذي كان يدور في فضاءات مفتوحة غير مؤطرة بمحرمات معرفية، أو تابوات فكرية، كان يشكّل متنفساً يكاد يكون وحيداً لكثير من الشباب الذين طالما أزعجتهم لغة الخطوط الحمراء، التي كانت تتسيد المشهد في دراستهم للاهوت الإسلامي...

لا يفوتني أن أشير لما لمشروع الشيخ الرفاعي الرائد "مجلة قضايا إسلامية معاصرة"، الذي كلّفه الكثير من الجهد والمال كيما يبصر النور، لما لها من تأثير بالغ في تشكل وعي مغاير لدى كثير من الشباب آنذاك في الحوزة، إذ فتحت وقتها باباً أمكننا من خلاله الولوج إلى عالم واسع من التيارات الفكرية التي تنتمي إلى مدارس لاهوتية ودينية ولغوية ونقدية مختلفة، لكنها كانت بمجملها تعنى بشكل أساسي بنقد المعرفة الدينية، بالاعتماد على أدوات مستقاة من المناهج الحديثة في العلوم والمعارف الإنسانية. تلك الأفكار كانت شحيحة جداً باللغة العربية خاصة في مدينة قم. إذ كانت تتسيدها، كما أشرت سابقاً، لغة المنع والتحريم والوصاية على الفهم.

جاءت "قضايا إسلامية معاصرة" وقتئذ لتشكل نافذة لمتابعة أعمال كبار المفكرين في عالم تشريح ونقد الموروث، غير أن ما يحسب لها وبتفرد هو مقدرتها، ومن خلال مهارة صاحبها العالية في إتقان لغة التخاطب الحضاري الراقي، مقدرتها على تعريف القارئ العربي بما كان يتناوله الكتاب والمفكرون الإيرانيون في كتاباتهم وأبحاثهم الجديدة في التفكير الديني.

بعد كل ما ذكرت لا يبدو غريباً أن تحتفظ ذاكرتي وذاكرة كل من عرف الشيخ عبد الجبار الرفاعي عن قرب، تحتفظ له بصورة تحضر حيثما حضرت معاني النبل والرقي والسمو والإخلاص. ❖

عبد الجبار الرفاعي... فضاءات عالم بلا خرائط

✍ عباس الجبوري[1]

هذه المقالة توثيق لمحطات من حياة الدكتور عبد الجبار الرفاعي، فهي صدى تلك السنوات الضوئية التي تشعّ ألقاً وضوءاً وتوهّجاً لحلو أيام خلت قضيناها في الرفاعي العزيزة، مع أصحابنا وأحبّتنا وأساتذتنا الأجلاّء، فإن كانت سردية واهنة فحسبي أن ما يحملها على التكافؤ طيب السريرة، وصدق النية، وعمق الوفاء،لأستاذي الرفاعي، الذي ترك في شخصيتي من الأثر ما لم يتركه إلاّ القلائل الذين أعجبت بهم في هذه الحياة...

تتعدى شخصية عبد الجبار الرفاعي جغرافية الزمكان، لأنها روح مضيئة محلّقة في الآفاق، لذلك لا يمكن لي أن أستقصيها بهذه العجالة من الزمن، وإذا كان لا بد من التحديد الذي أأباه أنا كما يأباه الرفاعي نفسه فمن الممكن لنا أن نقول أننا يمكن أن نصنف فضاءاتها الملونة إلى أربعة:

الفضاء الأول: نشأته وترعرعه في إحدى قرى الرفاعي في الناصرية الفيحاء، التي انطلق من سومرها أول حرف في العالم.. أبصر الرفاعي النور في هذا الفضاء المأساوي، الذي يمطر فقراً، وأسىً، وجهلاً، وتخلفاً،كبقية مجتمعات قرى العراق، إذ شرع في مواصلة تعليمه الابتدائي، ماشياً على قدميه الناعمتين ساعات طوال حافيا، مرتدياً ثوباً شفافاً، لا يقيه حراً ولا برداً ؛ لكن إرادته الوثّابة، وروحه المتوهجة، التي تتغلب على العقبات والأسوار كانت عونه في رحلته المجهدة الشاقة؛ ذلك لأنه كان تواقاً للمعرفة، باحثاً عن الحقيقة، متطلّعا إلى عالم الأنوار والكمال.

حتى إذا ما أكمل المرحلة المتوسطة في ناحية قلعة سكر في الناصرية،توجه تلقاء مدينة الشطرة لمواصلة دراسته الإعدادية فيها. كانت الشطرة وقتئذ ولا تزال مدينة ترشح حراكاً ثقافياً، تصطرع فيها تيارات مختلفة للفكر، والسياسة، والأدب، هناك بدأت أولى إرهاصاته في البحث عن الفكر الذي يعشقه، والمبدأ الذي يتبناه، فقرأ مؤلفات المفكرين والكتاب الإسلاميين. من هذه المحطة التي كانت من أهم الوقفات في حياته الفكرية، انطلق الرفاعي يبحث عن تحقيق ما تصبو إليه روحه،التي ما فتأت تفتش عن الهدف الأسمى الذي دلف إليه بعد تخرجه من الإعدادية والمعهد الزراعي،واقترانه بحرمه السيدة إنتزال

(١) ماجستير ترجمة انجليزية، تلميذ وصديق عبد الجبار الرفاعي.

الجبوري عام ١٩٧٧، التي أنبتت له نباتاً حسناً من البنين والبنات، ورفضه التعيين معيداً في المعهد الزراعي في العمارة! بعد معارضته ما نظّره له والدي (والد زوجته) رحمه الله تعالى، الذي ألحّ عليه بضرورة التعيين، وترك مواصلة درسه الحوزوي في النجف؛ لكن الرفاعي بعناده المعهود وإصراره، أجاب: الشهادة أحصل عليها من مدرسة الآخرة خير من أن أحصل عليها من مدارس الدنيا!

وقبل أن ألج **الفضاء الثاني** لحياته، أود أن أسجل هنا للتأريخ أن عبد الجبار الرفاعي أمضى فترة هي من أحلك الفترات في تاريخ العراق المعاصر، حينما اختطف السلطة صدام حسين في تموز عام ١٩٧٩، أمضى تلك الفترة العصيبة منشغلاً في تنظيم حزب الدعوة، الذي كان هو مسؤوله الأول في الرفاعي، وتحلق حوله الكثير من الشباب من محبيه، منهم أخي المجاهد إبراهيم الجبوري وصاحب هذه السطور...

ولم أنس ما حييت أن الرفاعي حينما كان يصطحبني لأداء الفرائض في المسجد القريب من دارنا، كان يستغل هذه الخطوات القلائل لإثارة سؤال أو موضوع، وأتذكر جيداً أننا حينما خرجنا من المسجد بعد أداء صلاة الصبح ذات مرة، سألني فأجبته: عسى الله أن يأتي بالفتح، فرد عليّ على الفور: "أنت الذي تأتي بالفتح!"... يريد بذلك أن لا يكون الفرد اتكالياً على الله، دون تحريك لإرادته، فإن غيّر نفسه غيّر التاريخ!

كان الرفاعي يواصل ليله كله في كتابة نشرات ومنشورات حزب الدعوة المناهضة للنظام البعثي، وقليلاً ما كان يهجع في تلك الفترة كانت مجلة "الشهيد" تصدر في طهران، بعد انتصار الثورة الإسلامية في شباط ١٩٧٩وتوزع في دول الخليج، جاء الرفاعي بعدد منها فقرأتها والتهمتها، وسألته: من أين أحصل عليها (ظناً مني أنها سهلة المنال) فقال لي: من مكتبة المحطة[1]، كأنه يبتغي تنبيهي إلى الكف عن مثل تلك الاستفهامات. وحينما كان يصطحبني في المساء للمشي على شاطئ الرفاعي الجميل كان حذراً كالذئب، وقد وجه لي ذات يوم سؤالاً: هل عندك استعداد للاستشهاد؟ فأجبته: نعم، ما دام في سبيل الله... ثم سرعان ما غيّر الموضوع، ليتحدث عن جمال نهر الغراف، إذ كان منزلنا يطل عليه، عندما أحس أن هناك شخصاً ما يسير بمحاذاتنا، وما أن تجاوزنا عاد إلى موضوعه.

كان الرفاعي مسكوناً بالرغبة في تغيير المجتمع، لذلك كان يوجه الشباب نحو استغلال الزمن استغلالاً أمثل، وكان دائماً يكرر: "الوقت هو الحياة"... ويردد مقولة الشهيد السيد محمد باقر الصدر: "كل الناس تسير في طريق مشترك، إلاّ طالب العلم فإنه يسير بطريق لوحده، وأن طالب العلم يجب أن يكون أمة"... لذلك اقترح عليّ قراءة بعض الكتب،

(١) المكتبة الأهلية الوحيدة في الرفاعي في سبعينيات القرن الماضي، التي كنا نبتاع منها الصحف والمجلات.

وكان يقول: أنت في ريعان الشباب، وخليّ من مسؤوليات العائلة، فاقرأ الآن قبل فوات الأوان. وقد نزلت إلى إرادته، فقرأت تلك المجموعة، وفي طليعتها دور الدين في حياة الإنسان للآصفي، وقد أثلجت صدره حينما طلب مني أن أحضر مدارسة كتاب: المدرسة الإسلامية للشهيد الصدر مع الشيخ حسين البهادلي، ولأدرس الكتاب نفسه مشياً مع صديقي وأخي عجمي بشيت الركابي، ثم أعود إلى البيت ليتلقاني الرفاعي بمدارسة خلاصة المنطق للشيخ عبد الهادي الفضلي، الذي وجدت فيه لذة عظيمة، إذ كان وقت عبد الجبار الرفاعي مقسوماً على قسمين، لنا وله، فما كان لنا هو مدارسة الكتب، وبعد المدارسة ينحدر بنا نحو السياسة البغيضة المقيتة، يعلمنا ويفتح أفاق تفكيرنا على ما لم نكن نعلمه، فتعلمنا منه التحليل السياسي، إذ كان الرفاعي ولا يزال محللاً سياسياً من طراز فذ فريد، ومن أسئلته في هذا الميدان: لماذا لم تنجح الحركة الإسلامية في العراق؟ فلم يجب أحد من أخوتي سواي إذ قلت: لأنها لم تتخذ طريق الكفاح المسلح لتحقيق مآربها، فأثنى في حينها عليّ وما أندر ما كان يثني عليّ! فالرفاعي لا يرضى ببساطة، فكيف يرضى عني وأنا لمّا أزل في بداية الطريق؟

حذرنا الرفاعي بشدة، حينما وصل صدام حسين وعصابته إلى السلطة، بأن صدام طاعون لا شفاء منه، وانه سيقود العراق إلى الجحيم.وقد فاجأنا في جلسة ليلية بقائمة تضم ٤٠٠ (أربعمائة) شركة أجنبية تعمل في العراق، كان أخي الشهيد ياس الجبوري قد أعدها له، وقد فوجئنا بقول الرفاعي: يدعي صدام انه مناهض للغرب والولايات المتحدة، بينما الحضور الواسع لهذه الشركات يزيف مزاعمه... إلى هنا تنتهي المحطة الثانية من حياته.

الفضاء الثالث: هجرته إلى النجف الأشرف ليلتحق بحوزة السيد الشهيد محمد باقر الصدر، وهناك لم تتوقف مسيرته في الدرس والتحصيل، إذ أنهى كتاب "المنطق"للشيخ محمد رضا المظفر بشهر واحد!... وباشر بتدريسه، حتى أضحى أستاذا مكرساً لتدريس هذه المادة، بعد أن درس المنطق ١٢ مرة، وانطلق يلتهم المقررات الأخرى المتعارفة في الحوزة التهاماً؛ لكن تدهور أوضاع البلد السياسية، حين كان العراق فيها على شفى الانفجار، وفي تلك السنين العجاف، سنوات الجمر، قد حالت دون إكمال مسيرته العلمية في النجف، مع أنه قد رُشّح لكي يكون وكيلاً للشهيد الصدر في إحدى مناطق الناصرية، رغم حداثة سنه، فاعتذر بكل ما أوتي من قوة، فتقبل المرجع الصدر رحمه الله عذره.

وحينما استهدف نظام صدام الفاشي الحوزة، استهدافاً تاماً، فقتل من قتل من الفقهاء ورجال الدين، واعتقل من اعتقل، وهرب من هرب، وقد توّج النظام بطشه بجريمته النكراء حينما أقبل على إعدام الشهيد محمد باقر الصدر وأخته العلوية آمنة الصدر طيب الله

ثراهما، إذ ذاك هاجر الرفاعي، بعدما ترك بيته ومكتبته، تتلقّفها أيدي عصابات صدام ملكاً مشاعاً،فحكم عليه بالإعدام غيابياً، في الوقت الذي لم تألُ جهداً عصابات الأمن والمخابرات من متابعته بعيونها وأنوفها وأذانها؛ فكانت الكويت محطته الأولى، حيث يقيم أخوه الأكبر الحاج شريف القحطاني "أبو عادل"، وهو من الدعاة المعروفين في الكويت، التي وجد فيها الرفاعي ملاذاً آمناً،وفيها أصبح الرفاعي عضواً في اللجنة المركزية لحزب الدعوة في دولة الكويت،وعمل مديراً لدار التوحيد، ومحرراً لصفحات المعارف الإسلامية في مجلة "صوت الخليج"، ثم سرعان ما تحولت الكويت إلى عراقٍ ثانٍ،بعدما حدثت تفجيرات ديسمبر ١٩٨٣، واتُهم الرفاعي ظلماً وعدواناً، انه يقود الخط العسكري في حزب الدعوة، بينما كان مكلفاً بقيادة اللجنة الفكرية في الحزب يومئذ، ولم تكن له أية علاقة بالخط العسكري في حزب الدعوة.

بدأت تلك اللحظة حملة شعواء من الاعتقالات للكثير من الإسلاميين العراقيين، فطالت أخاه، لكن الرفاعي اختفى وفر هارباً من الكويت. ومع قساوة الموقف استطاع الرفاعي أن يتنفس الصعداء، حينما هاجر إلى إيران، والتحقت به عائلته،ونجت من قبضة المباحث الكويتية، التي كانت تقوم بتسليم العشرات من الفارّين من ظلم صدام إلى المخابرات العراقية، ليجدوا على الحدود عصابات النظام المجرم، الذين نفذوا بهم حكم الإعدام الفوري.

الفضاء الرابع: في حوزة قم واصل دراسته وبحثه سنوات طوال، مع عمق معاناته في الكد والرزق، حتى قيّض الله له مشروعه الطموح،الذي من خلاله استشرف وأسس آفاق مستقبله الفكري،حينما أصدر مجلة "قضايا إسلامية" عام ١٩٩٤، ثم"قضايا إسلامية معاصرة"عام ١٩٩٧، التي كُتب لها الديمومة والاستمرار والحياة حتى هذه اللحظة، بفضل صبره ومثابرته هو وعائلته، الذين يواصلون الليل بالنهار في تصحيح وتدقيق موضوعات المجلة، وفي مقدمتهم السيدة الفاضلة زوجته سكرتيرة التحرير، وولده محمد حسين الرفاعي مدير التحرير.

ويبقى عبد الجبار الرفاعي العبقرية التي نشأت من بين أذرع الفقر مشروعاً تنويرياً اجتهادياً تجديدياً، يتجاوز المألوف وما درج عليه الأصوليون إلا بحدود الموضوعية، ليصل إلى جميع المسلمين في العالم، على اختلاف ألوانهم وطوائفهم،بروح ومقاصد القرآن.

وأستطيع القول بكل اطمئنان إن الرفاعي ثالث ثلاثة ممن حملوا مشعل التجديد للفكر الإسلامي، والخروج به نحو آفاق بيضاء نقيّة يتلقاها الجميع بصدر رحب... ❖

عبد الجبار الرفاعي
الخـلُّ الـوفـيُ

✍ مصطفى المهاجر(*)

أيها الصديقُ الصدوق... يا ثالثَ المستحيلات أيها الخلُّ الوفي دائماً... لستُ مفكراً كي أكتبَ عن سيرتك الفكريةِ.. مستعرضاً ومناقشاً... مادحاً وناقداً..، ولست باحثاً في الفلسفةِ، أو مهتماً بالغوص في أعماقها، كي أناقشك فيها.. وأشير إلى مكامن الإبداع والقوة في بحوثك ودراساتك الفلسفية، أو نقاط الضعف والخلل إن وجدت فيها! وكلُّ ذلك متروك للمهتمين وللضالعين في مثل هذه المجالات.

سأكتب عنكَ من القلبِ... حيثُ حللت فيه منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً... ولا تزالُ هنا، أحملكَ فيه حيث حللتُ على خارطةِ الدنيا التي امتلأت بالمنافي، وحيث صارتْ تلك المنافي أوطاناً تتقاسم ما بقي من أعمارنا المكتظةِ بالظلمِ والغربةِ والأوجاع والفقد الدائم للأحبةِ... وبالذكريات أيضاً...

يا صديقي الوفي... مذ عرفتك في زاوية قصيّة من زوايا الوطن الذي كان، حيثُ الخدمةُ العسكريةُ الإلزامية لجميع خريجي الكليات والمعاهد، في تلك الوحدة العسكرية الصغيرة، التي لا تفعل شيئاً سوى أنها تضم أولئك الجنود المغضوب عليهم، لأنهم خارجون عن سياقِ قطيع المنافقين والمصفقين والمزمرين والمهرجين بأمجاد الحزب القائد والقائد الضرورة!

منذ تلك الأيام... ظلَّ رباطُ المودة والألفة والتفاهم موصولاً بيننا... وعبر محطات النفي العديدة، التي حملتنا متفرقين إلى بلدان مختلفة، إذ قادتك رحلةُ النفي إلى الكويت، وقادتني إلى دمشق، ثم حملتك مرة أخرى إلى طهران عبر دمشق، حيث التقينا لفترة وجيزة، إذ كنتُ منفياً مزمناً فيها... ثم جمعتنا المقادير مراتٍ ومراتٍ سواءً حيثُ تقيمُ... أو حيث أقيم، كنا نلتقي في تلك المحطات وكأننا افترقنا بالأمس، لنواصلَ أحاديثنا ونقاشاتنا ونتبادلُ شكوانا وهمومنا..!

وحين حدث التغير الكبير فيما كان يُسمى "وطن" عُدتَ يا صديقي حاملاً مشاريعكَ الثقافية التي ناءت بها مؤسسات، والتي نذرتَ حياتك لها.. على حساب صحتك

(*) شاعر وكاتب عراقي. برزبن – استراليا.

وعائلتك وما تملك، وهو قليلٌ قليل..! وبقيتُ أنا في أقصى الأرض منفياً ولاجئاً ثم مواطناً... وبقي حبلُ الوداد موصولاً بيننا... وأكاد أجزم لعلك الوحيدُ من الذين عادوا بعد التغيير، وتسلموا مسؤولياتٍ ومواقعَ، ربما لم تكن تخطرُ في بالهم، لعلك الوحيدُ ـ ولا أبالغُ ـ الذي لم يتنكر لماضيه ولعلاقاتهِ ولأصدقائه القدامى... بل ازداد وفاؤه وتواصله معهم...! لم يغير الموقع من أخلاقك وودك لنا، نحنُ الذين بقيتْ طواحينُ الغربةِ والنفي تطحنُ ما بقيَ من أرواحنا المتعبةِ بالترحالِ والهمومِ، وقلةِ الوفاء ممن كنا نحسبهم إخوةً وأحبةً وأصدقاءَ...!

لا تزالُ يا صديقي آثارُ أفكارك وإنسانيتك الفائقة واضحةً وجليةً في أعماقِ الأعماق.. وذلك هو تراثك الزاهي وجواز مرورك إلى فيوضِ الرحمةِ الإلهية ـ بعد عمرٍ طويل بإذن الله ـ فضلاً عمّا تتركهُ من علمٍ وفكرٍ وإبداع يُنتفعُ به...

عُذري إليكَ يا صديقي الصدوق إن قصرّتُ بحقك، ولم تساعدني لغتي الركيكةُ على إيفاء بعض حقِ أُخوّتك وإنسانيتك... وعبر رحلتي معك أقولُ مطمئناً ولك فقط، لقد صدق الشاعر القديم إذ يقولُ:

لمّا صحبتُ بني الزمانِ لكي أجد
خِلاً وفياً في الشدائدِ أصطفي
أقسمتُ أن المستحيلَ ثلاثةٌ
الغولُ والعنقاءُ والخِلُّ الوفي

فأنت يا صاحب روحي وصديقَ مناي... أنت هو "الخلُّ الوفيُ"، وهي أقلُ سجاياكَ الرائعة الكثيرة..!! وهذه شهادتي بين يديكم وأمام الله.

٢٠١٣/٢/١٨



الشيخ عبد الجبار الرفاعي وقضاياه المعاصرة

✍ عبد اللطيف الحرز

(ذات مرة كنتُ
في مكتبة ابن عربي
اقرأ
تهكمات فصوص الحكم:
الموت عين أخرى لفضيحة الحق
.. في عباءة أمي
سر الوجود
... الفقهاء
يتبعهم الغاوون!!)(*)

(١)

.. الغريب إني إلى اليوم كلما تذكرتُ عبدالجبار الرفاعي فإني أتذكر (اللحم)، أي إنني أخضع لعملية اقتران شرطي كما كان يحصل لكلب عمنا الروسي بافلوف تماماً!!... هو أمر مضحك ومثير للشفقة، لكن ماذا افعل هذه هي حياتي وحقيقتي.. فأنا عشتُ ستة سنوات في إيران لم أذق فيها اللحم إلا خمس مرات اثنان منها من يد الرفاعي.. المرة الأولى لتذوق اللحم كانت من يده وأخيرها من يده أيضاً حيث أعطتني زوجته كيس كان من الصعب جداً أن اشرح لامي كيف حصلت عليه.. ثم تبين أن أمي قد نست كيف تطبخ اللحم فنحن منذ أن توفى والدي منذ زمن بعيد، لم نتعامل مع هذه المادة المعجزة التي لا تشبه الباذنجان ولا البطاطا!!... ما هو مثير أنني كنتُ (ولازلت) ابغض فصيلة الكلاب لكونها ذليلة مطيعة واعشق فصيلة القطط لكونها عنيدة لذا بقيت عنيد رغم أن فرصة أكل اللحم شيء لا تعوض لشخص توسد الرصيف طويلاً... لا لم أعض اليد أحسنت إلي، فقد كنتُ أكثر وفاء من أي شخص تعامل معي.. إذ أني أحرص على صدق العلاقة دائما.. لكني لا أستطيع أن أرضخ بأن الوفاء هو أن يعلق الآخر حبلا برقبتي وامشي خلفه.. هذا كل شيء.

(*) نص بعنوان (مطالعة) ضمن ديوان (آخر الأسلحة)/ عبداللطيف الحرز.

(٢)

كنا (كما الآن) أصغر من حفنة تراب واحدة، وكان هو أكبر منا بمقدار جبل... شيخ كبير متشعب العلاقات.. ونحن مجرد صبية من المراهقين لا تاريخ لهم قادمين وذاهبين إلى لا مكان ولا زمان...

حينما وصل قطار المسحوب بالخيول المعاقة، بالمعارضة العراقية إلى التسعينات من القرن المنصرم.. كان الشيخ عبدالجبار الرفاعي (وهو من أبناء مدينة الناصرية في العراق) يحاول أن يقفز من هذا القطار.. إذ بات يقيناً أن الدرب انتهى بالمعارضة العراقية إلى حيث بدأ أي: لاشيء.. والـ(لاشيء) هذا ليس عدم محض في السياسة وإنما في الأخلاق وبنية الإنسان من الداخل، خصوصاً ونحن نفترض الحديث عن معارضة ادعت لنفسها طويلا بأنها جزء لا يتجزأ من الدين والإصلاح الديني... فإذ يطوي القرن العشرين عباءته فانه لم يلملم سوى الريح والفراغ من عمل طويل وتضحيات جسيمة قدمها الشعب العراقي لهذه المعارضة... الأمور رقميا كانت تسير نحو العودة إلى استبدال الأرقام الطويلة بالأصفار فقط (=عام ٢٠٠٠).. حتى العمل بات مرتبط بجهاز بنيته الأساسية هو رقمين فقط: الواحد والصفر (= الكمبيوتر)... لكن في حين يكون الصفر إلى اليمن يعني تضخم العدد وثراءه، فانه إلى الشمال يدل على الخواء والفضيحة... تاريخ المعارضة العراقية بات صفر.. وصفر على الشمال تحديدا... لم تكن هنالك أرقام تجاور الصفر.. وإنما مجرد جثث في السجون والأهوار وعوائل وشبان مشردون يقتلهم العوز والفقر، فيما تزداد بطون زعماء المعارضة تكرشا... ومن ينافس الزعيم العراقي تكرشا؟!!.... في مركز المدن الإيرانية والسورية والدول الأجنبية كانت تصدر عدة قراءات لعمل المعارضة، لكننا نحن الذين كنا نعيش في الأهوار ساعة إذ كنا نقرأ الأمر بطريقة مختلفة تماماً.. حيث سوف يسقط أسطورة معارك الأهوار.. الفتى الشهيد (محمد هني الياسري)... يسقط لوحده هو وأخوه هادي... كقذيفة تنوير تفضح لنا بأن أسوار جبهات المعارضة باتت دكاكين للارتزاق وأسواق للدعارة... ولسوف تتبدل الأرض غير الأرض ويمضي زمن طويل وتقرأ لي احد صديقاتي شعر كاتبه لبنانية الأب عراقية الأم اسمها سوزان عليوان، تقول:

(خفاش

يسأل الليل:

لماذا قاس هكذا

يا أبي؟!)

وسوف تضحك الفتاة مع صويحباتها.. فيما نحن الفتيان سوف نبكي.. نبكي.. فقد كانت هذه الحسرة الأخيرة لأصدقائنا الذين سبقونا إلى ستر الموت فيما بقينا نحن على قيد فضيحة الحياة... كانت حكومة حزب البعث ليل ادهم.. لكن المعارضة كانت هي الخفافيش التي لولا هذا الليل لم تظهر ولم تعش ولم تكبر.. هذا تماماً ما قاله لنا الهور ونحن صبية لم ينبت الشعر في ذقونهم وعاناتهم، نقاتل رجالات صدام حسين لا من أجل استرداد سلطة.. وإنما من أجل إعادة المياه إلى الأسماك والجاموس والبط والطيور فقط.. حفنة من الماء لأمنا المعيدية المسماة بالأرض.. كنا نريد من صدام ومن معارضته.. حفنة ماء مقابل أطنان الدماء تلك.. حفنة ماء فقط.. فقط.. لكننا نحن أبناء الرافدين وشط العرب.. كنا نتساقط من شدة العطش!!... اليوم يقال أن المياه قد بدأت تعود إلى الأهوار.. لكن من سيعيد الأسماك والطيور التي ماتت؟!... هل هنالك شاب في العراق يستطيع أن يدفع (المشحوف) ببردية القلب ويتحسس أين سقط محمد هني الياسري.. كي يسمع صوته يلفظ أسماء قتلة وسفاحين الشعب العراقي الجدد اليوم يزاولون القتل والاعتداء على الناس كما في السابق؟!.. آااه هل هنالك من يسمع ويفهم... آااه لو كان هنالك من يعي ويفهم لا كملة له هذي الحكاية.. يااااه إلى متى أعض على قلبي وأصيح: لو كان.... لو...؟!

(٣)

بذلك كان على ثلاثة هجر العمل الحزبي في المعارضة العراقية:

١ - صاحب الضمير والحس الإنساني، الذي لديه شعور بالمسؤولية.

٢ - صاحب الارتباط الديني حقيقة وليس ادعاءً، والذي يؤمن بأن أخذ ثمن بلا عمل حرام، وأن هنالك رب واله سوف يحاسبه على تعاونه مع هذه المعارضة التي هي ليست سوى الوجه الآخر للطاغية وحكومة صدام حسين.

٣ - طالب العلم الذي لا يرضى منح اسمه لمعارضة لا تأثير لها على حكومة حزب البعث حقيقة، فيتحول إلى كاتب تبريرات ودعايات لطغات المعارضة عوض أن يكون موظفاً عند الطاغية.

وعبدالجبار الرفاعي كانت تتوفر فيه هذه الأسباب الثلاثة جميعاً.. فكان أمر انفصاله عن حزب الدعوة قد بات بحكم الضرورة الأخلاقية والدينية والعلمية..... لم أكن تلميذاً في درسه واحد تلامذته، لكني كنتُ ارقبه من بعيد.. شيخ لا يدع لحيته وشواربه تنبت ويفضل القاط على العمامة.. شكله جنوبي مألوف القسمات والملامح يشع بالطيبة عفوية.. سريع الضحك والبكاء مثل جميع أبناء الجنوب العراقي تشكف أنه كان ينتمي إلى الطبقة

الفقيرة من المجتمع.. شيخ مثقل بالورع الديني.. شخصيته نادرة التوازن والعفة والترفع والابتعاد عن صغائر الأمور وتوافهها... لذا كان يعرف نفسه بأنه (عبدالجبار الرفاعي) بلا عقدة ذكر حرف الألف (= أستاذ) ولا عقدة حرف الدال (= دكتور)... كما فعل جملة من الكتاب الذين بلغ بهم الأمر شراء الشهادات العلمية المزورة من بيروت أو غيرها.

جاءت أهمية الرفاعي الأولى من كونه تلميذ قديم في الحوزة ومنتم معتق لخلايا حزب الدعوة الإسلامية.. فهو قد درس في النجف وعاصر محمد باقر الصدر ومحمد صادق الصدر.. ثم عاش الرفاعي في الكويت وفي هذه الفترة توطأت علاقاته مع رجالات الحزب أكثر... لكن وبعد حادثة محاولة اغتيال شيخ الكويت وتصويب إصبع التهمة إلى حزب الدعوة فر الرفاعي وبقية الكوادر إلى سوريا.. وهنا توسعت علاقته.. لينتقل بعدها إلى مدينة (قم) في إيران، هناك حيث بدأت عملية تكوين حوزة عراقية اتسم طلابها بسمات أخرى لم تكن موجودة في تاريخ الحوزة في العراق من قبل.. فـ(الحوزة) مؤسسة دينية لها أهمية خاصة لمن يريد تفكيك بنية الشعب العراقي، وأنه لمن الخطأ فصل هذه المؤسسة عن المجتمع حينما نريد التعرف على سسيولوجية أو سيكولوجية هذا الشعب، فهذه المؤسسة كانت أشبه بقلعة الجيتو اليهودية العازلة نفسها عن كل شيء وتبث الأوامر من بعيد.. فكانت الحوزة بمثابة قلعة سحرية للكثير من الشباب بل والمشايخ أيضاً.. وهو مر يعد أحد الروافد الأساسية في سبب رؤية الكثير من أهل العراق بأن الإصلاح لابد أن يكون تحت وصاية رجل منتمي لهذه القلعة السحرية، المسماة بالحوزة، الأمر الذي أدى ويؤدي إلى اضطراب في حركة السياسة العراقية وتاريخها بشكل مستمر.

وهنا أصبحت الحوزة من مجرد أنفار في غرفة، إلى ألوف من الطلبة، الذين هم مشحونين بنيران الانتفاضة الشعبانية التي قمعها حزب البعث.. فتحول حماس القتال إلى حماس في الدراسة.. لكن.. هنا أيضاً تم سحل عقلية القتال والشجار فتحولت الحوزات إلى خنادق للاقتتال.. فكانت الأحزاب تحرص على الطلاب الجيدين.. لا خدمة لعلم وإنما من أجل تسويق معاركها الحزبية هنا أو هناك.

في هذا الخضم جاءت شهرت عبدالجبار الرفاعي الثانية، فكونه قديم في الحوزة، باتت له أهمية ثانية الآن تحت وطأة أن العلم والمعرفة سلاح أيضاً.. وهنا تميز عبدالجبار الرفاعي بخصلتين زادة من شهرته وأهميته حين ذاك:

١ - تنوع الدروس التي يزاولها، فهو كان يقوم بتدريس جميع علوم الحوزة (= ماعدا التفسير والأخلاق) من علم المنطق وعلم الأصول وعلم الفقه وحتى الفلسفة.

٢ - بساطة شرحه وسلاسة أسلوبه التعليمي (وهي أمور مهمة للغاية لطلاب العلم).

إذن كان هنالك منذ البداية حس نحو التنوع الثقافي والعلمي، فكان من الطبيعي والحالة هذه أن ينحدر الشيخ عبدالجبار الرفاعي نحو شلالات جديدة في مطالعة الكتب خصوصاً وانه قد باتت لديه لغة أخرى الآن (= الفارسية).. ومثل كل بداية.. فإن بداية عبدالجبار كان صعبة.. فاضطر بسبب العوز المادي أن يعمل مع المؤسسات الثقافية الإيرانية وانخرط في عمل طويل مهلك، فاصدر عدة مجلدات ضخمة لها أهميتها الخاصة في الببليوغرافيا (وقد ساندته زوجته الكريمة خير مساندة في ذلك).. وفي حقيقة الأمر إن هذا العمل المضني سيكون الرافد الأكبر والقاعدة الأوسع للرفاعي في الانتقال إلى مزاولة الكتابة والبحوث الثقافية الجديدة لقضايا لم تكن الحوزة (= العراقية والإيرانية) وطلابها بمكترثين بل ولا دارين بها أصلاً.... بهذا العمل بات الرفاعي موسوعة ومكتبة علمية متنوعة تمشي وتتحرك.. إذن الآن باتت له شهرة ثالثه: شهرة كونه باحث وكاتب ثقافي وليس أستاذ في الحوزة وله ماض في العمل الحزبي قديم.

(٤)

في هذه المرحلة الجديدة كان الرفاعي يتميز بميزتين أيضاً:

١ ـ سهولة المعشر والتواضع الغريب.. وهو (غريب) لكونه لا يتوافق مع شهرته المتصاعدة، وعلاقاته المتكاثرة... بعض الكتاب ما أن يصدر له قصيدة أو ديوان أو كراس حتى تجده ينتفخ بأكبر من أي بالون في الدنيا.. لكن هذا الرجل.. كان يتطور من دون يتدخل هذا الأمر سلبياً على حياته الداخلية.. وقد تفرع عن هذه الخاصية وخاصية سهولة شرحه في قاعة الدرس، أن يكون الرفاعي ملتقى للشباب المثقف هناك.. فكان منزله أشبه بندوة دائمية.. أو قل انه تتميم لمهنته كمدرس ومربي لهذا الجيل الجديد.

ولم يكن هؤلاء الشباب هم من أهل العراق فقط، وإنما كانوا خليطاً عجيباً من إيرانيين وأردنيين ومغاربه وجزائريين وتونسيين وسوريين ولبنانيين ومصريين و.. و.. فكان في منزل الرفاعي يختلط الصغير بالكبير والمشهور بالمغمور.. وكل مع نقيضه.. حتى السياسيين منهم... وهو أمر يدل على رحابة صدر هذا الرجل بأنه إنسان حقيقة ولي مجرد حبر على ورق كما هي سجية بقية المثقفين ومرتزقة الكتابة.

٢ ـ إن تطور عبدالجبار الثقافي والديني كان يسير من دون أن يبعده ذلك عن وطنيته بكونه (عراقي).. وهي ميزة يعسر أن تجدها في تلك الفترة.. فالمثقف العلماني توجهاته صوب الدول البعيدة والمثقف الديني مرتبط بالدول القريبة.

٣ ـ هذا التنوع في الثقافة وفي العلاقات خلق من عبدالجبار الرفاعي شخصية توازنات، فكان صديق الجميع بلا استثناء ولجميع الأطراف المتناقضة.. فحتى وكيل السيستاني

في قم (جواد الشهرستاني) فإن الرفاعي كان يحرص على إهدائه العدد الجديد من مجلته.. وكان يداريه.

طبعاً هذه المداراة من الرفاعي عادة على مشروعه الثقافي بفائدتين:

١ ـ سهولة النشر والتحرك في الطباعة.

٢ ـ جلب العدد الأكبر من الكتاب والباحثين على اختلافهم.

.. وعلى أساس هذه الخلفية جاءت شهرت الرفاعي الرباعة بكونه صاحب مجلة فكرية متخصصة فظهر العدد الأول من مجلة (قضايا إسلامية)، والتي كان يحتل الشيخ مهدي العطار صفحتها الأولى بأنه (المشرف).. لكن اسمه جاء من أجل إرضاء الممولين الماليين من جهة ومن أجل حماية أكثر للمجلة من هجمات الخط الديني المتشدد.... ولكون المرتزقة بالكتابة بعدد الفطريات دوماً.. لذا تصدى جواد علي الكسار، أو خالد توفيق (وهما اسمين لشخص واحد) بان يتصدى للمشروع بدل الرفاعي حيث وجدها فرصة ذهبية للصعود... المعركة احتدت خصوصاً بعدما حققت المجلة أرباحاً مادية لم تكن في الحسبان... القضية باتت اسم على غلاف وكمية من الدولارات.. بينما كان الرفاعي مهتماً بتبديل خطاب المثقف العربي والمسلم خارج الحدود الإيرانية وكيف تغيرت لغة الكتابة وطبيعة المواضيع المطروحة.. عاف الرفاعي المجلة للعطار وجواد علي الكسار (أو خالد توفيق).. فلم يصدر سوى عدد واحد (ثلاث أرباعه قد كان الرفاعي أعده سلفاً).. وانتهت (قضايا إسلامية) إلى هنا..

(٥)

خرج الرفاعي من هذه المعركة سالما بفضل منهجه غير الصِدامي، فاخرج مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) اعتمادا على مجهوده وأمواله الخالصة فكانت (قضايا إسلامية) هي المبتدأ و(المعاصرة) هي الخبر.. وقد كان الاحتفاء بالمجلة الجديدة احتفاءً بالغاً، بسبب جدة مواضيعها واختلاف المشاركين والمساهمين فيها.. لكن فيما سيكون المغاربة يحتضنونها بشكل حافل، فإن المجلة مشرقياً كانت تواجه تعثرات عدة في النشر، والتي كان منها مصادرة وزارة الكويت لأحد أعدادها.. وهذا الاحتفاء المغاربي بهذه المجلة مرجعه إلى أربعة عوامل أساسية:

١ ـ انفتاح المغرب الكبير على القضايا المعاصرة بسبب قربه الجغرافي واللغوي من أوروبا.

٢ ـ تبني تونس المنهج الأوروبي في التدريس.

٣ ـ زيادة حاجة المواطنين المغاربة لمراجعة أفكارهم على ضوء أزمتهم التي تفاقمت خصوصاً بعد مذبحة الجزائر، وتمردات القبائل الأمزيغية في المغرب.

٤ ـ تجدد الخطاب النقدي في المغرب الكبير بفضل مساهمات محمد أركون ومحمد عابد الجابري، وطه عبدالرحمن وغيرهم.

فقد كان واضحاً أن التسعينات كانت تشهد ريادة المغربيين في الكتابة، بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، في حين كان المشرقيين يسترون إرهاقهم السياسي وفراغهم الفكري بحشد الشعر والقصة وتكرار المواضيع الأدبية البيانية، كغطاء لبطالتهم المقنعة.

(٦)

تخلص الرفاعي من الكثير من المشاكل، لكن مجلة قضايا إسلامية معاصرة كانت تعاني أربعة أمور:

١ ـ بسبب أن المشروع فردي من جهة، وكون الرفاعي خريج مؤسسة دينية، ولم يكن لديه ارتباطات بالفنانين والأدباء، لذا ضلت المجلة تعاني من فقر كبير في الإخراج الفني والتصميم الشكلي، وهذه سمة بارزة في جميع الإصدارات التي خرجت على يد المنتمين للمؤسسة الدنية بدءا من مجلة أضواء التي صدرت أيام محسن الحكيم وحتى آخر المجلات والدوريات الصادرة اليوم.

٢ ـ ظلت مجلة قضايا إسلامية معاصرة تعاني من ضغط الصداقات.. فمنهج المداراة للرفاعي كما كان عنصر ايجابي في كفاية شر الآخرين، إلا أنه عنصر سلبي ظل يثقل المجلة بمساهمات لا تليق ومشروع المجلة ومستواها، وهو أمر يتجلى لك أكثر في هذا التناقض الفاضح بين مجلة قاضيا إسلامية معاصرة، وبين الكتيب والكراس الصادر منها... فالشيخ يداري أصدقائه وأعدائه بطبع هذه الشخبطات التي تتناقض مع المستوى العلمي للمجلة، ومع الهدف الأساسي منها أيضاً.

٣ ـ بما أن المجلة كانت تصدر في إيران، لذا كان من الطبيعي أن يحاول البعض الالتفاف عليها ومحاولة إخراجها بزي إيراني يجعلها قناة إعلامية جديدة لإيران، هذا فضلاً عن انشغال المجلة بجملة أبحاث وكتاب لا قيمة لها ولهم تنسجم مع توجهات المجلة ومشروعها.

٤ ـ الأمر الرابع الذي يثقل من تحرك مسيرة المجلة هو الرفاعي نفسه.. فهو رجل له تاريخ طويل في العمل الحزبي.. وهو رجل له ماض طويل في الانتماء للفكر الديني القديم، لذا يصعب عليه مهما حاول أن يختلف مع الفكر الديني فيصدر أبحاث لمثقفين ينتقدون الدين من أصل... أي أن الرفاعي يحرص على أن يكون الإصلاح هو إصلاح ديني دوماً.. وهذه القبلية مع الأسف هي بيت القصيدة في أزمة قضايانا المعاصرة..

فعلى أي أساس لا يكون المصلح إلا دينياً.. ولا يتأتى التجديد الفكري إلا من رجالات الدين؟!... إن هذه المأزقية لا توضح مجلة قضايا إسلامية معاصرة فقط، وإنما توضح البنية الذهنية لعبد الجبار الرفاعي، لذا فمن الطبيعي أن تجده يقول مثلاً: (إن تأصيل الموقف الفلسفي هي السمة التي طبعت آثار هؤلاء المبدعين [= بعض من رجالات الحوزة] وهي سمة قد لا نعثر عليها في غير آثار المصلحين من علماء الدين الذين تخرجوا من الحوزة ص٥، من كتاب الرفاعي: تطور الدرس الفلسفي في الحوزة).. وهي مقولة كغيرها من الأقوال التي تحاول أن توحد الفكر والعبقرية والإصلاح وتجمعها في عباءة وعمامة رجال الدين.. وهو أمر لا دليل عليه بل الدليل قائم على خلافه.. وكي لا ننساق لإثبات هذا المدعى في ورقة ليست مناسبة هنا، اكتفي بالقول: إن الرفاعي بحاجة إلى إعادة نظر في بنيته الذهنية كي ينفتح على مجال أرحب من المثقفين والكتاب، كي تكون مجلته ومشروعه أكثر عطاءً وأكثر جدية في إثراء الخطاب النقدي.. وهو قادر على ذلك بالتأكيد.

(٧)

إلا انه يجب هنا تنبيه الرجل على عدة أمور كي يكون كلامنا خبريا مفيدا وليس مدحاً وإنشاءً، وهنا عدة أمور أرى من الضروري لشخينا عبدالجبار الوقوف عندها:

١ ـ ضرورة أن يتنبه الرفاعي إلى انه قد دخل في مرحلة جديدة يحسن له فيها ترك تملقات الأصدقاء وترضيات فلان وفلان على حساب النشر في المجلة وكراسها. وان كان له في السابق من يبرر له ذلك، فهو اليوم في وسط بغداد تحتضنه المؤسسات وليس بحاجة إلى احد من أنصاف المثقفين هؤلاء.

٢ ـ إعطاء فرصة اكبر للمثقفين والاختصاصين العراقيين خصوصاً الذين تم عدم التعامل معهم سابقاً كما هو حال المثقفين العراقيين داخل العراق، والمثقفين الشيوعيين، فالرفاعي اليوم قد خرج نهائيا من ربقة حزب الدعوة ولا يصح له هذا الابتعاد.

٣ ـ إعطاء المجلة دفعة اكبر للانفتاح الكتاب العلمانيين خصوصاً الذين لهم مساهماتهم في علوم (الأناسة) والعلوم التطبيقية.

٤ ـ أعتقد أن الشيخ الرفاعي قدرته المالية قد توسعت، لذا فهو يستطيع التعامل مع مترجمين يثرون أعداد خاصة حول آخر الطروحات للمفكرين الأجانب (= الألمان والأمريكيين والفرنسيين خصوصاً).

٥ ـ اعتقد أنه الآن قريب من عدة كوادر فنية قادرة على مساعدته على إخراج حلة غلاف وتصميم جديد يليق بهذه المهمة.

٦ ـ ضرورة وجود موقع للمجلة على شبكة الانترنيت، وإذا كان الشيخ الرفاعي يفكر بأن هذا يقلل مبيعات المجلة ورقياً ويؤثر على الأرباح، يستطيع أن ينشر بعض من أبحاث العدد الجديد وهذا سيكون داعية تجلب مشترين أكثر، كما أنه يستطيع نشر الأعداد القديمة.

٧ ـ بما أن المجلة عراقية لذا لا يصح إهمال الفكر البياني، فالشعر والأدب مشكلة حقيقة في العراق لذا يجب تخصيص أكثر من عدد لذلك وبالتأكيد إن هذه الأعداد سوف تكون لها أهمية خاصة وستكون بحاجة إلى طبع كمية إضافية منها، وهذا له مردود مالي وعلمي مزدوج يدفع المجلة إلى فضاء أوسع.

٨ ـ بما أنها قضايا معاصرة، لذا يجب جريان مقاربه أعمق مع مشكلات الراهن العراقي ليس الفكري التراثي وإنما الاجتماعي والسياسي أيضاً.

٩ ـ بما أن المجلة عادة إلى العراق، لذا من الضروري إصدار ملف عن (الفكر الديني في العراق) بالانفتاح إلى مشكلة الدين الواحد الخاتمي ووجود قوميات واديان مختلفة في العراق، وأعتقد أن حاجتنا إلى هذا الملف لا زالت تتضاعف في ظل الأزمة العراقية الراهنة والقادمة.

١٠ ـ بما أن الأمر ثقافي فيجب تخصيص إعداد لمثقفين آخرين بمثل مآتم لباقر الصدر.. مثل المفكر العراقي: هادي العلوي والمفكر السوداني: أبو القاسم حاج حمد ،وغيرهم، ممن لهم إسهام خاص في نقد وتطوير الفكر الديني.

(٨)

اعتقد أنه إذا أردنا أن نحتفي بأحد ونكرمه من المثقفين فان هنالك ثلاثة لااقل يستحقون هذا التكريم:

١ ـ كنعان مكيه، لما قام به من عمل إنساني وثائقي هام.

٢ ـ عبدالجبار الرفاعي، لما قدمه من مشروع ثقافي جاد ومنفتح.

٣ ـ مظفر النواب، لصوته الشعري العراقي الخالص.

وأنا إذ أقول ذلك رغم أني اختلف مع الرجل (= لم يوجد اتصال بيننا غير مرة واحدة منذ سفري الأخير قبل ثلاث سنوات)، اليوم بأكثر مما كنتُ في السابق.. لكنه اعتراف بحق من الحقوق التي لا يسعنا إلا تقديم الشكر والامتنان لها.. انه تنبيه على رجل مهم ومثقف حقيقي، يستحق الاهتمام بدل حشود المهرجين بالقلم والعمامة هؤلاء... عبدالجبار الرفاعي درس عملي بمكانية الالتقاء وإمكانية إجراء عمل مشترك بين طافة الأطياف والأطراف، وهو رجل مهم:

١ ـ لما يتمتع به الرجل من قدرة على إقامة علاقات مع مثقفي الداخل والخارج، والوطني والعربي والأجنبي.

٢ ـ والرجل مهم لمقدرته على كسب الشباب وتوعيتهم، وعلى مثله تقع مسؤولية استنقاظ الشباب من عصابات العمامة سواء الوهابيين منهم أو الطفيليين من أمثال مقتدى ومن هم على شاكلته.. وبكل تأكيد أن الشارع العراقي متلهف لسماع صوت العلم والحكمة النقية، بعيدا عن قرود المنبر الديني، وضباع المنصات السياسية.. فليست المعاصرة هي بحوث نخبوية لا يفهم مصلحاتها سوى القلة، وإنما هي أولاً النزول إلى الشارع وحماية الناس من قطاع الطريق هؤلاء... ولا اعتقد أن وطنية الرفاعي وإسلاميته وعراقيته تسمح له ان يترك الناس لهؤلاء الممسوخين الذين لا يملكون سوى خصية آبائهم يتزعمون بها الناس.... خصوصاً وان الشيخ الرفاعي يؤمن بضرورية أن يكون المثقف اجتماعياً(= راجع المقدمة التي كتبها الرفاعي لكتاب محمد باقر الصدر: موجز في أصول الدين).. وعليه فالبحوث النخبوية غير كافية في عمل المثقف.

... بعد أيام سوف يجري مهرجان المربد الكبير وقد تم استدعاء جملة من المثقفين (= مع الأسف غاب عنه أهم الكتاب المشتغلين على الفكر النقدي) وأرجو أن يكون هذا اجتماع والتقاء بين المثقفين العراقيين أنفسهم يتعاونون فيها على إجراء منصة ثقافية تزاحم منبر الفقيه والسياسي.. وان يكون لقاء بين المثقفين العراقيين والعرب، يعيدون فيه بيان المثقف العربي ضد عمليات الإرهاب وما تعرض له العراق من مذابح وكيف صفقة لها أقلام عربية بامتياز... إن أهم قضية معاصرة اليوم هي: كيف نخلق خطاب ثقافي جديد؟!.. فالمثقف العربي كان دوما هو الوجه الآخر للحاكم.. أو فلنقل أن قضيتنا الأساسية اليوم: كيف نحول الثقافة (والمسجد والجامعة والسياسة) من كهف تعشعش فيه الخفافيش إلى حديقة للعصافير؟!.. بلا شك أن نطرد الخفافيش والضباع لا يكون إلا بإشعال المصابيح.

❖ ❖ ❖

عبد الجبار الرفاعي
في لغتي الخائفة

✍ نزار حاتم[1]

أزعم ـ سلفاً ـ أن محاولة الكتابة في شهادة عن صديق بحجم الأستاذ عبد الجبار الرفاعي، من شأنها أن تجعل لغتي مخاتلة، وخائفة، وهي تحاول أن تتلمس الرفاعي (الإنسان، المثقف، المفكر، والمنتج).

يمكن أن يكون وعائي اللغوي أكثر إقداماً وحماساً فيما لو كانت وجهته الحديث عن الرجل موصولاً بذكريات، وجلسات،وحكايات مشتركة، كانت تأخذني وإياه حتى الهزيع الأخير من الليل على مدى سنوات طوية، مذ تعرفت عليه عام ١٩٨٧ في إيران،حيث يجمعنا نشيد التشرد مكرهين بسبب الهمجية التي لاحقتنا مع الآخرين على يد النظام الشمولي السابق.

إنه العراقي المتحدر من قرية جنوبية، لا تبعد عن قريتي سوى بضعة كيلو مترات، كانت هي الأخرى قد فرضت حضورها على قلبي منذ لحظة لقائنا الأول، ودون أن يشي هو لي بذلك ـ أول وهلة ـ.

فلقد كان لذاك المنأى القروي حضوره التلقائي في عينيه، وفي وجدانه، الذي كشف كل أوراقه كاملةً على طاولة ذاك اللقاء، الذي يستمد بهاءه – حتى اللحظة – من الخلق الرفيع، والكرم السمح، والتلقائية البريئة، والعاطفة التي يمكن أن تفضحها الدمعة، لأدنى حالة من حالات الألم الإنساني على صعيد الإحساس بوجع الآخرين.

ربما يكون الحديث حاراً وعاصفاً بالعاطفة، فيما لو كان استحضاراً للمكان، حيث نشأتُنا الأولى في بيوت الطين الرابضة على تخوم الصحراء، التي كان يربت علي كتفها عشبُ الربيع، لتزهو برائحة (الحندقوق) وموال الرعاة.

لستُ مفكراً لأتلمس رحلته المعرفية الضخمة والمتنوعة، ولست ناقداً مجيداً لأتناول بالتحليل مسيرته الثقافية والفكرية، التي عركها بدراية الواثقين على جبهتي الحوزات العلمية، والدرس الأكاديمي.

---

(١) شاعر وإعلامي عراقي.

أدّعي أن لجهوده الذاتية، التي ـ كنت شاهداً على مقاطع زمنية منها ـ على صعيد تكوينه الفكري والثقافي ما يفوق كل زاد المعرفة الذي موّنته به تينك الجبهتان الحوزوية ـ الأكاديمية، على ما تنطويان عليه من أهمية كبيرة.

مازلت أتذكر أن مكتبته العامرة بشتى صنوف العلم والمعرفة كانت تمثل له فضاءه الذي يتوحد وإياه إلى حد التماهي.

بجهده الشخصي المثابر أطل علينا بمجلة (قضايا إسلامية معاصرة)، ليقتحم من خلالها جل الإشكاليات التي يمور بها الفكر الديني، ليفتح شبكة من الأسئلة الحيوية والصادمة على صعيد الوعي الديني المعاصر.

لقد حشد من خلال هذه المجلة النابضة بالتوهج المعرفي جل الكتاب والمفكرين الذين يعنون بتحديث الفكر الديني، ليقدم آراءهم عبر لقاءات وحوارات جادة، أو من خلال ما سطروا من موضوعات حيوية على صفحات المجلة.

ومن خلال المجلة ذاتها، إلى جانب مؤلفاته وإصداراته الثرية، لامس الأستاذ الرفاعي جل المحاور الفكرية ذات الصلة بالدين، والسياسة، والفلسفة، واللاهوت، ومواجهة التعصب والعدوانية، وغير ذلك من الظواهر المتفشية في الاجتماع البشري عبر التاريخ.

ونحن أصدقاءه حين نلتقيه نستشعر الحاجة العميقة إليه في تعرية الذات، من خلال الرغبة في تفكيك اللبوسات التاريخية والاجتماعية الغامضة، التي تحاصرها أسئلتنا الحائرة في ذواتنا، التي نحاول ـ من حيث لا نشعر ـ استلابها عبر الاستسلام للكهنوت.

ولأن الإبداع يقتضي: "أن لا تصيب الهدف مرتين من الزاوية ذاتها "، فقد آثر الرفاعي معالجة القضايا المتصلة بحركة الوعي الديني، والإنساني بعامة، من زوايا مختلفة ومتعددة، في مجالات: الفلسفة، والعرفان، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والأدب، والفن وغيرها، مما يمثل شبكة منظومته الفكرية المتنوعة، التي تضيئنا – لحظة – حواراتنا معه.

وفي حضرة تكريم أستاذنا الرفاعي تتوهج الروح احتفاءً ليس به شخصياً فحسب، بل بما يمثل هذا التكريم من وعي القائمين عليه ورصدهم الثاقب للمنجز المعرفي الخلاق، وهو في نهاية المطاف احتفاء برمزية الفكر والثقافة.

٢٠١٣/١/١٦

مصلحون عراقيون منسيون

✍ مصطفى الكاظمي[(١)]

يتقن الشرقيون لعبة إخفاء الكبار.. تناسيهم وتجاهلهم وتحييد طروحاتهم حتى عندما يكون استحضارهم مهمة مصيرية لتكريس الوعي الثقافي لشعوبهم.فتذكر الكبار المؤثرين وربما لا نقفز على المفاهيم حين نقاربهم بمصطلح "عقول الظل".. ليس حدثاً اختيارياً ومن المؤكد أنه لا يعني فقط بالسلوك الاعتباري على مستوى الذاكرة الجمعية بل هو في واقع الحال حدث يتعلق بصيرورة الحياة، وعملية الخلق المتجددة. رجال علم وعمائم ليبرالية وفلاسفة ومثقفون أمدوا حياتنا بنسائم استمراريتها، لكن الظروف، زجت ببعضهم قسراً في لعبة الإخفاء المؤلمة.

في نطاق المقاربة الحضارية فان الحضارات الغربية إجمالاً لا تخصص مساحة واسعة في وعيها الجمعي لمبدعيها وروادها فقط بل تضيف في الوصف والتفصيل لأعمالهم على العكس من نزعتنا العجيبة نحو التجاهل والإهمال.

السيد مهدي الحكيم وطه جابر العلواني وعبد الجبار الرفاعي وكنعان مكية وعادل عبد المهدي وسواهم رموز معرفية آثرت الفكر السياسي والديني والاجتماعي والثقافي في العراق وهي في جوهرها تشكل منارات لما تراكم عليها من تفاعلات حديثة في خضم البحث عن إجابات شافية، ومن أجل تقديم عطاء جديد يخدم الفكر والإنسان.

وعلى الرغم من أن أحد هذه الأسماء له اليوم دور سياسي فاعل في العراق، إلا أن عادل عبد المهدي السياسي في السلطة التنفيذية يقف في ظله عبد المهدي المفكر.

في عقدي الخمسينات والستينات من القرن المنطوي شهدت الساحة انتشاراً سريعاً وغير مسبوق للأفكار الشيوعية والقومية بتيارات واتجاهات مختلفة وكان الاتجاه الديني رد الفعل الطبيعي لوقف هذا الزحف الفكري الذي لم يكن بمقدوره أصلاً الاستمرار بحكم التناقض المباشر مع البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في المجتمع العراقي آنذاك.

هنا بالتحديد ظهرت الأسماء الكبيرة التي تحملت مسؤولية الحفاظ على الانتماء الأصيل للمجتمع وتحولت بالممارسة المباشرة إلى الإصلاح بمبتغاه الاجتماعي والثقافي

(١) كاتب وإعلامي عراقي.

والسياسي، متصدين لمسؤولية الإنقاذ في مواجهة صراع إرادات مبني على مصالح شخصية ضيقة.

برز السيد مهدي الحكيم في تلك المرحلة المعقدة بفكر نير وقلب مفتوح فاستحق ما أطلق عليه من لقب مكاريوس العراق لدوره في التعريف بمظلومية العراقيين مرة ودعوته إلى إسلام إنساني متكامل مع الآخر ومهما كان هذا الآخر وتشهد على ذلك ساحة دبي ولندن حينما كان يحضر الشهيد مهدي الحكيم نشاطات المسيح والهندوس والبوذيين، ويروي السياسي والمنسي الآخر سعد صالح جبر رفيق درب الحكيم، كيف ينتظر رؤساء الطوائف في لندن في بيت سعد صالح جبر، مهدي الحكيم بلباسه الصوفي البسيط، ليستمعوا رؤساء الطوائف برؤية الحكيم المتسامحة حول الإسلام والآخر، بعد أن رأوا إسلاماً آخر، وأغنى الحكيم الفكر الحر المعاصر بطروحات راقية ومتطورة ما دفع إلى اغتياله أثناء حضوره المؤتمر القومي الإسلامي في السودان بدعوة من الشخصية السياسية الفكرية السودانية المعروفة حسن الترابي، فكان هذا الاغتيال اعترافاً بعجز البعث عن مجاراة مشروع الإصلاح الوطني الحر البعيد عن التعصب.

وفي مرحلة الانتشار الفكري الأفقي ذاتها اطل الفقيه طه جابر العلواني رجل الدين الذي أثرى الفقه الإسلامي الديمقراطي من خلال جهده ومنجزه المعرفي في ماليزيا وفي الولايات المتحدة حينما كان يدير أهم المراكز الإسلامية المعهد العالمي للفكر الإسلامي.عبر مشروع، المنهجية في الفكر والاستدلال، لأنّ مراجعة التراث والتجديد ينبغي أن يكونا أولاً في منهجية التفكير والاستدلال. وبالخصوص إن الأمة تعاني حسب تعبير العلوني من منهجية سائدة في كثير من الدراسات غير الجادّة، وعلى وجه الخصوص الدراسات الموجهة، التي تستند إلى فكرة مسبقة يراد ترويجها ضد الآخر.

وضمن ذات المسار الإصلاحي الوطني ظهر ابن جنوب العراق الداعية والمفكر عبد الجبار الرفاعي الذي تنقل بين الحوزة العلمية والكويت ودمشق وعواصم وأماكن أخرى ينشر فكره الحر النير عبر إصدارات هائلة من أهمها (مجلة قضايا إسلامية معاصرة، سلسلة كتاب فلاسفة الدين وعلم الكلام الجديد، سلسلة كتاب فلسفة وتصوف، وسلسلة كتاب آفاق التجديد وسواها) وكان هدف الإصلاح هو كل ما يصبوا إليه من كل هذه المشاريع لتصحيح مفهوم الدين حيث يقول الرفاعي "لا سبيل إلى جني معطيات النزعة الإنسانية في الدين، إلا بالخلاص من التفسيرات المتعسفة القمعية للنصوص، وتخطي المفاهيم والمقولات النمطية المغلقة في اللاهوت الكلاسيكي. وإنما يتحقق ذلك

بفتح باب الاجتهاد في علم الكلام، وتحديث التفكير اللاهوتي، ومحاولة بناء لاهوت عقلاني مستنير".

ثم تطور المنحى النقدي عند الرفاعي إلى نقد النظام التعليمي في الحوزة العلمية منذ ١٩٨٦ حتى ١٩٨٩، وهو ما حاز على جانب من اهتمامه سواء في كتابه "تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية، الصادر في العام ٢٠٠٠، أم في أطروحته للدكتوراه والموسومة "تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، ٢٠٠٥، والتي ناهزت صفحاتها الألف، وحازت على الجائزة الأولى للشهيدين الصدرين صيف ٢٠٠٩، والتي نظمها مكتب الشهيد الصدر في قم.

المنسي الآخر المثقف كنعان مكية كان من بين المصلحين المهمومين بتشذيب الذاكرة العراقية والعالمية مما علق بها تمهيداً للانطلاق إلى أفق التسامح الثقافي.

مكية الذي وضع كتاب القسوة والصمت والنصب التذكارية والصخرة وكتابه الشهير "جمهورية الخوف" بعد أن ترجم بروعته وضخامته وصدق انتمائه الديمقراطي الحر إلى ١٧ لغة عالمية، لم يترجم إلى اللغة العربية إلى الآن، ولكن قد يحاجج البعض إن جمهورية الخوف قد ترجم إلى العربية عبر نسختها الصادرة عن دار الزهراء أو دار مدبولي في القاهرة، الحقيقة إن هذه النسخة ليست ترجمة حقيقية لسفر مكية في جمهورية الخوف وإنما مقاطع مشوهة ترجمتها إحدى مخابرات دول الجوار العراقي للانتقام من ثقافة كنعان مكية وتشويه معاناة العراقيين تحت دكتاتورية صدام حسين، اعتبر كنعان مكية رائداً من رواد حقوق الإنسان ليس في العراق فحسب بل على المستوى العالمي.

والرجل الذي اختار جبهة الدفاع عن مستقبل عراقي أكثر تسامحاً وأقل صداماً عبر ميثاقه الشهير ميثاق ٩١ تيمناً بانتفاضة العراقيين عام ١٩٩١ ضد الظلم والطغيان واشد تكريساً لمفهوم المواطنة والتصالح مع الذات ومن ثم مشروع الذاكرة العراقية الذي بدأ يحتضر بسبب هذا النسيان، استمر مكية يراقب المشهد العراقي بكل تجلياته وانكساراته، فكان صمته ما بعد عام ٢٠٠٣ موردا حيا لقياس موقف المفكر كمسؤول عن صوغ الوعي الجماعي في لحظة النكسة الاجتماعية، لم يكن مترددا في تشخيص الخلل على المستوى السياسي مع تغير المراحل، لكنه بالتأكيد كان وفيا لمصداقية رجل التاريخ، لا ازدواجية رجل المراحل.

أما عادل عبد المهدي فان مشروعه الفكري كان قد تأسس بعد مخاضات مع الفكر القومي والماركسي والإسلامي في بداية شبابه في الخمسينات والستينات ليستقر

منذ منتصف الستينات على محاولة إيجاد معادلة متوازنة قادرة على تقديم إجابات عصرية لمرحلة عراقية معقدة تقف عشرات القوى والتيارات السياسية عاجزة عن التعامل معها يساعده في ذلك عمقه الاقتصادي الأكاديمي مرة أو عمقه الفلسفي عبر وضعه بصمات جلية في الوعي الثقافي العراقي المعاصر وحتى العالمي عبر مشروع مجلة المنتقى بلغاتها الثلاث والتي كان يصدرها عبد المهدي في باريس لأكثر من عقدين ثم مجلة ينابيع الحكمة بالفرنسية (The Mind Spring).

وكانت مجلة المنتقى تذكرنا بالعروة الوثقى التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني في باريس أيضاً أيام هجرته إلى هناك. وربما سيطول الوقت قبل أن يتم تذكر عبد المهدي مفكرا وفاعلا في الوعي المعاصر وليس سياسيا فقط.

إن محاولة استعراض هذه الرموز التي ربما يدرج معظمها تحت وصف "العمائم الليبرالية" و"المصلحين الاجتماعيين" و"المفكرين المهمومين بالآخر"، لم تكن غايتها استذكار الاسم بعيداً عن المعنى، والمعنى في هذا الطرح إن العمامة التي بدت حيناً موغلة في عزلتها الزمانية، أو مندفعة نحو "التراتيبية" السياسية حينا آخر، إنما تقف في ظل حضورها الطاغي اليوم تجارب مغايرة تفرض نفسها كحلول فكرية مقترحة لازمات الهوية والغاية والرؤية التي تشوب قفزاتنا العراقية المضطربة.

قد نوصف بأننا من سلالة امة لا تجيد احترام رموزها، لكن الضرورة قد تكسر هذا الاعتياد، والضرورة لا تعنى بمحاولة نبش الطروحات الفكرية وتعديل آليات إخفاء الرموز فقط، بل تتعدى إلى تحديد الأسئلة العراقية قبل الإجابة عنها.

وليس من باب الصدفة أن التاريخ العراقي المعاصر حافل بعشرات من الرموز الفكرية والسياسية التي تصدت للإجابة، والعودة إلى تلك الإجابات ليس سلوكاً "نكوصياً" بقدر ما هو في حيزه الفكري عودة إلى البحث عن "المنافذ".



لو أسمعت حيا يا رفاعي

✍ د. فوزي حامد الهيتي

يقول مدني صالح لو انصرفت الجامعة العربية إلى بناء مؤسسة للترجمة تتوحد فيها جهود المترجمين العرب وتتعاظم آثار نتاجاتهم العلمية في عملية التحديث، لقدمت خدمة للأمة العربية ما لم تقدمة في تاريخها الطويل ولبررت وجودها.

تذكرت هذا القول وأنا اقرأ افتتاحية الدكتور عبد الجبار الرفاعي لمجلة قضايا إسلامية معاصرة لعددها (٤٥ ـ ٤٦) إذ يكشف الدكتور الرفاعي في هذا المقال الافتتاحي ليس فقط همومه الفكرية ومشروعه التحديثي الذي سعى وجاهد طوال سنين طوال لانجازه عبر مجلته عالية الصيت بالغة الأثر في حياتنا الثقافية المعاصرة فضلاً عن سلسة إصداراته التي تبنى بها المنجز الفكري العراقي طباعة وتوزيعا، وترجمة منتخبات من انجازات الفكر العالمي. وهو جهد لو لم يقدم الرفاعي غيره لكفاه فخرا واستحق منا نحن المثقفين الاحترام والتقدير. لم يكتفي الرفاعي بهذا البوح بل كشف لقرائه سر الجنود المجهولة التي تحملت أعباء وجهود انجاز كل هذا المشروع الثقافي الكبير.

يقول الرفاعي: (تود هذه الدورية أن تبوح لقرائها بأنها فضلاً عن افتقارها إلى مكتب ومبنى فإنها لا تتوافر لديها ميزانية أو ممتلكات أوقاف خاصة بها ومساهمات الكتاب فيها تطوعية، ولا تتم عملية التحرير فيها في مكان واحد؛ فتحريرها وطباعتها وتوزيعها تجري في أكثر من بلد، وفريق تحريرها يتألف من (عائلة)، تتولى فيها الأم سكرتارية التحرير منذ العدد الأول، فيما يتولى الابن الإخراج والتنظيم، ويشرف الأب على التواصل مع الكتاب، واقتراح محاور وموضوعات كل عدد، وإدارة عملية التحرير، وإجراء الندوات والحوارات، غير ان ذلك لم يمنعها من الاستمرار لمدة خمسة عشر عاما، بالنهج الذي اختطه، وبكفاءة فكرية عرفها بها المتابعون لها.)

جاء هذا الكلام في سياق جواب على سؤال أضنه افتراضي وعلى طريقة أسلافنا في القول (سألت أيها الأخ الكريم....) وعليه هي صرخة استغاثة أطلقها الرفاعي بعد طول عناء وتجاهل من بيدهم كاكات النفط ومفاتيح كنوز الأرض من أبناء جلدتنا عسى أن يغيثوا مشروعة النهضوي ويتحملوا معه همومه الثقافية والمعرفية. وهي بالطبع همومنا أيضاً نحن الباحثين عن طريق للتحرر من قيود الكهف الأفلاطوني الذي تكبلنا داخله قرونا طويلة.

ماذا يمكن أن نقدم للمستصرخ الرفاعي دعماً لجهوده الثقافية سوى أن نكون صداً لصرخته عسى أن تصل إلى وزارة الثقافة والمعنيين القادرين على دعم مشروعه الفكري النهضوي

ونقولها بلا التواء ومواربة ان الرسالة الحضارية التي تبنتها مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) والمنهج الذي اتبعته في إيصال وتبليغ رسالتها والجهد الكبير الذي أنجزته خلال مسيرتها الماضية... كل هذا الذي فصله الرفاعي في افتتاحيته... عسى أن ينتبه إليه المغلسون المستأثرون بالأموال المقتطعة من خبزنا اليومي لتخصص للشأن الثقافي والعلمي، يجب أن لا يبقى هذا الجهد وجهود الآخرين المشابه يتحملها أفراد لوحدهم، بل يجب... وهذا الواجب من أوجب الواجبات... أن تتحمل مؤسساتنا الرسمية هذه الجهود بالدعم المالي من غير أن تمارس على أصحاب هذه المشاريع الفكرية أية سلطوية على توجهاتها الثقافية فنحن لا نخاف على الثقافي إلا من سلطة السياسي المُؤدلَج المُوظِف لجهود الثقافي لأغراضه. نقول لوزارة الثقافة ولمن بيده مفاتيح رزق البلاد ما قاله مدني صالح بحق الجامعة العربية وليشملوا أصحاب المشاريع الفكرية بالتخصيصات المالية وليوفروا لهم أسباب نجاحهم لان ثمار هذه الجهود هي عامة لا تخص شريحة دون أخرى ولا طائفة دون أخرى ولا مذهب دون آخر ولا قومية دون أخرى. إنها جهود تنطلق من فلسفة إنسانية مفادها (انا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم) فالاختلاف هو اصل في الوجود وحقيقته وعلينا أن نتعلم كيف نتعايش فيه... إنها جهود تهدف ببساطة ان نتعلم العيش مع الآخر المختلف وتأسس لثقافة تنظر إلى الآخر المختلف بعده ضرورة لوجودي فأنا لا أستطيع ان أحدد وجودي المتفرد إلا من خلال وجود الآخر المختلف بل ان أهمية وجود هذا الآخر المختلف ضروري أيضاً بعدي ذاتاً منتجة قادرة على الفعل والتفاعل لأنه الأقدر على اكتشاف أخطائي... ولانجاز هذا الحلم النهضوي تسعى المجلة أن تختط طريقاً لا تتجاوز فيه ذاكرة الجماعة ولا تقفز على اللحظة الزمكانية للذات الحاضرة المفكرة. فالذاكرة هي تاريخ الجماعة وخبرتها في التعاطي ومواجهة المشكلات الحياتية اليومية لو أحسنا التصرف به بعده خبرة تاريخية مكتسبة وإرثا (ولا أقول تراثاً) يحق لنا أن نُوظِفَه بما يقوي قدرتنا على التكيف مع المستجدات ويمنحنا قدرة اكبر على اقتراح حلول لها، إذا لا استغراق وفناء في الماضي لتصبح هذه الذاكرة عبأ ثقيلاً ننوء بحمله بل تكون أرضاً صلبة تقف عليها الذات الحاضرة وتتحرك بثقة وخفة لتصير ذاتا منتجة قادرة على الفعل والتفاعل لا ذات تراثية متكلسة تعيش خارج الزمان ولا ذات منسلخة عن ذاكرتها مغتربة مستهلكة تابعة، فكلا الحالتين لا تنتج سوى ذوات منفعلة مدمرة لكل ما هو جميل في الحياة.

لا شك أن إنجاز هذا المشروع النهضوي يتطلب تضافر جهود علمية عديدة ودعم مؤسساتي كبير فهو جهد لن ينجزه جيل لوحده فما بالك بأفراد قلائل. يحق للرفاعي أن يقلق ويستغيث وواجب علينا التعاضد معه لانجاز حلمه لأنه حلمنا جميعاً. ولكننا نعلم، ونعتقد أن الرفاعي يشاطرنا الاعتقاد، إن هذا الحلم يقلق الكثيرين ويقضي مضجع المنتفعين من بقاء الحال ولا نملك إزاء ما نحن فيه إلا الصراخ وعسى أن يكون صراخنا في وادٍ لا في فضاء لا صدى فيه لصوت. ❖

عبد الجبار الرفاعي
شخصية إسلامية عالمية

✍ **إبراهيم الوائلي**

مخابئ الأيام والأقدار ترفدك بعزائم الأمور وطهارة المورد وجنائن الخلد، وان سبر أغوار الناس يأتي من خلال العلاقة الروحية والمهنية والإنسانية وغيرها، وتأسيسا على ما ورد وحصراً ١٩٦٥ وفي يوم تشريني صدر أمر تعيني معلما في "مدرسة المتنبي الابتدائية" التابعة إلى مديرية تربية لواء المنتفك (الناصرية). لقد غمرتني الغبطة والانشراح، ولم أتمالك نفسي لذلك الهوس الجنوني الذي أصابني نتيجة الصك الغفراني الحياتي الذي تحقق للتو، سبحت في فيض من الأماني والأمنيات، وغدوت في تلك الحدائق الوردية متأبطاً أمر التعين الوظيفي، وأسرعت صوب نهر الغراف السومري لغرض المباشرة، انتظرت بفارغ من الصبر العبارة (الطبكه) كما يحلو للعامة تسميتها، وما هي إلا دقائق وأنا في الصوب الآخر من النهر، امتطيت دراجتي الهوائية التي هي الواسطة الوحيدة للنقل آنذاك، لقلة وسائط النقل الحديثة، وانعدام الطرق المعبدة ورحت أصارع بقوة تلك الدراجة التي اشتريتها للتو بثلاثة دنانير لا غير، تعرضت خلال الرحلة لتيارات هوائية عنيفة كادت أن تصرعني أرضاً وتسرق فرحتي التي جاءت بي إلى تلك القيعان والفيافي، سلكت أكتاف الأنهار الشديدة الانعطاف والانحدار، وسببت لي الكثير من الإحراج، أما عبور الأنهار والترع فهي شاقة بشريا، لأن مقاطع تلك المجسرات من جذوع أشجار النخيل التي ترك عليها الزمن بصماته، فأحالها إلى إعجاز نخل خاوية. والحق يقال إن تلك الأراضي والقيعان التي اخترقتها الدراجة كانت شديدة الخضرة والرواء، تشابكت عندها الأنهار والنهيرات والمصطحات المائية الجميلة، وكانت بحق شرايين وأوردة بشرية؛ تتصل بالقلب وتستلطفه علـه ينجدها ويرفدها بالمزيد من المياه، لتسقي تلك المزارع الغناء. ركنت دراجتي الهوائية صوب سياج المدرسة الطيني، ودلفت صوب إدارة المدرسة، هب المدير وزملائي المعلمين لاستقبالي بحفاوة واحتضان، ملتمسين مني نبذ المتاعب التي رافقتني خلال ألمجي، طالبين الصبر والجلد، لان التعليم رسالة تتطلب الأعباء والمشاق، الغاية منها إرساء وبناء جيل عراقي جديد.لقد صدقت النبوءة وقطفت الثمار وجاء الزمن الوردي، اخذ المدير بيدي صوب التلاميذ للتعريف بهم وتركني في الصف الخامس الابتدائي، هالني ذلك الجميع الوسيم من التلاميذ ونظراتهم الثاقبة وأجسامهم الممتلئة وهندامهم

الحسن، علاوة على جمالهم الإلهي الذي قل نظيره. إنني في باحة حضرية وليس ريفية أحاطت جموع التلاميذ بي وكأنهم في معرفة سابقة بي، ولا أخفي سراً كنت من الرياضيين البارزين، والكل يعلم ما لمعلم الرياضة من حظوة ومكانة من لدن هؤلاء التلاميذ.

بدأت التعرف على أسمائهم؛ مشيراً إلى أحدهم ما اسمك؟ أجاب بثبات اسمي: (عبد الجبار جخيم تميم الرفاعي)، كان وسيما يضرب عليه الخجل والحياء، واستفسرت من الآخر فأجاب بلهفة واندفاع، اسمي: (كاطع نجمان الركابي)، وكان كزميله، ولله دره إنهم اليوم قادة في زحمة الحدث العراقي، إنهم سنابل الخير العراقي وحصاد بركة المعرفة، وأدوات الفعل الخير، وحزمة الضوء الواعد، ومشكاة النور المتوقدة. فالأستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي من فلاسفة العراق الشباب، وصاحب مركز دراسات فلسفة الدين،وهو شخصية إسلامية عالمية، ومستشاراً ثقافياً في رئاسة الجمهورية. وأما الأستاذ كاطع نجمان الركابي فهو من مستشاري دولة رئيس الوزراء. لقد توطدت العلاقة بيننا، فبين التلميذ والأستاذ ترابط جدلي وروحي، حتى إكمالهما الدراسة الإعدادية ظل تزاورنا الأسري يزداد رسوخا وعطاءً، وبعد نضوجهما الفكري تعلقا بالثورة الإسلامية الفتية، كما كان لتأثرهما بالمفكر والمرجع قدس الله سره الشهيد محمد باقر الصدر الأثر الكبير في نضوجهما الفكري والسياسي والاجتماعي، وشهدت مجالسنا نقاشاً فكرياً وسياسياً وإسلامياً، يصل في بعض الأحايين حد الاحتراب المؤدب، وكان السيد شويع الموسوي الداعية المبجل له حصاد السبق في هذا التحاور الفكري. اشتدت الخطوب بهم، وبدأ أزلام النظام باقتفاء أثرهما، وتم تأشير قريتهم (الحواس) خصوصاً وعشيرة آل بو حمزة عموماً خطوطاً حمراء،هاجراً أثر ذلك إلى خارج العراق، كما تعرض أبناء هذه العشيرة إبان النظام البائد إلى القسوة،واعدم نظام صدام الكثير منهم ولاحق الباقين على قيد الحياة، حتى وصلت الحالة بالنظام إلى التبرم من كل أبناء العشيرة، متوعداً مسحها من الخريطة.

سقط النظام الفاشي، وعند عودتهم إلى ارض الوطن لم تبارح مخيلتهم ذلك الأستاذ والأخ والصديق وابن العراق المسلم المتحضر،فتوافدا لزيارتي في عقر داري، مستذكرين تلك الأيام العجاف، فاتحين ذلك الشريط الحياتي الجميل، وأبنائي ينصتون إلى ذلك السفر الخالد.

اليوم يقف العلامة الدكتور عبد الجبار الرفاعي في رحلة فكرية حديثة يرفد المكتبة المسلمة برحيق علمه المستنير، لكي يجني المسلمون عطاءه الثر،ويدفع بعجلة الإسلام نحو القمم العلياء، ومغادرة السلوك الفاشي، والنهج المتحجر الذي أساء إلى الإسلام والمسلمين. ❖

الرفاعي هو البطل الحقيقي لروايتي «صحراء نيسابور»

✍ حميد المختار[1]

قالوا عنه الكثير والكثير من الصفات الطيبة والمحمودة فهو ظاهرة فكرية ومشروع تنوير، له قدرة عقلية زوده بها حسه الاجتهادي في التحليل والفهم والنقد، فالاجتهاد في صلب طبيعته ووظيفته ممارسة النقد والقدرة على التجاوز.

هذا ما قاله الدكتور وجيه قانصو أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية عن عبد الجبار الرفاعي، أما السيد محمد حسين الأمين فقد وصفه بأنه أحد أهم المفكرين المسلمين عبر مجلته (قضايا إسلامية معاصرة)، بينما وصفه السيد هاني فحص انه فقيه حرر العمامة من أعبائه عندما تحرر من أعبائها وأحال مرموزها العلمي الحضاري والأخلاقي إلى قلبه وعقله وذمته، حرر وقته وعلائقه وحركته ومكتبته من زمان الحوزة الراتب ومكانها المشدد الحراسة فيه وحوله من دون أن يخطئ في تعيين مسار الإصلاح المجدي من الداخل، أما هو فيقول عن نفسه: تحررت من سطوة التراث لكن هذا التحرر ليس بمعنى الخروج على الدين أو الخروج من الدين أو التحلل من التدين والتبجح الزائف بما يجرح الضمير الديني للناس، مثلما يفعل بعض المتنطعين المراهقين، تعلمت من التراث والواقع أن الدين أبدي في الحياة البشرية، الإنسان كائن متدين وان نزعة التدين، كما أعيشها، تمثل لدي ظمأ أنطولوجياً لا يروى إلا من خلال التواصل مع المطلق.

الدين الذي يعتنقه رفاعي هو الإسلام الإنساني الرحماني، فالدين لديه هو الحب، والحب هو الدين والمحبة أصل الموجودات.. هذا هو المفكر التنويري الإنساني عبد الجبار الرفاعي.. صاحب الروح السمحة المستمدة من سماحة الإسلام وسلاسته وسعته، انه صاحب الفكر والحوار المفتوح والوعي الذي انتقل من ثباته إلى حركية أعجبت الآخر وانبهر بها فصار رفاعي فضاءً وباباً مفتوحاً للجدل والمعرفة والحوار مع الآخر.. هذا الآخر الذي رأى فيه معنى أن يكون الإسلام متسامحاً ومحاوراً بعيداً عن التطرف وبعيداً عن الوعي الزائف والرؤية الضيقة التي صارت سمة الكثيرين ممن يحملون فكر الإسلام ولوائه.

---

(١) أديب وروائي عراقي.

للأسف الشديد فان لقاءاتي به قليلة جداً لأنه كثير المسؤوليات والسفر المتواصل، آخر لقاء كان لي معه في شارع المتنبي كان بمعيته الشاعر زعيم النصار، كان لقاءً سريعاً اطمأننت من خلاله على صحته وعرفت آخر أخباره لذلك ينبغي أن تكون علاقة المثقف العراقي بهذا الرجل دائمة، لأنها بالتأكيد ستثري ذخيرة الآخر حين الاقتراب منه والاغتراف من معينه الإنساني والفكري، وهو بطيبته وهدوئه وسعة صدره وعمقه يمكننا جميعاً أن نقول انه الأنموذج الصالح للإسلامي المعاصر، فقد عصرن مفاهيم الدين وأسلم مديات الثقافة والفكر بحوار هادئ بناء، لا يتجاوز فيه حدوداً أو خطوطاً حمراً فحريته التي كفلها له دينه لا تسمح له بالتجاوز على حريات الآخرين مهما كانوا.. وهكذا أراه محلقاً في مقامات عرفانية عالية بروح متصوفة زاهدة تبحث عن حلم مفقود ومحطة آمنة، لكنه أبداً سيظل هذا الطائر المحلق في فضاءاته المفتوحة لا يستقر على حال باتجاه المطلق في سفر لا ينقطع.. وأنا أراه كما لو انه سيصل إلى حانة الأبدية تلك التي احتلت الفصل السابع والأخير من روايتي "صحراء نيسابور". عبد الجبار الرفاعي هو البطل الحقيقي لهذه الرواية.. وسيصل إلى تلك الحانة ولو تأخر به الوقت.. لأن عدته قد اكتملت، وما عليه سوى أن يواصل طيرانه باتجاه أفق امتلأ بندماء يحيطهم الجمال والجلال والإنشاد المتواصل لفصل ربيع جديد.



مغامرة الرفاعي في تحديث الفكر الإسلامي

د. فخري مشكور(*)

الأستاذ الفاضل سماحة الشيخ الرفاعي حفظه الله

عندما سمع النبي المكي اقرأ، سأل: ماذا اقرأ؟

وعندما سمع عبدالجبار الرفاعي اقرأ، سأل: كيف اقرأ؟

المشكلة عند الرفاعي وعند كثيرين غيره كيفية القراءة، لا مادة القراءة، فالنص معروف ومتفق عليه، لكن كيفية القراءة غامضة ومختلف فيها. فقد قتل الحسين بن علي بسبب (خروجه على أمام زمانه) لان قراءة يزيد لنص الخروج على أمام الزمان تختلف عن قراءة أنصار الحسين في ضوء نص آخر هو (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر). هذا النص الذي قرأه الإمام الخميني، والشهيد الصدر الأول، والشهيد الصدر الثاني في (كتاب الجهاد) فنهضوا في سبيل الله، بينما قرأه آخرون في (كتاب التقية) فقعدوا في سبيل الله!

ومضى خط الناهضين يقرأ النصوص على طريقته، فكلفتهم تلك القراءة رزقهم، وراحتهم، وحريتهم، ووطنهم حيناً، وحياتهم أحياناً أخرى، لأنهم وجدوا الإسلام ــ في قراءتهم لنصوصه ــ كفاحاً مستمراً من أجل الدعوة إلى دين الله كله، وتطبيقه كله، وضحوا بكلهم في سبيل ذلك، فظفر بعضهم بإحدى الحسنيين وظفر بعضهم الآخر بالحسنى الثانية، ودفع أصحابهم ضريبة الجهاد كاملة غير منقوصة... سجوناً، وإعداماً، وتشريدا، وبقي من بقي منهم يحار في تدبير لقمة عيشه، وعباءة زوجته، وحذاء طفله.

بينما ذهب خط القاعدين يقرأ النصوص على طريقته، فلم تكلفهم تلك القراءة شيئاً. بل جلبت لبعضهم من (البركات) ما لا عين رأت، ولا إذن سمعت، رزقاً داراً، وعيشاً باراً، لهم ولآلهم، وللصحابة والتابعين، وتابعي التابعين.

وعندما وجدت قراءة القاعدين في سبيل الله سوقاً رائجة عند (جمهور المسلمين) قرروا تعميم قراءتهم لتشمل خط الناهضين في سبيل الله. فقدموا إليهم النصائح للاقتداء بالإمام الحسن في (قراءته)، لكن أولئك ردوا عليهم بوجوب قراءة القرآن في آياته، وسيرة النبي في جهاده، وسيرة الإمام علي في حروبه، والإمام الحسن قبل صلحه، ثم سيرة الإمام الحسين في ثورته...

(*) طبيب أخصائي أمراض باطنية. وله اهتمامات بالفكر والاجتماع الإسلامي.

وعندما عجز القراء القاعدون عن (هداية) القراء الناهضين، اضطروا ــ والأدلة الشرعية تلوى أعناقهم ليا ــ إلى استعمال سلاح الفتوى، فأصدروا أحكامهم بانحراف الخط الناهض عن الإسلام الأصيل، وخروجهم عن منهج أهل البيت القائم على التقية والمداراة، وترك الفساد يتنامى حتى يخرج صاحب الأمر الذي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. واستعانوا على قراءتهم بأدلة متضافرة، ونصوص متواترة، عن العترة الطاهرة... منها: (ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا احد ليدفع ظلماً أو ينعش حقاً إلا اصطلمته البلية، وكان قيامه زيادة في مكروهنا وشيعتنا).

واصل خط الناهضين حمل كل الإسلام ودفعوا في ذلك كل ما يملكون.

وواصل خط القاعدين حمل بعض الإسلام وحصلوا في ذلك كل ما يملكون.

وعندما استشهد بعض (القراء) الناهضين تنفس (القراء) القاعدون الصعداء.

وعندما انتصر رمز الناهضين حبس رموز القاعدين أنفاسهم وأعادوا حساباتهم أمام هذه (المسألة المستحدثة) وسرعان ما فطنوا إلى العمل بمقتضى القواعد... وقاعدة التقية أشهر من قفا نبك، وهي (حاكمة) على ما سواها كما هو مقرر في مبحث الحكومة، فليعملوا بها ما دام المنتصر قوياً، فإذا ضعف تغيرت الأحكام بتغير العناوين.

وصدقني لو لم ينتصر الإمام الخميني رحمه الله لوجدته اليوم في قائمة الخارجين عن المذهب، والذين يجب سبهم والبراءة منهم، ومن أشياعهم وأتباعهم، على (قراءتهم المنحرفة!) للدين خلافاً لعمل الأصحاب، وفتوى المشهور، وإجماع السلف الصالح.

وجئت يا عبدالجبار الرفاعي في هذا الزمن القاسي وقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، حيث رحل الإمام الخميني، وضعفت شوكة الناهضين، وقويت شوكة القاعدين، جئت لتدعو الناس إلى قراءة واعية لنصوص الدين، والاستماع إلى الرأي والرأي الآخر، والاستعانة بسلاح المنطق والحوار، وإعطاء الحرية للعقل لكي يستثمر المناخ الفكري السليم، ويختار من الآراء أنضجها، ومن الأفكار أصحها... لأن الإسلام هو الأقوى دائماً، ولا خوف عليه من العقل والتفكير الحر.

سامحك الله يا آخي... كأنك لا تعلم إن القراءة الواعية ممنوعة، وأن العقل محجور عليه، وأن الرأي الآخر محكوم بالإعدام، وأن المنطق والحوار والحرية الفكرية والعقل السليم فصول من (كتب الضلال).

أين ولدت يا عبدالجبار؟ وأين ترعرعت؟ وأين تريد أن تدعو إلى حرية الفكر والقراءة الواعية؟ أفي مجتمع يحترم من يرسم (الحية) ويحتقر من يكتبها؟

ألا غاب عن بالك أن التقليد لم يعد يقتصر على فروع الأحكام بل وصل إلى أصول العقائد؟

أم ترى نفسك أقوى من نجل الإمام الخميني الذي طهروا الإناء الذي شرب فيه؟

أم نسيت إن سلاح التكفير أقوى من سلاح الدول الكبرى واتباعها في اغتيال الشخصيات والأفكار؟

أم لم يطرق سمعك إن قاعدة (المال مال الله) أصبحت (المال مالي)، وتحول (بيت المال) إلى (مال البيت)، ووقف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب على أبواب ملوك المال يشترون بعلمهم ثمناً قليلاً، مستفيدين من الحالة السكونية المنحطة التي يريد شخصكم الكريم ــ بكل طيبة وإخلاص ــ أن يحرر المقلدين منها؟

إن أخطر أعمالك دعوتك إلى (القراءة) في وسط يعيش بعض سلاطينه على عدم القراءة، ويجند الذين لا يقرأون ضد الذين يكتبون، لكي يخرجوك وأمثالك من الدين كما فعل بأشياعك من قبل (كالسيد محسن الأمين).

أكتب لك هذه السطور وكلي شفقة على أطفالك وعيالك... من لهم بعدك؟

لقد دخلت مجلتك سنتها الثالثة وتريد أن تنذر عشيرتها الأقربين... فماذا أعددت للدفاع عن نفسك أمام قريش إن أرادوا أن يثبتوك أو يخرجوك؟

كأني بك تخرج من قم وصبيان جب شور(*) يرشقونك بالحجارة فتدمى قدماك فلا تجد ظل شجرة تستريح عنده، ولا عداساً يقدم لك عنقود عنب تسد به جوعتك... ستخرج منها خائفا تترقب دون أن تجد من ينام على فراشك، أو يقضي عنك ديونك.

وتسألني عن الذي أنجزته مجلتك، وماذا بقي عليها، وما هي الوسائل الكفيلة بتطويرها والارتقاء بها؟

أما ما أنجزته، فتفجير قنبلة العقل في ثقب صغير في جبل التحجر.

وأما ما بقي عليك فهو الانبطاح لحماية رأسك من شظايا التفجير وقطع الصخور المتساقطة.

وأما وسائل تطويرها فبكلمة: ارتبط بإحدى الشركات الفكرية، واكتب في تنظير قولهم، وفعلهم، وتقريرهم، ووال من والاهم، وعاد من عاداهم، تعش سالماً والقول فيك جميل.

وفي خلاف ذلك فستكون قم (مسقط) رأسك. وسنقرأ في التاريخ اسمين بارزين: القاضي عبدالجبار، والمقضي عليه عبدالجبار. وان لم تصدق فانشر رسالتي هذه.

هذه نصيحتي لك وقد أعذر من أنذر.

أخوك

محمد بن الحنفية

(*) محلة في مدينة قم يقطنها الرفاعي.

العلامة الموسوعي الشيخ عبد الجبار الرفاعي عنوان فخر ورمز مجد

موسوعة مصادر النظام الإسلامي نموذجاً

د. عبد الجبار شرارة[1]

إن الأعمال العلمية الكبيرة التي ينهض بها بعض الأفراد في التاريخ الإنساني، ويسهمون بها في رفد المعرفة الإنسانية، تستحق كلّ الإكبار والتقدير، لما تمثله من خدمة غير قليلة أو محدودة. وإذا كانت الدراسات أو الأطروحات العلمية، سواء منها ذات الطابع الإبداعي أم التأصيلي، تقدّم إضافة معرفية لحركة البحث العلمي، ولمسيرة التطور الإنساني؛ فإن الأعمال المعجمية ربما تستحق التقدير الأكبر، لأكثر من اعتبار، فهي من جهة؛ تدوّن وتسجل الآثار العلمية للباحثين فتحفظها من الضياع والنسيان، ومن جهة ثانية تكشف عن مدى نمو وتصاعد حركة البحث العلمي بتنوعها؛ فترسم خطا بيانيا واضحا لذلك، ومن جهة ثالثة تدلّل على مدى تجاوز (الذات) بتقديم خدمات مجانية للباحثين والدارسين، الذين يهمهم كتابة البحوث في الموضوعات ذات السمة الجديدة، أو تفتح آفاقهم على ما لم يكتب فيه بعد، من خلال الرصد الدقيق لما كتب في هذا الحقل أو ذاك، وفي هذا الموضوع أو ذاك.

والحق أن مثل هذه الأعمال، خصوصاً إذا كانت كبيرة، تقوم بها عادة مؤسسات، تضم كوادر متخصصة، ويتهيأ فيها من الأجهزة والوسائل ما يسهّل عليها إنجاز العمل بصورة دقيقة ومستوعبة، فكيف إذا كانت إذن تنجز بجهد فردي، وبإمكانات متواضعة للغاية، وفي زحمة أعمال ومشاغل أخرى ليست قليلة. إنها حينئذ تستحق أكثر من مجرد التنويه والإشادة والثناء والتبجيل والتقدير.

ومن هنا رأيت أن أكثر ما يمكن أن نقدمه للباحث الموسوعي العلامة الشيخ عبد الجبار الرفاعي، صاحب المعجم الذي نروم التعريف به، هو أن نشدّ على يده المعطاء، ونبارك جهده الكبير: "موسوعة مصادر النظام الإسلامي"، هذا الذي ينضمّ إلى جهود علمية كبيرة، سبق أن أتحف بها المكتبة الإسلامية؛ ومنها: "معجم ما كتب عن الرسول وآل البيت" في ١٢ مجلداً، و"معجم الدراسات القرآنية" في مجلدين، وللأسف البالغ، لم يُتبنَّ إكمال نشر عمله الرائع الأخير، إذ صدر منه مجلدان فقط، والباقي ينتظر أهل الفضل والعلم والغيرة

---

(١) أستاذ في كلية القانون في جامعة البصرة سابقاً، توفي سنة ٢٠٠٥ في بيرث بأستراليا. مراجعة كتاب: موسوعة مصادر النظام الإسلامي. تأليف: د. عبدالجبارالرفاعي. قم: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٩٩٦م، ١٠مجلدات.

القرآنية، ثم معجم "المطبوعات العربية في إيران"، وهو من الأعمال الجليلة، إذ يقع الكتاب في حوالي تسعمائة صفحة، تضمنت أكثر من ٥٠٠٠ عنواناً، منذ دخول الطباعة إلى إيران إلى سنة ١٩٩٢م، ثم عمله الأخير الكبير الجليل النفع، العظيم الخطر والأهمية، وهو "معجم الاختراق الثقافي"، الذي يقع في مجلد واحد، عدد صفحاته ٧١٤ صفحة، وعدد العناوين ٦٣٨٠ عنواناً، مصنفة موضوعياً تحت أكثر من ٨٥٠ رأس موضوع.

إن مثل هذه الخدمات العظيمة للمكتبة العربية والإسلامية وللتراث الإسلامي، لابدّ أن تحظى بالتكريم والتقدير العاليين؛ فهي تعدّ بحق من المفاخر التي يفتخر بها الإسلاميون، وأتباع مدرسة أهل البيت بالخصوص، ومن حق العلامة الموسوعي الشيخ الرفاعي علينا أن يكون عنوان فخر، ورمز مجد.

موسوعة مصادر النظام الإسلامي

المعجم الذي نقدم به تعريفاً اليوم هو كما أشرنا ـ موسوعة مصادر النظام الإسلامي ـ وهو يقع في عشرة أجزاء، تضم ألفي صفحة من القطع الكبير، نشره مركز الأبحاث والدراسات التابع لمكتب الإعلام الإسلامي ـ قم ـ ١٤١٧هـ.

وقصة النظام الإسلامي ـ كما أراد الباحث أن يصطلح عليه أو النظم الإسلامية، كما في اصطلاح بعض المؤلفين المعاصرين ـ عرضت في مقدمة الجزء الأول التي كتبها مدير المركز الشيخ مهدي فقيهي، وقد حكى فيها عن بداية التأليف في هذا الموضوع، أو أقدم ما وصل إلينا على الأصح ـ كتاب الخراج ـ لقاضي القضاة أبي يوسف المتوفى ١٨٢هـ، وتطور هذا الفن حتى الأحكام السلطانية للماوردي وغيره، وأشار إلى ما تضمنه فهرست ابن النديم في هذا المجال، ثم عرّج في أثناء المقدمة على الأسباب الخفية التي أدّت إلى ضمور التأليف لدى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام في هذا الحقل الحيوي، مع ما عرف عنهم من عطاء زاخر، وإبداع وتأصيل في المجالات المعرفية الأخرى ـ كما سجلته كتب الفهرستات، وعزا ذلك إلى عملية الاضطهاد والإقصاء التي تعرض لها فكر أهل البيت وفقههم وفقهائهم، بسبب معارضتهم لحكام الجور، ووقوفهم بوجه الطواغيت في كل العصور، فضلاً على عدم تهيئ الفرصة لهم لإقامة دولة تستلزم بالضرورة التنظير والتكييف الفقهي لشؤون الحكم والإدارة والمال فيها.

وعلى رغم كل ذلك فتح الباب على مصراعيه للسير وئيداً من أجل سدّ الثغرات وملء الفراغات في حقول؛ الاقتصاد والتربية والتعليم والفن والإدارة والحكومة والقضاء والقوانين... الخ. وبدأت الساحة تستقبل الكتابات العلمية في هذا المجال، إلاّ أن المفكرين والكتاب الإسلاميين كانوا قد أغنوا المكتبة العربية الإسلامية في تلك الحقول على مدى القرون والأعوام المتعاقبة، وبغية ترشيد حركة البحث العلمي في هذه المجالات وفتح العيون وتنبيه الأذهان.

جاء عمل العلامة الشيخ الرفاعي ليحقق هذه الغاية، بل الغايات الكبيرة؛ فهو تسجيل ورصد دقيق للتراث الإسلامي في هذه الحقول، وهو كشف وتعريف بمدى إسهامات العقل المسلم في استجلاء أبعاد الأطروحة الإسلامية للحياة، وهو دليل ومرشد للباحثين والمفكرين والكتّاب، ممن يريد أن يكون له دور أو إسهامه في بناء التجربة الإسلامية على أسس علمية متحررا من أسار التبعية والتقليد، ونظرة أولى عاجلة على عناوين المجلدات العشر تعطيك صورة عن العمل الجبار الذي نهض به العلامة عبد الجبار الرفاعي في هذا الإطار:

١ ـ **الجزء الأول:** اختص بـ**"الاقتصاد الإسلامي"**، وأدرج فيه المؤلف عناوين مؤتمرات ومقالات منشورة في الدوريات، مع عدم إغفال الإشارة إلى ما له تعلق بهذا الحقل "الاقتصاد"، في مراجع ومصادر الفقه الإسلامي، بل وفي المصنفات التي وثقتها الفهرستات القديمة كفهرست ابن النديم مثلاً ما لم يصل إلينا. وفي هذا تسليط الضوء على البعد التاريخي لمثل هذه البحوث، كذلك لم يهمل المؤلف الكتابات التي صدرت من غير المسلمين، أو تناولت الموضوعات من منطلقات سلبية، ولم يفته أيضاً استيعاب الآراء المتنوعة للمذاهب الإسلامية، كل ذلك، ولأن هدف المعجم ـ كما يقول المؤلف ـ (ليس محاكمة وتقويم المصادر، وإنما هدفه توفير رؤية مرجعية واسعة تغني الباحث وتؤمن له التعرّف على المواقف في موضوع دراسته). هذا وقد سعى الباحث في هذا المجلد الخاص بالاقتصاد الإسلامي إلى محاولة جمع الإنتاج الذي بلغ إليه علمه في السنوات الطويلة التي واصل فيها جمع البيانات، فبلغ عدد العناوين (٣٩٣٧) عنواناً؛ تم تصنيفها تحت (٥٨٨) رأس موضوع وإحالة، تحت عنوان (أنظر). وعملية التصنيف هذه بحد ذاتها تعدّ جهداً كبيراً وشاقاً وعلمياً، تغلّب عليه المؤلف بصبره العجيب، وخبرته العلمية الواسعة، وثقافته الموسوعية والتراثية والمعاصرة.

وسنوضح في آخر مضامين بقية الأجزاء بمنهج المؤلف ومصادره، ودليل الاستخدام لهذه الموسوعة.

٢ ـ **الجزء الثاني:** وقد عنونه بـ**(الاجتهاد والتجديد)**. وحسناً فعل المؤلف حين أولى هذا الموضوع عناية خاصة، لخطورته وأهميته من جهة، ولأنه يكشف عن مدى مسايرة الفقه الإسلامي للتطور، واستجابته للإشكاليات المعاصرة والتحديات الجديدة من جهة أخرى، ويتجلى ذلك بالضرورة في نطاق مدرسة أهل البيت عليهم السلام بلحاظ أنهم اتخذوا من مسألة الاجتهاد موقفاً ايجابياً، وهذا الموقف الذي انعكس في العطاء الفقهي وتراكم الثروة الفقهية الكبيرة.

لقد أصبح الاهتمام متزايداً بضرورة تلبية متطلبات الزمن، والإجابة عن الأسئلة والإشكالات الكثيرة، وكان على حركة الاجتهاد أن تسدّ هذه الحاجة وتستجيب لهذا التحدي. ومن هنا "فقد كتبت الكثير من البحوث والمقالات وصدرت العديد من الكتب،

وعقدت المؤتمرات العلمية حول هذا الموضوع "الاجتهاد والتجديد" وكان أبرزها (الملتقى السابع عشر للفكر الإسلامي في الجزائر١٤٠٣هـ.

وأخيرا عقد مؤتمر في قم سنة ١٤١٦هـ "دور الزمان والمكان في الاجتهاد"، وقدمت لهذا المؤتمر بحوث قيمة، وجرى حوار بين ثلة من كبار العلماء حول هذا الموضوع الحيوي.

لقد خصص المؤلف القسم الثاني من موسوعته "مصادر النظام الإسلامي" لما كتب عن الاجتهاد والتقليد من كتب ورسائل جامعية وبحوث مؤتمرات وغيرها، كما أشير إلى مباحث الاجتهاد في المظان الفقهية والأصولية، بدءاً بالمؤلفات الأولى، التي ذكرتها الفهرستات، كفهرست ابن النديم، إلى الإنتاج المتأخر، وحتى الزمن الحاضر.

وقد حاول المؤلف أيضاً استيعاب كل ما له علاقة بالاجتهاد والتجديد، إذ شملت عملية الاستقراء الكتابات عن"الاجتهاد، والاختلاف، وأسلمة المعرفة، والأصالة، والإصلاح، وتاريخ التشريع الإسلامي، والتجديد، والتحديث، والتطور، وتطور الفقه الإسلامي، والتفكير الاجتهادي في الإسلام، والتراث والحداثة، ومناهج البحث في العلوم" فيما استثنيت الكتابات الخاصة في أصول الفقه والسنة الشريفة، إلاّ ما يرتبط منها بالاجتهاد بصورة مباشرة كما لم يهمل المؤلف بعض الكتابات التي صدرت من غير المسلمين، أو تناولت الموضوعات المذكورة من منطلقات سلبية أحياناً، وحاول المؤلف أن يستوعب الإنتاج الذي بلغه علمه، حتى وصل عدد العناوين إلى (١٣١٧) عنواناً، تم تصنيفها تحت (١٨٤) رأس موضوع وإحالة؛ تحت عنوان أنظر. وتنتهي البيانات التي جمعها من المصادر والكشافات والفهارس إلى سنة ١٩٩٢.

إن الناظر المتفحص في كشاف العناوين، الذي يقع في آخر الكتاب، يدرك مدى الجهد والعناء الذي بذله المؤلف في عملية الاستقصاء والمتابعة للإصدارات المتنوعة التي تتعلق بمثل هذا الموضوع المهم. والحق أن المؤلف هنا قد وضع بأيدينا سجلاً حافلاً، ورصداً دقيقاً للكتابات والدراسات في هذا المجال الخطير. وقد جاء حجم هذا المجلد أصغر من بقية المجلدات؛ لحداثة الموضوع من جهة، وقلة الكتابات فيه من جهة أخرى، اللهم إلاّ في نطاق مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ولدى فقهاء هذه المدرسة؛ بلحاظ فتح باب الاجتهاد عندهم واستمراره على مدى العصور والأحقاب، والتطورات التي تحصل دائماً خاصة لدى المتأخرين، سواء على نطاق البحث الفقهي أم الدرس الأصولي.

٣ ـ الجزء الثالث: وقد عنونه المؤلف بـ"القضاء والفقه الجنائي": يعود التأليف في القضاء إلى فترة مبكرة في التاريخ الإسلامي، حيث ظهرت بعض الكتابات في القرن الثاني الهجري، مثل كتاب أدب القضاء للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة ١٨٢هـ. أما ابنه يوسف فقد ولي القضاء أيضاً وتوفي سنة ١٩٢هـ.

لقد تولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، القضاء بنفسه، كما أن صورة النظام القضائي كان قد نشأ في عصر النبوة، وفي عصر الإمام علي عليه السلام، وقد قال رسول الله (ص) فيه: أقضاكم علي، وجاء عن الخليفة عمر بن الخطاب قوله: "لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن" وقال فيه بعد أن أرشد الإمام علي إلى القضاء الحق: "لولا علي لهلك عمر" على ما نقله ابن سعد في الطبقات الكبرى/ج٢. وقد اهتم المسلمون بالقضاء اهتماماً بالغاً، وأولوه عناية خاصة، وبادروا إلى التأليف فيه مبكراً؛ فاهتم القضاة بتدوين فقه القضاء، وتراجم القضاة وتجاربهم، كما ألف الفقهاء وكتبوا في القضاء، سواء في موسوعاتهم الفقهية أم بصفة كتاب مستقل، وبمرور الزمن تراكم تراث ضخم قال عنه المؤلف: "ربما لا نجد ما يماثله في تاريخ الأمم الأخرى".

لقد خصص المؤلف الجزء الثالث من موسوعته للكتب والدراسات المؤلفة في القضاء الإسلامي، ولما يرتبط به من قضايا القانون والفقه الجنائي والأحوال الشخصية، بدءاً بالمؤلفات الأولى التي ذكرتها الفهرستات القديمة، والتي لم تصل إلينا، والى الإنتاج المعاصر من كتب وأطروحات جامعية وبحوث مؤتمرات ومقالات علمية. ولم يهمل المؤلف كعادته الدراسات التي تناولت الموضوع من منطلقات سلبية، وأن يكون مستوعباً لما كتب في إطار مختلف المدارس والمذاهب الفقهية. وقد سعى إلى جمع ما أدرج في المصادر والفهرستات والنشرات مما له تعلق بالقضاء حتى سنة ١٤١٢هـ؛ فبلغ عدد العناوين ١٦٤٤ عنواناً، تم تصنيفها تحت ٣٥٧ رأس موضوع وإحالة تحت عنوان أنظر. ولعل من الأمور الطريفة التي ينبه إليها المؤلف هو التذكير في ختام المدخل الذي يكتبه في بداية كل مجلد إلى بعض الحوادث المهمة، وفي هذا الجزء أشار إلى أنه تم الفراغ من هذا الكتاب سنة ١٩٩٢، وعندها يكون قد مرّ خمسمائة عام على إحراق أكثر من مائة ألف مجلد في غرناطة، بعد استيلاء الصليبيين، فقدت هذه الكنوز العظيمة من تراثنا الإسلامي الزاخر المتنوع.

٤. الجزء الرابع: الفن الإسلامي: لاشك أن أقدم الحضارات الإنسانية قد عنيت بالفن والجمال وبالتعبير الفني، وأبدعت من صوره وأشكاله ما تميزت به كل حضارة منها، وإذا كانت حضارة الإغريق القدماء والحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين قد تركت من الشواهد ما عبرت فيها عن المضمون والحالة الوثنية، فإن الحضارة الإسلامية قد جسّدت الفن والجمال وفق المضمون الإلهي والقيم السماوية، فكانت النقوش والزخارف والخطوط، التي تجلّت في العمارة الإسلامية وفي ضرب النقود وفي الكتب، بل وفي صناعة السيوف وآلات الحرب" ولذا كانت الفنون الإسلامية أبرز ما استأثر باهتمامات المستشرقين والرحالة الغربيين"، ونالت إعجابهم وحظيت بالدراسة والتقويم.

إن إبراز الاهتمام لدى المسلمين بالفنون، على مستوى البحث والكتابة، يكشف عن الأصالة، ويقوم شاهدا آخر قوياً على تميّز الحضارة الإسلامية والنظم الإسلامية.

ويجيء هذا العمل الببليوغرافي للعلامة الرفاعي، الذي تمّ فيه التعريف بالمصادر العربية والمعربة للفنون الإسلامية؛ من كتب ورسائل جامعية وبحوث المؤتمرات ومقالات علمية.

تأكيدا على تلك الأصالة والإبداع، وكشفا عن جانب مهم في تراثنا لم يلق العناية التي يستحقها بعد في كتاباتنا المعاصرة. ولقد حاول المؤلف كعادته في بقية الأجزاء من موسوعته الرائعة أن يستقري كل الكتابات ذات العلاقة بالفنون التي ظهرت في الحضارة الإسلامية، كالخط والرسم والعمارة والمسكوكات، كما لم يهمل كتابات المستشرقين وغيرهم، وإلى نهاية الفترة التي جمع فيها البيانات وهي سنة ١٩٩٢، استطاع ان يحرر ١٥٣٧ عنوانا، تم تصنيفها تحت (٤٤٨) رأس موضوع، وهو كمّ لا يستهان به في هذا المجال المهم.

٥ـ الجزء الخامس: وهو الجزء الخاص ب"التربية والتعليم": لا ريب أن مسألة التربية والتعليم تُعدّ الشغل الشاغل لكل الرسالات ودعاة الإصلاح والنهضة، وقد كانت الرسالة الإسلامية سبّاقة في إيلاء هذه القضية ما تستحق من الاهتمام، في أول سورة نزلت (اقرأ باسم ربك الذي خلق) كانت الانعطافة الكبرى في تاريخ الإسلام والمسلمين. وفي السيرة النبوية وسيرة أهل البيت عليهم السلام، وعلى امتداد الأحقاب وتوالي العصور ظلت قضية التربية والتعليم تشغل مساحة كبيرة من اهتمام العلماء والكتّاب والفقهاء والباحثين؛ فكانت إسهاماتهم وتأليفاتهم قد بلغت مبلغاً كبيراً في هذا المجال.

وفي الجزء الخامس يضع المؤلف بأيدينا أكثر من (٥١٦) رأس موضوع وإحالة تحت عنوان أنظر. أما نوع المادة التي أدرجت فقد شملت كل ما وقع تحت يده من؛ كتب وأطروحات جامعية وأبحاث مقدمة في الندوات ومقالات منشورة في الدوريات، وسواء كانت مطبوعة أم ما تزال مخطوطة، وكل ذلك ما كان باللغة العربية فقط، وللفترة منذ بدء التدوين وحتى آخر عملية جمع للبيانات بداية عام ١٩٩٠ للميلاد - ١٤١٠هـ. وقد بلغت العناوين قرابة ثلاثة آلاف عنوانا، وقد اشتمل هذا القسم على كل الكتابات ذات العلاقة بالتربية والتعليم، وبالمدارس، وبمناهج التعليم في الإسلام.

لم يهمل المؤلف الكتابات التي صدرت عن غير المسلمين، أو تلك التي كان منطلقها سلبيا، لأن هدف المعجم كما شدّد أكثر من مرة؛ ليس محاكمة وتقويم المصادر، وإنما توفير رؤية مرجعية واسعة تغني الباحث، وتفتح أمامه آفاقا جديدة.

٦ـ الجزء السادس: وهذا الجزء الذي يختص ب"المرأة والأسرة في الإسلام": إن الأسرة في الإسلام هي المجتمع الصغير الأول، الذي يتلقى فيه المسلم منظومة القيم، وتتشكل

شخصيته في ظل بنائها المحكم. والمرأة هي حجر الزاوية في هذا البناء، لذلك أولى الإسلام رعاية خاصة، واهتم بصورة مباشرة وأساسية في تحقيق الهدف المزدوج، المرأة الصالحة والأسرة المتماسكة. ومنذ أن انتشل الإسلام المرأة والأسرة من الحالة الجاهلية، ونفخ فيهما من روحه، كانت الحضارة الإسلامية قد اكتسبت طابعاً خاصاً، في هذا النطاق، وامتازت عن الحضارات الأخرى سواء في إعطاء المرأة دورها المتميز، أم في طريقة (موضعة) المرأة ضمن التشكيل الاجتماعي (الأسرة أو المجتمع).

وقد أخذ الفقهاء والعلماء والمفكرون على عهدتهم التنظير لذلك كله؛ اهتداءً بالنصوص الصريحة، واستنباطاً من القواعد والأصول والمقاصد الشرعية، وأسهمت المرأة هي الأخرى، ليس في استيعاب هذه الحقيقة بل في التبشير بها، والتعاطي معها بصدق؛ فكان البناء الأسري محفوظا طيلة قرون، "وقد تعرضت الأسرة المسلمة إلى إرهاصات عنيفة بفعل عمليات الاختراق الثقافي الذي اشتد في الخمسين سنة الأخيرة، وتزلزل الأمن الأسري في حياة المسلمين إثر ذلك، ولكن المخلصين من أبناء الأمة استمر جهادهم وجهودهم لأسلمة الأسرة وحماية المرأة من محاولات المسخ والتشويه، وتمكنوا أن يقطعوا أشواطاً على هذا الطريق". وقد رصد المؤلف هذا الجهد منذ بداية عصر التدوين، وقدّمه إلينا إسهامه خيّرة في التبصير بهذه القضية الحيوية من جهة، وفي فتح الآفاق أمامنا لمزيد من البحث والدراسة من أجل أسلمة الأسرة والمجتمع، وكذلك للتعريف بمقدار ومدى إسهام العلماء والكتاب في هذا الحقل.

إن هذا القسم أو الجزء من موسوعة مصادر النظام الإسلامي يمثل دليلاً تفصيلياً للباحثين، في قضايا المرأة والأسرة والاجتماع العائلي في الإسلام، ودور المرأة في الدعوة الإسلامية، حيث اشتمل هذا القسم على (٣٥٠٢) عنواناً، تمّ تصنيفها تحت(٥٣٣) رأس موضوع وإحالة تحت عنوان أنظر. وقد نبّه الشيخ الرفاعي هنا إلى أنه أفاد من قائمة رؤوس الموضوعات العربية للأستاذ إبراهيم الخازندار. أما نوع المادة فشملت كالمعتاد الكتب والرسائل الجامعية والمقالات العلمية وبحوث المؤتمرات، وما تضمنته بعض المراجع والمصادر التراثية. ولم يهمل المؤلف أيضاً كتابات المستشرقين أو غيرهم، ممن ينطلق من منطلقات سلبية؛ لأن هدف المؤلف، كما يصرح هو، ينشد توفير رؤية عامة مرجعية واسعة.

٧ـ الجزء السابع: اختصّ هذا الجزء بـ "الإعلام والتبليغ الإسلامي": صدع الرسول الأكرم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي وأُمر بالدعوة إلى الله تعالى، ثم توالت عليه الآيات تترى أن أنذر، أن بلّغ، أن "أدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة". لقد أصبح للتبليغ والإعلام دور أساسي فعال في مواجهة تيارات التكفير والكراهية والتعصب،

وفي ترصين وتقوية عصبة المؤمنين، في كيفية إلحاق الهزيمة بالأعداء وشنّ الحرب النفسية عليهم، وفي أسلوب مواجهة حرب الشائعات التي يشنّها الأعداء، وفي عملية التثقيف والتوعية ونشر المعارف الإسلامية، والتبشير بالمبادئ والقيم.

لقد نهض فقهاء الأمة وعلماؤها ومفكروها بهذه الأعباء، وأسهم الكتّاب والباحثون في هذا المجال الحيوي والخطير، وقدموا زاداً نضيجاً، ودراسات قيمة في أدب الدعوة إلى الإسلام، وفي أسلوب الدعوة، وفي أنواع الإعلام وأساليبه في العصور المختلفة، وفي قضايا أخرى تتعلق بالصحوة الإسلامية، وفي أدب الاختلاف، وإشكاليات المستقبل والحاضر. وكما كان للإسلاميين إسهاماتهم في هذا المجال كان لغيرهم دور في الإعلام المضاد ومحاولات الإحباط.

لقد استطاع العلامة الجليل الشيخ الرفاعي أن يبلغ في هذا الجزء ما لم يبلغه في بقية الأجزاء، إذ قدّم دليلاً ببليوغرافياً في قضايا الإعلام والتبليغ والدعوة؛ ضمّ (٥٩٦١) عنواناً، تم تصنيفها تحت (٦٢٩) رأس موضوع، وربما يعود هذا إلى أن للباحث تجربة كتابية سابقة في هذا الميدان، عندما قدم المؤلف عمله العلمي إلى المؤتمر السابع للفكر الإسلامي المنعقد بطهران سنة ١٤٠٩هـ، وصدر في طبعته الأولى مشتملاً على (١٣٦٥) عنواناً، ثم واصل جهده وعمله، متتبعا مستقصيا حتى انتهى إلى الصورة الحالية.

٨ ـ الجزء الثامن: اختص هذا الجزء بموضوع خطير وشائك وهو "الإمامة والسياسة" كما اصطلح عليه: اهتم المؤلف في هذا الجزء بتقديم عرض تاريخي شيق عن تطور البحث في مسألة الإمامة والسياسة، وفي المظان والحقول التي امتدت إليها هذه المسألة، وقال: "فتارة نعثر عليه ـ البحث ـ في مؤلفات الفلاسفة، عند بحثهم الحكمة العملية وما تتشعب إليه؛ من تدبير المجتمع وسياسة المدن، وأخرى نجده عند المتكلمين مندرجا ضمن مباحث الإمامة، وثالثة في ثنايا تاريخ الإسلام السياسي لاسيما في مواقف العلماء مع السلاطين..." إلاّ أن الشيخ الرفاعي يرى أن الحقل الأهم الذي انتظمت في إطاره تلك المباحث هو الفقه، خصوصاً أبواب الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلاة الجمعة، والخمس، والقضاء والحدود... وما أُلف بموازاة ذلك من أعمال مستقلة تمحورت حول النظام السياسي، أو النظام المالي للدولة الإسلامية، كما يلاحظ في كتب (الخراج) لأكثر من مؤلف، ثم ما ظهر من كتب "الأحكام السلطانية"، كل ذلك في نطاق الفقه السني، أما في مدرسة أهل البيت فقد تأخر ظهور الفقه السياسي ـ كما يرى المؤلف ـ قروناً عديدة، ثم ازدهر في الفترة المتأخرة، وإن كانت هناك أحكام متناثرة، كما في المبسوط للشيخ الطوسي ت ٤٦٠هـ. لكن بحث (الإمامة) في الواقع نجده مبسوطاً في كتب المتكلمين الشيعة الذين قدموا دراسات قيمة ورصينة في هذا المجال قلّ أو انعدم نظيرها، إلاّ أن كل ذلك بقي في دائرة (النظرية)، أما على مستوى الفقه السياسي

لشؤون الحكم والإدارة بعد عصر الغيبة خاصة، فتعود الإشارة إلى القول ب (ولاية الفقيه) إلى منتصف القرن العاشر الهجري، حيث صرّح المحقق الكركي ت ٩٤٠ هـ بأن الفقيه منصوب من قبل الأئمة عليهم السلام في عصر الغيبة، نائب عنهم في جميع ما للنيابة؛ مستنداً في ذلك إلى مقبولة عمر بن حنظله الشهيرة. وكذلك أشار في كتابه (المقاصد) إلى أن الفقيه الجامع للشرائط هو النائب العام عن الإمام المعصوم. ثم جاء بعد أكثر من قرنين النراقي ت ١٢٤٥هـ، الذي صرح بشكل واضح بالوظيفة السياسية للفقهاء في عصر الغيبة.

ومنذ عصر الشيخ مرتضى الأنصاري ت١٢٨١هـ ـ كما يقول المؤلف ـ دأب فقهاء الإمامية على بحث مسألة الولاية العامة للفقهاء في باب البيع من مؤلفاتهم الفقهية، وظلوا عقودا يتناولونها من منظور فردي لا يتعامل مع متطلبات دولة.

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري (انفتح الفقهاء الشيعة على تجربة جديدة في الصراع السياسي مع السلطة القاجارية في إيران، من خلال ما عرف بمسألة المشروطة، وبدأت تظهر كتابات في الفقه السياسي مثل"تنبيه الأمة وتنزيه الملة" للميرزا النائيني أحد كبار الفقهاء ت ١٣٥٥هـ، وظلت البحوث في هذا المجال محدودة إلى أن أطلّ الإمام الراحل الخميني من على منبر الدرس في النجف الأشرف، ليلقي سلسلة محاضرات نظّر فيها لولاية الفقيه، وصدرت تحت عنوان"الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه".

إن البحث في مسائل الإمامة والسياسة كان وما يزال ساخناً، وقد أسهم العلماء والمتكلمون والفقهاء والمفكرون والكتاب على امتداد التاريخ بإسهامات كبيرة في هذا المجال الحيوي، وأتحفت المكتبة الإسلامية بزاد وفير وعطاء كثير." وفي محاولة لحصر الإنتاج الفكري في مسائل الإمامة والسياسة عند الإسلاميين، خصّ الشيخ الرفاعي الجزء الثامن من موسوعته "مصادر النظام الإسلامي" لهذا الموضوع وما يرتبط به، وحاول رصد الكتب والرسائل الجامعية وبحوث المؤتمرات والمقالات المنشورة في الدوريات، ومنذ بداية التدوين عند المسلمين حتى جمع آخر البيانات سنة ١٤١٦هـ. وقد بلغت العناوين ٣٧٠١ عنواناً، تم تصنيفها تحت (٢٩٥) رأس موضوع، ولم ينسَ أن يورّخ الشيخ الرفاعي في ختام مقدمته لهذا الجزء وفاة العلم العلامة أستاذ المحققين وشيخ المفهرسين السيد الأجل عبد العزيز الطباطبائي، الذي وافته المنية في السابع من شهر رمضان /سنة ١٤١٦هـ، ولم ينسَ أن يهدي مجهوده الكبير في هذا الجزء إلى روح الأستاذ العلامة السيد عبد العزيز الطباطبائي.

٩- الجزء التاسع: خصص هذا الجزء لموضوع (الحرب والسلم في الإسلام): إن للحرب قواعد وأصولا وآلات وفنونا، كما إن للسلم قواعد ومبادئ ومعاهدات. وقد كانت هذه المسائل محل اهتمام الشريعة والفقه، خاصة فيما يتصل بالجهاد وأحكامه وشروطه، وفي

السيرة النبوية، كان الاهتمام ينصب أيضاً على التنظيمات العسكرية وما يتصل بذلك من ضوابط؛ بما في ذلك تنصيب القادة وأمراء الجيش، وقد أفرزت حركة الفتح الإسلامي حالات كثيرة، كالحصار والهدنة والمعاهدة وغير ذلك، من بناء المدن الحربية، وقيام التشكيلات العسكرية المتنوعة. وقد اهتم الكتّاب بكل تلك الأمور، وأُلّفت الكتب في كل تلك المسائل، بما في ذلك ما أفرزته (العسكرة) من مصطلحات وفنون الموسيقى الخاصة.

وقد سعى المؤلف إلى رصد ذلك كله، واستقصاء ما كتب في قضايا الحرب والسلم، وما وصل إلينا من التراث في هذا المجال، فظفر ب (١٢٠٨) عنواناً، تمّ تصنيفها تحت(٦٨) رأس موضوع.

وكالعادة شملت المادة المدرجه الكتب والرسائل الجامعية والأبحاث المقدمة إلى المؤتمرات والمقالات المنشورة، وقد نبّه المؤلف إلى أن جزءاً من هذا العمل قد نشر سابقاً في العدد ١٩ من مجلة منبر الحوار الصادرة في بيروت ١٩٩٠م، تحت عنوان الحرب والسلام والعالمية ـ مختارات ببليوغرافية، وقد تابع المؤلف ما كتب في هذا المجال وجمع البيانات إلى سنة ١٩٩٥م، ويأمل استدراك ما فاته في طبعة ثانية لاحقة.

١٠ـ الجزء العاشر: وقد خصصه المؤلف لموضوع حيوي وهام هو: "أسلمة المعرفة": لقد تميز تراثنا الإسلامي بالأصالة والتنوع. واستطاع الرواد الأوائل من الفقهاء والعلماء والمفكرين أن يقدموا إلى الحضارة الإنسانية زادا معرفيا له نكهة خاصة، هي من نفحات القرآن وأريج النبوة. وعندما اتصل الفكر الإسلامي بالفكر اليوناني وبحضارات الشعوب الأخرى، نهض العقل المسلم بدوره العلمي في استيعاب أطروحة الآخر، ومقولات الفلسفة ومسائلها، ثم أنتج مسائل جديدة ومقولات جديدة طبعها بطابع الإسلام، فكانت(الفلسفة) بداية الشوط، ثم انطلق علماء الملة يبدعون، ويضيفون إلى الحضارة الإنسانية، بل صاروا هم حاملي مشعلها، وأضحت الجامعات الإسلامية قبلة أنظار العالم ومهوى أفئدتهم، حتى صارت علومهم ونظرياتهم محطّ الاهتمام وحوافز النهضة، ثم دبّ الوهن، وبدأت أسباب التدهور الحضاري تتجمع فأدت إلى سقوط دولتهم وسادت حالة النكوص. لكن الله قيض لهذه الأمة من يحفظ لها أصالتها، ويحيي النسغ الحضاري، فكانت طلائع النهضة، وكان رواد الإصلاح يحثون الخطى لإيقاف حالة التداعي وتنشيط الفكر، واتجه المفكرون الإسلاميون إلى الإبداع المعرفي في حقول علم النفس والاجتماع والتنمية والتكنولوجيا.

وقد جاء الجزء الأخير(العاشر) من موسوعة الشيخ الرفاعي ليقدم كشفاً للبحوث والدراسات والمقالات في هذا المجال، واستطاع أن يظفر ب (٢١٩٠) عنوان تم تصنيفها تحت (٢٧١) رأس موضوع، مما كتب حول أسلمة العلوم والمعرفة، وجرى في ذلك على نهجه السابق.

بعد هذا العرض السريع لما تضمنه كل جزء من عناوين ورؤوس موضوعات، ولما استوعبته المواد المدرجة من كتب وبحوث وأطروحات وأبحاث مؤتمرات ومقالات منشورة في الدوريات، ولما صنف قديماً وأشير في الفهرستات، بل ولكل ما كتبه المسلمون أو خصوم الإسلام.

بعد ذلك كله يحسن أن نقف على جملة من الأمور المرتبطة بالمفاتيح والإرشادات التي وضعها المؤلف الفاضل وهو الخبير بهذا الفن تبيانا لطريقته ومنهجه ودليلا على كيفية الاستخدام، وتوضيحاً لأشكال رؤوس الموضوعات التي استخدمها، والقواعد التي اعتمدها في الترتيب الذي جرى عليه، مع الإيضاحات الكافية بالأمثلة لطريقة العثور على الكتاب المعني والمختصرات التي استخدمها. وهكذا جرى في كل جزء من أجزاء الموسوعة العشرة. وتأكيدا على أمانته العلمية بيّن تحت عنوان "أوعية المعلومات" المصادر والمظان التي رجع إليها في جمعه البيانات، ثم تصنيفه لها، فذكر أن بعض المصادر اطلع عليها بصورة مباشرة، من خلال الكتب التي وجدها في المكتبات، أو من خلال الدوريات، وأما المصادر الأخرى التي أفاد منها في عمله الببليوغرافي الكبير بصورة غير مباشرة فهي قوائم الناشرين، وفهارس وكشافات الدوريات، وقوائم المقتنيات والإضافات التي تصدرها المكتبات، والنشرات المتخصصة بتوثيق الكتب، والقوائم الببليوغرافية التي تصدر ملحقة في بعض الدوريات، ومعاجم المطبوعات، ومعاجم المؤلفين إلى غير ذلك.

وهذه الرحلة الشاقة المضنية، بل هذا الإبحار في هذه العوالم يدلّل على خبرة متراكمة كبيرة، وعلى أن المؤلف يسير في هذه المسالك الوعرة سير البصير الذي يعرف طريقه وغايته معرفة تفصيلية. وكما يدلّك منهجه وأسلوبه وطريقته على أنه تمكّن من ناحية هذا الفن وهذا العلم حتى ليحق لنا نحن أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن نفخر به ونفاخر.

وإذا أردت أخيرا أن تقف على مدى الجهد الذي بذله المؤلف والعناء الذي لاقاه، والمشقات التي استسهلها من أجل أن يضع بأيدينا هذا السفر النفيس؛ فإني سأضع أمامك لغة الأرقام تحدثك عن هذا المسعى المبارك. فلقد أحصى وجمع بيانات قرابة تسعة وعشرين ألف عنوان، صنفت تحت (٣٩٠٠) رأس موضوع. وعملية اختيار رؤوس الموضوعات وإدراج العناوين تحت كل رأس موضوع ليست عملية سهلة، بل هي تحتاج إلى دربه وخبرة وسعة اطلاع، وقد تغلب المؤلف على مثل هذه الصعوبات؛ نظرا لما يتمتع به من ثقافة معاصرة ودراية ومتابعة للإنتاج الفكري المعاصر، وكذلك لمعرفته العميقة والواسعة بالتراث العربي والإسلامي.

ولا يسعنا أخيراً إلاّ أن نعرب عن التقدير العالي للجهد الكبير والعمل المتقن النافع الذي نهض به العلامة الشيخ الرفاعي، داعين له بالتوفيق والتسديد. ❖

تلك المدينة... ذلك الفتى

صور من ذاكرة مدينتي، تحية إلى ابنها الدكتور عبد الجبار الرفاعي

✍ ئاشتي[1]

تحزم حقائبك وبك رغبة كبيرة على السفر في رحلة هي من أصعب الرحلات، رحلة تتطلب منك الكثير من الوقت والجهد كي تصل إلى مبتغاك، لأنها رحلة الخوض في دهاليز الماضي، رغم أن هذا الماضي ليس بعيداً عنك، الماضي الذي عشته بكل تفاصيله، تستعيد لحظاته كي لا تنفصم حلقاته عن الحاضر، وحتى يرتبط بالمستقبل بكل أواصر الجديد الممكن، مادامت ثلاثية الزمن تحمل في ثناياها هذا الترابط، لعلك تستطيع أن تلغي شبح المستحيل المستحيل، وتدخل في دائرة المستحيل الممكن، والذي هو بطبيعته أفضل من الممكن المستحيل مادام الأخير هو أحلام العاجز...

تحزم حقائبك وأنت تدري عليك أن تحدد أي الطرق التي تسلكها في رحلتك هذه، طريق البحر صعبة، فالريح غير مؤتمنة هناك وموج البحر تعلم صفة الغدر منذ طفولته، طريق الجو تتطلب منك سماح المرور بكل الأجواء وأنت لا تملك جواز مرور يساعدك على ذلك غير حزنك الطفولي والفقر الذي تلبس خلاياك، وأجواء البلدان لا تقبل الفقراء، فمن أين لك أنت الحافي منذ ولدت أن تملك الملايين، والأكثر من ذلك أنك تحمل بين عينيك شارات الفقر، فلا يمنح البوليس السري في كل بلاد الكون سمة المرور، فكيف بك وأنت تريد أن تسلك الطريق البرية! والتي سوف تعرضك للكثير من الضباع والذئاب، رغم أنك استهلكت عشر من السنوات في السير على القدمين في جبال بلادك، وتجاوزت جميع الحدود المجاورة، إلا أنك في حالتك هذه لا تصلح للسير يا صديقي، أتق الحزن وألبس جلباب الانترنيت، هذا الكائن الخرافي الذي سوف يوصلك أنت وحقائبك دون أن يعترض طريقك البوليس السري أو شرطة المرور أو حرس الحدود، ليس سوى ضميرك معك، سيحمل معك كل حقائبك ويمضي معك صاغراً، إلاّ حين تكف عن قول الصدق.... الصدق! وتسأل نفسك أكثر من مرة الصدق... وما للصدق والرحيل إلى مدينة صنعها واحد من أترابي ومن أبناء مدينتي؟ قد يبدو الجواب عن سؤالك هذا ليس صعباً، ولكنه في الحقيقة من أصعب الأسئلة، فقد يتداخل في ذلك أكثر من مشكل، وأول تلك الإشكالات أنك تكتب عن شخص يختلف عنك في الانتماء الفكري، تضحك في سرك، وتقول أنا أريد أن أرحل إلى مدينته التي اختلف عنها في الفكر، لأنها تتطابق مع اختلافي، ومثلما يقال: "الفكر أما أنه الموج، أو لا يكون إلا رملاً"، وأنا لا أريد للفكر الذي أحمله أن يكون رملاً، أريده موجاً، كي

(١) كاتب من مدينة الرفاعي /العراق.

يتداخل مع الأمواج الأخرى ويشكل بذاته ذلك التغيير الذي نطمح إليه جميعاً، ونحن لا نختلف في هذه الغاية، مادمنا نفكر بالتغيير، لهذا فأننا نتطابق عندما نكون مختلفين، لهذا حزمت حقائبي وبكل ثقة قلت سأرحل عبر الانترنيت إلى مدينة ابن مدينتي الرفاعي، لعلني أساهم ولو بجزء بسيط جداً، وربما لا يرى بالعين المجردة، ولكنه يحمل الصدق بكل ما تعني هذه الكلمة من استرخاء للروح في لحظة التجلي.

تلك المدينة

قد يبدو الأمر غاية في البساطة وأنت تتحدث عن مدينة غافية بكل كسل الكون على ضفاف نهر يسير وئيدا، وكأنما لا يريد أن يستعجل الزمن في جريانه، يجري وكأنه خارج موضوعة الزمن، ولا أعرف من أين جاء هذا الهدوء له، رغم أنه لا يتوانى عن المطالبة في أضاحيه صيفا وشتاء، لهذا نراه منشغلاً بالضحية الذي سوف يقدمها له أبناء المدينة في موسمين، وأغلب هذه الأضاحي من الغلمان، إلا أنني أتذكر مرة واحدة كانت أضاحيه ثلاث بنات لم تبلغ أكبرهن التاسعة من العمر، إنهن بنات عاشور النداف، يومها وقفت أمهن ومعها أغلب نساء المدينة، وهذه عادة لا أعرف من أين اكتسبنها نساء المدينة، وقفن النساء والشمس في أخر لحظات مغيبها، وصرخت أم البنات بأسماهنَّ ثلاث مرات كي يستجيب النهر ويظهرهن على سطح ماءه، وبالفعل في اليوم التالي كانت جثث الطفلات الثلاث تطفو على سطح الماء، هل كان النهر مجرماً بحق أبناء مدينته التي تحتضنه، أم هو يطالب بحقه في القربان؟!... العجيب بهذا النهر انه لا يحتفظ بجثث أضاحيه، بل العكس يجعلهم يطفون على سطحه بمجرد أن تنادي الأمهات عليهم، شريطة أن تكون المناداة عند غروب الشمس، ولا أدري لماذا ذلك، هل لأنه يستكن إلى الهدوء عند غروب الشمس؟ ولكن المدينة بطبيعتها هادئة، لا تعرف ضجيج السيارات ولا القطارات ولا الباعة المتجولين، مدينة تنهض على آذان الفجر وتنام على آذان المغرب، وكأنها مكلفة بتطبيق الآية الكريمة "وجعلنا الليل لباساً. وجعلنا النهار معاشاً"، لا يسمع المرء في ليلها الشتائي البارد غير صافرة الحراس الليليين، وهم يطلقونها في الحقيقة حين يستبدلونهم من يكونون حراسا حتى الفجر، أو مثلما نطلق عليهم في المدينة "عشونجيه، أي من بدء المغرب حتى الثانية عشر ليلاً، ومصبحجيه من الثانية عشر ليلاً حتى الخامسة صباحاً"، كانت وربما لازالت تُسبح المدينة بكيان من الهدوء، لا تعرف معنى الضجيج، مثلما لا تعرف الإسفلت الذي غطى شوارعها بعد منتصف الستينات من القرن الماضي، كانت وقتها مدينة خارج الزمن، وهل هي الآن ضمن الزمن؟!... تتداخل علاقة العائلات فيها وكأنها قرية صغيرة، وفي الحقيقة كانت محكومة بأخلاق القرية بكل تفاصيلها، الطيبة عنوان الناس الأزلي، والتسامح سمة متميزة، والتضامن بين الناس قانون لا يمكن التجاوز عليه، فلا يمكنك أن تقيم حفلة زفاف وجارك لم يمر على وفاة أحد أفراد عائلته أربعين يوماً، التداخل في الحياة المعيشية يجعلك تعرف ماذا سوف يكون غداء عائلة تبعد عن بيتك

كيلومتراً، عجيب أمر الناس هناك، تمتزج في أرواحهم الطيبة والسذاجة والعناد والاختلاف على اللاشيء، وحين يراك المختلف معك في مدينة أخرى، يكون أقرب إليك من نفسك بكل شيء، فهل هو نهر الغراف الذي أرضع أبناء المدينة بكل هذا، أم هو تريف المدينة والعلاقات القروية النقية التي تربط بين أبناء المدينة الواحدة، ربما هناك لغز لا استطيع الوصول إليه. مثلما لا أعرف لغز أنجاب هذه المدينة مفكرين وقادة أحزاب، والجميل بهؤلاء أنهم يربطون أسمائهم باسم المدينة الرفاعي، والأجمل بهؤلاء المفكرين أنهم يحملون صدق الحقيقة وجمالها، هذا الصدق هو نتاج عذرية القرية، أو هو ربما المخزون الروحي لطيبة الناس الفقراء في هذه المدينة وما أكثرهم، ربما هي تلك صفات المدن الصغيرة في كل أنحاء العالم، وربما هي بالذات صفات سكان المدن الذين يشعرون بالظلم المسلط عليهم من حكامهم، وأكثر الاحتمالات قبولاً هو العيش المشترك وكأن جميع بيوتها بيت واحد، أتذكر جيداً ما مر مساء دون أن يأتي إلينا صحن رز من جيراننا، أو نرسل إليهم غداة يوم صحن من نبات الخباز"التوله"، أو من السمك المسموط، التداخل في العلاقات يجعل كل شيء جاهزا للمحاكاة الإنسانية البدائية الصادقة... أتذكر حين يموت شخص ما، تمر جنازته في سوق المدينة، هناك الكثير من أصحاب الدكاكين يغلقون دكاكينهم ويسيرون خلف الجنازة حتى مسجد المدينة، ولا يمكن أن تمحو الأيام من ذاكرتي، تلك البقرة التي تسير مساء كل يوم في سوق المدينة، تأكل ما تشاء من حاويات فضلات المطاعم في السوق، بالمناسبة لم يكن آنذاك أكثر من ثلاثة مطاعم في السوق، ولم يزجرها أحد، لأنها بقرة "بيت السوز"، الذين هم من شيوخ المدينة وأبنائها، هذه المدينة التي تتمتع بهذه الصفة، خلقت الكثير من المفارقات الحياتية المتميزة، كانت تعشق الغناء، ولكن أي غناء! أنه الغناء الحزين، كانت مجالس الأعراس أيام الصيف تنصب في الأزقة، والراقصات الغجريات يمضين الليل برقصهن على صوت "محبوب العبد"، وهو يردد على مسامعهن "إلهجع.. إلهجع"، حين يتصاعد بهن الحماس في الرقص، والمدينة ليس بها شيء مخفي، فالجميع يعرف "بيت العميان"، وهم يتاجرون بالعرق المغشوش، وهناك أشياء أخرى لا أود الإفصاح عنها، ولكنها من مدينتنا التي تعتز بأنها صنعت أكثر من أربعين من حملة شهادة الدكتوراه، وقدمت الكثير من الشهداء من أجل الكلمة الطيبة... الحرية.

ذلك الفتى

"يظنُ أن الغامض هو في ما لا يعرفه ولا يراه، وهذا ظنٌ خاطئٌ، إن كان الغامض يهمه فعليه أن يبحث عنه في ما يعرفه، وفي ما يراه"... أن تبحث عن نفسك بين ازدحام الأشياء ذلك أمر سهل، وربما لا تواجهك أية عرقلة في ذلك، ولكن أن تصنف نفسك ضمن قائمة ما، ذلك هو المشكل الذي لا ترى مناصاً من أن تدير له ظهرك، فكيف بهذا الفتى الذي جاء من بيئة هي بحر من التكتم، وأهوار من الخجل، جاء من القرية ـ القرية ليستقر به المقام في "المدينة ـ القرية". كانت شوارع المدينة لا تستطيع أن تتلمس حركة أقدامه الهادئة، مثلما

لا يستطيع هو أن يتدارك خجله في الرد على تحية الناس، يسير بهدوء وكأنه يخشى على الشوارع من تماس أقدامه، يبتسم بفخر وكأنه يدفع ضريبة عن هذا الابتسام، هو أبن القرية التي يأكل الفقر فيها ويشرب ليلاً ونهاراً، الفقر الذي كنا نتمنى نحن أبناء المدن العاشقة للكسل، لو تحقق قول أمام الفقراء علي بن أبي طالب، وأصبح هذا الفقر رجلاً، لشربنا من دمه وحرقناه ألف مرة... هذا الفتى الذي جاء إلى "المدينة ـ القرية"، وهو يحمل معه كرها شديدا للفقر، وجد الفقر يمشي في الشوارع، ويلعب مع الأطفال، ويجلس في المقاهي مع الناس، لهذا تحول الخوف والوجوم والتردد الذي جلبه من القرية إلى أمر عاد، رأى أن المدينة "الرفاعي" هي قرية أخرى، سوى أن بها أكثر من سيارة وأكثر من شارع، وسوق ينتصف مساحة المدينة، هي قرية لا تختلف عن قريته سوى بحجم مساحتها، مثلما هو الاختلاف بين الأسماء، "قرية آل حواس"... مدينة الرفاعي، لقد انكسر هذا الحاجز عند الفتى القادم من "قرية آل حواس"، وهو حاجز ربما يخلق العزلة أن وجد فعلاً، ونعني به حاجز الفقر، في قريته كان غذاءه من الرز المطبوخ باللبن "الحميض"، والرز المطبوخ بالحليب "البحت"، ونبات الخباز "التوله"، ورشّاد البر... في المدينة أضاف لذلك التمر والدبس، ومرة في الشهر"نص نفر كباب" ربما، ضاعت أبجديات الخوف والخجل من الفقر لدى الفتى "جبّار"، وضاعت كذلك أبجديات الخوف الأول، ربما هو لم يتمثل قول كارل ماركس من أن "الطبقة العاملة لا تخسر سوى أغلالها وتربح العالم"، بل تمثل مفهوم العدالة والدفاع عن مظلومية الفقراء، كان الفتى جبّار يعمل بصمت متجاوزاً حالة التحدي العلني، وحالة التجاوز هذه نادراً ما تفارق الشباب، ولكن ابن القرية الذي تشبع بعادات الكتمان والتستر، لم يسمح لنفسه أن يكون واجهة للتحدي العلني لسلطة اتضحت كل معالمها، يتكلم بصمت مع المحيطين به، ربما كان قريباً منا نحن "اليساريين"، ولا يجد ضيراً في فتح حوار هادئ حول مفاهيم عديدة، ويبدو كانت لدية حواجز كثيرة آنذاك في الاقتراب أكثر من اليسار، رغم علاقاته الطيبة مع الكثير من الطلبة اليساريين، غير انه انجذب أكثر إلى قوى تؤمن بمفاهيم تبحث عن العدالة بشكل آخر، وتنسجم مع طبيعته التي نشأ عليها في طفولته، وكان كل شيء بالنسبة إليه هو الكتمان، ولهذا حقق نجاحاً متميزاً في قيادة حزب الدعوة في مدينة الرفاعي، بعد منتصف سبعينات القرن المنصرم.

لا أريد أن أكتب عن نشاطه وحياته بعد تلك السنوات، فقد كتب ويكتب الكثيرين ممن يعتزون بمسيرته النضالية، ومسيرته الفكرية المتميزة، وعمله من أجل أن يعصرن ما يؤمن به، سوى أنني أود أن أقول جملة أخيرة، من أن الدكتور عبد الجبار الرفاعي ما زال يسعى من أجل تنفيذ مشروعه الذي رسمه لنفسه منذ أن عرف معنى البحث، والذي هو البحث عن الحقيقة المتجددة، وسيتواصل بهذا المشروع بهمة وعناد، يشبه عناد فلاحي قرية "آل حواس"، وهم يحفرون ساقية كي يصل الماء إلى زرعهم. ❖

صورة تستحق التقدير والعرفان
المفكر الإسلامي عبد الجبار الرفاعي

✍ إبراهيم الوائلي[1]

مسيرتنا التربوية التعليمية التي سبرنا أغوارها سنين طوال؛ تمخضت عن لوحة فنية معرفية فكرية فريدة، يتقدمها نموذج عراقي رائع، وشخصية موسوعية، طالما رفدت المكتبة الإسلامية الحديثة بجهود فكرية تحديثية دينية هامة، تواكب الزمن الحاضر في تشوق واشتياق، حيث مل الجميع الركود والسكون ويأس الولادة والتوليد التحديثي، فجاءت القامة الموسوعية الدينية من الجنوب، تضفي عنواناً تحديثياً طال مخاضه؛ تجسد ذلك في شخص الدكتور الفاضل عبد الجبار الرفاعي، الذي خرج عن مألوف التفكير الديني التقليدي المعروف والمتعارف علية، إذ تعتبر كتاباته وآثاره طفرة تجديدية معرفية متميزة، ستنهل منها الأجيال القادمة معيناً معرفياً لا ينضب، بل أنها منجم ولبنات يهتدي بها الذين يناغون تطوير التفكير الديني، والأخذ به نحو آفاق جديدة، مخلفين وراء ظهورنا الوقوف والتوقف والسكون والتكرار البحثي في الدراسات الدينية، الذي مرت عليه قرون وسنين طوال لم يتمكن الكثيرون الخروج من فلكه المضني، إلى حد العجز والدوران والتكرار الممل في اجترار الأفكار ذاتها.

لم ينعكس على الدراسات الدينية التطور الأكاديمي والمناهج الحديثة في البحث العلمي والأطروحات التي أصبحت تقليداً علمياً اليوم، يقبل عليها الدارسون بنهم ولهفة، علاوة على بناء أساليب معرفية جديدة، تساير حاضر سريع ومتسارع ومتطور، تبع التطور واتساع الحضارة الحديثة، والتكنولوجيا السريعة، والبحث المتنوع الحقول والاهتمامات. لكن مفخرتنا العلمية فضيلة الدكتور عبد الجبار الرفاعي، كان موسوعة دينية وبحثية تجديدية متعددة الآفاق.

الدكتور عبدالجبار الرفاعي عشنا وتعايشنا معه سنين طوال، حيث كنت مواكب النواة التكوين المعرفي الأول له في المدرسة الابتدائية "مدرسة المتنبي الابتدائية"، التي تأسست بعد ثورة ١٤ تموز، التي قادها المرحوم بن العراق البار الزعيم عبد الكريم قاسم، كانت ولادة هذه المدرسة في العام الدراسي ١٩٥٩/١٩٦٠، في بيئة كان التخلف والأمية والفقر متفشية فيها، وكانت تأسيس هذه المدرسة يمثل مكسباً ما بعده من مكسب. ويعود الفضل في تأسيس المدرسة للمرحوم الشيخ كاظم الجازع، الذي بذل جهودا مضنية من أجل إنشاء مدرسة في قريته، حتى تكللت جهوده بالنجاح والتوفيق، وكانت بحق مثار تندر وسرد قصصي يثير القرف، إذ كان البناء من الطين، وكان ذهاب المعلمين إليها للتدريس من مدينة قلعة سكر مشيا على الإقدام، أو

---

(١) معلم الرفاعي في الصفين الخامس والسادس الابتدائي في مدرسة المتنبي.

ركوب الدراجات الهوائية، أو الخيول التي يتكرم بها أهل الخير بإيصال المعلمين من والى المدرسة، أثناء هطول الأمطار والمعاناة من عدم سير البايسكلات (الدراجات الهوائية) عند تساقط الثلوج والإمطار. إنها أيام مخاض عسير وجهد شاق، علاوة على عبور الأنهر والجداول من ضفة إلى أخرى، وعادة ما يتم العبور بواسطة لوحة خشبية تتدلى بين الضفتين، والويل لمن تزل قدمه ويسقط في النهر، خصوصاً في أيام الشتاء البارد وسقوط الصقيع، لكن حلاوة التدريس لذيذة الطعم بنشوة خاصة، لأننا نفور وطنية ونهيم في حب الوطن العراق. كنا مبدعين نحن المعلمون، وطلبتنا واعدون، فالمصهر التعليمي والمعرفي في مدرستنا المباركة يتجسد في مديرها ومعلميها .كنت المجاهد والمجتهد في مهنتي المقدسة التعليم، التي أنتجت المفكر العبقري عبدالجبار الرفاعي، وقادة، وتربويين، ومهندسين من أبناء مدرسة المتنبي الرائعة. فألف تحية إلى ترابها، وألف قبلة للنهر المجاور لها، وإجلالا لحاضرتها قرية آل أبو حمزة، وقرية عبدالجبار الرفاعي "آل حواس"، والى الأبوين اللذين أنجبا الرفاعي الرضوان والرحمة، والى المعلمين الذين شاركوا واشتركوا في بث النواة المعرفية في الوطن وأصبحوا قامات تخدم العراق في الكثير من المجالات التقدير والعرفان، وإلى كل الذين جاهدوا واجتهدوا في إرساء هذا الحصن التعليمي، والى قامتنا المفكر الإسلامي عبدالجبار الرفاعي قبلاتنا الحارة، والى المعلم الأول للرفاعي إبراهيم الوائلي الذي لامس بحرفه تطلعاته الأولى جبين الطالب والمفكر الرفاعي.

إن الذي دفعني بالعودة إلى مفكرنا الرفاعي هو المقال الذي جاء به الناقد والكاتب الأستاذ توفيق التميمي في جريدة الصباح الغراء، والذي تناول الرفاعي عبر ما أنتجه من الدراسات والأطروحات والإصدارات، والتي تعتبر خروجا عن المألوف في الدراسات الدينية التقليدية، والتي رسم بها الرفاعي نهجاً رائداً في تحديث التفكير الديني، والخروج عن المكررات، بل إنه استطاع مسايرة الجهد المعرفي الأوربي والعالمي في الدراسات الدينية، الذي تخطى ما كتب سابقاً في هذا المجال، باعتباره ظاهرة انتهى دورها، بعد أن ولجنا عصراً دينياً جديداً في البحث والدراسة، والمكاسب العلمية والمعرفية.

إن ما أنجزه الأستاذ توفيق التميمي من سبر أغوار مفكرنا الرفاعي دراسياً، حفزني لأن استرجع أيامي مع هذا المفكر خلال الأيام الأولى من حياته المعرفية، حيث اللبنات الأولى في مشروع الرفاعي الفكري والعلمي، ولولا تلك الأرضية الخصبة التي نهل منها الرفاعي، لما أضحى رائداً في تحديث التفكير الديني في الإسلام، ذلك أنها هي المربض الذي له الفضل في إرساء يراعه الأولى وتكوين فكره المبدع.

دعائي بطول العمر والتوفيق للرفاعي، وتحية إكبار للأستاذ التميمي، وهو يتناول قامتنا في إبحارها في شواطئ الإرث الديني، وقدرتها الفذة على تطويره والابتعاد عما متعارف، والى المزيد من العطاء.

ذي قار/قلعة سكر ٢٠١٣/١٢/٢٧

تكريس مفهوم أنسنة الدين

✍ د. حسين علي باقر[(١)]

هل يحتاج المرء إلى خمسة أشهر كي يكتب بضع كلمات؟

قد يقول قائل إنها مبالغة، أو ربما تكاسل! منذ خمسة أشهر وأنا أحاول إيجاز كلمات أصف فيها الدكتور الرفاعي عبد الجبار... هل اكتب عن الرفاعي المفكر، أم عن الرفاعي الإنسان... الرفاعي المؤمن بعمق وبصيرة.....تلتقي به أول مرة لتشعر بأنك تعرفه منذ أمد بعيد. تتلقى منه تهنئة بمناسبة ما، فيجعلك متأملاً للمفردة الأنيقة، ولا تستطيع أن ترد التحية بأحسن منها....جميل الصورة، لا تفارق الابتسامة محيّاه... متواضع بلا تصنع، بل هو تواضع العلماء...لديه كبرياء المتعلم والعارف، ينساب حديثه سلسا، لم أسمعه مرة يتكلم عن نفسه، أو يصطنع لنفسه بطولات، بل لسان حاله يقول: اعمل بصمت، ودع أعمالك تتكلم... لا يتحدث بأمر لا يعرف تفاصيله، وتلك ميزة الأكاديمي... لديه نزعة شك ديكارتي، وتلك صفة الباحث... لكن تبقى أجمل صفات الدكتور عبد الجبار هي صفة الإنسان الذي يتسع قلبه لحب البشر، سواء اتفقت معه أو كنت مختلفاً... دؤوب على تكريس مفهوم أنسنة الدين وتلك رسالة سامية.



(١) أستاذ في كلية الهندسة بجامعة بغداد.

أستاذي الدكتور عبد الجبار الرفاعي يغير الإيقاع الفكري النمطي ولا يكف عن التساؤل

✍ محمد ناصر[1]

بدأت رحلتي مع أستاذي الدكتور عبدالجبار الرفاعي في مدينة قم في إيران وهي احد المراكز العلمية لدراسة الفكر الإسلامي الشيعي (فقه وعقائد وفلسفة) ما يعطي المدينة بعد اجتماعي خاص وإيقاع حياتي خاص ينمط حياة الفرد والأسرة والعلاقات فهناك كثير من التاريخ الفقهي والعقائدي والفلسفي والثوري يظلل الحياة في هذه المدينة، فحلقات الدرس الحوزوي منشرة في كل مكان مدينة قم عبارة عن جامعة إسلامية كبيرة. إن الطبيعة البحثية والدرسية في هذه المدينة تنطوي على كثير من التحديات والخطورة فهي تمتلك مقاسات خاصة (كأي جامعة أصولية) يصعب تجاوزها.

ولا يكمن غض النضر عن كون الدكتور عبد الجبار الرفاعي عراقي جاء إلى إيران كأحد المعارضين والثائرين على النظام الدكتاتوري في العراق في بداية الثمانينات والدكتور الرفاعي ككثير ممن حملوا الثقافة الإسلامية في تلك المرحلة تأثروا بشكل أو بآخر بأفكار المفكر الإسلامي الكبير الشهيد محمد باقر الصدر، ولمن عاش تلك المرحلة يعرف مدى الضغط الفكري الذاتي والاجتماعي الذي يتولد بسب هذين العنصرين (الثائر على الدكتاتور ومتأثر بفكر الشهيد الصدر).

أستاذ الفلسفة في حوزة أهل البيت الذي درست عنده بداية الحكمة للسيد الطباطبائي مازلت أتذكر محاضرته الأولى التي استطاع فيها أن يغير الإيقاع الفكري النمطي في كل المحاصرة الفكرية آنفة الذكر ويبدأ المحاضرة في كيفية التوقف عن القراة التكرارية وتجاوز الشروح وشروح الشروح ومازلت أتذكر عبارته في عام ١٩٩٢ كيفية عبور مرحلة الشهيد الصدر، إني اعتبر هذه نقطة تحول مهمة في كل من واكب الأستاذ الرفاعي. ثم بعد ذلك صاحبت الأستاذ الرفاعي في مجلة قضايا إسلامية وقضايا إسلامية معاصرة التي افتتحت زاوية مهمة في الفكر الإسلامي ثقافة الحوار مع مفكرين

---

(١) تلميذ الرفاعي وصديقه.

كبار أمثال محمد أركون وروجيه غارودي وطرح التساؤلات الابستمولوجيا وإدخالها على الطلبة في قم وكثير من القراء التقليدين قراء الثوابت وبدأ التساؤل الفكري المحرك الإنساني فالإنسان بدون تساؤل هو اقرب إلى الجماد منه إلى الإنسان، يقول الرفاعي: (المهاجر يهاجر بعقله مثلما يا هجر بجسده والكائن المتحول هو الكائن الطبيعي ذلك أن الحركة والصيرورة هي الناموس الأزلي في الحياة وهي تعبير وجودي عن إصغاء الإنسان لإيقاع التحولات والمتغيرات العظمى في الواقع).

إن شخصية الأستاذ الرفاعي تمتاز بالبساطة الوجودية شخصية غير مركبة متواضعة تعيش آلام المجتمع وتتفاعل معه ولا تنقد الواقع الاجتماعي نقد فوقي متعالي وإنما تتغلغل بهدوء وبدون أي جرح أو خدش للمشاعر وهو بذلك يحاول أن يدخل الحركة الفكرية العلمية في مؤسسات فكرية تعكس صورة المجتمع والمجتمع يعكس صورتها مجتمع ومؤسسة لا يمكن فك هذه المقابلة إلا من خلال شخصيات مثل الرفاعي تدخل الفكر التنويري إن أستاذي الرفاعي يحاول راب الصدع بي عقلين العقل الذي يصفه الرفاعي بأنه قدمات عنده الإله القروسطي وعقل ما زال يعيش اله العقل القروسطي. واختتم شهادتي هذه بمقطع اقتبسه من أستاذي الرفاعي الذي كتبه في عام ٢٠٠٦ وهو لوحة زيتية تاريخية: (هاتفني ولدي الطالب في الجامعة المستنصرية ببغداد فاخبرني بان سيارتين مفخختين انفجرتا عند بوابة جامعتهم فغرق وزملاؤه في حالة فزع وذهول مفجعة بعد أن تناثرت أشلاء رفاقهم عند البوابة وفاضت أرواحهم الزكية لترسم دماؤهم على أحجار الممرات المؤدية إلى الفناء الداخلي لمباني الجامعة صورة أبدية تكشف ما يتعمد التستر عليه ذلك النموذج اللا إنساني للتدين لقد حفرت أولئك الفتية احتجاجا مدويا يخاطب الأجيال الآتية في بلدنا الذبيح فهؤلاء الفتية يكتبون التاريخ بمائهم ويصرخون بشهادة تجسد عويلاً لا يصمت يفضح ذلك النمط من التدين الفاشي الهمجي الذي خدع آلاف الناشئة وأغواهم بوعود خلاصية وفردوس خلاب ثمنه تفجير أنفسهم وقتل الآخرين بأساليب بشعة وحرق كل شيء لا يكون نسخة مكررة عنهم).

❖ ❖ ❖

المفكر العراقي عبد الجبار الرفاعي
إشاعة ثقافة التعايش والحوار بين الأديان والثقافات

✍ زعيم نصار[1]

يلخص المفكر عبد الجبار الرفاعي رؤيته في تحديث التفكير الديني وتنمية وتطوير المجتمعات الإسلامية بقوله: الإنسان كائن متدين، وإن اختلفت تجليات التدين، وتباينت التعبيرات الدينية في حياته، تبعا لتنوع البشر واختلافهم. والحياة لا تطاق من دون خبرات وتجارب دينية، ذلك أن نزعة التدين تمثل ظمأ انطولوجيا لا يروى، إلا من خلال التواصل مع المطلق. ويمكن أن تظل تلك الخبرات والتجارب على الدوام منبع الهام التراحم والمحبة والجمال في العالم، ولكن حين يجري التلاعب بالدين، فيعاد تكوينه، ويشوه فهمه بتفسير همجي متوحش، ينقلب إلى الضد، ويتحول هذا التفسير للدين إلى إعصار يبدد كل مسعى إنساني بناء، ويحطم الكثير من معطيات الحياة البشرية ومكاسبها الرائعة عبر التاريخ.

رؤى في التحديث:

يؤكد الرفاعي الذي عمل على تعميق حس التسامح في روحه وقلبه قبل أن يكتب حروفه ويسطره انه: ليس بوسعنا بناء بلادنا إلا بإشاعة فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورته الإنسانية، تلك الصورة المغايرة لما تريده الجماعات التي تعمل على تقديم صورة متوحشة زائفة للدين. وهو يعتبر النقد مصدر التطور الفكري والاجتماعي، والنقد أساس التقدم، وشريان تحديث كل شيء وتجديده، ولا حياة للتفكير الديني في الإسلام إلا بتواصل المراجعة النقدية واستمرارها، للثقافة والتجربة والتاريخ والتراث والاجتماع الإسلامي. ولا سبيل للخلاص والإفلات من نفق الانحطاط والتخلف إلا بتجذير ملكة النقد وتكريسها. ويرى أن العنف ليس طارئاً في الحياة، بل هو احد الظواهر المزمنة في الاجتماع البشري، وهو يهددنا ويلاحقنا حيثما كنا في بلادنا، والسلام هو سبيل الأمن الاجتماعي والعيش سوياً، ولا نجاة للعالم إلا بالتشبث بالوسائل السلمية لحل المنازعات، والتخلص من بواعث العنف والحروب، التي أمست تفتك بالإنسان، وتبدد الكثير من مكاسبه ومنجزاته على الأرض. ومن أفكاره الدعوة للتعددية والتسامح، وإرساء قيم الاختلاف واحترام الآخر. وإشاعة ثقافة التعايش والحوار بين الأديان والثقافات. وترسيخ العقلية النقدية الحوارية، وتجاوز العقلية السكونية المغلقة. ويدعو إلى الاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة. وتمثل روح العصر، والانفتاح على المكاسب الراهنة للعلوم، انطلاقاً من: الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها. ومن طروحاته أيضاً تطهير التدين من الكراهية والإكراهات.

---

(١) شاعر وإعلامي عراقي.

مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد:

في كتابه مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد يؤكد الرفاعي أن تاريخ البشرية هو تاريخ الأسئلة الكبرى، وبالتالي فإنه لا ينشغل بالإجابات النهائية، أو أنها ليست همه الأول في سعيه لتقديم قراءة جديدة للدين، قراءة متخففة من الإرث التاريخي الكبير الذي يثقل ظهر الدين والمتدينين في هذا العصر، وقراءة ملتحقة بالركب المعرفي والعلمي الحديث، تتبنى أساليبه في البحث والتقصي والاستفهام والاستدلال والاستنتاج، في حرص واضح على عدم التفريط بالدين والحفاظ على الإيمان، الأمر الذي يميز عبد الجبار الرفاعي والتيار الذي ينتمي إليه، أو بالأحرى يمثله، باعتباره رائداً فعلياً له، تبنى إبرازه ولفت النظر إليه في مجلته المتميزة (قضايا إسلامية معاصرة) وسلاسل الكتب المتعددة الرديفة لها. وفيه يترجم الرفاعي هموم وتطلعات ومواقف وأفكار هذا التيار الديني، الذي بدأ يتبلور بشكل تدريجي في الحوزة العلمية في قم، وسط طلاب الدراسات الإسلامية من العراقيين، ولديه تطلعات تنويرية وتحديثية، انبثقت مع بداية التسعينيات من القرن المنصرم، واتضحت ملامحها في منتصف ذلك العقد، متأثراً بمحاولات تحديث التفكر الديني في إيران على يد مجموعة من المفكرين المعاصرين. ويمكن اعتبار هذا التيار وريثاً معاصراً لتيار ظهر في النجف قبل أربعين سنة، وتجلى بجهود تنويرية لمحمد رضا المظفر، ومحمد باقر الصدر في العراق، ولاحقاً السيد محمد حسن الأمين، والسيد هاني فحص، والسيد محمد حسين فضل الله، والمرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين في لبنان. غير انه بالتأكيد يشكل نقلة نوعية كبيرة، لأن التيار السابق كان مهموماً بتجديد النمط التقليدي للتعليم الديني في الحوزة العلمية بالدرجة الأولى. أما التباين الأساسي بين الاثنين فيكمن في الموقف من تسييس الدين؛ إذ بينما كان بعض الأوائل يتبنى الإسلام السياسي، فإن التيار الجديد يقول إنه حرر نفسه منه، وهو يدعو إلى تطهير التدين من منطق الوصاية، ومن وثوقية الأيديولوجيا وإكراهاتها. يطرح هذا التيار أسئلته حول القضية اللاهوتية، التي يراها تمثل الجذر لكل البنيات الفوقية في الفكر الديني، وبذلك فهو يهتم ببناء لاهوت يدعو إلى تحرير صورة الإله مما طمسها من تفاسير وشروح تراكمت عليها عبر العصور، وتشكلت في سياق صراعات ومناخات ثقافية سادت القصور السلطانية، التي عملت على صياغة صورة زائفة عن الإله، ولذلك يبحث هذا التيار عن صورة لإله رحيم يشيع السلام، إله رفيق بالعالم الذي خلقه، يمنح الإنسان حريته في إعمار الأرض، بما يشبه استئنافاً للنزعات التنويرية في التراث التي تمنح العقل مرجعية واسعة، والإنسان حرية كبيرة، داعية إلى علاقة حرة بين الإنسان والإله.

وتبدو أهمية هذه القراءة في أنها تحرر الدين من الظلامية، وتقدم نمطاً متسامحاً للتدين، ينفتح على كل الناس بشفافية دون حساسية عرقية أو طائفية.

آثاره المطبوعة:

ألّف أول كتاب له نظرات في تزكية النفس، ١٩٨٥. ثم مصادر الدراسة عن الدولة والسياسة في الإسلام، ١٩٨٦. وكتاب التبليغ والإعلام الإسلامي، ١٩٨٩. ومعجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت في (١٢) اثني عشر مجلداً"، ١٩٩١ ـ ١٩٩٥. وترجمة كتاب شرح المنظومة المبسوط للشيخ مرتضى المطهري، في (٤) أربعة أجزاء ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣. ومعجم الدراسات القرآنية (مجلدان)١٩٩٣. ومتابعات ثقافية: مراجعات وقراءات نقدية في الثقافة الإسلامية، ١٩٩٣. والمرأة والأسرة في الإسلام، ١٩٩٣. ومعجم المطبوعات العربية في إيران، ١٩٩٣. وموجز تاريخ الطباعة، ١٩٩٤ وترجمة كتاب: محاضرات في الفلسفة الإسلامية للشيخ مرتضى المطهري، ١٩٩٤. والاختراق الثقافي: معجم ببلوغرافي تحليلي، ١٩٩٥. وموسوعة مصادر النظام الإسلامي، في (١٠) عشرة أجزاء، ١٩٩٦. وكتاب منهج الشهيد الصدر في تجديد الفكر الإسلامي، ١٩٩٧ (رسالة ماجستير). وتطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية، ٢٠٠٠. ومناهج التجديد، ٢٠٠٠. والفكر الإسلامي المعاصر: مراجعات تقويمية، ٢٠٠٠. ومحاضرات في أصول الفقه (مجلدان) ٢٠٠٠. ومبادئ الفلسفة الإسلامية (مجلدان) ٢٠٠١. وجدل التراث والعصر، ٢٠٠١. ومدرسة أهل البيت في المدينة والكوفة، ٢٠٠١ وتحقيق ودراسة كتاب: موجز في أصول الدين للسيد محمد باقر الصدر، ٢٠٠١. والمشهد الثقافي في إيران: فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة، ٢٠٠١. والمشهد الثقافي في إيران: علم الكلام الجديد وفلسفة الدين، ٢٠٠٢. ومقاصد الشريعة، ٢٠٠٢. ونحن والغرب: جدل الصراع والتعايش، ٢٠٠٢. والاجتهاد الكلامي: مناهج ورؤئ متنوعة في الكلام الجديد، ٢٠٠٢. وترجمة كتاب العقلانية والمعنوية (بالاشتراك) للأستاذ مصطفى ملكيان، ٢٠٠٥. وترجمة كتاب التدين العقلاني، (بالاشتراك) للأستاذ مصطفى ملكيان، ٢٠٠٥. ومقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، ٢٠٠٥. والتسامح ومنابع اللا تسامح، ٢٠٠٥. والإسلام المعاصر والديمقراطية، ٢٠٠٥. وكتاب التسامح ليس منة أو هبة، ٢٠٠٥. وكتاب تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، ٢٠٠٥ (رسالة دكتوراه).

أعماله وإصداراته:

أصدر مجلة قضايا إسلامية، ورأس تحريرها للسنوات ١٩٩٤ ـ ١٩٩٨. وأصدر مجلة قضايا إسلامية معاصرة سنة ١٩٩٨ ويرأس تحريرها الآن، وهي تصدر في بيروت، وقد صدر منها اثنان وثلاثون عدداً. وأصدر سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة، التي صدر منها أكثر من مئة كتاب في بيروت، ويرأس تحريرها أيضاً. أصدر سلسلة كتاب فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، التي صدر منها خمسة وعشرون كتاباً مرجعياً في بيروت. أصدر سلسلة كتاب ثقافة التسامح الشهرية في بغداد، التي صدر منها اثنا عشر كتاباً، ويرأس تحريرها حتى هذه اللحظة. ❖

عبد الجبار الرفاعي
مفكـر تجديدي
بارز في الحوزة والجامعة

✍ علي المحمد علي[(١)]

اسـم لامـع في عـالم التجديـد والبحـوث المعاصـرة. ومفكـر بـارز في الـساحة العلميـة الحوزوية والجامعية. وفيلسوف متخصص في حقول الفلسفة والكلام والعرفان. وببليوغرافي مفهرس متميز له إطلاع واسع على المكتبات والمطبوعات.

ومـع ذلـك فهـو إنـسان متواضـع يعـيش البـساطة وحـب النـاس، وقـد عرفتـه الجمـاهير المفكـر والإنـسان في آن واحـد. ولم تنفـصل العلاقـة بـين عبـدالجبار المفكـر وعبـدالجبار الإنـسان، غـير أن تواصـله مـع المـثقفين والمراكـز الثقافيـة أكـسبته خـبرة واسـعة في مجـال العلاقات الاجتماعية والعلمية على حد سواء.

قـال عنـه كـرار الرفـاعي: (كنـت متـشوقاً للقائـه لمـا لمـست في أفكـاره مـن تجديـد وإصلاح).

عبدالجبار الرفاعي قمة سامقة من الأخلاق العالية والمعاني السامية وهـذا مـا ينقلـه كـل من عرفه يقول الناقد عبد اللطيف الحـرز: (كنـت أرقبـه مـن بعيـد شـيخ لا يـدع لحيتـه وشـواربه تنبت ويفضل القاط على العمامة شكله جنوبي مألوف القسمات والملامح يشع بالطيبة عفوية).

وهـكـذا كـل مـن عـرف هـذا العـالم المتواضـع سـحره فكـره الخـلاق وطيبتـه الجميلـة وعفويته في التعامل مع الآخرين وهذا يدل على صفاء النفس ونقاء السريرة.

وقد عرفت هذا العالم الجليل عندما كنت أتابع دراسـتي الحوزويـة في مرحلـة الـسطوح حيث قرأت كتابه في شرح الحلقـة الثانيـة في علـم الأصـول للـشهيد الـصدر الأول قـدس سـره، وكذلك كتابه مبادئ الفلسفة الإسلامية وباقي كتبـه الأخـرى.وشـدني أسـلوبه في الكتابـة، كما استمعت إلى بعض دروسه المسجلة في الانترنت.

والعجيب رغم تنوع معارفه وزحمة أعماله فهو ببليوغرافي مفهـرس خطـير ومتتبـع دقيـق، ولديه إطلاع واسع على كثير من المطبوعات المنشورة، وقـد أصـدر في هـذا الـسياق أكـثر مـن

---

(١) كاتب من المملكة العربية السعودية.

معجم وفهرست، وأصبحت هذه المعاجم والفهارس المتخصصة من المصادر المهمة للباحثين والدارسين.

وله تأريخ طويل في التجديد وتحدي الواقع بطرح كل ما هو يخدم الفكر المعاصر، وقد وصفه غالب الشابندر بما نصه: (أنه عصامي بالدرجة الأولى قاوم قسوة الزمن وغدر القدر فتحدى وناضل فكان هو الرفاعي اليوم صنو مشاريع وخالق أفكار وصانع جيل وأستاذ حوزوي من الطراز الرفيع).

أنه متنوع الأبعاد والجوانب، حتى أن أستاذي العلامة الراحل الشيخ عبدالهادي الفضلي قدس سره كان يثنى على جهوده وتطلعاته، ومشروعه الثقافي المتواصل، وقد استفاد من مؤلفاته في تأليف كتابه الموسوم (خلاصة الحكمة الإلهية)، حيث أعتمد على كتابه الشهير مبادئ الفلسفة الإسلامية وكتبه الأخرى في مجال الفلسفة.

وكتابه مبادئ الفلسفة هو عبارة عن ثمره تدريسه لكتاب بداية الحكمة للعلامة الطباطبائي قدس سره كما جاء في مقدمة كتابه المذكور في الجزء الأول (ص ٥).

أنه الأستاذ المتمكن من تدريس الفلسفة سنوات طويلة في حوزة قم المقدسة، ومعروف بأسلوبه الجذاب وطرحه المتزن خصوصاً لمواد كعلم المنطق والفلسفة التي تحتاج فن وأسلوب لتطويع العبارات المعقدة. وقد تميز مفكرنا بهذا الامتياز الحي.

وإذا رجعنا لعبدالجبار المفكر نستطيع الولوج إلى فكره النابض بالتجديد وطرح الأسئلة المتنوعة، إلى آخر ما دونته يراعه المبدعة الخلاقة في كتابه الأخير (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين). والكتاب عبارة عن أوراق قدمها المؤلف في ندوات ومؤتمرات وحلقات دراسية أو حورات مع مطبوعات (ص ٩).

ويبدوا أن الرفاعي يعيش هاجس إثارة الأسئلة كعادته بلا وجل أو خشية من أحد، وقد تردد في طبع الكتاب، ولكن شجعه قول الأديب بورخس (ننشر حتى لا نبقى طوال حياتنا نصحح المسودات). وهي مقولة صحيحة لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد.

وللولوج إلى صفحات هذا الكتاب ندلف إلى عالمه في سماء اسطنبول تلك المدينة التي تتجلى فيها هيبة الشموخ وعزة الإسلام، سافر إليها مفكرنا العلامة الرفاعي، وذهب في ليلة إلى المبني الأثري الذي يعود تأريخه للعصور الوسطى، من خلال رحلة اكتشاف عالم الصوفية ومسرح الطقوس المشع بالجلال والكمال، وتابع بشغف تلك الصور العجيبة، نقرأ ما يكتب الرفاعي عن ما شاهده: (جوهر العرفان والتصوف واحد وإن تغايرت لغاته وتعددت رموزه واختلفت رسومه فما شاهدته في السلامات الأربعة يتماهى مع رؤية الشيخ الأكبر محيي الدين

بن عربي للأسفار الأربعة عندما يرحل السالك فيها من العالم السفلي إلى العالم العلوي فيسافر في قوس الصعود من عالم المادة....) (ص١٥).

وهكذا يعلق الشيخ الرفاعي إلى أن ينتقل إلى رؤية الفيلسوف صدر المتألهين الشيرازي في كتابه الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة طبقاً لمراحل السير السلوكي والآثار العلمية للعرفاء (ص١٥).

ثم يحكي قصة تجوله في اسطنبول ليتعرف على آثار التصوف ومناخاته الشائعة في تركيا.

ويعرج على حياة مولانا جلال الدين الرومي وذلك من خلال الحديث عن سيرته الذاتية ومنطلقاته في فضاء التصوف وتأملاته الروحية وتلمذه على بعض أهل السير كسيد برهان الدين وشمس الدين التبريزي وغيرهم.

وقد جال العلامة الرفاعي في التوصيف الدقيق لحياة مولانا، ونقل صوراً تعريفية راسخة، وتجربة رحلة عاش من خلالها رحلة الذات والدخول في عوالم الموروث العرفاني والصوفي، حتى أنه أحس بصوت يستفيق بداخله ولحظات وجدانية عميقة (ص١٨، ١٩).

وهكذا انتهت رحلة الرفاعي، رحلة اكتشاف رؤى مولانا، لفهم الطبيعة العرفانية عن طريق القراءة العميقة في بحر ملتهب بالعشق وأشعار قيثارة العشق وإيقاع الحان الكون ومحبة الحقص٢٣.

ثم ينتقل الرفاعي في كتابه للحديث عن الدكتور شريعتي وحسن حنفي، وهنا نتعرف على فكر حسن حنفي وقصة العلامة الرفاعي معه، حيث عاش العلامة الرفاعي رحلة جميلة ومثيرة، تحدث عنها بإسهاب وصراحة في هذا الفصل من كتابه، ونقرأ النصوص للتعرف على تلكم العلاقة، يقول العلامة الرفاعي: (يمكن القول أن مشروع التجديد للدكتور حسن حنفي هو أوسع محاولة ولعلها آخر محاولة ينهض بها مفكر معاصر لإعادة بناء العلوم الإسلامية) (ص١١١).

نقرأ للعلامة الرفاعي رحلته في التعرف على حسن حنفي قوله: (طفقت أفتش عن حسن حنفي وألاحق كتاباته في الدوريات وما صدر له من مؤلفات وترجمات وتحقيقات كنت أقرأ باستمتاع بالغ ما يقع تحت يدي من آثاره وأعرف به بين زملائي في الحوزة العلمية أتفاعل معه وجدانيا أتوهج عاطفياً...) (ص١١٣).

هذه قصة العلامة الرفاعي مع حسن حنفي، وقد أخذ يتواصل معه عن طريق المراسلات، نظراً لعدم توفر وسائل اتصال حديثة كما هي اليوم، من انترنت وفيس بوك وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة.

ولكن استطاع العلامة الرفاعي أن يجعل حسن حنفي يشارك بقلمة في بعض مجلاته، حتى تعرف الكثير من أبناء الحوزة والمثقفين في إيران والعراق ولبنان والخليج على أفكار حسن حنفي. وكان لحسن حنفي حضور واضح في دورية قضايا إسلامية معاصرة.

ثم ينقلنا العلامة الرفاعي للحديث عن المرجعيات الكلامية للفقيه واثرها في توجيه عملية الاستنباط. ونظراً لأن مفكرنا متخصص في علم الكلام والدروس الحوزوية نراه يبلور أفكاره الرائدة في هذا المقال الرائع، ويقوم بتعريفنا للأثر الكلامي في عملية الاستنباط الفقهي والأصولي.

ثم ذكر أسماء كثيرة كنماذج لعلماء الكلام في فترات تأريخية كثيرة من علماء أمامية وغيرهم وأوضح حضور المقولات الكلامية وحضورها في التفكير الفقهي.

وهو مقال مهم، حيث عرض لآراء كثير من علماء أصول الفقه في أول رسالة أصولية وهي كتاب الرسالة للإمام الشافعي وفيه مباحث عقائدية؛ كالبحث في مفهوم الحكم وافتراض وجود أحكام وأوامر ونواهي صادرة من الله إلى عبيده وغيرها (ص١٢٣).

وذكر الشيخ الرفاعي أن أبرز الأصوليين كالشريف المرتضى والشيخ الطوسي والفخر الرازي كانوا أيضاً علماء كلام بل أن آراءهم الكلامية دفعتهم إلى ابتكار علم الأصول.

وهي التفاته دقيقة من الشيخ الرفاعي، وقد تعرض لذكر أمثلة كثيرة من كتب علماء الأصول (راجع ص١٢٤) من الكتاب المذكور.

وذكر أن علماء الأصول تعرضوا لقواعد كلامية في مدوناتهم الأصولية، كقاعدة اللطف والحسن والقبح العقليين وقبح العقاب بلا بيان وحق الطاعة وغيرها من المباحث الكلامية.

وذكر أن الإنتاج الفقهي هو الأثري والأوسع بين كافة أنماط الإنتاج المعرفي للمسلمين، فهو الإنتاج الذي انخرط فيه معظم المهتمين بالدراسات الإسلامية في العصور الأخيرة، ثم تحدث عن المعرفة الدينية والتراث وخلص إلى نتائج مفيدة تعرض من خلالها إلى المنظومة الكلامية التي تحدد نظرة الإنسان للعالم وتصوغ رؤيته الكونية.

ثم ختم مقاله الرائع بذكر رأي للمفكر محمد إقبال على التجربة الدينية الباطنية حيث يعتبرها أحد مصادر المعرفة الثلاثة بموازاة الطبيعة والتاريخ.

وفي هذا الكتاب مقالات كثيرة تحتاج إلى دراسة موسعة وقراءة نقدية وتحليلية مطولة لا يسعها هذا المقال المختصر لمفكر له حضوره في الساحة الثقافية.

وإذا رجعنا إلى عبدالجبار الإنسان نراه دقيق في إنسانيته وبسيط في عفويته وتعرف ذلك من خلال النصوص التالية.يكتب إلى أحد رفقاء دربه، وهو الكاتب ماجد الغرباوي في مقدمة كتابه (مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد). (وتبقى هذه الأسئلة والرؤى مدينة إلى ماجد الغرباوي الذي اجتمعنا أنا وهو للمرة الأولى في الصف الأول المتوسط عام ١٩٦٨).

أنه الحنين والشوق والعاطفة الجياشة لصديق قديم ورفيق فكر، يذكره ولا يبخسه حقه، وهذا يدل على صفاء النفس، ونراه بنفس الصورة مع رفيقه دربه زوجته المخلصة الذي رافقته في رحلاته العلمية، حيث يقول في حقها (ولا أنسى جهود رفيقة العمر انتزال الجبوري). كما في مقدمة كتابه تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية.أنه الوفاء للزوجة المخلصة الذي كانت له نعم العون في الشدة والرخاء.

نراه لم ينس كل صديق ورفيق قلم، حتى طلابه المخلصين لم يتجاهلهم ويذكرهم في كل مناسبة، ولو راجعت كتبه ومقالاته تدرك صدق ما أقول.

نعم هذا هو عبدالجبار الذي باع مكتبته العامرة في سبيل إصدار مجلة علمية تجديدية أصبحت لها شهرة واسعة. ولا يزال يردف المكتبة العربية بكل جديد مفيد.

أنه المفكر الذي يلامس الواقع المعاصر بثقافة شمولية تهدف لرسم صورة واضحة المعالم لبناء جيل مثقف يحمل رسالة الأصالة والمعاصرة.

أنه الكاتب العصامي الذي يعمل ليل نهار بمفرده وبمساعدة أولاده وزوجته المخلصة في أعمال الكتابة والتنضيد والإخراج، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا مؤسسات ومجاميع علمية، ولكن بالعمل الدؤوب والإصرار والتحدي يبقى عبدالجبار الرفاعي القلم الموهوب والمفكر الصريح والمنظر الواعي الذي لا يكل ولا يمل.

ونراه يصر على الإبداع والتفرد والتميز في عالم التجديد والمعاصرة. أنها روح المثابرة كتبها أستاذ حوزوي عاش في أروقة الحوزات والمراكز العلمية ولم يتوانى لحظة على التقاعس بل عاش النشاط والحيوية والانطلاق لبناء غد مشرق.

وفي الختام نشكر هذه الروح الوثابة والنفس الصادقة التي قدمت من خلال وجودها الكثير الكثير في خدمة التراث والمعاصرة.

❖ ❖ ❖

الإيمـان الوجـودي
وديانة الضمير الفردي
عند الفيلسوف الدانمركي المؤمن سورين كركيغارد

✍ حسن مطر[(١)]

لقد أتاح لي التعرف على أستاذي العلامة الدكتور عبد الجبار الرفاعي، منذ أن درست المنطق والعلوم العقلية على يديه - ولا زلت أفتخر حتى الآن بكوني من تلاميذ مدرسته المعرفية والأخلاقية والروحية - فرصاً كثيرة، وفتح أمامي الكثير من النوافذ التي ساعدتني على استشراف المستقبل من موقعي الراهن مستعيناً بوهج الماضي.

ومن بين الشخصيات الفلسفية واللاهوتية التي كان لي شرف التعرف عليها بفضل إرشادات سماحة الدكتور الرفاعي وتوجيهاته، شخصية الفيلسوف الدانمركي (سورين كيركغارد).. فقد وفرت لي مجموع المقالات التي زودني بها سماحته مادة كبيرة للإحاطة بالتجربة العرفانية والروحية التي عاشها كيركغارد في حياته الشخصية. والتي استوعبها العدد الجديد من مجلة أستاذي الرفاعي "قضايا إسلامية معاصرة" في عدد خاص بعنوان: "الإيمان الوجودي وديانة الضمير الفردي"، صدر في ٤٢٨ صفحة هذا الأسبوع ببيروت، بمناسبة مرور ٢٠٠ سنة على ولادة (سورين كيركغارد).

وقد وجدت في بعض أفكار هذا الفيلسوف المؤمن المتصوف الدنماركي الرائع تشابهاً كبيراً مع ما ورد في نصوصنا الروائية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، ولكن قبل التطرق إلى هذه المواطن أرى من الضروري أن نقدم صورة عن حياته الشخصية لما لها من التأثير الكبير على بلورة أفكاره اللاهوتية.

ولد سورين آبييه كيركيغارد في الخامس من شهر مايو عام ١٨١٣ في مدينة كوبنهاغن في الدانمرك. وكان هو الولد السابع والأخير لوالده (مايكل بيدرسون كيركيغارد) وأمه (آنا كيركيغارد). وكانت أسرته - وخاصة والده - شديدة التدين، وقد ترك ذلك تأثيراً عميقاً على أفكار سورين كيركيغارد. وقد أشار كيركيغارد نفسه إلى هذا التأثير في بعض مذكراته اليومية. وقال ذات مرة: لقد تمّ تذكيره مراراً عندما كان صغيراً: (إن كل شخص مسيحي - والشخص هنا يعني الحقيقة - قد بصق في وجه المسيح،

(١) أديب ومترجم. مهداة للمدرسة المعرفية والأخلاقية والروحية لأستاذي العلامة الدكتور عبد الجبار الرفاعي.

وقال له: العار عليك)! يقول كيركيغارد: لقد حفظت هذه العبارة في أعماق فؤادي، واستحوذت هذه الفكرة على حياتي. وقد فهم من هذه العبارة أن الحقيقة ممزوجة على الدوام بالعقد، وأنها لن ترى الطمأنينة وهدوء البال أبداً.

كما كان تأثير والده عليه هو السبب في أن يجعل من الإيمان هو الموضوع الرئيس لكتاباته الفلسفية، بحيث شكل هذا الموضوع الهاجس الأساس بالنسبة له. بيد أن هذا التأثير لا ينحصر في طريقة تربيته فقط. فقد كان هناك عنصر آخر في حياة الأب، لم يترك تأثيره على حياته فحسب، بل انتقل إلى جميع أفراد الأسرة، وخاصة سورين كيركيغارد. فقد اطلع كيركيغارد في عام ١٨٣٥ ـ أي قبل رحيل والده بثلاثة أعوام ـ على سر هام من أسرار والده. فقد كان والد كيركيغارد تاجراً ثرياً في كوبنهاجن، إلا أنه قبل أن يصبح تاجراً ثرياً، كان صبياً يرعى الماشية في مقاطعة (يوتلاند)، وكان يعاني الفقر والشقاء، وذات يوم حيث كان يرعى الماشية كعادته، انهار أمام وطأة الجوع والفقر والألم، فوقف على تل مرتفع من الأرض وبدأ يجدف على الله. وقد كان وقع هذه الحادثة على الأب من العمق بحيث لم يتمكن من التخلص منه ونسيانه إلى آخر لحظة من حياته وقد بلغ الثانية والثمانين من العمر. وبعد فترة من صدور هذا التجديف منه، تم نقله إلى كوبنهاجن ليقيم عند عمه، حيث شعر هناك برغد العيش وتخلص من سطوة الفقر والألم وبدأت حياته تشهد تقدما نحو الازدهار. إلا أنه لم ير السعادة في هذا الازدهار، ولم يفسره على أنه لطف من الله، بل رأى فيه نقمة إلهية حلت به وبأسرته. فقد اعتقد بأن تجديفه على الله جعله مستحقاً لحلول نقمة الله، ولذلك كان معتقداً بأن جميع أولاده سيموتون قبل بلوغ الرابعة والثلاثين من أعمارهم ـ وهو العمر الذي يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح (على نبينا وآله وعليه السلام) كان قد بلغه عندما رفع على الصليب ـ وقد صدق هذا الاعتقاد بالنسبة إلى خمسة من إخوة كيركيغارد، حيث أدركتهم المنية قبل بلوغ الرابعة والثلاثين، ولم يستثن من ذلك سوى كيركيغارد وأخوه الأكبر، حيث تجاوزا الرابعة والثلاثين من عمرهما، رغم أن كيركيغارد نفسه لم يعمر طويلاً، حيث وافته المنية في مستهل عقده الخامس عن اثنين وأربعين عاماً. إن تجديف الأب على الله جعله يغرق في حزن سرى وانتقل إلى جميع أفراد أسرته. وقد عبر كيركيغارد عن استحواذ الحزن عليه قائلاً: لقد كنت أسير الكمد منذ الصغر... وكان من بين مشاعري العذبة أن لم يكن بمقدور أحد إدراك حجم البؤس الذي أشعر به وأكابده.

وعلاوة على اكتساب سورين كيركيغارد لهذا الكمد غير الطبيعي بفعل تربيته الأسرية، فقد ورث القدرة على كتمان هذا الكمد عن أبيه أيضاً؛ فقد كتم والده سر

حزنه ـ الناشئ من ذلك التجديف ـ طوال حياته، ولم يفصح عنه إلا قبيل وفاته بثلاث سنوات.

التقى كيركيغارد بخطيبته ريجين أولسن للمرة الأولى في عام ١٨٣٧، ولم يتقدم إلى خطبتها رسميا إلا عام ١٨٤٠. غير أن هذه الخطبة لم تستمر لأكثر من عام واحد فقط، حيث عمد كيركيغارد إلى فسخها في عام ١٨٤١. وقد كان هناك سببان وراء فسخ هذه الخطوبة، السبب الأول: أن كيركيغارد كان يعاني من كآبة حادة، ويرى أن هذه الكآبة لا تنسجم مع رغبته في إسعاد خطيبته ريجين أولسن. والسبب الثاني: أن ظاهرة وفاة إخوته وكذلك أمه التي وقعت تباعا وفي فواصل زمنية متقاربة (وكان سورين كيركيغارد يراها ناشئة عن النقمة الإلهية التي حاقت بجميع أفراد الأسرة) من جهة، وشكواه من اعتلال صحته من جهة أخرى، كل ذلك جعله يؤمن بأنه سيفارق الحياة عما قريب، وأن ذلك سيعرض أولسن إلى الكثير من المشاكل.

إن هذه الأسباب التي ذكرناها لفسخ كيركيغارد لخطبته وانفصاله عن ريجين أولسن، تعكس بوضوح عمق تأثير الخصائص الروحية لكيركيغارد. كما أن الطريقة التي قطع بها كيركيغارد علاقته بأولسن توضح هذه الخصائص على نحو أشد. فإن فسخ الخطوبة غالباً ما يدمغ الفتاة بوصمة عار لا سبيل إلى محوها. ولكي لا تتعرض ريجين لمثل هذا العار، فقد قام سورين كيركيغارد بالتضحية بنفسه على طريقته الخاصة، حيث تظاهر بشكل يتحمل معه جميع تبعات فسخ الخطوبة، ولا يلقى أي لوم عليها، فتصرف بلامبالاة واستهتار، ليثبت للناس أن السبب في فسخ خطوبته من محبوبته يعود إلى تهتكه واستهتاره بالقيم والأخلاق. وعلى كل حال فقد واصل كيركيغارد حياته بما هو عليه من الخصوصيات الروحية، حتى وافته المنية في الحادي عشر من نوفمبر من عام ١٨٥٥ في مسقط رأسه كوبنهاجن.

ويجدر بنا أن نتحدث قليلاً عن دراسته ومعتقداته ومؤلفاته وأعماله أيضاً. ففي عام ١٨٣١ قبل كيركيغارد في فرع اللاهوت من جامعة كوبنهاجن. وقد كان المناخ الفكري ـ الفلسفي السائد في عصره، هو المناخ الهيجلي. وعلى الرغم من أن كيركيغارد لم يكن على معرفة مباشرة بأفكار هيجل وأعماله، إلا أنه قد تعرف إليها من خلال كتابات هانس لاسين مارتنسن. وقد كان مارتنسن لاهوتياً سعى إلى رفع التناقض المتبادل بين الديانة المسيحية والنزعة العقلانية التي سادت في عصر التنوير، وذلك من خلال التأمل الهيجلي. وبعبارة أخرى: إنه كان يسعى إلى توظيف أفكار هيجل لحل التعارض القائم بين العقل والوحي. بيد أن روبرت هورن قد أظهر بالأدلة القاطعة أن التفكير الهيجلي عند مارتنسن لا يعكس أفكار

هيجل بشكل كامل، وإنما هي مجرد فهم وقراءة لأفكار هيجل لا أكثر. ومن هنا ندرك أن كيركيغارد لم يكن على اطلاع كامل بأفكار هيجل. ولكنه كان على كل حال يعيش الأجواء الفكرية لهيجل، ويتجلى ذلك بوضوح من خلال الانتقاد الذي يورده على الأدلة الآفاقية. وسوف نشير إلى النزعة الإيمانية عند كيركيغارد لاحقاً.

لقد بدأ كيركيغارد كتابة أفكاره في مؤلفات زاخرة وكثيرة منذ عام ١٨٣٤ واستمر في الكتابة إلى عام ١٨٥٥ حيث فارق الحياة في تلك السنة، وبذلك يكون عطاؤه العلمي قد استمر لأكثر من عشرين سنة. وقد كتب أهم أعماله ما بين عامي ١٨٤٣ و١٨٣٦، وكان في الغالب يستخدم حينها اسماً مستعاراً هو (يوهانس كليماكوس). وإن من بين أهم الأعمال التي كتبها في تلك الفترة، يمكن لنا أن نذكر العناوين الآتية: (هذا أو ذلك)، (الخوف والفزع)، (التكرار)، (ثلاثة حوارات بناءة)، (شذرات فلسفية)، (تعليقة نهائية غير علمية على شذرات فلسفية.

وبطبيعة الحال فإن لمؤلفات كيركيغارد التي كتبها في السنة الأخيرة من حياتها أهمية كبيرة أيضاً. وقد بدأ يصب جام انتقاداته على المسيحية الرسمية في الدانمرك في تلك السنة. لقد كانت الكنيسة الدانمركية في عهد كيركيغارد كنيسة لوثرية، وكانت ولادة طفل تعني عضويته في تلك الكنيسة وانتسابه إليها بوصفه مسيحياً لوثرياً. لم يكن كيركيغارد معارضاً للمسيحية كما هي معروضة في الكتاب المقدس، ولكنه كان يعتقد بأن بين المسيحية الرسمية والمسيحية كما هي في الكتب المقدسة بوناً شاسعاً، وإن الهوة بينهما لا يمكن ردمها بمجرد إجراء الإصلاحات عليها، بل كان يرى ضرورة تقويضها وإعادة هيكلتها وبنائها من جديد. إن هجوم كيركغارد على الكنيسة كان هجوماً غير مألوف إلى حد ما، لأنه إنما عمد إلى مهاجمتها بوصفه فرداً مؤمناً ومعتقداً بالمسيحية. وإن من بين الأعمال والكتب التي ألفها في السنة الأخيرة من حياته، وتعرض فيها بالهجوم على المسيحية الرسمية ونقدها، عبارة عن: (الوطن)، و(يجب لهذا أن يقال فاسمحوا له بأن يقال الآن)، و(كيف يحكم المسيح بشأن المسيحية الرسمية؟)، و(اللحظة). وقد كان مؤمناً إيماناً كاملاً بانتقاداته للمسيحية الرسمية، بحيث أنه طوال الأربعين يوماً التي لازم فيها المستشفى بسبب تأزم حالته الصحية وتفاقم المرض ـ الذي أدى إلى وفاته ـ لم يسمح لأخيه (بيتر) ـ الذي كان منخرطا في سلك القساوسة ـ بزيارته. وإن الشخص الوحيد الذي أذن له بزيارته يومياً هو صديقه (باستور بويسن). وقد جهد بويسن في إقناعه بأداء طقوس العشاء الرباني، إلا أنه رفض ذلك. وقد احتوت مخطوطات بويسن على كلام لكيركيغارد قاله أثناء مرضه الأخير، ومما جاء فيه: (إن الكنيسة اللوثرية التي يتعرض فيها الله للسخرية، يجب التخلي عنها).

كما نجد عبارة أخرى لكيركيغارد يقول فيها: (إن القساوسة هم مجرد أدوات بيد السلطة، ولا ربط لأدوات السلطة بالمسيحية).

يشكل الإيمان المحور الرئيس لأبحاث كيركيغارد. وقد ذكر في كتابه (زاوية عملي بوصفي كاتباً) أنه كان هناك نوع من الهيمنة الإلهية على حياته. وقد بين في هذا الكتاب صلة مؤلفاته إلى حين كتابة هذا الكتاب ـ في عام ١٨٤٨ ـ بحياته. ونحن أيضاً بصدد بحث هذا المحور الرئيس في تفكير كركيغارد، إذ نسعى إلى الإجابة عن هذا السؤال القائل: هل يمكن التوصل إلى الإيمان من طريق الأدلة الآفاقية أم لا؟

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (فصلت/٥٣).

بيد أن كيركيغارد وانطلاقاً من بيئته وتربيته التي صاغت متبنياته الفكرية أنكر إمكانية التوصل إلى إثبات الله بالأدلة العقلية والآفاقية، وقد صبّ كل اهتمامه على الأدلة الأنفسية. وقد رصد كركيغارد ثلاث مراحل في حياة الفرد وإن الفرد يتخذ في كل مرحلة من هذه المراحل إلهاً يعبده، وإن تلك المراحل هي: مرحلة الأنا، ومرحلة الأخلاق، ومرحلة العشق المطلق. وهذه المراحل تمثل الأسفار الثلاثة الأولى للفرد في انطلاقته وذهابه إلى المطلق، وهي مراحل يعتبرها كيركغارد تكاملية، وإن لم تكن عنده تراتبية بالضرورة، بمعنى أنه قد يرزح الفرد في المرحلة الأولى إلى الأبد فلا ينتقل إلى المرحلة الثانية أبداً، وإذا كتب له النجاح وتحرر من قيود المرحلة الأولى، وطار بجناحية إلى القفص الأوسع المتمثل بالمرحلة الثانية، قد يبقى رازحاً فيه إلى الأبد، ولا ينجح في الانطلاق إلى المرحلة الثالثة، فلا يتذوق متعة العشق المطلق، وهناك من يكتب له النجاح في بلوغ المرحلة الثالثة والأخيرة التي تتمثل بالعشق المطلق.

يرى كركيغارد أن مرحلة الأنا هي مرحلة حياة الفرد من أجل نفسه. والمرحلة الثانية (مرحلة الأخلاق) هي مرحلة حياة الفرد من أجل الآخرين. والمرحلة الثالثة (مرحلة العشق المطلق) هي مرحلة حياة الفرد من أجل الله. والمعيار في مرحلة الأنا هو الحصول على اللذة والمتعة على المستوى الفردي. والمعيار في مرحلة الأخلاق هو الشعور بالمسؤولية التي يفرضها المرء على نفسه تجاه الآخرين. والمعيار في مرحلة العشق المطلق هو ما يأمر به الله سبحانه وتعالى.

١ ـ مرحلة الأنا:

إن الحياة من أجل اللذات، تمثل المفهوم الحقيقي للأنا. فاللذات هي وحدها التي يؤصلها الفرد في مرحلة الأنا. فليس هناك توقف أو كبح جماح تجاه أي شخص أو أي شيء أو

أية رؤية أو فكرة. إن الهدف الوحيد من الحياة هو الحصول على اللذة فقط. وإن المثال البارز على مرحلة الأنا في حياة الإنسان يتجلى في العشق الذي يقوم بين رجل وامرأة والذي يزول بعد فترة قصيرة ويميل كل واحد منهما إلى اتخاذ شريك آخر. يصوغ الفرد في مرحلة الأنا إلها لنفسه، ويكون هذا الإله هو ذاته ونفسه.

٢ ـ مرحلة الأخلاق:

يرى كيركيغارد أن الاستهزاء عنصر محرك للعبور من مرحلة الأنا إلى مرحلة الأخلاق. إن أرواحنا وأنفسنا لم تخلق بحيث تستطيع العيش في بحبوحة السعادة باستمرار. فإن تكرار اللذات المتشابهة يدعو إلى السأم. وعليه فإن مرحلة الأنا تشكل نمطاً من الحياة محكوم عليه بالفشل، وهي حياة تحمل بذرة فنائها في أحشائها. وإن هذه الطبيعة الجدلية تؤدي بلذة الإنسان إلى عدم المبالاة وسيفضي ذلك إلى الإحباط وانعدام الأمل.

إن الحياة المقرونة بالشعور بالمسؤولية هو عنوان المرحلة الأخلاقية. وإنما تكتسب الحياة معناها ومفهومها إذا تكفل الفرد بإنجاز مسؤوليته ومهمته. إن الفرد الأخلاقي هو قبل كل شيء ملتزم بالتكليف الذي اختاره بإرادته. بمعنى أنه لم يلتزم بالواجبات والمحظورات الأخلاقية بسبب القيود الخارجية، بل إنما اختار هذا الالتزام بملء إرادته. إن المرحلة الأخلاقية عبارة عن مجموعة من القوانين المتناغمة لإقامة الخير في المجتمع، فعلى الفرد أن ينسجم مع المجتمع، وأن يقدم مصلحة المجتمع على مصلحته الخاصة. قد تشتمل الأمور الأخلاقية على لذة ومتعة، إلا أنه لا يختارها لأجل ما تشتمل عليه من اللذة، وإنما يختارها لقواعد وأصول أسمى.

يمثل كيريغارد للحياة الأخلاقية بالزواج في مقابل السفاح والعلاقات العابرة. فالذي يتزوج إنما يختار الحياة الأخلاقية. إن المحبة الكامنة في الزواج مسؤولية قائمة على أساس ميثاق مقدس. وإن العشق التذوقي والعابر لا يمكن أن يكون أخلاقيا قطعاً، مهما كان مقروناً بالشعر والخيال، لأنه لا يكون مصحوباً بالمسؤولية والشعور بالتكليف.

٣ ـ مرحلة العشق المطلق:

يجد المرء أن الهدف من الحياة ومفهومها يكمن في تكامل الشخصية الأخلاقية والاجتماعية وبناء الأسرة. ولكن هل تعد هذه الأمور هي الهدف النهائي من الحياة. إنه يضحك على هذه الحالة من كل قلبه، ويضحك من نفسه إذ يعتبر هذه الأمور هي غاية الحياة. إن هذه السخرية تؤدي به إلى الإحباط والملل والسأم، وكأنه مهما بذل من الجهود لن يصل إلى غاية الحياة. فهل امتثل كل ما يستطيع فعله أم لا يزال هناك من المهام التي

لم يقم بها. وعليه لكي لا يصل به هذا الإحباط وانعدام الأمل إلى شفير الموت، فإنه يشعر بأن عليه البحث عن هدف الحياة في الخلود والأبدية، وبذلك يدخل في مرحلة العشق الإلهي المطلق.

ليس هناك في هذه الحياة العابرة ما يحتوي على معنى إلا إذا ارتبط بالله. إن سعادة الفرد في الحياة تكمن في الإيمان بالله والتفاؤل بالخلود والأبدية. وإن عابد الجمال إنما يعيش لهذه الغاية، وإن الشخص الأخلاقي يعيش على طول الزمان، بينما يعيش المتدين من أجل الخلود والأبدية.

وفي هذه المرحلة يرى كيركغارد أن إبراهيم (ع) هو الأفضل على الإطلاق. ولكن كيف يمكن اعتبار ما قام به أخلاقياً؟ فهو لا يمتلك الحد الوسط الذي يمتلكه أبطال التراجيديا لكي يكون ما قام به قابلاً للفهم! إذ لم يكن في قتل ولده أي خير لعامة الناس. وعليه لا يمكن فهمه لأي أحد، ولن يكون ممدوحا من قبل أي أحد، ولن يكون بإمكان شخص أن يعمل على مواساته بسبب ما قام به. إنه بشكل عام يخرج عن دائرة الحسن والقبح الأخلاقي، ويقف في مواجهتهما. فكيف يكون ما قام به أخلاقياً؟

يقول كيركغارد: إن لدى إبراهيم خارج الدائرة الأخلاقية غاية يعلق الأخلاق بإزائها، وهي أمر المطلق أو أمر الله، وفي الحقيقة فإن الأخلاق بالنسبة إلى الآخرين هي الله، وأما بالنسبة إلى إبراهيم فإن الله هو الأخلاق. وإن إطاعته وامتثاله لأمر الله يجعل من فعله عين الأخلاق.

ربما كان السبب في أهمية العشق بالنسبة إلى كيركيغارد يعود إلى تأثير أبيه عليه في فترة الطفولة والشباب. فقد صرّح قائلاً: (إنني مدين منذ البداية لأبي في كل شيء، كان إذا رآني مكتئبا يقول لي: عليك أن لا تنسى أن تعشق عيسى المسيح) من هنا يعمد كيركيغارد إلى توظيف العشق بوصفه عنصراً هاماً في الإيمان وفي الأخلاق أيضاً. إن اللحظة التي يتجلى فيها حبّ الله هي لحظة الإيمان، وإثر ذلك يسعى الفرد المؤمن والعاشق إلى طلب أمر الله أو المعشوق. إن حب الله ومرحلة الإيمان تؤدي إلى إطاعة أمر الله في مرحلة الأخلاق، ومن ثم يأمر الله بالحب، فيأمر بحب نفسه وحب الآخرين.

يقترح كيركيغارد ارتباطاً وجودياً بالله، ويقول إن الطريق الوحيد إلى هذا الارتباط هو العشق. فإذا افتقرنا إلى العشق فإن نظرتنا إلى المسيحية مهما كانت مثالية ستكون نظرة غريبة وفاقدة للمعنى. وإن عشق الله يطيح بجميع القوانين الأخلاقية الصائبة والخاطئة مرة واحدة، ويغدو الشيء الصحيح والحسن هو أمر المعشوق فقط.

ولكن لكي تعشق الله، لا بد قبل ذلك من معرفته وإثباته، وهناك طريقان لإثبات الله، الأول من طريق البراهين العقلية والآفاقية، والثاني من طريق البراهين الوجدانية والأنفسية، ويذهب كيركغارد إلى تأصيل البراهين الأنفسية وتقديمها على البراهين الآفاقية كما تقدم أن ذكرنا. حيث تلعب العواطف والمشاعر دوراً معرفياً كبيراً في مفهوم الإيمان عند كيركيغارد. وبذلك يغدو الجميع عند كيركغارد بحاجة إلى الوحي والانكشاف الخاص. يضاف إلى ذلك أن المعرفة الأخلاقية من طريق الخلق لا تأتي إلا بعون من الله، بل هي نوع من الإلهام والانكشاف العام. إن هذه المعرفة الطبيعية لا تأتي من طريق العقل، وإنما تأتي من طريق القلب والفؤاد. بل إن البحث عن البراهين العقلية عند كيركغارد قد يبعدك عن القصد، ويشط بك عن الطريق. وقد نجد لهذا المعنى جذوراً في كلمات الإمام الحسين × في دعاء عرفة إذ يقول: تردّدي في الآثار يوجب بعد المزار.. كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟

وفيما يتعلق بإخلاص العمل للمعشوق المطلق يقول كيركغارد: إن رجاء الثواب والخوف من العقاب، والآمال الواهية في الحصول على المكافأة والخلاص من عواصف جهنم، إنما هي أمور تؤدي إلى الضلال. إنما يجب علينا إرادة الله لذاته. وقد شبه كيركغارد من يروم المكافأة من وراء عبادة الله بالعاشق الذي يعلن عن حبه لامرأة طمعاً بالفوز بثروتها، وعليه لا يكون مخلصا ومستقرا في حبه. وهذا يشبه القول المأثور عن الإمام علي (ع) إذ يقول: إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ.

وفي الختام أجدد شكري لأستاذي الرائع سماحة العلامة الدكتور عبد الجبار الرفاعي، الذي فتح لنا آفاقا مضيئة في عوالم الروح والقلب والعقل، وما زال روحه وقلبه وعقله يفيض علينا المعنى الذي يمنح حياتنا المعنى والثقة والإرادة والأمل والسلام والمحبة.. وأسأل الله له مزيداً من التوفيق والتألق والنجاح.

❖ ❖ ❖

شـــذرات

ممـــا كتبـــه

الدكتور عبد الجبار الرفاعي

عـــن

أصـدقـــائـــه

السيد عبد العزيز الطباطبائي...
الأب الإنسـان

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

ما كنت أدري أنّ وداعي معه قبيل الساعة الحادية عشرة من مساء ليلة السابع عشر من شهر رمضان ١٤١٦ هو الوداع الأخير، الذي لن يتجدد بعده اللقاء أبداً، مثلما لم أكن أدري أنّ هذه السنوات القليلة التي تعرفته فيها ستنقضي بهذه السرعة، وإنما كنت أحسب أنّ مثل الطباطبائي سيطول مكوثه في الحياة، لأنّ الباحثين والمحققين وطلاب العلم من مريديه بأسرهم لم يجدوا بديلاً تلتقي في شخصيته تلك الخصال الحميدة التي اجتمعت في الطباطبائي، فهو مستشارهم العلمي وموجههم وأبوهم، الذي ظل يلاحق أعمالهم ويتفقدها ويؤمن متطلباتها ما وسعه ذلك باستمرار، بعد أن أضحى فكره أرشيفاً يتسع لتسجيل أعمالهم وما طوته من مراحل، وما يلزم لكل منها، وصار قلبه ينبوعاً تستقي من دفئه ومعينه حالات الجدب والظمأ، متى ما أضنتهم متاعب العمل وما يكتنفها من توتر ومماحكات وتنافس ممقوت.

ربما لا أكون مبالغاً لو قلت أن ظاهرة الطباطبائي ظاهرة فذة، قلما تتكرر في حياتنا العلمية، لأنه يجمع بين خبرة العالم، الذي توغل في بحر التراث واقتحم أعماقه الوعرة، بما توفر عليه من صبر وأناةٍ، وبين روح الأبوة الحانية، التي تفيض دوماً على جميع الباحثين رقة وعطفاً، لا سيما مَنْ يجد منهم أبواب الآخرين من شيوخ العلم موصدة بوجهه، فيما يرى الطباطبائي ينتظره في معتكفه العلمي بمكتبته ليل نهار، من دون أن يثنيه عن ذلك قر القيظ أو زمهرير الشتاء.

إن غير واحد من المحققين ما كان له أن يواصل عمله المنهك، لولا ما استلهمه من عزم وتشجيع الطباطبائي. وكنت أرى حالات متعددة لا يكف فيها الطباطبائي عن الإصرار على أولئك الذين تخور هممهم بالاستمرار في مشروع البحث العلمي حتى نهايته. وكنت أنا واحداً من أولئك الذين ما انفكوا يهرعون إليه كل مرة ليطلعوه على موقفهم الأخير بفسخ عزمهم على إنجاز المراحل التالية في العمل، فلم يكن منه إلاّ أن ينبري بحديث جاد بضرورة مثل هذا العمل ولزوم انجازه حتى النهاية، ويظل يصر على هذه القناعة، مؤكداً ما يقوله بعبر وتجارب ومواقف متنوعة للعلماء السابقين، وطبيعة الظروف القاسية التي كانوا ينجزون مؤلفاتهم فيها، وهم لا يكترثون بمثل تلك الظروف، وإنما يصرون على مغالبتها حتى يظفرون بالنجاح في خاتمة المطاف.

إن الطباطبائي مع ما عُرف عنه من الاقتصاد في الكلام وإطالة الصمت، وإيثار العمل على أي شيء آخر، فانه كان عندما يتكلم، وغالباً ما يقتصر كلامه على عبارات مختصرة وتصريحات سريعة، فان عباراته كانت تفوح برائحة الحكمة، وتحكي لنا عن وعي حياتي عميق، وتجربة اجتماعية تغور في شتى طبقات المجتمع، وذكاء متوقد، يلتقط الإشارات فيصوغ قوانينها الكلية.

وطالما فوجئنا بصمت الطباطبائي الذي كان يخفي أبعاداً أخرى في شخصيته، لا تتجلى لأول وهلة، فحينما نحسب انه لا يدري شيئاً عن قضايا هي أبعد ما تكون عن دائرة ثقافته الخاصة بالتراث والمخطوطات؛ يكشف لنا عن خبرة واسعة في ذلك المضمار لا تفوقها خبرة المتخصص. لكنه كان أبعد الناس عن التبجح بخبراته والمباهاة بثقافته، بل والإفصاح عنها، لأنه كان يعمل أكثر مما يتكلم، بل كان يعمل ولا يتكلم، إلّا في مناسبات محدودة.

من هنا اتسمت شخصيته بجاذبية خاصة، فكان كل مَنْ يتعرف عليه، ويلتقيه لمرة واحدة، لا يكف عن تكرار زياراته له، وكثيراً ما يقوده ذلك إلى ملازمته والالتصاق به، كما رأينا طائفة من مختلف طبقات المجتمع خاصة الباحثين والمحققين منهم، الذين أفاد معظمهم من سخائه العلمي، فهو ليس من ذلك النوع الذي لا يصغي لسؤالك، واذا أجابك يجبيك بصورة مبتسرة، وإنما أول ما يباشره الطباطبائي انه يزيل الحواجز بينك وبينه حالما تلقاه، ويضع بين يديك كل ما بحوزته من وثائق ونصوص وتوجيهات يتطلبها عملك، ويبادر إلى نخل خزانته الخاصة، لعل في ما تكتنزه ما يثري مشروع بحثك.

أتذكر في إحدى المرات اصطحبت معي الصديق السيد سليم الحسني، لحظة إعداده الوثائق لتأليف كتاب: "دور علماء الشيعة في مقاومة الاستعمار"، واتينا مكتبة السيد الطباطبائي، وبعد أن عرفته على الأخ الحسني أبدى السيّد استعداده لعرض كل الوثائق التي لديه، وبعد لحظات راح يستخرج لنا من خزانة وثائقه مجموعة من المراسلات والوثائق النادرة بشأن الموضوع، يعود تاريخها إلى ما يقارب مائة عام، ووضعها جميعاً بين يدي الأخ الحسني. وقال له: انتخب منها ما تشاء.

وسبق هذا الموقف موقف آخر حصل معي، بعد فترة وجيزة من تعرفي على الطباطبائي، فقد كنت في عام ١٤٠٨هـ منهمكاً في تأليف كتابي "معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم"، وكان السيّد الطباطبائي قد باشر نشر الحلقات الأولى من عمله "أهل البيت في المكتبة العربية" في مجلة تراثنا، فكنت بحاجة للاستفادة مما لم ينشره من هذا العمل، فقلت له ذات يوم على استحياء: كيف أستطيع الإفادة مما هو مخطوط من "أهل

البيت في المكتبة العربية"؟ فلم يجب بشيء، وإنما تحرك مباشرة باتجاه مخزن أوراق مغلق وجلب كيساً مملوءً بالجذاذات ووضعه أمامي؛ قائلاً: خذ حاجتك من هذا. فلما فتحت الكيس عثرت على جميع القسم غير المطبوع من العمل المذكور، فأفدت منه في كتابي وأشرت له في كل مورد اقتبست منه.

كان الطباطبائي يحسن الظن بأعمال الآخرين، فلم يزهد أو يستخف بما يقوم به بعض المحققين من أعمال ناقصة متواضعة؛ لأنه كان يعتقد أن إخراج الكتاب التراثي من كونه مخطوطاً ونشره بين الناس هو جهد كريم يستحق الثناء، باعتباره خير وسيلة لحفظ التراث من الضياع، فإذا لم يستوف تحقيقه ونشره المواصفات العلمية والفنية، يمكن أن يعاد نشره من جديد بطبعة علمية. من هنا كان يبادر للبحث عن النسخ الخطية وتأمين مصوراتها للمحققين من شتى أنحاء العالم، مما يوجد من مصورات في مكتبته تلك، التي استفادها من رحلاته العلمية وتجواله بين مكتبات المخطوطات في تركيا وإيران والعراق وبلاد الشام وغيرها، أو من علاقاته الواسعة بخبراء المخطوطات والمفهرسين وأمناء المكتبات في إيران وخارجها.

وكثيراً ما كان يقترح على بعض المحققين البدء بتحقيق كتاب معين، ويوفر لهم مصورات نسخه الخطية النفيسة، أو ما نسخه على تلك النسخ بخطه. وهذا ما تحكيه مقدمات غير واحد من المحققين ممن اعترفوا له بهذا الفضل.

لقد كان الطباطبائي غيوراً على التراث، ولذا أنفق حياته على ملاحقة نفائسه ونسخها وتصويرها، وتيسير سبل الإفادة منها للمحققين، والحث على نشرها وتعميم الاستفادة منها.

صحيح أن أعماله المنشورة الخاصة في تحقيق التراث محدودة، بيد أن جهوده الواسعة تظهر بوضوح في ذلك العدد الوفير من الكتب التراثية المحققة، والتي كان هو السبب الأوّل من وراء تحقيقها ونشرها، فإنه لم يكن يحرص على نشر آثاره الخاصة والتفرغ لتحريرها وإخراجها من المسودات ـ وهي كثيرة ـ ثم التعاقد مع الناشرين ـ وطائفة منهم تود تبني آثاره ـ وإنما كان هدفه الأول إشاعة حركة إحياء التراث ونشره، سواء قام هو بذلك أم غيره.

ويمكن القول أن أهم عمل تميز به مشروع الطباطبائي في إحياء التراث، وجعل اسمه يتصدر مقدمات مجموعة من كتب التراث المحققة، ويُسدي له المحققون ألوان الثناء والامتنان؛ هو روح السخاء العلمي التي لا تعرف الحدود، والتي تجلت بأزهى صورها في إباحة أعماله الخاصة للآخرين، فربما عمل على تحقيق كتاب تراثي وجمع مصورات مخطوطاته النادرة، ثم قدمه بسخاء نفس إلى غيره من المحققين، كيما يحفزه على المساهمة بإحياء التراث.

ومما عُرِف عن الطباطبائي وفاءه لشيوخه وأساتذته، حتى أنه سخَّر الكثير من جهوده العلمية لمواصلة مشوارهم في التأليف واستدراك ما فات في مؤلفاتهم، فمثلاً عكف على كتاب "الذريعة إلى تصانيف الشيعة" لأستاذه الشيخ الطهراني، فاستدرك ما فاته من مصنفات وما صُنِف من بعده في "مستدرك مفصل للذريعة". وهكذا فعل مع كتابه الثاني "طبقات أعلام الشيعة"، كما اهتم بكتاب "الغدير" لأستاذه الشيخ الأميني، فأنفق وقتاً كثيراً على توثيقه والاستدراك عليه وتصحيحه. وقد منعته روح الوفاء هذه أن يستقل بعمل واسع، حيث كان بإمكانه أن يفعل ذلك، لولا نزعة الاحترام العميقة التي استبدت به لمشايخه.

وعلى الرغم من أن الطباطبائي أمضى تمام حياته في أروقة الحوزة العلمية في النجف الأشرف ثم قم المقدسة منذ نعومة أظفاره، بيد أن علاقاته العلمية والاجتماعية نفذت إلى خارج هذه المؤسسة، فتوغلت في المجامع العلمية ومكتبات المخطوطات ومراكز البحث العلمي، وانبسطت على رقعة جغرافية واسعة في الشرق والغرب، تشابكت خيوطها مع طائفة من شيوخ المستشرقين والعلماء المسلمين والمحققين في مختلف الأصقاع، ولم تتحدد هذه العلاقات بحدود مذهبية أو عرقية أو إقليمية، وإنما كان طابعها دائماً خدمة التراث والتعاون العلمي في مضمار إحيائه ونشره.

ولم يتردد الطباطبائي يوماً في توثيق عرى علاقاته العلمية بسائر المؤسسات والباحثين، بغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم وبلدانهم، حتى كان نمط علاقاته مثار استفهام البعض، مما حداني إلى سؤاله في أحد الأيام عن ذلك التنوع في علاقاته، فأجابني بقوله: أنا لا أشترط العدالة في العلاقة الشخصية.

وقد لمسنا هذا بوضوح في احترامه لقناعات الآخرين وآرائهم، مع احتفاظه بقناعاته ورؤاه الخاصة، فلم يدخل مع أصدقائه ومريديه بسجالات ومماحكات وجدل يفسد الود، ولم ير أن الاختلاف في الرأي مما ينبغي أن يفسد الود.

ومما ينبغي الإشارة له أن أعظم تخليد للطباطبائي هو مواصلة طريقه، وتمثل أخلاقيته في التعامل مع الباحثين، والتخلص من نزعة الانتقاص من جهود الغير، والتحرر من إثبات الأنا بنفي الآخر. هكذا كان الطباطبائي فلنكن كذلك.

ختاماً إن حزني عليك سيّدي لا ينقضي، فان صورتك لا تكف عن معاودة الظهور أمامي، فهي تلاحقني في نومي فضلاً عن يقظتي، فإني أجدك في كل شيء؛ في مكتبتي، في أوراقي، في دفاتري، في مخيلتي، في ذاكرتي، في مؤلفاتي، التي لولاك لم يتجدد عزمي كل مرة على الاستمرار في تأليفها. ❖

محمد أبو القاسم حاج حمد مثال للاجتماع الإسلامي السوداني الذي يبتكر نموذجه الاجتهادي الخاص[1]

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

السودان بلد أنهكته الحروب الأهلية، والفقر، وفشلت حكوماته المتعاقبة في استغلال ثرواته الطبيعية، واستثمار أرضه ومياهه، في تأمين سلة حبوب ومحصولات زراعية تؤمن حاجاته الغذائية، وحاجات بلدان أخرى، لكن السودان ليست فقيرة عقلياً، مثلما هي فقيرة اقتصادياً.

إجترح التفكير الديني في السودان لنفسه مساراً نقدياً اجتهادياً، تجاوز فيه تقليد أفكار ومواقف الجماعة الإسلامية في باكستان، أو الإخوان المسلمين في مصر، أو حزب التحرير في القدس. كذلك لم يستنسخ المفكر المسلم في السودان أدبيات تلك الجماعات، وإنما حاول أن يتأمل الدين في فضاء بيئته المحلية، ويخلص إلى رؤى ومقولات يتجاوز فيها أسلوب التعليقات والشروح والتوضيحات، التي تحيل على مرجعيات مستعارة من مفاهيم: "الحاكمية الإلهية، جاهلية القرن العشرين، الهجرة، العزلة الشعورية..."، وغير ذلك من أحكام لاهوتية وقيمية وشرعية، عمّمها جماعة من منظّري الحركة الإسلامية، منذ منتصف القرن الماضي على المجتمعات المسلمة، مثل: أبو الأعلى المودودي، وسيد قطب، ومحمد قطب، وتقي الدين النبهاني...، حتى الإخوان المسلمون في السودان، لا تخلو مواقفهم من واقعيته، بعد تلوّن تفكيرهم بتجربتهم المحلية، فقد وصفوا حركتهم بـ"الجبهة الإسلامية القومية" حسب تسميتهم. وهو توصيف يشي بعبورهم الترسيمات المغلقة للعقل الإخواني الأممي الرومانسي، الذي توقف عند سيد قطب، ولم يشأ عبوره حتى بعد هيمنتهم على السلطة، وتنصيب محمد مرسي رئيساً لمصر.

اجتهد حسن الترابي في سياق إسلامي سوداني، فأنجز مراجعات نقدية لأدبيات الإخوان، وحاول أن يصوغ منظوراً بديلاً للحركة الإسلامية في السودان. بقطع النظر عن موقفنا الناقد لآرائه وسلوكه السياسي، لكن نود أن ننبه إلى أن التأويل المختلف للنصوص الدينية، ونمط الفهم المتميز لسياق الاجتماع الإسلامي السوداني، الذي نعثر على شيء من سماته في كتابات الترابي، بوسعنا التعرف على ملامحه، وصيغته المغايرة، وتأويله الخاص، في آثار محمود محمد طه، ومحمد أبو القاسم حاج حمد. ذلك التأويل الذي قاد محمود طه إلى حبل المشنقة، بعمر ستة

(١) توفي محمد أبو القاسم حاج حمد ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٤. كُتب هذا النص مقدمة للطبعة الثانية من كتابه: المنهجية المعرفية القرآنية. بيروت: دار الساقي، ٢٠١٣.

وسبعين عاماً، بعد الحكم عليه بالارتداد، وامتناعه عن الاعتذار من معتقداته، عندما خيّره القاضي بين التوبة والإعدام، فاختار الذهاب إلى الإعدام، لاعتقاده بصواب اجتهاده.

ما زال محمود طه غير معروف خارج السودان، إلا بحدود ضيقة جداً، مع أن فكره "الخلافي، الإشكالي، الخارج على الأنساق اللاهوتية والفقهية المعروفة"، يتطلب الكثير من المراجعة والتحليل والغربلة والنقد، والمقارنة مع آراء مفكري الإسلام في هذا العصر، واكتشاف الأطر الاجتماعية لتفكيره، ومنابع إلهامه، ومنهجه في استيعاب ودمج عناصر تنتمي إلى مرجعيات مختلفة، مثل: تراث المتصوفة، وشرعة الحقوق والحريات، والعدالة الاجتماعية الحديثة، وتلوين النص القرآني بواسطتها.

أما محمد أبو القاسم حاج حمد فهو الأوضح تعبيراً عن السياقات الدينية الثقافية للاجتماع السوداني، إن من حيث استلهامه لميراث ابن عربي والمتصوفة، أو عبوره للنفق الذي غرق فيه منظّرو الجماعات الإسلامية، وعدم سقوطه في الفوبيا المعرفية"الخوف"، التي أقعدتهم عن التعاطي مع المكاسب الحديثة والراهنة للمعرفة الغربية. استطاع حاج حمد أن يتغلب على كل هذه الحساسيات، ويستوعب معطيات المعارف والعلوم الإنسانية، ويصوغ رؤيته للنصوص والتراث والواقع في ضوئها.

لم يعبأ حاج حمد كثيراً بأدبيات الجماعات الإسلامية ومفاهيمها، ولم يرضخ لأفق انتظارها في التفسير، ولم ينخرط في همومها الآنية في الصراع مع الأنظمة على استلام السلطة، واختصار كل شيء في الإسلام في إيديولوجيا تعبوية نضالية. وهكذا تحرّر من مواقفها المناهضة للميراث العقلي والفلسفي والروحي في الإسلام، واشتقَّ لنفسه نهجاً ينفتح على عناصر متنوعة من المحرمات والمحظورات المعرفية، حسب آراء وفتاوى بعض الفقهاء.

أشاد حاج حمد مرتكزات "نظام معرفي قرآني"، تبعاً لما انتهت إليه تأويلاته لآيات القرآن الكريم، وظل على الدوام في تفكيره مفارقاً للسائد، وجسوراً في عبور مقولات الإسلام السياسي، فلم يتحدث عن دولة دينية، أو "حاكمية إلهية"، ولم يدعُ إلى تطبيق الحدود والقصاص والدِّيّات. بل تحدث عن "دولة علمانية ومجتمع مسلم"، وميّز بين "الحاكميّة الإلهية المباشرة"، و"حاكميّة الكتاب"، فاعتبر الأولى ترتبط بالتدخل الإلهي المباشر، أي ما يمكن التعبير عنه ب"الولاية التكوينية"، وهي تختص بالتدخل الإلهي في عصر النبي موسى، ولا علاقة لها بنمط الحكم في الإسلام. وهكذا قدّم تأويلاً بديلاً لمفهوم النسخ، فذهب إلى أن العقوبات البدنيّة الواردة في القرآن، هي حكاية عن أحكام وعقوبات منسوخة تختصّ بالمجتمع الموسوي، تتميز بها "شريعة الأصر والأغلال" التوراتيّة، وهي لا تنسجم مع "شريعة التخفيف والرحمة" القرآنية. وهكذا قدّم حاج حمد فهماً للجهاد و"شرعة السيف" حسب تعبيره، اعتبره فيه خاصاً بتطهير "الأرض المحرّمة" من الوثنية والشرك... كذلك خرج في

موارد متعددة أخرى على مشهور وإجماع الفقهاء، وتجاوز آراء معظم المفسرين، في ضوء ما رسمه من "نظام معرفي قرآني"، وكيفية التعامل مع الكتاب الكريم، بنحو أفضى به ذلك إلى مواقف خلافية، لا تتطابق مع فتاوى وأحكام المدونة الفقهية.

"المنهجية المعرفية القرآنية: أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية" كتاب ألفه حاج حمد استجابة إلى دعوة كريمة من صديقه الدكتور طه جابر العلواني، عندما كان رئيساً للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، فأقام في واشنطن ضيفاً على المعهد سنة ١٩٩١، وتفرّغ لتدوين الكتاب، وبعد فراغه منه تم استنساخه في طبعة "محدودة التداول"، وُزّعت على نخبة من الأمناء والمستشارين والخبراء في المعهد. ولما كانت رؤية المؤلف في الكتاب تتخطى الحدود المغلقة المتعارفة في تفكير جماعة "إسلامية المعرفة"، فقد فوجئوا باجتهاداته الجريئة، وارتابوا من طروحاته، وانزعجوا من عبوره المعايير والأسس التي وضعها المعهد للتفكير الإسلامي. وهذا ما جعلهم يهملون طباعة الكتاب ونشره وتوزيعه. وفي ١٩٩٢/٣/١١ أقام المعهد ندوة موسعة في القاهرة لمناقشة الأفكار الواردة في الكتاب بحضور المؤلف، اشترك فيها عشرون مفكراً وباحثاً تقريباً، منهم الشيخ محمد الغزالي. وأعرب بعض المشاركين عن عدم فهمه لما جاء في الكتاب، فيما رفض آخرون آراءه، ولم يتفهمه ويتضامن معه سوى عددٌ محدودٌ جداً من المساهمين.

لبث كتاب "المنهجية المعرفية القرآنية" اثني عشر عاماً منسياً، وبعد أن علمت به طفقت أفتش عنه، قبل لقائي المؤلّف في بيروت سنة ٢٠٠٣، فبعث لي الصديق الدكتور محمد همام بنسخته المصورة بالرونيو عبر البريد، من المغرب "أغادير"، وعند استلامي الكتاب طالعته مباشرة، فتحمست لنشره، واستأذنت الصديق الدكتور طه جابر العلواني هاتفياً، فأجاز لي طباعته وتوزيعه.

في صيف ٢٠٠٣ صدر الكتاب عن: "مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد بالتعاون مع دار الهادي في بيروت"، في "سلسلة كتاب مجلة قضايا إسلامية معاصرة". وقتئذ كنت في بيروت، نمضي ساعات طويلة أنا والمرحوم حاج حمد في منزله بـ"الشويفات"، كنت أصغي له وهو يحكي منعطفات حياته، وتكوينه الثقافي، ونشأته المشبعة بالمعنى، والإيحاء الروحي، ومناخات التصوف في السودان. وعلاقة والده بمحمود محمد طه، وكيف كان الأخير يزورهم إلى المنزل، ويمضي وقتاً في الحوار مع والده. يصف حاج حمد محمود طه بقوله: "كان متصوفاً، ذا تنسّكٍ روحي، زاهداً، بسيطاً، حيوياً، جذاباً، مؤثراً، يحتفي بالغير، يفيض دفئاً ومحبةً، يؤثر العفو والمغفرة لمن يسيء إليه، يرتدي ملابس بيضاء بسيطة، يعيش في كوخ، مع أن دخله جيد باعتباره مهندساً معروفاً...".

استضافنا أكثر من مرة، في منزله الصيفي في "دير كيفا"جنوب لبنان، صديقنا المشترك السيد محمد حسن الأمين، كنا نمضي الليل في حواراتٍ لذيذةٍ، وعادةً ما نواصل

حوارنا بعد صلاة الفجر. أتذكّر ناقشته أحد المرات في رأيه بحجاب المرأة وغيره، طبقاً لأصول الفقه ومناهج الاستنباط الفقهي المعروفة، فكان يجيبني: "يا عبد الجبّار الرّفاعي، إن مشكلتك أنت وغيرك من فقهاء الشريعة ودارسي الفقه، إنّكم لا تستطيعون التفكير خارج العقل الأصولي، لديكم مجموعة من القواعد المغروسة في أذهانكم، هي الأفق الذي تنظرون به ومن خلاله للقرآن، عقولكم لا تغادر تلك الأسس، إنها مسجونة في داخلها...".كنّا نستغرق في النقاش، ربما صدمتني وجهات نظره، فأغضب وأمضي في رفضها، ومحاجتها، لكنه يتعاطى معي بأدلّته المقابلة، وهكذا يتواصل حوارنا، من دون أن نتّفق على رأيٍ مشتركٍ أحياناً، لكنّ الاختلاف في الرأي لا يفسد للودّ قضيةً عند حاج حمد.

احتفل حاج حمد بصدور كتابه، بعد أن لبث سنواتٍ طويلةً مُغيّباً في الظلام. نشرتُ له مؤلفاته الأخرى غير المطبوعة، في "سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد". ظل يردّد: "يا أخي لك دَينٌ في عنقي لن أنساه ما دمت حياً، لأنك أقدمت بشجاعة على طباعة كتبي التي امتنع الغير عن إصدارها".

لم يرغب الأصدقاء في "المعهد العالمي للفكر الإسلامي"، بنشر كتاب "المنهجية المعرفية القرآنية"، ونما إلى علمي أن بعضهم حاول شراء كافّة النسخ المطبوعة وحجبها عن التوزيع. لا أعرف كيف تسوّغ جماعةٌ، تدّعي أنّها تسعى لتجديد الفكر الإسلامي، حضر وحجب تفكير اجتهادي في قضية إسلامية المعرفة، لأنّه لا يكرر آراءها في هذه القضية الإشكاليّة.

أنا شخصياً لا أتفق مع الصديق حاج حمد في الكثير من أفكاره، ولديَّ ملاحظاتٌ نقديّة على مقدماته المنهجيّة، والنتائج التي تفضي إليها. خاصة كتابه هذا، الذي يتأوّل فيه النصوص ويلوّنها، بشكل يطمح فيه أن يكتشف منهجاً معرفياً بديلاً، مشتقاً من القرآن، وموازياً للمناهج المعروفة في فلسفة العلم. بالتوكؤ على مفاهيم مستعارةٍ من ابن عربي وغيره من المتصوفة، مضافاً إلى مفاهيم مدرسة فرانكفورت وحلقة فيّنا. ومزج التصوف بفلسفة العلم والعلوم الإنسانية.

أنها محاولة لا أشك بجديتها وجرأتها، ومغامرتها بالحراثة في أرض غير محروثة، لكنها تخلط بين عناصر تنتمي إلى شبكات مفاهيمية متباينة، وتكرّس مطامح وأحلام الخصوصية والهوية والذاتية، ببناء يبدو فلسفياً قرآنياً منسجماً، لكن تحليله منطقياً وتفكيكه يشي بتهجين مفاهيمه وتناشزها. ليس هنا محل بحث رأيي في إسلامية المعرفة، فقد تناولتها بالنقد والتحليل، في فصلٍ خاص من كتابي الجديد "إنقاذ النزعة الإنسانية في الإسلام"، تحت عنوان: "إسلامية المعرفة قضية إيديولوجية من دون مضمون معرفي".

❖ مع كل هذه الملاحظات وسواها على المنجز المعرفي للمرحوم حاج حمد، غير أني حرصت على رعاية إنتاجه الفكري ونشره ودعم صاحبه، ذلك أن هذا الإنتاج يعبّر عن محاولة

جادة لتحديث التفكير الديني في الإسلام، وأنه اجتهاد في مجتمع لا يألف الرأي الجديد، بل يمارس على الدوام الإضراب عن التفكير. والمعرفة في مختلف أنواعها لا تتكامل باستمرار، إلا من خلال العبور من الخطأ إلى الصواب، أي أن "الديناميكية العلمية لا تسير بحسب نمط تراكمي، بل هي سلسلة لا متناهية من التكذيبات المتتالية، إلى درجة أنَّ تاريخ العلم يغدو: مقبرة نظريّاتٍ علميّةٍ"، كما يقول كارل بوبر.

حاج حمد لا يقتصر في اجتهاده على إنتاج رأي جديد، وبناء مفاهيم مختلفة، وإنما يسود كتاباته ثراء لغوي، وتتميز بمعجم اصطلاحي يختص به، يتألف من مصطلحات نحتها هو، أو استقاها من غيره، ودمجها كعناصر تكوينية في بنية النظام المعرفي الذي صاغه. نتمنى أن يتناول الباحثون جهوده بالدراسة والتحليل والنقد، فآثاره تتسم بأنها: غنية، مكثفة، تركيبية، جريئة، وهي خصائص تفتقر إليها الكثير من آثار بعض المفكرين، التي تدرسها عشرات البحوث والرسائل الجامعية.

وفيما يلي نموذج من معجمه الاصطلاحي، وشيء من ثنائياته المتقابلة، استقيناها من بعض مؤلفاته، بغية اكتشاف مفاتيح النظام المعرفي الذي يبشّر به: (العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، الجدلية الثلاثيّة، التفاعل الجدلي، المنطق الجدلي، جدل الغيب، جدل الإنسان، جدل الطبيعة، علاقة جدلية، علاقة تداخل، علاقة حلول، علاقة تضاد، عالمية الإسلام، الرؤية الكونية التوحيدية، كونية القرآن، عالمية القرآن، الجمع بين القراءتين، القرآن معرفة معادلة للوجود الكوني، منهجية القرآن المعرفية، إطلاقية القرآن، الاسترجاع القرآني النقدي التحليلي للمورث الديني، الدلالات الوسيطة في اللغة القرآنية، البنائية القرآنية، البناء الكوني اللامتناهي للقرآن، الوحدة العضوية للقرآن، المنهجية الضابطة للقرآن، الحفر الألسني، الاستيعاب"التصديق"، التجاوز"الهيمنة"، منهجية الخلق، منهجية التشيؤ، التشيؤ الطبيعي، الحاكمية الإلهية المباشرة، حاكمية الكتاب، حاكمية الاستخلاف، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، الفكر الديني التاريخي، قراءة تركيبية، الدينونة، الأمة الوسط، فكر المقارنات، فكر المقاربات، التوفيقية، الانتقائية، التلفيقية، النسق الخاص، الكتاب الكوني المطلق، التدافع العربي ـ الإسرائيلي، المناهج والأنساق الحضارية، خارطة الأنساق الحضارية، الإرادة الإلهية، عالم الأمر والنهي، الاستلاب، الهيمنة، التجاوز، الاستيعاب المزدوج، العقلية النافذة، الغاية التكوينية للخلق الكوني، المشيئة، الفعل المنهجي، المعالجة النقدية، النسق المعرفي، الحفر المعرفي، التحرر المعرفي، المتغير النوعي، القطيعة المعرفية، التفكيك التاريخي والتراثي، لاهوت غيبي جبري، مادية طبيعية جبرية، طريق التنزل، طريق التطلع، تاريخانية النص، اللحظة الجدلية، الناظم الكلي، الثنائية المتقابلة، المنطق التفكيكي الأبستمولوجي،

المنطق اللاهوتي، المنطق الوضعي، الجدلية الثلاثية، التطور التفكيكي، استلاب الإنسان، التاريخانية توظيف علمي تفكيكي، الجعل الآدمي، التعددية، المسكوت عنه دينياً وتاريخياً، النصرة الإلهية، التدخل الإلهي، التدخل الإلهي الموسوي/ الحسي، التدخل الإلهي المحمدي/الغيبي، الأمة الوسط، الفشل الحضاري، الغاية الكونية، الوعي الكوني، التحييد العقلي، الارتباك النفسي، الانفصام الذهني، أزمة فراغ روحي، الصيرورة، الجدل، الاحتمالية النسبية، الاستيعاب المزدوج، الأنساق الحضارية، دراسات توفيقية، دراسات تلفيقية، دراسات وسطية، دراسات استعارية، دراسات تأصيلية، النهايات المادية، الوجودية الوضعية التائهة، عالم الأمر المطلق، عالم الإرادة النسبي، عالم المشيئة الموضوعي، الحضور الإلهي، القيومية الدائمة، مجمع البحرين، مستويات الفعل الإلهي، الجبرية اللاهوتية، ثنائية العقل والتجربة، الاصطفاء الإلهي، الاصطفاء البشري، الاصطفاء المكاني، منطق التعارف، عالمية الخطاب، شرعة التخفيف والرحمة، شرعة الأصر والأغلال، الانغلاق العصبوي، التوريث، تاريخانية التفاسير، التجديد النوعي، الاجتهاد الكمي التراكمي، الاجتهاد النوعي المعرفي المنهجي المعاصر، إشكاليات النظر التقليدي، النبي الأمي، الحقبة النبوية، النصرة الإلهية، التدخل الغيبي، عالمية الأميين غير الكتابيين، الأرض المحرمة، عالمية الخطاب، الخطاب الاصطفائي الحصري، الخطاب العالمي، التصور الإبراهيمي، التأسيس الإسلامي الإبراهيمي، الطور العقلي الأول" الإحيائية"، الطور العقلي الثاني"الثنائيات المتقابلة"، الطور العقلي الثالث"وحدة القوانين الطبيعية والإنسانية"، الأرض المقدسة، الأرض المحرمة، شرعة السيف، الخطاب الإلهي الحصري الاصطفائي، الخطاب الإلهي العالمي، الأسلمة التعسفية، الأسلمة المفتعلة، الحق، الخلق، النفي).

لائحة المصطلحات هذه تستوعب عناصر تحيل بعضها إلى تراث التصوف، فيما يحيل بعضها الآخر إلى فلسفة العلم، وفلسفة التاريخ، وفلسفة اللغة، ومختلف العلوم الإنسانية. وهي نموذج للمعجم الاصطلاحي لحاج حمد، الذي يدلّل على موهبته العقلية في إبداع لغته وبيانه الخاص، والتحرر من وصايات أدبيات الجماعات الإسلامية، وآرائها ومقولاتها: الوعظية، الشفاهية، المبسطة، الهشة.

رحم الله الصديق محمد أبو القاسم حاج حمد، العصامي، الذي علّم نفسه بنفسه، الكائن البشري الجميل الروح والقلب، الذي يفيض رقةً ودفئاً، ومشاعر وعواطف بريئةٍ، ذا الوعي المتوهج، والعقل المضيء، المفكّر المستنير، المثال الرائع للاجتماع الإسلامي السوداني، هذا الاجتماع الذي يبتكر على الدوام نموذجه الاجتهادي الخاص.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

بغداد في ٢٠١٣/٣/١

كامل شياع متصوّف خارج إطار الأديان(١)

د. عبد الجبار الرّفاعي

تعرّفت على المرحوم كامل شيّاع العام ٢٠٠٤ في بغداد، بعد عودتي إلى العراق، من خلال الصديق هشام داود، وكنت قبل عشر سنوات لمحت اسم كامل في هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) وبعض النصوص المنشورة في (أبواب) وقادني الفضول المعرفي لقراءة تلك النصوص الممضاة بتوقيعه، فبهرني بيانه والرؤيا الشاملة التي تتسع لها مفهوماته وأفكاره. ومنذ اللقاء الأول وجدت نفسي قريباً من شخصية كامل شيّاع الدافئة، الحميميّة، المتأمّلة، العميقة، الحكيمة، وألفيت مشاعري لا تكف عن الانجذاب إليه والتواصل معه على الدوام، وكنت أتساءل: ما الذي يجعلني تواقاً إلى هذا الإنسان، ولماذا كل هذا الزخم العاطفي الذي يقودني إليه كلّما ابتعدنا جغرافياً، أو غرقنا في لجة المشاغل ومتطلبات العمل؟

بالرغم من إني عشت في عدة منافٍ، وزاملت مختلف الناس في دراستي وأعمالي ووظائفي، غير أنّي قلّما عثرت على إنسان مفرطٍ في إنسانيته، ويجسد في رؤيته للحياة وسلوكه كل ما قرأته في مقولات التصوف الفلسفي مثل كامل. كنت أحسب أن نموذج الإنسان الذي ينشده ابن عربي في (فصوص الحكم) وجلال الدين الرومي في (المثنوي) هو نموذجٌ مثاليٌّ متعال على الزمان والمكان، غير بشري، حتى عاشرت كاملاً فعثرت على الكثير من خصائص الإنسان لديه.

لم تدهشني مناقبية وأخلاقيات ومعنويات إنسان أدمن في حياته الارتياض الروحي، وغرق في الطقوس، واعتكف بعيداً عن ضجيج الحياة، لتأديب نفسه وتنمية ضميره ومعنوياته، مثلما يفعل المرتاضون من المتصوفة والعرفاء والرهبان، لكن فوجئت حين عثرت على إنسان لا تعنيه الطقوس، ولم يرهق نفسه ويعذب بدنه في الإرتياض الروحي، ولم يعتزل في صومعته، إلا أنه طوى مدارج السالكين وارتقى إلى مقامات متسامية في قوس الصعود (حسب العرفاء) من دون أن يترسم ذلك الدرب، عندها أدركت إن التجارب المعنوية تتعدد وتتنوع بتنوع الأشخاص، ولا تُختصر في نمط واحد، كما تحكي ذلك لنا سيرة القدّيسين في الحياة.

---

(١) قُتل كامل شياع ببغداد في ٢٠٠٨/٨/٢٣.

ربما يعترض المرحوم كامل لو كان حياً، أو يعترض بعض رفاقه، على مقاربتي الروحية لشخصيته، ذلك أن التجارب الروحية حدودها الأديرة والصوامع والمعابد، كما يحسب اللاهوتيون، وان كان ما يقوله العرفاء لا يتطابق مع ما يراه اللاهوتيون، إذ تغدو الحياة لديهم ميداناً رحباً يتسع لظهور وتطوّر أعمق التجارب المعنوية. وهو الموضوع المتكرر في حلقاتنا النقاشيّة العفوية أنا والمرحوم كامل، فقد كان يود أن نتحدث في الأديان ورهانات العصر، وفلسفة الدين واللاهوت الجديد، وضرورة توظيف مكاسب العلوم والمعارف الحديثة في دراسة الأديان وتجلياتها في الاجتماع البشري. وكان يرفدني بمطالعاته في هذا المجال وإعجابه بكتابات الفيلسوف الإيطالي (جياني فاتيمو) ويشيد بآرائه الحرة والجريئة في فلسفة الدين وقضايا اللاهوت، ويشدد على ضرورة تعريب مثل هذه الآثار ونشرها. وكنا نتفق على أن إصلاح الفكر الديني وإعادة بناء علم الكلام هو منطلق كل مسعى للإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتربوي والتعليمي في بلادنا، فإن الدين هو الفاعل الأهم في مجتمعاتنا، وهو المحرك الأبدي في ماضينا وحاضرنا.

وكان يطمح لخلق مبادرات عملية في هذا المضمار، وعندما اقترحت عليه إصدار مركز دراسات فلسفة الدين لسلسلة كتب تشيع (ثقافة التسامح) وتستدعي ما هو مضمر ومسكوتٌ عنه في جوهر الأديان، أصر على أن تدعم وزارة الثقافة هذه المبادرة، وحمل هذا المقترح إلى وزير الثقافة وقتئذ الصديق مفيد الجزائري، الذي تحمّس للمشروع، وبادر بتخصيص الدعم المناسب له، وأصدرنا معا اثني عشر كتاباً تعالج قضايا العيش سوياً، والحوار بين الأديان والثقافات، وإرساء قيم الاختلاف واحترام الآخر، والاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة، وترسيخ العقلية الحرة المنفتحة، وتجاوز العقلية السكونية المغلقة.

في المدة التي أمضيناها معا في وزارة الثقافة ظل كامل متفانياً في عمله طيلة نهارات بغداد القاسية الحرارة، وغالباً ما كان يخرج من الوزارة بعد حلول الليل، حينما تتعذر الحركة، عند فرض حظر التجوال، ومع انهماكه بمهامه الوظيفية، ومسكه لأهم الملفات، وإدارة وتوجيه الأنشطة والفعاليات، في ظروف أمنية بالغة الخطورة، وأوضاع استثنائية قاهرة، تبعث الإحباط وتعزّز الشعور باللاجدوى والخيبة لدى معظم الموظفين في دوائر الدولة أو المؤسسات الخاصة، لكنه ظل يسعى باستمرار لصياغة آمال جميلة لمستقبل العراق، وابتكار عالم مشبع بالأحلام والرؤى المتفائلة لما يمكن إنجازه في

مثل هذه الظروف، مما يدعو المحيطين به إلى المزيد من الثقة والطمأنينة بمستقبل البلد وحاضره. وكنت في كل مرة أشعر بالاختناق، وانسداد الآفاق، والقلق على مصير العراق، يخلصني من تلك المرارات، وأتغلب على قلقي بأفكاره الهادئة، واستشراقه للمآلات، وصبره وجلده وتفانيه الذي يبحر بواسطته نحو شواطئ الأمان.

لا يتحدث كامل شياع، وهو ممن يتقنون فن الإصغاء لمحدثهم، وحينما تدعوه للكلام تراه يفيض رقة ودفئاً، ويطرح وجهات نظره على شكل مقترحات، وآراءه كفرضيات محتملة، مع وفرة ما يسوقه من تفسيرات وتوضيحات وبراهين عليها، وعادة ما يبدي إعجابه بما تقوله، وإن كنت تتقاطع وتختلف مع رأيه، تجد نفسك مرغماً على تبني وجهة نظره في خاتمة المطاف. وقلما تحضر ذاته في أحاديثه. وعندما يتعرض للغبن والإجحاف من بعض الأشخاص كان لسانه يتعفف عن ذكر من آذاه أو ظلمه، ولا يبوح بظلامته وتعسف الغير بحقوقه. إنه يعمل بصمت، ويتغافل عن العوائق والعقبات الموضوعة في طريقه، وكأنها لا تعنيه.

لقد تعلمت من كامل شياع دروساً في المواطنة كرست انتمائي للعراق، مثلما تعلمت منه المثابرة على الإنجاز، والانهماك في العمل، وافتعال الآمال والأحلام، ذلك أن الحياة من دون حلم جميل لا تطاق. واستلهمت روحه المرحة الايجابية التي لا تصغي لصخب الإنفجارات، ولا تعطلها شتى التداعيات والاختلالات عن المضي حتى النهايات، ولا تهرب أو تستسلم مهما كان حجم المتاعب والأوجاع والانهيارات، وتصر على حشد جميع الطاقات من أجل تحرير مستقبلنا من ماضينا وتحرير ماضينا من مستقبلنا، حسب تعبيره.



الرؤية النقدية الإنسانية في تفكير السيد فضل الله[(١)]

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

في مطلع السبعينيات من القرن الماضي وعندما كنت طالباً في بغداد تعرفت على فكر السيد محمد حسين فضل الله، عبر كتابه (أسلوب الدعوة في القرآن) والافتتاحية الثانية لمجلة (الأضواء)، إذ كانت الافتتاحية الأولى تحت عنوان (رسالتنا) يكتبها السيد الشهيد محمد باقر الصدر، وعادة ما كانت الأضواء تعززها بافتتاحية لاحقة، بعنوان (كلمتنا). وميزة (كلمتنا) هي ما يتصدر النص من عبارة قصيرة مكثفة، بمثابة لافته يصوغها السيد فضل الله، مثل (العمل أولاً)، (التجرية أبداً) وغير ذلك، وتتمحور المادة المكتوبة حول هذه اللافتة الشعار، ولا تنشغل باستلهام الماضي، أو الحديث عن أمجاد الأمة، وتفوق صحابة النبي(ص) وعصرهم على ما سواه من عصور لاحقة، كأن حركة التاريخ فيها تراجعية، تنحط دائماً وتتقهقر، حسبما صوره لنا سيد قطب فيما أسماه (جيل قرآني فريد) في كتابه (معالم في الطريق)، الذي أغرقني في سلسلة من الأحلام واليوتوبيات، حينما طالعته قبل ذلك بعامين.

كان هاجس كتابات فضل الله هو الراهن، وما يحفل به الاجتماع الإسلامي من تناقضات وملابسات ومشكلات، فيسعى إلى اكتشافها وتحليلها ونقدها. لم يقع أسير تمجيد السلف، والثناء على أخطاء التاريخ، والانشغال بتحويل الهزائم إلى انتصارات، وتقديس كل ما يتضمنه التراث، وإنما تسلح بمنظور نقدي حجاجي، لا يخشى من مقاربة الموروث والواقع برؤية تحليلية نقدية، والوقوف على ما يكتنفه من ثغرات بكل جرأة.

لا يكف السيد فضل الله في محاضراته وخطبه وكتاباته عن النقد والمراجعة، وقد تعلمت منه مثلما تعلم غيري من شباب الحركة الإسلامية وقتئذ، التفكير النقدي، والمغامرة في إثارة الاستفهامات، فقد كان مسكونا بالتساؤل، وظل يشدد على ضرورة طرح الأسئلة، ويحث على أن السؤال مفتاح المعرفة، وما من سؤال إلاّ وله أجوبة. لقد خرجت من السجن المعرفي الأول بمطالعتي لآثاره.

---

(١) توفي المرجع السيد محمد حسين فضل الله في بيروت نهار الأحد ٢٠١٠/٧/٤.

منذ أن التقيته للمرة الأولى قبل ثلاثين عاماً تقريباً، كان يحثني على المضي بتحديث التفكير الديني، وطالما حدثني عن تجاربه الخاصة في هذا المضمار، وما واجهه من رفض واستنكار وتقريع وتشهير وممانعة. وحتى في زيارتي الأخيرة له قبل شهرين، لم يمنعه تدهور حالته الصحية، ووهن قواه البدنية، من الحديث عن خطواته الأولى في الحوزة العلمية في النجف الأشرف قبل ستين عاماً، ومسعاه للإصلاح والتغيير بمعية السيد الشهيد مهدي الحكيم ومجموعة من زملائه يومئذ.

كان يتطلع إلى النجف، ويعلق عليها الكثير من الآمال في نهضة الأمة، ويحث على التواصل مع المصلحين في الحوزة العلمية فيها واستلهام رؤاهم ومواقفهم، كالسيد محسن الأمين، والشيخ محمد رضا المظفر، والسيد محمد تقي الحكيم، والسيد الشهيد محمد باقر الصدر.

فيما استمعت منه وقرأت له وجدت النزعة الإنسانية تسود تفكيره الديني، فهو يدعو إلى ما يصطلح عليه بـ (دولة الإنسان)، ويؤشر على الأبعاد الإنسانية في الدين، ويمكننا العثور على فتاوى متعددة في مدونته الفقهية، ربما خالف فيها المشهور، تحيل إلى المنحى الإنساني في تفكيره الفقهي، كما في فتواه المخالفة للمشهور بـ (طهارة مطلق الإنسان).

وقبل عشرة أعوام ناقشته في فتوى (سن بلوغ الفتيات بعمر تسع سنوات) وأشرت إلى الأبعاد البيولوجية الطبيعية والسيكولوجية للبلوغ، وكذلك الأبعاد الاجتماعية، وما يرتبط بذلك من وجود بعض الفتاوى في التراث الفقهي تنص على أن سن بلوغ الفتاة هو ١٣ أو ١٤ أو ١٥ سنة، كما أشار لذلك الشيخ الطوسي في المبسوط وغيره من الفقهاء. وقلت له: سيدنا إن تكليف الفتاة بعمر تسع سنوات قد يفضي إلى التكليف بما لا يطاق، خاصة في القرى والأرياف مع عمل الفتيات بالفلاحة تحت الشمس في القيظ، ونهار الصوم يتجاوز ١٦ ساعة. فأجاب: أعدك بأني سأبحث هذه المسألة بدقة وعمق، وأحاول أن أخلص إلى موقف فقهي مستدل فيها. وعندما زرته بعد عام من ذلك التاريخ أهداني كتابه في (بلوغ الفتيات) الذي قرر فيه المدارك الفقهية والأدلة لفتواه البديلة بسن البلوغ الشرعي المتناسب مع سن البلوغ الطبيعي البيولوجي والسيكولوجي للفتاة.

وهكذا اهتم بآراء الخبراء في الفلك، واعتمد على خبرتهم في تحديد بداية الشهور القمرية والصوم والعيدين الفطر والأضحى. كما اتسم تفكير السيد محمد حسين فضل

الله بمواقف نقدية صريحة، واستيحاء للنزعة الإنسانية، وتوظيف شيء من المعطيات العلمية، في تفسيره وفقهه ومواقفه وآرائه وعلاقاته الاجتماعية .

في عام ١٩٨٣ تشرفت بحج بيت الله الحرام قادماً من الكويت، وأتيحت لي الفرصة بلقاءات متعددة مع السيد فضل الله، وكان يستغرق في الحديث عن الآفاق المستقبلية للحركة الإسلامية، وما ينبغي عليها أن تنجزه من مهمات عاجلة، ويعرب عن ثقته بدور الأجيال الجديدة في تطوير أداء الحركة، ومراجعة مسيرتها، ونقد تجربتها. وفي تلك الفترة كنت عضواً في لجنة الكويت لحزب الدعوة الإسلامية، ومسؤولاً عن تحرير الجريدة الداخلية للحزب، فطلبت منه رفد هذه الجريدة بموضوع، يتناول تصوراته وآراءه وما يشدد على إشاعته من مقولات ومفاهيم، تمثل معالم على طريق الدعوة والدعاة، فوعدني بإنجاز الموضوع وإرساله بعد مدة وجيزة، وبالفعل تسلمت المادة بعد أسبوع من وصولي، فنشرتها في الجريدة الداخلية، وساهمت رؤى السيد فضل الله الحركية في حينها بإضاءة وعي الدعاة وقادتهم للحوار والمراجعة والتأمل والتفكير.

وقادت أفكاره وحفرياته في التنقيب في التراث والإشارة إلى أعماقه، الكثير من الإسلاميين للتفكير التأملي، وزعزعت طائفة من قناعاتهم ومواقفهم، وأقحمتهم في مجالات معرفية لم يفكروا بها من قبل، ومنحتهم القدرة على إثارة أسئلة مباشرة، فيما يتصل بطائفة من القضايا والمسائل الهامة، ودشنت حقولاً جديدة للمجادلة.



لقاء بعد فوات الأوان[١]

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

شارع المتنبي هو المكان الأول الذي زرته حين عودتي إلى بغداد، بعد غياب قسري عن بلدي تواصل ربع قرن تقريبا، وكانت مكتبة عدنان هي محطة استراحتي في المتنبي، والمرحوم الصديق عدنان الجادري مهتم بالكتب التنويرية، ويحتفظ بشبكة علاقات واسعة مع معظم الباحثين والأكاديميين والمثقفين والأدباء والفنانين من رواد الشارع، ويتعاطي مع الجميع بحميمية ومرح، وعادة ما يبادر بتعريفي عليهم، ذلك ان غيابي الطويل عن العراق منعني من اكتشاف الموهوبين والمبدعين والعلماء في وطني، فأعاد عدنان ما أنقطع من حبال الوصل مع أهلي، ومنحني معلومات متنوعة بخارطة المشهد الثقافي العراقي، وكان يحرص على الحديث عن المؤلفين وكتاباتهم وتخصصاتهم، بأسلوب لا يخلو من رؤية نقدية وتقويم، وفي احد ايام الجمعة سنة ٢٠٠٤ دخل المكتبة رجل تبدو عليه هيبة العلماء، وهالة الروحانيين، يحمل بيده عدة كتب، فاحتفى به المرحوم ابو ياسر، وأصر عليه ان يجلس وبدأ يحدثني ويقول: اعرفك على الأب الدكتور بطرس حداد، من أبرز علماء العراق، وريث جيل العمالق من الآباء المؤسسين للحركة الفكرية الحديثة في العراق، فإنه مضافا إلى تخصصه في اللاهوت والتاريخ وأدب الرحلات، يتقن عدة لغات يترجم منها إلى العربية، ويترجم أحياناً من العربية إلى الإيطالية وغيرها،وظهر على الأب حداد الحياء، وأشار بكلمات دافئة: انه طالب علم، وهو خادم للعلماء، ورسالته في الحياة فعل الخير للبشرية، وإشاعة قيم التسامح والعيش المشترك، ثم أهداني رحلة ترجمها عن الإيطالية، وطبعها أخيرا، ووشحها بإهداء جميل، وأبدى رغبته في ان نلتقي في الأيام القادمة، غير إني اضطررت للعودة ثانية من حيث أتيت، اثر تفشي العنف، وحاولت التردد عدة مرات في الأعوام التالية، من أجل الاستمرار في إصدار سلسلة كتاب (ثقافة التسامحي) وتوطين مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد، وسعيت بجدية لبناء علاقات تعاون مشترك مع من يحملون همومي وتطلعاتي وأحلامي، في إشاعة ثقافة احترام كرامة الكائن البشري، وتمجيد الحياة، وتجلية الأبعاد الإنسانية والقيمية والمعنوية والجمالية للدين، فتعرفت على الأستاذ سعد سلوم، الذي فاجئني بمجلته الرائدة (مسارات) في مضمونها وشكلها، حينها شعرت أن حلمي بعراق مختلف بديل لعراق العنف والموت والتخلف، هو حلم مشروع، مادام فيه شباب يكسرون الصخر بأسنانهم لينحتوا لنا منه وطننا ينخرط في العصر، ويستوعب معطيات المعارف الراهنة، ومكتسبات البشرية في الحقوق والحريات، قادني سعد سلوم لاكتشاف عالم مشبع بالمعنى، تعرفت فيه على عدة علماء من الآباء، كالصديق

(١) الأب بطرس حداد راعي خورنة سلطانة الوردية في بغداد، توفي ببغداد في ٢٠١٠/١١/٢٦.

الرائع الأب يوسف توما، وتحول سعد إلى بوصلة إرشادية تهديني إلى الشخصيات المعنوية الروحية النبيلة، وطالما تحدث لي عن الأب بطرس حداد ونزعته الإنسانية العميقة، وتكوينه العلمي المميز، وتجربته الدينية العميقة، وضرورة تواصلي معه، واتفقنا أكثر من مرة على زيارته للكنيسة، بيد أن أسفاري المتكررة، ومفاجآت الزمن البغدادي اليومية، حرمتني إلى الأبد من امتلاك صداقة بإنسان أرى في روحه ما افتقده من معنى قيمي إنساني لدى الكثير من رجال الدين، إلا أن العزيز سعد سلوم ما لبث مسكونا ببناء علاقة بيني وبين الأب بطرس، ربما لإدراكه بأهمية ترسيخ أواصر التعاون بين دعاة التدين الإنساني في العراق، من مختلف الأديان، وحاجة البلد الملحة لذلك، فهاتفني في الأسبوع الأخير من حياة المرحوم حداد، وكنت ساعتها في مطار أحد الدول المجاورة، فقلت له إني أترقب صعود الطائرة للعودة، وسأصل إن شاء الله بعد ساعتين إلى بغداد، فقال هناك قضية عاجلة أرجو ان تفكر بالسعي لمعالجتها، وهي ان الأب بطرس حداد يرقد في مستشفى الراهبات، وهو في حالة حرجة، فأجبته سأهاتفك عند وصولي بغداد، لنفكر معا بإنقاذه، وبالفعل هاتفته فور هبوط الطائرة، وبعد أن استفاض في شرح حالته، وعدم توفر جواز سفر لديه ليمكن ترحيله إلى مستشفيات روما أو غيرها، وضرورة اتخاذ تدابير عاجلة، اقترح نقله إلى مستشفيات كردستان، ريثما يتحسن لينقل إلى مستشفيات أوروبية، فهاتفت الأخ الأستاذ فخري كريم، المعروف بغيرته وتضامنه مع جراحات المثقفين ومعاناتهم، فأجابني بأنه سيتحدث مع رئيس الجمهورية السيد جلال الطالباني بذلك، وبعد فترة وجيزة أخبرني بأن رئيس الجمهورية أوعز بنقل الأب حداد إلى أفضل مستشفيات كردستان، وتأمين كافة متطلباته، فأبلغت الأستاذ غالب مدير مستشفى الراهبات بذلك. ويبدو أنهم آثروا التريث من أجل نقله إلى مستشفيات روما مباشرة، وذهبت إلى زيارته قبل يوم من وفاته، احمل له باقة أزهار، تحمل بطاقة محبة، كتبت عليها: "إلى وريث علامة العراق الأب انستاس ماري الكرملي، الدين هو الحب والحب هو الدين، أتمنى لك الشفاء العاجل، وآمل الا يقترب منك الحزن، فإن من يستبد به الحزن لا يليق بمائدة الحق".

ووجدته بحالة صعبة لكنه يبتسم لمن حوله، وأحسست أن غرفته في المستشفى مشبعة بالأمل والمعنى، ودخلت غرفته امرأة خمسينية، عرّفت نفسها بأنها مدرسة في ثانوية مسيحية ببغداد، وأنها من مريداته منذ سنوات، أتت لزيارته عرفاناً لما منحه لحياتها من معنى، وأشارت إلى أنها تذهب للقداس لتدعو له بالشفاء، وتفوهت بعبارة مؤلمة، فقالت: "أنت كما أنا كلانا غريبان وحيدان هنا في حياتنا، غير أن الله معنا، بجوارنا". خلعت هذه السيدة على الفضاء المحيط بنا رقة وحميمية، عبر كلماتها الموحية، ووجهها المضيء، كأني أرى فيها صورة مريم العذراء، لن أنسى صوتها وإيقاع نغماته التي يفوح منها الدفء والحنان.

اسطنبول ٢٠١٢/١٢/٣

فصل من تاريخ الحركة الإسلامية في الرفاعي

ذكرياتي مع صديقي المرحوم الشيخ عبد الصاحب الواسطي

د. عبد الجبار الرفاعي

قبل أربعين عاماً تقريباً تعرفت على المرحوم الشيخ عبدالصاحب عودة الواسطي، حينما كنت أتردد على الرفاعي، قادماً من بغداد أو عائداً إليها، في طريقي إلى أهلي في القرية، فبعد وصولي المدينة أذهب كي أصلي الظهر في المسجد خلف الشيخ، وعادة ما نلتقي بعد الفراغ من الصلاة، فنتحدث بشأن الحالة الدينية في الرفاعي ووظيفتنا معاً في تنميتها وتعزيزها.

كنت ومجموعة من الشباب وقتئذ منخرطين في هموم الحركة الإسلامية، أتذكر منهم الشهداء ياس خضير الجبوري، وجبار ناصر الشويلي، وعبد الأمير فرهود الركابي، وفالح القرغولي... ومن الأحياء حسين علي البهادلي، ورشيد باني الظالمي، وعبد العباس كاظم، وكاطع نجمان الركابي...، وكنا حريصين على نشر وتعميم الوعي الديني بين تلامذة المرحلة الإعدادية المتدينين، مثل الشهيد حسام حميد الصريفي، وزعيم فيصل الخيرالله، وعباس خضير الجبوري، وإبراهيم خضير الجبوري، وماجد ارزيج العقابي، وخالد فرهود الركابي، وعماد عبدالجليل، ونجيب عبدالحسن، وعجمي بشيت..وغيرهم، والنخبة من المعلمين والمدرسين الإسلاميين، من الجيل الذي يكبرنا، مثل المرحوم عزيز خضير حيدر، وفائق ارزيج العقابي، وهاشم حسين، وعيسى حسن..وغيرهم من أبناء الرفاعي، وحثهم على مطالعة الكتابات الإسلامية الجادة، وتوفير المؤلفات المنوعة للسيد الشهيد محمد باقر الصدر وغيره، ودعوتهم لإعادة افتتاح المكتبة الإسلامية في الحسينية للمطالعة، المغلقة لسنوات عديدة. كان إيقاع حراكنا الاجتماعي حاداً منفعلاً، ونشاطنا الديني جريئاً مكشوفاً، لا يخلو من مغامرات، وتفكير بصوت عال، يستفز الجيل الأكبر منا، ويثير قلقهم وخشيتهم منا وعلينا، من عيون نظام البعث، وبطش السلطة وملاحقتها وترصدها بمن يعارض حزب البعث أو يفكر خارج منظومته الديماغوجية المغلقة.

أدرك الشيخ عبدالصاحب بحدسه الفطري إننا نقلد السيد الشهيد محمد باقر الصدر، ونرتبط بمرجعيته، وننتمي إلى تيار ديني سياسي محضور، بالرغم من تكتمنا الشديد على ذلك. وألمح لي غير مرة برقة ودفء، بأني وزملائي نغامر بمستقبلنا، ونعرض أنفسنا للملاحقة والاعتقال. كان شديد الخشية علينا، لكنه ظل يدعمنا، ويصغي إلى مقترحاتنا، ويتداول معنا الشأن الديني في المدينة. كما تفهّم مشروعنا بتوجيه أهل الرفاعي لمرجعية الشهيد الصدر، وتهيئة المتطلبات الاجتماعية والأرضيات اللازمة لاستقبال وكيله في المدينة، ولم يحدث أية ضوضاء أو ردود أفعال سلبية أو مواقف مناهضة، حين علم بذهابنا، أنا وبعض الأخوة إلى النجف الأشرف، وطلبنا من الشهيد الصدر إرسال أحد تلامذته

للرفاعي، وسعينا المتواصل، وإلحاحنا على السيد الشهيد بضرورة تأمين مظلة تمثله، توفر حماية اجتماعية دينية لجهود ونشاطات الشباب الإسلاميين، وتهتم بترشيد حركتهم. وكنا بحاجة ماسة إلى دعم ورعاية وجهاء المدينة لمساعينا، إلا أن قسوة نظام البعث، والحصار المكثف على مرجعية الشهيد الصدر ومراقبة تلامذته، وأي شخص يرتبط به، حال دون تجاوب بعض الوجهاء معنا، ماخلا الوجيه الحاج علي خضر البهادلي، والأستاذ عزيز خضير، اللذان بادرا ببسالة وشجاعة وجرأة باستضافة وكيل الشهيد الصدر وعائلته، فمكث "الشيخ عبد الحليم الزهيري"، في منزل الأول، فيما احتضن منزل المرحوم عزيز خضير حيدر "عائلة الشيخ الزهيري"، في شهر رمضان، فتحول بيت الحاج علي إلى منتدى ديني وثقافي واجتماعي لمرجعية الشهيد الصدر، يتوافد عليه مختلف الناس ليلا ونهارا، ويمكث فيه ليلا حتى السحر بعض الشباب، حول الشيخ الزهيري، يستمعون إلى إجاباته عن أسئلتهم المتنوعة، وينشدون حلا للكثير من مشاكلهم، ويبوحون بآمالهم وأحلامهم وآلامهم. وفي صلاة الظهر يزدحمون في المسجد للصلاة خلفه، ومواصلة أحاديثهم الليلية معه.

حافظ الشيخ عبدالصاحب على موقفه المتوازن الهادئ، ولم تفتر علاقتنا به أو تتراجع. وكان قد احتفل قبل ذلك بمعية مجموعة من طلاب الإعدادية بالفراغ من تدريسهم كتاب "منهاج الصالحين" الرسالة العملية للسيد الخوئي. ولم يصدر منه أي موقف تحريضي أو استنكاري ضدنا، مع انه واصل تنبيهنا بلطف، فكان يوصينا بالاحتراز واليقظة من بطش الأمن وفاشستية حزب البعث. وقد أثار دهشتي في أحد الأيام حين أسر إلى أحد الإخوان الشهداء قائلا: "لدي معلومات أن حزب الدعوة الإسلامية يمارس نشاطاً تنظيمياً في الرفاعي يقوده عبد الجبار الرفاعي، فينبغي أن تتكتموا وتحذروا من بطش هذا النظام وقسوته...". غير ان ذلك لم يمنعه من استمرار العلاقة بيننا، واهتمامه بالتشاور معنا، بكل ما يتصل بالحالة الدينية في المدينة، وتنسيق مواقف موحدة في مناهضة حزب البعث، وشجب أي شكل للتجاوب أو التعاون معه. ففي نهاية السبعينات من القرن الماضي أخبرني بأنه رفض عرضاً من السلطة بمنحه راتباً شهرياً ثابتاً، لما في ذلك من إغواء وتوريط له، وانه سيمتنع عن الاستجابة لهم، مهما بلغ إلحاحهم وإكراههم له، لأن ذلك سيقوده إلى مداهنة نظام مستبد جائر.

واستطاع المرحوم بصبره وحكمته وتدبيره الصمود ومواصلة التبليغ، ورعاية الحالة الدينية، وخدمة المجتمع في الرفاعي في سنوات المحنة، لمدة تقارب ربع قرن، منذ سنة ١٩٨٠ حتى سقوط صدام سنة ٢٠٠٣، وحظي بثقة المجتمع، وتنامى وترسخ احترام الناس له، بحيث أضحى بمثابة مرجعية محلية للمدينة، تستند إليه وتعتمد توجيهاته وإرشاداته في المشكلات الاجتماعية، والثقافة الإسلامية، والأحكام الشرعية.

رحم الله الشيخ عبدالصاحب وحشره مع محمد وأهل بيته الطاهرين والأنبياء والصديقين، وألهم عائلته وذويه الصبر والسلوان. وأنا لله وإنا إليه راجعون.

بغداد ٢٠١٢/٢/٥

محمود البستاني
بسيط كالهواء،
طري كالماء(١)

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

محمود البستاني عالم، متفقه، مفسر، أديب، شاعر، ناقد، ناسك، متهجد، زاهد، ورع، مدمن قيام الليل وصيام النهار. تعرفت عليه في مرحلة مبكرة من حياتي عبر كتاباته في دوريات "النجف" و"الكلمة".... وغيرهما. وتوثقت علاقتي به في الحوزة العلمية في قم، وتواصلت صداقتنا أكثر من ربع قرن. كنت أحرص على حضور مجلسه الأسبوعي، الذي يفوح بعبق روحانيات ومواعظ وأذكار وإحياء لميراث آل بيت النبي عليهم السلام.

البستاني بسيط كالهواء، طري كالماء، دافئ، عفوي، جذاب، مسكون بالتفسيرات الغيبية الميتافيزيقية لكل شيء. طالما خضنا نقاشات في مختلف القضايا الطبيعية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والصحية، والمناخية، والجغرافية، والطبيعية... وغيرها، مما أسعى لاستكشاف وتشريح أسبابه وعلله وبواعثه وظروفه وعناصره ومكوناته وبنيته، فيما يشدد هو على اختزال كل ذلك ونسبته إلى عالم الغيب. انه كائن ميتافيزيقي يعانق الملكوت في بصيرته. يخشع حينما يتحدث عن ملهم تجربته الروحية الحاج عبدالزهرة الكرعاوي، وسطوته العميقة على مريديه، وبراعته في التسامي بأرواحهم إلى قمة مدارج السالكين.

رأيت عبدالزهرة الكرعاوي للمرة الأولى سنة ١٩٧٨ عندما كنت طالبا في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، في دكانه الملاصق للصحن الشريف، من جهة جامع الطوسي، وعادة ما كنت أشاهد السيد الشهيد محمد الصدر والشيخ الشهيد غالي الأسدي وغيرهما يجلسون على دكة حانوته، فسألت الشيخ غالي الأسدي: ماذا تفعل أنت والعلماء عند هذا الرجل الذي يبيع "الترب والسبح وكراسات الزيارات والأدعية والأذكار"، فقال: انه شيخنا وأستاذنا، ومنبع إلهام أرواحنا، يهبنا ما نفتقر إليه في دراستنا وتدريسنا للفقه والأصول والعلوم الإسلامية، انه يمتلك خبرات روحية وتجارب دينية ومعارف سلوكية خاصة، تلقاها من خبراء في هذا المجال، وتنامت بمرور الزمن، عبر المكاشفات والإرتياض والأذكار والتنسك.

---

(١) الدكتور محمود البستاني وافته المنية في مدينة قم يوم الاثنين (٩ ربيع الثاني ١٤٣٢).

محمود البستاني لا يكف عن ذكر شيخه وملهمه الروحي، كان متيما بالحاج عبدالزهرة، يصر على انه تلقى منه ما لم يحصل عليه من الدراسة الجامعية والمطالعة. ولفرط انغماره بالإرتياض الروحي وذوبانه في العبادات والطقوس تجاهل بالتدريج ماضيه الأدبي، كشاعر موهوب، وأديب محترف، وناقد أدبي، واسم متميز في الحداثة الأدبية الستينية في العراق؛ لكن استمر تأثير موهبته الأدبية ومطالعاته لنصوص الحداثة في كتاباته. تطبع بصمته الخاصة كافة الحقول التي كتب فيها، ففي تفسيره وغيره ترتسم النصوص بلغة مكثفة، غزيرة، مضيئة، حين تقرأها كأنك تطالع قصيدة نثر، أو شذرات النفري والحلاج وابن عربي. لا يزهد بالنصوص الإبداعية الأدبية، والإنتاج الفكري الجديد، فقد كان يستعير مني ما يراه من مطبوعات ودوريات جديدة، ويطالعها عاجلاً.

نحن بحاجة إلى استئناف النظر في تفسير البستاني "عمارة السورة القرآنية" ودراسته وتدريسه، ذلك انه يمثل محاولة متميزة في دراسة بنية ومنطق وشخصية السورة القرآنية، واكتشاف نسيج العناصر والمفاهيم والمقولات الخاصة المكونة لعمارة كل سورة. يجترح محمود تسمية "عمارة" لتفسيره، وكأنه يحاكي "عمارة المباني المدهشة" بكل ما تشي به من جمال، وافتتان، ودهشة، وجلال، ولمسات فنية، وإيقاع متناغم مع البيئة. انه يرى الآيات والسور مثلما يشاهد اللوحات الفنية المدهشة المبهرة للفنانين البارعين. نعم إنها بصيرته ومشاهداته الوجدانية وذوقه العرفاني الذي يتجلى من خلاله له الله تعالى في كتابه الكريم. "تجلى الله لخلقه في كتابه..." حسبما ورد عن الصادق عليه السلام، لكن اكتناه ذلك يتطلب بصيرة كالمرآة المصقولة.

رحم الله صديقي محمود البستاني، الذي تعلمت منه شيئاً من الهدوء والزهد بمتاع الدنيا وبريقها وبروتوكولاتها ومزاعمها الزائفة.

بغداد ٢٠١١/١٢/١٢



فصل آخر من

تاريخ الحركة الإسلامية في الرفاعي

إلى ذكرى صديقي الشهيد
عبد الأمير فرهود والشيخ خالد فرهود (أبو باقر)

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

كانت تربطني بالمرحوم الشهيد عبد الأمير فرهود الركابي "أبو تماضر" علاقة عميقة وحميمة، نلتقي في الرفاعي بشكل دوري، ثم تكثفت لقاءاتنا في بغداد، بعد انتقاله وعائلته للسكن بجوار محل عمله فيها. وعندما انخرطت في الحوزة العلمية في النجف عام ١٩٧٨ واظب أبو تماضر على زيارتي، وعادة ما كان يبيت في منزلي، فنمضي الليل حتى نصلي الفجر في الحوار والنقاش في مختلف الموضوعات الحركية والسياسية والاجتماعية. تميز أبو تماضر عن جيله بعقل متوقد، لماح، سريع البديهة، يحرص على مواكبة ما هو جديد من مطبوعات، بالرغم من شحتها وقتئذ في العراق، يلتهم الكتب ويستوعب مضامينها، خبير في توظيف ما يتلقاه من مناهج ومفهومات في صياغة رؤى وتفسيرات للظواهر الاجتماعية والعلاقات الدولية والمواقف السياسية، ينتقل في تفكيره من الجزئي إلى الكلي، ومن التفاصيل إلى المشتركات، يكتشف الكليات، ويطبقها في فهم وتحليل الواقع واكتشاف متغيراته. كان الوحيد من زملائنا في تلك الفترة الذي يستند في التحليل السياسي إلى معايير علمية، ويطبق أدوات مستقاة من الفكر السياسي الحديث، يدرك تناقضات الواقع ومنعرجاته، ويستشرف المستقبل بذكاء، يتنبأ بما تخبئه بعض المتغيرات السياسية، نبهنا إلى خطورة صدام حسين مبكراً، وكان ينذرنا بدخول العراق وديان النار بعد صعود صدام إلى السلطة وتنحية البكر، كأنه يرى عنجهية صدام ورعونته وتهوره ودمويته، وما يفضي إليه من مآلات ومصائر للعراق والنظام الإقليمي والمنطقة.

ارتبط أبو تماضر بحزب الدعوة الإسلامية من خلال خط التنظيم العسكري، الذي كان يضم المنتسبين إلى الجيش فقط، وأصبح أحد كوادره الهامة. تنظيم الحزب في الرفاعي لا علاقة له بالتنظيم العسكري، لكن عبد الأمير أدرك بذكائه الفطري إني مسؤول عن حزب الدعوة في الرفاعي، فبادر بالانفتاح علي، بالرغم من أن ذلك ـ للضرورات الأمنية ـ

كان من المحرمات الحركية. هيمنت الدعوة على تفكيره ومشاعره وعواطفه، ولست مبالغاً لو قلت: لم أر أحدا من الدعاة عاشقاً متيماً بالدعوة كعبد الأمير، يسعى لتجنيد كافة خبراته وطاقته ووقته لها. كان يحرص على تنظيم ميزانية لوقته، طبقا لخطة تستوعب ساعات كل يوم منذ صلاة الفجر، يدون فيها ما ينبغي انجازه حتى منتصف الليل، ويصر على تنفيذها بصرامة، ساعات الصباح للعمل في القاعدة الجوية، والعصر لدراسة العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية، والمساء للمطالعة والعائلة. كان يعرض علي ميزانية الوقت لشهر، ويطلب مني تصويبها وإثرائها، وملاحظة الزمن المخصص للدعوة كل يوم، فكنت أُبدي إعجابي وثنائي على ابتكاره ميزانية الزمن هذه، الغريبة على ثقافتنا وعالمنا، الذي لا قيمة فيه للزمن. طالما سألته: لماذا تستنزف الدعوة منك كل هذا الوقت يوميا، فيما تهمل نفسك ولا تمنحها فرصة للاستراحة أو الاستجمام، وهكذا تفرط بحقوق عائلتك؟

فيقول لي: أنا أتلذذ بالعمل للدعوة، وأشعر أن العمر قصير جداً، نحن في سباق مع الزمن، أنا متفق مع عائلتي بأني نذرت نفسي للعمل في سبيل الله.

لا ينفرد أبو تماضر بميزانية الزمن وإنما كان يضع ميزانية دقيقة لنفقاته الشهرية، تتعادل فيها النفقات مع الدخل الشهري، فقرات مدروسة تتضمن تخصيصات: "العائلة، الجامعة، نفقات دراسة خالد "الشيخ أبو باقر"، الدعوة، شراء الكتب، ...الخ." الميزانية المالية مدروسة بعناية بالغة، لا تهمل تفاصيلها الأشياء الصغيرة. أعثر فيها مرة أخرى على فقرة بتبرعات تطوعية شهرية للدعوة، مثلما وجدت وقتاً مخصصاً لها كل يوم في ميزانية الزمن. يفاجئني أبو تماضر بموهبته في التخطيط، وأسلوبه الرائع في الإفادة من أشياء تبدو لنا ليست ذات جدوى، ووضعها في محلها المناسب، حتى الأفكار والمعلومات الهامشية التي يستقيها من مطالعاته، يبرع في توظيفها في التحليل والتفسير. وكأنه ولد وتربى خارج مجتمعنا الذي يهدر كل شيء، ولم يدرك أية قيمة للزمن أو سواه.

أراني ساعة يلبسها، وهي ساعة عادية، غير انه كان يقول: إنها أغلى شيء عنده، لأنها هدية الدعوة. حكى لي: كيف انه تأخر أحد الأيام عن موعد اجتماع الدعوة مدة محدودة، فاستفهم مسؤولة عن سبب تأخره، فأخبره بخراب ساعته، فما كان الاجتماع الثاني إلا وأهداه المسؤول هذه الساعة.

يتقن أبو تماضر فن الإصغاء إلى متحدثه، وبعد فراغ المتحدث عادة ما يثير عدة استفهامات، تضئ ما هو مضمر أو مسكوت عنه، مضافاً إلى رفد الموضوع بمصفوفة من الإضافات، تثري الموضوع وتتناول مختلف أبعاده.

يحرص على ملاحقة الشأن الديني في الرفاعي حينما نلتقي، ويهتم باختبار مواقف واتجاهات الشباب، ويطلب مني أن نفكر معاً في رسم خطط مرنة للاهتمام بهم، وتنمية تربيتهم الإيمانية وثقافتهم العامة والإسلامية.

عدد المتدينين بين النخبة في الرفاعي وان كان محدوداً، لكن يمكن تصنيفه إلى فئات ثلاث:

• الأخوة الذي يكبرونا بعقد من السنين، وهم مجموعة من المعلمين والمدرسين، كالأصدقاء المرحوم عزيز خضير حيدر، وفائق إرزيج، وهاشم حسين.

بعد مداولات كثيرة مع عبد الأمير فرهود توصلنا معا إلى ان نعزز علاقتنا بهم، ولا نفكر يوماً في مفاتحتهم بالانخراط في التنظيم، ذلك أنهم يمثلون الواجهة الاجتماعية الدينية في المدينة، وكل شيء في عملهم اليومي وحركتهم ونشاطهم مكشوف ومراقب من جهاز الأمن وحزب البعث. كنا مطمئنين بأنهم أكثر واقعية من رومانسيتنا المتدفقة وجسارتنا المنفلتة، ونحن بمرتبة تلامذتهم، وربما كانت لبعضهم تجارب موجعة في الحركة الإسلامية، كما سمعنا عن المرحوم عزيز خضير، فمن الصعب أن يتقبلوا ما نقترحه عليهم. تواصلت علاقتنا الإيمانية بهذه المجموعة من دون أية مشاكل أو حساسيات، بل كنا نتشاور ونتعاون في الشأن الديني العام.

• الأخوة من جيلنا: حسين علي البهادلي، رشيد باني الظالمي، عبد العباس كاظم، كاطع نجمان الركابي، عبدالجبار الرفاعي، الشهيد ياس خضير الجبوري، الشهيد عبد الأمير فرهود، الشهيد جبار ناصر الشويلي، الشهيد فالح القره غولي، الشهيد موحان بشيت الركابي، الشهيد حسين عذار الشويلي. كافة هؤلاء الأخوة دعاة، وان كان بعضهم مرتبطا بالدعوة في محل إقامته.

• الأخوة من تلامذة الثانوية: الشهيد حسام حميد الصريفي، زعيم فيصل الخيرالله، عباس خضير الجبوري، إبراهيم خضير الجبوري، ماجد ارزيج العقابي، خالد فرهود الركابي، عماد عبدالجليل، نجيب عبدالحسن، عجمي بشيت... وغيرهم. وهم الحلقة المحورية لنشاط الدعوة في المدينة، بعضهم أصبح في التنظيم، والبعض الآخر تمهلنا في مفاتحتهم، ذلك أن مفاتحة أي شخص في حزب الدعوة يومذاك تتطلب مزيداً من التربية الإيمانية، والتوازن الأخلاقي، والانضباط السلوكي، بموازاة تأهيل وإعداد ثقافي خاص، وتمارين على السرية والتكتم والإخفاء والتمويه، وهي مراحل تتطلب تجارب واختبارات عديدة للأشخاص.

يحرص المرحوم أبو تماضر على التعرف على الأخوة ومتابعتهم من بعيد، ويتعاون هو والمرحوم جبار ناصر على قيام كل منهما بمهمات تربوية تثقيفية تطوعية للشباب، فمثلاً كان الأخير يأتي ليلة الجمعة من بغداد إلى الرفاعي، من أجل تزويد الشباب ببعض الكتب الإسلامية، ويحاول اصطحابهم والحديث معهم لساعات فترة مكوثه. في إطار هذا البرنامج كنت أتولى تدريس كتاب "المدرسة الإسلامية" للسيد الشهيد محمد باقر الصدر، وأحياناً "اقتصادنا"، و"فلسفتنا" بحلقات تقتصر على أحد الشباب وربما تتجاوزه إلى اثنين في حالات قليلة، نتمشى لمدة ساعتين على الشط "نهر الغراف" مساء أثناء الدرس، وكأننا نستعيد أسلوب "أرسطو" والمشائين في تعليم الفلسفة مشيا في "أثينا" قبل الميلاد، وخشية تنصت المخبرين السريين لدرسنا نختار أماكن بعيدة عن كثافة المشاة، وربما كنت أقفز فجأة للحديث عن ظواهر طبيعية وجغرافية ومناخية، حين يمر بنا بعض المشاة، ثم أعود حيثما انتهيت بعد تخطيهم.

تبنى أبو تماضر تربية وتثقيف أخاه خالد "الشيخ أبو باقر لاحقا"، وواصل اهتمامه بمستقبله الدراسي، وتكوينه الديني. في كافة جلساتنا يسأل عن سلوك ومواقف أخيه، ونمط علاقاته بزملائه في المدرسة، ويتقصى كل ما يرتبط بحياته الإيمانية، وما فتئ يحلم له بمكانة مرموقة في الدعوة.

نشأ أبو باقر بتوجيه ورعاية أخيه عبد الأمير، كان أستاذه ومرشده الروحي والأخلاقي، فنشأ على يديه نشأة إيمانية، مهذبة، دافئة، وصار ودوداً، رقيقاً، هادئاً، طويل الصمت، يحب الناس، حسن الظن بسواه، لا يذكر أحداً بسوء، يترك ما لا يعنيه. يرتبط بعلاقات ودية مع الناس، رأيت فيه صورة عبد الأمير الأخلاقية وأدبه. اضطر للهجرة من وطنه بعد استشهاد أخيه وأستاذه، الذي ترك جرحاً نازفاً في وجدانه، فتنقل بين بلدان متعددة، مكث مدة تلميذا في الحوزة العلمية في قم، ثم غادر إلى لبنان، وانصرف للتبليغ والإرشاد الديني، في بعض ضيعات جبل عامل، وبعد أن مكث سنوات طويلة في لبنان، استقر به المقام أخيرا في ألمانيا، يواصل مهمته في التبليغ والإرشاد الديني، حتى رحل عن هذه الدنيا. رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

١٩ رمضان ١٤٣٣

❖ ❖ ❖

جمال البنـــا
داعـــيـــة
«الإسلام الإنساني الرحماني»

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

لم أكن أعرف أن مهاتفتي معه قبل أسبوعين في منزله بالقاهرة ستكون الأخيرة، وان الموت سيغيبه عن عالمنا، بعد أن أمضى رحلة تناهز القرن، فاعلاً ومشاركاً في صناعة مواقف ومناقشات وجداليات وسجالات وفتاوى ومعارك فكرية متنوعة، متجاوزاً السقف المسموح عرفياً وفقهياً، وعابراً لما هو مشهور أو مجمع عليه أحياناً بين الفقهاء، من دون أن يحترز أو يحذر أو يعمل بالتقية. انه جمال البنا الذي رحل عن عالمنا يوم الثلاثاء ٢٠١٣/١/٣٠ عن عمر ناهز ٩٣ عاماً، الشقيق الأصغر "غير الفكري" للمرحوم حسن البنا، مؤسس الإخوان المسلمين في مصر "الإسماعيلية ١٩٢٨".

كلما التقيته أو هاتفته تحدّث بثقة وحيوية متدفقة عن أحلامه وآماله، وما ينشده من إعادة بناء نمط مغاير للتفكير الديني، يستلهم القرآن كمرجعية، ويتصالح مع روح العصر وثقافته، فلكل عصر كما يعتقد، تبعا لـ"هيغل" روحه الخاصة، ووعوده وتجلياته وتعبيراته، التي تصوغ الاجتماع البشري. والتفكير الديني ليس استثناءً من هذا القانون الشامل.

خاض جمال البنا مغامرة التجديد، وتحمل شتى التهم وفتاوى التبديع والتفسيق، بالرغم من أنه ابن الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، صاحب شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل، الذي أنفق ٣٥ سنة من حياته في تدوينه، وهو الرجل العصامي الفقير، الذي تعلّم خارج الأزهر. ثم طبع "الفتح الرباني"، في ٢٢ جزءاً، وبعد وفاته أكملت عائلته الطباعة، فأضحى الكتاب في أربعة وعشرين جزءاً.

طالما ذكر لي جمال البنا أنه كان يرتبط بعلاقة أخوية وعاطفية عميقة بشقيقه حسن البنا، وكيف كان الأخير ذا نزعة صوفية دافئة، يتسع صدره للمختلف، ويتمحور اهتمامه على التربية الإيمانية، يحسن الظن بالناس، ويحذر من أية محاولة للتكفير، غير أن أتباعه ابتعدوا عن رؤيته الإيمانية المتصوفة. بعد أن استنسخ المرحوم سيد قطب مقولات أبي الأعلى المودودي، ومفاصلاته القاطعة الجزمية، بين "الإسلام والجاهلية،

الاستخلاف، الحاكمية الإلهية والحاكمية البشرية، ..."، وتطبيق كل ذلك على المجتمعات الإسلامية اليوم. فتشبعت بها أدبيات "الإخوان المسلمين"، وأضحت منبع إلهام التربية والتثقيف لديهم.

حين يتحدث جمال البنا عن أخيه، يشدد على شخصيته الاستيعابية، وروحه الصوفية المتسامحة، ويدلل على ذلك بطبيعة تعامله معه وثقته به، فقد أناط حسن البنا بأخيه مسؤولية "إدارة مطبعة الإخوان"، مع أن جمال لم يكن يهتم بأداء الصلاة جماعة في أوقاتها خلال العمل، أو يهتم بالنوافل، وعادة ما ينبهه معاون الدار الشيخ عبد البديع صقر، حين يؤذن لصلاة الظهر، فيطلب منه أن يلتحق بصلاة الجماعة، غير أن جمال البنا لا يستجيب، بسبب انشغاله الشديد بمتابعة عملية التحرير والطباعة، لكي لا تتوقف المطبعة عن العمل من أجل الصلاة، التي يتسع وقتها خارج زحمة العمل. هنا ينزعج عبد البديع صقر، ويضطر أن يشتكي لحسن البنا قائلاً: "إن غرفة جمال البنا وكر تاركي الصلاة"، فيجيبه الأستاذ البنا: "دعه وحاله". من دون أن يعنّف جمالاً أو يوبخه أو يستهجن سلوكه.

في كتابه "نحو فقه جديد، ج٣: ص٣٩"، يصطلح جمال البنا على مثل هذه المواقف، التي تفرغ الصلاة من مضمونها الروحي، وتحيلها إلى غاية بذاتها "توثين الصلاة". ويذكر مثالا على ذلك فتوى للشيخ محمد متولي الشعراوي، يقول فيها: "إن الطبيب الذي يمارس عملية جراحية، ثم يسمع الأذان، فعليه أن يترك العملية ويذهب للصلاة". لكن جمال البنا لا يتردد في القول بأن: "ساعة لدراسة الكمبيوتر أفضل من صلاة نافلة".

يشير جمال البنا إلى انه تحوّل إلى نباتي، وهذا السلوك مستهجن عادة لدى بعض المتنطعين، ممن يظنون انه تحريم لما أحله الله، وانه تشريع مبتدع. لكن الأستاذ البنا لم يفزعه هذا التقليد الغذائي لأخيه جمال، ولم يحرص حين يوزع الطعام أن يشركه معهم.

تواصلت علاقة التراحم والثقة بين الأخوين البنا، فعهد الأستاذ البنا إلى أخيه سكرتارية تحرير "مجلة الشهاب"، وكانت هيئة التحرير تضم: الأستاذ البنا رئيساً للتحرير، والدكتور سعيد رمضان مديراً للإدارة، وجمال البنا سكرتيراً للتحرير، والسيد وهبي الفيشاوي معاوناً للتحرير. كان جمال يحرر النصوص ويتابع الطباعة، مضافاً إلى مهمته الأخرى في متابعة الأحداث السياسية وتحليلها والكتابة عنها، باسم مستعار هو: أحمد جمال الدين، أو أحمد عبد الرحمن.

ولم تذبل أو تجف علاقة الأخوين البنا وتعاونهما، حتى اعتقال جمال في ٨ ديسمبر ١٩٤٨، ومكوثه في السجن إلى ١٩٥٠، فلم يشهد فاجعة مقتل أخيه، وتشييع والده وسيدات الأسرة المشجي له.

آلَ ميراث آل البنا ـ من الوثائق والمخطوطات والمكتبة ـ إلى جمال بعد وفاة الوالد، والوالدة، والشقيقة فوزية، وعبد الرحمن البنا الشقيق الثاني له. عندما أزوره في منزله "١٩٥ شارع الجيش ـ القاهرة" أجد المنزل مكتظاً بالكتب العتيقة والأوراق من الأرض حتى السقف، وهو لا يكف يراكم كل ما هو هام ومميز من كتابات إسلامية بالعربية والإنجليزية. طلب مني في زيارتي الأخيرة له، في٢٠/١ /٢٠١١ المجموعة الكاملة لمجلة "قضايا إسلامية معاصرة" ليضمها لرصيد المكتبة. كان يرى أنها "أهم مجلة إسلامية تنويرية جريئة جادة اليوم، وهي تمثل منعطفاً بارزاً في مسار حركة تجديد الفكر الإسلامي". ووعدني في محادثتي الهاتفية الأخيرة معه بكتابة مقالة تتضمن أثر هذه المجلة وإصدارات "مركز دراسات فلسفة الدين" في الإصلاح والنهضة الإسلامية، لتكون شهادته في الاحتفال التكريمي للمجلة وصاحبها، الذي تقيمه "الحركة الثقافية ـ أنطلياس" في لبنان. لكنه نقل للمستشفى الذي فارق فيه الحياة بعد مدة وجيزة.

توفيت زوجته سنة ١٩٨٧ ولم يتزوج بعدها، فتحوّل بيته إلى مكتبة ومركز أبحاث ودار نشر. تشتمل المكتبة على ما يناهز الخمسة عشر ألف كتاب عربي، وثلاثة آلاف بالإنجليزية، مضافا إلى قاعة مطالعة ووحدة كمبيوتر. تعلّم جمال البنا الانجليزية مدة سجنه، واعتمد في تكوينه الفكري على رصيدها الغني في مختلف المعارف والفنون.

كنت أرى في مكتبه، صورة سيدة، وجهها وديع دافئ مشرق، بحجاب ملوّن حديث "من دون نقاب"، لما سألته عنها، قال: (هذه أختي المرحومة فوزية، أسسنا معاً: "مؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي"، ودار الفكر الإسلامي. حيث عملت موظفة وزوجها لمدة تناهز ربع قرن في السعودية، ووظفت كافة ممتلكاتها البالغة "ربع مليون جنيه" في البنك، واعتمادا على فوائدها والمبيع استمرت وتطورت هذه الدار. مما أغنانا عن استجداء الدعم من أية جهة حكومية أو غيرها. وأتاح لنا حرية واسعة في طباعة ونشر كتابات لا تحظى بالإجماع، وأحياناً لا يقبلها القيّمون على الفكر الإسلامي، من مؤسسات وجماعات إسلامية ورجال دين).

تميز جمال البنا بجسارة وجرأة لم يألفها التفكير الديني في مجتمعاتنا، وظل على الدوام يستنهض العقل المسلم، ويحذر من الإفراط في استهلاك التراث، وتواصل سبات العقل، ففي أحد حواراته وصف: "أمة محمد بأنها أعطت عقلها إجازة لمدة ١٠٠٠ عام"، وهي إيماءه دالة وذكية على توقف العقل بعد القرن الرابع الهجري.

قليل من المفكرين أدرك أن تاريخنا هو "تاريخ نسيان الإنسان"، لكن جمال البنا وعى ذلك مبكرا، فانحاز للإنسان وقضاياه وهمومه وآلامه وآماله، وفهم الدين بوصفه رسالة

مهمتها خدمة الإنسان. ووعى أن مسار التاريخ "ليس سوى وعي الحرية لذاتها" حسبما يقول هيغل. وان وجود الإنسان يساوي حريته، فالحرية شرط ضروري للإيمان والتدين والتفكير والحياة السليمة من التشوهات والرضوض والإكراهات. ولم يقبل كل ما من شأنه تقييد حرية الإنسان في الاعتقاد، حتى أن "حرية الاعتقاد" من أكثر العبارات تكراراً في كتاباته. لذلك برهن على "أن الإيمان والكفر قضية شخصية، لا يجوز للنظام العام، أو لأي مؤسسة أو أفراد أن يتدخلوا فيها، لأن الله تعالى غني عن العالمين، ولن يفيده إيمان المؤمنين، كما لا يضره كفر الكافرين، وإنما يريد الله من الأديان منفعة للناس". ولم يقبل بحد الردة، الذي لم يطبقه النبي (ص) في عصره، بالرغم من ارتداد بعض الصحابة في عصره، "فقد ارتد عن الإسلام العشرات في عهد الرسول، والإسلام ناشئ والمسلمون وقتئذ آلاف قليلة، فما أثروا عليه، ولا تعقبهم الرسول بعقوبة، وبعضهم عاد إلى الإسلام مرة أخرى". مع أن بعضهم كان من "كتبة القرآن فلم يتتبعهم الرسول بعقوبة".

مضافاً إلى أن هذا الحد لم ينص على عقوبة دنيوية له في القرآن. ناقش البنا الحديث المنسوب إلى الرسول(ص): "من بدّل دينه فاقتلوه". فأوضح عدم قبوله سندياً، لذلك رفضه الإمام مسلم، ولم يقبله المحققون من علماء الحديث، وأشار إلى تهافت مدلوله مع الكتاب الكريم، كما برهن على ذلك الصديق الشيخ الدكتور طه جابر العلواني في كتابه المتميز حول نفي حد الردة.

حرص جمال البنا على: "تعميق، وتأكيد، الإيمان بحرية الاعتقاد. وأنها أمر شخصي لا دخل للنظام العام به. وهو ما قرره الإعلان العالمي لحقوق الإنسان". وإلتمس ما يؤكدها قرآنيا، فاستوعب الآيات التي تصرح بذلك، مثل:"وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" (الكهف ٢٩) "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم" (البقرة ٢٥٦) "قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل" (يونس ١٠٨).

حذر جمال البنا من التعصب الديني وآثاره في تفتيت مجتمعاتنا، ونبّه إلى جذوره وبواعثه، واستدل على أن ذلك لا ينسجم مع نهج القرآن "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلي الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون" (المائدة ١٠٥). والعلاج الحقيقي لديه "هو الإيمان بحرية الاعتقاد"، بل ذهب إلى أننا "عندما نؤمن جميعا بأن من حرية كل واحد أن يغير دينه فلن تحدث تلك التهوسات والانتفاضات... وسيكون الحال لدينا كما هو في كل الدول المتقدمة".

تبنى جمال البنا موقفاً من الفنون الجميلة ينسجم مع مواقفه الأخرى في القضايا الخلافية، التي تستلهم "مقاصد الشريعة"، فهو يعتقد أن الفنون "كالرسم والنحت.. إلخ، إلهام من الله، وخارج إطار المعايير الدينية، فليس للدين أن يتدخل في هذا المجال". وكأنه يلمح هنا إلى تضييق حدود الفقه ومجالات المعايير الدينية، بنحو لا يزحف فيه الفقه على كل ما هو دنيوي، فيتسع ليستوعب كل ما هو بشري، ولا يبقي أية مساحة للعقل والتجربة والخبرة الاجتماعية، كما هو شعار البروتستانتية الإسلامية، وشغفها بتحويل ما هو دنيوي إلى ديني. وكأن جمال البنا يؤسس لأصل يشي بتحديد مجال الشريعة والعقيدة وكل شأن ديني بـ"حرث الآخرة"، في مقابل "حرث الدنيا" الخارج عن الشأن الديني.

كما اعتبر بعض التشريعات خاصة بفترة زمنية. من هنا صرف دلالة الأحاديث النبوية أو الآيات القرآنية، التي تشير إلى أحكام تحظر بعض أنواع الفنون كالنحت مثلاً، بعصر البعثة، (لأن العرب كانوا أهل أوثان وشرك، وحديثي عهد بهذا الشرك، فأراد الإسلام أن يغلق هذا الباب، فهو إجراء مرحلي. وبهذا ننفض أيدينا من قضايا الفنون والآداب كمسلمين، وندعها لمن يعتنون بها، ونفتي نحن في قضايا العقيدة والشريعة والدين "حرث الآخرة" ولكن لا نفتي في "حرث الدنيا"، لأنها من ثمار النفس البشرية، وهذا هو الحل الحقيقي للقضية وما عداه سفسطة). في سياق مفهومه للديني "حرث الآخرة"، والدنيوي "حرث الدنيا" يرى جمال أن "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة"، وهو عنوان كتابه الصادر سنة ٢٠٠٤، الذي يرفض فيه دعوة الإخوان المسلمين وغيرهم للدولة الدينية، ويشدد على أن الدولة مقولة وضعية وشأن بشري دنيوي، وليست ظاهرة نبوية وشأناً دينياً.

ميزة كتابات جمال البنا استنادها إلى القرآن الكريم كمرجعية لفهمه الخاص، فغالبا ما يوظّف الآيات ويستدل بها على آرائه الخلافية، لكنه لا يتردد في تجاوز الفهم الشائع بين الفقهاء لآيات الأحكام، وغالبا ما يستنبط منها رأيا لا يتفق مع آرائهم المشهورة. ذلك انه يعتبر فتاوى الفقهاء خاضعة لمشروطية مكانية زمانية، وأنها غالباً لا تتخطى البيئة والمحيط الذي عاشوا فيه، بمعنى أن لكل عصر منطقه وثقافته، التي تتكلم بفتاوى الفقهاء، "ولم يستطع معظم الفقهاء التحرر من روح العصر الذي أحاط بهم وسيطر عليهم"، مضافاً إلى "أن أي تفسير لابد أن يمثل إسقاطاً بشرياً على الوحي الإلهي، وهو مرفوض رواية، ودلالة، لأنه تحكيم للأدنى في الأعلى، الظنون في اليقين، ولأنه لابد أن يسفر عن إساءة أو انتقاص بحكم القصور البشري". ويخلص البنا إلى توصيف الفقه المتداول بـ"فقه الفقهاء". حيث يكتب: "أن الفقه المطبق حالياً، ليس هو فقه القرآن، ولا فقه الرسول، ولكنه فقه الفقهاء".

في كتابه الجريء "نحو فقه جديد"، الذي نشره عام ١٩٩٩، في ثلاثة أجزاء، يحاول جمال البنا إعادة صياغة أصول بديلة للفقه، لا تكرر ما ورثه الأصوليون والفقهاء من "الرسالة" للشافعي. وتحاول أن تستأنف "الأصول الخمسة، أو الكليات الخمس" للشاطبي في "الموافقات"، وتسعى

لتجاوز "فقه المصالح" إلى فقه " مقاصد الشريعة"، ولا تتوقف عند المقاصد، بل تلتقط الجهود والمساهمات والإضافات المتأخرة عنها، فتجترح نهجا يتوكأ على "القيم الكلية الحاكمة في القرآن الكريم"، ويعزز مقاصد الشريعة بـ"مكارمها" تبعا لما فعله علال الفاسي، ويعود إلى ولي الله الدهلوي فيوظف ما عبر عنه الدهلوي بفقه "الارتفاقات"، التي تعني ان الله شرّع الأحكام من أجل "دفع مفسدة، وجلب منفعة أو مصلحة"، فليست الأحكام مفرغة من المضمون، بل هدفها الإنسان وسعادته، وهي تتناسب مع الأقوام الذين نزلت عليهم، ونمط حياتهم وظروفهم الخاصة. أي أن هناك "ارتفاقاً" وتناسباً وانسجاماً بين الأوضاع والأحوال الاجتماعية والنصوص، لذلك تختلف الشرائع وتتفاوت تبعاً لاختلاف المجتمعات، وحسب تعبير ولي الله الدهلوي: "مظان المصالح تختلف باختلاف الإعصار والعادات، ولذلك صح وقوع النسخ. وإنما مثله كمثل الطبيب يعمد إلى حفظ المزاج المعتدل في جميع الأحوال، فتختلف أحكامه باختلاف الأشخاص والزمان، فمن عرف أصل الدين وأسباب اختلاف المناهج، لم يكن عنده تغيير ولا تبديل. ولذلك نسب الشرائع إلى أقوامها".

صدرت عن جمال البنا مجموعة آراء فقهية أثارت ردود أفعال متنوعة، فقد رفضها معظم الفقهاء، لأنها لا تنسجم مع "أصول الفقه" المتعارفة، التي تحدد وجهة التفكير الفقهي وترسم مآلاته، كما استخف بها آخرون واعتبروها فتاوى مراهقة، لا تنبئ بخبرة معمقة في هذا الميدان البالغ الدقة، والذي يتطلب تأهيلاً تقليدياً في الأزهر وحواضر العلوم الإسلامية المشهورة.

لا ريب أن آراء المرحوم البنا لا يمكن قبولها في سياق مسارات الاستنباط الفقهي المتوارثة، إلا أن التعرف على منظومة القيم التي يتمسك بها يفضي إلى مثل تلك الفتاوى. فهو يرى أن "القيم الكلية القرآنية الحاكمة" هي المرجعية التي تُستمَد منها الأحكام، معتبراً "الحرية" أبرز هذه القيم، فإن (دعوة الإسلام لابد أن تكون دعوةً لحرية الاعتقاد، لأن الرسول دعا الناس إلى إيمان جديد... وحرية الاعتقاد تكون أصلاً للأحكام الخاصة بالفكر والكتابة والتأليف والنشر، وتحريم مصادرة الفكر، وجعل القاعدة هي: "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"، والرد على المخالفين بالحجة والبرهان).

ومن هذه القيم "العدل"، في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فحيث يكون العدل تكون الشريعة. كذلك اعتبر من هذه المقاصد: السماحة والتيسير، ونفي الحرج، والعفو، مضافاً إلى "الرحمة"، التي تكررت في القرآن ٣٢٠ مرة، ما خلا ورودها حيثما جاءت "بسم الله الرحمن الرحيم" في مفتتح السور، ووصف القرآن الله بأنه "أرحم الراحمين"، و"كتب على نفسه الرحمة"، ونعت النبي ومهمته بأنه "رحمة للعالمين"، وليس رحمة خاصة بالمؤمنين أو المسلمين، بل هي رحمة تتسع باتساع العالمين، وتتنوع بتنوع تلك العوالم.

هكذا حاول جمال البنا أن يرسم بريشته صورة مضيئة مشرقة لـ"إسلام رحماني"، «يتجاوز الأطر السلفية، والعودة إلى القرآن واعتباره صيحة إنقاذ، ودعوة هداية وإرادة تغيير ورسالة، أي باختصار تثوير القرآن وليس تفسير القرآن». هذه خلاصة لدعوته "الإحياء

الإسلامي". وليس غريباً أن تصنف دعوته بالمروق، في زمن يسود فيه نموذج "إسلام سلفي"، يختزل الإسلام بالعنف والقتل ومناهضة قيم الحقوق والحريات والخير والجمال.

التفكير الديني لجمال البنا ينشد "إسلام الإنسان"، الذي تتجلى فيه حسب رأيه "الرحمة، والحرية"، أي انه "إسلام إنساني رحماني"، أما الإسلام الذي يدعو إليه الإخوان المسلمون ـ كما يعتقد ـ فإنه يتواصل مع نهج "إسلام السلطان"، الذي لبث فيه الإنسان منسياً، لذلك ناشد الإخوان بتبني قضية الإنسان، منادياً: "لا تؤمنوا بالإيمان، ولكن آمنوا بالإنسان".

استعادة مكانة الإنسان في الحياة وكرامته وحريته هي القضية المحورية في تفكيره، منذ كتابه المبكر "ديمقراطية جديدة" الذي أصدره سنة ١٩٤٦، وشدد في فصل خاص منه على ضرورة "فهم جديد للدين". وواصل نهجه في دعوة "الإحياء الإسلامي" عندما صاغ مفهوماً لـ"الإنسان المستخلف"، ذهب فيه إلى أن رسالة الإسلام إنما جاءت من أجل الإنسان، بمعنى أن "الإنسان هو الغاية، والإسلام هو الوسيلة". ورفض المفهوم الذي صاغه أبو الأعلى المودودي للاستخلاف تبعاً لابن تيمية، واستعاره منه فيما بعد سيد قطب، وأسس الأخير عليه رؤيته لمكانة الإنسان وأهداف الدين في الحياة، الذي يتلخص بجعل الاستخلاف مرادفا لـ"العبودية الله"، حيث ذهب جمال البنا إلى أن هذا التفسير مشبع بمناخات الاسترقاق واستبداد "إسلام السلطان" في تاريخنا، وليس هو سوى "الإسقاط البشري على الله تعالى... ويكفي للدلالة على خطأ فكرة المودودي أن الله تعالى لو أراد من هذه الخلافة العبد الطائع الذليل لما زوده بعقل، ولا أتاح له إرادة، أو حرية".

من هنا كرس الكثير من مؤلفاته للتضامن مع حقوق العمال والمضطهدين، وأنفق حياته في دعم النقابات العمالية، يقول في إشارة لافتة لجهوده: "بعد الأديان مباشرة، وقبل الديمقراطية والاشتراكية، تأتي الحركة النقابية".

امتد عمر جمال البنا ٩٣ عاماً، وواصل دعوته إلى نهاية حياته، بحيوية وجدية ومثابرة فائقة. ظل يكتب وينشر على الدوام، فتجاوزت مؤلفاته المئة وعشرين كتاباً، عدا ما واظب على نشره في الصحافة. اتسم بيانه بلغة ميسرة واضحة، تقترب من الصحافة الشعبوية، وعادة ما يضمّن كتاباته عناوين و"مانشيتات"، كأنها "فلاشات" ساطعة، أو أصوات حادة لا تخلو من احتجاج وإدانة. وفي كل ما كتب كان يحرص على توظيف آيات القرآن، في إطار ما يدعو إليه.

تتطلب رؤاه وأفكاره الكثير من النقاشات والمراجعات النقدية، وهي تشتمل على مادة غنية متنوعة، تستأنف ما بدأه المصلحون في العصر الحديث، لتضيف إليها، وتعيد تكوينها، وتخرج عليها وتتخطاها.

رحم الله الصديق الجميل جمال البنا، داعية "الإسلام الإنساني الرحماني"، الذي لم يكف عن الرغبة في التجديد، والتفاعل مع العالم، وابتكار صورة مضيئة للإسلام، حتى اليوم الأخير من حياته.

بغداد في ٢٠١٣/٢/٦ (بمناسبة مرور ٧ أيام على رحيل المرحوم جمال البنا)

العلاّمة الحيدري
وإحياء المكونات المضيئة في التراث

د. عبد الجبار الرفاعي

في مطلع سنة ١٩٧٨ انخرطت بالدراسة في الحوزة العلميّة، وكان شغفي المبكّر بتعلّم الفلسفة هو الذي قادني للدراسة في النجف الأشرف، بعد أن غادرت عملي ـ معيداً في أحد المعاهد التابعة لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي ـ وتخلّيت عن مرتّب شهري يتجاوز المئة دينار، كنتُ بأمسّ الحاجة إليه؛ لعدم توفّر أي مورد معاشي آخر لديّ، غير أنّي كنتُ عميق الثقة بالله، ولديَّ اطمئنان وسكينة يومذاك بأنّ الرزق تتكفّله يد الغيب.

ومنذ اليوم الأوّل طفقتُ أفتّش عن مدرّس للفلسفة في الحوزة العلميّة، وأسأل زملائي من طلاّب المعارف الإسلاميّة الذين توطّنوا النجف من قبلي، لكنّ الجميع كانوا يرشدونني إلى دراسة المنطق ابتداءً، باعتباره مدخلاً لدراسة المعارف الكلاسيكيّة، ثمّ التفكير بتعلّم الفلسفة فيما بعد. ولاحظت أنّ بعضهم يتحدّث معي عن الدرس الفلسفي بحذر شديد، فيما ألمحَ البعض الآخر بهدوء إلى ضرورة أن أترك التفكير في هذا الموضوع، وأتفرّغ للدراسات الشرعيّة خاصّة. ولم أكُن وقتئذ أُميّز بوضوح بين حقلي الدراسات العقليّة والدراسات الشرعيّة في الحوزة العلميّة.

وبعد الفراغ من دراستي للمنطق و"المقدّمات" عدت إلى البحث عن معلّم للفلسفة، ولبثتُ عدّة أشهر أتسقّط أنباء الأساتذة وأتساءل عن مشاغلهم والمعارف المهتمّين بتدريسها، فلم أظفر بمدرِّس للفلسفة. غير أنّي اكتشفت في مرحلة لاحقة أنّ الدرس الفلسفي أمسى ضيّقاً جدّاً، ويقتصر على أستاذين أو ثلاثة، أبرزهم العلاّمة السيّد مسلم الحلّي، المُقيم في مدينة الحلّة، والذي اعتاد أن يمكث كلّ عام عدّة أشهر في النجف لتدريس الفلسفة، فكنت أتردّد على داره باستمرار بمعيّة أحد تلامذته القدماء، فأسرّ لنا بأنّه سيبدأ الأسبوع القادم بتدريس منظومة الملاّ هادي السبزواري، بعد صلاتي المغرب والعشاء. وحين شرع بتدريس المنظومة كان عددنا في حلقة الدرس لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وأوصاني بعض أساتذتي، ممّن علم بحضوري ذلك الدرس، بعدم إذاعة خبر حضوري على نطاق واسع. وكنت أتحسّس تكتّم زملائي وحذرهم وحرصهم وخشيتهم من أن يُشاع عنّا الانخراط في تعلّم الفلسفة، ونحن في المراحل الأولى من دراستنا في الحوزة.

وبالرغم من عراقة دراسة المعقول في النجف، وتواصلها عشرات السنين، إلّا أنّها اضمحلّت بالتدريج في النصف الثاني من القرن العشرين، بعد مناهضة جماعة من الفقهاء لهذا النمط من التعليم.

يكتب السيّد حسن النجفي القوجاني المتوفّى سنة ١٣٦٣ هـ في مذكّراته الهامّة، عن الحياة الداخليّة للحوزة العلميّة، نقلاً عن أستاذه في الفلسفة الشيخ محمّد باقر الاصطبهاناتي، المقتول غيلةً سنة ١٣٢٦هـ أنّه قال له: "إنّ همّي منحصر الآن في تدريس الفقه والأصول بعد نهاية شهر رمضان، شريطة أن تعينني بعزيمتك، فأنا قد اكتسبت من تدريسي للفلسفة اسم (الحكيم) الذي يعني مرتبة اللاأُباليّة وعدم التديّن والعلم، ولهذا السبب ابتليت لسنين بالعزلة والفقر والحرمان والديون، بينما أنا في الفقه والأصول مساوٍ على الأقلّ للآخوند - يقصد الشيخ محمّد كاظم الخراساني - والسيّد محمّد كاظم اليزدي، وغيرهما ممّن لهم المقام العالي، إن لم أكن أفضل. وكلّ ما حدث لي كان بسبب تركي لتدريس الفقه والأصول"[1].

ولم يكن الموقف من دراسة الفلسفة والعرفان في الحوزة العلميّة في مشهد آنذاك أفضل من النجف، فقد ذكر السيّد النجفي القوجاني في موضع آخر من يوميّاته قائلاً: "درسنا شرح المطالع وشرح التجريد بصورة سريّة، حيث كنّا نذهب قبل أذان الفجر إلى المدرسة الجديدة الواقعة خلف مسجد (كوهرشاد) لندرس هناك، ونعود والوقت ما يزال ظلاماً أيضاً، إذ إنّ علماء وطلاّب مدينة مشهد كانوا في الغالب يرون أنفسهم منزّهين عن كتب الفلسفة، التي كانوا يرون فيها بأسرها كتباً للضلال، فإن رأوا نسخة من كتاب (المثنوي) في حجرة أحدهم اعتقدوا بكفره. وكانوا يرون أنّ كتب الفلسفة نجسة، ولا يمسّون بأيديهم غلافها حتّى لو كانت جافّة، بل يرون أنّها أكثر نجاسة من جلد الكلب والخنزير... فقد كانوا يلجأون إلى إشاعة أمثال تلك الافتراءات، والناس أعداء ما جهلوا، بينما الحقيقة: أنّ لبّ لباب الفلسفة هو توحيد ذات الحقّ تعالى وصفاته وأفعاله، وذلك أصل الدِّين، وقد قيل: (أوّل الدِّين معرفته)، فإذا كان ذلك هو الكفر فما هو الدِّين إذاً؟"[2].

كان هذا اللّون من التفكير هو السائد في الحوزات العلميّة وقتئذ، لذلك أعرض غير واحد من الحكماء وأساتذة علوم الحكمة عن تدريسها أمام الملأ، بل سعى بعضهم سعياً حثيثاً بالتظاهر بتدريس الفقه والأصول، بعد شيوع تقليد حوزوي خاطئ يخصّ وصف العالم في الحوزة بمدرّس هذين العلمين، فخرجت الحوزة العلميّة من كونها جامعة تستوعب جميع العلوم الإسلاميّة إلى كلّيّة فقهيّة[3].

ولم يقتصر الموقف السلبي من علوم الحكمة على حوزتي مشهد والنجف وإنّما سبقتهما بذلك قم، فمنذ صدر الدِّين الشيرازي اشتدّ الموقف المناوئ للفلسفة، ممّا اضطرّ

---

(١) سياحة في الشرق، السيّد النجفي القوجاني، ترجمة: يوسف الهادي، بيروت، دار البلاغة، ١٩٩٢: ص٢٣١.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٥.

(٣) الاجتهاد في الإسلام، مرتضى المطهري، ترجمة: جعفر صادق الخليلي: ص ٥٨.

الشيرازي أن يختار له منفى في قرية "كهك" ويظلّ معتكفاً فيه على التأمّل الفلسفي والتأليف مدّة عشر سنوات، تجلّت له فيها الكثير من الحقائق الفلسفيّة والذوقيّة التي ذكرها في كتابه "الأسفار الأربعة"، وتواصل هذا الموقف في فترات لاحقة، وربّما ترسّخ بشدّة في العصر الحديث، فقد أشار الإمام الخميني إلى أنّ تعلّم "الفلسفة والعرفان كان يُعدّ ذنباً وشركاً"، وحينما كان يُدرِّس الفلسفة آنذاك في قم أبدى بعضٌ مواقف متصلِّبة لا أخلاقيّة إزاءه، ومن هذه المواقف كما يقول: إنّه "في مدرسة الفيضيّة تناول ابني الصغير المرحوم مصطفى وعاءً وشرب منه الماء، فقام أحدهم وطهّر الوعاء، لأنّني كنت أدرّس الفلسفة"[1].

في هذه البيئة دشّن العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي اللبنات الأساسيّة لمشروعه الجديد في تعليم التفسير وعلوم الحكمة، ومع معرفته الدقيقة بما يكتنف مهمّته من عقبات، غير أنّه أصرّ على المضيّ قُدماً في عمله حتّى قطف الثمرة في نهاية المطاف.

يؤرِّخ العلّامة الطباطبائي لبعض المواقف التي اصطدم بها لمّا بدأ تدريس كتاب "الأسفار الأربعة" بعد وفوده إلى قم مباشرةً قائلاً: "عندما جئت من تبريز إلى قم بدأت درس "الأسفار" وتجمّع عدد يقارب المئة من التلامذة لحضور هذا الدرس. عندئذ أمر آية الله البروجردي بقطع راتب التلامذة الذين يحضرون درس الأسفار، وعندما بلغني الخبر تحيّرت، فماذا أفعل؟ فإذا قُطع راتب هؤلاء التلامذة القادمين إلى الحوزة من مدن بعيدة، وليس لديهم مورد رزق سوى هذا الراتب، فماذا يفعلون؟ وإذا تركت تدريس الأسفار لأجل ذلك، فإنّ هذه تمثِّل ضربة قاضية للوضع العلمي والعقيدي للتلامذة. وفي اليوم نفسه أو بعده بيوم جاءني الحاج أحمد خادم السيّد البروجردي إلى المنزل بهذه الرسالة من السيّد، وهي أنّه يقول: حينما كنّا شباباً، كنّا ندرس (الأسفار) عند المرحوم جهانكيرخان[2] ونحن مجموعة صغيرة وبشكل سرّي، وأمّا الدرس العلني للأسفار في الحوزة العلميّة فإنّه غير صالح بأيّ شكل من الأشكال، ولابدّ أن يُترك، فقلت له: أرجو أن تقول للسيّد البروجردي، نحن أيضاً درسنا هذه الدروس الرسميّة المتعارفة كالفقه والأصول، ونحن مستعدّون لتدريسها وتشكيل حلقات دراسيّة خاصّة بها، ولسنا أقلّ من الآخرين في هذا المضمار. غير أنّي لمّا وفدت إلى قم من تبريز كان هدفي فقط وفقط تصحيح عقائد الطلّاب على أساس الحقّ، ونقض العقائد المادّية الباطلة، ويومذاك حينما كان يذهب آية الله البروجردي بشكل سرّي إلى درس المرحوم

(١) بيان الإمام الخميني في ١٥ رجب ١٤٠٩ هـ.

(٢) جهانكَيرخان قشقائي، حكيم متألّه، ولد سنة (١٢٤٣هـ) وتوفّي في أصفهان سنة (١٣٢٨هـ). من أبرز أساتذة الفلسفة في أصفهان في القرن الثالث عشر الهجري. من تلامذته في الفلسفة الشيخ آقا ضياء العراقي، والسيّد أبو الحسن الأصفهاني، والسيّد حسين البروجردي، والميرزا محمّد علي الشاه آبادي، والسيّد جمال الدِّين الكلبايكاني، وغيرهم.

جهانكيرخان، كان الناس والطلاّب بحمد الله مؤمنين وذوي نيّات طاهرة، ولم تكن هناك حاجة لتأسيس حلقات دروس علنيّة للأسفار، أمّا اليوم فإنّ كلّ طالب يرد إلى قم يحمل معه سلّة من الشبهات والإشكالات، وعلى هذا لابدّ أن نعمل على إعداد الطلاّب هذا اليوم، عبر تعليمهم الفلسفة الإسلاميّة، ودحض المذاهب المادّية والمثاليّة، من هنا لا يمكن أن أتخلّى عن تدريس الأسفار. غير أنّي في الوقت نفسه أعتقد بأنّ آية الله البروجردي حاكم شرعيّ، فإذا حكمَ بترك تدريس الأسفار، فسيكون الموقف من هذه المسألة بنحو آخر"(١).

وبعد أن ذهب الحاج أحمد إلى السيّد البروجردي حاملاً رسالة العلّامة الطباطبائي حصل تحوّل واضح في موقف البروجردي، وانصرف عن قراره السابق الذي حاول فيه أن يحظر تدريس الفلسفة في قم، حيث أفاد الطباطبائي: "أنّ آية الله البروجردي لم يعارضه بعد ذلك، وأنّه واصل تدريس مؤلّفات الفلسفة المعروفة كالشفاء والأسفار لسنوات مديدة، وأنّ السيّد البروجردي كان يحترمه، وكتعبير عن تقديره له بعث له في أحد الأيّام بهديّة نفيسة، هي عبارة عن أحسن وأصحّ طبعة للقرآن الكريم"(٢).

ومن خلال الجهود الواسعة للعلّامة الطباطبائي تنامى بالتدريج الدرس الفلسفي في الحوزة العلميّة في قم، وتنامى بموازاته الدرس العرفاني، بنحو أضحت اليوم دراسة "بداية الحكمة" و"نهاية الحكمة" من المقرّرات التعليميّة والمتطلّبات الامتحانيّة لكافّة طلاّب الدراسات الدينيّة في قم(٣).

غير أنّ الدارسين باللغة العربيّة لم يجدوا أحداً من المدرّسين المعروفين ممّن يهتمّون بالدرس الفلسفي بجوار اهتمامهم بتعليم الفقه والأُصول.

وهنا برز دور العلّامة السيّد كمال الحيدري، الذي تصدّى لتدريس المعقول، مضافاً إلى مشاغله في تعليم الفقه والأصول. فحرص على تدريس المنطق وعلم الكلام والفلسفة والعرفان، كذلك اهتمّ بتدريس تفسير القرآن بالعربيّة، وواصل مهمّته منذ أكثر من عشرين عاماً. وأصرَّ على الاستمرار في هذه المهمّة، بالرغم من العقبات المتنوّعة التي واجهته، ومنها تعاطي بعض الفضلاء في الحوزة العلميّة مع هذا النمط من التعليم باعتباره خارج نسق نمط التعليم التقليدي، وبالتالي فهو لا يؤهّل صاحبه للمراتب العلميّة والدينيّة العُليا في الحوزة العلميّة.

---

(١) مهرتابان، السيّد محمّد حسين الطهراني: ص٦٠ ـ ٦٢.

(٢) المصدر السابق: ٦٢.

(٣) تطوّر الدرس الفلسفي في الحوزة العلميّة، د. عبد الجبّار الرفاعي، بيروت، دار الهادي، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ: ص١٣٤ ـ ١٣٧.

غير أنّ مطامح السيّد الحيدري استشرفت المستقبل، فأدركت بأنّ اختصار الإسلام بالفقه، واختصار الدرس الحوزوي بتعليم الفقه والأصول، سيفضي إلى فهم مجتزأ للدِّين، وطمس أبعاده العقلانيّة والقيميّة والجماليّة، وإهدار مضمونه الروحي الإنساني العميق، وربما يقود ذلك في نهاية المطاف إلى شيوع فهم للإسلام يتجاهل المنجزات والمكاسب المميّزة في الميراث العقلاني والروحي للدِّين، ويختزله في ترسيمة قانونيّة سكونيّة صارمة، مفرغة من رحابة الدِّين، ومحتواه الإنساني الحيوي الشفّاف.

وطالما دهشت من مثابرة السيّد كمال الحيدري وجديّته وحراكه المكثّف نهاراً وليلاً، أيّام التحصيل الدراسي والتعطيل ـ كما نقول في الحوزة العلميّة ـ فهو إمّا يطالع ويحضر لدروسه، أو يدرس، أو يحاضر، أو يكتب، أو يتحدّث ويناقش في مباحث متنوّعة من المعارف الإسلاميّة المهتمّ بها.

لقد أثمرت جهود الأخ العلّامة الحيدري إعداد جيل من مدرِّسي التفسير والمنطق والفلسفة والعرفان وعلم الكلام في الحوزة العلميّة في قم، وفجأةً برزت جهودهم في الحوزة العلميّة في النجف بعد عودتهم إلى بلدهم في السنوات الأخيرة، فأصبحوا يشكِّلون تيّاراً مؤثِّراً وفاعلاً ومتميِّزاً في النجف، من خلال إحيائهم للدرس الفلسفي فيها، وانهماكهم في تدريس "بداية الحكمة" و"نهاية الحكمة" و"أصول الفلسفة" للعلّامة الطباطبائي، و"الإشارات والتنبيهات" لابن سينا، و"الأسس المنطقيّة للاستقراء" للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر... وغيرها. وعبر ترويجهم للكتاب الفلسفي، والاهتمام بتراث العرفاء والمتكلِّمين، بعد سنوات طويلة من تراجع الاهتمام بهذه المعارف، ومنع نظام صدّام المتوحِّش تداول تلك الكتب.

وأتمنّى أن يهتمّ السيّد كمال الحيدري بالتيّارات الراهنة للتفكير الديني في إيران، خاصّةً وأنّ هذا التفكير يشهد تحوّلات عميقة، وتتحرّك في فضائه جداليّات متنوّعة، امتدّت إلى الحوزة العلميّة في قم منذ سنوات، واستوعبت أغلب صفحات دوريّات الفكر الديني الناطقة بالفارسيّة، الصادرة عن مؤسّسات الحوزة العلميّة أو خارجها، كما أحدثت تحوّلات هامّة في نمط المعارف والبحوث المتداولة في كليّات الإلهيّات والمعارف الإسلاميّة في إيران، كما نجد ذلك في "فلسفة الدِّين" و"علم الكلام الجديد" و"فلسفة الفقه"... وغير ذلك. فهل يظلّ السيّد كمال الحيدري غارقاً في التراث بالرغم من محاولاته الجادّة في إحياء مكوّناته المضيئة، وهو يعلم بأنّ إغفال أو إهمال أو تجاهل تلك التحوّلات، قد يمنعه من مواكبة إيقاع الحياة ومتغيّرات العالم اليوميّة، و"العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس" حسب تعبير الإمام عليّ عليه السلام. ❖

جودت القزويني
الحلقة الخاتمة
في فن يوشك على الغروب(١)

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

ينفرد جودت القزويني من بين أبناء جيله من الأكاديميين في الجامعة بشغفه في وقت مبكر من حياته بالتواصل المكثف مع الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وبناء علاقات استراتيجية عميقة مع العلماء والدارسين والباحثين فيها، وسعيه الحثيث لاستكشاف عوالمهم المستترة وما تفيض به ذاكرتهم من مواقف وحوادث وعبر وتجارب لا نعثر عليها في محيط آخر، مما أتاح له أن يتشبع بمناخات الموروث، ويتموضع في أطيافه، ويتوغل في شتى حقوله، فاستلهم صنعة أبي حيان التوحيدي في (البصائر والذخائر)، وابن عبد ربه في (العقد الفريد)، والبهائي في (الكشكول)، وغيرهم، حين أضحى يدون كل حكاية، أو قصة طريفة، أو واقعة اجتماعية ذات دلالة وعبرة، من أفواه علماء الدين والشعراء والأدباء والباحثين، حتى تراكمت لديه موسوعة تناهز الخمسة عشر مجلداً، اسماها (الروض الخميل). تستوعب شطراً مهما من آداب وفنون ومواهب وخبرات حاضرة علمية أدبية ثقافية يجهل الناس الكثير من وجوهها المضيئة.

وبموازاة ذلك حرص جودت على تقصي واستيعاب السير الذاتية لأولئك الذين عاصرهم، أو أدرك معاصريهم، من رجال الدين، والمفكرين، والشعراء، والأدباء، والفنانين، والمبدعين، وظل يلاحقهم ويحثهم على تدوين سيرتهم، والكشف عن تجاربهم الحياتية، والتعريف بمنجزهم الفكري والأدبي والإبداعي، كل حسب تخصصه، وآثر أن يبتعد عن كتب التراجم والمؤلفات حول الأعلام، معتمداً على ما يتلقاه مباشرة من هؤلاء بأقلامهم، أو ما يقدمونه له من أوراقهم وأرشيفهم الشخصي، واستمر منذ أربعة عقود مكرساً معظم وقته في منفاه ومن قبل في موطنه لهذه المهمة، بل وظف رحلاته وأسفاره لذلك، فتكونت لديه موسوعة تضم (أعلام العراق في القرن العشرين). وانفردت هذه الموسوعة بميزات لا تتوافر عليها الكثير من المصنفات في هذا المضمار في العصر الحديث، ذلك أن

---

(١) مقدمة للمجلد ٢٢ من موسوعة "تاريخ القزويني: في تراجم المنسيين والمعروفين من أعلام العراق وغيرهم".

مادتها لم تتكرر في الكتابات الأخرى، كما أن الكثير من المترجمين فيها ممن لم تذكرهم وتدون سيرهم المؤلفات المهتمة بهذا الشأن. مضافاً إلى أن مؤلفها لم يقع يوماً ما ضحية رؤية أيديولوجية، أو مواقف تعصبية، أو حالة نرجسية، أو نزعات عنصرية في تعاطيه مع الآخر، فقد كان فيما استوعبه عابرا للطوائف والاثنيات والمعتقدات، فمثلاً نعثر في كتابه على السيرة الذاتية لصديقه الأديب مير بصري (رئيس الطائفة الموسوية في العراق) بجوار الشاعر والسياسي محمد رضا الشبيبي، والمؤرخ محمد بهجت الأثري. ولم تقتصر موسوعته على ما حكاه الإعلام عن حياتهم، بل حاول الدكتور القزويني تأليف ترجمة تعبر عن رؤيته لحياة المترجم ومنجزه، وربما شفعها بإشارات تقويمية ومراجعات لبعض المواقف، على هامش تلك الترجمة.

ولعل الأسلوب الذي ترسمه السيد جودت في تصنيف موسوعته هذه يمثل الحلقة الأخيرة من فن يوشك على الاندثار، في عصر يغرق بطوفان من مختلف المعلومات والمعارف والأفكار والمفاهيم المتاحة على النت، وتصوغ عالماً افتراضياً مدهشاً، يغتني كل لحظة بالمزيد من المعلومات المتدفقة كالشلالات، غير انه يفتقر إلى جلد باحث يفني حياته في الجري وراء معلومات يستقيها من أصحابها مباشرة، ويثريها على الدوام بما يكتشفه من نصوص وبيانات ووثائق، ويغربل المعطيات ويستأنف النظر فيما هو متعارف منها، ويعمل على قراءتها في إطار السياقات الحافة بها. بوسع باحث أن يزعم أن بإمكانه تأليف معجم للأعلام المعاصرين بحجم يتجاوز هذه الموسوعة عدة مرات، لكنه لا يستطيع أبداً أن يوفر لنا مادة منتقاة من أفواه الإعلام وأقلامهم، أو من خلال معاصريهم، تغطي القرن الأخير، بما حفل به من رجال ووقائع وحوادث ومنجزات بالغة الأهمية.

أتمنى إلا أكون متشائماً حينما أقول أن جهود الدكتور جودت القزويني تمثل الحلقة الخاتمة في حقل يوشك على الغروب، ازدهر في بلدنا على يد سلسلة من العلماء المحققين، بدأت بالأب أنستاس ماري الكرملي، ثم مصطفى جواد، وجواد علي، وكوركيس عواد، وغيرهم، ولم يتوقف التدوين العلمي الجاد في هذا المجال في العراق فقط، بل إننا لا نصادف باللغة العربية أعمالاً هامة مميزة بعد (الأعلام) لخير الدين الزركلي، الذي يعتبر المرجع الأبرز والأدق المدون في عصرنا في حقل التراجم.

ومما يؤسف له أنه لم يعد أحد من الباحثين يعنيه هذا اللون من التأليف، ما خلا جماعة قليلة من المحققين في الحوزات العلمية، أو ما تبقى من رجال الحواضر الدينية التقليدية، وطالما سمعت تهكماً على هذه الصنعة في الكتابة، مما اضطرني لمغادرة هذا

المجال نهائياً، وغلق كافة ما لدي من ملفاته، وإهمال مخطوطاتي غير المكتملة، قبل خمسة عشر عاماً، بعد أن صنفت ونشرت أكثر من ثلاثين مجلداً فيه، والانتقال إلى نمط مختلف من الكتابة، منحني فرصا أوسع للتواصل مع الآخرين.

ولأنـي أدرك الجهـود المـضنية للتـأليف في هـذا الحقـل، وأثـره الفـائق في حفـظ الذاكرة، وتوثيق الماضي القريب، وتدوين ما أهمله، أو تجاهله، أو غفل عنه الباحثون والدارسون، أضحى منجز الأخ الدكتور جودت مرآة لأحلامي المعرفية الماضية، ومطامحي السابقة في التأليف، وكأني حققت من خلاله ما منعتني تهكمات وسخرية الغير من إنجازه.

وكما أن كافة الآثار تجسد الشخصية العلمية والثقافية لأصحابها، وتؤشر على مواهبهم وخصائصهم، فإن (موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين) ما كان لها أن تبلغ هـذا المستوى مـن الاستيعاب والشمول والدقة، لـولا السمات الشخصية للسيد جودت، فقد تميزت شخصيته بجاذبية وشفافية ورقة، منحتها علاقات حميمة مع كل أصدقائه، والذين يعرفونه يتفقون على أنه بسيط كالهواء، طري كالماء، بسيط وليس ساذجاً، طري وليس هشاً، عفوي وليس فوضوياً، متواضع وليس متسكعاً، متدين وليس متنطعاً، أخلاقي وليس نرجسياً، إنساني وليس أنانياً، حر وليس متهتكاً، مكتفٍ بذاته من دون أن يتتبع عثرات الآخرين وخطاياهم، عالم يحسبه من يعاشره بأنه من عامة الناس، أديب وشاعر مبدع لا يعرفه إلا الأدباء الموهوبون، والنقاد المحترفون، مؤرخ مجتهد يغوص في التراث ويحاكم وقائعه ويمحص مروياته ويختبرها في ضوء معايير موضوعية علمية.

بغداد ١٠/٨/٢٠١٠



من جمال الدين الأفغاني
إلى جمال الدين عطية

(العروة الوثقى) تستفيق في (المسلم المعاصر)[(١)]

✍ د. عبد الجبار الرفاعي

كنت في زيارة للكويت صيف عام ١٩٧٧ فأخبرني أحد رجال الدين الشيعة بصدور مجلة فكرية إسلامية جديدة. وقدم لي نماذج منها، ولم أكن يومها على معرفة بصاحب المجلة ورئيس تحريرها، غير أن زميلي استغرق في إطراء المجلة وأسرف في مدح خطها الفكري وانفتاحها، ودعوتها للتجديد، وتمسكها بروح الوحدة والتآخي بين المسلمين. وذهب في حديثه إلى أنه لا يعرف بحدود متابعته للدوريات الإسلامية دورية كـ"المسلم المعاصر". وتمنى أن تتكرر هذه التجربة في العراق، أو على الأقل تفتح وزارة الإعلام الطريق لتوزيع هذه المجلة في بلدنا، الذي جرى فيه تأميم كل شيء وإعادة ملكيته لشخص مولانا السلطان، فالأموال والفروج والأرواح، كلها تعود إليه، وكل ما في حياتنا حتى الضحك والبكاء أمسى بحاجة إلى ترخيص منه.

فاستعرت مجموعة أعداد من صاحبنا، وذهبت إلى مقر إقامتي، وشرعت بمطالعتها، فبهرني ما استهل به رئيس التحرير العدد الافتتاحي، في حديثه حول بواعث صدور هذه المجلة ومنطلقاتها، وحظها الفكري ومحددات سيرها وتطلعاتها. وفوجئت بأنها تريد التحرر من الوصاية بكافة صورها وألوانها، وصاية الآباء، ووصاية الجماعات والفرق والأحزاب، ووصاية أصحاب رؤوس الأموال، ووصاية السلطان وبلاطه... في مجتمع يضج بشتى أشكال الوصايات والأغلال الأيديولوجية والسياسية والطائفية والعصبوية.

كما فوجئت أيضاً بدعوة هذه المجلة إلى اجتهاد معاصر يتجاوز التراث مرتين: يتجاوزه مرة بالتحرر من ركام القراءات المختلفة، مما أنجزه المسلمون منذ عصر التدوين إلى اليوم، في علوم المنطق والفلسفة والكلام والتصوف، والتفسير والحديث، والفقه وأصوله، والتي حجبت الكتاب الكريم والسنة الشريفة، وشكّلت بالتدريج جداراً صلداً يحول دون استلهامهما والاتصال المباشر بهما.

---

(١) بمناسبة مرور ربع قرن على صدور مجلة المسلم المعاصر.

ويتجاوز الاجتهاد الذي تدعو إليه "المسلم المعاصر" التراث مرة أخرى بالتحرر من مشاغله وهمومه التاريخية، والاندماج بالعصر، ناهلاً من معارفه ومكاسبه العلمية، ومتفاعلاً مع قضاياه، وواعياً لمشكلاته، ومستشرفاً لمستقبل أمثل.

دعوة تتجاوز فتح باب الاجتهاد:

وهي دعوة تكاد تجترح المستحيل في عالم يستعيد الماضي كما هو، ويجهض أية محاولة لتجاوز التراث، أو تفكيكه واستئناف بناءه، في ضوء رهانات العصر ومتطلباته.

لقد لبث الفقهاء عدة قرون يسوقون الأدلة والحجج على ضرورة تعطيل فريضة الاجتهاد، ويدافعون بعنف وضراوة عن القرار الخطأ بإقفال باب الاجتهاد. ولم تفلح جهود واعية مخلصة في التغلب على ذلك القرار، وحماية العقل المسلم من سلطة الآباء وفقههم.

وبصراحة كنت أحسب أن تطلعات "المسلم المعاصر" ليست سوى أحلام اعتدنا سماعها من أصحابنا، وهي تحكي ذهان السهولة لدى الإسلاميين، حسب تعبير المفكر المرحوم مالك بن نبي.

لكن "المسلم المعاصر" غامرت بما هو أبعد مدى من ذلك، لأنها لم تقتصر على الدعوة للاجتهاد فحسب، وإنما اقترحت اجتهاداً يعزز فاعلية العقل، ولا ترهبه سلطة السلف. ودشنت ذلك عمليّاً حين باشرت صياغة المرتكزات المنهجية للتعامل مع الماضي والحاضر والآخر، في هدى الكتاب والسنة.

وبدأت تنشر مساهمات جريئة في أعدادها الأولى، تدعو لإعادة بناء علم أصول الفقه مثلاً، وتشدد على الأهمية البالغة لهذا العلم، باعتباره منطق الفقه، وما يمكن أن يقدمه في تأصيل العلوم الإنسانية الحديثة، فيما لو قام الأصوليون بتجديد هذا العلم، بعد أن لبث عدة قرون يكرر ذاته، بفعل ما أشيع خطأ، من أن مسائل أصول الفقه قطعية، وهي مما لا يصح الاجتهاد فيها. ومن المؤسف أن هذا الوهم ارتقى لدى المتأخرين إلى درجة الحقيقة المطلقة، ولم يتنبه هؤلاء إلى أن الأصوليين الذين صاغوا هذا العلم وبلوروا القواعد الأصولية، إنما اهتدوا إلى تلك القواعد في سياق ما اكتنف حياتهم من استفهامات وحاجات تشريعية زمنية انبثقت في داخل الاجتماع الإسلامي آنذاك. مما يعني توالد استفهامات وحاجات تشريعية جديدة، تواكب مسار الاجتماع الإسلامي وتحولاته عبر التاريخ، لا تتسع لاستيعابها القواعد الموروثة، فيضطر الفقيه لإعادة إنتاج الفتاوى ذاتها، من دون أن يدرك العصر واستحقاقاته، لأنه يظل يجول في مدارات التراث، وكلما توغل في تلك المدارات غاب عن حاضره ومشاغله.

إسلامية المعرفة من الفكرة إلى المدرسة:

وبموازاة ذلك تبنت "المسلم المعاصر" الدعوة لأسلمة المعرفة، فنشرت عدة دراسات رائدة تصوغ رؤية أولية لتأصيل العلوم الإنسانية، كما نشرت دراسات لاحقة تجتهد في تطبيق أسس هذه الرؤية لتشكل نماذج في تأصيل كل من تلك العلوم. حتى أضحت "المسلم المعاصر" المحضن الذي اختمرت فيه النواة الجنينية لمدرسة إسلامية المعرفة، والقناة التي أشاعت وعياً جديداً بضرورة إعادة بناء المعارف الاجتماعية الجديدة من منظور إسلامي.

ولولا مساهمات هذه المجلة في نشر طائفة من الكتابات العربية أو المترجمة عن الإنجليزية لرواد إسلامية المعرفة، وملاحقة هذه الفكرة في مراحل ولادتها وصيرورتها، لولا ذلك لما أُتيح لهذه الفكرة أن تتطور إلى مشروع ثم أخيراً إلى مدرسة، وتحوز على عدد لا يستهان به من المريدين والأنصار في مختلف أنحاء العالم.

تقاليد معاصرة للإعلام الإسلامي:

إن أهم مكاسب "المسلم المعاصر" هي إرساء أسس تقاليد منسجمة مع العصر للإعلام الإسلامي. فقبل صدور هذه المجلة تصرَّم أكثر من مائة عام علي تجربة الإعلام في عالمنا، صدرت فيها مئات الصحف والمجلات والنشرات باللغات العربية والفارسية والأردية والإنجليزية ..وغيرها .وقد اتسم الخطاب الإعلامي في تلك المطبوعات بأنه خطاب دفاعي تعبوي، استبدت به نزعة الهروب من واقعه، فهو تارة يهرب إلى مكان آخر، فيهيم بالغرب، وينبهر بإنجازاته، ويدعو إلى استنساخ تجربته بكل ما فيها، من دون تفكيكها وإعادة تركيبها، باستبعاد عناصرها المحلية، ونسقها الحضاري الخاص. وهو تارة يهرب إلى زمان آخر، فيهيم بالماضي، ويرتد إلى مشكلاته، وتأسره مفهوماته ومقولاته، وحتى ألفاظه وعباراته، وما أفرزته التجربة التاريخية في معالجة تلك المشكلات، بغية التغلب على ظاهرة التبعية للغرب، بنحو أفضى ذلك إلى تنزيه الماضي، والدفاع عن كل ما تشتمل عليه التجربة التاريخية للعالم الإسلامي، وتسويغ الظلم والاستبداد، وتبرير الخلاعة والمجون. حتى طغت نزعة سلفية في التفكير تنادي باسترجاع الماضي بتمامه، وتقديس التراث برمته، وتناهض أية محاولة لتقويم التراث وتحليله، واكتشاف أبعاده المطلقة والنسبية.

كما استبدت بالخطاب الإعلامي رؤية تبسيطية للمشكلات، فقد تغلب على معالجة الإعلام الإسلامي للمشكلات التبسيط والسهولة، بنحو يتجاهل البنية المعقدة لطبيعة المشكلة، وما يثوي ورائها من شبكة عميقة من الأسباب والعوامل المتنوعة، يتصل بعضها

بمسار الأمة وما ورثته من عصور الانحطاط، فيما يتصل بعضها الآخر بمختلف الظروف والملابسات التي تعرضت لها الأمة في القرنين التاسع عشر والعشرين، والمحيط الخاص الذي تشكّل في سياق تلك الملابسات.

لقد تعاملت معظم الكتابات مع الواقع بأسلوب لا يخلو من التعميم، والوقوف عند السطح، وعدم تقصي جذور الظواهر الاجتماعية، واكتشاف النسيج العضوي المستتر، الذي تتوحّد به مع مجموعة الظواهر المناظرة لها. فجاءت الحلول التي اقترحتها هذه الكتابات بعيدة عن الواقع وما يضج به من مشكلات مزمنة، وتداول الإسلاميون مفاهيم وأفكار في قضية التغيير الاجتماعي، غالباً ما تجهل الواقع، وما يسود الحياة الاجتماعية من ظروف واختلالات، وغير ذلك من العوامل المركبة والمزدوجة للظواهر الاجتماعية.

كذلك اتسم الخطاب الإعلامي بأنه خطاب يطغى فيه المديح والتبجيل، فيما يغيب فيه النقد والتقويم والمراجعة. ومن المعلوم أن غياب العملية النقدية سيقود لا محالة إلى تنزيه الذات، وبالتالي سكونها وتواريها، والعودة إلى الأفكار نفسها على الدوام، مهما تجددت الوقائع وتغيرت الأحوال. كأن هناك آراء بشرية خالدة أبدية تتسع لتستوعب مختلف المتغيرات في الزمان والمكان، وكأن وظيفة الخلف هي حفظ أفكار السلف، وترديد أقوالهم، وعدم تطويرها وإكمالها، أو تجاوز ما ينبغي تجاوزه منها لأن الأول لم يترك للآخر شيئاً، حسب تعبير هؤلاء.

غير أن "المسلم المعاصر" افتتحت عهداً جديداً للإعلام الإسلامي، فاقتحمت ميدان النقد، وباشرت مراجعة وتقويم مفاهيم الإسلاميين ومؤسساتهم ومواقفهم، فمنذ عددها الافتتاحي أعلن مؤسسها ورئيس تحريرها الدكتور جمال الدين عطية بأن هذه المجلة لا تتسع لكل بحث علمي، ولا تهتم بكل مادة علمية، إنما تنتقي من هذا وذاك ما كان طابعه فكريّاً يناقش الاتجاه والمنهج والأصول. واستهلت "المسلم المعاصر" تجربتها بتخصيص باب للمناقشة والحوار، ومضت ترفد هذا الباب في أعدادها التالية. فمثلاً خاض جماعة من المثقفين الإسلاميين نقاشاً حاداً حول مسألة "اليسار الإسلامي" في هذا الباب، تحول فيما بعد إلى عاصفة من الجدل، وكنا نتمنى أن يواصل الدكتور فتحي عثمان والدكتور محمد رضا محرم بيان حججهما في هذه المسألة، ذات الأهمية الفائقة في الفكر الحركي والسياسي الإسلامي اليوم، بل كنا نطمح أن تبادر "المسلم المعاصر" لإذكاء هذا النقاش من جديد، بعد أن أصدر الدكتور حسن حنفي العدد اليتيم من مجلته" اليسار الإسلامي" يناير ١٩٨١م، فلو أنها بادرت وأعادت نشر افتتاحية الدكتور حنفي" ماذا يعني اليسار الإسلامي" لأقحمت الباحثين أُفقاً

فكريّاً خصباً، يثري الحوار في مسائل الفكر السياسي والحركي الإسلامي، ويمكن أن تتوالد في سياقه مفهومات ومقولات متنوعة، مثلما يمكن أن يقود إلى مراجعة مفهومات سابقة واستئناف النظر فيها. لأن مسألة اليسار الإسلامي مع ملاحظاتنا عليها، وعلى ما يطرحه الدكتور حسن حنفي هي قضية خلافية إشكالية، تستفز الوعي الحركي، وتحفز العقل الإسلامي للإفصاح عن معطيات بديلة حيال قضايا العصر ومشكلاته.

من الدفاع إلى الإبداع:

طغت النزعة الدفاعية على الفكر الإسلامي الحديث، فمعظم الكتابات جاءت كردود أفعال علي ما أثاره التعرف علي الحضارة الغربية الحديثة، وما أنجزته من تقنيات ومعارف وآداب وفنون. وتمحورت جهود المفكر الإسلامي حول المقارنات واكتشاف القواسم المشتركة بين ميراثنا ومنجزات الغرب. غير أن بعض الكتابات أفلتت من ذلك، فتخطت حالة الدفاع، وبدأنا نكتشف في ثناياها تأصيل وإبداع، مثلما نلاحظ في أعمال محمد إقبال، ومحمد عبد الله دراز، ومالك بن نبي، ومحمد الطاهر بن عاشور، ومحمد باقر الصدر.

ويبدو أن "المسلم المعاصر" شخصت هذه الحالة في الفكر الإسلامي، فنبهت إلى ضرورة الانتقال إلى مرحلة جديدة، يتخلص فيها الفكر الإسلامي من محاكاة الآخر، ويتجه نحو الخلق والإبداع. فقدمت على صفحاتها الكثير من الدراسات الجادة. التي تضمنت مقترحات ونظرات اجتهادية، لتقرير موقف الإسلام إزاء قضايا العصر. وهذه المقترحات والنظرات وإن كانت تسعى لبلورة رؤية إسلامية أولية حيال العصر إلا أنها تصلح كأساس لإشادة رؤية إسلامية متكاملة الأبعاد.

امتداد تجربة المسلم المعاصر:

لعل من أبرز المعطيات غير المنظورة لتجربة "المسلم المعاصر"، هي تحوّلها إلى مدرسة نموذجية للإعلام الإسلامي، وهذه أحد المكاسب والنجاحات الباهرة لـ "المسلم المعاصر". فقد تجلت هذه الدورية في تجارب دوريات إسلامية متعددة تالية لها.

وإذا صح القول أن "العروة الوثقى" لجمال الدين الأفغاني استفاقت في "المسلم المعاصر" لجمال الدين عطية، فإن المسلم المعاصر استفاقت في "قضايا إسلامية معاصرة" الصادرة في الحوزة العلمية في قم، وفي غيرها من الدوريات الإسلامية. مما يعني أن مدرسة الإعلام الإسلامي التي أرسى دعائمها الدكتور جمال الدين عطية ستظل شاخصة إلى الأبد، لجهة تمثيلها المنعطف البارز في مسار الإعلام الإسلامي في القرن العشرين. ❖

المثقف الثوري والمثقف النقدي في مفهوم الدكتور الرفاعي

✍ مختار الأسدي[1]

يقولون إن الفلاسفة يفسّرون الواقع بينما الثوّار يصنعونه، وبين هؤلاء وأولئك يقف المثقفون والساسة وعلماء الدين والمفكرون والمربّون ليأخذ كلّ منهم دوره في هذ الواقع.

نعم، قد يخرج بعض هؤلاء عن مهمتيّ التفسير والصناعة المذكورتين ويؤدون دوراً مغايراً لهما. فبعض الفلاسفة جدليون بيزنطيون يربكون الواقع و(يسفسطونه)، وبعض الثوار متطرفون فوضويون يقودونه إلى شغب وضجيج، وبعض المثقفين مؤدلجون تنظيريون مأجورون يبيعون أهلهم إلى السلطة بيسرٍ وسهولة. وبعض الساسة سلطويون ظالمون يظلمون شعوبهم ويستحمرونها بلا حياء. أما العلماء فكثيرون منهم ترقيديون و (أفيونيون) يخدّرون الناس ويرقّدونهم بدل أن يعبئونهم أو يثورونهم ضد الظلم والظالمين.

وإذا توقفنا عند المثقفين مثلاً نكتشف أن هناك مثقفاً ثورياً ومثقفاً نقدياً ـ حسب تعبيرات الدكتور عبد الجبار الرفاعي في كتابه القيّم (إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين) ـ فالثوري هو الشخص المسكون بهموم الواقع، المهموم بتغييره. وهو مبشّر وداعية ومناضل، وربما ينتمي إلى منظومة أيديولوجية معينة يستلهم قيمه منها أو يعطيها من قيمه هو حسب تأثّره بها أو تأثيره فيها.

أما المثقف النقدي فهو الإنسان المشغول بتفسير العالم وهو أقرب إلى الفلاسفة منه إلى الثوار ولكنه يختلف عنهم باعتباره أكثر جرأة على الاحتجاج والإدانة والنقد معتبراً مهمته الأولى قيادة أعمال تنويرية تمكّنه من التمرّد حتى داخل أسوار الأيديولوجيات التي ينتمي إليها، والانسلال من أسرّ الأديان والمقدّسات، يساعده على ذلك تعاليه على الأصنام البشرية، ورفضه لكافة الوصايات المؤدلجة والقوالب الجاهزة من أية أيديولوجية جاءت، ومع أي (دين) نزلتْ.

هذا المثقف الثوري الناقد يقف شامخاً بين المثقف الجدلي الثرثار، والمثقف الفوضوي المشاغب ـ إذا صحّت هذه التعابير طبعاً ـ.

نعم، إنه يمارس النقد بشجاعة ويتمدّد معه كلّما امتدّت مساحته، وهو بهذه الممارسة يُساهم في تحرير العقل من كافة الوصايات التي تفرضها الأيديولوجيات والأديان ويتمرد عليها إذا خالفتْ العقل والمنطق، وهذا يعني فتح منافذ حرة لاستيعاب كافة الاختلافات والتنوّعات التي تعمّق الوعي البشري وتضع العقل على سكة الإبداع والتطور والاجتهاد.

نعم إن المثقف النقدي يسعى إلى فضح جميع الأقنعة والحجُب والممنوعات التي تطمس الحقيقة وتسترها أو تخفيها ـ حسب تعبير الأخ العزيز الدكتور عبد الجبار الرفاعي أيضاً في كتابه المذكور ـ.

(١) كاتب وإعلامي عراقي.

وحين وضع الدكتور الرفاعي توصيفه الدقيق هذا للتمييز بين المثقف النقدي والمثقف الثوري فإنما هو لتجاوز النموذج الفوضوي المشاغب الذي يضرّ ولا ينفع، ويؤذي ولا يفيد، وفسْح المجال أمام هذين الصنفين لأن يمارس كل منهما امتداده في الساحة التي يرى نفسه مؤهلاً فيها ولها. كل ذلك لتحاشي الحشر القسري لمن يريد أو يتمنى أنْ يجعل من الناقد السلمي ثائراً أو بالعكس.

فالناقد السلمي يرى نفسه غير قادر على المشاركة في أية ثورة أو غير مؤهل لذلك لأسباب يراها هو في نفسه أو في ذاته ولا يراها غيره، فيكتفي بالنقد الجريء والإدانة الصريحة والمحاججة المنطقية المسؤولة وأمثال ذلك.

وهناك من يرى في قدرته الذاتية مؤهلات لخوض المعارك ودخول السجون وتحمّل أنواع العذاب من أجل تحقيق ما يعتقد به صحيحاً، فيتقدم اقتحامياً مناضلاً لا يتهيّب ولا ينكص ولا يعبأ بأحد.

أو قل إن هناك مثقفاً ثورياً يرى أن قضية الانتصار لمظلوم مثلاً تستحق أن يموت من أجلها، فيما لا يرى النقدي ذلك بتصوّر أنها لا تستحق كل هذه التضحية... وهكذا...

ونعتقد هنا أن الذي فات الأخ العزيز الدكتور الرفاعي هو عدم ترجيحه لأحد على أحد، فيما كان الأفضل أن يُقدّم الثوري التضحوي على الآخر النقدي لأن الأول تقدّم خطوة على صاحبه في ميدان المعركة واقترب من حمي الوطيس الذي لابدّ من خوضه في بعض الأحيان ولكنه تحاشاه، أو إنه لم يكن مؤهلاً لذلك.

نعم، قد تكون هذه الأهلية ملَكة وُهبت للثوري ومُنعت عن النقدي، ولكّنها على كل حال صفةٌ أو مؤهّل أو حظ مُنح لأحد ومُنع عن آخر، ولا يهمّ من أين جاءت هذه الملكة ولماذا مُنحت لهذا ومُنعت عن ذاك.

مثل هذه الملكة أو هذا (الجعْل) ـ كما يسمّيه الكلاميون ـ هو الذي جعل بعض الناس يُفضَّلون على غيرهم أو يبزّونهم ولو بدرجة، لأنهم هم الذين يمنحون للحياة حراكها، وهم القمة التي تجعل الواقفين على السفح يسعون لارتقائها، وبهذه الحكمة وحدها يأتي الإبداع والتكامل والارتقاء في دنيا الناس. ويأتي الشاعر الحكيم ليقول مترنماً:

ولم أرَ في عيوب الناس نقصاً ... كنقص القادرين على التمام

كل ذلك بعد الإقرار بالنقص طبعاً، والكفّ عن المزايدة والتنطّع وادّعاء امتلاك المفقود أو غير المجعول. ومن هنا يأتي التمييز بين من تمّ اصطفاؤه لهذا (الجعْل) أو ذاك، لا من أجل احترام المؤهّل (المجعول) أو التنديد بغيره، وإنما بوضْع كل منهما في مكانه المناسب ليستمر الإبداع ويستمر التكامل ويتقدّم الإنسان نحو خالقه: {يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه}. ❖

الرفاعي يتحرّر من سجن الأيديولوجيات

✍ د. عبد الأمير زاهد[(١)]

انتقل عبد الجبار الرفاعي بالفكر الديني؛ من مرحلة الاستهلاك الى مرحلة الانتاج؛ عبر الفهم والتحليل والنقد. لقد أتاح هذا الرائد ان الفردانية والاستقلال ضرورة وجدها في: ابن رشد وابن عربي ومحد حسين الطباطبائي ومحمد باقر الصدر ومحمد إقبال... إلخ. كان صراعه مع الانسداد الأيديولوجي صراعاً قاسياً، ففتحه ببوابة النقد، وتعلم من ديكارت أن يشتغل على المربعات التحتية، فلم يشتغل بالدين إنما اشتغل على فلسفة الدين، ولم يشتغل بالفقه إن ما اشتغل على فلسفة الفقه، ولم يقف عند اللاهوت وعلم الكلام القديم بل أخذ قضاياه الى علم الكلام الجديد وميتافيزيقيا اللاهوت. لقد كان الاشتغال عند الرفاعي في الأصول والبديهيات.. ستون عدداً من مدونته ودوريته قضايا إسلامية معاصرة، التي تتحدث عن ملحمة التعارض بين حاضر يتطلع الى مستقبل كريم وماضٍ لا يزال يتمتع بالهيمنة على الحياة بكل أعبائه.. لقد حرر هذا الذي حلَّ ضيفاً كريماً عليكم، حرر نفسه من سجن الأيديولوجيات، وامتلك الجرأة على الاحتجاج والرفض، بنحو انخرط ضمن ذلك التيار الذي أسهم في إعادة بناء الفكر الديني وتغيير التاريخ، فهو بين تأصيل الجديد، وانقاذ النزعة الإنسانية في الدين. إنه الآن يعمل على صياغة مصالحة بين النص المؤسس والعصر. هذا هو الرائد؛ الذي لا يزال متديناً أكثر من المتدينين، الذي يرفض "الخروج من الدين"، كما يرفض "الخروج على الدين"، ويرفض "التحلل من الدين"، مثلما يرفض "جرح الضمير الديني".. لكنه لا يرفض التجليات الآدمية للفكر الديني، ويتمسك بأنطولوجيا دينية دائمة التعطش الى جواب على: لماذا.. إنه يتبنى ويتمسك بثالوث مقدس: "الأخلاق، الإيمان، الإنسانية". وأينما يعثر على شيء منها يتضامن معه؛ بوجوده، بقلمه، بتفكيره. ويعلن أن هذا هو معراجه على طريق الحب والمحبة، التي هي أصل الموجودات.

---

(١) كلمة قدم بها الأستاذ الدكتور عبدالأمير زاهد لندوة تحدث فيها الدكتور الرفاعي عن: "راهن التفكير الديني في إيران"، في اتحاد الأدباء والكتاب في النجف، مساء ٢٠١٤/١/١٧.

أزعم أني متتبع جيد لمنجز هذه الشخصية، وأقول لكم إنه كان يفكر في الأسس والأصول، لكن في هذه الأيام أضحى يهتم بالحب والتجارب الروحية والنزعة الإنسانية ومفهوم الدولة المدنية الحديثة. فهل فرغ من الأسس؟ وهل بات يشتغل على ما يترتب على هذه الأسس؟

هذه هي النجف، الحاضرة التي دشنت نواة المنهج الفلسفي واللاهوتي، الذي تشربّه وتشبّع به الرفاعي. وكان هذا المنهج قد انتقل الى إيران، ثم شكل أرضيات لتحديث التفكير الديني فيها.. سيتحدث لنا الرفاعي اليوم عن إيران، من النقد إلى تحليل المعرفة الدينية، ومن انقباض المعرفة الدينية إلى انبساطها، ومن الذاتي الى العرضي، ومن الأقلي إلى الأكثري، ومن الثابت إلى المتغير، ومن الأسلمة إلى العلمنة، ومن استنطاق النص إلى استنطاق التاريخ.

إن قيمة أي مفكر تتجلى فيما ينتجه من أسئلة عميقة تحرك ما هو راكد. والأسئلة مهما كان الموقف منها تبقى أهم من الإجابات. والرفاعي مسكون بالأسئلة المعرفية.. اليوم أقدم لكم أخاً عزيزاً، وصديقاً كريماً، وفياً، عالماً، مفكراً.. بدأ قارئاً للتراث من بوابة التنوير، وانتهى بتأملاته الى أن يضع خارطة لمشروع إعادة بناء التفكير الديني. هو عندي تجربة غنية مفتوحة على فضاءات متنوعة كثيرة.. إنه الدكتور عبد الجبار الرفاعي.



الفيلسوف الموحد

✍ السيد علي الحيدري[١]

أيها المُبدعُ المجلَلُ باللطفِ
متى تُدركُ العقولُ مداكا؟

ومتى تُطلِقُ النفوسُ نشيداً
تتغنى بوقعهِ عُلياكا؟

عبقرٌ حارَ في مزاياكَ وصفاً
والتراثُ المجيدُ لبى نِداكا

حينَ راحَ اليراعُ ينفثُ سِحراً
ملأَ الخافقين منهُ سناكا

تَهتُ بلْ تاهتِ القراطيسُ فيما
سطرتهُ عبرَ السنينِ يداكا

فأجابتْ قيثارتيْ بخفوتٍ
نغميٍّ من فيضهِ الغمرِ ذاكا

فيلسوفٌ موحدٌ فاضَ منهُ
ألفُ نبعٍ يضمُها مغناكا

❖ ❖ ❖

(١) شاعر ومؤرخ من مدينة الرفاعي. مشاعر مهداة للعلامة الفيلسوف د. عبد الجبار الرفاعي (دام عزه).
أما وصفي له؛ فقد أدرجته مع من قالوا بحقه وهو كذلك: (الدكتور الرفاعي عشق المعرفة بلا حد، وعشقته بلا حدود).

أيهذا الحَبرُ "الرفاعيُّ" مهما
قالَ فيكَ اليراعُ ما وفّاكا

قالَ ليْ صاحبي أعرني سمعاً
منكَ كي أهتدي بنورِ رؤاكا

منْ هوَ الدراعُ الذي محقَ الجهلَ
إلى أن علا فبذَّ السماكا

قلتُ وترُ بعلمهِ يفخرُ الـ
غرافُ والشعبُ والذي سوّاكا

ذاكَ "عبدُ الجبارِ" فرقدُها الـ
عاليْ ومنْ ضمَّ ظِلهُ أبناكا

ثاقبُ الفِكرِ من طرازٍ عجيبٍ
يتحدى ضلّيلَها الأفاكا

❖ ❖ ❖

قلتُ للكوكبِ البهيِّ تمهلْ
كيْ نقبل ونسمةُ الفجرِ فاكا

ففؤاديْ رُغمَ الذي حلَّ فيه
يتمنى في كُلِّ حينٍ أراكا

وتقبلْ مِسكَ الختامِ نشيداً
علقتهُ جوانحيْ بذُراكا

ثروةُ العلمِ لا تُنالُ بيسرٍ
إذ رؤاها في الناسِ غيرُ رؤاكا

❖ ❖ ❖

الشيخ الدكتور عبد الجبار الرفاعي

سـيـرة فـكـريـة

١- مواليد ذي قار – العراق، سنة ١٩٥٤.

٢- دكتوراه فلسفة إسلامية، بتقدير امتياز، ٢٠٠٥.

٣- ماجستير علم كلام، ١٩٩٠.

٤- بكالوريوس دراسات إسلامية، ١٩٨٨.

٥- دبلوم فني زراعي، ١٩٧٥.

٦- انخرط في دراسة العلوم الإسلامية في الحوزة العلمية في النجف الأشرف سنة ١٩٧٨، وحضر دراسة المقدمات وبعض السطوح فيها، ثم أكمل بقية دراسة السطوح والبحث الخارج في الحوزة العلمية في قم. وقد تتلمذ في المنطق والنحو والصرف والبلاغة والفقه وأصول الفقه من المقدمات والسطوح على الشهيد الشيخ حسين جودة والشهيد الشيخ عبدالأمير الساعدي، والشيخ أحمد البهادلي والشيخ هادي آل راضي والشيخ باقر الأيرواني والسيد أحمد المددي. ودرس بعض تجريد الاعتقاد في علم الكلام على الشهيد السيد محمد محمد صادق الصدر، وقسما من منظومة السبزواري على السيد مسلم الحلي، والعقائد على الشيخ أحمد البهادلي، في الحوزة العلمية في النجف. كما درس في الحوزة العلمية في قم: بداية الحكمة على الشيخ باقر الأيرواني، ونهاية الحكمة على الشيخ غلام رضا الفياضي، والأسفار الأربعة على الشيخ عبدالله الجوادي الآملي. وتمهيد القواعد لإبن تركه، وفصوص الحكم لإبن عربي على السيد كمال الحيدري. كذلك حضر دروس البحث الخارج في الفقه وأصول الفقه لمدة ثمان سنوات، في الحوزة العلمية في قم، حتى تأهل علمياً للاستناد إلى نظره في الاستنباط الفقهي: عند السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، والشيخ محمد حسين الوحيد الخراساني، والسيد أحمد المددي، والشيخ باقر الإيرواني، والشيخ محمد هادي آل راضي.

٧ - أصدر مجلة قضايا إسلامية بالتعاون مع الشهيد الشيخ مهدي العطار، ورأس تحريرها للسنوات ١٩٩٤- ١٩٩٨.

٨- أصدر مجلة قضايا إسلامية معاصرة سنة ١٩٩٧ ويرأس تحريرها، وهي مازالت تصدر في بيروت، صدر منها ستة وخمسون عدداً.

٩- أصدر سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة، ورأس تحريرها، التي صدر منها أكثر من مئة كتاب في بيروت.

١٠- أصدر سلسلة كتاب فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، ورأس تحريرها، التي صدر منها ثلاثون كتاباً مرجعياً في بيروت.

١١- أصدر سلسلة كتاب ثقافة التسامح الدورية في بغداد، ورأس تحريرها، التي صدر منها خمسة عشر كتاباً.

١٢- أصدر سلسلة كتاب فلسفة وتصوف في بيروت، التي صدر منها عشرة كتب، ورأس تحريرها.

١٢- أصدر سلسلة كتاب تحديث التفكير الديني في بيروت سنة ٢٠١٣، التي صدر منها خمسة كتب، ويرأس تحريرها.

١٤- أستاذ دراسات عليا لمادة الفلسفة الإسلامية والمنطق وعلم الكلام وأصول الفقه والفقه.

١٥- أشرف وناقش على أكثر من خمسين رسالة دكتوراه وماجستير في الفلسفة وعلم الكلام وأصول الفقه والفقه والدراسات الإسلامية.

١٦- مدير مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد.

١٧- مدير دار التوحيد للبحث والتأليف والنشر١٩٨٢ ـ ١٩٨٤.

١٨- مستشار تحرير مجلات ودوريات: الوعي المعاصر الصادرة في بيروت، الحياة الطيبة الصادرة في بيروت، نصوص معاصرة الصادرة في بيروت، التوحيد الصادرة في بيروت، الفكر الإسلامي الصادرة في لندن، مقابسات الصادرة في بغداد، سلسلة كتاب التوحيد الدوري، الصادر عن مجلة التوحيد، دراسات إسلامية الصادرة عن بيت الحكمة ببغداد، مدارك في بغداد، ومجلة الكوفة الصادرة عن جامعة الكوفة.

١٩- ساهم في عشرات المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية بتقديم محاضرات وبحوث ودراسات.

٢٠- نشر عشرات البحوث والمقالات في مختلف الدوريات الثقافية والأكاديمية.

٢١- منح الجائزة الأولى للمؤرخ العلامة السيد حسن الأمين في لبنان على جهوده العلمية والثقافية، سنة ٢٠٠٣.

٢٢- الجائزة الأولى لكتاب الوحدة الإسلامية في طهران على جهوده في الكتابة والنشر والدعوة للوحدة والعيش سوياً في فضاء التنوع والاختلاف، سنة ٢٠٠٥.

٢٣- الجائزة الأولى للشهيدين الصدرين على أطروحته للدكتوراه، وشاركت فيها حدود ٢٠٠ أطروحة دكتوراه وماجستير صيف ٢٠٠٩، والتي نظمها مكتب الشهيد الصدر في قم.

٢٤- الدرع الذهبي للحركة الثقافية بأنطلياس في لبنان، لدوره في إغناء التراث الثقافي في لبنان والعالم العربي، سنة ٢٠١٣

٢٥- مستشار ثقافي في رئاسة جمهورية العراق، منذ ٢٠٠٦/٩/١ حتى اليوم.

الآثار المطبوعة:

١- نظرات في تزكية النفس، ١٩٨٥.
٢- حركة القومية العربية: دراسة نقدية في بواعثها الأيديولوجية، ١٩٨٥.
٣- مصادر الدراسة عن الدولة والسياسة في الإسلام، ١٩٨٦.
٤- التبليغ والأعلام الإسلامي، ١٩٨٩.
٥- معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت في (١٢) اثني عشر مجلداً، ٩٩١ ـ ١٩٩٥.
٦- ترجمة كتاب شرح المنظومة في الفلسفة الإسلامية للأستاذ مرتضى المطهري، في أربعة أجزاء ١٩٩٢- ١٩٩٣.
٧- معجم الدراسات القرآنية (مجلدان) ١٩٩٣.
٨- متابعات ثقافية: مراجعات وقراءات نقدية في الثقافة الإسلامية، ١٩٩٣ .
٩- المرأة والأسرة في الإسلام، ١٩٩٣.
١٠- معجم المطبوعات العربية في إيران، ١٩٩٣.
١١- موجز تاريخ الطباعة، ١٩٩٤.
١٢- إحياء التراث العربي في إيران منذ ظهور الطباعة حتى سنة ١٩٩٢. نشر سنة ١٩٩٤.
١٣- ترجمة كتاب: محاضرات في الفلسفة الإسلامية للأستاذ مرتضى المطهري، ١٩٩٤.
١٤- الاختراق الثقافي: معجم ببليوغرافي تحليلي، ١٩٩٥.
١٥- موسوعة مصادر النظام الإسلامي، في (١٠) عشرة مجلدات، ١٩٩٦ .
١٦- منهج السيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكر الإسلامي، ١٩٩٧ (رسالة ماجستير).
١٧- تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية، ٢٠٠٠.
١٨- مناهج التجديد، ٢٠٠٠.
١٩- الفكر الإسلامي المعاصر: مراجعات تقويمية، ٢٠٠٠.
٢٠- محاضرات في أصول الفقه (مجلدان)٢٠٠٠.
٢١- مبادئ الفلسفة الإسلامية (مجلدان)٢٠٠١.
٢٢- جدل التراث والعصر، ٢٠٠١.
٢٣- مدرسة أهل البيت في المدينة والكوفة، ٢٠٠١.
٢٤- تحقيق ودراسة كتاب: موجز في أصول الدين للسيد محمد باقر الصدر، ٢٠٠١.
٢٥- فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة، ٢٠٠١.
٢٦- علم الكلام الجديد وفلسفة الدين٢٠٠٢.
٢٧- مقاصد الشريعة، ٢٠٠٢.
٢٨- نحن والغرب: جدل الصراع والتعايش، ٢٠٠٢.
٢٩- الاجتهاد الكلامي: مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد، ٢٠٠٢ .

٣٠- ترجمة كتاب: العقلانية والمعنوية (بالاشتراك) للأستاذ مصطفى ملكيان، ٢٠٠٥..
٣١- ترجمة كتاب: التدين العقلاني، (بالاشتراك) للأستاذ مصطفى ملكيان، ٢٠٠٥.
٣٢- مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد، ٢٠٠٥.
٣٣- الإسلام المعاصر والديمقراطية، ٢٠٠٥.
٣٤- التسامح ومنابع اللاتسامح، ٢٠٠٥.
٣٥- الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، ٢٠٠٥ (رسالة دكتوراه في حوالي ١٠٠٠ صفحة).
٣٦- التسامح ليس منة أو هبة، ٢٠٠٦.
٣٧- معجم ما كتب في الحج والزيارة، ٢٠٠٧.
٣٨- تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، ٢٠١٠.
٣٩- إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، ٢٠١٢.

كتب المواد التالية لـ"موسوعة الفلسفة العربية المعاصرة":

١- محمد حسين الطباطبائي.
٢- داريوش شايغان.
٣- حسين نصر.
٤- أحمد فرديد.
٥- علي شريعتي.
٦- محمد حسين النائيني.

المؤلفات غير المطبوعة:

١- شرح كتاب "كفاية الأصول"، للشيخ محمد كاظم المعروف بالآخوند الخراساني، في خمسة مجلدات.
٢- شرح كتاب "نهاية الحكمة"، للسيد محمد حسين الطباطبائي، في ثلاثة مجلدات.
٣- شرح كتاب "دروس في علم الأصول، الحلقة الثالثة"، في مجلدين.
٤- شرح كتاب "المنطق"، للشيخ محمد رضا المظفر، في مجلدين.

يلخص الدكتور عبد الجبار الرفاعي رؤيته في تحديث التفكير الديني وتنمية وتطوير مجتمعنا فيما يلي:

١- الإنسان كائن متدين، وان اختلفت تجليات التدين، وتباينت التعبيرات الدينية في حياته، تبعا لتنوع البشر واختلافهم. والحياة لا تطاق من دون خبرات وتجارب دينية، ذلك أن نزعة التدين تمثل ظمأ انطولوجيا لا يروى، إلا من خلال التواصل مع المطلق. ويمكن أن تظل تلك الخبرات والتجارب على الدوام منبع الهام التراحم والمحبة والجمال في

العالم، ولكن حين يجري التلاعب بالدين، فيعاد تكوينه، ويشوه فهمه بتفسير همجي متوحش، ينقلب إلى الضد، ويتحول هذا التفسير للدين إلى إعصار يبدد كل مسعى إنساني بناء، ويحطم الكثير من معطيات الحياة البشرية ومكاسبها الرائعة عبر التاريخ. وليس بوسعنا بناء بلادنا إلا بإشاعة فهم عقلاني متسامح للدين، يبعث الأبعاد التنزيهية العميقة في جوهره، ويعمم صورته الإنسانية، تلك الصورة المغايرة لما تريده الجماعات التي تعمل على تقديم صورة متوحشة زائفة للدين.

٢- التعصب والعدوانية والاستغلال ظواهر متفشية في الاجتماع البشري عبر التاريخ، كما إن عنف الإنسان ضد أخيه الإنسان ليس طارئاً في الحياة، بل هو سلوك بيولوجي، وسياسي، واجتماعي، وثقافي، وديني مترسخ في دنيا الإنسان. العنف احد الظواهر المزمنة في الاجتماع البشري، وهو يهددنا ويلاحقنا حيثما كنا في بلادنا، والسلام هو سبيل الأمن الاجتماعي والعيش سويا، ولا نجاة للعالم إلا بالتشبث بالوسائل السلمية لحل المنازعات، والتخلص من بواعث العنف والحروب، التي أمست تفتك بالإنسان، وتبدد الكثير من مكاسبه ومنجزاته على الأرض.

٣- تشدد رسالة الدين ومقاصده الكلية على إشاعة السلم والتراحم والمحبة بين الناس، والسعي لتجفيف منابع العنف والعدوانية والتعصب، ولكن طالما تم طمس هذه الرسالة ونقض تلك المقاصد، بنشوء جماعات وفرق، لا تقتصر على إعلان انتمائها للدين، وإنما تصر على احتكار تمثيله، وتحرص على مخاصمة أية جماعة غيرها تقدم فهما مختلفا للدين. من هنا ينبغي إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، والإعلان عن أبعاده المعنوية والعقلانية والجمالية والرمزية.

٤- لا يعني التدين الذي ننشده اختزال الإنسان في مجموعة مفاهيم وقيم مثالية، تتعالى على بشريته، وتصيره كائناً سماوياً مجرداً منسلخاً عن عالمه الأرضي، مثلما تريد بعض الاتجاهات الصوفية والدعوات الرهبانية، بل يعني هذا التدين إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، وإيجاد حالة من التوازن والانسجام بين متطلبات جسده من حيث هو كائن بشري، وإمكانية غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون، وتكريس حالة الانتماء للوجود، والتعاطف مع كافة الكائنات الحية والشفقة عليها، وتعزيز أخلاقية المحبة، وتدريب المشاعر والأحاسيس والعواطف على القيم النبيلة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع الهام الطاقة الحيوية الايجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها.

٥- النقد مصدر التطور الفكري والاجتماعي، النقد أساس التقدم، وشريان تحديث كل شيء وتجديده، ولا حياة للتفكير الديني في الإسلام إلا بتواصل المراجعة النقدية واستمرارها، للثقافة والتجربة والتاريخ والتراث والاجتماع الإسلامي. ولا سبيل

للخلاص والإفلات من نفق الانحطاط والتخلف إلا بتجذير ملكة النقد وتكريسها، بنحو يتحول الفكر إلى نقد، ويضج التفكير بالإستفهامات العميقة، ولا تكف أية إجابات عن توليد أسئلة جديدة.

٦- لا سبيل لجني معطيات النزعة الإنسانية في الدين، إلا بالخلاص من التفسيرات المتعسفة القمعية للنصوص، وتخطي المفاهيم والمقولات النمطية المغلقة في اللاهوت الكلاسيكي. وإنما يتحقق ذلك بفتح باب الاجتهاد في علم الكلام، وتحديث التفكير اللاهوتي، ومحاولة بناء لاهوت عقلاني مستنير. وتحديث التفكير اللاهوتي يتطلب تساؤلات واستفهامات جديدة، ومراجعات نقدية للتراث الكلامي، تفضي إلى التحرر من الصورة النمطية للإله، التي تشكلت في سياق الصراعات الدامية، والفتن والحروب العديدة بين الفرق والمذاهب. والسعي لترسيخ صورة للإله، تستوحي صفات: الرحمة والمحبة والسلام، ونحوها من صفات الرحمن، وتستلهم ما يتحلى به الله تعالى من صفاته الجمالية، وأسمائه الحسنى، مثل: (الرحمن، الرحيم، القدوس، السلام، المؤمن، العزيز، البارىء، المصور، الغفار، الوهاب، الرزاق، البصير، الحكم العدل، اللطيف، الحليم، الشكور، الحفيظ، الكريم، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، الحق، المحيي، البر، التواب، العفو، الغفور، الرؤوف، مالك الملك، الغني، النور، ، الهادي، الرشيد، الصبور، ... الخ.

٧- احترام الأفكار التي تؤمن بأهمية انفتاحها على ما يعاندها، وتعزيز روح الانفتاح والعمل مع من نختلف معه.

٨- الدعوة للتعددية والتسامح، وإرساء قيم الاختلاف واحترام الآخر.

٩- إشاعة ثقافة التعايش والحوار بين الأديان والثقافات.

١٠- ترسيخ العقلية النقدية الحوارية، وتجاوز العقلية السكونية المغلقة.

١١- الاستيعاب النقدي للتراث والمعارف الحديثة.

١٢- تمثل روح العصر، والانفتاح على المكاسب الراهنة للعلوم، انطلاقاً من: الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها.

١٣- تطهير التدين من الكراهية والإكراهات.

١٤- تحرير فهم الدين من المقولات والأفكار والمواقف التعصبية والعدوانية.

١٥- اكتشاف الأثر الايجابي للفهم العقلاني الإنساني الحيوي للدين في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

١٦- تبني الرؤى والمفاهيم التي تهدف إلى مواكبة العصر، وتعزز المصالحة بين المتدين والمحيط الذي يعيش فيه.

١٧- تجلية الأبعاد العقلانية والأخلاقية والإنسانية والجمالية والرمزية والمعنوية السامية والمضيئة في الدين والتراث.

١٨- الدعوة لبناء مجتمع مدني تعددي، تسود حياته قيم العيش المشترك، والعمل على تكريس حق الاختلاف، والتثقيف على ان الوطن يتسع للجميع، وللجميع الحق في الحياة والعيش الكريم. وما داموا متساوين في انتمائهم للوطن فأنهم متساوون في حقوقهم، ذلك أن المواطنة هي النصاب، بغض النظر عن أعراقهم ومعتقداتهم.

١٩- تعزيز ثقافة الحريات وحقوق الإنسان وحق الاختلاف، وكل ما يرسخ كرامة الكائن البشري.

٢٠- تحرير المرأة من الأعراف والتقاليد الجاهلية، وحماية كرامتها من الانتهاك والعنف البدني أو العنف الرمزي تحت أية ذريعة، ومنحها الفرص المناسبة للإسهام في بناء المجتمع والانخراط في التنمية الشاملة.

٢١- إعادة بناء المناهج الدراسية ومقررات التربية والتعليم في كافة المراحل، والتركيز على التعليم الأساسي، والاهتمام الفائق بالطفولة في الحضانة والمرحلة الابتدائية، والاتجاه بالتربية على أساس أن الطفل ليس وعاء نملؤه بالتلقين، وإنما هو طاقة خلاقة ينبغي ان نكتشف أحدث أساليب التربية في إيقادها وتوهجها.

٢٢- السعي إلى تجفيف المنابع التي ترسخ مفاهيم الاستبداد، وتعمل على تشويه وتدمير نفسية المواطن.

٢٣- التثقيف على نفي الإكراه في الدين، وتعميم مبدأ (لا إكراه في الدين) والاستناد إليه كمرجعية ومعيار قيمي في التعاطي مع الآخر. وإشاعة العفو، والسلام، والعدل، والإحسان، والتراحم، والحوار، والحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والمحبة، والصبر، والمداراة، والصفح الجميل، والهجر الجميل، وغير ذلك من مقولات ومعاني اللين، واحترام الآخر، والعيش المشترك.

٢٤- تنوير وعي المواطن وتحذيره من الدعوات والمقولات التي ترسخ مفاهيم التعصب، والتحجر، والأحادية، والانغلاق، والعنف، ونفي الآخر.

٢٥- تجذير المفاهيم والشعارات التي تمجد الحياة، وتعمل على تحرير الناس من المقولات الداعية إلى الموت. والخلاص من دعوات تبجيل الموت وهجاء الحياة، ولعن المباهج، والتشهير بوسائل الفرح والمسرة، والابتعاد عن أية محاولة لمناهضة الجمال ومسخ الذوق الفني، فأنه لا خلاص إلا بتكريس النزعات الروحية والمعنوية والفنية والجمالية. والسعي الحثيث لإغلاق الملفات والأحاديث والذكريات المريرة، وتكريس استراتيجية النسيان لكل ما يبعث الكآبة والوجع والحزن مما مضى، والإصرار على استدعاء المرح والغبطة والأمل والتفاؤل.

٢٦- الحرص على حماية البيئة الطبيعية، والكشف عن عناصر التناسق والجمال في الكون، وتنمية وتكريس التصالح والانسجام بين الإنسان ومحيطه.

٢٧- الحذر من الخلط بين الضروري وغيره، ومحاولة تصنيف كافة الحقوق والمتطلبات والرغبات والحاجات إلى ما هو بمثابة الفريضة وما هو بمثابة النافلة، ومن البديهي أن الفريضة تتقدم على سواها. والمعيار الأبدي في ذلك هو ما يمكن أن توفره تلك الأمور من خير للإنسانية، أي أن ترتيب الأولويات يجري تبعاً لأهميتها ومدى استجابتها لبناء الإنسان وتكامله، واستبعاد وحذف كل شيء لا يستجيب لذلك.

٢٨- الوقت هو الحياة، وتقدم أية جماعة بشرية أو شخص يتوقف على المهارة في توظيف الوقت وتنظيم "ميزانية للزمن". وميزانية الزمن تعني برمجة المهام والمشاغل الشخصية بوضوح، فهناك مهام يومية وأخرى أسبوعية وثالثة شهرية ورابعة سنوية، ومنها ما هو مؤقت أو دائم، أو كمالي أو ضروري.... الخ. ما لم نضع ميزانية دقيقة للزمن نغرق في الفوضى وتغيب الجدية عن حياتنا.

٢٩- اللايقين يقتل المعرفة البسيطة، لكنه يحيي المعرفة العميقة والمركبة، لذلك ينبغي أن نحذر من القطعيات والجزميات والنهائيات، فإنه ليس الشك وإنما اليقين هو الذي يقودنا إلى الجزمية والدوغمائية ونفي تنوع الاختلافات، وعدم إدراك أن العالم يتسع لمختلف المفاهيم والأفكار والمعتقدات.

٣٠- القلق المعرفي يمنح عملية التفكير الشرط الضروري للإبداع والديمومة والديناميكية، والفكر لا ينمو ويتطور من دون الأسئلة الحائرة والجريئة، والفكر الحي هو الذي لا يكف عن اجتراح الأسئلة، ويتحرر من الأجوبة المتكررة التي يغيب عنها القلق.

كتب تقديماً لعدة كتب، منها:

١- تقديم موسع لكتاب: موجز في أصول الدين. للسيد محمد باقر الصدر
٢- تقديم لكتاب: أشعة من عقائد الإسلام. للسيد محمد محمد صادق الصدر
٣- إشكالية الإسلام والحداثة. د. عادل عبد المهدي
٤- مقاربات في الاجتماع السياسي والاقتصادي الإسلامي. د. عادل عبد المهدي
٥- ماذا يعني علم الاستغراب. د. حسن حنفي
٦- قضايا التجديد: نحو منهج أصولي. للدكتور حسن الترابي
٧- مقاصد الشريعة. د. طه جابر العلواني
٨- التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة. د. طه جابر العلواني
٩- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر. د. طه جابر العلواني
١٠- جدلية الغيب والإنسان والطبيعة: العالمية الإسلامية الثانية. محمد أبو القاسم حاج حمد

١١- المنهج البنائي في التفسير. د. محمود البستاني
١٢- الواقع والمثال في الفكر الإسلامي. د. جمال الدين عطية
١٣- مدخل إلى علم الكلام الجديد. الشيخ محمد مجتهد شبستري
١٤- إشكاليات التجديد. الأستاذ ماجد الغرباوي
١٥- إشراقات الفلسفة السياسية. السيد كامل الهاشمي
١٦- الاجتهاد التحقيقي. الأستاذ محمد رضا حكيمي
١٧- المدرسة التفكيكية. الأستاذ محمد رضا حكيمي
١٨- القسط والعدل. الأستاذ محمد رضا حكيمي وأخويه
١٩- نحو فقه للمرأة يواكب الحياة. الأستاذ مهدي مهريزي
٢٠- مدخل إلى فلسفة الفقه. الأستاذ مهدي مهريزي
٢١- الحوار والانفتاح على الآخر. الشيخ حسن الصفار
٢٢- قيادة المسيرة في رؤية الإمام السجاد. الشيخ حسين باقر
٢٣- أصالة النبوة في حياة الرسول الأكرم. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٢٤- ستراتيجية السؤال: رؤية قرآنية. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٢٥- الصراع الاجتماعي في القرآن. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٢٦- مداخل جديدة للتفسير. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٢٧- نظرية العلم في القرآن. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٢٨- الاجتهاد والتجديد. الأستاذ إبراهيم العبادي
٢٩- جداليات الفكر الإسلامي المعاصر. الأستاذ إبراهيم العبادي
٣٠- من أعلام الفكر المقاصدي. د. أحمد الريسوني
٣١- إسلامية المعرفة: المبادىء العامة خطة العمل الانجازات. د. إسماعيل راجي الفاروقي. ترجمة وتحرير: د. عبد الحميد أبو سليمان
٣٢- فقه النظرية عند الشهيد الصدر. الأستاذ باقر بري
٣٣- الدستور والبرلمان في الفقه السياسي الشيعي. د. جعفر عبد الرزاق
٣٤- قشة في الميقات. الأستاذ جلال آل أحمد. ترجمة: الأستاذ حيدر نجف
٣٥- منهج الإمام في التفسير. الأستاذ عبد السلام زين العابدين
٣٦- الفكر الإسلامي: تطوراته ومساراته المعاصرة. الأستاذ زكي الميلاد
٣٧- مخاضات الحداثة. د. محمد سبيلا
٣٨- لا تكفير في القرآن. الأستاذ غالب الشابندر
٣٩- الثوابت والمتغيرات في التاريخ الاقتصادي للبلاد الإسلامية. د. عادل عبدالمهدي
٤٠- تنبيه الأمة وتنزيه الملة. الشيخ محمد حسين النائيني.

٤١- المنهجية المعرفية القرآنية. الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد

٤٢- نظرية خلافة الإنسان في فكر محمد باقر الصدر. علي محسن إسماعيل العلاق.

قام بمراجعة وتصحيح وتحرير عدة كتب، منها:

١- مدخل إلى العلوم الإسلامية: المنطق. الأستاذ مرتضى المطهري. ترجمة: حسن علي الهاشمي

٢- مدخل إلى العلوم الإسلامية: الفلسفة. الأستاذ مرتضى المطهري. ترجمة: حسن علي الهاشمي

٣- الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر. الأستاذ مرتضى المطهري. ترجمة: صادق العبادي

٤- فاطمة الزهراء. د. جعفر شهيدي. ترجمة : عبدالله الفريجي

٥- نحو منهجية معرفية قرآنية. د. طه جابر العلواني

٦- إصلاح الفكر الإسلامي. د. طه جابر العلواني

٧- مقدمة في إسلامية المعرفة. د. طه جابر العلواني

٨- مقاصد الشريعة. د. طه جابر العلواني

٩- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي. د. طه جابر العلواني

١٠- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير. د. طه جابر العلواني

١١- التوحيد والتزكية والعمران. د. طه جابر العلواني

١٢- جدلية الغيب والإنسان والطبيعة. الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد

١٣- ابستمولوجية المعرفة الكونية. الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد

١٤- منهجية القرآن المعرفية. الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد

١٥- الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن. الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد

١٦- في الاجتماع المدني الإسلامي: أحكام الجوار في الشريعة الإسلامية. الشيخ محمد مهدي شمس الدين

١٧- فقه العنف المسلح في الإسلام. الشيخ محمد مهدي شمس الدين

١٨- الإسلام والانثروبولوجيا. د. أبو بكر أحمد باقادر

١٩- انثربولوجيا الاسلام. د. أبو بكر أحمد باقادر

٢٠- قراءات في علم اجتماع الأدب. د. أبو بكر أحمد باقادر

٢١- العرفان الشيعي. د. خنجر علي حمية

٢٢- المذهب الذاتي في نظرية المعرفة. السيد كمال الحيدري

٢٣- الإسلام والحداثة: ضرورات تجديد الخطاب. الأستاذ ادريس هاني

٢٤- تعدد الثقافات وآفاق الحوار الثقافي. الأستاذ ادريس هاني

٢٥- جاذبية الحداثة ومقاومة التقليد. د. محمد الشيخ

٢٦- رهانات الحداثة. د. محمد الشيخ

٢٧- مخاضات الحداثة. د. محمد سبيلا

٢٨- الحداثة وما بعد الحداثة. د. محمد سبيلا

٢٩- دفاعا عن العقل والحداثة. د. محمد سبيلا

٣٠- عيال الله. د. محمد الطالبي

٣١- التدين العقلاني. د. مصطفى ملكيان

٣٢- مدخل إلى علم الكلام الجديد. الشيخ محمد مجتهد شبستري

٣٣- إشكالية الإسلام والحداثة. د. عادل عبد المهدي

٣٤- مقاربات في الاجتماع السياسي والاقتصادي الإسلامي. د. عادل عبد المهدي

٣٥- المستنيرون الإيرانيون والغرب. د. مهرزاد بروجردي. ترجمة: حيدر نجف.

٣٦- المدرسة التفكيكية. الأستاذ محمد رضا حكيمي

٣٧- الاجتهاد التحقيقي. الأستاذ محمد رضا حكيمي. ترجمة: حيدر نجف، وخليل العصامي

٣٨- القسط والعدل. لمحمد رضا حكيمي واخويه

٣٩- فقه التحيز. د. عبد الوهاب المسيري

٤٠- قضايا التجديد. د. حسن الترابي

٤١- إسلامية المعرفة. د. إسماعيل الفاروقي

٤٢- ماذا يعني علم الاستغراب. د. حسن حنفي

٤٣- الواقع والمثال في الفكر الإسلامي المعاصر. د. جمال الدين عطية

٤٤- المنهج والاستدلال في الفكر الإسلامي. د. محمد همام

٤٥- حوارات من أجل المستقبل. د. طه عبد الرحمن

٤٦- الفكر المقاصدي. د. أحمد الريسوني

٤٧- من أعلام الفكر المقاصدي. د. أحمد الريسوني

٤٨- أزمة العقل المسلم. د. عبد الحميد أبو سليمان

٤٩- نحو فقه للمرأة يواكب الحياة. الأستاذ مهدي مهريزي

٥٠- مدخل إلى فلسفة الفقه. الأستاذ مهدي مهريزي

٥١- الهندسة المعرفية للكلام الجديد. د. احد قراملكي ترجمة: حسن العمري وحيدر نجف

٥٢- من العلم العلماني إلى العلم الديني. د. مهدي كلشني. ترجمة :سرمد الطائي

٥٣- الاجتماع العربي الإسلامي: مراجعات في التعددية والنهضة والتنوير. السيد محمد حسن الأمين
٥٤- القياس: حقيقته وحجيته. د. مصطفى جمال الدين
٥٥- البحث النحوي عند الأصوليين. د. مصطفى جمال الدين
٥٦- الاستحسان. د. مصطفى جمال الدين
٥٧- الشرق والغرب حين يلتقيان. الأستاذ مصطفى النيفر
٥٨- النص الديني والتراث الإسلامي. د. احميدة النيفر
٥٩- تأملات في المعرفة والسلوك. الشيخ محمد مهدي الآصفي
٦٠- إشكاليات التجديد. د. حسين رحال
٦١- النخبة والايديولوجيا والحداثة. د. سعيد شبار
٦٢- فلسفة الدين من منظور الفكر الإسلامي. د. أبو يعرب المرزوقي
٦٣- دلالات وإشكالات: دراسات في الفلسفة العربية الإسلامية. د. محمد المصباحي
٦٤- شرعية الاختلاف. الشيخ عبد الله اليوسف
٦٥- نحو فهم معاصر للاجتهاد. د. زينب إبراهيم شوربا
٦٦- الابستمولوجيا: دراسة لنظرية العلم في التراث. د. زينب إبراهيم شوربا
٦٧- الحركة الجوهرية ومفهوم التصور والتصديق. د. زينب إبراهيم شوربا
٦٨- النص الرشدي في القراءة الفلسفية المعاصرة. د. علي عبد الهادي
٦٩- مسألة الحرية في مدونة بن عاشور الأستاذ جمال دراويل
٧٠- التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي الأستاذ الطاهر سعود
٧١- إشكالية الفلسفة في الفكر العربي الإسلامي. د. فوزي حامد الهيتي
٧٢- أثر الفارابي في فلسفة ابن خلدون. د. حميد السعيدي
٧٣- المعرفة الصوفية. د. ناجي حسين جودة
٧٤- التصوف عند فلاسفة المغرب. د. ناجي حسين جودة
٧٥- الفلسفة والفشل عند ابن طفيل. الأستاذ فؤاد بن أحمد
٧٦- نقد ابن رشد لإلهيات ابن سينا. د. فيصل غازي مجهول
٧٧- المفكرون الغربيون المسلمون: دوافع اعتناقهم الإسلام. د. صلاح عبدالرزاق
٧٨- الأقليات المسلمة في الغرب. د. صلاح عبد الرزاق
٧٩- التسامح ومنابع اللاتسامح. الأستاذ ماجد الغرباوي
٨٠- إشكاليات التجديد. الأستاذ ماجد الغرباوي

٨١- الاجتهاد والتجديد. الأستاذ إبراهيم العبادي
٨٢- جداليات الفكر الإسلامي. الأستاذ إبراهيم العبادي
٨٣- إشراقات الفلسفة السياسية. السيد كامل الهاشمي
٨٤- أسلمة الذات. السيد كامل الهاشمي
٨٥- إسلاميات في شؤون العصر وقضايا الفكر. السيد كامل الهاشمي
٨٦- منهج الإمام في التفسير. الأستاذ عبد السلام زين العابدين
٨٧- نظرية العلم في القرآن. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٨٨- أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٨٩- الصراع الاجتماعي في القرآن الكريم. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٩٠- مداخل جديدة للتفسير. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٩١- استراتيجية السؤال: رؤية قرآنية. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٩٢- الإمامة والتاريخ. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٩٣- الآخر في القرآن. الأستاذ غالب حسن الشابندر
٩٤- نظرات في الإعداد الروحي. الشيخ حسين معن
٩٥- الدستور والبرلمان في الفكر السياسي الشيعي. الأستاذ جعفر عبد الرزاق
٩٦- الفكر الإسلامي: تطوراته ومساراته المعاصرة. الأستاذ زكي الميلاد
٩٧- المستنيرون: خدمات وخيانات. جلال آل أحمد. ترجمة: حيدرنجف
٩٨- نزعة التغريب. جلال آل أحمد. ترجمة: حيدر نجف
٩٩- قشة في الميقات. جلال آل أحمد. ترجمة: حيدر نجف
١٠٠- الثقافة الإسلامية بين التغريب والتأصيل. د. شلتاغ عبود
١٠١- منهج الإمام السجاد في التوحيد والسلوك والتربية. د. شلتاغ عبود
١٠٢- في السيرة والأدب النبوي الشريف. د. شلتاغ عبود
١٠٣- فقه النظرية عند الشهيد الصدر. الأستاذ باقر بري
١٠٤- محاولات للتفقه في الدين. الأستاذ حسن خليفة
١٠٥- المنهج الفقهي عند الإمام الشهيد الصدر. الأستاذ محمد الحسيني
١٠٦- إسلامية المعرفة عند الشهيد الصدر. الأستاذ حسن العمري
١٠٧- تحولات الفكر الإسلامي المعاصر. الأستاذ سرمد الطائي
١٠٨- الفكر الكلامي عند الشهيد الصدر. الأستاذ عبد الحسن آل نجف

١٠٩- جدلية العلاقة بين العقل والتجربة الاجتماعية عند الامام علي الأستاذ. عبد الرحمن الوائلي

١١٠- المنهج البنائي في التفسير. د. محمود البستاني

١١١- إشكالية المنهج في دراسة الفلسفة الإسلامية. د. إبراهيم العاتي

١١٢- آفاق التجديد الإسلامي. د. إبراهيم العاتي

١١٣- الإسلام والرأي الآخر. الأستاذ حسن السعيد

١١٤- حضارة الأزمة: ماذا قبل الانهيار. الأستاذ حسن السعيد

١١٥- الإمام محمد باقر الصدر: معايشة من قريب. السيد محمد الحيدري

١١٦- قيادة المسيرة في رؤية الإمام السجاد. الشيخ حسين باقر

١١٧- محمد باقر الصدر: تكامل المشروع الفكري والسياسي. د. صائب عبد الحميد

١١٨- الإسلام والغرب. الأستاذ عادل الجبوري

١١٩- الديمقراطية: رؤية إسلامية. الأستاذ ضياء الشكرجي

١٢٠- حركة التاريخ في القرآن الكريم. د. عامر الكفيشي

١٢١- الشريعة تواكب الحياة. الشيخ حسين الخشن

١٢٢- الإسلام والبيئة. الشيخ حسين الخشن

١٢٣- الحوار والانفتاح على الآخر. الشيخ حسن الصفار

١٢٤- النظام السياسي الإسلامي الحديث. د. علي المؤمن

١٢٥- حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية. د. عدنان فرحان

١٢٦- إضاءات في التأصيل الثقافي. د. خضير جعفر

١٢٧- تعليل الشريعة. د. خالد زهري

١٢٨- فلسفة الدين من منظور الفكر الإسلامي. د. أبو يعرب المرزوقي

١٢٩- الفكر السياسي عند الشهيد محمد باقر الصدر. د. طالب الحمداني

١٣٠- المجتمع الديني عند العلامة الطباطبائي. الشيخ محمود الجياشي

١٣١- تطور الكلام الإمامي. الأستاذ علي المدن

١٣٢- الأقليات المسلمة في الغرب. الأستاذ إبراهيم العبادي

١٣٣- الفلسفة الإلهية عند المعتزلة. د. يحيى المشهداني

١٣٤- إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم. د. طه العلواني.

١٣٥- الهرمنيوطيقا؛ الكتاب والسنة. الشيخ محمد مجتهد شبستري.

١٣٦- تأملات في القراءة الإنسانية للدين. الشيخ محمد مجتهد شبستري.

١٣٧- الإسلام. د. فضل الرحمن. ❖

الصــور والوثــائــق



مع الشيخ محمد علي التسخيري ـ الشيخ أبو حيدر الكرادي ـ بيروت ٢٠١٠.



مع سماحة السيد جواد الشهرستاني.



مع السيد جواد الشهرستاني.



مع السيد طالب الرفاعي



مع السيد حسين السيد إسماعيل الصدر.



مع السيد حسين السيد إسماعيل الصدر.



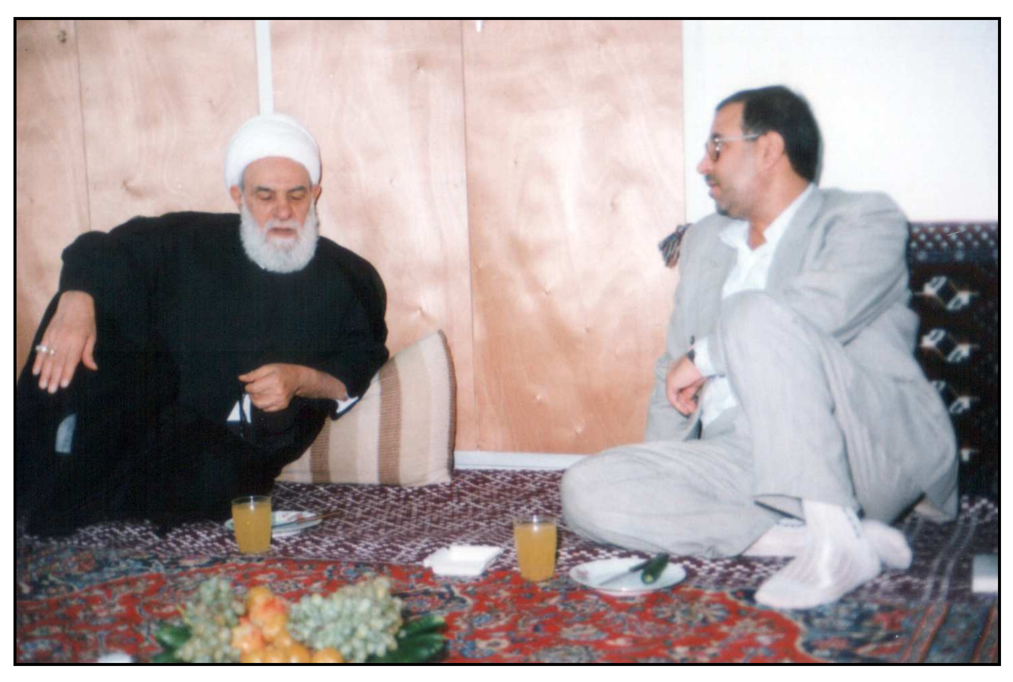
مع السيد محمد حسين فضل الله.



مع السيد حسن الأمين.



مع الشيخ محمد مجتهد شبستري ـ حج ٢٠٠٢.



مع الشيخ محمد مهدي شمس الدين.



مع الشيخ محمد مهدي شمس الدين ١٩٩٥.



مع السيد عبد العزيز الطباطبائي ـ الشيخ الانصاري ـ السيد جواد الشهرستاني ـ الشيخ عبد العزيز الخياط ـ ١٩٩٢.



مع مصطفى ملكيان و د. أبو يعرب المرزوقي حج ٢٠٠٢.



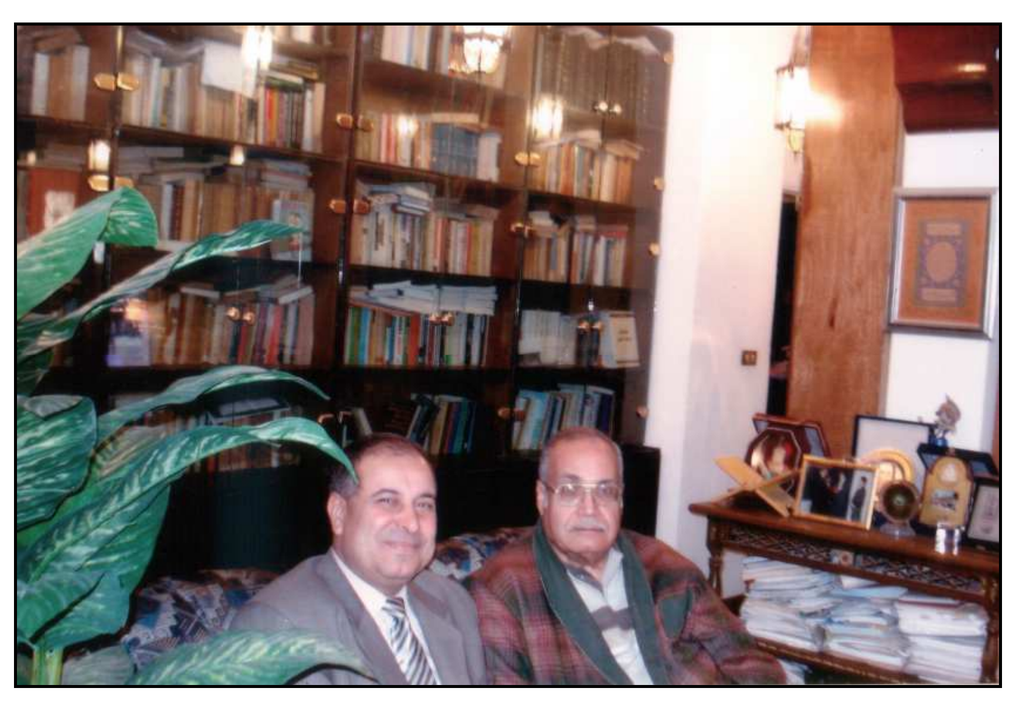
مع السيد جواد الشهرستاني ـ د. إبراهيم العاتي.



مع جبار هزل الشطرة ١٩٧٢.



مع الشيخ جودت سعيد.



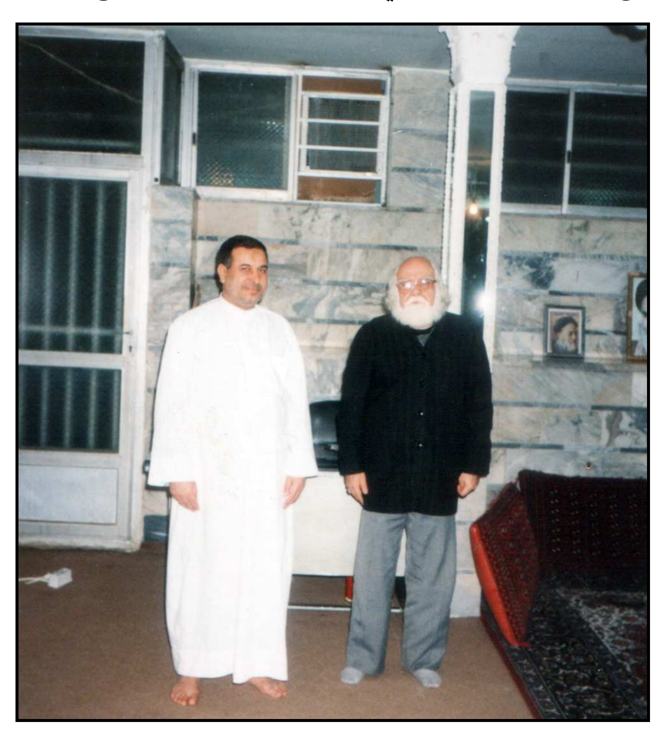
مع د. حسن حنفي القاهرة ٢٠٠٨.



مع أخيه أبي عادل القحطاني.



مع زوجته انتزال الجبوري ـ و د. عبد الله ولد أباه حج ٢٠٠٣.



مع الشيخ محمد رضا حكيمي ١٩٩٩.



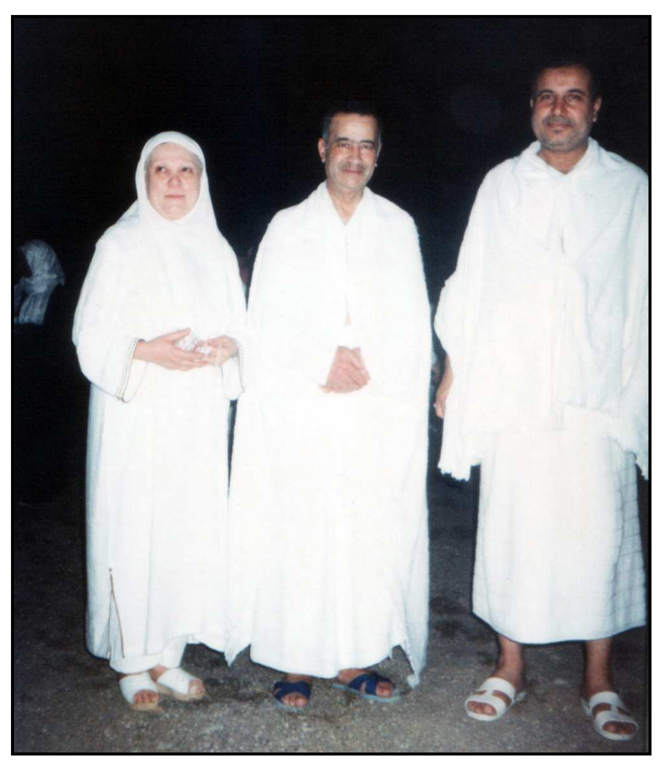
مع الشيخ محمد رضا حكيمي وأصحابه في منزل الرفاعي ـ قم ٢٠٠١.



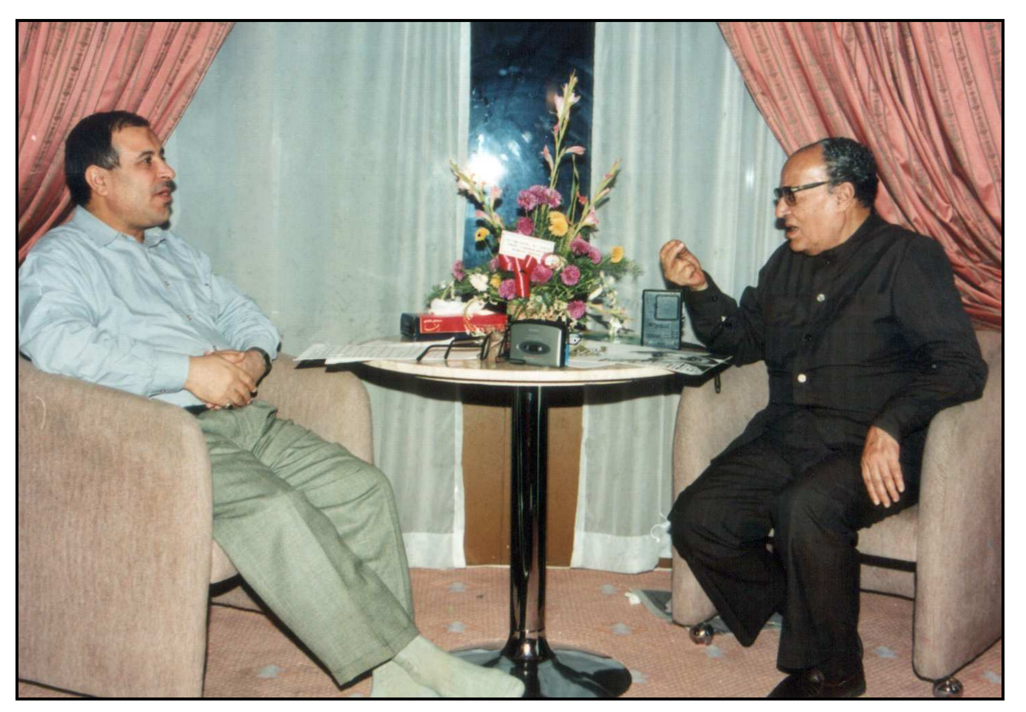
مع أبو تقي البهبهاني ـ محمد جواد صاحبي ـ طهران ١٩٩٥.



مع الدكتور محمد أركون.



مع عبد الوهاب بوحديبه وزوجته حج ٢٠٠٠.



مع جمال البنا ـ طهران ١٩٩٩.



مع مجيد مرادي وجمال البنا ـ طهران ١٩٩٩.



ندوة حول الاجتهاد و التجديد مع د. مهدي محقق -
علي المؤمن - أبو تقي البهبهاني ١٩٩٢.



السيد محمد حسين فضل الله.



السيد محمد حسين فضل الله.



د. الرفاعي يوقع في سجل تشريفات الحركة الثقافية بأنطلياس مع د. مجيد مرادي ـ السيد هاني فحص ـ ناصر الحجاج ـ د. أنطوان سيف.



على منصة الحركة الثقافية بأنطلياس ـ لبنان ٢٠١٣.



مع إبراهيم العبادي د. معن زيادة ـ علي المؤمن ـ ١٩٩٢.



مع أبو بكر باقادر ـ د. حميدة النيفر ـ د. هشام داود ـ د. أبو يعرب المرزوقي حج ٢٠٠٢.



مع عبد الله إبراهيم ـ وأحمد عبد الملك ـ الدوحة ٢٠٠٧.



د. الرفاعي ـ الشيخ عبد الحسين محمد علي البقال ـ السيد عبد العزيز الطباطبائي ـ الشيخ جعفر الهلالي ـ د. محمد جواد الطريحي.



الرفاعي يتسلم الدرع الذهبي للحركة الثقافية بأنطلياس ـ لبنان ٢٠١٣ من د. أنطون سيف ومع نايلة أبي نادر و د. وجيه قانصو.



السيد هاني فحص د. مشتاق الحلو ـ فخري كريم ـ د. علي المعموري ـ أربيل ٢٠٠٨.



بين الشاعر شوقي بزيع و السيد هاني فحص.



من اليسار إبراهيم العبادي ـ د. الرفاعي ـ البروفيسور متحدة ـ محمد سعيد الطريحي ـ د. حسن ناظم في منزل الطريحي ٢١ شباط ٢٠١٤.



من اليمين إبراهيم العبادي ـ محمد سعيد الطريحي ـ د. الرفاعي ـ البروفيسور روي برويز متحدة الأستاذ بجامعة هارفرد ـ د. حسن ناظم.



مع د. محمد أركون ـ د. هشام داود ٢٠٠٨.



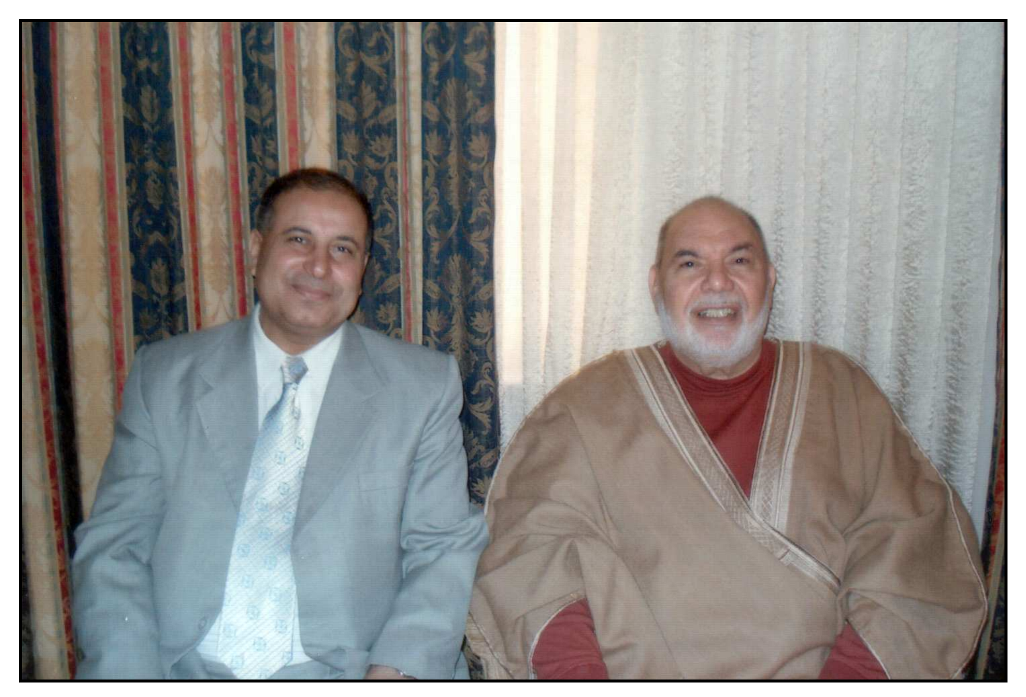
مع سمير مرقص.



مع د. محمد جواد الطريحي والشيخ رياض الناصري، وعلي المؤمن وماجد الغرباوي، وأبو غدير.



مع نوري الراوي فخري كريم ـ كامل شياع.



مع د. طه العلواني.



مع عبد الأمير المؤمن - د. طه العلواني - ماجد الغرباوي - منزل الرفاعي - قم ١٩٩٨.



مع السيد محمد حسن الأمين ـ السيد مهدي الأمين ـ السيد هاني فحص ـ

دير كيفا ـ لبنان ٢٠٠٣.



مع حسن المصطفى ـ السيد كامل الهاشمي ـ هاني فحص ـ منزل الهاشمي ـ

البحرين ٢٠٠٤.



الشيخ محمد مهدي الآصفي.



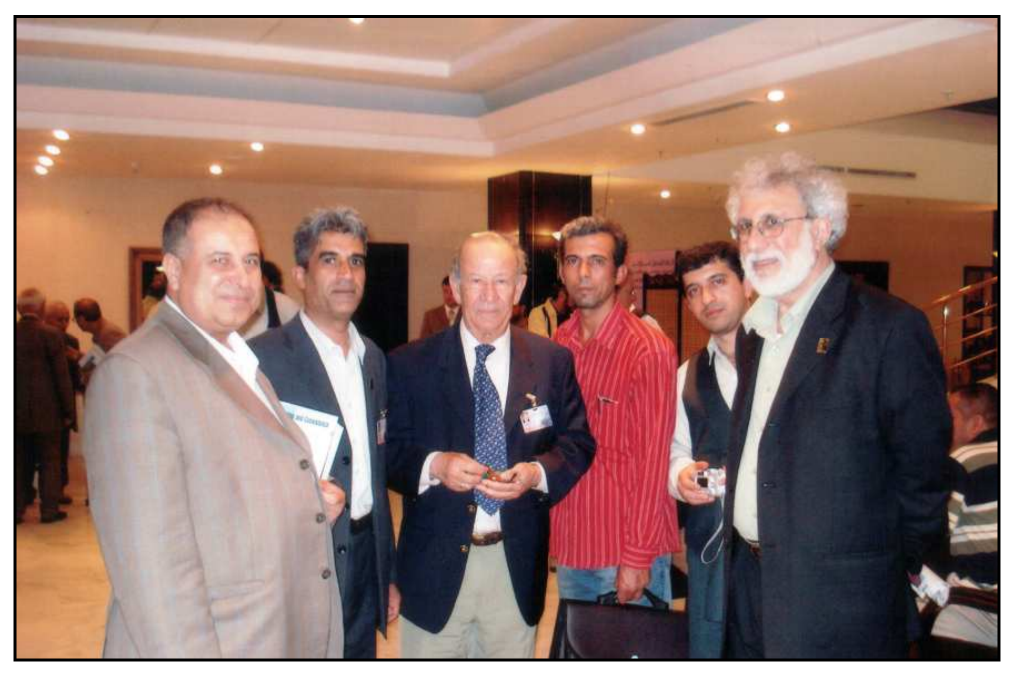
د. محمد جواد الطريحي والشيخ رياض الناصري و د. مهدي محقق، ماجد الغرباوي، علي المؤمن، أبو تقي البهبهاني.



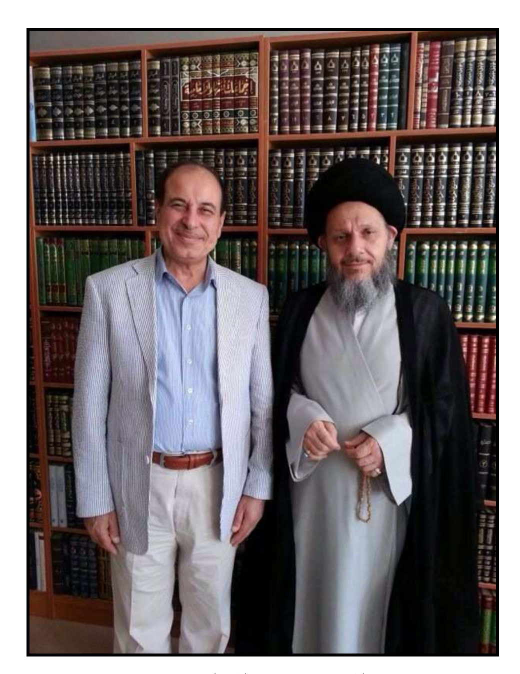
مع الدكتور عادل عبد المهدي المنتفجي.



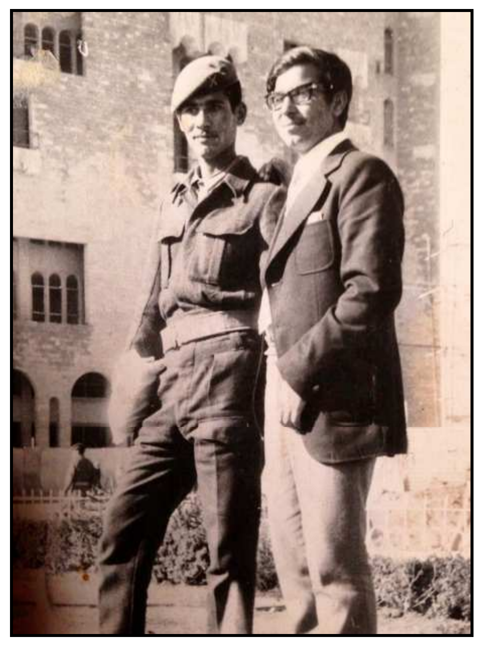
مع الدكتور عادل عبد المهدي ـ منزل الرفاعي ١٩٩٣.



مع أحمد عبد الحسين - د. صلاح نيازي - د. علي المعموري - غالب الشابندر.



مع السيد كمال الحيدري.



مع صالح السعيدي الموصل ١٩٧٣.



السيد هاني فحص ـ حامد الخفاف بيروت ٢٠٠٣.



مع د. جواد الموسوي ـ د. عقيل مهدي ـ د. حسام الالوسي ـ د. حسين أمين ـ
السيد عادل عبد المهدي ـ د. محمد الشمري ـ د. فريد يس.



مع د. خضير الخزاعي ـ أبو مجتبى.



مع د. عبد الله النفيسي ـ د. عبد اللّه إبراهيم ـ الدوحة ٢٠٠٧.



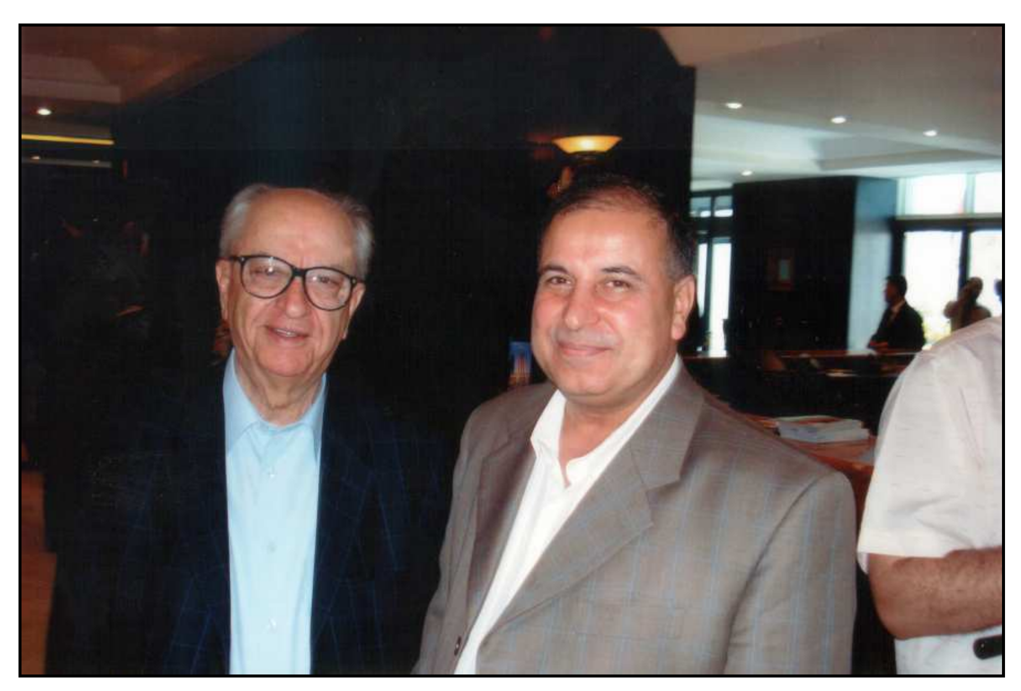
مع د. شرف الدين ماجدولين ـ د. عبد اللّه إبراهيم ـ د. سعيد بنكراد ـ سليمانية ٢٠١٣.



مع د. محمد عمارة.



مع الانثروبولوجي موريس غودوليه ـ و د. هشام داود ـ و د. محمد عطوان ـ عمان.



مع كريم مروة.



مع ماجد الغرباوي نبيل شعبان ـ صباح الكعبي ـ د. حسن حنفي ـ صادق العبادي ـ طالب العيداوي ـ طهران ٢٠٠٢.



مع د. زكي الميلاد - د. نادية مصطفى - د. سيف عبد الفتاح - محي الدين عطية - د. أماني أبو الفضل - اسطنبول ٢٠٠٦.



مع د. عبد الوهاب المسيري - د. عبد الحميد أبو سليمان - اسطنبول ٢٠٠٦.



مع د. محسن جوادي ـ د. فريد شكري ـ حج ٢٠٠٢.



مع علي المؤمن ـ د. محمد علي الشهرستاني ـ د. حسن جابر ـ د. طلال عتريسي.



مع عقيل المندلاوي والسيد طاهر الحمود ـ د. حامد الراوي ٢٠١٣.



مع د. حيدر سعيد زهير الجزائري.



من اليسار ـ د. حيدر سعيد ـ السيد جواد الخوئي ـ د. سعود المولى ـ زهير الجزائري ـ
د. عباس عاجل ـ باريس ٢٠١٣.



مع د. نصير الكعبي الاب د. أمير ججي ـ السيد جواد الخوئي ـ د. حيدر سعيد ـ
د سعود المولى ـ زهير الجزائري ـ فارس حرام ـ باريس ٢٠١٣.



مع د. الحاج دواق - د. حماد الذويب - هاجر القحطاني - المغرب ٢٠١٣.



مع مصطفى المهاجر - والسيد ادريس هاني - دمشق ٢٠٠٢.



مع د. عبد اللّٰه ولد أباه ـ د. عدنان المقراني ـ د. علي الديري ـ د. أبو بكر باقادر.



مع محمد جواد صاحبي ـ والشيخ محمد إبراهيم جناتي.



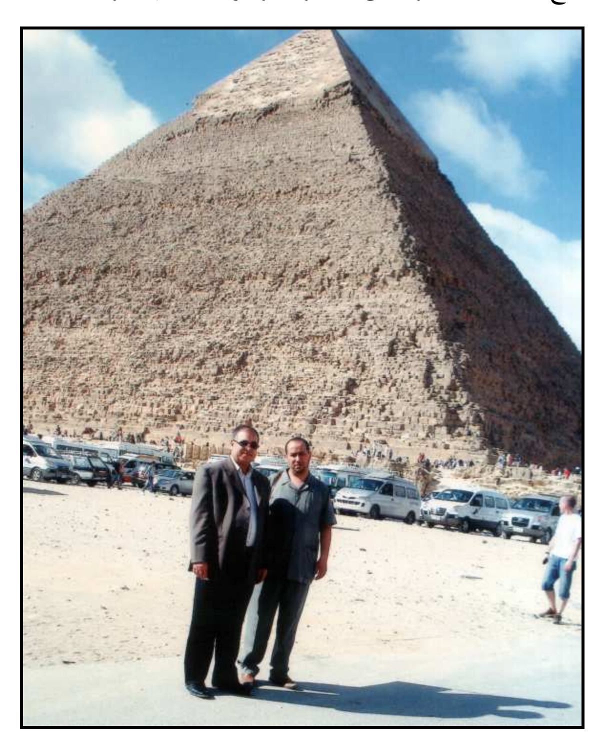
مع مدير المعهد الألماني للدراسات الشرقية ـ د. مصطفى النجار ـ
د. لزلي ترامونتيني ـ بيروت ٢٠٠٣.



مع وليد الزاملي ـ السيد نوري البطاط ـ أبو عادل القحطاني ـ د. ضياء الأسدي ـ عدنان الحلو ـ
حسن الهاشمي ـ مضر الحلو ـ د. مشتاق الحلو.

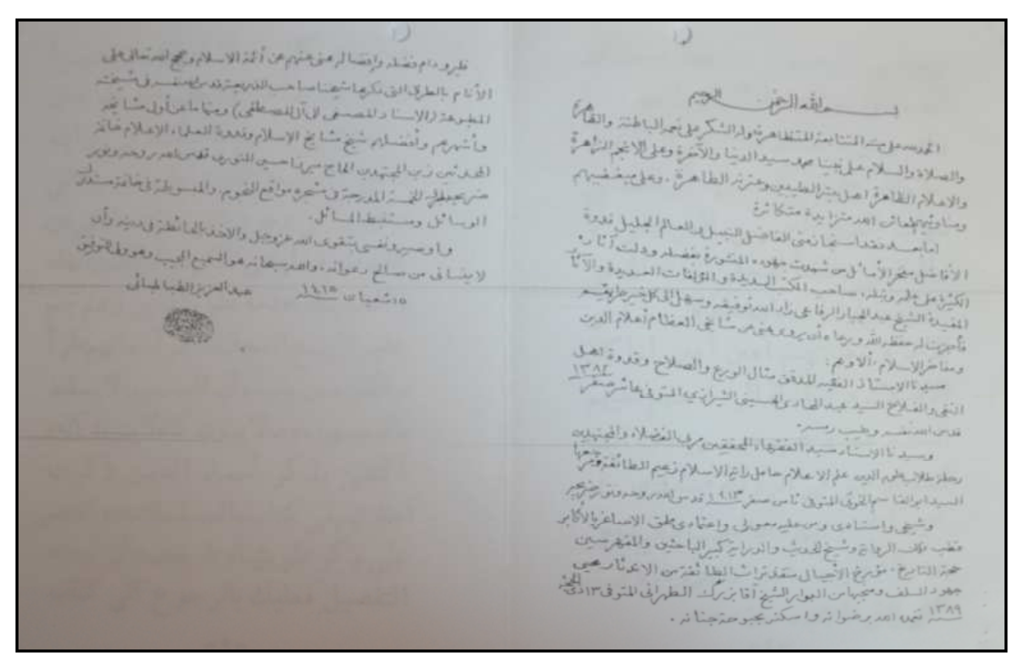


مع محمد ناصر على جسر نهر بويب ـ البصرة ٢٠٠٧.



مع محمد همام ـ القاهرة ٢٠٠٨.

الوثائق



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمه المتتابعة المتظاهرة وله الشكر على نعمه الباطنة والظاهرة
والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد الدنيا والآخرة وعلى الأنجم الزاهرة
والأعلام الطاهرة أهل بيته الطيبين وعترته الطاهرة، وعلى مبغضيهم [illegible]
وما دنيه الجهات الله متواترة متكاثرة

أما بعد فقد استجازني الفاضل النبيل والعالم الجليل قدوة
الأفاضل مفخر الأماثل من شهدت جهوده المشكورة بفضله ودلت آثاره
الكثيرة على علمه ونبله، صاحب المكتبة الفريدة والمؤلفات العديدة والآثار
المفيدة الشيخ عبد الجبار الرفاعي زاد الله توفيقه وسهل إلى الخير طريقه
فأجزت له حفظه الله ورعاه أن يروي عني عن مشايخي العظام أعلام الدين
ومفاخر الإسلام الأعلام:

سيدنا الأستاذ الفقيه المحقق مثال الورع والصلاح وقدوة أهل
التقى والصلاح السيد عبد الهادي الحسيني الشيرازي المتوفى عاشر صفر ١٣٨٢
قدس الله نفسه وطيب رمسه.

وسيدنا الأستاذ سيد الفقهاء المحققين مربي الفضلاء والمجتهدين
ومحط رحال طلاب العلوم الدينية علم الأعلام حامل راية الإسلام زعيم الطائفة ومرجعها
السيد أبو القاسم الخوئي المتوفى ثامن صفر ١٤١٣ قدس الله روحه ونور ضريحه

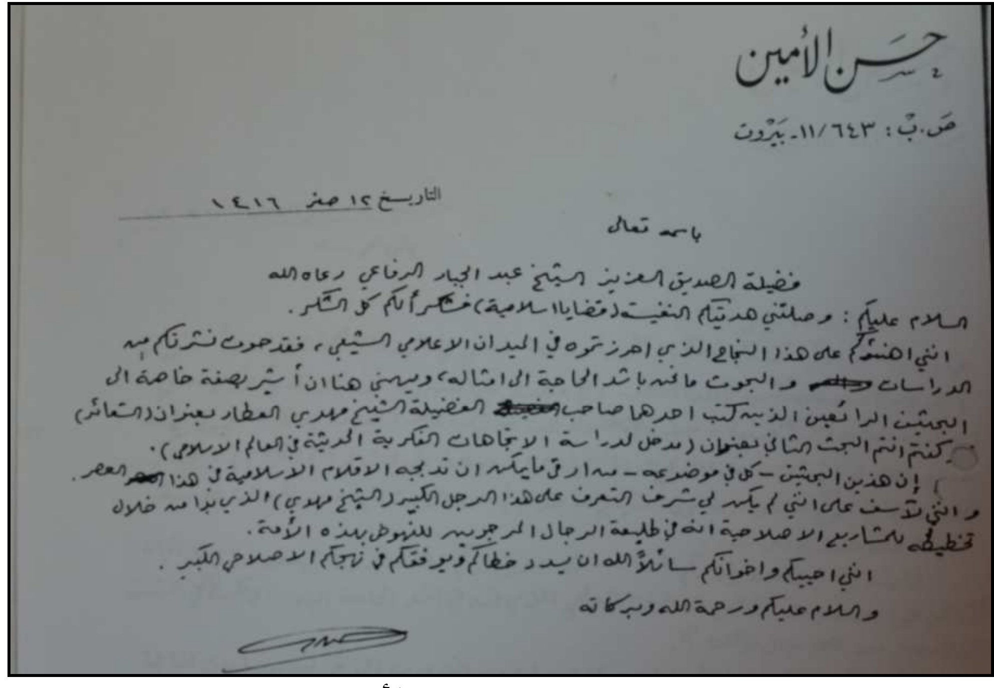
وشيخي وأستاذي ومن عليه معولي واعتمادي ملحق الأصاغر بالأكابر
قطب فلك الرواية وشيخ الحديث والدراية كبير الباحثين والمفهرسين
حجة التاريخ مؤرخ الأجيال منقذ تراث الطائفة من الاندثار محيي
جهود السلف [illegible] الشيخ آقا بزرگ الطهراني المتوفى ١٣ ذي الحجة
سنة ١٣٨٩ تغمده الله برضوانه وأسكنه بحبوحة جنانه.

عليه دام فضله [illegible] عن أئمة الإسلام وحجج الله تعالى على
الأنام بالطرق التي ذكرها شيخنا صاحب الذريعة قدس سره في مشيخته
المطبوعة (الإسناد المصفى إلى آل المصطفى) ومنها ما عن أوثق مشايخه
وأشهرهم وأفضلهم شيخ مشايخ الإسلام وبقية العلماء الأعلام خاتم
المحدثين زين المجتهدين الحاج ميرزا حسين النوري قدس الله روحه ونور
ضريحه [illegible] المدرجة في شجرة مواقع النجوم والمسلسلة في خاتمة مستدرك
الوسائل ومستنبط المسائل.

وأوصيه ونفسي بتقوى الله عز وجل والأخذ بالاحتياط في دينه وأن
لا ينساني من صالح دعواته، والله سبحانه هو السميع المجيب وهو ولي التوفيق

١٥ شعبان ١٤١٣ عبد العزيز الطباطبائي

إجازة الحديث من العلامة عبد العزيز الطباطبائي.



حسن الأمين

ص.ب: ١١/٦٤٣ - بيروت

التاريخ ١٢ صفر ١٤١٦

باسمه تعالى

فضيلة الصديق العزيز الشيخ عبد الجبار الرفاعي رعاه الله

السلام عليكم: وصلتني هديتكم النفيسة (قضايا إسلامية) فشكراً لكم كل الشكر.

انني أهنئكم على هذا النجاح الذي احرزتموه في الميدان الاعلامي الشيعي، فقد حوت نشرتكم من الدراسات والبحوث ما نحن بأشد الحاجة الى أمثاله، ويهمني هنا ان أشير بصفة خاصة الى البحثين الرائعين الذين كتب احدهما صاحب الفضيلة الشيخ مهدي العطار بعنوان (الشعائر) وكتبتم انتم البحث الثاني بعنوان (مدخل لدراسة الاتجاهات الفكرية الحديثة في العالم الإسلامي).

إن هذين البحثين - كل في موضوعه - من أرقى ما يمكن ان تدبجه الأقلام الإسلامية في هذا العصر.

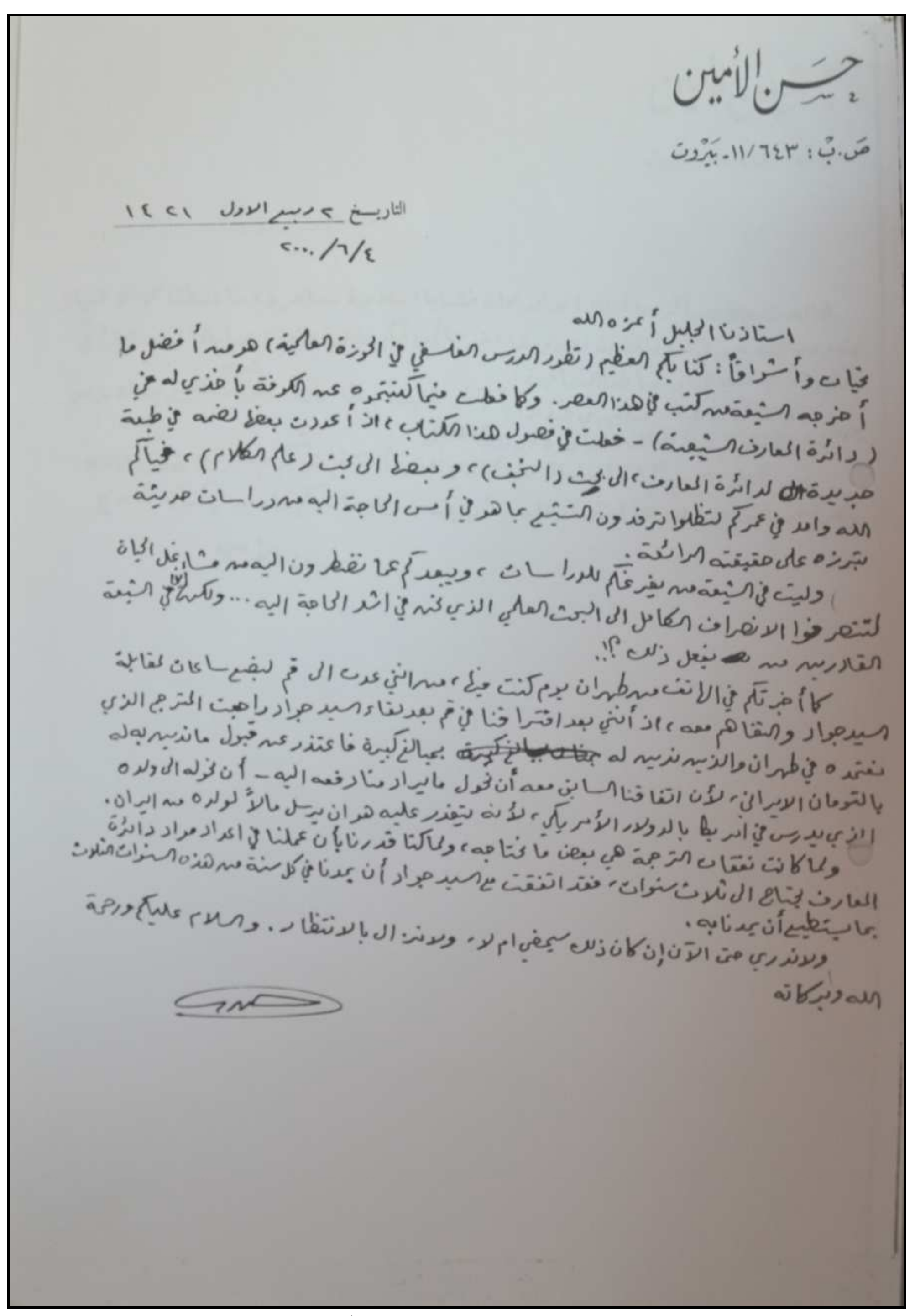
واني لآسف على انني لم يكتب لي شرف التعرف على هذا الرجل الكبير (الشيخ مهدي) الذي بدا من خلال تخطيطه لمشاريعه الاصلاحية انه في طليعة الرجال المرجوين للنهوض بهذه الأمة.

انني احييكم واخوانكم سائلاً الله ان يسدد خطاكم ويوفقكم في نهجكم الاصلاحي الكبير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حسن

رسالة من السيد حسن الأمين.



حسن الأمين

ص.ب: ١١/٦٤٣ ـ بيروت

التاريخ ٢ ربيع الاول ١٤٢١

٤/٦/٢٠٠٠

استاذنا الجليل أعزه الله

تحيات وأشواقاً: كتابكم العظيم (تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية) هو من أفضل ما أخرجه الشيعة من كتب في هذا العصر. وكما فطنتم فيما كتبتموه عن الكوفة بأخذي له عن (دائرة المعارف الشيعية) ـ فعلت في فصول هذا الكتاب، اذ أعددت بعض نصه في طبعة جديدة لدائرة المعارف، الى بحث (النجف)، وبعضه الى بحث (علم الكلام)، فحياكم الله وامد في عمركم لتظلوا ترفدون التشيع بما هو في أمس الحاجة اليه من دراسات حديثة تبرزه على حقيقته الرائعة.

وليت في الشيعة من يفرغكم للدراسات، ويبعدكم عما تضطرون اليه من مشاغل الحياة لتنصرفوا الانصراف الكامل الى البحث العلمي الذي نحن في أشد الحاجة اليه... ولكن من في الشيعة القادرين من يفعل ذلك؟!..

كما أخبرتكم في الهاتف من طهران يوم كنت فيها، فقد سرني عودي الى قم لبضع ساعات لمقابلة السيد جواد والتفاهم معه، اذ انني بعد افتراقنا في قم بعد لقاء السيد جواد راجعت المترجم الذي نعتمده في طهران والذين ندين له ~~بمبالغ كبيرة~~ بمبالغ كبيرة فاعتذر عن قبول ما ندين به له بالتومان الايراني، لأن اتفاقنا السابق معه أن نحول ما يراد منا دفعه اليه ـ أن نحوله الى ولده الذي يدرس في امريكا بالدولار الامريكي، لأنه يتعذر عليه هو ان يرسل مالاً لولده من ايران.

ولما كانت نفقات الترجمة هي بعض ما نحتاجه، ولما كنا قدرنا بأن عملنا في اعداد مواد دائرة المعارف يحتاج الى ثلاث سنوات، فقد اتفقت مع السيد جواد أن يمدنا في كل سنة من هذه السنوات الثلاث بما يستطيع أن يمدنا به،

ولا ندري حتى الآن إن كان ذلك سيمضي ام لا، ولا نزال بالانتظار. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رسالة من السيد حسن الأمين.

حسن الأمين

ص.ب: ٦٤٣/١١ـ بيروت

التاريخ ١٧ جمادى الاولى ١٤١٩
٨ أيلول ١٩٩٨

باسمه تعالى

استاذنا الجليل الشيخ عبد الجبار ايده الله

السلام عليكم: وصلتني رسالتكم الكريمة، وسرني ان لكم مقالاً آخر غير مقالكم عن مدرسة الكوفة، وهو عن مدرسة اهل البيت في المدينة، وهو بدون شك على مستوى مقال مدرسة الكوفة الذي اؤكد لكم انه على أعلى مستوى دراسي اكاديمي، وانه من أنفس ما حوته (دائرة المعارف) من دراسات، وانكم من كنوزنا التي نعتز ونفاخر بها.

يبدو أن صحتي لن تساعدني على السفر الى ايران في اوائل تشرين الاول كما كنت عازماً، لذلك فاني ارجو منكم ان تساعدوني على الوصول بدائرة المعارف الى ما يمكننا الوصول اليه من الكمال.

١:- اريد مقالكم عن مدرسة المدينة

٢:- اعداد دراسة مستقلة بعنوان (مدرسة الشيعة)، فمدرسة الشيعة انطلقت وسارت منتظمة منذ مدرسة الشيخ المفيد في بغداد. فماذا كان حال الدراسة الشيعية قبل مدرسة الشيخ المفيد، ومن هم العلماء الكبار الذين نبغوا قبله؟ وهذا يقودنا الى ما آل اليه امر مدرسة الامام الصادق (ع) بعده على عهود بقية الأئمة (ع)

٣:- التفكير في المواضيع التي يمكن ان تدرج في دائرة المعارف فيما يتعلق بتاريخ الشيعة السياسي والعلمي والادبي والفكري، والاستعانة بمن تريدونه من الاصدقاء في ذلك.

٤:- يجب ان تكون لنا دائرة المعارف التي تتفق مع ما لنا من مقام في تاريخ العالم الاسلامي، بل في تاريخ العالم كله.

ومن المؤسف ان من لديهم الامكانيات الكافية لتحقيق هذا الأمر لا يعرفون قيمته، فلا يولونه اي اهتمام. فعلينا نحن بامكانياتنا الضعيفة ان نحقق ما يمكننا تحقيقه.

وصلت مجلة التوحيد فنحمد الله ان هذا الجيل بدأ يخلف السيد محسن الأمين، فشكراً لكم وللطالبين الكريمين اللذين احسنا الكتابة كل الاحسان.

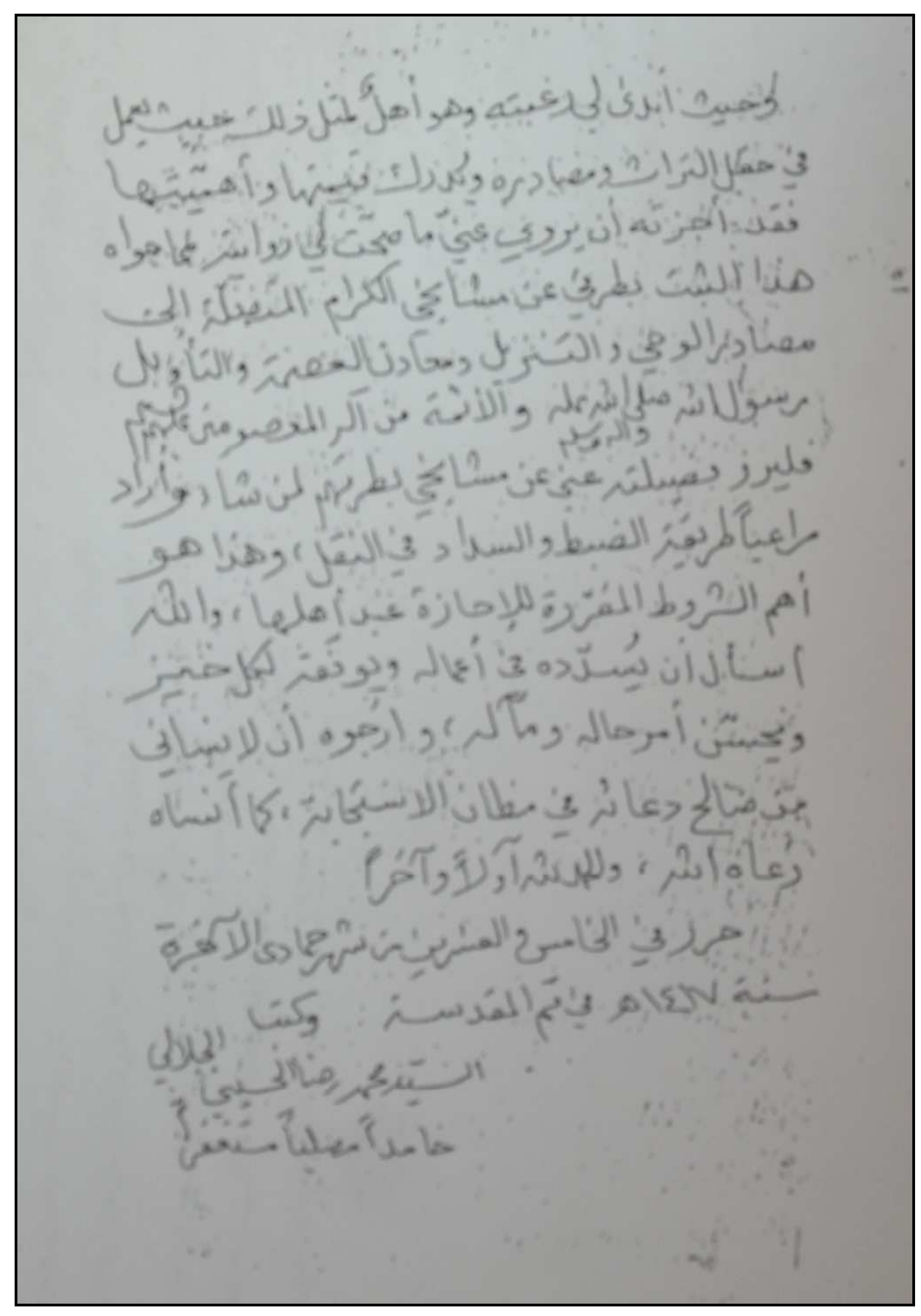
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رسالة من السيد حسن الأمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

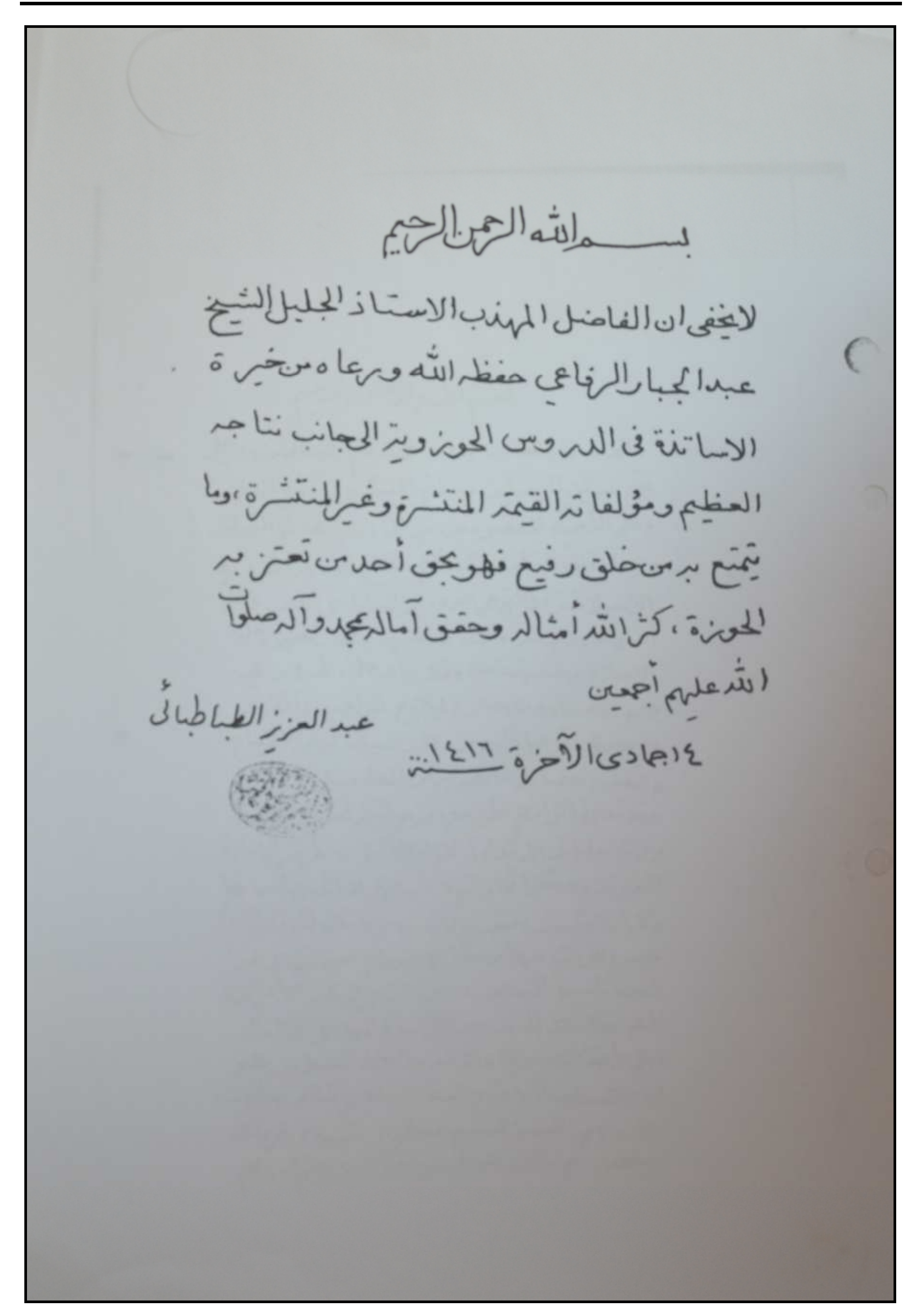
الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، وعلى
محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين أفضل الصلوات
وعلى الأئمة المعصومين من آله وذريته أكمل التحيات
وبعد فإن التراث الإسلامي الجامع لمصادر المعرفة
الإسلامية، والتي هي ضرورية للحفاظ على الدين وكل
أصوله وفروعه فالحفاظ عليها واجب لتحقيق خلود
الإسلام وخاتميته، وقد دأب علماء المسلمين في
جميع الأعصار والأمصار وفي جميع المذاهب والفرق
على حفظ ما وصل إليهم من ذلك صيانة له عن الضياع
والتلف وصيانة لما تحتويه من المعارف والأحكام
وقد تداولوا تراثهم بطرق معروفة مألوفة محكمة رصينة
ومما قاموا بإنشائه تداول التراث المكتوب بطريقة الإجازة
المعروفة وسجلوا مجازاتهم في أثباتهم للتأكيد أسمائها
وكيانها وكيفية وضعها وتأليفها، ومما وفقني الله تبارك اسمه له
حصولي على عدة منها من مشايخي العظام فسجلتها في هذا
الثبت تأسياً بالسلف، وممن تنبه إلى هذا الأمر الرائق
المهم فطلب مني إلحاقه بهذا الركب المحافظ على التراث
وعلى طريقة الإجازة المألوفة بين علماء المسلمين هو
الأخ السعيد الموفق والعلامة المتتبع المثابر والكاتب
الإسلامي المحقق الشيخ عبد الجبار القحطاني الرفاعي
صاحب معجم ما كتب عن الرسول وآل البيت عليهم السلام

إجازة الحديث للعلامة محمد رضا الجلالي.



الحديث أبدى لي رغبته وهو أهل لمثل ذلك حيث يعمل
في حقل التراث ومصادره ويدرك قيمتها وأهميتها
فقد أجزته أن يروي عني ما صحّت لي روايته مما حواه
هذا الثبت بطرقي عن مشايخي الكرام المتصلة إلى
مصادر الوحي والتنزيل ومعادن العصمة والتأويل
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من آله المعصومين عليهم السلام
فليروِ بتفصيله عني عن مشايخي بطرقهم لمن شاء وأراد
راعياً طريقة الضبط والسداد في النقل، وهذا هو
أهم الشروط المقررة للإجازة عند أهلها، والله
أسأل أن يسدده في أعماله ويوفقه لكل خير
ويحسّن أحواله ومآله، وأرجوه أن لا ينساني
من صالح دعائه في مظان الاستجابة، كما أنساه
دعاءه أبداً، والحمد لله أولاً وآخراً
حرر في الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة
سنة ١٤٢٧هـ في قم المقدسة وكتب
السيد محمد رضا الحسيني الجلالي
حامداً مصلياً مستغفراً

تتمة إجازة الحديث للعلامة محمد رضا الجلالي.



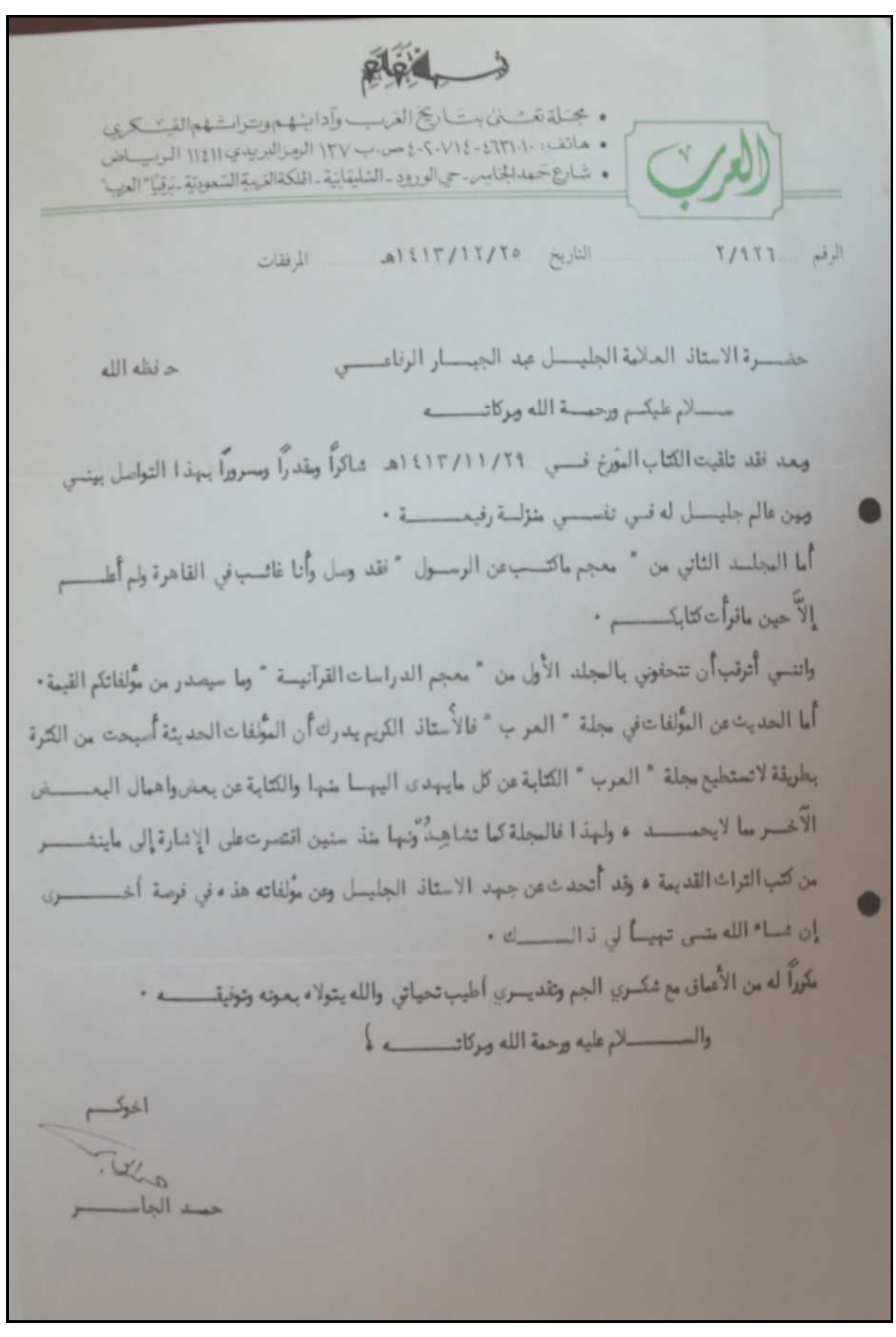
بسم الله الرحمن الرحيم

لايخفى ان الفاضل المهذب الاستاذ الجليل الشيخ
عبد الجبار الرفاعي حفظه الله ورعاه من خيرة
الاساتذة فى الدروس الحوزوية الى جانب نتاجه
العظيم ومؤلفاته القيمة المنتشرة وغير المنتشرة، وما
يتمتع به من خلق رفيع فهو يحق أحد من تعتز به
الحوزة، كثر الله أمثاله وحقق آماله بمحمد وآله صلوات
الله عليهم أجمعين

عبد العزيز الطباطبائى

١٤ جمادى الآخرة سنة ١٤١٦

شهادة من السيد عبد العزيز الطباطبائي.



بسم الله الرحمن الرحيم

العرب

• مجلة تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري
• هاتف: ٤٦٣١٠١٠-٤٠٢٠٧١٤ ص.ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١ الرياض
• شارع حمد الجاسر - حي الورود - السليمانية - المملكة العربية السعودية - برقيا "العرب"

الرقم ٢/٩٢٦ التاريخ ١٤١٣/١٢/٢٥هـ المرفقات

حضرة الاستاذ العلامة الجليل عبد الجبار الرفاعي حفظه الله

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فقد تلقيت الكتاب المؤرخ في ١٤١٣/١١/٢٩هـ شاكراً ومقدراً ومسروراً بهذا التواصل بيني وبين عالم جليل له في نفسي منزلة رفيعة .

أما المجلد الثاني من " معجم ماكتب عن الرسول " فقد وصل وأنا غائب في القاهرة ولم أطلع إلاّ حين ماقرأت كتابكم .

وانني أترقب أن تتحفوني بالمجلد الأول من " معجم الدراسات القرآنية " وما سيصدر من مؤلفاتكم القيمة .

أما الحديث عن المؤلفات في مجلة " العرب " فالأستاذ الكريم يدرك أن المؤلفات الحديثة أصبحت من الكثرة بطريقة لاتستطيع مجلة " العرب " الكتابة عن كل مايهدى اليها منها والكتابة عن بعض واهمال البعض الآخر مما لايحمد ، ولهذا فالمجلة كما تشاهدونها منذ سنين اقتصرت على الإشارة إلى ماينشر من كتب التراث القديمة ، وقد أتحدث عن جهد الاستاذ الجليل وعن مؤلفاته هذه في فرصة أخرى إن شاء الله متى تهيأ لي ذلك .

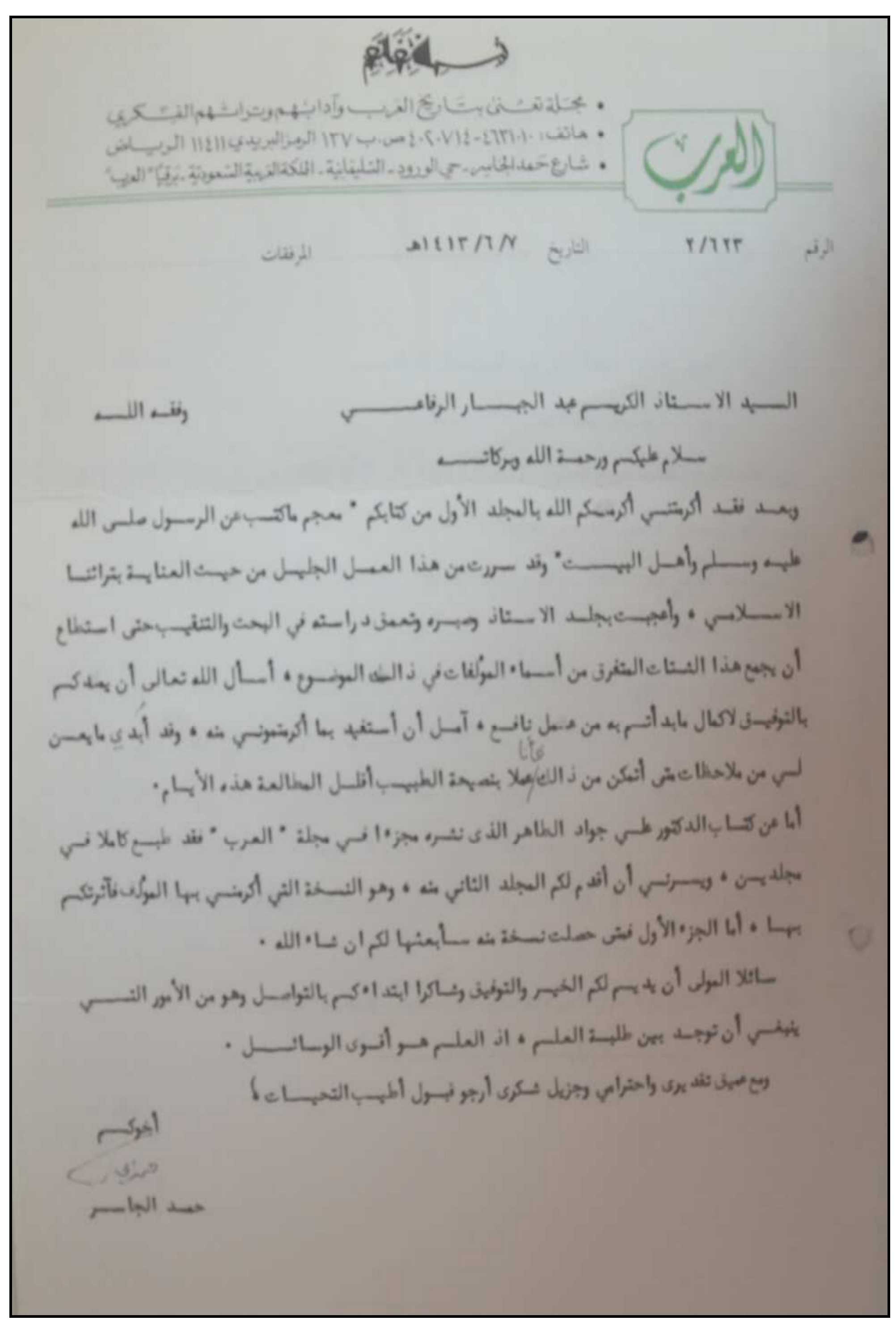
مكرراً له من الأعماق مع شكري الجم وتقديري أطيب تحياتي والله يتولاه بعونه وتوفيقه .

والسلام عليه ورحمة الله وبركاته

اخوكم

حمد الجاسر

رسالة من حمد الجاسر.



بسم الله الرحمن الرحيم

العرب

- مجلة تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري
- هاتف ٤٦٣١٠١٠-٤٠٢٠٧١٤ ص.ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١ الرياض
- شارع حمد الجاسر - حي الورود - السليمانية - المملكة العربية السعودية - برقياً "العرب"

الرقم ٢/٦٢٣ التاريخ ١٤١٣/٦/٧هـ المرفقات

السيد الاستاذ الكريم عبد الجبار الرفاعي وفقه الله

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فقد أكرمتني أكرمكم الله بالمجلد الأول من كتابكم " معجم ماكتب عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل البيت" وقد سررت من هذا العمل الجليل من حيث العناية بتراثنا الاسلامي ، وأعجبت بجلد الاستاذ وصبره وتعمق دراسته في البحث والتنقيب حتى استطاع أن يجمع هذا الشتات المتفرق من أسماء المؤلفات في ذلك الموضوع ، أسأل الله تعالى أن يمدكم بالتوفيق لاكمال مابدأتم به من عمل نافع ، آمل أن أستفيد بما أكرمتموني منه ، وقد أبدي مايعن لي من ملاحظات متى أتمكن من ذلك علما بنصيحة الطبيب أقلل المطالعة هذه الأيام .

أما عن كتاب الدكتور علي جواد الطاهر الذى نشره مجزءا في مجلة " العرب " فقد طبع كاملا في مجلدين ، ويسرني أن أقدم لكم المجلد الثاني منه ، وهو النسخة التي أكرمني بها المؤلف فآثرتكم بها ، أما الجزء الأول فمتى حصلت نسخة منه سأبعثها لكم ان شاء الله .

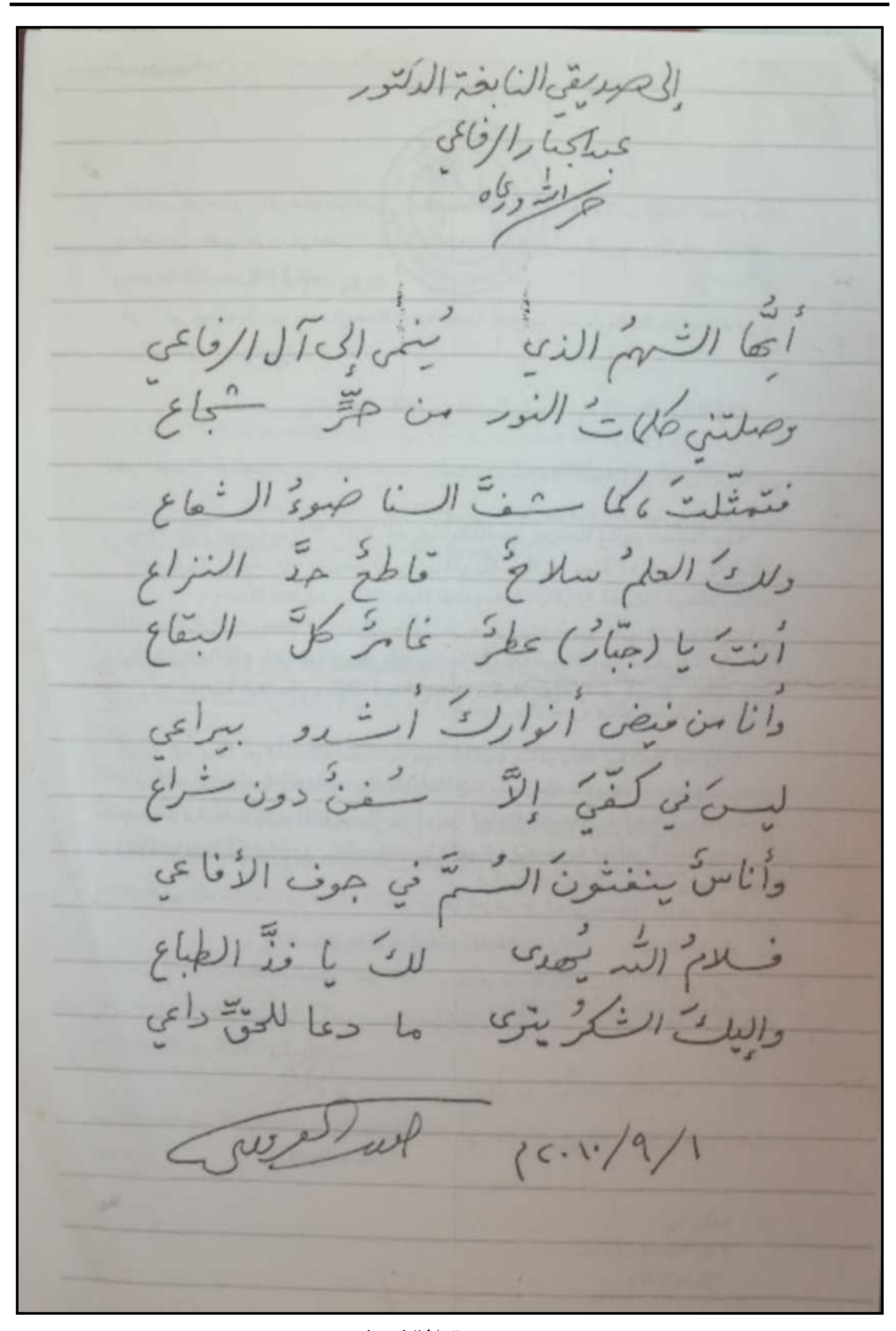
سائلا المولى أن يديم لكم الخير والتوفيق وشاكرا ابتداءكم بالتواصل وهو من الأمور التي ينبغي أن توجد بين طلبة العلم ، اذ العلم هو أقوى الوسائل .

ومع عميق تقديري واحترامي وجزيل شكري أرجو قبول أطيب التحيات ؟

أخوكم

حمد الجاسر

رسالة من حمد الجاسر.

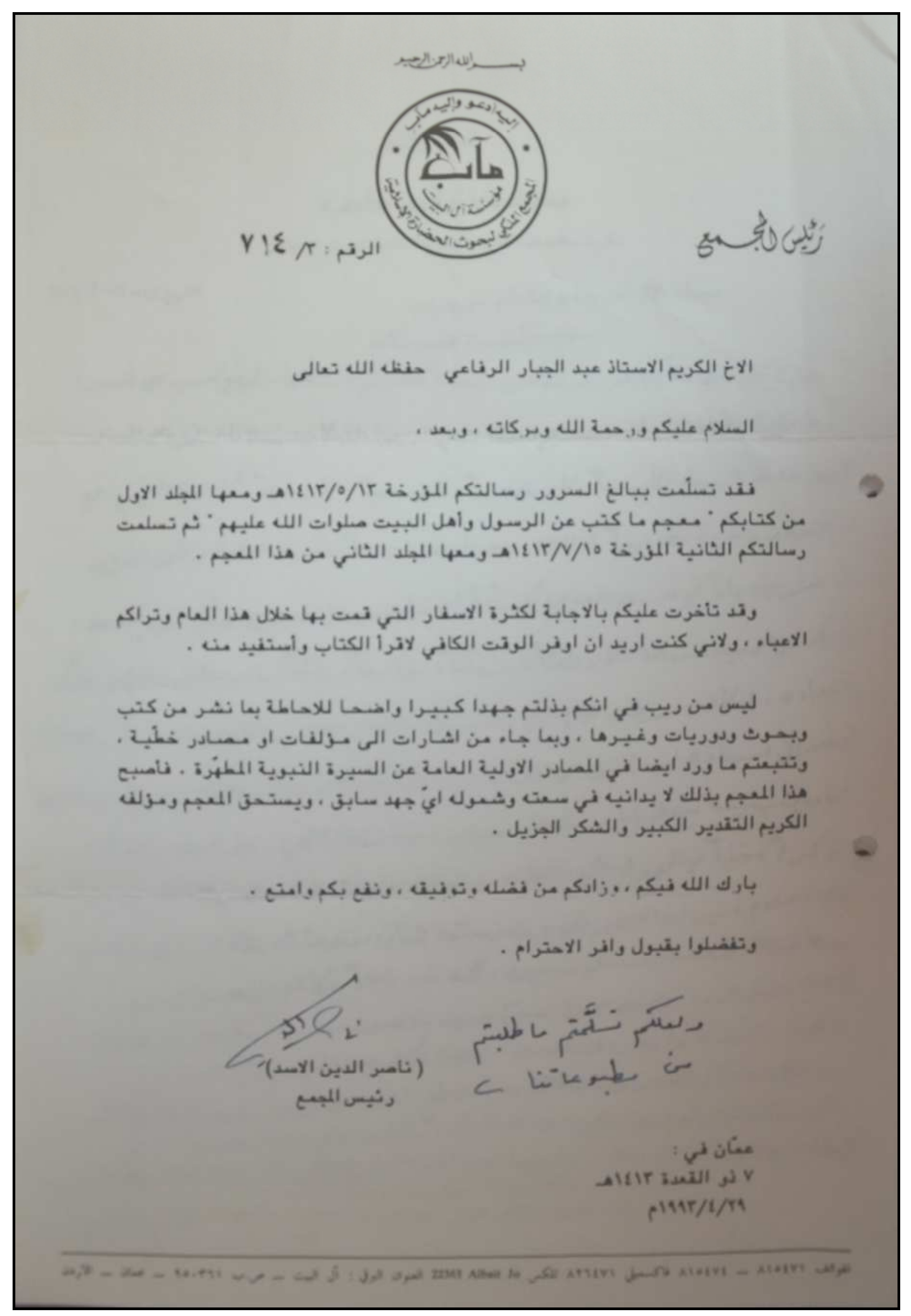


إلى صديقي النابغة الدكتور
عبد الجبار الرفاعي
حرسه الله ورعاه

أيها الشهمُ الذي ينتمي إلى آل الرفاعي
وصلتني كلماتُ النور من حرٍّ شجاع
فتمثّلتَ كما شفّت السنا ضوءُ الشعاع
ذلكَ العلمُ سلاحٌ قاطعٌ حدَّ النزاع
أنتَ يا (جبّارُ) عطرٌ غامرٌ كلَّ البقاع
وأنا من فيض أنواركَ أشدو بيراعي
ليسَ في كفّيَ إلّا سُفنٌ دون شراع
وأناسٌ ينفثونَ السُّمَّ في جوف الأفاعي
فسلامُ الله يُهدى لكَ يا فذَّ الطباع
وإليكَ الشكرُ يترى ما دعا للحقِّ داعي

١/٩/٢٠١٠م

من د جودت القزويني.



بسم الله الرحمن الرحيم

إليه أدعو وإليه مآب
مآب
مؤسسة آل البيت
المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية

رئيس المجمع

الرقم : ٣/ ٧١٤

الاخ الكريم الاستاذ عبد الجبار الرفاعي حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ،

فقد تسلمت ببالغ السرور رسالتكم المؤرخة ١٤١٣/٥/١٣هـ ومعها المجلد الاول من كتابكم " معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم " ثم تسلمت رسالتكم الثانية المؤرخة ١٤١٣/٧/١٥هـ ومعها المجلد الثاني من هذا المعجم .

وقد تاخرت عليكم بالاجابة لكثرة الاسفار التي قمت بها خلال هذا العام وتراكم الاعباء ، ولاني كنت اريد ان اوفر الوقت الكافي لاقرأ الكتاب وأستفيد منه .

ليس من ريب في انكم بذلتم جهدا كبيرا واضحا للاحاطة بما نشر من كتب وبحوث ودوريات وغيرها ، وبما جاء من اشارات الى مؤلفات او مصادر خطّية ، وتتبعتم ما ورد ايضا في المصادر الاولية العامة عن السيرة النبوية المطهّرة . فأصبح هذا المعجم بذلك لا يدانيه في سعته وشموله ايّ جهد سابق ، ويستحق المعجم ومؤلفه الكريم التقدير الكبير والشكر الجزيل .

بارك الله فيكم ، وزادكم من فضله وتوفيقه ، ونفع بكم وامتع .

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام .

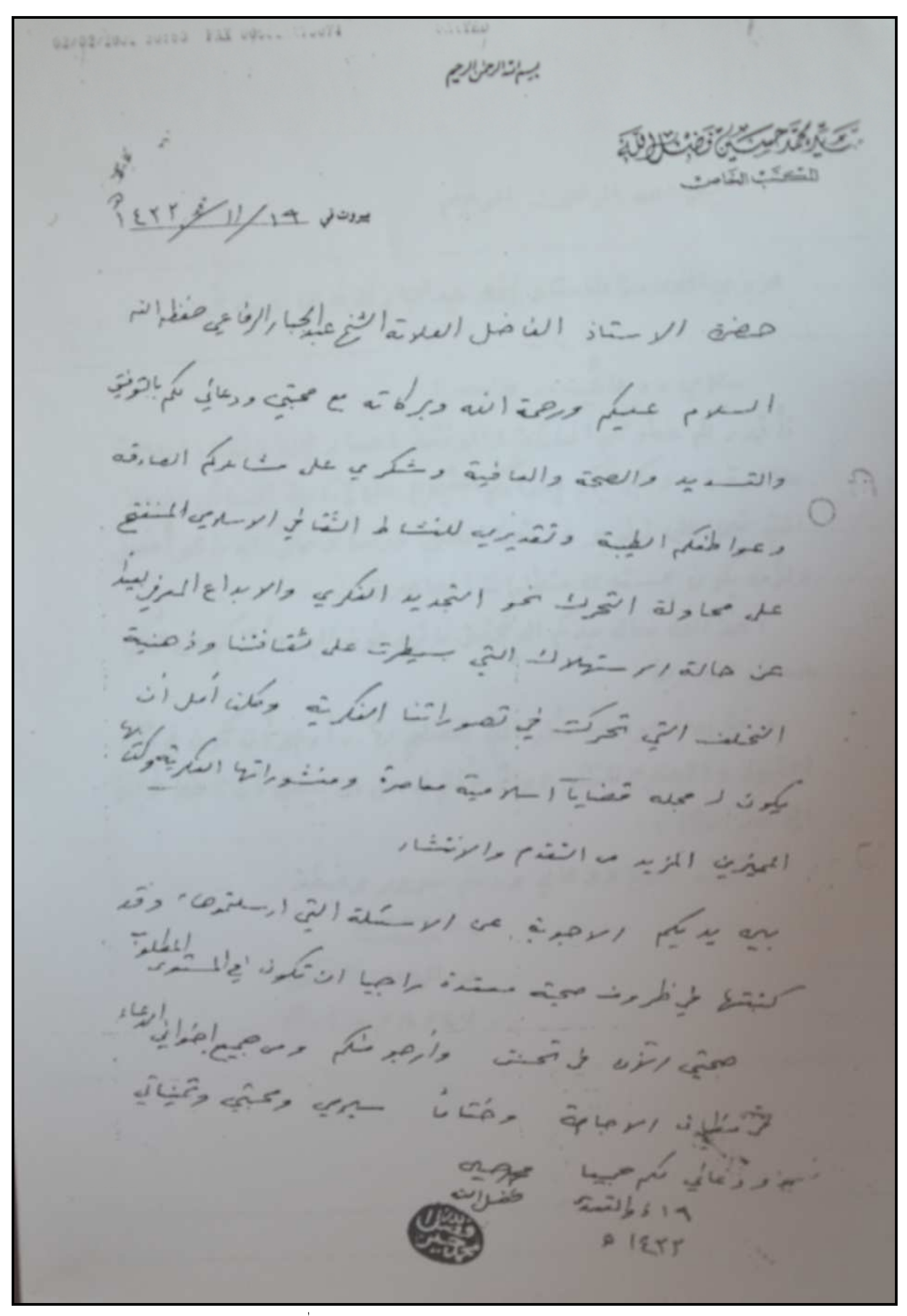
ولعلكم تسلمتم ما طلبتم من مطبوعاتنا

(ناصر الدين الاسد)
رئيس المجمع

عمّان في :
٧ ذو القعدة ١٤١٣هـ
١٩٩٣/٤/٢٩م

الهاتف ٨١٥٤٢٢ — ٨١٥٤٧٤ فاكسميلي ٨٢٦٤٧١ التلكس 22361 Albait Jo العنوان البرقي : آل البيت — ص.ب ٩٥٠٣٦١ — عمان — الأردن

رسالة من د ناصر الدين الأسد.



بسم الله الرحمن الرحيم

السيد محمد حسين فضل الله
المكتب الخاص

بيروت في ١٩/١١/١٤٢٢هـ

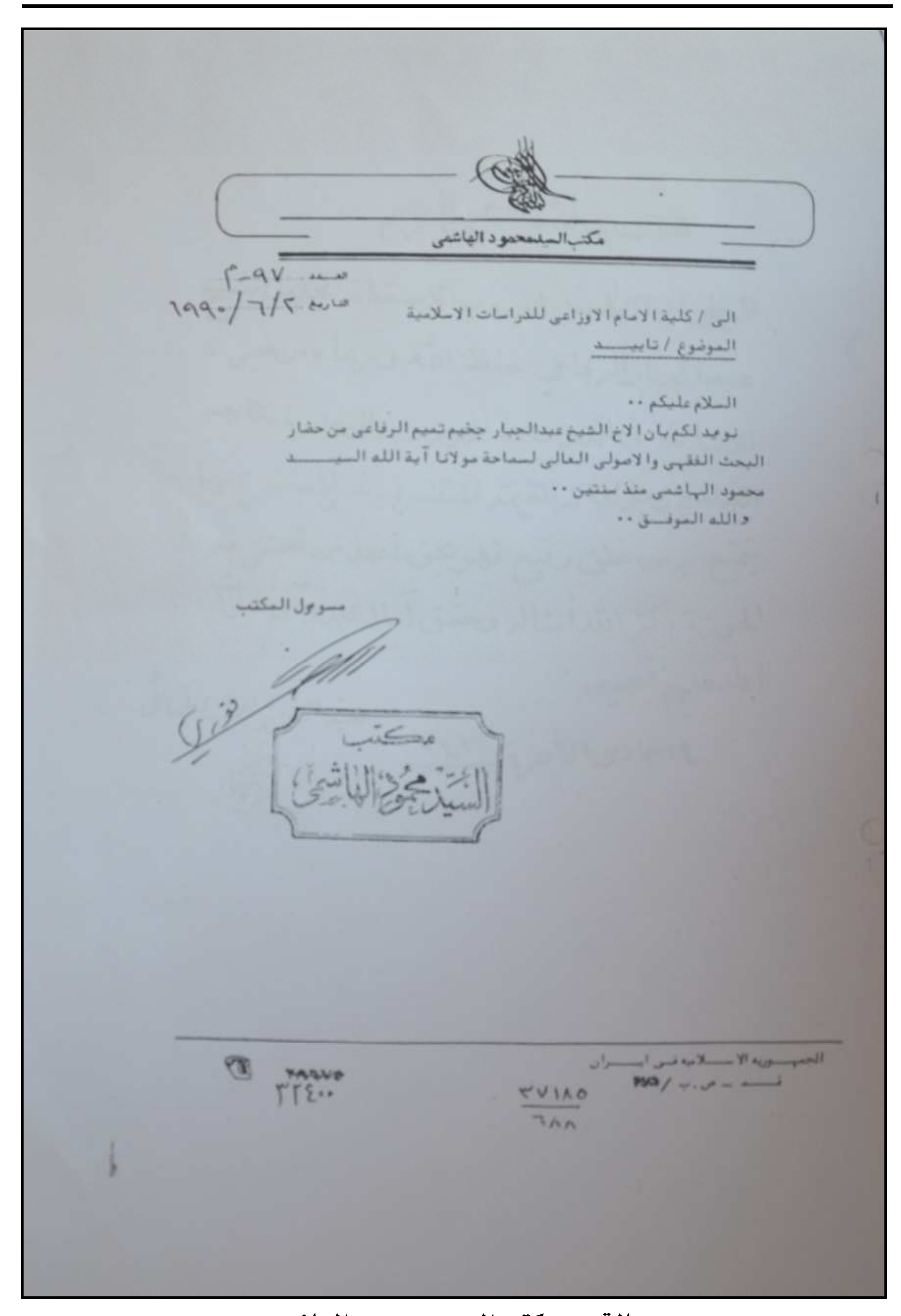
حضرة الأستاذ الفاضل العلامة الشيخ عبد الجبار الرفاعي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع محبتي ودعائي لكم بالتوفيق والتسديد والصحة والعافية وشكري على مشاعركم الصادقة ودعواتكم الطيبة وتقديري لنشاطكم الثقافي الإسلامي المنفتح على محاولة التحرك نحو التجديد الفكري والإبداع المرتفع بعيداً عن حالة الاستهلاك التي سيطرت على ثقافتنا وذهنية التخلف التي تحركت في تصوراتنا الفكرية وكلي أمل أن يكون لمجلة قضايا إسلامية معاصرة ومنشوراتها الفكرية وكتبكم المميزة المزيد من التقدم والانتشار

وبين يديكم الأجوبة عن الأسئلة التي أرسلتموها وقد كتبتها في ظروف صحية معقدة راجياً أن تكون في المستوى المطلوب صحتي الآن في تحسن وأرجو منكم ومن جميع إخواني الدعاء ونعتذر لتأخر الإجابة وختاماً شكري ومحبتي وتمنياتي

مع دعائي لكم حبيباً
محمد حسين فضل الله
١٩ ذو القعدة
١٤٢٢هـ

من السيد محمد حسين فضل الله.



مكتب السيد محمود الهاشمي

العدد ٩٧-م
التاريخ ٢/٦/١٩٩٠

الى / كلية الامام الاوزاعي للدراسات الاسلامية

الموضوع / تاييد

السلام عليكم ..

نؤيد لكم بان الاخ الشيخ عبدالجبار جخيم تميم الرفاعي من حضار البحث الفقهي والاصولي العالي لسماحة مولانا آية الله السيد محمود الهاشمي منذ سنتين ..

والله الموفق ..

مسؤول المكتب

مكتب السيد محمود الهاشمي

الجمهورية الاسلامية في ايران
قم - ص.ب / ٣٧١٨٥

رسالة من مكتب السيد محمود الهاشمي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الكريم الاستاذ محمد سعيد الطريحي دام عزه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخي الكريم:

أبارك لكم هذا الجهد الكبير العلمي الذي تبذلونه في اصدار مجلة الموسم التي شغلت فراغاً انتظر ذوي الهمم فترة طويلة، وربما جاءت الموسم في مادتها واخراجها الفني وحجمها أكبر مما يتوقع أحد في قيام فرد واحد للنهوض بأعباء هذه المهمة العظيمة التي انتظرها الباحثون. ولكن مايوصف به الاستاذ الطريحي من همة عالية وحركة دؤوبة وغيرة متميزة على التراث - كما تجلت في تحقيقاته وفهارسه العديدة - هي الرصيد لإخراج هذا العمل المتميز - الموسم - الذي فوجئ به المتخصصون في توثيق وفهرسة وتحقيق التراث والتراجم.

أخي محمد سعيد:

تحت يدي الآن العدد الخامس من الموسم استعرته من سماحة العلامة السيد عبد العزيز الطباطبائي، وانتفعت كثيراً من المادة التي حواها في أعمالي التوثيقية البيليوغرافية حيث وجدت الموسم أحد أوعية المعلومات الأساسية في تلك الأعمال.

آمل أن تتكرم الموسم باهدائي مجموعتها من العدد الأول وتسجيلي كمشترك فيها، ولسوف اعتمدها كمرجع أساسي في البيليوغرافيات التي أعدها وسأشير لها كمصدر في كل معلومة انتزعها منها، كما أني مستعد لخدمة الموسم فيما تحتاجه من أعمالي المنشورة والمخطوطة.

وتقبلوا أيها الأخ الكريم أزكى تحياتي ودعائي بالتوفيق والنجاح.

أخوكم عبد الجبار الرفاعي

ايران قم ص.ب ٣٣٤٧

من د. الرفاعي إلى محمد سعيد الطريحي.

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الجبار الرفاعي

التاريخ: ١٧ رمضان المبارك ١٤١٦هـ

الأخ الأستاذ المحقق محمد سعيد الطريحي أعزه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عزيزي: لا أدري ماذا أقول بعد هذا الزلزال الذي عصف بالكثير من آمالنا وطموحاتنا وخطف النور الذي كنا نستضيء به من أبصارنا، بعد الغياب المفاجئ لشيخ المحققين والمفهرسين أستاذنا العلامة الحجة الطباطبائي، هذا الرجل الذي عوضّنا الكثير مما فقدناه من حنان ديارنا ودفء أهلينا، وعمرنا منذ التقيناه بمودة ورعاية، لا تماثلها سوى رعاية الأب الشفيق بصغاره. ان الفراغ العاطفي والانكسار النفسي الذي أحدثته وفاة سيدنا الطباطبائي لا نستطيع ملئه، ولن نستطيع، لأن ما توفرت عليه شخصيته لم نجده مجتمعاً عند أحد من العاملين في حقل التراث، فمع تميزه بخبرة عميقة ودقيقة بمسالك التراث ودروبه الوعرة في مختلف أبعاده، تفرد بسخاء وإيثار علمي لا يرقى اليه غيره، فضلاً عن غياب البرتوكولات من حياته، فهو يعيش كما يعيش الناس، ويحنو على الصغير والكبير، وهذا ما جعل جُلّ انتاجه التراثي يظهر عبر أعمال سُجّلت بأسماء آخرين، فيما كان الغائب الوحيد اسمه.

أخي الكريم:

تأمل ان تُفرد الموسم عدداً أو على الأقل ملفاً تذكارياً يرصد تجربة العلامة الطباطبائي الرائدة في احياء التراث وتربية المحققين، يوثّق أعماله وصور من آثاره وخدماته المتنوعة، ويعرّف بشيء من البُعد الغائب في شخصيته ومواقفه العلمية الخالدة، فنحن بحاجة ماسة للتأسي بهذا العالم العامل.

وانا لله وانا اليه راجعون

ودمْ لأخيك

Iran - Qum
P. o. Box: 37185 - 3347
Tel: 732378

ايران - قم
ص.ب ٣٧١٨٥/٣٣٤٧
هاتف ٧٣٢٣٧٨

من د. الرفاعي إلى محمد سعيد الطريحي.

محمد مهدي الآصفي

بسمه تعالى

الرقم: ....

التاريخ: / /

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الاخ الاستاذ الشيخ عبد الجبار الرفاعي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وسألنا الله تعالى ان يرعاكم ويحرسكم، ويبارك في جهدكم الثقافي الجديد (قضايا اسلامية معاصرة)

نحن نعيش اليوم ظروف التحدي والمواجهة الصعبة بين العالم الاسلامي الناهض والغرب، وابرز وجوه هذه المواجهة والتحدي هو الوجه الحضاري والثقافي من جانب والوجه السياسي (والاقتصادي) من جانب آخر

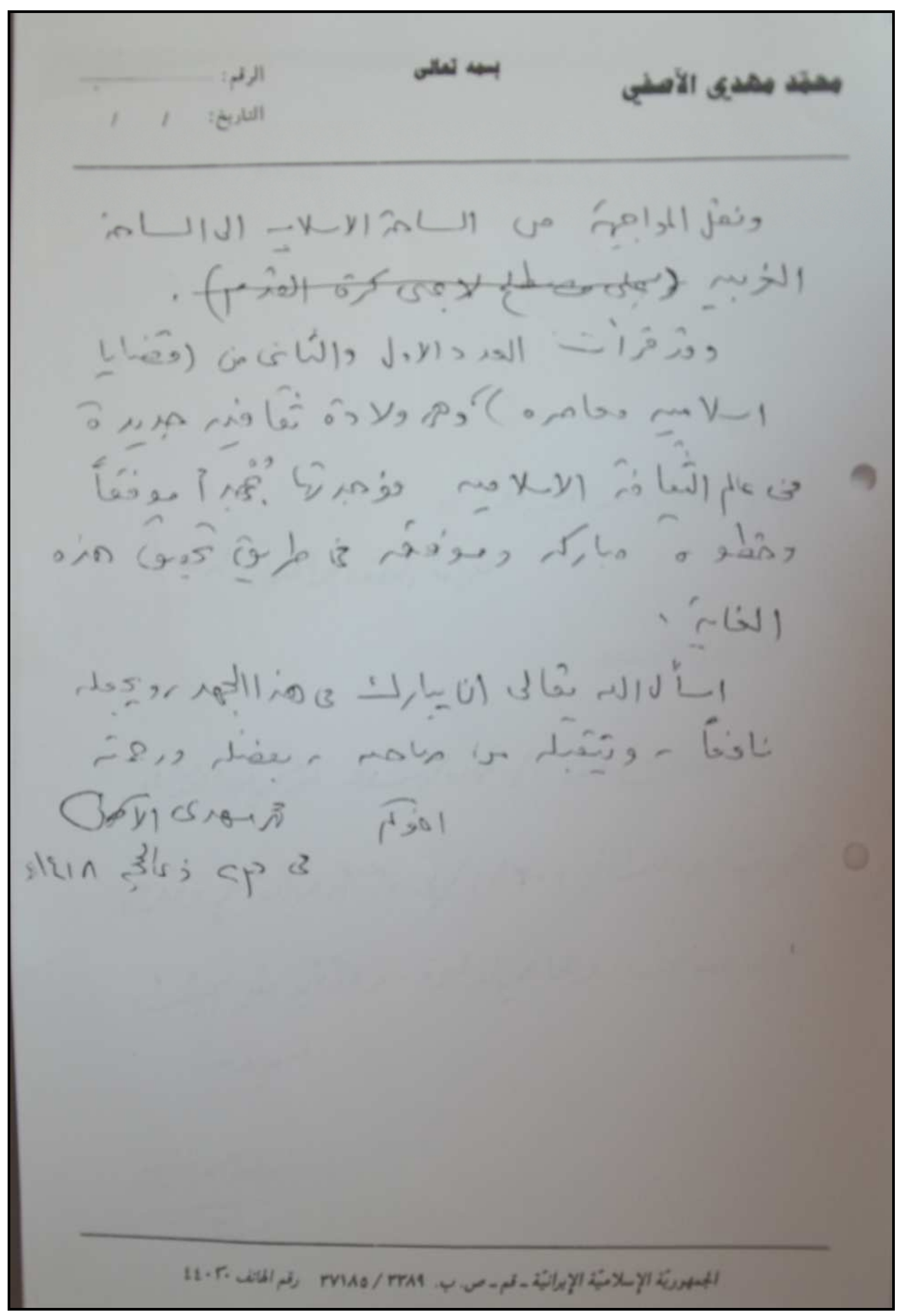
ولا تقل اهمية وضراوة هذه المواجهة في وجهها الحضاري والثقافي عن الوجه السياسي والاقتصادي.

وعلى الكتاب الاسلامي والمجلة والدورية الاسلامية المعاصرة ان ينهض بدور فاعل ومؤثر في هذه المواجهة وان يكون مرآة لهذا التحدي الحضاري المعاصر الصعب.

ولست اقول ان دور الكتاب والدوريات الاسلامية المعاصرة هو التصدي للرد على التحديات الثقافية والحضارية،... فهذا عمل ضعيف ومتخلف، بل عليه التصدي للمبادرة بالتحدي أيضاً.

الجمهورية الإسلامية الإيرانية - قم - ص. ب. ٣٧١٨٥/٣٣٨٩ رقم الهاتف ٤٤٠٢٠

رسالة من الشيخ محمد مهدي الأصفي.



محمد مهدي الآصفي

بسمه تعالى

الرقم:

التاريخ: / /

ونقل المواجهة من الساحة الإسلامية إلى الساحة الخارجية (~~بحسب مصطلح لاعبي كرة القدم~~).

وقد قرأت العدد الأول والثاني من (قضايا إسلامية معاصرة) وهي ولادة ثقافية جديدة في عالم الثقافة الإسلامية وقد وجدتها تجدداً موفقاً وخطوة مباركة وموفقة في طريق تكوين هذه الثقافة.

أسأل الله تعالى أن يبارك في هذا الجهد ويجعله نافعاً، ويتقبله من أصحابه، بفضله ورحمته

أخوكم محمد مهدي الآصفي

في ٢٣ ذي الحجة ١٤١٨هـ

الجمهورية الإسلامية الإيرانية - قم - ص.ب. ٣٣٨٩/٣٧١٨٥ رقم الهاتف ٤٤٠٣٠

تتمة رسالة من الشيخ محمد مهدي الآصفي.

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي العلامة الاستاذ الشيخ عبد الجبار الرفاعي دمت بخير

سلامي ودعائي.. وبعد:

فأقدر لكم خطوتكم المباركة والموفقة باصدار مجلة (قضايا اسلامية معاصرة)، واكبر فيكم إقدامكم الشجاع على إثارة المسائل المهمة التي تعمل على تطوير واقعنا الفقهي درساً وعملاً الى ما هو أفضل ولأن يكون بمستوى متطلبات المعاصرة.

أخذ الله تعالى بيدكم الى تحقيق ما تهدفون اليه وأثابكم على عملكم حسنى الدارين.

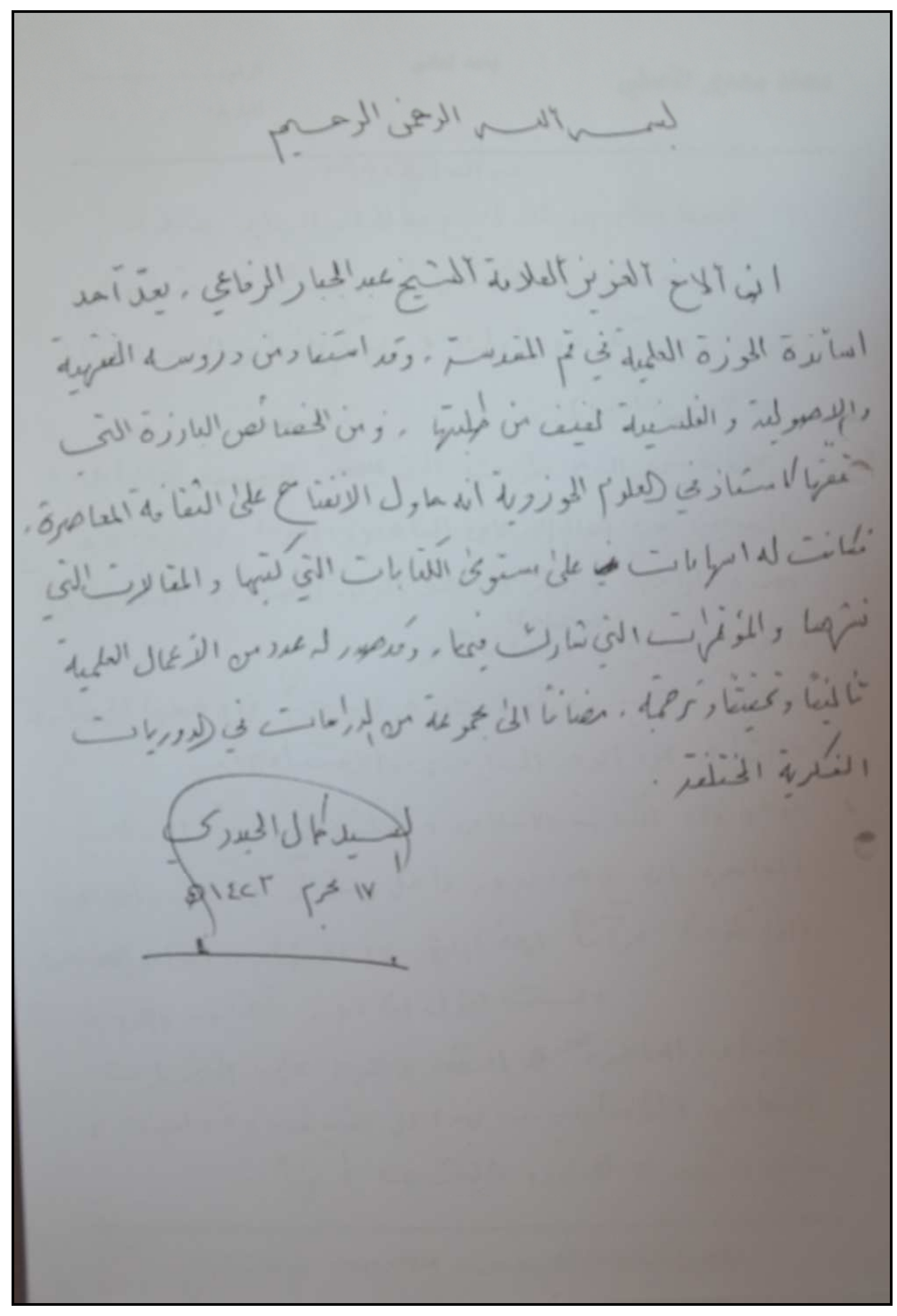
مرفق به أجوبة الأسئلة التي تفضلتم بها، أرجو أن تكون في موضع القبول والصلوح للنشر، والاّ فأنتم في حل من بيعتي أن تأخذ طريقها الى حيز الاهمال.

اكرر سلامي ودعائي ودمتم بسرور وغبطة..

عبد الهادي الفضلي

١٤٢٠/٨/٢٧هـ

رسالة من د. الشيخ عبد الهادي الفضلي.



بسم الله الرحمن الرحيم

ان الاخ العزيز العلامة الشيخ عبد الجبار الرفاعي، يعد احد اساتذة الحوزة العلمية في قم المقدسة، وقد استفاد من دروسه الفقهية والاصولية والفلسفية لفيف من طلبتها. ومن الخصائص البارزة التي نعرفها لاستاذ في العلوم الحوزوية انه حاول الانفتاح على الثقافة المعاصرة، فكانت له اسهامات على مستوى الكتابات التي كتبها والمقالات التي نشرها والمؤتمرات التي شارك فيها، وقد صدر له عدد من الاعمال العلمية تأليفا وتحقيقا وترجمة، مضافا الى مجموعة من الدراسات في الدوريات الفكرية المختلفة.

السيد كمال الحيدري

١٧ محرم ١٤٢٣هـ

رسالة من السيد كمال الدين الحيدري.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على مصابيح الحق وهداة الخلق، خاتم الانبياء والمرسلين محمد والائمة الهداة من آله الطاهرين.

انا لعلاقتي بأخي وصديقي العلامة الشيخ عبد الجبار الرفاعي، بحدود حميمة تمتد الى ما يزيد على عقدين من الزمن، عرفته نموذجاً للعالم، منفتح الذهن، واسع الافق، يحمل هموم الامة كانسان وكالمؤرخ وكالاستاذ الاكاديمي، وقد وفق كثيراً لحفظ الأصالة ملفقة بالحداثة والتجديد، فلم يكن ذائباً في صور العصر واشكاله، ولم يكن غائصاً في بطون الماضي وقضاياه، وما ذلك الا لانه كان مستوعباً لضرورة انعكاس أصالة التراث على العصر، وضرورة انعكاس الدين القيم في قيم الانسان، فكان انساناً عالماً، وكان عالماً انساناً، منفتح التجربة والظروف الصعبة، وقد انعكس ذلك بشكل واضح على نتاجه المعرفي، فكان بحق رائداً من رواد النتاج، وناشراً بشكل دؤوب لنتاجات الفكر الاسلامي دون التزمت منه، وهذا ما يدل بجلاء على انفتاحية ما استوعبه واستفاده من فلسفة الدين.

ان من أهم ملامح شخصية الشيخ الرفاعي، هو عنايته الفائقة بالدين لغة وسلوكاً، فحمله دينه المنفتح على العمل على استيعاب الاشكال الفنية المدهشة لمعطيات العصر، ليضع قيم معنويات حضارة الدين

(١)

رسالة من السيد كمال الحيدري.

وحضور الانسان، وكأنات تربية الجيل واخراجه من غيبوبة التيه ودوامة الضياع وشبق الانفلات. صارت واحدة من مهامه الاساسية، كعالم ديني واعٍ، وكانسان صادق، وكأب راعٍ، ومثقف يدرك حجم مسؤوليته. ولعل من اروع سمات وعيه وانسانيته وصدقه، انها انتجت ولاءً جميلاً لاساتذته، وعلاقات حميمة وصادقة مع زملائه، وابوة حانية على تلامذته.

ومن ملامحه الاخرى، رأيته وحركته الفائقة في فضاء الاروقة العلمية، فهو حركي في فكره وثقافته وعلاقاته الاجتماعية التي لا تكاد ان تجد فيها خطوطاً حمراء ما دام المائل امامه انساناً، فتجده حاضراً وفاعلاً في اروقة العلم والفكر والثقافة على تنوعها واختلاف مشاربها، وكأنه شمس حتم عليها ان تضيء للجميع، فيحدثك عن اهل اليمين في الفكر والثقافة والسلوك وكأنه منهم، ويحدثك عن اهل اليسار على تنوعهم وكأنه ما عرف سواهم، يعقد صداقاته الصادقة مع اطياف مختلفة والوان متضادة واتجاهات متعاكسة، تجمعه فيهم ومعهم لغة الانسان، فيستقطبهم انساناً، ويتعاطى معهم عالماً ومفكراً ومثقفاً ومسؤولاً.

ومن ملامحه الاخرى، هو التنوع المعرفي، فقد جمع الى جانب دراسته وحضوره في الحوزة العلمية في النجف الاشرف وقم المقدسة، عند اساتذة كبار في المنقول والمعقول والعرفان حتى بلغ مديات واسعة وعميقة فيها، الحضور المتميز في الحالات المعرفية الاخرى، التي كتبت بلغة

« ٢ »

(تتمة) رسالة من السيد كمال الحيدري.

واعية، وعرضت بأسلوب جذاب، فصدر عنه: «نظرات في تزكية النفس» و«التبليغ والإعلام الإسلامي»، و«تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية» و«مناهج التجديد» و«مراجعات تقويمية في الفكر الإسلامي المعاصر» و«مراجعات وقراءات نقدية في الثقافة الإسلامية» وغيرها، ومنها أطروحته في الدكتوراه «تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية».

ومن جانب عناية المؤسسة بكتابة المعاجم والموسوعات، فقد أتحفت المكتبة الإسلامية بمعجم خاص بما صدر عن الرسول وأهل البيت -عليهم السلام- وقع في اثني عشر مجلداً، وأردفه بمعجم خاص بالدراسات القرآنية وقع في مجلدين، ثم جاء معجمه في المطبوعات العربية في إيران، وكذلك موسوعة ذات أهمية كبيرة، وهي موسوعة مصادر النظام الإسلامي، جاءت في عشر مجلدات، بالإضافة إلى كتابه الشيّق حول مصادر الدراسات عن الدولة والسياسة في الإسلام.

ومن انشغالاتها الأخرى عنايتها المتميزة بترجمة الكثير من النتاج الفكري والفلسفي من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، لتحقق لروّاد العلم والفلسفة الفرصة المناسبة للاطلاع على أعلام الفكر والفلسفة والعرفان من مدرسة أهل البيت، فترجم لنا كتاب «شرح المنظومة في الفلسفة الإسلامية» للشهيد مرتضى المطهري، في أربعة أجزاء، كما ترجم كتاب «محاضرات في الفلسفة الإسلامية» للمطهري أيضاً، كما أنه كانت له مشاركات في ترجمة كتب أخرى.

ولعل من أهم ما يميزه، هو اهتمامه الكبير في مجال فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد ومنها بحوث التعددية والاجتهاد، وهي مباحث عميقة ودقيقة، كتب فيها

(٣)

(تتمة) رسالة من السيد كمال الحيدري.

«فلسفة الدين ومقاصد الشريعة» و«علم الكلام الجديد وفلسفة الدين» و«مقاصد الشريعة» و«الاجتهاد الكلامي، مناهج ورؤى متنوعة في الكلام الجديد» وغيرها.

ولم تخل حصيلته من البحث في الفكر السياسي، فكتب «نحن والغرب، جدل الصراع والتعايش» و«الإسلام المعاصر والديمقراطية»، كما أنه تمثل لنا شخصيته الإنسانية العالمية في مجال التسامح والقبول بالآخر في أكثر من نتاج، كان منها «إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين» و«التسامح ومنابع اللاتسامح» و«التسامح ليس منة أو هبة».

ومن ملامح شخصيته العلمية الجامعة بين الأصالة الحوزوية والحداثة الأكاديمية، هو عمله الدؤوب على التحرك في المساحات المشتركة وتفعيلها بين الحاضرتين - الحوزة والأكاديمية - فيجمع الأطراف على دراسة موضوع، يتناولونه بأدوات مختلفة، ويتبين من ذلك مكمن ثقافة تحفظات الحوزوي من التقوقع والاكتفاء، كما يتبين الأكاديمي من التشرذم والانفلات وضياع الهوية.

بل من دأبه - كان وما زال - السعي - ومن خلال تجربته الطويلة والثرية. ومن خلال بنائه الفكري والثقافي - على إيجاد مساحات مشتركة جديدة بين الحوزة والأكاديمية، بل دأبه وهمه على إيجاد لغة مشتركة بين المناهج الحوزوية والمناهج المعرفية الراهنة.

لقد نجح البرنامج الحوزوي والبرنامج الأكاديمي كثيراً في الكشف عن أوراق طالما عمل المستشرقون على طيها، وأخرج بطلبتها المتخصصين، فجاء منهم ليدوم عصرنا مستقلة، وهو أنجز ضمن سنيّ الأرحام، وخلفيتها لنا قلة الاطلاع على الآخر وشدة الخوف منه، وعمق ذلك التباعد والانفصال انحسار الوعي

«٤٦»

(تتمة) رسالة من السيد كمال الحيدري.

يحاول جاهداً أن يوحد التوأمة والتكامل، وهذه هي أهم سمات الروّاد
المبدعين، الذين لم تحكمهم الانفعالات الكاذبة، ولم تُدجنهم الرؤى الضيقة.

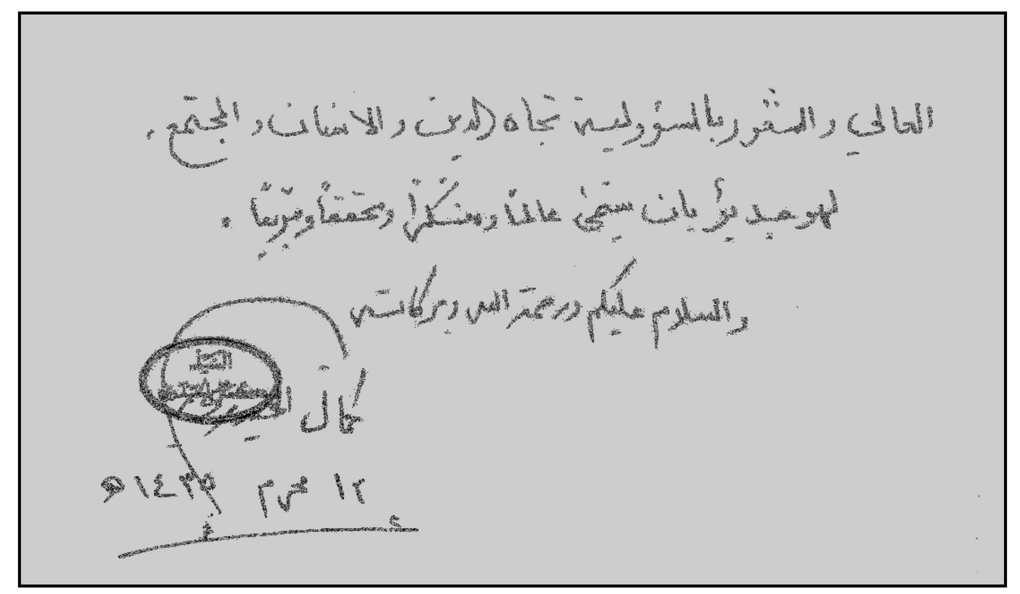
ثم أن ميزة الأخ الرفاعي، استطاع بأصالته وحداثته، بلباقته
وانفتاحه، بصبره وتواضعه، بإنسانيته، أن يترجم بشكل كامل معنى التقى
المطروحة، لأن نتاج فكري وثراء ثقافي، قد انصهرا كلاً في الوسطين
الديني والثقافي معاً. فيشكل بهما معبراً جسراً مستقبلياً للمتزاوجة الطريفة
والمواهب الفتية، ولتنطلق بصورة عفوية وطلقة نحو هدف تام
ليتواصل مع جيل قائم بالبحث والدراسة والحوار المثمر، فانتشل جيلاً من خطر
التقوقع أمام هيبة الماضي، وجذب الآيسين في الماضي الى روعة المستقبل.

وأما من ملاحظة على الصعيد الشخصي والتربوي، أنه لا يزال محتفظاً بجلباب
البراءة والطهارة والنقاء والوضوح والتواضع، وهو الجلباب الذي ألبسه إياه ذلك
الريف الهادئ، الذي تقدم منه في مطلع السبعينات، إلا أنه أخذ عن المدينة
المعاصرة حركتها وتداخلها وتشعبها وانفتاحها، دون أن يلوثه صخبها
وانشقاقها وانفلاتها، فامتزج ذلك الهدوء والنقاء الريفي بتلك الحركة والانفتاح
والتداخل المدني، فهو يعيش حياة ثرية ملونة، ويرى في المستقبل رخاءه وتوهجه

وأخيراً من كانت له مثل هذا النتاج الثري، وهذا التنوع الفكري
والثقافي والتحقيقي، وله مثل هذه الأنشطة الكثيرة، المتواصلة
لدوام محطته متعددة، وله مثل هذا الحس الإنساني

٢٥١

(تتمة) رسالة من السيد كمال الحيدري.



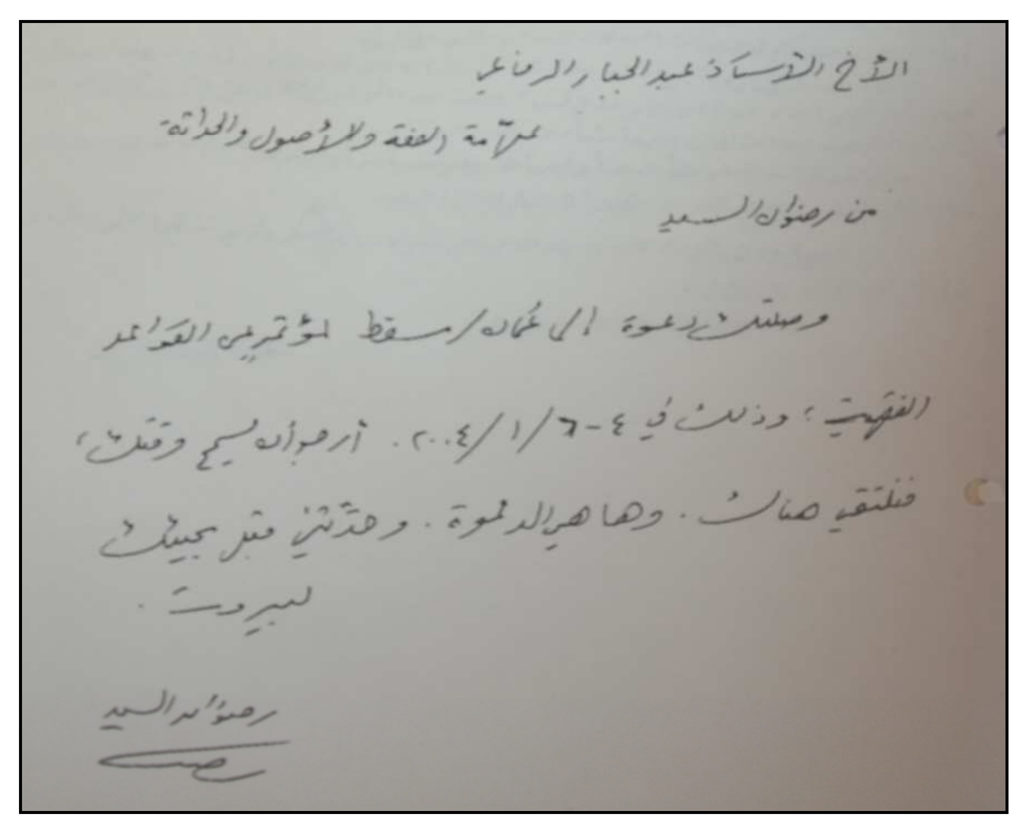
العالي والمقرر بالمسؤولية تجاه الدين والإنسان والمجتمع،
لهو جدير بأن يتحلى عالماً ومفكراً ومحققاً ومربياً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كمال الحيدري

١٢ محرم ١٤٣٣هـ

(تتمة) رسالة من السيد كمال الحيدري.



الأخ الأستاذ عبد الجبار الرفاعي

محرر مجلة الفقه والأصول والحداثة

من رضوان السيد

وصلتني دعوة إلى عمان/مسقط لمؤتمرين القواعد
الفقهية، وذلك في ٤-٦/١/٢٠٠٤. أرجو أن يسمح وقتك،
فنلتقي هناك. وها هي الدعوة. وهاتفي مقر بيتك في
بيروت.

رضوان السيد

رسالة من رضوان السيد.

من أغلفة كتب ومجلات الرفاعي





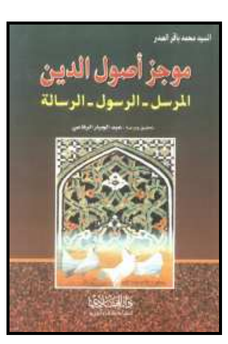


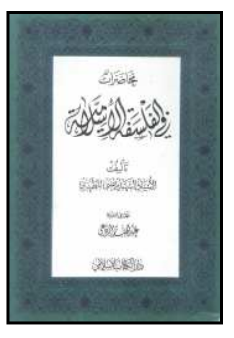


















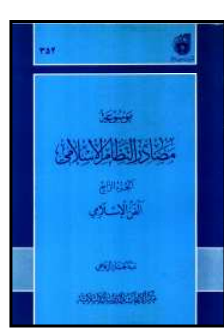
من أغلفة كتب ومجلات الرفاعي





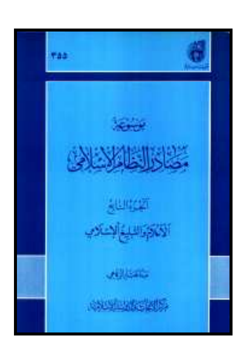


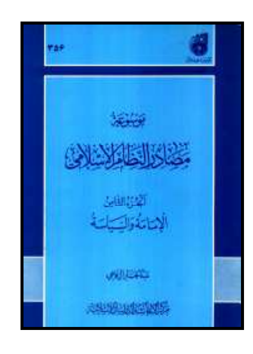


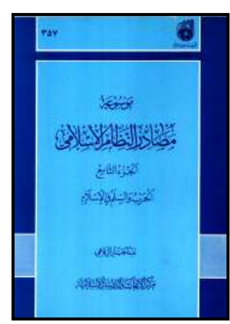


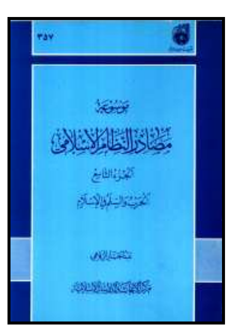






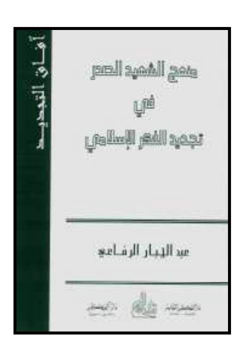








من أغلفة كتب ومجلات الرفاعي



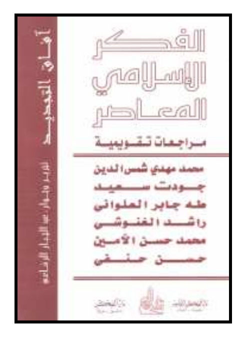






















من أغلفة كتب ومجلات الرفاعي

























من أغلفة كتب ومجلات الرفاعي





















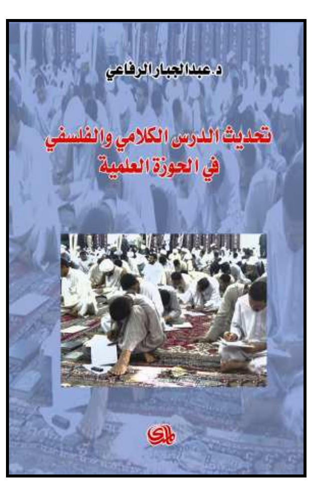


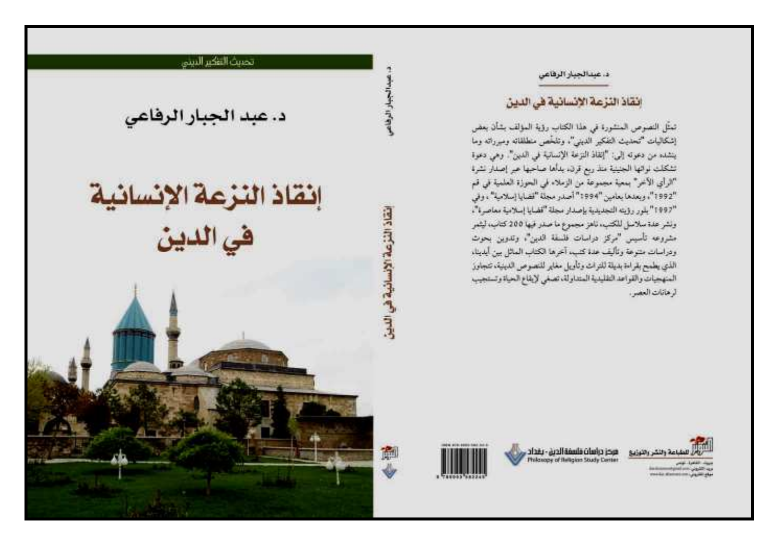


من أغلفة كتب ومجلات الرفاعي









المعهد البابوي في روما يقيم مجلة قضايا إسلامية معاصرة

تُعد مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" من بين أهم الدوريات الفصلية في تحديث الفكر الديني. منذ صدور عددها الأول "إشكاليات الفكر السياسي الإسلامي" قدمت المجلة التي يرأس تحريرها الدكتور عبد الجبار الرفاعي، المشغول في تكريس النزعة الإنسانية في الدين، مواداً جادة في "تحديث التفكير الديني".

في عام ٢٠١٢ أصدر المعهد البابوي في روما كتابه السنوي (يصدر سنوياً نهاية كل عام منذ ٦٠ سنة) مختصاً بالمجلة. انتخب مجموعة من نصوصها في مختلف أعدادها، وترجمها إلى الإيطالية والإنجليزية والفرنسية، وعدّها أهم دورية عربية في تحديث التفكير الديني في العقدين الأخيرين، بعدما رصد موضوعاتها وقارنها مع مختلف المجلات الفكرية والثقافية العربية.

لذلك خصص المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية في روما كتابه السنوي للعام ٢٠١٢ لإصدار ترجمات ايطالية وانجليزية وفرنسية لنصوص منتخبة مما نشر في مجلة قضايا إسلامية معاصرة في خمسة عشر عاما، وعنون الكتاب ب"الإشكاليات الراهنة للتفكير الديني وفق مجلة قضايا إسلامية معاصرة".

والنصوص المترجمة هي:

١- مجلة قضايا إسلامية معاصرة والأشكال يأت الراهنة للتفكير الديني. د. عبدالجبار الرفاعي.

٢- التجربة الدينية والنص: من التنزيل الأول إلى التنزيل الثاني. د. عدنان المقراني.

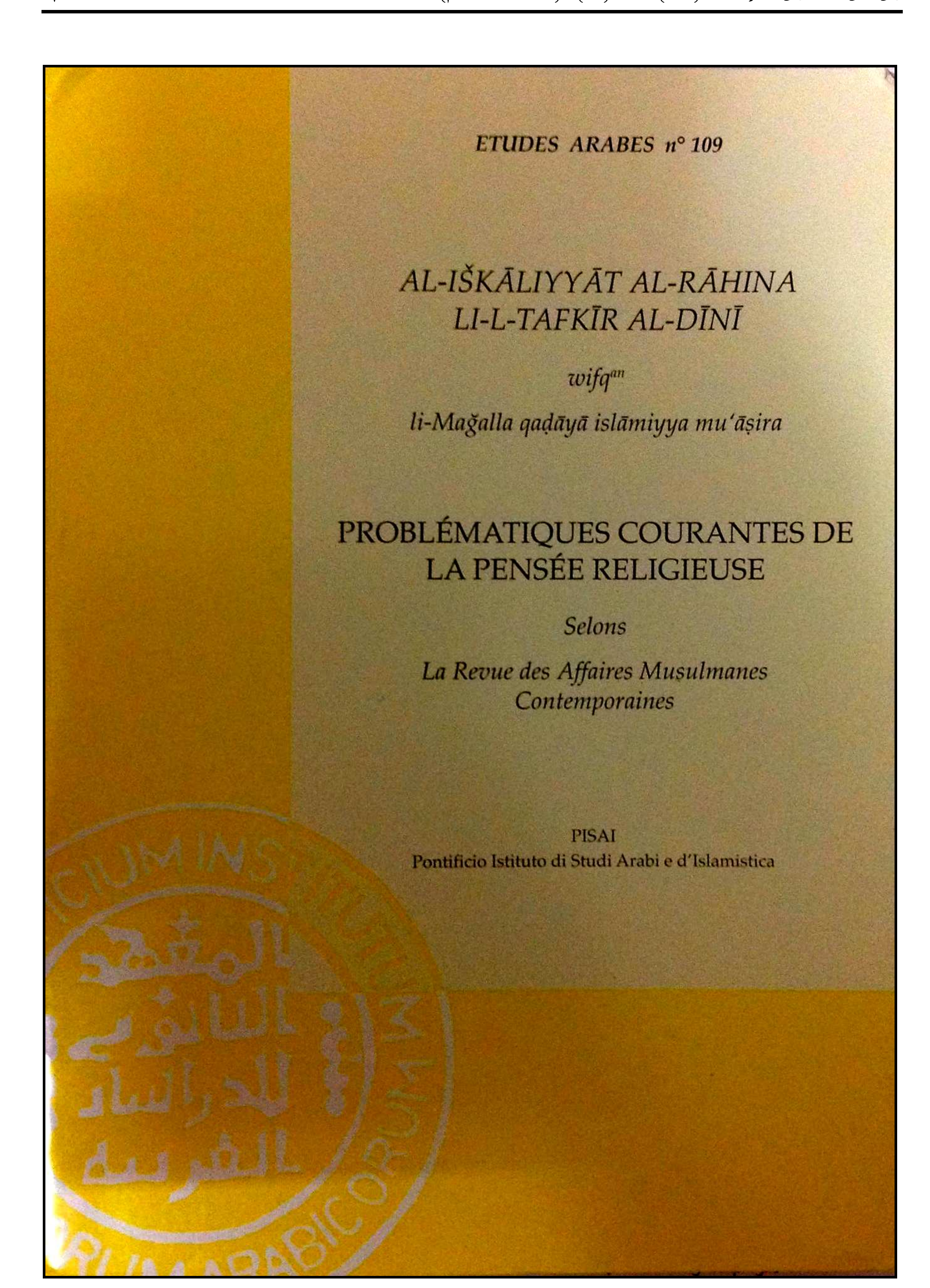
٣- الفاعليات الحاضرة والمغيبة في فهم النص الديني. د. وجيه قانصو.

٤- نقد فقهي لحكم الردة وعقوبة المرتد. د. طه جابر العلواني.

٥- الوفاء المزدوج لمبادئ الدين ولقيم الحداثة. د. عبدالمجيد الشرفي.

وقد صدر الكتاب في ٢٠٠ صفحة عن المعهد في روما.

هذا العدد المذكور هو العدد الأخير من "دراسات عربية". صدر العدد الأول منها عام ١٩٦٢: كان يقتصر على ملف فصلي من ٣٠ صفحة تقريباً، ويقوم على ترجمة لبعض النصوص العربية إلى اللغة الفرنسية، وكان لخدمة من رغبوا من تلامذة المعهد المتخرّجين أن يتابعوا بحثهم وجهدهم العلمي في مجال اللغة والعلوم الإسلامية. وابتداءً من العدد ٨، عدد عيد الميلاد ١٩٦٤، تحوّل الملف إلى كتيّب فعليّ يضم عدد من نصوص لمؤلفين عرب معاصرين. عام ١٩٨١، أصبحت دراسات عربية أداة مرافقة لدراسة الإسلاميات، بشكل كرّاس بموضوع واحد يصدر مرتين في السنة. وابتداء من عام ١٩٩٦، أصبحت كتاباً يصدر مرّة في السنة، ويضم نصوصاً عربية في موضوع واحد تقابلها الترجمات في الصفحة المقابلة. تتألف هيئة التحرير من بعض أساتذة المعهد. ❖


ETUDES ARABES n° 109

AL-IŠKĀLIYYĀT AL-RĀHINA
LI-L-TAFKĪR AL-DĪNĪ

wifqan

li-Mağalla qaḍāyā islāmiyya mu'āṣira

PROBLÉMATIQUES COURANTES DE
LA PENSÉE RELIGIEUSE

Selons

La Revue des Affaires Muṣulmanes
Contemporaines

PISAI
Pontificio Istituto di Studi Arabi e d'Islamistica

آثار وتحقيقات
محمد سعيد الطريحي (المطبوعة)

١. حنين بن اسحق - مطبعة دار النعمان ١٩٧٣، النجف الأشرف.
٢. الديارات النصرانية في الكوفة وضواحيها، الطبعة الأولى - روما - ايطاليا ١٩٧٨الطبعة الثانية. بيروت مطبعة المتني ١٩٨١. الطبعة الثالثة - أكاديمية الكوفة في هولندا ٢٠١٠.
٣. فضل الكوفة ومساجدها لابن المشهدي (القرن ٥ هـ) بيروت - دار المرتضى ١٩٨٠.
٤. فضل الكوفة وفضل أهلها - لمحمد بن علي الحسني الشجري (ت ٤٤٥هـ) بيروت - مؤسسة اهل البيت١٩٨١.
٥. رد الشمس للإمام علي - بيروت ١٩٨١.
٦. النبي حزقيال (ذو الكفل) سيرته ومشهده في بابل، دمشق ١٩٨١، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٩.
٧. أعلام النساء في الكوفة الغرّاء، دمشق ١٩٨١، الطبعة الثانية - هولندا - ٢٠١٠.
٨. سورة يس - دراسة قرآنية - باللغة الكجراتية، أحمد آباد (الهند) ١٩٨٢.
٩. روزه اسلام مه باللغة الأوردية - كراتشي (الباكستان) ١٩٨٢.
١٠. آل صندوق وتراجم أعلامهم، دمشق ١٩٨١.
١١. تاريخ مساجد الكوفة، حيدر آباد الدكن (الهند) مطبعة مجلس أنوار المعارف ١٩٨٢.
١٢. الدرة اليتيمة في فضائل السيدة العظيمة لعبد الله المير غني الحنفي المكي (ت ١١٩٣ هـ) بيروت ١٩٨٥.
١٣. المواهب والمنن في مناقب الإمام الحسن - لمحمد الجفري (ت ١١٨٦ هـ) بيروت ١٩٨٥.
١٤. قرة كل عين في مناقب الإمام الحسين - لمحمد الجفري (ت ١١٨٦ هـ) بيروت ١٩٨٥.
١٥. المواهب الغزار في مناقب حيدرة الكرار - لمحمد الجفري، بيروت ١٩٨٥.
١٦. الفتح والبشرى في مناقب الزهراء - للجفري - بيروت ١٩٨٥.
١٧. طيف الإنشاء أو رسالة الطيف لأبي الحسن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٣ هـ) بيروت ١٩٨٥
١٨. جنة الأسماء الممتازة في الأرض والسماء - للإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) بيروت ١٩٨٥.
١٩. فضائل فاطمة الزهراء عليها السلام - للحافظ ابن شاهين (ت ٣٨٥ هـ) بيروت ١٩٨٥ وترجمه للفارسية: إحسان قدس، دار نشر نيلو برك سنة ١٣٨٣ هـ. ش.
٢٠. غرر الحكم ودرر الكلم للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام جمع القاضي ناصح الدين عبد الواحد التميمي الآمدي (ت ٥٥٠ هـ) قدم له فخامة الرئيس اليمني القاضي عبد الرحمن الأرياني. بيروت - دار القارئ ١٩٨٦.
٢١. الإيضاح في أسرار النكاح للشيزري (ت ٧٧٤ هـ) بيروت ١٩٨٦.

٢٢. الفخرية في فقه الحنفية ـ للشيخ فخر الدين الطريحي (٩٧٩ ـ ١٠٨٥ هـ) بيروت ـ دار البلاغ ١٩٨٦.
٢٣. الضياء اللامع في شرح المختصر النافع ـ للشيخ فخر الدين الطريحي ـ ١٩٨٦.
٢٤. الأربعون حديثاً ـ للشيخ فخر الدين الطريحي ـ بيروت ـ دار البلاغ ١٩٨٦.
٢٥. جامعة الفوائد في إثبات حجية الظن ـ للشيخ فخر الدين الطريحي ـ دمشق ١٩٨٦.
٢٦. حسن المقصد في إثبات عمل المولد ـ للسيوطي ـ بيروت ١٩٨٦.
٢٧. الثغور الباسمة في فضائل فاطمة عليها السلام ـ للسيوطي ـ بيروت ١٩٨٧.
٢٨. إحياء الميت بفضائل أهل البيت ـ للسيوطي ـ بيروت ١٩٨٧وأعيد طبعه مع ترجمه إلى اللغة الأوردية إيران، طهران، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام. كما ترجمه للفارسية: إحسان قدس، ونشرته دار نيلو برك سنة ١٣٨٣ هـ. ش.
٢٩. دليل معجم رجال الحديث للإمام الخوئي ـ بومباي ١٩٨٣ ـ بيروت ١٩٨٦ ـ إيران ١٩٨٦.
٣٠. خزائن الكتب القديمة في الكوفة ـ بغداد ١٩٧٩ (ترجم ونشر بالفارسية في قم ـ إيران ١٩٩٠/ دار مجلة آئينه بزوهش).
٣١. المخطوطات العربية في مكتبة الوزيري (يزد ـ إيران) بيروت ١٩٨٩.
٣٢. العتبات المقدسة في الكوفة ـ بيروت ١٩٨٦، الطبعة الثانية ـ هولندا ٢٠١٠.
٣٣. تاريخ الأحمدي للأمير أحمد حسين بهادر خان الهندي ـ بيروت ١٩٨٨.
٣٤. الملحمة العلوية للشيخ جعفر عبد الحميد الهلالي ـ بيروت ـ مؤسسة الوفاء ١٩٨٨.
٣٥. مختصر جواهر الكلام في الحكم والأحكام ـ للآمدي (ت ٥٥٠ هـ) بيروت ١٩٩٠ دار العلوم.
٣٦. تحية القاري لصحيح البخاري لمحمد علي عز الدين (ت ١٣٠٠هـ) بيروت ١٩٩٧ دار المرتضى. والطبعة الثانية دار الكتاب الإسلامي، إيران، قم.
٣٧. دولة النجف ـ دار الموسم هولندا ٢٠٠٤، الطبعة الثانية النجف، دار النبراس ٢٠٠٤.
٣٨. أجراس كربلاء (المجموعة الأولى) بيروت ـ دار البلاغ ١٩٨٩.
٣٩. صوت الولاء في مدح الرسول وآله الأولياء لأحمد رشيد مندو ـ دمشق ١٩٩٠.
٤٠. الهيام بين العراق والشام (دمشق في الشعر العراقي) ـ الدار العالمية ـ دمشق ٢٠٠٥. الطبعة الثانية ـ هولندا ـ ٢٠١١.
٤١. المسيحية في بلاد الشام مع عناية خاصة بحريق دمشق سنة ٧٤٠هـ ـ ليدن ـ هولندا ٢٠٠٢. الطبعة الثانية دمشق ٢٠٠٨، دار التكوين.
٤٢. تاريخ الأديان قديماً وحديثاً ـ جامعة روتردام الإسلامية ـ هولندا ١٩٩٩.
٤٣. مسلمون لا طوائف (سوسولوجيا الصراع الديني بين السنة والشيعة) ـ بلجيكا ٢٠٠٥. الطبعة الثانية بيروت دار البلاغ ٢٠٠٧.
٤٤. تحفة الراغب في سيرة جماعة من أعيان أهل البيت الأطائب لشهاب الدين القليوبي (ت ١٠٦٩هـ) بلجيكا ١٩٩٥. الطبعة الثانية بيروت ٢٠٠٨.

٤٥. النخبة العلية في السادة العلوية لمحمود أنسي ابن السيد محمد الحجازي الدمياطي (ت بعد ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م). بيروت ٢٠٠٨.
٤٦. المآثر النفيسة في مناقب السيدة نفيسة - القاهرة ١٩٨٥. بيروت ٢٠٠٨.
٤٧. دلائل التعظيم لآل المصطفى الكريم للسيد محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي (المتوفى سنة ١٣٢٨ - ١٩٠٩م) أمريكا - مشيغان ١٩٩٧.
٤٨. الرسالة لذوي الألباب ليعلموا حقوق العترة والكتاب لأحمد بن زين العابدين الجعفري - اندونيسيا (جاوة الوسطى) ١٩٩٧.
٤٩. هؤلاء الرجال من العراق - لندن ٢٠٠٠.
٥٠. من آفاق الثقافة التركمانية - ألمانيا (١٩٩٩ - ٢٠٠٠م).
٥١. الشيعة في أفريقيا (تنزانيا ٢٠٠٣).
٥٢. تاريخ العلاقات العربية - الهولندية - لاهاي (هولندا) ١٩٩٤.
٥٣. خريدة عقد اللآل في التوسل للنبي بالآل للشيخ أبي الثناء سيدي محمود قابادو الشريف الأندلسي - بروكسل ١٩٩٩. بيروت ٢٠٠٨.
٥٤. الفوز بالمراد في تاريخ بغداد للأب أنستاس ماري الكرملي - هولندا ٢٠٠٢م.
٥٥. أعلام الهند (مجلدان) - هولندا ١٩٩٥. بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٥، القاهرة، مكتبة مدبولي ٢٠٠٨.
٥٦. ملحمة الرامايانا الهندية - بومباي ١٩٨٥. دمشق - دار نينوى ٢٠٠٨.
٥٧. تحية الهند - دمشق ١٩٨٨ - طبعة ثانية ١٩٨٩ تقديم الشاعر: عمر ابو ريشة.
٥٨. أوراق الذهب (المعادن اللجينية في المحاسن الوهبية الحسينية) تأليف : السيد محمد عباس التستري الجزائري اللكهنوي - بومباي ١٩٨٩، بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٧.
٥٩. الشيعة في العصر المغولي - بومباي ١٩٨٩. هولندا ٢٠٠٥.
٦٠. تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين - للمليباري المعبري (ت بعد ٩٩١هـ بيروت ١٩٨٥ - دار الوفاء.
٦١. عجائب الهند بره وبحره وجزائره - لبزرك بن شهريار الرامهرمُزي (صنفه حدود ٣٣٩ هـ) بيروت ١٩٨٦.
٦٢. مصادر الدراسات الهندية - ليدن - هولندا ١٩٩١. بيروت دار البلاغ ٢٠٠٧.
٦٣. أسد الله غالب شاعر الهند - هولندا ٢٠٠٥
٦٤. ملوك حيدر أباد (تاريخ المملكة القطب شاهية) - هولندا ٢٠٠٥.
٦٥. ديانة السيخ - بيروت ١٩٩٦.
٦٦. الهندوسية تاريخها وتقاليدها - هولندا ١٩٩٥.
٦٧. تيبو سلطان أسد ميسور - هولندا ١٩٩٥.
٦٨. طاغور شاعر الهند الملهم (دراسة - مختارات) هولندا ١٩٩٥.
٦٩. تاريخ مملكة أوده - هولندا ١٩٩٤.

٧٠. الكتابات الإسلامية في الهند (مجلدان) ـ هولندا ١٩٩٣. هولندا ٢٠٠٩.
٧١. المملكة البهمنية (٧٤٨ ـ ٩٣٢ هـ) ـ ليدن ـ هولندا ١٩٩٨.
٧٢. المملكة النظام شاهية (وأسرار الإسماعيلية المستترة في الهند) ـ ليدن ـ هولندا ١٩٩٨.
٧٣. المملكة العادل شاهية ـ ليدن ـ هولندا ١٩٩٨.
٧٤. مملكة كجرات الإسلامية ـ ليدن ـ هولندا ١٩٩٧.
٧٥. أوصاف الأشراف للشيخ نصير الدين الطوسي ـ الهند ١٩٨١. هولندا ٢٠٠٤.
٧٦. فضائل أمير المؤمنين لأحمد بن حنبل ـ بلجيكا ١٩٩٣.
٧٧. اليهودية والمسيحية في المراجع العربية ـ هولندا ١٩٩٩.
٧٨. الشيخ أحمد الوائلي أمير المنبر الحسيني ـ بيروت، دار المرتضى ٢٠٠٦، الطبعة الثانية دار مدين، قم ٢٠٠٧.
٧٩. وسيلة المولم المرفوعة إلى سيد ولد آدم محمد المبعوث إلى كافة العرب والعجم للشيخ عبد الله بن علي الأنف الإسماعيلي (المتوفى ٨٨٢ هـ) بلجيكا ١٩٩٦.
٨٠. المخطوطات العربية في مكتبة المدرسة الفيضية ـ إيران. هولندا.
٨١. المخطوطات العربية في مكتبة السيد الكلبايكاني ـ إيران. هولندا.
٨٢. المخطوطات العربية في مكتبة مسجد أعظم ـ إيران. هولندا.
٨٣. المنتخب للطريحي (كلمات وقصائد عاشورية) (مجلدان)، بيروت، دار المرتضى.
٨٤. فضل أمير المؤمنين للحافظ تقي الدين علي بن الحسن الشافعي، بيروت ٢٠٠٨.
٨٥. الأحمدية القاديانية في ميزان الحق. هولندا ٢٠٠٨.
٨٦. أساطير أفريقية (مراجعة)، دار نينوى، دمشق ٢٠٠٧.
٨٧. السيخ تاريخهم وعقائدهم، دار نينوى، دمشق ٢٠٠٩.
٨٨. حكم النبي محمد (ص) لتولستوي (مراجعة وتقديم)، دارنينوى، دمشق ٢٠٠٩.
٨٩. منشآت السلاطين، هولندا ٢٠٠٨.
٩٠. فلوس الهند (قصة وقف أودة : الوقف الملكي الشيعي للعتبات المقدسة في النجف وكربلاء). لندن ١٩٩٩.
٩١. كنوز العلويين ومآثر الفاطميين (كرامات آل محمد)، بيروت ٢٠٠٨.
٩٢. موسوعة الديوان (في التراث العراقي)، (٤ أجزاء) لاهاي ٢٠٠٠.
٩٣. النسيج والسجاد الصفوي في مرقد الإمام علي (ع) في النجف الأشرف، هولندا ٢٠٠٩.
٩٤. إمارة رامبور، هولندا ٢٠٠٩.
٩٥. التنبؤات البابلية، دار نينوى ٢٠٠٩.
٩٦. السحر المصري، دار نينوى ٢٠٠٩.
٩٧. ألحان الإيمان وأناشيد أمناء الرحمن، بيروت، دار البلاغ ٢٠٠٩.
٩٨. تاريخ الأسرة الإريانية في اليمن وسير أعلامها ـ أكاديمية الكوفة ـ ٢٠١٢.

٩٩. سبحة المرجان في آثار هندستان ـ للشيخ غلام علي ازاد الحسيني البلكرامي (١١١٦ ـ ١٢٢٠هـ) هولندا ٢٠١٢.

١٠٠. سلامة الروح وراحة الجسد ـ التجارب الصحية والغذائية للمهاتما غاندي ـ هولندا ـ ٢٠١٢.

١٠١. الدكتور محمد حسين علي الصغير ـ عالماً ومفكراً وأديباً ـ هولندا ٢٠١٢.

١٠٢. علي إمام الأمم ـ مجلدان ـ ٢٠١٣.

١٠٣. ذكرى الشيخ محمد كاظم الطريحي ـ هولندا ٢٠٠٤.

١٠٤. هكذا عرفوا جعفر الخليلي ـ هولندا ـ ٢٠٠٧.

١٠٥. اللواتية الحيدرابادية في سلطنة عمان ـ هولندا ٢٠٠٨.

١٠٦. الرحلات الهندية ـ هولندا ـ ٢٠١٣.

١٠٧. الشيعة الأكراد (الكورد فيلية) ـ هولندا ٢٠١٣، ط ٢ دار نينوى ـ دمشق ٢٠١٣.

١٠٨. الحساب الهندي ـ مومباي ٢٠١٠.

١٠٩. الفاطميون والعالم ـ ٣ أجزاء ـ هولندا (١٩٩٩ ـ ٢٠٠٨).

١١٠. مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي ـ هولندا ٢٠٠٧.

١١١. مسيحيون وشيعة ـ مقاربات في اللاهوت والميثولوجيا ـ ، تقديم : ميشال جحا ، بيروت ـ هولندا ٢٠١٢.

١١٢. المساجد التاريخية في الكوفة ـ نشر: أمانة مسجد الكوفة ٢٠١٢.

١١٣. الانساب الفاطمية ـ بيروت ـ هولندا ـ ٢٠١٢.

١١٤. عوالم السحر وعلم الحروف والتنبؤات ـ بيروت ـ هولندا ٢٠١٢.

١١٥. غوته شاعر ألمانيا الأعظم ـ دار نينوى ـ دمشق ـ ٢٠٠٩.

١١٦. معالم الشام وأعلامها (الشيعة في بلاد الشام) ٣ مجلدات، هولندا٢٠١٠.

١١٧. الملكية العراقية ـ هولندا ٢٠١٤.

١١٨. جمهورية الزعيم (عبد الكريم قاسم) هولندا ٢٠١٤.

١١٩. بغداد (الحضارة والعمران) هولندا ٢٠١٤.

١٢٠. شيعة الكويت، مع وثائق نادرة عن تاريخ الكويت، هولندا ٢٠١٤.

١٢١. مواسم الحسين، هولندا ٢٠١٤.

١٢٢. كربلاء مدينة الفداء، هولندا ٢٠١٤.

١٢٣. مصطفى جمال الدين (الكتاب التذكاري) هولندا ٢٠١٤.

١٢٤. السيدة الزهراء (الكتاب التذكاري) هولندا ٢٠١٤.

